

مكتبة
القراء العرب

المهدية والسودان المصري

Mahdism & The Egyptian Sudan

بقلم
الميجراف. أر. ونجت



ترجمة

محمد المصطفى حسن





دار حزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان

ناشرون وموزعون وحقلا • دور نشر

**المهدية
والسودان المصري
Mahdism & The Egyptian Sudan**

المهدية والسودان المصري

Mahdism & The Egyptian Sudan

بقلم
الميجر إف. آر. ونجت
(١٨٩١)

قام بتقديم الطبعة الثانية
بي. إم. هولت
(١٩٦٨)

قام بنقله إلى العربية
محمد المصطفى حسن عبد الكريم

الكتاب : المهدية والسودان المصرى

المؤلف : محمد المصطفى حسن

رقم الإيداع : ١٦١١٩ / ٢٠٠٩

الطبعة الأولى

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

ردمك : ١٥٥ - ٥٤ - ٩٩٩٤٢

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة ولا يسمح بإعادة

نشر هذا العمل كاملا أو أى قسم من أقسامه ، بأى شكل من

أشكال النشر إلا بإذن كتابى من المؤلف

الناشر : دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة.

ت : ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩ +)

التوزيع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

azzaph@yahoo.com

بريد إلكترونى

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم / الميجر جنرال إف . جرنفل
سردار الجيش المصري
أغسطس ١٨٩٠

لقد قِيلَ الكثير وكتب عن المهديّة. ولكن من المشكوك فيه أن تكون الطبعة المعقّدة لهذه الحركة الدينيّة، مثلها مثل الحركات الدينيّة الأخرى كالسنوسية والمرغنية، مفهومة وواضحة لدى جمهور الشعب.

لكن ضوءاً معقولاً قد جاء لإيضاح بعض ما غمض من الأمور، وذلك عندما تم الاستيلاء في توشكي على دفتر يحتوي على عدد من القرارات والقوانين وخطابات من الراحل المدعو بالمهدي - محمد أحمد - ومن خلفته عبد الله التعايشي، وكذلك من المعلومات التي تم الحصول عليها من الأعداد الكبيرة من الأسرى الذين قبض عليهم في تلك الموقعة.

من هنا جاءت فكرة لجمع أهم ما جاء في تلك الوثائق ووضعها بصورة مقروءة، ثم تقديمها حسب تدرجها الزمني شاملة تلك الأحداث التاريخيّة التي جرت مؤخراً في السودان ولنحصل، حسبما يتاح لنا، على سرد شامل لها.

ومؤلف هذا الكتاب هو رجل مؤهل تماماً للقيام بهذا العمل. فعن طريق معرفته باللغة العربيّة تمكن من استجواب الأسرى بنفسه وكذلك استجواب اللاجئين وكل من أتى من السودان، مثلما تمكن من التأكد من صحّة ترجمة تلك الوثائق العربيّة، التي أتاحت له بصفته مديراً للمخابرات الحربيّة بالجيش المصري، والتي شكلت معظم ما جاء بهذا الكتاب.

ولقد تم نشر أحداث الكثير مما جرى في الحملات الأخيرة وتسجيلها للتاريخ لكن الهدف من وضع هذا الكتاب هو وصف الحوادث التي جرت في مختلف أنحاء السودان، والتي أصبحت الآن جزءاً من التاريخ. ورغم أن الحالة الراهنة في السودان تجعل من الصعب التأكد من صحّة الأحداث التي وردت هنا، إلا أن الاهتمام الكبير بمقارنة أقوال الشهود والأسرى بما جاء في الوثائق الرسميّة هو الذي أدى للحصول على سرد أمين للحقائق وتاريخ الأحداث في السودان منذ قيام المهديّة وحتى وقتنا الحالي.

وليس من الصعب على من له خبرة ببلاد الشرق أن يفهم ما جاء بالكتاب. فلقد جرت تلك الحوادث على مدي عشر سنوات، كما أنها جرت في أنحاء شاسعة من البلاد كان معظمها مقلداً أمام تأثير الحضارة وأمام الرحالة والسواح. ولقد قام المستر ستانلي، في كتابه الأخير، بوصف ما جرى

في الأقاليم الاستوائية. ولقد تم إدخال ملاحظاته، التي أوردتها، في صفحات الكتاب الحالي مما يعطي صورة متكاملة لهذا السرد. فقد كان هناك، على ما نذكر، ما بين ٣٠.٠٠٠ و ٤٠.٠٠٠ من جنود الحكومة بالسودان عندما بدأت حركة المهدي في الظهور. ولكن لم ينجح من بين هؤلاء في الوصول لمصر غير بضعة آلاف فقط. أما الباقون فقد صرع الكثيرون منهم في محاولتهم لتثبيت سلطة صاحب السمو الخديوي في السودان. وعن مصير الآخرين، في حاميات كسلا والأبيض وغيرها، تم إدراج تقارير صادقة عما حدث لهم، مما سيدعو المصريين للامتلاء بالفخر لما قام به مواطنوهم هناك من أعمال بطولية، وخاصة أثناء حصارهم، وهو الأمر الذي كان غير معروف لديهم حتى وقت قريب. كما لم يكونوا مدركين لمدي بطولتهم التي أبدوها.

أما ما جري من الخرطوم، وخاصة في الأيام البطولية الأخيرة للجنرال غردون ودفاعه الشجاع عنها، فلن نعرف عنه بدقة الشيء الكثير. ولكن من المعتقد إن الوصف الذي جاء في هذا الكتاب، والذي جمع من عدة مصادر، يمكن اعتباره صحيحاً من ناحية عامة.

وربما نجد أن كثيراً من المعارك التي خاضتها القوات المصرية في السنوات الأخيرة قد نالت حظاً من الاهتمام قد لا تستحقه. ولكن السبب في ذلك الاهتمام ربما يعود إلى الوضع الفريد الذي كانت تحتله القوات المصرية في السودان. فقبل سبعة سنوات تم إعادة تنظيم تلك الجيوش بواسطة حفنة من الضباط البريطانيين، تحت رعاية لا تفتقر للجنرال السير إلفلين وود، مما لا يسع أولئك الرواد الذين قاموا بهذا العمل سوى الشعور بالفخر من جراء النتائج التي تمخضت عن جهودهم تلك. وعند وصف الحملات الأخيرة لم تدرج بوضوح خدمات الضباط المصريين وقد تم حذف أسماؤهم من باب الاختصار، وليس من باب التهوين من شأن ما قاموا به من خدمات كانت بارزة للعيان في كثير من المواقف.

كذلك، ولأسباب واضحة، تم حذف المسائل السياسية، التي تظهر من وقت لآخر، ولم يتم بحثها هنا.

وقد هدف هذا الكتاب إلى إدراج الحقائق بأكبر قدر متاح من الدقة التي تسمح بها المعلومات التي توفرت. ومن ثم سيتمكن القارئ من الوصول للإستنتاج الصحيح.

وبهذه الملاحظات الموجزة فأنتني أمل أن تلقي الصفحات التالية الضوء على التاريخ الحربي للسودان منذ إخلاله، وتربط حلقاته ببعضها البعض، وبأنها ستكون، في الوقت الراهن على الأقل، مصدراً مفيداً ومرجعاً للمعلومات في غياب أي مصدر شامل وموثوق به.

ميجر جنرال ف. جرنفل

سردار الجيش المصري

أغسطس ١٨٩٠

مقدمة

أراد المؤلف من كتابه هذا تقديم سرد متصل للأحداث المرتبطة بتلك الثورة العامة والهامة التي قامت ضد الإسلام التقليدي، وضد السلطة الحكومية المعترف بها في السودان، والتي يمكن أن نطلق عليها اسم المهدية عموماً. من هنا جاءت رغبة المؤلف لتوضيح هذا الأمر الشائك المعقد وجعله شيئاً مفهوماً للقارئ العادي.

لقد ساعده مركزه الوظيفي الرسمي في مصر، من ناحية، على الوصول لمعلومات خافية عن الجمهور في ذلك الوقت ولا يجد إليها سبيلاً. ومن الناحية الأخرى، فقد أستطاع أن يعرف تماماً مدي الغموض، وحجم وكمية المعلومات المغلوطة التي شابت أفكار الكثيرين من الناس، وهي الخاصة بطبيعة تلك الحركة وتفاصيل الأحداث المتصلة بها.

إضافة لذلك، فإن السؤال الهام المتعلق بمستقبل هذه الأقاليم الشاسعة في السودان لا بد أن يؤخذ في الاعتبار يوماً ما. لذا فإن من المؤمل بأن متابعة دقيقة للأحداث، خلال السنوات القليلة الأخيرة، ستمكن الجمهور من الوصول لرأي سليم عن الوضع الحقيقي للبلاد وهو الرأي الذي يمكن البناء عليه للوصول للقرار الصحيح.

لقد بنيت المعلومات التي ستجيء في الكتاب من مصادر متعددة كما يلي:

- ١- عن تاريخ المهدية - من العديد من الرسائل الأصلية والمكاتبات والتي تجد طريقها من وقت لآخر لداخل مصر. ومن الحوارات التي عقدت مع عدد من قادة المذاهب الدينية الإسلامية في البلد، ومن أقوال الرجال الذين كان لهم دور في أحداث الثورة السودانية ممن لهم معرفة تامة بما حدث.
- ٢- عن الحوادث المبكرة المرتبطة بنشوء الثورة - وذلك من إفادات الضباط وغيرهم من الذين تمكنوا من الهرب، ومن الإفادات والتقارير الرسمية التي تم نشرها من قبل.
- ٣- عن الحصار الطويل للخرطوم وسقوطها - جاءت المعلومات من: (أ) دفتر يوميات وإفادات بعض من حوصروا. (ب) من التقارير الرسمية لحملة الإنقاذ لعامي ١٨٨٤/٨٥. (ج) من إفادات بعض كبار الأمراء وغيرهم من الذين اشتركوا في الحصار. (د) ومن وقائع المجلس العسكري الذي أنعقد لمحاكمة ذلك الضابط الذي كان مسئولاً عن الدفاع عن ذلك الجزء من الاستحكامات الذي تمكن الثوار من الدخول خلاله للخرطوم^(*).

(*) من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن تقريراً مفصلاً عن حصار وسقوط الخرطوم، كتبه نصحي باشا بمساعدة عدد من الضباط الذين تمكنوا من الهروب من الخرطوم أولخر عام ١٨٨٥، قد وصل ليد المؤلف، بعد حصوله على إذن خاص من سمو الخديوي.

٤- عن الحوادث التي جرت في السودان بعد سقوط الخرطوم وبعد موت المهدي - من إفادات الضباط وغيرهم الذين كان لهم دور في تلك الأحداث، ومن المعلومات التي حصلت عليها إدارة المخابرات في سواكن ووادي حلفا، ومن العديد من الوثائق الأصلية التي حصلنا عليها من أم درمان.

٥- عن أحداث دارفور - من إفادات الضباط وغيرهم ومن خطابات أصلية لسلطين بك...الخ.

٦- عن أحداث بحر الغزال - من إفادات أدلى بها أحد الضباط الذين كان حاضراً أثناء الثورة في ذلك الإقليم والذي استسلم مع لبتن بك.

٧- عن أحداث مديرية الاستوائية - من اليوميات المبكرة (باللغتين العربية والإنجليزية) لأمين باشا وضباطه، ومن كتابات المستر هـ. أم. ستانلي، ومما كتبه العديد من الضباط الوطنيين والموظفين الذين عادوا من تلك المديرية.

٨- عن أحداث الجبهة الحبشية وإتقاز الحاميات المصرية - من الضباط المصريين الذين أشرفوا على عملية الإخلاء للحاميات، ومن خطابات عدد من أمراء تلك الجهة.

٩- عن إخلاء هرر - من مذكرات رضوان باشا.

١٠- عن أحداث جبهة النيل وسواكن ودور الجيش المصري الذي لعبه هناك - من التقارير الرسمية الخاصة بهما ومن خبرة شخصية.

١١- عن السنوسي والمذاهب الدينية الأخرى - من علماء بارزين للدين لهم ارتباط وثيق بتلك المذاهب، ومن مكاتبات أصلية.

إن صعوبة إعداد عمل بهذه الصورة، وليعطي فكرة واضحة عما جري من أحداث في مختلف أنحاء السودان، سنة بسنة، وفي نفس الوقت ليظهر بوضوح بأن الثورة قد قامت في كل مديرية علي حدة لما لها من خصائص تتفرد بها عن غيرها من المديريات، إلا أن الثورة في مجملها كانت تعتمد على نجاح أو فشل الحركات التي قامت في أنحاء البلاد المختلفة والتي تبعد عن بعضها البعض بمئات الأميال. وحتى يتمكن القارئ من متابعة ما جرى عموماً في أي فترة زمنية معينة فأننا عرضنا الوضع العام سنة بعد سنة رغم ما في ذلك من قطع لسرد الأحداث في المنطقة المعنية. ولتسهيل الأمر فقد أوضحنا الوضع في مختلف المديريات عن طريق إبراد خرائط مفصلة للوضع بنهاية كل سنة، والتي منها يتضح الانتشار التدريجي للثورة المهدية. وإنني أمل في أن تساعد هذه الطريقة علي تسهيل فهم الأحداث المتصلة ببعضها البعض للقارئ العادي.

لقد قام المستر فلوير، زميل الجمعية الملكية الآسيوية، بتقديم مساعدة قيمة وتعاون طيب في إنجاز الأبواب الأولى لهذا العمل. فله من المؤلف كل العرفان والشكر.

وكذلك للميجر ماريوت (من مخابرات الأميرالية) والقائمقام دالتون (مخابرات مكتب الحرب) واللذان قاما، عند غياب المؤلف عن إنجلترا، بتقديم مساعدة قيمة له: الأول بتصحيح

مسودات المطبعة، والثاني بمراجعة الخرائط. وتحت إشرافهم الدقيق ثم تصحيح كتابة كل الأسماء المحلية للأماكن المختلفة وللأشخاص وقد بنى ذلك على الطريقة التي يتبعها مجلس الجمعية الجغرافية الملكية بلندن.

وإذا ما تم اعتبار هذا الكتاب مكملاً أو متمشياً مع بقية الأعمال التاريخية التي كتبت عن هذا الموضوع، فإن الكاتب على ثقة من اعتبار عمله هذا إسهاماً بسيطاً عن تاريخ السودان يساعد على وضع تاريخ كامل له إن عاجلاً أم آجلاً بواسطة مؤرخين آخرين. أما في الوقت الحالي فإنه قد يكون مفيداً كمرجع للأحداث.

مقدمة آر. ونجت،

القاهرة

أول يناير ١٨٩١

ملحوظة :

بعد كتابة هذا المؤلف، فقد تمت استعادة إقليم طوكر من أيدي المهدويين وتمركزت فيه الآن حامية عسكرية مصرية. وسنجد في الملاحق بعض التفاصيل المتعلقة بهذه الحملة عليها مثلما سنجد بعض مقتطفات من الحجم الهائل للمراسلات العربية التي تم الاستيلاء عليها في مصر عثمان دقنة والمتعلقة أساساً بالأحداث التي جرت في عامي ١٨٨٣ و ١٨٨٤. وقد تم عقد معاهدة رسمية مع الإيطاليين تحدد مناطق نفوذهم وأوضحت هذه الحدود في الخريطة المرفقة باسم " خريطة حوض النيل " .

آر. ونجت،

القاهرة،

أول مايو ١٨٩١.

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم:

الدكتور / ب.إم. هولت - ديسمبر ١٩٦٦

ولد فرانسس رجنالد ونجت في يونيه ١٨٦١، وكان أصغر أبناء أحد رجال الأعمال في جلاسجو المتخصص في تجارة المنسوجات. وتوفي والده عندما كان في السنة الأولى من عمره. وقامت والدته بالإشراف عليه في جيرسي حيث تلقى تعليمه فيها. ولرغبته في سلك العسكرية فقد التحق بالأكاديمية العسكرية الملكية في وولوتش بنهاية عام ١٨٧٨. وبالتالي سار على خطى اثنين من الرجال الذين سيرتبط اسميهما باسمه وهما الجنرال غردون واللورد كتشنر، وقد كان كلاهما من خريجي وولوتش.

وفي عام ١٨٨٠. أدرج اسمه في الغازية كملازم ثاني في المدفعية الملكية. وخلال الثلاثة أعوام التالية خدم في الهند وعدن.

بدأت صلاته الطويلة بمصر والسودان عندما عرض عليه السير إيفلين وود في أبريل من عام ١٨٨٣ وظيفة لدية، فقد كان السير وود. كسردار للجيش المصري، يبني جيشاً مصرية جديداً ليحل محل ذلك الذي قام الاحتلال البريطاني لمصر بتسريحه في العام السابق. وكان الملازم ونجت قد تعلم شيئاً من العربية عندما كان في عدن، فواصل الآن ما كان قد بدأه بتحسين قدرته اللغوية ومن ثم أرسى قواعد مستقبله في المخابرات الحربية. وبعد إجازة مرضية قضاها في إنجلترا عاد إلي القاهرة في ديسمبر ١٨٨٣. حيث عمل ضمن فريق السردار.

كان هذا وقت الثورة المهدية وحروباتها في السودان. وفي يناير ١٨٨٤. مر الجنرال غردون بالقاهرة قبل توجهه في مهمته الغامضة والتي انتهت بكارثة الخرطوم. وعندما حوضر الجنرال غردون، بعد بضع شهور من وصوله للخرطوم، في العاصمة السودانية بواسطة قوات المهدية. وعندما قامت الحكومة البريطانية، على مضض، بالتصديق بإرسال حملة لإنقاذه. قام ونجت بمصاحبة وود، الذي كان مسئولاً عن خطوط لإمراء والاتصال بالحملة. تلي ذلك تولي وود مسئولية رئيس الأركان للجنرال بولر، الذي قاد فريقاً للتعزيز، وأصطحب معه ونجت في فبراير ١٨٨٥ حتى الجققول في الطريق المقرر للتقدم نحو الخرطوم. لكن مصير تلك الحملة كان تصاعداً. فقد وصلت البواخر المرسله لإنقاذ غردون متأخرة لثلاثة أيام (كان قد قتل قبلها)، أما القوات الأرضية فقد هرسها الأنصار هرساً. وعند تراجع القوات البريطانية - طابور الصحراء - فقد إنهارت كل ترتيبات النقل والترحيل لها. ومما لا شك فيه أن القوات البريطانية التي كانت معسكرة بمصر قد شعرت بإهانة عظيمة لما لحق بهم على أيدي الأنصار.

وفي هذه الأثناء حل السير فرانسيس جرنفل محل الجنرال وود كسر دار للجيش حيث أصبح ونجت (بعد فترة قصيرة قضاها في إنجلترا) مساعداً للمسكرتير العسكري في مايو ١٨٨٦.

وكان قد انغمس في عمل المخابرات قبل ذلك، عند اتصاله بحملة الإنقاذ. وفي بواكر عام ١٨٨٧ تم تعيينه كمساعد للقائد العام للاستخبارات. ثبتت الحدود بين مصر والدولة المهدية، التي صار يحكمها الخليفة عبد الله، في ضواحي وادي حلفا، أما ميناء سواكن فقد أُسُتمر كمنطقة معزولة تابعة للخديوي على ساحل البحر الأحمر. وقد قام ونجت بتنظيم عمل المخابرات على الحدود بإقليم النيل ودمج عمله في المخابرات بعمله كمساعد للقائد العام للتجنيد.

وفي عام ١٨٨٩ حظي ونجت بلقب "مدير المخابرات الحربية" وظل يعمل بتعاون وثيق مع السلطات الإدارية والعسكرية، وكان يقضي وقتاً طويلاً في كل عام بالأقاليم الحدودية، وقد كان حاضراً عندما قامت قوات المهدية، تحت قيادة عبد الرحمن النجومي، بعبور الحدود (المصرية) وهزمت في معركة توشكي في ٣ أغسطس ١٨٨٩. شكلت هذه الهزيمة نقطة التحول للتاريخ العسكري للمهدية، فقد تلتها في فبراير ١٨٩١ حملة ناجحة تحركت من سواكن ضد عثمان دقنة، فاقتلعت قوات المهدية بساحل البحر الأحمر، وشتتت شمل قواته واستولت على رئاسته بالقرب من طوكر. وكان ونجت حاضراً أيضاً هنا.

وفي عام ١٨٩٢ تم تنظيم الإدارة التي يرأسها ونجت، المخابرات الحربية، رسمياً وحددت القاهرة كرئاسة لها مع مكاتب وإدارات فرعية ومحلية لها في إقليم الحدود وفي سواكن. ومن قبل كانت هناك سلسلة من تقارير المخابرات السرية التي تأتي من قوات الحدود الميدانية ومن سواكن. ولكن وابتداء من أبريل ١٨٩٢ تم دمجها في وحدة واحدة.

وفي السنوات الأخيرة للدولة المهدية استخلص ونجت، في ثلاثة مناسبات مختلفة، معلومات استخباراتية هامة من أسري الأوروبيين بالسودان الذين تمكنوا من الفرار عن طريق تدبيره وإشرافه. كان أولهم القس النمساوي الأب جوزيف أور فالدر، والذي تم تداول المعلومات التي جاء بها في التقرير السري للغاية "تقرير عسكري شامل عن السودان المصري، ١٨٩١" والذي شكل الأساس لكتاب ونجت الثاني "عشرة سنوات من الأسر في معسكر المهدي". وفي عام ١٨٩٤ أشرف على هروب قس ثاني هو الأب باولو روزينولي. ومرة أخرى قام ونجت بأعداد كتاب عن الموضوع لكنه ترك طباعته عند وصول الهارب الثالث، وأميزهم جميعاً، ونلف فون سلاطين، في مارس ١٨٩٥ والذي كان يشغل وظيفة مدير دارفور لدى الخديوي. ومثلما فعل مع أور فالدر، قام ونجت باستخدام المعلومات التي جاء بها سلاطين بطريقتين هما: الأولى في تقريره السري عن تقرير شامل عن أحوال السودان المصري، مارس ١٨٩٥، والثاني في الكتاب المنشور (الذي نال شهرة كبيرة وانتشار واسع) وهو كتاب "النار والسيوف في السودان" والذي رغم ظهوره باسم سلاطين كمؤلف له، إلا أن ونجت تخلص كثيراً في تحريره. وقد تم تعيين سلاطين بعد ذلك كمساعد لمدير المخابرات الحربية، وكان عليه أن يعمل مع ونجت بدون انقطاع تقريباً حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى.

وعندما بدأت حملة استعادة السودان بدفلاً عام ١٨٩٦ قام كل من ونجت وسلطين بمزافقة كتشنر، والذي خلف جرنفل كمردار قبل أربعة سنوات. وبعد اشتراكه في البعثة الدبلوماسية، بقيادة السير رنل رود، التي توجهت إلى الإمبراطور منليك الثاني، إمبراطور إثيوبيا، عام ١٨٩٧، عاد ونجت إلى كتشنر، والذي كان يعد للمرحلة الثانية للغزو، والتي ستقود القوات البريطانية والمصرية إلى قلب الدولة المهدية. وبعد معركة كرري الحاسمة (تسمى عادة بمعركة أم درمان) في الثاني من سبتمبر ١٨٩٨، أصبح الخليفة مطارداً وتوقفت دولته عن الوجود. تم احتلال عاصمة المهديّة أم درمان، وغناها وجه ونجت مساعده اللبناني نعيم شقير لجمع وثائق المهديّة ومراسلاتها وكافة الأوراق الرسمية للدولة المهزومة. تم شحن الأرشيف الضخم الذي حصلوا عليه إلى القاهرة وشرع أعضاء مصلحة المخابرات الحربية في دراسته، وللحصول على ما يمكن من معلومات تساعد الإدارة الجديدة في عملها. وفي الوقت الراهن فقد تم إعادة معظم تلك الوثائق للسودان حيث أُنضت موقعها كإقليم ما تحتويه إدارة الوثائق المركزية بالخرطوم.

تم تعيين اللورد متشنر كأول حاكم عام للسودان المصري الإنجليزي. وخلال فترة حكمه القصيرة قام ونجت، والذي نال رتبة الباشوية من الخديوي، ورتبة فارس من الملكة، بقيادة حملة عسكرية ضد الخليفة، والذي كان مع من تبقى من أتباعه وجنوده على الغرب من النيل الأبيض. وفي أم دبيكرات، في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩، تم خوض آخر معركة ضد المهديّة حيث قُتل فيها الخليفة عبد الله، ويعدها عاد ونجت للقاهرة. وبعد شهر من ذلك خلف كتشنر كحاكم عام للسودان.

وصل ونجت الآن إلى قمة النجاح. وقام كحاكم عام، في سنوات الهدوء التي سبقت الحرب العالمية الأولى، بمواصلة العمل، والذي لم يجد كتشنر وقتاً لبدايته، بإرساء دعائم إدارة مقتدرة بالسودان المصري الإنجليزي. وعندما نشبت الحرب العالمية عام ١٩١٤، وبالذات بعد دخول الإمبراطورية العثمانية فيها، ووجه بمشاكل عاجلة كان أولها وأهمها العمل على تأمين حياض وهدوء المسلمين السودانيين، وقد نجح في ذلك. وسرعان ما انغمس في المسائل المتعلقة بأهداف الحلفاء العسكرية والسياسية في الشرق الأدنى وعلى رأسها تنظيم ثورة الشريف حسين في الحجاز.

وعند بداية انفجار الثورة تم تعيينه كقائد عام حيث تمكن من توجيه وإدارة التعاون البريطاني مع الشريف وابنه الأمير فيصل. وفي أغسطس ١٩١٧ تم تحويل فيصل وقواته لتصبح تحت سيطرة الجنرال اللنبي قائد عام الحملة العسكرية المصرية. وأثناء ذلك، وفي عام ١٩١٦، قام ونجت بتكبير وتنظيم الحملة العسكرية ضد السلطان علي دينار. سلطان دارفور، والتي انتهت بهزيمته ومقتله وضم سلطنته إدارياً للسودان. والأسباب التي أدت لما حدث عديدة ومعقدة ولكن تم تبرير ذلك، وقتها، على أساس أن علي دينار كان على اتصال بالعثمانيين وأنه كان بنوي القيام بثورة ضد الحكم الثنائي.

وفي أوائل عام ١٩١٧ حل ونجت محل السير هنري مكما هون كمندوب سامي في مصر. وبحلول الهدنة عام ١٩١٨ - نوفمبر - انطلقت كل القوى التي كانت مكبلة في ذلك القطر أثناء

سنوات الحرب الأربعة وشرعت في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال. وبرز سعد زغلول كناطق باسم القومية المصرية وكفائد لها. وأثناء الأزمة التي نشبت وتصعدت بين الوطنيين، الذين يطالبون بالاستقلال، وبين الحكومة البريطانية، التي سعت لتوطيد حمايتها التي أعلنتها عام ١٩١٤ على مصر، أصبح ونجت في موقف لا يحسد عليه كوسيط عالم تماماً بمشاعر المصريين وفي نفس الوقت عاجز عن إقناع رؤسائه بالخطر الكامن. وفي يناير ١٩١٩ غادر مصر متوجهاً لأوروبا ليشرح للحكومة البريطانية آراءه حول الوضع، لكنه لم يعد ثانية لمصر. وبعد نشوب الثورة وإنتشارها في أنحاء مصر في مارس من ذلك العام تم تعيين اللنبي مندوباً سامياً خاصاً لمصر، وبذلك وضعت النهاية لسيرة حياته العملية. هذا وقد توفي ونجت بعد أن بلغ من الكبر عتياً وذلك في يناير من عام ١٩٥٣.

المهدية والسودان المصري:

لعبت معركة توشكي دوراً في دفع ونجت لوضع كتابه "المهدية والسودان المصري". وكما أشار الجنرال جرنفل في مقدمته للكتاب، فقد بني ونجت كتابه معتمداً على المخطوط الذي غنم في المعركة والذي احتوي على رسائل ونصوص وكتابات وتقارير من المهدي والخليفة. وهذا المخطوط محفوظ اليوم بدار الوثائق المركزية لجمهورية السودان.^١ ومعظم الوثائق التي ترجمها ونجت، وجاءت في كتابه، أخذت من هذا المخطوط والذي وصف وصفاً غير دقيق باسم "دفتر رسائل النجمي". لم يقم ونجت بترجمة الوثائق بنفسه، بل أوكل المهمة للكتبة السوريين (اللبنانيين) العاملين في إدارته، رغم أن جرنفل قد ذكر بأن ونجت كان قادراً على إختيار دقة ترجمتهم.

ولابد من الاعتراف بأن تلك التراجم جاءت مخيبة للآمال سواء في الشكل أو في المضمون ولا تعطي نفس المقصود من الأصل العربي.

ويبدو أنه قد تم طباعتها مباشرة من المسودة الفجة التي قدمت لونجت. فبعض العبارات جاءت مضغوطة مكثفة، أو بعد تعديل صياغتها، فجاءت مضطربة غير متجانسة ولا مترابطة وتختلف تماماً عن الأسلوب البليغ الذي اشتهرت به كتابات المهدي. وقد تم شرح بعض المصطلحات الفنية الإسلامية. أما بقية التراجم وخاصة الأحاديث فقد تم وضعها بدرجة أخلت بالمعنى. ويبدو أن مغزى تلك الأحاديث لم تكن معروفة لدي مساعدتي ونجت من نصارى لبنان وبالتالي أسهمت تلك التراجم، ولو بدون قصد أو تعمد، في إفهام الرأي العام البريطاني بأن المهدية ما هي إلا انتكاسة طفولية مبنية على الخرافة والجهل والبربرية الفجة.

ولم يكن "دفتر الوقائع" المصدر الوحيد لكتاب ونجت، رغم أنه شكل المكون الأساسي للمعلومات المتاحة عن المهدية حتى ذلك الوقت. فقد أورد أيضاً عدداً من الخطابات التي كانت قد أرسلت للجنرال غردون أثناء حصار الخرطوم. وقد وصلت هذه الرسائل لإجتزأ مع ما تبقى من

^١ قام الدكتور محمد إبراهيم أحمد بوضع دراسة مفصلة عن المخطوط تحت عنوان "مخطوط النجمي" وكان عبارة عن رسالة دكتوراة باللغة العربية عام ١٩٦٦م ولم تنشر (وقتها).

يومياته وتم نشرها كملحق (ليوميات غردون) بواسطة هيك عام ١٨٨٥ وكل من اليوميات والرسائل تلك محفوظة الآن في المتحف البريطاني. وهناك عدد من الوثائق - الإنذارات - التي أرسلها الخليفة لمصر عام ١٨٨٧ بواسطة مبعوثين، وأيضاً في أبريل ١٨٨٩ لكنها كانت عبارة عن إنذارات للمصريين والإنجليز والسلطات العثمانية تدعوهم فيها للتسليم للمهدية أو مواجهة الحرب الدينية الجهادية عليهم.

أكمل ونجت مسودة هذا الكتاب في رأس السنة ١٨٩١. وفي الشهر التالي ساهم في جزء من الحملة ضد عثمان دقنة والتي كان من نتائجها سقوط أرشيف هذا القائد المهدي في يده. وكانت إحدى الرسائل المطولة، التي استولوا عليها، عبارة عن وقائع نصف المراحل الأولى لمهمة عثمان دقنة في شرق السودان، وانتصاراته الأولى على القوات الخديوية والبريطانية، في خطاب مرسل منه إلى المهدي، وسيتم إيراد الرسالة مع الملاحق.

وقد يتسأل المرء عن مغزى أو أهمية كتاب "المهدية والسودان المصري" في هذا اليوم. أما ونجت فقد كانت أمامه عدة مزايا يحققها من كتابه هذا. فقد تمكن من استخلاص، ليس فقط ما توفر من معلومات عن المهدية في ذلك الوقت، بل سخر التقارير التي كتبها هو ومساعدوه، من الإفادات التي تلقوها من مخبريهم، ومن اللاجئين، مثلما أعتمد على السجلات الحربية لكل من الأجهزة المصرية والبريطانية. وكان هو نفسه مساهماً نشطاً في بعض الأحداث التي وصفها. ومن هنا جاءت أهمية الكتاب كمصدر مفيد، وكمقدمة للتاريخ الحربي للمهدية منذ نشأتها وحتى عام ١٨٩١، وخاصة فيما يتعلق بمجري أحداث جبهة النيل وجبهة ساحل البحر الأحمر.

أما عند ما تناول ونجت خلفيات الأحداث أو خلفيات الشئون الداخلية للمهدية فإنه لم يحقق نجاحاً يوثق به لأن عدم المعرفة الكاملة هي التي كبّلته وأعاقت درجة الوثوق بما جاء به. فتجميعه للبيانات المتعلقة بالإسلام والمهدية والسنوسية التي إفتتح بها كتابه ربما جاءت كيفما إتفق على أحسن الافتراضات ومن ذلك على سبيل المثال قوله بأن محمد أحمد الدنقلوي قد أخذ المهدية من وجهة نظر الشيعة، أو أنه هو الإمام الثاني عشر الغامض والذي أخفي منذ زمن طويل، فهذا خطأ جسيم. وقد كان الشكل الذي تصوره ونجت عن الإحداث التاريخية المتعلقة بتطور المهدية السودانية سطحياً للغاية. فقد كتب مثلاً " من السهل على المرء أن يري كيف أن ذلك البعث الديني قد غذته الجماهير الكردفانية المشبعة بالخرافات وتعاليم الفقراء، وجماهير القرى المدفوعة بالبأسه في وادي النيل. وكيف استغل البقارة، ذوا الكبرياء ذلك كسلاح، بعد أن إمتلأت نفوسهم بكراهية وإستكار منع تجارة الرقيق". وهناك تبسيط مبالغ فيه، تردد في كثير من الكتابات البريطانية بعد ذلك، عندما علق قائلاً: " وعندما غادر غردون، بطاقته العارمة التي أحييتهم بعد موات، السودان، إنهار المصريون وأصبحوا كما خاملاً لا أمل فيه".

ولم ينشأ القصور، في تقديم ونجت للمهدية، من مداركه المحدودة فقط، فقد أظهر كراهية عاطفية قوية ضد قادتها. لكنه رغم ذلك قد قال حقاً، عن المهدي عند بداية ظهوره، بأنه يحمل في

مظهره الخارجي كل ملامح السيد الحسن التبرية" لكنه عندما مات المهدي قال بأن المهدي أصبح " النبي المنتصون الجاري وراء الملذات والفسق". أما عن خليفته عبد الله فقد قدمه بدرجة من الصدق بأنه رجل شجاع ويضارع الثعالب نكاء" لكنه في نهاية كتابة يصفه بأنه " أحمق وفارغ وتافه وخليع..... وحاكم طاغية مستبد، شديد الجهل ولا يعرف شيئاً عن قوانين ونظم الحكم".

ورأي ونجت عن المهديّة ملتبس مختلط المعاني والمقاصد لدرجة تدعو للتساؤل. فقد تحدث عنها بأنها وليدة ظلم وقهر الإدارة التركية المصرية: " كانت القاعدة العامة لدعوى المهدي وتحريضه متمثل في الظلم والقسوة بكافة أنواعها والتي ظهرت بوضوح بعد غياب النظام الشامل الذي أرساه غردون" ثم يصف ونجت بشئ من البلاغة مضمون تعاليم المهدي ومدى تأثيرها على جمهرة السودانيين. لكنه عند نهاية كتابه أدان الحركة ووصمها بأنها: " بدلاً عن إقامة مملكة دينية يعيش فيها المواطنون في سلام وتكون الثروة فيها مشاعة والفقر غير معروف بها. فقد وجدنا البلاد وقد إتحدرت إلى حالة من الطغيان والإستبداد وملأت أرضها أشكال من سفك الدماء والسلب والنهب والرعب الشامل".

وبينما قدم ونجت المهديّة بأنها البربرية والطغيان، قال عن نظام الخديوي الذي أطاحت به الثورة بأنه نظام إتسم بالظلم والجور والقهر. فما الذي نستنتجه من كل هذا؟ لقد ألمح ونجت في ختام كتابه إلي " أنه لو قدر لهذه البلاد أن تعود مرة أخرى جزءاً من أملاك الخديوي فلا شك أن الدروس التي تعلموها خلال تلك السنوات العشرين لن ننسى ولابد أن ينهض سودان جديد وأفضل من فوق رماد غردون ورماد أولئك الضباط والرجال الشجعان الذين هلكوا في سبيل أداء واجبهم ولولاهم، وهذا هو الأمل اللوهاب الذي يملأ أفئدة كل محبي الخير لمصر".

وقد وضحت هذه النقطة تماماً في الكتاب الثاني الذي إشتراك فيه ونجت. فقد قال على لسان أورفالدر في كتابه (عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي): " إلي متى ستنظل أوروبا - وفوق كل شئ تلك الأمة ذات المصالح في مصر والسودان - والتي تقف عن جدارة في طليعة من يعمل على تمدن الأجناس الهمجية: إلي متى ستنظل أوروبا وبريطانيا العظمى تنتظر بدون حراك إلي إنتهاكات الخليفة ونزعاته لتدمير الشعب السوداني؟ ".

إن كان ونجت في كتابه (المهديّة) ناطقاً بلسان العسكرية البريطانية في مصر وداعية لها، وهي الممتنعة والمستاءة لفشلها في إتقاذ غردون و لانتصارات المهديّة الباهرة.

ومن المؤكد أن المسودة الأصلية للكتاب قد جاء فيها: " نقداً شديداً للأحداث التي سبقت والتي حدثت خلال بعثة غردون للخرطوم"، وأن تلك الفقرة قد أعيدت صياغتها، بناء على نصيحة جرنفل، وهذا ما أتضح في مقدمته التي كتبها، حيث أوضح بجلاء أنه قد تم حذف كل ما يشير إلي الوضع السياسي، والتساؤل الذي يظهر من وقت لآخر بشأنه".

لقد لعبت الكتب الثلاثة: المهديّة والسودان المصري - عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي - النار والسيف في السودان، دوراً في المحافظة على إستمرار إهتمام الرأي العام البريطاني بالسودان وخاصة أثناء سنوات الإصحاب منه والتي تلت موت غردون. ولكن القول بأن ذلك تسبب في إعادة فتح السودان، أو للحكم الثنائي المصري الإنجليزي، فليس صحيحاً. لكن مما لا شك فيه أن تلك الكتب قد لعبت دوراً هاماً في تهيئة الرأي العام البريطاني لتلك التطورات اللاحقة. بل كان لها أثراً قوياً في ترسيخ صورة السودان وتاريخه في فترتي الحكم التركي المصري والمهديّة بحيث يبرر الحكم البريطاني له من ناحية أخلاقية وفي نفس الوقت ظلت تلك الصورة عنه هي المقبولة والساندة لدى الرأي العام وحتى وقت قريب.

ب. م. هولت
ديسمبر ١٩٦٦

مقدمة المحرر

كتاب "المهدية والسودان المصري"، الذي كتب في صدر الدولة المهدية، بالغ الأهمية لإنفراده بعدة خصائص:

الأولى: أنه كتب في خضم أحداث الثورة المهدية وحركتها المحمومة في كل أنحاء السودان وخارجه. هذه الخاصية نفسها هي التي تقود كاتبها إلى محاولة إستقراء الأحداث التي سترد فيما بعد والوصول لإستنتاجات بشأنها، مثلما قد تقوده إلى مسار خاطيء كل الخطأ، وهذا ما أوضحه مقدم الطبعة الثانية للكتاب.

الثانية: لإحتوائه على سجل طويل لوثائق المهدية لم يشر إليها أحد قبله وأهمها مجموعة الوثائق المسماة مجازاً "دفتر النجومي" والتي عثر عليها، بمعسكر ذلك البطل المغوار بعد تدمير جيشه في توشكي عام ١٨٨٩. وهذا الدفتر هو الذي بني عليه البروفسر محمد إبراهيم أبو سليم رسالته للدكتوراة عام ١٩٦٦.

هذا إضافة لنشره "دفتر وقائع ومراسلات عثمان دقنة"، والذي عثر عليه في معسكر أمير أمراء الشرق عند سقوط عفافيت وطوكر عام ١٨٩١.

الثالثة: نشره لخرائط جغرافية عن السودان وحدوده وقبائله، رسمت قبل عام ١٨٩٠. نجد فيها الكثير الذي يوضح ما نحن عليه الآن من خلاف حول تلك الحدود والديار والتي تتسم بالضبابية واللبلة.

الرابعة: السرد لأحداث الثورة المهدية سنة بسنة منذ نشوئها عام ١٨٨١ وحتى سقوط طوكر في أوائل ١٨٩١. وقد بني المؤلف معلوماته تلك من جواسيسه أو من التجار الوافدين لمصر أو من الوثائق المهدية إليه أو التي غنمها الجيوش الإنجليزية المصرية وخاصة في واقعتي توشكي وطوكر. هذا إضافة إلى تمكنه من الوصول لكافة الوثائق والمستندات التي بحوزة المخابرات المصرية التي كان مديراً لها، وخاصة تلك المتعلقة بتكوين الجيش المصري الجديد، بعد هزيمة عرابي واحتلال بريطانيا لمصر، أو المتعلقة بالحاميات المصرية في السودان ووثائق أحداث غردون وستيوارت وبيكر وصمويل بيكر وحملة وولسلي (حملة إنقاذ غردون) وأحداث سواكن وغيرها.

وأخيراً: للمعلومات الطازجة التي أدخلها في كتابه، بعد الإنتهاء منه، والمتعلقة بأحداث طوكر وبدء تدهور نفوذ عثمان دقنة بالشرق. هذا النفوذ الذي كان كالعظم في حلقى الترك والإنجليز، والذي تسبب في حرمانهم من دخول السودان عبر بوابته الشرقية وذلك عند إستعمار حوجتهم لذلك للحاق بغردون ونجدته وفك الحصار عن الخرطوم، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فقد كفاني البروفسر هولت مؤونة الحديث عن مثالب الكتاب ومخازيه (التي سار سلاطين فيما بعد - عام ١٨٩٦ - على منوالها)، والتي أورد بعضاً منها وسكت أو فات عليه البعض الآخر.

فونجت كان في بداية محاولاته لأن يكون أديباً أو مؤرخاً عندما وضع هذا الكتاب. فقد كان شاباً في أواخر العشرينات من عمره ولم يكن قد مضى عليه أكثر من بضع سنوات في الخدمة العسكرية، أو في خدمة الإستخبارات الحربية، أو بالعيش في أجواء الشرق المتسمة بالقموض والإبهام، التي يحتاج المستشرق لعشرات السنين لفهم وإستيعاب بعض ما يمكنه من الحديث عنها. من هنا كان ذلك الحشد الهائل للوثائق والملاحق المطولة والتفاصيل التي لا مبرر لها أو لا تدخل في صميم موضوع مؤلفه، واتصرافه في عشرات الصفحات لشروح لا تستحق سوى بضعة أسطر، مثل زاوية السنوسية بجغبوب، أو تطويله الباعث على الملل عن الفرق بين طابية المجرم وطابية المقرن. وهل هما شيء واحد أم لا؟، كذلك توسعه في أصول الألقاب التركية من باشا وبك أو تساريخ سك النقود منذ ظهور الإسلام قرناً بقرن وخليفة بخليفة.

في الكتاب أيضاً ترتيب لبعض الحقائق خاصة عندما تحدث عن انتشار الجدرى في أم درمان وحصده للأرواح، وأغفل دور الجنرال غردون، ومساعدته في الجرم إبراهيم فوزي باشا، والذين صنعوا وركبوا جراثيم الجدرى (فيروساته) ووضعوها بداخل القنابل التي يقذفون بها الأنصار (أنظر عبد المحمود أبو شامة، من أبا إلي تسلهاي، حيث به دراسة مطولة موثقة خاصة بحرب الجراثيم والميكروبات التي إستخدماها المستعمر ضد الأنصار).

كما إمتلأت صفحات الكتاب بالفحش أو الخلط الذي لا يليق بالمؤرخ. وهناك عشرات الأمثلة لذلك منها ما قاله "أن سبب ترحول العاصمة، من الخرطوم لأم درمان، هي لكي يتفرغ الحاكم المكروه والذي يرتقب منه الناس، لملاذاته الخاصة بعيداً عن أعين الخرطوميين". أو تقريره بكل ثقة بأن وفاة المهدي نجمت عن سم دسّته له إحدى زوجاته، أو أن المهدي قد خلف بعد وفاته ثلاثة أبناء وثلاثة بنات بينما الواقع كان أنه قد ترك عشرة من البنين وعشرة من البنات!

من مثالبه أيضاً القفز من موضوع لأخر بدون مقدمات وفي نفس الفقرة. فمثلاً يتحدث عن فسوق الحكام الجدد وإنصرافهم للملاذات ثم يدخل مباشرة في صناعة الذخيرة وتوريدها لأم درمان.

وهناك خلط متكرر من المؤلف، لم يصححه البروفسور هولت، ومن ضمنه الإشارة لصالح بك شنقه التكروري على أنه صالح بك الكباشي (الهامش في القسم العاشر)، أو أن الرأس عدل (الأمهري الحبشي) هو عربي متصلب حاد المزاج!، ولا أدري سبباً لهذا الخلط سوى لتسرع أو لجهله الفاضح لخلفيات بعض الأحداث والقبائل وتوزعها وغير ذلك.

ولكن الكتاب لم يخل من بعض الطرافة والملح والتي تجعل أمر قراءته ومتابعته شيئاً ممتعاً غير ممل. ومن هذه الطرائف (الرسمية) ما جاء حول محاكمة حسن بك البهنساوي، الضابط المصري المسنول عن الثغرة التي أفتحمها الأنصار عند دخولهم للخرطوم، والجدل الدائر بين كل الجهات المختصة حول إدانته بتهمة الخيانة "وبهذا توفر الخزينة المصرية المنهكة معاشه وحقوقه" أم تتم براءته مما سيفتح باباً لن يسد من طلبات التعويض من الضباط والجنود الذين نجوا بأرواحهم ووصلوا لمصر.

أكتفي بهذا وأترك القارئ للكتاب.

محمد المصطفى حسن - سنار

فبراير ٢٠٠٦.

محتويات الكتاب

رقم الصفحة	المحتوى
٥	مقدمة الطبعة الأولى (١٨٩٠)
١١	مقدمة المؤلف (١٨٩١)
١٣	مقدمة الطبعة الثانية (١٩٦٦)
٢١	مقدمة للمعرب (٢٠٠٦)
٢٥	القسم الأول (عمومي وأحداث عام ١٨٨١)
٣٩	ملحق القسم الأول (تقرير الكولوفيل ستيوارت)
٥١	القسم الثاني (أحداث عام ١٨٨٢)
٦٧	القسم الثالث (رسائل المهدي)
٨٣	ملحق القسم الثالث (دفتر النجوم)
٩٩	القسم الرابع (أحداث عام ١٨٨٣)
	ملحق القسم الرابع (مسار حملة مكس)
١٤١	القسم الخامس (أحداث عام ١٨٨٤)
	ملحق القسم الخامس (حصار الخرطوم ومراسلات غردون)
١٨٣	القسم السادس (أ) (سقوط الخرطوم)
٢١٥	القسم السادس (ب) سقوط الخرطوم وحملة الإنقاذ
	ملحق القسم السادس (وقائع محاكمة حسن بك البهنساوي)
٢٨٧	القسم السابع (تنظيم الجيش المصري الجديد)
٣٠٧	القسم الثامن (أحداث عام ١٨٨٥)
٣٥١	القسم التاسع (أحداث عام ١٨٨٦)
	ملحق القسم التاسع (عملية المهدي)
٣٧٩	القسم العاشر (أحداث عام ١٨٨٧)
٤٠٩	القسم الحادي عشر (أحداث عام ١٨٨٨)
٤٤٧	القسم الثاني عشر (أ) (أحداث عام ١٨٨٩) وحملة ود النجومى ملحق القسم الثاني عشر (أ) (تكوين جيش النجومى والجيش الذي قاتله)
٤٩٧	القسم الثاني عشر (ب) (أحداث عام ١٨٨٩) الأخرى ملحق الملحق (دفتر وقائع ومراسلات عثمان دقنة).
٥٢٣	الخاتمة
٥٤٥	ملحق إضافي (استعادة طوكر ١٨٩١)
٥٦٥	ملحق الملحق دفتر وقائع ومراسلات عثمان دقنة

المحتوى	رقم الصفحة
رسم إيضاحي لزاوية السنوسية في جغوب	٢٨
خريطة إثنوغرافية للسودان المصري	٣٣
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى نهاية ١٨٨٢	٦٥
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى نهاية ١٨٨٣	١٣٩
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى نهاية ١٨٨٤	١٨٠
خريطة للخرطوم والمناطق المجاورة لها	١٨٥
رسم يوضح تحطم البوردين وتحرك قوات النجدة	٢٠٨
خارطة للخرطوم قام برسمها غردون	٢٢٣
خارطة للخرطوم وما جاورها	٢٢٤
خارطة للخرطوم مواقعها الدفاعية	٢٢٦
كروكي للهجوم على جنس	٣٤٨
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى نهاية ١٨٨٥	٣٤٩
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى نهاية ١٨٨٧	٤٠٨
كروكي لطابية خور موسي باشا	٤١٥
مخطط لعملية الهجوم على هندوب	٤٢٠
كروكي للمنطقة المحيطة بطابية هديسون	٤٢٢
مخطط للمعركة التي جرت بالقرب من سواكن (١٨٨٨)	٤٤٦
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى نهاية ١٨٨٨	٤٤٦
كروكي يوضح محاولة الانتصار الهجوم على سرا غرب	٤٥٣
كروكي يوضح محاولة الانتصار الهجوم على سرا غرب	٤٥٦
مخطط لمعركة أرقين	٤٦٦
مخطط للمنطقة التي دارت فيها معركة توشكي	٤٨٣
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى نهاية ١٨٨٩	٥٢١
كروكي لبنت الخليفة	٥٣٧
كروكي لجامع الخليفة بأم درمان	٥٣٩
كروكي للطريق الذي اتخذته حملة طوكر	٥٥٢
رسم لمعركة عفافيت (فبراير ١٨٩١)	٥٥٦
خريطة توضح مدى انتشار المهديّة حتى فبراير ١٨٩١	٥٦٤
خريطة لحوض النيل	٥٧٧

القسم الأول (عمومي وأحداث عام ١٨٨١)

الملخص:

" المذاهب الدينية الشرقية عموماً - مهدي السنة ومهدي الشيعة - السنوسي والإخاء الديني - الوردة الصغيرة - تعاليم المذهب - وضعه الجغرافي - جغبوب - محمد السنوسي وسلطان واداي - السنوسي المهدي المنتظر - مهدي محمد أحمد الدنقلوي - خرافة الإمام الثاني عشر - المهديون السابقون في مصر - سبب بداية الثورة في السودان - خمسة "تحت أقسام" عرقية في السودان - العرب الأباله، الأول - القبائل الزنجية في دارفور، الثاني - سكان المدن والقرى، الثالث - البقارة العرب أصحاب المواشي، الرابع - الزنوج أو الممتزجون من أصحاب المواشي، الخامس - تجارة الرقيق وإخمادها بواسطة غردون - أسباب استعداد البقارة للثورة - محمد أحمد يبدأ رسالته المقدسة - حياته الأولى - تعليمه وتربيته الدينية - بداية قيامه بالتبشير "

خرج من كل من النصرانية والإسلام رجال مفكرون ركزوا على جوانب من دينهم لدرجة جعلت الكثيرين من الناس، من الذين وجدوا صعوبة في إستيعاب التعاليم الدينية المتشعبة، يتبعون تلك الجوانب المحددة التي أرسى أولئك المفكرون قواعدها لهم. من هنا يمكن مقارنة البيورستانيين المتطهرين في النصرانية بالواهبيين في الإسلام، أو اللوثرية بالسنوسية. فهم على العموم رجال مسالمون وضعوا أسس تلك التعاليم، ولكن نادراً ما تم نشرها بالوسائل السلمية.

فالبابيون، الذين اتخذوا من (عكا) رئاسة لهم بسوريا، والذين كتب قائدهم رسالة عام ١٨٦٨ إلى صاحبة الجلالة الملكة (فكتوريا) يهنئها فيها ويمتدحها لجهودها النبيلة في قمع تجارة الرقيق، ظلوا، وحتى الآن، مسالمين تماماً في دعوتهم رغم أنهم عاثوا من النفي لقبرص والخرطوم، بل حتى من الاستشهاد، الذي يسبغ الإسلام صفته على المضطهدين في الدين. ورغم ذلك فلم يحدث حتى الآن ما يدفعهم للعدوان على من اعتدي عليهم*.

أما ديانة السيخ، والتي تتسم اليوم بطبيعة حربية ومتشددة، فقد كانت في الأصل ثمرة جهود ناتنا شاه، وهو رجل فقير كان يعيش على حدود البوذية والإسلام، لإيجاد وسيلة سلمية للتعاشي والإسجام بين الدينين وإستمر ذلك لمدة ٢٣٠ سنة من وفاته حينما بلغ الاستبداد الإسلامي، مثلما قام به أوروغزبي، حاداً دفع بالمحارب الشهير قورو قوفند إلى الثورة ضده وبعدها قام بدمج كل

* إيضاح من المعرب:البابية هي ديانة أسسها ميرزا علي محمد (١٨١٩-١٨٥٠) والمعروف باسم الباب وهو مواطن إيراني من شيراز كان مسلماً ولكنه جاء بتعاليمه التي تنص على أن الإسلام ليس بأخر الرسالات، وجاء بتعاليم جديدة ذات شرائع تبطل بعض ما جاء بالقرآن. قامت الحكومة الإيرانية بإعدامه رمياً بالرصاص وطاردت أتباعه بشدة بالغة. انتقلت رئاستها بعد ذلك إلى الشام وتطورت لما يعرف اليوم بالبهائية (المعرب: عن موسوعة هنتشمنون الأمريكية).

الفرق الدينية لعبادة إلهة الشجاعة درقا بإفاتي، وظل لسنوات عديدة سوط عذاب للمسلمين، وظل اسمه بعدها مرادفاً للحرب اليائسة.

أما المهديّة، التي سنتحدث عنها هنا، فإن لها جانبين متعارضين: فهناك المهدي الذي ينتظر السنة الطيبون ظهوره مثلما ينتظر اليهود ظهور المسيح. وهناك المهدي الغالب والذي ينتظر الشيعة المخلصون معجزة ظهوره في أي لحظة. ومن الغرائب الفريدة في تاريخ الأديان أن نجد أن لمصر، في وقت واحد، وبها أو بجوارها، مهديان منتظران كل منهما مختلف عن الآخر، وهناك عدد كبير من جماعات الأخوة الدينية (الطرق الصوفية) في بلاد المشرق. وكلها تفرعت من واحدة أو أخرى من مدارس القاهرة ومكة وبغداد وغيرها، وكلها تتلقى إلهامات سماوية، لا غنى عنها، مثلها مثل النبوءات. أما المعجزات فليست بالكثيرة لكنها في وضع أفضل منها عن الأيام الأولى للنصرانية حينما أحجم الآباء الأوائل عن استخدامها لإثبات صحة دينهم.

وتتميز كثير من الطرق في إفريقيا بنوع من الوجد الصوفي الرياضي ويتم هذا بهز الرأس بقوة وعنف قد تزلزل كيان الرجل المتعلم. وينتج عن هذا الهز شعوراً مرغوباً فيه يشبه حالة السكر، ولكنه سكر لا يعقبه صدام.

ويرجع تاريخ السنوسية، أحد فروع المدرسة الشاذلية، إلى عام نشأتها في ١٨٣٧. وقد أطلق عليها هذا الاسم لبدائيتها في جبل سنوس بالجزائر. وقد نالت السنوسية دفعة قوية بما أسبغته عليها السلطان العثماني عبد المجيد من رعاية عام ١٨٨٢. ففي هذه السنة قام الغازي مختار باشا بتوجيه الشيخ محمد أبو زيد بالقاهرة ليقوم بطباعة ألف من كتاب الصلاة للطريقة وكما يلي:

تجليات شيخ إدريس: هدية من مختار الغازي إلى سيدي محمد السنوسي، ليوزع بين الإخوة، طالباً منهم صالح الدعوات عند الصلاة".

والآتي صورة طبق الأصل مما أسماه السنوسي (بالوردة الصغيرة) أو الطريق الذي يسلكه غير المتعلمين من العرب لإدخالهم كإخوة في الطريقة السنوسية. والمكتوب التالي هو صورة طبق الأصل مما كتبه المهدي الشيخ محمد السنوسي وترجمته كما يلي:

"أستغفر الله". نقال مائه مرة

"لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله".

نقال ثلاثمائة مرة

"اللهم صلي على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم".

نقال مائة مرة.

"The Tagaliat Sheikh Idris, a present from Mukhtar el Ghazi to Sidi Mohammed es Sonussi, to be distributed among the brethren, and asking their help in prayer."

The following is a facsimile of what is termed by the Sonussi the "little rose," i.e. the Tarikh or way by which illiterate Arabs are admitted as brethren to the Sonussi confraternity. The writing is the facsimile of that of El Mahdi Sheikh Mohammed es Sonussi.

The translation is as follows:—

"God pardon me" to be said one hundred times. "There is no God but God, and Mohammed is His prophet; every glance and every breath is known to Him," to be said three hundred times. "O God, pour Thy blessings on our prophet Mohammed, he who could neither read nor write, and bless us his followers and friends," to be said one hundred times.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
مائة مرة

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بِحُجْلِ الْخَيْرِ وَتَقْبِيسِ
 غَدَاةٍ مَا وَسَعَهُ عِلْمُ اللَّهِ

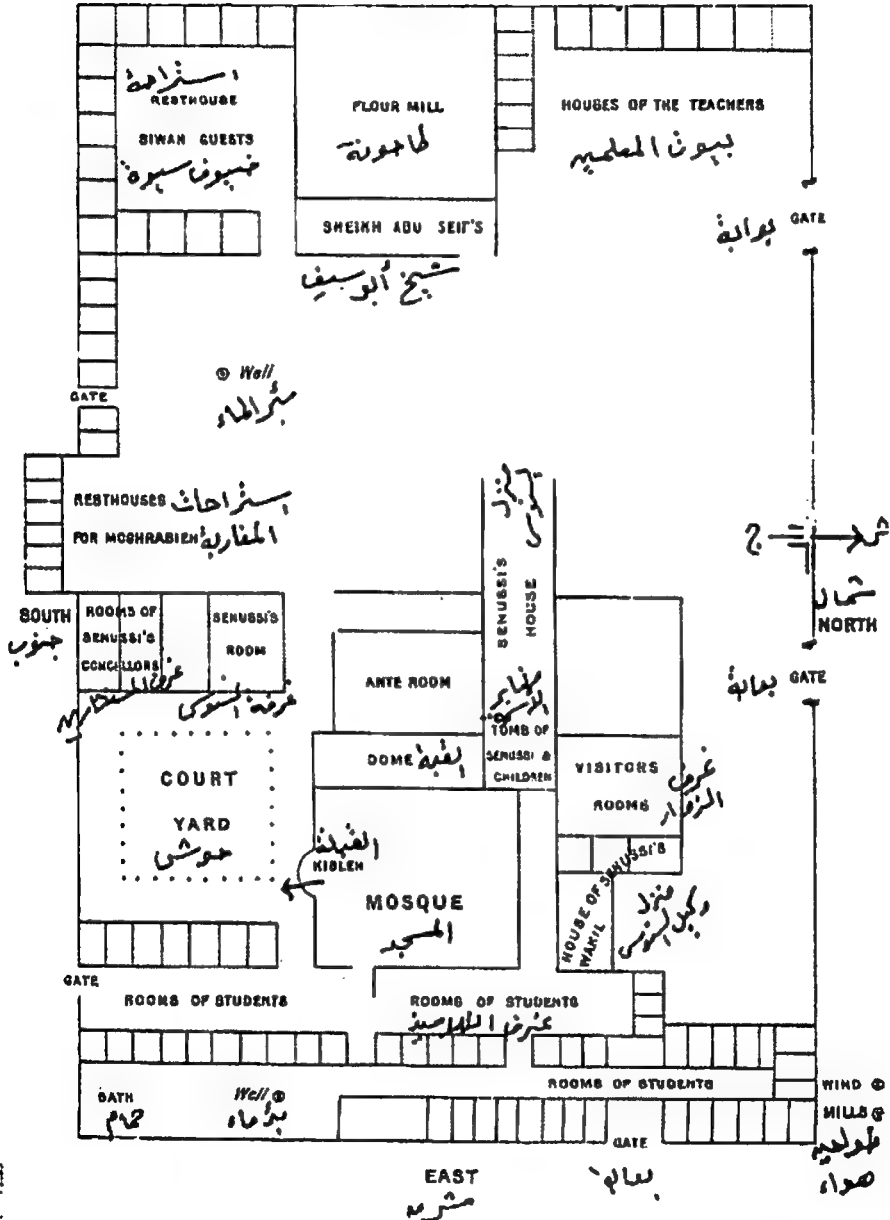
ثَلَاثًا مِائَةً
مائة مرة

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ وَعَلَى آلِهِ
 وَصَحْبِهِ وَتَسْلِمًا

The first chief, Sidi Mohammed Ben Ali es Sonussi, founded some three hundred lodges in the north of Africa, of which the head centre is at Jerhibub, a little to the west of Siwa.

خريطة لزاوية السنوسي في جربوب
Rough Plan of E.SSENUSSI'S ZAWIA at JERHBUB
Drawn by a Native from memory
 (رسمت من ذاكرة) WEST

To face page 6



وكان أول زعيم للطائفة، سيدي محمد بن علي السنوسي، قد أسس حوالي ثلاثمائة (خلوة) في شمال إفريقيا رناستها في جغبوب على الغرب قليلاً من سيوة. وهناك، وعلى قطعة أرض وهبها له السلطان، بني زاوية ضخمة محاطة بسياج. والزاوية في الإسلام تماثل الدير عند نصارى الشرق. والخريطة التالية لزاوية جغبوب توضح طبيعة المبنى والذي يضم الآن مائة تلميذ من التونسيين والبدو ورجال من الفيوم، بينما يقوم بخدمة المنشأة حوالي ثلاثمائة من العبيد. وهنا يقيم محمد السنوسي، البالغ من العمر أربعين عاماً تقريباً، والموصوف بالسماحة والطف والذكاء والذي لا يمتنع عن قراءة الصحف. وهو يغطي وجهه دائماً بقطعة من قماش الموسلين الناعم ويتلثم بها.

وتعارض معتقداتهم الرئيسية كل المستحدثات الغربية، ويعتمدون تماماً على الزراعة. ففي كل واحة صغيرة تجد زاوية لهم وزراعات مختلفة وكان السنوسي يختار دائماً الواحات التي توجد بها الخرائب والآثار الرومانية القديمة، لأن وجودها يعطي مؤشراً بأن الماء الجوفي كان موجوداً بها من قبل وأنهم سيجدونه مرة أخرى. وحتى تلك الأماكن القريبة من البحر (الأبيض المتوسط)، وحيث تهطل الأمطار الشتوية بكمية كافية لإجراح زراعة محصول الشعير، فأنها تزرع بغاية حتى تكفي لمونة زاويتين أو ثلاثة، مثلما في برنجي مريوط بالقرب من الإسكندرية.

ويتم الحصول على المؤن، وبعض بارود البنادق، من ميناء طبرق القريب، وهو ميناء عريق لكنه مهمل، وقد زاره شفاين فورث عام ١٨٨٣. ووصفه بأنه أفضل ميناء في شمال إفريقيا بعد ميناء بيزرتا. وهو يقارب ميناء الإسكندرية في اتساعه وعمق مياهه وأكثر أماناً منه.

وهناك مركز ثاني لهم جنوب واحة الكفرة هو زاوية الإسات، بينما أقيم مركز ثالث، له بعض الأهمية، في تايزربو. ولقد تصعدت أهمية هذه الطريقة بسبب من الدهاء والفطنة. فقد قام سلطان وادي، الذي سعى السنوسي لاستقطابه للطريقة منذ وقت طويل، بإرسال قافلة من العبيد للشمال ولكن تم أسرهم بالقرب من الحدود المصرية. قام أتباع السنوسي بمهاجمة اللصوص وحرروا أسري العبيد منهم وساقوهم معهم، حيث تلقوا على أيديهم تعاليم الطريقة، ثم أعادوهم إلى السلطان على، سلطان وادي، محملين بالهدايا. من هنا لم يلبث السلطان طويلاً حتى اعتنق الطريقة وتبعه عدد كبير من أتباعه وحاشيته، حتى أنه عندما توفي عام ١٨٧٦، ونشأ النزاع حول من يخلفه في الملك، فإن السنوسي هو الذي عين مرشحهم يوسف لاعتلاء العرش. وبظرة إلى الخريطة سنرى أهمية هذا المكان بالنسبة لهم. فرجال وادي مشهورون بالصلابة والاعتماد على النفس، وهم متحدون تحت رابطة حققت لهم أربعين سنة من الأمن والسلام، وتزداد قوة، إلا إذا ما انتهت فرصة أمانة للنهب تحول شرارة حماسهم إلى لهيب وهاج.

ولازال جزء من القصة يستحق أن يحكى. فقد مات مؤسس هذه الطريقة الإصلاحية قبل بضع سنوات. وأثناء احتضاره قام بحذر بالتلميح بأن ابنه سيكون المهدي المنتظر. ولما سئل أن يوضح لهم ذلك رد عليهم بطريقة مبهمه بأن "الله أعلم" وألمح أن ذلك سيكون معروفاً في العام الهجري ١٣٠٠ (١٨٨٢ ميلادي).

لكن الشروط التي يجب أن تتوفر للمهدي تختلف حسب الذين وضعوا قواعدها. وحسب معتقدات السنوسية فإن زعيمهم الحالي تنطبق عليه شروطها كما يقال. ومن ثم أستخدم لقب المهدي، وسمي بمحمد المهدي.

وربما بسبب من ظهور الحركة في السودان، الأمر الذي أزعج السنوسي كثيراً، فإن تنصيبه كمهدي قد تأجل، بعد نبوءة متأخرة، حتى عام ١٨٩٢ عندما قرر فريقهم اتخاذ موقف محدد من الأمر. وحتى إذا لم يتم ذلك فإن نبوءة ثالثة يمكن أن توجد. فالمهدي السنوسي رجل مقتدر وله وكلاء شجعان متحمسون للقتال. كذلك كانت معجزاته وكراماته ممتازة. وفي صراع نشب حديثاً بين أنصار المهدي وبعض السنوسيين بغرب السودان، قيل أن لدى الأخيرين خيمة سحرية مليئة دالماً بما يلزم من الطعام وقد بلغت شهرتها حتى آسيا.

أما رجل دنقلا محمد أحمد فقد أخذ المهديّة من وجهة نظر المسلمين الشيعة* فهو الإمام الغامض الثاني عشر الذي أختفي طويلاً. نصب محمد أحمد نفسه مهدياً، وبعد أن استخدم خرافة شائعة وسط شيعة فارس، وأطلق على أتباعه الاسم الفارسي (دراويش)**، فإنه والمهديون الآخرون قد أظهروا نكاعاً ودهاءاً كان بدون شك ذي فائدة عظيمة لهم.

وأسطورة الإمام الثاني عشر هي غريبة حقاً ويبدو أنها تلبي حاجة ما في كثير من أنحاء العالم. إذ أن أسطورة مماثلة توجد عند اليهود الشرقيين، وعندهم أن إلياس يلعب دور محمد أبو القاسم المهدي. وتستحق هذه الأسطورة أن يلقي عليها بعض الضوء لأنها كانت، وستكون، نقطة انطلاق مهمة لكثير من المغامرين المسلمين.

فقد كان هناك اثني عشر إماماً، أو بالآخرى، ولعدم اليقين من عددهم، فقد كان هناك أحد عشر أو اثني عشر إماماً. وكلمة الإمام تعني الذي يسبق الآخرين ويقودهم، وفي الإسلام تعني الذي يؤم الناس للصلاة في المسجد. أما الإمام الأكبر من الجميع فهو الرسول الأعظم محمد، واسمه الكامل محمد أبو القاسم إبن عبد الله. لكنه لا يحسب ضمن الأئمة الإثني عشرة لأن مكانته هي له وحده. ومسألة من يخلف من في الإمامة هي السبب الرئيسي للانقسامات التي ظهرت في الإسلام بعد وفاة الرسول محمد. فلقد أعلن الفرس وكل الشيعة بأن هذا المركز السامي يجب أن يكون وراثياً بينما أصر السنة على مبدأ الانتخاب. ولما كان الفرس قد دعموا وجهة نظرهم تلك بأساليب شديدة الحدة والغلو فقد وجد محمد أحمد في الكثير من كتبهم القديمة مخزوناً ضخماً من السباب والتهامات موجهة لكل الذين لا يعترفون بقدسية مقام الإمام الحقيقي لهم. وأعتبر الفرس أن علي، إبن عم الرسول، والخليفة الرابع، هو الإمام الأول. وزعموا بأن الخلفاء الثلاثة الأوائل قد اغتصبوا المنصب من علي. كان الإمام الحادي عشر هو الحسن العسكري وكان إبنه المسمي، مما يزيد غموض الأمر، محمد أبو القاسم المهدي، هو الإمام الثاني عشر. وعند ميلاده أراد والده أن يقتله فقامت أمه بإخفائه في أحد الكهوف ومنع أي أحد من رؤيته. ومن معز له ذلك قام بإرسال تعاليمه المقدمة بواسطة الرسل.

لم يمض. لكنه أختفي مرتين إحداهما لفترة قصيرة والأخرى طويلاً. فبعد الاختفاء القصير الأمد جاء منه رسول مع نبوءة منه باختفاء طويل قائم وبموته بعد ستة أيام، وقد حدث ذلك بالفعل. وكان من المفروض أن يظهر المهدي ثانية، بعد غيابه الطويل، مع النبي إلياس وذلك عند العودة الثانية للمسيح. ويعني هذا عودته المنتظرة في أي وقت.

* أنظر تعليق البروفسور هولت على هذا الجدل في مقدمته للكتاب (المعرب).

** لم يستخدم المهدي قط لفظ الدراويش لأتباعه، بل حذر استخدام هذه الكلمة (انظر المنشورات للدكتور أبو سليم المعرب).

ومن هنا نرى مدي ما نتيجته هذه الأسطورة للمغامرين من فرص مثملا هو واضح من مدي رفض المصلحين من السنة في مصر وتركيا لهذه الأسطورة الفارسية. أما في السودان، حيث لا يعرف الكثير عن الشيعة، فقد تم قبول هذه الفكرة على ضوء ما سيلي. فقد ظهر قبل ذلك بوقت طويل مهديان في إفريقيا نجحا في دعوتيهما وأقاما عروشا فيها. وكان أخرهما، وهو عصر الفاطميين قد تأسس عام ٩٠٨ على يد محمد عبيد الله الذي أطلق على نفسه أسم المهدي وقام بطرد سلالة إبراهيم بن الأغلب (الحاكم الهاروني لإفريقيا) من مصر وأسس فيها عهداً للخلافة (الفاطمية). وكان أول هؤلاء الخلفاء قد حكم في (سجل ماسا) شمال مراكش حيث نصب المهدي نفسه فيها. أما الثاني فحكم في القيروان، والثالث في المهديّة. أما الرابع فهو المعز وهو الذي حكم مصر، ومن بعده سلالة الأربعة عشر. من عام ٩٧٢ وحتى ١١٧٢.

وقد تحدثت كثير من الكتب العربية، وأهمها ما كتبه الأسيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) عن تفاصيل وحظوظ ذلك المهدي مما كان متاحاً لمحمد أحمد والذي كتب على رايته فيما بعد كلمة (القيوم) المشتقة من كلمة (قام) وهو أحد الأسماء التسعة والتسعين لله.

ومن الملاحظ أن موقع (سجل ماسا) ينطبق بشكل غريب على موقع آخر بسنار. (فقد ذكر المؤرخ في كتابه أن): هذه المدينة تقسم مراكش، أي منطقة العرب الأفارقة، عن تلك الأقاليم التي يطلق عليها العرب أسم السودان. وهناك نهر عظيم يمر تحت حوائطها ينبع من الجبال..... الخ.

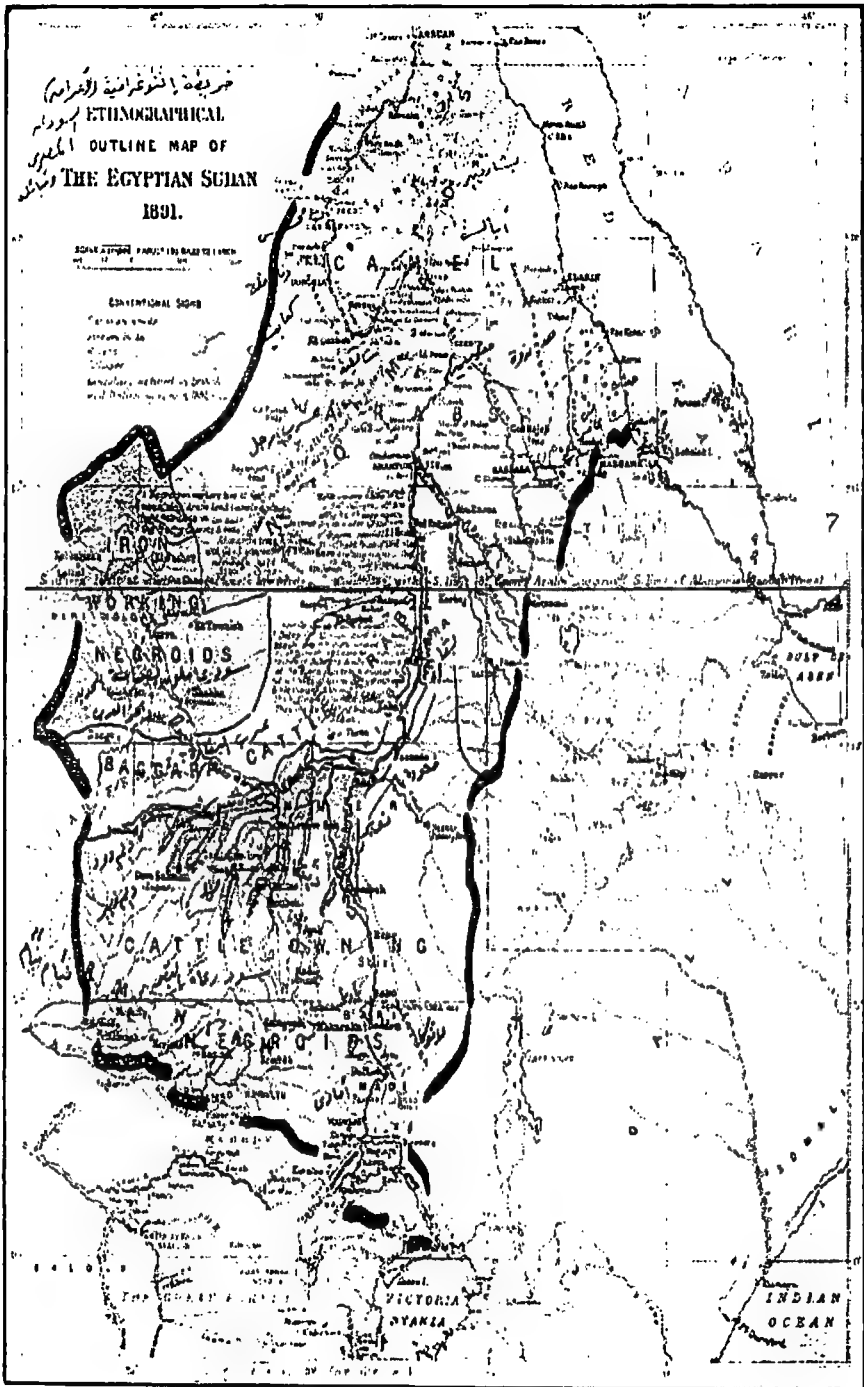
وكانت حركة محمد أحمد في المقام الأول حركة دينية - الحماس الطاغي، والبلاغة (في الخطاب) والآفاق الدرامية لمدارك أحد المتدينين التي تفوق، ما لذي أتباعه. لقد ألتهبها رغبة عارمة لكل الأهالي، وخاصة لدي الجماهير المتطيرة بكردفان، للانتقام من ظلم وقسوة المصريين والباشبوزوك* وتحولت الحركة إلى قوة عند انسحاب وتراجع أي شكل كان للحكومة، وهي القوة الوحيدة المعارضة لها، وأصبحت آله في يد المستبدين ذوي النزعة الحربية من البقارة والذين تمكنوا من اغتصاب ذلك العرش الخاوي.

عمل الدين على رتق النسيج الاجتماعي لدي مختلف الأعراق. والذين يحمل كل منهم أجزائه ومشاكله الخاصة، وضمتهم تحت رايات لأمرأ يبحثون عن القوة والمجد، وعن حقهم في التجارة بالرفيق.

وحتى نتناول هذا الموضوع المعقد بوضوح فعلينا الرجوع للخريطة التالية. وبعد أن نتفحص توزيعات السكان في هذا القطر الشاسع فسنتمكن من فهم مجريات المهديّة وسنتبين أن احتمالات نجاحها يبدو معقولاً ويمكن تقسيم السودان لأغراض هذه الدراسة، إلى قسمين يفصل بينهما خط العرض ١٣ درجة. هذا الخط هو الفاصل بين المناطق ذات الأمطار الخفيفة والمناطق

* الباشبوزوك هو الاسم الذي أطلق على القوات التركية غير النظامية، وكذلك أطلق على الجنود غير النظاميين في السودان، لكن الأخيرين ليسوا من الأتراك بالرغم من أن عدداً منهم من جذور تركية. وقد تم ضم السودان بواسطة محمد علي قبل قرن من الزمان (٧٠ سنة وليس قرن - للمغرب) أو أكثر بواسطة القوات التركية غير النظامية والذين إستقر منهم عدد كبير في السودان فيما بعد وتزوجوا مع الأهالي ونشأ من ذريتهم الذين تم تجنيدهم في القوات السودانية غير النظامية، مع بعض الاستثناءات.

الشحيحة أي بين العرب البقارة والعرب الأباله. فجنوب هذا الخط لا تترعرع الأبل أو تزدهر. أما في شماله فلا توجد الأبقار. وفي شمال هذا الخط نجد سهولاً واسعة بها شجيرات أشواك هزيلة مبعثرة وآبار شحيحة. وهنا يتجول العرب أصحاب الإبل من كبايش وعيابة وهندوة وشكرية وغيرهم. وهم ذوو طبيعة مسالمة ربما بسبب أن حيواناتهم تلك لا تحبس داخل زرائب، أو ربما لأنهم يربحون مالاً من جراء استخدامها في نقل البضائع. وهؤلاء الأباله هم أول الأقسام الخمسة للسكان. أما في الجنوب الغربي فنجد أن الجزء الجبلي منها تقطنه قبائل زنجية يسكنون بداخل القرى. وحتى عام ١٨٧٤ كانوا يكونون مملكة عريقة. وهم يسكنون في سفوح الجبال ويشغلون بصناعات الحديد من حراب ومحاريث. وعندما يداهمهم خطر من العرب الماردين للنعام، من أجل الریش، والذين يجوبون مناطقهم كثيراً فأنهم يتراجعون إلى جبالهم حيث يجدون فيها الأمن والسلامة.



كانت مملكة دارفور العتيقة، قبل استيلاء الزبير عليها، مثل مملكة واداي اليوم. ويمكن تتبع السلالات الملوكية، على عرض إفريقيا، ومن الغرب إلى الشرق، كما يلي: السنجامبيا، البامبرا، المسنا، القندو، السكوتو، البرنو، الباقرمي، واداي، دارفور، سنار فالحبشة. وأهالي دارفور من جنس قنوع ومسالم وهم ينظرون بازدراء للنشاطات الكريهة للعرب. وهؤلاء يكونون القسم الثاني من السكان.

القسم الثالث هم سكان القرى والمدن. وهم خليط تقريباً من كل الأجناس الشرقية. ونتج عن التزاوج المختلط بين تلك الأجناس من المصريين والباشبوزوق والتجار الأجانب نوعاً من السكان لا يمكن مقارنته بسكان الموائى الشرقية. فهم خاملون فاسقون، سكارى وليس لهم عرق محدد، ويؤمنون بالخرافات وبالتطير لأبعد الحدود. وفي بربر والخرطوم وسنار نجدهم يشكلون القاطنين بها. أما أواسط سهول كردفان فإن بها ملا يقل عن ٨٠٠ - ٩٠٠ قرية تتفوق كل منها على الأخرى في الدناءة، وتصور في عقولهم الخرافات والمعتقدات المتخلفة وأساليب الخداع. وقد أكتنز فقهاؤهم شحماً ولحماً على حساب جهلهم الفاضح بشئون الدين. وبالتالي نجد أن مركز الفكي لديهم يعتبر مؤشراً على درجة خضوعهم وطاعتهم العمياء، لذلك الرجل الذي يعتاش على خرافاتهم.

وفي اللغة العربية نجد أن الله تسعة وتسعين اسماً. ويعتقد الأهالي أن كل قسم من تلك الأسماء يحرسه عدد من الملائكة. وأنهم يتكرر ترديد واحد من تلك الأسماء، مصحوبة بالصلاة والصيام، فإن الله سيرسل لهم ملاكاً حارساً لخدمة ذلك المتعبد. هؤلاء المتعبدون هم من (الفقراء) الذين، كما يعتقد العامة، لهم طاقات روحية خارقة للطبيعة تجعلهم قادرين على الإتيان بالمعجزات. ومن هنا فقد جمعوا أموالاً عظيمة من أتباعهم العمي مكنتهم من قيادتهم ودفعهم إلى أي طريق يشاؤون. يسكن هؤلاء الناس في القرى، ويزرع كل منهم قطعة أرض صغيرة بالدخن، ويشربون من آبار يتراوح عمقها ما بين ٩٠ - ١٠٠ قدم، وعندما يأخذون حاجتهم من المياه منها فأنهم لا يقومون بعمل شيء بعد ذلك ولا ينتجون شيئاً. ولا يحتاجون أبداً للقتال لأنه ليس لديهم ما يدافعون عنه. وهم لا يطرقون الأسواق إلا للثرثرة وتبادل الإشاعات إذ ليس لديهم ما يبيعونه فيها. من هنا فلم ينهض من بينهم رجل ذو شأن، إذ لا يوجد لديه ما يقوله أو يبشر به. وقد وجد المبشرون من الرومان الكاثوليك (الذين نذروا أنفسهم للتبشير) بأن السكان هنا هم في حدود ١٣٠,٠٠٠ شخص والذين قد يعتبرون أقل سكان العالم قيمة. وهم يشكلون القسم الثالث من السكان.

أما ما وراء خط العرض الثالث عشر، حيث الأمطار الطيبة، فنجد فيها المراعي الجيدة والجبال التي تكسوها الغابات. وهنا تحل الماشية محل الإبل. وهنا، في الجنوب لكردفان، بامتداد جنوبي غربي وشمالى شرقي، نجد قبائل وفروع لها من البقارة لا عد أو حصر لها، وهم ممن يعتبرون الهنود الحمر للسودان.

هؤلاء هم المتعاملون بالرق ويعتبرون أقوى الرجال شكية في السودان. ولوجودهم على ضفاف النيل الأبيض، ولتماسهم مباشرة بالمستودع الزنجي الضخم على الجنوب منهم، وللسوق العظيم على الشمال منهم بالخرطوم، فأنهم يعتبرون من أكبر وكلاء توريد الرقيق في العالم.

هذا هو القسم الرابع من السكان. وهم يتغذون جيداً على اللحوم، ومعتادون على الدفاع عن قطعانهم، وميالون للحرب ولهم استعداد مزمن للسلب. جنوب حزام البقارة نجد أصحاب المواشي من الزوج وأشباه الزوج والذين يشكلون القسم الخامس. وهم أناس معتدلوا المزاج وجنس ميال للسلام، والذي يحفظه لهم طبيعة بلادهم الموبوءة بالمalaria. وقد كانوا يشكلون لمدة ثلاثين عاماً سوق الرقيق الرئيسي بالخرطوم. وبعض القبائل، كالبونقو مثلاً، قد رحلت تقريباً من مناطقها. أما الدينكا فهم يغطون مساحة ستين ألف ميل مربع، هي التي خصصتها لهم الطبيعة، ولديهم أعداد هائلة من الماشية. وتجوب الأفيال تلك الغابات، التي ترسل أخطأ بها وخشبها للخرطوم لبناء المراكب. وهنا كان وطن الزبير وابنه سليمان والذان تمكنا من بناء جيش من هؤلاء الزوج. هؤلاء الزوج وثييون، ولم يدخل في قلوبهم أي فكر يحظى بقبول معظمهم. فهم مقيمون حينما أقامت ماشيتهم، ويسكنون في قري من الأكواخ ويعملون، مثل القبائل الشبيهة إلى الشمال منهم، في صناعة الحديد. وهؤلاء هم هذا القسم من السكان، الذين وصفهم لبتن بك كـ"أناس معتدلوا المزاج، ميالون للسلام" والذين أظهروا كفاءة حربية ممتازة عند تدريب الإنجليز لهم. والدينكا والشلك، والذين يشكلون معظم الأكوية السوداء في الجيش المصري، يكونون إحتراماً كبيراً لكل من شارك معهم في العمليات. وهناك الآن آلاف منهم يعملون، بدون إرادتهم، تحت رايات الخليفة، وربما يكون لهم دور كبير في تقرير مصير الحرب التي ستشعب عند القيام بأي زحف نحو السودان. ومن المعتقد أن السود الذين عملوا مع السير صمويل بيكر والجنرال غردون سيتحولون للخدمة تحت قيادة أي رجل أبيض عندما تحين الفرصة لذلك.

من الملخص السابق يمكن أن نرى كيف نشأت صحوة دينية، غذتها الجماهير المتشعبة بالخرافات في بوادي كردفان الموبوءة بالفقهاء، وفي القرى البائسة بوادي النيل. وكيف أستغل البقارة ذوي الكبرياء هذه الثورة وإستخدموها كسلاح لهم، وهم في غمرة سخطهم على منع تجارة الرقيق، بينما أيدها رعاة الإبل بقتور تعوزه الحماسة، وهم الذين سيكونون أول من يرحب بعودة الحكومة.

أما سكان القرى والمدن، والذين هم في متناول يد العساكر الذين أنهكهم، فقد ظلوا لوقت طويل ضحية لأنواع من الظلم والقسوة الوحشية وسوء المعاملة. ومنذ لحظة مغادرة غردون في عام ١٨٧٨ للسودان، قام الجنود والموظفون المتنفذون بالانتقام منهم بعد صبر طويل على حسن المعاملة التي أجبرهم غردون عليها، وقاموا بتسوية الحساب معهم ببيع عظيم. لكن هؤلاء التمساء سيواصلون تحملهم لذلك القهر إذ لا تملأ أفئدتهم أفكار للصحو الدينية، وربما ماتت فيهم، رغم أنها تشكل السلاح للبقارة الذين أعطوا الثورة قوتها وزخمها. فهم الذين وطأوا لها الطريق بحماس، وهم الذين إستغلوا نقطة الضعف لدي الولي فأشبعوا رغباته غير الطبيعية وافتتاته بالنساء، وهم الذين قدموا بناتهم كزوجات وباعداد لا تحصى، وهم الذين تسلموا بعد ذلك بقليل أعنة السلطة وحولوا تلك الحركة تماماً لمصلحتهم. وكما هو واضح من لقب البقارة الذي يطلق عليهم، فهم أصحاب أعداد ضخمة من الماشية ويعيشون في أفضل مناطق السودان. وهم في سعة من العيش بمنظور الثروة التي يمتلكونها والتي لا يعرفون سواها والممثلة في المواشي والذرة وتجارة الرقيق. وبلادهم عموماً هي إمبراطورية سنار العريقة، والتي كانت تشكل، حني الغزو المصري لها، واحدة من سلسلة من

الممالك المزدهرة التي تمتد عبر أفريقيا على طول خط العرض ١٣ درجة، أي في المنطقة المعتدلة الواقعة بين حزام الجفاف وحزام الأمطار الغزيرة، بين الشاربين اللبن والعائشين على أكل اللحوم. هؤلاء هم الذين وجدوا فجأة أن تجارة الرق قد أوقفت، وأن التجارة على النيل الأبيض بكافة أشكالها قد أوقفت بأمر من الحاكم. وبدأوا يتساءلون في عام ١٨٨١، وبجدية بالغة، عن طبيعة ذلك الرجل الذي أصدر مثل تلك الأوامر. لقد غادر الحاكم الإنجليزي الجنرال غردون السودان ومعه زالت آخر المعالم للحكم الرشيد. وبقي في الحكم من بعده لابسو الطرابيش المهندمين والذين كانوا، رغم صفاقتهم وغطرستهم، كالأضحوة في مسرحية هزلية. ورغم ما لديهم من بنادق ومدافع إلا أن محاولة تحدي سلطاتهم كانت تستحق التجربة.

كان وجود غردون كارثة بالنسبة لهم. وإذا ما وقع في يده أي تاجر رقيق فلن تجدي أي محاولة لإنقاذه من بطشه، إذ لم يكن هناك أي شيخ له قوة أو نفوذ يستطيع ذلك منه أو من اليد اليمنى الصاعقة لغردون، وهو جيسي. حني الزبير نفسه الذي كان يمثل تيبوتيب السودان قبل عشرين عاماً كان علي وشك أن يقبض عليه. وقد تم إعدام ابنه سليمان مع أحد عشر رجلاً آخر، مع تعليق من غردون قال فيه: "وهكذا يفتح الله ثغرة في صفوف أعدائه". والآن ذهب غردون وغرق بعده، في لجة رديئة من الحكم الرديء كل تلك الألوية والمدراء والمفتشين القائمين على إيقاف تجارة الرقيق بعد أن كانوا قد خرجوا منها لفترة. وقد كتب ستورات:

"في عام ١٨٧٧. تم تعيين الكولونيل غردون حاكماً عاماً على السودان، بما في ذلك هرر والمديريات الاستوائية. وقضى معظم الوقت في الترحال. وتم في عهده إخماد ثورة هارون في مديرية دارفور وكذلك ثورة سليمان الزبير في مديرية بحر الغزال وقبض علي سليمان الزبير وأعدم بالرصاص. وتم بذل جهود عظيمة للقضاء علي تجارة الرقيق.

وفي عام ١٨٨٠ عين رؤوف باشا حاكماً للسودان. لكنه كان آخر من يصلح لركوب العاصفة التي أطلقها غردون ببقظته التي لا تكل ولا تمل. وخلال حكمه بذل جهوداً كبيرة لخفض النفقات. وفي أغسطس ١٨٨١ بدأ محمد أحمد المهدي رسالته المقدسة:

كان غردون مخلصاً في نواياه لمقاومة تجارة الرقيق. وأضاف لهذا الإخلاص قدرة وحيوية لم تترك إلا شيئاً قليلاً من عمله بدون إنجاز. وتم إيقاف تجارة الرقيق مؤقتاً أينما حل. لقد أشعل النيران التي لم ير رؤوف باشا وعبد القادر باشا، اللذان خلفاه في وظيفته، أن بمستطاعهما عمل شيء سوي التفرج على لهيبها. وعندما زالت طاقات غردون الماتحة للحياة، تراجع المصريون ككتلة خاملة لا حياة فيها. كانت سلامتهم في التكتل. وجعلت أعدادهم الكبيرة منهم وقتها كتلة يصعب

* يقال أنه قبل ذلك التاريخ، وفي أوائل ١٨٨٠. سافر محمد أحمد من الجزيرة أبا إلى الأبيض حيث بدأ نشر دعوته سراً. وذات يوم، عقب صلاة الجمعة قام على رأس ملة من أتباعه الذين يحملون الرايات ويهتفون: "مرحباً بالإمام العظيم مهدي الله"، ثم توجهوا لمسجد سوار الذهب حيث قام ضابط مصري بإلقاء القبض عليه وإرساله للمدير الذي أمر بسجنه. ولكن بعد وساطة من ألياس باشا (مدير كردفان السابق) وود العريق (مر التجار) وسوار الذهب (من كبار رجال الأبيض) تم إطلاق سراحه بزعم أنه مصاب ببلوثة عقلية وعاد إلى أبا.

مهاجمتها. لقد قام روؤف باشا بتوفير النفقات وأرسل الوفاً من الجنود العرب والسود غير النظاميين للبحث عن قائد وكأنه كان يعمل على تجنيد قوات محمد أحمد لصالحه.

عدة عوامل ساعدت على تهديد الأرض له. لكن القاعدة العريضة لدعوى المهدي تمثلت في الظلم والبطش بكافة أشكالهما والتي ظهرت على السطح عندما زال النظام الشامل الذي أرسى قواعده غردون. وأصبح المسرح ممهداً الآن، بعد أن توطدت أركانه، لظهور محمد أحمد بن السيد عبد الله. ولا يوجد أي شك في أن هذا الرجل، قبل أن تتقلب عليه شهواته الحسية، هو صاحب أصفى رؤية عقلية وأقوى ذهن في مساحة المليوني ميل مربع والتي أصبح، بدرجة أو بأخرى، سيداً عليها قبل وفاته. ومما يدعو للأسف أننا لا نعرف عن نشأته الأولى أكثر مما سنورده الآن:

فقد ولد في دنقلا عام ١٨٤٨. من أسرة اشتهرت بصناعة المراكب وتميزت في ذلك حيث أن مراكبها، وحنى يومنا هذا، تشتهر بدقة الصناعة. وقد تميز وسط عائلته، ومنذ باكورة أيامه، بالذكاء الشديد وبالتالي أرسل لتلقي دروس الدين. وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره كان في رتبة شيخ له سمعة عظيمة في الطهارة ونظافة اليد وانتشرت مواعظه في كافة الأصقاع. وكان الرجال يزرفون الدموع بكاء ويضربون صدورهم متأثراً بأقواله المثيرة التي تحرك الأتجان. وحنى زملاؤه الفقهاء لم يكونوا يخفون إعجابهم به.

وبدايات المسار الذي درج فيه المهدي مثيرة للإهتمام حقاً. فهو رجل طويل القامة، يميل للنحافة، متين البنیان، وله مثل الكثيرين من الدناقلة عيون واسعة وقسمات جميلة. كان محمد أحمد في مظهره الخارجي يحمل كل سمات السيد (الجنتمان) النبيل التريبة.

كان يتحرك في كبرياء وهدوء. لكنه لم يظهر عليه أي شئ غير عادي حنى بدأ في إلقاء مواعظه على الناس. وهنا ظهرت كوامن القوة التي تكمن فيه والتي أطاعه الناس بسببها. كان يحرك مشاعر مستمعيه بكلماته الصادقة فتهتز أفئدتهم ويحنون رؤوسهم وكأنهم أعواد الذرة التي تهب عليها الرياح. ويا للمواضيع التي كان يطرقها! فإذا ما قارناه بخطباء الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ الذين ينددون بالظلم فأنا نجدته يتحدث عن ضعف ذلك الظلم الواقع على السودانيين. وإذا ما خاطبوا الجماهير المستعبدة طويلاً في فرنسا وأستولوا على مشاعرهما فإن المهدي كان يثير مشاعر البؤساء ويحرك عواطفهم بقوة تزيد عن ثلاثة أضعاف تأثير خطباء فرنسا. لم يكن يلجأ لوصف معاناة الناس فقط بل يقوم بشجب وتوبيخ الذين تسببوا فيها. كان يمد ذراعه الطويل للأمام ويشير غلى الضرائب الذين مرة ومرتين وثلاثة مرات، ثم مرة أخرى، لينتزعوا منكم آخر معزة وآخر قصبه ذرة، منكم أنتم أيها البانسون الذين تستمعون لي بأعين مفتوحة!*

ثم يحثهم بلهجة محذرة حادة، مثلما حث وايتفيلد وويسلي (الإنجليز والأمريكان) من قبل بأن كل هذا الشقاء والقهر ما هو إلا تعبير عن غضب الله عليهم وعلى شرور أفعالهم. وأنه، ومنذ

* تتشابه كلمة (سيد) مع (معبد) في اللغة الإنجليزية ويجب عدم الخلط بينهما... (المؤلف). (شرح المؤلف معنى كل منهما والفرق بينهما - المعرب).

* إضافة من المعرب، مأخوذة عن موسوعة هتشنسون (المعرب).

أن توفي الرسول، فقد أُنحدر العالم نحو الخطيئة والجهالة. لكن الوقت قد حان لوضع نهاية لكل ذلك. فسيرسل الله مخلصاً يزيل الغشاوة عن أعينهم، والجنون من عقولهم، وسيزول الكابوس إلى أبد الأبد. ولنقوة عقيدتهم في قالدهم الولي، فإن هؤلاء الرجال الذين صنعوا من جديد، وبعد أن صفت الرؤية لديهم، ووضعت الخطط الدقيقة أمامهم، سينهضون ويستولون على الأرض وسيلقي بجباة الضرائب في الأبحار والكهوف وسيتم طرد الموظفين المرتشين من الأرض التي إغصبوها وسيلقي بالترك، ليمارسوا هذيانهم، في المستنقع الآسن الذي يستحقونه. فيظهر المهدي فإن الحق سينتصر وسيتم وضع نهاية لكل القهر والاستبداد. فمتى يظهر هذا المهدي؟ لا عجب في أن كل كوخ وكل دغل كان يردد صدي الحنين والشوق لظهور المنتظر. كانت الرياح الحارة تهب من الصحاري للسهول بحشائشها الهزينة، ومن سلاسل الجبال إلى الوديان الرملية، وهي تهمس في هبوبها: المهدي! المهدي! كل الطبيعة أدلت بدلوها. ومهما كان ذلك طفولياً كما يبدو إلا أنه كان ذو فعالية لا تنكر. كانت النسوة يجدن منقوشاً على بيض الدجاج أسماء: محمد، عيسى، المهدي. حني أوراق الشجر، عند سقوطها على الأرض، تحمل نقش تلك الأسماء المقدسة. امتلأت الأرض بفكي من بعد فكي وكثير منهم متمكنون من إثارة مشاعر الجماهير وتحريكها. كانوا يجبنون ويستمعون لما يقول وسرعان ما أيقنوا أنهم وجدوا زعيمهم هنا. إنتشر الخبر بينهم وتفشى حني جاء إلى الجزيرة أبا، علي بعد مائة وخمسين ميلاً جنوبي الخرطوم، مجموعة من الرجال ذوي العزيمة الذين استمعوا الكلمات اللاهبة وشاهدوا هيئة الرجل الطويل النحيف الجاد فقالوا له: "إنك أنت قالدنا المنتظر". فقال لهم بسرية ووقار: "نعم. أنا المهدي".

وهكذا بدأت مواعظه بين قري ضفاف النيل. كان خطابه مركزاً علي ظلم جباة الضرائب. ثم تحرك نحو السهول والوديان من حول قدير. وهنا تحدث عن الأتراك الجبناء الذين شوهوا الدين العتيق وعن صعاليك الأجانب الذين طردوا أصحاب الأرض الأصليين. وكانت أول القبائل التي ألهمت شرارته نيرانها هي قبائل سليم من العرب البقارة والذين يقطنون الديار جنوب جبال تقلسي والداير والنوبة.

* يعني أسم (المهدي): الذي هدى إلى طريق الخلاص الحق. من هنا يمكن أن يسمى (المُرشد) أيضاً. ونجد في تعاليم كل الفرق الدينية الإسلامية صلة وثيقة بين المهدي وبين عيسى المسيح. ويعتقد البعض بأن المسيح سيكون هو المهدي أي يتوقعون مجيئه مرة ثانية. والبعض الآخر يشارك ابن خلدون في فكرته التي جاءت في مقدمته عن تاريخ العرب والفرس والبربر عندما قال: "إعتقد المسلمون في كل الأوقات بأنه سيأتي في آخر الزمان رجل من نسل النبي ليعيد للدين مكانته، وسيقود المؤمنين واسمه المهدي، ثم يظهر بعد ذلك المسيح الدجال، وبعد ظهوره سينزل عيسى المسيح من السماء ليدمره ويكون المهدي إماماً لعيسى.

ملحق القسم الأول

(مقتطفات من تقرير الكولوفيل ستيوارت حول السودان)

(كتب في الخرطوم في ٩ فبراير ١٨٨٩)

نبذة تاريخية:

يقال بأنه بين القرنين الأول والثاني من ظهور الإسلام بدأ العرب الأمويون^{*}، بعد أن ضيق العباسيون الخناق عليهم^{**} بالهجرة من جزيرة العرب بأعداد صغيرة إلى الشاطئ المقابل من البحر الأحمر، ليستقروا في المناطق المجاورة لسنار على النيل الأزرق. ولكن من المستحيل أن نجزم إن كان بنو أمية هم الذين قادوا طليعة التدفق العربي الكبير (للسودان)، أو أن نقرر بأن كل القبائل قد إختارت طريق البحر الأحمر لوصولها (للسودان)، فبعض المراجع تشير علي ما يبدو بأن كثيراً من المهاجرين قد جاءوا للسودان من مصر ومراكش.

ومهما كانت حقيقة الأمر فإن بني أمية قد إستقروا شيئاً فشيئاً في تلك الأقاليم السنارية والتي كان سكانها الأصليين من الزنوج التابعين لقبائل الفنج والهمج وغيرهم^{***} وبعد أن قويت شوكة بني أمية تدريجياً، أفلحوا في السيطرة على كل أقاليم سنار وأدخلوا الزنوج في دين الإسلام.

وشيئاً فشيئاً ذابت الفوارق بين العرب والزنوج وعندما حل عام ١٤٩٣ لم يعد هناك من يسمع باسم بني أمية وبدأت أسماء قبائل الفنج والهمج وغيرها في الظهور.

وفي تلك السنة أفلح عمارة دنقس، وهو شيخ لفرع من قبيلة الفنج، وسواء لحظوظه في الحرب أم لقدراته الخارقة، في جعل نفسه ينصب ملكاً علي كل قبائل الفنج. ثم تحالف مع عبد الله جماع القرين، الزعيم القوي لإقليم قري (بشرق النيل الأزرق) وإفتتحا كل المناطق الواقعة على جانب النهر بين فازو علي والخرطوم.

تلك المناطق المفتوحة كانت تابعة لقبائل نوبية، بقي بعضهم بعد الفتح بينما هاجر البعض الآخر إلى جبال فازو علي وكردفان. إعتق الذين بقوا الإسلام وتزوجوا مع الفاتحين وإندثرت لغتهم ورعويتهم وذابوا في الكيان الكبير المسمى بالفنج.

^{*} أسماهم الكاتب (عرب قبيلة بني عمر) وصحناه (المعرب).

^{**} أسماهم الكاتب (قبيلة بني عباس) وصحناه (المعرب).

^{***} نزع هذه النبذة التاريخية بالخلط والإضطراب والتشوية. ونقلنا معظمها، كما جاءت. بدون تصحيح (المعرب).

^{*} الصحيح أن قري شرق النيل للرئيسي، وليس النيل الأزرق. على بعد بضعة أميال شمال شرق الخرطوم (المعرب).

ومن تلك القبائل (العربية) من استقر في المدن، بينما احتفظ البعض الآخر بعاداتهم البدوية مثل الخمير وربيعة وقحطان وكنانة والكواهلة وجهينة وبنو شكر وبنو ذبيان وبنو عباس. ومن القبيلة الأخيرة أنحدر الكبابيش والفزارة وبنو سليم والأحامدة. والقبيلتين الأخيرتين من البقارة أصحاب المواشي والخيول.

والآن توجد كل تلك القبائل على جانبي النيل الأبيض.

وفي عام ١٥٢٣ تولى عبد القادر الملك خلفاً لأبيه عمارة دنقس.

وفي عام ١٥٣٩ تولى نول الملك خلفاً لأبيه عبد القادر.

وفي عام ١٥٤٥ خلف نول ابنه عمارة.

وكان عمارة يلقب ب (أبو سكاكين). وفي عهده توفي الشيخ عبد الله جماع تاركاً ولاية قري لابنه.

وفي عام ١٥٥٣ توفي عمارة. وبين ذلك التاريخ وعام ١٥٩٦ تولى أربعة ملوك من عائلة دنقس الملك خلفاً لبعضهم البعض.

وفي عام ١٥٩٦ وفي عهد عدلان. تمرد الشيخ عجيب، سليل الشيخ جماع وحاكم قري وهزم في ألتى أمام عدلان، بينما هرب أبناؤه لدنقلا. فأرسل عدلان الشيخ إدريس لهم حاملاً عفواً تاماً عنهم مع دعوتهم للقدوم إليه بسنار. جاءوا لسنار وقام عدلان بتنصيب كبيرهم حاكماً على قري. كان هذا المبعوث لعدلان، الشيخ إدريس، مشهوراً بقدراته. ويقال بأنه قد عمر حتى وصل إلى سن ١٤٧ سنة. وخلال ذلك العهد جاء عدد كبير من العلماء من مصر ويغداد لسنار.

وفي عام ١٦٠٣ خلف بادي والده عدلان.

وفي عام ١٦٠٦ خلف رباط والده بادي.

وفي عام ١٦٣٥ خلف بادي أبو دقن والده رباط. وقام هذا الملك بمقاتلة الشلك وأخذ منهم عدداً كبيراً من العبيد. يسكن الشلك ضفتي النيل الأبيض جنوب الكوة.

ثم قام بغزو جبل تغلي ودمر كردفان وأخذ عدداً كبيراً من العبيد مرة أخرى. وأثناء عودته لسنار بني لعبيده عدداً من القرى في الإقليم أسكنهم فيها.

وقد أسمي العبيد تلك القرى بأسماء القرى بأسماء القرى التي خرجوا منها. ومن هنا فإن القرى العديدة التي بالقرب من سنار تحمل أسماء شبيهة بتلك التي بجبال النوبة وتغلي وبقيّة القرى بأثناء كردفان.

وعلى مر الوقت كانت قرى العبيد تلك هي التي تغذي جيوش المملكة بالمجندين.

وإضافة لأعماله الحربية بني بادي المسجد القائم الآن بسنار وذود نوافذه بقضبان من النحاس.

وفي عام ١٦٧١ توفي الملك وخلفه ابنه أنسة. وفي عهده حلت مجاعة عظيمة بالبلاد مصحوبة بوباء الجدري.

وفي عام ١٦٨٣ خلف بادي الأحمر والده أنسة. وفي عهده تمرد عدد من قبائل الفنج وسكان قرى بقيادة أميرهم. لكنهم هزموا بعد مذبحة عظيمة قتل فيها أمير قرى. وقد عاش الشيخ حمد ود الترابي المشهور في ذلك العهد، وقبره الآن في سنار. وفي عام ١٧١٠ خلف بادي ابنه أنسة الثاني. وقد سبب هذا الملك بأسرافه وفجوره استياءً عاماً، وثار عليه الفنج الجنوبيون وأطاحوا به ونصبوا أحد عليّة القوم، واسمه نور، في مكانه على العرش. وقد جرى ذلك عام ١٧١٤. وفي عام ١٧١٩ خلف نور ابنه بادي أبو شلوخ. وفي عهده غزا ملك الحبشة، قدم بأسو، سنار بجيش عرصرم. لكنه هزم على كل حال بعد مذبحة عظيمة على يد شيخ الأمين وذلك بالقرب من قرية التكية على نهر الدندر. ويقال أن سبب هذا الغزو أن الملك بادي كان قد صادر بعض الهدايا التي أرسلها ملك فرنسا لملك الحبشة.

وبعد ذلك النصر طارت شهرة سنار في كافة الأمصار ووصلت حتى إلى استانبول. وجاءت زرافات من العلماء ومشاهير الرجال إلى سنار، قادمين من الجزيرة العربية ومن مصر والهند. وبالرغم من كل هذا فقد أطيح ببدي عام ١٧٥٨ لسوء إدارته وأرسل للمنفى ثم خلفه ابنه ناصر عام ١٧٥٨. وتحت حكم ناصر أصبحت قبيلة الهمج في غاية من القوة. وفقد الفنج قدراً كبيراً من نفوذهم وهيبته. وقد قتل ناصر عام ١٧٦٥ بيد أحد أتباعه الثائرين، وخلفه ابنه إسماعيل.

وأطيح بإسماعيل عام ١٧٧٤ ونفي إلى سواكن ونصب ابنه عدلان مكانه. وفي عهده نشبت عدة حروب قبلية في سنار وكردفان وازداد نفوذ الهمج لدرجة رهبة حتى تمكنوا من السيطرة على الملك نفسه. وفي عام ١٧٨٦ أطاح الهمج بالملك وبدأت مملكة الفنج في التلاشي وساد الطغيان أرجاء البلاد وأصبح الملك ينتقل من يد إلى يد بسرعة بالغة لدرجة أن عام ١٧٨٨ شهد وحده تنصيب أربعة ملوك على التوالي. وخلال الثلاثة وثلاثين عاماً التالية التي اتسمت بالطغيان والقهر وسفك الدماء كانت السيادة الفعلية للهمج. وبقيادة الشيخ ناصر إستباحوا السودان الشمالي والشرقي وحكموه بالسيف والنار.

وفي عام ١٨١٩ قام محمد علي (باشا)، بعد أن سمع بما يسود السودان من القهر والطغيان، ولرغبته في إدخال منافع الحكم المنظم والحضارة إليه، وفي نفس الوقت ليجد شيئاً يشغل به جيوشه، بأمر ابنه إسماعيل (باشا) بغزو السودان وذوده بجيش كبير من القوات النظامية وغير النظامية، كما أمده بعدد من العلماء والفنيين من أرباب الصناعة والحرف.

وصل إسماعيل للخرطوم بدون أن يلقي أي مقاومة ومنها توجه نحو سنار. وهناك جاءه أخوه إبراهيم باشا وتوجها سوياً إلى فازو غلي. وبعد ذلك بقليل رجع إبراهيم إلى مصر ولكن إنتشرت أقاويل بأنه كان قد قتل في جبال فازو غلي. فقام العرب البدو بثورة أخمدها إسماعيل بعد أن عاد بسرعة وبعدها قام بتعيين شيوخ جدد. ثم توجه بعد ذلك إلى شندي على النيل. وقام الملك نمر، ملك تلك المنطقة، ورغبة منه في الإنتقام لكل القسوة والبربرية والجرائم التي ارتكبتها إسماعيل، بدعوة إسماعيل وأتباعه إلى حفل كبير في شندي. وأثناء الحفل، وبينما كان كل الضيوف في سكر وتمل قام بإحراق المنزل وهلك إسماعيل وكل من معه.

* من المعروف أن قبره في حلة ود الترابي بريفي الكاملين وليس بسنار (إلا إذا كان الكاتب يقصد الإقليم) المغرب.

وعندما وصلت أنباء تلك الكارثة لکردفان قام أحمد بك الدفتردار، والذي إنتزع تلك المديرية من سلطان دارفور، بقيادة جيش كبير وتوجه به نحو شندي. وعندما بلغ المئمة، المقابلة لشندي، أرسل سكانها إليه طالبين العفو، وقد منحه لهم. لكن واحداً من الأهالي تصادف أن ألقي حربة على الدفتردار فألقي عفوه عنهم وأحدث بهم مذبحة عامة. ونجا المك نمر رتمكن من الهرب للحبشة.

وبعد ذلك توجه الدفتردار إلى جزيرة توتي، المناهضة للخرطوم، حيث هزم الثوار مرة أخرى وأحدث بهم مذبحة عظيمة ثم توجه إلى ود مدني (بالقرب من المسلمية) وبعدها رجع إلى كردفان.

ويقال أن كردفان عندما تم غزوها كان حاكمها يلقب بالمقدوم وهو لقب لا يعطي إلا لخصيان القصر. ويبدو أن سلاطين دارفور اعتادوا على إرسال الخصيان لحكم الأقاليم والمديريات التابعة لهم.

وفي ١٨٢٢ سمي عثمان بك حاكماً للسودان بينما عاد أحمد بك الدفتردار إلى مصر. وكان ذلك العام عاماً للمجاعة والثورات.

وفي ١٨٢٤ عين محو بك حاكماً.

وفي ١٨٢٦ عين خورشيد باشا حاكماً. وهو رجل أشتهر بعفته وإستقامته. وقد قاد بعض الحملات على النيل الأبيض ضد قبيلة الدينكا الزنجية، في منطقة مواجهة لغشودة، وكذلك قام بحملة على جبال تقلي. وفي عام ١٨٣٤ توجه لمصر لبضعة شهور. وبنهاية ذلك العام توجه إلى الحدود الحبشية السودانية لصد هجوم للحبش الذين جاءوا لمساعدة متمردي سنار. تمت هزيمة الأحباش وقبض على زعيمهم عدلان وتم إعدامه بالخازوق. وفي هذه السنة إنتشرت الكوليرا وغيرها من الأمراض في أرجاء البلاد. وفي عام ١٨٣٦ هجم الأحباش على مديريات القلايات ثم تراجعوا إلى جبالهم.

وخورشيد باشا هو أول حاكم يعطى أهالي الخرطوم كيف يبنون بيوتهم بالطوب ويتركوا أكواخهم المصنوعة من الجلود والبوص.

وقد استدعي لمصر عام ١٨٣٧ وخلفه أحمد باشا أبو ودان. وقد قام محمد علي باشا بزيارة للسودان أثناء حكمه ومضي بعيداً حتى فازوغلي ومكث بها حتى نهاية عام ١٨٣٧ يراقب الكشف عن مناجم الذهب. وفي ١٨٣٨ ذهب أحمد باشا إلى شندي للقبض على المك نمر، الذي كان قد عاد إليها، لكن المك إستطاع مرة أخرى الفرار بعد أن قتل أحد ملازمي الباشا.

وفي ١٨٤١ نشبت ثورة في كسلا وتم إخمادها. وتم تقسيم السودان إلى سبعة مديريات هي (١) فازوغلي، (٢) سنار، (٣) الخرطوم، (٤) النكا، (٥) بربر، (٦) دنقلا، (٧) كردفان.

وفي سنة ١٨٤٢ عين أحمد باشا منكلي حاكماً عاماً (حكمداراً). وفور وصوله، ونظراً لسوء الإدارة وعدم كفاءة الموظفين، نشبت ثورة أخرى في كسلا. توجه الباشا إليها وأخمد الثورة وساق معه عدداً من السجناء إلى الخرطوم حيث قطع رؤوسهم.

وفي ١٨٤٥ حل خالد باشا محله. وأمضى هذا الحاكم معظم وقته يحوي أنحاء البلاد.

وفي ١٨٤٩. أصبح عبد اللطيف باشا حاكماً عاماً. وأمضى وقته في إصلاح الأخطاء والظلم التي ارتكبتها أسلافه وفتح مدارساً بالخرطوم وشيد قصر الحكومة (السراية).

وفي ١٨٥٠ حل محله رستم باشا والذي أنشأ ونظم محكمة بالخرطوم، وأحضر لها قضاة ومستشارين من القاهرة. لكنه توفي في العام التالي لوصوله (١٨٥١) وحل محله سليم باشا والذي كان قد غادر القاهرة مرغماً على غير إرادته.

وفي ١٨٥٣ أصبح علي باشا سري حكمداراً.

وفي ١٨٥٤ عين علي باشا شركس حكمداراً. وبعد زمن قصير من توليه قام عبد الحليم باشا، ابن محمد علي باشا، بزيارة للسودان ومكث به حتى نشبت الكوليرا فيه فرجع. وفي عام ١٨٥٦ قام الخديوي محمد سعيد باشا أيضاً بزيارة السودان. وبعد أن نظر في شؤنه كاد أن يتخذ قراراً بالتخلي عن السودان. ولم يعدل عن رأيه إلا بعد توسط الشيوخ والأعيان والذين أوضحوا له الطغيان الحتمي والشر الذي سينجم عن خطوة كهذه. لذلك أصدر أوامره للقيام بعدة إصلاحات مثل (١) منع جمع الضرائب بواسطة المصاكر. ووجه بأبعادهم من تلك المناطق، (٢) بأن على القرى أن تدفع ضرائبها في المستقبل عن طريق الشيوخ. (٣) تخفيض كل الضرائب على مياه الري. (٤) وألا تجمع ضرائب المزروعات إلا بعد حصادها. (٥) وأن يعقد مجلس سنوي للأعيان للنظر في شئون البلاد..... وغير ذلك.

وفي ١٨٥٦ أصبح أراكل، الشهير بالفرنساوي، حكمداراً على السودان. وقد اشتهر بعده وبقدراته الإدارية.

وفي ١٨٥٨ عين حسن بك حكمداراً.

وفي ١٨٦١ عين محمد رازق بك حكمداراً.

وفي ١٨٦٢ خلفه موسي باشا حمدي. فأعاد النظر في نظام الضرائب وأمد الأهالي بورق مختوم محدد فيه مقدار الضريبة على كل منهم. ثم توجه (بجيشه) نحو الحدود الحبشية ولكن الحبش، كالعادة، تراجعوا إلى جبالهم. وقبل عودته على كل حال، وجه بنهب وتخريب إقليم ولكايت، وهو إقليم تابع للحبشة ويقع فيه لاجئاً الملك نمر. كان هذا الباشا موظفاً سودانياً قديماً وقد خدم في كثير من الأماكن من بينها كردفان وتقلي حيث قام بإخماد العديد من الثورات بقسوة ووحشية متناهية. وقد مات بالخرطوم عام ١٨٦٤ وحل محله عمر بك فخري.

وفي عام ١٨٦٥، وبمجرد ما كان هذا الحكمدار في طريقه للقاهرة، تسردت حامية التاكا بكسلا. تسبب في هذا التمرد الجنود الزنوج الذين لم يتسلموا أي مرتبات لعدة شهور طويلة. وبعد ثمانية عشر شهراً من عدم الصرف لهم بدأوا في التذمر. ورفع هذا الأمر للقاهرة بدون إيداء سبب ذلك التذمر وجاءت التعليمات من القاهرة بإرسال أولئك الجنود لمصر وإحلال مصريين محلهم. ومن ثم انفجرت الثورة علناً. كان عدد المتمردين يصل إلى ٨٠٠٠ رجل. ولما لم يكن لهم أي قائد أو حتى ذخائر فقد كان أثر تمردهم ضعيفاً وتوفر لدي الحكومة الوقت لإرسال تعزيزات لإنقاذ مدينة كسلا.

ووصل جعفر باشا عام ١٨٦٥ كحكمدار للسودان، وجاء معه عدد كبير من الجنود عن طريق كروسكو. وفي نفس الوقت تم إرسال جعفر باشا مظهر من مصر، ومعه عدد آخر من القوات أيضاً، عن طريق سواكن، إلى التاكا، وقد نجح في إخماد التمرد. ومن كسلا توجه إلى الخرطوم حيث

عين حكمداراً بالنيابة عن جعفر باشا صادق، الذي عاد للقاهرة. وتم إرسال الجنود السود إلى مصر وحل محلهم جنود مصريون.

وفي عام ١٨٦٦ قام جعفر باشا برحلة تفتيش بأتحاء السودان المختلفة. وعندما عاد للخرطوم أرسل لمصر لإعادة الجنود السود من هناك. ثم توجه للقاهرة بعد أن ترك وراءه حكمداراً بالإتابة.

وفي ذلك العام تم تنازل سلطان تركيا عن أقاليم مصوع وسواكن لمصر.

وفي ١٨٦٨ عاد جعفر باشا مرة أخرى للسودان وعلى الفور أمر بإرجاع القوات المصرية لمصر.

وفي عام ١٨٧٠ بارحت الخرطوم حملة السير صمويل بيكر لإستكشاف مناطق خط الإستواء، كما تم في نفس العام إرسال حملة أخرى، بقيادة هلاي، وهو أحد مواطني دارفور، لبحر الغزال لإحتلال مناجم النحاس، في حفرة النحاس. وهذه الحملة كانت المؤشر الأول للتفكير في غزو دارفور.

وفي نفس السنة أيضاً قام الألماني مونزجر بضم إقليم سنهايت لمصر. ورغم أن سنهايت كانت تدفع الجزية للحبشة، إلا أنها كانت مستقلة من ناحية عملية، يقودها شيوخها تحت حماية الحكومة الفرنسية. وتقدم مونزجر، الذي كان قد أقام هناك لعدة سنوات، واكتسب نفوذاً عظيماً، باقتراح للحكومة المصرية ليسلمها ذلك الإقليم. تم قبول اقتراحه، وأنعم عليه برتبة البكوية، وعين مديراً لمديريات البحر الأحمر، وضمت المنطقة بهدوء إلى مصر. لكن الأقباش لم يعترفوا أبداً بهذا الضم وواصلوا جباية الضرائب من الأهالي. وواقع الأمر يشير إلى أن المنطقة حبشية، ولم تمتد حدود الأقاليم المصرية لما وراء حدود قلعة كرن. وأهالي المنطقة يعانون من البؤس والفقر الشديدين ولم يتمكنوا أبداً من دفع الجزية المقدرة عليهم، والبالغة ٦٠٠ ريال، إلى المصريين.

وفي عام ١٨٧١ عين ممتاز باشا حكمداراً وقام بتشجيع وترقية زراعة القطن. لكن لامبالاة، وقد نقول غباء إدارته، أدت إلى تكرار التظلمات والشكاوى منه حتى أنه طرد من الخدمة وألقي به في السجن بالخرطوم، في إنتظار التحقيق معه، حتى مات فيه عام ١٨٧٥.

وفي عام ١٨٧٣ اسمى إسماعيل باشا أيوب حكمداراً. وشرع فوراً في إزالة السدود (التي تعترض مجري النيل الأبيض). وفي هذه السنة عاد السير صمويل بيكر من الإستوائية بعد أن ترك في القيادة هناك رؤوف باشا.

وفي ١٨٧٤ عين الكولونيل غردون مديراً للمديريات الإستوائية. وفي عام ١٨٧٥ بدأ الزبير باشا، مع جنوده البازنقر والدناقلة، غزو دارفور بأوامر من إسماعيل باشا أيوب والذي دعمه (ببعض) القوات والبنادق... الخ.

وفي هذه السنة أيضاً اقترح منزجر باشا ضم الإقليم الواقع إلى الجنوب من مصوع، لكنه قتل غيلة. وفي نفس السنة توجهت حملة أخرى، بقيادة رؤوف باشا، لفتح هرر. وأفلحت الحملة في مهمتها وتم ضم مساحة كبيرة من الإقليم (لمصر).

وفي عام ١٨٧٦، وبسبب من الصراعات الحدودية، نشبت الحرب بين مصر والحبشة، هزم فيها المصريون. وتمكن الأقباش من أسر عدد كبير من الرجال بمن فيهم حسن باشا، ابن الخديوي.

وفي عام ١٨٧٧ تم تعيين الكولونيل غردون حكاماً على السودان. بما في ذلك هرر والمديريات الإستوائية. قضى معظم وقته في الترحال. وأثناء حكمه تم إخماد ثورة السلطان هارون في مديرية دارفور. وكذلك تمرد سليمان الزبير في مديرية بحر الغزال. وقد أخذ سليمان الزبير، ابن الزبير باشا، وأعدم رمياً بالرصاص. كما قام غردون بجهود كبيرة لكبح تجارة الرقيق.

وعام ١٨٨٠ تم تعيين رؤوف باشا حكاماً. وفي فترة حكمه بذلت جهود كبيرة للحد من النفقات. وفي أغسطس ١٨٨١ بدأ محمد أحمد المهدي رسالته المقدسة. وفي ١٨٨٢ عين عبد القادر باشا حكاماً.

المناطق التي تسيطر عليها الحكومة المصرية وحدودها المختلفة

المناطق التي يسيطر عليها المصريون الآن، تحت أسم السودان، تغطي مساحات شاسعة. ويبلغ طولها من الشمال للجنوب، أي من أسوان حتى خط الاستواء، حوالي ٢٤ درجة (من خطوط العرض)، أي حوالي ١٦٥٠ ميلاً. وعرضها من مصوع (حوالي ٤٠ درجة شرقاً) إلى الحد الغربي الأقصى لمديرية دارفور (حوالي ٢٢,٥ درجة شرقاً) ما بين ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ ميلاً.

وتبدأ حدود السودان من قرب برنيس (راس بناس) على ساحل البحر الأحمر، ثم تسير مع خط العرض ٢٤ إلى نقطة غير محددة في الصحراء الليبية، خط طول ٢٨ درجة مثلاً، ومنها تتبع خطاً جنوب غربى حتى تلتقي بالركن الشمالي الغربي لمديرية دارفور، في حوالي خط الطول ٢٣ درجة. ومن تلك النقطة تتجه الحدود جنوباً تقريباً حتى خط العرض ١١ أو ١٢ درجة ثم تتبع مساراً جنوبى شرقى يمر بمونبوتو وبحيرة ألبرت نياتزا وحتى يتصل بمدخل بحيرة فكتوريا نياتزا. ومن هذه النقطة تتجه الحدود للشمال الشرقى وتدخل فيها مديرية هرر حتى تلتقي بالمحيط الهندي في منطقة رأس جاردافوي ومنها تمضي شمالاً مع ساحل البحر الأحمر حتى رأس بناس (بيرنيس).

ملحوظة: وجدت أن من الأفضل إدخال مديرية هرر ضمن حدود السودان، ليس لأن هرر تابعة للحكومة السودانية فقط، بل لأن قليلاً جداً هو ما يعرف عن تلك البلاد وأن من المستحيل أن نقول من أين تبدأ حدود إحدى المديريات وأين تنتهي.

وكل تلك الأصقاع الشاسعة، التي تبدأ من جنوب الحبشة وتمتد من بحيرة فكتوريا نياتزا إلى المحيط الهندي، غير معروفة، بل مجهولة، في واقع الأمر. وسكانها إما من الجالا أو من الصوماليين وغيرهم. وهم لا يشجعون الرحالة (الذين قد يجوبون مناطقهم).

طبيعة البلاد (السودانية) والفوارق بين الأجناس، وحالة الطقس وغير ذلك

في القسم الشمالي، بين أسوان والخرطوم، فإن المنطقة - ما عدا الشريط الضيق المزروع بطول النيل - تكاد تكون صحراء لا يقطنها سوى البدو الذين يقال أنهم من أهل البلاد الأصليين. ويفصل وادي النيل عن الساحل (البحر الأحمر) سلسلة من التلال والأراضي الوعرة غير المرتفعة والجرداء. وهناك سهل منخفض إلى الغرب يفصل النيل عن صحراء بيوضة.

والطقس جاف مثير للوهن. وحرارة الصيف زائدة عن الحد. وتهطل الأمطار بانتظام حتى شندي شمالاً، بين خطي عرض ١٦ و ١٧ درجة، وذلك خلال الشهور يونيه ويوليه وأغسطس. وفي الشتاء، أي ما بين أول سبتمبر وحتى نهاية نوفمبر، تهطل أحياناً أمطار ثقيلة على المنحدرات الشرقية للتلال المطلة على البحر الأحمر أما في المناطق غرب النيل الأبيض، بين الخرطوم وكاكّا، (على خط عرض ١١ درجة) وإلى القرب من النيل الأزرق تظهر الجبال ويزداد إرتفاعها حتى الوصول للحدود الحبشية.

وسكان كل هذا القسم من العرب الخالص تقريباً وكثير منهم من البدو الرحل. والاستثناء الوحيد هو (بعض القبائل) على حدود الحبشة الشمالية والتكاير من سكان القلابات، وهم زنوج هاجروا من المناطق الواقعة إلى الغرب من مديرية دارفور.

وكل الإقليم الواقع شرق وغرب النيل الأبيض، بين جبال النوبة والمرتفعات الحبشية، ومن خط عرض ٨ درجة وحتى مسافة قصيرة من الخرطوم، موبوء بذبابة التسي تسي. وهذه الذبابة، المدمرة للمواشي، تظهر وتختفي مع موسم الأمطار. وهي تلعب على كل حال دوراً مفيداً للحكومة كجماعة للضرائب، لأن كل قبائل الرحل تضطر للهجرة شمالاً باتجاه النقاط والمراكز الحكومية.

ومن كردفان ودارفور وبعض أقاليم بحر الغزال، وأثناء وبعد موسم الأمطار مباشرة، تنتشر بالقرب من المياه بويضات ميكروسكوبية للفرنديت. وهذه (الديدان) تستقر بين جلد وعضلات جسم الإنسان مسببة ألاماً لا تطاق. وقد اختلفت الرؤى حول كيفية دخولها للجسم. فالبعض يقول بأن ذلك يتم أثناء الإستحمام بينما يصر البعض الآخر على أنها تصيب الإنسان عند نومه على الأرض العارية الجرداء.

ومن خط عرض كاكّا (١١ درجة شمالاً) إلى غندوكرو (٥ درجة شمالاً) فإن الأرض عبارة عن سهل مستو تسوده المستنقعات الواسعة على ضفتي النيل الأبيض وبحر الغزال. وإلى الجنوب من غندوكرو وحتى خط الإستواء تتحول المنطقة بالتدرج لتكون جبلية تنتشر فيها الغابات الضخمة في كل مكان، وذات الأشجار المتنوعة، وأشجار الفواكه.

وتتواجد المياه في كل مكان بوفرة ولهذا السبب فإن طقس المنطقة في جهات غرب النيل تلك يعتبر غير صحي كما أن الحرارة غاية في الارتفاع.

ويبدأ موسم الأمطار في غندوكرو في أبريل ويستمر حتى سبتمبر. والأمطار فيها غزيرة وتستمر أحياناً لعشرة أو اثنتي عشرة ساعة. ومن غندوكرو وجنوباً وحتى خط الإستواء بطول فصل الأمطار، حتى يمكن أن يقال أن الأمطار وظهور الشمس قد يتعاقبان بصفة مستمرة طوال السنة في خط الإستواء لكن شهور يناير وفبراير ومارس هي عموماً أكثر الشهور غزارة في معدل الأمطار بها.

ويعود لهذه الأمطار الغزيرة والحرارة البالغة الشدة الفضل في وفرة النمو للنباتات وكثافتها لدرجة أن الأنهار قد تسد تماماً بكتل من النباتات التي يقتلعها التيار ويدفعها نحو المناطق الضيقة من النهر لتشكل حاجزاً صعب الإختراق يزداد انتشاراً حتى يكون ما يسمى بالسد على النهر.

وفي تلك الأصقاع توجد أنواع من الخفافيش والطيور الخضراء التي تمتص دم الخيول والحمير وبقية الحيوانات.

الطرق:

هي عبارة عن طرق قوافل الجمال والتي توجد بها آبار قليلة متباعدة. ولإعطاء فكرة عن إتساع هذه البلاد ولتوضيح سبب التأخير والبطء الشديد في التواصل بين الوسط والأطراف، فأتني سأورد بعض المسافات بين بلد وآخر هنا:

(١) الخرطوم إلى الأبيض: ١٢ مسيرة للقوافل و ٥ مسيرة للبريد.

(٢) الخرطوم إلى الفاشر: ٣٢ مسيرة للقوافل و ٢٢ مسيرة للبريد.

(٣) الخرطوم إلى غندوكرو: ١٨ يوم بالباخرة.

(٤) الخرطوم إلى قوز رجب: ٦ مسيرات للقوافل. هذا وتسود الزراعة

في السهول خلال فصل الأمطار.

(٥) الخرطوم إلى دنقلا: ٨ مسيرات، وعدة آبار.

(٦) الخرطوم إلى أبوحراز ثم القصارف: ٣ يوم بالباخرة ثم ٥ يوم بالإبل.

(٧) الخرطوم إلى قوز رجب ثم كسلا: ٨ يوم بالإبل.

(٨) القصارف إلى القلابات: ٤ يوم بالإبل.

(٩) القصارف إلى الجيرة: ١½ يوم بالإبل.

(١٠) القصارف إلى كسلا: ٥ يوم بالإبل.

(١١) قوز رجب إلى سواكن: ١١ يوم بالإبل.

(١٢) مصوع إلى سنهيت: ٧ يوم بالإبل.

(١٣) سنهيت إلى كسلا: ٧ يوم بالإبل.

(١٤) غندوكرو إلى دوفيللي: ٩ يوم مشياً على الأقدام.

(١٥) غندوكرو إلى مونبوتو: ٣٤ يوم مشياً على الأقدام.

(١٦) غندوكورور إلى فويرا: ١٨ يوم مشياً على الأقدام.

(١٧) غندوكورور إلى لاتوكا: ٧ يوم مشياً على الأقدام.

(١٨) غندوكورور إلى مكرাকা: ٧ يوم مشياً على الأقدام.

(١٩) الفاشر إلى أسيوط: ٤٠ يوم بالإبل خلال الصحراء.

وخلال فصل الأمطار، ولطبيعة الأرض الإسفنجية وكثافة النباتات، فإن من المستحيل السفر من مكان لمكان (في أغلب المناطق).

ولكن في مناطق غرب النيل الأبيض، ولأن الأرض صلبة ورملية، فإن الأمطار لا تعيق الترحال.

خطوط التلغراف الحالية :

١- القاهرة - دنقلا - بربر - الخرطوم.

٢- الخرطوم - أبو قراد - كردفان - فوكة.

٣- الخرطوم - أبو حراز - المسلمية - سنار - فازوغلي.

٤- المسلمية - الكوة.

٥- أبو حراز - القضارف - كسلا - سنهيت - مصوع.

٦- كسلا - قوز رجب - بربر.

٧- سواكن - كسلا.

٨- القضارف - دوكة - القلابات.

٩- القضارف - الجيرة، على نهر ستيت.

الأجناس والقبائل وخلافه :

بجانب التقسيم الرئيسي للسكان إلى عرب وزنوج، فهناك أيضاً (تحت أقسام) تتمثل في عدد كبير من القبائل وفروعها (تحت القبائل)، والتي بعضها يعيش في الحضر (مستقرة) وبعضها الآخر على البداوة. وكل القبائل الزنجية مستقرة تعمل بالزراعة. أما العرب فإن معظمهم بدو رحل متجولون، ولكل قبيلة مجال معروف ومحدد لها. وكل تلك القبائل العربية من أصحاب المواشي والإبل والخيول والعيبد. وهؤلاء العبيد هم الذين يقومون مع نساء العرب بزراعة حقول الذرة أو الحبوب والتي تكفي حوجة القبيلة. أما العربي نفسه فيعتبر العمل اليدوي أو ممارسته لأي مهنة مما يحط من كرامته ولذلك لا يعمل إلا بالصيد أو السرقة أو بممارسة القتال. وبعد الإعتناء بمواشيه فإنه يكرس كل جهده إما للقتال أو لإصطياد الرقيق.

ومن بين هؤلاء العرب من يطلق عليهم إسم البقارة لكنني لم أتمكن من التمييز بين البقاري وأي بدوي عادي. ويقول البعض أن كل القبائل التي لا تمتلك الإبل تعتبر من البقارة.

وبجانب هؤلاء، فإن هناك سكان شمال السودان. وفي مديرية دنقلا خاصة، يقال بأنهم يمثلون العنصر النوبي القديم، وهم، بجانب العربية، يتحدثون بلغتهم الخاصة. والأراضي الصالحة للزراعة في تلك المديرية محدودة جداً. وبالتالي فإن معظم سكانها من النواتية (يعملون على المراكب النيلية ويصنعونها) أو من صغار التجار (الجلابة). وهؤلاء الجلابة يوجدون في كل أنحاء السودان. وكثير منهم كانوا، أو لا يزالون، يمارسون تجارة الرقيق.

وبين النيل والبحر الأحمر، في خط العرض الذي يشمل بربر، نجد قبائل البشاريين والهدندوة وغيرهم. ويقال بأن تلك القبائل هي أيضاً من القبائل العريقة المقيمة في تلك المناطق، وبأنهم ينتمون لجنس مختلف عن العرب، وبأن لهم لغات خاصة بهم وبعضهم لا يفهم العربية إطلاقاً.

الأديان:

كل العرب، من دنقلا وزنوج وغيرهم، المقيمين في حزام العرب، مسلمون يتبعون المذهب المالكي. لكن ممارسة الدين، ونظراً للجهل المتفشي وسط الأهالي، لا يتخذ سوي شكل ممارسات عاطفية ذات طبيعة تمتلئ بالخرافة.

من هنا كان النفوذ الكبير (للفكي) أو القائد الروحي، والذي يوصف بأنه ذو مقدرات فوق الطبيعة وربما يوقر أكثر من الأنبياء. وشبيه بذلك التقدير الذي يحظى به الدراويش وقوة المعجزات التي تعزي لتكرارهم لكلمات معينة مثل (بسم الله)، وتأثير الأحجية وعين الحسود... الخ. أما القبائل الزنجية، ورغم أنهم يندرجون تحت الدين الإسلامي رسمياً، إلا أنهم جميعاً من الوثنيين أو لا يوجد لديهم أي معتقد ديني.

الأقسام الإدارية :

قبل عام ١٨٨٢. كان السودان مقسماً إلى عدد من المديريات، كل منها تحت إمرة حاكم أو مدير أو مدير عموم ويتبعون جميعاً لحاكم عام (حكمدار) مقيم بالخرطوم. وفي أوائل ذلك العام تقرر تعيين وزير للسودان يكون مقيماً بالقاهرة مع تقسيم البلاد إلى ثلاثة أقسام كبيرة، بكل قسم عدة مديريات، وكل قسم من الثلاثة برأسه حاكم عام أو حكمدار. تقرر أن يكون كل من تلك الأقسام مستقل عن الآخر. وأن تكون معاملته مباشرة مع القاهرة. هذه الأقسام هي:

- القسم الأول - حكمدارية غرب السودان، وعاصمتها الفاشر. وتشتمل على مديريات دارفور وكردفان وبحر الغزال ودنقلا.
- القسم الثاني - حكمدارية وسط السودان. وعاصمتها الخرطوم. وتشتمل على مديريات الخرطوم وسنار وبربر وفشودة والاستوائية أو خط الإستواء.

- القسم الثالث - حكمدارية شرق السودان، وعاصمتها مصوع. وتشمل مديريات التاكا (وعاصمتها كسلا) وسواكن ومصوع وتمتد حتى باب المندب.
- وهناك قسم رابع تشكله حكمدارية هرر وعاصمتها هرر. وهي مقسمة لمديريات زيلع وبربرة وهرر، وتم ضمها إلى وزارة شئون السودان.

بدأ تنفيذ هذا المخطط وتعيين عدد من الحكمدارات، وكذلك تم إنشاء وتنظيم الهياكل والوظائف في الوزارة بالقاهرة. لكن الظروف الضاغطة أجبرت الوزير على الإقامة بالخرطوم.

وكل حكمدارية من المشار إليها أعلاه قُسمت إلى عدد من المديريات كل منها بقيادة (مدير). كما قُسمت كل مديرية بدورها إلى عدد من الأقسام أو المراكز يقود كل مركز منها (ناظر). وكل قسم تتبعه عدة أخطاء (مفردها خط)، أو وحدة إدارية صغيرة (كميون) يرأس كل منها (حاكم). أما العرب الرحل فإن من الصعب بالطبع أن يدخلوا في هذا التقسيم. ويحكمهم شيوخهم، الذين هم بدورهم مسئولون لدى الحكومة.

أما المديريات التالية فإن نظامها مختلف لحد ما. وهي:

١- مديرية دارفور: وهي، نظراً لإتساعها، فأنها تحكم بواسطة (مدير عموم) ومهامه تكاد تكون مماثلة (لمفتش عام متجول).

والمديرية مقسمة إلى مديرية الفاشر وإلى المأموريتين الإداريتين في كلل ودارا واللتين تحكم كل منهما بواسطة (مأمور إدارة) يقيم في كلل وفي دارا. وفيما عدا ما يتعلق بالسيطرة على الشؤون المالية، فإن هذين المديرين مستقلان تماماً عن مدير الفاشر. بعد ذلك تأتي (تحت الأقسام).

٢- بحر الغزال: تحكم هذه المديرية بواسطة (مدير عموم) وله مساعد مقيم في ديم إدريس. ولأن سكان المنطقة من قبائل الزنوج، وكل قبيلة لها شيخها الخاص، فأنها لم تقسم لتحت أقسام أو غيرها. ولا تدفع فيها ضرائب منتظمة. وبعض أهم واجبات المدير. هي (أ) جمع العاج والمطاط (الكاوتشوك) وغيره (ب) منع تجارة الرقيق.

٣- مديرية خط الإستواء (الإستوائية): يحكمها (مدير عموم). وسكانها مكونون من عدة قبائل ولا يدفعون أي ضرائب.

وقد قُسمت المديرية إلى تحت أقسام أو ما مويريات هي:

(أ) لاتوكا، (ب) بور، (ج) مكراكا، (د) مونبوتو، (ح) وادلای، (و) فويرا.

٤- مديرية سنار: تحت مدير عموم أيضاً، وتتبع له مأمورية إدارة فازوغي.

٥- مديرية التاكا: وعاصمتها كسلا. وهي تحت إدارة مدير عموم وتتبع لها مأمورية إدارة القلابات. هذا والمديرية مقسمة إلى عدة تحت أقسام أيضاً.

٦- ولأن مديرتي سواكن ومصوع لا تسكنهما إلا قبائل الرحل فأنهما لم يقسما إلى تحت أقسام.

القسم الثاني أحداث عام (١٨٨٢ م)

الملخص :

" محاولة رؤوف باشا إلقاء القبض على المهدي بابا - فشل المحاولة - انسحاب المهدي لجبال جنوب كردفان - إرسال محمد سعيد باشا للكوّة مع قوة عسكرية - هزيمة راشد بك أمام المهدي في قدير - تمكن محمد أحمد من تحقيق التحالف مع البقارة - رؤوف باشا يقوم بتجنيد قوات غير نظامية - تملل قبائل كردفان وسنار وشرق السودان - استدعاء رؤوف باشا - جيقتر باشا يقوم مقام الحاكم العام - إرسال يوسف باشا الشلاحي للكوّة - دخول أحمد المكاشفي لسنار وتلقيه لها - حصار القوات بالمديرية - صالح بك ينقذ سنار - القوات المصرية تهزم الثوار في كركوج - الثوار يهزمون المصريين في المسلمية - إنتصار جيقتر باشا في أبو حراز - عبد القادر باشا يخلّف رؤوف باشا كحاكم عام - هزيمة يوسف باشا الشلاحي الساحقة أمام المهدي في ماسا - عبد القادر باشا يقوم بصيانة وإصلاح استحكامات الخرطوم ويجند قوة من ١٢٠٠ رجل - إبادة حامية شات وسحقها صد الثوار عن الدويم وتكبدتهم خسائر جسيمة - حصار البركة في كردفان - الإمدادات المرسلة من الأبيض تهزم الثوار بالقرب من كاشقيل - مذبحة أهالي أسحق - القوات المصرية تشتت الثوار في أولاد مروج - الهجوم على بارة - القتال في شاطورة - حصار بارة - قصة الأب بونومب - دعوة النياس باشا المهدي للحضور للأبيض - مغادرته جبل قدير - حصار المك عمر لإرسالية جبل السدانج وإستيلائه عليها - هجوم الفكي المنا على الطيارة - الإستيلاء على البركة - المهدي يحاصر الأبيض - السكان يهجرونها - الحامية تتخندق بقوة - هجوم المهدي عليها وصدّه بخسائر جسيمة - إرسال عبد القادر باشا الإمدادات وهزيمتها الرهيبة في الكوة - قيام حامية بارا بانسحاب ناجح - إتضمام النور عنقرة للثوار - عبد القادر باشا - يبرق القاهرة طالباً إمدادات - جيقتر باشا يحزّز إنتصاراً محدوداً بالدويم - الأحداث في دارفور - إستيلاء الأمير مانبو على شنكا - صدّه في المعاليا - مانبو يهاجم لكن سلاطين بك يهزمه في إنجليلا - يهزمه مرة أخرى في دارا - هزيمة الثوار بالقرب من أم شنقة - الأحداث في بحر الغزال - وصف المنطقة وقبائلها - لبّتن بك حاكم لها - السدود على النيل - أقسام ومراكز المديرية - أسباب الثورة - أول صدام في تل قاتونا - ثورة قبيلة الجاتقي - الأحداث في التسوج - هزيمة شيخ جاتقو بالقرب من قاتونا - الأحداث في الإستوائية - وصف المديرية - أمين بك حاكماً عليها - قبائلها - المحطات والحاميات - أسباب الثورة المحلية - كباريقا، ملك أنيورو - عودة إلسي الوضع في السودان بنهاية ١٨٨٢ - ولاء الشكرية .

كان أول صدام مع السلطة، محك النجاح أو الفشل، على وشك الحدوث، إذ أن التشكك في الأمر لمن يدوم طويلاً.

وقد حدث الأمر بهذه الطريقة: فلقد دار نقاش طويل في الخرطوم عندما وصلت الأنبياء بظهور المهدي. وأراد ماركوبولي بك، وهو إغريقي يعمل خازناً للحكومة، أن يتم إحضار محمد أحمد للخرطوم لاستجوابه. أما أبو السعود. صاحب السمعة الرديئة كوغد شرير، حتى في الخرطوم، فقد ألح على رؤوف باشا ليرسله لأبا مع أربعة من العلماء. كان أبو السعود من أسرة غطاس المعروفة وقد عمل طويلاً في المديرية الاستوائية، ومن المحتمل أن يكون قد حصل على رخصة للتجارة (تجارة الرق) في تلك المناطق عند ما كانت تحت إدارة السير صمويل بيكر، والذي ظن أنه سيعمل على مكافحة تلك التجارة.

توجه هؤلاء إلى الجزيرة أبا على ظهر باخرة. وعندما هبطوا منها نادوا بصوت عال على المهدي. جاءهم المهدي بمسكنة شديدة، وقد أخفى يديه بداخل ثوبه وأجلس نفسه على عنقريب بجانب أبي السعود. ثم خاطبه أبو السعود بلهجة عنيفة: "ما الذي يجري هنا؟"

فأجابه النبي الجديد بكل لطف: "إنني أنا المهدي".

- عليك أن تأتي معنا إلى الخرطوم

- لا أرغب في الذهاب للخرطوم

- ولكن يجب عليك الذهاب

فرد عليه المهدي وقد أخرج يده الممسكة بسيفه: "أجب علي؟!"

تراجع أبو السعود وأخذ معه العلماء وصعد على الباخرة.

وعندما وصلوا للخرطوم أيقظوا رؤوف باشا من نومه أثناء الليل. وقال له أبو السعود: "أعطني خمسين رجلاً وساحضر لك ذلك المدعي".

لم يكن أبو السعود جندياً، لكنه وضع في اليوم التالي على رأس مئتي جندي عاد بهم إلى أبا، وعندما وصلها ظل في الباخرة بينما كان الضباط يتجادلون حول جدوى مباغثة المهدي بهجوم ليلي. إنقض عليهم أتباع المهدي وذبحوهم. وربما كان هذا الفشل قد إتفق عليه من قبل، فأي شيء جائز مع أبي السعود، وفي هذه الحالة يمكن أن يرجع الفضل لحضور ذهن محمد أحمد ولقدراته التنظيمية العالية. من هنا فقد أطلقت الإشارة، في أغسطس ١٨٨١، للقضاء على الدخلاء، الذين حملوا على عاتقهم مهمة القضاء على تجارة الرقيق.

وعلى الرغم من نجاح محمد أحمد في هزيمة أول محاولة لإقتلعه من أبا، إلا أنه أيقن سريعاً بأن بقاءه بالقرب من مركز السلطة في الخرطوم أمر غير حميد العواقب. وبالتالي، وبعد أن أمن لنفسه أتباعاً في مديرية سنار. وأوكل شئونها لأخوين من المكاشفة، فقد تحرك غرباً نحو ماسا بجبال النوبة. ويشير إلى تحركه هذا في مخاطباته على أنها الهجرة، تقليداً لما فعله الرسول العظيم والذي كانت هجرته من مكة للمدينة بداية للعصر الإسلامي. وهنا طارده محمد سعيد باشا بعد أن

جمع حوالي ١٤٠٠ من الجنود في الكوة على النيل الأبيض. لكن محمد أحمد كان قد غادر في ذلك الوقت أبا إلى البلاد الجبلية جنوبي كردفان. وبعد أن تأخرت قوات محمد باشا سعيد لمدة شهر تراجعت بدون إحراز أي شيء.

قام زعيم إقليم تغلي الصغير بأبعاد المهدي عن جبال النوبة تلك، فتحول إلى جبال قدير وتحصن فيها. ومن قدير، التي تقع على الجنوب من تغلي، تمكن المهدي في ٩ ديسمبر ١٨٨١ من هزيمة راشد بك، مدير فشودة، حيث بقي بعدها هادناً في انتظار نجاح مبعوثيه، الذين أرسلهم لمختلف القبائل. وأنهمك في تمتين حلفه مع البقارة. وعمل على الزواج من بنات زعمائهم. ومن هنا بدأت الشراكة بين القوة الروحية للمهدي والقوى الزمنية لأمرأ البقارة الذين عاثوا من هزائهم أمام غردون، والذين كانوا على وعي، في نفس الوقت، بقدرتهم على سحق المصريين بعد أن غادر قائدهم الإنجليزي البلاد.

وعندما بلغته أنباء هزيمة راشد بك، شرع رؤوف باشا فوراً بتجنيد قوات غير نظامية من مناطق دنقلا وبربر والشايقية. لكن الثورة كانت تحرز نجاحات سريعة. فقد هدد الشلك، الذين تكبدوا خسائر كبيرة عند هزيمة راشد الأخيرة، بالثورة، بينما كان الكبابيش في شمال كردفان، والرفاعة في سنار، والبشاريين في الشمال من طريق بربر - سواكن، لا زالوا مترددون في إعلان موقفهم.

وفي مارس ١٨٨٢ ثم استدعاء رؤوف باشا. وفي انتظار وصول خلف له، قام جيقتر باشا، القائم بأعمال الحاكم العام، بإرسال يوسف باشا الشلاحي لمحاربة المهدي لكن رجاله هجروه وتركوا الباشا جاثقاً في الكوة على بعد خمسين ميلاً شمالي أبا.

أطلق غردون على أتباع محمد أحمد لفظ (العرب) وبهذا الاسم ستشملهم الصفحات التالية.

وعند نهاية مارس، قام أحمد المكاشفي، الذي كما تذكرون، كان المهدي قد تركه على مقربة من سنار عندما بارح الجزيرة أبا، بحصار تلك المدينة. وفي السادس من أبريل شن عليه حامين بك شكري، مدير سنار، هجوماً لكن تم صدّه. وتمكن العدو من دخول المدينة وسلبها بعد أن قتل أكثر من مائة من رجال حاميتها وعدداً من تجارها. لكن القوات إستعادت السيطرة على المديرية وتمكنت من مقاومة الحصار لبعض الوقت.

وعندما وصلت هذه الأنباء لجيقتر باشا قام بإرسال صالح بك من الكوة مع خمسمائة رجل من الجنود النظاميين حيث تمكن صالح بك، بعد مواجهة صعبة مع قوات المهدي، من دخول المدينة وفك الحصار عنها. تراجع العدو بعدها إلى كركوج، على النيل الأزرق وجنوب شرق سنار، لكن القوات المصرية، التي تم تعزيزها في هذه الآونة بالفيين وخمسمائة من رجال الشكرية لابسِي الدروع، قامت بمطاردتهم إنطلاقاً من أبي حراز. كان الشكرية تحت قيادة زعيمهم المشهور عوض الكريم باشا أبو سن. انقض الثوار على تلك القوة في المسلمية وهزموها بعد منبحة عظيمة.

تولى جيقتر باشا بنفسه القيادة الميدانية الآن. وفي الثالث من مايو أحرز نصراً على أعدائه في أبي حراز. وفي الخامس والعشرين في مايو أحرز نصراً آخرأ بالقرب من سنار ثم عاد بعدما للخرطوم حيث وجد أن الحكمدار الجديد، عبد القادر باشا، قد وصلها في الحادي عشر من مايو.

خلال هذه الفترة تم تعزيز قوات يوسف باشا الشلالي في الكوة بقوة كبيرة وأخذ يستعد للزحف على المهدي في جبل قدير. تحرك من مايو بقواته البالغة ٦٠٠٠ رجل إلى فشودة ثم توغل بعده للدخول باتجاه قدير وتوقف لبضعة أيام في جبل تنجر - في منتصف المسافة بين فشودة وجبل قدير - وفي الحادي والعشرين من مايو بدأ زحفه النهائي مخترباً المستنقعات والأدغال. وفي السابع من يونيو وصل إلى مشارف العدو. وبينما كان منهمكاً في بناء زريبة فاجأه العدو، الذي انقض على جنوده وهزمه هزيمة تامة كاد أن يستأصله فيها. واستولى الثوار على كل السلاح والذخيرة والتعيينات.

وقد كان هذا النصر أعظم ما حققه المهدي حتى الآن وسبب قلقاً عظيماً للحكومة وجعلها في موقف حرج أكثر من ذي قبل، في الوقت الذي أعطي هذا النصر للثوار زخماً كبيراً. شرع عبد القادر باشا بعد ذلك في إصلاح وصيانة تحصينات الخرطوم، التي حافظت عليها حتى السادس والعشرين من يناير ١٨٨٥، كما قام بعرض جائزة قدرها جنيهان لكل من يقتل أحد العرب، وثمانية عشر جنيهاً على رأس كل زعيم. ثم قام بإرسال نداءات للعرب داعياً لهم للبقاء على ولائهم للحكومة. وبذل كل ما في وسعه من جهود. ما عدا محاولة الهجوم على المهدي نفسه. ولم يضع عبد القادر باشا وقتاً في تجميع القوات من كل الأنحاء وسحب ثلاثة كتائب من القلابات وسنهيث والجيرة، وكون كتيبتين من الجنود السود. وجمع حوالي ٨٠٠٠ رجل من الباشبوزوق. وفي نهاية يولية كان قد تمكن من حشد قوة تتراوح ما بين ١٢٠٠٠ - ١٣٠٠٠ رجل، وفي نفس الوقت قام بتعزيز حامية الأبيض بألف رجل.

وبعد ذلك بوقت قصير، في الثامن من أغسطس، قام المكاشفي بالهجوم على محطة شات والاستيلاء عليها وأعمل السيف في رقاب حاميتها المكونة من مائتي جندي. وفي الثامن والعشرين من الشهر هاجم الدويم بعزم وتصميم لكن الحامية صدته بخسائر في صفوفه بلغت ٣٠٠٠ قتيل. وظل المهدي طوال ذلك في قدير بدون حراك لكن أنصاره كانوا يحزرون النصر تلو النصر في مختلف أنحاء البلاد.

وفي كردفان تم حصار مدينة البركة الصغيرة بواسطة الأمير عبد الله ود النور، الذي كان قد جمع قوة كبيرة من رجال البديرية والحوازمة والغديات والحرر. فقام محمد باشا سعيد بإرسال قوة مؤلفة من ١٢٠٠ رجل من الأبيض، تحت قيادة الصاغ نظيم أفندي، لرفع الحصار عنها. اصطدم الأخير بالعرب بالقرب من كاشقيل في الثالث عشر من مايو. وبعد ثلاثة أيام من القتال الضاري تمكن من هزيمتهم ورفع الحصار مؤقتاً عن البركة. وبعد استدعاء القوات للأبيض، لوجود قلائل بجوارها، عاود الثوار حصار البركة من جديد.

وفي التاسع عشر من مايو هوجمت قرية أسحف، بالقرب من بارا وتم قتل من فيها ونهبها. وعندما أرسلت قوات من بارا لتجديتها تمت هزيمتها وتدميرها وقتل قائدها. وهذه المناسبة هي التي فقد فيها النور عنقرة،* الذي كان قد جاء لأسحف مع القوات القادمة من بارا لحماية منزله هناك. فقد فيها نحاسه الشهير ونجا بالكاد بحياته.

* كان النور عنقرة فيما سبق مديراً لكلل وكبائية وكان يحظى بتقدير غردون حيث أنه كان مشهوراً بالشجاعة والإقدام. وعندما قام أحد الموظفين بكلل بتهامه بمصادرة أمواله بدون وجه حق، ثم استدعاه للتحقيق في الأبيض. وفي انتظار

وفي أوائل يونيه تم إرسال حملة من بارا بقيادة اليكباشي سرور أفندي بهجت، إلى أولاد مزوج، بالقرب من بارا، حيث تجمع فيها عدد من الثوار بقيادة شيخ رحمة، وبعد قتال عنيف استمر لثلاثة ساعات تمت هزيمة العرب وتشيتتهم والإستيلاء على معسكرهم ومواشيهم وتحرير عدد كبير من الأسرى لديهم.

وبالرغم من هذه الهزيمة عاود الثوار تجمعهم بأعداد كبيرة حول بارا. وفي صبيحة الثالث والعشرين من يونيه قاموا في عزم وتصميم بالهجوم على حاميتها والتي كانت مكونة من قوات مختلطة بلغت ألفي رجل تحت قيادة علي بك شريف، والذي كانت لديه ثمانية مدافع. تم صد الهجوم وفقد الثوار عدداً كبيراً من رجالهم حول سور المدينة ثم أثناء مطاردة فرسان الحامية بعد ذلك لهم.

وبعد أسبوعين من ذلك، تجمع الثوار مرة أخرى في شاطورة التي تبعد مسافة يومين من بارا حيث كانت بها قوة تحت قيادة الصاغ محمد أفندي حسن. وفي الحادي عشر من يوليه هوجمت تلك القوة بواسطة عدد كبير من العرب يقودهم الأمير النور. تم صد ذلك الهجوم. لكن العرب، بعد أن تجمعوا في أعداد أكبر من ذي قبل، اعترضوا طريق رجوع تلك القوة المصرية لبارا. تمكن حسن أفندي من إرسال مبعوث لطلب النجدة من الأبيض فقام قائد حامية المدينة بإرسال تنظيم أفندي إلتقاز قوات شاطورة. وعندما أقترب منهم هاجمه العرب لكنه تمكن من الالتفاف من حولهم وانقض على مؤخرتهم بجنوده وشتتهم واستطاعت قواته، التي التحقت بقوات شاطورة من العودة إليها. وبعد مناوشتين بسيطتين في فرشاحة وأبو سنون استدعيت تلك القوات للأبيض.

تراجع شيخ رحمة، بعد هزيمته في بارا يوم ٢٣ يونيه، لجمع الرجال والتعزيزات وفي السابع عشر من يوليه توجه مرة أخرى وأطبق الحصار تماماً على بارا.

ويجب علينا ألا نتجاوز عن القصة المؤسفة للأب بونومي.* فقد استقر على رأس إرسالية كبيرة في جبل الدلتج وسط النوبة في جنوب كردفان. وقام، في منزل الأخت سيبريان، بزراعة الأرض وأشتري بعض الأولاد الصغار وبدأ يعلمهم حقائق ديانة النصارى. وهكذا، ولو جوده الخطر بالقرب من المهدي بقدير، كان من أول الأوروبيين الذين عاثوا الأمرين على يديه. فقد تم حصارهم من أبريل ١٨٨٢ حتى سبتمبر وظل جنودهم السود، على قلة عددهم، مخلصين لهم حتى تلك اللحظة. ولكن، وفي يونيه عندما تمكن المهدي من سحق يوسف باشا والاستيلاء على مستودعاته، تسلم رسالة من ألباس باشا* أحد أقارب الزبير، ومن بعض كبار أهالي الأبيض، فيها نداء حار ودعوة للحضور للأبيض واستلام زمام الأمور فيها. وبعد تردد قليل، وافق الخليفة عبد الله، والذي

تسمية الموضوع توجه لبارا للإقامة بها. وقد قام هذا الرجل بلعب دور هام بعد ذلك في شلون السودان. ومن المثير أن نتابع ما قام به من أدوار بعد ذلك في صفحات هذا الكتاب.

* هرب الأب بونومي من الأبيض في ٥ يونيه ١٨٨٥، ووصل، عن طريق بارا - كجر والصفية، إلى القاهرة في يولية ١٨٨٥.

* ألباس باشا من قبيلة الجعطين وهي قبيلة تقطن في منطقة سنار (!! علامات من المغرب).

صار مسيطراً على الأمور، على القبول وذلك عندما يتمكن من التحرك واثقاً من النصر. أصبح سقوط البركة بعد ذلك حتمياً، وفي أغسطس زحف المهدي باتجاه الأبيض. وعند مروره جنوب البركة أرسل الملك عمر للقبض على المبشرين البوساء. كان مع الملك عمر قوة صغيرة عندما تحرك نحوهم لكنه واجه مقاومة عنيدة. وفي سبتمبر تم تعزيز قواته وعندها إتضمت حامية الإرسالية للقوات المحاصرة لهم وأسرى المبشرون والراهبات وأخذوا، بعد معاملة قاسية للمثول أمام المهدي، والذي كان قد وصل إلي مشارف الأبيض في ذلك الوقت.

وفي هذه الفترة قام الفكي المنا، من قبيلة الجمع البقارة بحشد أعداد من البديرية والبنسي جرار وأولاد أحمد والحوازمة، وقام بهجوم على نقطة الطيارة والتي كانت تعسكر بها كتيبتين من الباشيبوزوق بقيادة البوزباشي محمد أفندي شافعي. تم صد الهجوم لكن الطيارة ظلت تحت الحصار الشديد. وعندما أرسلت لها التعزيزات من الأبيض قام الأنصار باعتراضها وتدميرها. وسرعان ما سقطت المدينة واستسلمت حامياتها.

وفي هذه الفترة أيضاً تم إفتحام مدينة البركة الصغيرة ووضع السيف فوق رقاب جنودها الألفين بينما فر ألف ثالث منهم ووصلوا للأبيض. واستعد المهدي وقد تولى عدة وظائف هامة في السودان، إحداها مديراً لكردفان. لكنه إتهم بالتورط في ثورة سليمان الزبير فقام غردون لفصله. توجه للأبيض للإقامة بها، وعندما وصل المهدي لجبل قدير أرسل إلياس باشا أحد أبنائه الخمسة لتقديم الولاء له. وسرعان ما ألقى بثقله وراء الزعيم الجديد وتم تعيين كل أبنائه أمراء في المهديّة. ولوقت طويل حظيت السرة باتعامات المهدي وخليفته من بعده. لكن الأخير، وعندما أحس بأنهم أصبحوا في غاية القوة، قام بمصادرة كل أملاكهم وخفض درجة الأبناء من رتبهم السامية تلك، وحدد إقامة السرة بأم درمان حيث يعيشون الآن في فقر مدقع. وقد فقد إلياس باشا بصره أخيراً. الآن للزحف على الأبيض، كما أرسل في نفس الوقت قوة لحصار بارا. وعندما بلغت محمد باشا سعيد هذه الأنباء، أرسل طالباً التعزيزات (من الخرطوم) وتم إرسالها له تحت قيادة محمد باشا أمام احتفظ مدير بارا، على بك شريف، بقسم من تلك التعزيزات وواصل الباقون طريقهم نحو الأبيض، حيث وصلوها بنهاية شهر أغسطس.

وفي الثالث من سبتمبر وصل المهدي مع قوة كبيرة إلى مسافة بضعة أميال من الأبيض، وحرر مكتوباً في الحال لمحمد باشا سعيد طالباً منه تسليم المدينة. وعند إستلام الباشا للخطاب قام باستدعاء مجلسه، الذي قرر عدم الرد على الخطاب، كما أمر بشنق المبعوثين الثلاثة الذين أوصلوا الخطاب. وفي تلك الليلة التحق كل سكان المدينة تقريباً بالأنوار كما انضم إليهم أيضاً محمد باشا إمام وبعض رجال الحامية. أما بقية قوات الأبيض فقد نزلوا في خنادقهم ووراء حصونهم التي كانت، على غير العادة، في منتهى القوة. ثم تحصين رئاسة الحكومة والمخازن بأربعة حلقات من الحنادق وتم بناء ثمانية طوابي على الحوائط. كان لمحمد باشا سعيد قوات تصل لحوالي ٨٠٠٠ رجل من النظاميين والباشيبوزوق، وقام زيادة على ذلك بتجنيد عدد كبير من غير النظاميين تحت قيادة أحمد بك دفع الله، وكان معظمهم قد فصلوا من الخدمة قبل وقت قريب لدوافع إقتصادية.

كان عدد أتباع المهدي جسيماً وأحتشدوا بألوف مؤلفة مع عوائلهم ونسائهم. وكان من بينهم ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ من الذين يستخدمون البنادق التي غنمت من راشد باشا ومن البركة. وكان كثيرون غيرهم مسلحين ببنادق ذات ماسورتين. أما الباقون فسلحهم السيوف والرماح والدروع. قام المدافعون عن المدينة، بعد خروج السكان منها، بتدمير جزء منها، وفي الثامن من سبتمبر قام المهدي بهجوم عارم عليها إستمر من السادسة صباحاً وحتى الحادية عشرة قبل الظهر، إنتهى بصد العرب عن المدينة بخسائر جسيمة. وتم الإستيلاء على ٦٣ راية من ضمنها راية المهدي المسماة براية عزرائيل ملك الموت. ويقال أن أكثر من عشرة ألف من المهاجمين قد قتلوا بينما لم تفقد الحامية سوى ٣٠٠ من القتلى والجرحى* وقام ألياس باشا، الذي كان قد انضم للمهدي، بنصح المهدي للإسحاب للجنزارة، علي بعد ميل من المدينة، وفيها عسكر المهدي في انتظار إرسال المزيد من السلاح والذخيرة إليه من قدير. ووصلت هذه المعدات بعد فترة قصيرة وتم ضرب حصار محكم على المدينة.

وعند ما علم عبد القادر باشا بحصار الأبيض وبارا، قام بإرسال طابور من فصيلين من القوات النظامية وسبعمائة وخمسين من الباشبوزوق، تحت قيادة علي بك لطفي لنجدة حاميات المدينتين. كان ذلك في الرابع والعشرين من سبتمبر، وبعد أن عانت تلك القوات المرسلّة من العطش الشديد، فقد ردم العرب كل الآبار في طريقها، وصلوا إلى الكوة حيث هجم عليهم العرب بنهاية سبتمبر وقتلوا أكثر من ١١٠٠ رجل منهم وإستولوا على عدد كبير من البنادق وكل الذخيرة. تمكنت باقي القوة من الفرار والوصول إلى بارا، حيث تمكنوا من دخول المدينة بعد أن شنت حاميتها غارة ناجحة، بواسطة ٦٠٠ رجل يقودهم النور عنقرة. ثم إنضمت قوة النجدة إلى الحامية حيث تمكنوا من شن غارة مفاجئة على الثوار يوم ٢٥ أكتوبر ألحقوا فيها بهم هزيمة قاسية.

تم تشديد الحصار ثانية على بارا ويعزم أكيد. وفي نوفمبر قام أحمد ود الملك، وهو من أعيان المدينة الذين إنضموا سراً للمهدي، بإشعال النيران في المدينة في الوقت الذي هاجمها فيه الثوار. أحترق معظم أجزاء المدينة لكن الهجوم قد صد وفر ود الملك للثوار. كانت النيران قد دمرت معظم مخزونات الحبوب ولم تجد الحامية ما تأكله سوى الخيول والكلاب وغيرها، وحتى هذه لم تعد متوفرة أمامهم. كان النور عنقرة قد ظل موالياً (للحكومة) حتى هذه اللحظة لكنه تراجع أخيراً وكتب للمهدي بأنه على إستعداد للتسليم لأي أمير بارز، ولكن ليس للمنا الذي يخشى من انتقامه منه. واستجابة لذلك قام محمد أحمد بإرسال الأمير ود النجومي لبارا، حيث تمكن النور عنقرة، مصحوباً بالسر سوارى* محمد الخير، من الفرار من المدينة حيث تم استقباله من قبل النجومي.

وانقضى عام ١٨٨٢، وكل من مدينتي الأبيض وبارا في حالة رهبة من المعاناة من نقص الطعام ومن وطأة حصار أعداد لا تحصى من العدو.

* بعد هذه الهزيمة أصدر المهدي تعليمات مشددة لغائته بعدم الهجوم على أي مدينة عند بداية الحصار. وإنما عليهم الإنتظار حتى تعمل المجاعة والأمراض على إنهاك قوات الحامية.

* السر سوارى لقب عسكري تركي وتعني قائد الفرسان أو ما يعادل رتبة القالمقام.

وفي سنار، كانت قوات الثوار تزداد يوماً بعد يوم وأبرق عبد القادر باشا للقاهرة طالباً إرسال قوات إضافية من عشرة ألف رجل. وبدون ذلك فقد ذكر لهم أن من المستحيل القضاء على الثورة. وأضاف أيضاً أنه إذا لم تصل هذه القوات في الحال فإن أربعة أضعافهم على الأقل سيحتاج إليهم لإعادة سلطة الحكومة في السودان.

وفي نوفمبر بدأ حفر أخدود طويل (يربط بين النيلين الأبيض والأزرق) جنوبي الخرطوم وإنشاء التحصينات الدفاعية. لكن هذه الإجراءات لم تتخذ إلا من قبل من لا علم لهم، إلا قليلاً، بأعمال الحفريات. كانت القناة والمتاريس قد أنجزت بشكل جيد ولكن خطأ قاتلاً كان يكمن في عدم إقامة أجنحة دفاعية عليها.

وفي نفس الشهر، أحرز جيقتلر باشا بعض النجاح في الدويم على فريق من الثوار بقيادة الأمير عبد الباسط، الذي تم أسره.

دارفور

سنتناول الآن الأحداث في دارفور وفي أقسامها الثلاثة: الفاشر ودارا، وشكا.

فمباشرة بعد هزيمة يوسف باشا الشلالي، في يونيو ١٨٨٢، أمر المهدي الأمير الشيخ مادبو، شيخ قبائل عرب الرزيقات، وهم قسم من البقارة يقيمون بين شكا وبحر الغزال، بإخضاع شكا. قام الأمير بحشد شيوخ المعاليا وقبائل أخرى من الذين سلمهم نداعات المهدي وتقدم بهم نحو شكا. وفي العلالي هجم على قوة من مائتين من رجال الحامية، الذين خرجوا لجمع الذرة، ودمرهم تماماً في يوليه. ثم ضغط على شكا التي كانت حاميتها المكونة من ٦٠٠ جندي قد نجحت في الفرار ليلة وصول مادبو. تابع مادبو زحفه ودارت معركة بينه وبينهم في قوز المعاليا هزم فيها وواصلت الحامية فرارها باتجاه دارا. وفي الطريق إليها قابلهم سلاطين بك* في إنجيلية، حيث كان قد وصل إلى علمه، كمدير عموم دارفور، أنباء الأحداث الأخيرة. تحصل سلاطين على تعزيزات من الفاشر وحصن نفسه في ذلك المكان. قام مادبو بالهجوم على زريبة سلاطين لكن تم صدّه عنها مرتين وعرف سلاطين أن وضعه لا يحتمل، خاصة في قابل الأيام، وأن الثوار غالباً ما يزدادون قوة ودعماً فقرر الرجوع لدارا. وقد تم ذلك بصعوبة بالغة حيث كان العدو يطارده ويضربه بلا هوادة.

* كان سلاطين بك تمسواوياً بالمولد وكان عام ١٨٨٢ في نحو الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره. وكان قد ذهب للسودان سانحاً في عام ١٨٧٦. ومكث فيه حوالي ثمانية عشر شهراً. بعد ذلك رجع إلى النمسا وتطوع للعمل في حملة الهرسك التي خدّم فيها كملازم ثاني. ثم عاد للسودان عام ١٨٧٩ حيث عينه غردون مفتشاً عاماً لسنار وشرق السودان. وفي يولية من نفس العام نقله غردون إلى دارا كمدير لها، وفي عام ١٨٨٢ عينه رؤوف باشا مديراً لعموم دارفور.

وعندما وصل لدارا قام بالزحف مع كل القوة التي تحت سيطرته على ماديو والذي أخذ في اللجوء للمناورات والخدع. فقد قام ماديو بإخفاء نصف قواته في إحدى الغابات. وبالنصف الآخر أخذ يستدرج سلاطين حتى مر من وراء الغابة ثم هجم عليه من الأمام ومن الخلف. لكن سلاطين وبالرغم من مفاجاته بالهجوم، تمكن من الهرب وقتل منهم حوالي ألفين من رجالهم أما هو فخرج برصاصه أطارت أصبع السبابة من يده اليمنى. إتسحب ماديو بعد ذلك بينما عاد سلاطين إلى دارا وقام بتحسينها ووضعها في حالة دفاعية كاملة. ثم وصلتته معلومات بأن المعالية والوضحة وقبائل أخرى في شمال غرب دارا قد أعلنت الثورة فقام بتوجيه سيد بك جمعة، مدير الفاشر، بإرسال قوة صغيرة إلى عرفة، في منتصف الطريق بين الفاشر ودارا، بينما قام هو بالتحرك نحو نفس المنطقة مع قسم من حاميه دارا. استسلمت له معظم القبائل الثائرة فتوجه سلاطين نحو الفاشر، ثم عاد بعد ذلك مباشرة لدارا.

في تلك الفترة نشط مبعوثوا المهدي في إثارة القبائل حول أم شنقة، وكان البقارة الحمر قد قاموا بهجوم غير ناجح عليها ثم عادوا وألقوا الحصار عليها. ثم وصلت للقوات نجدة من الفاشر بقيادة السر سوارى عمر أغا واخترقوا الحصار وأنضموا للحامية. وبعد ذلك بقليل قاموا بهجوم ناجح شتتوا فيه شمل العرب وطاردوهم حتى العصيفر على حدود كردفان.

وهذا ما كان عليه سلاطين حتى نهاية عام ١٨٨٢.

* * *

بحر الغزال

وسنتناول الآن الأحداث التي جرت خلال تلك الفترة في المناطق الجنوبية لبحر الغزال والإستوائية.

تشتمل مديرية بحر الغزال على القسم الأكبر من الحوض المائي الذي يتغذى من بحر الغزال. ومع روافده في بحر العرب والجور والروا، فإنه يمتد في مساحات شاسعة مكوناً شبكة من الأنهار. وترتبطها خصبة للغاية وبها أعداد ضخمة من الماشية، بينما يقدر عدد سكانها بين ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة.

وأهم القبائل التي تقطن تلك المناطق قبيلة الدينكا والبنقو والمورو والجولو والشير لكن الدينكا والبنقو هما أكثرهما عدداً وقوة. والبنقو عموماً يعملون بالزراعة ويشغلون بصناعات الحديد ونحت الخشب. ورجالهم متوسطوا القامة، وحتى الوقت الحالي فلم تظهر عليهم سوى مظاهر بسيطة للتخلص من قبضة حكامهم. وعلى الشمال من أرض البنقو نجد الجور. وأكبر زرائب الجور هي زريبة جور غطاس. أما على الشمال منهم فنجد الدينكا، وهم أكثرهم عدداً وأطولهم قاماً وربما كانوا من أقوى الأعراق الزنجية في جنوب السودان. ويعتبر الدينكا من كبار أصحاب المواشي.

وميناء بحر الغزال، إذا جاز أن نسميه ميناء، هو مشرع الرق. وإلى هذا المكان كانت البواخر النهرية تجئ بانتظام من الخرطوم.

كان أول مدير لبحر الغزال جسي باشا، الذي قام عام ١٨٧٨ بإخماد ثورة سليمان الزبير، ابن الزبير باشا، وظهر المنطقة، في سلسلة من الحملات الرائعة، من جماعات تجار الرقيق.

وقد حول جسي باشا معسكر ديم سليمان إلى عاصمة المديرية. وسرعان ما أصبحت أكبر مدينة في النيل الأعلى. ثم خلف فرانك ليتن جسي باشا كمدير، عام ١٨٨١ وهو مواطن من الفورد في إسكس (بانجلترا) وكان قد التحق بالبحرية التجارية عام ١٨٧٨ ثم أصبح كبيراً لضباط باخرة بالبحر الأحمر تعمل بين سواكن وجدة. ولما كانت لدية رغبة حارة لزيارة أواسط إفريقيا، فقد عرض خدماته على الجنرال غردون والذي، عند وصوله للخرطوم، سلمه قيادة أسطول من المراكب للعمل على نجدة أمين بك وجسي باشا واللذان كانا قد حبستها السدود، تلك الأعشاب الغريبة، التي تتكاثر على النيل لتكون سداً يقلل مجرى النهر من وقت لآخر. وإذا ما قمنا بمتابعة مجرى النيل الأبيض جنوب الخرطوم، فسنجد، وحوالي خط العرض ١٠ درجة، مباشرة على الجنوب من فشودة، أن النهر يخرج مما يمكن أن نسميه مهداً لبركة قديمة. وفي هذا المستنقع الواسع تصب أعداد كبيرة من الوديان والنهيرات المتعرجة والتي يتم غالباً قفلها بالنباتات الطافية. وخلال تلك الحواجز الكثيفة من الأعشاب والنباتات، يقوم المسافرون بالمراكب، من وقت لآخر، بشق طريقهم مستخدمين السيوف والفؤوس. وعندما كان جسي الهمام عائداً، بعد انتصاراته على جيوش تجار الرقيق، فقد حصر هنا لفترة طويلة كلفته حياته. وأيضاً تسببت تلك السدود بتعطيل بعثة السير صمويل بيكر (١٨٧٠ - ١٨٧٤) لعام كامل. كان لتبن، قبل أن يخلف جسي باشا كمدير، يعمل نائباً لأمين باشا في المديرية الإستوائية.

ويمكن أن توصف مديرية بحر الغزال بأنها أكبر بخمسة أضعاف من إنجلترا. وهي إقليم مغطي بالغابات والجبال وتشقه وديان غير عميقة تتعرض للفيضانات من وقت لآخر. كان مديرها ساتي بك وكان كلاهما (هو ولبتن) موجوداً أثناء الثورة في ديم سليمان، والتي هي عاصمة المديرية.

تم تقسيم هذه المديرية الشاسعة إلى ثمانية أقسام، كل قسم منها تحت حكم ناظر (أو كبير مراقبين). وهذه الأقسام هي:

نمرة	القسم	الناظر
١	ليفني	حسن أغا
٢	بيكو	محمد اغا كتمبور
٣	الدميو	طه اغا
٤	كواكي	محمد اغا ودعالم
٥	البصيلية	علي أغا إدريس

٦	سابي	عبد الله ود عبد الصمد
٧	جور كرشكالي	عثمان أغا بدوي
٨	جور غطاس	حسن أغا ود مساعد

ومعظم هؤلاء النظار كانوا من الدناقلة ما عدا الأخير، الذي كان جعليًا. وبكل قسم من تلك الأقسام كانت توجد حامية من ٢٠٠ - ٣٠٠ رجل.

ولوقت طويل كان أهالي تلك الأقسام يعانون من ظلم وقسوة حكامهم الدناقلة. وعندما وصلت أول أنباء عن ظهور الثورة لبحر الغزال، فسرعان ما تحولت شرارة العصيان إلى لهب ضاري وقام عدد من كبار الشيوخ بإرسال رسائل الولاء للمهدي وبدون أي تردد. ولبعض الوقت نشط المبعوثون في المنطقة، وعندما أبلغوا بأن البلاد ناضجة للثورة إزدادت أعدادهم كثيرًا وسرعان ما نالت التعاليم الجديدة قبولًا عظيمًا عند الجماهير. وكانت أول الأحداث في نشبت في محطة تل قانونا، في قسم ليفي، عندما قام شيخ جاتقو، الذي عاد لتوه من المهدي بعد مبايعته، بالهجوم على بعض الباشبوزوق وقتلهم واستولى على ممتلكاتهم وفي نفس الوقت دان له بقية الأهالي. حدث هذا في ١٨ أغسطس ١٨٨٢، عندما كان حسن أغا غائبًا في العاصمة. وعندما بلغ النبا لبتن بك، تقدم بقوة من حوالي ٦٠٠ رجل إلى ليفي، ومن ثم أرسل حسن أغا إلى تل قانونا لكن شيخ جاتقو كان قد فر قبلها ولجأ إلى الأمير مادبو والذي، كما نذكر، كان يحاصر شكا في ذلك الوقت. كانت مطاردته مستحيلة فقد كانت الأرض ممطرة موحلة. لذلك عادت القوة إلى ليفي مثلما عاد لبتن إلى رئاسته بعد إصدار تعليماته لمطاردة شيخ جاتقو فور تحسن حالة الطرق وسماعها للمرور. وهنا علم بأن فريقاً من ٧٥ من رجاله البازنقر* الذين كانوا يرحلون العاج لمشروع الرق قد هوجموا من قبل قبيلة الجاتقي، وهم قسم من الدينكا الذين إعتقوا المهديّة، وقتلوه جميعاً.

وكان المدير، ساتي بك، قد تحرك قبل ذلك من جور غطاس ومعه قوة من الجند إلى التوج، حيث هاجم بعضاً من أهاليها وقتل عدداً منهم وإستولى على ٦٠٠ رأس من الماشية. ثم تقدم لبتن نحو المشرع ومنها إلى التوج حيث هزم الجاتقي مرة أخرى وعاد بكمية من الأسلاب إلى جور غطاس.

وفي هذه الأثناء رجع شيخ جاتقو إلى تل جاتقو ومعه إمدادات من مادبو، بنية مهاجمة ليفي. لكنه لما علم بالإستعدادات الكبيرة لمقابلة أي محاولة كهذه فقد تفرقت قواته. وقام لبتن بإرسال قوة من ٢٠٠٠ رجل، بقيادة الصاغ محمد عبد الله المحلاوي للتوجه إلى تل جاوننا. وعندما وصلوا إليها وجدوها مهجورة تماماً، لكنهم على أي حال واصلوا مطاردتهم لشيخ جاتقو وهزموه وقتلوا حوالي ٦٠٠ من رجاله واستولوا على مصكره.

وهكذا كان مجرى الأحداث في بحر الغزال حتى نهاية عام ١٨٨٢.

* * *

* البازنجر في الأصل أسم لقبيلة كان الزبير يجلب منها جنوده المطاردين للرقيق. وكل حملة البنادق السود في جانب الثوار الآن يعرفون بالبازنقر.

الإستوائية

على جنوب وجنوب شرق بحر الغزال تقع مديرية الإستوائية أو كما يطلق عليها بالعربية 'خط الاستواء'.

تمتد الحدود الأصلية لهذه الولاية من (بحيرة) ألبرت نياتزا وحتى اللاو شمالاً وتقع على الشمال منها مديريات بور والرول والتي كانت أحياناً تعتبر من أجزاء مديرية بحر الغزال، ولكن تم ضمها للإستوائية عام ١٨٨١.

وتشتمل أقسام هذه المديرية، جنوب اللاو، على المورو والمكاركا واللاتوكا والباريا والمادي والشولي واللوري، وعلى القسم الشمالي من مملكة. كاهاريقا، أنيورو.

وتوصف هذه المديرية من قبل الرحالة بأنها رائعة المناظر، خصبة، كثيرة السكان وذات جو صحي، وبأنها إقليم واعد له مستقبل طيب. ويشق النيل مديرية الإستوائية من جنوبيها لشماليها وفي الطريق تصب عليه نهيرات (أسوا) على اليمين ويأي على اليسار منها ومن البحيرة، بعيداً حتى دوفولي فإن عمق المجرى يتراوح بين ١٥-٢٠ قدماً وتتنيسر الملاحة فيه طوال السنة. أما بين دوفولي واللاو فهناك عدد من الشلالات مثل شلال الفولة ويربورا وقوجي وماكيو وتريمو غرب وجنقلي غرب والتي يستحيل عبورها عند انخفاض النيل. وهناك بعيداً على الغرب نجد الجبال الزرقاء والتي تشكل الحدود بين النيل وحوض الكنغو والتي ينبع من منحدراتها الغربية نهر الولي.

وأهم القبائل هناك المكاركا والمادي غرب النيل والباريا واللاتوكا على شرق النيل. والمكاركا هم فرع من قبيلة النيام - نيام القوية، والمشهورة بأكل لحوم البشر في السودان. وهم مزارعون جيدون ويشتهرون بالشجاعة والإقدام ويتم تفضيلهم كجنود على رجال أي قبيلة أخرى تقريباً. أما الأمادي، فإن لهم كثيراً من خصال وسمات المكاركا. وهم يزرعون التبako والسهم والذرة. والباريا، مثلهم مثل الدينكا في بحر الغزال، رعاة للمواشي لكنهم يشتهرون مثلهم بالشجاعة والشراسة في القتال ربما أكثر من أي قبيلة أخرى. ولقد قام الدناقلة البغيضون بجلب أعداد كبيرة من الأرقاء منهم، لكنهم كانوا، من دون بقية الأرقاء الآخرين، على استعداد دائم للانقلاب على قاهريهم.

ونجد اللاتوكا هناك بعيداً إلى الشرق ويعتقد أنهم ينتهون بإصل الجالا. فهم طوال القامة على غير المعتاد ولهم مزاج مريح بهيج ومثلهم مثل الدينكا والباريا يعتبرون من كبار مربي الماشية.

ولادو هي عاصمة الإستوائية. وهي مدينة حسنة البنيان. أما على الضفة النيل اليسري، إلى الجنوب منها، فنجد مدناً أصغر منها مثل الرجاف وبيدين وكيري. وأكبر مدينة للأمادي هي دوفيلي أما جنوب منحدرات النهر وشلالاته الصغيرة فقد أقيمت بعض القلاع في لابوريه رموجي. والمدينة الرئيسية لإقليم اللوري هي وادلاي أما إلى الداخل فنجد فاديبك وفالورو وفاتيكو.

وكانت قد أقيمت محطة للجنود في فويرة بأنيورو لكنها هجرت بينما تم الاحتفاظ بمحطة ماقونفو. وهذه المحطة تطل على شلالات ميرشسون حيث تتحدر مياه نيل فكتوريا إلى بحيرة ألبرت.

وعلى الشاطئ الغربي للبحيرة توجد محطة مهاجي، أما بعيداً إلى الداخل وإلى الشمال قليلاً فنجد المحطات الخارجية للوادي ومكاركا صغير.

ويعزي وجود كل هذه النقاط والمحطات إما إلى السير صمويل بيكر أو إلى الجنرال غردون. وعند مغادرة الأخير للسودان عام ١٨٧٩ سلم زمام مديرية الإستوائية إلى أمين بك. وكانت قوات المديرية في ذلك الوقت قد وصلت إلى كتيبتيين من الجنود النظاميين، عددهم حوالي ١٣٠٠ رجل، وحوالي ٣٠٠٠ من غير النظاميين الموزعين على ما بين أربعين إلى خمسين من النقاط.

ولد إدوارد شنتزر، الذي يعرف بأسم أمين بك، في أويلن في سليزيا البروسية، وذلك في الثامن والعشرين من مارس ١٨٤٠ ودرس في فيينا وباريس حيث نال درجة الدكتوراه، ثم التحق بخدمة العثمانيين في سكوتاري وبعد بضع سنوات، عندما أصبح غردون حكمداراً على السودان، ذهب معه كطبيب مرافق. ثم أرسل في مهمة لمقابلة كاباريقا، حاكم أنيورو. وموتيسا، ملك الأوغندا. وإضافة لمواهبه فقد كان من علماء النبات المميزين.

وفي مارس ١٨٨٢ توجه أمين بك إلى الخرطوم لمقابلة رؤوف باشا، الحكمدار وقتها، وفي ١٥ يونيه عاد راجعاً إلى مديريته حيث سمع لأول مرة، وعند وصوله لفشودة، بهزيمة يوسف باشا الشلالي الماحقة أمام قوات المهدي في قدير.

نفشت هنا أيضاً مظاهر الحكم المخزي الكريه، وانتشار الرشوة والظلم، والتي كانت الأسباب الرئيسية للثورة ضد السلطة المصرية، مثلها مثل بقية أنحاء السودان، ووجدت تربة خصبة مهياة لها هنا.

ولعل وصف أمين باشا للأحداث في رمبيك هو خير ما ينطبق على ما كان يحدث في المنطقة غداة وصوله لها. فد كتب قائلاً:

”لم تقم الإدارة هنا، ومنذ عام ١٨٧٧ بالاحتفاظ بأي حسابات أو إرسالها للسلطات. ورغم أن الحاكمين (الذين عملوا هنا) يتسلمون الأموال اللازمة لدفع المرتبات إلا أن أحداً لم يتلق أي قرش لعدة سنوات. وربما كان الحاكمون يشترون بضائعاً وسلعاً بأموال الحكومة ويبيعونها بثلاثة أضعاف قيمتها. ويظهر العبيد في ما وجد من دفاتر الحسابات على أنهم إما أبكار أو حمير أو غيرهم. وتكتمل الصورة عند ما نعلم مدى تزويرهم للاختتام وفبركتهم للإيصالات، التي كانت تجري هنا. ومع هذا كله فقد ملأوا المنطقة بمحلات الصلاة (وبالفقراء)“

ثم لخص أمين بك جملة الوضع عند نهاية عام ١٨٨٢ كالآتي:

”وأثناء غيابي جرت بعض المشاكل في إقليمي. فقد كنت بعيداً وكانت المواشي مغرية. لذا فقد قام الناس ببعض غارات للنهب. ولكن من المدهش أن نعلم أن من قاموا بذلك دفعوا الثمن غالباً من أرواحهم. إذا أن الزوج قد تعلموا أخيراً إلا يستكينوا لسوء المعاملة بدون ثمن. وأتمنى أن يتذكر رجالي هذا الدرس في المستقبل. أما بقية الأحداث فلاشئ جديد فيها وكل شئ هادئ. أما الأنباء التي تلقيتها من الجنوب من بحيرة ألبرت، ومن الشرق، من لاتوكا وفانديك، ومن الغرب والجنوب الغربي من مكاركا ومونبوتو، فكلها تتحدث عن الهدوء العظيم. لقد أرسل لي كباريكا، ملك أنيورو، مرة أخرى

يدعوني لزيارته. ولكن لسوء الحظ فلن أتمكن في الوقت الراهن من الاستجابة لطلبه حيث أن شئوننا أخرى في منتهى الأهمية تتطلب إهتمامي بها وبالتالي فلا وقت لدي للقيام بمثل تلك الزيارة.

والآن، باستثناء المديرية الإستوائية، فإن كل المنطقة جنوبي الخرطوم تقريبا قد أعلنت الثورة. وعلمنا أن نتذكر أن كل تلك الاشتباكات قد حدثت بين رجال اعتادوا على الوقوف في صفوف وإطلاق النيران من بنادقهم التي تحشي بالرصاص من الخلف، وبين رجال متوحشين غير مسلحين في معظمهم إلا بالسيوف والرماح.

وحتى الوقت الراهن (١٨٨٢) فإن القبيلة الوحيدة الهامة التي وقفت بجانب الحكومة هي الشكرية والذين اضطروا، نظراً للموقع الذي يقطنون فيه، إلى المداواة ومسايرة التيار في الوقت الحالي لأن دارهم تقع بالضبط إلى الشمال الشرقي والجنوب الشرقي للخرطوم، وهذه المدينة تقع بينهم وبين المخلص المنتظر.

وما يحدث حني الآن هو التردد والتذبذب من جانب، والإستعداد الصبور لما هو قادم حتماً من الجانب الآخر. وما علي محمد أحمد إلا أن ينتظر حتى تتضج الثمرة ثم تسقط في فمه.

القسم الثالث رسائل المهدي

الملخص:

"الإستبلاء على دفتر رسائل المهدي في توشكي - ملاحظات توضيحية - هيكل الخلافة - نبذة مختصرة عن المهديين السابقين - الخطابات والنداءات - توبيخ من لا يؤمنون بالمهدية - منشور بحث على التواضع في الملبس وغيره - ما يقال من الدعا عند الزحف على العدو - منشور عما يراعى عند الركوب - رؤية قام فيها النبي والأولياء بتصيب محمد أحمد مهدياً - تعليمات حول كتابة الرسائل وتجويد الخط العربي - أطروحة حول الفضيلة والجهاد (الحرب المقدسة) - إعلام من المهدي على باب المسجد الجامع عند بداية شهر رمضان - خطاب قصير - إنذار للمتشككين - خطاب إلى شيخ الإسلام يوضح فيه المهدي أدلة رسالته الدينية - رؤية سلم فيها النبي تاج النصر الدائم الخصرة ووعدها من يموت في الجهاد بالمعاداة الأبدية - إلقاء كلمة (برويش) واستبدالها بكلمة (الأنصار) لتطلق على أتباعه".

كنا نحصل من وقت لآخر، خلال الثمان سنوات السابقة، على ملامح للنظام الديني ونظام الحكم لمحمد أحمد وخليفته وذلك من خلال الرسائل التي وجدت طريقها لخارج السودان. ولكن، وفي معركة توشكي عام ١٨٨٩، وجد وسط أكادس من الرسائل التي كانت قد غُمت من معسكر قائد الجيش، ود النجومي، دفتر لمخطوطات تشتمل على خطابات وقرارات للمهدي وخليفته عبد الله كان يحتفظ بها ذلك القائد العربي. ومن بين الكم الهائل للخطابات والمنشورات تم تلخيص البعض منها وخاصة التي توضح نشأة المهدي وماهيتها. أما للفهم الكامل لهم فلا بد من إدراج بعض التفسيرات والشرح.

فقد كان بالمدينة، عند وفاة النبي محمد، طائفتين مميزتين. الأولى تسمى (بالمهاجرين)، وهم الذين فروا من مكة أو هاجروا منها، والثانية هي الطائفة التي رحبت بهم وبالنبي المهاجر وتسمى (بالأنصار).

كان الإبن الوحيد للنبي، وهو قاسم* قد توفي أثناء طفولته. أما علي، المتزوج من فاطمة بنت النبي، فلم يقدم نفسه بنجاح لخلافة النبي بعد وفاته، رغم تأييد فرقة كبيرة (من المسلمين) له وحثه على ذلك. وبالتالي تولى أبو بكر خلافة النبي محمد.

* غني عن الذكر أن قاسم لم يكن الإبن الوحيد للنبي صلى الله عليه وسلم (المعرب).

كان الرجال الأربعة العظماء، الذين نقشت أسماؤهم على رايات المهدي، والذين حددت (الحضرات) كراسيهم لأربعة من قادة المهدي، هم الراشدون: أبو بكر، وهو الخليفة الأول - عمر وهو الخليفة الثاني - عثمان الخليفة الثالث وعلي (الذي يعتبره الشيعة الخليفة الأول الشرعي) وهو الخليفة الرابع. وعندما تم انتخاب علي أخيراً، فقد تم ذلك على يد المصريين المتورطين في مقتل عثمان.

أختار أبو بكر لقب (الخليفة) وهو (خليفة رسول الله). وهذا اللقب استقله كثير من المغامرين فيما بعد باستخدامهم للقب إما كمهدي أو على أساس أنه من نسل الرسول وهو الأمر الذي يحظى بأهمية كبيرة لدى العرب. لكن شمال إفريقيا هي الوحيدة التي احتفظت بالمعنى الأصلي للكلمة والتي تعني كبير الخدم.

كان عبد القادر الجبلاي عالماً ومؤسساً لإحدى الفرق. وكان قد جاء من ولاية جيلان في فارس وتوفي في بغداد عام ١١٦٦. وهناك مقطع من أوراد وأدعية الجبلاي، يسأل الله فيه أن يبعثه يوم القيامة أعمى حتى لا يشعر بالخلج أمام المؤمنين. واحدٍ أدعيته كانت كما يلي:

في كل صباح جديد يولد،

فأنتي أسجد وأعفر وجهي بالأرض،

وأسال رب السماوات أن بجلي لي بصيرتي.

ولأنني دائم الذكر لله،

فأسأله أن يشملني بذكر منه*.

أما الخضر، فإن غموض شخصيته قد أفاد الذين وظفوا ذلك عندما يريدون الحصول على ولاء أعمى من أتباعهم. وقد يوصف الخضر عموماً بأنه القائد، أو المرافق الدائم لذي القرنين، والذي لقب الإسكندر الأكبر نفسه به، أو قد يوصف بأنه مسلم معاصر لإبراهيم، أو بأنه النبي إلياس. والإسم نفسه يعني الخضرة، أو الذي يعيش أبد الدهر. أما بين السودانيين فإنه يمثل نبياً ذا قوة غير محددة أو نبياً للعرب كان المهدي على صلة وثيقة به بالضرورة (وخاصة في الحضرات) حتى لا يفتح مجالاً للنقد حول أوصاف كرسي الرسول.

وقد وضع الطحاوي كتاباً للحديث أسماه بالآثار. فقد وجد أن القرآن كان رفيع المستوى، ويتناول كثيراً من العموميات التي تحتاج إلى إيضاح وتفسير مما دعى المؤمنون لطلب المشورة والنصح في كثير من شئون حياتهم اليومية والاجتماعية. وهذا ما توفر في الأحاديث التي أوضحت ما قاله النبي أو فعله في مختلف المجالات والتي تشبه ما جاء به (بوسول) في كتابه. (جونسون).

وقد حمل كثيرون من العلماء لقب محي الدين (الذي جاء من الإحياء، عندما عملوا على تبسيط فهم الدين للعامة).

كان الحسين وأخوه الحسن أبناء علي وقتلا بواسطة يزيد* في ظروف تثير ذكراها السنوية حتى اليوم أحر عواطف الشيعة. ويطلق على الحسين لقب الشهيد (من أجل الدين) كما أنه يلقب أيضاً

* المعروف أن الحسين هو الذي قتل بواسطة قوات يزيد. أما الحسن فقد مات على فراشه قبل الحسين وفي عهد معاوية. وربما مات مسموماً (المعرب)

بالسيد وخاصة لدى الآلاف من العائشين على الصدقات المتدينين في فارس، والذين يشكلون أهم بؤرة للتعصب في ذلك البلد، والذين يدعون أنهم من سللته.

وكما أعلن المهدي الذي ظهر في (الهجرة) عام ١١٢٦ وأسس عصر (محي الدين)، الذي تولي الحكم في إفريقيا لمائة وأربعة وأربعين عاماً فقد هذا محمد أحمد حذوه.

وفي عهد الخليفة عمر الثاني (الخليفة الأموي الثامن) إزداد العباسيون قوة على أساس أنهم منحدرين من السلالة الحقة للنبي. وعلى هذا الأساس بدأوا عام ٧١٨ عهد دولة خرج منها ٣٧ خليفة اشتهروا بغزارة نسلهم.

كانت الآلية التي بدأ بها الحكم في الإسلام بسيطة وسهلة التركيب. وكان نكران الذات هو الشعار الذي طوّل به الجميع وكان الزعيم (النبي) ملتزماً وبحرص شديد على توصيل الأوامر والتعاليم المنزلة من الله. وفي المقام الثاني كان الشعار بأن الدنيا باطلة، وأن جمع المال والثروات عمل تافه جدير بالإندراء.

وعمل محمد أحمد مثل النبي، وأحاط نفسه بأربعة من أقدر رجاله وأكفئهم وهم (الراشدون). وخصص كرسي أبي بكر لعبد الله التعايشي، أشهر زعماء البقارة والذي يعتبر من الرجال الشجعان، والذي يفوق الثعلب في ذكائه.

وفي مقعد عمر أجلس ود الحلو. أما مقعد عثمان فقد عرضه على السنوسي المهدي. وبعد أن رفض ذلك الزعيم الكرسي قام بتعيين آدم ود العويسر في مكانه.

أما كرس علي فقد منح لمحمد شريف والذي كان رجلاً شاباً مثيراً للإهتمام، والذي تزوج ابنة المهدي، لكونه جزءاً من النظام الجديد. وبهذا الترتيب تم تدبير أمر خلافته بواسطة أربعة رجال، قاموا بأدوار طليعية أثناء حياته، وحددت أسبقية كل منهم في الخلافة في حضرة دينية.

شكل المبدأ القائل بأن الفقراء والمساكين هم الذين يقبلهم الله، زريعة للقضاء على كل الأغنياء لعدم ميلهم للقضية. لذلك كانت المذابح التي سلطت عليهم شاملة وعديمة الرحمة. ولم يبدأ العمل في إقامة حكومة مدنية إلا بعد سقوط الخرطوم وكسلا. ومنذ ذلك التاريخ لم يجرؤ إثنان على الظهور معاً. وساد البلاد نظام مربع مثل محاكم التفتيش وكان من يشك في عدم حماسه للقضية أو في إستقلالية تفكيره يشهد ضده عبيده أو حتى صغار الصبيان. وإذا ما إحتج بعدم قبول شهادة ذلك العبد فإن احتجاجه يؤخذ على أنه إستتكار لأمر الله بجعل كل الناس سواسية، وبالتالي يستحق عقوبة الموت.

وعلى نفس الشاكلة، فقد كان لمبدأ " إحتقار متاع الدنيا " ما يبرر إجبار كل الناس على إبداء ثرواتهم في بيت المال، والذي كان على رأسه أحد خلصاء المهديين الذي يتولى مهمة توزيع تلك الأموال والممتلكات حسبما يرى محمد أحمد من وقت لآخر.

إن فقد أقيمت الخلافة على قاعدة تدمير كل المعارضين وتجميع الثروة في نفس الوقت. وكان نجاحها يعتمد أساساً على سذاجة الجماهير، وهي في الشرق ظاهرة متفشية. وكانت العملية من السهولة لدرجة أنها تتكرر مرة بعد أخرى حتى أنه، في عام ٩٣٧، كان هناك من الخلفاء بقدر ما

كانت هناك دول. ففي ذلك الوقت كان العباسيون يحكمون في بغداد والبيهيون في البصرة وفي فارس والحمدانيون في بلاد ما بين النهرين والإخشيدي في مصر وسوريا والفاطميون من سلالة المهدي في إفريقيا والأمويون في إسبانيا والسمانيون في خراسان وأخيراً الدلماطيون في جورجيا.

والمأمل في تلك الممارسات التي يقومون بها ونقاط الضعف فيها يري الأسباب الوجيهة التي يبرر بها المهدي إعلان ظهوره. وأن المزاي والمؤهلات اللازمة لإطلاق العاصفة الثورية لا تتوافق مع القدرة على السيطرة عليها. فالمسكنة والتكشف (في المأكل والملبس تقريباً، ولكن، وفي الشرق بالذات، ليس مع النساء) والخلوة وعزلة المتصوفة، كلها تجبر المهدي لإيكال معظم الشئون لكبير خلفائه.

ومن اللحظة التي تتأسس فيها بنية النظام الديني الجديد، فإن الولي تنتهي مهمته ولا يحتاج إليه بعدها. حتى مجرد وجوده يعتبر خطراً، فقد ينكشف القناع عنه في أي لحظة. وفور وفاة الولي وتمجيده ودفنه في قبره وتنظيم الحج إليه، فإن الخرافة التي قام على أساسها النظام الجديد تظل في أرض ثابتة ومن ثم تتطلق يد الخليفة النشط ليفعل ما يشاء. ودور الخليفة هنا في غاية البساطة، إذ لا يحتاج للتظاهر بحدوث إلهامات مقدسة أو حضرات له. وما هو إلا، ببساطة، رجل تم تعيينه بواسطة الولي الملهم كخليفة له بعد أن وصل الأمر إلى بر السلامة. لذلك يشهد إستعجال الخليفة للصعود إلى السلطة وتولي زمام الأمور.

وتاريخ الأحداث في الشرق عادة ما تكون أقل دقة عن الأحداث في أوروبا. وتاريخ الخلافة السابقة لا يحمل ما يدل على تمام صحته. لكن الخلافة الأخيرة قد قامت تحت رقابة أوروبية. وقد تم دراسة أساليبها ودعايتها بغاية، والتي قد تتلخص في عبارة "إما مالك أو حياتك".

ولم يكن المهدي أو خليفته التعاشي يدركان أي معنى لكلمة "حكومة"، بل حتى كلمة "التجارة" لم تكن تعني بالنسبة لهما سوي وجود ثروة يمكن الإستيلاء عليها عندما كشف صاحبها الغبي عن المخبأ الذي وضعها فيه أو حاول نقلها لمكان آخر بخلاف بيت المال.

وفيما يلي، وبعد ذلك التوضيح المطول، فإن الخطابات والروى والخطب، التي سنوردها، ستتيج فهماً أفضل وأصدق للمهدية.

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم

والصلاة على سيدنا ونبيينا محمد مع التسليم

والآتي كنية الإمام (المهدي) بعد الديباجة:*

* لأن الترجمة تلشد البلاغة في خطابات المهدي. نحيل القارئ للنص الوارد عن هذا الخطاب في كتاب الدكتور أبو سليم (الآثار الكاملة)، النص ١٦٠ صفحة ٤٣٤ من الجزء الأول بعنوان "أعلام السوء". أما بقية النصوص فلي الأجزاء الأربعة الأولى "المعرب".

إلى العلماء الذين عارضوا المهدي وتحذروا ضدها، والذين لن أذكر أسماءهم هنا. يا علماء الصوء: تتظاهرون بالصلاة ويأداء الصدقات ودراسة الدين. ولكن من الذي لا يقوم بذلك؟ فيا لفساد ما تتخيلونه! إنكم تتظاهرون بالتوبة وبالرجوع إلى الحق لكنكم حقيقة لا تتبعون إلا أهواءكم ومتاع دنياكم. لماذا تتظهرون وتغتسلون بينما قلوبكم مليئة بالخطايا والخبايا؟.

إنني أقول لكم: لا تكونوا كالمخل الذي يغربل به الدقيق ويبقى الردة والنخالة به. تنطق كلماتكم بالحكمة لكن قلوبكم هي قلوب الخبثاء. لا أمل يرجى من أحد تكون رغباته وطموحاته مركزة على حاجيات هذه الحياة الدنيا. إنني أقول لكم بأنكم عندما تتشغلون بمتاع الدنيا فإنكم تدمرون أملككم في الآخرة. إنكم حقاً أكثر الناس خبثاً.

فهل تدركون الأذى الذي تلحقونه بأنفسكم من جراء خبث أساليبكم للحياة. ربما ترغبون في تغيير ذلك لكنكم عمي. فهلاً مهلاً. فماذا يجدي وضع مصباح على سقف بيوتكم بينما داخلها يسود الظلام والغموض. وماذا يجدي حديثكم بالحكمة والمعرفة إذا كانت قلوبكم مليئة بالخبث والشر؟ فما أنتم إلا عبيداً للدنيا وسينقلب العالم عليكم وسيلقي بكم أرضاً. وستحملون خطاياكم وستجركم من شعر رأسكم حفاة عراة إلى حضرة القاضي الأعظم والذي سيعاقبكم عقاباً أبدياً على أعمالكم الشريرة*.

والآتي هو منشور بحث على التواضع في الملابس... الخ

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم* والصلاة على سيدنا محمد وعلي آله مع التسليم.

من عبد الله الإمام المهدي إبن السيد عبد الله إلى كل الإخوان الذين هجروا ديارهم لإتباع دين الله. فليكن معلوماً لديكم جميعاً بأن أتباع خليفة الله* ورسوله، والذين أتبعوه في أيام الصرة، والذين وهبوا أرواحهم في سبيل إحياء دين الله وإقامة شرع رسوله، والذين بتواضعهم وفقدهم سلموا أنفسهم لله وتعهّدوا إما بإقامة دين الله أو الموت دون ذلك، هؤلاء هم الذين يقبلهم الله من الأصحاب ويغفر لهم خطاياهم ويمدهم بالقوة لإتباع نهجه ورفع الصوت بحمده.

لقد صب الله على خليفته روح الطمأنينة حتى لا (بخشون) قوة الكفرة أو عندهم.

واللباس الذي يرتدونه هو علامة أعطاه الله والرسول والخلفاء لهم. وفي إرتدائهم لهذا اللبس ينالون أربعة فضائل: الأولى، أنها تجعل الذين يرتدونه أنقياء ومتواضعين، الثانية، أنها تجعل الأعداء بخشونهم، الثالثة، أنها تجعلهم مكرمين من أصحاب الحضرة (الله ورسوله وبعض الملائكة المقربين). وأنها تقرأ عنهم الشبهات.

* للاختصار فيما بعد فسيتم تجاوز الدبيلجة في خطبات المهدي ومنشورته (المؤلف).

** خليفة الله) لم ترد في أي من منشورات المهدي. ولطفاً كما أشار هولت من فبركة المترجمين الضول (المعرب).

هؤلاء الأصحاب هم الذين قاتلوا في سبيل دين الله أعداءه، الذين أساءوا المسلمين وقهروهم وظلموهم في شتى أنحاء العالم، لذا نصرهم الله في كل ما قاموا به. أما المهدي، فقد وقف كمهدي وحيداً معهم حتى قتم، عند سماعكم بأنباء إنتصاراتنا، بالحضور إلينا والانضمام معنا للقتال في سبيل نفس القضية. وأصحابي هم الأوائل في هذا العالم. وسيكونون الأوائل في العالم الآخر. فقد قال الله أن هؤلاء (الأبكار) الأوائل سيتم تكريمهم في الجنة. لذا عليكم توفير أصحابي الأوائل، أيها (الأنصار)، وأطيعوا أوامره. أما أنتم يا أصحابي فعليكم محبة الذين من دونكم وأن تعاملونهم كأخوانكم. نسأل الله أن يمنحنا القوة لفعل ذلك كله. آمين".

ومرة أخرى يقول: (قولوا، عندما ترحفون على العدو، اللهم امطر علينا روحك وثبت أقدامنا عند لقاء العدو). وعندما تلاقون العدو قولوا (اللهم أنت رنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك. لكك أنت الذي تقتلهم) وعندما تبدأون القتال تقولون (الله أكبر! إلى الأمام!).

ثم يقول الإمام المهدي أيضاً:

"قولوا عند لقاء العدو (يا الله، إياك نعبد وإياك نستعين. نشهد بأنك الله وحك ولا نشرك بك شيئاً. هؤلاء أعداؤك الذين لا يؤمنون بك ولا بكتابك الكريم. إنهم يشركون معك إبناً. فيا الله أقهرهم وأملأ قلوبهم بالرعب. وأمنحنا يا الله (نفحات) روحك وأنجنا من العقاب وأكتب لنا النصر. لقد قلت في كتابك الكريم: أن نؤمن جميعنا بالله ونثق به فهو ربنا وهو الذي يساعدنا".

* * *

منشور عن قواعد الركوب

بسم الله الرحمن الرحيم....."

من محمد المهدي بن عبد الله إلى كافة إخوانه وأحابيه في الله ورسوله.

يا إخواني: لقد أمرنا الله في كتابه الكريم بالتقوى. أي أن نقوم بكل ما يرضيه وأن نتجنب كل ما (نهى عنه) ولا يرضيه. فالرجل العاقل يطيع أوامر أبيه، فلماذا إذن لا نطيع أوامر الله الذي هو ربنا وسيدنا وهو العلي والحاكم الوحيد؟

فإذا أردتم الانتقال من مكان لآخر داخل المدينة فأنكم ترضون الله عندما تسيرون على الأقدام، لا راكبين. على أي رجل ألا يركب إلا إذا كان غير قادر على المشي. وإذا ما اضطرت للركوب فعليكم ركوب حمار. وإذا مشيتم فامشوا بهدوء وتواضع ولا تعجبكم أنفسكم أو تمشوا بخيلاء. لأنه يقال "إذا أكلت فكل لله، وإذا شربت فاشرب لله. وما تلبس فالبسه لله وما تركب فأركبه لله". وإذا ما فعلتم شيئاً من هذا بدافع التكبر فأنكم ترتكبون خطيئة. أما من يتواضع أمام الله فإن الله سيعليه. وفي كل ما في السماوات والأرض نجد الأئمة على عظمة الله، وعليكم ألا تمروا بأي مكان بدون أن

تأملوا في عظمة الله وحكمته، وفي ضعفكم ومسكنتكم. وقد قال الله في كتابه العزيز أن على عباده أن يسيروا متواضعين في الأرض.

لا يركبن أحدكم فرساً إلا وقت الحرب أو في ساحة الإستعراض وتدريب الجنود. وفي هذه الحالة عليه ألا يظهر عجب النفس وإنما عليه أن يتحلى بتواضع النفس. وهناك بعض الرجال يقومون، من أجل التباهي والتفاخر، بأمر خدمهم بالسير وراءهم وهم يمتطون الحمير. وأحياناً يمسكون بلجام الحمار (وهو راكب). إن هذا الأمر ممنوع تماماً. فقد إعتاد النبي وصحابته، عندما يركبون، أن يسير خدمهم وراءهم ولكن إذا ما تعبت الحمير فأنهم يترجلون ويمشون مع خدمهم كأخوة. وإذا ما كان الخادم مريضاً فإنه يمتطي حمار سيده ويمشي السيد معه حتى يرتاح الخادم. فأتبعوا هذا النهج يا إخواني. وإذا ما أكرمكم الله فعليكم قبول إكرامه بالتواضع والمسكنة. أما إذا قابلتم نعم الله بالبهجة وإظهار الانشراح فأنها ستؤخذ منكم. وعندما ينعم الله عليكم بشئ فاسجدوا له شاكرين وأعلموا أنه لم ينعم عليكم لخصائصكم، بل لأنه رحيم كريم. وهذا هو النهج الذي وضعه لنا النبي وصحبه فاتبعوه ولا تتبعوا نهج الترك* الذين ينعمون بالعيش الهنيء والرفاهية، والذين يطلقون نيران مدافعهم وبنادقهم من شدة الفخر والغطرسة. وقد جاعنا ما يلي من الحديث عن النبي محمد "أخبروا إخواني ألا يعيشون مثلما يعيش أعدائنا ولا يلبسون مثلما يلبسون. وإذا لم تفعلوا ذلك فأنكم تصبحون إعدائي مثلما هم أعدائي".**

بسم الله الرحمن الرحيم.

من الإمام المهدي إلى حبيبي المكرم وأستاذي الموقر، خليفة جدنا، الشيخ محمد الطيب البصير، حماه الله من كل الشرور.

بعد السلام والتحية، فإني تعلم تمام العلم بأن الذين يثقون في الله لا يخشون شيئاً وهو منتصر على كل أعدائه، والله يحميه من كل شر.

وحيث أنك وكيل غني وصديقي الحميم فأن عليك، مثلي، أن تعمل على تشجيع كل من له صلة بي للحضور إلي ومبايعتي. وإذا لم يتمكن أحدكم من الحضور فعليه أن يبإيعك أنت، وإذا لم يتمكن أحدكم من الحضور فعليه أن يبإيعك أنت، إذ أن مبايعتك مثل مبايعتي. فأت مأمون على حقوق الله وإن من واجبك إقناع كل أصدقائك والمحبين والمريدين لهجر أوطانهم وأموالهم وأن يصرفوا نفوسهم لخدمة الله.

وبعد مغادرتك، حصلت لي رؤية سأسردها عليك كما يلي:

* علينا أن نتذكر أن عرب السودان يطلقون لفظ (الترك) كمرادف للظافة المكروهين مهما كانت جنسياتهم. وأطلق نفس اللفظ على الجنود البريطانيين.

** النص الكامل لهذه الرسالة البليغة، التي كتبها الإمام المهدي في بولكير الدعوة، وقبل معركة الجزيرة لها، موجودة في (الآثار الكاملة) النص رقم ١٥ بالجزء الأول الصفحات ٧٦ - ٨١ مع حواشي وشروحات كاملة للدكتور أبو سليم. كتبت في ٣٠ يونيو ١٨٨١. لكن المترجمين الشولم العلملين مع ونجت حذفوا وإضافوا إليها (المعرب).

رأيت النبي في الرؤيا. وقد جاءني بصحبة أخينا الفكي عيسى. ثم جلس بجاني وقال للفكي عيسى: "المهدي هو زعيمك" فقال الأخ: "إنني أصدقك" فقال له النبي مرة أخرى: "إذا لم يصدق أي أحد به، فإنه لا يصدق بالله ولا بنبيه" وكرر قوله هذا ثلاثة مرات. ثم قال الأخ المذكور له: "يا سيدي، إن بعض العلماء يسخرون منا، وإننا نخشى من الترك" فأجابه النبي: "إذا ما توكلت على الله فإن بإمكانك أن تفعل ما تشاء حتى لو استعنت بقشة" ثم قال الشيخ عبد الله لي: "يا سيدي - شيخ الطيب - إننا نؤمن برسالة مهدينا لكن الناس لا يؤمنون" فيقول الشيخ الطيب: "إن شيخك حين ولادته عرفه الأولياء وعندما أكمل أربعين يوماً عرفته كل النباتات والجمادات. والطريقة المهدية بنيت على ستة فضائل هي: التواضع والمسكنة وقلة الطعام والشراب والصبر وزيادة السادات*. وكذلك بنيت المهدية على ستة فضائل هي: "الحرب والحزم والعزم والتوكل على الله والاستسلام له واتفاق الرأي. فهذه الفضائل الإثنتي عشرة لا توجد في رجل آخر سواك". ثم قال الشيخ الطيب: "أخبر أتباعك لتجنب ثلاثة شروء هي الحسد والكبرياء وإهمال الصلوات. وإذا ما أنصف أي واحد بهذه الصفات فإنه لن يكون من جنود الله".

لذلك، وعند وصولك لتقدير فلا تترك أي شخص بهذه الصفات يدخل المدينة وأمر النساء بتغطية رؤوسهن ووجوههن. وفي طريقك بين كردفان وتقلي فأمتنح رجالك وتأكد من أن لا أحد منهم متوجه سوي في سبيل الله أما إذا وجدت من هو غير ذلك فلا تدعه يمشي معك. صلوا أيضاً للملك آدم**

ثم جاء الشيخ التوم وحياتي بتحية المهدية وقال: "أعمل على أن يعيش أتباعك ورجالك مع بعضهم البعض بالود والصدقة ويكون الرجل الغني أبا للفقير والمتساويين في الطبقة كأخوة. وفي شهر رمضان ادخل خلوة (الأربعين) وستجد فيها كشفاً للساسات والغوامض.

ثم أتى جدنا الشيخ البصير وحياتي بتحية المهدية وخاطبني بكلمات فهمت أنها تعني الآتي: كن دائماً مخلصاً وناثراً نفسك لسنة النبي".

وبعده جاء الشيخ القرشي، وبعد أن حياني قال لي: "كن متفكراً ودافع عن مبدك وأحمي ناسك".

ثم قال الشيخ عبد الله عند ذلك: "لكن الناس لا يعتقدون في المهدي يا سيدي" فإرد عليه قائلاً: "لقد أعلمني النبي قبل مماتي بأن شيخي هو المهدي وقال لي الشيخ الطيب قبل وفاته إنك ستعيش حتى تري المهدي وهو شيخك".

ثم أتى النبي وبصحبه الشيخ عبد القادر الجيلاني لباساً جبة عليها رقع. وعندما رآه الشيخ عبد الله قال له: "يا سيدي رسول الله. إن بعض الناس لا يؤمنون بالجبة" فرد عليه: "أي إنسان مكون من رقع. ففي الرأس بقعة زرقاء وجلد شفته من الداخل حمراء والأسنان رقعة بيضاء وأظافره رقعة صفراء. ولولا خشيتي من أن يفشي عليك لأريتك جيب الخلفاء الأربعة".

* هذه هي خصائص الطرق الصوفية ككل وليس المهدية. وهي من أخطاء المترجمين الشولم العاملين مع ونجت (المغرب).
** في الرسالة الأصلية (ولازم أن تصلوا إلى الملك آدم بهيئة حسنة) فترجمت إلي (صلوا أيضاً للملك آدم) (المغرب).

ثم أمر الملك عزرائيل ليكون دائماً بصحبتى وصحبة أتباعي وليعمل على حراستي وحمايتي دائماً.

وقد حصلت هذه الرؤيا لي ليلة الأربعاء الأول من شهر شعبان. وفي تلك الليلة وجهني الرسول بما أقوم به عند دخول مكة وأتني سأخذ البيعة أولاً من الناس العاديين ومن بعده (بيعة) الملك وكبار قومه.

إرشادات حول الكتابة

بسم الله الرحمن الرحيم....

من عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله إلي كل الكتية في حكومة المهديّة. عليكم الحرص والدقة في كتاباتكم ولا تغيروا شكل الحروف لأن الله سيهلك الذين يغيرون شكل حروفه فلا تكتبوا كأولئك الذين أهلكهم الله. وأظهروا السين (من) في (بسم الله) والشرين (ش) في الشيطان الرجيم وحرف الكاف (ك) وحرف الهاء (هـ).

اجتنبوا تقليد كتابة الترك وخطهم وأعطوا الحروف أشكالها الأصلية كما أنزلت إلينا وعودوا أنفسكم الكتابة الضبط كالكتابة في القرآن الكريم *

عن الفضيلة والحرب الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم....

من محمد المهدي بن عبد الله إلي حبيبه وصديقه عبد الله ود النور.

صديقي العزيز، لقد قال الرسول أنني جربت فضيلتين في هذه الدنيا ومن يحبني يحب إتباعهما ومن يكرهني يكره إتباعهما. هاتان الفضيلتان هما الفقر والحرب في سبيل الله. والذين يتبعون تلك الفضائل هم من السعداء في أنفسهم وسينزل الله نوره عليهم. وإن مقصدهم هو أن يفعلوا كل ما يقربهم إلى الله في كل يوم. أما الذين لا يتمسكون بتلك الفضائل فهم دائماً في شقاق ولا يرضون بشئ أينما كانوا. ولقد قيل: "إذا ما كان للرجل واديان من ذهب فإنه يرغب في ثالث ولا يكفيه شئ سوى التراب". لذا عليك يا صديقي أن تتمسك بتلك الفضل وأن تبشر بها بين الإخوان والانتباه لما فيه مرضاة الله.

* النص رقم ١٦١ صفحة ٤٣٦ من (الأثر الكاملة) (المعرب).

عن القضاء والقدر

تم تعليق هذا المنشور على باب المسجد الجامع في الليلة التي سبقت بداية شهر رمضان:

بسم الله الرحمن الرحيم.....

يقول عبد الله محمد المهدي أن الشهر القادم هو شهر رمضان. وهو شهر الاقتراب من الله وأن نرضي ببعضنا البعض للعيش بمخافة الله. كرسوا الشهر بكامله لله وعودوا أنفسكم على التقشف والابتلاء. فإن المصاعب والابتلاءات لا تأتي إلا بمشيئة الله ليمتحن صبرنا وإيماننا. لذا فثقوا بالله وأنذروا نفوسكم إليه. ومهما يحدث فاعلموا بأنه ما حدث إلا لصالحكم وراحتكم حتى لو بدأ غير ذلك. فأن الله واسع الكرم ولن يسمح بأن تقع الشرور علينا إذا ما توكلنا عليه حق التوكل.

وقد قال أحد الحكماء: * عندما أيقنت بحتمية القضاء والقدر، وضعت كل ثقتي في الله وأوكلت نفسي لعنايته في كل شئون الحياة*. فلماذا تسألون عن حقيقة القضاء والقدر؟ ألا يكون الرجل منا دائماً في موقف لا يتوقعه؟ فلماذا يشغل الإنسان نفسه ليستفسر عن هذا الأمر أم ذاك؟ فإذا ما شاء الله أن يمنحه شيئاً ما فإنه سيناله سواء سأل أم لم يسأل. وإذا لم تكن مشيئة الله، فلو قضى كل حياته في السؤال فلن تمنح له. بجانب ذلك ففي كلا الحالتين فهناك عدم التوكل على الله. لذلك كونوا دائماً بجانب الله وأوكلوا إليه شئونكم ولا تتضجروا مما يصيبكم وأصبروا عن المحن مهما كانت قاسية عليكم.

لا إله إلا الله ولا قوة إلا به. فكونوا على ثقة من هذا يا إخوتي وتوكلوا عليه وأسألوه حاجاتكم لأننا جميعاً عبيد الله. وفي هذا الشهر لا تشغلوني بشئ من شئونكم ودعوني لأفقرغ لله والصلاة والعبادة. وإذا ما أعوز الصبر أحكم ولم يرضي فعلياً أن يرفع موضوعه إلي خلفاني ووكلني وإلى القاضي ولا يشغلني به. وإذا لم يرض بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه**

موعظة قصيرة

بسم الله الرحمن الرحيم.....

الحمد لله فاطر السموات الذي خلق الإنسان من طين ثم أنشأه في أحسن تقويم والذي دعاه إلى الطاعة والمعرفة والعبادة، ووعد الذين يتقون والذين يصبرون على الابتلاءات والمحن، بالجزاء الأوفى.

* ربما كان هذا المنشور آخر ما كتبه الإمام المهدي، قبل دخوله في خلوة للتعبد خلال رمضان ثم مرضه السريع ووفاته في التاسع من رمضان ١٣٠٢ هجرية.
والنص البليغ الكامل تجده في (السودان عبر القرون) لمكي شبكه صفحة ٣٦٧ من طبعة بيروت (المعرب).

فالحمد والحمد الجزيل لله الذي أنار بقوى الحق طريق عباده المخلصين بعد أن كانوا في عمية الظلمات. والحمد لله على نعمه المتواصلة علينا والذي علمنا أن الحياة الدنيا ما هي إلا دار البوار وأن النعيم الأبدي مدخر في الآخرة. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي منه جاء النور وانتشر شعاعه وأنار السبيل للذين يؤمنون. وكونوا شاكرين لذلك وصلوا عليه كثيراً لأن كل النعم جاءت منه. ومنه علم الناس أن الله قادر على كل شيء وأنه غفور رحيم وأن لا ملجأ إلا إليه. وعندما يموتون فأنهم يموتون في سبيله بعد أن تحرروا من كل المصاعب والمحن. رضي الله عنهم. نعم رضي الله عنهم وبارك فيهم فقد سادوا العالم وحصلوا على نعيم الآخرة. وهؤلاء المكرمون أعني بهم صحابة النبي فقد وهبوا أنفسهم وأموالهم للدفاع عن شرع الله وعاشوا من أجله وحده.

لذا عليكم أيها المخلصون المؤمنون العابدون لله أن تنظروا لهذه الدنيا بعين فاحصة. وتأكدوا من خوائها، ووجهوا قلوبكم نحو السماء، نحو الطريق للحياة الأبدية. كرسوا أنفسكم لله وتجنبوا متاع الدنيا ومباهجها وقد قال الله في القرآن الكريم أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لهو ومتاع وأن الآخرة هي الأبقى. فاعتبروا هذا يا أولي الألباب. فمن تستطيعوا تغيير هذا العالم إلى عالم يدوم للأبد. لذا فأتركوه وكرسوا نفوسكم للعالم الآخر القادم قبل فوات الأوان حين لا ينفع الندم ولا التوبة. أعملوا لخلاص أنفسكم وتوبوا إلى الله وأسأله أن يغفر لكم ما إقترفتُم من اللوم والمباهج الدنيوية. ولا تشتهوا وتجروا وراء المتع التي استمتع بها القياصرة والفراعنة والأكاسرة ولكن أسألوا الله ما سألته الأنبياء والرسل ألا هي الفقر والمسكنة. وقد قال النبي أن هذا العالم في سبيله للزوال وأن العالم الآخر قد اقترب. فكونوا أبناء العالم القادم ولا تكونوا أبناء هذا العالم الفاني. وقال أيضاً أن علي الناس ألا يتركوا أبناء هذه الدنيا ليصرفوهم عن الدار الآخرة. وألا يشبعوا رغباتهم وشهواتهم بل يكونوا طائعين لله. وعليهم ألا يخدعوا أنفسهم وأن يكونوا يقظين متنبهين وألا يقولوا (أنا سمعنا) عندما لا يسمعون.

وكل نفس بما كسبت رهينة لذا عليكم ألا تهملوها. فليس لكم نصيب من هذه الدنيا بل أن نصيبكم هو في الدار الآخرة. فهذا العالم هو للكفرة. ولتكن لكم عظة في حديث النبي عندما قال بأن هذا العالم إذا كان لا يسوى إلا جناح بعوضة فإن بعض الرياح لن تكون معادلة لنصيب الكفار منها. لذا فإن هذا العالم هو نصيب من لا نصيب لهم (في الآخرة) لأن عبادة الله المؤمنين قد نبذوه.

ولذا فعليكم أن تنبذوه وأن تختاروا ما أَرَادَ الله لكم ولا تختاروا ما إختاره الكفار. فليغفر الله لي ولكم وأن يجعلنا من عباده الصالحين. آمين.

تحذير للمتشككين

بسم الله الرحمن الرحيم.....

من عبد الله المهدي ابن السيد عبد الله إلى شيخ الإسلام الموقر، محمد الأمين، بارك الله فيه. آمين.*

لا يخفى عليك أن البيان لا يهدي وإنما الهداية من الله. وقد أعلم الله نبيه لتبليغ رسالته وأنه لا يهدي من أحب. إن رجائي فيك هو الذي دفعني للكتابة إليك لأخبرك بحقيقة الرسالة التي أقوم بها والتي ليس فيها كذب ولا أباطيل. فأنا لست بالمتخيل ولا بالمصنع، لكن ما أقوله إنما هو الحق من الله ونبيه.

لقد أيد الله مهديتي ودعمني الرسول فيها. فمن المعلوم لديك أن لا أحد يجزئ على الشك في الله والرسول** إلا أولئك الذين حرموا من السعادة بالله. فمن يعلم أن متاع الدنيا لا يسوى شيئاً وأنه في الميزان لا يزن جناح حشرة فإنه لن يختارها على نعم الله (وإلا) فستختفي ثروته الدنيوية وكأنها لم تكن وستعقب عليه حسره وندامة لانهائية لها. فلن يختار أحد مباحج هذه الدنيا ويفضلها على المنافع التي تعود عليه من اتباع نهج الأنبياء والأولياء إلا إذا كان فاقده العقل حقاً. أما أنا فإني عبد فقير غير قادر على أداء أدنى شيء ولولا أنني على نور من الله وتأييد من رسوله فلن أستطيع قول أي شيء أو فعله وما قلت وما قلت إلا ما أمرت بقوله كرسول الله***. وما فكته ليس معلوماً لدي الأولياء ولا لدى العلماء. وقد قال الله "ويخلق ما لا تعلمون". وقد جمع الرسول أرواح الذين أنكروا مهديتي. ومن بينهم الأولياء والعلماء العارفين ووبخهم وعد عليهم النعم الدنيوية والروحية، والبلايا الظاهرة والباطنة والحسية والعقلية قتلاً لهم لقد أنكرتم نعمة الله بأنكاركم للمهدية. وبعد تصديقكم بالمهدية فقد ظهر جلودكم لنعم الله عليكم. أما الذي كان حامداً لله شاكراً لنعمه فقد ولاه زعيماً عليكم ولقبه بالمهدي. فلماذا تنكرون المهدية التي أعطيت له" فصاحوا قائلين: "يا نبي الله إنك حقاً رسول الله" فقال لهم أن يطلبوا مني العفو ففعلوا ذلك. فالذين صدقوا منهم بمهديتي جعل الله لهم السعادة ولكن الذين أنكروني هم الذين لا نصيب لهم من نعم الله. وقد دلت أعمالي الجليلة على صدق حديثي فيما يختص بالرسول لكن لا الأعمال الجليلة ولا الكرامات ستفزع الذين أراد الله أن يحرهم من نوره. وقد قال لي النبي عدة مرات بأن من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله وأن من عاداني فهو كافر وأن من يحاريني فلن يفوز في هذه الدنيا ولا في الآخرة وستصبح أمواله وعياله غنيمة للمسلمين.

وليكون معلوماً لديكم بأن كل ما أفعله إنما بأمر من رسول الله والحرب ضد التترك إنما كانت بأمره وقد أخبرني بأسرار كثيرة وإحداها أن كل تلك الهلاك ستخضع للدين والسنة وحدثني بما

* النص البليغ للمهدي في الجزء الأول من (الأثر) صفحة ١٥١. وقد كتب الخطاب بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٨٢ (المغرب).

** جاء في الأصل: "ومعلوم أنه لا يكتب على الله ورسوله إلا من لا خلق له عند الله تعالى". فأنظر ضحالة ما جاء في

الترجمة أعلاه (المغرب) وغير هذا كثير!

*** الصحيح: "وما أخبرني بما أخبرني إلا بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم" (المغرب).

* فصاحوا قائلين: "تتنا يا رسول الله. (المغرب).

سبحدت بعد ذلك في تلك البلاد وأنتي سأنتصر دائماً على كل أعدائي. وأوضح لي في رؤية عن يوم القيامة وأن الترك الذين قتلته قد شكوني لله عز وجل قائلين: "يا ربنا وإلهنا لقد قتلنا الإمام المهدي بدون إذارنا" فأجبت: "يا سيدي لقد أرشدتهم وأنذرتهم لكنهم لم يستمعوا لقولي وإنما إتبعوا أقوال العلماء وشنوا علي الحرب" فقال لهم سيد الوجود الذي كان حاضراً: "إن ذنبكم علي رؤوسكم فقد أنذركم الإمام المهدي لكنكم رفضتم ذلك وإتبعتم أقوال علمائكم" بعد ذلك أقبل هؤلاء الترك علي بعضهم البعض يتلاومون ويقولون "لو لا أنتم لكانا مؤمنين" فقال قادتهم رداً علي أتباعهم "إننا لم نمنعكم المهدية** بعد أن بشرتم بها وبالتالي فأنتم الملمومون"

وأما عدم تسليم القائمين بالدولة من البداية فإن هذا سؤال يترك لإرادة المولي ووقت تسليمهم هو بيد الله. فما يحدث لي هو مثل ما حدث للرسول إذ لم يسلم له الملوك مبدأ الأمر وقد حصلت له ولصحابته مشاق ومصاعب كثيرة وحروباً عديدة ضد العلماء وحكام اليهود والنصارى والذين كان يفترض أن يكونوا أول من يتبعونه. ومشيلة الله هي التي قضت أن يعاني الرسول من تلك المشاق. فأنني مقف أثره واسترشد بهدي نوره.

ويقال أن الترك قد تصلحهم النصائح والمواظ لکنهم لن يظهرهم إلا السيف إلا إذا رحم الله البعض منهم. وقد أخبرني الرسول بأن كل الأمم ستهدي بواسطتي بدون المشقة التي حصلت له ولصحابته وأنتي خلقت من نور قلبه. وأخبرني بأن أصحابي كأصحابه وأقلم رتبة هو في نظر الله في درجة الشيخ عبد القادر الجيلاني. فالفضل بيد الله ويؤتيه من يشاء. وأنتم مدركون تماماً بأن العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدية والتي لا تتسجم، حسب إعتقادهم، مع ما يؤمنون به لكن الإشارات كثيرة من الله المؤيدة لمهديتي. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وأقول لكم أيضاً بأن المهدية الحققة ليست بمعروفة لدي مختلف العلماء. فهناك الكثير من الأحاديث التي جاءت عن هذا الأمر من وقت آخر منها المقطوع والموضوع والضعيف. والحديث الصحيح ينسخه حديث صحيح (والمعجزات تنسخها المعجزات)* والتصديق بالمهدية أمر صعب لا يصل إليه إلا الذين أعطاهم الله حظاً من السعادة. ولا يفهم حقيقتي إلا من لم يحجب عن رؤية الرسول من الأولياء.

أما عما جاء بخطابك من أسئلة فإن الإجابة عليها واضحة ومعلومة تماماً لمن كان له عقل. وكان بإمكانني أن أجيبك على كل سؤال من أسئلتك بالتفصيل لكنني أركت أن الإصلاح لا يأتي من البيان فإذا ما قمت أنت، بعد تصديقك بمهديتي، بتفحص تلك الأسئلة بإمعان فستجد أن الأجوبة عليها هي واضحة كضوء النهار. وكل العلماء الذين اتبعوني، والذين هم أقل علماً منك في الظاهر، يوافقوني تماماً علي ما قلت. فإذا ما كنت رجلاً عاقلاً حقاً لما كتبت لي ما كتبت** لذلك فأنني أنصحك بتدارك حياتك وإنقاذها طالما كان هناك وقت لذلك وأن تترك مالك وأهلك وتتبعني وستكون مشاركاً لنا في النصر العظيم. ولا تبقي بعد هذا في الظلام. فهل تجهل ما حدث للإسلام والذي حدث به الرسول في عدة أخبار؟ فمذلك تكفي مجرد الإشارة.

** ترجمة خاطئة للآية: نحن صدقناكم عن الهدي بعد إذ جاءكم بل كنتم قوماً مجرمين. (المعرب).

* الصحيح والآيات تنسخها الآيات (المعرب).

** الصحيح - ولو علمت حقيقتي لما كنت كتبت لي ما كتبت (المعرب).

نموذج لرؤيا

بسم الله الرحمن الرحيم.....

لقد حدثت رؤيا عظيمة روى فيها النبي وخلفاؤه الأربعة العظام والمهدي واقفين مع بعضهم. ثم هبط ملاك من السماء حاملاً في يده تاجاً أخضراً. قام بتحية النبي وخاطبه كما يلي: "يقريك ربك السلام ويرسل إليك بركاته ويخبرك بأن هذا هو تاجه للنصر وهو هديته للإمام المهدي. وهو علامة على النصر ويأمرك أن تقدمه له بيدك أنت" بعدها قام الرسول بتقديم التاج للمهدي وقال: "ما النصر إلا من عند الله". وعندما سلم النبي تاج النصر للمهدي هدية من الله تعالى خاطبه قائلاً: "لقد حرسك الله بملكه وأنبيائه. ولن تستطيع أية دولة أن تواجهك في الحرب سواء كانت دولة الإنس أم الجن. وأما أولئك المحاربون الذين بذلوا أنفسهم لدين الله فسيرحب بهم الله في يوم القيامة وسيدخلون الجنة التي فيه القصور الجليلة والأزواج المطهرون والتعيم والسعادة والعظمى. تلك القصور التي تتلأ بالنور. لكن بعضهم سيرتك في الظلام وهؤلاءهم الذين أخفوا الغنائم أو استولوا عليها لمنفعتهم الشخصية بدون إذن من المهدي أو خليفته.

كتب بواسطة المهدي وبيده هو.

منشور بعدم استخدام كلمة (درويش) وإستبدالها بكلمة (الأنصار)

بسم الله الرحمن الرحيم.....

من محمد المهدي إلى كافة الإخوان. لقد تم تحذير كل المخلصين بالأا يطلقون على أنفسهم لفظ (دراویش) بل (الأنصار). فالأنصار هم الذين قد ست قلوبهم وتفرغت تماماً لله والذين استنارت أرواحهم بإرادة الآخرة ما فيها من نعيم، والذين تركوا متاع هذه الدنيا، والذين أوكلوا ثقتهم بالله وبقدرته الذي خلق الجنة لأولئك الذين أخلصوا له تمام الإخلاص.

ونعيم الجنة هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر. فالذي يسعى لحيازة مثل هذا النعيم يجب إلا يسمى بدرويش قط. وهو الرجل المعدم. بل على العكس فيجب أن يسمى بالرجل الذكي البعيد الروية والمدافع عن دين الله والمتبع لمشينة الله والمبتعد عن كل ما لا يرضي الله. كل هذه المزاي لا تتبع إلا من النور الذي يضئ البصيرة. وأي واحد يطلق على مثل ذلك الرجل لقب الدرويش فيستحق أن يجلد سبعة مرات وفي كل مرة يجلد كثيراً من الجلادات.

وليكن معلوماً لديكم أنه ممنوع منعاً باتاً أن تتنادوا محمد البدوي بن أحمد الكنان أبو صفية بالدرويش. ومن الآن فصاعداً سيسمى بالصادق أي الرجل الذي يسير في طريق الصدق. وأي من يخالف هذا الأمر فسيجلد مائة جلدة بالكرباج وعليه صيام ثلاثة أيام.

سيقراً هذا المنشور لثلاثة أيام في أنحاء البلاد*

وإضافة للخطابات السابقة، والتي تركز على شئون الدين بوضوح ومقومات المهدية الدينية، فقد أدرجنا ملخصات أخرى وستورد بقدر الإمكان، وعلى حسب ترتيبهم الزمني في سياق السرد التاريخي التالي متلازمة مع الأحداث المختلفة التي دعت الولي الملهم لإصدار توجيهاته وملاحظاته عليها.

* المنشور الكامل (غير المختصر أو المشوه) موجود في المجلد الثاني من (الآثار) بالنمرة ٢٨٧ صفحة ٣١٠ (المعرب).
صدر المنشور في ١٧/٤/١٨٨٤.

ملحق القسم الثالث (رسائل المهدي) دفتر النجومي

عبارة عن قائمة برسائل ومنشورات محمد أحمد المهدي والخليفة عبد الله التعايشي، والتي وجدت في دفتر مخطوطات الرسائل، والذي غنم في معركة توشكي في ٣ / ٨ / ١٨٨٩.
مع ملخص موجز لمحتويات كل رسالة ومنشور

الصفحة في الدفتر	من	إلى	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	المحتويات
٣	المهدي	أتباعه	ألا تختلط النساء مع الرجال في الأسواق وغيرها
٣	المهدي	أتباعه	أن تتشوقوا للحرب المقدسة والتأكد من جزائها الأوفى
٦-٤	المهدي	أتباعه	٢٩ ذو الحجة ١٣٠٠هـ	٨٣/١٠/٣١	أن تتسوا هذا العالم (الغالي) وتتجهزوا لدار البقاء.
٦-٥	المهدي	أتباعه	١٢ ذو الحجة ١٣٠٠هـ	٨٣/١٠/١٤	(نفس ما سبق)
٨-٧	المهدي	أتباعه	يدعو أصحابه إلى المقارنة بين حالتهم تحت حكمه مع حالهم أيام الحكومة التركية. ويحذر الذين هربوا بالقائم بأنهم إن لم يعودوا بها فسيدمرون.
٨	المهدي	أتباعه	١٢٩٩	١٨٨٢	تخفيض نفقات وإحتفالات الزواج.
٩-٨	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	يصف لهم صفات وسلوك المسلم الحقيقي.
١٠-٩	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	يحذر الذين هربوا بالقائم

بأنهم إن لم يعيدوها كاملة فسيتم اعتبارهم من الأعداء.					
إذا ما خيأ أي أحد الغنم فأنه سيعتبر. ويعامل. كآفة من الأعداء.	نوفمبر ٨٣	٥ محرم ١٣٠١هـ	أتباعه	المهدي	١٠
إذا كان لدى أي أحد شئ ضده أو ضد خلفائه أو أمرائه فليعلن ذلك، وسيتم تعويضه عن أي خطأ ارتكب بحقه.	١٨٨٣	١٣٠٠	أتباعه	المهدي	١٠
الانتباه لواجباتهم الدينية	أتباعه	المهدي	١٠
أن يطيعوا الله والرسول وأمرائهم وأن يقدموا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله والجهاد.	٨٥/١/٢	١٥ ربيع أول ١٣٠٢هـ	الأشراف	المهدي	١١-١٠
الصبر على المصاعب والبلاء	٦ رمضان	أتباعه	المهدي	١١
ألا يتحدثوا في المساجد إلا عن الدين وشئونهم.	أتباعه	المهدي	١١
على الجميع النهوض والإتضام لصفوف الجهاد وهو أمر ملزم وواجب وأن الله سيساعدهم بمعجزاته. ويطلب منهم في نفس الوقت أن يطيعوا ويتابعوا عثمان دقة والذي أرسله إليهم.	١٨٨٣	١٣٠٠	أتباعه	المهدي	١٣-١١
أن يسمعوا له ويطيعوا.	١٨٨٣	١٣٠٠	الحكومة في الخرطوم	المهدي	١٣
ألا يضربوا النحاس إلا عند الضرورة وألا يقتلوا أيأ من عادات الترك.	١٨٨١	١٢٩٨	حملة الرايات	المهدي	١٤-١٣
يؤبختهم ويصفهم بالمنافقين	٨٣/١٠/١٩	١٧ ذو الحجة ١٣٠٠	الحمام الذين أنكروا مهديته	المهدي	١٤

١٥-١٤	المهدي	أتباعه	يستدعيهم لجبل الدابر للبيعة والإتحاد في محاربة الكفرة أعداء الله
١٥	المهدي	أتباعه	٢٣ رجب	١٥/٥ ١٨٨٤	أغبياء هم الذين لا عشم لهم في الله ويتمسكون بمتاع الدنيا.
١٦-١٥	الخليفة عبد الله	أتباعه	٢٠ شعبان ١٣٠١	١٥/٦ ١٨٨٤	بين الله والإنسان تسعة صعاب عليه أن يجتازها وأهونها الموت أما أصعبها فهو اليوم الأخير. وأن الشهداء لا يحاسبون في ذلك اليوم.
١٧-١٦	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	أن الخليفة عبد الله هو خليفته ويجب طاعته مثل طاعتكم لي.
١٨-١٧	الخليفة عبد الله	عبد الرحمن قندوس وحيدان أبو عذبة وعبد الرحمن أبو نعل وموسى محمد حلو ويونس الكيم	أنه تسلم خطاباتهم وقد سر لنجاحهم وأن عليهم دائماً الإتحاد في الله.
١٨	المهدي	أتباعه	يجب تركهم للترف والبهرجة مثل الترك. بل عليهم أن يتعقلوا ويتواضعوا في الملبس والطعام وغيره.
-١٨	المهدي	أتباعه	لا تطلق النار في المعسكرات وسيعاقب من يطلق النار دون سبب.
-١٩	المهدي	أحبابه	التوكل على الله والسعي لرضائه
-٢٠	المهدي	أتباعه	الفضائل الأربعة للباس الجبة المرقعة (زى المهدي).
	المهدي	أتباعه	ماذا يقولون عند لقاء العدو.

٢١-٢١	المهدي	كل القبال	أن يكونوا مقاتلين في سبيل الله أفضل من أي شئ غيره.
٢٢-٢١	المهدي	أتباعه	أن يبنوا مسجداً في كل قرية للصلاة، وأن يتجنبوا الخمر والفواحش، وألا يحدوا على الموتى، ويحدد مهوّر الزواج.
٢٣-٢٢	المهدي	أتباعه	حكاية رمزية عن الحياة الدنيا
٢٣-٢٢	المهدي	يوسف حسن الشالي ومن معه	إنه تلقى رسالته، وأنه لا ينوي مواصلة التخاطب معه، إذا ما استمر في إنكاره لمهديته، إلا بالسيف.
٢٦-٢٤	المهدي	غردون باشا، عزيز بريطانيا والخديوية	١١ جمادى الأول ١٣٠١	٩ مارس ١٨٨٤	فـه تلقى رسالته وقتي وعده فيها بجعله سلطاناً على كردفان إذا ما أطاع الحكومة. وفـه لا يقبل بذلك أبداً. ولكن إذا ما استسلم غردون باشا له وأمن بمهديته لأن المهدي لا يهتم بمساج هذه الحياة الدنيا، بل بالآخرة فقط.
٢٨-٢٦	المهدي	غردون باشا، عزيز بريطانيا والخديوية	جمادى الأول ١٣٠١	مارس ١٨٨٤	يطلب منه التسليم قبل قوات الأوان وأنه إذا ما استسلم قلن يلحق به أي أذي، وليطمئن على ذلك.
٢٩-٢٨	المهدي	أتباعه	القوانين المتعلقة بالطلاق.
٣٠-٢٩	المهدي	أتباعه	أوامر خاصة بصيام رمضان
٣٠	المهدي	أتباعه	٣٠ شعبان ١٣٠١	يونية ١٨٨٥	أوامر خاصة بصيام رمضان
٣٢-٣١	المهدي	أتباعه	١٣٠٢	١٨٨٥	موعظة دينية. أن التوبة لا

* أحد التاريخين خطأ (المعرب).

تجدي إلا إذا أعقبها عمل صالح، مع وصف للجنة.					
	الصفحات من ٣٣ حتى ٣٨ مفقودة				
إبطال الطريقة التيجانية وكل الطرق ما عدا المهدية.	أتباعه	ال خليفة عبد الله	٤٠-٣٩
يجب على بعض الأسئلة الشرعية والتي تستفسر العامل عنها.	عامله في الجزيرة	المهدي	٤٠
على من يبايعه أن ينذ الدنيا وأن يتطلع فقط إلى نعيم الآخرة.	أتباعه	المهدي	٤٣-٤٠
يثنى عليهم لإتحادهم ويشجعهم على الصمود حتى لو ضحوا بأرواحهم وينكر بجزاء الشهداء في الآخرة.	يونية ١٨٨٣	رجب ١٣٠٠	أتباعه لمحاصرين للخرطوم	المهدي	٤٧-٤٣
ملحوظة من المغرب: هذه الرسالة، كما جاءت في الوثائق للدكتور أبو سليم مؤرخة رجب ١٣٠١ هـ الموافق أبريل ١٨٨٤ إذ أن حصار الخرطوم لم يكن قد بدأ في التاريخ أعلاه.					
يحذرهم من العقوبات المترتبة على التعدي على بعض القوانين الأخلاقية.	أتباعه المحاصرين للخرطوم	المهدي	٤٧
القوانين الخاصة بالطلاق ووضع النساء المتزوجات من الترك.	أتباعه	المهدي	٤٧
أن يتبعوا نهج صحابة رسول الله في التواضع والعفو وتجنب كل الشرور والعمل لله وللدن.	أتباعه	المهدي	٤٨-٤٧
(مكرر مثل الخطاب نمرة ٤٣-٤٧ وكلا التاريخين خطأ (المغرب))	١٨٨٣	١٣٠٠	أتباعه لمحاصرين للخرطوم	المهدي	٤٩-٤٨

٥١-٥٠	المهدي	أُتباعه	أن يواجهوا الموت بفرح وسرور
٥٣-٥١	المهدي	أُتباعه	نهاية ربيع الآخر ١٣٠٢	١٥ فبراير ١٨٨٥	بنائسدهم للالتناع بخطورة تكديس الأموال. وبأنهم إذا توكلتوا على الله فأنه سيقتبهم من فضله ويسوف ضروريات حياتهم.
٥٤-٥٣	المهدي	الشيخ محمد الطيب البصير	بأن عليه ترغيب الناس للهجرة إليه لمبايعته. وبأنهم إن لم يتمكنوا من السفر إليه فعليهم مبايعة الشيخ الطيب. رؤيا.
٥٤	المهدي	أهل الجردة (جيش هكس باشا)	أول شعبان ١٢٩٩هـ	يوليه ١٨٨٢*	بأن مدافعهم وأسلحتهم لا تجدي لأن المصائر بيد الله. وأنه ينصحهم بالانضمام للمهدية وألا يستمعوا لأقوال علمائهم و إلا سيدمروا جميعهم.
٥٤	المهدي	كتبتّه	توضيح الخط وإيراز الحروف وعدم تقليد الترك في خطهم لأنهم اعتادوا على خلط الحروف وتغيير المعاني.
٥٦-٥٤	المهدي	أُتباعه	حديث لترغيبهم للجهاد في سبيل الله والجزاء العظيم للذين يقاتلون في تلك الحروب ويقتلون.
٥٨-٥٦	المهدي	الأمرأ والكبرأ بإمرة محمد الخير	عليهم التوجه دون إبطاء مع محمد الخير إلى دنفلا ولن يكونوا جميعهم على رأي رجل واحد. ويوضح لهم نعيم الجنة التي سيدخلونها لو قتلوا مخلصين حتى لتهلة.
٥٩-٥٨	حيدر بن سعيد ابن محمد بن بنوا ابن عثمان	المهدي بكر دفان	١٣٠٠	١٨٨٣	بأنه تسلم خطابه وأنه يؤمن به من صميم قلبه.

* كلا التاريخين خاطئ. وقد أورد الدكتور أبو سليم تاريخ المنشور في الجزء الأول من (الأثار على أنه حرر في ١٩ ذو
الحجة ١٣٠٠هـ) أول نوفمبر ١٨٨٣ (المعرب).

	تبن فودي بدر لأخيه				
٦٥-٥٩	المهدي	أتباعه	خطاب مطول يبين فضيلة الصلاة وأهميتها وفي نفس الوقت تشرح لهم كيفية أدائها.
٦٦-٦٥	المهدي	أتباعه	حمداً لله أن جعلنا مسلمين ولعمل الخير في هذه الحياة الدنيا وذلك عشناً لنيل الجزاء في الآخرة.
٦٨-٦٦	المهدي	أتباعه	٨ ذو الحجة ١٣٠١	٩/٢٩ ١٨٨٤	بأن الله قادر على تدمير أعدائه بدون حرب. ولكن لكي يتم تشريف أتباعه فإنه يفضل لهم القتال.
٦٩-٦٨	ال خليفة	عبد الرحمن النجمي والأمراء تحت رايته	عليهم الإتحاد في فكرهم وأن يكونوا بذاً واحدة، مما يعتبر أمراً ضرورياً للغاية. ولن على الأتباع طاعتهم.
٦٩	المهدي	عبد الله ود النور	أن يعظ أتباعه بفضيلة الفقر والجهاد في سبيل الله.
٧١-٧٠	الخليفة عثود خاروق الخليفة محمد شريف حفيد وكل الأشراف من عائلة المهدي	محمد الخير وأتباعه أهل رايته	٨ رمضان ١٣٠٢	٦/٢٢ ١٨٨٥	يخبرونه بوفاة المهدي في صباح الاثنين ٨ رمضان ١٣٠٢هـ
٧١	ال خليفة عبد الله	أتباعه	٦ رمضان ١٣٠٢هـ	٦/١٨ ١٨٨٥	حديث موجه من المهدي (في فراش المرض) وقبل وفاته، بأن الموت هو من طبيعة الكون وسنته وأن على الجميع أن يتزودوا للرحلة إليه قبل فوات الأوان.

٧٢/٧١	المهدي	أصحابه	أن هذا العالم لا يسوى شيئاً ولن على الجميع أن يستعدوا للعالم الآخر.
٧٤/٧٢	ال خليفة عبد الله	محمد عبد الله خوئي واسراء وابته	١٧ ذو القعدة ١٣٠٢	٨/٢٧ ١٨٨٥	أن يعملوا صالحاً مع الصبر على المكاره ومحبة الجهاد. ثم وصف للجنة
٧٤ - ٧٥	ال خليفة عبد الله	أهالي مديرية بربر وخاصة العدين الجبطين	حب الجهاد والانضمام لمحمد الخير والقتال تحت إمرته.
٧٧-٧٥	المهدي	أهالي مديرتي بربر ونقلا	١ رجب ١٣٠٢ هـ	٤/١٦ ١٨٨٥	أن يسود التوكل بين الواحد والآخر والإتحاد في الجهاد. وأضاف بأن تقديم البيعة له يعادل نبذ الدنيا والتطلع للدار الآخرة.
٧٩-٧٧	ال خليفة عبد الله	أهالي دارفور	٢٩ جمادي الآخر ١٣٠٣		بأنه قبل موته، فقد أوصى المهدي في شهر رجب بأن تكون خليفته وأعطاني علامة حرف (ب). ثم أخبرني برؤيا جاءته يوم الاثنين، ليلة وفاة المهدي، قامت يده فيها برفع يد الخليفة النعماني وسلمه التسليوة.
٨٤-٧٩	المهدي	أتباعه	موعظة طويلة توضح مسئوليات المهديّة. ولن على أتباعها تقديم أولادهم لله والدين، وعليهم عدم التفكير في أنفسهم لأن الله سيعطوهم ما يحتاجون إليه.

٨٤	المهدي	ظاهر ابن الولي قطيب ابن أمر الدين المجنوب	إجابة رقيقة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالصلاة. ويخبره أيضاً بأنه ليس من الضروري أن يحضر بنفسه لمبايعته ويكفي أن يبايع أي أمير من أمرائه.
٨٨-٨٤	المهدي	أتباعه	الدلائل التي تبرهن على ضرورة الجهد وعظاب الذين يتخلّفون عنه والجزاء الأولى للذين يموتون شهداء.
٨٨	المهدي	أتباعه	يشرح ويفسر معنى كلمات 'بسم الله'.
٩٣-٨٨	المهدي	أتباعه	بأن روح الدين الحقيقية قد ماتت، وأنه بسلته خليفة لرسول لأن عليه إعادة الدين لحيوته الأسلية لذا عليهم التسع له والطاعة.
٩٤-٩٣	المهدي	الشيخ المنا إسماعيل	١٣٠٠هـ	بأنه عين أميراً آخرأ مكانه، وعليه ألا يحزن لذلك، لأن عليه ألا يسعى ليحوز المجد والفخر في هذه الدنيا بل عليه أن يتوق فقط لنعم الآخرة.
٩٤	المهدي	وكلائه وأتباعه	١٣٠٠هـ	بأنه عين أحمد سليمان كأمين لبيت التمال لأنه وجدده أكثرهم أمّة ويوثق به.
٩٤	المهدي	وكلائه وأتباعه	ألا يطلقون على أنفسهم لقب 'تدراويش' بعد هذا، ولكن لقب 'الأصلح'. ولن لقب محمد البهدي أين أحمد فكان لبر صفة هو 'تصليق'
٩٦-٩٤	المهدي	وكلائه وأعوانه	١٦ شوال ١٣٠١	١٨٨٤/٨/٩	أن يبنلوا نفوسهم وكل أموالهم لله
٩٨-٩٦	الخليفة عبد الله	وكلائه وأتباعه	يخبرهم برويا رآها ليلة الثلاثاء وأيضاً بالشعرة التي أبتلعها

والتي ائتمنه عليها المهدي.					
يحترهم من أن ينشغلوا بشئون الدنيا خلال شهر رمضان وأن عليهم تسوية قضاياهم فيما بينهم وإن لم يستطيعوا فليطلبوا تأجيلها لوكلائه وخلفائه. ويظهر معنى 'القدر'.	أعوأته	المهدي	٩٩-٩٨
يسأل عن أشياء تتعلق بالصلاة.	المهدي	إبراهيم، صديق المهدي	٩٩
رد على ما جاء أعلاه.	صديقه إبراهيم	المهدي	٩٩
بأن دنقلا قد أصبحت محطة هامة لأن العدو كان متقدماً، وبالتالي فإن عليهم للتوجه للدنقلا مع من يرسله محمد سعد لهم. أما محمد سعد فليحفظ البقاء في بربر مع محمد الخير.	١٨٨٥/٦/٣	١٩ شعبان، ١٣٠٢هـ	اتباع محمد الخير ببربر	المهدي	١٠١-٩٩
على الوكلاء أن يعدلوا في حكمهم مع الاستقامة. وعلى الأتباع طاعة أمرائهم ووكلائه.	ارجب	وكلائه وأتباعه	المهدي	١٠٢-١٠١
التوكل على الله والعمل فقط من أجله.	١٨٨٤	١٣٠١	أتباعه	المهدي	١٠٦-١٠٢
الاستعداد للآخرة - موعظة.	أتباعه	المهدي	١٠٧-١٠٦
بأن خليفة عبد الله، قائد جيوشه، وأحمد سليمان، أمين بيت المال يؤيدان واجباتهم بالفضل صورة. وأنه يتوقع منه أن يكون أكثر حماساً منهما لتصرة الدين والعمل على إرضائه. ثم يضيف بأن أي أحد يغفل شيئاً من القسام التي تؤخذ في الحرب فيجب إرساله إليه لعقاب.	١٨٨٥	١٣٠٢	محمد الخير ابن خوجني	المهدي	١١٠-١٠٧

١١٢-١١١	المهدي	محمد الخير ابن عبد الله خوجلي	رؤيا يحدث فيها بأنه شاهد لصوص الغنائم وهم يعذبون بالنار.
١١٣-١١٢	المهدي	محمد الخير ابن عبد الله خوجلي	بيان بخط المهدي يتعلق ببعض الأحداث في المستقبل التي رواها له أحد الأولياء والتي تبضح صحتها فيما بعد.
١١٣	المهدي	رؤيا حكاها المهدي بأن الله أخبر محمداً النبي ثلاثة مرات بأنه خليفته.
١١٣	المهدي	أهالي بارا والأبيض	٣ ذو القعدة ١٣٠٠	١٨٨٣/٩/٥	تعليمات بخصوص الزوجات
١١٤-١١٣	المهدي	فخر الدين	يشرح له كلمة خليفة
١١٥-١١٤	المهدي	الشيخ محمد الأمين	٢٨ شعبان ١٢٩٨	٧/١٥ ١٨٨٢	بأن الجدل قد لا يقود بالضرورة للحقيقة. بل أن الله هو الهادي، وأضاف بأن عليه الإيمان به والإسجود به التمل.
١١٥	عبد الله النور	المهدي	فيما يختص بالنساء اللاتي غلب رؤوسهن.
١١٥	المهدي	عبد الله النور	الإجابة عما جاء أعلاه.
١١٦-١١٥	المهدي	الشيخ محمد جبارة وصديقه	يعزيه في وفاة ابنه الذي مات شهيداً. وأضاف بأن عليه ألا يحزن بل يفرح لذلك.
١١٦	المهدي	أتباعه	ألا يركبوا الخيل إلا عند القتال ولن عليهم التواضع والسكنة.
١١٨-١١٦	المهدي	أتباعه	أن يحبوا بعضهم بعضاً ولن يتحدوا

ضد أعداء الله ، مع التمسك بالدين					
إرشادات لجعل الصلاة مقبولة والمحظورات التي تجعلها غير مقبولة	أتباعه	المهدي	١١٩-١١٨
خيبة الأمل في الذين لا يتوكلون على الله.	أتباعه	المهدي	١١٥
قوله رأى (في رؤيا) أن النبي للذاب عيسى وأتباعه يحضون في قنار، وقوله سأل الله العفو عنهم بدون طائل.	١٨٨٨/١/٦	٢١ ربيع الآخر ١٣٠٥هـ	أتباعه	ال خليفة عبد الله	١٢٠-١١٩
في رؤيا جاءه النبي وأيده فيما فطه وقوله كشف له كثيرا من أحداث المستقبل.	أبريل ١٨٨٨	شعبان ١٣٠٥هـ	أتباعه	ال خليفة عبد الله	١٢١-١٢٠
أن كل القضايا سواء الجنائية أم المدنية، السابقة ليوم ٨ رمضان ١٣٠٢هـ (يوم وفاة المهدي) ستطلب ماعدا قضايا (الديون ٢) (الودائع ٣) (التيلى ٤) الأملاك (٥) والحق	أتباعه	ال خليفة عبد الله	١٢٢-١٢١
ألا يطلبوا إلا الزكاة المقررة، وإذا أرغم أحدهم الأملي على دفع أكثر مما هو مستحق فسيعاقب عقاباً عسيراً.	وكلائه الذين يحصلون لزكاة	ال خليفة عبد الله	١٢٣-١٢٢
أن يلتزموا بعهدهم وأن يكونوا دائماً جاهزين للجهاد. ثم يضيف وصفاً للجنة التي يمضي إليها الشهداء.	أتباعه	ال خليفة عبد الله	١٢٦-١٢٣
أن الله ورسوله قد سمياه المهدي وبشراه بالنصر على كل الأعداء.	١٨٨١	١٢٩٨	الشيخ دفع الله	المهدي	١٢٧-١٢٦

١٢٩-١٢٧	المهدي	الخليلة محمد المهدي ابن الولي المسنوسي	١٣٠٠ هـ	١٨٨٣	مثل أعلاه. وأضاف بأنه في انتظار إجابة مرضية منه.
١٢٩	الخليلة عبد الله	الأمرأء والأتباع	مثلما جاء في ١٢١-١٢٢
١٢٩-١٣٠	عبد الله المحجوب ابن أحمد. وكيل المهنية	القاضي الإسلام أحمد ود علي	يسأله رأيه في ١٢ مسألة فقهاء
١٣٠	القاضي الإسلام أحمد علي	عبد الله المحجوب وأخريين	إجابة عما سألوا(أعلاه)
١٣١	القاضي الإسلام أحمد علي	الوكيل القاضي محمد منفي	٢٣ نو الحجة ١٣٠٢ هـ	١٠/٥ ١٨٨٥	شرحه
١٣١	للجميع	إعلان بخصوص قضايا الطلاق
١٣١	الخليلة عبد الله	للجميع	إعلان للكلية لقبول العسلة (الجديدة) والأ يعترضوا على قبول (الريال) قناع(أو الفروش) وأن تباع كل بركات من للمور ببيع ريال في كل مكان.
١٣٢	الخليلة عبد الله	الوكلاء والأمرأء	ألا تفرض ضرائب على الأخصار إلا إذا صدق لهم بذلك.
١٣٢-١٣٣	المهدي	أتباعه	تعليمات بخصوص صوم رمضان
١٣٤	المهدي	أتباعه	موقعة: أن يبتلوا أولادهم تلمناً للجهاد. وأن التضحية بالنفس فيه

مستقبل بالجزء الأبدى في الجنة					
أن يعملوا في أكتافهم ويتطوعوا بالاستقامة وأن يقضوا بشرع الله. وأيضاً إلغاء كل القضايا التي نشبت قبل ١٢ رجب ١٢٩٨ (معركة ماسة) ماعدا قضايا (التيون ٢) (لوبيعة ٢) مانا القناني (لحق	القضاة والعلماء والأمراء	المهدي	١٣٤-١٣٥
أن يعاقب بشدة كل من يعصي أمره، ثم أضاف بأنه إذا كانت أوامر غردون باشا نطاق فور إصدارها فلماذا لا نطاق أوامره هو؟	الخليفة عبد الله	المهدي	١٣٥
تدخين التبغ أكثر شراً من شرب الخمر.	المهدي	١٣٥
تعليمات خاصة بقضايا الأراضي، وبلغت نظره لما وجهه به من قبل في ١٦ أيلول ١٣٠١ (١٦ سبتمبر ١٨٨٤) حول نفس الموضوع.	محمد الخير عبدالله خوجلي	المهدي	١٣٥-١٣٦
أجابة عن أربعة أسئلة خاصة بتدخين التبغ ولبس الحلبي الذهبية.	إبراهيم مصطفى	المهدي	١٣٦
أوامر بخصوص النساء والأراضي.	١٤ شعبان ١٣٠٢ ١٨٨٥	١٤ شعبان ١٣٠٢	أتباعه	المهدي	١٣٦
يذكرهم بتعاليم المهدي الخاصة بالطلاق ومنع النساء من التواضع على الموتى.	أتباعه	الخليفة عبدالله	١٣٧
إرشادات بخصوص الزواج والطلاق.	لعماله	المهدي	١٣٧-١٣٨
أن ينشروا كلمة الله بين كل الناس وتعميم كل أوامره ومنشوراته عليهم.	لعماله	المهدي	١٣٨
بأنه تسلم خطابهم، وأنه يحمد الله الذي هداهم لطريق الحق، وأضاف	أحبابه	المهدي	١٣٨-١٣٩

					بأن عليهم فور استلامهم لخطابه هذا أن يختاروا قائداً لهم وأن يتوحدوا ثم يتجهوا لحصار الخرطوم.
١٣٩	المهدي	رؤيا كتبها بخط يده
١٤٠-١٣٩	المهدي	لأتباعه	الصبر على المكروه وسيجزون خيراً عصياً.
١٤٠	المهدي	لأقاربه وأحبابه	يؤبخهم لضعف إيمانهم.
١٤٠	المهدي	ألا يفهم حال الدنيا فما هي إلا سراب، بل أن يسلموا أمرهم لله.
-	المهدي	أتباعه	أن يتوحدوا، مع أولمر للخلفاء والأمراء لمساعدة الخليفة عبدالله لامداد بيت المال بالموثوق. ثم أضاف بأن بيت المال يمد كل الأصحاب باحتياجاتهم، وإذا ما كان فارغاً فإن الله كفيل بهم.
-	المهدي	أتباعه	رؤيا ينبئه فيها الرسول بمهديته ويحدثه عن أشياء تحدث في المستقبل.
-	المهدي	أتباعه	بأن عليهم أن يحمدوا الله، لأنه يسر لهم أن يدافعوا عن الدين، وليكونوا مقاتلين في سبيل الله

*** لذا فإن دفتر الخطابات هذا قد اشتمل على ١٣٣ رسالة: ٩٩ من المهدي

١٩ من الخليفة عبدالله

١٥ من أشخاص مختلفين

رسالة ١٣٣

الجملة

القسم الرابع

وضع المصريين في السودان حتى نهاية عام ١٨٨٣

الملخص:

"القوات المصرية في السودان عام ١٨٨٣ - تجارة الرقيق، والتجارة عموماً - مسببات الثورة - بعثة الكولونيل ستيفارت - سقوط بارا - حصار وسقوط الأبيض - المهدي يوطد مركزه في الأبيض ويسمي خلفاءه - قوانين محمد أحمد وأوامره - توبيخ الذين يهربون بالغنالم - قوانين للأخلاق والطاعة وللاعتدال - تعاليم المهدي العشرة - إلغاء كل الممارسات والعادات المتصلة بالترك - رؤيا بشر فيها المهدي بالنصر على كل العالم - ذم عدم الطاعة واستعمال التمباك والتدخين وشرب الخمر - منشور للكافة للنهوض والاتحاق بالمهدي - خطابه إلى المنا إسماعيل - بيان لأهالي الخرطوم - مبعوث من السنوسي يصل لكردفان - خطاب المهدي للسنوسي - الثوار يهزمون المصريين في القرصاة - انتصار عبد القادر باشا في معتوق - هزيمة المكاشفي في مشرع الداعي - فك الحصار عن سنار - هزيمة الثوار في جبل سقدي - سليمان نيازي يخلف عبد القادر - تعيين علاء الدين باشا حاكماً عاماً - إرسال مكس باشا للسودان على رأس قوة عسكرية - هزيمة للثوار في المرابيع - المؤامرات في الخرطوم - قيام مكس باشا بجيشه نحو كرفان - وصف المنطقة التي مر بها - آخر رسائل مكس باشا ما حدث أثناء زحفه ومعركة شيكان من إفادة خاتم مكس باشا وأحد الكتبة لأحد كبار الأمراء المهديين - خيانة الأدلاء - الشقاق والخلاف بين مكس باشا وعلاء الدين باشا - نزع سلاح المنفيين - هروب رجال قناوي بك - هجوم العدو وتدميره للجيش المصري في شيكان - موت مكس باشا - تأثير انتصار المهدي على انتشار نفوذه - تأكيد الوقائع - الأحداث بضواحي سواكن - المهدي يرسل عثمان دقنة بنداياته إلى شرق السودان - وصول عثمان، إرساله مصطفى مدل لحصار كسلا - هجومه على سنكات - هزيمة هناك وفي هندوب - تدمير التعزيزات المصرية بالقرب من سنكات - حصار سنكات - تدمير تعزيزات أخرى - الرعب في سواكن - قرار الحكومة بفتح طريق من سواكن لبربر - بيكر باشا يجهز لحملة عسكرية - هزيمة قاسم أفندي في تمانيب - استبدال الحاكم محمود باشا طاهر بسليمان نيازي باشا - محاولة بيكر باشا إنقاذ طوكر - كادت قواته أن تدمر تماماً في التيب - حماية سواكن برجال الحرب البريطانيين - البحث في أمر إخلاء حامية هرر - تصرف الشكرية - الأحداث في دارفور عام ١٨٨٣ - حصار الفاشر ودارا وكبابية - هزيمة السعيد بك جمعة، لم تصل لسلطين بك الأوامر التي تأمره بالانسحاب - سلاطين يضع أم شنقة في وضع الدفاع - مظاهر عدم الولاء وسط الضباط - لجونه للتحايل والخداع -

إرسال زقل بخطابات للمهدي ولهكس باشا - انضمام زقل للمهدي عندما علم بهزيمة هكس - تعيينه أميراً على دارفور - إستسلام أم شنقه بدون قتال - استسلام سلاطين في دارا - سلاطين وزقل يطلبان من الفاشر أن تسلم وكذلك من حامية كيكابية - المهدي يكتب لرابح الزبير والذي يرفض الانضمام إليه - الأحداث في بحر الغزال - هزيمة العرب بالقرب من تل جواتا - العرب ينهبون فروجاً - تشتت شملهم قرب ليفي - الحملة ضد الجانقي - الجانقي يدمرون قوات رفاعي أغا - الدينكا يفلتون الطريق إلى مشرع الرق عند ثورتهم - مقتل الرحالة شوفر - لبتن يحذر يونكر، الذي كان يستكشف ألوي، من الخطر - يونكر وكابتن كاساتي يتقدمان نحو الاستوائية - لبتن يحصن نفسه داخل زريبة ويصد هجمات العرب - أحداث الاستوائية عام ١٨٨٣، سلوك الدناقلة - أمين يرسل التعزيزات لمديرية الرول - الدينكا والأجار يذبحون حاميات رمبيك وشامبي - إحتلال رمبيك - الزعيم لورو يغري قبيلة الباريا للثورة - تناقص إمدادات الذخيرة*.

قبل مائة عام لم يكن هناك سودان ولم يكن أساس الخرطوم قد وضع. وكانت هناك معديّة على النيل في كرري تنقل المسافرين من أسبوط إلى العاصمة المشهورة سنار. والتي كان عاقلها الهمجي على رأس عرش فخيم مترف ينافس في القوة والترف مملكة الحبشة العريقة. قامت مصر بتأسيس الخرطوم وحملت إليها كل مثالب الحكم الشرقي وأخطائه والتي إزدهرت وترعرعت بشدة في تربة خصبة. وقامت عائلات بأكملها من الأقباط الكتبة، باتياسات أفريقيا، بحفظ حسابات الباشبوزوق وحصيلة غاراتهم للنهب والسلب والمدعومة بواسطة الجنود المصريين. ما كانت تلك إلا حكومة لجمع الضرائب.

لقد حدد اللورد دوفرين ألا يتجاوز حجم الجيش المصري الجديد* الستة ألف رجل. وأن هذا العدد، بغض النظر عما يحدث في السودان، لا تخفي دلالاته على أحد. فقد تم حل الجيش المصري القديم ولكن بقي منه في الأقاليم الخارجية الأعداد التالية:

في هرر.....	٣٥٩٥ رجلاً
الجيرة.....	٥٠١ رجلاً
زيلع.....	٢٨٠ رجلاً
بربرة.....	١٩٦ رجلاً
مصوع.....	٢٤٤٢ رجلاً
سواكن.....	١٨٠٠ رجلاً
على الحدود الحبشية بالسودان.....	٤٣٠٤ رجلاً

* حدثت هذا العدد السلطات البريطانية عقب إحتلالها لمصر عام ١٨٨٢. وبدء إنشاء الجيش المصري، بعد ما تم حل الجيش القديم. من جنيد (المغرب)

في كل أنحاء السودان الأخرى ١٩٤٩٢ رجلاً
الجملة (خارج مصر) ٣٢٦١٠ رجلاً

ورغم ما يقال بأن تلك القوات هي قوات احتلال لتلك المناطق إلا أن هذا التعبير، عند استقصائه والتمعن فيه، يصبح مضللاً. فالمصريون المسالمون الكادحون هم آخر من يصلح للغزو أو الفتوحات في العالم ولا يمكن تغيير ميولهم المهلكة في المبالغة في شئونهم البيئية والمحلية والاستغراق فيها. وكانت تلك القوات يكثر بها الرجال من ذوي العوائل الكبيرة العدد والذين تم جلبهم، بطريقة أو بأخرى، للعمل والتوطن في بلاد غريبة عنهم. ولو كانوا قد جاعوا مسالمين، بدون السلاح، فربما تحولوا إلى مستوطنين جيدين ولربما كانوا قد أدخلوا لهذا البلد أنماطاً معقدة من الزراعة. ولكن الميزة والتفوق الذي أتاحتها لهم الأسلحة المتقدمة والتطعيم النسبي ما قادتهم إلا إلى الطغيان والتسلط. ولم يكن أداؤهم إلا كأداء الرقيقين البسطاء، الذين تجري في دمائهم موروثات أهل الشرق وآسيا الوسطى. والذين ينتزعون المال والنساء والشراب من جبهة الأهالي البائسين (عندما تتاح لهم الفرصة).

وإذا نظرنا إلى المسائل الخاصة بالسودان نجد أن الغموض يحيط بموضوعين لا تتم مناقشتهم غالباً إلا بحماس وانفعال. الأول هو السؤال الخاص بالتجارة في عمومها، والثاني هو تجارة الرقيق والتي كتب الكثير عن مكافحتها، ولكن بنوع من المشاعر والعطف أكثر من المعرفة الموضوعية للأمر.

ويعلمنا التاريخ على الأقل شيئاً واحداً عن التجارة في الأقاليم غير المكتشفة وهو أن هذه التجارة لا تختار إلا أقصر الطرق المؤدية للبحار. وبمنظرة إلى خريطة السودان نجد أن أي منتجات قد تكون به لا تتخذ طريقها على النيل أبداً وإنما تمر عبر الطرق الصحراوية التي تسير موازية للنيل إلا في الحالات التي تتخذ فيها بعض الوسائل التي تسهل استخدامه. وحتى وقت حدوث الاحتلال المصري للسودان كانت التجارة تمر من كردفان ودارفور إلى أسبوط ومن بربر إلى سواكن. وكانت رطوبة الأعشاب ووجود الآبار على الطرق المجاورة للنيل تتعرض للجفاف عندما ينحسر النيل ولكن الطريق الصحراوي، إذا ما كان طبيعياً وعادياً، فهو أنسب لجمال القوافل من غيره. ويمكن تشبيه قافلة من ألف جمل، جاءت إلى بربر عبر وادي أتولا من قنا، بأنها مثل أسطول من المراكب سائرة في نهر من الرمال.

ويكتسب تعبير "سفينة الصحراء"، رغم عدم تطابقه تماماً، حيوية لأنه تعبير مناسب تماماً. فقد كانت الطرق الصحراوية هي التي تنقل التجارة ولأسباب ملائمة تماماً. فقد كانت أعداد لا تحصى من ألوف الجمال تجوب السهول الواقعة شمال خط العرض ١٣ درجة. وهي ثروة مأمونة تعطي لمالكها الطعام والمزيد من الإبل بتوالدها ولا تحتاج لنفقة تذكر. ولا أحد سوى أصحابها يمكنه التجول معها خلال تلك الفيافي. ومن الناحية الأخرى فلا يمكن بناء المراكب بدون رأسمال وفي نفس الوقت فإن الاستثمار فيها غير مضمون، ولا توجد أي وسيلة لحمايتها أو إخفائها عن العيون. ثم جاء المصري، وهو رجل مراكب ممتاز، مصطحباً رعباً لازمه لآلاف سنة من الصحراء ومن قاطنيها.

وقال: "مهما نفعل فأننا سنشق طريقنا إلى النيل" ثم قام ببناء الخرطوم وعمل على تسهيل الملاحة خلال الشلالات وجلب البواخر والسكك الحديدية مع الرجال الأجانب. لكن رغم ذلك لم يحقق هدفه. فلا زالت هناك أربعمائة ميل من الشلالات أمامه ولا زالت الملاحة لا تصلح إلا للتحركات المحلية المحدودة أو على المجاري المفتوحة.

أما تجارة الرقيق فيمكن القول أن كبجها قد بدأ حتى قبل أن تفهم طبيعتها. فمنذ عام ١٧٩٤ وحتى الوقت الراهن كنا نحاول بالتدريج أن نعرف ماهيتها حتى عرفنا الكثير عنها ما عدا شيء واحد. هذا الشيء هو أنه ليس من السهل على الجيوش المصرية، مثل التي كانت بالسودان عام ١٨٨٣، أن توقفها أو تكبح جماحها. ولقد كانت من أسباب الثورة التي قامت بالسودان ثلاثة أسباب أهمها فساد الموظفين المصريين وتسلطهم وقابليتهم للرشوة، والضعف العسكري، ثم قمع تجارة الرقيق. فأناس صفاتهم الرئيسية هي الوهن العسكري والرشوة والطغيان، أناس مشتتون في مساحات شاسعة، ثم يوكل إليهم قمع تجارة الرقيق، هذه المهمة التي لم تتجح إلا بالكاد في دولة عالية التمدن، تسندها الديانة المسيحية، وبعد حرب أهلية طاحنة وبعد صرف أكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات. فكيف يمكن لمثل هذه المستعمرة الضعيفة المرتشبة أن تقمع تجارة الرقيق والتي هي الديانة والحرفة ومصدر الدخل الأساسي لأكثر القبائل شراسة بتلك البلاد؟ لقد حارب بيكر، وحكم غردون البلاد، وتم تحقيق نجاح كبير. ولكن، وعندما غادرا المنطقة، انطلق تجار الرقيق بعزيمة وعنف من جراء كبتهم السابق، ومنذ اليوم الذي أطلقوا فيه بأول طريوش، وأطلقوا فيه أول رصاصة رمنجتون على الجسد الهامد المتسلط، انتهت بعده السيادة المصرية على السودان.

لقد كان عام ١٨٨٢ في السودان، مثله مثل مصر، عاماً من الفوضى والاضطراب. وكان هناك جمعاً متعجلاً للمفصولين من القوات غير النظامية رغم الاحتجاجات على مدى إخلاصهم أو عدم فهمهم للكلمة، وهؤلاء هم الذين قدر عليهم عند نشوب الثورة أن يموتوا متشبثين بمواقعهم.

ويمثل تمرد السودان حلقة من سلسلة طويلة من الكوارث. وما عدا في بعض الحالات القليلة لم يكن هناك أي عمل مدهش طوال الفترة التي اتسع فيها مد الثورة ببطيء وشيئاً بعد شيء، ذلك المد الذي أغرق قلاع مصر الحصينة.

ولكن ذلك الثبات والجلد، رغم اتسامه بالبلاهة وتبيلد الحس، أعطانا مثلاً من الصعب أن نجد مثيلاً له. فقد أبيدت الحاميات، بعد أن أنهكتها المجاعة، وهي تقاتل حتى آخر رجل.

لقد كانت الرابطة غير الواقعية، بين الوطن الأم مصر وبين ممتلكاتها النائية في إفريقيا، قد توترت وتهرأت خيوطها الواهية المتأكلة عند نشوب أحداث العامين ١٨٨١ و ١٨٨٢، وفي السادس عشر من ديسمبر وصل الكولونيل ستيوارت إلى الخرطوم بعد أن تم تكليفه باستقصاء شئون البلاد من كافة نواحيها. وجد أن دخل البلاد ومنصرفاتها، بقدر ما استطاع الوصول إليه في ظروف تلك الفوضى، قد بلغ نصف مليون من الجنيهات كمرتبات سنوية - رغم مضي عدة شهور من المتأخرات التي لم تصرف، ووجد أن الضرائب المفترض تحصيلها سنوياً هي حوالي ٤٠٠,٠٠٠ جنيه وأن متأخرات التحصيل قد استمرت لعدة سنوات. وعدد الكولونيل ستيوارت واحدة بعد الأخرى من

الأسباب المختلفة لفشل الإدارة (المصرية) وأقترح الوسائل المختلفة لعلاج ذلك الوضع. ومن ثم طلب اللورد جراتفيل من اللورد دوغرين أن يلفت إنتباه الحكومة المصرية لتبني تلك العلاجات المقترحة. لكن الإصلاح كان جاهزاً من الداخل. إذ لم يجدي تصميم بيكر وعزمه ولا الطاقات الملتزمة لفردتون في إنقاذ أولئك البؤساء المضللين الذين انتشروا في كافة أنحاء البلاد، يسرقون بدون أن يكونوا من الأقوياء، ويحملون السلاح بدون أن يكونوا من الشجاعة كي يستخدموه، ويعتقون الدين بدون العمل بفضائله.

وفي انعزاله ووحدته بالخرطوم، أرسل الكولونيل ستيوارت مذكرة توضح المخاطر التي تحدى به ويحضر منها. وكان قد كتب رسالة قبل ذلك، في يناير ١٨٨٣، إلى السير إدوارد ماليت، قال له فيها: لقد بدأت السنة الجديدة وهي تحمل كل ما لا يناسب المصالح المصرية. ولم يتمكن أي رجل آخر من توضيح صورة الحقائق من بدايتها إلى نهايتها في سلسلة من التقارير الواضحة والمضنية سواء. وقد كان التفراف، أطول خط في العالم، يحمل مختلف التقارير يوماً بعد يوم.

وشهدت نهاية عام ١٨٨٢، كما نذكر، إحكام الحصار على مدن بارا والأبيض بواسطة المهدي. وكانت مدينة بارا قد شهدت فرار الرجل النافذ، النور عنقرة، منها، وكانت قد حلت بها ضائقة شديدة في الطعام. وقام النور عنقرة، الذي انضم الآن إلى المهدي، بالاتصال بالقمندان سرور أفندي ونصحه بتسليم المدينة. لكن سرور أفندي، الذي صدق بأن التعزيزات قادمة إليه، رفض باستمرار الإصغاء لتلك النصائح. لكنه، بعد لأي، اقتنع بنصيحة النور عنقرة واقتنع بالآمل في إنقاذه وقام في الخامس من يناير بتسليم المدينة لود النجومي وبعدها إتضمت حاميتها البالغة ٢٠٠٠ رجل إلى الثوار والذين استولوا على كميات كبيرة من السلاح والذخيرة.

ثم عاود الثوار حصار الأبيض بعزيمة متجددة. وقد جاء في كلمات أحد الضباط، الذي كان موجوداً أثناء شهور الحصار السنة الطويلة، ما يلي:

"كان إطلاق النار متصلاً وتوفرت لنا الإمدادات في الشهرين الأوليين وبعدها لجأنا إلى أكل الجمال والخيول والكلاب والقطط وغيرها. وقبل سقوط المدينة بشهر كنا قد وصلنا لدرجة أكل ألياف النخيل والصمغ والجلود وحتى جلود غناقربينا.

تم كتب المهدي لمحمد سعيد باشا للاستسلام لكنه رفض وقال إنه يفضل الموت على ذلك وأراد أن ينسف الحصون والقلعة حتى لا تسقط ما بها من ذخائر في أيدي المهدي. وكنا نخسر يومياً عدداً من الرجال من جراء نيران العدو ولكن، وبنهاية الحصار كان يموت من الجوع يومياً ما بين ثلاثين إلى أربعين رجلاً وهم بمواقعهم. لقد حارب الرجال جيداً، لكننا كنا مشطوري الأفتدة من جراء نقص أو انعدام ما نأكله إضافة لذلك فقد انضم رجال حامية بارا، بعد إستسلامهم، للعدو وظلوا ينادوننا من خارج الحصن بأن من الأفضل لنا أن نسلم. وهذا ما وضع معنويات الحامية أكثر من ذي قبل. وفي النهاية عقد محمد سعيد باشا، قائد القوات، وعلي بك شريف، وكيل المديرية، والقائمقام إسكندر بك، مجلساً حضره كل كبار الضباط والموظفين ومن ثم تقرر كتابة خطاب إلى المهدي يقترحون فيه التسليم بشرط الإبقاء على حياتهم.

أرسل ذلك الخطاب عصر يوم السادس عشر من يناير ورد عليه المهدي بعد بضع ساعات وقال بأنه سيدخل المدينة صباح اليوم التالي وأن أحداً منا لن يؤدي أو يمسه. لكنني أظن أنه لم يتمكن من السيطرة على العرب المواليين له والذين اقتحموا الحصون تلك الليلة. لم نقم بأي مقاومة لهم ولم يقتل أو يجرح منا أحد لكنهم نهبوا كل شيء. وصباح اليوم التالي استلم محمد أحمد رسمياً زمام الأمر في المدينة وأرسلت كل الحامية لتعسكر في مكان منفصل. أما محمد باشا سعيد وعلى بك شريف وإسكندر بك وأحمد بك دفع الله ومحمد أغا ياسين فقد وضعوا في خيام منعزلة تحت حراسة البقارة.

وقد أرسل محمد باشا سعيد إلى علوبة بعد ذلك حيث تم إعدامه بواسطة الأمير المنا إسماعيل. وأرسل علي بك شريف إلى البركة حيث أعدم أيضاً. أما أحمد بك دفع الله ومحمد أغا ياسين فقد أرسلوا لشكا، التي تبعد مسافة خمسة عشر يوماً، وقتلاً هناك.

أما بقية رجال الحامية وعددهم حوالي ٣٥٠٠ رجل فكان عليهم أن ينضموا لقوات المهدي كما أجبر إسكندر بك للعمل في وظيفة تحت إشراف المهدي.

وسقطت في أيدي محمد أحمد حوالي ٦٠٠٠ بنديّة وخمسة مدافع وكمية من الذخيرة بجانب ١٠٠,٠٠٠ جنيه نقدًا. وأقام المهدي بمنزل الحاكم وقام بتدمير كل الكتب والأوراق الحكومية. وبعد أن نصب نفسه سيداً على كردفان بدأ يؤسس نظام حكمه. وربما كانت المراسلات التالية التي سنوردها قد تعطي صورة حقيقية للنظام الحكومي الفج الذي تم إنشاؤه الآن.

أما عمليات النهب والسلب العنيفة التي تلت سقوط المدينة فقد استدعت قيام المهدي بتوبيخ الذين قاموا بها بشدة. فقد رأى أن هذه الاستباحة العامة ستؤدي إلى عواقب جسيمة وستعرض الطبيعة الدينية لحركته لخطر شديد ما لم يتم إيقافها على الفور. ومن ثم أصدر المنشور التالي:

من محمد المهدي إلى كافة أحبابه في الله :

بسم الله الرحمن الرحيم (يبدأ المنشور بعدد من آيات القرآن تتحدث عن الموضوع، مما لا نرى داعياً ليراده هنا. ومن ثم يواصل) إن لم يكن أمامكم مثلاً تحتذوه أفضل من مثال الترك فبنس المثال. فقد أعطاهم الله الثروة والعمر الطويل والصحة والعافية، ولكنهم بدلاً عن تقبل هذه (النعم) منه كهدية وعطية فقد نسوا أنفسهم تماماً واعتبروا أن العالم صار ملكاً لهم وحدهم وعصوا أوامر الله ورسوله وقد أمهلهم الله حتى يرجعوا إليه لكنهم لم يعودوا.

وأخيراً دمرهم الله وسلب ملكهم ومنحهم له. لكنكم، وبعد أن حرّتم على ما كانوا يملكونه شرعتم في السير على دربهم وبالتالي فإن الله سيدمركم كما دمرهم. توبوا إلى الله وتذكروا ما كان يفعله الترك برجالكم حين يلقون بهم في السجون ويقيدونهم بالجنائز ويستولون على نساءكم وأولادكم ويقتلون الناس مما يخالف أوامر الله. لم تأخذهم شفقة على أطفالكم الصغار ولا رحمة وتوقير لرجالكم الكبار السن. لذا فما يدهشني كيف نسيتم ذلك ولماذا لم تنضموا (معنا) في حربهم. فكم قهروكم ورغم ذلك أطعتم أوامرهم. لقد أرسلني الله الآن لخلّصكم وعليكم الانضمام إلى في حربهم وستحترق أجسامهم بالنار وسيقتلون حتى آخر رجل منهم.

ولقد نما إلى علمي أنكم بعد النهب والسلب تركتم القتال ورفضتم الاتصياح لأوامر خلفائكم وأمرائكم. فاحذروا عقاب الله. وإذا ما أصررتم على فعلكم هذا فمستدمروا وسيحرقكم الله بالنار وستفتح الأرض فمها وتبتلعكم. لقد حذرتكم حتى لا يكون لكم أي عذر. فتوبوا وأطيعوا أمري وأرجعوا كل الغنائم التي نهبتوها. فقد أخبرني الرسول بأن أي رجل يحتفظ بالغنائم سيدمر وإن الرسول باق علي كلامه. مرة أخرى أقول لكم توبوا فإن الذي دمر الترك لقادر على إخضاعكم. ولقد أخبرني الرسول أنني عند ما أقتل الكفار وأستولى على هذه المديرية فإن على أن أرجع لمعاقبة الذين رفضوا طاعة أوامري. وهذا العقاب هو الموت. فاتتبهوا وأطيعوا أوامر الرسول.

وسرعان ما تلي ذلك منشورات أخرى توضح أسس الأخلاق والطاعة والإعتدال مما سنورده هنا بالتفصيل حتى نوضح النوايا العشوائية والطغيان الذي أسسه الحاكم الجديد. والمنشور التالي يوضح السلوك الذي يجب أن تتبعه النساء عموماً:

من محمد المهدي إلى أحبائه في الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأحباب: لقد حظر الله في كتابه الكريم على النساء أن يظهرن أمام الرجال (وأورد هنا عدة آيات من القرآن). لذا، وطبقاً لأوامر الله، فإن على النساء ألا يظهرن في الأماكن العامة مثل الأسواق والطرق العامة وغيرها. أما صغار النبات، أي اللاتي لم يبلغن مبلغ النساء، فيمكنهن ذلك. وإذا ما ظهرت أي امرأة ورويت في تلك الأماكن، بعد ثلاثة أيام من إعلان هذا المنشور، فتجلد مائه جلدة وسيكون ذلك درساً للأخريات حتى لا يسرن على منوالها.

يسلم هذا الأمر لأمير السوق وللأمرء حتى يتم تعميمه على كافة الناس. وإذا خالفت أي امرأة هذا الأمر فيجب أخذها للقاضي. وعلى الخليفة عبد الله والخليفة محمد شريف والخليفة على قراءة هذا المنشور في كافة المساجد والأماكن العامة لمعظومية الجميع.

أما المنشور التالي فقد كتب بشكل وصايا للجميع:

من محمد المهدي إلى أتباعه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا العالم، يا إخوتي، هو عالم الكفار وسجن المؤمنين. والعالم الآخر هو عالم المؤمنين. فعليكم بالتالي نبذ نعم هذه الدنيا واركوها للكفار يستمتعون بها. وأوامري لكم هي أن تعملوا على:

(١) تجنبوا شرب الخمر أو بيعها أو شرائها، سواء كان ذلك في الأسواق أم في بيوتكم، وطهروا أنفسكم منها ولا تكون في منازلكم قط.

(٢) أوصوا أولادكم وأطفالكم لأداء الصلوات الخمسة وتشددوا في مراقبة أدائهم لها.

(٣) تجنبوا الزنا والسرقة وعاقبوا من يقوم بذلك.

(٤) أن تؤدي العوائل الصلوات في البيوت وأيضاً أثناء السفر.

- ٥) أن تكونوا أمناء وصادقين وألا تخفوا غنائم الحرب.
- ٦) أن تأمروا نساءكم وبناتكم بتغطية رؤوسهن وأجسامهن وإذا رأيتم أي امرأة سافرة فعليكم معاقبتها.
- ٧) أن تمنعوا نساءكم من البكاء والنواح على الميت أو المشي وراء الجنازة نحو المقابر.
- ٨) أن يتم خفض مهوور النساء فإن كانت بكرًا فيكفي مهرًا لها عشرة ريالات وإن كانت أرملة فخمسة ريالات.
- ٩) أن تمنعوا نساءكم وبناتكم من رعي البهائم بصحبة الرجال أو الأجانب وأن تمنعوا عدم التحشم بينهن.
- ١٠) إذا وجدتم عبدًا ضالًا أو حيوانًا ضالًا فلا تخفوه، بل حاولوا معرفة صاحبه. فإن لم تجدوا صاحبه فخذوه إلى بيت المال.

كونوا صادقين ومطيعين لتنفيذ هذه الأوامر فهي من الله ومهديه وإلا دمركم الله.

المنشور التالي يشير بالتفصيل إلى الإعتدال في نفقات الزواج. فحفلات الزواج في الشرق هي واحدة من أهم أحداث الحياة. ويتحدد الوضع الاجتماعي للأسر المتعاقدة بحسب كمية المال الذي يتمكنون من صرفه على الحفل الباذخ والمراسم المرفهة التي ترتبط دائماً بالزواج.

فإذا كان الدخل السنوي لرجل ما هو ١٢ جنيه فلن يفكر أبداً في صرف خمسين أو ستين جنيهًا على زواجه وإلا أدخل نفسه في الديون لعدة سنوات.

لذا عمل المهدي على إختصار تلك النفقات الباهظة وأن يتم تحويل الفائض لصالح الخزينة أو بيت المال.

والمنشور هو كما يلي:

(أمر)

"حيث أنكم الآن أتباع الله فلا يجب أن تكون مراسم الزواج من أجل المباهاة. والذين يودون الزواج منكم عليهم ألا يسرفوا في الصرف ويجب أن يكون الزواج بسيطاً مثل زواج فاطمة بنت الرسول. وقد غضب الرسول بشدة على ما يجري حالياً من تجاوزات ومبالغات (في الصرف).

يجب ألا يذبح سوى خروف واحد وألا يزيد مهر الأرملة على خمسة ريالات ومهر البكر على عشرة ريالات. وألا تكون الكسوة أكثر من لبستين. إذ أن المال يجب أن يحفظ ليصرف على حروبنا الدينية ويجب أن يقسم بين المقاتلين.

وأي رجل لا يطيع هذه الأوامر سيعتبر من اللصوص وسيعاقب تلقائياً على هذا".

والنداء التالي موجه للذين يشعرون بأن ظلماً قد حاق بهم وأن عليهم أن يتقدموا له فوراً لتعويضهم:

يا أحبائي.

إنني وباسم الله ورسوله، ألتمس من أي أحد منكم، إذا ما ظلمته ونسيت ذلك، أن يطلب التعويض الفوري على ما حاق به. ولا تنتظروا حتى اليوم الآخر، يوم القيامة.

إنني سأتحمل أي خطأ ولا أريد أن ألقى اللوم على الآخرين. وإنني ألتمس منكم هذا، ليس باسمي فقط، بل باسم الخلفاء والأمراء والأشراف. عليكم بالتالي التقدم بمظالمكم الآن ولا تتأخروا حتى ضياع الوقت.

ومن الواضح أن الأمر التالي موجه ضد السلطات الدنيوية التي يمارسها الأشراف المنحدرين من نسل النبي. فقد كان معلوماً لدي المهدي أن كثيراً من هؤلاء الأشراف ما انضموا إليه إلا لدواعي الحال لكنهم في قرارة نفوسهم يحيدون عن المهديّة. وبالتالي يشكل هؤلاء الرجال خطراً وسط الجماهير المتحمسة والتي تكون القوات المقاتلة للمهديّة. أصبح ضرورياً بالتالي أن يجبروا على الطاعة لقادة المهديّة وزعمائها ومن ثم خاطبهم قائلاً:

يا أحبائي: أوجه هذه الرسالة خصيصاً لكم لأنكم من سلالّة النبي. عليكم أن تتبنوا نعيم هذه الدنيا وأن تكرسوا أنفسكم لعبادة الله. عليكم طاعة الأمراء وتنفيذ أوامره ولا تجادلوه وإلا تم اعتباركم من الكافرين (وبعد هذا أورد عدة آيات من القرآن). أذكروا مخالفة الأمراء لأنهم قد عينوا لقيادتكم في الحرب الدنيّة "وبعد هذا يورد عدداً من الآيات القرآنيّة التي تحت على القتال في سبيل الله".

ومن المدهش أن نجد أن المهدي قد صمم ويعزم شديد على الإطاحة بكل التقاليد العسكريّة للقوات الحكوميّة وأستبدالها بأحياء التقاليد السودانيّة (العسكريّة) القديمة.

وتستخدم الطبول النحاسيّة (النقارة) الآن بواسطة عموم قبائل النقارة ومعلوم سحر صوتها ورتابته لكل من دخل في قتال ضد السودانيين. وقد أصدر المنشور التالي:

"من محمد المهدي إلى كل خلائه من أصحاب الرايات يا أخوتي، أحصدوا الله في كافة الأحوال وتأملوا في خلق السماوات والأرض. تجنبوا كل المتع الزائلة مثل ضرب النحاس والطبول الصغيرة والكبيرة. فالطبول يجب ألا تضرب إلا عند الضرورة ويجب عدم استخدام الطبول (الدقوف) أو الأبواق بعد هذا وعليكم التخلص من كل العادات التي أدخلها الترك.

أيها الأصحاب والمقاتلون في سبيل الدين: تذكروا أن الله قد قال عند ما خلق السماوات والأرض: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبواب". فكل الناس يرغبون في أن يوصفوا (بأولي الأبواب) ويكرهون أن يوصفوا بالبلادة.

ولأنكم يا أحبائي تدركون معنى أحاديثه وتسبحون له في وقوفكم وفي جلوسكم وفي رقادكم. فعليكم أن تنظروا بالإعجاب لخلق السماوات والأرض، فهذه هي إرادة الله والذي أظهر هذه العلامات لعباده. وكانت تلك عادة الصحابة وكانوا يتفكرون في معجزاته سواء كانوا في الحرب والقتال أو في غدهم ورواحهم. فسارعوا للسير في دربهم وواظبوا على الصلاة سواء أقمتم أم ظعنتم أو كنتم مع أصحابكم. وتجنبوا كل وسائل اللهو فهذا الكون لا يعيش في سلام إلا بالصلوات وابتعدوا عن مباحج الموسيقى ولا تشغلوا بضرب الطبول صغيرها أو كبيرها. أما في المستقبل فلا تضرب طبول النحاس أو النقارة إلا عند الضرورة مثل استدعاء المقاتلين للجهاد أو لتجميع أولئك الذين في مكان بعيد وإحضارهم.

وواظبوا على ذكر الله. فهذه شيمة العباد الصادقين والمقاتلين في سبيله. وهي تضيء القلوب وخاصة قلوب الجهلاء، وهي الطريق إلى الله وهي تاج النصر للمهتدين.

ودعوا جاتياً أي شئ حتى لو له أقل شبه لأخلاق أو عادات الترك والكفار. وقد قال الله في حديث (قدسي) "أن على عباده ألا يتخذوا سبيل أعدائه أو يتشبهون بهم في لباسهم" فكل البستهم، مثلها مثل طبولهم وأبواقهم وأشياتهم الأخرى، يجب أن نبتعد عنها وأن نلتصق ونتبع فقط عادات الصحابة وطباعهم رضي الله عنهم. حان الآن وقت الرجوع إلى الله وإقامة العهد معه فلا تضيعوا هذه الفرصة وتغمسون في الطرب والموسيقى.

صلوا بقلوب نقيه طائعة وسبحوا الله ومجدوه والصلاة والسلام على سيدنا البشير*

محمد.**

وكان من عادة كبار رجال الدين في البلاد الإسلامية أن يعزلوا أنفسهم (في خلوة) لفترة من الزمن وينغمسون في الرؤى والأحلام التي تواكب بالطبع تلك الظروف الخاصة التي تستدعي التدخل الروحي والإلهامات والإرشاد. وكان المهدي، من أجل التأثير على أتباعه السذج وإقناعهم بطبيعة رسالته المقدسة، كثيراً ما ينغمس في مثل تلك الرؤى والتي يتناقش فيها مع الرسول وصحابته ويتلقى منهم الإرشادات الضرورية التي تقوده إلى إكمال مهمته بنجاح. والرؤيا التالية، التي حدثت له بعد سقوط الأبيض مباشرة، توضح ذلك كما سنلخصها:

١- ظهر لي النبي ومعي عبد القادر الجيلاني وأشار الله إلي^{***} ثم قال للرسول: أن هذا هو خليفتك وكررها.

٢- أن الله قد أمدني بعشرة من الملائكة بجيوشهم مع الأنبياء والرسل وسبعين ألفاً من أصحابهم.

٣- أن يحارب الترك وأن يرتدي المرقعة هو وأتباعه.

٤- أن يذبح ثلاثة من الثيران بعد فتح الأبيض وأن عليه بعد ذلك أن يحرق المدنية.

٥- أنه سيصلي في مساجد الخرطوم ثم بربر ثم مكة فالقدس فالعراق والكوفة.

٦- الابتعاد عن سرقة الغنم وأن من يسرقها سيحرم من الأكل من شجرة الحياة.

والمنشور التالي موجه للذين لم يطيعوا أوامر المهدي: من محمد المهدي إلى صديقه:

١- بحث على طاعة الله ورسوله والمهدي. والويل لمن يعصى.

* أضاف المؤلف لفظ (القادر أو القدير) بعد (البشير) وهي ليست من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم. (المعرب).

** سنلجأ للتخصيص بقية الخطابات التي ملأ المؤلف بها الكتاب بعد هذا. (المعرب).

وعلى من يريد التوسع فيها الرجوع إلى (الآثار الكاملة للإمام المهدي) للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم وخاصة الأجزاء الأربعة الأولى (المعرب).

*** لم تجد هذا النص المكذوب في (الآثار) ولم نسمع قط أن المهدي قد ذكر أن الله قد ظهر له وهو (جل جلاله) لم يظهر حتى للأنبياء والرسل أو يتحدث إليهم مباشرة (المعرب).

- ٢ - عدم أخذ النساء من رجالهن بالفقرة وأن هناك حالات حدثت وتم إرجاعهن لأزواجهن.
- ٣ - لماذا لا يطيعون أوامره بينما كانوا من قبل يطيعون أوامر الباشوات وأوامر غردون شارب الخمر؟ لذا يجب معاقبة العصاة بالجلد بالسياط.
- ٤ - معاقبة من يستولي على امرأة غيره وأن هذا شيء غير أخلاقي وسيعاقب مرتكبه بشدة ثم يعذب في نار جهنم.
- ٥ - يعاقب شارب التمباك بأشد من عقاب شارب الخمر.

وإنشغل المهدي الآن بإرسال الوفود لكافة أنحاء البلاد وقد أضاف استيلائه على أهم مدن غرب السودان زخماً ودعاية للرسول والوفود. وكان قد تنبأ قبل وقت طويل من سقوط الأبيض بوقوعها بين يديه، لذا فما الذي يمنع الخرطوم من نفس الشيء. لقد إزداد عدد أتباعه كثيراً ومن ثم تتابع إرسال الإنذارات والمنشورات للقاصي والداني من البلاد ووجد بعضها سبيله للخرطوم وفيها تم تحذير أهاليها من أن يلاقوا نفس مصير أهالي الأبيض إلا إذا ما سارعوا للالتحاق بالركب الجديد للمهدية. وفيما يلي (ملخص) لواحد من العديد من المنشورات الموزعة:

"من محمد المهدي إلى كافة أحبائه:

تذكرهم بأن الدنيا لا تسوي جناح بعوضة وأن النعيم هو نعيم الآخرة. وأن عليهم ألا يخشوا من الترك لأن الأرواح بيد الله. ثم يحذرهم من تكديس الأموال والثروات أو السعي لجمعها. ثم يطلب منهم التجمع وراء أي قائد يثقون فيه ويلقوا الحصار على الخرطوم لأن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله وأنه في النهاية لا يهدي من أحب بل الله هو الهادي لمن يشاء.

أما الخطاب التالي فقد كتبه المهدي إلى الشيخ المنا إسماعيل، والذي كما نذكر. قد قام بدور بارز في الاستيلاء على بارا والأبيض. ويبدو أنه فقد حظوته، وغالباً بسبب حيازته لبعض غنائم المعارك، ومن ثم أقيل من الأمانة وعين أخاه بدلاً عنه وبعد ذلك بقليل تم إرساله (للعالم الآخر):

"من محمد المهدي إلى حبيبه المنا إسماعيل: يعلمه فيه بأنه من المتقدمين وبالتالي يعرف غرور الدنيا وفنائها وأن عليه ألا يأسف على ما فاتته من الأمانة لتحويلها لأخيه وينصحه بالتواضع لله وأن يحمده على نعمه الظاهرة والباطنة وأن يشمر لجهاد أعداء الله وأعداء نفسه ويشره بالفوز العظيم* وكان هذا الخطاب بمثابة التصديق بموته. فقد أعدم بعد بضعة أيام من كتابة ذلك الخطاب**

* النص الكامل في (الآثار). الجزء الأول. صفحة ٢٧٢/٢٧٣ (المعرب).

** الإنذار بقرب تصفيته ليس في هذا النص. بل في الخطاب الأخير الذي وجهه إليه المهدي مفزراً بتسليم والديه من الغنائم بعد هذا بثلاثة أسابيع (الآثار ص ٢٩٠) (المعرب).

إعلام من المهدي لأهالي الخرطوم :

يطلب منهم هجر المال والولد والوطن للدفاع عن الدين ويخبرهم بأن الرسول (ص) هو الذي نصبه مهدياً بحضور الخلفاء والصحابة والخضر، وأن الله دعمه بالملائكة والأولياء وبالجن المؤمنين في ساعات الحرب وحذرهم من حب الدنيا ومن النفاق. وحدثهم عن الأمر بهجرته إلى جبل قدير بالقرب من ماسا وكتابته لكل شيوخ الدين وأن الصالحين منهم أجابوا دعوته أما الخبيثاء فقد امتنعوا. وأشار لمفهوم المهديّة عند العلماء والمتصوفة والأحاديث الدالة عليها وكيف أن الرسول قد أخبره بأن من شك في مهديته فقد كفر. ثم طلب منهم الهجرة إليه وقتل الكفرة المجاورين لهم (ثم أورد عدداً من الأحاديث والأقوال الدالة لمراده) - أشار لنسبه الشريف واتمّاله للحسن من جانب والده ووالدة والدته ولأجداده العباسيين وأن العلم لله أن له نسباً إلى الحسين. وأخيراً يوصيهم بتقوى الله ومعاونتهم لبعضهم البعض في شئون الدين والخوف من الله وفي الجهاد وعدم التعدي على حدود الله لأن كل شيء بيده".

وبعد وقت قصير من الاستيلاء على الأبيض، حضر عن طريق وادي مبعوث من السنوسي. لم يكن ذلك المبعوث محتاجاً للبحث في مسار الأمور لما كان قد شاهده. فالتربية الأخلاقية والسلوك الجاد للسنوسي جعله ينفر من سفك الدماء ومن السلب والنهب الذي شاهده فيما حوله. فقد كانت المشاعر الوجدانية المتملكة لفؤاد ذلك المبعوث من وادى تتمثل في الإيمان بأن التجديد وإحياء العالم بواسطة مهدي يقود الآخرين لحياة شاملة في الاعتدال والقصد، ولكرامة العمل الشريف وضبط النفس. لكنه لم يشاهد سوى المدينة المدمرة المنهوبة. ورأى الخزينة المليئة بالمسروقات والحلي المحطمة. وحتى الذرة، رآها ملطخة بالدم. ورأى رجلاً ذكياً حلو الحديث مستغرق في أشد حالات الفجور يقوده رجل أُمي لا يعرف حداً لرغباته إلا بالسيطرة التامة التي لا يحدّها حد.

ولكن، بالنسبة للسنوسي، لم تكن المهديّة هدية تسقط بمعجزة من السماء وتؤسس بالنار والسيف. وكان يرى أن إحياء الدنيا بالكدح والصبر وبالسلوك الذي لا شائبة فيه هو الذي سيؤدي إلى انتشار نفوذه وتوسعه ويؤدي إلى المناداة به مهدياً ولو ربما بعد موته. لكنه لم يجد ما يجسد تلك الأفكار بعد كل ما شاهده من حوله في الأبيض، ولا في المعلومات التي نقلها مبعوثوه لأكحاء السودان. حتى المصريين الذين جاء هذا المهدي ليجند حياتهم، لم يبيع عليهم أنهم رأوا الحياة والدين مثلاً يراها السنوسي.

وهناك مظاهر كثيرة وعلامات تدل على ظهور أصحاب الرسالات، ولا بد أن يكون السنوسي، إضافة إلى تكرر من تلوث أسم المهدي بمستفقع ذلك المنفوس في الشهوات، قد تعجب من كون ذلك الرجل قد أصبح سيداً على إقليم يعج بجيوش لا حصر لها تحت إمرته.

ثم رجع مندوب السنوسي من مهمته وتوجه لبلاد سلطان واداي. ولابد أنه قد شعر بأن تنصيب سيده (المقام المهدي)* قد تأجل لأجل غير محدود، إذ أن للخرافة قوة تزداد كلما ابتعدنا عن مركزها وتزداد أهدافها غموضاً. وأنه طالما تركزت الثروة والقوة في يد أحدهم فإن الباقي يصبح سهلاً غير عسير. وبمضي الوقت ووفاء المهدي في تطابق تام مع ما سلف من سوابق، فلا بد أنه قد شعر بأن الخلافة الجديدة التي أعقبت وفاته ستستمر لوقت طويل بعد ذلك. ورغم ذلك فقد وجد شعاعاً من الأمل بأنها ستنتهي بعد ذلك الوقت.

وبسبب من وضعهم الجغرافي وأيضاً للضرورات السياسية فقد أصبح التواصل المستمر مع مكة أمراً بالغ الخطورة. فقد كان ذلك المدعي في عز الشباب وكانت عمليات المهدي الحربية قد أوقفت طريق الحج من أفريقيا لمكة. فالبحر الأحمر هو. بمثابة نهر يفصل بين إفريقيا ومكة وكانت منطقة عبوره، التي ترسخت منذ عهود طويلة، هي في سواكن. بالتالي كان الأمر يحتاج لنشئ كالمثلة ليزحزح تلك العقبة وسرعان ما أنطلق الصراخ بأن طريق الحج قد سد. وعلى ذلك الأساس تصاعدت موجة الحماس والتعاطف الشديد في واداي مع الذين لم يتمكنوا من أداء الفريضة، مثلها مثل الممالك المجاورة. وقد ظهرت ثمار ذلك التعاطف فيما بعد.

ومن جانب محمد أحمد، فإنه لم يستسلم لعدم ورود رد على خطابه للسنوسي، بل فسر ذلك وعزاه إلى أن خطابه إليه لابد قد ضاع وفقد. وكان يدرك تماماً أهمية تعاون ذلك الشيخ القوي معه. فقام بالتالي بإرسال خطاب ثان له ورجاه مرة أخرى لتولي مقعد الخليفة الشاغر. وكتب له على النحو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم.....

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بين السيد عبد الله إلى حبيبه في الله الخليفة محمد المهدي بين الولي السنوسي كان الله في عونك. آمين.

فيا أيها الحبيب القريب، الواقف على سنة النبي الأكرم، المرقى العباد إلى مقام التقريب: لا يخفاكم تغير الزمن وترك السنين ولا يرضي بذلك ذوي الإيمان والفطن، بل يترك لذلك الأهل والأوکار والوطن لإقامة الدين والسنن، ولا يتوانى عن ذلك لكون غيره الإسلام للمؤمن تجبره*.....

ثم بين أنه بلغه حسن سيرته وأنه كان يعتزم السفر للانضمام إليه والانخراط في مسلك أصحابه لإقامة الدين. يذكر له أن المفسد كثر وأن الدين صار إسماء وأن غير المسلم لا تقبل ذلك. ثم يذكر أنه حاول أن يصلح الدين بالإرشاد والوعظ فلم ينجح إلا في إقناع بعض الفقراء. ويذكر أنه كلف بأمر المهدي ووعده بشائر كثيرة وأنه (أي السنوسي) قد اختير ليملاً منصب الخليفة الثالث (عثمان). ثم يبين أمر مهديته واتجاهاتها وأنه هاجر إلى قدير وجاهد الترك وأنتصر عليهم في عدة مواقع. ثم يخبره بين الجهاد في جهاته ومنها إلى مصر أو الهجرة إليه*.

* المعرب.

* أورد ونجت هذه الديباجة كاملة (مع بعض التعريف) وكذلك كل الخطاب المكون من نحو أربعة صفحات. لكننا بعد ذلك أوردنا الملخص الذي كتبه الدكتور أبو سليم في (الآثار) الجزء الأول صفحة ٣٣٤ بالرقم ١١٥ (المعرب).

لم يكلف السنوسي نفسه عبء الرد على هذا النداء الأخير لكن مبعوثوه نشطوا في العمل بالممالك البعيدة، مثل وادي والبرنو وغيرها، بقيامهم بتحذير الناس من إتباع النهج الجديد. لكن ثمار عملهم لم تظهر إلا بعد ثلاث سنوات حيث بدأ صراع عنيف بين المهديين المتنافسين. وقد تبنى بعض أعداء المهدي الفكرة السنوسية مظهرياً ليضيفوا زخماً لحركتهم ولكن لا مجال للتساؤل أو الشك إطلاقاً في أن للسنوسي يداً في دفع الأحداث العدائية التي نشبت بعد ذلك في السودان. ولكن، وفي الوقت الحالي، بدأت أمواج الثورة المهديّة في التحرك تدريجياً نحو شمال السودان والانتشار فيه.

كان عبد القادر باشا يبذل كل ما في وسعه لقمع الثورة بين النيلين الأبيض والأزرق. غادر الخرطوم في الثاني من يناير متوجهاً نحو المسلمية وتولي قيادة القوات العاملة في ذلك الإقليم. جرت بعض الاشتباكات غير الهامة وكان للثوار اليد العليا فيها حيث قاموا بهزيمة القوات المصرية التي كانت بمنطقة القراصة في ١٨ يناير.

وفي السابع والعشرين التقى عبد القادر بالثوار في منطقة معتوق وهزمهم وقتل منهم حوالي ٦٠٠ كما أحرز نجاحاً صغيراً في الطريق إلى الكوة. ثم قام بتركيز قواته في الكوة وغادرها عائداً إلى الخرطوم.

لم تصل أنباء سقوط بارا والأبيض إلى الخرطوم حتى الحادي عشر من فبراير. وبعد يومين التحق عبد القادر بقواته بالكوة وعلى رأس قوة مكونة من ثلاثة كتائب إضافة لستمالة من القوات غير النظامية، بقيادة رجل القلابات صالح بك شنقه، وبعض فرسان الشكرية زحف نحو سنار والتي كان يحاصرها الأمر أحمد المكاشفي. وعند ما سمع الأخير باقتراب القوات المصرية تقدم نحوهم بقوة من ١٠٠٠٠-١٢٠٠٠ من العرب. ونشب بينهما قتال عنيف في الرابع والعشرين من فبراير بمشرع الداعي هزم فيه المكاشفي بعد أن خسر منتين من رجاله وتم فك الحصار عن سنار وأعيدت الاتصالات بينها وبين الخرطوم وفي هذه المعركة جرح عبد القادر باشا جرحاً خفيفاً.

تفرقت قوات الثوار في تلك المنطقة إلى ثلاثة أقسام، استسلم قسم منهم للمصريين في سنار، أما الثاني فقد اتخذ موقعاً له بجبل سقدي بقيادة أحمد المكاشفي حيث تمت هزيمته التامة على يد صالح بك، الذي كان يرأس قوة من ١٢٠٠ جندي، في الرابع من مارس. أما القسم الثالث بقيادة عبد الغفار فقد عاد إلى كركوج.

كان عبد القادر باشا يجهز نفسه للتوجه نحو القسم الأخير عندما تم استبداله، في العشرين من فبراير، بسليمان باشا نيازي كقائد عام للقوات بينما تولى أحد ضباط الفرسان الأتراك، علاء الدين باشا، الإدارة المدنية للحكومة. وفي السادس والعشرين من مارس أعلن الأخير حاكماً عاماً (حكمادراً) للسودان.

ونعود الآن لنرى تأثير تلك الاضطرابات على مصر. فعندما تسلمت السلطات المصرية رجاء عبد القادر باشا وطلبه للتعزيزات فقد تقرر إعادة تجميع فلول جيش عرابي باشا المحلول وإرسالهم كتعزيزات للسودان. ولم تكن هناك مشكلة في القيادة لهذه القوات - فسيكونون من

الإجلىز بالطبع - لأفها كانت مغامرة يائسة. لكن تجنيد تلك القوة، من الضباط والجنود، لم يحظ بالشعبية أو القبول. فقد كان المجندون يكون وهم مقيدون بالسلاسل. ولكن، وبحلول ديسمبر ١٨٨٢ كان قد تم صب خمسة آلاف منهم بداخل مرجل الثورة الملتهب. وفي الرابع من مارس ١٨٨٣ وجد الرجل المشنوم، الجنرال هكس، نفسه مع تسعة آخرين من الضباط الأوروبيين، في الخرطوم على رأس ١٠٠٠٠ من الجنود المنتحيين الباكين، مع النسبة المعتادة من الضباط، والذين كان كثيرون منهم جهلة وعاجزين. ولإضافة المزيد من التشويش والارتباك بينهم فقد انتشرت الغيرة حتى بين كبار المسؤولين.

كان هكس باشا رجلاً مقتدراً شجاعاً. وقد شرع في الحال ليخلق جيشاً من بين هذا الجسد الخامل الذي أمامه. وسرعان ما وضحت أمامه نقطة هامة. فقد كان جنوده غرباء في هذه الأرض. ولأنهم غرباء تماماً، فقد شكل ذلك ميزة فارقة على أولئك الجنود الآخرين الذين كان قد قادهم من قبل عبد القادر وجيقلر وراشد ويوسف شلافي في الميدان. فقد كانت للنظاميين منهم، الذين طالت إقامتهم بالسودان، علاقات وثيقة وصلات عديدة مع العرب. أما غير النظاميين، والذين كونوا القسم الأكبر من القوات، فقد كانوا أنفسهم سودانيين. وبينما قام رؤوف باشا بطردهم فجأة توفيراً للنفقات، فقد أعيدوا فجأة للخدمة أيضاً. كانوا من نفس طراز المهديين غير النظاميين. وعند القتال فقد كانوا دائماً، أو كقاعدة عامة، مع الجانب الأقوى. أما الآن فالوضع جد مختلف.

ففي كل حملات جسي باشا العسكرية في بحر الغزال لم يكن هناك شيئاً استثنائياً مثيراً للغربة غير السهولة التي كان يتنقل بها المحاربون من صفوفه إلى صفوف سليمان الزبير وبالعكس. فقد يكون لجسي يوماً خمسة عشر ألفاً في صفوفه. ولكن، وبمجرد العلم بأن قوة أكبر ستواجههم، أو لمجرد معرفة أن سليمان قد أحرز قدراً من النجاح، فإن عشرة ألف مكنهم يتحولون تلقائياً لجانبه ويقاتلون ضد جسي. وبنفس الطريقة، فإنه إذا ألحق هزيمة بسليمان، وأحياناً قبل ذلك، لأنهم يراقبون الكفة الراجحة بحذق، فقد يجد كل الجيش وقد أنقلب ضد سليمان.

ورغم أن حملات جسي باشا ضد تجار الرقيق تستحق أن تكتب بقلم حاذق، إلا أننا نكتفي حالياً بمجرد الإشارة لملاح ظروف الحملات العسكرية في السودان.

وهناك صورة معروفة تماماً لتلك الظروف تستحق أن تذكر. فعندما كان غردون، عند تكليفه الأول بالحكمادارية، على وشك القيام بحملة لمعاينة القبائل التي تقطن حدود الحبشة الغربية، فقد بدأ بعقد معاهدة مع الملك يوحنا لمرور تلك القبائل لداخل الحبشة. فقد قال بأنهم إذا لم يتمكنوا من الهرب للداخل فأنهم سيقاقلونهم كالمردة من الجن ويهزمون قواته.

لذلك فقد حازت قوات هكس، رغم كل المثالب التي بهم، على هذه الميزة: وهي أنهم غرباء بأرض السودان، وبالتالي فلا سبيل أمامهم للوصول إلى تسوية مع المهدي.

ثم شرع هكس، بعد شهر من التدريب العسكري العنيف، في التحرك نحو سنار في مهمة إستطلاعية مصحوباً بجيشه. وبعد بضع مناورات وإشتباكات خفيفة إتقي بالمشافي في المارايح وذلك في التاسع والعشرين من أبريل. كانت القوتان متساويتين تقريباً حيث كان هناك خمسة آلاف

رجل تقريباً من كل جانب. وقد لعبت مدفعية هكس وينادقه التي يتم حشوها من المؤخرة دوراً حاسماً في صد العرب الذين لم يتجاوز تسليحهم الرماح إلا بالكاد. كان انتصاره حاسماً رغم افتقاره للفرسان وقد قتل المكاشفي ومعظم قادته في المعركة. وقد أدى نصره إلى تطهير المنطقة ما بين الخرطوم وسنار وأعادت كثير من القبائل ولاءها للحكومة ومن ثم أصبح هكس قادراً على تحويل اهتمامه إلى مركز التمرد في كردفان.

وقد انشغل في مبدأ الأمر في مقاومة المؤامرات التي كانت تحاك ضده على قدم وساق، بواسطة كبار الموظفين بالخرطوم، في اللحظة التي زال الخطر المباشر على العاصمة. واستمرت مقاومته تلك خلال مايو ويونيه ويوليه ولم تتوقف إلا عندما تقدم هكس باستقالته عن القيادة حيث بعدها تحركت القاهرة وأبعدت عنه زعيم المعوقين - سليمان نيازي باشا - وأكدت تعيين هكس كقائد عام للحملة المقررة على كردفان.

وخلال أغسطس ازدادت مظاهر السخط والنفور في الخرطوم وإتضح أن كثيراً من الأهالي، بل معظمهم، على اتصال دائم بالمهدي في الأبيض.

وتحرك هكس في التاسع من سبتمبر وتقابل مع علاء الدين باشا، الثاني في القيادة، في الدويم يوم عشرين. وقد صحبه من الضباط الأوروبيين الآتية أسماؤهم:

الكولونيل فاركار، رئيس الأركان.

الصاغات سكندورف ووارنر وماسي وإيفانسي.

اليوزباشيان هيرلث وماتويجا.

الملازم موريس برودي (فيما بعد أصبح صاعاً بمدفعية الفرسان الملكية) طبيب الحملة الجراح جورجس بك والجراح الصاغ روزنبرج.

المستر ف. باور مراسل جريدة التايمس (ولإصابته بالدوسنتاريا فقد اضطر لمبارحة الحملة والعودة من الدويم).

المستر دونوفان مراسل الديلي نيوز.

والمستر فرتزلي رسام الجرافيك.

أما الكولونيل دي كوتلوقون فلم يصحبهم، لأنه كان مشغولاً بدوريات تجوب أنحاء النيل لمنع مرور المزيد من الثوار وتحركهم صوب كردفان. وكان الكولونيل كولبورن والميجر مارتن والكابتن فوريسثير ووكر غائبين في إجازات مرضية.

تشكيل قوات هكس عند مغادرته الخرطوم:

وقد تم استعراض تلك القوات بالخرطوم

يوم السبت ٨ / ٩ / ١٨٨٣. المشاة ٧٠٠٠

الباشبوزوق الراكبين ٤٠٠ مع عشرة مدافع

جبلية و٤ مدافع كروب و ٦ مدافع نورد نقلت.

الفرسان ٥٠٠ والفرسان المدرعين ١٠٠ مع ٢٠٠٠ من الخدم والأتباع.

والشكل التالي يشير:

Paraded at Khartum on Saturday, 8th September 1883 :—Infantry, 7000 ; Bashi-Bazuks, mounted, 400 ; with 10 mountain guns, 4 Krupp, and 8 Nordenfelts ; Cavalry, 500 ; 100 Cuirassiers ; 2000 camp followers.

TWO WILSON

✱ ✱

SCOUTS

GIRNEIAL

STAFF

ONE VITALION

كَنْيَّةٌ وَاعْمَرَةٌ

INFANTRY

ARTILLERY

INFANTRY

ONE BATTALION

CAYALTY

TRANSPORT OF 6500 CAMELS UNDER DASHI-DAZUKS

IRREGULAR CAVALRY

فرستاده غیر نظامیه
(۵۰۰ پاستوریزه)

ساروا على هيئة مربع. وقد وضعت المدفعية في الوسط وقاد كل القوات هكس باشا وضباطه ومن حولهم خمسون من فرسان الحرس المختارين.

وحتى نتابع خط السير فمن الضروري أن نقدم وصفاً مبسطاً للمنطقة التي مرت بها تلك الحملة النعسة. فعلى الجنوب من خط عرض ١٣ درجة تبدأ السهوب المقفرة في إفساح المجال للمزيد من الأراضي المتماسكة والطينية. وهناك على طول الحدود الجنوبية لكردفان ثلاثة سلاسل جبلية ضخمة تسمى من الشرق للغرب جبال تقلي تم جبل الداير ثم جبال النوية. وتشكل مياه الفيضان شمال تلك الجبال النهر الوحيد، أو ما يشبه النهر، في كردفان. إذ أن خور أبو حبل يجري أثناء موسم الأمطار، من يونيه حتى سبتمبر، لمسافة تصل إلى ١٩٠ ميلاً نحو الشرق إلى أن يتلاشى في الأراضي الرملية التي تمتصه. لكنه يقال أنه في مواسم الأمطار الغزيرة فإنه يستمر حتى يصب في النيل. وخلال مجراه فإنه يكون ثلاثة برك ضخمة على مسافات من بعضها البعض تبلغ حوالي ثلاثين ميلاً. وهي من الشرق إلى الغرب: بركة شريكلا ومساحتها حوالي ٣٩٠٠ فدان، وبركة الرهد، التي بحوارها مدينة صغيرة والتي تقترن فيها سيول كاشقيل بأبي حبل. وتبلغ مساحتها حوالي ٣٠٠٠ فدان، ثم البركة، والتي فيها مدينة صغيرة أيضاً ومحطة عسكرية، ومساحتها حوالي ١٣٥٠ فداناً. وقد يحتفظ الرهد أحياناً بمياهه طوال السنة لكن باقي البرك تجف ومن ثم لابد من حفر آبار لأعماق ستة أو سبعة أقدام فيها للحصول على المياه. هذا وتحفر تلك الآبار عادة في مجرى السيول ابتداء من أكتوبر وحتى موسم الأمطار التالي.

وتسكن في السلاسل الجبلية أقوام من الزنوج يمتنون حرفة الحدادة وقد كانت مقاومتهم الصلبة في معاقبتهم المنيعه مصدر إزعاج وخطر دائم على المهدي. وقد مكثت قوات العرب لعدة شهور من الحصار غير المجدي في سفوح تلك الجبال والتي كانت مأوى أيضاً لكل الذين يقاومون إرادة المهدي. وقد هزم الملك آدم، ملك تقلي، محمد أحمد أكثر من مرة. كما تحدي الملك كمبو بجبل الداير. حتي النهاية، محاولات أبو عنجة البائسة للهجوم عليه.

تبعد الرهد بحوالي ثلاثين ميلاً عن ملبس وبينهما طريق لامياء فيه يمر خلاله العرب فقط ولكن لا تمر به القوات العسكرية. وملبس هذه تبعد عن الأبيض بعشرة أميال، وهي بداية المناطق المستقرة. وهناك طريقان معروفان من الرهد وحتي الأبيض. أولهما يسير غرباً بطول مجرى سيول كاشقيل ومنها يمتد لمسافة ثمانية وعشرين ميلاً عبراً عدة قرى حتى يصل إلى الأبيض. أما الثاني فهو يمر عبر مناطق قاحلة عديمة المياه تقريباً لنحو أربعة وثلاثين ميلاً حتى البركة. وبينما تقع قرية علوبة على بعد ستة عشر ميلاً من الرهد نجد أن البركة تقع جنوب معبر كاشقيل لثمانية عشر ميلاً.

وقد كان في نية هكس باشا أن يتحرك مباشرة من الدويم إلى بارا بالطريق الشمالي، وهي مسافة ١٣٦ ميلاً، ومن هناك يتجه نحو الأبيض. وفي أثناء الطريق ينشي نقاطاً عسكرية يتم إمدادها من مستودعات الدويم. لكنه غير رآيه يعد إلحاح علاء الدين باشا بأن الطريق الجنوبي وأفر المياه، وهو طريق غير مباشر يمر بخور أبو حبل، وهي مسافة ٢٥٠ ميلاً، من ثم قرر هكس الزحف خلال الطريق الجنوبي وخاصة لما أكده علاء الدين باشا بأنهم سيجدون الماء بين الدويم ونورا بي على مسافة ما بين ثمانين إلى تسعين ميلاً. وهذه المعلومة لم يكن يعرفها هكس باشا.

ثم تحركت طلبعة من الجيش مكونة من الفوج الرابع بقيادة رجب بك، وسرية من خيالة الباشبوزوق تحت السنجك يحي أغا، مع بعض المدفعية، من الدويم واحتلت آبار شات، على مسافة ستة عشر ميلاً منها، وذلك في الرابع والعشرين من سبتمبر. ثم تقدم باقي الجيش على أثرهم. وبعد إقامة شتات لثلاثة أيام تقدموا بطريق جنوبي غربي نحو زريقة واستراحوا فيها لخمسة أيام.

وبدا خلاف الآن بين هكس باشا وعلاء الدين باشا. فقد أراد الأخير إلغاء فكرة إقامة سلسلة النقاط التي كان متفقاً عليها، لكن هكس، لأسباب واضحة، لم يوافق على هذا الرأي. ثم شرعوا في سؤال المرشدين، وعددهم خمسة عشر، أهمهم كانوا:

أحمد أبو أصبع

أحمد أبو كشوة

حاكم المحسى

ومحمد البقارى

سألوا كلاً منهم على حدة عن الطرق التي فيها أفضل المياه.

وكان الأدلاء المحس قد أكدوا لهم في الدويم بأنهم سيقودون الجيش حتى سراكنة وأنهم لن يعانون أي نقص في المياه أثناء الطريق. أما البقارة فقد ضمنوا لهم باقي الطريق من سراكنة وحتى الأبيض. وعندما سئل الأدلاء المحس وشدد في إستجوابهم، أعترفوا بأن المياه لن تكون كافية حتى سراكنة وبالتالي تم حبسهم. وتطوع دليل يسمى أحمد أبو دومة للذهاب بنفسه حتى سراكنة ليرى الوضع بنفسه. تم منحه الإذن بذلك فذهب ليعود في اليوم التالي ومعه عينة من المياه إلا أنه لم يقل بأنها قد تكفي أو لا تكفي كل القوات. لذا تحرك هكس بنصف القوة إلى آبار دريفيسة. وبعد أن تأكد من أن هناك ميهاً كافية أرسل لإحضار بقية الجيش. وقد قام حامل هذه الرسالة، البلك باش محمد أغا، بالفرار بعد توصيل رسالته. أما الرجال الخمسة الذين صحبوه فأنهم إتهموا، بعد أن عادوا، بالتواطؤ مع محمد أغا وأمر علاء الدين بحبسهم.

وكتب هكس باشا، عندما كان بالقرب من هذه المحطة، وعلى بعد ثمانية وعشرين ميلاً من سراكنة، قائلاً:

وصل الجيش حتى مسافة ثمانية وعشرين ميلاً من سراكنة، والتي تبعد بأثنين وعشرين ميلاً من نورابي. وكنا نرتوي من الحفائر والبرك التي خلفتها مياه الأمطار والتي وجدناها متوفرة لحسن الحظ. وقد تأكدنا عن طريق الطلاع من وجود الماء حتى سراكنة. أما المعلومات التي جاء بها الأدلاء فكانت غامضة. إتني لا أسف إلا لإلغاء فكرة إقامة محطات عسكرية وخطوط اتصال مع قاعدتنا بالدويم. فقد أكد لي الحاكم العام بأن العرب سيحتلون المواقع، التي يخليها الجيش عند تقدمه، بقوات تكفي لمنع أي إمدادات من الوصول إلينا. وبالنسبة لمياه الحفائر والبرك، وهي المصدر الوحيد للمياه، فأنها ستجف ومن الصعب الحصول على مياه أخرى بحفر الآبار. كما أنه ليس لي علم بخصوص وجود مياه بين سراكنة ونورابي ولا أي معلومات يعتمد عليها. وهذا ما يسبب لي قلقاً كبيراً. وكنت أتوقع أن يكون العدو قد احتل سراكنة، لكن استكشافاتنا التي قمنا بها اليوم أكدت

خلو المكان منهم فقد غادرها العرب هذا الصباح. وفيما يختص بالحالة الصحية للجنود فإنها جيدة عموماً لحسن الحظ لأنه ليس بحوزتنا مركبات خاصة بالمرضى. أما الحرارة فشديدة الوطأة.

ويقول في رسالته العاجلة، وهي آخر رسالة تستلم منه، والمؤرخة بتاريخ ٣ أكتوبر . وكان قد كتبها من معسكره بالقرب من سراكاتة الآتي:

كنت قد قررت عند مغادرتي للدويم، على النيل الأبيض، للتحرك عن طريق خور النيل إلى ملبس والأبيض، أن تكون لي خطوط إمداد في نقاط عسكرية مؤمنة بقوة مائتين جندي لكل منها وبعد تحصينها بقوة وذلك في الأماكن التالية:

النقطة	المسافة بالأميال	النقطة	المسافة بالأميال
شات	١٦	عيلي	٢٨
زريقة	١٦	بلياب	٢٢
سراكاتة	٣٢	أم شيخ	١٢
نورابي	١٦	الرهد	١٤
عجيلة	٢٤	كاشقيل	١٤
جوهان	٣٢	ملبس	٢٥

وقد تم إخطاري بأنه يمكن الحصول على الماء في كل تلك النقاط. وهناك كميات كبيرة من الخبز الجاف ستصل إلى الدويم. ولأننا لا نستطيع ترك أي جمل وراعنا بالقاعدة فقد أمرت بشراء ألف جمل وإرسالها للدويم. ولدى سعادة علاء الدين باشا ٣٠٠ جمل بالخرطوم وأصدر أوامره بشراء السبعسمائة الأخرى وإرسالها على وجه السرعة للدويم. وسيتم ترحيل الخبز، مع الذخيرة والمخزونات الأخرى، إلى الجبهة من نقطة لأخرى. وسيتم إنشاء مستودع بكل نقطة حتى إذا ما أصابتنا نكسة فسيكون طريق الانسحاب مؤمناً لنا وستتحول القوات المتراجعة نحو تلك النقاط حيث سنجد فيها ما يكفي من إمدادات الطعام والذخائر والمياه.

تحركنا نحو شات وأقمنا أول محطة عسكرية ومستودع فيها. وقبل أن نصل إلى زريقة أخبرني حاكم عام السودان بأنه لا يمكن توقع وصول أي إمدادات من الدويم إلينا لأن الجنود الذين سنتركهم في المحطة لن يحرسوا القوافل، بل سيكونون في الواقع في خوف شديد من القيام بذلك. وبالتالي، ولكي نضمن وصول الإمدادات والتعينات لنا فأتنا نحتاج لجيش يتحرك لحماية كل قافلة. ورغم أن العرب غير متواجدين في خط سيرنا إلا أنهم سيعودون بعد مغادرتنا لأي موقع وسيكون عددهم كبيراً وبالتالي لن يتمكن جنودنا بالنقاط من إرسال الإمدادات لأنهم لا يعتبرون أنفسهم أقوياء بما فيه الكفاية حيث سيكون الوضع خطيراً ولا أعتقد بأنهم سيواجهون تلك المخاطر.

وقد طلب مني الحاكم العام أن أترك فكرة إقامة تلك النقاط وأن ألغي فكرة خطوط الإمدادات وخطوط الانسحاب وأن ننقدم بالجيش كله دفعة واحدة ومعنا مؤونة خمسين يوماً من الطعام، مع أن العرب يقتربون من مؤخرتنا ويكادون أن يطبقوا عليها.

وأنا بالطبع شديد الكراهية لهذا الرأي. ولكن، وإذا ما أكد لي سعادته وجهة نظره، وهي أن النقاط لن يتم تزويدها بالإمدادات من الدويم، وأن التعيينات لن تمر من خلال تلك النقاط، فأنتي إذا ما قمت بإقامتها ووضع الجنود بها فلن أحصل على شيء سوى إضعاف قواتي المقاتلة وبدون إحراز أي تقدم. من هنا فقد عقدت مجلساً للتشاور وأوضحنا فيه مختلف وجهات النظر وطلبت من المشاركين أن يسجلوا آراءهم كتابة.

توقيع

الجنرال و. هكس

والتالي هو آراء الضباط المشاركين في المجلس:

“أوضح سعادة علاء الدين باشا بأنه يشعر بأنه مقتنع بأن العرب سيتجمعون بأعداد معتبرة على الطريق الذي سيخليه الجيش عند مواصلة تحركه لدرجة أن الحاميات بتلك النقاط لن تقوم بترحيل أي مواد أو إمدادات. وأتينا لا نستطيع الاعتماد إطلاقاً على الدويم للحصول عليها، وأن النقاط لن تكون سوى مصدر للضعف لنا حيث سنترك بها ٢٥٠٠ رجل ممن نحتاج إليهم في مهمتنا. أيضاً فإن بعض النقاط سنهاجم وسنتم احتلالها ولا يمكن الاعتماد على حامياتها للصمود والحفاظ عليها وأنه لا يمكن دفع أي جندي للقيام بحراسة أي قافلة.

أما سعادة حسين باشا مظهر فقد رغب في إقامة النقاط حتى نورابي (أومنتصف الطريق للأبيض) لكن على الحكومة في هذه الحالة أن ترسل الجنود من القاهرة وأثناء ذلك على الخرطوم أن ترسل كتيبة لحراسة الإمدادات والمستودعات.

(علي الهامش: ملحوظة - الوقت لا يكفي لوصول القوات من القاهرة كما أن حاميات الخرطوم أضعف من أن ترسل أحداً).

أما رجب بك فقد رأى أنه، وبالرغم من وجاهة الاحتفاظ بخطوط الإتصال من وجهة النظر العسكرية، إلا أنه يرى ضرورة ترك فكرة إنشاء تلك النقاط في الظروف الحالية.

عباس بك يوافق رجب بك على رأيه، الكولونيل فاركار، رئيس هيئة الأركان، يرى أنه تحت ظروفنا هذه فيجب أن نلغي فكرة إنشاء خطوط اتصال أو نقاط عسكرية.

ملحوظة:

عندما تسقط الأبيض، وبالتالي تستقر الأحوال في المنطقة، فمن المتوقع أن نقوم بإرسال قوة صغيرة من الأبيض لنذهب من أقصر الطرق إلى شات حيث تلتقي بالقافلة القادمة من الدويم حاملة الإمدادات.... الخ. وستكون المياه، بالنسبة لقوة صغيرة، سهلة الحصول عليها وذلك بفتح الآبار.

الجنرال و. هكس :

لقد دخل قرار هجر وترك إقامة النقاط حيز التنفيذ. وما عدا بضع سطور كتبها المستر أو دونوفان، مراسل الديلي نيوز، كتبها من ساتجا همفريد، التي تقع على بعد خمسة وأربعين ميلاً جنوب غرب الدويم، والتي قال فيها:

"لقد توقعنا الأيام الثلاثة الأخيرة بسبب عدم تأكدها من وجودنا من وجود المياه
أماننا. وهنا نعتمد تماماً على البرك السطحية. وقد أكدت فرقة إستكشافية قام بها
الكولونيل فاركار أمس حتى مسافة ثلاثين ميلاً بأن البرك والحفائر لا تكفي إلا بالكاد
لجيش سيزحف بسرعة نحو قرية سراكنة، التي أخليت الآن من سكانها، وحيث لاغ
توجد سوى بضع آبار للمياه. والعدو لا يزال يتراجع وقد نظف كل المنطقة من أي أثر
للأبقار والماشية"

لم يتم استلام أي رسائل أخرى من أي من الأوروبيين الذين رافقوا هذه الحملة المشنومة
والتي أبيدت عن بكرة أبيها بعد حين.

ولقد ظهرت، من آن لآخر، عديد من الروايات لكن ربما كان أكثرها مصداقية ما جاء به
محمد نور البارودي، والذي سنطعي فكرة موجزة عن سيرة حياته. فلقد رافق هذا الشخص المرحوم
غردون، عند أول قدومه للسودان، كطباخ. وتجول معه خلال المديرية الاستوائية حتى يوغندا
والحبشة وغيرها. ثم عمل على التوالي مع الحكام الذين تعاقبوا على الحكمادية بعد غردون. ثم
عمل أخيراً كطباخ للجنرال هكس باشا ورافقه في حملته الأخيرة وحتى معركة شيكان وقد أصابته
رصاصة في جسمه وضربة سيف خلال يده أثناء المعركة. وعندما جرحوه من الأجمة التي سقط
فيها، وقد ظنوا أنه قد مات، شاهد بعض العرب ينهبون مخازن الأدوية ومنعهم من أكل بعض المراهم
والتي غطي جراحه بها. ورغم إعلائه بأنه مجرد طبّاخ ألا أن أولئك الذين اعتادوا على قيام النساء
بالطبخ لم يصدقوه. قادوه إلى المثل أمام ود النجومي ومن ثم رافقه لخمس سنوات كان يعمل فيها
كبيراً للأطباء لقواته. وقبل أيام من موقعة توشكي في أغسطس ١٨٨٩ هرب من المعسكر وتوجه
إلى معسكر الجنرال قرنفل وقدم مساهمات ملموسة لقسم المخابرات. وقد تأكدت إفاداته التي قدمها
من شهادات عدد من الأمراء الذين إشتراكوا في معركة شيكان، والذين قدموا أيضاً معلومات عن
تحركات العدو خلال توجه هكس باشا نحو كردفان والتي أدمجناها في الوصف التالي، من محطة
دريفيسة، والتي منها جاءت آخر الأخبار الحقيقية:

توجه الدليل أحمد أبو دومة إلى المحطة التالية، ومعه خمسة وعشرين فارساً، ليتأكد من
وجود ما يكفي من المياه. وعاد الفرسان بعد بضع ساعات وأبلغوا بأن الدليل قد ترك بندقيته سهواً
أمام الحفيرة ثم عاد للبحث عنها. انتظروه لبعض الوقت لكنه لم يظهر وبالتالي تحرك الجيش نحو
المحطة التالية وعند وصولهم وجدوا الدليل تحت شجرة وقد بترت يديه. وأفاد بأنه قد هوجم من قبل
بعض الثوار. عند ابتعاده عن الفرسان، والذين قاموا بقطع يديه. استراح الجيش هنا ليومين. وفي
السابع من أكتوبر عاودنا التحرك نحو النقطة التالية، نورابي أو ساتجاها مفريد، وكان يقودنا الأداء

المحس والذين كانوا راسفين في القيود حتى لا يفروا. وفي العاشر من الشهر استؤنف الزحف صوب المحطة السادسة (قلبين حار) وهنا تم القبض على احدى نساء البقارة والتي أخبرت بأن البلك باشي الذي هرب من الجيش في زريقة قد انضم إلى الأمير أبو قرجة، والذي كان يجوب المنطقة لتجنيد البقارة الجوامعة. وقد سلمت هذه المرأة خطابات تدعو القبائل للالتحاق بقوات الحكومة ثم أطلقوا سراحها.

وفي الحادي عشر من أكتوبر توجه الجيش نحو عجيلة. وأثناء الطريق أمسك الثوار بثلاثة من الجمال التي كانت وراء الجيش وقتل قائد الجمل ومن ثم تأكد لأول مرة بأن مجموعة من الثوار تتابع تحرك الجيش وتسير على أثره. وهنا تم هجوم على بعض رجال قلاوي بك*، الذين كانوا يجمعون الحطب وقتل منهم رجلان. فقام هكس باشا بانتداب ألف جندي مع ثلاثة مدافع لمواجهةهم لكن الثوار تراجعوا عندما شاهدوهم. في تلك الليلة أمطرت السماء بغزارة وسمعنا صوت رصاص بالقرب منا. أصاب الرعب كل الجيش وشرع في إطلاق النار لمدة نصف ساعة بدون أن نشاهد أي شيء.

وفي الرابع عشر من أكتوبر وصل الجيش إلى شركيلا والتقينا هناك برجل تظاهر بأنه أبكم وأصم ولذا تم إطلاق النار عليه بواسطة جنود الطليعة الذين أسروه. بعد أن لم يدلي إليهم بأي شيء. غضب هكس باشا جداً لهذه العملية وأمر بأن يتم إحضار كل الأسرى في المستقبل أمامه.

وفي اليوم التالي، وأثناء توجهنا نحو جوهان حدث إشتباك بين الفرسان غير النظاميين في ميسرة الجيش من الخلف وبين مجموعة من العدو. وقد نجح العرب في أسر ثمانية عشر حصاناً. وعندما تم تدعيم القوة أرغم العرب على الفرار وتم استعادة حصاتين من التي سلبت. وهنا ثار الخلاف مرة أخرى بين هكس باشا وعلاء الدين باشا حول وضع الجنود غير النظاميين. فقد أراد هكس إبقائهم داخل المربع، فقد كانوا غير موثوق بهم. أما علاء الدين فقد كان قد أبقاهم على الأجنحة بدون أمر من هكس باشا. وأخيراً تم الاتفاق على أن يكونوا بالقرب من المربع ولكن ليس بداخله.

ومكث الجيش هنا ليومين وتحرك في السابع عشر ثم عند حلول الليل بات في الصحراء وتقدم صبيحة اليوم التالي صوب عبلي. ومن هذا المكان غادرنا أثنان من الشيوخ اللذان رافقنا من الخرطوم، وكنا من أبناء هذه المنطقة، لحشد بعض رجال قبيلتهم لدعمنا ووعدا بأن يقابل الجيش ثانية عند الرهد ومعهم من جمعوه من الرجال.

وكان الدليل كوة منتمياً لقبيلة أولئك الشيوخ. وفي اليوم التالي تحركنا نحو البلياب ومررنا خلال غابة واسعة. لكن الدليل ضل الطريق لذا أقمنا معسكرنا فوق أحد التلال ثم وصلنا البلياب صباح اليوم التالي. ثم تقدمنا نحو أم شيخ والتي بها خور كبير. وقد شاهدنا على الجانب الآخر من الخور فرقة من جنود العدو معسكرة فيه وتبادلنا معهم إطلاق النار ثم رميناهم بالصواريخ.

وفي العشرين توجهنا نحو بركة الرهد. وعندما غادر أخرجنا المعسكر شاهدنا جنود العدو يدخلونه. أطلقنا عليهم قذيفة من أحد مدافعنا ثم استأنفنا السير ووصلنا عند الظهر إلى الرهد. أقمنا زريبة كبيرة وحفرنا خندقاً حولها ودخل كل الجيش في الزريبة. وفي ذلك اليوم كان خادم لأحد

* قلاوي بك هو أحد قطاع الطرق، ومن تجار الرقيق، والذي كان قد ساعد جسي كثيراً من قبل. وقد رافق حملة هكس باشا مع خمسين من رجاله. وقد كان في نية الحاكم العام تعيينه مديراً لبحر الغزال بعد إعادة إحتلال الأبيض.

الضباط الأوروبيين، يسمى كلوتز.* يجمع الحطب من خارج الزريبة فأسرته طالع قوات العدو. وسمعت فيما بعد بأنه أرسل للأبيض وأصبح من المهدويين وتم تغيير اسمه لمصطفى.

وظن هكس باشا بأنهم قد ضلوا الطريق فقام بإرسال مجاميع من الخيالة إلى كافة الاتجاهات ولكن بدون أي نجاح. مكتناً بالرهدة لستة أيام. وكنا في اليوم الخامس قد شاهدنا مجموعة من العرب، على الجانب المقابل للبركة، يلوحون بأعلام بيضاء. وظن علاء الدين باشا بأنهم قد يكونون الرجال الذين وعد الشيخان بإحضارهم كما اتفق من قبل. لذا قام بربط منديل على طرف عصا. لكن العرب لم يلتفتوا إليه، بل أخذوا بعض الماء من البركة وذهبوا بعيداً. أرسل هكس باشا وراءهم فصيلة من خمسين فارساً ولكنهم، بعد برهة قصيرة، شاهدوا عدداً كبيراً من رجال العدو متعسكين تحت ظلال الأشجار*.

لكننا سترجع للحظة لخطط وتحركات المهدي: وهنا سنجد أن ما أورده كبير الكتبة (الباشكاتب) حسن أفندي حبشي مثير للاهتمام لأنه مطابق تماماً لما ذكره البارودي في التقرير السابق. فقد أرغم حسن حبشي، وهو موظف حكومي في الأبيض قبل سقوطها، على الانضمام للثوار بعد سقوط المدينة وأصبح كبيراً لكتبة الأمير عبد الحليم واستمر في خدمته حتى أغسطس ١٨٨٩، وقبل بضعة أيام من معركة توشكي فر هارباً وقدم معلومات هامة للجنرال قرنفل عن قوة ود النجومي وتحركات جيشه وأثبت أنه ذو فائدة عظيمة خلال العمليات الأخيرة على النيل.

فلقد ذكر بأن محمد أحمد، عند ما سمع بتحريك جيش هكس باشا من الخرطوم، قد قام بإرسال جواسيس لمراقبة تحركات الجيش الزاحف نحوه. وعندما علم بقدومه إلى الدويم، وأنه ينتوي التقدم نحو الأبيض فقد قام بإرسال قوة من ٣٠٠٠ رجل بقيادة الأمير عبد الحليم والأمير أبو قرجة للمتابعة للصيقة لمؤخرة الجيش المصري ولردم الآبار عقب مرورهم حتى يجعلوا من إنسحابهم شيئاً مستحيلاً. وقد صاحب حسن حبشي قوات عبد الحليم والتي شاهدت جيش هكس باشا لأول مرة بالقرب من أبو قوي في بلاد البقارة الجوامعة عندما كانوا يجمعون الرجال من القبائل لتدعيم قواتهم. ومن هنا قام (الأمير) عبد الحليم بإرسال حسن حبشي للأبيض لاستفسار المهدي إن كان عليه أن يهاجم الجيش. لكن جاء الرد لعبد الحليم بأن لا يقوم بأي هجوم مهما كانت الأسباب، وإنما عليه متابعة الجيش حتى الرهد حيث سيتسلم هناك تعليمات واضحة وشاملة (بما عليه القيام به). لكن حبشي لم يكن من حمل هذا الرد، فقد بقي في الأبيض. وفي تلك الأثناء كان أبو قرجة قد تمكن من جمع عدة آلاف من البقارة الجوامعة بقيادة شيخهم عساكر أبو كلام* وقام، بصحبة عبد الحليم، بمتابعة جيش هكس باشا حتى الرهد، وكانوا يحتلون المعسكرات التي يخليها الجيش (أثناء تحركه غرباً).

وعندما وصل عبد الحليم للرهد ركب في الحال للأبيض وأخبر المهدي بنفسه عن مدى قوة الجيش المصري والتحركات المحتملة له. وعندما تسلم محمد أحمد هذا التقرير قام بإرسال كل

* أدولف كلوتز. كان رقيباً سابقاً بالجيش البروسي ومن بعدها أصبح خادماً للميجر سكندورف.

* خلط ونجت بين الجوامعة بوسط كردفان (جماعة المنا إسماعيل) وبين قبيلة الجمع القريبة من النيل الأبيض نسبياً والتي كان يقودها عساكر أبو كلام (العرب).

رجالہ المحاربين نحو الرهد للاضمام لقوات عبد الحلیم، وقابلوا أثناء الطريق الأمير عبد الحلیم راجعاً من علوبة. وعندما إتضموا له بلغ مجموع القوات حوالي أربعين ألف ثائر. وقد عسكروا في غابة شيكان التي تبعد بحوالي ثمانية وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من علوبة. وهنا مكثوا في إنتظار قدوم الجيش المصري. أما الخدم والأتباع والنساء والأطفال، الذين جاءوا مع العرب من الأبيض، فقد توجهوا نحو البركة.

وفي تلك الأثناء (تستمر في إفادة البارودي)، وبعد توقف لستة أيام في الرهد، تقدمنا في السادس والعشرين من أكتوبر نحو الجانب الغربي للبركة، حيث شوهد العرب وهم يأخذون الماء، وعندما نظرنا خلفنا نحو معسكرنا السابق وجدنا أن العدو قد احتله من قبل. فتحنا عليهم النار وتراجع العرب مرة أخرى. وفي اليوم التالي (٢٧) سرنا لمسافة قصيرة، حوالي خمسة أميال، أما في الثامن والعشرين فقد صدرت الأوامر بالتوقف في مكان يبعد ثمانية أميال من علوبة.

وفي تلك الليلة وجد أحد التجار الأغنياء، ويدعي عبد الرحمن أبو النجا يكتب خطاباً لوالده، الذي كان يعرف أنه مع الثوار، يسأله النصيح إن كان له أن يهجر الجيش. وعندما إكتشف هكس هذا الأمر استدعي مجلساً للضباط حيث تقرر نزع سلاح كل المدنيين المرافقين للقوة. وكان من بين الذين (نزع سلاحهم) قناوي بك وحمد بك التلب وبساطي بك ودكتور جورجس بك ومحمد بك أحمداتي (المدير السابق للخرطوم).

ومن هذه المحطة تم إرسال الدليل، شيخ محمد، وهو أحد مواطني جبل الدابير، بصحبة خادمه الأسود كوة، إلى الأبيض ليحاول الكشف عن مدى قوة جيش العدو هناك. وصبيحة اليوم التالي (١٠/٢٩) وصل الجيش إلى علوبة. كانت القرية مهجورة لكن المياه بها متوفرة بغزارة. وتقرر أن يبقى الجيش بها حتى حضور الجواسيس وعودتهم لهم. وقد شوهدت قوة للعدو بين الأشجار على مسافة غير بعيدة وسرعان ما تم بناء زريبة، بينما أرسلت قوة كبيرة من الجيش لطرد العرب. وقد نجحوا في طردهم ولم يشاهدوا مرة أخرى لمدة خمسة أيام. وتم إرسال دليلين أحدهما كنزي والآخر بقاري باتجاه البركة لمعرفة قوة العدو هناك. وفي اليوم الرابع من مكوثنا بعلوبة عاد الخادم الأسود، الذي كان قد ذهب مع سيده للأبيض، حاملاً الرسالة التالية من المهدي إلى هكس وعلاء الدين وآخرين، مع بضع آلاف من قطع صغيرة من الورق كتب عليها اسم المهدي مع حث الجميع لإتباع الدين الصحيح. وقد وجه الدليل لتوزيع هذه المنشورات حول المعسكر لكن علاء الدين باشا قام بجمعها وحرقها.

وجاء الخطاب إلى هكس ولآخرين كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن عبد ربه الفقير المعتم على مولاه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل.

* يقول الدكتور أبو سليم (الآثار - الجزء الأول صفحة ٤٠٤) في الواقع أن المهدي لم يكتب إلا خطاباً معنوناً (لأهل الجردة ممن له عقل) وأنه لم يكتب لهكس مباشرة بل عنون بعض نسخ هذا المنشور - كما يحسب - لهكس وكبار أعوانه ووجه بقية النسخ للعموم (المعرب)

فأنه لا يخفي على ذي عقل أن الأمر بيد الله ولا يشركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ. ولا عصمة لأحد إلا من عصمه الله.

فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن الله واحد فلا تغتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التي تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله، فإنه لا قوة لشيء دون الله. وإن قلتم أن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن التكذيب إنما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخلوق** ويستعجز قدرة الله. فإذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم. فإن الترك الذين قتلهم شكوا للحق عز وجل وقالوا: يا إلهنا ويا مولانا، إن الإمام المهدي قتلنا من غير إنذار" فأقول أنذرتهم يارب قلم يسمعون. وحضر على ذلك شاهداً سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم: الإمام المهدي أنذركم فلم تسمعوا له وسمعتم قول علمائكم فذنبتكم عليكم. فأقبلوا على بعضهم بعضاً يتلاومون. فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين. وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى*** بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. فإن كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقون لمهديتنا وتخرجوا إلينا مسلمين. ومن سلم يسلم وإن أبيتم إلا الجحور والاخترار بالمدايق والبارود فأنتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وأسوتكم ما سبقكم من الجنود والسلام.

وقد ذكر الدليل بأن شيخ محمد قد قتل بأمر من المهدي، والذي كان قد أرسل قواته للبركة وبعدها سار على أثرهم.

وبعد وقت قصير رجع بقية الأدلاء المرشدين وأكدوا تلك الأنباء.

وقد كانت نيتهم الأصلية هي الزحف نحو الأبيض عن طريق البركة لكنهم لما علموا بأن المهدي موجود بالبركة مع قوة ضخمة من أتباعه، تشاور هكس مع علاء الدين إن كان من الأفضل العودة إلى الرهد ومن ثم التحرك نحو الأبيض عن طريق وادي كاشقيل ومنها إلى ملبس.

ثم استدعاء المرشدين الأدلاء. وقد نصحهم كوة، والذي أظهر معرفة جيدة بالطرق المختلفة، بأنه بدلاً عن الرجوع إلى الرهد فإن عليهم الاندفاع مباشرة نحو كاشقيل ومنها للأبيض بعد حمل مؤونة يومين من مياه علوية. لكن بقية الأدلاء، الذين تأثروا بأفكار قساوي بك والذين كانوا على جهل كبير، فقد أشاروا بأن ينقسم الجيش إلى قسمين. يتوجه قسم منه حسبما أشار كوة بينما يعود الآخر إلى الرهد ومنها إلى هدفه عن طريق ملبس. وقد كان علاء الدين باشا مؤيداً لهذا الاقتراح لكن هكس باشا صمم بقوة على عدم تقسيم الجيش. وبعد نقاش طويل تقرر العمل باقتراحات كوة* وبالتالي وفي صبيحة السبت الثالث من نوفمبر تقدم الجيش من علوية باتجاه كاشقيل وبعد مسيرة عشرة أميال خلال غابة كثيفة توقف وتم إقامة زريبة. وبمجرد حلول الليل قام العدو بإطلاق بعض النيران بعدها صدرت الأوامر بإطفاء كل الأنوار. وفي اليوم التالي (الأحد) استؤنف الزحف

** جاء في ونجت (ويخاف (الخالق). وقد صححناه (المغرب).

*** استبدل ونجت عبارة (صددناكم عن الهدى، وهي آية قرآنية، بجملة (صددناكم عن المهدي) وقد صححنا العبارة من المانورات، الجزء الأول صفحة ٤٠٥ (المغرب).

* كان كوة من عرب قبيلة الغديات، والتي انضم معظمها للمهدي. لذا فإن من المحتمل جداً أن تكون نصائحه تلك ناجمة عن خيائنه وبنية إلقاء الجيش في قبضة المهدي. وقد هرب بالفعل فور بدء معركة شيكان وانضم لقوات الثوار.

باتجاه غابة شيكان. وقبل مرور ساعة قام العرب فجأة بالهجوم على المربع من الخلف. في ذلك الوقت كان بالمؤخرة الكتيبة رقم ١٤ أما الكتيبة الأولى فكانت في مقدمة المربع والكتيبة الثانية والثالثة كانتا على اليمين واليسار. أما كل المخزونات والذخائر فقد احتفظ بها في وسط المربع. تمكن قلة من العرب من اختراق المربع لكن الكتيبة الأولى استدارت لنجدة الكتيبة الرابعة ونجحت في طردهم تاركين أربعة منهم قتلوا بداخل المربع ومن بينهم فوزي أفندي، كاتب المهدي، والذي كان من قبل موظفاً حكومياً بالأبيض، وقد تم التعرف عليه. وقد قتل من الجيش رجب بك قائد الكتيبة الرابعة وبعضاً من جنوده مثلما قتل عدد من الجمال. لكن الأخطر من ذلك هو أن كثيراً من الجمال التي تحمل قرب المياه قد سقطت خارج المربع وقد منعت نيران العدو الحامية أي محاولة لاستنقاذ قرب المياه واستعادتها.

وقد توقف الجيش الآن في مكانه، وطبقاً للمرشدين فإن شيكان كانت على مسافة ميلين فقط عنهم. تم إنشاء زريبة وأنضح الآن أن للعدو قوات ضخمة من حولهم.

تجمع كل التجار في خيمة علاء الدين باشا وسألوه عما ينوي القيام به بعد هذا. قام علاء الدين بإرسالها إلى هكس والذي أعادهم بدوره إلى علاء الدين. لكنهم بدلاً من رجوعهم إليه رفعوا أصواتهم منتمدين من سوء المعاملة التي يجنونها وقالوا أنهم بصراحة قد أحضروا هنا ليقتلوا. أثناء ذلك استمر العدو في إطلاق نيرانه نحو الزريبة مستراً بالأشجار. وهنا جرح الدكتور جيورجس في بدنه ومات بعد نصف ساعة.

استدعى هكس باشا كل قائده من الضباط والتجار وغيرهم لمناقشة الوضع. وسألهم إن كان لديهم أي مقترحات. لكن أحداً منهم لم يتفوه بكلمة. ثم سأل قناوي بك عما تبقى من الذخيرة وأنضح أن كل رجل سيكون لديه ٢٤٠ طلقة. لكنه قال بأن هذه الكمية غير كافية حيث عليهم شق طريقهم بالقوة نحو الأبيض. على بعد ثلاثين ميلاً. وعندما سمع التجار بهذا اضطربوا وإقترح بعضهم الوصول إلى كاشقيل بالقوة، بينما توسل البعض الآخر بأنه يمكن التراجع والانسحاب إلى علوبة. اضطر هكس باشا لإنهاء الاجتماع وطلب منهم التفكير في الأمر وأن يعودوا في المساء لإخطاره بما يتفقون عليه. رجع التجار إلى خيمة قناوي بك. وبناء على نصيحته قرروا أن يحاولوا الإستيلاء على بعض الأسلحة التي كانت قد أخذت منهم وأنهم، تحت قيادة قناوي بك، سيخرجون من الزريبة متسللين ليعودوا من حيث أتوا. تم تنفيذ هذا القرار صبيحة اليوم التالي. لكن أحد التجار المدعو بساطي بك كان قد حذر علاء الدين باشا قبلها بما سيقومون به. وعندما وصل الخبر لمسامع هكس باشا قام بإرسال أحد ضباط أركانه الإنجليز لإرجاعهم. وقد نجح الأخير في إرجاع قناوي بك لكن بقية رجاله، وعددهم خمسين رجلاً، رفضوا الرجوع* قرر هكس باشا أن يعاود الزحف. وفي العاشرة من صباح الإثنين الخامس من نوفمبر خرجت القوات من الزريبة وشكلت ثلاثة مربعات كالمثلث. كان كل مربع يضع نخائره وجماله وأحماله في الوسط. وقاد هكس باشا مع رجال أركانه الطريق ومن ورائه أربعة مدافع وبعدهم المربع الأول والذي يدعمه من اليمين ومن الشمال المربعين الآخرين. وكان كل منهم يبعد عن الآخر بثلاثمائة ياردة. قاد علاء الدين باشا المربع الأيمن وقاد سليم بك المربع الأيسر. وكانت الفرسان تحمي الأجانب كما أن فصيلة من الخيالة كانت تحرس المؤخرة.

* ربما كان هذا الحادث هو أساس التكثير، الذي ظلوا لزمان طويل يعتقدون في صحته، بأن قسماً كبيراً من الجيش قد انفصل عن الجسم الرئيسي وأنه قد هرب خلال المناطق الجبلية متوجهاً للجنوب.

وبهذا التشكيل تقدمت الحملة بانتظام. وبعد نصف ساعة وصلت إلى وادي شبه مفتوح تنتثر عليه هنا وهناك بعض الشجيرات. أما على الجانب الآخر فكانت هناك غابة كثيفة الأشجار مليئة بالقوات الثائرة.

ولند الآن قليلاً لنرى تحركات محمد أحمد. فعندما علم من جواسيسه بأن هكس قد قرر التوجه نحو كاشقيل، قام بإرسال الأمير أبو عنجة، مع معظم مقاتليه، غلي شيكان، التي تبعد بستة أميال شمال البركة (وقد قام هذا الأمير بهجوم الرابع من نوفمبر). أما محمد أحمد، ومعه ما تبقى من قواته، ومصحوباً بالخلفاء عبد الله التعايشي وعلي ود حلو ومحمد شريف وبالأمرء يعقوب (أخو عبد الله) وآدم وود النجومي، فقد توجهوا نحو الوادي، والذي لابد أن يمر به الجيش، وأضفوا أنفسهم على جانبي الغابة بينما أختفى قليل منهم بداخل منخفض ملئ بالأشجار في وسط السهل، والذي تشير كل الاحتمالات على أن قوات الجيش ستمر من خلاله.

تم إرسال النجومي مع قواته ليقود الهجوم بينما كلف أبو قرجه وعبد الحليم، اللذان لم يتوقفا أبداً عن هرس مؤخرة الجيش التص الحظ، بمهاجمة المؤخرة.

صار كل شيء جاهزاً. ومكث محمد أحمد، في صبر شديد، في انتظار قدوم الجيش. والذي لاحقت مقدمته في الأفق. استدعى أمراءه لتسليمهم أوامره النهائية ثم نهض من صلته وجرد سيفه وكبر الله مرات ثلاث وقال لهم: "عليكم ألا تخشوا شيئاً لأن النصر لنا".

ثم وصلت المربعات الثلاثة: وصل الأول على المنخفض المليء بالأشجار فقفر العرب، وهم يصيحون بوحشية، نحوه. فوجئ المربع وامتلاً رعباً وسرعان ما تحطم المربع في لحظات. قامت مربعات الجناحين بإطلاق النار بجنون على العرب الذين كانوا يحاربون المصريين يداً بيد ولا بد أن نارهم هذه قد قتلت عدداً من رفاقهم. وفي نفس الوقت تقريباً قام العرب بهجوم من داخل الغابة على جانبي المربعات وعلى المؤخرة. وتلى ذلك مشهد لفوضى عظيمة. فقد كانت المربعات تطلق نيرانها على بعضها البعض. على الصديق وعلى العدو. وبينما كانت أمواج العرب الهادرة المتدفقة قد أطبقت الآن تماماً على قوات الجيش وأحاطت بها (قافلة أي سبيل للنجاة أمامها). بدأت مذبحة مريعة لا يمكن وصفها وفي أقل من ربع ساعة كان كل شيء قد أنتهى.

ولما رأي هكس باشا وأركانته أنه ليس بوسعهم عمل أي شيء، فقد اتخذ طريقه نحو اليسار ووصل إلى أرض مزروعة حيث أحاط به بعض فرسان البقارة. ولوقت ما استطاع إيقافهم، فقد قاتل ببسالة حتى فرغت ذخيرة مسدسه ثم عمل بسيفه فيهم وقتل منهم عدداً من المحاربين. لقد كان هكس آخر من سقط من الأوروبيين ولا زالت إحدى هجماته الشرسة التي شنّها على المغيرين عليه محفوظة في ذاكرة السودانيين إلى يومنا هذا حتى أن البقارة الذين هربوا أمام هجمته الرهيبة عليهم أسماء أفراد قبيلتهم (بيقر هكس)، أي أنه طردهم كالبقر من أمامه. لكنه سقط أخيراً بعد أن اخترقته حربة رماها عليه الخليفة شريف* قاتل حرسه الشخصي من الفرسان ببسالة. ورغم النداءات

* أقيم مسجد صغير على البقعة التي رجع فيها المهدي للصلاة (المؤلف).

* ساد هذا الاعتقاد حيناً من الدهر. رغم معارضة الكثيرين له. وربما كان ذلك سبب الانتقام الذي من الخليفة شريف بالشكابة. بعد ستة عشر عاماً من مقتل هكس (المعرب).

المتكررة لهم بالإستسلام إلا أنهم أجابوا: " لن نستسلم أبداً، لكننا سنموت مثلاً مات ضباطنا بعد أن نقتل منكم عدداً مثلهم" وسرعان ما قتلوا جميعاً.

أما علاء الدين فقد قتل أثناء محاولته اتخاذ طريقه من يمين المربع للحاق بهكس باشا. وسقط قتلاوي بك وسط المربع بجانب حصانه. وقد قيل بأنه عندما سقط مضرباً بجراحه المميتة تمكن من قطع عرقوب حصانه بسيفه قائلاً: "كن يركبك أحد من بعدي أبداً".

تم تدمير كل الحملة ما عدا حوالي ٣٠٠ سقطوا جرحي. أما من الثوار فلم يقتل أكثر من ٥٠٠ رجل وعادت كل قواتهم. وقد إنتشت بخمر النصر. وبعد أن حملت كل ما أمكنها من الغنائم والمنهوبات من كافة الأنواع، إلى مختلف مضاربها وعاد مع المهدي إلى الأبيض نحواً من ١٢٠٠٠ رجل منهم. وكان من بين الأسري عبد الرحمن باتقا وإثنين من المرشدين المحس ".... انتهى.

إنتشرت أنباء إنتصار المهدي إلى كافة الأصقاع. وإذا ما كانت هناك أي شكوك من قبل، سابقة لما وصف الآن بالمعجزة بعد إبادته لجيش كامل، فقد زالت سريعاً الآن. وعم الاعتقاد بظهور المهدي الحق كافة المناطق، من نقلا إلى خط الاستواء، ومن البحر الأحمر إلى تخوم وادي، ولم يعد هناك شك فيه.

أما في القاهرة، التي حدثت تلك المذبحة المذهلة بعيداً جداً عنها، فلم يستوعب حكامها ما حدث أو يقتنعوا بصحته. فقد دبح للوزراء المصريون مذكرة يقولون فيها بأنه لتمكين السيطرة المصرية على السودان فأنهم يحتاجون، مؤقتاً، لإستخدام عشرة ألف من الجنود. لكن المستشارين الأوروبيين الذين معهم ملأوا أسماعهم بأخبار الحدث وصحته التامة ونصحوهم بإخلاء السودان على الفور*

وتأييداً لما سبق سرده فإن الملخص التالي، الذي أخذ من خطاب أرسله مدير الخرطوم، مع بعض الإيضاحات، إلي الجنرال غردون، له دلالة مثيرة للإهتمام:

الملحق (ف) (من يوميات الجنرال غردون) (شخصي)

من مدير الخرطوم إلى الحاكم العام للسودان

وضع هذا التقرير حسين باشا، مدير الخرطوم، عندما كان بالقرب من علوبة في كردفان. وظل يتنقل من يد إلى يد بين الثوار حتى علمنا بوجوده. بحثنا عنه حتى تسلمنا النسخة التالية التي أنقلها لكم كما هي:

"ففي يوم السبت، الثاني من محرم ١٣٠١هـ (٣ نوفمبر ١٨٨٣) إكتمل وصول مفرزات الجيش إلى ضواحي علوبة، الواقعة على القرب من رئاسة الحكومة في كردفان، بمشيئة الله.

* لقد جاء للتأييد لما سبق ذكره في المرد السابق عن الإهانة الكاملة للجيش المصري بقيادة هكس باشا في إهانة الصاغ محمود عبد الله المحلاوي، والذي كان موظفاً سابقاً في مديرية بحر الغزال، والذي تم إرساله بعد سقوطها، مع لبتن بك، إلى الأبيض. وبعد وصوله لها، بعد حوالي ستة أشهر من معركة شيكان، أمره المهدي بالذهاب لمكان الموقعة، بصحبة لبتن بك، وعابئة المكان. وقد جاء وصله مطبقاً، في كافة الجوانب، مع إهانة البارودي. وقد قيل بأن لبتن بك قد رسم تخطيطاً للموقع، لكنه، ولأنه مات بعد ذلك، فلن من غير المحتمل أن يكون ذلك الرسم محفوظاً حتى الآن.

وبالتفتيش عليهم (على القوات) أتضح بأنهم عانوا من العطش الشديد لأنهم لم يجدوا ما يكفي الجيش من المياه لشربه بسبب من فقدان الدليل، الذي كان معيناً للقيام بقيادتنا في الطريق الصحيح، قبل ستة أيام، وبسبب الجهل التام للأماكن التي قد توجد بها المياه.

ترتب على ذلك اضطراب شديد في المربع لدرجة وصلت الفوضى فيها أن الجنود لم يستطيعوا التعرف على فرقهم وحتى الضباط لم يعرفوا رجالهم. حتى حيوانات النقل تبعثرت - وأعني بأنها تشتتت فرادي - بدون أي سيطرة عليها. من هنا أمر المسيو هكس، قائد التجريدة، الضباط والجنود للتجمع حسب النظم. لكن، ولأن أحد كبار الضباط بالحملة رفض ذلك الأمر فقد أحال الأمر لعلاء الدين باشا حتى يعيد الإضباط والنظام بين القوات. لكن معاليه أجابه بأنه هو نفسه القائد والمسئول. وترتب على هذا التصرف ضعف وشلل عام.

إلتقينا ببعض القوات وقد أحيط بنا في مكان واحد وعلى حسب ما سبق أن قلته -- ولقد كان أي مياه حتى يوم الأحد. لأننا لم نجد ما يكفينا حتى ذلك الوقت - أصبح من المستحيل النجاة من التدمير والهلاك.

ولكن: أوه! وما حسرتاه على السلطات الحكومية والمسئولين الذين هم بمنأى عن الخطر. فإذا ما شاعت إرادة الله القدير أن نموت - الموت الذي تأخر حتى الآن - فإن السبب هو من العطش وليس لشيء آخر.

أنني، كاتب هذا التقرير، أدعي حسين باشا، المدير، والموظف في إدارة الشؤون المدنية بالحكومة وأنا من أهالي مصر. من الذين تدرجوا في الرتب منذ أن كنت جندياً. وأنتي أستحلفكم بالله، بأن على من يرى خطابي هذا، إن كنتم تؤمنون بالله وبرسوله، أن تجعلوا ما جاء فيه معلوماً لـدي السلطات الحكومية.

فلتكن مشيئة الله. حيث لا مهرب من إرادة الله الذي يسمع ويعلم كل شيء. أطل الله عمرك.

كتب بالجمعة ١٩ / ٩ / ١٨٨٤.

الساعة الثامنة و ١٢ دقيقة

ملحق القسم الرابع (مسار حملة هكس)

عندما كان هكس يشق طريقه وسط أحرار كردفان، كان أحد أشهر تجار الرقيق محاصراً لسواكن وللحاميات المجاورة لها في طوكر وسنكات. كان هذا الرجل المشهور هو عثمان دقنة. كان من أصل تركي، فلقد جاء أسلافه من القسطنطينية قبل ٣٠٠ عام وتزوجت أسرته مع قبيلة الهدندوة واتخذ عثمان جنسيتهم. وعاش هو وأخوه أحمد لعدة سنوات يعملون في التجارة وفي تجارة الرقيق في سواكن وكان من عاداته التوغل في قلب السودان من أجل تجارته. ولكن المعاهدة المصرية الإنجليزية كانت عائقاً خطيراً لتجارة الرقيق، وفي عام ١٨٨٢ توجه عثمان إلى الخرطوم ومنها إلى كردفان حيث ألقى بثقله مع المهدي، والذي نصبه أميراً عام ١٨٨٣. من ثم أرسله المهدي إلى شرق السودان بمنشور هذا نصه:

”من محمد المهدي إلى كافة أحبائه، المؤمنين بالله وكتابه أعلموا أيها الأحباب أن الخير كله في طاعة الله وفي السير على درب الذين هداهم الله.....**
والسعيد من إتبع بغيره والأحقق من اتبع نفسه في هواه.....

هذا وقد أظهر الله هذا الدين..... وجعل عزه في الجهاد. فمن أخذ من حظه في زمانه كان كمن شاهده كله وشارك من مضي قبله من الغزاة. ومن تباطأ عنه في زمانه فقد شارك المتخلفين عن رسول الله في إثمهم وعارهم (وهنا وردت عدة آيات من القرآن ومن الحديث)..... فلماذا التخلف والقفود عن طاعة الملك لمعبود؟..... ألم تروا كيف انتصرت علي الترك والكفار..... والذين حرقت النار أجسادهم من طعنات الحراب؟.....

أنه أمر خادق للعادة وفيه عبرة لمن يعتبر..... (وهي مثل كرامات الأنبياء)، مع ما عند الترك من القوة العددية والأسلحة النارية والمواقع الحصينة لكنهم لم يهزموا فقط بل دمروا تدميراً. وما سبب دمارهم إلا لأنني هدي من الله وقد خلفني الرسول بالمهدية وأجلسني عدة مرات في كرسية بحضرة الخلفاء والأقطاب* والخضر. وأيدني الله بالملائكة المقربين** وبالأولياء جميعاً من لدن آدم إلى زماننا هذا..... وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام جيش سيد الوجود (ومن ذكرت من قبل). وقد أثنائي سيف النصر من حضرته وأعلمت أنه لا ينصر علي معه أحد ولو كان الثقليين الجن والإنس. وأخبرني الرسول بأن الله قد وضع شامة على خدي الأيمن علامة على أنني المهدي وكذلك جعل لي علامة أخرى هي راية من نور يحملها عزرائيل (ملك الموت) والذي يمشي

* النص الكامل في (الآثار) الجزء الأول برقم ١٠٩ صفحة ٣٠٩. وقد عدل مترجمونا ونجت بعض العبارات وحذفوا كثيراً من الآيات والأحاديث الواردة في الأصل (المعرب).

** النقط تعني ترك المؤلف سطر أو عدة سطور (المعرب).

* بدلاً عن (الأقطاب) كتب المترجم (الأنبياء) وقد صححناه (المعرب).

** جاء في الترجمة خطأ أن الملائكة كانوا حاضرين جلسة التنصيب (المعرب).

معي ساعة الحرب..... وبهذا قد حصل الظفر التام والفتح العام لجميع كردفان ونواحيها..... وسيعم الفتح إنشاء الله بلادكم وجميع الأرض..... ويسلمون لي ويقرون بأنني علي المهدي الحق. فالويل لمن لا يصدق بمهديتي لأنهم سيدمزون فلماذا لم تبادرُوا بالهجرة لنا عندما سمعتم عني وذلك نصرة للدين؟ هل خشيتم سطوة الترك وقوتهم؟ أما تعلمون بأن جيوشهم لابد أن تسقط في يدي وأن جموع الكفار مكسرة! أما تعلمون بأنني المهدي المنتظر؟ أولاً تصدقون قول البشارات التي جاءت عني؟ (ثم تلي ذلك عدة آيات من القرآن .. الخ). فإذا فهمتم ما ذكرنا فأعلموا أنني قد جلستكم بأمر من الله ورسوله فأطيعوا أمري. وأخبرني سيد الوجود أن من شك في مهديتي كفر بالله ورسوله. هكذا بلفظه الشريف وكررها ثلاثة مرات. وأني من نسل الرسول من جهة أبي (لأمه وأبيه) وأن والد أمي وأمها من العباسيين. قلنا من نسل الحسين. لقد هاجرت إلى ماسا بجبل قدير بأمر من الرسول. وبأمره أيضاً حضرت لكردفان وكاتبته الجهات منها كذلك ومن الجملة أنتم. فإذا بلغكم جوابي هذا فدعوا طاعة الترك (فوراً) ولا تترددوا في هجر الأموال والأولاد. بل هاجروا ولو لأقرب بلد منكم وقتلوا الترك بكل ما لديكم من قوة (وهنا يكتب عدة آيات من القرآن)***

وإني موجه إليكم الشيخ عثمان دقنة، من سواكن، كأمير عليكم لأجل إقامة الدين فإذا حل بدياركم فاجتمعوا عليه وأطيعوا أوامره. وأخرجوا معه للغزو والجهاد وطهروا الأرض من الشرك والفساد* فقد خرج قبلكم رجال الله، بعد أن تركوا أوطانهم وأولادهم، لنصرة دين الله وتطهير البلاد من المشركين ولم يكتروا بالموت أو بالإرهاق.....** فهذا امتحان من الله لكم ليميز (الخبيث من الطيب). فمن أمتثل أمر الله رضي الله عنه*** ومن تخلف..... فالسيف من ورائه وهو أجره وجزاه..... (وميكون مصيركم مثل مصير الذين عصوا أمرنا من قبل).....* وعندما وصل عثمان إلى أركويت أرسل مصطفى هدل للاستيلاء على كسلا ينما تفرغ هو للمناطق المجاورة لسواكن.

وفي الخامس من أغسطس تم الهجوم على سنكات لكنه صد. وفي التاسع من سبتمبر هزم حاكمها توفيق بك العدو في هندوب على طريق أركويت. وفي السادس عشر من أكتوبر هوجمت تعزيزات مصرية، كانت في طريقها لسنكات، وفي ممر ضيق، بواسطة القبائل الثائرة وقد أبيدت القوة بأكملها ما عدا خمسة وعشرين منهم نجوا بأنفسهم. وبهذا قطعت سنكات تماماً عن سواكن. وجعل هذا النجاح الأخير عثمان دقنة يمتلئ بالثقة بعد أن كسب رجال القبائل لصفه. فتركهم يواصلون الحصار بينما إلتفت هو إلى طوكر والتي حوصرت تماماً الآن. وفي الرابع من نوفمبر تم إرسال قوة واهنة العزم من سواكن، مكونة من ٥٥٠ رجلاً بقيادة محمد باشا طاهر، قائد قوات شرق السودان، لفك الحصار عن ذلك المكان. غادروا سواكن في الثامنة صباحاً وما أن مرت ساعة حتى لاذوا بالفرار المهين أمام ١٥٠ من رجال عثمان دقنة، تاركين ١٤٨ من القتلى في الميدان، وعادوا لسواكن ناشرين فيها الرعب والهلع.

*** هي جزء من آية (قتلوا الذين يلونكم من الكفار) وليس عدة آيات (المعرب).

* استبدل كلمة الشرك (بالترك) - المعرب.

** هنا ترك الم. لف عدة. أسطر من الآيات الفرعية والنصائح والعتبات (المعرب).

*** استبدل المؤلف أمر الله بأمر المهدي (المعرب).

وفي تلك الكارثة فقد الكوماندو لندوخ مونكراف حياته مثلما فقداه هكس، قبله بيوم ،
ولنفس القضية، علي بعد ٦٠٠ ميل منه.

ثم تقرر الآن فتح طريق سواكن - بربر. وإذا ما كان لمصر أن يكون لها جيش أبدا فيجب
أن يتم تدريب رجاله على استخدام الأسلحة ولغرس الثقة في ضباطهم فيهم وذلك قبل أن يتم إرسالهم
للقتال في بلاد متوحشة من أجل أرواحهم.

ولم يكن بمقدور من جندهم السير إيفلين وود، قبل أحد عشر شهراً، للقيام بمثل تلك المهمة
كحملة بربر. لكن رجال الشرطة المكونة أساساً من قدامى المقاتلين، والذين يقودهم الجنرال فلاتين
بيكر باشا، صاحب النجاحات الجيدة في تركيا، كانوا ممثلين بالثقة تماماً.

وفي السادس والعشرين من نوفمبر قام صاحب السمو الخديوي باستعراض رجال الشرطة
الذين تم اختيارهم للخدمة في سواكن. وبعد الاستعراض قام الضباط الأتراك جميعهم بالتوجه إلى بيدر
باشا وأخطروه بفرضهم للذهاب معه. أجابهم بيدر بأنه سيتوجه بنفسه إلى هناك ونادي من يريد
التطوع أن ينضم إليه وسرعان ما لقي نداه استجابة طوعية فقد كان لبيدر اعتبار واحترام كبيرين.

وفي تلك الأثناء حدثت كارثة أخرى في سواكن. فقد واصل رجال عثمان دقة إتهاك المدينة
بهجماتهم الليلية اليومية وفي الثاني من ديسمبر تقدم قاسم أفندي بقوة من ٢٠٠ باشبوزوق و ٥٠٠
من السود لطرده العدو بعيداً عن المدينة. لكنهم هوجموا في ممر ضيق بالقرب من تماثيل. هرب
الباشبوزوق والتحقوا بالسود وهم في فزع رهيب لكن السود حاربوا حتى النهاية وتم تمزيقهم إرباً
من قبل ٣٠٠٠ من العرب.

وساد الهلع أرجاء سواكن. لكن بعضاً من الحظ الحسن، وسط هذه السلسلة من
الكوارث، جاءهم بوصول أول مفرزة من جنود بيدر باشا. وفي الوقت المناسب قبل سقوط المدينة
واستئصال سكانها.

تم إبعاد محمد باشا طاهر عن عمله كمدير وحل محله سليمان نيازي باشا، والذي، كما
تذكرون، كان قد أبعد من قبل من قيادة جيوش هكس حتى تؤول القيادة العليا للأخير.

كانت قوات بيدر باشا، عندما غادر القاهرة، مكونة من ٢٠٠٠ من المشاة و ٥٢٠ من
الفرسان إضافة إلى ١٠٠ متطوع أوروبي من قوات الشرطة. وكان من ضباطه الإنجليز الكولونيل
سارترويس والكابتن هارنغتون والكابتن هولرويد والكابتن جايلس وموريس بك والدكتور لسلي
والكابتن فورستير ووكر إضافة إلى أركان حربه الكولونيل هاي والكابتن هارفي. أما الكولونيل
بيرنابي فقد تطوع بنفسه للذهاب مع الحملة.

وفي يوم الميلاد استعرض الجنرال بيدر كل قواته بسواكن وفرض عليهم تدريباً صارماً
على الطوابير العسكرية استعداداً للمهمة الكبيرة الملقاة على عاتقه. وفي السابع عشر من يناير
١٨٨٤ وصلت الأخبار بإخلاء السودان فما لبث القاضي، وهو أكثر الرجال نفوذاً في سواكن، أن لحق
في الحال بعثمان دقة*

* هذا القاضي هو زوج أخت عثمان دقة.

التزم بيكر الآن بفك الحصار عن طوكر وإتقاذها من السقوط. فتحرك في الرابع من فبراير ١٨٨٤ من ترنكتات بعد أن شيد حصناً من قبل على مسافة ثلاثة أميال من مكان نزوله، وترك فيه ٣٠٠ من رجاله ثم زحف بقوة من ٣٧٠٠ رجل نحو طوكر هادفاً لإتقاذها. والتشكيل التالي هو الذي تحرك به:

* ثلاثة كتائب من المشاة، في صفوف متوازية مفصولة عن بعضها البعض ومتحركة من طوابير عسكرية.

* المدفعية والفرسان في المقدمة وعلي الأجناب.

* ديدباتات وفرسان على بعد ميل أمامهم

* بالمؤخرة جاءت الأحمال على ظهر ٣٠٠ بعير.

واشتبك الفرسان بمجموعة صغيرة من رجال العدو وشتتوهم. وعندما كانوا على مقربة من آبار النيب التفوا فجأة بعدد من حملة الرماح واضطروا للتراجع بينما تتبعهم حملة الرماح متابعة لصيقة.

حاول الجنرال بيكر تشكيل مربع عسكري، لكن كتّيبتين من المشاة الذين غمرهم الرعب والهلع رفضوا التحرك. وأخيراً تم تشكيل مربع لكن مؤخرتهم كانت في فوضى عارمة وفقدت السيطرة على الجمال والخيول والبغال. وفي خضم هذا الإضطراب زاد الفرسان المتراجعون الطين بلة باتدفاعهم مرتعين نحو المربع وأضافوا إليهم هلعاً بعد هلع.

واندفعت أعداد كبيرة من العدو، التي كانت مختفية بين الأشجار، نحو المربع العسكري فتحطمت الكتائب المصرية على الفور ودفعت الحيوانات إلى الوراء، حيث الجنود السودانيون غير النظاميين، وسرعان ما نفرط عقد النظام بين القوات.

وأصابهم رعب عظيم. وهربت القوات بعد أن ألقت سلاحها لكن عدداً منهم تجمع في حشد متدفق وسط الجمال والبغال والخيول المضطربة ولم يتمكنوا من إستخلاص أنفسهم من وسطها فذبحوا عن بكرة أبيهم دون إبداء أي مقاومة من جانبهم. أما الأوروبيون فقد قتل منهم أحد عشر بعد أن قاتلوا ببسالة وهم يحاولون لم شعث رجالهم. ولم يتبق من قوات بيكر باشا سوى ١٤٠٠ رجل تمكنوا من الوصول إلى ترنكتات وكان معظمهم بدون سلاح أو ملابس. ولما وجد بيكر أن أي محاولة للمقاومة هي في حكم المستحيل سعد هو ومن تبقي من جنوده إلى السفن التي أعادتهم لسواكن.

سقط في يد العرب أربعة من مدافع الكروب ومدفعي جاتلنج ونصف مليون رصاصة وثلاثة ألف بندقية وقربينة (بندقية قصيرة) رغم أن كل قوتهم لم تتجاوز ١٢٠٠ رجل.

وأصبحت سواكن الآن ولا يحميها سوى قوة صغيرة من الجنود الذين تدهورت مغوياتهم، مع مساعدة من رجال البحرية الحربية البريطانية بقيادة الأميرال هيوت.

أما في الجنوب، فقد كانت مدينة هرر، المحاطة بالأسوار، والواقعة وسط جنائن البن مثل جزيرة وسط بحر من قبائل العيسي والقادو برسى الصومالية من مربي الإبل، فقد كانت هائلة ورغم ما دار من بحث حول سحب حاميتها.

أما حصار كسلا الطويل، والذي امتد لعشرين شهراً، فقد بدأ في نوفمبر ١٨٨٣. وأقام مصطفى هدى، القائم بمقام عثمان دقنة، والمتحالف مع شيخ أحمد أبى شيخ موسى ومن معهم من الهندو* رناسته في فوقام على بعد أربعة ساعات إلى الشمال من كسلا. وكان مدير كسلا (وهي مدينة مسورة يقطنها ١٣٠٠ نسمة قد حصل على مساعدة من عرب بنى ريد في مبدأ الأمر وكدس كميات كبيرة من الذرة بها. وقام في يناير ١٨٨٤ بغارة خلال الإقليم الذي يقطنونه لكنهم وقعوا على مؤخرة جيشه ومزقوا ٩٠٠ من جنوده إرباً إرباً. أقفل الحاكم أبواب مدينته عليه وأعاد توزيع ١٨ مدفعاً جبلياً ومترليوز، وكان لديه ١٦٠٠ من الجنود النظاميين و ٢٣٠٠ من غير النظاميين إضافة على كميات كبيرة من المؤن والتي كانت تضاف إليها، من وقت لآخر، كميات أخرى يأتي بها إليه عرب الشكرية الأوفياء. وقد كانت هذه واحدة من حالتين، منذ سقوط أول حامية إلى سقوط آخرها، التي تلقى فيها المصريون أي مساعدة أو تعاطف من السودانيين. لكن الشكرية، في النهاية، لجأوا إلى بيع الذرة للمحاصرين (وجنى الأرباح منهم). لكن جمود الحكومة واستكاثتها أقتعتهم بأنهم إنما يدعمون الجانب الخاسر وأنهم لا يقومون إلا بجهود كيشوتية* لدعم قضية كان أصحابها الأصليون قد هجروها وبالتالي غيروا اتجاه ولاءهم، رغم أن ذلك قد يكون إسمياً أكثر منه واقعياً، نحو المد المتدفق العام للعرب المتعصبين. وهكذا بدأ عام ١٨٨٤ بداية سيلة لحامية كسلا. وفي هذا الوقت قدر أن لدى المهدي ما يزيد على ٢٠٠٠٠ بندقية و ١٩ مدفع ومخزونات ضخمة من الزخائر.

دارفور ، ١٨٨٣ :

بنهاية عام ١٨٨٢ كان مادبو قد ضايق سلاطين بك في دارا وأنهكه. وفي نفس الوقت تمكن سلاطين من إيقاف مد الثورة بالقرب من الفاشر والتي كان قد ألهبها السلطان دود بنجة وسلطان جادو. ولكن، وفي أوائل ١٨٨٣، تجمعت للقبائل من جديد وانتشر سريان الثورة ووصل إلى أقصى مناطق هذه المديرية. وسرعان ما أصبحت مدن الفاشر ودارا وكبابية في حالة حصار وانقطعت الاتصالات تقريباً بين تلك المناطق.

وحاول سيد بك جمعة، مدير الفاشر، لمرتين أن يظهر الضواحي من الثوار وفي المحاولة الأخيرة كادت قوات الحكومة التي أرسلها لهذا الغرض أن تباد ولم يرجع منهم سوى تسعة وتسعين رجلاً وقد حدثت هذه الهزيمة في أغسطس ١٨٨٣.

وفي وقت مبكر من العام صدرت من الخرطوم أوامر لسلاطين بك لتركيز قواته بالفاشر، ولترشيح أحد السلاطين، الذين أطيح بهم، ليتولى الملك ويعدها عليه أن يعود للخرطوم. لكن هذه

* الإسم القبلي (هندو) مشتق من الكلمات البجاوية (هذا) بمعنى زعيم أو سيد و (اندوا) بمعنى الناس. من هنا فإن الإسم يعني الزعيم أو رؤساء الناس مما يرضى غرور أولئك البدو.

* كلمة كيشوتيه دخلت اللغة الإنجليزية كرمز للمتمسك بقضية وأهية أو غير واقعية - أو وهمية - بدافع النخوة والشرف. وهي مأخوذة من بطل رواية سيرفانتيس، دون كيشوت (كويكزوت) والذي اشتهر بمناحطة طولحين الهواء قلناً منه بأنهم أعداء (المغرب).

الرسالة لم تصل أبداً لسلطين لأنه كتب في يونه خطاباً من دمثالا إلى الخرطوم يتحدث فيه عن في كرب وخطر شديدين. فلقد قاتل في سبعة وعشرين معركة وقتل الأمير بكر لكن رجاله هم الذين قوضوا سلطته وقاموا بنشر أنباء تقول بأن عرابي قد طرد كل الإنجليز من مصر.

وعند حلول فصل الأمطار تحول سلاطين إلى أم شنقه ووضعها في حالة دفاع ثم أمر حامية فوجه لتعزيز هذا المكان ومن بعدها عاد إلى دارا.

ثم عمت ضباطه وجنوده الآن روح الثورة وانتشرت عدواها بينهم. فقام باعتناق الإسلام إسمياً مؤملاً بأن نفوذه سيزداد بذلك بينهم. وقد أدى ذلك لبعض الوقت حيث إضطر بعد ذلك بفترة قصيرة لإلغاء أي احتمال لدفع جنوده للوقوف أمام المد المتزايد دائماً للثورة. لجأ إلى الحيل والخداع بعد ذلك كسباً للوقت فقد جاء أكتوبر ١٨٨٣ ووصلته أنباء تقدم هكس باشا بجيوشه نحو الأبيض وأمل في أن يتمكن من منع المهدي من إرسال المزيد من التعزيزات للمحاصرين له. وأن يتمكن من تهدئة الأخير لبعض الوقت مؤملاً بأن قدوم هكس قد يمكنه مرة أخرى من أخذ المبادرة حيث سيتوقع وصول نجدة عاجلة له. لهذا استدعى مجلساً للمشاركة حيث تم فيه مناقشة الوضع الحالي. لكن المجلس، وبالإجماع، اتخذ قراره بتسليم المديرية طوعاً للمهدي وفي نفس الوقت يكتبون خطاباً لهكس باشا يطلعون فيه على الوضع ويترجون به أن يهب لنجدهم بكل ما أمكن من السرعة. سلموا خطاب التسليم للمهدي، وكذلك الخطاب المعلن لهكس، لمحمد خالد زقل، مدير دارا، والذي كان في نفس الوقت مرتبطاً برباط القرابة مع محمد أحمد. وغادر زقل دارا ونجح في المرور بسلام خلال خطوط العدو لتسليم الخطاب. ثم واصل الرحلة إلى الأبيض حيث سلم للمهدي خطاب التسليم. وكانت خطابات مماثلة قد كتبت بواسطة سيد بك جمعة من الفاشر، ومن آدم أفندي أمير من كبكابية، مما ترتب عليه أن تراخي المحاصرون عن إحكام الحصار وتلي ذلك فترة من الانتظار المشوب بالقلق. فمن ناحية كان سلاطين يأمل في وصول النجدة له سريعاً. أما المحاصرون من الناحية الأخرى فقد مكثوا في انتظار التعليمات النهائية من المهدي حتى يتولوا زمام الأمور.

وبعد وقت قصير من وصول زقل للأبيض، حدثت الكارثة الرهيبة بشيكان والتي أبيدت فيها قوات هكس باشا وبالتالي، ومهما كانت نوايا زقل الأصلية، فقد أصبح مهدوياً بكل جوارحه. وحقيقة، لقد كان متحمساً بشدة لإبداء ولائه للزعيم الجديد للدرجة أن الأخير أرسله على الفور، مع قوة مناسبة، لتولي زمام الأمر في دارفور باسمه.

وبعد أن سمي أميراً على دارفور، تحرك زقل من الأبيض في بداية ديسمبر ووصل أم شنقه في أواسط الشهر وأبلغ حاميتها بخبر هزيمة هكس باشا وبأنه أصبح الآن الحاكم باسم المهدي على دارفور. استسلمت له الحامية بدون أي طلقة رصاص وبعدها واصل تحركه نحو دارا وتوقف على مسافة قصيرة منها حيث أرسل خطاباً إلى سلاطين أفاده فيه بالتغيير الذي حدث بعد هزيمة هكس باشا. ولتأييد ما جاء بخطابه أرسل مع الخطاب ثلاثة من الجنود المصريين الذين كانوا من جرحى شيكان مع بعض وثائق هكس وبعض ملابس للضباط لأوروبيين. وقد نصح في خطابه بشدة أن يستسلم سلاطين، حيث أن المقاومة لم تعد ذات جدوى له. وبأن البلاد كلها حتى نواحي الخرطوم قد أصبحت في قبضة المهدي وأن عليه ألا يأمل في وصول أي نجدة له.

وبعد أن استلم سلاطين هذه الأدلة الموثقة على الهزيمة الأخيرة، جمع مجلساً من الضباط والموظفين حيث تقرر بالإجماع تسليم المدينة لزقل. وفي اليوم التالي دخلها زقل حيث سلم لسلاطين منشور المهدي الذي أخبره فيه بأن يتبّع اسم سلاطين ويستقدم بدلاً عنه اسم عبد القادر وأصاّت: "أن شيخ عبد القادر رجل صالح ويجب معاملته بكل إعتبار وإحضاره للأبيض مع توفير كل مظاهر التكريم له".

وتحولت المدينة بسلام من أيدي الحكومة إلى يد المهدي. ثم كتب سلاطين بعدها خطابات لكل من سيد بك جمعة بالفاشر. ولآتم أفندي أمير بكباية ناصحاً لهما بالتسليم لأن وصول أي تعزيزات بعد إبادة قوات هكس باشا صارت ميئوساً منها، وأن عليهما تسليم مفاتيح الخزانة لزقل. وفي نفس الوقت كيف سلاطين هذين السطرين التاريخيين إلى لبتن: "إنني موفد إليك هذا الرجل، الحاج مصطفى كرم الله". وكرم الله هذا ما لبث أن صار حاكماً على بحر الغزال.

وهذا ما صارت عليه أحوال دارفور حتى نهاية عام ١٨٨٣ وفي تلك الأثناء، كان المهدي مشغولاً في الأبيض بتثبيت دعائم سلطته على أنحاء البلاد المجاورة. ومن بين الذين كتب لهم الخطابات رابح الزبير طالباً منه التسليم له. كان هذا الشخص من عبيد الزبير باشا السابقين، وقد فر. عقب موت سليمان الزبير، مع عدد كبير من أتباعه إلى دار برقو حيث اشتبك في معركتين مع سلطان تلك المنطقة. وقد قدر السلطان بأن منافسه هذا رجل مرهوب الجانب وفضل، من باب السياسة، أن يجنح للسلم معه وأن يسمح له بالإستقرار على حدوده الواقعة على الشمال من أم شنقه.

طالب محمد أحمد سلطان برقو بإعلان ولاه أيضاً. لكن الأخير، مثله مثل رابح الزبير، رفض بعناد أن تكون له أي صلة بهذا المغامر. ولأنهما كانا بعيدين جداً عن مواقع العمليات الراهنة فلم يتم إزعاجهما بعد ذلك إلا بعد سنوات عدة.

بحر الغزال، ١٨٨٣ :

ونعود للأحداث في بحر الغزال. فقد كان لبتن بك، كما نذكر، يقاوم حتى نهاية عام ١٨٨٢ الموجة المتصاعدة للمهدية، والتي كانت تصب في مديريته منذ أن ثبت محمد أحمد نفسه في جبل قدير وبعد سقوط الأبيض، فقد أصبح دناقلته أكثر استعداداً من أي وقت مضى لأتباع قائد يسمح لهم بحرية التعامل في تلك التجارة المحرمة التي كانت تجري في دمهم. ثم تلقت الثورة قوة دافعة جديدة زادت من انتشارها.

فعلى الشمال الغربي كان الصاغ محمود أفندي عبد الله قد تعامل بنجاح مع تحركات مانبو على تل جاوننا. وبعد نجاحه بالقرب من ذلك المكان، تقدم باتجاه شيخ شقيقه، شيخ قبيلة بشات، والذي بعد أن تحالف مع أقسام من الدمبو والبونقو واللوا، أعلن بوضوح عصبانيته للحكومة وعداءه لها ونجحت تجريدته من النظاميين بقيادة على أغا بشارة، ومعه ٢٠٠ من البازنقر بقيادة محمد أزرق. في مفاجأة معسكر العرب واستولوا عليه بعد مقاومة قصيرة كما أسروا ٤٠٠٠ معظمهم من النساء والأطفال.

وفي السابع والعشرين من يناير ١٨٨٣ عاد الصاغ محمود أفندي مريضاً إلى لبتون، والذي كان وقتها في دمبو. تاركاً القيادة في يد رفاعي أغا.

وبعد وقت قصير بعدها تلقى رفاعي أغا أنباءً عن هجوم متوقع على ليفي يقوده الشيخ جانقو، والذي كان قد عاد مع عدد كبير من رجال مادبو إلى المنطقة. من هنا توجه رفاعي أغا على وجه السرعة نحو ليفي برجاله. وأثناء الطريق علم بأنهم قد هاجموا ونهبوا قرية بالقرب من فوروجا فأسرع في تحركه والتقى بالعرب في الأول من فبراير على بعد بضعة أميال من ليفي وهاجمهم وشتت شملهم، بعد خسارة قليلة، ودخل ليفي. وفي ليفي تلقى أوامر من لبتن للتحرك ضد قبيلة الجانقي، والتي كانت، مع بعض التوج، تهدد دمبو بالهجوم. غادر رفاعي أغا ليفي بدون إبطاء لكنه، عندما إقترب من دمبو، وسمع بأن العدو يحتشد بقوة كبيرة، قام بتحسين نفسه بداخل زريبة وتخندق بها. لكن العدو لم يظهر فاستمر رفاعي أغا في زريبته تلك لعدة أشهر كان يقوم أثناءها بغارات مستمرة على القبائل المجاورة له. وبينما هو في ذلك الوضع زاره لبتن بك للتفتيش وكال له اللوم على إقامته لعلاقات ودودة مع القبائل وحذره لإتخاذ الحيطة اللازمة. لكن العرب، طيلة ذلك الوقت، كانوا يتجمعون سراً وقاموا في سبتمبر بهجوم جريء على الزريبة، غير عابئين بالرصاص المنصب عليهم، واندفعوا نحو عوائق الزريبة وأوتادها وأشواكها وهم يتسلقون على أجساد الموتى الذين سقطوا من قبل، ونجحوا في اختراقها ونجح كل القوات التي كانت متحصنة بها بمن فيهم رفاعي أغا.

وأرادت القوات الظافرة بعد ذلك الهجوم على ديم زبير لكن الأمطار المنهمرة عليهم لم تمكنهم من تنفيذ عزمهم.

أثناء ذلك كان سلاطين بك يواصل الكتابة إلى لبتن طالباً منه الدعم، والذي لا يستطيع الأخير تلبية.

وفي يوليه قفل الطريق نحو مشرع الرق تماماً نتيجة لثورة الدينكا وانقطعت كل سبل الإتصال مع الشمال. وفي الخامس عشر من أغسطس وصلت باخرة للمشرع لكن الرسائل التي جاءت بها لم تصل إلى لبتن في الحال لأنه كان في ذلك الوقت في جور غطاس. لكنه تحرك عائداً إلى مشرع الرق وأفرغ الأحمال من الباخرة وأعادها للخرطوم بعد أن كلف ساتي بك، المدير، للتوجه معها لإحضار أسلحة ونخائر إضافية.

وكان هناك رحالة هولندي، يدعى شوفر، حاول شق طريقه بالقوة بين مشرع الرق وجور غطاس. لكن الدينكا إعترضوه وقتلوه.

وكان لبتن قد حذر الدكتور يونكر، الذي كان يستكشف مناطق الولي، من قبل وأوضح له الحالة المضطربة للبلاد. وطبقاً لنصائحه وتحذيره له فقد ترك ما كان ينتويه للذهاب نحو الشمال وكر راجعاً للمديريات الاستوائية ووصل اللادو في ٢٣ يناير ١٨٨٤. أما الكابتن كاساتي، والذي كان يستكشف مناطق المديرية الغربية، فقد رجع عنها ووصل إلى اللادو قبل بضعة شهور، وكتب لبتن إلى أمين بك، في أغسطس ١٨٨٣، قائلاً: "لقد صمم العرب، كما علمت، بالنضامن مع الجلابة،

للهجوم علينا في ديم الزبير* وصار العبيد الآن يباعون ويشترون من أجل الذخيرة. ثلاثة علب يمكن أن تشتري صبيًا وخمسة لتشتري فتاة. أما فتاتين فيمكن أن تجلبا بندقية رمنجتون*.

وكان لبتن قد رجع إلى عاصمته قبل وقت قصير من هزيمة رفاعي أغا. لكن الأمطار منعت من الانتقام للمقتلة والمذبحة التي حدثت ولم يتمكن من الخروج إلا في نهاية ديسمبر حيث تقدم، بكل ما استطاع جمعه من القوات، إلى موقع الكارثة الأخيرة. أحاط نفسه بزرية قوية معززة بالأوتاد الحادة وبخندقين وطلب من القبائل المجاورة تسليم الأسلحة والذخائر التي كانوا قد غنموها. لكن الأخيرين ردوا عليه بأنهم سيهاجمونه في اليوم التالي. وقد نفذوا ما قالوا لكنهم صدوا ببعض الخسائر.

ثم انسحب العدو لحشد المزيد من التعزيزات. ووجد لبتن أن ذخائره بدأت في الانخفاض ورأى أن من الأجدي له الرجوع إلى ديم زبير (ديم سليمان أيضاً)*. وكان معه وقتها أربعة فصائل من الباشبوزوق بجانب عدد كبير من البازنقر.

وهكذا كانت الأحداث ببحر الغزال حتى نهاية ١٨٨٣.

المديرية الاستوائية، ١٨٨٣ :

مضي الجزء الأول من هذه السنة بدون أحداث تذكر. وقد وصلت آخر باخرة في السادس عشر من مارس وعادت في الرابع عشر من أبريل. وحتى هذا الوقت لم تتسأل إضطرابات بحر الغزال للمدريات الاستوائية رغم أنها لا تخلو من بعض المشاكل المحلية.

وكان الدناقلة هنا، مثلهم مثل دناقلة بحر الغزال، هم المتسببين في القلاقل. وجعلوا من بعض فروخهم*، أو حملة البنادق من الصبيان، قطاع طرق استطاعوا بما لديهم من أسلحة أن يفتصبوا السلطة من الزعماء الحقيقيين الذين شكلوا بدورهم سلسلة من مراكز اللصوصية غرباً بين أنسيا وواتدي، وسلسلة أخرى بطول خط الدنفق وبهذا قطعوا الطريق إلى مونبوتو. لقد سمع هؤلاء المغيرون المستقلون، بدون شك، بالحالة المضطربة على الشمال منهم وشرعوا على الفور في النهب وقطع الطرق عن طريق غاراتهم خلال المنطقة. ولكي يضع حداً لهم قام أمين بك بنفسه بزيارة تلك المناطق المضطربة ونجح في إعادة الهدوء إليها لحد ما. لكنه أثناء رحلته أخبر بثورة الدينكا في الأجزاء الشمالية من مديريته فأسرع عانداً إلى عاصمته لأدو ماراً في طريقه خلال مكاراكا والتقي بالمأمور إبراهيم محمد أغا حيث وجهه، من نفس المكان، للتحرك فوراً إلى مديرية الرول، وبعد أن يجمع التعزيزات من أمادي عليه القيام بما في وسعه لتهدئة وقمع الإضطرابات الناشئة هناك.

ووصل إلى اللادو في ٢٣ أغسطس حيث داهمه مرض شديد. وكانت الثورة التي نشبت أثناء غيابه في غاية الخطورة. فقد كانت المحطات المقامة هناك، كما نذكر، تعتمد غالباً على الغارات التي يقومون بشنها على القبائل المجاورة، واعتادوا على ذلك. وإنتقاماً منهم، قام دينكا أقار، الذين

* يسمى أيضاً ديم سليمان.

* كلمة فروخ هي التي كانت تطلق على حملة البنادق من الصبية العاملين مع التجار. كما يسمى بها أيضاً الجنود غير النظاميين المستأجرين (كمترقة) والذين يعملون مع لقوات بالخرطوم.

شنت عليهم الغارات العنيفة الأخيرة، بمفاجأة حامية رمبيك في السابع والعشرين من يولييه وتمكنوا من ذبح رجالها البالغ عددهم السبعين، بمن فيهم القمندان اليوزباشي عبد الله أغا السوداني. وبعد فترة وجيزة تم الهجوم على شاميبي ووضعوا السيف على رقاب رجال حاميتها المائة والخمسون.

سببت هذه الأحداث ذعراً وسط حامية إياك فأرسلو لبحر الغزال طالبين النجدة، كما أن أمين بك، عند وصوله إلى اللادو، ترجاهم أيضاً لإرسال قوات لتعزيز محطاته الشمالية.

أثناء ذلك وصل مأمور مأكراكا إلى الرول وأوضح في تقرير له بتاريخ السادس من أكتوبر بأنه يعتقد أن ١٥٠ رجلاً سيكونون قادرين تماماً على إعادة الهدوء في المديرية كما أفاد بأن شاميبي وما جاورها من مناطق هائلة لا مشاكل فيها.

وفي الخامس عشر من ديسمبر نجح في إعادة إحتلال رمبيك ورفع علم الحكومة على السارية. كما أرسل كميات كبيرة من الذرة إلى شاميبي.

وقرب نهاية العام أوضح أمين بك بأنه ليست بحر الغزال وحدها التي أصبح زنوجها الساخطين غير مواليين، بل سري ذلك أيضاً إلى مديريته. فقد كان الزعيم لورون غارقاً في التآمر. كما لم يعد هناك شك بأن تيار الثورة كان يسري بالتدريج نحو الجنوب. فقد دعى لورون (لورو السير صمويل بيكر)، كما يبدو، زعماء اليهمان واللوكويا، من قبيلة الباري، للاشتراك معه في هجوم على اللادو، والتي كان معروفاً بأن ما لديها من سلاح ونخيرة في غاية القلة.

ومضي عام ١٨٨٣، وأمين بك في قلق عظيم بالنسبة للمستقبل. إذ لم تصله أنباء من الخرطوم منذ الباخرة الأخيرة التي وصلت في مارس. وقد سمع بسقوط الأبيض ولكن نكبة هكس وابدائه مع جيشه لم تصل أخبارها بعد إليه. وكان يعلم بالمصاعب التي تحيط بلبتن، وأن بعض رجاله قد هجروه، وكان يعلم بأن ما لديه من سلاح ونخيرة لا يكفي لأي عمليات طويلة. ولكن، ورغم كل هذه المشاكل، فقد ظل مشغولاً بجمع العينات (النباتية والحيوانية) من أجل علم التاريخ الطبيعي.

وفي الخريطة التالية سنجد وضع الجيوش المصرية وقوات العرب حتى نهاية عام ١٨٨٣.

القسم الخامس

وضع المصريين في السودان حتى نهاية عام ١٨٨٤ وحصار الخرطوم خلال تلك السنة

الملخص:

بداية حصار الخرطوم - هلع المواطنين - دي كويتلوقون يقيم خطوطاً للدفاع - حصار سنار - اتخاذ القرار بإخلاء السودان - وصول الجنرال غوردون للقاهرة مكلفاً بالذهاب للسودان لسحب الحاميات منه - وصول غوردون للخرطوم - إلغاء وقف تجارة الرقيق - تجمع القوات بالخرطوم - غوردون يطالب بحضور الزبير باشا - الرأي العام يقف ضد إرساله - غوردون يستعد لمواجهة حصار - معركة ١٦ مارس - إعدام أثنين من الباشوات بالخرطوم - المهدي يطالب بالخرطوم بالتسليم - خطابه لغوردون - رد غوردون - قرار المواطنين بالثقة في غوردون وقراره بالمقاومة - أسر صالح باشا مع باخرة في المك - تشديد الحصار على الخرطوم - أحداث شرق السودان - قرار الحكومة البريطانية بالدفاع عن سواكن - محمد توفيق، حاكم سنكات، يقوم بالهجوم لكنه يمزق إرباً إرباً - إرسال الجنرال قراهام مع ٤٠٠٠ جندي بريطاني لإنقاذ طوكر - تطوع السير إيفلين وود بإرسال بعض قوات الجيش المصري الجديد - معركة التيب وطماي - التفكير في فتح طريق بربر/سواكن - نهوض الهندوة والأمرار بالثورة - حصار بربر - الكابتن كتنشر والملازم رنل يرسلان للسودان - إيقافهم في أسوان - أخذوا في تجنيد العرب الموالين للدفاع عن المنطقة بين النيل والبحر الأحمر - الهلع في أسوان - الاجتماع بشيوخ البشاريين - الدوريات البريطانية من لابسى السترات الزرقاء تجوب النيل على بواخر ببدالات خلفية - مهمة استكشافية بطول درب الأربعين - سقوط بربر - الأمير الهدي يتقدم نحو دنقلا - وصف مدير دنقلا - الشكوك في مصر حول ولائه - هزيمة الهدي في الدبة - تراجعه نحو الصحراء وطلبه للإمدادات - الكابتن كتنشر يتطوع للذهاب لدنقلا - وصوله لها - تقريره عن سلوك المدير - المهدي يرسل الأمير محمود لمساعدة الهدي - خطاب المهدي لمدير دنقلا - معركة كورتى - مقتل الهدي ومحمود - انتصار المدير - الكابتن كتنشر يبحث مع صالح الكباشى (الوضع في المنطقة) - حملة النيل بقيادة اللورد ولسلي لإنقاذ الخرطوم - غوردون يهزم الأمير أبو قرجة - المناطق الجبلية في كردفان لا زالت تقاوم المهدية - الأحداث في دارفور - تصميم سيد بك جمعة على المقاومة بالفاشر - وصول زقل وقشله لثلاث مرات في إقتحام المدينة - سلاطين نصح بتسليمها - سقوط الفاشر - خطاب سلاطين للجنرال غوردون - زقل يرسل قوة من الفاشر لإخضاع السلطان دود بنجة - هزيمة قاسية لقوات المهدية - محاصرة دود بنجة في جبل مرة - إستسلامه - زقل، الحاكم الأعلى لدارفور - الأحداث في بحر الغزال - لبتن يطلب دعماً من سلاطين

- بدأ يجمع في الفرة ويخزنها - وصول الأمير كرم الله للحدود - يطلب من لبتن التسليم - قرار القوات والموظفين بعدم المقاومة - لبتن يكتب ثلاثة خطابات بالصفة إلى أمين - سقوط بحر الغزال كما يرويه ضابط كان شاهداً عياناً لما حدث - أخو كرم الله يصف ظروفاً سقوطها - الخطاب الرسمي الذي أرسله كرم الله للخليفة عبد الله التعايشي يصف فيه ما حدث - الأحداث في الاستوائية - مقابلة الدكتور يونكر وأمين بك - القلائق في مديرية الروم - أمين يتسلم خطابات لبتن - فشل محاولة إنقاذ شامبي - أمين يقرر تسليم مديريته عند ما علم بسقوط بحر الغزال ويتقدم قوات هكس باشا - النيران في اللادو وتأثيرها على نوابيا أمين - وصفه للحالة - وفد التسليم بتوجه إلى بحر الغزال - تعليمات القاضي لأمين - هروب حاكم مكاراكاً وقتله - إخلاء رمبيك وأياك - إعادة توزيع الحاميات - كرم الله يهاجم أمادي - أمين يرسل التعزيزات - إبادة شبه تامة لحامية بور - هدوء الحال في مكاراكاً - خلاصة ما توصل إليه أمين بنهاية عام ١٨٨٤ - حصار سنار - الغيرة والشقاق بين المدير وقائد القوات بها - المدير يكتب لغرون - الأمير المرضي يحاصر سنار - الأحداث في شرق السودان بعد معركة طمائي - سواكن في حالة حصار - الميجر جيرمسايد يتفق مع الملك يوحنا، ملك الحبشة، على إنقاذ الحاميات المصرية على الحدود الحبشية - معاهدة هيوت - حصار كسلا - تسليم بوغوص للحبشة - سقوط القضارف - الأحداث في مديرية هرر - بعثة الميجر هنتر ورضوان باشا وصول رضوان باشا - والملازم بايتون إلى هرر - يبدؤون في إخلائها - تسليم حكومتها لمحمد عبد الشكور - تنصيب الأمير الجديد - وصول كل القوات وعوائلهم إلى الساحل بسلام.

جاء في تاريخ حروب الإمبراطور جوستنيان* الذي كتبه باللغة اليونانية فوكو بيسوس السيسيري، وتمت ترجمته للإنجليزية عام ١٦٥٣ في لندن بواسطة هنري هولكروفت، ما يلي:

"من أوكسوس** التي ذكرناها إلى الحدود الرومانية في مصر رحلة مقدارها ٣٠ يوماً: وهناك أعداد كبيرة من البليمييين والنوباتيين* وغيرهم. والبليميون يعيشون في وسط المنطقة أما النوباتيون فيعيشون على النيل. لم تكن هذه من قبل حدود الرومان والتي كانت على مسافة سبعة أيام فقط. لكن ديوكليسيان عندما وجد أن جزيرتهم هزيلة، وأرضهم ضيقة تملؤها الصخور على النيل، وأن الحاميات بها والكثيرة العدد تكلف خزنته الكثير: وكيف أن النوباتيين الذين كانوا من حول مدينة أوسيس ينهبون المدن من حولهم، قام بإجلائهم من تلك المناطق حتى لا يحدثوا أي إزعاج للمناطق من حول أوسيس مرة أخرى، وأسكنهم مدناً رومانية جميلة ومناطق واسعة تمتد من الفنتانين (جزيرة

* الإمبراطور جوستنيان الأول (٤٨٣ - ٥٦٢ ميلادية) كان حاكماً لبيزنطة ومناطق شاسعة من شمال إفريقيا جنوباً حتى إيطاليا وأسبانيا وغيرها من بلاد البحر الأبيض المتوسط. كما حارب الفرس. وهو الذي بنى كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينية ووضع القانون الروماني الذي لعب دوراً كبيراً في صياغة اللسان الأوربية. (المعرب - عن قاموس هتشنسون)

** يقصد أوكسوس الحبشية (المعرب).

* البجة والنوبة (المعرب).

فيلة جنوب أسوان الحالية - المغرب) وعلى ضفتي النيل حيث اعتبر أنهم بهذا سيقومون بحماية الحدود وحراستها والعمل على دفع البلبيين بعيداً عنها وكل الأمم البربرية الأخرى (على اعتبار أن الأرض أصبحت لهم). وأعطاهم أيضاً، وكذلك أعطي البلبيين، تعويضاً من الذهب حتى لا يهاجموا الحدود الرومانية (مثل جوارح الطير)، ورغم أنهم لا يزالون يتسلمون هذا التعويض إلا أنهم لم يتوقفوا عن إجتياح المديرية. لذا فمن المستحيل على البرابرة الاحتفاظ بعهدهم مع الرومان إلا لخوفهم من الجنود.

كانت الخرطوم في حالة من الحصار الفعلي منذ يولييه ١٨٨٣، وقد اتهمك حسين باشا سري والكولونيل دي كوتلوجون. وهو أحد ضباط هكس الذين خلفهم وراءه ليتولى مسؤولية المستودعات، بترتيب الدفاعات اللازمة، ويقدر الإمكان، لمثل هذه المسافة الشاسعة والتي زاد من صعوبتها امتدادها لدرجة بالغة. واهتم كوتلوجون شخصياً بعمل في غاية الأهمية. "فقد حفر خندقاً عميقاً وممترساً لمسافة ١٥٣٠ ياردة، عبر السهل الفسيح الذي جف بعد انسحاب النهر منه". وأضاف باور، الذي أدرك تماماً عدم الأمان أو الاطمئنان لهذا العمل: "ولكن بالنسبة له، فإن هذا المدخل العريض للمدينة ربما تم تركه مفتوحاً أو بغير حماية". ومما لاشك فيه أن كل ما ذكره باور من شكوك كان صحيحاً. فالبوابة أو المدخل لأي منطقة مصرية مسورة لا توضع أبداً إلا في المكان الذي لا يسهل إلا منه اختراق تلك المسورة.

أحدثت أنباء المذبحة التي حلت بهكس وجنوده هلعاً وسط الأهالي. وأسرع القناصل والأوروبيون بمغادرة المكان ما عدا القنصل النمساوي هاتزل، والذي له أملاك واسعة بالخرطوم. كما بقي بها أيضاً القنصل البريطاني والمراسل الصحفي باور. أيضاً دي كوتلوجون. لكن عاليتين نمساويتين كانتا من شظف العيش والبؤس ما منعهم من المغادرة ومكثوا يكملون الدور المنوط بالأوروبيين الذين بقوا في المدينة المشلومة. وكانت رؤيتهم للأحداث، كما يعبر عنها التفراف التالي، الذي كتب في نوفمبر:

(ليس لنا من طعام يكفي لأكثر من شهر ولا بدافع عن أربعة أميال من الخطوط سوي ٢٠٠٠ رجل. من العبث محاولة الحفاظ على هذا المكان المكتظ بالسكان الذين يشبهون البركان الساكن. ولقد سد الآن خط الرجعة برأ وربما يقلل خط الرجعة النهري غداً).

وبنلت الآن جهود كبيرة (لإحتواء الموقف) وبعد ثلاثة أسابيع توفرت إمدادات تكفي المدينة لعام كامل. ووصلت حامية فشودة البالغ عددها ١٣٠٠ جندي نظامي في السادس والعشرين من ديسمبر. ونهاية العام تم إدخال عدد صغير آخر من (جنود) المحطات الخارجية إلى المدينة. وأقفلت مدينة سنار الأبواب عليها وقيعت داخل أسوارها. أما خارج المدن فقد كان أتباع المهدي هم المسيطرون وخاصة في ضواحي الخرطوم. وظل عزمهم ونواياهم للتقدم نحو الشمال مصدر خطر لاستقرار مصر وهذونها. وتقرر أن تبقى القوات البريطانية في مواقعها أما السودان فيجب التخلي عنه. وكان على مصر التخلي عن السودان لأنها لا تستطيع البقاء فيه. وقد وافق صاحب السمو الخديوي على هذا القرار. أما وزراءه، الذين تقمصتهم روح البطولة، فقد استخرجوا فرماً منسياً من سلطان تركيا وتقدموا باستقالاتهم من مناصبهم لأنهم "منعوا من ممارسة حقهم في الحكم طبقاً

للدستور". أما الذين جاعوا من بعدهم فقد اقترحوا أن يتوجه عبد القادر باشا إلى الخرطوم ليتولى إرجاع ما بها من قوات. لكن ذلك الضابط رفض ذلك وبدون أي تردد. أما شيخ الميرغني، وهو زعيم لطائفة للإخاء الديني الواسعة الانتشار في السودان، فقد توجه لسواكن معتبراً المهدي (خارجاً على الدين)* وقد دعاه عثمان دقنة لاجتماع خصوصي بينهما لكن الشيخ أسرع عائداً للقاهرة (دون أن يستجيب لدعوته).

بدا أن شيئاً لن يفلح في الحل. وكل التوقعات كانت كنيية مظلمة لأولئك الذين ينظرون للسلام على أنه الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى نمو وتطور مئات الملايين* المحاصرين في البلاد. وكان هناك اعتبار آخر أشد إلحاحاً يوماً بعد يوم. فمئات الآلاف من العرب المتعصبين قد لا يتوجهون شمالاً ويمدرون الأخضر واليابس. ولكن ما هو مصير الثلاثين ألف جندي عاجز الموجودين هناك. وكيف يمكن إنقاذهم؟ لقد صاروا كالحملان وسط قطع من الذئاب وإن لم يتم إنقاذهم فسيزبحون عن بكرة أبيهم. من هنا كان لظهور غردون على المسرح مصدر راحة للوزراء ولدافعي الضرائب وللحكومة المصرية.

واتسمت مغادرة غردون للنند بنفس الطابع الذي إتسم به وصوله للقاهرة. فحقيقة كان دوق كامبردج واللورد ولسلي في وداعه بمحطة السكة الحديد بلندن ولكن الأمر بدأ للجمهور وكان اثنين من السادة كاتا يرافقان ثالثاً لحفل عشاء. وعندما وصل القطار الخاص لمحطة القاهرة، هبط منه راكب وحيد ضئيل الحجم مرتدياً معطفاً أسوداً. ولم يكن معه خادم ولا حقائب سفر.

كان غردون قد غادر لندن في مهمة خاصة بكتابة تقرير عن الأحوال في السودان. وعندما كان على ظهر الباخرة التي أقلته أخرج ورقة وكتب عليها برقية معنونة للحكومة بلندن أوضح فيها ما يرغب فيه من الترتيبات، والسلطات التي يرغب في توليها، والقرارات والأوامر التي ينوي إصدارها. وعندما وصل للقاهرة وجد أن كل برقياته تلك قد وصلت ليد السير إيفلين بيرنج.

كان عليه أن يجمع الحاميات من السودان ويؤسس أي حكومة ممكنة هناك ثم يعود ومعه القوات المنسحبة وهذا كان كل ما نزر نفسه له وتعهده به. وذات مساء بارد توجه إلى محطة قطار بولاق. وفي الضوء الخافت للمركبة التي أقلته ظهر الوجه المنشرح لغردون ولستيوارت وجراهام بينما تدرج القطار واختفي بعيداً في الظلام. وكان بيرتون قد ودعهم بتحية حارة موجهة لرجال وطنه الشجعان.

وهكذا أسرع غردون في رحلته الطويلة نحو الخرطوم، مصحوباً بالكولونيل ستيوارت، ليفكك روابط كل الجهاز الذي كد بشدة لإقامته، وليقتن تجارة الرقيق التي حارب في عدة مواقع من قبل لكبحها، وليعمل على تجميع الأغنام المبعثرة وليقودها للوطن ولمراعبيها الخاصة بها.

* استخدم ونجت كلمة (Excommunicated) وهي تعبير مسيحي يعني أمراً بابوياً بالحرمان الكنسي. ولا يستخدم هذا التعبير في الإسلام عادة (المعرب).

* قلته كلم من ونجت (المعرب).

فأرّقه الجنرال جراهام في كروسكو وعاد لمقاتلة عثمان دقّة في الساحل الشرقي (للبحر الأحمر). أما الجنرال غردون والكولونيل ستيوارت فاستمرا في طريقهما للخرطوم حيث استقبلوا كما يستقبل ركاب الباخرة الغارقة سفينة النجاة.

كان حكمدار الخرطوم السابق، حسين باشا سري، قد غادر السودان قبل وصول غردون. وبدأ الآن في إقامة نوع من العدالة المعقولة مع إبداء الرحمة بشكل واسع. ثم صدر إعلان بإلغاء الوسائل المصرية لكبح تجارة الرقيق للأبد وتلاه إعلان بأن البلاد قد صارت الآن مملكة مستقلة حاكمها العام الآن هو الجنرال غردون. وبدأ بعد ذلك سيل من المهاجرين في طريقهم للشمال وقام الكولونيل دنكان، في حلفاء، بتبرير عدة آلاف من المهاجرين إلى أوطانهم.

وتم تجميع فرق الجنود السود في الخرطوم أما القوات البيضاء فقد جمعوا في قلعة أم درمان المجاورة استعداداً للزحف الطويل نحو الشمال فور أن يوجد الحاكم الذي يتسلم أمور البلاد (بحزم) عندما يديرون ظهورهم إليه. وكان من رأي غردون أنه لا يوجد سوى رجل واحد بمكانته تسلم أزمة الحكم. ورغم أنه كان بمقدور إنجلترا إرسال عدد كبير من الرجال للقيام بما كلف به غردون، إلا أنه كان من الأفضل إذا ما كان بالسودان رجل يمكنه الحكم ومواجهة الإضطرابات والفوضى التي ستلو مظاهر الانضباط تلك والتي ستلاشى عقب رجوع غردون (من السودان).

وكان الزبير هو ذلك الحاكم الوحيد. فهو رجل هادئ عميق التفكير ذو إرادة حديدية. رجل ولد ليحكم الرجال!*

رحب أهالي الخرطوم بوصول غردون في الثامن عشر من فبراير. وكان الحماس عظيماً لتسليم السلطة، ولنبدئه للماضي، ولتخفيض الضرائب في المستقبل. واستمر ذلك لتسعة أيام. وكان كل الذين لم ينضموا للمهدي في حالة من البلبلة وهم يبحثون عن البديل. وعندما جاءهم، أخذ الذين لديهم ما يخشون فقدانه في التحري عنه بدقة. حاكم عام إنجليزي، ولكنه جاء وحده. إنه مستقل عن مصر لكنه متقطع عنها. حاكم لا يهتم بالإيرادات ويأشراح وحبور يقطن تجارة الرقيق ويعيدها مرة أخرى.

انتشرت الإشاعات بأن الإنجليز قد استلموا مصر وقد قرروا هجر السودان. وقد قيل أن إعلانات بهذا الخصوص قد كتبت. وقد استنتج السودانيون بأن الإشاعات المنتشرة هي أخبار صحيحة وأن الحاكم العام الإنجليزي ما هو إلا وسيلة لكسب الوقت. ثم: من الذي سيحل محله؟ فالقائد الطبيعي للسودانيين هو الزبير. فإذا ما جاء فأن كل شيء سيكون على ما يرام. لكن القبائل قد فرغ صبرها وأصبحت تهدد الوضع الراهن (بالخرطوم). لقد تذوقوا طعم الدم من قبل وطعم النصر وهم يتطلعون الآن للمزيد. لابد إذن للزبير من القدوم على الفور. لكن حقيقة أن الزبير كان متعاملاً خطيراً في الرقيق وقتت عقبة في الطريق ووقف ضده خاصة أولئك المهتمون بشأن الرق واعترضوا على إرساله. لذلك لم يذهب الزبير وهذا ما تسبب في عواقب وخيمة فيما بعد.

* الزبير. كما نذكر، كان قد التفتح دارفور وصعد إلى أعلى قمم السلطة في السودان وهو من فرع الجمعيات من قبيلة الجعليين وقد اتحد من أعرق عائلاتها، والتي تدعي أنسابها لقبيلة قريش الذبيلة المحتد، عن طريق العباس عم النبي.

هذه العواقب كانت مؤكدة وسريعة. ففي الخرطوم تم استدعاء القوات علي عجل وحشد القلاع بها وألغيت كل الاستعدادات لعدوتهم المبكرة لبلادهم. وأصبح الوضع بالنسبة لغردون وستيوارت، بعد رفض إرسال الزبير، في غاية الحرج.

وتباري الشيوخ، شيخاً بعد شيخ، في إرسال الإنذارات للخرطوم للتسليم إليهم. وقد تجمع حول الخرطوم محمد ابن البصير والشيخ العبيد والفكي قاو والأمير الفكي مضوى، ووراءهم الأثوف من الأتباع. لقد كان سباقاً حول من منهم سيمتولى على المدينة التي لا صاحب لها.

ورغم أن غردون قد فقد الأمل في الرجال الملتفين من حوله، إلا أنه أستعد للقتال. وفي السادس عشر من مارس غامر بالخروج محارباً. لكن رجاله هربوا كالأرانب البرية وتم نهبهم. أما الناجون منهم، وهما القائدان، فقد تم إعدامهما بتهمة الخيانة*.

وبعد أسبوع من ذلك رفض الباشبوزق "إذا لم يحاربوا فمن بالخرطوم سيحارب؟" رفضوا إطاعة الأوامر وتم تجريدهم من السلاح. إن المرء ليبحث عبثاً عن أي شيء يبعث غردون على الأمل. وعندما تتجول العيون حول هذا السودان الشاسع والمعادي، فأنها تلاحظ تلك الحاميات الصغيرة، الشبيهة برووس الدبابيس، وكل حامية منها مختنقة بسحائب من الرماح والتصال العربية ثم يتذكر كيف أن غردون وستيوارت تقدما لحكم هذه الإمبراطورية والتي أعطيت لغيرهم قبل ذلك. فلا يسع المرء إلا أن يشعر بأن وجهات نظر السودانيين ذات إدراك وحس سليم حقاً. وعندما يتذكر المرء بأن واحداً من هؤلاء الإنجليز قد أصر على البقاء عمداً هناك، ولمدة أحد عشر شهراً، وأن لا أحد يستطيع اقتلاعه منها، فإن المرء يشعر فعلاً بالفخر الذي لا مزيد عليه.

وقبل هزيمة السادس عشر من مارس وإعدام الخونة، فقد تم بشكل رسمين وباسم المهدي، الطلب بالتسليم، والذي قدمه الشيخ عبد القادر، قاضي الكلاكلة، وهي قرية على النيل الأبيض تقع على بعد خمسة أميال جنوب الخرطوم. استدعي غردون مجلساً من وجهاء المدينة ورجالها للبحث في شأن ذلك الطلب، والذي نوره هنا بالتفصيل:-*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلي عزيز بريطانية والخديوية غوردون باشا:

الملخص:

يخبره بأن جوابه وصل تم يفند النقاط التي أوردها. ويفصل له أمر دعوته، ويسرد عليه ما حصل بينه وبين الحكومة. ويذكر أن إنشغال الترك بالدنيا هو الذي صدهم عن إتباعه. ويطلب منه أن ينيب إلى الآخرة وأن يشفق على نفسه قبل أن يشفق على الآخرين وذلك بإعلان إسلامه. يخبره بأنه

* هما اللواء السعيد باشا واللواء حسين باشا إبراهيم الشلاحي (المعرب).

* أورد المؤلف خطاب المهدي كاملاً، والمكون من سبعة صفحات (نظر الآثار، الجزء الثاني، صفحة ٢٤٦ - ٢٥٣) وقد أوردنا، كملخص له، التصدير الذي وضعه الدكتور أبو سليم، مع الديباجة والتحشية بأكملها (المعرب).

قَامَ إِلَيْهِ وَيَعِدُهُ بِالْعَفْوِ إِذَا سَلِمَ وَإِلَّا فَسِيحِلْ بِهِ الدَّمَارُ. يَرْفُضُ السُّلْطَنَةَ الْمَقْتَرَحَةَ، وَيَرْفُضُ تَسْلِيمَ الْمُسْلِمَاتِيِّينَ لِأَنَّهُمْ أَسْلَمُوا. يَرُدُّ لَهُ هَدِيَّتَهُ، وَيُرْسِلُ لَهُ هَدِيَّةَ تَرَمِزُ إِلَى إِتِّجَاهِهِ الدِّينِيِّ. يَذْكُرُ أَنَّهُ سَيَعِثُ بِه إِذَا سَلِمَ وَيُعْطِيهِ مَقَامًا كَبِيرًا أَسْوَأَ بِمَا فَعَلَ بِمُشَاهِيرِ التُّرْكِ الَّذِينَ سَلَمُوا (١٣ جُمَادِ الْأَوَّلِ ١٣٠١ (١٠ مَارَسَ ١٨٨٤)).

حَاشِيَةٌ

إِلَى غَرْدُونِ بَاشَا

بِإِطْلَاعِكَ عَلَى مَا تَكُونُ بِالْجَوَابِ إِلَيْكَ تَعْلَمُ بِأَطْنَه، وَبِهِ كَسَوَةُ الزَّهَادِ وَأَهْلُ السَّعَادَةِ الْكَبِيرِ الَّذِينَ لَا يَبَالُونَ بِمَا فَاتَ مِنَ الْمَشْتَهِيَّاتِ طَلِبًا لِعَالِي الدَّرَجَاتِ، وَهِيَ جِبَّةٌ وَرَدَاءٌ وَسِرَاوِيلٌ وَعِمَامَةٌ وَطَاقِيَّةٌ وَسَبِيحَةٌ. فَإِنِ أَنْبَتَ إِلَى اللَّهِ وَطَلَبْتَ مَا عِنْدَهُ لَا يَصْعَبُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْبَسَ ذَلِكَ وَتَتَوَجَّهَ لِدَائِمِ حِفْظِكَ. وَهَاهُوَ الرَّسُولُ الَّذِي أَتَى مِنْكَ وَاصِلَ إِلَيْكَ مَعَ رِسَالٍ مِنْ عِنْدِنَا كَمَا طَلَبْتَ وَالسَّلَامُ*.

وَرَدًا عَلَى هَذَيْنِ الْخَطَابَيْنِ فَقَدْ أَرْسَلَ الْجَنَرَالُ غَرْدُونِ الْإِجَابَةَ التَّالِيَةَ:

مِنْ غَرْدُونِ بَاشَا إِلَى مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ

لَقَدْ تَسَلَّمْتُ الْخَطَابَاتِ الْمُرْسَلَةَ بِوَسَاطَةِ مَبْعُوثِكَ الثَّلَاثَةَ وَقَدْ فَهَمْتُ مَا جَاءَ بِهِمَا. لَكُنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْتَمِرَّ فِي التَّوَاصُلِ مَعَكَ بَعْدَ ذَلِكَ.**

لَمْ يَبُورِدْ وَنَجَتْ مَا كَتَبَهُ الْمَهْدِيُّ عَلَى مَقْرُوفِ الْخَطَابِ (الْمُرْشِدُ، الْجُزْءُ الثَّانِي، صَفْحَةٌ ٢٥٥) وَالَّذِي نَصَحَهُ كَالآتِي: سَأَلْتُكَ بِحَقِّ اللَّهِ وَنَبِيِّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ تَقِفَ عَلَى أَجُوبَتِنَا هَذِهِ بِالْحَرْفِ. وَقَدْ أُلْفِظِي مُحَمَّدَ سَعِيدَ الْمُسْلِمَاتِيِّ، الَّذِي يُسَمِّي جُورْجِي إِسْلَامْبُولِيَّةً، أَنَّ رَجُلًا يُسَمِّي السَّيِّدَ الْفَنْدِي نَعِيمَ الْأَجْزَاجِي لَهُ مَعْرِفَةٌ بِلِقَتِّكُمْ وَبِالْخَطِّ الْعَرَبِيِّ. وَمَا دَامَ أَنَّهُ يَعْرِفُ الْخَطِينَ وَاللُّغَتَيْنِ نَرْضَى بِمَنْكُمُ الْوَقُوفَ عَلَى مَا فِي هَذَا الظَّرْفِ جَمِيعَهُ حَرْفِيًّا عَلَى يَدِ الْمَنْكُورِ أَوْ مَا هُوَ مِثْلُهُ. وَقَدْ سَأَلْتُكَ السُّؤَالَ الْمَنْكُورَ لِمَا سَأَلْتَهُ. وَالسَّلَامُ. (الْمَرْبُوعُ)

** غَيْرِ الْمَوْلَفِ وَيَدُلُّ فِي الرَّدِّ الَّذِي أَرْسَلَهُ غَرْدُونُ لِلْمَهْدِيِّ وَلِخْتَصْرِهِ لِيُخْتَصَرَّ مَخْلًا لِفَرْضِ فِي نَفْسِهِ. وَذَلِكَ الرَّدُّ الَّذِي لَا يَصْدُرُ مِنْ حَاكِمٍ عَاقِلٍ هُوَ الْآتِي، كَمَا أَوْرَدَهُ الدُّكْتُورُ أَبُو سُلَيْمٍ فِي الْآثَارِ. الْجُزْءُ الثَّانِي، صَفْحَةٌ ٢٥٨ عَنْ تَارِيخِ نَعُومٍ شَلْبِيرِ صَفْحَةٌ ٧٥٣: (مِنْ غَرْدُونِ بَاشَا. وَإِلَى السُّودَانِ، إِلَى مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ الْمُتَمَهِّدِيِّ.

وَصَلَّنِي كِتَابَكَ الرِّكَابَ الْعَبْرَةَ، الْعَارِيَّ عَنِ الْمَعْنَى، الدَّالَّ عَلَى سُوءِ نِيَّتِكَ وَخَيْبِ طَوَيْتِكَ، وَعَنْ قَرِيبِ سِتْبَلِي بِجَبُوشَ لَا طَاقَةَ لَكَ بِهَا وَتَكُونُ أَنْتَ قَائِمٌ أَمَامَ اللَّهِ عَمَّا يَسُفُكَ مِنَ الدَّمَاءِ. كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسْلُوبُ الْآنَ عَنْ أَعْيَتِ قُلُوبِهِمْ وَغَشِيَتْ بِصَفَرِهِمْ وَبِمَتِّ أَطْفَالِهِمْ وَخَرِبَتْ دِيَارُهُمْ. وَكَنتَ لَا أَرَى حَاجَةَ لِمُخَاطَبَةِ رَجُلٍ مِثْلِكَ جُلْدَ النَّمَةِ عَدِيمِ النَّمَةِ، لَكُنِّي تَعَلَّقْتُ بِأَنْبَالِ الْأَسْلِ رَاجِيًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَتَجَلَّى عَلَى فِكْرَتِكَ الْخِدْمَةُ لِمُتَلَقِّي النَّصِيحَةِ بِيَدِ الْقَبُولِ. وَتَعْلَمُ مَنْ سُلْطَنَةُ مَكْنَتِكَ مِنْهَا وَكَانَ دُونَ نَبْلِهَا خُرْطُ الْقِتَادِ. وَهِيَ أَنْذَا مَسْتَعِدَّةٌ لِقُدُومِكَ وَمَعِيَ رَجَالٌ أَقْطَعُ بِهِمْ أَفْطَاسَكَ. وَالْعَقْلُ مِنْ تَكْبَرِ وَالسَّلَامُ) (الْمَرْبُوعُ).

وَعَنْ كَيْفِيَّةِ وَصُولِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ لِلْقَاهِرَةِ، أَضَافُ وَنَجَتْ قَائِلًا:

مِنْ الْمُثِيرِ لِلْإِهْتِمَامِ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، بِالْعَرَبِيَّةِ، وَصَلَتْ لِلْقَاهِرَةِ فِي أَوَّلِ ١٨٩٠. فَقَدْ سَلَّمَ غَرْدُونُ (نَسْخَةً مِنْهَا) إِلَى رَجُلٍ يَتَنَقَّلُ فِيهِ لِأَخْذِهَا لِتَبْرِيرٍ وَمِنْ ثَمَّ يَبْرِقُهَا تَلْغَرَفِيًّا لِلْقَاهِرَةِ. لَكِنَّهُ عِنْدَمَا وَصَلَ تَبْرِيرُ كَاتِبِ الْمَدِينَةِ قَدْ سَقَطَتْ وَتَمَّ أَسْرُهُ لَكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ تَكُنَّ مِنْ إِخْفَاقَاتِهَا فِي جِدَارٍ بِحَالِطٍ مَنْزِلٍ. وَيَعِدُ بَضْعَ سَنَوَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ تَكُنَّ مِنَ الْفَرَارِ وَعَادَ لِتَبْرِيرٍ وَاسْتَرْجَعَ الرِّسَالَةَ مِنْ مَخْبِئَتِهَا وَسَلَّمَهَا بَعْدَ بَضْعَةِ أَسَابِيحٍ كَامِلَةٍ إِلَى مَدِيرِ سَوَاكُنْ.

وصوت الحاضرون بالإجماع على الثقة في غردون وعلى المقاومة. وقالوا بأن هذا المهدي دجال وإن الله سيظهر الحق ويدافع عنه. وقد قبل غردون تلك الثقة فيه، وإليها (الثقة) كان كثيراً ما يشير إليها عندما قرر ألا يغادر المدينة وهذا ما دفع جنوده المتمردين غير الموثوق بهم للثبات وخدمته بإخلاص وصدق في دفاعه الطويل (عن المدينة).

وقد بعث غردون روحاً من الإخلاص والثقة والمودة بين سكان المدينة الذين كانوا على استعداد للبقاء معه. أما الآخرون، والذين كانوا كثيراً، فقد نظروا إليه كما ينظر سكان طروادة لتمثال بالاس. ولم يسمح لغردون إطلاقاً بمغادرة الخرطوم. وحتى إنشاء رحلته القليلة بالباخرة فقد كان مصحوباً دائماً برجال يفتنون من رجال المدينة.

ثم إن دناد دعم العرب بعد وصول البحار القديم المشهور أبو فرجة . وفي الخامس عشر من إبريل تمكنوا من أسر صالح باشا وباخرته المسماة (محمد علي) ونقطته التي يحرسها ١٤٠٠ من رجاله الشايقية وذلك في منطقة الملك على النيل الأبيض، على بعد ٢٢ ميل جنوب الخرطوم. وقد حصلوا على نصرهم هذا باستخدام الحيلة والخداع بعد أن أكدوا للبasha بأن الخرطوم قد سقطت. ولم يتمكن غردون أبداً من معرفة كيفية خداع صالح باشا، رغم قلة ثقته في قوات الشايقية.* وعند نقطة الملك قام العرب ببناء قلعة كانت تسيطر على النيل غير العريض هنا. وسرعان ما جاء شيخ الفضل من النيل الأبيض واتضم إلى قوات عبد القادر وقام الاثنان معاً ببناء قرية أخرى جنوب خطوط الخرطوم (الدفاعية) ونصبوا بها مدافع كروب والصواريخ. كانوا قريبين جداً لدرجة أن عدداً من قذائفهم سقطت داخل المدينة.

عودة إلى الأحداث في شرق السودان:

فبعد هزيمة الجنرال بيكر، تولت إنجلترا بنفسها مهمة إنقاذ الحاميات بشرق السودان. وقرر مجلس الوزراء في السادس من فبراير الدفاع عن سواكن وتولى الأمر في الحال الأدميرال هيوت. ومن بين الحاميتين المحاصرتين سجلت سنكات موقفاً بطولياً للمقاومة. وأبدي محمد توفيق (وهو اسم يدل على الفأل الحسن في مصر) عزيمة شديدة وثبت لمدة ستة أشهر حيث تدهور الوضع لديه لدرجة تقارب ما وصلت إليه الحالة في الخرطوم بعد ذلك، فأشرع أسلحته ووضع السناكي على البنادق وشق طريقه خارجاً (من سنكات). واشتبك في قتال يائس بطول ميل ونصف إلى أن تم تمزيقه وجيشه مرقاً في اليوم الثامن (من الشهر).

وعندما بلغت هذه الأخبار إنجلترا عقد مجلس آخر للوزراء وأتخذ قراراً بإتخاذ طوعاً وتحريضاً إن أمكن ذلك وثم تجهيز حملته عسكريه جيدة القتاد، من ٤٠٠٠ جندي بريطاني تحت قيادة الجنرال السيد جerald جراهام ووصلت إلى سواكن. وفي السابع والعشرون من فبراير ثم استدعاء الشيوخ والزعماء. وأخبرهم جراهام بأنه من الأفضل لهم، بدلاً من محاولة قتال الإنجليز، أن يرسلوا وفداً منهم إلى الخرطوم لبحث قضاياهم ومطالبهم مع غردون.

* يقطن الشايقية ضفتي النيل بين كورتى وبرتى (دار الشايقية) وجزءاً من سهوب البيوضة. وهي قبيلة سامية تدعى إبتسابها للعرب عن طريق الشيخ شايق ابن حميدان.

وطلب السير إفلين وود (سردار الجيش المصري) والذي كان حريصاً على منح القوات المصرية الناشئة الفرصة للمشاركة في الدفاع عن أملاك سمو الخديوي، السماح له بإرسال كتيبة للانضمام للحملة. لكن اللورد جراتفيل أوضح له بأن الجيش المصري، الذي نظم حديثاً، مخصص فقط للخدمة داخل مصر، وليس في السودان. واقترح بدلاً من ذلك إرسال قسم منه إلى أسوان لحماية الحدود.

وقد تم السماح لقليل من الضباط الإنجليز والمصريين، العاملين في جيش السير إيفلين وود، بالانحاق بالحملة وتم تزويدهم بكل ما يمكن من الدعم من المدافع والخيول والجمال من الجيش المصري، وقد نشبت معركة التيب، في ٢٩ فبراير، وجرى فيها قتال عنيف بدأ ببداية عندما ألقى ستة ألف من تجار الرقيق بأنفسهم على المربعات البريطانية بشجاعة وعناد بالأسلحة وخلفوا وراءهم على الرمال ١٥٠٠ من القتلى. وعندما وصلوا إلى طوكر وجدوها قد استسلمت، أو الأخرى (لأن وسائل وأساليب حروب المصريين فريدة من نوعها) وجدوا أن الحامية قد توصلت إلى نوع من التسوية مع المحاصرين لهم بأن يسيطروا جميعاً على قلعتها. كان ذلك وضعاً غريباً من نوعه بل مضحكاً، إذ لم يقم المحاصرين، ربما متأثرين بتردد رجال الحامية بإبانتهم بعد. وقد تم إخراج ستمائة من الرجال والنساء والأطفال منها وإعادتهم إلى القاهرة.

وبعد ذلك بقليل في الثالث عشر من مارس، اصطدم جراهام بالعرب في قوة أكبر، ١٢٠٠٠ طبقاً لتقديرات دقيقة، وبعد قتال عنيد وشرس في طماي قتل منهم ٢٠٠٠ وشنت البقية في الجبال.

وبعد النصر في طماي فكروا في محاولة لمساعدة غردون، الذي كان يبرق بحرارة من الخرطوم حاثاً لهم بإبقاء الطريق مفتوحاً. كان الجو بارداً والآبار التي على الطريق مليئة بالمياه، وكان كل شيء يشير إلى التقدم نحو بربر. لكن جدلاً كبيراً ثار حول جدوى ذلك التحرك وما لبثت تلك الفكرة أن خمدت.

وانقطع كل أمل في وصول النجيدات من سواكن. وأصبحت قبائل الهندوة والأمرار، وعلى طول الطريق من سواكن إلى بربر في حالة من الثورة الواضحة وانقطع أي تواصل مع الشرق تماماً*.

* كانت الصعوبات التي واجهت الحملة التي جاءت بعد ذلك، من كورتى إلى النعمة، لا تعطي إلا فكرة بسيطة عن المخاطر التي كانت مستتجة إذا ما تم إرسال قوات من سواكن إلى بربر وخاصة بعد سقوط الأخيرة.

ففي حملة صحراء البيوضة كانت المياه متوفرة طوال الطريق. وكانت الآبار الأخيرة في أبو طليح لا تبعد إلا بأربعة وعشرين ميلاً من النيل بالنعمة. أما في طريق سواكن/ بربر فإن آخر الآبار تقع في منطقة أو بالك، على بعد ثمانية وخمسين ميلاً من النهر ومع ذلك فاتها لا تحتوي إلا على مياه قليلة. وفي ما حوبي هناك بئر تبعد سبعة أميال عن بربر لكنها لا تكفي لأكثر من ٣٠٠ من الرجال والحيوانات. وعندما تم البحث في خيارات الطرق التي تستلزمها حملة إنقاذ غردون كان الوضع قد تغير تماماً بين شهري مارس ويونيه. ففي أوائل يونيه كانت بربر قد سقطت في أيدي العدو والذين تحصنوا فيها بقوة. وكان بمقدورهم المعرفة المبكرة لأي تحرك بريطاني من سواكن باتجاههم وسيتمكنون من حشد أعداد ضخمة من المقاتلين في بربر أو بالقرب منها مما يهدد بالويل والثبور أي قوة بريطانية متوسطو تتقدم نحو النيل بعد رحلة مضنية شاقة حتى لو لم تواجه مشكلة المياه. ويجب أن نتذكر أن قبائل الهندوة والأمرار، التي تسيطر على طريق سواكن / بربر كانت في ذلك الوقت متشعبة بروح المهدية وربما كانوا سيعيقون تقدم الحملة وسيسيطرون على الآبار ويهددون خطوط الإمداد الطويلة الممتدة لأكثر من ٢٤٠ ميلاً.

لم يتم تجاهل أهميه بربر أبداً. وكان الجنرال غردون، عندما وصلها في طريقه للخرطوم، قد توقف فيها وأجبر مديرها حسين باشا خليفة بالمنشور الخاص باخلاء السودان. وكان حسين باشا خليفة قد تولى وظيفة مدير بربر لبعض الوقت، وكان زعيماً لقبيلة العباددة، التي تمتد حتى كروسكو وأبعد من ذلك أيضاً. لذلك كان من مصلحته الحفاظ على المدينة والدفاع عنها وإن يؤكد ولائه للحكومة. ولكن وبعد الاستيلاء على المك، إنتشرت روح الثورة خلال المنطقة شمال الخرطوم وقد ثار الآن رجال قبيلة الشايقية بين بربر والخرطوم وإستعدوا، تحت قيادة الأمير الهدي، للهجوم على بربر. وكان المسئولون في مصر يعرفون تماماً أهمية الاحتفاظ ببربر لتأمين الإتصال بين القاهرة والخرطوم. ومن ثم تقرر إيفاد الكابت كتشنر، يرافقه الملازم رندل، إلى بربر ليسدي النصح لحسين باشا خليفة. غادر الضابطان القاهرة في أوائل مارس، لكن الأحداث بالقرب من أبو حمد قد صارت في منتهى الحرج نتيجة لثورة الرباطاب العرب بين ذلك المكان وبربر. لذلك صدرت أوامر مضادة إلى أسوان تمنعهما من التقدم لداخل البلاد (السودانية). لكن تم استغلال خدمتهما في تجنيد قوة من عرب الفقرا والعاشياياب والعباددة. وكاتوا يأملون أن يتمكنوا، بمساعدتهم، من فتح الطريق إلى بربر. ولكن بعد إنهيار تلك الخطة فقد تم نشر هذه القوات من العرب، على طول الصحراء الشرقية، كمحطات خارجية تمتد حتى البحر الأحمر. إذا أنه بإنتشار الثورة للشمال تصبح سلامة كروسكو وأسوان مهددة. وبالفعل كان العرب والهلع، الذي يصل لمرحلة الفرع الشديد، قد حدث في المدينة الأخيرة. وكان رسل المهدي، ناشطون في دفع عرب العباددة والبشاريين للثورة فقام الكابتن كتشنر بعدة حملات داخل الصحراء، مصحوباً بالعباددة الموالين، لمحاولة اعتراض زعيم المتمردين - رجل يسمى الفكي الشمامسي (السماتي؟)، كما تسلم أيضاً فرماتاً من سمو الخديوي يفوضه فيه الدخول في مباحثات مع قبيلة البشاريين، التي تقطن على الشرق من مناطق العباددة، والتي تمتد مناطقها من قرب سواكن وشمالاً حتى خط العرض الذي تقع فيه قنا، والذين، إذا ما إتصموا للثوار، فأنهم سيهددون سلامة مصر وأمنها الذي سيهدد من جناحه الشرقي. وقد ساعد تأسيس المحطات الصحراوية، والإجتماع الناجح مع شيوخ البشاريين، والحملات الاستكشافية العديدة التي قام بها الكابتن كتشنر والملازم رندل في الصحراء الشرقية، كلها ساعدت في طمأنة القبائل وأضعفت من انتشار روح الثورة وتمدها نحو الشمال.

وكانت الدوريات النهرية تجوب باستمرار نهر النيل. وعلى البواخر المدرعة كان الجنود من لابسى السترات الزرقاء، يفودهم ضباط البحرية يبحرون على الشمال والجنوب من أسوان ويبثون الطمأنينة في قلوب السكان على ضفتي النهر.

وتقرر في أوائل أبريل أن يتم تحصين وادي حلفا وكروسكو وأن يتمركز الجزء الرئيسي من القوات في أسوان. وكان يعسكر في وادي حلفا في ذلك الوقت الكتيبة الثالثة المصرية. أما فوج سسكس الملكي، والذي كان قد أرسل من قبل إلى أسبوط، فقد أرسل في السادس والعشرين من يونيه إلى أسوان. وبعد بضعة أسابيع توجهت مشاة دوق كورنول الخفيفة إلى قنا.

وأرسلت حملة أيضاً على الصحراء الغربية يفودها الملازم ستوارت وورثلي ومعه خمسمائة من بدو الجوازي. فقد ظنوا أن من الممكن أن تتم محاولة لغزو مصر عن طريق، درب

الأربعين * ولم تتوفر معلومات مؤكدة عن كميات المياه بالطريق، لذا تم إرسال الكولونيل كولفيل ليرافق الملازم ستوارت وورثلي وليكتب تقريراً عن حالة الطريق.

هذا الطريق المزمع يمر (بواحتي) سليمة وبريس وإلى ساقية العبد على النيل ومنها إلى حلفا. وكان الاستنتاج الذي توصل إليه هذان الضابطان هو أن الطريق لا يصلح لمرور قوات تزيد على ألف رجل.

خلال ذلك كانت بربر محاصرة بشدة بواسطة الشايقية بقيادة الهدي. وقد حاول بعض الموظفين التسلسل شمالاً لكن قبيلة الرباطاب إعتزضت طريقهم وأرغمتهم على العودة. وأثبتت هذه العملية لحسين باشا خليفة أن مواصلاته مع الشمال قد انقطعت تماماً. من هنا فقد قرر الدفاع عن المدينة بقدر إمكاناته وقام بتنظيف المناطق المجاورة للمدينة حتى يؤمن مجاًلاً مفتوحاً لنيرانه. لكنه لسوء الحظ لم يحم ببالاة وتنظيف جنينة لأحد شيوخ الدين والتي تقع وراء السور مباشرة. وفي هذه الجنينة تجمع المحاصرون، وقد علموا بأن ذلك الجزء من الاستحكامات المجاور للجنينة محروس بواسطة العبادة والذين كانوا من لحمهم ودمهم. توقعوا بالتالي مقاومة ضئيلة. وبهجوم ضار تم شنه في صباح السادس والعشرين من مايو إستلموا المدينة وصارت في أيدي الثوار. وقد وصف شاهد عيان ما حدث قائلاً:

"جمع حسين باشا خليفة عدداً من رجال قبيلته وأوكل لهم مهمة حماية ذلك القسم من المدينة المسمى بشيخ زين العابدين. وقبل شروق شمس السادس والعشرين من مايو سمعنا صوت رصاصه إنطلقت من تلك الجهة. وفي الحال إندفع المتمردون داخل التحصينات وإقتحموها. وقد قاتل بكباشينا قتالاً بطولياً وقتل منهم الكثير. لكنه، عندما أيقن استحالة النصر قام بقتل خادمه وفرسه وحماره ثم أنتحر بعدها.

وأخيراً أمرنا الضابط المسئول عن الفرسان بتشكيل مربع على ضفة النهر ومكثنا هناك لحوالي الساعتين ولم يحم أحد فيها بمهاجمتنا. وقد شاهدنا باب غرفة الخزينة مفتوحاً وسمعنا العرب يسألون عن مكان الأموال* وتم إخطارهم بأن حسين باشا قد أخذها بعيداً، ثم أرسل لنا حسين باشا أوامر بإلقاء سلاحنا وقد فعلنا ذلك. كانت خسائرنا قد بلغت ١٠٠ رجل إضافة لعدد كبير من التجار والأهالي وقد قتلنا بدورنا عدداً من رجال العدو".

لكن الوصف الذي جاء أعلاه لا يفصل المذبحة الرهيبة التي إستمرت ليومين بعد سقوط المدينة. ويبدو أن قلوب المدافعين، مع حسين باشا، كانت واهنة رغم أنه لاشك في أنه وقف موقفاً صلباً. فبدون أن يفقد أعصا به عند علمه بالإعلان القاتل، الذي يتخلون به عن السودان، إلا أنه بدا

* درب الأربعين هو الطريق الصحراوي الذي يبدأ من كردفان ودلفور ويمر بواحتي سليمة والخارجة إلى أسبوط.
* كان الجنرال غردون قد أرسل مطلباً بمبلغ ٦٠,٠٠٠ جنيه توضع تحت تصرفه. وقد وصل المبلغ لبربر. ولكن لانقطاع الاتصال بالخرطوم فقد ظل في خزينة بربر ثم ما لبث أن استولى عليه محمد الخير، شيخ الرباطاب. **، والذي عين فيما بعد أميراً على بربر (المؤلف).

** الصحيح ربما كان شيخ الميرغاب أو شيخ الغيش (المعرب).

واضحاً بأسه من النجاح. وقد جرح أثناء الهجوم في ساقه وخلال اليومين التاليين أقفل على نفسه باب أحد المنازل حتى سمح له فيما بعد بالبقاء في المدينة.

وبعد سقوط المدينة، تم تعيين محمد الخير أميراً على المديرية، أما الهدي، مع قواته الظافرة، فقد تولي أمانة دنقلا بتفويض من المهدي، ومن ثم تقدم لاستلام هذه المنطقة الكثيفة السكان والمزدهرة بالموارد.

وكان مدير دنقلا في ذلك الوقت رجل يدعي مصطفى باشا ياور. وهو رجل شركسي المولد تقلب في عدة ظروف أثناء حياته. فقد جلب إلى مصر كعبد من العبيد وتم بيعه للخديوي عباس باشا. وقد تلقى تعليماً طبياً حتى كان عام ١٨٦٤ عندما بذل إسماعيل باشا كل ما أمكنه من جهد لتحرير بلاده من طبقة المماليك وتم إرسال مصطفى ياور للسودان.

كان في رتبة الملازم عندما توجه للسودان. وبوصوله للخرطوم رقي لرتبة اليوزباشي وبعدها عمل لعدة سنوات في كردفان في وظيفة مدنية. وفي عام ١٨٧٧ عين مديراً لدنقلا. وعن وصول الجنرال غردون تم دمج مديرتي بربر ودنقلا تحت إدارة حسين باشا خليفة* ومن ثم الاستقناء عن خدمات مدير دنقلا. لكنه أعيد للخدمة بعد فترة وجيزة.

وقد شغل نفسه بالدراسات الدينية وصارت له شهرة عظيمة في التصوف والتقوى ورغم هذا فقد كان رجلاً ذا قدرات إدارية ودبلوماسية شرقية ملحوظة.

وعندما ثبت المهدي نفسه بالأبيض، كان مصطفى ياور بين العندين الذين تلقوا رسائل من المهدي للتسليم للنظام الجديد. ويبدو أن طهارة يده المعروفة هي التي دفعت المهدي ليخطر به بالاحتفاظ بمنصبه كأمر على المديرية وأنه لا يطلب منه سوى إبداء الولاء له قبل ذلك.

ولكن لا يبدو على مصطفى ياور، رغم أنه ربما كان متعاطفاً مع المهدي وخاصة في ما وصل إليه الدين من تدهور، وضرورة إحيائه، أنه كان على استعداد للقبول بمحمد أحمد كداعية إلهي جاء لإكمال الرسالة التي يحتاج إليها العالم بأشد الحاجة. لكنه على كل حال أرسل له رداً ملطفاً فقد كان واضحاً لديه أن جنسه (الشركسي) فقط يكفي لحرمانه من الحفاظ على وظيفته الكبيرة في مجتمع شعاره هو " الموت للترك".

عاش حسين باشا في بربر بعض الوقت، بعد سقوطها، ثم ذهب إلى أم درمان حتى نجح فيما بعد بالفرار. لقد تمكن من خداع المهدي بأن تظاهر بأنه رأي رؤيا تم حثه فيها للتوجه لقبيلته - عبادة كروسكو - وإحضارهم لتلقي الدين الصحيح. وقد لفتت المهدي بصحة الرؤيا لدرجة السماح لحسين باشا بالذهاب إلى مبتغاه. وفي نفس الوقت سلمه منشورات موجهة لسمو الخديوي وللعبادة ولآخرين، إضافة للمرمان بتعيينه أميراً وقائدًا للعبادة. قام أيضاً بحمل رسائل معه من أساري الأوروبيين بالخرطوم ولكن كان واضحاً أنها قد أُلغيت عليهم من قبل قائدهم وأنهم ما كتبوها إلا قسراً لأن قيمتها التوثيقية لا تساوي شيئاً.

وصل حسين باشا للقاهرة في ١٢ يولييه ١٨٨٥. وقدم نفسه للسلطات لكنه حوكم أمام محكمة عسكرية وتمت تبرئته. وقد توفي بعد ذلك بشهور في القاهرة

وقد انتشرت روح الثورة ونشطت في ذلك الجزء من دنقلا الواقع على حدود مديرية بربر. فقد قام الشيخ الطيب من كورتى مع ود كنكين * من مروي بإثارة سكان تلك المناطق والتي سرعان ما خرجت من الأيدي. لهذا تم إرسال نائب المدير، جودت بك، مع قوة صغيرة لاستعادة النظام لكنه هزم وطرده حتى الدبة حيث تم فيها تعزيز قواته مما مكّنه من إلحاق بعض الخسائر وسط الثوار.

رغم ذلك كانت مناطق الإضطرابات محلية محدودة. وقد كانت لسلسلة البرقيات المعقدة التي يرسلها مصطفى باشا ياور إلى القاهرة، شارحاً فيها الأحداث في مديريته، ما سبب بلبلة بين السلطات هناك لدرجة جعلت من المستحيل عليهم القول إذا ما كان مصطفى باشا مخلصاً في ولائه لهم أم أنه مجرد عميل للمهدي يعمل على تلطيف الوضع وتهديته حتى يتمكن الثوار المتمردون من السيطرة على كامل المديرية. وتزايدت هذه البلبلة يوماً بعد يوم. وصدرت الأوامر للمدير لمغادرة المديرية مع كل من يود العودة إلى مصر. لكنه كان يرفض بإصرار بحجة أنه إذا ما تم إخلاء دنقلا فأن طريق انسحاب غردون من الخرطوم سيقطع حتماً.

وفي تلك الفترة وصل الهدي إلى جوار مروي وشرع في التقدم، مع مجرى النهر، مخترباً حدود دنقلا، جامعاً في طريقه لعدد من الرجال من ذلك الإقليم المكتظ بالسكان. لكن البلبلة وعدم اليقين التي إنتشرت وقتذاك في مدينة دنقلا أخذت تسود في كل أنحاء الإقليم. وكان الاعتقاد الشائع لدى السكان، الذين أصبحوا من أتباع الهدي، هو أنهم في طريقهم للعاصمة لحضور مهرجان أو استقبال يتم فيه قراءة فرمان من المهدي يثبت فيه مصطفى ياور كأمر وحاكم للمديرية. لكن نوايا الهدي الحقيقية، والتي كانت خاصة بجعل نفسه سيداً على المديرية، لم تعد خافية الآن على أحد. وقام أحد الأهالي الموالين للحكومة، والذي كان قد أنجرف في تيار أتباع الهدي، بالفرار إلى الدبة وحذر الحامية المكونة من الباشبوزوق باقتراب الهدي نحوهم ومن نواياه تجاههم. من هنا قام جودت بك، نائب المدير، ونور الدين بك، قائد القوات، باتخاذ كل الاستعدادات اللازمة لإعطاء الغزاة استقبلاً ساخناً. ووصل الهدي بقواته أمام الدبة في الثالثة بعد الظهر يوم الخامس من يولييه واستقبله رصاص منهمر إتصب عليه من أسوار القلعة. فقد كان الجنود، الذين أجمعوا من قبل بشن العديد من الغارات على الأهالي، يعرفون جيداً ألا يتوقعوا أي رحمة من أنصار المهدي إذا ما وقعوا في أيديهم. وقام رجال الهدي بمذبحة رهيبة ولكن تم صدهم رغم ذلك. وبعد أن فقدوا كثيراً من رجالهم أجبروا على التقهقر مرة أخرى إلى مروي. وقام جورت بك بمطاردتهم على ظهر الباخرة والنقي بالأنصار المتراجعين بالقرب من الحتاني ودفعهم نحو الصحراء بعد أن شنت شملهم*.

وعاد الأهالي إلى بيوتهم بعد ذلك وعادت السلطة الحكومية مرة أخرى للإقليم الثائر. تراجع الهدي نحو مناطق التلال في صحراء بيوضة. ومن هناك كتب للمهدي عن الفشل الذي أصابه وترجاه بأن يرسل له تعزيزات على وجه السرعة.

* تم أسره في معركة توشكي في ١٨٨٩/٨/٣.

* الحتاني تسمى أيضاً (تاني). وكانت القوات البريطانية مصكرة بها قبل استدعائها عام ١٨٨٥.

وفي تلك الأثناء كانت أخبار عمليات مصطفى باشا تزداد غموضاً يوماً بعد يوم بالنسبة للسلطات في القاهرة، وحتى نتائج القتال الذي دار في الدبة كان مصدر تساؤل. وتطوع كتشنر باشا** من كورسكو للتوجه إلى دنقلا للتحري فيما جرى من أحداث بنقسه وكتابة تقرير بذلك للسلطات. تم منحه الإذن بالذهاب ومن ثم تحرك في الحال (الدنقلا) تاركاً مسئولية القبائل البدوية والإهتمام بأمرها إلى الملازم رندل. وصل إلى دنقلا في الأول من أغسطس واستقبل بحفاوة من قبل المدير. وجاء في تقريره الاعتراف أخيراً بأن المدير، ومهما كانت ميوله السابقة، فإنه الآن من الموالين تماماً (للحكومة) وأن الأهالي يقفون معه، وأن الانتصارات التي أحرزها مؤكدة لا شك فيها. وبعد بضعة أيام توجه الميجر كتشنر نحو الدبة وتفقّد بنفسه أرض المعركة التي دارت بها مما أكد له، بدون أي مجال للشك، نجاح المدير في كسبها. وبعد قليل من ذلك قام بتفقّد المنطقة حتى أم بكون بصحبة المدير، والذي إنتهز هذه الفرصة لتنبيه السكان للإبتعاد عن الثورة، وقام في نفس الوقت بالمعاقبة الفورية لأولئك القرويين الذين تورطوا في الأحداث الأخيرة.

وأثناء ذلك تلقى المهدي رسالة الهدي التي يترجى فيها إرسال التعزيزات له. وقام بالتالي بإرسال الأمير محمد محمود مع ٨٠٠ رجل للتوجه من الرهد إليه ومساعدته. كما قام في نفس الوقت بإرسال الخطاب التالي لمدير دنقلا والذي، لما تلى ذلك من أحداث، لم يتم إستلامه إلا بعد فترة من الوقت. ليس خافياً أنني خليفة الرسول. ولقد كتبت لك من قبل مرتين داعياً لك إلى الله وراعياً لك في حيازة نعمة في الدنيا وفي الآخرة. لقد وضعتك في درجة عالية وقيادة علي كل أهل منطقتم ولن بشرط أن توالوني ظاهراً وباطناً. أنزع نفسك من حكومة الكفرة الترك وقابلهم بالعداوة وأقطع كل صنة أو صداقة بهم وأعمل بما يوافق رعاياك من أهالي دنقلا وكن معي في شأني فهو الطريق إلى الله ورسوله.

ولقد أنقضي وقت طويل منذ ذلك وكنت عبثاً أنتظر وصول إجابة منكم تفيد بتنفيذ أوامري وآمالي. لكنكم لم ترسلوا لي ولو رداً شفوياً باستلام كتابي. ولقد علمت بأنك لا زلت مستمراً في خدمة أعداء الله الأتراك وأنتك تقوم بتدعيم مركز السابق وإتلك مستمر في الاتصال بهم عن طريق التلغراف، والذي لا زال خطه سليماً، وفي هذا تناقص تام مع ما قام به أولئك الأهالي الذين التفوا من حولي لنصرة دين الله جل جلاله. وإضافة لذلك فأنتك تفرض الضرائب على المسلمين في مديرتك. ورغم إتلك لم تقم بتنفيذ شروطي عليك، ورغم كل ما أسمعته منك، فأنتي لم أستجب للرأي القائل بقطع الصلات بيننا ولم يهتم في ذهني أي فكر شرير بشأنك، بل احترمت العهد الذي بيننا واحتفظت برأيي الطيب نحوك وأملت في أن أجد عنراً لصمتك. ولم استمع للاتهامات الموجهة إليك والتي تتحدث عن خبثك وخيانتك وذلك بدافع الشفقة عليك رغم علمي بأن وكيل أحمد الهدي قريب من حدودك، بعد أن زحف بجيوشه من بربر والذي يخشى، من أجلك، من نشوب عمليات التحريض على الفتنة والعصيان والخيانة والتي قد تنتهي بسفك الدماء بينكم، وأنتم إتباعي.

** في ذلك الوقت كان كتشنر برتبة صاغ (ميجر) ولم يحصل على الباشوية بعد (المعرب).

ولقد عينت حامل هذه الرسالة، محمود بن محمد، ليكون أميراً عليك وعلى الهدي وليرفع يد الأخير عنك. وسيمتحن مدى صدق إخلاصك وولاءك. لقد تحرك بأوامري. وهو رجل يتميز بذكائه الشديد وصفاته السامية بين أصفائي وزملائي. لذا فقد واصله، وإن كان تسليمك صادقاً وأنت حريص علي مرضاه الله ووائقي به، وإن سلمت لي وتابعتي بالصد وبالصديق وإخلاص وتجنببت الخداع فأنتك ستطيع مبعوثي في الحال وتسلم له أعمال الحكومة والسلاح والجنود. أما فيما يختص بشأنك فعليك الإلتزام بالعقد الذي سبق بيننا وقم بكتابة قائمة مفصلة وسلمها للأمير محمود واستخرج منها نسخة وأحضر لي بنفسك هنا ومعك أكبر عدد من الأهالي وعوائلهم وثرواتهم التي تقدر على حملها وأن تعتبر ذلك هجرة في سبيل الله وعمل من أعمال الصلاح. ثم أترك ما لم تستطع حمله وأوكل عليه من يقوم بشأته. ولقد أمرت محمود بحماية كافة حقوقك. إن غرضي من استدعائك ليس فقط لإثبات أهميتك، بل لإضفاء الشرف عليك حيث تعود بعدها مجدداً محترماً ولتكون شاكراً لي ذلك الفضل وحامداً لذلك. من هنا فعليك الإسراع بالحضور لي وكن مخلصاً في طاعتك لي. وتجنب الانقياد للمكاسب الدنيوية وزينتها والتي لا يسعى إليها إلا الذين ابتعدوا عن درب الله*

وكان محمد محمود قد التحق بالهدي بالقرب من مروي في أوائل سبتمبر وقاما معاً بالانزول مع النهر حيث كان المدير قد حشد قواته في كورتي وهناك ألحق هزيمة تامة بالثوار.

والوصف التالي لأحداث القتال، والمثير للإهتمام، قد قام به نور الدين بك وبعض الضباط

الذين كانوا حاضرين:

١٢٠ سبتمبر ١٨٨٤

لنا الشرف أن نقرر الآتي:

بعد المعركة التي دارت في الحتاني بين القوات (الحكومية) وعصابة أحمد الهدي، أجبر الأخير على الفرار لما وراء المديرية. وقام أولئك الأهالي من مروي وأم بكول، والذين كانوا قد انضموا للزعيم، بهجره والابتعاد عن دعوته وبالتالي تمكنت قوات المديرية من العودة لمختلف النقاط التي كانت إحتلت قبل القتال.

لكن هذا التأثير تمكن، على كل حال، من جذب السكان إليه وهم الذين كانوا سمعوا بوصول محمود حاج محمد، والذي عين أميراً على دنقلا بواسطة النبي الزائف.

وعندما سمع المدير بذلك، أسرع بجمع كل القوات التي تحت تصرفه وتوجه إلى أبو قسي ومنها أرسل العيون لمعرفة عدد الثوار ومكانهم.

وقد تباحث أحمد الهدي مع المبعوث الأخير ووصلا لاتفاق لضم قواتهما سوياً لمواجهة الحاكم.

وعندما سمع المدير بهذا الاتفاق توجه إلى الدبة ومنها ذهبنا معه مع قسم من القوات المواليه للحق والعدل ومعنا أيضاً فصيل من القوات النظامية.

* وجد هذا الخطاب في جسد الأمير محمود عقب مقتله. وكان قد سمي حاكماً على دنقلا وقتل في معركة كورتي. والخطاب معلنون إلى مدير دنقلا بواسطة محمد أحمد المهدي ومؤرخ بالتاسع من رمضان (٢ يولييه ١٨٨٤).

تقدم الزعيمان المتمردان نحو كورتى حيث جمعوا حوالي ٣٠٠٠ رجل. وهناك تلقوا زيارة من حسن العبادي، من قبيلة حسين خليفة، المدير السابق لنقلا ويرير، والموجود حالياً مع النبي الزائف قائداً لمجموعة من المتمردين.

كان حسن العبادي مبعوثاً من النبي الزائف، والذي عينه حاكماً عاماً على كل مصر وملحقاتها. وقد أصطحب معه عدداً من الأشخاص، الذين كان مقرراً توليهم لمناصب رفيعة في مصر. وكان منهم أمير على إسنا وآخر على قنا، وبالطبع واحد على كل مركز هام في مصر. كما كان معه أيضاً حاكم لطرابلس.

وبعد أن إلتقوا وتباحثوا قرروا بالإجماع ذبح كل القوات الموجودة هنا وبعد ذلك الزحف شمالاً لتنفيذ أوامر النبي الزائف لهم. وقد أقسموا جميعاً على القرآن بالهجوم علينا وعدم الأبقاء على أي أحد منا. وعند وصولنا إلى التفرع، المقابلة لأم بكول، في الثاني عشر من ذي القعدة ١٣٠١هـ، الموافق ٣١ أغسطس ١٨٨٤، ترك المدير القوات بذلك المكان ثم تسلم المركب التي وجدت بالمديرية وأخذ معه نور الدين بك وبعض القوات وانقض ليلاً على المتمردين الذين تصكروا بكورتى والذين كان معهم، كما سمع، عدد من الأهالي الذين أجبروا على إصطحابهم. وعند المساء استجوب المدير بعض هؤلاء الآخرين بغرض الحصول على معلومات عن الحالة العامة، ولتقرير الخطوات اللازم إتباعها لمواجهة العدو.

ثم عاد المدير بعدها ليصل إلى معسكره في التكر قبل ساعتين من إتبلاج الصباح. ثم تحرك نحو الغرب حيث وجد كل شيء جاهزاً قبل شروق الشمس - المراكب، الجنود، الجمال العربية، وخمسين جواداً كانت قد صودرت من مختلف الجهات بالمديرية.

ثم أصدر المدير أمره بالهجوم. وبعد أن خاطب قواته قام بوضع نفسه في مقدمتها. دار الاشتباك في أقصى طرف جزيرة العود التي تقع بين أم بكول وكورتى.

وكان عدد الجنود الذين تلقوا أمراً بالتزول من المراكب أربعمائة تم توزيعهم كما يلي: على الجناح الأيمن الفرسان والهجاة. وفي الوسط المشاة. وعلى الجناح الأيسر جنود العرضي الرابع.. وكان المدير في الوسط مع المدفع. أما العدو فقد إنحدر إلى درو شمالاً من قواتنا.

كانت قواتهم تتكون جزئياً من جنود مديرية برر والذين تسلحوا ببنادق الرمنجتون، إضافة للرجال الذين سلحهم الشريف محمود، الذي عين أميراً على دنقلا، وحسن العبادي، الذي عين أميراً على مصر وملحقاتها. لكن المدير أمر قواته، بحصافة، بعدم إطلاق النار عليهم وركزوا إهتمامهم على الهجمات الصغيرة المركزة لجنوده والذين ألحقوا بأنفسهم على أجانب العدو وقتلهم وذلك إلى أن تلقى الفرسان الأمر بالهجوم. بعد ذلك قامت قواتنا بصب النيران عليهم وقام الأمراء الذين نكرتهم من قبل بالبقاء بأنفسهم وسط جيوشنا حتى يستولوا على مدفعنا ويأسروا أو يقتلوا المدير. أمهلهم المدير حتى صاروا على بعد ١٥٠ ياردة ثم أمر القوات والمدفعية التي في الوسط للرمي بالقذائف المتناثرة* كما أمر الجنود الذين بالجناح الأيسر لإطلاق النار على الذين تحصنوا في المنازل والأسطح.

* تسمى قريب شوط. وهي قتال محشوة بالعديد من الكرات اللولبية أو النحاسية التي تنتشر عند إطلاقها محدثة أثراً ماحقاً على المهاجمين (المعرب).

شكراً لمديرتنا! فقد أحرزنا النصر رغم قلة عددنا، وكثرة العدو، وشراسة هجومهم، والقسم الغليظ الذي تعهد به زعمائهم. كان مديرتنا يبث روح الحماس ويشجع الجنود في كل مكان وكانت طاقاته وشجاعته خارقة للعادة.

ثم هرب العدو تاركاً على أرض المعركة كل الأمراء الذين أشرنا إليهم من قبل: محمود أمير دنقلا، حسن العبادي أمير مصر، وأمير طرابلس وغيرهم. وقد فقد بابتكر كوكب حياته أيضاً. قام رجال أحمد الهدي بحمل جثمانه ودفنه في أسلي مع بابتكر.

وقامت قواتنا، بعد أن حثها المدير من على ظهر حصاته، بمطاردة العدو حتى نال الإرهاق منهم ومن خيولهم فعادوا بعد ذلك.

بلغت خسائرنا جندياً واحداً من الفصل الرابع، كما جرح كل من الصاغ حسن أغا والصاغ سليمان أغا مع خمسة آخرين من الجنود وسبعة من الهجاة. وكانت جراح حسن أغا خطيرة لكنها لم تكن مميتة.

وهذه هي قصة ما دار في المعركة.

وعندما جرى ذلك الإشتباك كان الميجر كتشنر في الدبة، بعد أن أمر بالبقاء فيها بينما توجه مصطفى ياور ضد الثوار.

وفي تلك الأثناء كان السير إفلين وود، سردار الجيش المصري، في حلفا. وبعد أسابيع قليلة من المعركة وصلت جماعة من الجنود إلى حلفا حاملة معها رأسين بشعين على رؤوس الحراب، وتحت كل منهما ورقة معلقة توضح أن تلك الرؤوس كانت لأمر طرابلس وأمير مصر، واللذان قُتلا في معركة كورتى.

وقد ترجى المدير، في خطاب منه إلى السردار، أن يرسل أحد الرؤوس لجلالة السلطان والآخر إلى سمو الخديوي. لكن السير إفلين وود رد على ذلك بخطاب مهذب قال فيه بأنه رغم البطولة التي أبدتها صاحب السعادة وقواته إلا أنه لم تجر العادة على إرسال مثل تلك الأشياء لهم. ومن ثم دفن الرؤوس في إحدى مقابر حلفا.

بعد ذلك دخل الميجر كتشنر في مباحثات مع (زعيم) الكبابيش الشيخ صالح، والذي تنتشر قبيلته من دنقلا وحتى كردفان، لضمان كامل التعاون مع هذه القبيلة القوية، إضافة لإيجاد وسيلة للاتصال بالسودان.

لكن نتائج هذه المباحثات لم تثمر إلا فيما بعد. أما حالياً فقد وجه الميجر كتشنر اهتماماته للاستعدادات لمعاونة الحملة البريطانية، والتي تقر بعد لأي إرسالها لأنقاد الجنرال غردون في الخرطوم.

ولقد وصفت الأحداث المتعلقة بهذه الحملة التاريخية في غير هذا المكان لذا لا أنتوي التوسع في هذا الأمر الآن، لأن أي حدث متعلق بهذا الأمر محفور في ذاكرة الجميع.

وفي الفقرة التالية، من التقرير الأخير للورد ولسلي، خير وصف للبطولة التي واكبت عملية محاولة الوصول لتلك المدينة المحاصرة والتي سقطت قبل يومين من وصول النجدة. فقد قال:

"وفي الختام لابد أن أضيف، ورغم أن الحملة لم تتوج بالنصر، إلا أن مغنويات وسلوك الجنود الذين لعبوا دوراً في هذه العملية، سواء على النيل أو في سواكن، لا ينظر إليها من قبل أي إنجليزي إلا بعين الرضا. لم يستطع الجيش الذي أقوده من إنجاز المهمة التي أوكلت إليه أو إنقاذ حياة الجنرال البطل غردون أو رجال حامية الخرطوم. لكن هذا لم يكن نتيجة تقصير منهم أو لنقص في شجاعتهم أو إنضباطهم أو عزمهم أو تحملهم للمشاق. فلقد تغلبوا على مصاعب جسيمة لأحد لها وأزاحوا عن طريقهم، عند أي إشتباك، عدواً ندأ لهم في الشجاعة ويتفوق عليهم في العدد. وقد وصلت طلائعهم ضواحي الخرطوم يومين بعد فوات الأوان. ولا أحد يأسف أكثر مني لسقوط ذلك المكان. لكنني، ومعني كل مواطنينا، أنظر بعين الفخر للنضال البطولي الذي قامت به قواتنا في محاولتها إنقاذ الخرطوم والبطل المدافع عنها"

ويمكن القول عموماً، ويكل إتصاف، أنه لم يحدث في تاريخ العالم كله أن قامت حملة عسكرية بالاندفاع قدماً، مع الإجهاد رهيب، ولمسافة ١٥٠٠ ميل داخل بلاد لا توجد عنها معلومات مؤكدة وخاصة المتعلقة بتحركات تلك الأعداد الضخمة، التي لا تهاب شيئاً، للعدو، والتي تكاد تكون عديمة الموارد والإمدادات من كافة الأنواع. لقد قام الجندي البريطاني، في هذا المقام، بأداء خدمة لا نظير لها في الوقت الراهن أبداً.

ولا أود هنا متابعة التقدم الناجح للحملة عبر الشلالات أو الصحاري. وسينحصر السرد على ما حدث بعد أن وصلت القوات على مسافة قريبة من العدو. ولكن، وبينما هي تكابد الأمرين عبر النيل العظيم، فسنتابع سير الأحداث التي تجري في هذا الوقت بالضواحي المباشرة للخرطوم.

فبسقوط بربر في العشرين من مايو قطعت كل خطوط التلغراف وخيمت غلالة على غردون وستوارت وباور والذين لم يتواتوا في العمل، بحبور، وعلى الصمود حتى تنقذهم المشيئة الإلهية. وكانت بعض اللحاحات تصل منهم لبعض الوقت. "هل سيحاول غردون تسوية الأمور شخصياً مع المهدي؟" "ربما لا يقوم بذلك" هل يستطيع بيكر سؤال الأغنياء (من مواطنيه) لإمداده بالمال لاستئجار القوات؟" "قد لا يستطيع ذلك".

وبينما ساد الارتباك كل النواحي، إنصرف للعمل مع قواته التي عانت طويلاً للصمود في وجه الحصار بشجاعة حازت على إعجاب الجنود في كل بلاد العالم.

وفي أوائل مايو واثت غردون أول فرصة لحظ سعيد. لم يكن التاريخ محددًا لكن الخطاب المنشرح الذي كتبه غردون لم يصل إلى المهدي إلا في حوالي الثالث عشر من مايو. فقد كتب فيه: "لقد مات أبو قرجة، الذي أرسلته لاستلام الخرطوم. أرسل جنرالاً آخر غيره". لكن أبو قرجة لم يكن قد مات، بل عاش حتى يستلم الخرطوم. فقد غادر الأبيض في مارس وكان يأمل في دخول الخرطوم بدون مصاعب تذكر. وعندما وصل ضفاف النيل الأبيض بدأ جيشه الضخم في عبور النهر في الكلاكلة حتى يتخذ موقعاً له في الجبهة الجنوبية. وقد انتهز غردون الفرصة. فبالرغم من إنخفاض منسوب النيل فقد كان بمقدور بواخره الإبحار بحرية حتى الكلاكلة. وفي ليلة الثاني أو الثالث من مايو غادرت قوة كبيرة، بالير وبالنهر، الخرطوم سراً. وعند الفجر انقضوا على العدو في حماة عمليات عبوره للنيل. وكان

نجاح العملية تماماً، فقد تم قتل كل الذين وصلوا للضفة الشرقية للنيل. وعادت القوات للخرطوم ولم تخسر إلا أربعين رجلاً. وبهذا النصر البهيج تم الانتقام لهزيمة السادس عشر من مارس.

وخلال مايو ويونيه ويوليه تم يتلق غردون أي أنباء من الشمال وأخذ يتطلع بحرارة لتوصول النجدة القادمة والتي ستدفع العدو للخلف وتعيد لقوة بواخره حيويتها وقدراتها القتالية. وهكذا مضت الأيام تبعاً إذ أن الإستعدادات لحملة الإنقاذ لم تبدأ إلا في أوائل أغسطس.

الأحداث في مناطق السودان الأخرى حتى أوائل عام ١٨٨٥

وبينما كانت الخرطوم تحت الحصار، وقد انتشر مد الثورة المهدية وغمر تلك البلاد الشاسعة الممتدة من حدود وادي حتى البحر الأحمر، ومن دنقلا وحتى خط العرض العاشر، اصطلح ذلك التيهور المندفع، وبقوة عنيفة، السلاسل جبال جنوب كردفان حتى تلتقي في المستنقعات الشمالية للمديريات الاستوائية، لكنه سرعان ما عاود اندفاعه نحو الشمال ويطول وادي النيل.

بدأت مصاعب (المهدية) في جبال جنوب كردفان عقب هزيمة هكس مباشرة. فقد فر بعض الجنود الزنوج إلى جبل الداير ونجوا من المنبحة. تم استدعاء الملك كمبو وأمر بتسليمهم لكنه أفاد بأن هناك جنوداً آخرين (متحصنين) بجبال تقلي، وبأنه سيستجيب لذلك إذا ما قام الملك آدم بتسليم السنين لجأوا إليه. وكان محمد أحمد يعلم تماماً بأن عليه أن يتعامل هنا، ليس فقط مع اثنين من صغار الملوك المستقلين ولكن مع من يتحكمون في جبال عسيرة حصينة تعارض المهدية تماماً. بذل كل جهد ممكن لأقتلاع المتحصنين بالجبال المنبحة ولكن ثلاثة جيوش، واحد بعد الآخر، عادت بدون طائل مرتبكة ومشتتة. لكن نجاحاته في دارفور سرعان ما عادت التوازن وغطت على تلك النكسات.

الأحداث في دارفور خلال عام ١٨٨٤

في نهاية ١٨٨٣ كان الأمير (محمد خالد) زقل يجهز نفسه للتوجه نحو الفاشر والتي كانت قد أعلنت اسمياً ولائها له. وفي الوقت المناسب وصلت الردود على رسائل سلاطين التي كان قد بعضها السيد بك جمعة (بالفاشر) ولعامر أفندي بكباكية. ومع تلك الردود أرسلت مفاتيح الخزائن إضافة لمعلومات تتعلق بأن الرجلين (سيد بك وعامر أفندي) قد لبسا زي المهدية الرسمي وتهندما به.

وتحرك زقل في أوائل يناير بقواته صوب الفاشر. وقبل أن يصل إليها طراً تحول غريب. فقد كان الرجل الذي نقل رسائل سلاطين إلى سيد بك (فكي) يرعى الفكي خليفة عبدالرحمن، وهو من أتباع زقل. وكان من قبل فكياً بالفاشر وصديقاً لسيد بك جمعة. لكنه الآن، وبعد أن تشرب تعاليم

المهدية، لم يتردد في إعلام سيد بك بضرورة الامتناع عن تدخين السجائر. ورغم ضلالة التضحية إلا أن ذلك قد ضايق المدير العنيد لدرجة أنه أمر بإعدام الفكي رمياً بالرصاص، مثلما أمر رجال حامية الفاشر بإعادة ارتدائهم للزي الرسمي القديم والاستعداد لمحاربة هذه الديانة التي تفرض مثل ذلك التشدد على أتباعها. ويبدو أن ما أثر على قراره ذاك هو إدراكه بما حل بحاميتي دارا وأم شنقة من إهانات فظيعة ومن المعاملة القاسية رغم وعود زقل لهم بأنهم، إذا ما استسلموا، فلن يجدوا إلا أطيب المعاملة. لكن الفكي عبدالرحمن لم يعدم، بل أطلق سراحه فيما بعد حيث كتب لزقل بما جرى من أحداث. أسرع زقل عندها إلى الفاشر ليجد أن الحامية قد استعدت لمقاومة تسليم المدينة بالقوة. هاجم زقل المدينة ثلاثة مرات وكان يتم صده عنها في كل مرة فقام باستدعاء سلاطين من دارا وآدم أفندي عامر من كيكابية، كما طلب منهما إرسال تعزيزات وإمدادات له من تلك الجهات. وفي نفس الوقت شرع في تجميع العرب المحليين وضمهم إليه وبهذا أصبحت المدينة تحت حصار محكم. كانت الحامية مكونة من حوالي ١٠٠٠ رجل وقتها، معهم عشرة مدافع ومدفع مكنة واحد. اتخذ زقل موقعا له على الجبل الذي كان به قصر السلطان إبراهيم القديم ومنه أخذ يقصف المدينة بالمدافع. لكن مدافع المدينة سرعان ما أسكتت مدافعه. لكن الحصار أشد عليهم لبضعة أيام. وفي الرابع عشر من يناير تمكن زقل من ردم الآبار التي كان يأخذ منها سكان المدينة ورجال الحامية حاجاتهم من المياه. لم تعد كميات المياه بالآبار التي داخل المدينة تكفي حاجتهم. وقد قيل بأن سلاطين قد متب لسيد بك ناصحاً له بالتسليم حيث لا جدوى من المقاومة. وفي اليوم التالي، الخامس عشر من يناير استسلمت المدينة. عومل العديد من الضباط معاملة قاسية وانتحر ضابطان منهم هما البوزباشي سعيد أغا الغولي والصاغ إبراهيم أغا بنول عندما هددوا بالجلد بالسياط إذا لم يكشفوا عن مخايب نفوذهم التي افترض وجودها لديهم. أما الفكي، والذي كان المسبب الأساسي للحصار فقد تم إعدامه. أما سيد بك جمعة فقد أنقذت حياته بسبب من تدخل سلاطين. ثم بعد ذلك توزع رجال الحامية على القبائل العربية بينما نصب زقل نفسه في الفاشر أميراً على المديرية وقام بعدها بإرسال سلاطين بك وسيد بك جمعة إلى المهدي بالأبيض.

والخطاب التالي، الذي أرسله سلاطين بك إلى الجنرال غردون، والذي استلمه الأخير في السادس عشر من أكتوبر عندما كان محاصراً بالخرطوم، ربما يوضح بجلاء الظروف التي وجد سلاطين نفسه فيها قبل أن يقوم بتسليم مديريته:

“لا أجد أمامي غير أن أبلغكم بمجرى الأحداث كما هي عليه الآن، وكما كانت قبل ذلك، ولأنتم من سيادتكم أن تكون فكرتك عني طبقاً لها.

فمنذ تعييني حاكماً لدارفور وجدت نفسي مشتتاً في حرب مع السلطان هارون دود بنجا. وعندما انفجرت الثورة التي أشعلها محمد أحمد وجدت نفسي وحيداً في دارفور بدون ضباط - فبعضهم قتل والبعض الآخر كان قد طرد من الخدمة بواسطة الحكومة. أما القليلون الذين تبقوا معي فكانوا عديمي الكفاءة وغير قادرين على القيادة. وعند اندلاع الثورة (المهدية) والذي تزامن مع ما قام به أحمد العربي في مصر، وجدت نفسي مضطراً لقيادة الجيوش بنفسى. وبعد عدة معارك، والتي كان معظمها خاسراً بطريقة أم بأخرى، قام الضباط العرب،

والذين كانوا يحقدون علي والذين اعتقدوا حقاً بانتصارات العربي على الأوروبيين، ببث رؤاهم تلك وسط الجنود وبأن أسباب هزائنا لا تعود إلا لكوني نصرانياً، ولكي أتغلب على تلك الأفكار المدمرة أعلنت لهم بأنني، ومنذ بضع سنوات، كنت أمارس الشعائر الدينية الإسلامية وقمت بالتالي بإعلان إسلامي رسمياً أمامهم. وبهذه الخطوة تمكنت من استعادة ثقة جنودي وبثت فيهم روح الأمل وملتهم بالثقة والابتهاج مثلما اقتلعت جذور الفتنه والتأمر. وبعد ذلك تمكنت من الظفر في العديد من المعارك حتى علمنا بالنكبة التي حلت بجيش هكس في قيافي كردفان. فإذا ما كان ارتدادي عن ديني يعتبر عملاً مخللاً بالشرف فهذا أمر خاضع لمختلف وجهات النظر. لقد كان ذلك أمراً سهلاً بالنسبة لي. وربما زاد في سهولته هو أنني، ربما لسوء حظي، لم أكن قد تلقيت تعليماً دينياً جاداً في وطني.

لقد قُدت الجيوش في دارا وقاتلت القبائل التي تعرفونها سعادتك باسم الرزيقات. وبالرغم من خسائنا الجسيمة وفكّة الذخيرة فقد كنا نتظر المدد من احتياطي هكس وكانت قلوبنا تتوق لذلك. ولكن بعد تدمير الأخير فجع رفضت قواتي المتضعضعة المعنويات أن تخوض أي معركة أخرى. لدي الآن حوالي ٧٠٠ جندي بمن فيهم الجرحى والمرضى، كما أن لدى كل بندقيّة حوالي عشرة أو اثنتي عشرة دسنة من الطلقات. ضبطني وجنودي أصروا على ضرورة استسلامنا. وجدت أنا نفسي، وحيداً وأوروبياً، مجبراً للسير مع رأي الأغلبية وعلى الاستسلام. فهل يصدق سعادتك بأن هذا التسليم كان بالنسبة لي، كضابط نمساوي، أمراً سهلاً؟ لقد كان ذلك اليوم من أصعب ما مر علي في حياتي*.

أما زقل، والذي رسخ أقدامه بقوة في الفاشر، فقد كان معه الآن قوة من حوالي ١٤٠٠ جندي سوداني وبارنقر تحت قيادة الأمراء يابكر وود الحاج وعمر ود الياس (ابن الياس باسا مدير كردفان السابق وشقيق محمد باشا إمام) وعلى النور إمام. وإضافة لذلك فقد كان معه قوات كبيرة من العرب قدرهم البعض بحوالي عشرين ألف رجل. وبهذه القوات شرع زقل في قمع مختلف الاضطرابات المحلية، التي كان سلاطين يتعامل معها بدرجات مختلفة من النجاح في الأعوام السابقة، والتي كما نذكر كانت بعيدة تماماً عن أي من تحركات المهديين.

بدأ أولى حملاته ضد السلطان دود بنجة ابن السلطان أبكر وشقيق السلطان إبراهيم. وقام بإرسال حملة تحركت من الفاشر باتجاه جبل مرة بنهاية يونيو ١٨٨٤ تحت قيادة المدير (أصبح أميراً

* صعب سلاطين بك، بعد ذلك، محمد أحمد إلى الخرطوم وكان حاضراً عن سقوط تلك المدينة. وعندما توفي المهدي في يونيو ١٨٨٥ أصبح ملازماً، أي واحد من أفراد الحرس الخاص بالخليفة، عبدالله التعايشي، ولا زال في منصبه حتى الآن ملتزماً بأقامته في أم درمان والتي لم يسمح له أبداً بمغادرتها. أما سيد بك جمعة فقد سجن لبعض الوقت لكنه عمل، أثناء حصار الخرطوم، في توجيه وتصويب مدافع الثوار الموجهة نحو الخرطوم. ويقال أن القذيفة التي عطشت الباغرة الحسينية، التي كان غردون قد أرسلها لمحاولة نجدة حامية أم درمان، في ١٢ نوفمبر ١٨٨٤، وكانت من تصويبه. ولهذا السبب تم ترفيعه قلداً لمدفعية المهدي. ويقال أنه لا زال بأمر درمان.

الآن) آدم عامر. وعندما طوّل السلطان بالاستسلام رد عليهم، كما يقال بالآتي: لقد صمدت أمام الحكومة المصرية والتي هي أقوى كثيراً منكم وذلك منذ موت السلطان عارون عندما لم يكن أميركم زقل سوى خادم أيام والدي. لن يكون سوى السيف، حكماً بيننا. ثم شرع في التجهيز لمقاتلة الغزاة، كان موقعه الحصين يقع فوق جبل عال. وحاول آدم الآن أن يقتحمه لكن تم ضده بخسائر تجاوزت نصف قواته. قام بجمع شتات قواته وكتب لزقل طالباً التعزيزات منه والتي وصلت إليه في الوقت المناسب. وبعد حصار استمر لشهرين تم القبض على دوج بنجة وأرسل للغاشسر (سبتمبر ١٨٨٤) حيث منها أرسله زقل للمهدي.

وبإخضاع مقاومة جبل مرة لسلطة المهدي، توقفت أي مقاومة لها هناك لبعض الوقت. ووصلتنا تقارير بأن زقل قد أقام نظاماً عادلاً للحكم شمل كل المديرية وذلك على الرغم مما يقال بأنه كدس لنفسه ثروة معتبرة.

كان لبعد المسافة بين دارفور ورياسة المهدي، والتي تحولت الآن لتصبح بجوار الخرطوم، ما جعل زقل حاكماً مستقراً على تلك المديرية بدون زعزعة وذلك حتى وفاة محمد أحمد في يونيه ١٨٨٥. أما بعد ذلك فقد أصبحت دارفور مسرحاً للعديد من المعارك الطاحنة. وأن ما كان ينطبق على جبال جنوب كردفان أصبح الآن مماثلاً لما يجري في تلك المديريرات الغربية. وبالرغم من أن العرب الذين يرعون قطعانهم في كل وديان الجبال وأركاتها كانوا مهديين قلباً وروحاً إلا أن الزنوج واشباه الزنوج بالجبال لم يترددوا قط، في أي لحظة، من إظهار عدائهم لها. كان العنصران (العربي والزنجي) مثل الخل والزيت. وأثبتت أحداث السنوات السابقة بأنهم ما لم يقهروا بالحصيل البارعة أو بالأعداد المتفوقة عليهم من الرجال فإن أولئك الزنوج الأشداء لم يتخلوا أبداً عن نقيمتهم وإنذارهم للعرب.

وعند الإنذار بالخطر فسرعان ما يلجأ الزنجي للسلاح. إذ أن أعدادهم التي قلصتها غارات صيد الرقيق عوضتهم بتجارب وخبرات قيمة لدى الباقين منهم. وفي عام ١٨٨٥، وعندما كان محمد أحمد سيداً على الخرطوم، وقد اختفت آخر آثار للمصريين ولنفوذهم، فقد ظلت صخور كدردفان ودارفور وكبابية رافعة رؤوسها فوق طوفان المهدي وعلى رأسها رجال كالحیوانات التي تقتل وتأكّل وتشرب لكنها لا تركع للصلاة أبداً.

بحر الغزال في ١٨٨٤

بنهاية عام ١٨٨٣ عاد لبتن بك إلى عاصمته ديم زبير. وبعد بضعة أيام من عودته وصلته أنباء تدمير هكس باشا وجيشه. الفت هذه الأخبار الرعب في أنحاء المديرية. وشرع لبتن، والذي تحاصره المشاكل مع القبائل المحلية غضافة إلى تأكده من حتمية غمراع الذين دمروا هكس نحوه، مشرع في بذل كل جهد ممكن لمواجهة أي حصار طويل قد يتعرض له وهو الأمر الذي كان يدرك حتمية حدوثه. لم يكن لديه سوى القليل من السلاح والذخائر. وكان من قبل قد أرسل المدير إلى الخرطوم على الباخرة الإسماعيلية والتي وصلت هناك في الرابع عشر من يناير لكنها لم تعد إليه بعدها أبداً. لكن لبتن لم يفقد الأمل في وصول تعزيزات إليه. وكان يدرك بأن سلاطين قد يكون في

ضائقة أشد منه ولذلك لم يكن يتوقع سوى مساعدة ضئيلة منه. أما إلى الجنوب منه فقد كان أمين يواجه نفس الاضطرابات في مديريته، بل أنه أرسل إلى لبتن يرجوه دعمه بأي مساعدة تمكنه من إخماد تلك الاضطرابات. كان الخطر يحيط به يوماً بعد يوم. فقام بإرسال كبار موظفيه لجمع الذرة من مختلف المناطق: الفحل الأفندي إلى كواكي، ومحمد الأفندي كركساوي إلى ديم قوقو، وأبوجريو إلى بيكو. لكنه، وقبل أن يعودوا إليه، تلقى خطاباً من حسن أغا ناظر ليفي يفيد بأن شخصاً يدعى الشيخ كرم الله محمد قد وصل إلى حدوده ومعه قوة من ٥٠٠٠ رجل وفرمان من المهدي يعينه أميراً على بحر الغزال، وبأنه قد أرسل إليه للإستسلام، لذلك فهو يسأل لبتن عن تعليماته له.

وفي نفس وقت وصول هذا الخطاب جاءه خطاب آخر من محمد أغا كتمبور يحمل نفس المضمون وبوصول تلك الرسائل المزعجة قام لبتن باستدعاء نواب الحكام الآخرين إلى العاصمة مع أوامر لهم بأن يجلبوا معهم كل الحاميات الموجودة في أطراف الإقليم. لكن الأتباء التي وصلته بعد ذلك أوضحت له بأن حاكمي ليفي وبيكو، مع كل رجالهم، قد انضموا للثوار. تلى ذلك وصول رسائل من كرم الله إلى لبتن بك ولوكيله ولموظفين آخرين. وقد جاء في رسالته إلى لبتن طلباً بالاستسلام مصحوباً بمنتشور المهدي المعنون إلى كرم الله والذي يعينه فيه أميراً على بحر الغزال. قام لبتن بك باستدعاء كل كبار الموظفين لعقد اجتماع لتدارس الوضع. وأوضح لهم بأن لديهم الآن بالمدينة حوالي ١٢٠٠ جندي نظامي وأربعة مدافع وأربعة صواريخ باتابيهيا ورجاهم بالصمود أمام حشود المهدي القادمة نحوهم. لكن القوات أظنت له بوضوح بأنهم لا ينتون القيام بأي مقاومة. أما نواب الحكام، والذين كانوا جميعاً من الدناقلة، فقد أوضحوا له بأن اثنين من زملائهم قد انضموا من قبل للثوار وبأنهم يرغبون في أن يحدوا حذوهم. كان لبتن وحيداً في عزمه على الصمود. لكن لم يكن أمامه خيار سوى التوقيع على الوثيقة التي كتبها الضباط وغيرهم وأن يقوم بتسليم المديرية لكرم الله ثم اعتناق المهدية.

ولعل الخطابات التالية، التي أرسلها إلى أمين بك، توضح الحالة البائسة والقلق الذي عاينه لبتن خلال تلك الأيام العصيبة. وجاء الخطاب الأول، الذي كتبه من مشروع الرق في ١٢ أبريل، كما يلي:

عزيزي أمين. إن جيوش المهدي تعكس الآن على بعد ستة ساعات متنا. لقد جاءني درويشان وطلباً مني تسليم المديرية إليهما. سأقاتل حتى النهاية. وقد نصبت المدافع في قلعة حصينة. وإذا ما نجحوا في الاستيلاء على المدينة فإتني أمل، من قلعتي، أن أقوم بطردهم. أما إذا ما خسرت المعركة فيستولون تحوك. لذلك كن على حذر* ربما يكون هذا آخر خطاب مني إليك إذ أن وضعي يائس لأن رجالي قد تحولوا برمتهم إلى الأعداء. أعرف الآن باسم عبدالله لكنني عسدت العزم على كسب المعركة أو أن أموت. لذا أودعك وأرجو إبلاغ تقديري للدكتور بترك. وإذا ما وصلت إليك أي بواخر فأرجوك أن تكتب لصدقائي وأن توضح لهم بأنني لاقيت حتفي مثل الطريدة. المخلص لك

(امضاء) ف. لبتن

أما الخطاب التالي، والذي كتبه بعد ثمانية أيام بعد ذلك فيوضح إزدیاد مصاعبه وسرعة الأحداث:

* كان ذلك الأمير (كرم الله) تاجراً معروفاً في بحر الغزال من قبل. وهو رجل نفلوي كان قد اعتنق المهدية، لا عن قناعة دينية بل من أجل مصلحة في تجارة الرق. وكان قد شارك في معركة شيكان ومن بعد ذلك تم اختيار المهدي له لإخضاع تلك المديرية نظراً لمعرفته الوثيقة بها وبموظفيها.

٢٠ أبريل ١٨٨٤

عزيزي أمين بك، لقد هجرني معظم رجالي وانضموا لقوات المهدي. لقد ذهب إليهم الناظر بوكو والناظر ليفي، بكامل رجالهم، وأخذوا معهم ذرة الحكومة. لا أدري كيف سينتهي كل هذا. لقد أرسلت وازي اللر إلى معسكر المهدي. ولا أدري إن كنت أنا لبتن بك أم الأمير عبدالله. سأكتب لك عند عودة وازي اللر. العدو مسلح بالرمجوتون ومعه أربعة أو خمسة فرق من القوات النظامية وحوالي ٨٠٠٠ أو ١٠,٠٠٠ من العربان والجلابية وسأفيدك بقوتهم بالضبط عندما أتأكد من الأمر. لقد كتب لي سلاطين خطاباً من سطرين وقال فيهما أن "حامله هو الحاج مصطفى كرم الله وأنه يحمل الآن اسم عبدالقادر". المخلص لك

(امضاء) ف. لبتن

أما الخطاب الثالث فإشار إلى الوصول للنهائية الحتمية مما سبب حزناً عظيماً لأمين بك، والذي كن بدوره قد قطع الأمل في وصول أي مساعدة له:

٢٨ أبريل

عزيزي أمين. انتهى كل شيء بشأني هنا. كل من معي قد انضم للمهدي وسيقوم جيشه باحتلال المديرية بعد غد ولا يمكن تصور ما مرتت به في تلك الأيام القليلة الماضية. أنني وحيد تماماً. وسأخبرك حامل هذه الرسالة بكل التفاصيل. لقد سمعت بأن جيشاً لم يلاق هزيمة تامة مثلما لقيها الجنرال هكس. فمن بين ١٦٠٠٠ رجل لم يبق على قيد الحياة سوى ٥٢ منهم، وجميعهم من الجرحى. انتبه لنفسك، فهناك ما بين ٨٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ رجل في طريقهم إليك وهم جيدوا التسليح. آمل في أن القاك. المخلص

(امضاء) فز لبتن

وهكذا تلاشت آخر بقايا للسلطة الحكومية في بحر الغزال

وقد حكي دكتور ينكر، والذي كان بالجوار منهم كما تذكرون، كيف أن سلوك لبتن كان مثيراً للإعجاب في تلك الظروف الحرجة. فقد كانت رسائله، والمؤرخة واحدة بعد الأخرى من كافة أنحاء المديرية تشهد بأنه كن مشغولاً دائماً، وفي كل مكان، بطراذه لمعارضيه الأبقين. وكانت حربه التي استمرت لثمانية عشر شهراً مع الدينكا أكثر شراسة وتهوراً ودموية عن اشتباكاتته التي جرت بعد ذلك مع المهديين في المديرية الاستوائية. وقد وصف الصاغ عبدالله أفندي المحلاوي الظروف التي وأكبت الاستسلام كما يلي:

"بعد يوم من إرسال الخطاب الخاص بتسليم المديرية (٢١ أبريل ١٨٨٤)، وفي الثامنة صباحاً، وصل على مسافة قريبة منا كرم الله والذي كان في بيدي على بعد أربعة

ساعات من العاصمة. توجهت ومعى كل رجال الحامية لمقابلته وتوقفنا على بعد ميل من المدينة. قام فرسان الثوار، وعلى رأسهم كرم الله، بالاندفاع نحونا بخيولهم وهزوا سيوفهم في الهواء فوق رؤوسنا ثم اندفعوا عاندين باتجاه حملة الرماح الذين كانوا بالمؤخرة. كرروا ذلك لثلاثة مرات ثم ترجل كرم الله من فرسه وترجلنا بدورنا وتبادلنا التحايا كأصدقاء. لكن الفرسان واصلوا هز سيوفهم فوق رؤوسنا فقد كانوا في نشوة عارمة من جراء نجاحهم. ثم مبنى الحكومة بينما اصطف بقية رجاله حول المبنى. ثم استدعى لبتن ك وكل الضباط والموظفين ثم أخرج الخطاب الأصلي الخاص بتعيينه من المهدي وناوله له ثم دعاه للدخول في دين الإسلام وأن يتخذ (عبدالله) اسماً له، حسب تعليمات المهدي المكتوبة. رد عليه لبتن بأنه قد اعتنق الإسلام قبل ذلك لكن كرم الله لم يقتنع وأصر على إعلان إسلامه أمامه وأن يكرر وراءه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وبينما كان لبتن يكرر الشهادة قام الأمراء بسل سيوفهم وصاحوا في وجهه بصوت واحد (تمسك بدينك الجديد فانت الآن واحد منا نحن الأنصار، كما أننا منك. ونحن الآن أخوة في الدين).

نفس الشيء تكرر مع الكاتبين من القباط، جبرائيل أفندي وصالح أفندي شنودة. ثم سأل لبتن كرم الله أن يأنن له بأخذ البيعة من المهدي وتقديم فروض الولاء له. وبعد ثلاثة أيام، وبعد أن ودعنا كرم الله قمنا أنا ولبتن بك وعدد من الموظفين وعائلاتهم بالتوجه إلى شكا ومعنا حرس منهم. وصلنا غلى شكا بعد خمسة عشر يوماً وظللنا به لأحد عشر يوماً ثم توجهنا نحو الأبيض والتي وصلناها بعد عشرين يوماً. وهناك قابلنا الأمير عبدالقادر والذي توجه بنا إلى مكان موقعة شيكان حيث شاهدنا آثار المذبحة التي جرت هناك، وقام لبتن بك برسم كروكي عن مواقع المعركة. كان المهدي قد تحرك قبلنا صوب أم درمان لذلك ذهبنا وراءه بعد ثلاثة أسابيع ووصلنا إلى معسكره بالقرب من أم درمان حوالي الأول من أغسطس*.

أما الخطاب التالي، الذي كتبه معاون السابق كركساي، شقيق كرم الله، إلى صديقه أحمد، فيلقى الضوء على الأحداث التي سبق وصفها ولكن من وجهة نظر أحد الثوار:

"بخصوص المعلومات التي يجب أن أوضحها لك: ففي يوم وصول الأمير كرم الله شيخ محمد لنواحي بحر الغزال والمناطق المجاورة لسركوا، فقد تم تكليف خادمك في وظيفة (جامع المحاصيل) ولم تكن قد تسلمنا أبناً عن وصوله إلا من الخطاب الذي جاءنا من الأمير عبدالله، الذي يكنى باسم بلتين* والذي طلب فيه مني المثل أمامه بمكتبته بالمديرية. وعند وصولي للمكتب المذكور كان يجب على التأكد مما سيجري لأنني بعد ذلك حاولت، ومعى الأمير عبدالله، الحصول على موافقة من هناك على الاستسلام بدون تأخير. وأثناء ذلك

* اسم لبتن بك المفترض.

حضر اثنان من الدراويش من قبل الأمير كرم الله وفي أيديهم عدة خطابات لنا وللبعض الأخوان وللأمير عبدالله.

وبعد أن قرأنا تلك الخطابات بعناية، أوقف الأمير عبدالله تنفيذ عملية التسليم للأمير كرم الله لأنه لم يتلقى أي خطاب بعنوانه هو من صاحب السمو. لذلك قمنا ببذل كل ما في وسعنا لحثه على كتابة خطاب منه للأمير كرم الله ليرجو فيه منه أن يرسل خطاب سموه عليه حتى يتم الخذ به وللاختفاء من تسوية عملية التسليم. وهذا ما قد تم. فعندما كتب الخطاب تم تسليمه لي وتوجهت به لصحبة الدراويشين المشار عليهما أعلاه كما جاء معنا الشيخ وقبع الله إدريس ومحمد سالم الشريف والحاج عمر، وكلهم من المقيمين في المركز وقد قام الأمير عبدالله بتكليفهم للذهاب معي للفصراع باحضار المنشور الذي كتبه صاحب السعادة المهدي.

وعند وصولنا لمكان إقامة كرم الله، وبعد قراءته لخطاب الأمير المذكور (عبدالله)، أمر بنسخ صورة من المنشور وسلمه لي. وكذلك قام أولئك الذين جاءوا معي من المديرية بكتابة رسالة بينما بقوا مع الأمير كرم الله. وعند استلام الخطاب المحرر من المذكورين أعلاه عدت راجعاً إلى الأمير عبدالله والذي، وبعد قراءته بتمعن، وفي حضور الأخوان كلهم، غمرهم السرور وابتهجوا بهجة لا مزيد عليها.

وقد أطاع الأمير عبدالله خاصة ما جاء بالمنشور الوارد من سموه وبذلك تمت نعمة اللهن الذي لا معبود سواه من علينا.

كل الاخوان مشتاقون لرؤية صاحب السمو. لذلك تمت كتابة رسائل من الأمير عبدالله والأخوان، في صورة بيان بإعلان التسليم من جانبهم وبيداء الطاعة والولاء للأمير كرم الله، المعين بواسطة صاحب السمو المهدي. واستلمت الرسائل وذهبت إلى مدينة باتيكا التي كان يصكر بها الأمير المشار إليه أعلاه وسلمته الرسائل وبعد أن قرأها وقمها ظهر الحبور على وجهه وقام بتحرير رسالة للأمير عبدالله يفيد به بأنه على وشك مغادرة مدينة باتيكا وبأنه سيصل لرئاسة المديرية يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخر ١٣٠١هـ والتزم فيه باتباع أفضل ما يمكن عمله تجاه الجميع وعوائلهم وأملأهم. والحمد لله العلي الكبير فأننا في اليوم المذكور فأننا وصلنا ومعنا الأمير كرم الله والقوات المنصورة إلى مسافة ساعة من مركز المديرية. وجاء الأمير عبدالله وكل كرام المواطنين والعاملين والأخوان لمقابلتنا خارج الحصن الخشبي الذي يحيط بالمديرية. كان اللقاء حميماً مثل لقاء الأخوة والصداقة والأعزاء وكان يوماً مشهوداً غمرنا الفرح فيه جميعنا.

وعند دخولنا للمحكمة بالمديرية، وبعد جلوس الأمراء والأصدقاء، نهض الأمير عبدالله وانتصب واقفاً ونطق بالشهادتين "أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبأن السيد محمد ابن السيد عبدالله هو المهدي وخليفة الله ورسوله" ومن ثم قام القبطيان جبرائيل وصالح شنودة بإعلان إسلامهما ونطقا بالشهادتين أمام الأمير كرم الله (والذي قبل اشتهاهما للإسلام)..

بعد ذلك أصبحت كل البضائع والمخزونات والثروات التي بالمديرية أو خارجها من أملاك خزانة الغسلات وتم إدراج ذلك في رسالة الأمير كرم الله الموجهة لصاحب السمو. نسأل الله العليّ القدير أن يمنحنا سريعاً شرف الهجرة إلى المكان الشريف وأن يمتع أبصارنا برؤية صاحب السعادة المهدي وأن يشملنا بالانضمام إلى المحاربين في سبيل الله. ومن هنا فأنني أرسل لصحاب السعادة الحنفاء والسادة والأمراء والصدقاء وكل معارفنا المجاهدين في سبيل الله، آلاف السلام من الله طالما كنت على قيد الحياة.

(امضاء) محمد شيخ محمد

كتب في ١٧ رمضان ١٣٠١

١١ يولييه ١٨٨٤

أما الخطاب التالي المحرر من كرم الله إلى كبير خلفاء المهدي، عبدالله التعايشي، فيصف الأحداث في بحر الغزال بعد سقوطها. وهو خطاب مثير للاهتمام ويدل على غبطة كاتبه لتحرره من القيود التي طالما كبّلت تجارة الرق*:

بسم الله ... إلخ

من عبدربه الفقير كرم الله شيخ محمد ببحر الغزال إلى صاحب المهدي وأمير جيوشه الخليفة عبدالله ابن السيد محمد أدام الله عزه. وبعد تقديم أحر السلام وأجل الاحترام، فإذا سألت عنا فنقول الحمد لله جل جلاله، فكل شيء على ما يرام ولي الشرف لإبلاغكم بأننا استلمنا عدداً كبيراً من الأرقاء الاثنا ضمن الغنيمة وأننا أرسلنا حوالي ١٣٦٠ رأساً منهم إلى شكا بمن فيهم ٢٠٠ عبد من قناوي (من عليو) وقد تم ذلك على ثلاثة دفعات فالمرة الأولى كانت في قافلة يقودها الفقير أحمد محمد الشاقي. أما المجموعة الأكثر عدداً فقاد قافلتهما شقيقتنا محمد شيخ محمد كركساوي. والثالثة بقيادة المرشد محمد صالح التوم الذي احتجنا له ليقوم بشراء خيول (بقيتهم أو بالمقايضة) لقواتها وذلك بمعرفة أخيها محمد كركساوي. أما الذين سيتم إرسالهم إلى معاليكم بالمعسكر الشريف فيمعرفة أيضاً لأنه عين أساساً لهذا الفرض. كذلك تم توزيع من معنا من الفقراء والعساكر لمختلف الزرايب لجمع الغنائم. وبإذن الله سيتم إرسال كل ما تتسلمه إلى شكا. هذا ومحمد شيخ محمد كركساوي هو أخي لأمي وأبي وهو أكبر مني سنأ وهو الذي ساعدنا لاستلام مدينة بحر الغزال. ونظراً لحسن إدارته فقد قمنا بتعيينه للقيام الشكا لمقايضة العبيد بالخيول أما الذين سنرسلهم لسعادتكم فسيتم ذلك بمعرفة وطبقاً لتعليماته. ولأن العبيد الذين عندهم كثيرون جداً فسي هذه الجهة، ويتوارد وصولهم باستمرار إلى معسكر المدير، فإتينا نعتي ضغطاً شديداً للقيام برعايتهم ومن بعد توزيعهم.

* نخط المؤلف عند سفرته من (غبطة كاتبه) حيث ذكر بنفسه أن أولئك الأرقاء كانوا غنيمة، أي تابعين للبنت بك ولقناوي، كما لم يشر إلى إبادة غردون للرق عند قدومه.

فإن كان ذلك موافقاً لسعادتكم فأرجو الكتابة إلى شيخ منزل حامد ولأولاد حمد دودو
لتعاونهم الكريم معنا ولقيامهم بتسليم الغنائم لأخيها شيخ محمد كركساوي. ونحن الآن في
انتظار تعليمات سعادتكم إما للبقاء هنا أو للحضور إليكم أو الانتظار حتى جفاف مياه
الأمطار وذلك من باب الشفقة على المؤمنين العبيد الذين لديهم أطفال صغار. نسأل الله
العلي القدير، الذي نحمده، لاحضارنا سريعاً إليكم ولقاء سعادتكم.
والسلام

(امضاء) كرم الله محمد

مؤرخ ٢٢ شعبان ١٣٠١

١٧ يونيه ١٨٨٤

سنترك الآن مديرية بحر الغزال والتي، بعد الحادي والعشرين من أبريل، أصبحت جزءاً
أصيلاً من أملاك المهدي المتزايدة باستمرار. ففي هذه المديرية الشايعة، التي تبلغ مساحتها خمسة
أضعاف مساحة إنجلترا، لم يعد هناك أي أثر للنفوذ المصري. فقد غرق كل شيء تحت أمواج
المهدية، والتي تنداح الآن شيئاً بعد شيء لتفمر سهولها الواسعة، حاملة معها في طريقها أعداداً
كبيرة من الأرقاء لإشباع الحاجة الماسة لهم في بيوت محمد أحمد وخلفائه وأمرائه.

المديريات الاستوائية

(١٨٨٤)

حتى نهاية عام ١٨٨٣ كان أمين بك لا زال في اللادو، يراقب بقلق شديد العصيان المتزايد
في بحر الغزال والذي شعر بأنه من المحتم، وقبل مرور وقت طويل، سيهبط على مديريته. وفي
الثالث والعشرين من يناير وصل دكتور ينكر إلى لادو حيث رحب به أمين بك بسرور وبفرح لا حد
له. كانت الأحوال في مديرية الرول لا بأس بها رغم الخلاف الذي نشأ بين المأمور وبين كاتبه
بخصوص الاضطرابات الأخيرة في رمبيك. فقد عزا الأخير السبب في انتقام الأهالي الأجار لتعليمات
المأمور للقوات بالقيام بشن الغارات عليهم للاستيلاء على أبقارهم وذلك بالرغم من أن الاجار كانوا
حتى تلك اللحظة من الموالين تماماً للحكومة. اندادت حدة الخلافات واضطر أمين بك إلى إرسال
اليوزباشي الحم أفندي لتسوية المسألة. لكن الأخير تضامن مع الكاتب. لذلك اتصل المأمور بأمين بك
لتسوية الأمر فقام بارسال نائب المأمور عثمان أفندي لطيف والذي، بعد قيامه بالتحري في المسألة،
أبلغ فقط بأن احتكاكات ليست بالسهلة كانت تنشب بين مختلف الموظفين لتقود بعدها إلى نتائج في
غاية الخطورة.

ففي ١٨ فبراير كتب نائب المأمور، من الرول، إلى أمين بك وذكر له بأنه تلقى تعزيزات من حوالي ٥٠ رجلاً من بحر الغزال وبأنه يأمل أن يقوم بهم لفتح الطريق من رمبيك إلى جوق الحسن. وعند تلقي أمين بك لهذه الأنباء أمر نائب المدير للتحرك فوراً نحو رمبيك ومنها إلى شامبي بعد أخذ كل ما يمكنه أخذه معه من القوات. لكن الضابط الذي كان يقود فصيل الدعم من بحر الغزال رفض أن ينضم لهذه المهمة إلا إذا تسلم أوامر من الحاكم (لبتن).

ولما تواترت الإشاعات بأن القبائل المجاورة لشامبي قد أعلنت الثورة فقد عاد مساعد المأمور إلى رمبيك وشرع فوراً في استعداداته للدفاع عنها.

أثناء ذلك تلقى أمين بك رسائل من لبتن في السابع والعشرين من مارس يبلغه فيها بأن مديريته قد أصبحت في حالة من الثورة والعصيان وأن كثيراً من محطاته كانت تعاني الأمرين. لذلك قام بإرسال تعليماته لضابط فصيل بحر الغزال بالعودة فوراً وأن يأخذ معه عدداً من الأبقار لإمداد الحاميات بها. وفي نفس الوقت أمر نائب المأمور التابع له للعمل على مساعدة بحر الغزال ودعمها بالطعام بقدر الامكان.

وفي ٢٨ مارس وصله خطاب آخر من لبتن يحمل نبأ الكارثة التي حلت بجيش هكس باشا، وباستسلام سلاطين بك، وبأنه هو نفسه يعمل ما في وسعه للدفاع عن مديريته. كانت تلك الأنباء الخطيرة بمثابة ضربة موجعة لأمين حيث قام في اليوم التالي بإرسال تعليماته إلى كافة محطاته الخارجية للانسحاب نحو مراكز محددة. كان على حامية اللاتوكا أن تنسحب إلى أيو، وحامية فويرا إلى وادلان وحامية فاديبك إلى دوفيللي. كذلك أرسل تعليماته إلى حامية فاديبك إلى دوفيللي. كذلك أرسل تعليماته إلى حامية بور لبذل كل ما يمكن لاستمرار فتح الطريق إلى السوبا.

وأثناء تلك الفترة قام مأمور الرول بمحاولة ثانية للتقدم نحو شامبي لكن ثورة القبائل هناك أعاقَت أي إمكانية له للوصول لذلك المكان. عاد مساعد المدير الآن إلى اللادو. وخلال الطريق، في اياك، تسلم عدة رسائل من كرم الله/ كتبها من بحر الغزال، يطلب فيها من أمين تسليم المديرية وأبلغه فيها باستسلام بحر الغزال ودارفور وكردفان. كانت الرسائل الخمسة موجهة لأمين بك، ولمأمور مراكا، ووكيل شامبي، ووكيل رمبيك، ولمساعد المدير. وقام الأخير بإرسال كل الخطابات فوراً لأمين بك، بينما توقف هو في اياك. وكان أمين بك قد تسلم قبل ذلك خطابات لبتن بك الثلاثة والتي أخبره فيها باستسلام المرتقب. لذلك، وبعد تلك الرسائل الأخيرة من كرم الله والتي تسلمها أمين بك في ٢٧ مايو، تبين له أن محاولة المقاومة لقوات المهدي تبدو في حكم المستحيل. ومن المستحسن هنا أن نشير على مقتطفات من رسائله التي تصف الأحداث التي تلت مباشرة تسلمه لرسائل كرم الله (التي تدعو للاستسلام). فقد قال أمين:

لقد استسلمت مديرية بحر الغزال لجيوش المهدي بعد هجران كل رجال لبتن له. وقد كتب لي كرم الله قائد جيش الاحتلال، بأن كل السودان قد ضاع، وبأن الخرطوم تحت الحصار، وبأن هكس وعلاء الدين و ٣٦٠٠٠ من رجالهما قد سقطوا، وبأنه يدعوني للحضور إليه على الفور واستسلمي له.

سيكون من الحماسة أن أقاتل بدون أن تكون لدي بنادق أو ذخائر أو رجال يعتمد عليهم بينما الدناقلة من أمامي ومن خلفي. لذلك سأتوجه للبحر الغزال يوم الاثنين.
لقد قرر يونكر أن يحاول (الخروج) عن طريق زنجبار، مروراً بمركز إقامة موتيسا. وفقه الله.
إنني أرسل هذا الخطاب معه وأرجو أن تجدوا مكاناً لي في أفكاركم وتذكروني.

المخلص لكم

دكتور أمين بك

٢٧ مايو ١٨٨٤

ويبدو مؤكداً أن هذا الخطاب ق كتب بعد انقضاء الاجتماع مع المسؤولين، والذي كان قد عقده للبحث في الوضع الراهن. لكنه كتب في الرابع عشر من أغسطس، بهدوء ورباطة جأش، خطاباً يوضح فيه ما دار في الاجتماع وكيف أنهم منعه من الذهاب إلى كرم الله. وقال:

تصور وضعي الآن. فلأربعة عشر شهراً لم يتم أي اتصال بيني وبين الخرطوم أو تصلني أي أخبار منها. لقد صارت المخازن والدكاكين وغيرها. ورغم أنني كررت مراراً في رسائلي لهم أمدادي بشحنة من بضع مئات من بنادق الرمنجتون، مع كمية كافية من الذخيرة، فإني لم اتسلم شيئاً منها. كل مناطق وكاراكا والرول وأقسام من مونبوتو مكتظة بالدناقلة المسلحين. أما في اللاو نفسها فحدث ما تشاء عن السكاري والمقامرين، والذين في معظمهم من أقارب الثوار ومن كتبة ديواني الحكومي. لا تبدو الاحتمالات مشرقة. فجنودي، الذين لا قيمة لهم بأي حال، مبشرين في أنحاء شاسعة من الإقليم ولن يتم سحبهم إلا باتخاذ الحيلة والحذر الشديدين.

تبعاً لذلك فقد سألت ضباطي هنا، في اجتماع مفتوح، إذا ما كان من المرغوب فيه أن نستسلم أو أن نستعد للقتال. ولكن لا يشك أحد فيما سيكون ردهم. وخلاصته هو الاستسلام. لذلك كتب خطاب بهذا المعنى ثم تشاورنا فيمن يوصله. وقع الاختيار علي أنا ومعني القاضي ونظر المدرسة وبعض الرجال الذين معنا، ومنهم أحد الكتاب العاملين معي والذي لعائلته نفوذ عظيم بيد الدناقلة.

إنني إدرك الآن تماماً بأن أبعادي سيفتح الطريق للفوضى والطغيان، وبأن نزول دناقلة وكاراكا إلى اللاو سيحول المديرية كلها إلى خراب. ومن الناحية الأخرى فإن من الحماسة ألا أقوم بالمهمة الموكلة إلي أو برفضها رغم أن من الواضح بأنني لن أعود ثانية إلى هنا إذا ما توجهت للبحر الغزال، بل سيتحتم علي أن أذهب على كردفان مثل لبتن. ووسط كل هذا التشويش، والذي زاد من حدته ندرة الذرة، نشبت الحرائق في يونيو، بالقرب من المستودعات، وفي وقت وجيز دمرت النيران عدداً كبيراً من المنازل والأكوخ وخاصة التي يقطنها الكتاب الأقباط. وفي الماضي كان كل واحد يمد يد المساعدة في مثل تلك الظروف، ولكن التعصب أظهر وجهه القبيح هذه المرة وكان لابد لي من اللجوء للصاكر لإطفاء النيران. وعندما سألت أحد الكتبة المسلمين لماذا

لم يساعدنا أجنبي "لأنهم نصارى فليحدث ما يحدث لهم". وفي مواجهة ذلك قررت عقد اجتماع آخر حضره الجميع وأوضح فيه حقائق الوضع وأكدت لهم بأن غيابي عنهم سيكون سبباً للأذى ولتردي الوضع واقترح أن يكون القاضي رئيساً للوفد بدلاً عني. والغريب في الأمر أن هذا الرجل دعم ما اقترحته ووافق عليه ومن ثم سافر الوفد. كانت التعليمات التي حملوها كالآتي:

يجب الحفاظ على الوضع الراهن في المديرية حتى تصل المراكب والبواخر التي ستحملنا للخرطوم. ويجب ألا يتم غزو المديرية بأي حال. وفوق كل شيء يجب عدم ممارسة أي عنف أو السماح به ضد الجنود السودانيين" ولقد تم وضع هذا الشرط على ضوء وصول رسائل معينة تلقي الضوء على الموضوع القادم. فلقد وصلت الرسائل في نفس الوقت مع خطاب من كرم الله إلى الدكتور ينكر دعاه فيه إلى العودة فوراً إلى واد واستلام مجموعاته هناك، والتي تركها بوندورف، إذا لم يرغب في إعطائها للزنوج. كما كانت هناك رسائل من كرم الله على مختلف المسؤولين (الدناقلة) وكانت عبارة عن نسخ من الرسالة التي جاتنتي، لكنها موجهة لهم. كان فقواها دعوة لهم لتجاهل السلطة الحكومية الرسمية والفرار مع رجالهم إليه. ثم كان هناك خطاب آخر باللغة الإنجليزية من لبتن بك إلى ينكر جاء فيه أن الحكومة قد سلمت فشودة. وأخيراً جاء خطاب رسمي من قائد محطة أياك قال فيه أن ثلاثة جنود سودانيين شجعان قد هربوا إلى ذلك المكان. كما أنهم أحضروا بنادقهم معهم. كان أحدهم فوني، مراسلة لبتن السابق، وهو رجل يوثق به ويبدو أنه ينتمي لهذه المديرية لكنه كان قد تابع لبتن ومضى معه إلى بحر الغزال. حسناً. فقد ذكر هؤلاء الجنود، في حضور المسؤولين، بأن لبتن ما خاته إلا رجاله الذين كانوا على اتصال وتوافق مع الثوار منذ وقت طويل، وبأن الدناقلين وفور احتلاهم للمديرية، قد قاموا بإحراق كل المستندات والدفاتر الحكومية وأتحموا المخازن وسلبوا محتوياتها واستولوا على كل السلاح والذخائر التي كانت بها أو التي كانت عند الجنود وباعوها لمن يدفع أكثر أما نقداً أو مقابل العبيد ثم ما لبثوا أن وضعوا قيود العبيد على كل الجنود وكتبوهم بها وكانوا يلقون الطعام الشحيح لهم في حفر نبشوها في الأرض. وفي خلال بضعة أيام قاموا ببيعهم علناً أو بتسليمهم لمن ادعى ملكيتهم من الدناقلة باعتبار أنهم كانوا من عبيدهم السابقين. ولك أن تتصور كيف أنني غبطت نفسي لقراري بعدم الذهاب إلى بحر الغزال".

كان الانطباع الذي ساد الحاضرين لذلك الاجتماع، أو توصلوا إليه، هو أن يقوم أمين بمسيرة كرم الله حتى يتسنى له كسب الوقت لتجميع قواته. وما للتوضيحات التي جاءت أعلاه إلا توضيحات تؤكد هذا الرأي. وفي الثالث من يونيو غادرت البعثة، التي مستقوم بالتسليم للكرم الله، اللادو. وكانت مكونة من التالية أسمائهم:

القاضي، عثمان حاج حمد

الباشكاتب، عثمان أرباب. وهو ابن عم للمهدي

الكاتب، محمد بابا

المأمور السابق للاتوكا، إبراهيم أغا

وتوجه معهم لحراستهم فصيل من الجنود السودانيين بقيادة الملازم ثاني موسى أغا حمد. وقد قيل بأن القاضي، قبل مغادرتهم، قد "وجه أمين بك كتابه، بأنه طالما آلت كل ممتلكات المديرية للمهدي فإن عليه إلا يصرف منها أي شيء بخلاف الذرة والعسل والزيت".

وتم توجيه أمر لنائب المأمور، الذي لا يزال في أياك، لسحب حامية رمبيك إلى أمادي، إذا ما رأى أنه من المستحيل عليها الصمود أمام كرم الله، والذي أفادت تقارير بأنه يتقدم نحوها الآن. أما إبراهيم أغا، مدير وكاراك، والذي كما نذكر كان قد أرسل إلى رمبيك وشامبي عند باكورة الاضطرابات، فقد عاد الآن إلى لادو ومنها حصل على إذن للتوجه إلى مكاراك. وعند وصوله إليها توجه إلى واندى وقام بنهب المستودعات ثم أغرق المركب في (نهر) ياي وتحرك مع مجموعة من الدناقلة، عبر مكاراك الصغيرة وكبايندى، إلى كدورما حيث توقف فيها لبرهة تمهيداً للفرار إلى بحر الغزال للانضمام لكرم الله. وفيما بعد توجه نحو دوجورو في إقليم لتونج حيث يبدو أن الفروخ (الصبيان حملة البنادق) قد ثاروا على الدناقلة والعرب بجور غطاس. وكان الآخرون، يقودهم برنجي زبير، وهو سنجق كان يعمل مع الزبير باشا، قد قاموا بنهب التونج وقاموا الآن باعتراض طريق إبراهيم أغا في دوجورو وقتلوه (لكن البعض زعم بأن الذي قتل إبراهيم أغا هم رجال حامية قوزا والذين كانوا يعلمون بفراره). أثناء ذلك تم طلب التعزيزات من دوفيللي ولابورى وموجي وكيري ومكاراك إلى أمادي. وأمرت حاميات رمبيك وأياك أيضاً بالانسحاب إلى أمادي بينما أرسلت التعليمات للحاميات الطرفية في قورقورو (مونيو) للتجمع في مكاراك*. والآن اكتملت كل الاستعدادات للقيام بمقاومة عنيدة لجيوش كرم الله المتقدمة نحو أمادى. وبلغت أعداد القوات من تلك المحطات حوالي ١١٠٠ رجل معهم أربعة مدافع وبطارية صواريخ. وكاتوا جميعاً بقيادة مرجان أغا الديناصورى.

أما حاميات ما تبقى من المحطات فكانت قواتها تقريباً كالاتي:

في اللادو ١٠٠

في مكاراك ٢٠٠

بقيادة اليوزباشي فرج أغا يوسف.

في دوفيللي ٢٠٠

بقيادة الأدجوتانت ميجر (صاغ) حواش أفندي منتصر. أما بقية المحطات البعيدة إلى الجنوب فكانت حامياتها مكونة من ثلاثين إلى خمسين رجلاً لكل منها.

اعترت شامبي الآن كالمضائفة ولم تصل أي أخبار عن حامية بور لأكثر من عام. ولكن، وفي الرابع والعشرين من أغسطس، انفرج كرب أمين بك بوصول ثلة من جنود تلك المحطة والذين قدموا له أنباء طيبة عما يحدث هناك وذكروا له أن الصندل، الذي كان أمين قد أرسله بالمؤمن لفسك الضائقة عن شامبي، قد وصل بدون خسائر إلى بور. وبأن قسماً من حامية شامبي قد تمكن من الانسحاب إلى تلك المحطة. وقد أفاد قائد حامية بور بأن هناك شائعات بقدوم عدة بواخر على النيل لكنها اضطرت إلى الرجوع لغشودة من جراء قفل المجرى بالأعشاب (السد).

* لوجود اضطرابات في مونيو فلم تصل هذه الحامية إلى مكاراك إلا بعد عدة شهور.

وأسرع أمين بك للاستفادة من هذه المعلومة وقام بتعميم إعلانات وزعها في أنحاء المديرية، تفيد بأن الإمدادات هي في طريقها إليهم قادمة من الخرطوم.

وأثناء ذلك وصلت حامية رمبيك، التي كانت قد انسحبت إلى أمادي، إلى أبياك. وعندما علمت بأن قوة من الثوار تتواجد في صيادين، قاموا بمحاولة لطردهم منها خسروا أثناءها قسماً كبيراً من عتادهم الحربي. وبالرغم من هذه النكسة الخفيفة فقد وصلت حاميّتي رمبيك وإياك إلى أمادي سالمين بحلول التاسع عشر من نوفمبر.

وفي هذه الفترة أرسل كرم الله قسماً من قواته إلى أمادي تحت قيادة عبدالله عبدالسلام (المأمور السابق لبحر لغزال) والظاهر أغا وقد سار معهم عدد كبير من البازنجر كانوا جميعهم مسلحين ببنادق الرمنجتون. قاموا بهجوم على المدينة في الحادي عشر من الشهر ولكن تم صدّهم عنها. عاودوا الهجوم مرة أخرى في الرابع عشر لكنهم تكبدوا خسائر جسيمة هذه المرة وقتل منهم الضابطان العجب أغا صالح وسرور أغا إبراهيم الذان كاتا قد فرا من المديرية قبل ذلك (وانضمّا إلى الثوار). وفي السابع عشر من الشهر قاموا بهجوم ثالث لكنه فشل أيضاً. وفي الثاني من ديسمبر قامت الحامية بشن غارة على العدو واقتحمت مصكره وكبدته خسائر كبيرة. لكن الأعداد الكبيرة من الثوار أجبرتهم على التراجع وكبدتهم خسائر بلغت ١٢ ضابطاً قتلوا و١٨ جندياً جرحوا.

وقد تكبد زنوج الأجار، الذين كانوا قد انضموا للدناقلة، خسائر كبيرة في تلك المعركة لكن الحامية تمكنت من الانسحاب إلى قاعدتها في أمادي وأحضرت معها كل الجرحى بسلام. وقام أمين، الذي كان يأمل في طرد الثوار الذين كانوا يحيطون بأمادي، بالعمل على إرسال تعزيزات، في أواخر ديسمبر، مكونة من ١٦٥ بازنجر وغيرهم من الجنود المسلحين بالبنادق ومعهم حوالي ٨٠٠ محارب من البومبي والمورو والمكاركا المسلحين بالرماح والتروس وذلك انطلاقاً من أمادي نفسها. كما أنه تلقى في حوالي تلك الفترة رسالة من كرم الله اشتملت على جبة المهدية والطاقيّة. لكن ضبط الحامية، الذين ظنوا أن هذا الزي مسحور، قاموا بإحراقه قبل وصوله لأمين.

ومن السادس والعشرين من ديسمبر وصلت الأنباء المخيفة التي تفيد بأن حامية بور تم استئصالها تقريباً عقب غارة عنيفة وقام أمين على الفور بإرسال مركبين شراعيين محملين بالجنود وبالذرة والذخيرة مع ملحوظة منه بأنه من المشكوك فيه أنهم سيصلون إليهم في الوقت المناسب لانقاذ المحطة.

وحتى اللحظة فإن إقليم مكاراكا لا زال هادئاً نسبياً وهو الأمر الذي قد يعزى لحد كبير لوجود الكابتن كاساتي هناك، والذي كان متجولاً في مونبوتو. ولكن عندما نشبت الاضطرابات هناك قام أمين بنصحه بالعودة بالقرب من رئاسة المركز.

وعند أواخر العام نلاحظ أن أمين لا زال يأمل في "رغم كل الأحداث الماضية فإنه، ورغم كل شيء، سيتحرر من مشاكله تلك فور وصول الباخرة من الخرطوم". لقد حول لادو إلى قلعة محترمة ذات حنادق عميقة ومتاريس مرتفعة ومزاغل وقناطر متحركة .. إلخ. وقد علق قائلاً: "إذا ما كان علينا أن نموت بعد كل هذا، فأنا على الأقل سنموت ميتة الجنود المشرفة وأنتي اعتقد بأن ذلك لن يكون بعيداً".

لا بد هنا من الإشارة السريعة للأحداث التي مرت بالمناطق المجاورة لسنار، والتي كما نذكر، كانت محاصرة بأحكام بطريقة أو بأخرى منذ عام ١٨٨٣. وفي مايو ١٨٨٤ قام عدد من القبائل التي تجاور المدينة بالتجمع والحشد تحت راية الأمير أبو الحسن، وحاولت قطع الإمدادات عنها. وفي يولييه قام المدير حسن بك صادق بمهاجمة الثوار وطهر المناطق المجاورة منهم لبعض الوقت وتمكن من جمع كمية كبيرة من الذرة. وفي ٧ أغسطس وصل إلى جادين، التي تبعد ١٢ ميل شمال سنار، بخيت بك بطراكي، الذي كان غردون قد أرسله للحصول على مؤن، حيث قابل المدير. وبعد أن ملأ بواخره تماماً عاد إلى الخرطوم.

وفي أواخر سبتمبر وصل نصحي باشا إلى نفس المنطقة وتم إمداده أيضاً بكميات من الذرة، وفي هذه الأثناء تلقى غردون شكاوى ضد المدير وقام بالتالي بإرسال تعليمات مع بطراكي بك إلى النور بك، الذي كان قائداً للقوات وأحد ضباطه السابقين، بأن يتسلم القيادة العليا للجيش هناك. وأضاف لتعليماته بأنه إذا ما أبدى المدير أي شعور بعدم الرضا فإن عليه إحضاره للخرطوم وبنهاية أكتوبر تلقى غردون الرسالة التالية من حسن صادق:

من مدير سنار

إلى حاكم عام السودان وملحقاته، إلى سعادة صاحب المقام الرفيع لقد ذكرنا لسعادتكم بأننا في السادس من أكتوبر قد تشرفنا باستلام أوامر سعادتكم، المؤرخة ٢٤ سبتمبر، والتي تشير إلى وصول تسعة أفواج من شجعان الجيوش الإنجليزية ومسلمي الهند - مدفعية وفرسان ومشاة الجيش - المدربين على عبور الجبال والسهول والأماكن الوعرة ومعهم مدافع جديدة وخيول قوية. وعند قراءتنا ذلك للجمهور ونشره في الأتحاء حدث سرور عظيم وسعادة للجميع وتنبأوا بكل خير وكل منقعة وكلهم يصلون ليكتب الله الظفر والنجاح لك وللعيش. والحمد لله أنهم وصلوا بربر واستلموها ووصلوا الخرطوم. وكل الناس في سنار وما جاورها، من العلماء والتجار والمواطنين وذوي النفوذ والضباط والجنود، يقبلون أيدي سعادتكم. وأتينا نتمنى لسعادتكم، بغير الله وتوفيقه، وعون رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، أن تتوقف إضطرابات السودان وإدعاءات المهدي وألا يبقى بعد ذلك منها إلا اللطم في بعض المناطق، وأن يخضع الجميع لسيف الحكومة.

ومن الله النجاح وبه التوفيق

(إمضاء) حسن صادق

مدير عموم سنار

مؤرخ في ١٨ ذو الحجة ١٣٠١هـ

(٩ أكتوبر ١٨٨٤)

حاشية:

إلى معاليه:

ترجو من سعادتكم الأمر بسرعة إرسال باخرة لإحضار ما سألناكم له بخطابنا المقدم لكم بالأمرة ١٤/٣٩.

ورغم الحالة المرضية التي وصفناها، فلا زالت الغيرة تعمل عملها. وفي نوفمبر ١٨٨٤ عمل النور بك على حبس المدير في منزله.

وفي هذا الشهر تجمع حشد آخر للثوار تحت قيادة الأمير المرضي أبوروف* وبنهاية الشهر قام النور بك، مع قوة من ٧٠٠ رجل، بالهجوم على المرضي. لكنه أجبر على التراجع نحو سنار بعد أن فقد عدداً من الضباط والجنود. وقام الأمير المتمرد بالزحف نحو سنار واتخذ موقعاً له في كبوش وقطع كل الإحصالات بين سنار والخارج وعادت المدينة مرة أخرى تحت الحصار.

سواكن بعد أحداث التيب وغيرها

عودة إلى مجرى الأحداث في شرق وجنوب شرق السودان.

فبعد سحب القوات البريطانية، بقيادة الجنرال قراهام، تم تعيين الميجر شيرمسايدي حاكماً على سواكن وذلك في ١٠ مايو ١٨٨٤. وكان عثمان لارال نشطاً بالمناطق المجاورة بينما كانت القوة من القبائل الصديقة عاجزة بالفعل عن الوقوف أمام تحالف الهندوة. وكانت حامية سواكن تتكون من الكتيبة الأولى للجيش المصري الجديد الذي أعيد تنظيمه، وبعض الفرسان والمدفعية تدعمهم البحرية البريطانية الحربية. وكانوا كافين بالكاد للدفاع عن المدينة.

ولعدة شهور كان الحال صورة للإزعاج الليلي المستمر، والذي أبلت فيه القوات المصرية الجديدة بلاءً حسناً وأظهرت مقدرة على الدفاع وضج جلياً في ما سبق من أحداث.

وبعد بضع شهور أظهرت إحدى أهم القبائل المجاورة (السواكن)، وهم الأمرار، عداءً ضد الهندوة وحدثت عدة نزاعات قبلية بدرجة أو أخرى من النجاح. لذلك، ورغم أن سواكن استمرت في حالة من الحصار إلا أن عثمان دقة لم يستفد من تأثير أحداث التيب وطماي بما يمكنه من مهاجمة المدينة بالقوة.

وأثناء ذلك إنغمس الميجر شيرمسايدي في مهمة ذات صعوبة وحساسية وتحتاج للكياسة. كانت هذه المهمة هي في حث ملك الحبشة يوحنا للقيام بإتخاذ الجنود المسلمين في الجيرة وكسلا وأماذيب والقلابات. وبعد أن أشتكى له الملك من المصاعب، التي يعلم بأنها لا نهاية لها، تقدم له بالتماس للحصول على ١٠٠٠٠ بندقية وذخائرها مع ٣٠٠٠٠٠ دولار. كان راغباً حقاً في قتال

* هو زعيم العرب الرفاعة. وكان اسمه الأصلي (المهدي) ولكن بعد أن أعلن محمد أحمد رسالته المقدسة أمر ذلك الشخص المرموق بتغيير اسمه إلى المرضي.

العرب. وبعد تبادل واسع للرسائل، وصبر من جانب الميجر شيرمسايڊ، بدا على الرأس الو لا. الجنرال الحبشي، أنه مستعد للقتال.

وقد أنبني دور الميجر شيرمسايڊ في هذا الأمر على ما يمكن تسميته بمعاهدة، أبرمها الأدميرال هيوت وما سون بك مع الملك يوحنا. فقد غادر الأدميرال مصوع يوم السابع من أبريل ١٨٨٤ إلى داخل الحبشة.

ونصت المعاهدة، التي وقعت في عدوة يوم ٣ يونيه ١٨٨٤، على أن يتسلم الملك إقليم بوغوص، التي تقع فيه حامية سنهيت أوكرن، والذي كان من قبل إقليمًا حبشياً. فهو سيتسلم هذا الإقليم والمباني والمخازن في سنهيت عندما يعمل على تسهيل إخلاء حاميات كسلا وأماذيب. وكان معلوماً أن حرصه على إعادة ضم بوغوص سيعجل بعملية الإخلاء.

كسلا خلال ١٨٨٤

في تلك الفترة قام مدير التاكا، أحمد بك عفت بكتابة طلب من كسلا، في ٢٩ مارس ١٨٨٤، يستعجل فيه بشدة إرسال تعزيزات له، وموضحاً بأن غردون باشا قد أخبره بأن القوات البريطانية قادمة إليه. وكان هو والأهالي في غاية السرور بذلك الخبر. بل أنه أبلغ قائلاً بأن بخيت بك، زعيم البني عامر، قد قام مع أعرابه بتقديم أقصى مساعدة، له وبإخلاص شديد.

وكتب المدير مرة أخرى في مايو بأن الحصار قد شدد عليه، وأنه يكاد أن يفقد الإتصال بالخارج تماماً. وأن الخزينة خاوية، وليس معه أي مال ليدفع إستحقاقات قواته. وفي ٢١ يونيه قام الثوار بالهجوم على الختمية، إحدى ضواحي كسلا، لكن الحامية، بقيادة الشيخ عثمان الميرغني والشيخ عجيل، شيخ قبيلة الحمران، صدتهم. واستولي الشيخ عجيل على بوارق العرب وقتل حامل الراية. وفي أغسطس تسلم المدير تعليمات له للانسحاب بواسطة ماسون بك، حاكم مصوع آنذاك، والذي أوضح بأن صعوبة تنفيذ إخلاء كسلا نجمت عن وجود ١٠٠٠ من الباشبوزوق، والذين لن يرضخوا للتسليم. وبعد شهرين من ذلك كتب الكابتن سبيدي، والذي عاد ثانية لهذه المنطقة المألوفة لديه، والذي جاء به للعمل على تنفيذ المعاهدة الحبشية، بأن نصف عدد الحامية مكون من أهالي المنطقة وبالتالي لن يتمكن حاكمها من تنفيذ الإخلاء.

وفي ١٢ سبتمبر ١٨٨٤، وطبقاً للاتفاقية الموقعة، تم تسليم بوغوص للحبشة لكن إنسحاب حاميات أما ديب وسنهييت تأخر، إذ قد يمكنهم تقديم المساعدة والعون لحامية كسلا عندما يكونون عابرين لطريقهم خلال الأراضي الإثيوبية.

أثناء ذلك وصل الشيخ بخيت، البني عامراوي، إلى مصوع قادماً من كسلا وأبلغ بأنه يعتقد بعدم إمكانية إخلاء كسلا بدون مساعدة عسكرية من القوات. لقد قدم هذا الزعيم، حتى ذلك الوقت، مساعدات قيمة للغاية للمدير بكسلا. لكن الإضطراب السائد في المنطقة، والإتساعات القاتلة بأن جيرانه من الحباب والرشايدة قد بدأوا يتململون، دفعته للعودة لرعاية مصالح وشلون قبيلته الخاصة.

وفي نوفمبر، عبر الملك يوحنا عن رغبته في إرسال قواته لنجدة كسلا. لكنه أبلغ بأن إنقاذ حامية القلابات هو الذي له الأهمية القصوى. وبالتالي اتخذ استعداداته طبقاً لذلك.

القضارف

في أبريل ١٨٨٤، أبلغ المدير بأن حامية القضارف، أو سوق أبوسن^{*}، والتي هي بقوة ٢٠٠ رجل بقيادة محمد باشا أغا واليوزباشي موسى أفندي حسن، قد عقدت اتفاقاً مع الثوار، وأن خمسة من التجار النصاري، والذين كانوا بها في ذلك الوقت، قد أرغموا على اعتناق الإسلام. كان قواد العرب في هذه المنطقة محمد أفندي والشيخ عبد الله، ابن وشقيق عوض الكريم باشا، زعيم الشكرية، على التوالي. وقد ظل الأخير محتفظاً بولائه للحكومة باستمرار ومات فيما بعد، مقيداً بالأغلال، في أمدردمان.

هرر

في القصة الطويلة للكارثة التي واكبت إخلاء السودان، كان لإعادة نفوذ وسلطة ابن الوالي الأسبق، على هذه الحديقة الواسعة للبن، والمحاطة بالحوائط والأسوار، أثر كبير وسار على ما لزمها من هدوء. وكان للمراقبة والإشراف الوقور والمهاب للقتل البريطاني أثر كبير في أن عملية التسليم كانت كمجرد تبادل للتحايا والود. تم تسليم مدينة هرر لمحمد عبد الشكور وأعطاه القنصل البريطاني إيصالاً عن المينتين بربرة وزيلع.

تبعد هرر ١٥٠ ميلاً من الساحل وهي مربوطة بخط (تلفرافي) يمتد بين بربرة وزيلع وهرر بشكل مثلث ذاويته اليمنى في زيلع.

تحرك رضوان باشا من السويس في الثالث عشر من سبتمبر ١٨٨٤، ومعه مبلغ خمسة ألف جنيه لنفقات السفر الضرورية. ووصل ميناء عدن في الثالث والعشرين من الشهر حيث التقى بالميجر هنتر، من هيئة أركان قوات بومبي.

وقد كان إرتياح الباشا لآراء الميجر هنتر الخاصة بالإخلاء، معادلاً لما أصابه من إندهاش. فقد كانت آراؤهما متطابقة تقريباً، وأن التعليمات التي تلقاها، كل على حدة، متناغمة حتى آخر حرف فيها. أبحر رضوان باشا لبربرة في اليوم التالي وقرأ أوامر صاحب السمو الخديوي للحامية التي ابتهجت بأفاق العودة للمدينة. من هناك توجه إلى زيلع حيث أودع المال بخزينتها وحدد أوامره لحاكم هرر بما عليه القيام به ثم عاد إلى بربرة.

وهنا شرع في بيع الممتلكات الحكومية المنقولة بالمزاد وبعدها سلم المباني للقنصل البريطاني، بعد إستلامه إيصالاً بذلك.

^{*} هي المدينة الرئيسية والسوق التابع للشكرية. وقد سميت بذلك الاسم تبعاً لاسم عائلة شيخ القبيلة، أبوسن. وهو لقب لحق به لوجود سن طويل وقبيح أشتهر به ذلك الشيخ. والقضارف في حد ذاتها هي اسم للمديرية كلها لكن الاسم يستخدم كثيراً للعاصمة، سوق أبوسن.

وفي الثاني عشر من أكتوبر كان كل شيء جاهزاً لرحيلهم لهرر. وانتدب الميجر هنتر الملازم بايتون للتوجه بصحبة الباشا، ثم مضى الاثنان نحوها على مراحل مريحة. وعند الوصول لهرر استقبلتهما القوات والأعيان بكل مظاهر الفرح. وهنا أخرجوا فرمان صاحب السمو وقرأه لهم، ثم تفحصوا الحسابات، ودفعوا للجنود متأخرات خمسة شهور، وأطلقوا سراح بعض السجناء العرب، ثم شرعوا في العمل على الحصول على أي جمل بالمنطقة وما جاورها. بعد ذلك تم بيع المتاجر والمخازن والآليات الحكومية ثم وضع تقدير بقيمة البيوت (الحكومية) وجنائن البن على عجل، وبنهاية أكتوبر كان ١٠٠٠ من القوات في طريقهم (لميناء) زيلع. وحتى منتصف نوفمبر كان قد تم ترحيل ٢٧٠٠ منهم، ومعهم الإرشيف الحكومي والمستندات والتي، بسبب احتفاظ الكتبة الأقباط بها (وقيامهم بأمرها) كانت متضخمة للغاية وملأت، في هذه الحالة، سبعة وأربعين صندوقاً ضخماً.

وتزايدت في ذلك الوقت مطالبات الأهالي على الموظفين وقاموا بضغوط شديدة (على السلطة القائمة). تم تكوين لجنة مستعجلة للتقصي وقامت بأنصافهم. ووصل الميجر هنتر. وبصحبة الميجر هيث إلى هرر في ٣ نوفمبر ومعهما ٤٠٠٠ روية. وبينما كانت عملية الإخلاء تجري على قدم وساق قام هؤلاء الضباط بالإلتفات نحو تأسيس الحكومة الجديدة. وقاموا ببناء حصن وجمعوا قوة من ٣٠٠٠ صومالي مسلحون بالبنادق وبمدفعي كروب وعلموهم، بقدر ما أمكن، كيفية استخدامها.

وفي ديسمبر، وبينما كانت تجري عملية الإخلاء وتأسيس حكومة جديدة جنباً إلى جنب، جاءت إفادة من القبائل المحلية المجاورة لهم، عن طريق بعض الباشديم والواراقوسو، الذين تظلموا لرضوان باشا بأن قبيلة البابلي قد هاجمتهم ونبتت بعضاً من رجالهم. نهض رضوان باشا على الفور، ومع خمسة كتائب من الجنود وبعض المدفعية والخيالة، وتوجه إليهم. هرب رجال البابلي وتركوا وراءهم أكواخهم عرضة للنهب والإحراق. وبعدها لم يحدث ما يعكر توجه التيار المستمر للقوات في طريقهم للساحل.

وبحلول فبراير ١٨٨٥ عاد الميجر هنتر إلى زيلع وأصبحت كل هرر جاهزة لإقامة الحكومة الجديدة. تم استدعاء ستة وخمسين من قادة المنطقة لحضور إجتماع خاص بذلك ووافق الحضور بالإجماع على انتخاب عبد الله محمد عبد الشكور، ابن الحاكم الذي أطاح به المصريون، كحاكم عليهم. وانتخبوا أيضاً مجلساً من عشرة من (الوجهاء) للدفاع عن حقوق الجماهير وأربعة وجهاء آخرين لإدارة الشؤون المالية والجمارك والشرطة والجيش الصغير.

وفي ذلك الوقت وصل إلى المنطقة رحالتان ألمانيان هما الدكتور هاردي وبول دكسي وشرعاً في إطلاق العديد من الأسئلة الصعبة. ولكن حبيهما للاستطلاع لم يقف عن حد أو يتم إشباعه، إذ أن رضوان باشا، مراوفاً، أوضح لهما أنهما لا يحملان تفويضاً من أي جهة رسمية (تخول له الإجابة الشافية على استيضاحاتهما). وبعد ذلك، وفي يوم ٢٣ فبراير قدم التجار الأوروبيون احتجاجاً قوياً ضد سحب الحاميات وخروج الحكومة، والتي كانوا قد أنشأوا أعمالهم المختلفة تحت ظل حمايتها. لكنهم رضوا بعد أن تم إخطارهم بأنهم إن لم يكونوا على استعداد لمغادرة المنطقة في ظرف شهرين، أي في الفترة التي سينتهي فيها الحكم المصري، فإن بإمكانهم البقاء لشهرين آخرين تحت حماية من الملازم بايتون.

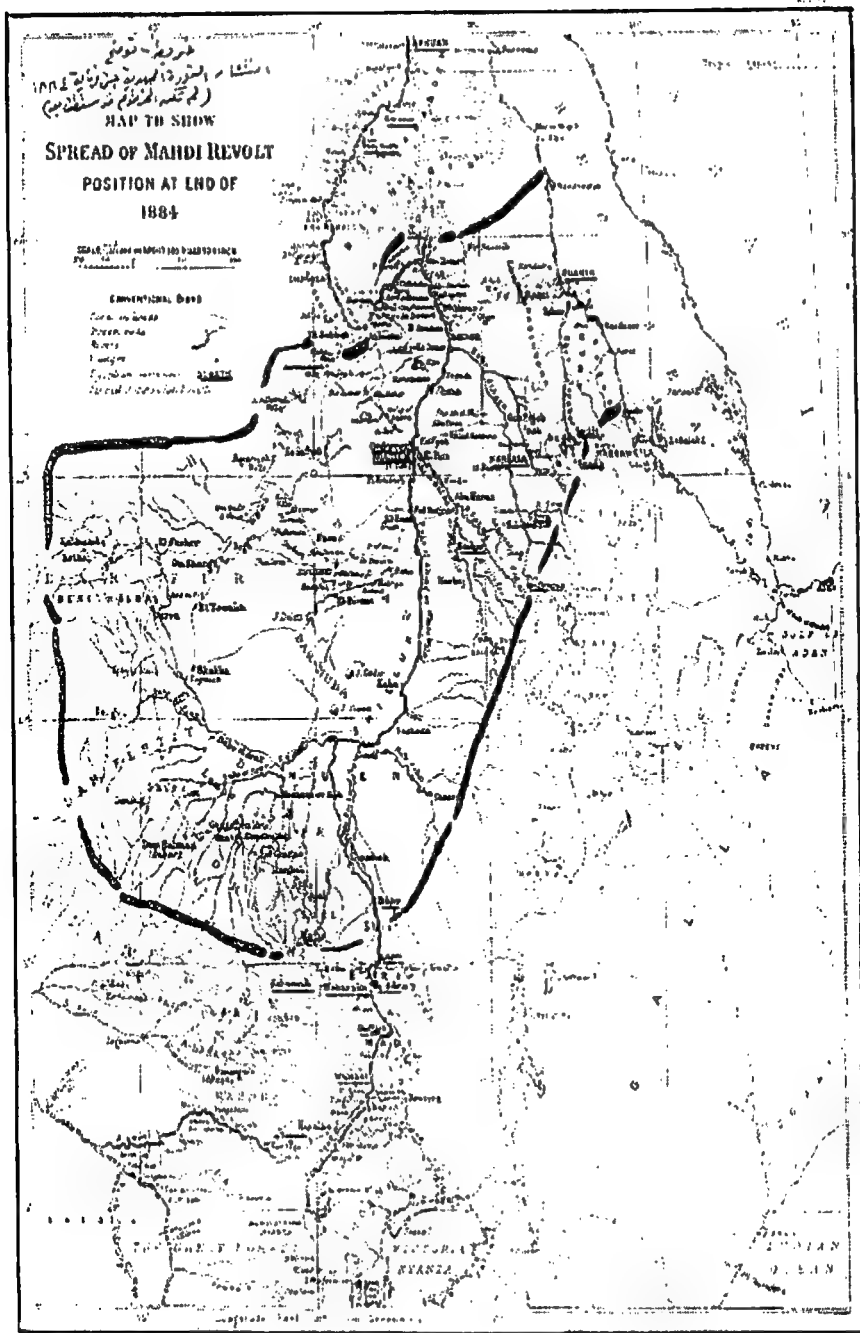
وفي الخامس والعشرين من أبريل أقيمت آخر الإحتفالات الخاصة بتتصيب الأمير الجديد، وقرأ فرمان الخديوي الخاص بذلك على الجمهور، ثم تلى ذلك تبادل الأعلام، من المصري لعلم الأمير، ثم تحية من إحدى وعشرين طلقة مدفع. وأعطى البريطانيون إيصالاً بذلك أيضاً.

وفي اليوم التالي غابر رضوان باشا هرر، وسط مشاعر عميقة لعواطف الأهالي المحزونون لرحيله، ومعه آخر من تبقى من ٦٥٠٠ رجل، وصلوا كلهم بسلام إلى الساحل وركبوا البواخر لمصر.

وفي الثالث عشر من مايو ١٨٨٥ سلم الملازم بايتون للحاكم الجديد المباني الحكومية، التي بلغت قيمتها ٧٠٠٠ جنيه، وجنابن للقهوة قدرت قيمتها بحوالي ٤٠٠ جنيه ثم توجه لشاطئ البحر، على درب الباشا.

ما أوردناه سابقاً عن إخلاء هرر أخذ من مذكرات رضوان باشا، وهي يوميات لطيفة وسهلة السرد حتى أن المرء يتمنى أن لو كان هناك المزيد منها.

ولكن بالرجوع إلى المراسلات البريطانية الرسمية فسنجد فيها شيئاً مختلفاً تماماً. ففي هذه المراسلات نجد ذكراً، بالتأكيد، لرضوان باشا، لكنه يظهر فقط كمشاهد، غير مهتم، للولائم الدبلوماسية التي أقامها الوكلاء السياسيون البريطانيون. ولكن ومهما كانت البراكين المتفجرة للعلاقات المتوترة المشدودة، وللطغيان وسفك الدماء والحرب الأهلية التي كان هذا الباشا الطرب يمشي فوقها، فإن التاريخ لن يابيه به كثيراً.



ملحق القسم الخامس
(وضع المصريين في السودان حتى نهاية عام ١٨٨٤
وحصار الخرطوم خلال تلك السنة)
تصريحات الجنرال غردون

(١)

..... واعطيكم أيضاً الحق في الإحتفاظ بالعبيد لخدمتكم، وبدون أي تدخل من الحكومة أو من أي إنسان آخر.....

غردون،

حاكم عام السودان

(٢)

.... في حين أن رغبتني الخالصة كانت في اتخاذ طريق يقود إلى رضا الناس جميعاً، ولأنني مدرك لمدي أسفك على الوسائل القاسية الصارمة التي إتخذتها الحكومة لكبح تلك التجارة، وعلى عمليات القبض على كل من لهم علاقة بتجارة الرقيق وعقابهم، طبقاً لما جاء في الميثاق والقرارات، فأنتني هنا أعطيك الحقوق التالية: "أنه من الآن فصاعداً فلن يتدخل أحد فيما تملك. وأن كل من يمتلك عبيداً في خدمته فأن له مطلق الحرية في الاستفادة من خدماتهم. والسيطرة عليهم، بدون تدخل من أي شخص كان.

غردون،

حاكم عام السودان

(وفي ٢١ فبراير أبرق الجنرال غردون (قائلاً):

لقد وصلتني عدة تلغرافات من الصحافة تسألني عما قلته فيما يختص بالرقيق. وكان السؤال الموجه لي هو كالتالي: هل ألححت بالفعل على تحرير كافة الأرقاء بحلول عام ١٨٨٩ طبقاً لمعاهدة ١٨٧٧؟ فأجبتهم بأن تلك المعاهدة لن يتم تطبيقها عملياً عام ١٨٨٩ بواسطتي وخاصة إذا ما أخذنا في الإعتبار قرارات حكومة صاحبة الجلالة الخاصة بالسودان فالسؤال خاص (بالاحتفاظ بالرقيق) وليس (باصطياد الرقيق). وفي تقديري فإن معاهدة ١٨٧٧ لن تنفذ أبداً في القاهرة وخاصة فيما يتعلق بملكية العبيد والإحتفاظ بهم.

توضيح من السير هنري غوردون

(٢٣ فبراير ١٨٨٤)

... الإشارة إلى الإحتفاظ بالعبيد، وليس سيدهم.

ففي عام ١٨٠٧ تم إعتبار صيد الرقيق بمثابة عملية قرصنة في بريطانيا العظمى. ورغم ذلك لم يتم تحرير العبيد فيها إلا عام ١٨٣٣ وبعد أن تم عتقهم حصل المزارعون أو الملاك على تعويض مالي قدره عشرين مليوناً من الجنيهات الإسترلينية.

وفي عام ١٨٧٧ صدر مرسوم عال في مصر يعاقب صائد الرقيق بالإعدام. أما بيع الأرقاء من شخص لآخر في مصر السفلى فتحدد له عام ١٨٨٤ ليتوقف تماماً (أي في ١٤ أغسطس من هذا العام). ويتوقف في السودان عام ١٨٨٩. لذا يمكنك ملاحظة استمرار العبيد في بقائهم (مع مالكيهم) ولكن بيعهم أصبح ممنوعاً. ويمكنهم البقاء مع الأسر التي هم معها الآن إلى أن يتم تطبيق المرسوم العالي. فالعبيد هم بمثابة الأموال. وإذا ما حررتهم بدون تعويض الملاك (مثلما حدث في إنجلترا عندما دفعت الحكومة عشرين مليوناً من الجنيهات) فإن هذا يعتبر بمثابة السرقة. بالتالي، وطبقاً للقوانين السارية فإن ملاك العبيد في السودان يمكنهم التجارة في أملاكهم (بيعاً وشراءً) حتى عام ١٨٨٩. وهذا ما قاله الجنرال غردون للناس.

مجرد ما قاله لهم هو أنه لم يحضر للسودان ليخرق القوانين أو يصادر أموالهم.

هـ . دبليو . غردون

نسخة في ١٣/١٠/١٨٨٤،

في تكنتات إيستني،

الملازم و.س. غردون

القسم السادس (أ) سقوط الخرطوم

الملخص:

مقارنة بين حملة الإنقاذ الحبشية وحملة إنقاذ الخرطوم - تاريخ الحصار - ارتفاع منسوب النيل - حملة محمد علي باشا على النيل الأزرق - هزيمته للأمير عبد القادر في الجريف - غردون يهنئه - "الباشا المحارب" يظهر كل المناطق المجاورة من الثوار - هزيمته للشيخ العبيد في الحلفاية - تطهيره للنيل حتى شندي - لكنه هزم وقتل في أم ضبان - الكولونيل ستيوارت يغادر الخرطوم بالباخرة عباس لمقابلة البريطانيين - تحطم الباخرة عباس - ستيوارت ومن معه ينزلون في الهبة - قتلوا غدرًا بواسطة سليمان ودقمر - التراسل بين الخرطوم والمهدي - مناقشة ردود العلماء - غردون يكتب لسنار - إرساله لثلاثة بواخر بقيادة نصحي باشا للمتمة لانتظار قدوم الإنجليز - ما قامت البواخر بعمله - التصرف البطولي للسبيتين فاطمة ونفيسة في المتمة - وصول أخبار موت ستيوارت للخرطوم. بحث من أربعة جهات نظر عن أسباب سقوط الخرطوم - رواية المحاصرين - المراحل المبكرة للحصار - ندرة الذرة - تفتيش الخرطوم بحثًا عن ذرة - أم درمان تحت حصار قوي من أبي عنجة - غردون يحاول إنقاذها - فرج الله باشا - القمندان يتسلم أوامر من غردون بالتسليم - إستسلام أم درمان - المجاعة بالخرطوم - الموتى يملأون الشوارع - فرار السنجك عمر إبراهيم - غردون يرسل للمهدي كل الأهالي الراغبين في مغادرة الخرطوم - المهدي يطلق ١٠١ قذيفة مدفع تحية - البلبلة وسط المحاصرين - غردون ينبئهم بأن الإنجليز قادمون على الفور - بأس المحاصرين - جيش ود أنجومي يقتحم المتاريس والخندق الذي دمرته مياه النيل - سقوط الخرطوم ومقتل الجنرال غردون - تحركات حملة الإنقاذ - تقدم السير تشارلس ولسون يوم ٢٤ يناير بالباخرتين بوردين وتل حوين - صعوبة الملاحة - حادث يؤدي للتأخير - العدو يطلق النيران - تقرير عن مقتل الجنرال غردون - الاستعدادات لاختراق الحصار - أول رؤية للخرطوم - جزيرة توتي في يد الأعداء - انسحاب البواخر بعد أن وجدوا أن الخرطوم سقطت - جنوح الباخرة تل حوين لوقت قصير - نار كثيفة تطلق على البواخر - البجارة يظهرن التأمير - صعوبة الوضع - تحطم تل حوين - خطابات من المهدي - الإجابات على خطاب المهدي - سحق القوات الوطنية - عبور السيلوكة - عبور الشلال الأخير - تحطم البوردين - جزيرة ميرنات - الملازم ستيوارت ورتلي يتوجه للقبة - ترتيبات السير س. ولسون - هجرو فرار - رؤية الصافية - السير تشارلس ولسون يغادر جزيرة ميرنات متجهًا نحو الباخرة الصافية - رحلة الصافية - قلعة في ود الحبشي - إصابة المرجل - الوضع الخطير للصافية - إصلاح المرجل - إنقاذ جماعة السير تشارلس ولسون.

الحملة التي وجهت (من قبل) للحبيشة أنقذت ثمانية رجال وكلفت ثماني ملايين (جنيه). كانوا رجالاً إنجليز تم سجنهم. أثناء أدائهم لواجبهم، في بلد نائي ومعادي. ويعزي نجاح الحملة، من وجهة نظر إنسانية، للصدفة. إذ أنها اعتمدت على نزوة لملك شرس، أثارتها ما قام به أولئك السجناء من إبداء للمهارات، أو سلوك للمؤامرات، أو أساليب للبقاء، في مكائهم النائي، لذلك الشرير. وبعد أن تم اختيار الموسم الملائم من السنة، لم يعد للتأخير أثراً في كونه أو عدم كونه قاتلاً. فقد عاش بيرد ورفاقه تحت ظروف مماثلة، ولحوالي أربعة سنوات، في سجن سيرنجاياتام التاريخي.

أما الظروف التي عاشها الجنرال غردون في الخرطوم فقد كانت مختلفة تماماً. فأمام أعداد لا حصر لها من الأعداء، المنتشرين بالنصر، والذين يغمروهم التعصب. واجه غردون حرباً لا نظير لها في التوحش بمهارة وخبرة. ورغم وجوده في مكان هش ضعيف من الناحية الطبيعية أو الصناعية وبدون موارد أو تموين يذكر، إلا أنه، ولعدة شهور، حافظ على جبهته بشجاعة وبسالة. ولم يكن للخيانة بين المحاصرين ولا ضروب الحيل التي استخدمها المحاصرون دوراً في سقوط الخرطوم. ولكن سقطت الخرطوم بسبب المجاعة، واليأس (الذي خيم عليهم) من طول الإهمال والتجاهل.

ولم تكن هناك أي عوامل تساعد الحملة على إتقاذ الجنرال غردون. فقد تم التصديق بها بعد فوات الأوان. ولما طال انتظار قدوم الإنجليز يوماً بعد يوم، ولم يصلوا، كذلك يوماً بعد يوم أخذت معنويات الجنود وأفئدتهم في التدهور والانحدار لأعمق الأعماق، إلى حالة من الكآبة والظلامية. ويوماً بعد يوم أخذت قواهم في الاضمحلال حتى رفضت أجسامهم، في نهاية الأمر، تناول الصمغ، والذي كان حتى وقتها طعامهم الوحيد. ويوماً بعد يوم أخذ النيل في الانحسار عن الخندق الذي ملأه الطين والطيني، وعن المتاريس التي اتهارت، وخلف ذلك ممراً عريضاً لمن يجرؤ على الدخول.

ويمكن إعادة تلخيص تاريخ الحصار في الآتي: فالفيضان الذي طال انتظاره وصل أخيراً. وأخذ النيل في الارتفاع بعض الشيء في يونيه، وإزداد سرعة في يولييه وإستمر في الارتفاع طوال شهر أغسطس. والخريطة التالية تظهر التغيير الذي أحدثه الفيضان تدريجياً على ضواحي المدينة. فعند ارتفاع منسوب النيل، تصبح الخرطوم شريطاً يمتد بطول النيل الأزرق تتوسطه السراية والترسانة.

وقرب نهاية أغسطس كان كل شيء جاهز لتوجيه ضربة قوية ضد قوات الحصار التي تحيط بالمدينة. وتحرك محمد علي باشا (باشا غردون المحارب) على النيل الأزرق بقوة كبيرة جيدة التجهيز، على البر والنهر. وأصطدم في الجريف بالعرب والحق هزيمة تامة بعبد القادر وغنم منه ١٦٠٠ بندقية وعدداً كبيراً من السيوف والحراب. وتوجه غردون بنفسه على باخرة خاصة لمقابلته عند عودته وهناك بالنصر من أعماق قلبه ورفاه إلى رتبة اللواء. وفي اليوم التالي، الثلاثين من أغسطس، عاد محمد علي باشا (ثانية للهجوم). وبعد اشتباك قتل فيه أخ الشيخ قام بتطهير كل المثلث الجنوبي الخرطوم (من الثوار) وهو مثلث قاعدته الخط بين الكلاكلة على النيل الأبيض والجريف على النيل الأزرق.

وفي اليوم التالي تقدم الباشا، الذي أثمته النصر، نحو الشمال. واصطدم في الحلفايا بالشيخ العبيد وأحرز نصراً باهراً عليه. فقد هزم الشيخ تماماً ونظف النهر، على الضفتين، حتى شندي شمالاً.

وتدفقت العيوش والماشية والمأكولات من كافة الأنواع على الخرطوم، وهبطت الأسعار إلى مستوياتها العادية. غمرت الفرحة الضارية أنحاء المدينة ولكن.. واحصرته! فقد ولدت هذه النجاحات شعوراً بالثقة تمخض بعدها عن كارثة ماحقة بهزيمة العيلفون. وهذا ما عبر عنه غردون عندما أوضح أسباب إرساله الكولونيل ستيوارت وباور وهيرين مع بعض الأوروبيين لبربر، بعد أن كاتوا قد عادوا للمدينة في فبراير. بأن الوضع كان يائساً بالخرطوم بعد أن دهمتهم كارثة العيلفون. وبعد إحرازهم للنجاحات التي سبقتها.

تقع العيلفون على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، وعلى بعد حوالي عشرين ميلاً جنوب الخرطوم. وفيها جمع الشيخ العبيد والأمير مضوي قواتهما، التي كانت قد حطمت في الحلفاية، وهنا قام محمد علي باشا، في الرابع من سبتمبر، بالهجوم عليهما. هزم الشيخان وإتسحبا لأم ضبان وقام محمد باشا، بعد أن ترك نائبه فرج الله باشا متمرساً على النهر، وبعد تلقيه إمدادات جديدة من الزخائر، بمطاردة الشيخ حتى أم ضبان. ويقول غردون بأنه كان يرغب في نهب الشيخ وتغنيمه. وكان قد أرسل له تعزيزات (وقوات) من بينها بخيت بك بطراكي وستيوارت. لكن محمد علي باشا لم يتمكن حتى تصله التعزيزات، بل شرع في حملته القاتلة على الفور. فعند الفجر، وبينما كان رجاله منهكين من التعب وبدون نظام، بعد أن ضلوا الطريق في ظلام الليل، إنقض عليهم الشيخ إنقضاضاً ساحقاً. حاربوا ببسالة. لكن اللواء الفخور برتبته الجديدة وبجراحاته الأخيرة رفض أن يتراجع بوصة واحدة بل "جلس على فروته" كما يقولون. أي أنزل فروته من علي ظهر حصاته وفرشها على الأرض وجلس عليها رافضاً أن يتحرك. ثم تمزيقه إرباً هو و ٨٠٠ من رجاله، أي نصف عدد قواته، وغنمت منه ٩٨٠ بنقوية رمنجتون في نفس الوقت. وعادت باخرة الإمدادات ومعها فرج باشا (للخرطوم).

وكان غردون قد عاهد نفسه بأنه، عندما يرتفع منسوب النهر، فسيرسل باخرة عبر النيل إلى القاهرة. وستحمل هذه الباخرة معها تفاصيل ما حدث في الفترة الماضية، وللعمل على إزالة أي شك في ذهن الحكومة عن الخطوات التي يجب اتخاذها. وترتب على هزيمة العيلفون أن تقرر إرسال الباخرة "عباس" على الفور. وتطوع القنصل الفرنسي، هيرين، لقيادة المهمة، بعد أن روي ما سيكون لقيام أوروبي من منافع هامة قد لا يصلح غيره لأدائها. فإذا ما ذهب أوروبي، فإن الكولونيل ستيوارت، وهو ضابط بريطاني، سيتمكن من الحديث مع الضباط البريطانيين بفعالية أكثر مما يمكن لغيره. طبقاً لذلك فقد صعد الكولونيل ستيوارت، بعد تردد من جراء رأيه في عدم ترك غردون وحيداً، إلى ظهر الباخرة بصحبة هيرين وباور وحرس شخصي من الأغاريق. قام بحراسة "العباس"، حتى وصولها لبربر عبر شندي، بعض البواخر الأخرى. ولم يخضع العرب هناك لإغراءات الهجوم على الباخرة، لأن بمقدور أمر الدقة أن يصطدم بها (على أي صخرة بالنيل) ويؤمن بالتالي استسلاما بدون سفك للدماء، وهكذا تقدموا بسلام وتجاوزوا بربر عابرين ميلاً بعد ميل من التيار المندفع وسلسلة الممرات الصخرية المتشابكة وسط النيل. وكان رجال الدقة يتبادلون القيادة وقلوبهم مفعمة بالأمل. ثم أشرقت وجوههم وإذادت ضربات قلوبهم عندما وصلوا لجزيرة مقرات المألوفة لديهم واقتربوا من أبي حمد، ثم فصلوا المراكب الأربعة، التي كانت مربوطة بالباخرة، وواصلوا التقدم.

وفي الثامن عشر من سبتمبر، وبعد ثمانية أيام من مغادرتهم للخرطوم، شاهدوا بعيون مستفربة أعداداً ضخمة من الأهالي مندفعين بطول ضفتي النيل وبعد ذلك، وكان الوقت لا زال في باكورة الصباح، اصطدمت باخرتهم بصخرة وأخذت في الغرق. نزل الكولونيل ستوارت (ومعه رفاقه) في قرية صديقة، لكنها مسلحة تماماً. وهنا في "الجهة" تمت دعوتهم لدخول أحد المنازل حيث قتلوا جميعاً تقريباً. ولم تصل اليوميات أو التقارير التي حملوها إلى وجهتها، بل سقطت في يد المهدي ومن بعده إلى خليفته. لكن قيمتها تناقصت تدريجياً عندما تجاوزها تاريخ الأحداث.

أثناء ذلك جرى تبادل متقطع للرسائل بين غردون من جهة وبين عبد القادر إبراهيم وود النجومي من جهة أخرى. قام الأخيران بعمل ما في وسعهما لتحقيق استسلام المدينة قبل وصول المهدي. لكن غردون والأهالي الذين معه لم ينحرفوا قيد أنملة عن تصميمهم على الصمود والحفاظ على المدينة، مهما كلف الأمر، في انتظار وصول الإنجليز لهم.

ووسط الكم الهائل من الرسائل التي تبولت، كانت ردود علماء الخرطوم على المهدي تتميز بإبداء وجهات نظر المسلمين الأصوليين في مقابل وجهات نظر المصلح الديني (المهدي). كتب شيخ علماء الجامع، السيد حسين المجدي، رداً أرسل في الحال لعبد القادر.

نقب العالم السيد حسين المجدي في مراجعه وكتبه وأشار إلى أن، المهدي (الأصلي) هو ابن الحسن العسكري، والذي ولد عام ٢٥٥ هجرية وبالتالي يكون عمره الآن أكثر من ١٠٠٠ سنة. أما محمد أحمد فلا يصل عمره حتى إلى عشر ذلك العمر. ثم ألقى بما إستشهد به محمد أحمد بعيداً وبغيط وحلق. "إن بإمكانك أن تشير للكتب القديمة وتقع بها الجهلة. لكننا نعلم بأنه لم يرد فيها أي ذكر للمهدي. إما إذا كان هذا هو المنتظر، فأين إذن الخرساني والذي سيملاً الأرض عدلاً؟ وأين الملك السفيلاني الذي سيحكم قبل ظهوره؟ وأين جفاف نهر الفرات وإكتشاف جبل الذهب؟" كانت الحجج الدينية التي تعلل بها الأول معادلة للحجج الروحية للثاني. ولكن متى كانت أسباب المحاصرين موافقة لأسباب المحاصرين؟ ومتى منع الجدل والنقاش الديني الحرب؟. فما جاء به ملائي الخرطوم من حجج لا يمكن إلا أن يثير العقول المفكرة النيرة وأن يقدم لها نموذجاً للإسلام في السودان. فقد كان أولئك الرجال يتجادلون، حتى إن لم يكن لإنقاذ أرواحهم، فأنهم كانوا يفعلون ذلك في ظروف تملئ عليهم أن يقوموا بما في وسعهم (للدفاع عما يروونه صائباً).

ومن المفيد أن نستعرض خطابهم. فالدهصري عادة غير قادر على التفكير المتوازن. ومن الصعوبة ألا تجد في خطابه تعبيراً لا يفهم إلا بأكثر من وجه. وإذا وضعنا جانباً الجمل والتعابير التي لا معنى لها، فإن حججهم يمكن أن تؤخذ على النحو التالي:

"يذكر القرآن أن الدين مكتمل. لذلك لا يمكن أن تكون هناك رسالة جديدة.

"إذا كانت هناك رسالة جديدة فيجب نبذها إذا ما تضمنت نكثاً للطهارة والعفة، أو حافزاً للقتل، أو ارتداداً عن العقيدة.

"إن إتباع طريق المهدي يقود لكل تلك الأشياء.

"أن علي المهدي أن يكون له عددًا من الوزراء الفرس أو الأجانب. وهذا المهدي ليس عنده منهم أحد.

"خوطب غردون في خطاب المهدي هذا بلقب (السادات). وفي نفس الخطاب سمي (بالكافر). فالكاتب إذن غير مترابط منطقياً ومتضارب في رأيه. وبالتالي لا يمكن أن يكون هو المهدي الحقيقي.

ويكتب بعد اسم المهدي جملة (عليه السلام). لكن عبد الغني يقول أن هذا اللفظ لا يطلق إلا على الأنبياء.

"لا يوجد أي ذكر للمهدي في الكتب القديمة. لكن الشيعة عموماً يدعون بأن مهدياً سيظهر. فإذا كان هو المقصود فأين أولئك الذين سيمهدون له الطريق وأين الذراع الذي سيقوده؟ وأين سيكشف الفرات ليكشف عن جبل من ذهب؟"

"المهدي لن يسفك الدماء أو يوقظ النائمين.

"هذا المهدي يقوم بالعملين معاً.

ثم التفتوا للكتب القديمة واقتبسوا منها التالي:

"لقد أعلن لي النبي عليه السلام بأن هذا الكتاب باقٍ حتى ظهور المهدي عليه السلام. وسينتفع أتباعه به، وبه سيتمكنون من الاتكال على ناصح المهدي في معظم أمور الدين. لأنه، عليه السلام، عندما يجيء فإنه سيزيل التناقض واختلاف الآراء لذلك لن يتبقى في أيامه سوى الدين الخالص. أما جماعة العلماء، في أيامه، فسيكونون معادون له سراً.

"ويدعون أنه كتب في الأحاديث أن المهدي لن يقوم بفعل شيء لم يقم النبي به، وأنه سيقهر كل الأئمة. ثم يضيفون، أن هذا المهدي يجهل تماماً العلوم الستة التي لا تكتمل المعرفة الحقّة إلا بها. تقول الشريعة بأن المهدي سيولد في سنة ٢٥٥هـ أي قبل ١٠٤٦ سنة. لكن هذا المهدي لا يبلغ عمره عشر معشار هذا العمر.

"وسينادي المهدي بنفسه ملكاً لأن الناس سيتبعونه. لكن هذا المهدي لا يتبعه الناس إلا لأنه يقتل من خالفه.

"على المهديين ألا يوردوا، كمصدق لصحة عقيدتهم، المذبحة التي قاموا بها في كردفان. إذ أنها لا تقارن بما ورد في الكتب المقدسة من مذابح.

وكان لدي القائد، ذات مرة، ثلاثة عشر سبباً لعدم أحصاء مدافعة. والسبب الأول هو أنه ليس لديه مدافع. إذن فإن أول حجة على المهدي هي أنه لا يوجد هناك مهدي إطلاقاً.

تلك الحجج تتسم بالتردد وتناقض نفسها بنفسها. لكن الإسلام يكون، مثلاً كان من قبل، في موقف صعب وجهاً لوجه مع نبي جديد، سواء كان مهدياً أم غيره. إذا لم يطرح أي شيء يوضح، وبعد مرور مائتي عام على وفاة النبي... قل من كان يؤمن بالإسلام. وحتى ذلك الوقت كان مظهره غامضاً من خلال الضباب الذي أحاط بمئتي عام لم يسجل عنها شيء.

وأثير خلال تلك الفترة العديد من الأسئلة الصعبة والتي تركت بدون حسم مثلما لم تتمكن من استقطاب عقول قادرة على النقاش الواضح الموضوعي. ولأن أرسطو وأقليدس وصلاً إلينا من خلال اللغة العربية، فقد حظي العرب بالفضل لفهمهم لتلك الأعمال، رغم أن التراجم كان قد قام بها السوريون الذين كان الخلفاء يعتبرونهم، رغم تحملهم وقبولهم لهم، موصومين باللقب المذري (فلسوف) أو الفلاسفة*.

وهناك القليل من الأعمال الأصلية باللغة العربية التي يمكن قراءتها للإهداء بها. كما لا يوجد من العرب من يمكنه تحديد صورة العلاقة ما بين الإسلام والمهدية على أسس واضحة جلية. فنجاح أو فشل أي مهدي لا يعتمد بأي حال على الأسانيد والحجج التي تستخرج من الدين.

وحتى لا ننحرف عن الموضوع (فسنعود إلى الخرطوم وأحداثها): ففي سبتمبر كتب غردون إلى حسن صادق، مدير سنار، بأن حملة بريطانية هي في طريقها لنجدة الحاميات. وفي ٢٧ أكتوبر جاء الرد والذي علق غردون عليه قائلاً: "إذن، فحتى سنار تعتمد علي للنظر في شئوننا".

وبعد ثلاثة أسابيع من مغادرة الكولونيل ستيوارت للخرطوم، وبينما كان غردون جاهلاً بما آل إليه مصيره، قام بإرسال ثلاثة بواخر جيدة التسليح، بقيادة نصحي باشا، مع أوامر بأن عليها أن تجوب النيل حول شندي والمتممة، وأن تلاقي الحملة الإنجليزية، التي أخطأ غردون في تحديد سرعة وموعد وصولها (المتوقع) والتي كان في أشد القلق على معرفة مكان وجودها. وفي التاسع والعشرين من سبتمبر تحركوا نحو شندي. كانت شندي هي المعقل الحصين لقبيلة الشايقية** والتي

* من الغريب أن يبحر المؤلف في مياه عميقة يبدو أنه يجهلها كل الجهل، رغم إدعائه العلم والمعرفة. فكيف يغيب تاريخ ٢٠٠ سنة من وفاة الرسول (ص) وهي الفترة الموثقة، حتى في أنق تفاصيلها، والتي شهدت دولة الخلفاء الراشدين وتحطيم إمبراطورتي الفرس والروم ثم الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية. تلك الفترة، التي اعتبرها مغيبة من التاريخ، هي التي شهدت علاقات الرشيد بشارلمان والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وشهدت انتشار النفوذ الإسلامي حتى غمر مده كل شمال أفريقيا وجزءاً هاماً من أوروبا، ومعظم جنوب ووسط وغرب آسيا وكل بلاد العرب. ويكاد أن يكون تاريخ ما حدث في كل يوم من تلك الأيام مسجلاً بدءاً من ابن إسحق وأبن هشام والطبري والبخاري ومسلم وحتى تاريخ الحفاظ بن كثير وغيرهم. ويكفي للرد على هرطقة المؤلف أن نرجع للمقدمة التي سجلها البروفسور هولت في صدر هذا الكتاب والتي قال فيها: "عندما يتطرق ونجت للخلفيات التاريخية، أو لطبيعة وتاريخ المهدية فهو بعيد كل البعد عن المصادقية والدقة. جاء قصوره هذا من جراء جهله، أو معلوماته غير المكتملة. أما تجميعه للبيانات والحقائق المتعلقة بالإسلام أو المهدية أو السنوسية، التي يفتتح بها هذا الكتاب، فقد وضعها على أحسن الفروض كيفما اتفق".

وأضيف أنه خبط بها في سبائك الكتاب خبط عشواء الليل فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى (المعرب).

** بعد مطاردة المك نمر ومن معه من الجعليين من شندي عام ١٨٢٢، سكنت أعداد كبيرة من الشايقية بمناطق الجعليين، وخاصة شندي. والعدلاب، والحلفاية، لكن شندي كانت في ٨٤ / ١٨٨٥ لا زالت معقلاً للجعليين وليس للشايقية (المعرب).

** الشايقية هم جنس سامي ويدعون لتسابهم للعرب عن طريق الشيخ شليق بن حمدين وهم يسكنون ضفاف النيل بين كورتي وبرتي مع جزء من هضبة البيوضة.

رغم غدر أهلها إلا أن وجهاً ناصعاً لأحد أفرادها تجلّى في السلوك الشجاع لخشم المومس، أحد قاداتهم، والذي بقي موالياً لصيقاً بالسير تشارلس ولسون والملزم ستيوارت ورتلي عند إبتساحهم وتراجعهم من الخرطوم. كانت المدينة (شندي) في يد الأمير أحمد حمزة والذي وقفت ضده سيدتان بطلتان هن فاطمة ونفيسة (والدة وابنة سيدي عثمان المرغني، رجل التاكا) وعارضتاه بتصميم وإصرار. لقد ابتهجتا بوصول البواخر وبذلتا كل جهد ممكن لاستنفاث المواطنين للوقوف بجانب الحكومة. لكن الأمير كان بالقرب جداً منهن، والبواخر بعيدة عنهن لدرجة منعت الشايقية من القسم بالولاء للسيدتين ومن التوجه في نفس الوقت للإضمام لقوات الأمير.

ثم وصلت باخرة رابعة. ودارت إشتباكات متقطعة بين البواخر والمدينة حتى العاشر من أكتوبر حيث وصلت أنباء موت ستيوارت لهم فتم إرسال باخرة للخرطوم لإيصال تلك الأنباء. ثم عادت الباخرة ثانية ومعها أربعة صنادل وعادت الإشتباكات مرة أخرى بين المدينة والبواخر. استمرت تلك الإشتباكات لثلاثة أشهر تم خلالها نهب الجزر والقرى للحصول على التموين. وكانت البواخر تمضي للخرطوم وترجع منها وتتعرض في كل ميل على الطريق للعبقات والتحديات، ولكل أنواع الضرر من صخور النيل، ومن ضفاف النهر، ومن مدفعية العدو. وكان رجالها يسقطون في العمليات كل يوم، لكنهم رغم ذلك لم يقصروا في أداء واجبهم. كانوا لا يحصلون على الحطب، لمراحل البواخر، إلا بعد تضحيات وخسائر في الأرواح. ولكن، ورغم رحلاتهم نحو الشمال بحثاً عن الأخبار، إلا أن شيئاً منها لم يرد. وأخيراً وصلت الخطابات وحملت البوردين للخرطوم حيث وصلتها في الخامس والعشرين من نوفمبر. وقد وصف غردون وصولها كما يلي:

"لاحت للأعين باخرة واحدة. ووجه العرب مدفعهم بالحلفايا ضدها. وفي النصف ساعة الأخيرة كان إطلاق النيران من جانب العرب، على الباخرة المتقدمة، شديداً وشرساً مستخدمين المدافع والبنادق، ونحن نرد عليهم. إنني معتن للغاية لأن أقول بأنها، مع كل هذا الاستقبال الساخن، قد وصلت بسلام للمجرم (المقرن). وإذا ما قدر لأحد ضباط حملة الإنقاذ أن يكون على ظهرها فسيعرف معنى أن تكون في مثل تلك الباخرة الضعيفة وسط نيران المدافع."

لم يكن على ظهرها أحد من ضباط الحملة. لكن القوات المصرية لم يعكر ذلك صفوها، بل عادت الباخرة إلى شندي، ومعها رسائل أخرى، عندما تم تجهيزها. كانت الخطابات التي حملتها الباخرة، وسط تلك المخاطر (قذيفتين من مدفعية الحلفايا انفجرتا بالباخرة وجرح سبعة رجال بسببها)، مكتوبة بالشفرة والتي كان مفتاحها قد أرسل مع ستيوارت، ومع الرسائل تلغراف بالغاء المنشور القاتل الخاص بإخلاء السودان وهجره. وكانت تلك ما قام به نصحي باشا ببواخره. وفي الخامس عشر من ديسمبر تلقت (الصادقية) قذيفة في مرجلها ولكن تم إصلاح الضرر وسط نيران حامية. ونفس سوء الحظ واجه (تل حوين) لكن تم الحفاظ على كل البواخر طافية وفي وضع قتالي ما عدا ما أصاب الباخرة (المنصورة) والتي أغرقها قذيفة مدفع في عرض النهر.

وبنهاية ديسمبر انخفض منسوب النيل. وحتى يتم عبور صخور (ود) بشارة بسلام، قاموا بتصريف حسن بإزالة القوات على البر وبهذا تمكنوا، للمرة الأخيرة، من الوصول للتممة. وفي التاسع من يناير شاهدوا العرب بقيادة أبي صفية والأمير ود موسى زاحفين في طريقهم للهزيمة في أبي ظليح.

* موسى ود حلو (المعرب).

والآن عوده للخرطوم وللهزيمة الماحقة في العيلفون. ولنترك الرواية ليوميات أحد سكان الخرطوم ليحكىها^{١١} وسيتم وصف سقوط الخرطوم أولاً بواسطة إفادات من كانوا بداخل المدينة، وثانياً من أولئك الذين اشتركوا في الحملة لإبقائها، وثالثاً من إفادات الذين حاصروا المدينة وأسلموها.

والتالي هو مقتطفات من مذكرات بور ديني بك، أحد تجار الخرطوم المشهورين، والذي، وبكامل إرادته، سلم كل مخزوناتة الضخمة من العيوش لغردون لتموين الحامية بها. فهو يقول:

"أبرق عبد الحميد بك، الذي أرسله غردون ككشاف، إليه معلناً هزيمة العيلفون. وعندما علم غردون بذلك أبرق كل الأجزاء والمناطق ذات التحصينات بالليقظة التامة وعدم الإهمال. وفي ذلك اليوم، قبل ساعة من غروب الشمس، وصل فرج الله باشا مع البواخر وإنتشرت أخبار الهزيمة في أنحاء المدينة. عم اليأس والحزن المواطنين وبكوا على حالهم. ولما رأى غردون باشا مدى حزنهم بكى معهم أيضاً. كانت تلك أول وآخر مرة أرى فيها غردون باشا يبكي بالدموع. لكنه حاول أن يشجعهم ويهدئهم بكل ما في وسعه من قوة. وعين أشخاصاً لهذا الغرض".

"وفي اليوم التالي عقب الهزيمة" أرسل المهدي عبد الرحمن النجومي مع ١٠٠٠٠ رجل ومصحوباً بأخيه حسن النجومي وعبد القادر وود مدرع، أمير قبيلة الحسانات، وعبد الله ود النور وعبد السلام وود حسب الله وعدداً من أمراء الثوار. إلى الكلاكلة وعم منشوراً على كل القبائل في السدن والصحاري، شرقاً وغرباً، مستدعياً لهم للحضور لحصار الخرطوم ومهدداً، في نفس الوقت، المتأخرين بمصادرة كل ممتلكاتهم.

استجابت كل القبائل لندائه وهرعوا بالجملة للاشتراك في الحصار. كانوا يطلقون قذائف البنادق والمدافع والصواريخ والأسلحة النارية من كافة الأنواع والتي كانت تسقط على المدينة من كافة جوانبها. كانت القوات تقوم من وقت لآخر بغارات خارج المدينة لطردهم عنها ولكن كانت كل جهودهم عديمة الفائدة وكانوا يعودون لحامياتهم وسط قذائف الثوار الكثيفة عليهم.

وبالرغم من كل هذه المخاطر التي تحيط به، إلا أن غردون باشا كان غير خائف. وأتذكر ذات ليلة أن أحد أعيان الخرطوم جاء لمنزلي ورجاني أن أطلب من غردون باشا عدم إضاءة غرف القصر. لأنها تشكل هدفاً لا تخطئه قذائف الثوار. وعندما ذكرت ذلك لغردون باشا تملكه الغضب وقال لي: "من الذي قال بأن غردون قد خاف أبداً؟". وبعد بضع ليالي من ذلك كنت مع غردون في السراية. ولما كانت الغرف لا تزال مضيئة اقترحت عليه وضع صناديق مملوءة بالرمل أمام النوافذ حتى تحميها من الرصاص. غضب غردون باشا هذه المرة أكثر مما غضب من قبل فأستدعى الحراس

^{١١} وصفت يوميات غردون الأخيرة وصفاً تاماً كل الأحداث التي جرت حتى الرابع عشر من ديسمبر (١٨٨٤) والتي سنمر عليها، في الإفادة التالية، مروراً سريعاً. لكن للوصف الذي جاء من وجهة أحد المدنيين مثير للإهتمام بل، أكثر من ذلك. يملأ ويغطي الفراغ ما بين الرابع عشر من ديسمبر وحتى يوم ٢٦ يناير المميت الذي سقطت فيه المدينة. وقد وصفت الأحداث التي جرت أثناء الهجوم وصفاً تاماً في محاضر جلسات المحكمة العسكرية والتي إتسمت تماماً مع ما ذكره بور ديني بك. ولذلك، وللإختصار، فسنحذف هذا الجزء من يومياته الخاص بتلك الأحداث.

^{١٢} يقصد المؤلف هزيمة العيلفون (المغرب).

وأمرهم بإطلاق النار على إذا ما تحركت. ثم قام بإحضار شمعدان ضخماً جداً يسع أربعة وعشرين شمعة وبدأت معه في وضع الشموع في تجاويفها ووضعنا الشمعدان على مائدة مقابلة للشباك ثم أوفدنا الشموع وجلسنا على المائدة. ثم قال الباشا: "عندما كان الله يقسم الخوف على كل البشر بالعالم، جاء دوري أخيراً عندما لم يتبق أي خوف ليعطيه لي. أذهب وأخبر كل سكان الخرطوم بأن غردون لا يخشى شيئاً لأن الله قد خلقه بدون خوف".

وأخيراً جاء كبير الثوار، محمد أحمد، مع قواته لِمكان يدعى أبو سعد، في ضواحي أم درمان وقام بتعزيز المحاصرين بقوة.

وقبل وصوله، كان محمد أحمد قد أرسل لغردون باشا طقماً من الملابس بينما أعاد إليه البذلة التي كان غردون قد أرسلها له من قبل. ومعها خطاب يدعو فيه إلى تسليم مدينة الخرطوم. كانت الملابس التي أرسلها محمد أحمد إلى غردون باشا عبارة عن جبة من الدمور (الذي يصنع في السودان) وحزام من الليف وطاقيّة من الليف وصندلين* استقرت الملابس والخطاب لغردون باشا فنهض على قدميه ورفس الكسوة بقدمه ثم أمر إبراهيم بك رشدي لكتابة رد عليه مضمونه ألا يتم أي إتصال بينهما مرة أخرى إلا بالرصاص وعاد رسل المهدي حاملين الرد، بعد أن أوصلهم حتى التحصينات أحد الضباط وأربعين جندياً.

ثم أقترّب الثوار أكثر فأكثر ونصبوا مدافعهم في بطاريات بالقرب من مكان يدعي حلة حمد ومنه أخذوا يقصفون القلعة والسراية والمدينة نفسها.

وحتى يعمل على صدهم أمر غردون باشا الجنود لإطلاق النار عليهم من على سطح السراية وإعتاد أن يقوم في بعض الأحيان بحمل أنغام معه ويتوجه يأخذ المراكب ليُدفن الأنغام في مكان إعتاد الثوار ارتياده وكان يقوم بوضع أعلام حمراء عليها. وعندما يحضر الثوار لأخذ الأعلام ينفجر اللغم قاتلاً لهم جميعاً. لكن هذه الحيلة اكتشفت أخيراً وبالتالي توقف القيام بها. قام العدو أيضاً بتشييد حصن في خوجلي وضعوا فيه مدفعاً إعتادوا أن يطلقوه على السراية. وكان القذائف تصيبها أحياناً وأحياناً أخرى تسقط على النهر بالقرب منها.

وعندما أنتهى كل ما لدي من ذرة، لأنني كنت قد بعته كله لغردون، أمر بتوزيع كميات من الذرة على المساكين من مخازن المديرية كما كان يأمر أحياناً ببيع ألف، وأحياناً ألفين، أردب من القمندانية للأهالي مقابل أوراق النقد (التي قام بإصدارها). وكان من وقت لآخر يأمر أقساماً من القوات ومن المدنيين لتفتيش المدينة وإحضار ما يجدونه بها من ذرة إلى القمندانية.

في ذلك الوقت قام قمندان أم درمان بإبراق غردون باشا طالباً منه مدفعاً لتقوية حصنه. أرسل إليه غردون باشا للحضور وسلمه مسئولية قيادة قسم من حصون الخرطوم بينما أمر فرج الله باشا لتولي قيادة أم درمان في مكانه وأخطره باستخدام بطارية الصواريخ الموجودة هناك بدلاً عن المدفع.

* الدمور نسيج قطني متين، يعرف أيضاً بالتوب، وكان في وقت من الأوقات يستورد من سنار. ويكاد كل سكان السودان الآن يلبسون الدمور. ويقال أن البذلة التي كان غردون يرتديها عند مقتله من ذلك القماش. إذ أن بذلته الرسمية، التي كان قد تركها في بربر. قد سقطت في أيدي الثوار.

تم بعد ذلك حصار أم درمان بقوة أرسلها المهدي بقيادة سوداني قارع الطول يسمى حمدان أبو عنقر^{٢٢} مصحوباً بأخيه ويعدد من الأمراء، وتم قطع كل إتصال مع الخرطوم. وعندما اكتشف غردون ذلك، باستخدام الإشارة، قام بإرسال ثلاثة بواخر مع قوة كبيرة لنجدة حامية أم درمان. لكن الثوار اصطدموا بهم ودارت معركة شرسة، استمرت عدة ساعات، من الصباح حتي الظهر، وذلك في الثاني عشر من نوفمبر. خسر الثوار خسائر جسيمة. أما من جانبنا فقد فقدنا الباخرة (الحسينية) بعد أن أصابته قذيفة مدفع وغرقت بالقرب من جزيرة الشيخ أبو زيد وكان قد فقد معها البيوزباشي مصطفى أفندي وبعض الجند وبعض الجرحى من الخدم. لكن الثوار تمكنوا من الاحتفاظ بمواقعهم بعد المعركة حول أم درمان وأقاموا حصناً بين أم درمان والخرطوم وضعوا فيه مدافع مكنة وكروب وصواريخ وظلوا يواصلون قذف أم درمان والخرطوم. كما أقاموا محطات مراقبة على ضفة النهر لإطلاق النار على البواخر. وقام غردون باشا من جانبه بعمل حصون على ضفة النهر المقابلة وأقام محطات للمراقبة أيضاً. كما قام ببناء حصن في جزيرة توتي وأستمر تبادل القصف المدفعي بين الجانبين لمدة أربعة وخمسين يوماً. وفي اليوم الخامس والخمسين إتصل قمتدان أم درمان، بالإشارة، بالخرطوم مفيداً بأن المؤن والذخائر قد استنفذت. ورد عليه غردون باشا بالإشارة بأنه سيرسل إليهم كل ما يحتاجون إليه. وصباح اليوم التالي أرسل باخرتين محملتين بالمؤن والذخائر. تحت قيادة محمد بك إبراهيم. وفي هذه الأثناء فر جندي ليلاً من أم درمان إلى الثوار وأطلعهم على الوضع هناك وعن نية غردون باشا لإرسال المساعدات لهم. تحرك الثوار على الفور وأرسلوا قوة لإرهاق الوابورات وشغلها بينما قام القسم الرئيسي منهم بمهاجمة القوات، التي خرجت من أم درمان، ودحروهم متراجعين نحو الحصن وطوقوه تماماً. قاتل محمد بك إبراهيم الثوار لكنه لم يتمكن من اختراقهم (والتقدم نحو أم درمان) واضطر للرجوع للخرطوم.

خلال هذه الأزمة إستدعي فرج الله (باشا) كل ضباطه للنظر في أمر إستسلامه من عدمه. فقررُوا سؤال غردون باشا ولما خاطبوه بالإشارة يوم ٥ يناير أجابهم بأن من الأفضل أن يستسلموا. قام فرج الله باشا بالتالي بالكتابة للمهدي حول ما استقر عليه الرأي وأرسل الخطاب بيد إمام الكتبية مصحوباً بأحد الحرس.

رد عليهم المهدي بإرساله خازنه أحمد سليمان لهم ومعه يوسف منصور (المأمور السابق لكردفان والذي أصبح قائداً لمدفعية المهدي) وقالاً لهم بأنه يضمن سلامة رجال الحامية هم وممتلكاتهم. ومع الخطاب أرسل جبة من الدمور لفرج الله باشا.

سلم الأخير نفسه ورجاله للعدو. وقام خازن المهدي ويوسف منصور باستلام كل ما كان بالحامية ثم أخذ كل الجنود، مصريين وسودانيين، كأسرى. وأصبحت الخرطوم الآن في وضع خطير. كان الثوار يحاصرونها من كل جانب وقطعوا عنها كل الإمدادات. وكانت محاصيل جزيرة توتي تزرع وتحتصد تحت القصف، ثم تحمل المحاصيل إلى القمتدانية. تم إنتاج ٢٠٠ أردب من الذرة وأشترى غردون باشا كل أردب باثني عشر جنيهاً. تم توزيع هذه الذرة على الجنود وعندما انتهت وانتهى كل

^{٢٢} حمدان أبو عنقرة (المعرب).

الخبز الجاف المحفوظ أمرني غردون باشا، ومعى القنصل اليوناني واثنين من الضباط وأربعين جندياً، للقيام بتفتيش المدينة بيتاً بيتاً بحثاً عن الذرة وقمناً بتخزين كل ما وجدناه في القمندانة. كنا قد وجدنا القليل من الذرة في مخازن بعض التجار كما وجدنا بعضاً آخر مدفوناً في المطامير وأخذناها كلها للقمندانة. وتم تسليم إيصال لكل من أخذنا ذرته. وكنا نقوم بالتفتيش يومياً لحوالي ثلاثة أيام حتى تأكدنا من أنه لم تعد هناك أي ذرة لدى الأهالي. ولكن سرعان ما نضب كل ما كان بالقمندانة وبعد ذلك بدأ الأهالي والجنود في أكل الكلاب والحمير وجلود الحيوانات والصمغ وجمار النخل وأليافه ثم انتشرت المجاعة. كان الجنود يقفون كقطع الخشب عند التحصينات. أما المدنيون فكانت حالتهم أسوأ ومات الكثيرون منهم جوعاً وبدأت الجثث تملأ الشوارع إذا لم يعد هناك من لديه القوة على دفنهم. أمر غردون باشا أربعة من جنود الحرس للقيام بدفن الموتى، كل جندي مسئول عن أحد أرباع المدينة لكنهم لم يستطيعوا القيام بهذه المهمة. لذلك أصدر أمراً بأن كل من يدفن جثة سينال جائزة قدرها ريالان. ولكن حتى هذا الحافز لم يجدي. عاني الجنود من الجوع لدرجة بشعة وهرب بعضهم واتضم للثوار. ثم عقد غردون اجتماعاً، كنت أحد أعضائه، للبحث في خطة نواجه بها هذا الوضع القائم. وتم في الاجتماع اتخاذ قرار بالإجماع بالحصول على كل الماشية الموجودة داخل المدينة وخارجها لإطعام القوات. وتم تكليف مجموعة من النافذين لتنفيذ هذا الأمر. وهذه المجموعة مكونة مني ومن المدير أحمد بك علي ونيكولو ليونتيديس (القنصل اليوناني) وإبراهيم بك فوزي وفتح الله الجهمي، من الترحيلات، ونيكولا بك، المفتش الطبي العام للسودان.

قمنا سوياً بجمع كل الماشية الموجودة بالمدينة ونبحناها ووزعناها على الجنود كجراية مرة كل ثلاثة أيام. وكان كل ما نبحناه هو ثمانية وعشرين بقرة. وكان غردون باشا راضياً عن خدماتي وأنعم على برتبة سنية.

وأثناء ذلك، وفي التاسع عشر من يناير، هرب واتضم للثوار سنجق يدعى إبراهيم، وصاغ من الباشبوزوق يسمى محمد عبد الله، مع بعض رجالهم، وكان معهم أيضاً تاجر يسمى محمد التوم. علم الثوار منهم الحالة في الخرطوم وضعف الجنود وحالتنا نحن جميعاً.

وقبل أيام من هذا الفرار كان غردون باشا، بعد أن رأى الحالة البائسة للأهالي، قد أمر المسؤولين عن الترسانة النهرية بتجهيز باخرة وبعض المراكب ووضعها تحت تصرف الأهالي حتى يقوم من يرغب منهم في الخروج أن يعبر النهر للجانب الآخر حيث المهدي. بالتالي صار يخرج كل يوم مئات، وحتى آلاف منهم وينضمون للعدو.

وفي العشرين من يناير أطلق الثوار القذائف من ١٠١ مدفع تحية، وهي إشارة لإحرازهم نصراً. لكننا لم نصدق إمكانية هزيمتهم للإنجليز. لقد شاهد غردون باشا من خلال منظاره المكبر، حشوداً من النساء الباكيات وعلم بأن تلك التحية ما هي إلا حيلة من جانب محمد أحمد. وكان غردون قد درج على استخدام إحدى نساء الشايقية كجاسوسة له. لذلك قامت بعبور النهر، على مركب صغير، ليلاً من الخرطوم لأم درمان وأخذت تتحدث مع الثوار وتستشف الأخبار. وكانت هي التي جاءت بالأنباء حول هزيمة الإنجليز للعرب في أبي طليح، وأن المهدي قد أطلق قذائف التحية تلك لبلبلة الحامية وتضليلها. وفي تلك الليلة عقد غردون باشا مجلساً من فرج باشا الزيني، قمندان الجنود،

ومحمد باشا حسن، مدير المالية، وإبراهيم بك فوزي ومحمد بك إبراهيم، نائب المدير، ونيكولس ليونتيديس، القنصل اليوناني، ودكتور نيقولا بك ومني، وذلك في منزل فرج باشا. أرسل غردون كبير كتبته، جيراجس بك، لينوب عنه ولم يحضر بنفسه. وعند بداية المجلس خاطبنا حيراجس بك وقال أن غردون باشا قد أنتدبه ممثلاً عنه، وأنه يريد أن يعرفوا بأنه تسلم معلومات باقتراب الإنجليز، وأنهم خلال يومين أو ثلاثة سيصلون للحلفاية. ولكن عليهم أن يتذكروا بأن قائد القوة البريطانية هو ضابط كبير الرتبة لدرجة أن رتبة غردون تبدو صغيرة أمامه. وقال أنه ربما لا يكون في نية القوة البريطانية دخول الخرطوم، بل قد يقوم بعض كبار ضباطهم بالحضور ببخرة لترسي بجوار القصر ثم يأمر غردون للصعود إليها لزيارة قائد القوات الإنجليزية. لذلك يود غردون باشا من كل الضباط الحاضرين أن يرتدوا أزياءهم الرسمية، عندما تقترب البخرة، وأن يحضروا للقصر. وعندما يسأل الضباط الإنجليز غردون للذهاب معهم فإن على الضباط المصريين أن يحتجوا على مغادرة غردون للمدينة. وإذا ما أصر الضباط الإنجليز على رأيهم فإن على كبار الضباط أن يصعدوا على ظهر البخرة معهم ولتوجهوا لمقابلة القائد العام ويقدمون احتجاجاً عنيفاً في وجهه مصريين على أنهم لن يسمحوا لغردون بمغادرة الخرطوم. أما إذا ما رفض الإنجليز الحضور للخرطوم فإن على الحامية وأهالي الخرطوم أن يطمئنون تماماً بأنه (غردون) لن يتخلى عنهم، بل سيبقى معهم ليموت مع جنوده. كان الانطباع الذي خرجت به من ذلك الاجتماع هو أن غردون ما قال لنا ذلك إلا لنستمر في الصمود، لكننا لم نشك قط في صحة المعلومات بأن الإنجليز قادمون وقد غرنا السرور العظيم لذلك. وامتأنا بالأمل وصرنا نتوقع يوماً وصول الإنجليز. ولكن مر يوم وراء يوم ولم نشاهد أو نسمع أي شيء عنهم وأخذ اليأس يملأ قلوبنا مرة أخرى. وقد اعتاد غردون باشا أن يقول لنا كل يوم "لا بد أنهم سيحضرون غداً" لكنهم لم يحضروا أبداً وبدأنا نظن بأن الثوار لابد أن يكونوا قد هزموهم. تحطمت قلوبنا لذلك. وإستتجنا بأن جيشاً لن يحضر لنجدة الخرطوم. فإذا ما جاءت بخرة، وعرفنا الحقيقة، وأن النجدة قد صارت قريبة جداً فلا شك في أننا كنا سننزود بشجاعة جديدة وبعزم أكيد على المقاومة الفعالة رغم تضورنا بالجوع. وكنا نعلم بأننا لن نلاقي من العدو، إذا ما وقفنا في أيديهم، إلا أسوأ المعاملة. فقد سمعنا بما فعلوه بالأمرى في الأبيض.

بجانب ذلك، كان غردون باشا قد وعد الضباط والجنود والمدنيين. بجوائز عظيمة إذا ما صمدنا حتى وصول النجدة. من هنا كان لدينا كل الدافع للصمود إلى أن خيم اليأس على قلوبنا. وحتى النهاية، استخدم غردون كل ما في جعبته من حيل لإبقاء شعلة الأمل فينا، وحوالي يوم ٢٣ (يناير)، وعندما كنا جميعاً في غمرة اليأس، سرت إشاعة بالمدينة بأن جاسوساً قد وصل ومعه رسائل. وقد تلقى أحمد أفندي بدوي خطاباً من مصطفى باشا ياور من دنقلا وبداخله بعض النقود. ووجد أحد التجار قطعة من جريدة على الطريق جاء فيها أن قوة الحملة الإنجليزية تصل إلى ١٥٠٠٠ جندي. أثارت فينا تلك الأنباء أملاً جديداً. لكنني علمت فيما بعد بأن كل هذا كان من تخطيط غردون، وأنه بنفسه الذي عمل على أن تكتب تلك الخطابات وأن ترفق بها بعض النقود وأن تطبع الجريدة.

وقبل فترة من الزمن كان غردون باشا قد أمر بترحيل كل البارود والذخائر وغيرها من المخازن والرسالة لتحفظ بداخل الكنيسة الكاثوليكية، التي لا تبعد كثيراً عن السراية، حيث أن بناءها

كان بحجارة متينة. وكانت أهم أسباب ذلك القرار هو ضمان سلامة الذخيرة وخاصة من قصف الأعداء ونيرانهم. كما أراد غردون بجانب ذلك أن تكون الذخيرة في متناول يده حتى يفجرها عند الضرورة وخاصة إذا ما استولي العرب على المدينة ولحرمهم من الحصول عليها. وبينما كان ذلك الهدف ماثلاً أمامه قام بتجهيز لغم ضخّم ملاء بالمتفجرات ووضعه وسط الذخيرة، مثلما قام بعمل الترتيبات لمد شريط طويل من الكبريت البطيء (الإشتعال) بين الكنيسة والسراية. ولكن، وحتى يوم سقوط الخرطوم، لم يكتمل ذلك الخط إلا في محيط القصر. كما أبقى أيضاً على الباخرة الصغيرة (محمد علي) راسية وراء حائط حديقة القصر ووضع فيها حوالي ٥٠٠ قة من الخبز الجاف. وعلى حسب علمي، فقد أنتوي غردون الصمود بالخرطوم حتى ينقطع آخر أمل في إنقاذها، وبعدها يقوم مع بعض المقربين له بالفرار عليها، رغم أنني اشك في أن غردون باشا سيفعل ذلك بنفسه. فقبل وقت مضى كان قد أعلن في أحد المجالس بأنه لن يستسلم أبداً وضرب الأرض بشدة بقدمه لتأكيد عزمه. لكنني أظن أنه كان يحاول تأمين فرار أكبر عدد من نوي النفوذ والأهمية على ظهر محمد علي. وتم الاحتفاظ بكل تلك الترتيبات، تفجير الذخائر أم الباخرة، سرّاً مكتوماً (ما عدا للقلّة).

فقد كان غردون قد عمل على قيام كل اليونانيين بالذات بالحراسة وبالتالي كانوا هم، وقصصهم، عالمون بالسر، والذي كتموه تلقائياً لأن حياتهم أصبحت معلقة به. وكان المصري الوحيد الذي أخبروه هو طبيبههم أحمد أفندي فهمي. كما أخبرني غردون باشا بخططه وأيضاً أخبر محمد باشا حسن وإبراهيم بك فوزي وسليمان أفندي وكشارول والقتصل هاتزل. وكان على حسن باشا أيضاً أن يذهب معهم ولكن كتم عنه هذا الأمر إلى اللحظة الأخيرة للتنفيذ. وتم تحذير مهندس الباخرة ليكون جاهزاً للإبحار فور تسلمه إشارة بذلك من غردون باشا. ولكن، ورغم كل هذه الترتيبات، إلا أن غردون باشا كان يقوم بكل ما في وسعه للحفاظ على الأمل. وقبل حوالي أسبوع من السقوط أصدر أمراً بأن يتم اعتبار كل يوم يمر بحساباته سنة للخدمة وللأجر، حتى وصول الإنجليز. ولكنني كما ذكرت من قبل، فإنه عندما مرت ثلاثة أيام منذ عقد ذلك المجلس الأخير ولم تظهر أي إشارة بقدوم الإنجليز، بدأنا مرة أخرى في الشعور باليأس. لقد تحطمت قلوبنا وبدأ الجنود والأهالي في فقد الثقة في وعود غردون وكانوا في أشد حالات الضعف من المجاعة. وأخيراً حل صباح الأحد، ولاحظ غردون باشا، الذي درج دائماً على مراقبة تحركات العدو من سطح القصر، لاحظ حركة محمومة في الجنوب وكان العرب كانوا يحتشدون بالكلاكلة. فأرسل في الحال إلينا، نحن الذين حضرنا الاجتماع السابق، وللقليل من بعض الآخرين للحضور للقصر في الحال. جننا كلنا لكن غردون لم يقابلنا. ومرة أخرى خاطبنا جرياً جس بك والذي نكر لنا أن غردون طلب منه أن يخبرنا بأنه لاحظ حركة شديدة في خطوط العدو وأنه يعتقد بأن هجوماً علي وشك أن يقع على المدينة. من ثم أمرنا بجمع أي نكر بالمدينة من سن الثامنة وحتى آخر رجل عجز وأن نحرس كل التحصينات وأن علينا، إن دعى الأمر، أن نستخدم القوة لتنفيذ الأمر. وأخبرنا جيري جيس بك برجاء غردون للمرة الأخيرة لأن نقف وقفة عزم وتصميم لأنه، وفي خلال أربعة وعشرين ساعة، فلا يشك أبداً في قدوم الإنجليز. أما إذا اخترنا الاستسلام فقد أعطي القمندان الحرية لفتح البوابات والسماح للجميع بالانضمام للثوار. لم يكن لديه شيء آخر ليقوله. ثم طلبت السماح لي برؤية الباشا حيث مثلت في حضرته. وجدته جالساً على الديوان

وعندما اقتربت منه نزع طربوشه وألقى به بعيداً وقال: ماذا بمقدوري أن أقول أكثر من ذلك، فليس لدي ما أقوله، ولم يعد الناس يصدقونني أكثر من ذلك، فقد حدثتهم مرة بعد الأخرى بأن النجدة ستصلنا لكنها لم تأت قط وما عادوا يرون الآن إلا أنني أكذب عليهم. فلو فشل وعدي الأخير هذا فلن يعد بمقدوري القيام بشئ آخر. أذهب وأجمع كل من تقدر عليه لملئ الخنوط وقلوا وقفة قوية. أتركني الآن لأدخن تلك السجارات (كان هناك صندوقان مليان بالسجاير على الطاولة).

كنت أرى أنه يانس وقد تحدث لي بنغمة لم أسمعها منه قط من قبل. وعرفت وقتها أنه كان مضطرباً لدرجة لا يستطيع معها مخاطبة الاجتماع وفكرت في نفسي أن مشاهدته بهذا اليأس سيثبط من هممنا. لقد أحال كل القلق الذي مر به شعر رأسه تدريجياً إلى لون أبيض كالجليد. غادرته وكانت تلك آخر مرة أراه فيها حياً. وكان قد حزنني للبقاء في منزلي إذا وقع الهجوم وإلى أن يرسل لي. ثم بارحت القصر وشرعت في جمع كل من استطعت أن أجده من الناس القادرين على الوقوف ووضعناهم على خطوط الدفاع. لم نتوقع أن يأتينا الهجوم من جانب المتراس الذي تهدم. لأن الأرض هناك كانت هشة، وكان الخندق مليئاً بالطين والطين اللين، بل ظننا أن الهجوم غالباً ما يتم بين بوابتي بري والمسلمية وبالتالي حشدنا فيهما عدداً من الرجال أكثر مما في أي مكان آخر. لكنني كنت أرى اليأس المخيم على وجوه كل الناس، وكنت أسترق السمع للناس وهم يقولون: لقد خدعنا الباشا أخيراً مع أننا إستمعنا إليه وإلى كل ما قاله لنا لسنة كاملة* وتذكرت غردون باشا عندما كان يقول كثيراً لي: "لو أن بضعة جنود إنجليز من القوة المتقدمة جاءت وإستعرضت نفسها حول خطوط دفاعات الخرطوم، فأنني لن أخشي أبداً من هجوم العدو". لكن هذا لم يحدث وغمر يأس ثقيل نفوسنا جميعاً. كان يوماً كئيباً، ذلك اليوم الأخير في الخرطوم، وكان المنات راكدين على الأرض إما موتي أو يحضرون من الجوع. ولم يكن هناك من يدفن الموتى. وأخيراً حل الليل. وكما علمت فيما بعد فقد ظل غردون جالساً يكتب حتى منتصف الليل ثم رقد لينام. إستيقظ في وقت ما بين الثانية والثالثة صباحاً فقد كانت صيحات الحرب الوحشية للعرب تسمع من مكان قريب. فقد زحف عدد ضخم من العرب المتمردين، أثناء الظلام، خلال المتراس المحطم والخنطق المملوء بالطين، بين النيل الأبيض وبوابة المسلمية، والتي كانت تحت قيادة حسن بك البهنساوي. لم يعلم الجنود بأقتراب العدو منهم إلا قبل حوالي عشرين دقيقة من هجومهم الفعلي وذلك عندما سمعوا صوت الأقدام وأطلقت صفارات الإنذار لكنهم كانوا في أشد حالات التعب حتى أنهم لم يهبوا منزعين إلا بعد أن أطلق الحراس النار فوجدوا أمواجاً من العرب مندفعة على الخندق وعلى المتراس وهم بصرخون ويطلقون صيحات الحرب. لم تواجههم إلا مقاومة ضعيفة، فقد كان معظم الجنود متباعدين أربعة أو خمسة خطوات عن بعضهم البعض وكانوا أضعف من أن يواجهوا مثل هذا التيهور المندفع نحوهم. وسرعان ما كان العرب وسط الخنوط وبالتالي تمكنوا من مهاجمة بقية الجنود من خلفهم. جرت مقاومه في بعض النقاط لكن سرعان ما إنتهى كل شئ. كان فرج باشا القائد العام لكل قوات الدفاع في بري عندما بدأ الهجوم. ركب في الحال عبر الخنوط مشجعاً الجميع للقتال، لكنه عندما إقترب من بوابه المسلمية شاهد العدو عند اختراقه للخنطق وهو مندفع عبر الخنوط وكان المنات منهم قد وصلوا قبل ذلك للجزء الجنوبي الغربي للمدينة. ظن إن المقاومة لم تعد ذات جدوى فتناول بذلة مدنيه وغطى بها بذلته الرسمية

وتوجه نحو بوابه المسلمية وأمر الحارس بفتحها. لكن الحارس، والذي كان جندياً سودانياً، رفض الأمر وقال له: "إن أخالف أوامر غردون باشا ولن أتسلم منك أي أوامر وأنت في ملابس مدنية" مرق فرج باشا الحارس وفتح البوابة بنفسه ولائاً بالفرار. لم يكن لفتح تلك البوابة أي أهمية تذكر فقد كانت المدينة قد سقطت في تلك الأثناء وكان سيل العرب المتدفق قد وصل بعيداً إلى الغرب.

سلم فرج باشا نفسه للثوار ولكن تم قتله بعد ثلاثة أيام على يد مكين ود النور* إنقاصاً لمقتل أخيه عبد الله ود النور، والذي كان أحد رجال فرج باشا قد أطلق عليه النار أثناء إشتباكات الأسابيع الماضية. أما محمد بك إبراهيم، والذي كان وقتها قائداً لقوات بوابة المسلمية، ومسئولاً عن كل المدنيين، فقد شكل مربعاً من جنوده وقاتل الثوار بشجاعة حتى قتل هو ورجاله جميعاً. كما قاتل بخيت بك بطراكي، قمتدان بري، الثوار بشجاعة حتى قتل مع رجاله جميعاً. أما الجنود الذين كانوا على ظهر القوارب والصنادل المحصنة على النيل الأبيض فلم يبدو إلا مقاومة ضعيفة. وباستيلاء الثوار على المدينة إندفعوا نحو القصر.

في تلك الأثناء توجه غردون باشا، الذي أيقظته الضجة، إلى سطح القصر وهو بملابس النوم وسرعان ما اكتشف دخول الثوار للمدينة وظل لمدة تزيد على الساعة يقذف نيراناً حامية باتجاه الهجوم ولقد سمعت (فيما بعد) بأنه أرسل لتجهيز الباخرة وإدارة محركاتها لكن المهندس لم يكن بها، فقد كان خائفاً لدرجة أنه لم يبارح منزله. وعندما لاح الفجر تمكن غردون من رؤية رايات العرب فوق المدينة. وسرعان ما لم يعد للمدفع أي أثر، لأنه لم يتمكن من خفض ماسورته للدرجة التي تمكنه من رمي العدو. وخلال ذلك كان العرب قد تجمعوا حول القصر بالآلاف، ولكن لم يجرؤ أحد منهم، لبعض الوقت، على دخوله ظناً منهم بأن الغمام قد وضعت لنفسهم جميعاً. غادر غردون باشا سطح القصر وتوجه إلى غرفة نومه، الملاصقة للديوان، وهناك إرتدى بزة بيضاء معلق بها سيفه، الذي لم بشرعه، وحمل مسدساً في يده اليمنى وعبر إلى الممر المواجه لمدخل المكتب والذي يقع أمام أعلى الدرج. أثناء ذلك شق أربعة رجال، أكثر شجاعة من الباقين، طريقهم بالقوة لداخل القصر. وفور دخولهم دخل وراءهم مئات الآخرين والذين اندفع معظمهم عبر الدرج حتى السطح حيث، وبعد مقاومة قصيرة، تم قتل كل حرس القصر والخدم والقواصين. أما الرجال الأربعة: طه شاهين وهو رجل دنقلاوي كان والده يعمل في خدمتي من قبل، وإبراهيم أبو شنب وهو خادم لجورج أنقلتو، وحمد ود أحمد جار النبي الحسني، ورجل دنقلاوي رابع كان خادماً لفتح الله الجهمي* والذين كانوا يعرفون مكان غرفة غردون باشا، فقد إندفعوا نحوها وتبعهم حشد من الآخرين. كان طه شاهين أول من واجه غردون بجانب باب الديوان، وكان واضحاً أنه واقف في انتظار العرب بهدوء، وكبرياء وواضعاً بده اليسرى على مقبض سيفه. إندفع شاهين نحوه صائحاً: "يا ملعون! اليوم يومك!" وغرز حربيته في جسمه. ويقال أن غردون أشار بيده بازدياء وأدار ظهره له، حيث تلقى طعنة أخرى من رمح تسببت

* مات هذا الأمير بعد يوم من معركة توشكي من جراء الجراح التي أصيب بها وقد تم دفنه في التلال المطلّة على أبي سمبل.

* هؤلاء الرجال الأربعة كانوا من أتباع المهدي منذ وقت طويل، ومن بداية عهده.

في سقوطه إلى الأمام وغالباً ما تكون هي الطعنة القاتلة. ثم اندفع الرجال الثلاثة الآخريين، الذين كانوا وراء شاهين، ومزقوا الجسد الممدد بسيوفهم ولا بد أن يكونوا قد قتلوه من بضع ثوان. حدث موته قبل شروق الشمس، ولم يكن قد بذل أي جهد للمقاومة ولم يطلق رصاصة من مسدسه. لكنني مقتنع، لكل ما أعرفه عنه، أنه لم ينوي الاستسلام أبداً. ويمكن القول بأنه كان ينوي استخدام مسدسه فقط إذا ما رأى أن العرب سيأسرونه حياً. لكنه رأى الرجال مندفعين نحوه مشرعين سيوفهم ورماحهم، ولم يكن بينهم أي أمير مهم، وكان لابد له أن يعلم بأنهم لا يريدون الإبقاء على حياته وهذا هو الذي كان يريده غالباً. إضافة لذلك، فإنه حتى لو أطلق النار فلن يؤخر ذلك موته إلا للحظات. فأولئك العرب المتوحشون المتعصبون لن توقفهم بضع رصاصات من مسدس أبداً.

تم قطع رأس غردون باشا في الحال وأرسل للمهدي في أم درمان. أما جسمه فقد تم جره على الأرض عبر سلالم الدرج وترك مكشوفاً لبعض الوقت في الحديقة حيث قام كثيرون من العرب بغمس حرايبهم فيه. ولقد سمعت بأن المهدي قد أصدر أوامره بالإبقاء على حياة غردون، ولكن ما ذكرته أنفا سمعته من الرجال الأربعة الذين ذكرتهم من قبل، وأظن أن المهدي قد عفا عنهم عدم طاعتهم لأوامره.

وعندما هربت من أم درمان كانوا لا يزالون يعيشون بين الأنصار. أما أنا فقد شاهدت قليلاً مما حدث. فبعد الهجوم مباشرة دخل عدد من العرب منزلي وأخذوني أسيراً وأخرجوني عارياً من المدينة. عوملت لبعض الوقت معاملة سيئة ولكن بعد ذلك بقليل حزت على رضاء المهدي، عن طريق أبنه أخي، التي اتخذها كإحدى زوجاته.

ورأيت رأس غردون باشا معروضاً في أم درمان. كان قد علق بين فرعي شجرة وكان كل من يمر بجواره يقذفه بحجر وكان أول من قذفه بحجر يوسف منصور. مأمور البوليس السابق بالأبيض، والذي كان غردون باشا قد فصله من الخدمة لسوء سلوكه، والذي بعد ذلك صار قائداً لمدفعية المهدي.

تم قتل عدد كبير من سكان الخرطوم ومن الجنود. واستمر العرب في القتل والنهب لحوالي ستة ساعات حتى جاءهم أمر المهدي بالتوقف عن ذلك.

وكان هذا ما أفاد به واحد من الذين كانوا بالمدينة.*

ونعود الآن إلى تحركات حملة الإنقاذ. ففي السابع عشر من يناير ١٨٨٥ حدثت المعركة، المنسية ولكن الحاسمة، بين العرب والحملة في أبو طليح، وناضلت للقوة البريطانية، التي هدها التعب وقتل أو جرح عدد من قادتها، حتى شقت طريقها إلى النيل، ودحرت في طريقها، في أبو طليح، ومرة أخرى، قسماً من جيوش الثوار يقوده النور عنقرة. ثم تركوا المتمة على يسارهم، والتي كانت في ذلك الوقت ذات قوة ضعيفة تسيطر عليها، ومضوا نحو النهر والذي وصلوا إليه بالقرب من القبة، التي تبعد بحوالي ميلين جنوب المتمة، وذلك في مساء التاسع عشر. وفي الحادي والعشرين

* طبقت هذه الإفادة ما ذكره كثيرون ممن كانوا بالخرطوم أثناء الحصار.

من يناير التقوا ببواخر غردون. كانت تلك البواخر الأربعة مسلحة حتى اسناتها وممونة جيداً لدرجة أنهم صمدوا في مكاتهم على النيل لمدة ١١٢ يوماً.

كانت الماكينات بحالة جيدة وكان قادة الدفة يعرفون كل بوصة في النهر تأخروا في القبة لثلاثة أيام كانوا خلالها يقومون بصيانة البواخر. وبإبعاد المصريين وغيرهم من الذين أصر غردون على ألا يعودوا والخرطوم أبداً، كما قاموا باستطلاع النهر باتجاه الممتة، والتي كان العرب قد أعادوا إحتلالها بالقوة عندما لاحظوا أن البريطانيين قد عسكروا في القبة، وقاموا أيضاً بإعادة الاستطلاع بالبواخر باتجاه شندي.

ولم يصعدوا على البواخر ويتحركون بحذر تجاه الخرطوم إلا يوم ٢٤ يناير حيث وصلوها بعد أربعة أيام ليجدوا أنها قد سقطت قبل يومين فقط من وصولهم.

وهنا، فإن ما جاء بالتاريخ الرسمي لحملة السودان، والذي يسرد أحداث هذه الرحلة الجديرة بأن تذكر، والمحفوظة بالمخاطر، هو الأفضل لمواصلة الرواية: الرحلة إلى الخرطوم :

في الثامنة من صباح الرابع والعشرين من يناير ١٨٨٥، تحرك السير س. ولسون نحو الخرطوم على البوردين. وكان بصحبته خشم الموس بك، والكابت ر. ف. ت. فاسكويني، وعشرة من ضباط الصف، ورجال من كتيبة الرويال سكس، وضابط صغير، وأحد الفنيين المهرة من الأسطول الملكي و ١١٠ من الجنود السودانيين.

وقد رافقت البوردين الباخرة تل حوين والتي كان على ظهرها الكابتن ل.ج. ترافورد وعشرة من قوات كتيبة الرويال سكس بمن فيهم أحد رجال الإشارة، والملازم ستيوارت ورتلي، وأحد فني البحرية الملكية، وعبد الحميد بك وثمانين من الجنود السودانيين. وكانت تقطر وراءها زورقاً كبيراً محملاً بالذرة للخرطوم وثمانين جندياً سودانياً.

تلك البواخر كانت كالمراكب الخشبية الصغيرة وحجمها يعادل تقريباً حجم بوآخر نهر التيمس المسماة بال (Penny steamers). وقد تم تصفيحهم ضد الرصاص بعمل طبقة مغلفة لها مع متراس مرتجل من الحديد الصلب الذي كسيت به جوانبها كما ذودت أيضاً بأبراج مضادة للرصاص في مقدمتها ووسطها. ولكن لا تلك الأبراج ولا الجوانب المصفحة كانت مقاومة لقذائف المدافع. وسلحت البواخر بمدافع هاوتزر عيار تسعة أرتال وكان بكل باخرة مدفعين منها.

وطبقاً لرجاء من غردون ثم أبعاد كل المصريين، وكانت القوات بالتالي، وأيضاً البحارة، تتكون كلها من الجنود السودانيين والشايقية.

وعندما كانوا في مقابل الضفة اليسري، لاحظوا قسماً من قوات الفكسي مصطفى على الضفة. ولكن وباستثناء بعض طلقات طائشة، فإنها لم تشكل عقبة أمام مرور البواخر. كانت تلك القوات قد غادرت أم درمان بعد يومين من مغادرة قوات النور عنقرة لها، والتي تمت مواجهتها يوم ١٩ يناير. وعندما سمعوا بنتائج تلك المواجهة توقفوا عن المضي قدماً واتخذوا من ود الحبشي موقعاً لهم.

بعد ذلك إستمرت الرحلة في طريقها بدون أي حادث حتى حلول الظلام، حيث أُرست البواخر على الضفة الشرقية بالقرب من قوز البسابير.

وعند الصباح بدأوا التحرك من جديد لكنهم إضطروا للتوقف لبعض الوقت قبل الظهر لإحضار (حطب) الوقود، والذي كانت تلك البواخر ذات المحركات العتيقة تستهلك كميات كبيرة منه. وكان توقفهم يتكرر كثيراً حيث كان عليهم الحصول على الوقود بتحطيم بيوت الأهالي واستخدام أخشابها. وكان كل توقف من هذا القبيل يستغرق وقتاً كبيراً منهم.

وحوالي الرابعة والنصف بعد ظهر يوم ٢٥ تم تجاوزهم لحصون العدو في ود الحبشي. وكانوا قد إستعدوا لمواجهة حامية ونيران ثقيلة أثناء مرورهم ولكن أتضح أن الحصون كانت خاوية من المدافعين. وواصلت البواخر إبحارها بدون صعوبة حتي حوالي السادسة بعد الظهر عندما اصطدمت البوردين بقوة بصخرة. ورغم أن كل البحارة ظلوا يعملون حتى منتصف الليل لتحريكها، إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك.

يحتوي الشلال السادس على شبكة من القنوات والمجاري التي تمر بين عدة جزائر تتناثر بالنهر. ومن بين تلك القنوات كانت لا تصلح للمرور منها إلا قناتان، واحدة على الضفة اليمنى أثناء ارتفاع منسوب النيل وأخرى وسط النهر عند انخفاضه. ولما كانت البواخر تبحر على القناة اليمنى، أو الشرقية، فقد تخيل الرئيس أن بإمكانه المرور عبرها. وقد فعل ذلك بدون مشقة إلى أن اصطدمت البوردين بالصخرة. أما تل حوين فقد أتمت المرور بدون حدث يذكر.

وصباح اليوم التالي تم تفريغ شحنة البوردين من المخزونات والذخائر وغيرها حتى تمكنوا من تحريكها حيث أعيدت الشحنات لها وواصلت طريقها في المجرى.

ومرة أخرى توقفت بسبب دخولها في جرف رملي وذلك قبل قطعها لمسافة قصيرة. وبعد جهد عظيم تم تحريكها مرة أخرى. تحدث ربابنة الباخرتين وقالوا أنه نظراً لصعوبات الملاحة فإن من الضروري توحيد جهد يهما لتعدية كل باخرة على حدة. وبالتالي توجه ريس البوردين إلى تل حوين وتوجه بها إلى فم المجرى ثم قال بعد ذلك أن من المستحيل عليه أخذ سفينته ومرورها بنفس المجرى. وطبقاً لذلك ابتعدت البوردين إلى مسافة معينة وتوجهت نحو الممر الأوسط ووصلت إلى قمته قبل غروب الشمس بقليل.

ترتب على تلك الأحداث أن ضاعت منهم أربعة وعشرين ساعة، وكانت البواخر ليلة السادس والعشرين من يناير أقرب للخرطوم بثلاثة أميال فقط عما كانت عليه في ليلة الخامس والعشرين. وتحركوا عند شروق شمس اليوم التالي وتم عبور مضيق السبلوقة بدون صعوبة. هذا المضيق، والذي يتراوح طوله ما بين ثلاثة إلى أربعة أميال، محاط على كل من جانبيه بصخور شاهقة شديدة الانحدار لا تبتعد عن بعضها إلا بحوالي ٣٠٠ ياردة. وهذا الموضع هو واحد من المواضع التي يمكن حمايتها بسهولة بحفنة من مهرة الرماة. لذلك فقد أستغرب الجميع ودهشوا لعدم مواجهتهم لأي مقاومة هنا.

وفي قوز نفيسة، عند مدخل الممر، توقفوا للحصول على الوقود. وبينما كان جمع الحطب جارياً تم إطلاق النار عليهم من أهالي القرية المحاطة بالجبال. ومع هذا الإمتناع لم يواجهوا أي مقاومة تذكر حتى الثانية بعد الظهر حيث أصبحت نيران العدو. المنصبة عليهم من الضفة اليسرى، أشد سخونة واستمرت كذلك حتى الغروب. وأثناء فترة العصر صاح فيهم رجل من على الشاطئ بأن الخرطوم قد سقطت، وأن الجنرال غردون قد قُتل. لكن الذين كانوا على ظهر البواخر لم يصدقوا ما صاح به الرجل.

وعند ما حل الظلام أسرعوا بالبواخر لترسو على الشاطئ بالقرب من قرية تمانيات، وحيث شحنوا البواخر بأقصى ما تستطيعان حمله من وقود.

وفي السادسة من صباح اليوم التالي، ٢٨ يناير، واصلت البواخر طريقها والذي كان يظن أنه المرحلة الأخيرة قبل الوصول للخرطوم. وكانت التعليمات المتعلقة باختراق الحصار هو أن تغود البوردين الطريق، على أن تتبعها تل حوين على مسافة قريبة، وتتحرك تبعاً لتحركها، وكان على الباخرتين الإسراع في الحركة قدماً. وكان على فصيل الرويال سكس التعامل مع بطاريات العدو خاصة، إضافة إلى تدميرها بالمدفعية. أما القوات السودانية فكان عليها إطلاق النار المستمر على العدو. أما الملازم ستيوارت ورتلي، ومعه جندي الإشارة، فكان عليهما لفت إنتباه الجنرال غردون باستخدام الإشارة الضوئية الشمسية (أو الهليوجراف).

وتم عبور الجبل المنحدر القريب من النهر والمطل على الشيخ الطيب، وحيث كان العدو قد نصب بطارية وبعض المدافع من قبل، بدون مقاومة في السابعة والنصف صباحاً. وهنا صاح أحد الأهالي الآخرين معلناً لركاب تل حوين سقوط الخرطوم.

وحوالي الحادية عشرة صباحاً اطل عليهم أول مشهد للخرطوم، والتي لا زالت على بعد بضعة أميال منهم، وكان المشهد مغطى جزئياً بجزيرة توتي.

وفي ذلك الوقت صاح مواطن آخر فيهم بأن الخرطوم قد سقطت وأن الجنرال غردون قد قُتل. وعندما اقتربوا من الفجيجة أنهال عليهم العدو بقذائف عنيفة من الشاطئ. وبعد نصف ميل من ذلك واجهت البواخر منطقة الحلفاية وواجهت نيراناً عنيفة من أربعة مدافع وعدد كبير من البنادق.

وردوا على النيران بالمطل، بالمدافع والبنادق، ولكن لم يؤثرها عليهم إلا قليلاً، فقد كان العدو يصليهم من وراء غطاء جيد. وقاد السير تشاليس ولسون العمليات من برج السفينة المدرع، والذي ساعده ارتفاعه وموقعه على إدارة العمليات بسهولة والاتصال مباشرة بالريس وبالمهندسين.

ولا حظوا مقابل الحلفاية بأن المدينة مدمرة تماماً وأن بعض الزوارق الكبيرة كانت ملقاة بعيدة عن الشاطئ. ولمعرفتهم بأن المهدي لا يمتلك زوارقاً، فقد افترضوا بأن قواتاً للجنرال غردون لابد أن تكون هنا. وهو افتراض سرعان ما إتضح عدم صحته وذلك عندما فتحت النيران بشراسة على البواخر.

وعند ما وصلوا لأسفل جزيرة توتي توقف إطلاق النار عليهم تقريباً. وعندما تلاشي الدخان شاهدوا من فوق الأشجار، وبوضوح، قصر الحكومة بالخرطوم. ولما كان من المعروف أن الجنرال

غردون كان يرفع العلم المصري دائماً فوق هذا المبنى، فقد أمعنوا النظر خلال المناظير المعظمة بحثاً عن ذلك العلم لكنهم لم يشاهدوا أي أثر له. وعند وصولهم للركن الجنوبي للجزيرة واجهتهم نيران حامية من ضفتي النهر وفي نفس الوقت قامت أربعة مدافع بقصفهم من قلعة أم درمان.

كانت قذائف الضفة اليمنى ذات مدى بلغ ما بين ٦٠ - ٢٠٠ ياردة، أما قذائف الضفة اليسرى فتراوح مداها لما بين ١٠٠٠ - ١٢٠٠ ياردة. ونظراً لانحدار الضفة، وخاصة من جانب أم درمان، فلم يتاح للعدو إلا سائراً ضعيفاً ولا بد أن نيران البواخر قد قامت بتنفيذ مذبحة عظيمة وسط الجماهير المحتشدة التي كانت مصطفة على الشاطئ.

أتضح الآن أن جزيرة توتي هي بيد العدو، ولكن لما كان هناك احتمال بأن الخرطوم قد لا تزال صامدة، فقد تقدم السير تشارلس ولسون للأمام. ولما دار حول الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة، شاهد أمامه منظراً كاملاً للخرطوم. وهنا لاحظ عدم وجود أي علم مصري يرفرف على أي مكان بالمدينة، وذلك رغم تدقيق البحث بالمناظير المكبرة، وأيضاً لاقترب البواخر للدرجة التي يمكن مشاهدة أي علم، إذا وجد، بالعين المجردة.

وقد شاهدوا عدداً من الزوارق الكبيرة وناقلات الجنود النهرية متجمعة على الضفة اليسرى للنيل بأم درمان. وكان من المعروف أن الجنرال غردون كان يحتفظ بها دائماً راسية تحت حصون مدفعيته التي على النهر بالخرطوم.

لم تأت لهم أي باخرة من التي كان غردون قد احتفظ بها هنا. بل أن الخرطوم نفسها كانت تطلق النار على بواخر السير تشارلس ولسون.

وشوهدت أعداد من رجال العدو، حاملين الرماح والأعلام، يتجمعون على شاطئ النيل الأبيض، من ناحية الخرطوم، وهم على استعداد لمواجهة أي محاولة للهبوط على الشاطئ. ولم يسمع أي إطلاق للنار من الخرطوم نفسها وكان القصر الحكومي والمباني المجاورة له مدمرة تماماً.

أقنعت تلك الحقائق، مع القصف الثقيل من جانب جزيرة توتي، السير تشارلس ولسون بأن الخرطوم فعلاً قد سقطت. وقد قدر أن أي محاولة للنزول قد تؤدي لإضاعة الأرواح بدون طائل، لذلك أمر البوردين للعودة وإنطلق في الحال باتجاه مجرى النهر.

ولكن تل حوين، في هذه الأثناء، كانت قد جنحت. ولفترة من الزمن كانت في وضع شديد الخطر. ولكن بعد لحظات من مرور البوردين تمكنت من الخروج من مأزقها واستدارت ولحقت بدرب أختها. وعندما استدارت البواخر تضاعفت نيران العدو عليها بينما هي لاذة بالإسراع لأسفل النهر وسط تيهور من القذائف والرصاص المنطلق عليها، أصيبت كلتا الباخرتين لكن إصابتهما لم تكن بالخطيرة. وأثناء استدارتهما شاهدوا رجلاً ممتطياً جملًا، من ناحية أم درمان، وهو يلوح لهم بعلم أبيض. ولما كانت نيران العدو لازالت منصبة عليهم فقد روى أن من غير المناسب التوقف لمعرفة ما يريد إيصاله لهم.

وفي الرابعة من بعد ظهر الثامن والعشرين من يناير، وبعد أن كانوا مشتبهين لأربعة ساعات مع العدو، تمكنت البواخر من الوصول لمسافة بعيدة عن بطاريات العدو. وكان فرارهم ذاك لا يقل عن كونه أعجوبة من الأعاجيب.

ثم جاء الخطر الكبير المتمثل الآن في سخط واستياء البحارة السودانيين والذين كانوا في أشد حالات الإحباط من جراء فقدان عوائلهم التي بالخرطوم. وفي أحسن حالاتهم كانوا غير راغبين في بذل المزيد من الجهود والمعاناة بعد ذلك، كما أظهر كثيرون منهم، بعد أن عرفوا بأن جانب المهدي قد أصبح الجانب الرابع، ميلاً واضحاً للانضمام للعدو.

واستمرت البواخر في سيرها بدون مواجهة حتى حلول الظلام حيث أسرعوا للرسو على جزيرة تبعد بحوالي ١٢ ميل جنوب جبل الرويان. ومن هذا المكان قاموا بإرسال من يأتهم بالخبر اليقين عن مصير غردون. وعند عودة الرسل ذكروا بأن المدينة قد سقطت صباح يوم ٢٦ يناير بسبب خيانة فرج باشا، وأن الجنرال غردون قد قتل. وذكروا أن المدينة ظلت مستباحة لثلاثة أيام.

كان هناك الكثير ليقوموا بعمله ذلك المساء، وفي صباح اليوم التالي، حيث يجب العناية بالجرحي، وقفل الثقوب التي أحدثها الرصاص، وإصلاح أحد بدالات باخرة. وفوق كل شيء يجب وضع الخطط لعبور الشلال والإتفاق عليها. لم يكن ذلك بالأمر السهل. فقد كانت البوردين وتل حوين أكبر في الحجم من البواخر التي ترسل عادة على النيل في مثل ذلك الوقت. كما كانتا ثقيلتين بما عليهما من تصفيح بالحديد ومن المدافع التي بها إضافة إلى شحنهما بكميات كبيرة من الذرة والتي كانوا ينوون تسليمها للحامية.

وكان النيل يهبط باستمرار وسرعة. وقد لاحظوا هبوطاً في منسوبه بلغ ثلاثة أقدام في ليلة واحدة بالقيبة. ومن المحتمل أن الرئيس لم ينتبها لذلك فقد ذكرا في مبدأ الأمر أن من المستحيل إنجاز المهمة الموكولة إليهما. ولكن وعداً بحافز قدره ١٠٠ جنيه لكل قبطان ونصف ذلك المبلغ لكل ريس. إذا نجحوا في المرور بسلام من تلك المنطقة، عملت على تعديل رأيهم. تم إلقاء كل الذرة في النهر وعملوا على تخفيف حمولة الباخرتين بشكل كبير وفي الساعة صباحاً يوم ٢٩ يناير بدأ التوجه نحو الشمال.

وبعد حوالي ساعة ونصف من إبحار البوردين اصطدمت بجرف رملي وتم إخراجها منه بدون صعوبة. ووصلوا إلى بداية الشلال في الثانية عشرة والنصف نهائياً وتم الاتفاق على تركيز كل المهارات الملاحية على باخرة واحدة في كل مرة. بالتالي إتصرفوا عن البوردين وقام قبطانها وريسها بأخذ تل حوين عبر المخل الأول للشلال. وقد تم إنجاز هذه المهمة بسلام ثم جاء دور البوردين للإلتحاق بأختها وتم ذلك.

وعند نهاية المنحدر العلوي وصلوا لمياه مفتوحة. وكان كل شيء يسير، كما يبدو، على ما يرام عندما اصطدمت تل حوين، في الرابعة والنصف عصراً، بغنف بصخرة غاطسة، أمام جبل الرويان، وبدأت في الغرق في الحال.

أوصلوا البوردين فوراً لترسو على جزيرة قريبة وبدأوا في إرسال المساعدة للباخرة المحطمة. لكنهم لم يحتاجوا لذلك، إذ أن الكابتن قاسكوني عندما وصل لمسرح الحطام، على متن أحد قوارب البوردين، وجد أن الكابتن ترافورد والملازم ستيوارت ورتلي قد أخليا كل الرجال والمدفيعين ومعظم المخزونات إلى القارب الكبير المقطور بها. أما كل ذخيرة المدافع و ذخائر الأسلحة الصغيرة فقد فقدت.

كانت بضعة طلقات قد أطلقت على الباخرتين أثناء النهار لكن لم يؤد ذلك إلى أي ضرر كما لم يتم الرد على تلك النيران. وعند المساء ظهر أحد رسل المهدي على ضفة النهر وتم إستقباله على ظهر البوردين. وقام المبعوث بتسليم السير تشارلس ولسن خطاباً هذه ترجمته: "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم. من العبد المفتقر إلى الله والمعتمد عليه، محمد المهدي بن عبد الله إلى ضباط الإنجليز والشايقية وأتباعهم: هداهم الله إلى الحق. سلموا ولن تمس أرواحكم، ولا تكونوا من العاصين حتى لا تحل بكم الندامة، وها أنا أحذركم الآن. وإذا شاء الله فسيهديكم إلى طريق الرشاد.

وليكن في علمكم أن مدينة الخرطوم وما حولها، والتي كانت تعتر بحاميتهما القوية، فإن الله دمرها مع غيرها من الأماكن بأيدينا، إذ لا شيء يمكن أن يقف أمام قوته وقدرته. وبفضل الله فقد أسكننا بكل شيء بأيدينا. لقد صرتم الآن بقايا صغيرة كورقة الشجرة في قبضتنا. وها أنا أعرض عليكم خيارين: فإن استسلمتم وحقنتم دماءكم ودماء خلق الله الذين تحت قيادتكم فهذا شيء حسن طيب. وستجدون التقدير والأمن من الله ورسوله، والأمن منا سينالكم. ولكن، إن لم تصدقوا ما قلته لكم وأردتم التأكد من (قتل) الخرطوم (غردون) فأرسلوا مبعوثاً مخصوصاً من جانبكم ليرى بنفسه حقيقة ما ذكرته لكم. وسيلقي مبعوثكم أمان الله ورسوله حتى يحضر إلينا ويرى ثم يعود محروساً إليكم بعد ذلك. وقد قال الله: "وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حني يسمع كلام الله". وأمامكم الخيار إما بالقتال أو التسليم لأمر الله والرجوع إليه. ولولا الشفقة عليكم ما كنت أكتب لكم عن هذا الأمر. أما إذا إستجبتم لما قلته لكم في خطابي هذا فلا تخشوا شيئاً، إذ لن يحدث لكم أي شيء بعد (منحكم) أمان الله ورسوله. أما إن رفضتم فستذوقون شر ما صنعتم لأنكم بذلك تبتعدون عن طريق الله إلى عذاب الآخرة. فالمعلوم أن النصر للمؤمنين كما وعدهم الله في كتابه العزيز. لا تخدعوا أنفسكم وتضعوا ثقتكم في بواخركم وغيرها وتؤخروا قراركم حتي تحل بكم الندامة، بل سارعوا لمنفعتكم ولصالحكم قبل قص جناحكم. وكثرة الكلام لن تجدي فالله (يهدي من يشاء) ويضل من يشاء (ولا حكم فوق حكمه). وفي ما قلت الكفاية لمن أراد الله هدايته.

(ختم المهدي)

لا إله إلا الله.

محمد رسول الله.

محمد المهدي بن عبد الله

١٢٩٣

كان حامل هذا الخطاب رجلاً دنقلاوياً يسمى الفكي عبد الرحمن، وهو نفس الرجل الذي شوهد على ضفة النيل بأم درمان حاملاً علماً أبيضاً (علم الهدنة).

لم يرغب السير تشارلس ولسون في إرسال إجابة للخطاب. لكن خشم الموس أشار إلى أن الباخرة ستكون تحت رحمة العدو تماماً إثناء عبورها لمضيق الشلال. ورجاه أن يأذن له في كسب الوقت وذلك بكتابة خطاب يحمل ما معناه بأنه لن يجرؤ على تسليم نفسه إلا إذا ضمن جوازاً للمرور حيث أنه في تلك الحالة فسيقوم بتسليم الباخرة والإنجليز إلى الفكي مصطفى، الذي كان في ذلك الوقت في ود الحبشي مع قوة عسكرية. وقد أذن السير تشارلس وسون، بعد أن أخذ في الاعتبار الوضع الخطير لهم، لخشم الموس أن يكتب تلك الرسالة، مع الاهتمام والحرص على ألا يصدر منه أو من الضباط الإنجليز أي وعد أو التزام بشئ.

كان للنقاش الذي دار بين الفكي عبد الرحمن وضباط الشايقية وجنودهم تأثير سيء للغاية. وإتضح ذلك على الفور بفرار أول واحد من الوطنيين.

وعند إنبلاج صبح الثلاثين من يناير تحركت البوردين، وتبعتهما الزوارق الكبيرة، وأمكنهما عبور مختلف الشلالات بسلام. ولم يواجهوا، لدهشة كل من كان على السطوح، أي مقاومة في المضيق الوعر للسبلوقة.

ولكن لازال أمامهم الممر المعقد والصعب بين الجزر، والذي كان هو السبب في تعطيلهم من قبل، في يوم ٢٥ يناير، والذي لابد من اجتيازه الآن.

لن يتم ذلك إلا إذا تم خفض وإحناء السفينة للأسفل، بدءاً بالدفة، وذلك باستخدام حبال ضخمة تثبت بقوة على المراسي، وهو عمل مرهق يكاد يكون إنتازه في حكم المستحيل إذا ما تصادف ووجد بالمنطقة أي عدد من رجال العدو. وبالرغم مما اتخذ من احتياطات فقد دفعت الرياح بالبوردين إلى مياه ضحلة وما تم إخراجها منها إلا بعد جهود كبيرة. وقد تسبب ذلك في إضاعة الوقت حتى أنهم أوقفوها، عند حلول الليل، عند الشلال.

وبدأت مظاهر الململة والسخط تزداد شيئاً فشيئاً عند الشايقية وكانت تصرفات عبد الحميد بك خاصة مثيرة للشبهات. وأثناء الليل أفيد السير تشارلس ولسن بأنه كان مشتركاً في مؤامرة لإغراق السفينة والتي لم يوقفها إلا تدخل خشم الموس. ولحسن الحظ، نما إلى السوادتين في غمرة هذه الأزمة، خبر كاذب جاء في وقته، بأن الإنجليز قد احتلوا المتمّة، والتي كانت تعزيزاتهم تتدفق عليها عبر الصحراء. وكان تأثير هذه الأنباء عليهم واضحاً وعمل، بلاشك، في دفع الشايقية المترددين للإبقاء على ولايتهم.

وعند شروق شمس اليوم التالي (٣١ يناير) تم البدء في دخول المنحدرات الأخيرة وعند العاشرة صباحاً تم ذلك بنجاح تاركاً أمامهم مياهاً منبسطة خالية من العوائق على كل الطريق إلى المتمّة. وكانت العقبة الوحيدة التي ستواجههم هي في كيفية اختراقهم للتحدي الذي بسود الحبشي، حيث كان من المعلوم أن لدى الفكي مصطفى قوة كبيرة هناك وبطارية مدفعية. وتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لحماية المراحل من القذائف. وكانوا يأملون بأنهم إذا ما أسرعوا عند مرورهم

بالحصن، بأقصى ما يمكنهم، فسيتجنبون قذائف العدو التي لن تكون دقيقة بما فيه الكفاية لإلحاق الضرر بهم. كما كان السير تشارلس ولسون يعتقد بأن الحوافز الضخمة التي وعد بها الرئيس، في حالة النجاح في العبور، ستوفر لهما دافعاً قوياً لبذل أقصى ما في وسعهما. وقد تم توفير مخزون كبير من الحطب حتى يمكن الباخرة من الانطلاق بأقصى سرعة، ولساعة على الأقل، بعد تجاوزهم للحصن.

وكما كان الحال بالنمبية للباخرة عباس، كان كل شيء يسير بصورة طيبة ظاهرياً، وظنوا أنهم قد تجاوزوا أسوأ المخاطر، عندما اصطدمت البوردين في تمام الثالثة والنصف بعد الظهر، عندما كانت تمخر في مياه ناعمة أثناء هبوطها من الممر المائي على الغرب من جزيرة ميرنات، بقوة وعنف بصخرة غارقة وبدأت المياه تتسرب إليها في الحال. أمر السير تشارلس ولسون في الحال بطرحها أمام شاطئ رملي ممتد من جزيرة تقع على مسافة خمسين ياردة من الجزيرة الأضخم منها، ميرنات. وقد تم ذلك بنجاح وشرعوا في اتخاذ كل الخطوات الممكنة لإصلاح الضرر. ولكن بدون جدوى. وكانت كل الأيدي تعمل بالظلمبات والدلاء (في نزح المياه) بينما عمل النجارون في فحص الفتحة، والتي اتضح بأنها ذات حجم كبير. وسرعان ما أصبحت المياه على ارتفاع عدة أقدام من خط مياه الباخرة. (وتوضح الخريطة التالية عمليات السير تشارلس ولسون، بعد تحطم البوردين، وموقع جزيرة ميرنات بالنسبة لود الحبشي).

تم الإسراع بأنزال المدافع والذخائر والمؤن إلى الشاطئ وتم تكليف الكابتن قاسكويني لاختيار موقع مناسب لإقامة زريبة على جزيرة ميرنات، والتي تطل على الجزيرة الصغيرة التي جنحت على جرفها الرملي الباخرة البوردين.

يبلغ عرض جزيرة ميرنات حوالي ثلاثة أرباع الميل بينما يصل طولها لحوالي ميلين، وتغطيها الأشجار والحشائش الطويلة. ووجد أن القناة أو المجرى المائي على الشرق منها لا يزيد عرضه على ٣٠٠ ياردة. أما النقطة المواجهة للموقع الذي تحطمت فيه البوردين فتبعد بحوالي ثلاثة أرباع الميل من أقصى الجزء الشمالي للجزيرة. وقد السير تشارلس ولسون أن هذا الموقع يستحيل الدفاع عنه. لذلك قرر في البداية التقدم بقوة أثناء الليل على طريق الشاطئ الشرقي حتى يواجه القبة ومنها يرسل الملازم ستوارت ورتلي إليها، على المركب الصغيرة، ليخبر حاميتها عن الكارثة التي ألمت بهم وليرجو منهم إرسال باخرة لحماية جانبهم الأيمن. لكنه وجد على أية حال أن من المستحيل القيام بأي شئ مع الجنود الوطنيين وكان يعتقد أنهم سيكونون عديمي الجدوى في حالة حدوث إشتباك أو هجوم عليهم وبالتالي فإن البديل الذي إضطر للجوء إليه كان في تأمين نفسه بقدر ما تسمح الظروف المائلة وأن يظل في مكانه في انتظار وصول النجدة لمسرح الباخرة المحطمة. وفي الساعة السابعة إلا ربعاً من مساء ٣١ يناير توجه الملازم ستوارت ورتلي على زورق السفينة، ليجد في القبة، وقد توجه معه أربعة جنود إنجليز، أحدهم جندي إشارة، وثمانية من الوطنيين. تم توقيت قيامه حتى يتمكن من تجاوز حصن العدو في ود الحيشي أثناء الظلام الذي يعقب غروب الشمس وقبل بزوغ القمر. أخذوا يجدفون حتى مسافة نصف ميل من الحصن وبعدها أنزل المجاديف وأمر البحارة بالانبطاح على قاع الزورق والذي كان طافياً نحو أسفل النهر. أقرب تدريجياً من موقع العدو والذي صار قريباً لدرجة أنهم استطاعوا تمييز وجوه رجاله الجالسين حول نيران المعسكر. سمعهم وهم يتناقشون عن ماهية الشئ الأسود الذي شاهدوه طافياً على النهر. وهل هو قارب أم لا. وفجأة تبددت شكوكهم عندما ظهر القمر بازغاً من الأفق الشرقي وفي خط مستقيم خلف القارب الذي أصبح واضحاً مرئياً. وقد نبهت الصيحة، التي تلت اكتشافهم، البحارة بأن مزيداً من التخفي لم يعد مجدياً فنهضوا واتخذوا مواقعهم وأسرعوا بعزيمة وقوة إرادة وسط عاصفة من الرصاص الذي أنهال على النهر من حولهم. لكنه لم يسبب لهم ضرراً لحسن الحظ. وبعد بضعة مئات من اليارات وصلوا إلى جزيرة أخرى. وبتأخذهم للجانب الأيمن من النهر استطاعوا مواصلة رحلتهم لمسافة معقولة حتى وصلوا للمجرى الرئيسي عندما شاهدوا أن بعض راكبي الجمال قد تتبعوهم لكنهم لم يكونوا، على ما يبدو، مسلحين بالبنادق. وفي الثالثة من صباح الأول من فبراير وصلوا للقبة. وعندما تسلم اللفتانت كولونيل م. ولسون، من الحرس الاسكتلندي، والذي كان قائداً لمعسكر القبة في مكان اللفتانت كولونيل بوسكاون، المريض بالمستشفى، تقرير الملازم ستوارت ورتلي أمر في الحال بإرسال النجدة للسير تشارلس ولسون.

وفي الساعة الثانية ظهراً في نفس يوم الأول من فبراير توجه اللورد تشارلس بيرسفورد، على ظهر الصافية، إلى ميرنات. كان السير تشارلس ولسون في تلك الفترة قد أقام محطة صغيرة على جزيرة ميرنات بينما ترك المؤن والذخائر ومعظم رجاله بالجزيرة الصغيرة لفترة الليل. وصباح اليوم التالي تم نقل المؤن ومعظم الجنود إلى زريبة قوية أقاموها في الجانب الغربي لميرنات، مقابل البوردين. وبقي في الجزيرة الصغيرة الجنود الوطنيين لمنع حدوث أي مضايقة من حملة البنادق من العدو، والذين قد يتوجهون إليها إذا ما تركت خاليه.

أقاموا الزريبة على شكل نصف دائرة على الضفة المرتفعة، التي كانت بارتفاع حوالي ٢٥ - ٣٠ قدم، وشديدة الإحذار. حول هذه الضفة انتشرت أحزمة من الأشجار، التي، بينما تعوق رؤية العدو لهم، فأنها لا تعطل نيرانهم عند اقتراب أي عدو باتجاههم. نصبت المدافع الأربعة في مواقع جيدة بالزريبة. كانت النهاية الشمالية لجزيرة ميرنات تبعد بحوالي ٣ أميال من ود الحبشي. وباستثناء بعض الشايقية الذين زاروهم وأكدوا لهم نياً سقوط الخرطوم، والذين ذكروا لهم بأن الملازم ستيوارت ورتلي قد عبر بسلام بطاريات العدو، فقد مر ذلك اليوم واليوم الذي تلاه بدون أي حادث.

وفي صباح اليوم التالي حدث ما يوضح الظروف الاستثنائية التي عاشت فيها القوة الصغيرة للسير تشارلس ولسن. تمثل ذلك في زيارة لميرنات من الفكي مصطفى، قائد قوات العدو في ود الحبشي، حيث دار نقاش بينه وبين خشم الموس حاول فيه إغراءه بالفرار. لكن خشم الموس رفض هجرنا أما عبد الحميد بك ومن معه من الشايقية فقد إتضموا للعدو.

ومضى الليل بدون حوادث ولكن ما أن ظهرت شمس صباح الثالث من فبراير حتى سمعوا صوت قذيفة مدفع من أسفل النهر منبئة لهم بأن النجدة المرتقبة هي في طريقها إليهم من القبة. وبعد برهة قصيرة أعلن جندي الاستطلاع، من على قمة شجرة قريبة، بأن الباخرة الإنجليزية قد ظهرت للعيان. كان تأثير وقع هذا النبأ على الجنود الوطنيين المكتئبين كوقع السحر في الحال. وتحول الرجال، والذين كانوا قبل لحظات لا مباليين ومحبطين ولا يتحركون حتى لو ضربوا، إلى كتلة من النشاط والحيوية والرغبة في إرضاء رؤسائهم. أرسل السير تشارلس ولسون فوراً إشارة للباخرة لتوضيح مكانهم ولكن سرعان ما جاء رد الفعل من نيران العدو الحامية المنطلقة من الشاطئ المقابل. ولما تنبه السير تشارلس ولسن إلى أن نيران الباخرة ظلت صامتة لفترة مريبة من الزمن، فقد قام بإرسال الكابتن ترافورد للتأكد مما حدث. وعندما عاد ذلك الضابط أبلغ بأنه قد شاهد الدخان يغطي الباخرة وأنه يبدو بأنها قد تعرضت لحادث خطير. توجه السير تشارلس ولسن بنفسه لمعاينة الموقف ورأى الباخرة تتأرجح وهي رأسية مقابل بطاريات العدو ويبدو أنها كانت مشتبكة بقوة مع البطاريات. صمم السير تشارلس ولسون في هذا النترف، على محاولة الإتصال مع بحارة الباخرة. وقام بالتالي بإصدار أوامره لتفكيك الزريبة ونقل المؤن والمدافع والجرحى إلى ظهر الزورق الكبير والذي أوكل قيادته للكابتن قاسكويني، مع أوامر بالتوجه شمالاً وانتظار وصول باقي قوات السير تشارلس ولسن على طول الشاطئ الأيمن، مقابل النهاية الشمالية من الجزيرة. وفي نفس الوقت تم إرسال القارب الصغير لنقل السير تشارلس ولسن والقوات إلى الضفة اليمنى من النهاية الشمالية للجزيرة.

وبالرغم من نيران العدو الحامية فقد تم تفكيك الزريبة ونقل المؤن والمخزونات بدون أي خسائر كبيرة. كما تم النزول على الضفة اليمنى بدون أي مقاومة. بعدها تقدمت القوات للأمام وعسكرت في مقابل الباخرة المتطلّة، والتي كانت تبعد بحوالي ٥٠٠ ياردة من الضفة اليمنى، بينما توجه القارب الكبير إلى نفس الموقع. قابلتهم بعض الصعوبات، نظراً لعدم وجود أشرجي كفاء، لكنهم تمكنوا من الاتصال بالإشارة أخيراً بالباخرة وتأكدوا الآن من أن مرجلها قد أصيب بقذيفة لكنهم كانوا يأملون في إصلاحه. ومع أن الشك في دقة المعلومات، التي جاءت بالإشارة، قد راودهم، فقد تطوع الكابتن قاسكويني للتوجه إليها على القارب الصغير، ونجح في ذلك ورجع إليهم بدون أي خسائر.

أحضر معه رسالة من اللورد بيرسفورد يرجو فيها من السير تشارلس ولسن أن يواصل إطلاق نيران حامية على الحصن ليصرف إنتباه العدو عن الباخرة ريثما يتم إصلاح عطب المرجل ثم يتحركوا في الصباح لميلين أو ثلاثة نحو مكان معين بالشاطئ يمكن الرسو فيه بسهولة وهناك ينتظرون قدوم الباخرة مع ترحيل المرضى والجرحى، وعددهم خمسة وعشرين، أثناء الليل بالزورق.

على هذا تم إرسال جزء من قوات السير تشارلس ولسون، بقيادة الكابتن ترافورد، لإختصار وتجهيز مكان مناسب للمعسكر. أما السير تشارلس ولسون بنفسه فقد بقي، بعد أن حصل على مدفع واحد من الزورق (لم تكن لديه سوى ذخيرة بسيطة لأن معظمها قد فقد عند تحطم باخترتهم) مع جنود المدفعية الوطنيين مقابل ود الحبشي. وظل مدفعه هذا مشتبكاً مع حصن العدو حتى حلول الظلام وبعدها، ونظراً لشدة إرهاب رجائه، تم تعطيله وإلقاؤه في النيل. كما تمت محاولة لتحويل الزورق نحو الضفة اليمنى للنهر وراء غطاء من حاجز رملي، حيث يمكن إخفاؤه عن العدو. لكن الزورق جنح وفشلت المحاولة. وكان لابد من إنزال أي شيء منه ما عدا الجرحى لدرجة كبيرة. وعاودوا المحاولة حتى نجحوا أخيراً. وبعد غروب الشمس، في تعويمه. وبعد أن رأى السير تشارلس ولسون أنه لن يقدم بعد ذلك شيئاً مفيداً لهم، غادر المكان المواجه للحصن والتحق بالكابتن ترافورد بالزريبة التي تمت إقامتها على مسافة ميلين للشمال منهم.

ويبدو مهماً الآن الرجوع للوراء بضع ساعات لنروي مغامرات الصافية. فقد كان مع اللورد س. بيرسفورد قسماً من لواء البحرية تحت قيادة الملازم فان كوجنت، وعشرين من ضباط الصف ورجال المشاة الراكبة مع مدفعين من طراز قارنر ومدفعين عيار أربعة أرتال. وكان قد أصطحب معه الملازم ستوارت ورتلي. وبعد مغادرة القبة لم يحدث لهم أي شيء ذا بال في يومي الأول والثاني من فبراير. ولكن في السابعة من صباح يوم ٣ فبراير شاهدوا تحصينات العدو الأرضية في ود الحبشي ووراءهم كانت البوردين جانحة بالقرب من جزيرة ميرنات. وعندما وصلوا لبعـد ١٢٠٠ ياردة من الحصن فتح اللورد بيرسفورد النار من مدفعه، وبعد قليل من ذلك رد عليه العدو. عندها أمر بفتح نيران كل الأسلحة وتصويبها على مزاغل المدافع بالحصن بينما شرع في الإسراع لتجاوز حصون العدو، حتى أنه اضطر للمرور على مسافة ثمانين ياردة منهم، نظراً لضحالة المياه. كانت نيران أسلحته رهيبة، مستخدمين كل ما بالباخرة من مدافع الماكينة والبنادق، لدرجة أن العدو لم يتمكن من إطلاق نيران المدفعين الموجودين وسط نشمة الحصن، ورغم أنهما كانا يواجهان الباخرة الممتدة بطولها أمامهما. وعند ما عبرت الباخرة الحصن بحوالي ٢٠٠ ياردة أصبحت ذاوية للرمي حادة لدرجة منعت الباخرة من مواصلة إطلاق النار. ومن هنا تمكن العدو من تعديل إتجاه مدفعيه ونجح في إرسال قذيفة اخترقت رجل الصافية. ورأى اللورد بيرسفورد أن بدالات الباخرة كانت مستمرة في الدوارة فوجهها نحو الضفة اليمنى للنهر وأرسلها هناك على بعد ٥٠٠ ياردة من العدو، والذي واصل إطلاق نيرانه بكثافة. أصبحت الصافية جائمة الآن مقابل الحصن، في مكان رغم أنه يتيح هدفاً أصغر أمام العدو. إلا أنه عمل أيضاً على تقليص قوة نيرانها لدرجة كبيرة لبعض الوقت. وبعد أن أزالوا مؤخرة أحد مدافع الأربعة رطل، وقطعوا ثقباً كبيراً على جانب الباخرة كان مدفع واحد مع مدفع ماكينة آخر قد بدءا في الضرب بشدة على الحصن.

ومن السابعة والنصف من صباح الثالث من فبراير وحتى بعد غروب الشمس لم يتوقف إطلاق النيران من الباخرة لدرجة أن العدو لم يتمكن أبداً من الرد عليها بالمدافع. لكن إطلاق نيرانه من البنادق لم يتوقف طيلة تلك الساعات الإثنتي عشر، على الرغم من تشتت الطلقات وعدم إحداثها إلا لأضرار طفيفة. ولما كان من المتوقع أن يستغل العدو فترة الظلام ليقوم بتحريك مدافعه إلى موقع آخر يمكنهم من تسديد نيران قاتلة نحو الباخرة فقد رأى اللورد بيرسفورد أن من الضروري أن يتم إصلاح المرجل المعطوب قبل حلول الصباح وأن يحاول بقدر الإمكان، إلهام العدو بأنه بالفعل قد هجر باخرته. وبهذا قد يرون ألا داعي لتغيير مواقع مدافعهم. ولتنفيذ هذه الفكرة قام بصف قواربه الأربعة بطول الباخرة وكأته يجهزها للفرار عليها بينما عمل على وقف إطلاق النار أثناء الليل تماماً وظل في حالة سكون تام طوال فترة الليل.

وقد قام كبير المهندسين، المستر بنبو، وفور أن أصبح المرجل بارداً نسبياً، أي حوالي الحادية عشر صباحاً، بالشروع في إصلاحه. ولما كان الفنيون، وكل من كان بحوض المرجل، لتلقيه بالحطب، قد أصابهم حروق شديدة من جراء البخار المتدفق من خارج المرجل عند قذفه بالممدف، فقد كان على المستر بنبو أن يقوم تقريباً بكل العمل بيديه، وتحت النيران. وكان الملازم فأن كوجنت قد جرح بينما قتل ضابط صغير أثناء الحادث.

وبحلول التاسعة من مساء نفس الليلة اكتمل العمل. ومن الخامسة من صباح اليوم التالي أصدر اللورد بيرسفورد أوامره بإيقاد النيران ولكن بعد اتخاذ الحذر والحيلة لمنع تسرب الشرر، والذي قد يكشف وجوده للعدو.

ولم يكتشف الذين كانوا بالحصن أن الباخرة لم تهجر، وأن فرصة الإستيلاء عليها قد ضاعت، إلا عند إتبلاج الصباح. وقد عبروا عن هذا الإكتشاف بإطلاق صيحات التحدي من العرب وبعاصة من رصاص بنادقهم. لكن اللورد بيرسفورد كان مستعداً لمواجهة ذلك الحدث. وقبل أن يعاد تصويب مدافع العدو للضرب المحكم على الباخرة، كان قد رفع المرساة وأطلق بأقصى سرعة. وبعد أن وصل لمسافة ٢٠٠ ياردة باتجاه أعلى النهر، وفي منطقة مفتوحة المياه بها مجال واسع للمناورة، قام بالاستدارة وأخترق متحدياً منطقة الحصن مركزاً كل نيرانه على مزاغل مدفعية العدو أثناء ذلك. ثم هذا الأجراء بدون حوادث، وكان من على ظهر الباخرة يهتفون أنفسهم بانتهاء مصاعبهم أخيراً. عندما شاهدوا في ضوء عتمة الفجر أن قاربهم قد أصطدم بعنف على صخرة تبعد بأربعمئة ياردة وراء بطاريات العدو. كان على ظهر القارب الكابتن قاسكويني وبعض المرضى والجرحى. كانوا في مساء اليوم السابق قد قطروا القارب لبعض المسافة أعلى النهر من المكان الذي كان قد جنح فيه ثم تركوه ليمضي مع التيار. ولكن، وبعد أن مضى بسلام متجاوزاً للحصن، إصطدم بتلك الصخرة ولم تتجح محاولاتهم لإبعاده عنها.

ومرة أخرى أرسى اللورد بيرسفورد الباخرة بالقرب ما أمكن من موقع القارب وأرسل فوراً نائب الملازم كيبيل ومجموعة من الرجال، على الزورق الصغير، لنجدة الكابتن فاسكويني. وبعد أن أخرجوا معظم المخزونات والمؤن تمكنوا من تحريك الزورق، وتحت نيران شديدة من العدو، ومن ثم توجه الجميع نحو الزريبة بأدنى النهر. وكان السير تشارلس ولسون قد نزل في موقع مناسب، هو وجماعته، يبعد بحوالي ميل عنهم. وفي الساعة الخامسة وخمسة وأربعين دقيقة عصراً، وفي نفس اليوم، وصل الجميع سالمين للقبة. لم يفقد السير تشارلس سوى جنديين سودانيين قتلًا وخمسة وعشرين جرحى. وخلال عمليات اللورد بيرسفورد تم إطلاق ٥٤٠٠ قذيفة من مدفع الجاردنر، و ٢١٥٠ طلقة من المارتيني هنري و ١٢٦ قذيفة من الهاوتزر.

القسم السادس (ب) سقوط الخرطوم (بقية)

الملخص:

الإفادة الثالثة - سقوط الخرطوم من وجهة نظر أحد رجال الحصار - رواية الأمير الفكي مضوي - المراحل الأولى للحصار - هزيمة سعيد بك وحسن بك إبراهيم - أبو قرجة وود البصير يهزمان صالح بك - تنظيم قوات العرب المحاصرة للخرطوم - أبو قرجة، أمير الأمراء - وصول ود النجومي - وصول المهدي - إرسال أبو صفية لمهاجمة الإنجليز في أبو طليح - تأثير الهزيمة على المهدي - رأي رؤيا يخبره فيها النبي للذهاب لكرديان - ابن عمه، عبد الكريم، يلح على ضرورة مهاجمة الخرطوم - المهدي يوافق - تنظيم الهجوم - تعليمات النجومي - وصول نبأ تحرك البواخر من الممتة - أوامر المهدي بالإبقاء على حياة غردون - المهدي يخاطب أنصاره - قوات النجومي تعبر المتراس المهدم والخندق المليء بالطمي - الهجوم - قيام فرج باشا بفتح البوابة وتسليم نفسه - موت الجنرال غردون - المنذبة - ظهور البواخر للبيان - مقتل فرج باشا - الإفادة الرابعة - المحكمة العسكرية التي عقدت لمحاكمة حسن بك بهنساوي، الذي كان قائداً لذلك الجزء من الدفاعات التي دخل منها العرب - ملاحظات على المحكمة العسكرية - خطتين للخرطوم - خطة الادعاء وخطة الدفاع - تبرئة حسن بك بشرف - سقوط التهم بالخيانة - التساؤل حول وضع حصن المقرن - أهميته للمحاكمة - عرض للإفادات المختلفة - المجاعة تكسب السباق - العمليات التالية لطاير النهر وطاير الصحراء - الجنرال بولر يتجه للممتة - خطط اللورد وولسلي - معركة كريكمان - مقتل الجنرال إيرل - تدمير ممتلكات سليمان ود قمر - أوامر للجنرال براكنبري للإسحاب لمروي - إسحاب الجنرال بولر لأبو طليح - انهيار حملة النقل بالجمال - تغيير الخطط - السير إلفين وود يرجع طاير الصحراء - توزيع قوات حملة الإنقاذ على نقاط بواقي النيل - الاستعدادات لإرسال حملة إلى سواكن.

سنتناول الآن الأحداث (في الخرطوم) كما رآها شاهد عيان من الذين إشتبكوا في الحصار. كان هذا العربي الذي يدلي بالإفادة التالية أميراً مهماً وقائداً من قواد المهدي. وكان أول من ألقى الحصار على الخرطوم، وكان حاضراً خلال ما حدث من إشتباكات مبكرة، وقد لعب دوراً هاماً في الهجوم على الخرطوم والإستيلاء عليها. وعند موت محمد أحمد، بعد بضعة أشهر، كان من المعارضين لخليفة الخليفة عبد الله التعايشي ومن المشاركين في النزاع الذي دار وقتها واضطر للفرار من البلاد. هرب للحبشة حيث مكث بها حوالي ثلاثة سنوات وكان واحداً من الذين بذل الخليفة جهداً لاسترداده بالذات، وكتب في عدة مناسبات للملك يوحنا طالباً تسليمه له. لكن الملك يوحنا (الم

يستجيب لذلك) ووفر له حماية مع القافلة التي توجه بها، بعد ثلاثة سنوات إلى القاهرة. الرجل هو الفكي مضوي (عبد الرحمن) والذي، بعد وصوله لمصر، نال العفو من سمو الخديوي، وهو الآن أستاذ محترم في جامعة الأزهر. وقد أفاد بالآتي: بعد هزيمة هكس باشا في شيكان أيقن كل أهالي السودان تقريباً، وأنا منهم، بأن محمد أحمد هو المهدي. وقد كتب لي في نفس الوقت الذي كتب فيه للشيخ العبيد (ود بدر) شيخ الطريقة القادرية طالباً منا تجميع كل أتباعنا والقيام بحصار الخرطوم من جهة القبة. وفي نفس الوقت عين المهدي نسيه محمد ود البصير، من قبيلة الحلاوين، لجمع الرجال والاشتراك في الحصار. والتقي ود البصير بصالح بك، الذي كان قادماً من سنار. في مكان أسماه فداسي وحاصره (وقطع عند المدد). ولما ضاق به الحال من ناحية الطعام خاصة كتب للمهدي معلناً استعداده للتسليم لأي أمير يرسله إليه بخلاف ود البصير لذا أرسل المهدي أبو قرجة إليه حيث استسلم له صالح بك في مايو ١٨٨٤.

قبل هذا، في مارس، كان الشيخ العبيد قد تقدم بقوة من ٣٠٠٠٠ رجل لإلقاء الحصار على الخرطوم. وكان غردون باشا قد وصل إليها قبل ذلك وكتب خطابات رقيقة لكل القبائل بغرض تهدئتها ولكن بدون طائل.. لقد جاء ذلك متأخراً، فقد انتشرت المهديّة في كل البلاد، وكان كل الناس متشوقين للقتال والجهاد في سبيل الله ورسوله.

اتضمت لشيخ العبيد بكل قواتي، في القبة شرق الخرطوم * وبعد ثلاثة أيام من وصولنا قام خشم الموس بك وحسن إبراهيم الشلالي وسعيد بك بعبور النيل الأزرق، ومعهم حوالي ٤٠٠٠ رجل، وتقدموا نحونا. تقدمنا نحوهم بدورنا وبعد قتال قصير الأمد طردناهم بعد فقدهم لأربعمائة رجل تعرض سعيد بك وحسن بك إبراهيم، عند وصولهما إلى الخرطوم، لمحكمة عسكرية وتم رميها بالرصاص لأنهما أصدرأ أمراً بالانسحاب للجنود. كان من الطبيعي أن يخشونا لأننا كنا نقاتل مجاهدين (في سبيل الله) ولا نخشى الموت.

أثناء ذلك قام أبو قرجة وود البصير، بعد إستسلام صالح بك المك، بالتقدم بقواتهما نحو الجريف وضربا الحصار على الخرطوم من ناحية النيل الأزرق. كما ضرب الأمير فضول والشيخ عبد القادر (ود أم مريوم) الحصار على الخرطوم من جهة الكلاكلة على النيل الأبيض، بعد أن وصلها بقوات كبيرة وكذلك إشتراك الأمير مصطفى ابن الفكي الأمين ومعه حوالي ٥٠٠٠ رجل في حصارها من ضفة النيل الأبيض الغربية وهكذا تم حصار الخرطوم من كافة الجهات.

كانت بواخر غردون باشا تهاجمنا باستمرار ومن كافة الاتجاهات ، وتهاجم خاصة قوات أبي قرجة. وبعد فترة من الزمن تم طردنا جميعاً ونظفوا ضواحي الخرطوم منا وتمكنوا من إيصال مؤن جديدة لها.

كان أبو قرجة أميراً للأمرء المحاصرين. ولما كنت على خلاف في الرأي مع شيخ العبيد فقد قام بإرسالني لمقابلة المهدي والذي كان مشغولاً وقتها بإخماد ثورة في جبل الدابير. صحبت المهدي (عند تقدمه للخرطوم) حتى شات وبعدها عدت حاملاً خطاباً لأبي قرجة لعدم التدخل في شئونني ولذلك تمت المصالحة بيني وبين شيخ العبيد.

* القبة شمال الخرطوم وجنوب شرق جزيرة توتي (المغرب).

أثناء ذلك كانت قواتنا قد تراجعت من عدة مواقع. قواتي إلى أم ضبان، وقوات أبو قرجة وفضول إلى ود شكر الله (جنوب الخرطوم بأربعة وعشرين ميلاً)، وقوات الفكي مصطفى إلى إسلاج، شمال الخرطوم.

وقبل عودتي تم إرسال محمد علي باشا لمهاجمة قرى الجريف والعيلفون. ثم توجه لأم ضبان حيث أشتبك رجالي معه وهزموه بعد مذبحة فظيعة. وقتل هو نفسه ولم يرجع للخرطوم سوي بقايا ضليلة من قواته.

وعندما علم محمد أحمد، المهدي، بأن المحاصرين قد تراجعوا عن الخرطوم، قام بإرسال قوة من ٢٠٠٠ رجل بقيادة ود النجومي، ومعه تعليمات بتولي قيادة كل قوات الحصار. وقد صحبه الأميران ود جبارة وعبد الله ود النور.

وعند وصوله أخذ النجومي رجاله لمكان بين الكاكلة والجريف حيث انضم له فيه كل من أبي قرجة وود البصير وفضول وعبد القادر.

وسرعان ما وصل المهدي بعدها، كما عاد الفكي مصطفى أيضاً من إسلاج. ثم عاد شيخ العبيد أو بالأحرى ابنه ود شيخ العبيد (لأن والده كان متقدماً جداً في السن) وأنا إلى موقعنا السابق في القبة. وصارت الخرطوم بهذا محاصره بشدة من كل الجهات وقطع الإتصال بينها وبين أم درمان. ثم استسلمت حامية قلعة أم درمان بعد ذلك، في الخامس من يناير. لانعدام الطعام. أما الخرطوم فكانت صامدة بقوة وأنتوي المهدي إرغامها على الإستسلام بالتجوع.

وعندما سمع بقدوم الإنجليز للمتمة، لنجدة الخرطوم، أرسل قوة كبيرة من أفضل رجاله، بقيادة موسى ود حلو وأبو صفية، لمهاجمتهم. ودارت معركة كبرى في أبي طليح وأخرى في أبي كرو هزم فيها النور عنقرة ثم تمكن الإنجليز من الوصول للنهر في القبة بعد أن دحروا العرب أمامهم. وصلت أنباء الهزيمة للمهدي في العشرين من يناير وسببت ذعراً عظيماً في مصكره. فأمر في الحال بإطلاق ١٠١ قذيفة مدفع تحية، إشارة للنصر، وبغية تضليل حامية الخرطوم. كان المهدي مهتماً بسلامته الشخصية، وبعد صلاة العصر عقد إجتماعاً مع خلفائه عبد الله التعايشي وعلي ود حلو ومحمد شريف، ومع المقربين من الأمراء (وكانوا جميعهم من أقاربه) وبالذات محمد عبد الكريم والسيد عبد القادر وود ساتي وأحمد شرفي ويعقوب (أخو الخليفة عبد الله) وأخبرهم سرّاً بأنه رأى في حضرة أن النبي يخبره بالهجرة إلى الأبيض، لأنه، كما جادل "إذا كان رجل إنجليزي وأحد هو غردون، استطاع أن يقود الجنود السودانيين والمصريين وبقينا في أماكننا لعام كامل: فماذا سيلحق بنا أولئك الآلاف من الإنجليز، الذين هزموا أشجع رجالنا في أبو طليح، وإلى أي حد سيقدرون على سحقنا أو أبعادنا؟". ثم سأل خلفاءه وأمرأه إبداء رأيهم. وقد وافقوا جميعاً على رؤية المهدي ما عدا محمد عبد الكريم والذي أفرح القيام بمحاولة لإقتحام الخرطوم. إذ أننا، كما قال لو نجحنا ودخلنا الخرطوم فإن الإنجليز لن يتجرؤوا على القدوم. أما إذا فشلنا فسيكون أماننا الوقت الكافي للإسحاب". لم أكن حاضراً لذلك الإجتماع، لكن عبد الكريم كان صديقاً حميماً لي وحدثني بما دار كلمة بكلمة. ثم بعد ذلك عقد عدة إجتماعات. وكان المهدي يعلم تماماً بأي حركة للإنجليز. وقد أعطانا تأخرهم في القدوم شجاعة جديدة حيث كنا نعلم بأن حامية الخرطوم كانت في يأس شديد يزداد يوماً

بعد يوم لعدم وصول البواخر لنجدتهم. ولو جاءت البواخر في ذلك الوقت الذي كان القلق والازعاج يخيمان علينا بعد هزيمة أبو طليح، فربما كان المهدي قد نفذ ما نوى عليه من الهجرة جنوباً. لكن تأخرهم قوي من عزم عبد الكريم، وعندما حل يوم الأحد الخامس والعشرين جاء رسول من القبة حاملاً نبأ تحرك البواخر منذ صباح السبت الرابع والعشرين. تم عقد اجتماع آخر تقرر فيه أخيراً قبول رأي عبد الكريم والهجوم على الخرطوم صباح اليوم التالي قبل وصول البواخر. تبعاً لذلك قام المهدي، عقب نهاية الاجتماع، بإبلاغ جميع جيوشه بأنه في رؤيا بشره النبي بأن الله قد وضع أرواح جميع جنود الحامية في قبضة يده، وأن الهجوم سيبدأ صباح يوم الاثنين (٢٦ يناير) الباكر، وأن على قوات الهجوم ألا تخاف شيئاً إذ لن يلحق بهم أي أذى.

ثم أرسل لإستدعاء كبار الأمراء على الجانب الجنوبي: ود النجومي وأبو قرجة، وأخبرهم بما تقرر القيام به. أما أنا فقد كلفت بإرسال بعض قواتي لمواجهة البواخر إذا ما حضرت وضربها، كما كلفت قوات الفكي مصطفى أيضاً للتقدم باتجاه التيار، وأمر كل الرجال المتواجدين هناك لضرب أي بواخر قائمة بالرصاص فور ظهورها. كما تسلمنا نحن أيضاً أوامر بالهجوم على توتي وراس راسخ من موقعنا بالقبة، على أن يتم ذلك في نفس الوقت الذي يقوم النجومي فيه بالهجوم من الجنوب.

وفي ليلة الخامس والعشرين تلك، عبر المهدي النيل من أم درمان ومعه كل من أراد المشاركة في الجهاد، وتوجه إلى معسكر النجومي، وهناك خاطب كل قواته ووجههم للهجوم بقوة وعزم ولا يخافوا من شيء إذ أن من يقتل منهم ستكون الجنة مأوى له. وطلب منهم القيام بالهجوم في باكورة الفجر، وعدم قتل غردون مهما كان السبب. ثم عاد (مع بعض رجاله) لام درمان.

وصباح اليوم التالي، أو بالأحرى بعد ساعة ونصف من منتصف الليل، غادرت قوات ود النجومي الكلاكلة. تم تقسيمها لقسمين: القسم الأول يقوم بمهاجمة الخطوط (الدفاعية) بين النيل الأبيض وبوابة المسلمية، والتي كان معروفاً بأن النيل قد دمر جزءاً منها، أما القسم الآخر فعليه شن الهجوم باتجاه بري. أما إذا نجح الهجوم على النيل الأبيض فقد اتفق على تعديل اتجاه هجومه ليقوم بالاندفاع وراء القسم الأول من القوات والاشتراك معه. وهذا ما حدث بالفعل. فقد تقدم بعض من المسلحين بالبنادق لمناوشة المدافعين وشغلهم بينما اندفع وراءهم عند ضخم من حملة الرماح والسيوف وتلام، من خلفهم، بقية حملة البنادق. أما الفرسان على الخيول والهجن فكانوا على الأجنحة الخلفية وبالمؤخرة.

كانت الأوامر قد صدرت بأن يتم الزحف في صمت وسكون بقدر الإمكان حتى يقتربون تماماً من التحصينات، ولا يبادروا بالهجوم إلا بعد إطلاق الجنود النار عليهم من وراء الخطوط. حمل كثير من العرب معهم حزاماً من القش أو العناقريب لإستخدامها، بإلقائها في الخندق إذا ما كان أعمق من أن يعبروه بيسر. استمر الزحف في صمت عميق حتى اقتربوا من الدفاعات، فقد كانت الأرض هشة وأقدامهم حافية. ثم وصلوا للخندق أخيراً. وعندما راوا أنه ممتلئ جزئياً (بالبطين) وأن المتاريس

* (مع كل قواته). هكذا كتب المؤلف، وقد صححناه (المعرب).

الدفاعية محطمة، لم يتردد العرب للحظة بل أطلقوا صيحات الحرب واندفعوا مقتحمين للخندق وللمتاريس وسقط كثيرون منهم تحت الإقدام عندما تعثروا. أطلق عليهم المدافعون بضع طلقات ولكن، وفي ظرف دقائق معدودة، كان كل شيء قد إنتهى. وعندما رأى الجنود انقضاء العرب عليهم بذلوا مقاومة ضئيلة وقتل البعض منهم بينما فر الباقون. وبعد أن أحكم العرب قبضتهم على هذا الجزء من الخطوط، اندفعوا على طول الخطوط الدفاعية، من الداخل، ولاقوا بعض المقاومة من أماكن مختلفة، في الوقت الذي تدفق فيه سيل من العرب الذين لازلوا منصبين من نفس المكان الذي تم فيه الهجوم الأول، واندفعوا نحو داخل المدينة. وعندما رأى فرج باشا، الذي كان ببوابة المسلمية، ألا فائدة من القتال - فقد كان الآلاف من رجالنا قد اخترقوا الخطوط في ذلك الوقت - أصدر أوامره لرجاله لإيقاف إطلاق النار ثم قام بفتح بوابة المسلمية وسلم نفسه. دخل عدد من العرب من خلال البوابة المفتوحة كما هرب من خلالها عدد كبير من الجنود وسلموا أنفسهم. عند ذلك الوقت لم تكن للمقاومة أية جدوى لأن هجوم النجومي على الجزء المدمر من المتراس كان ناجحاً تماماً. وأصبحت الخروطم بعدها في قبضتنا، وإقتحم العرب المنازل وكانوا يقتلون وينهبون ويسلبون أي مكان. ووصلت مجموعة صغيرة من العرب للقصر واقتحموه ثم اندفعوا على الدرج المؤدي لغرفة غردون باشا ووجدوه واقفاً على جانب باب المكتب الموجود في أعلى السلم. سألهم عن يكون قائدهم، لكنهم لم يعيروا اهتماماً لسؤاله. وأندفع واحد منهم نحوه وطعنه بحربة ثم تلاه الآخرون وسرعان ما قتل. حدث قتله قبل شروق الشمس مباشرة وكان من قتله مجموعة من رجال ود النجومي، لكن النجومي لم يكن معهم في ذلك الوقت، بل جاء بعد وقت قصير وغضب غضباً شديداً عندما رأى أن رجاله هم الذين قتلوا غردون، وأمر بجرجئته إلى الحديقة حيث تم قطع رأسه ولفسه في منديل وأحضره للمهدي. ولقد رأيت الرأس عندما أحضر للمهدي بعد حوالي ساعة ونصف من شروق الشمس. وظل جسد غردون ممدداً بالحديقة طيلة ذلك اليوم وقد جاء عدد كبير من العرب وطعنوا الجثة بحرايبهم. وسمعت في اليوم التالي أن الجثة قد أُلقيت في أحد الآبار. أما جثث الذين قتلوا بالقرب من النهر فقد رمي بها في النيل الأزرق ولكن الذين قتلوا بعيداً عنه فقد أُلقيت جثثهم في الآبار.

وبعد قطع رأس غردون، جمع النجومي رجاله على شاطئ النهر بالقرب من القصر وسألهم عن قتل غردون. خرج أحد العرب من الصفوف وقال: "إنه أنا" فقد ظن أنه سيكافأ. لكنه عاد فأنكر ما قال عندما علم بأن مقتل غردون هو عصيان لأوامر المهدي. مع ذلك أخذ ذلك الرجل للمثول أمام المهدي ودافع عن نفسه بأنه كان مجرد واحد من عدد من الرجال الذين هاجموا غردون في أعلى السلم. وقد عفي المهدي عنه* وبقدر ما أعلم فإن غردون قد قتل من جراء طعنات الرماح والسيوف فقط. ولم أسمع أبداً أنه بذل أي مقاومة. لقد فوجئ بالهجوم عليه من قبل رجال متوحشين لا يعرفون الإحباط. وقد قتل كل خدمه وأهل قصره بنفس الطريقة. لم تكن المقاومة مجدية، وإضافة لذلك فقد

* أحد العائدين من الخروطم أفاد بأن غردون قد قتل بواسطة أولاد مك السعداب، الذين تقطن قبيلتهم (الجزان) على شاطئ النيل الأبيض، جنوب أم درمان مباشرة، وذلك انتقاماً لمقتل أحد رجال قبيلتهم الذي كان غردون قد أمر بإعدامه باعتباره جاسوساً. كما أفاد آخرون بأن من قتله هم موسى أغا تاي الله وعلي ود رحمة، من قبيلة الجميعاب، وأنهم قتلوا غردون انتقاماً منه لمقتل سليمان الزبير، ابن للزبير باشا. لكن الإفادات المؤيدة لما ذكره الأمير مضوى هي الغالبة.

كان الظلام حالاً وقتها ويبدو أنه لم يتم سوى قتال بسيط لأنه لم يقتل في القصر من العرب إلا رجل واحد. لم تبد حاميات توتي ورأس راسخ أي مقاومة، عندما شاهدوا احتلال الخرطوم واستسلموا كلهم.

استمرت المذابح في المدينة لحوالي ستة ساعات ويبدو أن حوالي أربعة ألف شخص قد قتلوا فيها. وقتل القتل هاتزل في منزله لكن القتل نيكولو وإبراهيم بك فوزي، سكرتير غردون باشا، أخذاً أسيرين.

وبعد يومين من ذلك (يوم ٢٨) رأينا البواخر مقتربة من الخرطوم وفتحنا النار عليهم. لكنهم واصلوا إبحارهم حتى الركن الجنوبي الغربي لجزيرة توتي، وذلك في حوالي الحادية عشرة صباحاً. وعادوا أدرجهم بعد أن شاهدوا الخرطوم في قبضتنا. لقد أنتوي المهدي أن يرغب غردون على الاستسلام من خلال الجوع - فقد كان يخشى الهجوم على الخرطوم بعد فشله من قبل في اقتحام الأبيض - ولو لا نصيحة عبد الكريم لكان قد قام بفك الحصار، فقد كان يعلم بأن مجرد وصول باخرة واحدة، عليها جند الإنجليز، سيعمل على إستعادة رجال الحامية لشجاعتهم مما سيسبب فشل هجومه.

أما فرج باشا فقد أخذ أسيراً إلى خارج المعسكر. وبعد ثلاثة أيام قام أحد خدمه السابقين بقتله إنتقاماً لنشئ كان قد فعله له قبل زمن طويل. لم يقتل بأمر من المهدي ولم يكن قد خان المدينة أو فتح بوابة المسلمية إلا بعد أن صارت الخرطوم في قبضتنا بالفعل.

هذا ما جاء في إفادة أحد المحاصرين البارزين، وهي مطابقة حتى في أدق تفاصيلها تقريباً بما جاء في أقوال الكثيرين من الأسرى العرب وغيرهم من الذين وصلوا لمصر قادمين من السودان. نعود الآن للأحداث التي جرت في ذلك اليوم المشنوم من صباح الإثنين السادس والعشرين من يناير، حيث نتابع وصفاً دقيقاً لما جرى وذلك من واقع الشهادة التي تم الحصول عليها من وقائع المحكمة العسكرية التي إنعقدت في القاهرة في يونيه ١٨٨٧، والتي أضفنا بعض ما جاء بها إلى ما سبق سرده من إفادات (شهود العيان).^{**}

* الأسلوب الذي استخدم للحصول على إفادات الذين كانوا بداخل الخرطوم، والذين كانوا يحاصرونها، قد يساعد القارئ، كما نأمل، في تكوين فكرة عن مدى دقة التفاصيل التي تم وصفها. تم وضع كل إفادة باسم شخص واحد فقط - بورديني بك والأمير مضوي - ولاشك في أن النقد المحتمل القائل بأن من غير الممكن لأي واحد منهما أن يكون في موقف يصف فيه بطريقة موثوقة كل الأحداث المذكورة في إفادتهما المتعددة، هو أمر صحيح تماماً، لقد تم إختيار هذين الشخصين لأنهما، بشهادة الجميع، أكثر الرجال معرفة بالوقائع ومن أكثر من يعتمد على مصداقية أقوالهم من الرجال الذين وصلوا لمصر حتى وقتنا هذا. لقد تم تدوين إفادتهما عن التجارب الشخصية التي مر بها بدقة في المقام الأول. أما تفاصيل الأحداث التي لم يشارك فيها الراويان بنفسيهما فقد تم تأييدها أو نفيها، في حضورهما، بواسطة اللاجئين أو أسارى العرب الذين يدعون بأنهم كانوا شهود عيان لها. من هنا تم الحصول على ما نعتقد، على نتائج دقيقة وصحيحة لحد كبير. وحتى نتجنب الخلط أو الإستطراد الذي ينجم عن تعدد الإفادات ومقارنتها وفحصها، التي حصلنا عليها من العديد من الأفراد، فقد أجمال الكاتب إفادات المحاصرين والمحاصرين كلها في شخصين فقط علماً بأن الذين دونا إفاداتهم لا يفتنون عن الخمسين شخصاً. وفي نفس الوقت يجب أن يكون واضحاً بأن الشخصين الذين ظهرت الإفادات تحت اسميهما قد اتفقا على صحة ودقة كل ما جاء بهما.

** الوقائع الكاملة للجلسات، ذات الأهمية الكبرى، والتي توضح الظروف الحرجة التي سقطت فيها الخرطوم، وأحوالها عند ما هوجمت، مرفقة كاملة في الملحق المدرج بآخر القسم السادس من الكتاب.

فقد هرب حسن بك بهنساوي، قائمقام وقائد الكتيبة الخامسة، من السجن بعد سقوط الخرطوم. وبعد أن مر بسلسلة من المغامرات المحفوفة بالمخاطر وصل للقاهرة. وهنا تم تقديمه لمحكمة عسكرية، لأن كتيبته هي التي كانت تسيطر على النصف الغربي من خطوط الدفاع، أي ذلك الجزء من الإستحكامات التي كانت أول ما أفتحمه العدو.

تم توجيه ثلاثة تهم إليه، لكن التهمة الرئيسية كانت تتلخص في قيامه بتسليم موقعه للعدو بخيانة. كانت الشهادة التي سجلت أمام هذه المحكمة ممتازة حقاً. فقد صورت مجرى الأمور داخل القلعة بوضوح وأضافت مصداقية لوصف الأمرأ لما حدث وراء الخطوط. كانت لهذه المحكمة العسكرية أهمية لا توجد في بعض المحاكمات العسكرية الأخرى. فهي لم تكن محكمة من ضباط كرماء، يحققون في أداء ضابط زميل، في ظروف بالغة الصعوبة. لأن مبالغ ضخمة معلقة على ما ستوصل إليه المحكمة. فالموقف كان كالاتي: فإذا ما كان الضباط والجنود الذين يصلون يومياً من السودان قد قاموا بواجبهم، فأنهم يستحقون المعاشات والدفعيات المقسطة طويلاً. أما إذا ثبتت تهم الخيانة أو الإهمال عليهم فلن يصبحوا من المستحقين لأي تعويض أو معاش. حرص كبار موظفي وزارة المالية على حماية (أموالهم) من أي تحيز (من جانب المحكمة العسكرية لصالح زميلهم الضابط). وضمناً بأن الأمر سيتم إنزاله للحد الأدنى، بل كانت لديهم حماسة غير عادية في وقوفهم ضد الضباط والجنود. بل إن واحداً من المرووسين بالوزارة، ممن يتميزون بالكفاءة، وبخ توبيخاً قاسياً، لاستماتته في الدفاع عن خزينة وزارته المجاهدة، وذلك من المحكمة التي كانت تنتظر في مطالبه نصحي باشا، قمندان بواخر غردون، بالتعويض.

وضعت خريطتان للخرطوم أمام المحكمة العسكرية التي حاكمت حسن بك بهنساوي. ولم يتردد المدعي العام، عند وضع خطة الادعاء. من تحريك موقع قلعة المقرن من مكانها الأصلي على الشرق من أم درمان، وذلك بزحزحة الموقع لميلين جنوباً ووضعها، في الخريطة المقدمة للمحكمة، في الطريق الذي دخل منه العرب (في مدخل الخندق الغربي)، وعلى اتصال مع القوارب الموجودة على نهر كان ينحصر يومياً لعدة ياردات. بل أن أحد الأقوال التي جاءت معززة لتهمة الخيانة ذكرها كاتب سابق في خزينة الخرطوم. لقد ذكر الكاتب بأن حسن بك بهنساوي قد تلقى مخصصاتاً (مالية) من المهدي. لكن الدليل الحاسم على عكس ما ذكره الكاتب تمثل في أن حسن بك قد ضرب ضرباً مبرحاً، مثلما تم الاستيلاء على نسلته وبناته ووزعن كجوازي للمهدي وضباطه.

وخلص الميجر أوين كيرك إلى أن ممثل الادعاء قد فشل في تقديم أي دليل، أو إثبات صحة أي كلمة ضد المتهم. لذلك برأت المحكمة المتهم ووصفته بأنه جدير بالاحترام. والملاحظات التالية ستلقى الضوء على أقوال الشهود أمام المحكمة العسكرية. وسنوردها كما جاءت في الوقائع الرسمية للمداولات:

فالخطأ الذي جاء في واجهة (يوميات الجنرال غردون في الخرطوم) هو خطأ متعلق بموقع قلعة المقرن. ورغم أنه خطأ واحد إلا أنه ذو أهمية بالغة وهو ما كان كافياً تقريباً لإثبات تهمة الخيانة (علي حسن بك)، لأن من المعروف أن العرب قد دخلوا الخرطوم من نهاية الخط الدفاعي (الخندق)، حيث تقع قلعة المقرن (المجرم) كما جاء بالخارطة التي إستخدمها الإدعاء، ولابد أن العرب قد إخترقوها أو دخلوا من مكان قريب أو ملاصق لها. فهذه الخارطة تظهر قلعة المجرم في مكان سنشير إليه بالموقع (أ). لكن الموقع الحقيقي لقلعة المجرم سنشير إليه بالموقع (ب).

لم يتمكن ناشر "يوميات غردون"، بعد وفاة السير هنري غردون، من الحصول على أي معلومات خاصة بصحة ودقة تلك الخارطة التي ربما تم رسمها من خارطة مصغرة كانت بغرفة الخرائط الحربية، تحت الرقم ٣٨١، وعليها ملحوظة "روجعت في يونيه ١٨٨٥". لم يبق أحد بالتدقيق في تلك الخارطة المصغرة لأن تصنيف الكتاب تم في عجلة درجة عدم وجود أي قائمة للمادة المستخدمة (المراجع) فهنا نجد أن قلعة المجرم تحتل موقعها تماماً كما جاء في صدر الكتاب، وقد وضعت على حافة النيل، وعند ارتفاع النيل فسكنون داخل عدة أقدام من المياه ولا بد أن تكون كجزيرة على النيل. لاشك إذن في أن هذا الموقع مستحيل الحدوث. ولقد تم استجواب عدة شهود عما إذا كانت هناك قلعة تسمى "المجرم" بخلاف قلعة "المقرن" وقام كل من خشم الموس ونصحي والأمير مضوي ومصطفى باشا ياور وإبراهيم بوردين بك برسم، ليس واحدة، بل عدة خرائط وفي عدة مرات. وكانت أقوالهم كاسحة بأن ليس هناك سوى قلعة واحدة تسمى قلعة المقرن ومكانها في الموقع (ب)، وأنه لم تشيد أبداً قلعة في الموقع (أ).

ولقد أوضح مصطفى باشا ياور في أقواله، التي شرح فيها أصول الكلمات من ناحية لغوية، ساخراً من نظرية أن المقرن قد يكون في مكان آخر بخلاف الموقع (ب). فجنز الكلمة "قرن" تعني وصل شيء بآخر، أو "هو ربط" فالمقرن هو مكان الإرباط، والمقرن هو العود الذي يوضع على عنقي ثورين، ومقرن البحرين هو مصطلح شائع في جغرافيا العرب ويعني اقتران أو التحام نهريين سوياً. وتظهر الخارطة المصرية لتحسينات الخرطوم، التي وضعها عبد القادر باشا والمؤرخة ١٨٨١، الموقع (ب) باسم المقرن. وليس هناك أي قلعة في الموقع (أ) والذي جاء في تعليق عليه بالخارطة "بأنه عرضة للغمر بالمياه". وهناك خارطة أخرى لمكتب الحرب بالتمرة ٣٣٢ مؤرخة ديسمبر ١٨٨٣ بها خارطة مصغرة مرفقة بها عن الخرطوم موضعاً عليها أقساماً من التحسينات والارتفاعات والأبعاد. ولم تظهر قلعة "المجرم" تماماً في هذه الخارطة كما لم تظهر بها قلعة المقرن أيضاً. وقد وصف الشهود الذين ذكرناهم من قبل المقرن بأنه يبعد بحوالي عشرة دقائق مشياً من النيل الأزرق وأن فيضان النيل الأبيض عند قمته يغمره. بالتالي لاشك في أن تلك القلعة تقف على موقع "مقرن البحرين" أو مقرن النيلين. ويمكن تأييد هذا القول من يوميات غردون. ففي صفحة ٣٤٠، من الطبعة الأصلية، ذكر بأن "الحسينية راسية بالضبط بين النيل الأبيض والأزرق". وفي صفحة ٣١٨، أبقى غردون من قصره إلى "المجرم" ليعرف حالة الحسينية.

أما خشم الموسى فقد وصف وصوله مع السير تشارلس ولسون في ٢٨ يناير بقوله: "استمر العدو في رمينا بالنيران حتى وصلنا للحلفاية. كما تم ضربنا أيضاً من توتي والمقرن".

* لقد جاءنا للتو تأكيد لافت للنظر خاص بهذه النظرية وذلك في شكل رسالة، لم تبرق، من المستر باور، مراسل التاييمس بالخرطوم، إلى المستر موبيلي بل، مراسل التاييمس في مصر، وحقواها كالتالي:
..... ولدينا، إضافة لخطوط التحسينات، أربعة مراكز محصنة هي: المقرن، في مقرن النيلين، وأم درمان، في مقابلتها - على الشاطئ المقابل -، ومنزل محصن بالنيل الأزرق في مواجهة القصر، وبري، وهي قرية محصنة على أقصى يسار ** خطوط التحسينات..... وتشكل هذه الرسالة جزءاً من المراسلات التي لم تصل إلي القاهرة إلا في عام ١٨٩٠.

** الصحيح أقصى يمين خطوط التحسينات (المغرب).

This map was used by the "Prosecution" in the General Court Martial on Hassan Bey Dahmascawi

وهناك خارطة أخرى، في الصفحة التالية، هي صورة طبق الأصل من الخارطة التي استخدمها "الدفاع" في تلك المحاكمة.

ومن تفحص مداولات المحاكمة العسكرية تلك، سنجد أن قصة كل الأحداث التي رويت فيها ستقودنا، فيما يبدو، إلى إستنتاج واحد يمكن تلخيصه في كلمات قليلة ليس غير.

فنحن نعرف تأثير معركة أبو طليح على أولئك الذين كانوا داخل الخرطوم وخارجها، حيث عرفت أخبار إنتصار الإنجليز في العشرين من يناير. وعم الإحباط العرب على ضفة النيل الغربية من جراء طول فترة الحصار الذي ضربوه وعدم جدواه وقلة المؤن وتطلعوا للإسحاب بعيداً. لقد سحقتهم معركة أبو طليح. وانعقد مجلس للأمرء وكان أول قرار توصلوا إليه هو إعلان تحقيقهم النصر. وأطلقت ١٠١ طلقة مدفع. قرر محمد أحمد الإسحاب فوراً لكردفان وكان القرار أن يحصل على إجماع من حضر المجلس خاصة بعد أن أشار المهدي إلى أن إستلام مدينة متصورة من الجوع يعد نصراً فارغ المحتوى. فأن تحتلها اليوم وتصد فيها ثم يتم حصارك بداخلها، بدون مؤن، بواسطة الإنجليز، سيكون عملاً إنتحارياً وأخرق.

ثم وصل الرسل من القبة وأعلنوا أن الإنجليز لم يغادروا المنطقة بعد. نسيت هزيمة أبو طليح في الحال وعادت الثقة إلى النفوس. إذ أن الإنجليز هم الذين هزموا. لذلك تم الاتفاق أخيراً على أن الذين في الجنوب، وهم أبو قرجة والنجومي، أن يقوموا بمحاولة أخيرة. فإذا ما نجحت فهذه مشينة الله. أما إذا ما فشلت فيجب رفع الحصار. فقد كان النجومي يرصد هبوط منسوب النيل شيئاً فشيئاً، وتصلب الطمي (الناجم عن انحسار النيل) تدريجياً، ويعرف حالة العساكر المنتشرين على الخطوط بأرجلهم المتورمة وأجسامهم المنتفخة من أكل الصمغ وشرب الماء.

وداخل المدينة كان الناس يحملقون عبر النهر محاولين قراءة ما يشاهدونه من علامات. فمن جهة تحية النصر (بإطلاق ١٠١ طلقة مدفع) ومع ذلك فهناك حشود من النسوة المنتحبات حول أم درمان لكن تلك التحية لم تعني الكثير. ففي ذلك الحصار الطويل تمت تجربة أي حيلة أو خدعة لدرجة بالغة التكرار. فلعدة شهور كانت تطل من استحكامات غردون دمي تشبه الجنود، وهي خدعة فتحت باب الحديث عن قبعات عسكرية بريطانية مرفوعة على رؤوس الحراب. لكن الذي كان واضحاً هو أن معركة قد تم خوضها، وأن غردون، الذي لم يخدم رعاياه أبداً قال يوم الثلاثاء "سيكون البريطانيون هنا غداً". ولم يحضر أي إنجليزي. وقال يوم الجمعة "لا بد أن يكونوا هنا غداً" أما يوم السبت فقد قال الناس "أن غردون نفسه يائس. إنه يكذب علينا". وجاء يوم الأحد ومضى. وقال الناس "لقد إنتصر العرب في أبو طليح وإلا لكان الإنجليز هنا".

وظلت صلوات غردون تنصب على تلك البواخر والتي بدأت الآن الزحف ببطء للأمام. ثم جاءت النهاية.

LA CHUTE DE KHARTOUM

PROCÈS DE HASSAN BËY BEHMASSIOU

CROQUIS

PRÉSENTÉ PAR LA DÉFENSE

Devant la situation de Hertenau, de ses frères, de la ligne de chemin et des positions des Kahlstedt

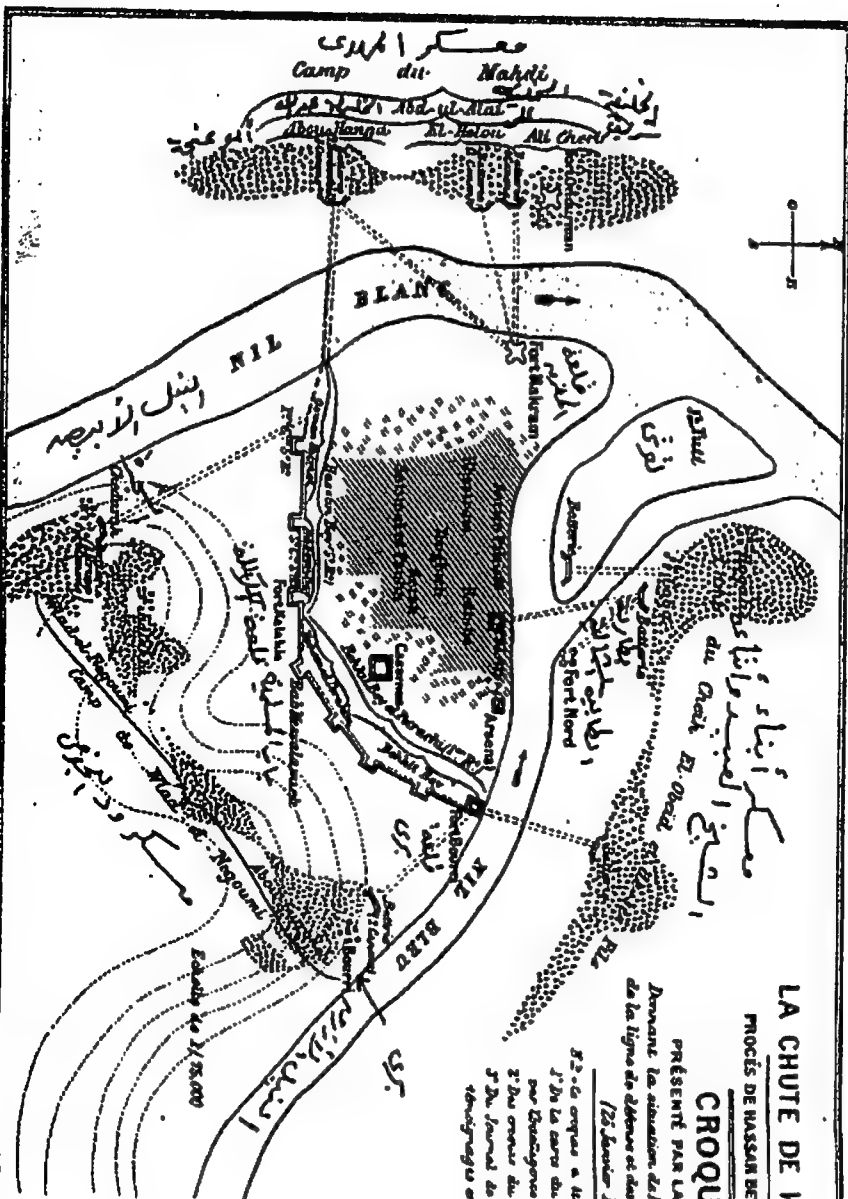
(26 Jan 1885)

8-2-6 copias a los señores de la

J. In la casa da Sander Eyrion dabbis

Des témoignages bravaux des Noyers d'Afrique

2 Les autres du journal du comte
3 Du Journal de Gordon et des
4 Roumages accordés par la Cour.



وبدأ النيل الأزرق يأكل ضفته الغربية والتي قويت حافظتها صناعياً. أما النيل الأبيض فبدأ يلتهم ضفته الشرقية. وعلى نواحي الخرطوم فإن الضفة عبارة عن منحدر منبسطة يتراجع عنه النيل، أو يغمره، مثلما يحدث بالسهول الرملية على شواطئ أسوان. ويفصل ما بين الخرطوم والاستحكامات سهل منبسطة تتأثر عليه المقابر ومخازن البارود والسلخات. وكان هذا السهل بالذات هو الذي امتلأ، في عتمة فجر السادس والعشرين، بالعرب والذين لم يكن معظمهم يحمل من السلاح سوى الحديد العاري، والذين اندفعوا عبر الطين والوحل الذي ملأ الضفة المتراجعة والخندق المسدود الذي كان قد حفره دي كوتلوجون. لم يواجهوا سوى مقاومة خفيفة عند نقطة الهجوم وبعدها تدفقت جموعهم من خلف الجنود المتضجرين والذين كانوا يرمقونهم بعيون مرهقة من فوق المتراس. فسي بعض المناطق تم بالفعل عمل مربعات عسكرية لكن سرعان ما توقفت كل أنواع المقاومة. وأدفع العرب المتوحشون نحو المدينة يذبحون وينهبون ويقمعون لساعات ستة ثم انتهى بعدها كل شيء. ومن بين الأمراء الذين حاصروا الخرطوم النجومي، الذي قتل (فيما بعد في توشكي)، وأبو قرجة، الموجود الآن بطوكر، والأمير مضوي، الذي كان أول من بدأ ضرب الحصار وقاد قوات (الثوار) في الضفة الشرقية (للنيل الأزرق) حتى النهاية، وهو الآن في القاهرة.

لقد إنتهت الرواية الآن. فعن الخيانة، لم تكن هناك خيانة. الذي حدث هو أن ذلك النهر المتوحش قد ملأ الخندق بالطين ثم تراجع. كان السباق شريفاً. وكانت النجدة في متناول اليد، لا تفصلها عنهم سوى مائة من الأميال. لكن الجوع واليأس المخيم هما اللذان حسما الأمر.

وقال الشاعر تيسون في قصيدته بعنوان "إلى قبر غردون"، والتي صدرها بعبارة لغردون يقول فيها: "من الأفضل أن أموت عن أن يتم إطرالي".

لقد مات بجانب الذين عاش من أجلهم. "ويلاده، التي صحيت بعد فوات الأوان. توجت جبينها الميت بالثناء. "وهو، تحت الأزرق الذي يحترق فوق الصحراء الليبية، تخلص من عبء أمجاده السالفة. وهناك صارقوياً بموته، مجدداً لفشله. "أوه! أبداً لم يكن فخوراً في حياته، " لكنه رقد في قبره مكللاً بالفخر".

تيسون

* ألفرد تيسون، شاعر من شعراء الإمبراطورية البريطانية المرموقين. ولد مات في سن الثالثة والثمانين من عمره، عام ١٨٩٢. بعد أن كتب الآلاف من القصائد ونشر عشرات الدواوين. وقد نال رتبة البارونية عام ١٨٨٤ (المغرب).

وعندما بلغت أنباء سقوط الخرطوم اللورد وولسلي في كورتى، تقرر أن يقوم طابور الصحراء في القبة، والذي يقوده الآن الجنرال بولر (الذي أرسل ليحل محل السير هيربرت ستوارت الذي كان قد جرح جراحاً خطيرة) بالاستيلاء على الممتدة ومنها التقدم نحو بربر، ليتم تنسيق الجهود بينه وبين طابور النهر الذي يقوده الجنرال إيرل، ومن ثم يقومان بتأمين الإستيلاء على ذلك المركز الاستراتيجي الهام. كانت المهمة الرئيسية الموكلة للطابور الأخير - قبل أن يعرف نبأ سقوط الخرطوم - هي في الإندفاع إلى أبو حمد لفتح طريق الإمدادات بينها وبين كروسكو، والتي كان منتظراً فيها الملازم رندل ومعه قافلة من الجمال الجاهزة لنقله متى تم الإستيلاء على أبي حمد.

وكان علي إيرل بعد ذلك التقدم نحو بربر ليعمل على الإسراع بقدر المستطاع في دفع المؤن والإمدادات لطابور الصحراء المتجه للخرطوم. ولكن، وبوصول أخبار سقوط الخرطوم، توقف طابور النهر، الذي كان وقتها في منتصف الطريق إليها، في بلاد المناصير، حتى يتم اتخاذ قرار بخصوص العمليات القادمة. وفي السابع من فبراير أرسل القرار بالإطاحة بسلطة المهدي في الخرطوم إلى اللورد وولسلي، ومن ثم أرسلت التعليمات للجنرال إيرل للتقدم نحو أبو حمد وينتظر هناك تعليمات جديدة. وفي العاشر من فبراير نشبت معركة كبرى كان الناجحة، ولكن التي فقد فيها اللورد إيرل حياته. من ثم تحولت القيادة إلى الجنرال براكنبري.

ثم تقدم الطابور نحو أبي حمد، ودمر في طريقه إليها ممتلكات سليمان ود قمر وفكري ود عثمان، قتلة الكولونيل ستوارت. ولكن، وفي الرابع والعشرين من الشهر، عندما كانوا علي بعد ثلاثين ميلاً من أبي حمد، وصلتهم تعليمات من اللورد وولسلي، تفيد بأنه نظراً لانسحاب طابور الصحراء من القبة باتجاه الجندول، فإنه قد ألغى كل الخطط للوصول لبربر قبل الخريف. وأن عليهم الرجوع إلى مروي بكل القوات. قام الجنرال براكنبري بتنفيذ هذا الإنسحاب في الخامس من مارس.

وبعد أن ترك حامية صغيرة في مروي تحت قياد الكولونيل بتكر، انسحب مع بقية قوات الطابور إلى كورتى والتي وصلها في الثامن من مارس. وأثناء ذلك ظل طابور الصحراء، الذي كان مقرراً له التقدم نحو بربر، بعد احتلال الممتدة، في القبة عشرة أيام بعد عودة السير تشارلس ولسن لها. وتم إرسال السير آر. بولر إفلين وود إلى القبة لسحب النقاط الصحراوية بعد مغادرة السير. بولر ولكن بعد عودة الأخير إلى الجندول جاءت معلومات من الجنرال بولر بأنه نظراً لورود معلومات تفيد بأن جيشاً قادماً من الخرطوم نحوهم، والتي إن صحت فستجعل الوضع بالنسبة له في غاية الصعوبة وبالأذات من ناحية قدرته على الحفاظ على خطوط إمداده واتصاله، وأنه قد اضطر للإسحاب لأبي طليح والتي وصلها في الخامس عشر من فبراير. ومن هنا فإنه كان يأمل في التقدم نحو بربر أو الإنسحاب إلى مروي حسب الأوامر. ولكن الإتهيار التام للجمال ولحملة النقل، بسبب الضغط الرهيب الذي وقع عليهم في العمليات الأخيرة، جعلت عملية زحفه نحو بربر أمراً غير وارد. لذلك تقرر الإنسحاب الشامل صوب النهر إلى كورتى أو مروي. ومن موقعه بالجندول، أرسل السير إفلين وود قوافل من الجمال لتمكين الجنرال بولر للقيام بالإنسحاب من أبي طليح، والتي كانت في ذلك الوقت تحت حصار جزئي ضربه العدو عليها. وفي الثالث والعشرين من فبراير غادر الطابور أبو طليح ووصل إلى الجندول يوم السادس والعشرين. ثم توجه السير. بولر الآن إلى كورتى وأوكلت مهمة سحب الطابور

إلى السير إفلين وود. ولكن نظراً للإجهاد الكامل لحملة النقل فإن كل القوات لم تصل إلى كورتى إلا في السادس عشر من مارس.

ثم تم توزيع طابور النيل الآن بين مروي وتانى والدبة وكروت ودنقلا حيث تم اختيار مصكرات مناسبة لهم واتخذت كل الترتيبات لحماية القوات من الفصل الحار القادم.

وأثناء ذلك تم التخطيط لحملة أخرى لسواكن. بهدف القضاء على عثمان دقتة، واحتلال ديار الهندوة، وإنشاء خط للسكة حديد يمتد حتى أرياب، ثم بعد ذلك التجهيز لفتح طريق بربر - سواكن والذي سيبدأ الشروع فيه بعد إحتلال طابور النهر لبربر.

هذا وسنتحدث عن عمليات قوات سواكن الميدانية، بقيادة السير ج. جراهام، في الباب الخاص بأحداث تلك المنطقة وما حولها التي جرت في عام ١٨٨٥، أما عن التحركات التي قام بها طابور النهر بعد ذلك فمترد عند وصف الأحداث على الحدود المصرية خلال تلك السنة.

ملحق القسم السادس (سقوط الخرطوم) وقائع محاكمة

الأميرالاي حسن بك بهنساوي، قائد اللواء الخامس، أمام المحكمة العسكرية العامة، التي انعقدت في القاهرة بتاريخ يونيه ١٨٨٧. والأميرالاي حسن بك كان قائد تلك المنطقة من تحصينات (خندق) الخرطوم، والتي كانت أول ما دخل منها الثوار للخرطوم. وقد إتهم بأنه إرتكب خيانة بتسليمه تلك المنطقة للعدو.

شاهد الإدعاء الأول عبد القادر بك حسن:

بعد أن أدي القسم، بدأ المدعي العام باستجوابه. وكان قد ذكر بأنه كان بالخرطوم، بالتحصينات المقامة على النيل الأبيض. وأن الكتيبة الأولى كانت بالجهة الغربية منه، وطابية المقرن من خلفه، وكان بها بعض الجنود ثم بدأ المدعي العام في استجوابه:

س - كم عددهم؟

ج - حوالي عشرين أو خمسة وعشرين من الباشبوزوق معهم مدفع واحد.

س - هل كانت هناك أي زوارق علي النيل الأزرق؟

ج - لم يكن هناك أي زوارق بالنيل الأزرق. ولكن بالنيل الأبيض كانت هناك بعض الزوارق والجنود المسلحين ببنادق رمنجتون.

س - كم عدد العرب الذين إفتحوا المدينة؟

ج - ربما كانوا ٥٠٠٠٠.

س - هل قتل من رجالنا عدد كبير فوق التحصينات؟

ج - نعم كثيرون ولا أذكر العدد بالضبط.

س - كم بقي منهم أحياء؟

ج - حوالي ١٠٠٠.

س - كم كان عدد القوات بالتحصينات؟

ج - كانوا ٩٠٠٠ في المبدأ. وفي النهاية لم يبق منهم سوي ٥٠٠٠

س - كم بلغ عدد المدافع التي علي التحصينات؟

ج - حوالي ستة بين النهرين. بعضها جبلي وواحد كروب وواحد ميداني.

س - في أي يوم سقطت الخرطوم؟

ج - يوم الإثنين ٢٦ يناير ١٨٨٥، الساعة التاسعة صباحاً، وبالتوقيت العربي الثالثة صباحاً.

س - في أي مكان من التحصينات قتل أغلب الجنود؟

ج - في الجانب الغربي، مكان الكتيبة الأولى، الفوج الخامس.

س - من كان القائد المسئول؟

ج - فرج باشا.

س - ماذا كان يقوده حسن بك بهنساوي؟

ج - كان يقود الفوج الخامس. أما الفوج الأول فيقوده بخيت بك.

س - أي كتائب، سرايا .. إلخ كانت تحت قيادته؟

ج - لقد كان قائداً عاماً.

س - من أين دخل العرب؟

ج - من مكان خال بين الكتيبة الأولى والزوارق التي على النيل الأبيض.

س - من كان الضابط الذي يقود الكتيبة الأولى - الفوج الخامس؟

ج - يوسف أفندي عرفت.

س - ماذا فعلت الزوارق عندما دخل العدو بينها وبين الكتيبة؟

ج - أطلقوا النار على العدو.

س - وماذا فعلت طابية المقرن؟

ج - أطلقت النار.

س - كم كان العدو يبعد عنكم حينما شرع في الهجوم؟

ج - لم أشاهد شيئاً. فالوقت كان ليلاً.

س - هل هاجمكم العدو بالحديد (السلح الأبيض) أم بدأوا بإطلاق النار؟

ج - أطلقوا النار قليلاً. أما الباقون فهجموا بالسلح الأبيض.

س - وماذا حدث للأسلحة والذخيرة عندما دخل العدو؟

ج - لقد إستلموها كما هي.

س - ألم تكن لديكم أوامر بالتجمع في أماكن الخطر؟

ج - لا.

س - من الذي يقال بأنه تسبب في سقوط الخرطوم؟ (ورفضت المحكمة هذا السؤال).

س - من الذي أمر بفتح بوابات الخرطوم؟

ج - لا أدري. لكنني سمعت بأن فرج باشا فعل ذلك، وكذلك بهنساوي بك.

س - كم بوابة كانت بالتحصينات؟

ج - بوابة واحدة تحت إمرة فرج باشا. ولكن على النيل الأبيض كانت المنطقة مفتوحة.

س - هل تم أي إتصال أو تراسل مع العدو؟

ج - نعم بعض الشيء.

س - ممن؟ وإلى من؟

ج - من عثمان الملتزم وعبد الله ود الصليح والقاضي والمدير أحمد علي الجلاب - ١٨ شخص في

مجموعهم.

س - هل ظلوا بالمدينة؟

- ج - دخلوا السجن لفترة ثم أطلق سراحهم.
- س - هل شاهدت بأمر عينك حسن بك بهنساوي وهو يقفز خارج التحصينات تاركاً رجاله؟
- ج - عندما اندفع العدو من ناحية الغرب وهو يقتلنا، يقال بأن حسن بك قد فُقر من فوق الخندق. لكنني لم أراه.
- س - يوم سقوط الخرطوم: هل كان بها عدد كبير من الأهالي؟
- ج - نعم كثير. ربما حوالي ٣٠٠٠٠ شخص.
- س - هل رأيت حسن بك بهنساوي بعد ذلك كسجين؟
- ج - نعم.
- س - هل رأيت آخرين؟
- ج - نعم.
- س - هل كان حسن بك بهنساوي يعمل معاملة حسنة أم سيئة من قبل العدو؟
- ج - لا أدري
- س - هل تعلم من كان يعامل معاملة حسنة؟
- ج - لا أعلم.
- س - هل تعرف السنجق عمر أغا إبراهيم؟
- ج - نعم أعرفه. وهو يعيش الآن مع العرب. ولقد كان بالتحصينات. لكنه غادرها قبل السقوط.
- س - من كان في مكاته؟
- ج - لا أدري.
- س - هل فرج باشا حياً أم ميتاً الآن؟
- ج - ميت.

...

- ثم قام المتهم باستجواب الشاهد:
- س - كيف كانت إستحكامات الخرطوم الجنوبية مقسمة؟
- ج - الجزء الغربي كان تحت قيادة حسن بك بهنساوي. أما الجزء الشرقي فيقوده بخيت بك بطراكي. والجميع تحت قيادة فرج باشا.
- س - هل تعلم بأن غردون باشا كان قد أمر في شهر صفر (توفمبر - ديسمبر). بتقسيم الخط إلى أربعة أقسام؟
- ج - لم أعلم بذلك.
- س - هل تعلم من كان قائد النقطة التي دخل منها العدو، بالنيل الأبيض؟
- ج - يوسف أفندي عرفت.
- س - أين الموقع الذي كان يقوده عثمان بك حشمت؟
- ج - لا أنكر
- س - ماذا كان وضعه؟

- ج - لا أعرف.
- س - أين كنت لحظة إندفاع العدو وإفحامه؟
- ج - بالاستحكامات.
- س - وماذا فعلت؟
- ج - دافعت عن نفسي بقدر المستطاع حتى تم أسري.
- س - ما المدة التي قاومت فيها؟
- ج - لا أتذكر لكم ساعة قاومت.
- س - ما نوع السلاح الذي دافعت به عن نفسك؟
- ج - بالسيف.
- س - (وسلاح) جنودك؟
- ج - بنادق رمنجتون وأسلحة نارية أخرى.
- س - عندما هاجم العدو نقطتك. هل دافعت عن نفسك من جميع الجهات أم من جهة واحدة؟
- ج - من جميع الجهات.
- س - أين كان موقعك بالضبط؟
- ج - في القسم الذي علي النيل الأبيض.
- س - عندما تم أسرك. إلى أين قادوك؟
- ج - إلى منزلي.

ثم قام الإدعاء باستجواب الشاهد:

- س - أين يقع منزلك؟
- ج - في الخرطوم نفسها. لقد أخذوني لاستلام متعلقاتي ثم أرسلوني بعدها إلى الديم بالخرطوم ويعد ذلك إلى أم درمان.
- ثم استجوبته المحكمة:
- س - عندما تم أسرك: هل كنت في خطوط الدفاع؟
- ج - نعم. في خط الدفاع.
- س - هل قام العدو بمهاجمة كل الخط. أم هاجم نقطة معينة؟
- ج - هاجم كل خطوط الإستحكامات.
- س - هل كانت كتائب الفوج الخامس متفرقة أم متجمعة؟
- ج - كانت متفرقة.
- س - أين كانت منطقة حسن بك البهنسلاوي؟
- ج - منطقة الكلاكلة.
- س - أين تقع الكلاكلة؟ أفني منتصف الخطوط أم أين؟
- ج - في الثلث الأقرب للنيل الأبيض.

- س - عند ما كان حسن بك في السجن: كيف كان يعامل؟
 ج - مثل الآخرين. بقدر ما شاهدت بنفسي.
- س - تحت قيادة من يقع ذلك الجزء من الإستحكامات التي دخل منها العدو؟
 ج - تحت حسن بك كقائد عام للمنطقة ولكن القائد المباشر هو عرفت أفندي.
- س - تلك القصيدة من الجنود التي علي يسارك بالنيل الأزرق، من رجالك ومن الباشبوزوق، والكتيبة التي علي يمينك: لمن كانت تتبع؟
 ج - لحسن بك بهنساوي.
- س - ألم تتلق أي أوامر منه في تلك الليلة؟
 ج - لم أتسلم أوامر محددة.
- س - هل كانت هناك أي ترتيبات خاصة في قيادة حسن بك؟
 ج - نفس الترتيبات المعتادة.
- س - من الذي أخبرك بأن حسن بك أو فرج (باشا) قد فتح البوابات؟
 ج - سمعت ذلك من العرب (الأتصال).
- س - من أي جانب هاجم العرب منطقك؟
 ج - من النيل الأبيض، وليس من البوابة التي سمعت بأن فرج باشا قد فتحها.
- س - كم كان عرض الجزء المفتوح الذي دخل منه العرب؟
 ج - حوالي ١٥٠ ياردة.
- س - لماذا لم تجر عليه أي تحوطات خاصة؟
 ج - لأن العدو إعتاد علي رمي (فرق الأشغال) بالنار.
- س - هل كان غردون باشا يعلم بهذا الجزء (المفتوح)؟
 ج - نعم. فطوله كان يعتمد علي إرتفاع النيل.
- س - ما نوع التعيينات اليومية التي كانت تصرف للجندي قبل دخول العدو مباشرة؟
 ج - الصمغ في الأيام الخمسة الأخيرة. وقبل ذلك كان يصرف قليل من الخبز الذي يحضرونه من توتي، ويبلغ حوالي ثلث التعيين المقرر.
- س - ألم يكن هناك أي لحوم؟
 ج - أي حيوان حي تم أكله قبل عشرة أيام.
- س - هل كان لرجالك قنراً من القوة للقتال في اليوم الأخير؟
 ج - لا. بسبب الجوع.
- س - هل كنتم تعلمون بقدوم الجيش الإنجليزي لنجبتكم؟
 ج - نعم
- س - ألم تر أبداً حسن بك خلال الدفاع في الليلة الأخيرة؟
 ج - لم أره.
- س - ألم يكن هناك ضباط ميدانيون يطوفون أثناء الليل عليكم؟

ج - نعم. كل ليلة.

س - هل طاقوا ليلة سقوط الخرطوم؟

ج - نعم وقد رأيتهم.

س - من كانوا؟

ج - لا أدري

س - هل إعتاد حسن بك بهنساوي على تفتيش خطوطه؟

ج - نعم ليلاً ونهاراً.

س - هل قام بالتفتيش ليلة سقوط الخرطوم.

ج - نعم.

س - ما هو التاريخ العربي ليوم سقوط الخرطوم.

ج - ٩ ربيع الآخر (١٨٨٥/١/٢٦).

س - هل ظهر ضوء القمر ساعة الهجوم؟

ج - لا

س - هل كانت هناك ألغام حول الخرطوم؟

ج - لقد تم تدميرها. ولم تعمل عندما دخل العرب.

س - كيف يتم إشعالها؟

ج - ميكانيكياً.

س - هل كان هناك أي ضوء كهربائي؟

ج - لا.

ثم قرنت إفادته للشاهد لتصحيحها.

وبعدها انسحب الشاهد.

ثم إتفقت المحكمة في الساعة الواحدة والربع ظهراً لتعاود الاعتقاد في الثامنة والنصف من

صباح الخامس عشر من الشهر.

كما كانت المحكمة قد اتخذت قراراً بالآيتم توجيه أسئلة للشهود إلا إذا كانت متعلقة

مباشرة بالتهمة.

وفي التاسعة والربع من صباح ١٨٨٧/٦/١٥، عاودت المحكمة إتبعادها وإستدعت شاهد

الادعاء الثاني، الملازم أول على أفندي حسن، من الكتيبة الرابعة، الفوج الخامس. وبعد أن أدي

القسم أفاد بالتالي: - " كنت موجوداً، أثناء سقوط الخرطوم، في خط القتال. وأقتحم العرب (الخطوط)

عند الفجر".

ولما كان هذا الشاهد بحالة غير طيبة فقد أنن له بالإسحاب.

شاهد الادعاء الثالث.

ميخائيل بك داود، بعد أن أدي القسم أفاد بالتالي:

كنت بالخرطوم يوم سقوطها، ولكن ليس في خطوط القتال. وفي الليلة السابقة لذلك كنت في منزل القنصل الأمريكي. وفي التاسعة بالتوقيت العربي، ليلة الإثنين ٢٦/يناير ١٨٨٥، سمعت أصوات العرب. صعدت للسطح ورأيت العرب يدخلون المدينة. وسألوا، أين منزل غردون باشا؟ وجري معظمهم نحو منزله. نزلت وعدت للمنزل وأقفلت الأبواب ومكثت هناك حتى شروق الشمس. ثم جاء اثنان من العرب إلينا وقالوا: لقد قتلنا غردون باشا ونريد قتلك أيضاً. طلبنا منهم الرحمة فمحنونا إياها. وبعد ذلك عاد ثمانية منهم وقتلوا القنصل وأخيه.. الخ، لكنني اختبأت في حديقة المنزل لأربعة ساعات. بعد ذلك عاد المزيد من العرب يبحثون عن المدعو عثمان هندوك وشاهدوني وأرادوا قتلي وأثناء ما كانوا معي في طريقهم لمنزلي، لأريهم ممتلكاتي قبل أن أقتل، جاءت أوامر المهدي بالآي يقتل أي شخص بعد ذلك. فسجنوني في منزلي لمدة خمسة أيام، بعد أن أخذوا ممتلكاتي، ثم أبعدونني لخارج الخرطوم.

س - عندما كنت بسطح المنزل تنظر للعرب هل شاهدت حسن بك بهنساوي؟

ج - لا.

س - في اليوم الذي سبق سقوط الخرطوم، ماذا أكلت؟

ج - رطلين من القمح.

س - هل قال لكم غردون باشا أي شيء خاص بالسقوط؟

ج - لا.

س - هل سمعت بأنه كان مستاء من أي ضابط أو رجل؟

ج - لا.

س - ألم تسمع بأي أحد تسبب في سقوط الخرطوم؟

ج - بعد مغادرتي للمدينة سمعت بأن العدو قد إقتم الخرطوم عن طريق النيل الأبيض، من الجزء الذي كان يتولى قيادته حسن بك بهنساوي.

س - عندما كنت في سطح المنزل: هل شاهدت أي إطلاق نار من طابية المقرن أو من النيل الأبيض؟

ج - لا. لأن منزل القنصل كان بعيداً عنهما، في وسط المدينة.

س - هل شاهدت الجنود في منطقة التحصينات المجاورة للمنزل وهم يطلقون النار؟

ج - الذين بالقرب من بري أطلقوا نيراناً كثيفة. لكن الذين بالجانب الآخر لم يطلقوا سوي مدفعين.

وبعد ذلك كان هناك اضطراباً في إطلاق النيران؟

ثم قام السجين باستجواب الشاهد:

س - كم من الزمن مكثت مختبئاً بين أغصان شجرة الليمون؟

ج - لأربعة ساعات.

س - عندما كنت بالمنزل: هل تستطيع تحديد من أي مكان كانت تطلق النيران؟

ج - لم أستطع أن أري، بل كنت أسمع فقط.

س - أيمكنك تحديد إن كان إطلاق النار يأتي من جانب الجنود أم العرب؟

ج - لا.

س - ماذا أكل الجنود قبل سقوط الخرطوم؟

ج - قبل ستة أيام (من السقوط) كان كل شيء قد تم أكله، القبط والكلاب وغيرها.

س - ألم تقم بزيارة أي من الضباط في إستحكاماتهم؟

ج - نعم. لقد أمر غردون باشا المجلس للقيام بذلك.

س - هل كنت تعلم بأقسام خطوط الدفاع؟

ج - لا.

س - هل كنت تعلم بأن الأقسام كانت محددة وموزعة تماماً؟

ج - نعم.

س - ألم تسمع بأن الجنود كانوا يأكلون الصمغ؟

ج - نعم. كانوا كذلك. وتم شراؤه من التجار لهم. كذلك أكلوا جمار النخل.

س - لكم يوم كانوا يعيشون على أكل الصمغ العربي؟

ج - لحوالي سبعة أيام.

س - هل رأيت أو سمعت بتأثير (أكل) الصمغ على الجنود؟

ج - سبب لهم إسهالاً.

س - هل تعرف حسن بك بهنساوي؟

ج - عرفته منذ بداية الحصار

س - هل تعتبره رجلاً شريفاً؟

ج - نعم.

...

ثم قام الإدعاء باستجواب الشاهد:

س - هل أكل الجنود جمار النخل قبل أكلهم للصمغ؟

ج - لا. أكلوا الصمغ أولاً. وعندما انتهى أكلوا الجمار.

س - لكم يوم كانوا يأكلون الجمار؟

ج - ليومين. وسقطت الخرطوم في اليوم الثالث. وقبل يوم من السقوط نهبت كل أبقار السواقي

ووزع لحمها على الجنود. كان عندها حوالي ١٠٠ بقرة أو أكثر.

س - كيف إستطعت الحصول علي القمح؟

ج - أنا تاجر. وكنت أحتفظ ببعض المؤونة الخاصة.

س - هل رأيت حسن بك ليلة السقوط؟

ج - لا.

...

ثم استجوبت المحكمة الشاهد:

س - هل رأيت حسن بك في السجن؟

ج - رأيته بعد خمسة عشر يوماً من ذلك.

س - كيف كان حاله؟

ج - مثل حالنا، يلبس جبة قذرة. وقال لي بأن المهدي قد أخذ أبنته.

س - عندما أقتحم العرب المدينة. هل سمعت بأن أحداً قد فر نحوهم؟

ج - لا.

س - هل كنتم تتوقعون (هجوم) العرب في تلك الليلة بالذات؟

ج - لا. كان كل شيء عادياً

س - ماذا سمعت عن إبنة حسن بك؟

ج - لقد أمر المهدي بجمع البنات واختار لنفسه أولاً. أخذ الحسنات لنفسه ثم قسم الباقيات على العرب.

س - كم بواية بالخرطوم؟

ج - ثلاثة: باب المسلمية وباب بري وباب الكلاكة.

س - من هو الضابط المسئول عن خط القتال؟

ج - فرج باشا.

س - من كان الضباط المسئولون عن الأقسام؟

ج - بخيت بك وحسن بك وبهنساي بك وإثنان آخران.

س - من الذي قام بعمل تحصينات الخرطوم؟

ج - عبد القادر باشا.

س - هل قام غردون باشا بصيانتها؟

ج - نعم وقام ببناء حائط وسطهم وتكنات أيضاً.

س - هل ذاد غردون باشا في الخندق؟

ج - نعم. وسعه بجوالي نصف متر.

س - هل جرب عبد القادر باشا الخندق بحيث لا يقفز فوقه العرب؟

ج - نعم لقد قام بتوسيعه حتى أن أحداً لم يستطع القفز عليه.

س - ما نوع تربة النيل الأبيض بين النهر ونهاية التحصينات؟

ج - طمي لين. يغطس فيه الرجل حتى ركبتيه.

س - من أي ضفة جاءت مجموعة الهجوم؟

ج - من جزيرة سنار، بين فرعي النيل.

س - كم عدد الذين قاموا بالهجوم تلك الليلة، من وجهة نظرك؟

ج - خمسون ألفاً وقال البعض بأنهم ثلاثين ألفاً.

س - كم كان عدد رجال الحامية؟

ج - أكثر من ٨٠٠٠ بمن فيهم الذين ذهبوا للمتمة مع نصحي باشا. وفي ليلة الهجوم ربما كانوا ٧٠٠٠ أو أكثر.

س - من أي جزء دخل العرب. ومن كان الضباط المسلولون؟

ج - من البحر الأبيض، حسن بهنساوي.

س - ماذا تم بشأن الأسلحة والذخائر؟

ج - وضع العدو حرساً عليهم.

س - من كان الضباط الآخرون المسلولون بجانب حسن بك وبطراكي بك؟

ج - لا أعلم.

س - هل كانت مسئولياتهم مثل هؤلاء الإثنين؟

ج - كانوا من البكوات، مثل الآخرين.

س - أين كان الإثنين اللذان لا تعرف أسماءهما؟

ج - لا أدري.

س - هل تعرف قيادة حسن بك؟

ج - لا.

س - أين كانت رئاسته؟

ج - كانت خيمته شرق باب الكلاكلة.

س - أين يقع باب الكلاكلة؟

في القسم الخامس بالقرب من الضفة الغربية

...

وقرنت إفادته للشاهد. ثم إتسحب الشاهد.

...

شاهد الادعاء الرابع:

البمباشي سعيد أفندي أمين، من الفوج الخامس، الكتيبة الرابعة، وبعد أن أدي القسم أدلى

بإفادته قائلاً:-

كنت في الخرطوم يوم سقوطها، في غرفة ملحقة بالتحصينات، وكنت مريضاً. كنت قد

مكثت بها لأربعة وعشرين يوماً. وقبل ذلك كنت قائد الكتيبة الرابعة.

س - عندما كنت مريضاً، هل كنت مستمراً في عملك قائداً للكتيبة؟

ج - نعم. لكنني لا أقوم بمهام في الخارج. وقام الأميرالاي حسن بك بتكليف البمباشي فرج أفندي

على القيام بذلك بدلاً عني.

س - أين تمركزت كتيبته؟

ج - على يسار الفوج الخامس، لليمين من باب الكلاكلة.

س - من كان على يمين كتيبته؟

ج - الأردني (سرية) محمد بك الشايفي، ربما كانوا ١٢٠ رجلاً.

- س - ما هي قوة كتيتيك؟
- ج - ٤٢٠ من الضباط والجنود.
- س - من كان قائدكم؟
- ج - الأميرالاي حسن بك بهنساوي.
- س - من ماذا كانت تتكون قيادته؟
- ج - من فوجه وبعض الأرادي (السرائي) من الباشبوزوق. فإلي اليسار هناك ثلاثة كتائب، الأولي والثانية والرابعة، لكن الثانية كانت في أم درمان كما كان لديه ١٢ سرية أيضاً.
- س - هل كانت طابية المقرن تابعة له؟
- ج - لا.
- س - لكم تمتد قيادته على طول التحصينات؟
- ج - تمتد من بحر أبيض إلى باب الكلاكلة. الكتيبة الأولى من بحر أبيض ثم سرية من الباشبوزوق، ثم الكتيبة الرابعة والتي تنتشر حتى طابية باب الكلاكلة، ثم سرية المنجق محمد أحمد حتى باب الكلاكلة.
- س - كم طول التحصينات من قيادته حتى باب الكلاكلة؟
- ج - سبعة ألف متر من طابية المقرن. وكان يقطعها على ظهر جواده في حوالي الساعة، بسرعة السير العادي للجواد.
- س - هل كان الجنود يقفون في صف واحد أم صفين على الاستحكامات؟
- ج - رجل واحد في كل أربعة خطوات.
- س - هل إمتدت الاستحكامات حتى النيل؟
- ج - امتدت فقط حتى مستوي أدنى انخفاض للنيل. وعندما يرتفع منسوب النيل فأنها تنهار. وعندما تفرق كنا ننشئ أخرى.
- س - إذن فالمتراس كان يصل لحافة الماء؟
- ج - نعم
- س - ارسم ذلك الخط على قطعة من الورق.
- ج - حاضر.
- س - في شهر يناير، الذي سقطت فيه المدينة، هل حطم النهر المتراس؟
- ج - نعم، ورجع عنه كثيراً. وكان العمل جارياً لإصلاحه.
- س - كم ياردة دمرت بالمتراس؟
- ج - حوالي ١٠٠٠ ياردة.
- س - هل تعلم عدد الرجال المدافعين عن التحصينات يوم سقوط الخرطوم؟
- ج - لا أدري.
- س - ماذا كانت تعيينات الجنود خلال يناير؟
- ج - لم تصرف لهم أي تعيينات.

- س - ألم يصرف لهم الأرز؟
- ج - لا - لا أدري - كنت مريضاً وقتها.
- س - ألم توضع ألغام أمام التحصينات؟
- ج - نعم. كانت هناك، لكن النيل أفسدها.
- س - هل وضعت أي عوائق صناعية؟
- ج - نعم كان هناك السلك (الشائك؟) والحفر المليئة بالقنابل المتفجرة.
- س - في أي وقت دخل العرب؟
- ج - في الثامنة والنصف أو التاسعة بالتوقيت العربي وقبل الفجر.
- س - عندما إفتحتم العدو (التحصينات)، ألم تطلق المدافع؟
- ج - لا أدري - لم أسمع قصفاً.
- س - ماذا شاهدت من تقدم العدو؟
- ج - لا شيء. كنت نائماً.
- س - ألم تتسلم أوامر من الأميرالاي للالتقاء به في حالة تحطيم خط الدفاع الأول؟
- ج - لا. إذ لم نتوقع أن يتحطم.
- س - ألم يكن معكم رجال من المدينة أو أهاليها لمساعدتكم؟
- ج - نعم. كان هناك عدد من المتطوعين. أحياناً كثيرون، وأحياناً بضع أناس منهم.
- س - هل تعرف المدعو عمر إبراهيم؟
- ج - لا أعرفه، بل سمعت به فقط.
- س - من كان القائد العام؟
- ج - فرج باشا.
- س - هل كنتم تقومون بالطواف في دوريات؟
- ج - نعم. كل ليلة.
- س - هل كانت هناك عدة أطواف؟
- ج - نعم. فكل ضابط كان يطوف علي قسمه.
- س - هل إعتاد حسن بك التفتيش عليكم أثناء الليل؟
- ج - نعم.
- س - متى رأيت حسن بك قبل السقوط؟
- ج - بالليل، في الواحدة عربي. وقد حضر مع فرج باشا
- س - متى أكل جنودك اللحوم لأخر مرة قبل السقوط؟
- ج - في الأول من يناير.
- س - متى بدأوا يأكلون الجمار؟
- ج - خلال يناير، وكذلك الصمغ.
- س - ما الذي أكلوه قبل الآخر؟

- ج - الصمغ.
- س - هل كان هنالك مجلساً للدفاع؟
- ج - لا أدري.
- س - هل تعلم من إتهم بالخيانة؟
- ج - على جلاب وآخرين من التجار.
- س - هل أتى أحد منهم إلى هنا؟
- ج - لا.
- س - هل شاهدت حسن بك وهو في السجن؟
- ج - نعم.
- س - هل كان ود الأحد هناك؟
- ج - لا.
- س - من الذي كان يعامل معاملة حسنة هناك؟
- ج - كلهم يتلقون نفس المعاملة.
- س - هل كان أغلب من قتل من الجنود من المصريين أم السودانيين؟
- ج - من المصريين.
- س - كم عدد السودانيين في كتبتك، وفي الكتيبة الأولى؟
- ج - لا أحد.
- س - هل قتل عدد كبير من سرية الشايقية؟
- ج - ليس كثيراً. لأن معظمهم فروا.
- س - ماذا كنت تفعل إذا شاهدت أحد الفارين؟
- ج - كنت أرميه بالرصاص.
- س - كم ضربتم منهم بالرصاص؟
- ج - ثلاثة أو أربعة، وذلك قبل وقت من المعركة.
- س - هل هرب كثير من الجنود النظاميين؟
- ج - واحد فقط. وقد قبض عليه ورمي بالرصاص.

- ثم قام السجين باستجواب الشاهد:
- س - ألم يتغير نظام توزيع الدفاعات؟
- ج - كان هناك رجل يدعي عثمان بك حشمت، قائمقام، مسلول عن الكتيبة الأولى وعن سرية الشايقية القريبة من النيل الأبيض. ثم إبراهيم بك صالح إلى اليسار. وقد اعتاد حسن بك التفتيش علي الجميع.
- س - هل كان ذلك بأوامر مكتوبة من غردون؟
- ج - نعم

- س - هل كان الفوج الأول مقسماً أيضاً؟
ج - لا أدري.
- س - هل كان عثمان بك تحت قيادة حسن بك أم مساوله؟
ج - تحته، رغم أنه مسلول عن قسمه الخاص.
- س - ماذا فعل الدراويش بزوجة حسن بك وأولاده؟
ج - سمعت أن محمد أحمد قد أخذ إبنته، وأخذ العرب بقية النساء.
- س - هل أخذها بالقوة؟
ج - بالقوة. لقد أخذ كل البنات الجميلات.
- س - هل كانت كتائب حسن بك قوية في يوم السقوط؟
ج - لا. كانت قد أنقصت كثيراً.
- س - كم عدد الجنود الذين أخذوا من كتيبته؟
ج - لقد سحب نصحي باشا سريتين من الكتيبة الأولى وسرية من الرابعة وثمانين رجلاً لمقر الحكومة وثمانين رجلاً للباخرة.
- س - ألم يكن مع حسين أفندي أي جنود؟
ج - نعم. لكننا تسللنا عدداً من الرجال بدلاً عنهم وذلك من الكتيبة الثانية.
- س - هل يمكن أن نخبرنا بعدد الجنود المقاتلين الذين كانوا هناك يوم السقوط؟
ج - أبداً. لأنهم مختلفون. كما أنني كنت مريضاً.
- س - هل تعلم بعدد المرضى في قسم حسن بك؟
ج - يكادون أن يكونوا جميعاً من المرضى لجوعهم وأكلهم الصمغ.
- س - هل تعلم بما حدث عن دخول العرب؟
ج - لم أسمع شيئاً وقتها إلا عندما حضروا لغرفتي. ولقد سألت فيما بعد. لقد أطلقوا النار قليلاً وكذلك فعل الجنود.
- س - هل كان بمقدور الجنود الدفاع عن أنفسهم يوم السقوط؟
ج - لا. فقد كانوا في غاية المرض.
- س - هل كان باب الكلاكلة بحالة جيدة؟
ج - لا. فقد كان مهملاً، وقد نزع الكبرى الذي أمامه وظلت البوابة مفتوحة. لكن الخندق لم يكن من السهل عبوره.
- س - هل كانت هناك بوابة في بري؟
ج - كانت مقفولة مثل باب الكلاكلة. والباب الوحيد المستعمل هو باب المسلمية.
- س - ما المسافة بين باب المسلمية وباب الكلاكلة؟
ج - ١٥٠٠ متر.
- س - من القائد الذي كان مسلولاً عن القسم الشرقي؟
ج - الأميرالاي بخيت بطراكي، الفوج الأول.
- س - لمن كانت قيادة باب المسلمية؟
ج - لبخيت بك بطراكي.

...

وانفضت المحكمة في الواحدة والنصف ظهراً على أن تعاود الاعتقاد في التاسعة صباحاً يوم

١٦ من الشهر. وتواصل الاستجواب يوم ١٦:

بدأت المحكمة إستجواب الشاهد:

س - لم لم تتوقع إتهيار الخط (الدفاعي)؟

ج - كنا واثقين من أنفسنا وأقوياء.

س - من أين أتى العدو؟

ج - لم أر شيئاً ولا أعرف.

س - من كان قائد القسم المجاور للنيل الأبيض؟

ج - يوسف أفندي عرفت. وهو الضابط الذي يقود الكتيبة الأولى.

س - من كان قائد طابية المقرن؟

ج - البمباشي إبراهيم أفندي الشيخ.

س - ما نوع الجنود؟

ج - باشبوزوق.

س - كم مدفع بها؟

ج - مدفع واحد. وأحياناً يحضر مدفع آخر للمعاونة.

س - هل أي من ضباط الكتيبة الأولى موجود هنا؟

ج - سالم، وسيد أحمد أفندي.

س - كم تبعد طابية المقرن من خط النار؟

ج - ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ متر.

س - إذا أطلقت رصاصة من المقرن. هل يمكن وصولها للمكان الذي دخل منه الدراويش؟

ج - لا.

س - كم رجلاً كان هناك في الكتيبة الأولى من الفوج الخامس؟

ج - أربعة سرايا بكل منها ١٠٥ رجلاً. وكذلك عدد الرجال في الكتيبة الرابعة.

س - هلك كانت هناك أي نقاط بين طابية المقرن وخط الدفاع؟

ج - كانت هناك نقاط، وأيضاً قوارب على النهر، وكانت النقاط تتبع لقائد الطابية. أما الزوارق فكانت

تتبع لحسن بك. وكان ضابط الطابية يتسلم أوامره من الحاكم العام بالتلغراف. كما كان يرسل

تقاريره ومعلوماته لحسن بك والذي كان بطوف ويتفقد تلك المنطقة أيضاً.

س - كم عمق وعرض الخندق الذي أمام الاستحكامات؟

ج - عمقه ثلاثة أمتار. وعرضه أربعة أمتار وذلك في باب الكلاكلة وغرباً حتى المكان الذي دمره فيه

النيل.

س - إذا ما سقط رجل في الخندق. فهل بإمكانه الخروج منه دون مساعدة؟

ج - نعم. لأن الأمطار قد حطمت حافته.

س - هل كانت هناك أمطار في يناير؟

ج - نعم.

س - أمام باب الكلاكلة: هل بإمكان أي رجل الخروج من الخندق دون مساعدة؟

ج - لا ؟ إلا إذا سببت الأمطار موطنى قدم.

س - من تلك الـ ٧٠٠٠ متر: كم منها كان جيداً؟

ج - ١٠٠٠ متر. لأن ٦٠٠٠ متر كانت منهارة.

س - ليلة السقوط: هل كان بالخندق ماء؟

ج - كانت الألف متر الملاصقة للنيل مكونة من الطين اللين.

س - من تلك الألف متر: كم كان عمق الخندق؟

ج - مترين عمقاً. أما العرض فيختلف من مكان لآخر.

س - ما نوع التربة؟

ج - تربة سوداء.

س - لكم من الأيام كان بمقدور الحامية الصمود؟

ج - ربما ليوم واحد، لأننا كنا نتوقع وصول الجيش البريطاني.

س - عندما دخل العدو: هل كان هناك أي تعيينات قد تبقت؟

ج - بعض الجنود كان معهم صمغ.

وتوقف الإستجواب في الساعة ١,٢٠ دقيقة بعد الظهر. وستعقد المحكمة يوم السبت التالي في التاسعة صباحاً.

وعادت المحكمة جلساتها في التاسعة والنصف من صباح يوم ١٨ يونيو.

وبعد نقاش حول صلة الشهادة بالموضوع، تواصل استجواب الشاهد:

س - كتيبتك كانت من ٤٢٠ رجلاً. كم مات منهم قبل السقوط؟

ج - لا أعرف.

س - هل مات منهم أي أحد؟

ج - نعم. قُتل بعضهم ومات البعض منهم جوعاً.

س - كم متراً تشغله كتيبتك من المتراس؟

ج - ٦٠٠ متر، لكل سرية ١٥٠ متراً.

س - هل رجالك الأربعمئة والعشرين يضمون الذين بالبواخر؟

ج - نعم.

س - هل كان بعض الأهالي يحضرون لمساعدة كتيبتك؟

ج - نعم.

س - كيف أخذ المهدي إينة حسن بك؟ كخليفة أم كزوجة؟

ج - لا أدري. واعتقد أنها أخذت كخليفة.

س - هل أخذ الأمراء زوجات حسن بك، بعد طلاقهن، كزوجات أم كخلفات؟

ج - كخليات.

س - منطقة حسن بك كانت باب الكلاكلة. هل كان البك يقود أيضاً جنود عثمان بك حشمت أم لا؟
ج - نعم. فقد كان مسئولاً عن كل ذلك الخط.

س - لقد ذكرت أن المسافة بين بحر أبيض وباب الكلاكلة هي ٧٠٠٠ متراً. وكانت الحامية مكونة من كتبتين وبعض الباشبوزوق. وقلت الآن بأن الكتيبة كانت تسيطر على ٦٠٠ متراً فقط. من الذي كان يسيطر على بقية المسافة؟

ج - قلعة المقرن كانت تبعد ٣٠٠٠ متر عن ركن المتراس الذي بالنيل الأبيض. تحتل القوات النظامية منها ١٢٠٠ متراً بينما يتولى الباشبوزوق مسئولية ال ٢٨٠٠ متراً الأخرى.

س - كيف شغل الجزء المنهار من المتراس؟

ج - بالكتيبة الأولى من الفوج الخامس. وكان النيل على يمين تلك الكتيبة.

س - كم من سرايا الباشبوزوق كانت بين الكتيبة الأولى والرابعة؟

ج - لا أدري. إذ يعتمد كل شئ على ارتفاع النيل.

س - وكيف يتغير (منسوب) النيل؟

ج - مثلما يحدث هنا (في مصر).

س - عند سقوط الخرطوم كان النيل في أدنى مستوياته. كم كان هناك من السرايا؟

ج - إثني عشر على ما أعتقد.

س - كم دخل خيمتك من الفراد. العدو؟

ج - أربعة. وضريوني بحريتين ورموني بطلقتين أحدهما أصابتنى. ثم أخذوني معهم عبر النيل.

س - هل تعلم شيئاً عن أن العدو. قد دخل عن طريق بوابة المسلمية؟

ج - لا أعلم.

س - كم تبعد طابية المقرن عن نهاية التحصينات؟

ج - حوالي ٣٠٠٠ متر.

س - ومن نهاية التحصينات حتى باب الكلاكلة؟

ج - ٤٠٠٠ متر.

س - ومن باب الكلاكلة حتى باب المسلمية؟

ج - ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ متر.

س - ومن باب المسلمية لبحر أزرقي؟

ج - ٣٠٠٠ متر.

س - إذا مشيت على قدميك من النيل الأبيض إلى النيل الأزرق: كم ساعة يستغرق هذا المشوار؟

ج - أربعة ساعات.

س - هل كنت تعلم باقتراب موعد قدوم الجيش الإنجليزي؟

ج - نعم.

س - هل كان بطابيتك خط للتغراف؟

ج - نعم. في الرئاسة، وفي مقر كل فوج أو محطة.

س - إلى السراية وبين بعضها البعض؟

ج - نعم.

س - ألم تصلك أوامر للإبلاغ عن إقتراب العدو؟

ج - نعم. وعلينا إبلاغ الجميع وهناك أيضاً رجال من (القوات) الأخرى لمساعدتنا في ذلك.

س - هل لديكم نظام للإبذار الليلي (من هجمات العدو)؟

ج - كان العدو يهاجمنا كل ليلة. ولم تكن هناك ضرورة، بالتالي، لذلك.

س - عندما هاجمكم العدو: هل قام الضابط المسئول بأخذ الدعم والتوجه إليهم؟

ج - نعم.

س - هل أخذ حسن بك دعماً تلك الليلة وتوجه للمنطقة المهددة؟

ج - لا أعرف.

س - من الذي كان عليه الإستعانة بالدعم والتوجه به للمنطقة المهددة؟

ج - لا أعرف. لم يتم أخطار أي أحد.

س - وكيف ذلك؟

ح - لم يكن هناك دعماً صحيحاً. بل كان يتم إرسال قليل من الرجال، يؤخذون من كل سرية، إلى

المناطق المهددة.

س - قبل أن تمرض: هل كنت على المتراس؟ ألم يتم هجوم عليك أبداً؟

ج - أبداً. كانوا فقط يطلقون النار من على البعد.

س - ألم تتح لك أي فرصة للإبلاغ عن تقدم العدو نحوك؟

ج - لا.

س - هل تقدم العدو من قبل إلى المدينة؟

ج - نعم.

س - من أي جهة دخلوا؟

ج - من النيل الأبيض.

س - هل كنت بالمتراس أم لا؟

ج - كنت بالمتراس.

س - كيف عرفت بأنهم هجموا من قبل؟

ح - رأيتهم.

س - متى تقدموا إليكم؟ في أي وقت؟

ح - بالنهار.

س - هل أرسلت دعماً من سريتك؟

ج - نعم أرسلت سرية بقيادة اليوزباشي إمام أفندي، وهو ميت الآن.

س - من الذي أخبرك اليوزباشي لأن يبلغ له؟

ج - للضباط قائد المنطقة.

س - هل توجه حسن بك بهنساوي لدعمهم؟

ج - نعم.

س - من كان القائد في ذلك الوقت؟

ج - لا أعرف.

س - متى كان يوم ذلك الهجوم. هل هو بعد أن حضر محمد أحمد من كردفان؟

ج - في ٤ محرم (٢٤ أكتوبر ١٨٨٤).

س - من الذي شاهدك في السجن في اليوم الأول؟

ج - سيد أحمد أفندي وعبد الرزاق، الملازم أول بالفوج الخامس، ومحمد أفندي إمام ، ملازم ثاني

بالفوج الخامس وحسن أفندي علي، ملازم ثاني بالفوج الخامس.

س - هل كان فرج أفندي علي هناك؟

ج - لا. لأنه قتل في الطابية.

س - هل كان هناك أي واحد من الفوج الخامس؟

ج - لا. أنا لا أعرفهم. لقد كان معظمهم سودانيون.

س - هل كان بالخرطوم الفوجين الأول والخامس فقط؟

ج - لم تكن هناك قوات أخرى نظامية.

س - هل رأيت أي أحد من ضباط المدفعية في السجن؟

ج - ملازم واحد وهو محمد أفندي خليفة وكان قائداً لبطارية ملحقة بالفوج الأول.

س - هل رأيت أي ضابط من الأركان أو الإدارات؟

ج - لا.

س - أين وضعتك عندما سجنتم؟

ج - تحت الشمس علي الرمال. وقد زارني الطبيب سرّاً.

س - هل رأيت إبراهيم بك فوزي؟

ج - نعم. ولم تصبه أي جراح عند سقوط الخرطوم.

س - كم ضابطاً من الكتيبة الأولى للفوج الخامس رأيت؟

ج - الملازم أول دسوقي والملازم أول رضوان محمد والملازم أول سيد محمد سالم والملازم ثاني أحمد

رشوان لكنني لم أرى أي يوزباشي أو بمباشي لأنهم قتلوا جميعاً.

س - ومن الذي أخبرك بأنهم قد قتلوا جميعاً؟

ج - الناجون.

س - هل كان أولئك الناجون من الجرحى؟

ج - لا.

س - كم عدد الأحياء، من الضباط والصف والجنود التابعين للكتيبة الأولى من الفوج الخامس الذين

رأيتهم؟

ج - حوالي عشرين.

س - هل وصل منهم أحد إلي هنا (مصر)؟

ج - نعم. سيد أحمد أفندي سالم.

س - ومن الجنود؟

ج - لا أعرف.

س - متى سقطت أم درمان؟

ج - حوالي الخامس من يناير.

س - متى غادرت البوردين إلي الممتة؟

ج - قبل سقوط أم درمان؟

س - كيف سقطت أم درمان؟

ج - كانوا قد استنفذوا كل الخبز. وقام الحاكم العام بإرسال بواخر لإحضار الحامية. لكنهم لم يتمكنوا

من دخول البواخر لذا أمرهم غردون باشا بالإستسلام. كان فرج الله باشا هو قائدهم.

قرئت الشهادة مرة أخرى للشاهد. ثم تسحب الشاهد. وإنقضت المحكمة في الثانية عشرة والنصف

لنتعقد مرة أخرى يوم ٢٧ (يونيه).

شاهد الإدعاء الخامس:

الجاويش حسين يوسف عجور من الكتيبة الرابعة، الفوج الخامس، وبعد أن أدى القسم أجاب

على الأسئلة كالتالي:

س - من كان آخر باشجاويش لك؟

ج - أحمد، ولقد قتل في الخرطوم.

س - من كان صاغك؟

ج - سعيد أفندي أمين وفرج أفندي علي، الذي مات هناك.

س - من كان بوزباشيك؟

ج - إمام أفندي أبو نور. وقد قتل هناك.

س - ما هو القسم الذي كنت فيه؟

ج - نمرة أربعة.

س - من كان ملازمك؟

ج - محرم أفندي. وقد مات هناك.

س - هل كانت سريتك بالإستحكامات يوم السقوط؟

ج - نعم.

س - أي يوم كان؟

ج - لا أذكر.

س - أين ذلك الموقع؟

ج - شرق باب الكلاكلة.

س - كم كان عدد الجنود بالسرية؟

ج - ٨٠ - ٨٥. لكن بعض الرجال من المدينة إعتادوا الحضور لمساعدتنا.

س - كيف كان (نظام) وقوفكم بالخط؟

ج - في صف واحد. كل رجل مقابل فتحة الرمي الخاصة به.

س - كم يبعد الجنود عن بعضهم البعض؟

ج - كل متر ونصف.

س - كم رجلاً بفتحة الرمي؟

ج - رجل واحد.

س - عندما دخل العدو. هل كنت بالمتراس؟

ج - نعم.

س - أخبرني عما شاهدت.

ج - كنا نطلق النار عليهم. وكانوا يطلقون علينا النار. كان الوقت ظلاماً قبل الفجر وكان حسن بك

بهنساي يقف معنا ونحن نطلق النيران. جاءنا العرب من كل ناحية وهجموا علينا بالسيوف

وبالرمح. بدون بنادق. الذين انضموا للعدو تم الإبقاء على حياتهم. جمعونا في عزبة الكلاكلة

وكان البك معنا ثم أخذونا وسلمونا لأمير يدعي حاج خالد. وهو جعني، وأخذوا كل ما معنا من

نقود وكنا سجناء ومعنا البك. وفي اليوم الثالث قتل فرج باشا الزيني بأمر من المهدي، كما

سمعنا، لأنه خان جيشه.

س - عندما كنت بالمتراس: هل رأيت أول الفارين؟

ج - لا. لم أستطع رؤية أي شيء.

س - هل رماكم العدو بالنار قبل هجومه مباشرة؟

ج - نعم وكان هناك ضرب شديد بالنار.

س - من الضباط الآخرين الذين أخذوا معكم؟

ج - لم بجمعونا كلنا مرة واحدة. ولكن شيئاً فشيئاً. وكلما أخذوا أحداً وضعوه في العزبة.

س - عندما كنت في السجن هل عومل أي أحد معاملة أفضل من الآخرين؟

ج - لم يعامل أي أحد معاملة طيبة. ولو لا محمد أحمد (المهدي) لقتلنا جميعاً. واعتننا على التسول.

س - هل تسول إبراهيم فوزي؟

ج - لا أدري.

س - هل تسول حسن بك؟

ج - لم أره.

س - وود الأخذ: هل تسول؟

ج - لم يحدث لهم أي شيء.

س - هل سمعت بأن أحداً قد خان المدينة؟

ج - نعم. فرج باشا وحسن بك. لكنني لم أر شيئاً. فقط سمعت. كان البك معنا يوجه نيراننا ويشجعنا وكان يفعل ذلك دائماً. وحتى تحت الشمس لم يكن يستعمل مظلة لتقيه حرها. ولم يستطع الذهاب لغرفته لأنها قصفت.

س - هل كان حسن بك في غرفته ليلة الهجوم؟
ج - كان بالمتراس معنا في ذلك الوقت. وقد رأيته. وقد قدم إلينا من السرية الثالثة. جاءنا العرب من الجهة الغربية فجرينا نحو الشرق. ثم وجدنا أنهم قادمون أيضاً من الشرق، ومن المدينة، ومن كل مكان.

س - هل كان هناك طواف ليلي؟
ج - نعم. كان كل صاغ يقوم بجولة في دورية إستطلاع.
س - هل رأيت حسن بك يقوم بطواف تلك الليلة؟
ج - نعم. ووراءه أربعة من الجنود المخصصين لخدمته.
س - هل نجا كثير من زملائك بالسرية؟
ج - لم أر سوى ثلاثة أو أربعة منهم ولكنني لا أدري.
س - هل كان لديكم الكثير من الذخائر؟

ج - نعم كثير. فلكل كيس به سبعة بكتات. وبداخل فتحة الرمي عشرة أو خمسة عشرة بكتة. وهناك صندوق بين كل رجلين. هذا بجانب ما كان بالخيام، ربما سبعون صندوقاً.
س - كم يوماً، قبل السقوط، كنتم تأكلون اللحوم؟
ج - منذ شهرين قبل السقوط كنا نأكل الصمغ وجلود العناقريب وجمار النخل.
س - عندما كنتم تأكلون الصمغ: ما الذي حدث لكم؟
ج - إسهالات.

س - ماذا سمعت عندما علمت بموت فرج باشا؟
ج - بأنه قتل لأنه كان خائناً. كنا مع جيش عبد الرحمن النجومي في الكلاكلة. أما فرج باشا فقد قتل في أم درمان.

س - ممن سمعت بهذا؟
ج - من الناس.
س - هل تعرف المكان الذي يدعي (سلامة الباشا)؟
ج - نعم.

س - هل قتل فرج باشا فوق قبر هناك؟
ج - لا أعرف مكان قتله.

س - ألم تصرف لك ثلاثة أوقات من الأرز؟
ج - أوقه ذات مره. ومره نصف أقة. وليس مرة واحدة.
س - ألم تصرف لك خمسة أوقات من الذرة الفترية؟
ج - كانت فرقة للبحث قد وجدت بعضاً منها في المدينة وقامت بتقسيمها، وذلك قبل شهرين من السقوط.

ثم قام السجين باستجوابه:

- س - كيف كانت حالة الجنود يوم سقوط الخرطوم؟
ج - لم يكونوا سواسية، فالبعض أقوىاء والبعض غير ذلك.
س - هل يمكن لرجل جائع أن يكون قوياً؟ وكيف يمكن أن يوجد رجال أقوىاء (وهم جوعي)؟
ج - أقوىاء بالمقارنة بالآخرين ولكن ليس كالرجال الذين هنا.
س - هل كان بإمكانهم القتال والاستمرار فيه؟
ج - حاربوا بقدر ما استطاعوا ودافع كل الرجال عن أنفسهم. وكنا نخرج كل ليلة ونقاتلهم ونمضي أحياناً لمسافات بعيدة.
س - هل كان بعض جنودك متورمي الجسم؟
ج - نعم، من أكل الصمغ. والبعض كان مريضاً. وكانت الأقدام متورمة.
س - هل كان بالمتراس كثير من المرضى؟
ج - لا أعرف. فالكثيرون كانوا في مراكزهم.

...

ثم قام الإدعاء باستجواب الشاهد:

- س - هل أخطرتكم بأن العدو قد يدخل لكم من مكان معين؟
ج - من كل مكان.
س - هل كنت جاوياً ملحقاً بخدمة ضابط؟
ج - لا.

...

ثم إستجوبته المحكمة:

- س - من أين دخل العدو؟
ج - جاء معظمهم من النيل الأبيض.
س - ما شكل المكان (الذي دخلوا منه)؟
ج - ينتهي المتراس عند حوالي ٢٠٠ - ٣٠٠ متر من الشاطئ، وكان منسوب النيل يهبط يومياً، وكنا نحاول إصلاحه، لكن تقدمنا كان بطيئاً.
س - ما سبب موت باشجاويشك؟
ج - مات من الجوع بعد السقوط.
س - وفرج أفندي؟
ج - لقد قتل في المتراس وهو يحارب.
س - رأيتة.
ج - لا.
س - كيف علمت بمقتله؟

ج - إعتاد بعض جنودنا (المأسورين) أن يحصلوا على قطع من القماش لعمل رقع (في جيبهم) وقد راوه. أنا شخصياً لم أراه. أما الذين راوه فلم أعد أذكرهم.

س - ومن الذي أخبرك بمقتل فرج أفندي؟

ج - لا أذكر.

س - عندما غادرت التحصينات لتسلم نفسك. ماذا فعلت؟

ج - قفزنا لداخل الخندق وساعدنا بعضنا البعض للخروج منه.

س - كم منكم قفز بداخل الخندق؟

ج - لم أعد أذكر.

س - هل كانت بك قوه لإخراج أحد من الخندق؟

ج - نعم.

س - في ليلة السقوط: هل حضر مساعدوك لنجدةك؟

ج - نعم، في المتراس.

س - إذن المسافة بين الجنود كانت هي نفسها على المتراس؟

ج - كنا قريبون من بعضنا لنتمكن من الوقوف وإطلاق النار

س - هل كانوا هناك لحظة الهجوم؟

ج - نعم.

س - هل أمركم حسن بك بالقفز داخل الخندق أم قمتم بذلك بأنفسكم.

ج - قمنا بذلك بأنفسنا.

س - عندما قفزت: هل كان العدو قد دخل أم لا؟

ج - كانوا كثيرين من أمامنا ومن خلفنا. تم توفير حياة الذين قفزوا. أما الذين ظلوا في أماكنهم فقد قتلوا.

س - كيف علمت بأنك ستقذ حياتك إن قفزت؟

ج - لم تكن نعلم. لقد قفزنا هاربين من الذين كانوا وراءنا.

س - هل طلبت الرحمة؟ أم هم الذين رحموك؟

ج - لقد أخذوني وأخذوا بندقيتي وكيس (نخيرتي) وقالوا لي: "يا كافر. لماذا لم تنضم إلينا قبل ذلك؟

س - هل تلقيتم أي أوامر بعدم الدفاع عن أنفسكم؟

ج - أبداً. كلهم شجعونا (على الصمود).

س - عندما كنتم بالسجن: هل جردوا حسن بك من ملابسه؟

ج - نعم.

س - هل سمعت بموت فرج باشا من السجناء أم من الأنصار؟

ج - من المساجين ومن الأنصار.

س - هل سمعت أو رأيت معاملة سيئة لود الأحد؟

ج - سمعت.

- س - هل أكلت الصمغ وجمار النخل قبل السقوط مباشرة؟
ج - نعم.
- س - هل كانت بالمخازن أي تعيينات في يوم السقوط؟
ج - كان بها صمغ يكفي ليوم أو اثنين.
- س - كيف كانت تقسم التعيينات على السرية؟
ج - حسب الاحتياجات، أحياناً فقط.
- س - هل شاهدت المخزن قبل السقوط مباشرة؟ وهل كان به أي شيء قد تبقى؟
ج - نعم شاهدت المخزن. لكنني لم أر إن كان به أي شيء.
- س - هل الذين أسروا من الجنود وأبقي على حياتهم هم الذين قفزوا في الخندق فقط؟
ج - لا. من كافة الجنود
- س - أين قبضوا على حسن بك؟
ج - لا أدري.
- س - هل رأيت دخول الدراويش من باب الكلاكلة؟
ج - لا.
- س - هل لبست الطاقية عندما أسرت أم بعد ذلك؟
ج - بعد ذلك.
- س - هل قفزت بالبندقية وكيس الذخيرة في الخندق أم لا؟
ج - نعم. بهما.
- س - كم تبلغ المسافة من طابية المقرن وخطوط الدفاع بالقرب من النيل الأبيض؟
ج - ٧٠٠ - ٨٠٠ متر.
- س - ممن تكونت حاميتها؟
ج - من رجال المدفعية والشايقية.
- س - ومن كان الضابط الذي يقودهم؟
ج - فرج أنفدي على، وفيما بعد إبراهيم أفندي السوداني والذي مات هناك.
- س - لأي قيادة تتبع؟
ج - كانت ملحقة بفوجنا.
- س - عندما أودعت (الحبس) بالكلاكلة: هل كان كل الأسرى من كتبتك أم من مختلف الوحدات؟
ج - من مختلف الوحدات وشايقية وباشبوزوق.
- س - لكم من الوقت دافعت عن نفسك؟
ج - من ٩ صباحاً (عربي) حتى شروق الشمس.
- س - متى علمت بأن المهدي قد قرر الإبقاء على حياتكم؟
ج - بعد أسرنا.
- س - لماذا قفزت في الخندق؟

ج - رأيت رجالاً سبقوني إليه فمضيت على أثرهم.

س - هل تعرفهم؟

ج - لا. فقد كنا مشغولين بأنفسنا

س - عندما كنت في الخندق: هل كان بإمكانك الخروج منه بنفسك؟

ج - لا.

س - كم عمق الخندق؟

ج - إذا وقف رجل على كتف رجل آخر فقد يصل لحافته بالكاد.

س - عندما أفتحم العدو المتراس: هل ضرب البروجي الإنذار؟

ج - لا. لأنه لم يكن هناك ضرورة لذلك. فإطلاق النار كان مستمراً دائماً، كما أننا كنا نطلق النار طوال الليل.

س - هل تعلم في أي يوم من أيام الأسبوع سقطت بربر أو كردفان؟

ج - لا.

س - هل قتلت أي أحد أثناء دفاعك عن نفسك؟ وأي سلاح استخدمته؟

ج - لا. لم أر أحداً يسقط. كنت فقط أطلق النار.

وقرنت شهادته ثانية ثم انسحب الشاهد.

وقد استجوب سبعة آخرين من شهود الإدعاء، لكن شهاداتهم ليست بالقيمة التي تبرر رصدها.

وإتخذت المحكمة في التاسعة والنصف من صباح ٢٩ / ٦ / ١٨٨٧. وتقدم شاهد الادعاء الثالث عشر وهو ميخائيل أفندي بقطر، باشكاتب المعاشات سابقاً بالخرطوم. تم استجوابه من قبل الادعاء، وأفاد بالتالي:

لقد كنت بالخرطوم يوم سقوطها، كما أنني كنت بها طيلة فترة الحصار.

س - ماذا رأيت يوم سقوط الخرطوم؟

ج - كنت نائماً بمنزلي حتى دخله العرب وأخذوني، كما أخذوا أموالي. وبينما كانوا يقومون بذلك وصلت الأوامر بالرحمة.

س - من أين جاء العدو؟

ج - جاء من كل الجهات - بري، توتي، أم درمان، بحر أبيض، وغير ذلك.

س - هل تعلم بأي خيانة ارتكبتها أياً من الضباط بالخرطوم؟

ج - لم أر شيئاً، لكنني سمعت فيما بعد بأن فرج باشا وحسن بك بهنساوي قد قاما بذلك.

س - من أخبرك بذلك؟

ج - كل الأسرى، والعرب أيضاً.

س - ألم يحضر منهم أي أحد هنا؟

ج - لا علم لي، بل حتى لا أستطيع تعريفهم.

- س - هل تعرف حسن بك؟
- ج - نعم.
- س - هل عومل مثل الآخرين؟
- ج - نعم.
- س - ألم يتلق منهم مالاً؟
- ج - نعم من بيت المال. عشرة ريات في الأسبوع. هو وإبراهيم باشا فوزي.
- س - لماذا؟
- ج - لنفقاتهما.
- س - هل تلقيت منهم شيئاً؟
- ج - لا.
- س - هل تلقي أي شخص آخر مالاً؟
- ج - إبراهيم بك البورديني ومحمد أبو البلد (صراف المالية).
- س - ولماذا خص هؤلاء بتلك العلاوة؟
- ج - لا أدري.
- س - هل كان حسن بك في السجن عندما اقتادوك من منزلك إليه؟
- ج - نعم. ذهب منذ اليوم الأول.
- س - هل ضربوا حسن بك ليرغموه على تسليم أمواله؟
- ج - لم أر ذلك.
- س - هل كنت تذهب لغردون باشا؟
- ج - نعم، مرتين أو ثلاثة مرات.
- س - هل سمعت بأي خطابات كتبها أي ضابط للعرب؟
- ج - نعم. وكذلك عدد كبير من الناس ضباطاً وتجاراً. لقد سمعت ذلك من الباشا كاتب الذي قتل.
- س - هل سمعت قط بأن حسن بك البهنساوي قد كتب لهم؟
- ج - لا. لقد سمعت بأن غردون باشا كان غاضباً من ذلك الفوج. أما بالنسبة للفوج الأول فقد كان راضياً عنهم وضاعف مرتباتهم ثلاثة أضعاف. ولم يكن قط يرسل الفوج الخامس في أي دوريات أو غارات.
- س - لماذا كره غردون هذا الفوج؟
- ج - لأنهم لم يحاربوا، وبسبب من سلوك هذا الفوج كان غاضباً على كل المصريين.
- س - ومن أين لك علم بذلك؟
- ج - لقد سمعته.
- س - ممن؟
- ج - من غردون باشا بنفسه. وقد أمر رئيس الحسابات للصرف لرجال الفوج الأول وأرامل الجنود به، ولكن ليس للفوج الخامس لأنهم لا يستحقون ذلك، ولأنهم لم يقوموا بواجبهم.

س - هل قال لك أي شيء آخر، أو قاله بحضورك؟

ج - لا. لكنني سمعت شيئاً من أحد موظفي المالية.

س - ماذا سمعت منه؟

ج - سمعت عن الفوج الخامس، وأفعالهم، وبأن غردون كان غاضباً عليهم لإهمالهم لواجباتهم.

س - ما نوع إهمالهم لواجباتهم؟

ج - كان هناك سلك (شائك) خارج المتراس. وذات يوم وجده غردون باشا منزوعاً بالقرب من بحر أبيض وقد غضب الباشا غضباً شديداً وأمر بخصم قيمة سلك جديد من الضباط.

س - كم يبعد الجزء المنزوع من بحر أبيض؟

ج - بحوالي ١٢٠٠ متر

س - وكم نزع منه؟

ج - حوالي ٣٠٠ متر.

س - هل قام غردون باشا بالتحقيق في الأمر؟

ج - لا. فقد قال بأن الظروف الراهنة غير مناسبة. لكنه أصدر أمراً كتابياً لإيقاف مرتباتهم. وقد رأيت الأمر.

س - متى حدث ذلك؟

ج - حوالي منتصف ديسمبر.

س - هل رأي ذلك الأمر أي شخص آخر؟

ج - كان هناك آخرون رأوه. لكنهم قتلوا جميعاً.

س - من الذين أوقفت مرتباتهم؟

ج - كل ضباط الفوج الخامس، وضباط أوردي إسماعيل بك عبد الله.

س - هل تم إصلاح ذلك المكان؟

ج - نعم.

س - ماذا قيل بشأن من دمروا ذلك الجزء؟

ج - لقد قيل بأنهم الذين كانوا بالداخل. وقد قال غردون باشا نفس الشيء عندما تفقد المكان.

س - متى كانت آخر مرة ذهبت فيها إلى الاستحكامات؟

ج - في اليوم الذي سبق السقوط. ذهبنا لأداء عملنا هناك.

س - إلى أين توجهت؟

ج - لمصكر الفوج الخامس.

س - أي جانب كان لإسماعيل بك عبد الله.

ج - لا أعرف.

س - هل ذهبت للمتراس؟

ج - لقد ذهبت وألقيت نظرة لكنني لم أطف عليه.

س - هل كانت هناك أي فجوة بين المتراس وبحر أبيض؟

ج - لقد قيل بأن جانباً من المتراس كان قد أُنهار، وبأنه لم يعد بمقدور الجنود استخدامه. لكنني لم أره بنفسِي.

س - هل تعلم كل ما يتعلق بموضوع التعيينات؟

ج - نعم.

س - ماذا كان هناك من التعيينات قبل خمسة أيام من السقوط؟

ج - لا شيء. وقد اعتاد الجنود على جمع ما يجدونه في المدينة ابتداءً من أول يناير.

س - ممن أخذ غردون باشا ١٧٨ أردب ذرة التي عثر عليها؟

ج - لا أعلم بذلك.

س - أتظن بأن غردون باشا قد أمر بصرف ذرة للأهالي؟

ج - نعم. منذ بداية الحصار وحتى الأول من يناير.

س - هل يمكن أن تقول لنا أي شيء عن أي ضابط في المتراس، بهنساوي بك مثلاً؟

ج - لا.

س - هل تعلم بأي تواطؤ مع العدو من جانب بهنساوي بك؟

ج - لا.

س - أمتأكد أنت بأنه لم يكن هناك أي إهمال في أداء الواجب؟

ج - لا أعرف شيئاً محدداً عن إهمال الواجب لأن الإهمال كان عاماً من قبل كل الفوج (الخامس). إذ

أنني بعد السقوط رأيت أسلحتهم وذخائرهم (ملقاة) على المتراس، وأن معظم ضباط الفوج

وجنوده قد بقوا أحياء. أما ضباط وجنود الفوج الأول فقد دافعوا عن أنفسهم بجدارة وقتلوا.

س - أيمكنك تقديم دليل على أن أي ضابط قد تسبب، أو أمر، رجاله بعدم إطلاق النار؟

ج - لم أر ذلك. لكنني سمعت بأن فرج باشا وحسن بك بهنساوي قد أصدرتا مثل ذلك الأمر.

س - هل تعلم إذا ما كان اثنان من البروجية قد فرا للعدو وأن حسن بك قد شاهد ذلك؟

ج - لا.

ثم قام السجين باستجواب الشاهد:

س - كيف علمت بأن بعض الناس، بمن فيهم حسن بك، قد تسلموا مبالغ من بيت المال؟

ج - لقد سمعت، ورأيتهم يتسلمون المال.

س - وأين كنت أنت وقتها؟

ج - كنت في بيت المال، أسألهم الصدقة.

س - لأي سبب تصرف لهم تلك الأموال؟

ج - لا أدري.

س - وكيف كانت تسلم لهم؟

ج - بعد تقديمهم إيصالاً بذلك.

س - كم كولونياً كانوا بالفوج الخامس؟

ج - واحد فقط. هو حسن بك البهنساوي.

س - وكم صاعاً (راقداً)؟

ج - لا أدري.

س - وكم كولونيلاً في الفوج الأول؟

ج - واحد فقط.

س - وكم لفتانت كولونيل في الفوجين الأول والخامس؟

ج - لم أعد أذكر.

س - هل قام غردون باشا لترقية حسن بك؟

ج - نعم إلى رتب مدنية (الرتب السنوية).

س - ألا يعلم أي أحد غيرك، من الذين بالخرطوم، عما إذا كان غردون باشا غاضب على الفوج الخامس؟

ج - لا أعرف.

س - أتعرف أي أحد يمكن أن نسأله عن هذا الأمر؟

ج - لا أعرف. رغم أن واحداً منهم لا بد أن يعرف ذلك. وربما جاء ذلك في "يوميات غردون".

س - وأين كنت يوم سقوط الخرطوم؟

ج - في منزلي.

س - وماذا حدث لك؟

ج - أخذني الدراويش ولم يكونوا ليقولوني حتى يتسلموا كل أموالي. وأثناء تسليمي المال لهم جاءت الأوامر بالإبقاء علي حياتنا.

س - أين يقع منزلك هناك؟

ج - بالقرب من النهر (النيل الأزرق)، مقابل جزيرة توتي، شرق المدينة، وبالقرب من الكنيسة الكاثوليكية والتي كانت مستخدمة كمستودع للذخيرة.

س - هل تعلم بأن فرج باشا قد سلم منطقته أو عمل علي تسهيل دخول العدو؟

ج - لا أعلم، لقد سمعت بذلك فقط.

س - هل تعلم بأن حسن بك قد فعل ذلك؟

ج - لا أعلم، بل سمعت فقط.

س - هل عرفت بأن أي محطة قد سلمت بواسطة أي أحد؟

ج - لا أعلم.

...

لم يكن للإدعاء رغبة في استجواب الشاهد. لذلك استجوبته المحكمة:

س - كم يوماً احتجزت؟

ج - لثلاثة أيام.

س - وفي أي يوم رأيت المتراس؟

ج - في اليوم الثاني.

- س - وأين رأيته؟
- ج - بالقرب من النيل الأزرق. وفي اليوم التالي رأيت المكان الذي بالقرب من النيل الأبيض والذي كانت أسلحة الفوج الخامس مرمية به.
- س - وكيف رأيت تلك الأسلحة المرمية؟
- ج - كانت في المزاغل (فتحات الرمي)
- س - أين كان الجنود الذين قتلوا من الفوج الخامس؟
- ج - كانوا قلة، على المتراس.
- س - وفيما يختص بالفوج الأول، أين كانت أسلحتهم؟
- ج - كانت ملقاة بجانب (جثث) أصحابها.
- س - وأين كان القتلى من الفوج الأول؟
- ج - كانوا على المتراس، أسفل المنحدر. وكان البعض في القرية. لكن الجميع كانوا مكومين وكانهم كانوا يحاربون في مجموعة مجموعة.
- س - هل مرت بطول المتراس؟
- ج - بعد عشرة أو خمس عشرة يوماً.
- س - هل كان القتلى والسلاح لازال هناك؟
- ج - القتلى فقط. أما السلاح فلا.
- س - أين كان الجزء الموكل إلى الفوج الخامس؟
- ج - من بحر أبيض إلى حوالي ثلث أو نصف خط الدفاع. وكان هناك سرايا باشبوزوق تتبع للضابط القائد، هذا بجانب جنوده هو.
- س - هل قتلوا كلهم على الخطوط؟
- ج - كان هناك عدداً قليلاً من القتلى في ذلك القسم.
- س - ومن أي مكان قمت بعبور المتراس؟
- ج - بالقرب من بحر أبيض.
- س - هل مرت خلال بوابة أم من مكان ميسر آخر؟
- ج - من مكان ميسر سهل. فالمتراس كان منهاراً.
- س - ألم يكن هناك قتلى؟
- ج - بعض الجثث.
- س - والأسلحة؟
- ج - لا.
- س - كم المسافة بين الجثث؟
- ج - ٢٠٠ أو ٣٠٠ (متر).
- س - كم جثة رأيت؟
- ج - قليلاً جداً. عشرين أو ثلاثين.

- س - وفي النصف الغربي؟
- ج - كانوا كثيرين جداً في مكان القوات النظامية.
- س - أين كانت (مواقع) سرايا الباشبوزوق التابعين لحسن بك؟
- ج - على يسار الفوج.
- س - هل كان هناك كثير من قتلى الباشبوزوق بالمتراس؟
- ج - لم أشاهد ذلك.
- س - هل رأيت قتلى في باب الكلاكلة؟
- ج - نعم. كانوا بداخل المتراس.
- س - أي رجال كانوا؟
- ج - من الباشبوزوق والمتطوعين.
- س - هل رأيت نهاية المتراس بالقرب من بحر أبيض؟
- ج - لم يكن به قتلى.
- س - مم تكونت سرايا الباشبوزوق؟
- ج - من الشايقية والعبيد والسودانيين والمواليد الهجن.
- س - وكيف كان غردون باشا يعاملهم؟
- ج - كان يثق بهم ويرسلهم للقتال في الخارج.
- س - هل خرج الفوج الخامس أبداً وقاتل قتالاً سيئاً؟
- ج - كانوا للدعم فقط (في الخارج) وكانوا يستخدمون البواخر لكنهم لم يفلحوا.
- س - لماذا لم يفلحوا؟
- ج - لا أعرف.
- س - هل كنت معهم (مرة) في البواخر؟
- ج - لا.
- س - ألم يهاجم العدو الخرطوم ذات مرة؟
- ج - نعم، من بري.
- س - ألم يحدث أن هجم من ناحية بحر أبيض؟
- ج - كانوا قد شيدوا طابية هناك يطلقون منها النار. لكنهم لم يتقدموا.
- س - ألم يرد عليهم الفوج الخامس؟
- ج - نعم. وكانوا يردون عليهم من طوابي المقرن والكلاكلة.
- س - ألم يشرع المتمهدين في الهجوم فور وصوله؟
- ج - لقد هاجم أم درمان.
- س - ألم يقوموا بهجوم سوى الأخير؟
- ج - لا.
- س - هل هطلت أي أمطار في ديسمبر؟

- ج - لا أمطار ولا ضباب.
- س - هل كان العدو في جزيرة سنار يوم أن قطع السلك؟
- ج - نعم. لكن بعيداً جداً.
- س - ماذا جري لزوجـة حسن بك؟ ج - لم أسمع شيئاً عنها. لكن سمعت بأن المهدي قد أخذ إبنته.
- س - هل تعامل حسن بك في السجن أو تعاشر مع الأنصار؟
- ج - لم أر ذلك.
- س - هل سلموك أي شارة؟
- ج - لقد صنعت شارتي بنفسـي.
- س - ألم يعط المهدي جيباً وخمسة ريالات لبعض السجناء؟
- ج - نعم. وقد أعطي البعض ١٠٠ ريال.
- س - للجميع؟
- ج - للذين صادر منهم أموالاً.
- س - هل تعلم شيئاً عن أخذ المهدي لأموال حسن بك؟
- ج - لقد أخذ أموال الجميع.
- س - هل رأيت حسن بك في السجن؟
- ج - نعم. في كوخ في أم درمان وفي الخرطوم.
- س - هل رأيت أي أحد من الفوج الأول؟
- ج - لا. فقد قتلوا جميعاً.
- س - من كان معه عندما دخلت أنت السجن لأول مرة؟
- ج - إبراهيم بك فوزي.
- س - هل سمعت بأن الجنود بالمتراس قد أطلقوا نيرانهم يوم الهجوم؟
- ج - كان هناك ضرب بالقرب من مخازن البارود وقد سمعت أكثر الضرب قادماً من بري. لأننا كنا قريبين منهم. لكن كان بإمكانني سماع صوت الرصاص إن جاء من الجانب الآخر.
- س - متى ترقى حسن بك (للمنية)؟
- ج - قبل سنة أو سبعة أشهر من السقوط.
- س - هل حارب رجال الفوج الخامس جيداً في أم درمان؟
- ج - نعم.
- ثم انسحب الشاهد. وإنقضت المحكمة في الثانية ظهراً لتعاود الانعقاد في الساعة من صباح ٣٠ يونيه.

وعاودت المحكمة جلساتها يوم ٣٠ يونيه، الساعة صباحاً. وبعد أن قرئت إفادة الشاهد الأخير له، استدعي الشاهد الرابع عشر، وهو شاهد الإدعاء حسن أفندي عبد الله، وكيل المديرية. وبعد أن أدى القسم قام الإدعاء باستجوابه:

س - هل كنت بالخرطوم يوم سقوطها؟

ج - نعم.

س - وأين كنت؟

ج - في منزلي.

س - هل تعرف أي شيء عن كيفية دخول العدو للخرطوم؟

ج - كان السبب الأول هو جوع الحامية. لقد كانت حالتهم في منتهى السوء.

س - هل تعرف أي شيء عن الجنود والرجال الذين كانوا يغادرون المتراس ليهربوا؟

ج - كانوا يطلقون عليهم النار ويقتلهم.

س - هل تعرف أي شيء ضد أي ضابط؟

ج - لا أعرف إلا إشاعات، ماعدا أن فرج باشا قد فتح بوابة المسلمية، وأن العدو قد دخل من الجانب

التابع لحسن بك البهنساوي.

س - هل تعرف أي شيء ضد حسن بك؟

ج - أبداً، وكان بالمتراس حتى النهاية.

ثم قام السجين باستجوابه:

س - لأي فوج يتبع عمر أغا إبراهيم؟

ج - في وقت ما كان يعمل بالفوج الخامس ولا أعرف إن ظل مستمراً به أم لا؟

س - لكم من الوقت كان يعمل بالفوج؟

ج - حسبما أعلم، حتى نوفمبر.

س - متى فر إلى العدو؟

ج - قبل أربعة أو خمسة أيام من السقوط. وكان قد فر معه أربعة جنود ومعهم مرتبات الأوردي.

س - من أي مكان فر؟

ج - لا أعرف.

س - إتعرف إن كان غردون باشا قد رقي حسن بك؟

ج - نعم، إلي قائمقام ثم أميرالاي.

س - ألم يزد غردون باشا مرتبه خمسة جنيهاً في الشهر عندما كان كولونيلاً.

ج - لا أعرف.

س - ماذا حدث بعد فرار عمر أغا؟

ج - لقد سمعنا بأنه ذهب وأشار (للعدو) بالمناطق الضعيفة.

س - وماذا عملوا له؟

ج - عومل معاملة حسنة.

ثم قام المدعي باستجوابه:

س - هل علمت بأن أي ضابط كان قد سجن من قبل؟

ج - نعم. عبد الله بك إسماعيل، من الباشبوزوق، كان قد سجن حتى يوم السقوط بأمر من غردون باشا وذلك بعد أن حقق معه فرج باشا وحسن بك بهنساوي.

س - متى؟

ج - قبل شهر أو شهرين من السقوط.

س - هل تعلم إن كان حسن بك قد رأى عمر إبراهيم أثناء فراره، أو إن كان يعلم بعزمه على الفرار؟
ج - لا.

س - هل تعلم إذا ما تمت أي صيانة للمتراس بعد هذا الفرار؟

ج - لا أعلم. وكان غردون في اشد الغضب من الضباط لذلك.

س - ومن الذي أبلغ غردون باشا؟

ج - فرج باشا.

س - هل قام حسن بك بالإبلاغ لفرج باشا؟

ج - لا أدري. لكنه كان يبلغه دائماً بكل شيء.

ثم استجوبته المحكمة:

س - هل تعلم جيداً تحت من كان يعمل عمر أغا إبراهيم عندما هرب للعدو؟

ج - لا أعلم. لكنني فيما بعد علمت بأنه كان بالفوج الخامس.

س - من أي فوج وأي فصيل هرب الجنود للعدو؟

ج - من الفوج الأول ومن الباشبوزوق ولكن لم يهرب أي جندي من الفوج الخامس له. وقرئت الشهادة له كاملة ثم انسحب الشاهد.

أول شاهد للدفاع:

هو الملازم سيد أحمد عبد الرزاق، الكتيبة الرابعة من الفوج الخامس. وبعد أن أدى القسم أفاد بالآتي قبل أن يستجوبه المتهم: كنت في خطوط الدفاع بالخرطوم، كملازم في الفوج الخامس للمشاة، الكتيبة الرابعة، تحت قيادة الصاغ سعيد أفندي أمين والذي يتبع للأميرالاي حسن بك بهنساوي. كان يقود الفوج على خطوط الدفاع. لقد رماه غردون باشا لهذه الرتبة. كان مكاني إلى اليمين من بوابة الكلاكة. وحقيقة لم تكن هناك بوابة بالمعنى الحقيقي رغم أن دعائم الكبرى كانت قد أقيمت.

س: هل رأيت حسن بك في يوم السقوط؟

ج - نعم.

س - من الذي أبلغ أولاً عن الهجوم؟

ج - المجموعة التي على النيل الأبيض.

س - كيف كان دفاع الفوج الخامس.

ج - دفاعاً جيداً جداً.

س - هل قتل كثير من رجال الفوج الخامس؟

- ج - كثيراً. ولكن لا أعلم العدد بالضبط.
- س - عند السقوط: هل ترك العدو في ذلك اليوم السلاح مع القتلى؟
- ج - لا. لقد جمعوا الأسلحة.
- س - هل فر أي رجل من الفوج الخامس أثناء الحصار؟
- ج - لا.
- س - هل كان غردون باشا غاضباً على الفوج الخامس؟
- ج - لا.
- س - هل يصرف الفوج الأول أكثر مما يتسلم الفوج الخامس؟
- ج - أبداً.
- س - ما هي آخر مرة تسلمتم فيها تعييناتكم؟
- ج - حتى نهاية ديسمبر.
- س - وابتداء من أول يناير، ماذا كنتم تأكلون؟
- ج - جمار النخل المطحون والصغ. وقد تورمت أرجل الجنود وأجسامهم من جرائها.
- س - وكيف كان حال الجنود؟
- ج - كانوا مرضي.
- س - هل كانوا بدرجة من القوة للقتال بدأ بيد؟
- ج - لا.
- س - ماذا حدث للناجين من الكتيبة الأولى؟
- ج - استخدمهم الدراويش كجنود، وسلموهم بنادق، لأنهم كانوا من السودانيين.
- س - هل كان السلك الشائك محطماً أمام الخطوط؟
- ج - لا.
- س - هل تعلم بأن غردون باشا قد زاد مرتب حسن بك بخمسة جنيهات في الشهر؟
- ج - عندما كان قائماً.
- س - وهل سحب هذه الزيادة في المرتب حتى يوم السقوط؟
- ج - كان يصرفها حتى آخر دفعة.
- س - لماذا زيد مرتبة؟
- ج - لعمله الشاق المثابر.
- س - هل رأيته في السجن؟
- ج - نعم. لقد ساقونا سوياً إليه.
- س - هل كان مركزك بالقرب من حسن بك؟
- ج - نعم. في مرأى بصره.
- س - ماذا شاهدت عندما بدأ الهجوم؟

ج - رأيت العدو قادمًا من خلفنا. جاء العرب صائحين بعد أن إندفعوا من بحر أبيض. أطلقنا النار في ذلك الاتجاه، وعندما رأينا العدو من خلفنا شكلت السرية الثالثة والرابعة مريعاً وظللنا نطلق النار حتى نحطم المريع. ثم تشكلنا في مجاميع وتراجعنا نحو الفوج الأول. لكن العرب اخترقوا تجمعاتنا وجرى صراع عنيف قتل فيه بعضنا وتم أسر البعض الآخر.

س - وماذا كان يفعل حسن بك؟

ج - كان يشجعنا.

س - هل كان معكم أم في مكان آخر؟

ج - كان معنا.

س - هل رأيته بأم عينيك عندما أسر؟

ج - نعم.

س - هل عومل معاملة حسنة أم سيئة؟

ج - معاملة سيئة.

س - وبعد أن ضربوه، هل كانت آثار الضرب واضحة عليه؟

ج - نعم.

س - وماذا فعلوا بزوجاته وأمواله وأبنته؟

ج - أخذ المهدي أبنته غنيمة وتزوج العرب بامراتيه كما أخذوه إلى منزله وصادروا كل أمواله منه.

س - وكم لبثت في السجن؟

ج - سبعة أشهر.

س - وكيف عومل حسن بك؟

ج - كان مثلنا. كلنا تعودنا على الشحذة والاستجداء، لكنني شخصياً لم أره يستجدي.

س - هل سمعت أو عرفت أبداً بأي خيانة من جانبهم؟

ج - لا. لم أسمع أبداً بذلك.

س - من الذي فتح بوابة المسلمية؟

ج - فتحتها العدو بعد أن إحتل المدينة.

س - من هم الذين كانوا مسئولين عن باب الكلاكلة؟

ج - كانت هناك طابية، بها باشبوزوق ومدفع.

س - ألم يخرج رجال الفوج الخامس أبداً في غارة؟

ج - لقد خرجوا.

س - وهل كان الفوج الأول يرسل جنوداً أيضاً؟

ج - نعم.

س - هل كان فرج باشا قائدكم العام؟

ج - نعم.

س - هل كان فرج أو غردون باشا يفضل السودانيين على المصريين؟

ج - لا. بل يكافئ من يقوم بخدمة طيبة من كلا الجانبين.

س - هل كان رجال حسن بك يطيعونه كما ينبغي؟

ج - نعم.

س - أكان غردون باشا يحبه؟

ج - نعم.

س - هل كان كل شيء يجري على ما يرام في قيادته؟

ج - نعم.

س - هل أكلتم لحمًا قبل يومين أو ثلاثة من السقوط؟

ج - لا. ولكن قبل أسبوعين من السقوط أكلنا لحمًا ليوم واحد.

س - أتعرف المدعو عمر أغا إبراهيم؟

ج - نعم. كان من الباشبوزوق وأعتقد بأنه سنجق. وكان ملحقًا بالفوج الأول.

س - هل الحق يوماً بالفوج الخامس؟

ج - لا أعرف.

س - وماذا تعرف عنه؟

ج - لقد صرف غردون باشا مرتب نصف شهر لرجاله، فأخذها وفر بها.

س - هل فر وحده؟

ج - نعم، وحده.

س - هل حدث أن سمعت، حتى يوم السقوط، بأن لحسن بك مراسلات مع العدو؟

ج - أبدًا.

س - هل سمعت أبدًا بأنه، وحتى يوم السقوط، كان قد زار كردفان أو دارفور؟

ج - لا.

س - من كان القادة بالمتراس؟

ج - بخيت بك بطراكي للفوج الأول وحسن بك للخامس.

س - هل سمعت بأن حسن بك قد تسلم مالا أثناء سجنه من بيت المال؟

ج - لا. ما عدا أن كلّا منا كان يتسلم قرشاً في الأسبوع.

س - عند ما قام الفوج الخامس بغارة من باب المسلمية قبل السقوط، فماذا حدث؟

ج - لقد قتلوا عرباً وأمرأء.

س - وماذا فعل غردون باشا لهذه القوة؟

ج - أرسل الموسيقى العسكرية، ومعها إبراهيم باشا فوزي لإستقبالهم في البوابة. كما أرسل تلغرافاً

بترقية كل ضباط الفوج.

س - متى كان ذلك؟

ج - الثلاثاء الأول من يناير ١٨٨٥.

س - هل قام الفوج الخامس بغارة من بحر أبيض؟

ج - يوم الإثنين ٦ رمضان. وقتلوا أميراً وبعض العرب.

س - أخبرنا بما حدث عندما خرجوا بالبواخر وقتلوا (العدو)؟

ج - تم ذلك بالبأخرة المسماة (المنصورة) بقيادة يوسف أفندي عرفت، الأكجوتات ميجر، وشخصي. وقد أرسلنا في دورية استكشافية لخمسة أيام على النيل الأبيض. كان ذلك عند إحتدام الحصار، وعندما وصلنا أمام شجرة محو بك أطلق العدو علينا النار. وبعد ذلك وصلنا إلى جزيرة وكان بها بعض العرب وضأن. قتلنا العرب وغنمنا الضأن. تبعد الجزيرة بأربعة ساعات من شجرة محو بك. ثم عدنا للخرطوم بالبهاالم وبرؤوس وسلاح العرب. كان هذا، على ما أظن، في شعبان ١٣٠١ (مايو - يونيه). وزعت البهاالم مع التعيينات وأعطونا بعضها.

ثم إستجوبه المدعي:

س - هل تعرف غردون باشا؟

ج - بالرؤية فقط. لأنني لم أتحدث إليه.

س - أتعرف مدى حبه لحسن بك؟

ج - كنت في نفس الفوج مع حسن بك. وكانت تصلنا ملاحظاته.

س - أي نوع من الملاحظات؟

ج - خطابات وتغرافات.

س - هل سمعت أبداً من قم غردون بأن حسن بك كان صديقاً له؟

ج - لا. بل من المترجم.

س - ألا يتحدث غردون باشا العربية؟

ج - لم أسمعه قط.

س - هل كان غردون باشا راضياً عن الفوج الخامس؟

ج - نعم. وقد عرفت ذلك من الملاحظات التي كان يبديها المترجم عندما كان يقوم بجولاته.

س - ولكن كيف عرفت ذلك بالضبط؟

ج - من ملاحظاته في جولاته، ومن أوامره.

س - من أين دخل العدو يوم السقوط؟

ج - من بحر أبيض.

س - هل كنت مع حسن بك طوال الوقت؟

ج - لا. لأنني لم أنضم إليه (إلا بعد تشكيلنا للمربع، وذلك عندما جاء إلينا قادماً من السرايا الثالثة والثانية.

س - بأمر من شكلتم المربع؟

ح - بأمر إبراهيم بك صالح.

س - هل صدر الأمر بالبوري (البروجي) أم شفوياً؟

ج - بالبوري - البوق.

- س - أين كانت نقطة التجمع (للمربع)؟
- ج - في المكان الذي كان به إبراهيم بك.
- س - ما هي الأوامر التي تلقاها المربع؟
- ج - أن نطلق النار. وقام الجانبان الغربي والشمالي بالرمي. أما الجانبان الآخران فلم يطلقا النار.
- كان المربع في حالة "بيادة ردما". ثم أمرنا بالسير "ساعة" (اليمين در) نحو الفوج الأول.
- س - في أي وقت أمرتم بتشكيل المربع؟
- ج - عند الفجر، عندما جاعنا العدو من خلفنا.
- س - ألم يهاجمكم العدو من الأمام؟
- ج - لا
- س - هل كان رجالك يطلقون النار عندما صدر الأمر (من البروجي) بتشكيل المربع؟
- ج - نعم، على الجانب الأيمن.
- س - هل كان بالمتراس أي مدافع؟
- ج - مدفع كروب واحد بطابية الكلاكلة.
- س - من كان القائد المسئول عن المدفع؟
- ج - من كان القائد المسئول عن المدفع؟
- ج - لا أعرف.
- س - ماذا حدث للمدفع؟
- ج - أطلق النار
- س - هل إنضم المدفعجية إليكم؟
- ج - لا.
- س - عندما شرعتم لتكوين المربع: هل لازال المدفع مستمراً في الضرب؟
- ج - نعم. حتى إستلمه العرب.
- س - هل كنت مع حسن بك عندما أخذ؟
- ج - نعم.
- س - هل شاهدت كل ما جرى له؟
- ج - نعم.
- س - أين كان ذلك؟
- ج - في المتراس، بين الكلاكلة والمسلمية.
- س - هل أخذوكما وحدكما؟
- ج - لا.
- س - هل أخذوه لداخل الخندق؟
- ج - نعم علي المتراس.
- س - أين إنضم حسن بك للمربع؟

ج - عندما تشكل. وقد وقف بداخل المربع ومارس إدارته.
س - من من الضباط الذين كانوا بالمربع قد جاء إلى القاهرة؟
ج - لا أدري.

س - ما هو مرتب حسن بك؟
ج - أكثر من ٦٠ جنيهاً في الشهر.
س - وكيف عرفت بأنه نال زيادة خمسة جنيهات؟
ج - عندما تمت ترقية، تقدم بالتماس بذلك.
س - عندما أسرتكم، ماذا فعلتم بأسلحتكم وذخائركم؟
ج - أخذها العدو منا

لم يرغب السجن في استجوابه. وشرعت المحكمة في ذلك:
س - أين كان سعيد أفندي أمين؟

ج - جريحاً. وظل بغرفته في بري منذ الثالث من يناير.
س - وماذا كان يفعل هناك؟
ج - قمنا بغارة من جناحهم.
س - كم سرية خرجت معكم؟
ج - أربع سرايا وباشبوزوق، بقيادة سعيد أفندي أمين، وذلك في الثالث من يناير.
س - ومن تلك السرايا الثالثة والرابعة من كتيتك: ألم يحضر منهم أحداً إلى هنا؟
ج - نعم. محمد أفندي إمام، وهو ملازم بالسرية الرابعة.
س - هل تعرف جاويشاً يسمى يوسف عجور؟
ج - نعم. كان بالسرية الثانية.

س - عندما ضرب البروجي نوبة تشكلوا مربعاً هل كان ذلك نداءً عاماً؟
ج - لا. بل للسريتين فقط.

س - لماذا لم تنضم السريتين الآخرين لكم؟
ج - كان فرج أفندي على هو قاتدهم؟

س - متى فتح باب المسلمية؟
ج - في منتصف اليوم. وقد أخذونا من خلاله.
س - وكيف أخذوك؟

ج - ربطوا أيدينا وراء ظهورنا.

س - هل شاهدت أيّاً من ضباط الفوج الأول بالسجن؟

ج - نعم. ثلاثة أو أربعة، مع نسائهم وأطفالهم. لكنني لا أنكر أسماءهم.

س - من هو عمر أعا؟

ج - رجل أسود. ولا أدري موطنه الأصلي.

- س - عندما يصرف لك (راتبك): بأي عملة كان ذلك؟
 ج - بعملة الورق.
- س - طوال الشهرين الأخيرين؟
 ج - لأكثر من شهرين. لكن الرجال تسلموا نصف مرتبهم في ديسمبر بالنقد (بخلاف العملة الورقية).
- س - من كان مترجم غردون؟
 ج - رجل أبيض. ويبدو من شكله أنه لم يكن مصرياً. رجل طويل القامة ونحيف. ولا أنري إن كان مسلماً أم لا.
- س - من هم الضباط الذين كانوا بالمربع؟
 ج - إبراهيم أفندي صالح ويوسف أفندي الديب وإبراهيم أفندي النقر والسيد أفندي الخولي، وقد قتلوا جميعاً. هذا بجانب الضباط الذين ذكرتهم من قبل.
- س - وأين كان يقف عمر أغا؟
 ج - بالقرب من بري، علي ما أعتقد.
- س - متي ذهب فاراً للعدو؟
 ج - قبل عشرة أيام من السقوط تقريباً.
- س - هل كان فرج باشا معكم في السجن، وكيف قتل؟
 ج - نعم. لقد أخذوه ليظهر أمواله ثم قتلوه فيما بعد. ولقد سمعت بأنهم قتلوه لخيانته.
- س - عندما كنت في السجن، ألم تسمع أبداً بمن الذي كان السبب في دخول العدو؟
 ج - عمر أغا.
- س - كيف كنت تعلم بحالة حسن بك في السجن.
 ج - لأنني كنت أبيع الماء. وقد شاهدته جالساً في صمت.
- س - ما هي قوة العدو؟
 ج - أكثر من ٥٠,٠٠٠ رجل.
- س - أي نوع من العملة كنت تحصل عليها في السجن؟
 ج - أربعة قروش نحاسية، لأننا كنا نشكو من الجوع. ويتسلم كل سجين نفس المبلغ.
- س - هل شاهدته وهو يتسلم "قروش"؟
 ج - لا. لم أشاهده.
- س - هل شاهدت قدوم العدو من بحر أزرق يوم السقوط؟
 ج - لا. بل سمعت إطلاق النار من هناك.
- س - من كان المسلول عن بحر أبيض؟
 ج - عثمان حشمت، ومن تحته يوسف أفندي عرفت.
- س - هل كان عثمان بك يعمل تحت حسن بك بهنساوي أم لا؟

ج - من ناحية إدارية، نعم. أما من ناحية القتال، فلا. وإنفضت المحكمة في الثانية وخمسة دقائق بعد الظهر، لتتعد يوم الإثنين التاسعة صباحاً.

وانعقدت المحكمة في العاشرة من صباح الرابع من يولييه ١٨٨٧ لتستمع لشاهد الدفاع الثاني، وهو محمود آغا السيد، بلك باشي الخرطوم، من سرية أحمد بك عبد القاسم، والملحق بالفوج الأول. وبعد أن أدي القسم أفاد بالتالي: "إنني أعرف حسن بك بهنساوي. فقد كان كولونياً بعد أن رماه غردون باشا. وكان يخيت بك بطراكي كولونياً للفوج الأول".

تدخل الادعاء وتذكر أن موضوع رتبة حسن بك ليست بمحل خلاف، إذ أن هنالك خطاباً موقعاً من غردون باشا، ومؤرخاً بالربيع والعشرين من شوال ١٣٠١هـ، بترقية ٦١ ضابطاً من الفوج الخامس، كان من بينهم حسن بك بهنساوي، إلى رتبة كولونيل (١٦ / ٨ / ١٨٨٤).

س - ما هي أول إشارة عن اقتراب العدو؟

ج - أفادني الحارس بأنه سمع صوت البوق بندااء "رنهار" كونوا يقتلوا - من ناحية بحر أبيض.

س - أليدك علم إن كان الفوج الخامس قد أدى واجبه؟

ج - لقد حاربوا جيداً.

س - أقتل كثير منهم؟

ج - نعم. ومات الكثيرون من كل الأفواج. ومن الفوج الخامس قتل أكثر ممن قتلوا في الفوج الأول.

س - أسمعت المدافع (تقصف) من بحر أبيض؟

ج - نعم.

س - هل ترك الأنصار السلاح بجوار القتلى.

ج - نعم.

س - وبعد اقتحامهم بيوم: هل رأيت أسلحة كثيرة مع القتلى؟

ج - لا أعلم متى جمعت أسلحة القتلى.

س - هل تعرف أي قارين من الفوج الخامس؟

ج - لا.

س - ومن الفوج الأول.

ج - نعم. كما حاول ٢٢ منهم الفرار لكنهم رموا بالرصاص.

س - هل كان كل الفوج الأول من السودانيين؟

ج - كل الجنود. أما بعض الضباط فكانوا مصريين.

س - ومن أين جاءوا بهم؟

ج - من السودان.

س - هل سمعت أبداً بغضب غردون باشا على الفوج الخامس؟

ج - أبداً.

س - هل كان يصرف للفوج الأول أكثر من رجال الفوج الخامس؟

ج - أبداً هما متساويان.

س - هل خرج الفوج الخامس وقَاتِل قبل سقوط الخرطوم؟

ج - نعم.

س - أتذكرهم عند ما خرجوا ثم عادوا بين التهليل والجوائز وفرق الموسيقى؟

ج - نعم. وكان ذلك في بداية شهر السقوط.

س - متى صرفت آخر تعيينات للجنود؟

ج - لم يصرف شيء خلال يناير، بعد اليوم العاشر منه، وبعد ذلك كنا نأكل ألياف النخيل.

س - ومتى أكلتم الصمغ؟

ج - بعد نفاذ المؤونة، وقبل أكل ألياف النخل.

س - وكيف كانت حالة الجنود (وقْتَذاك)؟

ج - ضعاف، لا قوة بهم.

س - هل عاش كثيرون من الفوج الأول؟

ج - نعم كثيرون.

س - هل كنت تعلم بأن حسن بك كان يصرف ٥٠٠ قرش زيادة على مرتبه؟

ج - نعم.

س - لماذا؟

ج - عندما كان بكباشياً تحت نصحي باشا. ولكن لا أدري لماذا.

س - هل رأيت حسن بك في السجن. ومن الذي وضع هناك أولاً؟

ج - نعم. وقد وضعنا هناك سوياً في نفس اليوم. وقد ساقوه أمامي وكان يعامل مثل معاملتنا. كان

بعض (الانصار) يمسون به وكانت يداه مربوطتان خلف ظهره.

س - هل كانت عليه آثار الضرب؟

ج - لا.

س - هل بقي في السجن أم أرسل للخرطوم؟

ج - أرسل للخرطوم في اليوم الثالث.

س - ومتى أعيد ثانية للسجن؟

ج - لم أره لمدة ٧-٨ يوم.

س - وكيف كانت حالته؟

ج - لقد ضرب وقد تمزق لحم وجهه من الكرباج.

س - هل عرفت ما فعلوه له؟

ج - لقد أخذوه ليريهم أمواله وقد سمعت بأنهم ألقوه في بئر وفي البالوعات وغيرها حتى يخرج لهم

ماله من هناك.

س - وماذا فعلوا بالنساء؟

ج - أخذهم العرب.

س - كم لبثت في السجن؟

- ج - تسعة أشهر وقد هربت منه قبله.
- س - عندما كنت في السجن هل حدث أن رأيته وقد تحسن حاله؟
- ج - لا.
- س - هل سمعت بأنه كان خائناً؟
- ج - لا.
- س - هل أعطى المهدويون مالاً لأي من السجناء أو لحسن بك؟
- ج - أبداً، ولا قرش واحد، أو حتى له هو.
- س - أتعرف عمر إبراهيم الفكي؟
- ج - كان من السناجق الملحقين بالفوج الأول الكتيبة الأولى. وقد فر ومعه حوالي ثلاثين جندياً قبل شهر من السقوط.
- س - هل علم غردون وفرج بلشا بفراره؟
- ج - نعم.
- س - وماذا حدث له؟
- ج - لا شيء. فهو غير مسجون ومرتاح لوضعه.
- س - هل عمل أبداً في الفوج الخامس؟
- ج - لا.
- س - من أين هرب؟
- ج - من محطته، بين الكلاكلة والمسلمية.
- س - هل تعرف كيف قسم خط الدفاع عن الخرطوم؟
- ج - إلى أربعة أقسام - (١) بري وحتى شرق المسلمية تحت بخيت بك. (٢) محمد بك إبراهيم ومسئول حتى باب الكلاكلة تقريباً. (٣) من الكلاكلة حتى باب النصر تحت حسن بك بهنساوي. (٤) من هناك حتى بحر أبيض تحت عثمان بك حشمت.
- س - هل يقود حسن بك ويخيت بك القسمين الآخرين؟
- ج - نعم. إلا في حالات القتال.
- س - ما مدى قوة المقاتلين في الخرطوم؟
- ج - ٦٠٠٠ جندي من كل الرتب بمن فيهم المتطوعون.
- س - وكم رجلاً كان على المتاريس؟
- ج - لا أعرف.
- س - وكم عدد الانتصار المهاجمين؟
- ج - أربعمائة ألف.
- س - هل رأيت حسن بك وهو يشحذ؟
- ج - نعم.
- ثم استجوبه الادعاء:

- س - ما نوع النداء الذي صوت به البروجي؟
ج - زنهار.
- س - هل صوت بزنهار أم كبسة؟
ج - زنهار.
- س - وأين كنت؟
ج - بالقرب من بري
- س - وكم تبعد نقطتك عن باب المسلمية؟
ج - مثل المسافة من هنا (مكتب الحربية) وحتى المالية (حوالي ٦٠٠ ياردة).
- س - ومن الكلاكلة للمسلمية؟
ج - من الأربكية حتى القلعة (٢ ميل تقريباً).
- س - ومن الكلاكلة حتى باب النصر (نصر بك)؟
ج - مثل المسافة من هنا وحتى قصر عابدين (٨٠٠ ياردة).
- س - ومن باب النصر حتى مكان دخول العدو؟
ج - نفس المسافة.
- س - هل بإمكانك أن ترى كل هذه المسافة؟
ج - ليس بالليل.
- س - أرايت القتل بأم عينيك؟
ج - نعم. فيما بعد.
- س - وهل المدافع التي أطلقت من بحر أبيض مدافعنا أم مدافع العدو؟
ج - مدافعنا.
- س - ماذا تفهم عن معنى (خيانة) التي تقول أن حسن بك كان متهماً بها؟
ج - لم يقم بعمل شيء ضد الحكومة.
- س - هل كانت كل أعمال حسن بك مشرفة وهل أدى واجبه المنوط به؟
ج - نعم.
- س - هل أخطر حسن بك غردون بهجوم العدو؟
ج - لا. لا أنري.
- س - وكيف قاتلوا؟
ج - أولاً على المتراس، وبعد ذلك في جماعات.
- س - هل كنت تعمل تحت قيادة حسن بك؟
ج - لا.
- س - ماذا كان حسن بك يرتدي عندما رأيته وعليه علامات الضرب المبرح؟
ج - قميص وينطلون فضفاض.
- س - هل اتصل أي أحد بالعدو قبل يومين أو ثلاثة من السقوط؟

ج - لا.

ثم استجوبته المحكمة:

س - ما كنتم تأكلون قبل الصبح؟

ج - أحياناً تعيينات كاملة وبدأت نكل بعد ذلك.

س - هل فر عمر أغا ليلاً أم نهاراً؟

ج - ليلاً.

س - متى بدأت إطلاق النار من بري؟

ج - بعد أن جاءونا من داخل المدينة.

س - هل سجنتم جميعاً في مكان واحد؟

ج - لثلاثة أيام، وبعد ذلك ذهبنا حيث شئنا.

س - من رأيت هناك من رجال الفوج الأول؟

ج - الكولونيل سرور بهجت، من الكتيبة الثالثة، واليوزباشي حسن حسني والملازم محمد علي وبعض الجنود. لكنني لا أعرف ضباط الفوج الخامس.

س - وكيف أدركت بأن حصن بك لم يقم بأي خيانة؟

ج - لو كانت هناك خيانة لكنت قد سمعت بها.

س - ألم تسمع بأي خيانة (من أحد) في السجن؟

ج - لا.

س - هل كانوا يعطونك قرشاً كل أسبوع في السجن؟

ج - للنساء والمدنيين، يعطونهم، ولكن ليس للجنود.

س - ألم تطلب منهم ذلك القرش؟

ج - نعم. لكنني جلدت بدلاً عنه.

قرنت إلفادته له ثم تسحب الشاهد

...

شاهد الدفاع الثالث:

هو إسماعيل أغا حسن (بروجي أو ردي السرية)، من سرية عبد الله بك إسماعيل. وبعد أن

أدي القسم قال:

لقد كنت بالخرطوم يوم سقوطها، وأعرف حسن بك بهنساوي. كان فوجه الخامس، وكنا ملحقين به فقد كنا من الباشبوزوق. كنت في خط دفاع بحر أبيض. وفي ليلة السقوط اقتحم العرب الخرطوم واستلموها. وعندما كانوا قد بدأوا الهجوم، كنا في مراكزنا في المكان الذي لم تكن به أي تحصينات. لم يستطع الجنود الدفاع عن المكان وإستلمه العرب. كان الجنود يتضورون ويموتون من الجوع ورغم هذا فقد دافعوا عن أنفسهم بقدر المستطاع.

- س - لماذا لم يكن هناك خندقاً بجوار النيل الأبيض؟
- ج - لقد دمره النهر. وحاول الجنود إصلاحه ويسبب نيران العدو أوقف غردون محاولتهم.
- س - هل رأيت حسن بك ليلة السقوط؟
- ج - نعم وكان يقوم بطوافه علينا ورأيت في قسمنا بخط الدفاع.
- س - هل سمعت أبداً بأي شكوى بخصوص أداء حسن بك لواجبه؟
- ج - لا. أبداً.
- س - هل رأيتَه عندما هجم العدو؟
- ج = لا.
- س - هل سمعت بما قام به؟
- ج - لا.
- س - ألم تسمع بما فعله بالطابية؟
- ج - سمعتها تطلق النار والقذائف.
- س - هل خرج الفوج الخامس للقتال مرة؟
- ج - نعم. وكنت معهم في معركة ود الترابي وفي معارك السبت والخميس.
- س - أي خميس؟
- ج - قبل شهر من السقوط.
- س - وهل عدتم منتصرين في معركة ود الترابي؟
- ج - نعم.
- س - هل رأيت البهنساوي في السجن وكيف كان يعامل.
- ج - نعم وكان يلقي معاملة سيئة. كان رأسه عارياً ويرتدي قميصاً وبنطلوناً كما رأيتَه يشحذ.
- س - هل سمعت قط بأنه كان قد تلقى مالاً من بيت المال؟
- ج - لا.
- س - كم لبثت في السجن؟
- ج - أربعة وعشرين شهراً.
- س - وكم مكث حسن بك في السجن؟
- ج - أيضاً عامين وكنت أراه عادة.
- س - رأيته يضرب يوماً؟
- ج - نعم.
- س - وماذا حدث لزوجاته وأبنته؟
- ج - أخذهم العرب.
- س - هل كان حراً في الذهاب والإياب؟
- ج - لا. فقد كان هناك حارس (يراقبنا).
- س - وكيف هرب؟

- ج - تخلص من الحارس يوم العيد الكبير
س - وقبل هروبه: هل كان حاله قد تحسن؟
ج - لا.
- س - من هرب منكم قبل الآخر؟
ج - حسن بك.
- س - هل سمع بذلك المهدويون؟
ج - نعم.
- س - وماذا فعلوا؟
ج - أرسلوا من يطارده.
- س - ومتي رأيته مرة أخرى؟
ج - في الحبشة. في مكان يدعي ولكايت.
- وتوقف الإدعاء عن الأسئلة.
- ثم استجوبته المحكمة:
- س - هل ضربت (الكبسة) قبل الهجوم؟
ج - نعم قبل ربع ساعة منه.
- س - وعندما حدث الهجوم: هل كان الجنود في مواقعهم؟
ج - نعم: الذين استطاعوا الوقوف على أقدامهم.
- س - كيف عرفت بأن غردون باشا قد أوقف إصلاح (الجزء المنهار) من بحر أبيض؟
ج - من الأمر الذي صدر.
- س - هل كنتم تعملون (فيه) ليلاً؟
ج - أبداً.
- س - من كان سنجقكم؟
ج - عبد الله بك إسماعيل؟
- س - هل كنتم جميعاً معاً، وأين؟
ج - نعم، بين الكتبية الأولى والكتبية الرابعة.
- س - هل سجن عبد الله بك؟
ج - نعم، بواسطة القمندان حسن بك البهنسلاوي. لقد حبس داخل الفوج وأفرج عنه بعد ستة أو سبعة أيام، ولا أدري من أمر بالإفراج عنه، كما لا أدري لماذا سجن. وقد كان معنا يوم السقوط.
- س - في أي طابية قلت أن حسن بك كان بها؟
ج - لا أعرف أسمها، لكنها كانت بالقرب منا.
- س - هل كان حسن بك يطوف ويمر عليكم كل ليلة؟
ج - نعم. في كل يوم وكل ليلة.

س - عندما خرج الفوج الخامس (للغارة)، من القائد؟
ج - سيد أفندي أمين. وقد خرجت سريتان من الكتيبة.
قرئت هذه الإفادة للشاهد ثم انسحب.
وأنفضت المحكمة حتى التاسعة صباحاً من يوم الخامس من يولييه ١٨٨٧.

وفي التاسعة والنصف من صباح الخامس من يولييه إستئنفت المحاكمة:

الشاهد الرابع للدفاع :

الملازم ثاني إبراهيم أفندي حسنين، من الكتيبة الرابعة، الفوج الأول، وبعد أن أدي القسم قال:

لقد كنت بالخرطوم يوم سقوطها، على المتراس. وأعرف حسن بك البهنساوي. لقد كان كولونياً للفوج الخامس. وكان قائدي هو الصاغ سليمان أفندي نشأت وقائد فوجي هو بخيت بك بطراكي. وكان موقعي بين بوابة المسلمية والكلالة.

س - هل كان حسن بك نشطاً في أداء واجباته؟
ج - نعم.

س - وكيف تعرف؟

ج - من مروره وطوافه وأوامره وسلوك جنوده.

س - هل كان يمر في الأسبوع مرة أو مرتين؟

ج - مرتين في الأسبوع.

س - هل كان يمر عليكم في المتراس؟

ج - لا. بل يطوف حتى نهاية منطقته.

س - كم كنت أنت من باب الكلالة؟

ج - بحوالي ١٠٠ مقر. وكنت أشاهده عند طوافه.

س - أين كانت رئاسته؟

ج - في باب الكلالة.

س - وكيف تعرف إن كان يطوف مرة أو مرتين في الإِسبوع؟

ج - بمستطاعي رؤية ما يجري بخطوط الدفاع.

س - هل كان جزءاً من المتراس منهاراً؟

ج - نعم - بالقرب من بحر أبيض. كانت الأرض رملية وقد جرفت مياه النهر. وعادة ما كان النهر يدخل في الخندق ويدمره.

س - هل كان ضمن طواف حسن بك المرور على الجزء المنهار؟

ج - نعم. وقد أمر بإصلاحه وشرع في ذلك.

س - وكيف عرفت؟

ج - كانت ترسل من فوجنا فرقاً للصيانة، وكنت أراها.

- س - لماذا لم يتم إصلاح الجزء المنهار؟
- ج - لقد كان العدو يواصل إطلاق النار (علي فرق الصيانة).
- س - أذلك هو السبب الرئيسي؟
- ج - كان ذلك.
- س - كم قتل من الرجال هناك؟
- ج - ثلاثة في يوم واحد.
- س - هل كان الجزء الذي يرمم يفرق مرة أخرى بعد حفره؟
- ج - نعم.
- س - لكم من الزمن استمرت عمليات الصيانة؟
- ج - حتى قبل شهر من السقوط.
- س - ومن أصدر الأمر بإيقاف الصيانة؟
- ج - بأمر من غرنون باشا.
- س - وكيف عرفت؟
- ج - من الأوامر.
- س - عندما بدأ الهجوم: هل كنت في موقعك؟
- ج - نعم. وكان حسن بك في خط الدفاع، من طابية باب الكلاكلة.
- س - أخبرنا بما تعرف.
- ج - سمعنا البوق ينادي (زنهار) من باب الكلاكلة، وبعد نصف ساعة سمعنا صوت مدفعين من الطابية ثم تلى ذلك صاروخ وبدأت الخطوط في إطلاق النار.
- واستمرت نيران باب الكلاكلة تطلق مائلة باتجاه العدو الذي جاءنا من جهة النيل الأبيض وجاعونا من خلفنا.
- س - ألم يهاجم العرب المتراس من الأمام؟
- ج - لا.
- س - ماذا فعل جنود حسن بك عندما وصل العرب لمنطقته؟
- ج - شكلوا مربعاً وأطلقوا النيران.
- س - متى رأيتمهم يشكلون المربع؟
- ج - حوالي العاشرة صباحاً عربي.
- س - أهماج العدو أثناء الظلام؟
- ج - نعم. وكان القمر قد غاب قبلها بحوالي ساعة.
- س - وكيف رأيتم المربع؟
- ج - كان بالقرب منا، ورأيتمهم يتشكلون ويطلقون النار ثم يتراجعون نحونا.
- س - وهل وصلوا إليكم؟
- ج - ليس تماماً، بل إلى عشرة أو خمسة عشر متراً منا.

س - هل رأيته مريعاً مكتمل التكوين؟

ج - نعم وقد كان به حوالي أربعين رجلاً وكان حسن بك في وسطه. كان أطول من جنوده ويرتدي شاراته (الصكرية) ولهذا عرفته.

س - كم الزمن الذي مضى منذ إنطلاق أول مدفع وحتى سقوط المدينة؟
ج - ثلاثة ساعات.

س - هل تعرف ما جري للمريع؟

ج - لا أعرف، وبسبب من اندفاع العدو لم أر شيئاً.

س - هل كان غردون باشا يتفقد الخطوط بنفسه؟

ج - نعم وكان يوجه الضباط عادة.

س - هل سمعت أبداً بغضب غردون باشا من أي ضباط أو قوات أو أقسام؟
ج - لا.

س - أتعرف إن كان يحب حسن بك؟

ج - نعم. وقد كانوا يمرون سوياً.

س - هل رأيته في السجن؟

ج - نعم. لقد كنا قد جمعنا في بوابة المسلمية، ثم فتحت وأخرجنا منها وقد ربطت يدي حسن بك من خلفه. أما أنا فلم تربط يدي. بعد ذلك أخذ العرب زوجاته وإبنته. وكان يعامل بالسجن نفس معاملتنا.

س - هل تسلم مالاً من بيت المال؟

ج - لا.

ثم قام الادعاء باستجوابه:

س - ما هو أول ما سمعت عند هجوم العدو؟

ج - "زنهار"، وبعد ذلك المدافع.

س - هل سمعت شيئاً من بحر أبيض؟

ج - لا.

س - هل كنت تنام في المتراس؟

ج - نعم

س - أشاهدت إطلاق نار من المقرن؟

ج - لا. لأنها بعيدة جداً.

س - هل شاهدت إطلاق نار من جهة المتراس المنهار؟

ج - لا.

س - هل رأيته (حسن بك) في الليلة السابقة للسقوط؟

ج - نعم، وكان يطوف على الخطوط.

س - من الجنود الذين شكلوا المربع؟

- ج - مصريون، لم يكن معهم شايقية ولا سودانيين.
 س - أخضر أحد منهم إلى هنا؟
 ج - لا أعرف.
 س - إلى أي اتجاه تحرك المربع؟
 ح - شرقاً.
 س - عندما أسر العرب حسن بك. كم كان يبعد عن بوابة المسلمية؟
 ج - ٢٥٠ متراً.
 س - هل كان التلغراف قريباً منك؟
 ح - لا. كان بجوار الكتيبة الأولى.
 س - هل تعلم إن كان حسن بك قد أبلغ بالهجوم؟
 ج - نعم أرسل جاويشاً لفرج باشا.
 س - هل تعلم إن كان غردون باشا قد أرسل أي أوامر لحسن بك ساعة السقوط؟
 ج - لا. لا أعرف.
 تم إستجوبت المحكمة الشاهد:
 س - هل ظهر أي رجل من العدو، يوم الهجوم، من أمامكم؟
 ج - لا.
 س - هل إنسحب المربع نحوكم في ضوء النهار؟
 ج - نعم.
 س - أكانوا وسط العدو يحاربون؟
 ج - نعم.
 س - وماذا فعلتم أنتم؟
 ج - شكلنا مربعاً بدورنا.
 س - ومتي شكلتموه؟
 ج - عندما كانوا علي بعد ١٥ ياردة منّا؟
 س - ومن الذي أمر بتشكيل المربع؟
 ج - أمرت أنا بتشكيل مربعنا، من حوالي عشرين رجلاً، وكان معي ضابط واحد لكنه قتل.
 س - هل يتسلم رجال الفوج الأول مرتبات أعلي من الفوج الخامس؟
 ج - لا أعلم. لكن الجندي يتسلم ٤٠ قرشاً.
 س - هل حدث أن كافاكم غردون باشا؟
 ج - لقد أمر لنا بمرتب سنة لكننا لم نتسلمه أبداً.
 س - هل أتى إلى هنا أي أحد من أفراد مربعك؟
 ج - لا أحد، رغم أنه كان من بينهم بعض الناجين.
 س - ماذا سمعت، فيما بعد، عن حسن بك؟

ج - بأنه كان يشجع رجاله...الخ.

س - كيف علمت بأن الجاويش قد ذهب لفرج باشا؟

ج - لأنه مر بنا أثناء سيره.

س - وأين كان مربع بهنساوي بك؟

ج - خلف المتراس مباثره.

ثم قرئت الإفادة على الشاهد كاملة:

وعبرت له المحكمة عن رأيها في أنه لم يقم بواجبه في تلك المناسبة (سقوط الخرطوم).

شاهد الدفاع الخامس :

سعادة مصطفى باشا ياور، مدير دنقلا السابق

رفض لأسباب دينية أن يؤدي القسم، وقد سمح له بدلاً عن ذلك بالتعهد الصارم الملتزم بما

سيقوله:

"لقد عرفت حسن بك بهنساوي منذ أن كان بسنار، وحتى نقل لدارفور.

وأنتني أثق في أنه رجل غير قادر علي الخيانة. لقد كان يعمل (يوماً) تحت إمرتي كيوزاباشي

وصاغ معاون وصاغ مساعد لأربعة سنوات وهو رجل طيب الخصال من كافة النواحي.

ثم انسحب الشاهد.

شاهد الدفاع السادس

سعادة محمد نصحي باشا، قائد البحرية بالخرطوم. وبعد أن أدي القسم قال:

"عندما كان حسن بك بهنساوي معي بالخرطوم، وحتى مغادرتي لها، كنت أعتبره رجلاً أميناً

ومستقيماً، وضابطاً جيداً نشطاً ولم يقم قط بأي عمل يضر بالحكومة".

وسأله الإدعاء:

س - لكم من الزمن كنت تعرفه؟

ج - من فبراير ١٨٨٤ حتى أول أكتوبر ١٨٨٤. وكان معي في نفس الفوج.

قرئت إفادته له ثم أنصرف.

شاهد الدفاع السابع:

عثمان حمدوك ملتزم. وبعد أن أدي القسم أفاد بالتالي:

لقد كنت في الخرطوم. وفي ليلة سقوطها كنت نائماً في جنينتي. صعدت فوق شجرة ورأيت

العدو وهو قادم من ناحيتي بحر أبيض ويرى وكان ابن أختي يعمل مترجماً لغردون باشا، وإعتاد أن

يحضر لي ويخبرني بما يحدث.

س - هل حدث أن سمعت منه رأياً لغردون يتعلق بحسن بك؟

- ج - سمعت بأن غردون قد أسترار من حسن بك مبلغ ١٥٠ جنيهاً وذلك في بداية يناير.
- س - إذن كانت صلاتهما ودية وشخصية؟
- ج - نعم
- س - هل غضب عليه غردون فيما بعد؟
- ج - لم أسمع بذلك أبداً.
- س - هل قابلت ابن أختك قبل السقوط مباشرة؟
- ج - في الليلة التي قبلها.
- س - هل حدثك بأنهم كانوا يخشون من الخيانة؟
- ج - لا.
- س - كم مترجماً يعمل مع غردون؟
- ج - إثنين، أحدهما ابن أختي.
- س - هل سجنتم؟
- ج - نعم.
- س - هل سمعت أبداً، فيما بعد، من أحد مرافقي غردون، بأنه كانت هنالك خيانة.
- ج - لا.
- س - هل رأيت حسن بك في السجن؟
- ج - نعم. وقد ضربوه وأدلوه في بئر ليرغموه علي إخراج أمواله منها. وبعد ذلك رأيته يستجدي، وقد كنت حاضراً عندما ضرب. ولقد عذبوني أيضاً ووضعوا النار علي رأسي.
- س - وكيف يشحن حسن بك في حين أن بيت المال كان يعطيه عشرة ربالات في الأسبوع.
- ج - لم يعطه بيت المال أي مبلغ أبداً.
- س - ماذا جرى لابنته؟
- ج - لقد أخذها المهدي كخادم رقيق له وكذلك زوجته بت عبد السلام الشامي.
- ثم أستجوبه المدعي:
- س - هل كان بالخنديق ماء؟
- ج - لا. بل كان هناك طين في القطعة المجاورة لبحر أبيض.
- ثم أستجوبته المحكمة:
- س - متي رأيت حسن بك بعد السقوط؟
- ج - في اليوم الثالث، وكان يضرب في بيت المال.
- س - هل أطلقت المدافع؟
- ج - أطلقت على باخرة كانت قادمة.
- س - في أي وقت دخل العدو؟
- ج - حوالي التاسعة والنصف صباحاً (عربي).
- س - هل رأيته في تلك الساعة؟

ج - نعم.
س - هل كان بمقدورك رؤية النيل الأزرق والنيل الأبيض ويرى؟

ج - نعم.
س - وكيف عرفت بأنهم قدموا من ذلك الاتجاه؟
ج - رأيتهم وقد دخلوا المدينة في التاسعة والنصف. لكنني لم أراهم يعبرون المتراس.

وقد أوضح مجلس (الدفاع) المتهم بأن (الشاهد) هو نفس الرجل الذي قال عنه ميخائيل أفندي بقطر بأن العرب كانوا يبحثون عنه ليقتلوه، لأنه كان واحداً من أكثر الرجال إخلاصاً لغردون. قرئت الشهادة له ثم انسحب.

وانقضت المحكمة في الواحدة وعشرة دقائق وحتى الخميس التاسعة صباحاً، ثم انقضت بناء على طلب الدفاع حتى التاسعة من صباح يوم ١١ يولييه ١٨٨٧.

* ذكر المؤلف بأنه حذف بقية أحداث المحاكمة لأنها أصبحت شكلية لا أهمية لها. هذا وتنوه بأن الحكم قد صدر (مثل ما جاء في القسم السادس) بتبرة المتهم بشرف (المعرب).

القسم السابع تنظيم الجيش المصري الجديد

الملخص:

الجيش الوطني التي أنشأها البريطانيون منذ ١٧٥٧ - مقارنة بين الفلاح المصري والبنغالي - الضباط الأمريكيون في الجيش المصري - الجيش المصري القديم - الجيش المصري لعراي باشا - نظام التجنيد للجيش القديم - أثر ذلك على الفلاحين - التجنيد للجيش الجديد - الهلع من الخدمة في السودان - تعيين السير أفلين وود سرداراً للجيش المصري الجديد - أول من ألتحق به من الضباط - تكوين الجيش وهياكله - بداية التجنيد - مدة الخدمة في الجيش والشرطة والاحتياطي - بداية التدريبات - الرتب المصرية وما يعادلها من الرتب الإنجليزية - منشأ وأصل الرتب المصرية (التركية) - الباشا - البك - الأفندي - التنظيم - أول لواء أنشأه الكولونيل جرنفل - اللواء الثاني الذي أنشأه اللواء شهدي باشا - حالة الجيش المصري في يناير ١٨٨٣ - وباء الكوليرا - إنشاء المصلحة الطبية - التجنيد الإنزامي، موجز لمسيرة عمل جندي مصري - مقارنة بين الخدمة في الجيش وفي الشرطة - اختيار الضباط الوطنيين - رتبة الضباط البريطاني عند تعيينه - صاحب السمو الخديوي، القائد الأعلى - وزير حربيته - السردار ومهامه - هيئة الرئاسة - مساعد القائد العام ومدير الإمدادات والتموين ومدير عام المساحة - المصالح والإدارة المركزية - المدرسة الحربية - أسلوب السير أفلين وود في التدريب - الكارثة التي حلت بهكس باشا وأثرها على الجيش - الفصل في تكوين لواء تركي - انضمام ضباط بريطانيين جدد - أول كتيبة سودانية تنشأ عام ١٨٨٤ - تفاصيل تنظيمها - الفرق بين نظام الكتائب السودانية والمصرية - أعمال الجيش المصري التي قام بها في حملة النيل وفي سواكن - إستقاله السير أفلين وود وإحلال الجنرال جرنفل محله كسردار - عدة زيادات في حجم القوات المصرية - قوة الجيش المصري في أوائل عام ١٨٨٦ - الكولونيل هالام بار يصبح نائباً للقائد العام - تقريره عن مدى التقدم الذي حدث - قوة الجيش المصري عام ١٨٩٠.

...

لإتجليل قدرة على تنظيم وتوظيف وتطوير قوات مجندة من أجناس كانت، بدون مساعدتهم - تعتبر من الأجناس غير المحاربة. ولقد تمثل ذلك في أنحاء الشرق بقائمة طويلة من الأفواج والكتائب والقوات التي يفتخر جنودها بأنها قد سميت بأسماء قائنتها.

فمن الأفواج الإثني عشر لمشاة البنغال الوطنيين، التي أنشئت ما بين عامي ١٧٥٧ - ١٧٩٦، إلى قوات وود غير النظامية في جنوب إفريقيا، فإن حقبة تصل إلى ١٥٠ عاماً قد حفلت بإنجازات مثل تلك القوات ومن بينها قوات لاي بولتان وهندسون هورس، وسكنرس هورس وبيكرس هورس وحملة بنادق جاكوب وغيرها.

ولعل السر في ذلك النجاح يكمن فيما ذكره أحد رجال الدولة المرموقين حيث قال إن "السبب لنجاحنا في كافة الأمور يرجع لقدرة الرجل الإنجليزي على إلهام الآخرين وبث الثقة في نفوسهم". فالرجل الألماني يدرّب علي الثقة في نظامه، والفرنسي على نجاحه، أما الإنجليزي فعلي الثقة بنفسه. وعندما يكون على كل منهم أن يعلم الآخرين ما يعلم، فلا شك في أن الأخير هو الذي يحقق أفضل النتائج العملية.

فالطقس المعين، والتربة المعينة، تنتجان جنساً له نفس الخصائص. وربما لا تكون هناك مفارقة عندما نقارن سكان وديان نهر الجانج الخصيبة بسكان دلتا النيل الغنية. فمثلاً بدأت إنجلترا في البنغال، فهي الآن ماضية في مصر. ومثلما كانت كلمة بنغالي مرادفة للرفقة والحكمة، فإن كلمة مصري كان يعتقد بأنها رديف لعدم القدرة على الدفاع عن النفس.

وقبل عام ١٨٨٢ كان الجيش (المصري) يتدرب بواسطة ضباط وعسكريين أمريكيين، وهم جنود ذوي خبرات متفاوتة، لكنهم في حقيقة الأمر لم يكن يسمح لهم إلا نادراً بالقيام بالتدريب الفعلي لهم، بل إنحصر عملهم في مهام هيئة القيادة الخاصة بالمسوحات الطبوغرافية وما إلى ذلك، وفي مهام الكشوف (الجغرافية) في السودان وفي الصحاري الواقعة بين النيل والبحر الأحمر.

لقد أفسد عرابي نظام الجيش، وأضاف إليه جماعات مجنّدة من الجهلة والدهماء قبل أن تحل به كارثة التل الكبير. ولقد ذهل الذين كانوا في كفر الدوار، في صباح اليوم الذي تلى المعركة، عندما شاهدوا صفوف الخيام الأنيقة والمنظمة وبين كل صف من الخيام كومت البنادق بعناية ورفع العلم المصري في مكانه المعتاد. كان ذلك يحتل عدة أفئدة من الأرض ولكن... لم يشاهد أي جندي واحد هناك. فقد تخلصوا على عجل من أي شيء يشير للعسكرية، وتجمعوا في حشود سعيدة مبهتجة، على طول خط السكة الحديد، ليمضي كل منهم إلى قريته.

ومع ذلك فقد جاء في آخر اليوم فوج من المحاربين المتمرسين، قادمين من قلعة أبو قير، من الذين كانوا يعتقدون بأن بمقدور مدافعهم تدمير الأسطول الإنجليزي. لقد نزل الفرنسيون من قبل، عام ١٧٩٨، في أبو قير. ونزل فيها الإنجليزي عام ١٨٠١. وهنا بالتأكيد سينزل اللورد وولسلي. تقدم أولئك الجنود المحنكين، في صمت، حتى صلوا للصف الطويل من عربات السكة الحديد. وتوقفوا في صمت مهيب أمام كتاب سسكس وشر وبشير. وهناك.... نزعوا أسلحتهم وألقوا ببنادقهم داخل عربات القطار ثم خلعوا ملابسهم العسكرية ورموها وراءها ثم استداروا ومضوا بعيداً بدون أن ينبسوا ببنت شفة. كان السير إفلين وود هناك، وربما لاحظ وسجل سلوك أولئك الرجال. وسواء فعل ذلك أم لم يفعل، فإنه لم يشك قط في أية نوعية من الجنود كان عليه أن يقوم بإنتاجهم مستقبلاً.

ولما كان الجيش يدين بنجاحه إلى الثقة التي بثها الضباط الإنجليزي في نفسه، فقد كان هذا الجيش بدوره الوسيلة الفعالة ليبث في أنحاء البلاد ثقته في أمانة وعدل الضباط الإنجليزي العاملين في خدمة صاحب السمو الخديوي. وكان المجند في الجيش الجديد عندما يعود إلى قريته في إجازته السنوية يعتبر واحداً من أنجح الوسائل لغرز هذه القيم وسط طبقة الفلاحين المصريين.

فقد كان الجندي في السابق لا يتسلم مرتبه إلا بعد فترات طويلة وربما لا يتسلمه أبداً. وعندما كان يتم تجنيده في الجيش فإن الناس ينظرون إليه وكأنما كتب عليه ألا يعود أبداً لهم مرة

أخرى. وكانوا يمضون معه حتى أطراف القرية وسط نحيب ويكاء أصدقائه وأقاربه ليودعونه وداعاً طويلاً نهائياً. فقد كانوا يعلمون حق العلم أنه سيرسل في كافة الأحوال إلى السودان رهيب، الذي ذهب إليه من قبل أبوه وأعمامه وأبناء العمومة والخنولة وربما أخوته، إلى النفي مدى الحياة إن لم يكن للموت الحاضر. فبالنسبة للفلاح البسيط، والذي ربما كان أكثر مخلوقات الله إستكاته، فإن مجرد التفكير في أنه سيقتل من قريته الحبيبة وغطائه ومواشيه، ظل مثل سيف داموكليس معلقاً للأبد فوق رأسه. لذلك كان لا يتردد في ارتكاب أي جرم أو أن يعرض نفسه لأي عذاب حتى يهرب من هذا النداء لخدمة العلم.

وفي الأيام السالفة تكررت حالات التشويه الجسدي المتعمد حتى يتجنب الفلاح الخدمة العسكرية. ولم يكن من غير المعتاد على رجل أن تجده قد بتر إصبعه السبابة حتى لا يتمكن من جذب زناد البندقية. وأكثر من ذلك تكراراً أن ترى من يفتق عينه أو حتى كلتا العينين. وحتى يومنا هذا نجد شيوع هذه الممارسات لكن بأعداد أقل مما كان في السابق. ولاشك في أن النظام الحالي، إذا ما استمر لبضع سنوات أخرى، فإن تلك الممارسات ستنتهي للأبد.

وصار المجند الآن، عند ما يعود إلى قريته التي غادرها قبل عام، يعود إليها حسن الزى والهندام ومعه بضعة جنهيات في جيبه تكفي لشغل مقهى القرية وجعله مفتوحاً، على نفقته، لأيام عدة. وكان هذا شيء يجل عن التصديق! فسيحيط به أصدقاؤه وأهله ويسألونه عن كل شيء وأي شيء. والعجب العجيب في أنه يخبرهم بارتياحه للعمل في الكتبية أو الفيلق. وهو ينعم بالكساء الجيد والطعام، ويتسلم راتبه بانتظام، ويعامل بعدل من قاداته الضباط. وعندما تنتهي إجازته لا يندب حظه التمس الذي يجرحه مره أخرى بعيداً، بل يعود مليئاً بالسعادة وربما في دخيلة نفسه يكون مسروراً لتخلصه من قذارة الريف وعودته إلى المعسكر أو الثكنة النظيفة النقية الهواء. مثل هذا التغيير كان لابد له أن يزيل ما علق بذهن الفلاح البائس من نظرة للعسكرية. وشيئاً فشيئاً أخذت روح الكراهية التي كان ينظر بها لها تتلاشى. ولكن الأمر، مع هذا، يحتاج إلى سنوات طويلة من الإدارة الحريصة والعدالة حتى تزيل تماماً ذكرياته عن الأيام الشريرة المشنومة التي سبقت النظام الجديد، عندما كانت أسر بأكملها يقبض عليها بدون رحمة وبغض النظر عن القوانين المنظمة للخدمة العسكرية، ويؤخذون لمراكز التدريب مكبلين بالسلاسل، ثم يقذفون بهم للسودان ليقبوا هناك إلى ما لا نهاية أو ليسقطوا ضحايا للطقس أو للحروب الصغيرة والتي كانت القوات بالسودان متورطة فيها باستمرار. ومن الغريب أن نلاحظ مدي الرعب الذي كان يصيب الفلاحين المجندين لمجرد سماعهم بذكر أسم السودان أمامهم. ففي تلك الأيام كان للتهديد بإرسال أي كتبية أو فوج إلى السودان، عند تكرار أي خطأ من جانبهم، ضمان بالأ يتكرر ذلك أبداً مرة أخرى.

...

وحتى لا نخرج عن الموضوع، ففي العشرين من ديسمبر ١٨٨٢ صدرت المراسيم الخديوية الخاصة بحل الجيش القديم، وتعيين السير إفلين وود سرداراً للجيش الجديد. وصدر الإن الملكي لتعيين ضباط (بريطانيين)، بمرتب كامل، في خدمة الجيش الملكي ومن ثم تم تعيين الضباط الآتية أسماؤهم:

الرتبة في الجيش الإجليزي	الاسم	الفوج	الرتبة والمركز في الجيش المصري
ميجر جنرال	سير إفلين وود	هيئة الأركان	سردار ورئيس هيئة أركان الجيش
لغتنانت	ستيوارت ورتلي	جملّة البنادق الملكية	ميجر، وإاور صاحب السعادة السردار
لغتنانت كولونيل	ت. فريزر	أركان، المهندسين الملكيين	كولونيل، أجنات ومدير امدادات الجيش
كابتن	ف.ج. سليد	أركان، المدفعية الملكية	لغتنانت كولونيل، مساعد الأجواتات و م. امدادات الجيش
كولونيل	ف. جرنفل	أركان، البنادق الملكية	بريقادير جنرال وقائد لواء للمشاة
لغتنانت كولونيل	ف. دنكان	المدفعية الملكية	كولونيل، قائد المدفعية
لغتنانت كولونيل	أ.م. تايلور	الهوسار التاسعة عشر	لغتنانت كولونيل وقائد فوج للفرسان
ميجر	ه. س. شيرمساید	أركان، المهندسين الملكيين	لغتنانت كولونيل وقائد كتيبة
ميجر	ه. ه. بار	أركان، مشاة سمر ستشير الخفيفة	لغتنانت كولونيل وقائد كتيبة
ميجر	س. م. واطسن	أركان، المهندسين الملكيين	كولونيل، مدير عام المساحة
ميجر	أ. س. وين	مشاة الملك الخاصة الخفيفة	لغتنانت كولونيل وقائد كتيبة
ميجر	س. ه. سمث	البنادق الملكية	لغتنانت كولونيل وقائد كتيبة
كابتن	ج. ودهاوس	المدفعية الملكية	ميجر، قائد بطارية مدفعية
كابتن	ج. و. كيرك	فوج ويلز	ميجر وقائد ثاني كتيبة
كابتن	أب شكسبير	مدفعية البحرية الملكية	ميجر وقائد ثاني كتيبة
كابتن	ه. كتنشر	المهندسين الملكيين	ميجور وقائد ثاني فوج للفرسان

لفتانت	س.س. بارسونز	مدفعية الخيول الملكية	ميجور وقائد بطارية مدفعية
لفتانت	س.س. ثيرنر	مشاة شروبيشير الخفيفة	ميجر، أعمال عامة
لفتانت	س.ب. بيجوت	البنائق الملكية	ميجر، مساعد قائد كتيبة
لفتانت	س.ف. ديفسون	كمرون هايلاندرز	ميجر للأعمال العامة
لفتانت	أز سنكلير	فوج البيلوش الأول	ميجر للأعمال العامة
لفتانت	أ.س. هاجرد	حرس الحدود الملكي	ميجر للأعمال العامة
لفتانت	ه.م. رندل	المدفعية الملكية	ميجر للأعمال العامة
لفتانت	د. كارتر	المدفعية الملكية	ميجر للأعمال العامة
لفتانت	ر. أ. ماريوت	مدفعية البحرية الملكية	ميجر للأعمال العامة

كان تكوين الجيش ونظامه وهيكاته مثار نقاش وجدل حار بين السير إفلين وود واللورد دوفرين. وربما كان رأي الأخير مثار إهتمام للأول فقد وجد سعادة اللورد يقول بكل وضوح أن "إناساً كثيرون يتشككون في هل تحتاج مصر حقاً إلى جيش؟".

ثم الاتفاق على أن يكون عدد أفراد الجيش ٦٠٠٠ وقد أثار اللورد دوفرين بحصافة، ثبت صحتها فيما بعد، إلى أن هذا يتم بغض النظر عن الأحداث في السودان. وسيكون الجيش من الفلاحين، ولكن ونظراً للسمعة الطيبة للجنود الأتراك فقد تقرر أن من الحكمة استخدام كمية من عمدان الظهر الفقيرة المتمرسه وإدخالها في الهيكل الرخو للجنود الفلاحين، وذلك عن طريق استخدام أولئك المنحدرين من سلالة المحاربين الأشاوس، الذين حملوا رايات محمد علي من القاهرة حتى قونية، وسطهم".

وكثيراً ما لاحظ الناس كيف أن كثيراً من الأشياء، وبعضهم يقول كل الأشياء، تتم في مصر على العكس تماماً مما يجري في أي بلد آخر. وكمثال لذلك نجد أن الجيش الجديد قد تم تجنيده أولاً، ثم وضعت نظم التجنيد وأسس الخدمة العسكرية بعد عدة سنوات من ذلك. وهكذا كان الحال بعد أن تم تحديد العدد المطلوب. وتم تكليف حكام المديريات الأربعة عشر ليقوم كل منهم بإرسال عدد من الرجال يتناسب مع عدد سكان مديرياتهم وقد جاء ذلك في مصلحة البلد، لأن الرجال الذين تم الحصول عليهم بهذه الوسيلة كانوا من نوعية أفضل وأكثر ملائمة للغرض بالمقارنة بما كانوا يحصلون عليهم في السابق.

كانت شروط الخدمة الأصلية تتضمن خدمة العلم لأربعة سنوات. لكن تم بعد ذلك تغييرها لتكون أربعة سنوات في الجيش وأربعة سنوات في البوليس وأربعة سنوات في الاحتياطي. وفي عام

١٨٨٨، وبعد أن وجدوا أن من عدم الحكمة التخلي، بعد انتهاء المدة، عن الذين خدموا في الميدان وتمرسوا في القيام بواجباتهم المختلفة من قدامى الجنود المتدربين، تم تغيير سنوات الخدمة مرة أخرى لتصبح ستة سنوات في الجيش وخمسة في البوليس وأربعة في الإحتياط..

تم جمع الرجال في مركز التدريب بالقناطر* ومنها تم تحويلهم، بعد تطبيق الإجراءات الصحية عليهم، إلى المعسكرات الضخمة في طرة والعباسية بالقرب من القاهرة. تم إنشاء لواءين وبكل لواء أربعة كتائب. قائد اللواء الأول ضباط إنجليز بينما قائد الثاني ضباط مصريون.

قام البريغادير جنرال فرنفل بقيادة اللواء الأول والذي كانت كتائبه بقيادة الضباط التالية أسماءهم:

- الميجر شيرمسايدي مع كابتن كيرك للكتيبة الأولى.
 - الميجر هولدي سمث مع كابتن شكسبير والملزم ماريوت للثانية.
 - الميجر هالام بار مع الملزم بيجوت للثالثة.
 - الميجر وين مع الكابتن هاجرد للرابعة.
- وظل الضباط الإنجليز يستخدمون الألقاب العسكرية الإنجليزية، لفترة من الوقت، بداخل الجيش المصري. ولكن أتضح بعد ذلك أن خلطاً قد نشأ عندما تدخلت أعمالهم مع أعمال زملائهم من قوات الملكة. ومن ثم منحوا الرتب التركية والتي تعادل الرتب الإنجليزية التالية:

الرتبة الإنجليزية	المقابل في الرتب المصرية
القائد العام	السردار
لڤتنتانت جنرال	فريق
ميجر جنرال	لواء
كولونيل	أميرالاي
لڤتنتانت كولونيل	قائمقام
ميجور	بمياشي
أدجوتانت ميجور	صاغكولا قاشي
كابتن	يوزباشي
لڤتنتانت	ملزم أول
سكند لڤتنتانت	ملزم ثاني

* القناطر Barrage عبارة عن سد عريض أقيم عبر النيل عند نقطة تفرعه للفرعين المكونين للفلتا (المصرية). كان بناؤه متخلفاً ولذلك ظل حتى وقت قريب عديم الفائدة حتى أوكل أمره في السنوات الأخيرة للمسير كولن سكوت مونكريرف ومعه مهندسو ري إنجليز والذين قاموا بنجاح بأعمال هندسية واسعة أدت إلى تحسين ومائل الري المصري. وتم حماية مدخل السد بمراس ترابي ضخام استخدم، عند بداية إنشاء الجيش المصري الجديد، كمركز للتجنيد.

وتحتل رتب السردار والفريق واللواء بلقب "الباشا" بينما ينال الأميرالاي والقائمقام لقب "بك" أما باقي الرتب دون ذلك وحتى درجة الملازم فتلقب "بالأفندي". ولكن تم ترك لقب "أفندي" وعدم استخدامه مصحوباً برتب الضباط الإنجليز العاملين في الجيش المصري.

ولا بأس في هذا المجال أن نتعرض لأصول هذه الألقاب التركية: فكلمة "باشا" يقال أنها مشتقة من الكلمة الفارسية (با) وتعني القدم أو الدعامة، أما كلمة (شاه) أو الملك، فلقب يطلق على القادة العسكريين الأتراك من ذوي الرتب الرفيعة وعلى حكام المديريات. وهو لقب تشريفي فقط كان يطلق على الأمراء من ذوي الدماء الملكية، لكنه استخدم بعدها على رئيس الوزراء وأعضاء الديوان وعلى سر العسكر (القائد العام) وعلى القبطان - باشا (وزير البحرية) وعلى (بك البكوات) وغيرهم من المتفذين من مدنيين أو عسكريين.

والإشارة المميزة للباشا عبارة عن ذيل حصان يتدلى من طرف رمح على رأسه كرة من ذهب أو فضة. تحمل هذه الشارة أمام الباشا أثناء الحرب عندما يتوجه إلى ساحتها. وأمام أبواب منازلهم تنصب كرة أو كرتين أو ثلاثة من الذهب أو الفضة محاطة بريشة بيضاء أو قرمزية. وتتميز الدرجات الثلاثة للباشوات عن بعضها بعدد ذيل الحصان أو الكرات. فثلاثة مثلاً تعني أن صاحبها من درجة عالية الرفعة، وكلهم من الذين لديهم لقب الوزير. أما الباشوات ممن لهم ذيلين فهم عادة حكام أكثر المديريات أهمية. والرتبة الأدنى، ذات الذيل الواحد، تملأ عادة بالسناجق أو حكام المديريات الثانوية. والباشا في مديريته هو القائد العسكري والمسئول المحلي ويتولى المنصب طالما رضي السلطان عنه. كانت سلطاتهم مطلقة، من قبل، خلال مناطقهم وكانوا يمارسونها بصرامة وإستبداد، ولكن تم الآن ضباط هذه الممارسات لحد ما. وإذا ما أثارت ثروة الباشا أو نفوذه المتصاعد مخاوف السلطان أو جشعه فإن الباشا سيئ الحظ سرعان ما يبعد من منصبه، وغالباً ما يتم ذلك على يد الجلا، وتصادر أمواله وممتلكاته، والتي غالباً، جاءت نتيجة للاغتصاب والظلم.

هذه كانت سمات الباشا ومهامه. لكن جري بعد ذلك تقسيم هذه الرتبة إلى درجات عشر. الأولى خاصة برئيس الوزراء أو الوزير الأعظم، والثانية للوزراء، والثالثة لأصهار الأسرة الحاكمة، والرابعة للوزراء والمستشارين عموماً، والخامسة لحملة لقب "المشير"، بدون أن يكونوا وزراء، مثل حكام المديريات الكبيرة وقواد الجيش والمدنيين ذوي المراكز المماثلة، والرتبة السادسة تعطي للولاة (حكام العموم)، والسابعة لمن يحمل رتبة الفريق في الجيش، والثامنة لبك البكوات، والتاسعة للميرمران (أو أمير الأمراء) وهم المدنيون الذين يتولون مناصب الحكام للمديريات الصغيرة، والرتبة العاشرة لأمير اللواء، وهو لقب يعادل الرتبة الإنجليزية للميجر جنرال أو البريجادير جنرال والتي تختصر باسم لواء - باشا.

أما البى أو البك، وهي كلمة تركية، فتعني "الأمير"، أو ابن الملك. وفي الأيام الأولى للإمبراطورية التركية كان هذا اللقب أعلى مقاماً من الباشا وكان لا يطلق أبداً إلا على أبناء السلاطين والملوك، وهو معادل للقب الفارسي خان أو شاه. ثم أطلق على حكام المديريات (والولايات) ومنذ القرن السابع عشر كان حاكم تونس يلقب به دائماً.

- ۲۹۴ -

أما المدفعية فكان يقودها اللفنتات كولونيل دنكان، ومعه الكابتن ودهاوس والملازمين بارسونز ورندل وكارتر. أما اللفنتات كولونيل تايلور، من الهوسار التاسعة عشر، فكان قائداً للخيالة ومعه الكابتن كتشنر، من المهندسين الملكيين، كمنابه في القيادة، ومعه الملازم سنكلير. كما تم تشكيل وحدة للهجاة بقيادة الملازم تشاملي ثيرنر.

وكان اللفنتات كولونيل فريزر (من المهندسين الملكيين) يقوم بعمل الأنجوتات جنرال ويساعده في ذلك الكابتن سليد. أما وظيفة مدير المساحة فتولاها الميجور واطمن من المهندسين الملكيين.

وقد أُنضم اللفنتات ماتل (من المهندسين الملكيين) إلى الجيش المصري بعد شهر من ذلك وقام، من المكتب الطبوغرافي للكونت دللا سالا باشا، بالعمل الهام جداً بترجمة كتاب "التدريب العسكري" الإنجليزي وغيره من الكتب إلى اللغة العربية.

ولقد أدهش حماسهم للتدريب العسكري للمجندين كل من شاهدهم. فقد كانوا يمضون الكثير من وقت راحتهم وسط الرجال يمرنونهم ويعيدون التمرين والتدريب. وكانت قدرات المتدربين عالية في تقليد معلميهم ويرعوا في تمارين السنكي. لكنهم واجهوا صعوبة في استخدام البنادق. وكانت وسائل الإمساك بالبندقية، واستخدام جهاز التسديد، وأهمية الزناد، كالبعد والغراب بالنسبة لهم ولفترة طويلة. ولما جاء دور الحسابات الدقيقة للتعامل مع درجة سرعة الرياح الجانبية، ثم حسم الأمر بواسطة الضابط المسئول لعد أن قام بتقديم مجموعة إطلاق النار لستة ياردات باتجاه الريح. ومن المثير للإهتمام أن نتذكر فشل التدريبات على استخدام البندقية قبل سبعة سنوات مقارنة بالذي يحدث الآن من كفاءة الجنود، في جيش صاحب السمو، من دقة في التصويب والذي وصل إلى مستويات لا تختلف كثيراً عن مستويات القوات الأوروبية. وهذا مثل جيد للطاعة والرغبة في التعليم التي غرسها السير إفلين وود في قواته.

كانت الأوامر العسكرية تصدر أساساً باللغة التركية لكن واحداً من الأوامر المبكرة التي صدرت للجنود، عندما لم يكونوا يتحركون بسرعة عند سماع الأمر "يور"، هي استخدام كلمة "مارش". وهي الحالة الوحيدة التي دخلت فيها كلمة أجنبية ضمن الأوامر المعروفة.

وفي يناير ١٨٨٣ حدد السير إفلين وود التشكيل التالي لهيكل الجيش المصري:

البيان	الضباط الإنجليز	الضباط الوطنيون والأطباء والوعاظ	ضباط الصف	الانفار، بما فيهم السقايين	الخيول	الكتبة والموظفون	ضاربوا الطبول ونافخو الأبواق
هيئة مكتب وزير الحربية	١	١١	٦	١١	١٤	٤٤	-
هيئة الأركان	٤	١٠	١	٥	١٠	٢	-
الضباط الاشيون	٤	-	-	-	-	-	-
أركان حب المدفعية	١	١	-	-	٣	١	-
أركان حرب المشاة:	١	٢	-	-	٤	١	-
اللواء الأول اللواء الثاني	-	٣	-	-	٤	١	-
الخيالة: فوج واحد	٢	٢٣	٧٥	٤١٧	٥٣٠	١	١٢
المدفعية: بطاريتين من ستة مدافع	٤	٨	٤٠	٢٢٠	١٨٦	-	٤
بطاريتين من أربعة مدافع	-	٨	٣٠	١٤٤	١٣٠	-	٤
المشاة اللواء الأول (٤ كتائب)	٨	٨٤	٣٤٣	١٨٢٤	٢٦	٤	٩٦

٩٦	٤	٢٤	١٨٢٤	٣٤٣	٨٨	-	اللقاء الثني (٤) كتائب
-	-	٢١	٢٣	٧	١	-	موسيقى المدفعية والخيالة
-	-	-	٦٨	٢٢	٢	-	موسيقى الألوية (اثنين)
-	١	٢	-	-	٣		إدارة المعسكرات
٢	١	٦	١٧٨	٢٠	٤	١	مقترحات للزيادة: فصائل الهبادة
٢	١	١	٨٨	١٠	٣	١	فرقة المهندسين
-	١	١	٩٠	١٠	٢	-	مدفعية السواحل
٢١٦	٦٢	٩٧٢	٤٨٥٨	٨٩٦	٢٥٢	٢٧	التشكيل المقترح
٢٦	٥٦	٥٥٢	١٦٣٩	٨٠٨	٢٢٧	١٨	الموجود في ٢٨ يناير
١٩٠	٦	٤٢٠	٣٢١٩	٨٨	٢٥	٩	العجز الواجب إكماله

* عشرون جملاً عربياً.
* تم فتح باب الطلبات، أو سيفتح، لاستخدام هؤلاء الضباط.
** هذا المجموع يتضمن الممرضين بالمستشفيات العسكرية وجنود حملة النقل والترحيل.

لكن النظام وسير عمليات التدريب العسكري لم تمض بدون عقبات. ففي أغسطس ١٨٨٣ هجمت الكوليرا على القطر المصري وتم إنشاء مصلحة طبية علي عجل^{***} وتم تأمين خدمات الدكتور أكلاهد والذي، بفضل جهوده ومهارته، كانت الخسائر من جراء ذلك المرض قليلة نسبياً. كما تم الإنتداب المؤقت للسير جن ميجر (الجراح) روجرز^{*} للجيش المصري. وتم عن طريق عونه ومساعدته إنشاء المستشفيات وتطبيق اللوائح.

أولكت الترتيبات لمنع انتشار المرض للعناية الشخصية للجنرال قرنفل وقد تم القيام بكل ما هو مستطاع عمله. لكنه كان يوماً حزيناً لسعادة القائد العام، عندما مر وسط الصف الطويل للأسرة التي رقد فيها جنوده المصابين بالكوليرا. وربما تذكر (فيما بعد) ذلك المنظر عندما ركب مع صاحب السمو الملكي أمير ويلز وعرض عليه القوات التي قامت بالهجوم علي توشكي، والتي حملت علي راياتها أسماء أكثر من معركة مشرفة خاضتها.

وفي الحادي والثلاثين من مارس قام سعادة القائد العام باستعراض جيشه الفتى، وتلقى التهاني الحارة من اللورد دو فرين على التقدم الذي تم. فقد كان هناك ٣٥٠٠ من الضباط والجنود وبطارية من ستة مدافع، أمامه في أرض الطابور.

ولا بأس الآن في عرض صورة لسيرة جندي مصري بدءاً من دخوله سلك المجندين وحتى اكتمال جاهزيته:

ففي مختلف المديريات توجد مراكز للجان التجنيد، فتألف من ضباط وطنيين، بأشراف مفتشين طبيين من الضباط الإنجليز، يتولون فحص كل الشبان الذين بلغوا سن التجنيد، أي تسعة عشر عاماً. وقبل وصول اللجنة للمركز يقوم الشيوخ بتحضير قائمة (المرشحين) طبقاً "دفتر الأرنيك" أو دفتر الموالييد. والذي يقدم للجنة. تقوم اللجنة بدراسة كل الحالات ثم تتم القرعة للذين تثبتت صلاحيتهم الصحية، من الذين لا تنطبق عليهم شروط الإعفاء^{**}.

ويتم الاحتفاظ بسجلات للمجندين من كل مديرية، في المكتب الرئيسي للتجنيد بالقاهرة. حيث ترقم الأسماء وتحفظ. ولا يتم استدعاء المجندين للخدمة حتى بلوغهم سن الثالثة والعشرين. وبهذه الطريقة فهناك دائماً حوالي ١٥٠,٠٠٠ إسم بالقوائم تتفاوت أعمارهم ما بين التاسعة عشر إلى ثلاثة وعشرين عاماً.

وعدد الذين يحتاجون إليهم للخدمة سنوياً، لإحلال محل (الخسائر) في جيش مكون من ١٢٠٠٠ رجل، لا يتجاوز ١٢٠٠ - ١٥٠٠ رجل. وبالتالي فإن عبء التجنيد لا يكون ثقيلاً بالمرة. وهناك عدة إدارات أخرى تحصل على مجنديها بهذه الطريقة، لكن طلباتهم السنوية قليلة جداً لدرجة إنها قد لا تكون جديرة بالاعتبار.

^{***} خلال الأيام الأولى لإنفجار المرض، شعر الجميع بمدي الحاجة لوجود إدارة طبية منتظمة. لكن عدداً من الضباط البريطانيين، أبرزهم اللغتناات تشاملي تويرنر، بذلوا كل ما في وسعهم لرعاية الجنود الذين أصيبوا بالكوليرا. ومن الغريب أن اللغتناات تويرنر أصيب نفسه بالمرض، ثم تعافى، ليلقي مصرعه بعد شهور غرقاً من التل في قنا.

^{*} إنضم فيما بعد للجيش المصري وأصبح بعد ذلك كبير الأطباء العسكريين. وتحت رعايته إنتشلت إدارة طبية ذات كفاءة ونظام.

^{**} رما تكون القوانين المنظمة للإعفاء من الخدمة العسكرية هنا أكثر لبرالية من غيرها من الدول. فحوالي ٤٥% من الشبان الذين يمثلون أمام اللجان يتم إعفاؤهم بسبب من الدين أو الظروف العائلية وغير ذلك.

ويمكن للرجل، قبل وبعد التجنيد، التمتع بامتياز شراء نفسه وإعفائها. لكنه إذا ما دخل بالفعل في خدمة العلم، فلا شيء يمكن أن يعفيه إلا بعد أثبات أنه (وحداني)، أو أنه العائل الوحيد لأسرته، وفي هذه الحالة يعفي من الخدمة*.

وفور استدعاء المجند للخدمة، فإنه يحول لكتيبة المستودعات بالقاهرة حيث يمر لفترة ثلاثة أشهر من التدريب المبني وبعدها ينقل لأحدى الكتائب العاملة أما في الحدود أو في سواكن أو في القاهرة. وعند بداية إلحاقه بالخدمة فإنه يتلقى راتباً سنوياً قدره ثلاثة جنيهات وستين قرشاً مصرياً**، بخلاف التعيينات وغيرها. وعندما تتم ترقيته:

- إلى أمباشي يتلقى ٤ جنيهات و ٨٠٠ مليم في السنة.

- إلى شاويش يتلقى ٦ جنيهات في السنة.

- إلى باسجاويش يتلقى ٨ جنيهات و ٤٠٠ مليم في السنة.

- إلى صف ضابط يتلقى ١٨ جنيهاً في السنة.

ويزداد مرتبه إذا ما تطوع للاستمرار في الخدمة، بعد إنتهاء مدته الأولى في الجيش. أما إذا لم يرغب في التجديد فإنه يحول للعمل في البوليس، حيث يمضي مدة خدمته الثانية. هذا وتلقى الخدمة في البوليس قبولاً أكثر من الخدمة العسكرية وذلك لأسباب عدة أهمها أن المجند عادة ما يرسل للخدمة في بلده أو مديريته، كما أنه يتلقى راتباً أكبر، إضافة لوجود فرصة لإنشاء أسرة له أو لممارسة حياة عادية طبيعية.

أما في الجيش، فلا توجد "مؤسسة للزواج" للجنود رغم أن معظمهم متزوج بالطبع، لكن زوجاتهم نادراً ما يغادرون القرية.

وعند إنتهاء مدة الخدمة في البوليس فإن المجند يعتبر من الاحتياطي من الدرجة الأولى، وهذا قد يعني صرفه من الخدمة نهائياً لأن الاحتياطي نادراً ما يتم استدعاؤه.

والبوليس*** هو الاحتياطي الأول للجيش. وفي حالة الطوارئ، وعندما يستدعي الأمر زيادة عدد أفراد الجيش من المدربين، فإن مثل هذه الزيادة تؤخذ من صفوف البوليس، والذي بدوره يملأ أماكنه الشاغرة من احتياطي الدرجة الأولى.

ولقد تم اختيار الضباط الوطنيين للجيش الجديد بعناية فائقة من بين صفوف الجيش المحلول. وتم الإسراع في تحديث المدرسة الحربية وسرعان ما خرج منها كوادر جيدة التدريب انضمت للجيش. وإذا ما أظهر أحدهم كفاءة ومقدرة فسرعان ما يدفعه قاداته الضباط للأمام (مترقياً) وكانت النتيجة أن معظم من التحقوا بالجيش عام ١٨٨٣ أصبحوا الآن من الكباطن الموثوق بهم لقيادة وحداتهم، وخاصة بعد أن تلقوا تدريباً متماسكاً مع النظم العسكرية الإنجليزية، وأصبحوا من ناحية

* بعد بضع سنوات من استدعاء أول مجندين للخدمة، اكتشف أن أكثر من ٥٠٠ منهم جنوداً خطأ. كانوا أبناء وحيدين، لذلك تم إعفاؤهم من المزيد من مدة الخدمة، وكان هذا إجراءً يتسم بالعدل وكانت له ردود فعل ممتازة في أنحاء البلاد.

** الجنيه المصري به ١٠٠٠ مليم. وكانت قيمته تزيد على الجنيه الإنجليزي بحوالي ٢٥ مليم.

*** كانت قيادة البوليس موكلة إلى المرحوم الجنرال فالتنين بيكر باشا، وقد خلفه في منصبه الجنرال تشارلس بيكر باشا.

عامّة على معرفة تامة بنظم الطابور والتدريب العسكري البريطاني للمشاة، وبعد أن استوعبوا عدداً ضخماً من الكتب والمراجع العسكرية والتي ترجمت بسرعة للغة العربية.

أما الضابط الإنجليزي فكان يمنح، عند إلحاقه بالجيش المصري، الرتبة العسكرية الأعلى التالية لرتبته. هذا كقاعدة عامة. ولكن في بعض الحالات كان يترقى لدرجتين أعلى من التي كان عليها في الجيش البريطاني.

وعلى سبيل المثال، فإن السردار، والذي قد يكون في درجة اللواء، قد منح رتبة الفريق باشا. والكولونيل يرقى لرتبة لواء باشا، واللفتنانت كولونيل إلى رتبة الأمير الای بك، والصاغ (الميجر) لرتبة القائمقام بك. أما الكيانت والملازمون الأوائل (صب أو لترن) فينالون رتبة الميجور أو اليمباشي. هذا وهناك بعض الاستثناءات لهذا القانون.

وبداخل الكتائب التي يقودها ضباط إنجليز لا يوجد أي ضباط وطني تزيد رتبته على صاغكولاغاسي (أو أدجوتانت ميجر). لكن ترقيات هؤلاء إلى الرتب الأعلى فأنها تتم من خلال الكتائب الوطنية وجيوشها، وأيضاً من خلال العمل في الأركان، وهو التنظيم الذي سنصفه فيما يلي باختصار. والقائد الأعلى للجيش هو سمو الخديوي ووزير حربيته الحالي هو سعادة مصطفى باشا فهمي. من بعده يأتي الوكيل أو وكيل الوزارة للحربية. أما القائد العام التنفيذي للجيش فهو السردار والذي يساعده رؤساء هيئة الأركان وهم الأدجوتانت جنرال والكوارتر ماستر جنرال. والأخير يعمل أيضاً كمدير للمساحة (المساح العام). أما الأدجوتانت جنرال فهو الرجل الثاني في قيادة الجيش (وهو في الوقت الحالي الكولونيل كتشنر، من المهندسين الملكيين)، ويقسم مكتبه إلى:

- مكتب الأدجوتانت جنرال (والذي له بدوره فرعين أحدهما إنجليزي والآخر عربي).
- مكتب مساعد السكرتير الحربي
- مكتب مساعد الأدجوتانت جنرال للتجنيد
- مكتب مساعد الأدجوتانت جنرال للمخابرات.

أما الكوارتر ماستر ومدير المساحة (وهو حالياً اللفتنانت كولونيل ستل، من المهندسين الملكيين)، فيساعده ضابط يسمى مساعد الكوارتر ماستر جنرال، ومساعد لمدير المساحة. وتخضع لإشرافه مختلف مكاتب الإدارات مثل الكومساريات (إدارة أطعمة الجيش)، والمخازن والإمدادات، والدفعيات، والقسم الهندسي، وأقسام أخرى ذات أهمية للبلا. والمكاتب الثلاثة الأخيرة كلها تحت إشراف ضباط إنجليز، بينما القسم الهندسي، والذي يضم الترسانات والمصانع وغيرها هو تحت مسئولية ضابط فرنسي (جينو باشا). وكل تلك المكاتب، بما فيها مكاتب كبير الضباط الطبيين (السيرجون ميجور روجرز)، يطلق عليها اسم مكتب الحرب. أما وظائف الدرجات الدنيا، إضافة إلى التي ذكرناها من قبل، فيتولاها ضباط وطنيون. أما الأعمال الكتابية فتجري في القسم الإنجليزي بواسطة كتبة عسكريين بريطانيين وهيئة من ضباط الصف والذين يبلغ عددهم ٣٣ في مجملهم. أما في الأقسام الوطنية فتتم الأعمال الكتابية بواسطة كتبة وطنيين و مترجمين.

* كان هناك أيضاً "مكتب السودان" الذي يقوم بكل الأعمال المتصلة بالسودان، ولكن تدريجياً، وبعد أن توقفت تلك البلاد من كونها جزءاً من الممتلكات المصرية، فقد تلاشي هذا المكتب وتم تعيين مديره محمد مختار باشا مساعداً للأدجوتانت جنرال بالقسم العربي.

وإضافة لمكتب الحرب، فهناك المدرسة الحربية التي يشرف عليها ضابط فرنسي (لا رمي باشا) مع قمتدان إنجلزي، وبها الآن ١٠٠ طالب حربي من الذين مروا باختبارات المنافسة لدخولها والذين سيتم إستيعابهم، بعد عامين من الدراسة والتدريب، في مختلف فروع الأسلحة. هذا وتبلغ الإحتياجات السنوية لهم حوالي خمسين رجلاً.

ومعظم القوات تتمركز حالياً على الحدود. وهناك كتيبتان، مع بعض قوات الأسلحة الأخرى، تشكل حامية سواكن. أما البقية فيتمركزون في القاهرة والإسكندرية. أما أعمال الأمن العام فيتولاها جميعاً رجال الشرطة.

فيما سبق تم تقديم وصف مختصر عن التنظيم، كما هو عليه اليوم، لأن الهياكل القائمة الآن تعطي فكرة أكثر دقة عن الأحوال العادية للجيش أكثر مما يمكن إذا ما وصفنا حالته عند بداية تكوينه. لكن علينا أن نتذكر أن التنظيم العسكري القائم الآن، والذي اكتملت هياكله بدرجة طيبة، لم يصل لهذا المستوى العالي الكفاءة إلا منذ عهد قريب. فعند بداية التنظيم ومراحله الأولى لم يكن هناك سوى بضع ضباط بريطانيين ولم يكن من بينهم إلا القليل الذي يعرف اللغة (العربية). لقد نهض الجيش على أنقاض جيش محلول، وكانت ثورة السودان قد بدأت. وكان من المستحيل القول متى يمكن لهذا الجيش المشاركة في الدفاع عن البلاد. لذلك قام السير إفلين وود بتركيز أقصى جهد ممكن له لتدريب الجيش للمستوى الذي يؤهله لتسلم واجباته الميدانية. وابتداء من رئيسهم وحتى أقلهم رتبة، كابد الضباط البريطانيون الأمرين للوصول لهذه الغاية.

وقد مر الجيش المصري الجديد، في عامة الأول، بمرحلة من التدريب الشاق لكل المناشط العسكرية حتى أصبح قوة ذات كفاءة. ورغم ذلك، كان هناك البعض من ذوي التجارب (المريرة) الذين كانت لهم كل الأسباب لعدم نسيان الكوارث السابقة، والذين تشككوا في القدرات القتالية للجنود الفلاحين.

فلقد أفتعت الإبادة الشاملة لقوات هكس باشا، حتى أكثر الناس تفاؤلاً، بأن من الخطورة بمكان الاعتماد التام على القوات المصرية في الحروب النهم إلا إذا ما خضعت لتدريبات شاملة أوسع مما أحرزته حتى الآن. فالجيش المصري الجديد، والذي تم تدريبه بعناية بأشراف ضباط بريطانيين، لا يمكن أبداً مقارنته بالشرانم غير المدربة التي شكلت غالبية قوات هكس باشا وبيكر باشا. ولا زال تاريخ الثورة، حتى الآن، يميل لتأييد أقوال الذين تنبأوا بحلول كارثة إذا ما أرسل الجيش المصري الفتى للميدان. أكثر من هذا، فإن ذلك يتعارض مع المخطط الأصلي الذي حدد للجيش المصري الجديد بالاً بوجه للتقدم نحو السودان. فلقد خصص له الدفاع عن أرض مصر الأصلية فقط. ولذلك، ومهما كانت مناشدة الضباط البريطانيين الحارة للسماح لهم بتجربة قواتهم التي دربوها، فقد كانت الإجابة دائماً سلبية لندائهم.

واستمرت الثورة في الإنتشار بالسودان. وتم التفكير، في بواكير عام ١٨٨٤، بإضافة لواء تركي للجيش المصري. وتم إرسال زهراب بك لألبانيا في مهمة لتجنيد قوات من شبابها، ولكن وقفت في وجهه المشاكل الدبلوماسية. وحتى النواة التي شكلت منهم لتكوين كتيبة سرعان ما تمردت وتم

حلها بعد جهد بطولي من قائدها، الميجر جرانت، والذي تتبع المتمردين بمفرده حتى الساحة التي تجمعوا فيها، وأفلح في جعل رجالها يلقون بالسلح، رغم عدة محاولات منهم لقطعنه بالسناكي مما دعاه لإستخدام مدسده دفاعاً عن نفسه.

وأثناء ذلك أخذت أحوال السودان تزداد خطورة يوماً بعد يوم وصار لابد من اقتراح زيادة في أعداد الجيش المصري وتم إضافة الضباط الآتية أسماؤهم إليه:

الرتبة	الاسم	الرتبة	الاسم
ميجور	هير	لفتنانت	تيرنان
ميجور	تروتر	لفتنانت	جب
ميجور	جرانت	لفتنانت	جريجوري
كابتن	هنتر	لفتنانت	بورو
كابتن	مولينو	لفتنانت	دوبني
كابتن	لويد	لفتنانت	مبين
لفتنانت	ايجر	لفتنانت	سوريز
لفتنانت	هاوتين	لفتنانت	براي
لفتنانت	هكمان	لفتنانت	كولس
لفتنانت	بارتيلو	لفتنانت	لا تيريرير
لفتنانت	لوفات	لفتنانت	كراومورد
لفتنانت	ليسونس		

وتغير الموقف العسكري عموماً بدرجة باثغة السرعة. ولما كانت محاولة تشكيل لواء تركي قد فشلت، فقد تقرر تشكيل كتيبة سودانية للخدمة بسواكن.

سميت هذه الكتيبة، والتي أنشئت في أول مايو ١٨٨٤، وكان يقودها الميجر بار، بالكتيبة السودانية التاسعة. ومنذ بداية تشكيلها وحتى وقتنا الحالي فإن الثقة التي وضعها فيها الضباط البريطانيون لم تهتز. لقد قام الدور الرائد لهذه الكتيبة بمهام "العمود الفقري" الذي تفتقده الكتائب المصرية والتي، باشتراكها مع القوات السودانية، تمكنت من إحراز أكثر من نصر مشرف واحد.

ولا ننوي أن نكرر الأحداث المختلفة التي جرت، والتي ستجيء بالتفصيل في أجزاء أخرى من هذا الكتاب، والتي شاركت فيها الكتائب المصرية والسودانية بالجيش الجديد، بل سنتناول بإيجاز ما هو ضروري لربط حلقات السلسلة للتاريخ المبكر لهذا الجيش الفتى، والذي لم يتجاوز عمره الآن السنوات الثمان، مع الأحداث التي سنتناولها، ولنظهر كيف كان أدائه مرضياً بدءاً من إنشائه بواسطة السير إفلين وود، وحتى الهزيمة الشاملة التي ألحقها هذا الجيش، بقيادة السير فرانسيس قرنفل، بود النجومى المشهور. لقد كان ذلك النصر نتيجة لنصير الإنجليزي والمثابرة والدأب، وبرهان على أن الخصال الطيبة الكامنة في نفوس الشرقيين، يمكن تطويرها تحت إشراف البريطانيين، وبدون أن يتوقع أحد ذلك.

يختلف تنظيم الكتائب السودانية لدرجة كبيرة عن تنظيم الكتائب المصرية. فرجال الكتائب السودانية هم في الغالب من الفارين من العدو (البازنقر الذين أشرنا إليهم كثيراً من قبل) وهم جميعاً من المتطوعين. ولأنهم غير مستقرين، فقد سمح لعدد كبير منهم بالزواج ونالوا علاوة إضافية لتلبية احتياجات زوجاتهم^{*} وهم لا يستوعبون الدروس والتمارين بالسرعة التي يستوعبها المصريون. ولكن، ومن ناحية أخرى، فأنهم يتسمون بالإقدام وبغريزة الدفاع عن النفس. وكثير منهم، وبخاصة الشلك والدينكا، همجيون لحد بالغ وقد أثبتت التجارب أنهم يحتاجون لدرجة كبيرة من السيطرة عليهم خلال المعارك، إذ أن كل ما يرغبون فيه هو "النهوض والقفز إلى" حلق الإعداء". من هنا فقد كان ضرورياً تنظيمهم في ستة بدلاً عن أربعة فرق، وتخصيص أربعة ضباط إنجليز لكل كتيبة، من ٧٥٩ رجلاً، بدلاً عن ثلاثة ضباط.

وعندما بدأت حملة الإنقاذ عام ١٨٨٤ تحركها لنجدة الخرطوم، كانت معظم القوات موزعة على خطوط الإمداد الطويلة، وقدمت خدمات جليلة، أشار إليها اللورد وولسلي في تقريره الختامي للعمليات بالآتي:

"لقد عمل الضباط والجنود بالجيش المصري، تحت قيادة الجنرال وود وتعليماته المباشرة، على طول تلك الخطوط وبحماس وطاقت لا تعرف الكلل وأحرزوا أفضل النتائج الممكنة لمصلحة الحملة".

وبرز تميز رجال المدفعية المصريين في هذه الحملة وأداءهم، بقيادة ضابط وطني ملحق ببطاريات المدفعية البريطانية، خاصة في معركة أبو طليح. وجاء في تقرير الأداء (أنهم ثابتون وجيدون). وفيما بعد، وفي معركة كريكان كتب الجنرال برا كنبري في تقريره الإضافي الرسمي:

"في تقرير لي للعاشر من الشهر الحالي (فبراير ١٨٨٥) حول معركة كريكان قمت بدون قصد بإسقاط ذكر الدور الذي لعبته قوات الهجاة المصرية، بقيادة الميجور ماريوت، والذين قاموا، تحت نيران من أمامهم ومن أجنحتهم، بإبقاء صفوفهم في حافة الجبل، الذي استلمه فيما بعد جماعة ستا فورد، وشغلوا العدو وصرفوا انتباهه عن المقدمة.

إنني أعتذر من جانبي على عدم ذكر هذا الدور لأن التصرف الشجاع لفصائل الهجاة، الذين سقط منهم قتيلان وجريح واحد، كان موضوعاً للثناء العام بعد هذه المعركة".

وقامت القوات المصرية أيضاً بواجبها خير قيام وذلك في مختلف الاشتباكات التي جرت حول سواكن وكانت هناك عدة شواهد للشجاعة الشخصية من قبل الجنود المصريين. وهنا يمكن ذكر أحدهم على الخصوص. فقد قام أحد الأنفار بالخيالة المصرية، والذي كان ضمن تشكيلة للاستطلاع مكونة من قوات بريطانية ومصرية في الثالث من فبراير ١٨٨٥، والذين كانوا تحت ضغط شديد من العدو، قام بالترجل والنقط شايوشاً جريحاً من الهوسار التاسعة عشر، والذي كان معرضاً للمسوت

^{*} كل السودانيين المقيمين في مصر خاضعون لقوانين التجنيد. وكقاعدة عامة، فإن هؤلاء الرجال، وبعد طول إقامة في مصر، اعتبروا أقل كفاءة، ولا يعتمد عليهم بنفس الدرجة التي تميل الذين قدموا مباشرة من السودان. وبالتالي وما عدا حالة الكتيبة الثانية عشر، التي كانت في ظروف طوارئ صعبة، فإن الكتائب السودانية لم تتكون من أولئك المجندين (المتصرين).

حتماً، وأخرجه من ميدان المعركة. وتقديراً لهذا العمل الفردي، قامت صاحبة الجلالة الملكة، والتي سرت سروراً عظيماً، بالإععام عليه بوسام الخدمة الممتازة الميدانية.

وحتى قبل ذلك التاريخ وبعده، كانت هناك حالات متعددة للبطولات الشخصية للجنود، ويمكن للضباط والقادة أن يوردوا الكثير من الروايات المثيرة عن البطولات الفردية التي أبدوها جنودهم في المعارك الأخيرة بأرقين وتوشكي.

تخلي السير إفلين وود عن موقعه كسرदार للجيش المصري في مارس ١٨٨٥، وخلفه البريفادير جنرال قرنفل. كما ترك موقعه أيضاً الكولونيل فريزر، وخلفه في مركزه كادجوتانت جنرال اللفتنانت كولونيل بار. وأثناء ذلك تمت زيادات كبيرة للأفراد بالجيش.

وفي الثاني من يناير ١٨٨٦. أنشئت الكتيبة السودانية العاشرة وأوكلت قيادتها للكابتن دون. وبنهاية فبراير ١٨٨٦، بلغ تعداد الجيش المصري ١٠٠,٠٠٠ رجل وأصبح يشتمل على عشرة كتائب مشاة وخمسة بطاريات مدفعية وفرقة للخيالة مكونة من سريتين، وثلاثة أفواج للهجاة. وأصبح جل هذه القوات الآن مكون من جنود متمرسين للدرجة التي تتيح لهم، بالإحتكاك المباشر والمستمر مع القوات البريطانية، الوصول تدريجياً إلى المستوي المرغوب ألا وهو الإعتماد على النفس.

والمقتطفات التالية من تقرير الكولونيل بار، الذي قدمه إلى المعتمد السامي البريطاني في مصر أوائل عام ١٨٨٦، مثيرة للإهتمام لأنها تظهر مدى التقدم الذي تم إحرازه خلال السنوات الثلاثة السابقة:

"أحدى النتائج المرضية للقتال الأخير هو البرهان على أن درجة العناية والإهتمام التي اتبعت لاختيار الضباط الوطنيين ولتحسين أوضاعهم ورفع معنوياتهم، قد أثمرت أفضل النتائج. فقد كان أداؤهم مرضياً للغاية وأثبت عدد منهم بطولات فذة. ومتوسط مدة خدمة ضباط الصف المصريين والجنود، الذين هم الآن بالجبهة، هي حوالي عامين ونصف العام.

وبعودة إلى العلاقات بين الضباط الإنجليز والضباط والجنود المصريين، ولأنني قدت من قبل كتيبة مصرية لحوالي عامين، وكنت على صلة حميمة ومعرفة بمشاعر وأحاسيس كل الرتب في فوجي، لا أجد نفسي إلا متحدثاً عنهم وعن أدائهم بإيجابية تامة.

فخلال الشهور الأربعة الأولى بعد تكوين الجيش قمنا بعمل شاق لكسب ثقة الضباط، والذين كان أسوأهم وأكثرهم عجزاً عن القيام بأي شئ حسن، قادراً على أتيان كل الشرور التي يمكن تصورها. ولكن قليلاً قليلاً بدأ الضباط المصريون والإنجليز يفهم أساليب بعضهم البعض وطريقة تفكيرهم.

تم استئصال الضباط الرديين وحل محلهم الشبان الذين تدربوا في المدارس الحربية. وسرعان ما تلاشي الضباط الذين صعدوا من بين الصفوف، والذين تعودوا على الشرور والعادات الرديئة للجيش القديم، وتم التخلص منهم.

وفيما يختص برجال الجيش، فإن المعاملة العادلة الصارمة، والكساء والتعيينات التي لا تلاعب بها، والمرتبات غير الناقصة، سرعان ما جعلتهم راضين وسعداء بعملهم وساد الشعور الطيب بين الضباط الإنجليز وجنودهم وهو الأمر الذي أصبح واضحاً في عدة مجالات.

ولما كانت كتيبتى قد كونت قبل عام، وبعد الكارثة التي حلت بالجنرال بيكر في فبراير ١٨٨٤، وعندما كان الذهاب للسودان يعني الذهاب للموت المؤكد، فقد طلبت ستة متطوعين للذهاب معى لسواكن كمدرربين عسكريين. وما أن عرفوا بأننى وميجر إنجليزى من كتيبتى ذاهبان، حتى تطوع ١٥٠ رجلاً وكان بإمكاني اصطحاب كل الكتيبة إذا ما تطلب الأمر ذلك.

وحالياً، وبعد ثلاثة سنوات، أصبح الشعور المساند بين جميع الرتب مرضياً للغاية. وبالنسبة للضباط الإنجليز فقد أصبح الكثيرون منهم ملتصقين بزملائهم الجند حتى أن هذا الأمر أصبح موضوعاً للتندر والتعليقات الطريفة من جانب زملائهم الضباط في جيش الاحتلال. وهذه المشاعر نفسها إنعكست على الضباط الوطنيين وجنودهم.

ولم تكن هذه المشاعر الدافئة، بين الضباط الإنجليز بالجيش المصري والضباط الوطنيين وجنودهم فقط، بل صار هناك تقارب واضح وإلفة بين الجيش الإنجليزى والضباط المصريين وجنودهم.

وحديث عن الجنرال فريماتل. فقد كان محبوباً لدى قواته المصرية في سواكن لدرجة أنه، عند ما غادر القاهرة في الشهر الماضى قام عدد ضخم من الضباط والجنود، الذين كانوا تحت قيادته، بوداعه رغم أن ساعة مغادرته لم تكن متوقعة بدرجة أو بأخرى.

كما أن عدداً من الضباط المصريين حضروا من تلقاء أنفسهم جنازة المرحوم الكولونيل بارو، والذي حدثت وفاته غير المتوقعة هذه الأيام. ربما كان أولئك المعزون قشاً، لكنهم أظهروا إلى أي اتجاه كانت تهب الريح.

لكن بداخل القرى، كانت للمشاعر الدافئة بين المصريين ضباطاً وجنوداً، وبين ضباطهم الإنجليز، أكبر الأثر وأوضحه. فقد كان الرجال يعدون، في أجازاتهم، إلى قراهم وجيوبهم مكتظة بالمال، وعلى سيماهم طيب التغذية والهندام الحسن، ويروون الحكايات الطويلة لأهلهم عن الضباط الإنجليز. وقد قال أحد الجنود لضابطه الإنجليزى ذات يوم: "عندما كان يعود جندي من الجيش القديم لقرية فإنه يتسلل منها هارباً كالكلب، وهو سعيد لأن شيخ القرية لم يضربه. لكننى عندما عدت للقرية فقد سألنى الشيخ إن كان معى بعض البن، ورجائى أن أحدثه بالأخبار".

وحتى التغيير الذي حدث للمجندين كان واضحاً للعيان. ففي المقام الأول كان لاستخدام نظام القرعة العادلة أثر على الطبقات الثرية من الفلاحين وصغار التجار. ولم يعد الناس يخشون نداء التجنيد وكأنه حكم بالإعدام. وقبل بضعة أيام ذهبت إلى العباسية فوجدت جماعة من الفلاحين جالسين على مرتفع صغير وهم يدخنون ويتبادلون الحديث أثناء مشاهدتهم لكتيبة تحت التدريب. فقلت لهم: "ماذا تفعلون هنا؟" فأجابونى: "نعم. إننا من الجنود الجدد ونحن نراقب تدريبات الجنود هناك". فقلت لهم: "أظن أن هذا وقت سيء لكم لتترككم قراكم وحقولكم" فقالوا: "حسناً. إن البعض منا غير سعيد لكننا، على أية حال، يجب أن نأخذ دورنا أيضاً ولا نرى على وجوه هؤلاء الجنود سوى الإرتياح والسرور".

نعم. هذا تغيير واضح لما كان عليه الحال من قبل عندما كان المجند للجيش المصري يقاد مكبلاً بالجنائزير بواسطة البوليس ووراءه جمع من المنتحبين والباكين والثكلى.

ومن المدهش أيضاً سلوك النساء وأقارب الجنود الذي أبدوه عندما غادرت آخر الأفواج للجهبة. فبدلاً من النسوة اللاتي يلقين بأنفسهن على الأرض، بكل ما فى أحران الشرق من هياج وانفعال، لم نجد إلا القليل منهن يبكين في صمت. ورغم هذا لم يسلمن من تقريع رفيقاتهن لهن: "تمنوا لهم الحظ السعيد، فعلى رجالكن الذهاب للحرب، وسيعودون إليكن قريباً".

مثل هذه اللهجة لم تسمع منذ أن غادر المتطوعون، الذين يقال بأنهم قدموا أنفسهم صيف ١٨٨٢، متطوعين، عندما كان عرابي باشا في السلطة، القاهرة. وحتى اليوم لا يخلو الجيش المصري الجديد من الرجال الذين يتطوعون بمحض إرادتهم للخدمة. ونادراً ما يمر يوم ولا نجد فيه من يتطوع للتجنيد من الرجال، بينما رأينا قسماً كبيراً من الرجال الذين عملوا في حملة النقل للقوات البريطانية بسواكن عام ١٨٨٤، والذين كوفقوا بصرفهم عن الخدمة* يعملون على إعادة التطوع من تلقاء أنفسهم. وفي الختام لدي تعليق خاص بالخدمة الإلزامية في مصر مقارنة بما يحدث في أوروبا. ففي مصر فإن القتاتون الخاص بها يعتبر متسامحاً متساهلاً بالنسبة للمصريين. ففي جيش تعداد ٨٠٠٠ رجل فإن قوائم التجنيد تورد أكثر من ٧٠٠٠٠ شاب من المعتمدين صالحين تماماً للتجنيد، بعد إجراء الكشف الطبي عليهم بواسطة طبيب القرعة، وتم تطبيق كل ما يمكن من إعفاءات عليهم (وإعادة معظمهم إلي قراهم) ... انتهى تقرير الكولونيل بار.

وليس هناك إلا القليل الذي يمكن إضافته الآن. فقد أثبتت أحداث أعوام ١٨٨٧، ١٨٨٨، ١٨٨٩، بأن تقدماً مضطرباً قد أحرز. وكلما هبط تعداد جيش الاحتلال البريطاني، إنداد تعداد الجيش الوطني.

وعندما تم إعادة تنظيم قوات الشرطة عام ١٨٨٧، تم تحويل جنود الاحتياط السودانيين إلي الجيش وأصبحوا يشكلون الكتيبة السودانية الحادية عشر، تحت قيادة الكابتن مكدونالد. وتم تشكيل الكتيبة السودانية الثانية عشر في ١٣ نوفمبر ١٨٨٨ بقيادة الكابتن بيسانت، بينما شكلت كتيبة سودانية أخرى (الثالثة عشر) في ٢١ يونيو ١٨٨٦، تحت قيادة الكابتن سميث دورين. وتمت زيادات كبيرة في عدد أفراد مختلف الأسلحة وصار عدد القوات جميعاً الآن ١٢٦٣٣ ضابطاً وصف ضابط وجندي، يشكلون ١٤ كتيبة للمشاة (بما فيها كتيبة المخازن والإمدادات) و ٥ أفواج للخيلة و ٦ بطاريات مدفعية وقصيلين للهجاة، إضافة لهيئات العاملين والإدارات المختلفة وغيرها. وجميعهم موزعون بين سواكن والحدود وفي القاهرة والاسكندرية. وإذداد عدد الضباط البريطانيين كثيراً ليصل عددهم الآن إلي ٦٤ ضابطاً. وإضافة لهؤلاء فهناك أكثر من ٥٠٠ من (الضباط) العاملين في الخدمة النشطة***. وحوالي ١٥٠ يتناولون نصف مرتب وأكثر من ١١٤٢ ضابطاً في المعاش.

* قوة الكتيبة المصرية ٦٦٨ رجلاً لكل منها.

قوة الكتيبة السودانية ٧٥٩ رجلاً لكل منها.

قوة بطاريات الخيول ١٣٧ رجلاً.

قوة بطاريتي الميدان ١١٣ رجلاً لكل بطارية.

٣ بطاريات للحاميات قوة كل منها ١٦٦.

قوة الخيالة ٧٧٣ رجلاً.

قوة كل فصيل هجاة ١٥٢ رجلاً.

** من بين هؤلاء ٦ يحملون رتبة الباشا و ٤ رتبة أمير الإي بك و ١٦ قائمقام بك و ٣٨ بمباشي.

*** من بين هؤلاء ٤ يحملون رتبة الباشوية و ٢ رتبة أمير الإي بك و ١٣ قائمقام بك و ٢٣ بمباشي و ٣٨ صاغولا غلمسي و ١٢٧ يوزباشي و ١٥٠ ملازم أول و ١٥٠ ملازم ثاني.

القسم الثامن أحداث عام (١٨٨٥)

الملخص:

الخرطوم بعد سقوطها - المهدي يجعلها رئاسة له - عصر الإرهاب - المهدي ينقل رئاسته
لأم درمان - وفاة محمد أحمد - منشوره الخاص بعبد الله التعايشي - الخليفة عبد الله التعايشي
يخلف المهدي - الرؤيا التي رآها - قصة الشعرة - الأمر بالحج إلى قبر المهدي - وصية المهدي -
منشور الخليفة لأهالي دارفور - أثر وفاة المهدي على السودان عموماً - حاميات سنار وكسلا -
دور المرأة في ثورة السودان - حصار وكسلا - حصار الجبيرة - حصار القلابات - خطاب من مديرها لغيردون -
الكولونيل شيرمسايدي يبحث مع الملك يوحنا إنقاذ الحاميات المصرية التي على حدود الحبشة - إنقاذ
حامية القلابات - وصول حاميتي أماديب ومنهيت لمصوع - حملة الجنرال جراهام إلى سواكن -
معركة هشين - زربية مانيل - موقف القبائل في شرق السودان - محاولات كسب الحباب للمهدية -
حصار كسلا - السيد (محمد) عثمان الميرغني - تدهور نفوذ المهدية على مشارف سواكن - تأثير
وفاة المهدي على كسلا - الصراعات بين القبائل - مدير كسلا يوافق على وقف العدائيات لثلاثة
شهور - وصول عثمان دقنة لكسلا - الراس ألولا يصمم على محاولة إنقاذ كسلا - العرب يتحدون
الحبش - معركة كوفيت - هزيمة عثمان دقنة - الأحباش يحررون الجبيرة - سفينة صاحبة الجلالة
الحربية "جرايلر" تشتت شمل البشاريين في خور شيناب - كنتباي، شيخ الحباب - الحالة في أم درمان
والخرطوم - وفي كردفان - ثورة القوات المصرية (النوبة في الأبيض) - موت الأمير الشريف
محمود. عثمان ود آدم (جانو) يخلفه - حملة أبو عنجة - الملك آدم ملك تقلي - دارفور وبحر الغزال
- ثورة مادبو - كرم الله يرسل كتمبور للقبض عليه - الاستوائية - رسالة كرم الله لأمين - حصار
بور - الهجوم من أمادي - مجلس من الضباط يقرر سحب الحاميات الشمالية والتركيبو باتجاه
الجنوب - إعادة تنظيم وتوزيع الحامية - أمين يتوجه لغدكورو - كرم الله يغادر أمادي للشمال -
رؤية أمين وتصوره للوضع الراهن - مباحثات مع كباريقا - الثورة المحلية في اللادو - ثورة الباريا
- دكتور ينكر يتوجه إلى كباريقا - تقلص الاستوائية - غزو مصر - الخطبة - الخليفة يصف متاع
الجنة ومباهجها - تفكك طابور النيل - قوات الحدود الميدانية بقيادة الجنرال قرنفل - الجنرال بتسر
يقود اللواء المتقدم ويتخذ إنبهار حكومة لنقل المحلية - تقدم العرب - تنظيم الباخرة المدرعة لوتس
ذات البدال الخلفي - الهجوم على مقراكة - العدو يستولى على قرية كوشة - الصخرة السوداء
وأجمة النخيل - هجوم الكمرون - هابلاندس (والكتيبة) السودانية التاسعة - قيام الجنرال بتسر
بالإستطلاع - وصول الجنرال السير إف. ستيفنسون وتسلمه للقيادة - تركيز القوات في فركة -
خطة الهجوم - معركة جنس.

...

وظلت المدينة المستباحة والجائعة ليومين تحت النهب والسلب من قبل ١٠٠,٠٠٠ من العرب. ثم، كما جاء في قول لأحد أبنائها، "وفي اليوم الثالث (يوم المصريين يبدأ بالليل) من سقوط الخرطوم، وفي تمام الثانية ظهراً، جاءت باخرتان تقلان علي ظهرهما رجلاً من الإنجليز. رماهم الثوار بالنار من كل جانب، لكنهم بعد أن وجدوا أن الخرطوم أصبحت في أيدي العرب، تراجعوا واختفوا".

وكان المهدي قد أصدر منشوراً يوم السابع والعشرين يهدد فيه بأنه لن يترك أي تركي على قيد الحياة. لكنه في الوقت الحالي انشغل بتأمين قبضته على الجموع الهالكة الذين كان إنضباطهم، غير الحسن أبداً، قد أختفي في فورة النهب والسلب. وبمساعدة خليفته الأكبر عبد الله تمكن سريعاً من إستعادة النظام. وقام باستدعاء جميع التجار وقدم لهم الخيارات التالية:

"إما أن تحرق ممتلكاتهم (المنقولة) ويضائعهم، أو يلقي بها في النيل، أو توضع في بيت المال".

وقد تم قبول الخيار الأخير بالطبع. وأوكل إلي أحمد سليمان (جعلي) بأستلام تلك البضائع الهائلة المحتوية علي كل نوع وصنف، ما عدا المؤن والأطعمة، وإدارتها. وسرعان ما دارت عجلة العمل في ترسانة السفن ودار صناعة الأسلحة وباقي الورش. ولم يتم تجاهل دور الطباعة وما أسرع ما أعيد تشغيل مطبعة الحجر. تمت صيانة ما تعطل من البواخر، وضربت العملة أو سبكت (سنناقش أمر العملة فيما بعد) في دار مرتجلة لضرب العملة، كما كان مصنع الذخيرة أكثرهم نشاطاً.

وبهذا تم استخدام عدد كبير من العمال المصريين، وكانت أحوالهم طيبة لحسن المرتبات التي يتسلمونها. واستعادت المدينة شيئاً من طبيعتها وأنشطتها السابقة.

ثم بدأ عهد من الرعب يسود بين العرب. ونشطت لجان التفتيش ليلاً ونهاراً بينهم، تحقق وتدقق، ولم يعد يجرؤ أي رجل على ادعاء أن روحه هي ملك له. كانت نفس الضرورات التي تدفع السلطان الشرقي لقتل أقاربه عند توليه العرش هي التي تدفع جهود محمد أحمد الآن لتوطيد سلطانه. وكانت المحكمة تتعقد ليلاً ونهاراً، تستمع إلى التهم الملفقة ولشهود الزور الذين يشهدون ضد صغار الزعماء والشيوخ والذين فقد معظمهم رؤوسهم وحل محلهم في السلطة والنفوذ عبيدهم السابقون. وفي هذه الإثناء حل المرض بالآلاف من الناس وقتلهم وكانت حصيلة الموتى من جراء الجدري، المنتشر في السودان، قد صعدت إلى الرقم المذهل، وهو موت ٤٠٠ - ٥٠٠ (مواطن) يومياً.

في باكورة فبراير ١٨٨٥، تم تحويل الرئاسة لأم درمان، إذ لا تتيح الخرطوم للرجل المكروه، الذي يخشاه الناس، مكاناً آمناً يخلو فيه لملذاته. أما الغموض، وهو عنصر هام في تكوين

*تعليق من المؤلف:-

يقول المؤرخ السوداني الأستاذ / عبد المحمود أبو شامة: أن غردون، بمساعدة من إبراهيم فوزي باشا والدكتور نيكولا، قام بتصنيع وإنتاج كمية كبيرة من السوائل المحتوية على ميكروب الجدري ووضعها بداخل الجلل التي تقلبها المدافع على جموع الأنصار المحاصرين للخرطوم.

وكانت النتيجة هي ما تحدث عنها وتجت، بعد أن أخفي المصدر للشرير لها وهو غردون. هذا وقد استخدمت حملة الإنقاذ البريطانية أيضاً علب اللحوم المحفوظة، والمملوثة عمداً بميكروب التيفويد، لتركها في مصكراتها المهجورة حتى يأكلها الأنصار. أنظر كتاب الأستاذ عبد المحمود من أبا إلى تسليها، المطبعة العسكرية، ١٩٨٧. صفحة ١٦٥ - ١٦٨ للجدري وصفحة ٣١٦ للتيفويد... والشكر أنجزه للسيدة رباح الصالح المهدي التي تكرمت بإهدائي الكتاب. (المعرب)

المدعي، فمن السهل الحفاظ عليه في أم درمان. وهنا كانت تحضر إليها سرّاً صناديق الذخيرة التي كانت تنتج كل يوم.

وأخيراً شعر المهدي وخليفته بالأمان التام الذي يتيح لهما الاستمتاع بالراحة وانتظار السقوط السريع لكسلا وسنار بكل ثقة. لكن هذه الراحة هي التي كانت القاتلة لمحمد أحمد. فقد جرت القصة كما يلي:

"إن أحدى النساء، وهي ابنة لتاجر من المدينة كان قد فقد أطفاله ونساءه وثروته وكل شيء أثناء الحصار الطويل، استسلمت لنوبة من الإنفعال الشديد والغضب وإنتقاماً منه إنتقاماً رهيباً. وفي ليلة الرابع عشر من يونيو دست للنبي الفاجر وزير النساء سمّاً زعاقاً. وبعد أيام من معاناة سكرة الموت توفي في الثاني والعشرين من الشهر".

والآن جاءت الفرصة التي أنتظرها عبد الله طويلاً، ولم يتأخر عن الإمساك بها. وتمت مطابقة سابقة تولي الخليفة أبو بكر الصديق من كافة نواحيها عند تولي الخليفة عبد الله التعايشي للقيادة العليا. فمذ وقت طويل كان عبد الله، الشديد الذكاء، قد أقتع المهدي لإصدار المنشور التالي، والذي أصبحت عقوبة الموت تنزل على أي من يتشكك في صحة توليه للخلافة:

منشور

من محمد أحمد المهدي إلى كافة أتباعه

بسم الله الرحمن الرحيم... الخ.

أعلموا أيها الأحباب، أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلاد الصديق والتصديق، فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهديّة المشار إليه في الحضرة النبوية، فذلك السيد عبد الله بن محمد حمد الله عاقبته في الدارين. "فهو مني وأنا منه. فتأدّبوا معه كتابكم معي وسلموا إليه كتسليمكم لي وصدقوه كما تصدقوني ولا تنهوه في فعله. فجميع ما يفعله بأمر من النبي أو بأذن مني. وهو وكيلني لتنفيذ إرادة النبي. وإذا أراد الله ورسوله قضاء أي شيء فعليّنا الاستسلام لقضائهم. وإذا أبدي أي أحد أدنى شك فيه فقد كفر وهو من غير المؤمنين بالله. والخليفة عبد الله هو خليفة الصديق وأنتم تعلمون حب الله ورسوله للصديق. لذا عليكم أن تفهموا المكان السامي الذي يحتله الخليفة. وهو مؤيد من الخضر ويتقوى بالله وبرسوله. وإذا ما تحدث أحدكم عنه بسوء، أو فكر في ذلك، فإن الدمار سيحل به وسيخسر الدنيا والآخرة.

* تعليق من المعرب

أجمعت كل المصادر المنصفة تقريباً على أن المهدي قد دخل في خلوة للعبادة والتفرغ لله تعالى عند حلول شهر رمضان الذي توفي فيه، وبعد أن أوكّل الشئون النبوية لخلفائه عامة وللخليفة عبد الله، خاصة. وفي اليوم الرابع من رمضان (١٧ يونيو) أصابته حمى أودت بحياته بعد خمسة أيام. ويقال أن سبب الحمى هو مرض التيفويد الذي انتشر بين سكان أم درمان عقب سقوط الخرطوم والذي ربما كان بسبب علب اللحم المحفوظ، الملوثة عمداً بالميكروب، والتي خلفها وراءهم عمداً المنسحبون الإنجليز في جيش الإنقاذ الذي حاول نجدة غردون.

انظر مكي شبكية، السودان عبر القرون، ص ٢١٧ وانظر: HOLT, P.M. (1958): The Mahdist State in The Sudan, Oxford University Press, P. 96. وحتى غير المنصفين، مثل سلاطين، والذي كان شاهد عيان في أم درمان ويسكن بجوار المهدي قد ذكر بأنه "أصيب بحمى التيفوس القاتلة ومات بعدها بستة أيام" انظر سلاطين: النار والسيوف في السودان، دار عزة للنشر بالخرطوم.

* كتبها ونجت كالآتي: "فذلك السيد عبد الله بن السيد حمد الله" (المعرب).

وأعلموا أن جميع أفعاله وأقواله محمولة على الصواب فقد أعطي الحكمة وفصل الخطاب في كل شيء. ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم فهذا لمصلحتكم ولذلك عليكم ألا تعصوه. وقد قال الرسول: أن أفضل من عاش تحت الشمس بعد الرسول هو أبو بكر وهو أصدقهم. والخليفة عبد الله هو خليفة الصديق وهو خليفتي بأمر من الرسول. فمن كان يؤمن بالله وبشي فإن عليه أن يؤمن به وإذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن الذي قد لا يفهمونه.

وليبلى شاهد منكم الغائب حتى تنقادوا إليه ولا تنسبوا إليه أي ظلم أو خطأ. واحذروا أذية أولياء الله فقد لعن الله ذلك في كتابه.

والخليفة عبد الله هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع أمور الدين. لذلك اختتم كما بدأت: "آمنوا به، وأطيعوا أوامره، ولا تشكوا فيما يقول ولكن ثقوا به وأوكلوا إليه كل أمركم. كان الله في عونكم جميعاً - آمين".

ولإضفاء المزيد من التأثير على أتباعه السذج سريعي التصديق، بأن خلافته قد بنيت على تفويض إلهي، فقد أصدر عبد الله المنشور الغريب التالي^{***} وهو عبارة عن رؤيا ذكر أنه رآها بعد وقت قصير من وفاة المهدي:

من عبد ربه خليفة المهدي، خليفة عبد الله، خليفة الصديق إلى أحبائه وأتباعه وأنصار الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم.... الخ.

يا إخواني: منذ وفاة المهدي ظللت أفكر في نعمة الله الذي فضّلني على كل هؤلاء الأنصار الكرام وذلك بتعييني لخلافة المهدي.

ولقد شاهدت رؤيا صباح هذا اليوم أثناء تفكيري فيما جرى...^{***}

لقد ظهر أمامي أحد الجن وبايعني بالولاء لله ولرسوله وللمهدي ولي، ثم ذكر أنه يحب الله والرسول والجهاد والشهادة^{****} وبعد ذلك ذهب لرؤية أهله ولدعوتهم للدين بعد أن ودعني.

ثم ظهر أمامي بعد ذلك جنى آخر من عجائزهم وطلب مني البيعة فبايعته ثم إنصرف. وبعد ذلك جاءت جماعة من الجن تهتف "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" ويكررون النداء "في شأن الله، في شأن الله". ثم بايعتهم هم ونساءهم وحددت لهم مكاناً للإقامة به بالمعسكر وذلك في الجزء من (المسجد) الذي يأتي إليه المتأخرون عن أداء الصلوات. أما عن إقامتهم الدائمة فقد حددت لهم مناطق الجبال المجاورة.

^{*} النص الكامل في "الآثار الكاملة". المجلد الأول، الصفحات ٢٣٧ - ٢٤١ وقد حذف منه ونجت الآيات القرآنية المستشهد بها (المعرب).

^{**} وهو المشهور باسم "منشور الشعرة" (المعرب).

^{***} لطول المنشور وتكرار معظم ما جاء به، سنورد ملخصاً لأهم نقاطه (المعرب).

^{****} ترجم ونجت معنى الشهادة بأنها شهادة ألا إله إلا الله، محمد رسول الله. وهذا عكس المقصود بها خاصة وأنها قرئت بالجهاد أي بمعنى الاستشهاد (المعرب).

ثم سألني أحدهم عما سأفعل إن حضر لنا الكفرة بأعداد ضخمة. فقلت له بأنهم لو حضروا بأعداد كرمل البحر أو شجر الغابة فلن أخشاهم لأن كل ثقتي بالله تعالى وتوكلي عليه.

ثم صحوت من نومي وقلت (توكلت على الله) ثلاثة مرات ثم توضأت وصليت ورقدت على العنقريب. ظهر أمامي النبي الخضر وصلي على فروتي ثم سلم على وأبلغني بسلام الله والملائكة والنبي والمهدي وأن الأخير خاصة قام بمباركة كل ما أقوم به.. أوصاني بنصح الأحباب على المواظبة على الصلاة.

ثم سألت الخضر عن أسباب إنقطاعه عني منذ وفاة المهدي فذكر أنه كان يحرس شعرة للمهدي، كان قد أودعها لأحمد سليمان لتسليمها لي، إلى أن ابتلعها. ولأنه كان أميناً عليها فستمت مكافأته على ذلك. وأكد لي الخضر بأن القلب الذي دخلته هذه الشعرة سيكون خالياً من النفاق وسيغمره الضياء.

ثم سلمني عموداً من الضوء، جاء من الله ثم جبريل ثم الرسول ثم المهدي وأمرني بابتلاع ربه وغسل وجهي بربع ثاني وعرز ربع ثالث على الراية الزرقاء ثم تقسيم الربع الأخير على الأنصار. كما أمرني المهدي بعدم الإستماع للذين يريدون مني متابعتهم وقال إن السلامة في أتباعي الذين يقفون معي ويتبعوا سبيلي. وأنه في ساعة الحرب فإن الرسول بنفسه سيكون معي وكذلك المهدي والملائكة ميكائيل وجبريل ورفيق وعتيد ومالك ورضوان، وكذلك أرواح المؤمنين من لدن آدم إلى يومنا هذا. وقال أن الله سينصرني على كافة أعدائي. كما كرر المهدي ألا يسكن سنار أباً من الإخوان. أما جبل الضباب وكاكا وجبل مرة ودار التعايشة فيجب ألا يسكنها أحد إلا إذا دخلها الأنصار للغنائم. أما سنار فلا يسكنون بها ولا يتوجهون إليها حتى للفتنة.

هذا وكانت تلك الشعرة بيد أحمد سليمان عندما فتح العلبة التي كانت تحتويها فشمنت رائحة عجيبة وعندما ظهر طرف منها غمرني شعور عارم بالبهجة لا يفهمها سوى الله. وعندما أردت شمها دخلت إلى فمي وابتلعها وهذا ما حدث... آمين".

وبعد أن تم دفن المهدي بوقار وسكينة، بدأ تشييد مسجد فوق قبره* وطلب من الناس الحج إليه، وتم توجيه الناس لإظهار الأسى والحزن العام لمهرجان ضخم، وإستدعي كل رجل وامرأة وطفل للتوجه للميدان الواسع في بشرق النيل وخصص للعبادة، المتهمين بالميل الشيعة، مكاناً جلياً في أرض المهرجان.

وأثناء ذلك قام فريق من البقارة المخلصين بتفتيش الخرطوم والأكوخ، وفتشوا مخازن الذخيرة والترسات. وبكل هدوء تم جمع أي سلاح وجد ووضعوه في مخزن تحت حراسة قوية. وبذا تم التغلب على أي مصاعب (محتملة). وتمت السيطرة على حزب علي النامي ولم يعد يخشى منه، وأصبح البقارة هم المسيطرون (علي كافة الشنون). ودارت بعض المناوشات وفقد أحمد سليمان،

* لم يتم الشروع في بناء المسجد إلا بعد أكثر من سنتين من وفاة المهدي وذلك في ٢٠ نوفمبر ١٨٨٧. تُنظر مساعدة المستهدي بسيرة الإمام المهدي، تحقيق الدكتور أبو سليم، إصدار الدار السودانية للكتب، صفحة ٣٩٣ (المغرب).

خازن المهدي، حياته. وتم تجنب أي شقاق خطير، وأجبر الشريف وعلي ابن محمد حلو^{٢٢}، بعد مقاومة قصيرة، على إصدار المنشور التالي:
بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

من عبيد الله، الخليفة علي ابن محمد حلو، خليفة الفاروق، والخليفة محمد شريف ابن أحمد، خليفة الكرار، إلى كافة الأشراف: وإلي أحيابهما محمد الخير وكل المقاديم والرؤساء الذين تحت إمرته:

بعد السلام. لا يخفي علي علمكم أن الله ما خلق هذا الكون إلا ليكون جسراً لعبور للعالم الآخر. وكل واحد منا سيعبر يوماً إلى ذلك العالم الآخر عاجلاً أم آجلاً مثل الرسول والأولياء والورعين والجميع.

ونبينا نفسه، وهو رسول الله وصفيه، وعندما إنتهت أيامه في هذه الدنيا، أرسل الله ملائكته المسؤولين عن أرواح العباد، وأخذوا روحه الطاهرة إلى دار البقاء بالقرب من الله جل جلاله. ولم يشفع له حب الله له من إغفائه من هذا القرار الثابت المقرر.

وقبل وفاته، وعندما تطور مرضه لدرجة الخطورة، نادى الرسول صحابته وأمرهم بالعمل على دعم دين الله، وعين أبابكر خليفة له وقائداً للمؤمنين.

وبعد وفاته، وطبقاً لأوامر رسولهم، أوكل الصحابة كل شئونهم لأبي بكر والذي مضى في طريق الرسول وأحرز إنتصارات كبيرة ووسع في نفوذ الإسلام ومد نفوذه لأراضي بعيدة. واستمر الإسلام في الإزدهار لقرون عديدة حتى أصاب الوهن قلوب المؤمنين وبدأوا في الشقاق والتدهور. وظلوا في حالتهم هذا إلى أن ظهر المهدي خليفة رسول الله والذي أعاد الروح للإسلام وأضاء قلوب المسلمين وقادهم إلى الطريق القويم وأعادهم للحالة التي كان عليها الإسلام في أيام الرسول. وكان الله معه في كل شئونه وكان منتصراً دائماً.

وعندما إنتهت أيامه في هذه الحياة الدنيا إختاره الله لجواره في الثامن من رمضان (٢٢ يونيو ١٨٨٥).

كانت الحمي قد أصابته يوم الأربعاء الثالث من رمضان (١٧ يونيو). ولما عرف خطورة مرضه أمر الخليفة لتوجيه خطاب إلى رجاله وغادر الدنيا يوم الإثنين التالي من التاريخ المذكور آنفاً. فليساعدنا الله لنكون من المخلصين له وللسير في أثره إلى أن نلاقيه في العلى مع الرسول. وفي ليلة وفاته رأى المهدي في الحلم رؤيا حدث بها خليفته كالتالي: "ظهر لي الليلة، في رؤيا، الشيخ القرشي مع عدد من أتباعه، بعد أن أرسله رسول الله ليخبرني بأنه يستعجل فراقني لهذه الدنيا، ويطلب مني تعيين خليفتي قبل رحيلي".

لذلك نصب المهدي عبد الله بن محمد ليكون خليفته من بعده ووافقنا جميعاً على ذلك وبايعناه وإلتزمنا بدعمه كخليفة للمهدي. وعليكم أيضاً يا إخواني أن تبايعوا الخليفة بالولاء، ولنكون

^{٢٢} لم يكن الخليفة علي ود حلو جزءاً من تجمع الأشراف أو ثورتهم ضد الخليفة عبد الله، بل كان وسطاً للصلح بينهم. أنظر سلاطين، الطبعة الإنجليزية ص ٢٨٦ (إصدار عام ١٨٩٨) (المغرب).
* الصحيح محمد شريف بن السيد حامد (المغرب).

بذلك قد أتبعنا خطي أصحاب رسول الله، والذين إستجابوا في الحال لأمر الرسول، ورضوا بأبي بكر قائداً وخليفة للرسول. وحاربوا تحت قيادته بمثل الروح التي كانوا يحاربون بها تحت قيادة الرسول، وأحرزوا عدة إنتصارات وضموا أقاليم واسعة بحماسهم وتضامنهم ووسعوا أراضى الإسلام من كافة الجهات.

فلنتبع مثالهم ولا نتردد أبداً حتى لا يجد العدو فرصة لسحقكم وعليكم بالحفاظ على معنوياتكم وزيادة قوتكم حتى تنتصروا دائماً، لأنكم جنود الله والله يقول "إن جندنا لهم الغالبون". كان الله معكم دائماً وأن يمدكم بالقوة وأن يجعلكم من أحبائه في شأن الرسول والمهدي. آمين".

أما المنشور الذي حرره الخليفة، المعين حديثاً، والموجه إلي أهالي دارفور، فهو منشور جدير بالإهتمام لأنه يظهر مدي الجهل والخرافة التي غرسها المدعي على جموع أهالي الغرب:

منشور

من خليفة المهدي لجميع أحبائه في الله،
أهالي دارفور.

بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

بعد السلام عليكم أيها الأصحاب. لا شك أنكم تعلمون جيداً، وكأناس عاقلين، بأن علينا أن نعمل على الاقتراب من الله يوماً بعد يوم حتى نجازي بنعيم الجنة بعد مماتنا. فما هذه الدنيا إلا مكان الإستعداد للعالم القادم.

إذ لم تر العين، ولم تسمع الأذن، ولا خطر بقلب بشر، النعيم الذي أعده المولي للمتوكلين عليه وللذين أتبعوا ما جاء به الرسول وصحابته.

ولقد رضي الله بتثبيت خلافتي للمهدي، والذي أنتم علي علم تام بأعماله المجيدة وإنتصاراته التي أحرزها. وسأخبركم فيما يلي باختصار بقصة تعييني للخلافة. ففي ذات يوم من أيام شهر رجب من العام الحالي، جاعني المهدي، قبل وقت من وفاته، وتحدثنا طويلاً حيث قال لي أن كل الأسرار الإلهية تكمن في الحرف (ب). وكتب بإصبعه المقدس هذا الحرف المقدس. وقال أن الرجل الذي اختاره الله لحمل هذا الحرف هو المستقبل لكل الأسرار القدسية. وعندما سأله أحد الحاضرين ليشير إليهم للرجل الذي أختاره الله، قام بالإشارة إلى. ثم نظروا نحوي وشاهدوا نفس الحرف مطبوعاً علي خدي الأيمن، وسترون ذلك عند قدومكم لي.

ومره أخرى، ليلة وفاة المهدي، رأيت في ما يشبه الحلم بدأ بأهرة الضياء تمتد نحوي من السماء، وأمسكت بيدي اليمني، وأنا أنطق بالتزامي بالدفاع عن دين الله المقدس وعن سبيل الله. وفي نفس الليلة ظهرت لي أشياء عجيبة لم أستطع فهمها.

والكثيرون منكم أيضاً كانوا على علم، من أحاديث المهدي أثناء حياته. بأنني سأكون خليفة. لذا فلتعلموا بأن يد الله التي تدعنا لم تسحب عنا بوفاء المهدي. فلا زال عزرائيل بمسك براية النصر ولازال الرسول محمد علي رأس جيشنا. وقد سلمني المهدي سيف النصر وهو الآن

بحوزتي. وهذا ما سيجعل كل أتباع الدين المخلصين من المنتصرين دائماً، حتى أن الجن والعفاريت لن تقدر على إخضاعهم.

والآن يا أحبائي، وعند وصول هذا الخطاب، أريد منكم الحضور إلينا هنا. وعليكم طاعة أوامر رؤسائكم وولاتكم، والذين كتبت لهم من قبل بهذا الخصوص. لذا أقبلوا إلينا يا أخوتي وكونوا مخلصين لدينكم ومطيعين لرؤسائكم".

...

وجاءت أنباء وفاة المهدي، على الحاميات المنهكة في كسلا وسنار، كخبر مشجع لهم. وظهر أثر ذلك عليهم في الحال.

وحتى الآن لم تكن حاميات كسلا وسنار قد تعرضت لما تعرضت له الخرطوم. وكانت كل منهما تحصل على دعم، في كفاحها ومقاومتها، وفي فترات متقطعة غير ثابتة، من إحدى القبائل البدوية. لقد وصلت المملكة العريقة لسنار إلي المجد والشهرة، لا بوسائل صناعية بل بسبب من خصوبة أراضيها ولطقسها. وكان من المستحيل تقريباً تجويع سنار أو إفقارها.

أما المناطق التي حول كسلا فكانت تستقبل الفيضانات القادمة من جبال الحبشة وكانت لا تقل أراضيها خصوبة عن تلك التي بسنار.

رغم ذلك، فقد حلت على تلك الحاميات، مثلها مثل حامية الأبيض من قبل، نكبات لا حصر لها من قبل الأعداء وعانت الحاميتان لشهور عدة من ويلات الجوع القارص والبؤس. وكان أربعون من الجنود يموتون يومياً في كسلا، ورغم ذلك لم تستسلم. وساد بينهم شعور بالأسى أمامهم إلا الصمود لأن العرب لا يعرفون الرحمة. لكن ذلك الشعور لم يكن صحيحاً. ففي الأبيض، وفي أم درمان، ومناطق كثيرة أخرى، لم يتم ذبح الحاميات بها، ومعظم الذين فروا من وجه الموت أو الجوع منها لا يزالون أحياء حتى اليوم.

ففي الأبيض تم إرغام محمد باشا سعيد، مثله مثل غردون، على الإستسلام بسبب التجويع. لكن عبد النور، في سنار، لم يستسلم إلا بعد قتال ضار وكذلك فعل أحمد بك عفت، والذي كان له اثنتان من إخوانه يقودون البواخر تحت قيادة نصحي باشا. وكذلك فعل توفيق في سنكات ولم يستسلم. وخلال تلك المقاومة وصل نفوذ النساء السودانيات إلى مستوى لا يمكن حصره بدقة. ولما كان لوفاء المهدي للنساء أثر كبير في شعبيته، نرى من الجانب الآخر أن السبب الرئيسي للمقاومة العنيفة والطويلة للجنود كانت لأنهم يدافعون عن نساءهم وبناتهم.

وقد ذكر الأدميرال هيويت بأن الجنود الذين هربوا من سنكات كانوا يحملون نساءهم على ظهورهم. ويبدو أن السبب في هذه الظاهرة، التي لا يتميز بها المسلمون في الأمم الأخرى، هو أن نساءهم لا يتعرضن لهذه الدرجة من المصاعب (مثل نساء السودانيين). ويقال أن للمرأة في الشرق مركزاً متواضعاً، ولكن يبدو أن نساء الشرق نفوذاً أكثر من غيرهن في الأمم الأخرى. فالمرأة المصرية هي قطعاً خدومة وصبورة على العمل الشاق، وغالباً ما تتميز بالشجاعة.

لقد تعجل غردون كثيراً في حديثه عن جنوده الفلاحين. والكلمات التالية، من يومياته، نوردتها لكم كما هي:

ستكون غلطة جسيمة إذا ظننا أن القوات مثبطة العزيمة. لقد فقدنا بالطبع عدداً كبيراً، لكن لا زال الرجال علي تصميمهم كما كانوا دائماً. وسيزداد عزمهم إذا تمت مساعدتهم. يتحدث ستوارت عن جنبهم، لكنني أعزو ذلك الجبن إلي خطأ في حساباته. ومن الخطأ الجسيم أن تظن الحملة العسكرية المكلفة بسحب الحاميات، عندما تأتي هنا، أن جنودنا سيقولون لهم أنهم في ضيق شديد، وسأقتاضى هنا عن الجنود القاهريين والجنود من الباشبوزوق". وعلى كل حال كان هناك وسط تلك الحاميات ثلاثون ألفاً من الجنود. القاهريين والباشبوزوق، يعانون من نفس مشكلة الجوع، ومن بينهم حاميات الجيرة والقلابات وأماديب التي تم أنقاذها. لكن من المستحيل أن نشكك في حقيقة أن كل الحاميات الأخرى تضررت جوعاً لدرجة الموت تقريباً.

والمصري يفتقد المبادرة. والمصري يفتقد القدرة على القرار (الصائب) وإذا كان في وضع عليه أن يقرر بسرعة في مسألة حياة أو موت فإنه، وبغير ثقة سواء في نفسه أم في ضباطه، سيفشل حتماً. لكنه إذا كان في وضع، يكون البديل والخيار فيه بعيداً، فإنه سيصمد بعناد وثبات. وماذا يمكن أن يكون أكثر وحشة وكأبة من تاريخ جيش هكس، والذي جمع رجاله، وهم في الأغلال مكبلين، من بقايا جيش عرابي المنحل والمهزوم، والذي قادوه إلى بلاد كانوا يعتبرونها دائماً كالثقل الحي، بواسطة ضباط لم يرونها من قبل، ثم هوجموا من كافة الجهات وذبحوا؟ نفس القول ينطبق على حملة بكر، التي قتل فيها رجاله. ومن الناحية الأخرى يمكن أن نرى تلك المقاومة العنيدة التي أظهرها نفس أولئك الرجال عندما كانوا (محصنين) وراء جدران الأبيض وطوكر وكسلا وسنار والقلابات والجيرة.

سنار، ١٨٨٥

عودة الآن للأحداث التي جرت في ضواحي سنار. كانت المدينة قد تعرضت أوائل العام إلي حصار شديد من (الأمير) المرضي، والذي ألح عليهم للإستسلام. وعندما بلغتهم أنباء سقوط الخرطوم عقدوا اجتماعاً لمناقشة الوضع.

كان المدير لا زال سجيناً في منزله، وتم استدعاؤه للإدلاء برأيه. ذكر لهم بأنه إذا ما أعيد لمكانه ثانية في قيادة القوات، فإنه سيقوم بطرد قوات الثوار حالاً. ولإثبات صدق نواياه، عرض عليهم تقديم مخزونه الضخم من الذرة لرجال الحامية. قبل عرضه في الحال وأعيد حسن صادق مرة أخرى إلى منصبه.

وفي أوائل فبراير قام بغارة طرد فيها المرضي من كبوش* لكنه أثناء عودته للمدينة نزل للراحة تحت شجرة جميز ضخمة، ومعه ثلاثون من رجاله، حينما تعرض لهجوم من جماعة صغيرة

* كبوش هي قرية صغيرة تقع على مسافة ميلين شمال مدينة سنار الحالية وأصبحت اليوم جزءاً من المدينة. لكنها في العهد التركي كانت تقع وسط غابة كثيفة على بعد ميل تقريباً جنوبي سنار القديمة، والتي أصبحت اليوم جزءاً من سنار

من الثوار. قتل في الهجوم عدد من الضباط، بمن فيهم حسن صادق، ولكن النور بك تمكن من الفرار وقام بتجميع قوة من الجنود عاود بهم الهجوم على الثوار وتمكن من استعادة الجثث وعاد بها إلى سنار.

أثناء ذلك. وعندما استقرت الأوضاع في الخرطوم، قام المهدي بإرسال قوة من الأنصار، بقيادة ابن عمه (محمد) عبد الكريم والأمير مضوي لإخضاع سنار ووصلت هذه القوة أمام المدينة في ١٨ أبريل. ولما رفضت حاميتها الإصياح لأمر بالتسليم قاموا بشن هجوم ضار عليها في السادس عشر من يونيو. كانت المدينة أن تسقط لولا أن قامت الباخرة بإطلاق نيران متقاطعة على الثوار وعزلت ١٥٠٠ رجل منهم أبانتهم الحامية بنيرانها.

بعد تلك الهزيمة قرر عبد الكريم أن يتم تجويع المدينة تمهيداً لاستلامها وشرع في الحال في تشديد الحصار عليها.

وفي الثامن عشر من يوليو قام النور بك بغارة ناجحة وانقض على الثوار المحاصرين له وأوقع بهم خسائر جسيمة واستولى على ٥٠٠ بندقية ومدفعين جبليين، لكنه أصيب في الغارة بجراح بليغة.

وقام (المصريون) بغارة ناجحة أخرى بعد بضعة أيام، كما قام النور بك بإرسال خطابات للبريطانيين، الذين بندقلاً الآن، توسل إليهم فيها لتعزيزه بالإمدادات، لكن تم إعتراض تلك الخطابات ولم تصل أبداً لمقصدتها.

والآن، وبعد أن جمع عبد الكريم كل القبائل التي بالجوار، قام بقطع كافة الاتصالات عن سنار ودخلت الحامية، التي أنهكها القتال المتواصل، إلى المراحل الأخيرة للمجاعة والتضور. وقام النور بك بمجهود أخير في الثامن عشر من أغسطس ١٨٨٥ عندما أمر بشن غارة على الثوار، قام بها ١٥٠٠ من الجنود بقيادة حسن بك عثمان، لكن الثوار إنقضوا عليهم في كساب وكادوا أن يستأصلوهم ولم يرجع منهم إلى المدينة، بعد مقتل قائدهم حسن بك، إلا بقايا صغيرة من القوات. وفي اليوم التالي، وبعد أن أستهلك كل ما بالمدينة من طعام يؤكل، أضطر النور بك للإستسلام. ولم يتبق من حاميتها الأصلية، المكونة من ٣٠٠٠ جندي، إلا سبعمائة رجل فقط - وهذا دليل واضح على ضراوة القتال والحصار.

وتعرضت المدينة يومين للنهب والسلب والقتل ولم تتوقف تلك المأساة إلا بعد وصول النجومي، والذي أرسل، ومعه ود جبارة، لدعم عبد الكريم مع قوة من ١٣٠٠٠ مقاتل. لكنه لم يصل لسنار إلا بعد سقوطها.

...

التقاطع. هذا ولازالت شجرة الجميز قائمة بدخل جنينة السيد / عبد الوهاب الشيخ، وهو أحد قدامى البرلمانيين السودانيين (المعرب).

* كساب تقع على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، إلى الجنوب الشرقي من مدينة سنار الحالية وتمتد من مشارف خزان سنار جنوباً لبضعة أميال. بها الآن مشروع زراعي كبير وثلاثة قرى مشهورة هي كساب الدناقلة وكساب الجعليين وكساب قربي (فلاح). أما في العهد التركي فكانت منطقة غابات وزراعات واسعة (المعرب).

وربما لا نخرج عن الموضوع إذا تحدثنا قليلاً عن هذا المتعصب الشهير عبد الرحمن ود النجومي.

لقد انتهت حياته العملية في توشكي، عندما باع حرسه الشخصي حياتهم رخيصة دفاعاً عن جسده الموقر. كان رجلاً جعلياً من تلك القبيلة غير كثيرة العدد، لكنه واحد من الذين عرف البقارة فيه صفات للمحارب لا تختلف عن صفاتهم ولذلك ظلوا على وفاق معه. كان في باكورة حياته فكياً، مثل المهدي، وصديقاً وفياً له. وكان صارماً حازماً زاهداً بجسمه النحيل ولونه الداكن. كان تجسيدا للولاء الأعمى لمعتقداته. ولم يحدث أبداً أن تجاوز الصرامة والحزم التي فرضها على نفسه والتزم بها في كل تصرفاته وكان ميالاً للدفاع والإقدام. لم يوجد من لا يثق فيه وفي قوله وكان ينظر لآفاق بعيدة ومكانه دائماً كان في المقدمة عند مواجهة الخطر. كانت المهديّة بالنسبة له المتفلس الطبيعي لروحه ولطبعه المتوحش. كان هو كخالد في حروب الرسول. لقد كان هو الذي وضع الخطط والأحاييل التي دمر بها جيش هكس. وكان هو الذي زحف بصمت شديد خلال الطين الضحل وراء إستحكامات الخرطوم. وفيه تنطبق العبارة التي تقول "هؤلاء متيمون بالمهدي لدرجة أن المرء قد يقول بأنهم هم الجسم له وأنه هو الروح".

لقد كان أنجومي أكثر نقشاً وزهداً، وأكثر براعة وحيلة، من أي من الذين ذكروا في تاريخ الأديان. وعندما مات مهديه رأي تشابهاً في الوضع بما حدث بعد وفاة الرسول: رأي بداية ظهور الشقاق والخلاف. ولكن تم كل شيء طبقاً لمقتضيات الحال. ورأي (ال خليفة) أنه من الأجدر القيام بإرسال المنشور التالي إليه:

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم.

من العبد لله الخليفة عبد الله بن محمد، خليفة الصديق، إلي عبد الرحمن أنجومي وكل الرؤساء والمقاديم والأتباع. بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عليكم، بصفتم أصحاب خليفة رسول الله الراحل وقادة المؤمنين أن تتبعوا السبيل الذي انتهجه أصحاب رسول الله وأن تكونوا جميعاً كرجل واحد. وأن تعملوا في سبيل نفس القضية، وأن تشاوروا بعضكم البعض في كافة تصرفاتكم كإخوة في الله. فالله تعالى قد قال في كتابه بأن الذين يتحدون في الله ويحبون ويساعدون بعضهم بعضاً يستحقون حب الله لهم.

كما قال الرسول بأن الذين يحبهم الله أكثر الحب هم الذين يتضامنون ويدفعون الآخرين للتضامن. وبأن الذين يبغضهم الله هم المفترين الذي يشيعون الفرقة والشقاق بين الإخوة المؤمنين.

وقال الرسول أيضاً أن للمتحابين في الله سبعين ألف غرفة مقامة على عمود من الياقوت الأحمر في الجنة حيث يشرقون على سكان الفردوس كما تشرق الشمس على سكان الأرض، ويلبسون أردية من القصب الأخضر وعلى جباههم مكتوب: "هؤلاء المتحابون في الله".

لذا أحبوا بعضكم البعض. وعلى الأتباع أن يطيعوا زعماءهم، وعلى الزعماء إطاعة الأمراء. وعلى الزعماء والأمراء أن يتسموا بالتواضع وأن يعاملوا أتباعهم بالعطف والمساواة بهم. ولقد درج النبي على الجلوس جنباً إلى جنب مع رجاله وخاصة الفقراء منهم والضعفاء ويقول لهم:

إنما أنا عبد الله وكعبد يجب على أن أجلس". ويقول لهم إذا ما خيرني الله بين شينين، أن أكون رجلاً رسولاً أو نبياً وملاكاً، فأنني أرفع عيني إلى ملاك جبريل لأسأله عما أختار. وأجابني جبريل بقوله تواضع لله". لذا اخترت أن أكون رجلاً رسولاً.

ويقول الرسول مرة أخرى أن هنالك فضائل أربعة لا يعطيها الله إلا لمن يحبهم أكثر الحب. هذه الفضائل هي: الأولى: الوفاق أمام الله، والثانية: الثقة بالله، والثالثة: التواضع، والرابعة: الزهد في الدنيا والإخلاص لله.

ويقول عيسى صلي الله عليه وسلم: مباركون الفقراء في الروح لأن جزاءهم ملكوت السماء. ومباركون المتصفون بالمسكنة في الدنيا لأنهم سيجلسون على المنبر يوم القيامة. مباركون فقراء القلوب لأنهم سيرون الله. مباركون صانعوا السلام لأنهم سيرثون الجنة.

وقد كلم الله موسى عليه السلام وقال له: "إنني لا أنقبل إلا صلوات المساكين، الذين لا يظنون أنهم أعظم مقاماً من بقية الناس، والذين يخشوني بقلوبهم وينبذون الشهوات من أجلتي". ويقول الرسول مرة أخرى في نفس الموضوع: يرفع الله الذين يتواضعون أمامه إلى السماء السابعة".

لذا عليكم يا أحبائي اعتبار ما قلت. وعلبك كقادة للمؤمنين ألا تسمحوا بالخلاف بينكم. ولكن كونوا كرجل واحد في معاملتكم، وأن تكونوا عطوفين على أتباعكم، وأن تسامحوا بعضهم البعض. جعلكم الله ممن يتبع أمر الله كما جاء في كتابه وفي السنة.

كسلا، ١٨٨٥

من الضروري أن نعود الآن لأحداث شرق السودان، ولنرى كيف أثرت الحوادث التي جرت بالخرطوم، ومناطق أخرى، على الوضع هناك وعلى ساحل البحر الأحمر أيضاً.

في نهاية عام ١٨٨٤، كان الكولونيل تشير مسايد بسواكن يعمل ما في وسعه لإنقاذ الحاميات المطوقة، عن طريق تدخل ملك الحبشة، بينما كان عثمان بقة قد نجح في ذلك الوقت في أحياء روح التعصب والحماس الشديد بين القبائل الساخطة في إقليم سواكن.

كان كل الهدندوة معه وكذلك قسماً من الأمراء، رغم أن الأخيرين لم يدخلوا في الثورة بنفس الروح والحماس الذي أبداه الهدندوة.

وقد امتدت أمواج الثورة وانتشرت بين البشاريين الذين على الساحل والمجاورين للأمراء. وانتشرت بين البشاريين الذين على الساحل والمجاورين للأمراء. ولكن ربما بسبب موقعهم النائي فقد انتهارت حركتهم سريعاً ووطنوا أنفسهم على العمل بتجارة المهربات والمواد المحظورة رغم أن قلّة من زعمائهم قد أعلنت ولائها للمهدي.

وحتى هذا الوقت استطاعت كسلا، رغم الحصار اللصيق المضروب عليها، التواصل من وقت لآخر مع مصوع، والتي كان الطليان قد احتلوا في فبراير، وعادت حاميتها المصرية إلى مصر بينما استمرت حاميتي الجيرة والقلايات في الصمود.

والخطاب التالي، من قائد حامية الجيرة، والمؤرخ ٢٣ / ١١ / ١٨٨٤، يعطي صورة واضحة للوضع فيها:

قبل حين من الزمن قام المتمرد حسن عبد الواحد مع ٨٠٠٠ رجل بالاحتاطة بهذه المدينة وطلب من الحامية الاستسلام: لكننا صددناهم. وبعد بضعة أيام تفرقوا. كنت قد أبلغتكم بذلك من قبل. وكنت أتصور أن التعزيزات التي طلبتها ستصلني وأنتي سأكون بعدها جاهزاً لملاقاة العدو إن عاد ثانية. لكن لم يصلني أي دعم. قام زعماء الثوار بالكتابة للمهدي وأخبروه بحصارهم السابق للجيرة فطلب مني المهدي تسليم الممتلكات الحكومية لأحد خلفائه القريبين منا، إما لعبد الله أحمد أبو سن أو لمحمود زايد. كما وصلت خطابات من الثوار للجيرة بلغت في جملتها ٣٥ خطاباً. لكنني لما كنت غير مستعد تماماً للدفاع فقد لجأت للتحايل ريثما تصلني التعزيزات.

وفي السابع من نوفمبر وصل بالقرب منا أربعة من خلاء المهدي هم حسن عبد الواحد والظاهر التتاي وعبد الله شريفى والسماتي أحمد، وكان معهم محمود زايد، وكرروا طلبهم منا بالتسليم والإضمام إليهم في هجومهم المزمع على القلايات.

طلبت منهم إمهالي شهراً للإجابة وأرسلت (وفداً) لمعسكرهم لإقناعهم بذلك وللتجسس عليهم. لكن الوفد لم ينجح في مهمته وعاد لي الضابط الذي أرسلته بخطاب يفيد بأن الجيرة إما أن تستسلم أو سيتم تدمير حاميتها.

(ورغم) أنني طلبت مهلة شهر، آملاً أن تصلني التعزيزات بأذن الله، إلا أننا كلنا الآن تحت السلاح ومستعدون للصمود. ويحاول الثوار يومياً مفاجأتنا لكنهم دائماً ما يجدوننا في بقعة تامة وينسحبون. وقد كتبت لقائد الثوار مهدداً لكن الثوار منقسمون على أنفسهم: فئة تريد الحرب والأخرى ترى أن الحصار أجدى.

الوضع الآن حرج والحامية دائماً تحت السلاح وتحصيناتها جيدة عموماً. لكنكم تعلمون قلّة عدد رجالنا. من هنا فأنني أترجاكم للإسراع في إرسال التعزيزات لنا، ولو بفصيلين، ويمكن للنجدة الحضور عن طريق الحمران وتفك عنا الحصار.

(ختم) قائد الجيرة

القلايات

عند بداية الثورة كانت الإضطرابات تسود ضواحي القلايات، ولكن سرعان ما يتم إخمادها. وبنهاية ١٨٨٤ حدثت مواجهة عنيفة لعب فيها صالح بك شنقة دوراً رئيسياً. فهذا الموظف، كما نذكر، هو رجل تروري الأصل* وظل على ولائه طيلة الأحداث المثيرة التي جرت. وكان قد تحالف مع زعماء الحبش في الجهة المقابلة لحدوده.

وفي ٢٦ نوفمبر ١٨٨٤، اصطدمت القوات المشتركة للحبش والمصريين بجموع ضخمة لعرب الجعليين والضباينة في منطقة جدبة وهزمتهم تماماً لكنهم أعادوا تجمعهم في قوة

* تروري أو تروني هم الحجاج المسلمون من مناطق دارفور ووداي والذين غالباً ما يستقرون، بعد رحلتهم لسنوات طويلة للحج للأماكن المقدسة، في شرق السودان. ويقال أنهم شديدو التعصب وأنكباء ونشطون ولهم ملاح زنجية بارزة. ومعنى الاسم باللغة العربية هو "النقاء" أو إبراز قوة مشاعرهم الدينية بالحج إلى مكة.

ضخمة بعد بضعة أيام وقام العدو بالإطباق على المدينة وصارت القلايات في بواكير عام ١٨٨٥ تحت حصار محكم.

والخطاب التالي، الذي كتبه صالح بك للجنرال غردون في الخرطوم في أكتوبر ١٨٨٤، يوضح الحالة العامة بالجوار في ذلك الوقت:

”من صالح بك، مدير القلايات،، إلي صاحب السعادة حاكم عام السودان:
يا سيدي:

إن خادمكم، الذي يقف جاهزاً لخدمكم، يسأل الله من صميم فؤاده أن يمنحه طلبه وأن يشمله بعطفه وأن يقوي سعادتكم ويحفظه ويظله بظله من أجل العاملين في خدمة الحكومة ورعاياها، وأن يغير الحالة التي هم فيها، وأن يمنحني شرف رؤية سعادتكم وتقبيل أياديكم الكريمة التي غمرتنا بالعطف والبركات. فأنت الذي دمر أعداء الحكومة والثوار الخبثاء الذين أضاعوا دينهم وأرواحهم وحرموا أنفسهم من منافع الحكومة التي طالما غمرتهم بالرفعة والشرف، والذين تحولوا رغم كل ذلك من طريق الحق إلى طريق الخطيئة. فليحفظ الله حكومتنا السنية حتى تتمكن، بوجود سعادتكم علي رأسها، من تدمير أولئك التصماء وتحطيمهم تماماً وهم محمد أحمد وأتباعه.

لقد سمعنا اليوم أيضاً ما جاءنا من أنحاء دكة وأبو ستي وأبو حراز عما أثمرت طافقتكم في ضرب الثوار وتشتيت شمل رجالهم وقواتهم الذين ما تجمعوا إلا من أجل التحريض على الفتنة والعصيان.

وأنتي أرجو الله العلي القدير بأن يطيل من سيف الحكومة أكثر فأكثر لئيم تدمير المدعي الكاذب محمد أحمد ويشتت شمل جموعه الخبيثة.

وإذا ما توجهتم بفكركم نحو خادمكم الخاضع لكم، فأنتي أفيدكم بأنني في أحسن حال الآن، أنعم بحمايتكم، وأنتي لا زلت مستمراً في خدمة الحكومة. وبألها من حكومة! فكم وكم غمرتنا بعطفها ورحمتها ومنافعها والتي لا ينكرها أحد. إنني أسأل الله ورسوله ألا ينحرف خادمكم عن طريق الواجب وإبداء الطاعة الواضحة للحكومة بدون أي تردد أو مماطلة، وتحت رعايتكم.

وبخصوص رعايا الحكومة الموكل أمرهم لخادمكم، فأنهم لم يتهاونوا في إبداء طاعتهم وتسليمهم لكم ولن يسيروا أبداً في طريق الثورة والتمرد بإذن الله تعالى ورحمته وما ذلك إلا من ثمار كونهم تحت سلطنتكم.

ولكن، يا صاحب السعادة، فإن الأعداء يحيطون بنا من كل جانب، من جهة دكة ومن الشكرية ومن الضبائية ومن الجلابة، وأيضاً من جانب النهر بالرحبار، وأيضاً من البوكادي ومن الثوار الذين تبعوهم.

ولكن، وبنفوذ سعادتكم، فلن يصلنا أذى من جانبهم. كما إننا لا نعيده إهتماماً (المهدي). وسينصرنا الله عليه بقوة الحكومة وسمعتها ورهبتها التي نستمد منها فخرنا وشرقنا، عن طريق سعادتكم وإنعامات الخديوي.

وبخصوص مكاشفتنا هذه لكم، فإننا واثقون من ورود الإجابة ونصلي من أجل ذلك. وفي هذه المرة التي نكتب لكم فيها، سيقوم مبعوثنا بأخذ الخطابات من هنا، وعندما يصل إلى القضايف أو

دوكة يفاجأ بمن في انتظاره لأن الثوار سيقومون بتعذيبه عندما يلاقونه في الطريق. هذا هو الذي منعنا من الكتابة لكم مؤخراً لكننا، رغم ذلك، على اتصال دائم بالمديرية. وفي الطريق إليها فقدنا رجلين بأيدي المتمردين من مناطق الضائية والبوكاد على طريق تُمزك.

(إمضاء) صالح إبراهيم

مأمور، وناظر القلابات،

مفتش مركز، وضابط.

ذو الحجة ١٣٠١

(٢٢ سبتمبر ١٨٨٤)

وقد نذكر بأنه قد تم حث الملك يوحنا ليرسل نجدة للقلابات. وقد قام الكولونيل تشيرمساید أيضاً، في أغسطس ١٨٨٤، بإرسال الصاغ سعد رفعت، كمفوض مصري لدى الحبشة، للمساعدة في العمليات القادمة والجاري الإستعداد لها بنشاط شديد الآن.

غادر سعد أفندي رفعت عدوة، ومعه قوة حبشية كبيرة، في ٢٧ يناير ١٨٨٥ ووصل بالقرب من القلابات حيث تمكن من تحذير صالح بك (وتنبهه لما سيتم).

وبحركة تم الإعداد لها جيداً قامت القوات المشتركة بالهجوم على العرب المحاصرين (للمدينة) وهزمتهم ونجحت في إخراج الحامية والسكان البالغ عددهم حوالي ٣٠٠٠ رجل وأمرأة وطفل. ونجح الأخيرون، تحت حراسة الحبش، في الإِسحاب عن طريق غوندار، وأقدي، والموضه، ووصلوا مصوع بنهاية مايو. وهنا مكث معظم غير النظاميين بعوائلهم بينما عاد إلى مصر ٦٧٠ فرداً.

كما وصلت قوات أماديي بسلام إلى مصوع في العاشر من أبريل ووصلتها حامية سنهيت يوم التاسع عشر.

وفي أوائل ١٨٨٥ بدأت المؤن الغذائية في كسلا في الهبوط بشدة بينما قامت القبائل المعادية باعتراض الواردات من الذرة من الجهات المجاورة. ومرة أخرى توسل المدير أحمد بك عفت للإسراع بتعزيزه، وأبلغ هو وقائد القوات على حدود الحبشة، خور سو باشا، بأن مخزونهم من الطعام لا يكفي لأكثر من شهرين.

وبنهاية فبراير تقرر إرسال قوة بريطانية أخرى لسواكن وكان في تخطيطهم أنه عندما تسقط بربر بيد حملة الإنقاذ النيلية، فإن القوتين البريطانيتين ستكونان قد إلتقتا وستعملان سوياً على إسقاط المهدي. وعندما وجد أن من المستحيل إحتلال بربر قبل الخريف، ثم تعديل خطة الحملة المقررة من سواكن وتم إستبدالها هذه المرة لتعمل على سحق عثمان دقنة، واحتلال بلاد الهندودوة وإقامة خط للسكة الحديد يمتد حتى أرياب، ريثما يتمكنون فيما بعد من توصيله إلى بربر.

وطبقاً لهذه الخطة ثم تعيين الجنرال السير جerald جراهام مرة أخرى قائداً للقوات (بسواكن) ووصل إليها في ١٢ مارس.

وتم تعزيز القوات البريطانية بلواء من القوات الهندية بقيادة البريجادير جنرال ج. هدسون، من أركان قوات البنغال، إضافة لفرقة أسترالية. بلغ تعداد كل القوات أكثر من ١٣٠٠٠ رجل. وعين الميجر جنرال جريفز رئيساً لهيئة الأركان للقوات.

أصبحت عمليات هذه القوات جزءاً من التاريخ ولا ننوي الاستطراء فيها. ويكفي أن نقول بأن معركة ناجحة قد جرت في هشين في العشرين من مارس وأخري في توفريك في ٢٢ مارس وفيها ألحق العدو، عندما هاجم زريبة ماتيل فجأة، خسائر جسيمة بالبريطانيين. ورغم ذلك تم صدهم بعد مذبة عظيمة حيث قامت القوات (البريطانية) بعد ذلك باحتلال طماي، الموقع الحصين لعثمان دقّة، في الثالث من أبريل وأحرقت قريته.

وبعد وصول اللورد وولسلي في ٢ مايو تقدمت القوات نحو أوتاو وتهاكول وتم تشتيت العدو في السادس من مايو وتغنيم عدد كبير من المواشي.

وبدأت حملة الإنقاذ الإسحاب من سواكن يوم ١٧ مايو وبقي في سواكن الجنرال هدسون قائداً عاماً لقوات مختلطة من البريطانيين والهنود والمصريين. وبعد بضع شهور تم استبدال تلك القوات بحامية مصرية عادية.

وفي تلك الأثناء أخطر الكولونيل تشير مسaid مدير كسلا بأن الخرطوم قد سقطت، وبأن حملة الإنقاذ البريطانية المزمع إرسالها لسواكن قد تعمل علي جذب اهتمام القبائل المعادية عن حصار كسلا، وأن عليه بالتالي التشاور مع الشخصيات القيادية والعمل على تقرير مصير المدينة سواء بإخلائها أم بالصمود فيها. وفي نفس الوقت تم تفويض المدير ليطالب المساعدة من الملك يوحنا، إذا ما تقرر الإخلاء، وأن يعده بتسليمه ١٠٠٠٠ بندقية، وربما يقدم للقبائل المجاورة ٥٠,٠٠٠ قطعة أخري مقابل مساعدتهم في تنفيذ إخلاء كسلا بسلام من كل رجال الحامية وكل الذين يرغبون في مغادرتها كذلك.

ومن المشكوك فيه أن تكون الحملة الأخيرة قد نجحت في صرف انتباه قبائل منطقة القاش عن حصار كسلا، لأن عثمان دقّة كان قد أخذ قواته المحاربة، لمقاومة البريطانيين، من قبائل الجنوب.

وحتى ذلك الوقت كان استنفار الثوار في تلك القبائل أو من قبائل القاش محلياً وظاهراً. ولم يتأثر أي منهم بما يصيب الآخر من نكسات، ولم يطلب قسم منهم المساعدة من القسم الآخر. وكان الإقليماني بعيدين عن النيل بمسافات شاسعة لدرجة عدم مجرد التفكير في طلب الدعم أو المساعدة من تلك الجهات ولم تدخل في حساباتهم. بل كانوا يعتبران بأنهم ليسوا فقط قادرين علي النهوض بالحرب المقدسة في مناطقهم فقط، بل يعتبرون بأن هذا من واجبههم وبدون الإستعانة بالآخرين. لهذا السبب كان لسقوط الخرطوم أثر ضئيل علي أحداث شرق السودان لا يزيد عن أبتهاجم بما يعتبرونه تحقيقاً لنبوءات المهدي.

وبدأ العرب يتململون. فبعد أن عادت لهم ثقته في أنفسهم في السنة الماضية، بعد أن أكد لهم عثمان دقّة بكل اعتداد، وهو ما لا يشكون في قوله، بأنه ورغم الهزائم المؤقتة التي لحقت به إلا أنه قد تمكن من طرد الإنجليز من بلادهم، إلا أنهم رأوا في عودة الإنجليز ثانية تكراراً لما حدث من

قبل، على الرغم من أنهم كانوا ينظرون لتحركات الإنجليز التكتيكية على أنها دليل على الخور وقلة الشجاعة. فسرعان ما علم العرب بأن هجماتهم الضارية، وثقتهم في النصر، وإحتقارهم للموت لم يعد مجدياً كما كان من قبل. وأنهم، وعندما كان يبدو أنهم على وشك تدمير الكفرة، إلا أن نفس قوتهم النارية التي لا تفتّر كانت تجبرهم على التراجع محطمين ومهزومين. وعندما بدأت الحملة البريطانية في الانسحاب لم يكن مع عثمان دقّة في طمائي أكثر من ١٠٠٠ مقاتل. لكنه مرة أخرى كان قانداً على إقناع القبائل، بنفس قوة ثقته في القضية، بأن المهدية هي التي أجبرت الغزاة على التراجع، وللمرة الثانية.

لكن هذه الحرب المتصلة صارت مرهقة حتى على غلاة المتعصبين منهم، فالتطعام كان نادراً وعانوا كثيراً من جراء الجوع. وربما يقال أن انسحاب الأمرار بدأ من هذه النقطة، وعاد كثيرون منهم لأوطانهم. وربما قام الباقون بكل سرور بنفس العمل، وما منعهم من ذلك إلا خوفهم من إنتقام الشيخ محمد صدام، من العبد الرحماناب، وهو أقوى شيوخ الأمرار في تلك المنطقة وأكثرهم إخلاصاً وولاءاً لعثمان.

ثم شرع عثمان في تدمير خط السكة الحديد، بادئاً من هندوب. وقام بتعيين حامد محمود، كبير شيوخ الأمرار، للعمل مرة أخرى على تجميع أفراد قبيلته. اتخذ حامد رئاسته بين أوتلو وتمبوك ونجح في حشد عدد كبير منهم من حوله، رغم أن معظمهم كان يحمل مشاعر غيرودية لعثمان دقّة. من هنا فقد رفض عثمان أن يضيف لقواته الخمسمائة رجل الذين أرسلهم حمد له في طمائي. وفي أبريل بعث عثمان بعبد القادر حسين، قاضي سواكن السابق، ليوصل محل الأمير عمر* والذي لم يكن عمله مرضياً له، ولحث الحباب** لتوحيد جهودهم معه. وقد أُلحح في الوصول لنهر لبكا، رغم أنه قوبل بدون حماس هناك.

وفي هذه الأثناء وصل الوضع بكسلا إلى حالة حرجة للغاية. وفي خطاب حرره المدير يوم ١٣ أبريل ذكر بأن كل الحمير قد أكلت، وأنهم لا زالوا في انتظار النجدة، وأنه لن يغادر موقعه أبداً. وفي ٢٣ مايو قام العرب بهجوم ضار على الختمية، ضاحية بكسلا، ونجحوا في احتلالها وذبحوا سكانها وجرحوا السيد بكري المرغني جراحاً بالغة. وكان الكولونيل تشير مسابك قد كتب من قبل، في ١١ أبريل، خطاباً عاجلاً إلي الملك يوحنا بأن كسلا ستسقط حتماً ما لم تتم نجدةها على وجه السرعة. ووعده في خطابه بتسليمه ١٠٠٠٠ بندقية إذا ما نجح في أنقاذها.

وفي ١٥ يونية قام الثوار بهجوم جريء على حصون كسلا. وكانوا قد حاصروها خلال الليل وهجموا عليها بضراوة في الفجر. لكن الحامية، التي كانت قد أنذرت بالهجوم عليها، فتحت النيران على المهاجمين وصدتهم بعد أن كبدهم خسائر جسيمة. بعد ذلك خرجت الحامية من حصونها وأكملت مهمتها وألحقت الهزيمة بباقي الثوار وقتلت منهم حوالي ٣٠٠٠ و غنمت منهم ألف ثور و ١٠٠٠ خروف.

* تحقّق السيد (محمد) عثمان المرغني عن عمر هذا الحاكم. ووصل هذا لأقني عثمان.
** الحباب قبيلة هامة تقع أراضيها بين محطة رارات، ١٧٠ ميلاً جنوبي سواكن، وبين نهر لبكا. وتمتد أراضيها للدالغ لحوالي ٦٠ ميلاً حتى بداية مناطق قبلي عامر.

وكانت الحامية حتى هذا الوقت تعيش على الصمغ والجلود. ومن ثم مكنتهم غنيمتهم تلك من الصمود لبضع أسابيع بعدها.

وقبل نهاية يونيه تلقى العرب هزيمة أخرى بالقرب من القلابات والتي كان الملك يوحنا، بعد أن أفلح في إتقان حاميته، قد ترك فيها قوة كبيرة وعندما وصل ذلك الخبر لعثمان قام على الفور بإرسال كل من وجده من رجال إلى كسلا، بقيادة الخضر، شيخ الحساناب، ولم يترك بطماي إلا قوة صغيرة.

وبدأت معالم تدهور قوة المهديّة في ضواحي سواكن في الظهور. فقد كان الطعام نادراً منذ وقت طويل، وأهملت الزراعة في طوكر لاستنفار كل الرجال باتجاه كسلا. وأخذت روح التذمر وعدم الرضى تنفشي بين القبائل والتي شعرت بأنها لم تحصل على شيء يذكر بعد كل الخسائر التي تكبدتها وأن أحوالهم لم تتحسن إطلاقاً.

وبوصول نبأ وفاة المهدي إليهم في أوائل يوليه إندادت مشاعرهم ضد عثمان دفقةً قوية. ولم يفلح عثمان في الحفاظ على تحالفهم معه إلا بعد جهود جبارة وبعد إقناعهم وتذكيرهم بنجاحاته السابقة وإتصاراته. رغم ذلك فقد أعلن كثير منهم بأنهم خدعوا، ومع ذلك فقد فلق عثمان دفقةً، بقوة حجته ونفوذه الشخصي عليهم، في الحفاظ على قضية المهديّة في هذا الإقليم.

ووصلت أنباء وفاة المهدي إلي كسلا أيضاً في أوائل يوليه. ووضح أثر ذلك على الثوار المحاصرين فوراً. وكان صراع حول توزيع الغنائم والمؤن قد نشب بينهم منذ بعض الوقت، ومن ذلك صراع بين مصطفى هدل، أمير هندنوة العظيرة* وبين ود حوشي، أمير هندنوة القاش، والحنقة والجعليين. وإنضم الشكرية أيضاً لهذا الصراع واتحدوا مع الآخرين. وكانت هذه القبيلة قد إنضمت للمهديّة لأنها لم تجد أي قوة مهيمنة أخرى تستند عليها.

ودارت معارك طاحنة بين الفئات المتناحرة في أبي ليل إنتصر فيها ود حوشي وطرد الهندنوة إلي فيليك على بعد أربعين ميلاً من كسلا. ثم عاد إلى الختمية وقد أنتوي أن يصل مع مدير كسلا إلى تسوية واتفاق.

لكن الوضع في كسلا إنداد يأساً واستهلكت حتى كميات الصمغ والجلود وصار واضحاً للمدير عدم قدرته على الصمود أكثر من ذلك. طبقاً لذلك وافق على (التفاوض) مع مناديب ود حوشي، والذين إنضم إليهم في تلك الفترة إثنان من المناديب المخصوصين الذان حضرا من الخرطوم وهما إدريس الجعلي وود جهرة (جارة) الدنقلوي وخرج المدير بنفسه ومعه عدد من كبار رجال المدينة، يوم ٣٠ يوليه، وجلس الجميع تحت أجمة من شجر الجميز وثم إقتراح بهدنة تستمر لثلاثة أشهر. كان هذا يعني في الواقع الإستسلام. فقد تم الاتفاق على الحفاظ على أرواح السكان ورجال الحامية. ولكن، وفور أن تم تسليم السلاح فقد بدأت المعاملة تسوء وكان من المعتقد أن الأهالي قد خباؤا أموالهم ولهذا نقشت كل أنواع المعاملة السيئة والتعذيب والقسوة والسرقة.

* وهو البحر الأسود، كما يسميه العرب، هو مجري مالي متقطع، بالرغم من أن طوله يبلغ حوالي ٥٥٠ ميلاً. وخلال شهور فبراير ومارس وأبريل ومايو يجف تماماً وخاصة في أثنى المجري ولا توجد مياه إلا في المنخفضات المنعزلة. وعندما تهطل الأمطار فإن عمق مجراه يتراوح بين ٢٥ - ٣٠ قدماً بينما يصل عرضه في بعض الأماكن إلي ٥٥٠ ياردة. هذا وينتهي العظيرة (بالجبل) بالدامر وراء بربر ومياهه تمد مصر بالطمي الشديد الخصوبة.

وأثناء ذلك علم عثمان دقّة الصراعات بين القبائل وبما وصل إليه الحال بكسلا، فقام بجمع عدد من أتباعه الأشداء وتوجه للمدينة ووصل إليها في منتصف أغسطس. وبعد أن اطلع على مجمل الأوضاع بكسلا، قام بتعيين الأمير عبد الله أبو بكر للقيادة بكسلا ثم أنصرف لمقابلة القبائل المجاورة والهندنوة المشتتين ورفع معنوياتها وشرع في الاستعداد لمواجهة رأس ألولا الذي قيل أنه زاحف الآن لنجدة كسلا.

وكان الكولونيل تشير مسaid، أثناء فترة عدم معرفة مصير كسلا أو ما جرى لها، قد استخدم كل طاقته وأعصابه وجهوده لدفع الحبش للتقدم نحو كسلا. وفي اليوم الخامس من أغسطس بعث ماركو بولي بك، مساعد مأمور مصوع، إلى أسمرام معه هدية مكونة من ١٠٠٠ بنديّة و ٥٠٠٠٠ دولار يسلمها للرأس ألولا مع رجاء حار وعاجل بالأا يضيع أي وقت لبدء تحركه. وفي العشرين من أغسطس كتب رأس ألولا عدة خطابات للكولونيل تشير مسaid مضمونها أنه سيتحرك بعد الاحتفالات بعيد القديس يوحنا (١٣ سبتمبر)، وأنه الآن يقوم بجمع المواشي لنجدة حامية كسلا بها.

وقد إزدادت قوة الراس ألولا بانضمام قوة كبيرة من البني عامر، بقيادة شيخ موسى محمد (الذي حل محل بخيت بك*)، والذي كان يعمل بتوافق مع السيد بكري المرغني، رجل كسلا. وبهذا ارتفعت قوات الرأس ألولا لتصل إلى عشرة ألف رجل.

وعند نهاية أغسطس قام عثمان دقّة، مصحوباً بالأمير مصطفى هذل، ومعهم قوة عسكرية تقدر لما بين ٨٠٠٠ - ١٠٠٠٠ رجل، بالتقدم من كسلا نحو كوفيت (وهي محطة صغيري في إقليم باريا كانت القوات المصرية قد احتلتها من قبل وأعتبرتها (حامية حدود) وذلك حتى استسلمت باريا وبازي لمصر وعندها تم تقديم خط الحدود للأمام حتى حدود حماسين).

وهنا توقف الجيش العربي بعد أن عزز نفسه بما استطاع حشده من رجال وظل في انتظار هجوم الرأس ألولا. كان مصطفى هذل واثقاً من النصر لدرجة أنه أرسل التحدي الآتي لعدوه:

من العبد المخلص لله مصطفى هذل

إلى ملك الكفرة، وإلى شيطانه راس ألولا، وإلى موسى محمد زعيم قبيلة البني عامر، وإلى كل الزعماء، وإلى كل رجل منكم:

بسم الله الرحمن الرحيم..... الخ.

أكتب لكم لأفيدكم بأنني أعلم بقولكم بأنكم ستحضرون قوات إنجليزية لتشنوا الحرب على أتباع الرسول. لكن ما تقولونه كله عبارة عن أوام، لأنهم لم يحضروا. وتقولون الآن بأنكم ستحاربونني بجيش حبشي، لكنكم في هذا الصدد لن تفعلوا.

لقد قرر أمير الأمراء، عثمان أبوبكر دقّة، أن يغزو كل المديریات. وقد وصل لكسلا حيث انضم إليه كل المواطنين، وقد وصلنا نحن الآن إلى الجبال المجاورة لكم. عليكم أن تقدموا لملاقاتنا، ولا تتأخروا! أما إذا لم تتمكنوا من الحضور وخفتم منا، فعليكم أخطاري عن طريق حامل هذه الرسالة

* هذا الشيخ المخلص توفي في ديسمبر ١٨٨٤.

وسأقدم نحوكم بأنصاري وسأقضي عليكم وأزيلكم من الوجود وأحطمكم أنتم وكل الذين لا يؤمنون بالله ورسوله لتلحق أرواحكم وتصطلي بنيران الجحيم.

١٨ ذو القعدة

٢٩ أغسطس ١٨٨٥

غادر رأس ألولا أسمرًا في ١٥ سبتمبر ووصل إلى كوفيت مساء الثاني والعشرين من سبتمبر، حيث وج أن عثمان دققة قد أحتل الحصن ومعه قوة تقدر بحوالي ٨٠٠٠ من العرب. وأرسلت الخيالة الحبشية صباح اليوم التالي للاستطلاع ولكن أطلقت عليهم نيران حامية. قام ألولا بإرسال نائبه في القيادة، بلاقا قبرو* بقات المشاة وبدأت المعركة الشاملة. فعند اقتراب الحبش قام الحراية من العرب بمقادرة تحصيناتهم وهجموا عليهم ودخلوا معهم في اشتباكات يداً بيد انتهت بقتل بلاقا قبرو وسبعة آخرين من زعماله وعدد من الحبش. شاهد راس ألولا النكسة التي حلت بهم. فوضع نفسه في قيادة الجيش الاحتياطي وصاح قائلاً: وأما إن تنتصر أو نموت

وهجم على العدو. قتل فرسه من تحته وظل يقاتل راجلاً لبعض الوقت. قاتل علي نورين، زعيم السبدرات، بشجاعة ضارية وشيئاً فشيئاً بدأ العرب في التراجع. في هذه الأثناء اندفعت أجنحة الجيش الحبشي نحو المنطقة التي بين العرب والتحصينات ومن ثم منعت العرب من التراجع وقام البني عامر وخيالة الجدين بمساندتهم في الهجوم وهزموهم وطاردوا العرب لمسافة بعيدة. كانت المذبحة فظيعة وقتل في الميدان أكثر من ٣٠٠٠ من العرب بمن فيهم كبار الأمراء، ما عدا عثمان* إضافة للذين قتلوا أثناء المطاردة. أما الأحباش ففقدوا حوالي أربعين ضابطاً و ١٥٠٠ من رجالهم إضافة لأعداد كبيرة من الجرحى.

وبقي راس ألولا ليومين في كوفيت ثم عاد لاسمرًا. وقد أوردت عدة أسباب عن عدم مواصلة تقدمه نحو كسلا، منها أن الأمطار عاقته عن مواصلة إندفاعه نحوها، لكن المعتقد غالباً هو أنه ظن أن هذا النصر الواضح الذي أحرزه سيمكن الحامية من الإنسحاب بدون عون إضافي منه. ولم يكن يعلم بأن كسلا، قبل هذه الحرب الأخيرة، قد استسلمت وأن كل سلاح الحامية أُنقل لأيدي العرب.

وفي ٢٢ أكتوبر دخل راس ألولا أسمرًا دخول الفاتحين ، وهو علي رأس جيشه ويتقدمه القساوسة بكامل أزيائهم الكهنوتية، أما جنوده المنتصرون فقد ساروا وراءه يحملون غنائمهم من الأسلحة والبنارقي وينشدون أغاني النصر وأهازيجه. وكان ألولا، في مقدمتهم، تسبقه منصة عالية نصبت فيها راية عثمان دققة.

* عم ألولا وحاكم سنهيت.
* لوقت طويل كانوا يعتقدون بأن عثمان دققة قد قتل أيضاً بعد أن تواترت الأنباء بذلك . ولكن لم يمض طويل وقت حتى عاد ذلك الزعيم الجسور إلى الميدان مرة أخرى.

أما الزعيم المهزوم، والذي يوجد في كل مكان، فقد توجه نحو كسلا حيث أنزل نغمته وانتقامه على الأمري التصاء. وفي العاشرة من صباح اليوم الذي تلي وصوله لكسلا ثم قطع رأس المدير، الذي صمد للحصار المحكم لثمانية عشر شهراً. وقتل معه أيضاً حسن أغا، سر سوارى الباشبوزوق، وإبراهيم أفندي شوقي، الباشمعالون، وإثنين من التجار هما ستيلو أبوستوليدي وتادرس منسي. وبعدها تلاشت الحامية.

ثم إلحاق بعضهم بريايات الأمراء بينما أرسل البعض الآخر للخرطوم مثلما أرسلت لها حمولة ٦٠٠٠ جمل من الغنالم وعاد الزعيم المنتعش دالماً، عثمان دقنة، مرة أخرى زعيماً بلا منازع على شرق السودان.

الجيرة

ظلت حامية الجيرة ورجالها تحت الحصار الشديد لعدة أشهر حتى تمكن الأقباش من إخراجهم بسلام وتوجهوا بهم في الثاني والعشرين من يولييه ١٨٨٥ إلى غبته في مديرية ولكايت. وهنا تم إطعامهم وكسوتهم بأمر من الملك يوحنا، والذي أخطر الحكومة بأنه سيرسلهم إلى أسمرأ عقب إنتهاء موسم الأمطار.

قدر عدد الحامية بحوالي ٥٠٠٠ رجل وإمرأة وطفل ولم يتمكن القسم الأول منهم من الوصول لمصوع إلا في أوائل فبراير ١٨٨٦، ومنها أرسلوا للقاهرة.

وفي تلك الأثناء اتخذت الأمور منحى طيباً في منطقة سواكن بعد مغادرة عثمان لها وتوجهه لكسلا. فبعد ثلاثة أيام من مغادرته لطماي، قام الشيخ حامد محمود بإرسال وفد من شيوخ الأمرار إلى المدير، وإلى الميرغني، وإلى محمد بك علي، بغرض إعادة ترسيخ العلاقات الحممية بين الحكومة والأمرار. وكانت النتيجة مرضية تماماً. ومنذ ذلك الوقت توقف الأمرار عن تقديم أي مساعدة لعثمان دقنة.

وظهرت أولى علامات إتهيار سلطة المهديّة هنا وسط الهدندوة. فقد ترك عثمان ابن أخيه فاي دقنه في القيادة أثناء غيابه. وقيل شهرين من ذلك كانت (مشاعية الملكية) التي كانت ممارسة بين القبائل، في غمرة ولاهم لقضية المهديّة، قد توقفت. لذلك كان فاي مضطراً لغرض الضرائب على القبائل المجاورة حتى يتمكن من تمويل قواته الصغيرة المحدودة. وكانت فئة الضريبة ثلاثة دولارات (ريالات) علي كل خمسة وعشرين رأساً من الغنم، ونفس المبلغ علي كل جمل.

وكان أول من أعترض على هذه الضريبة الشيخ موسى قديف، من الحامداب، والذي كان حتى ذلك الوقت من غلاة أتباع عثمان دقنة، لكن فاي، رغم حنقه علي ذلك التغيير في المواقف، كان عاجزاً عن فرض الضريبة.

لكن إمدادات الذرة، والتي كانت غير مضمونة لحد ما، بدأت الآن في التدفق بكميات كبيرة عن طريق البشاريين، الذين أقاموا معسكرهم في خور شيناب، علي بعد ١٦٠ ميلاً علي الشمال من سواكن، حيث احتفظوا بتجارة مزدهرة مع جدة وغيرها، وخاصة تجارة الرقيق والممنوعات.

وقريباً من نهاية أغسطس تم إرسال السفينة الحربية البريطانية (جرايلر) والسفينة (مخير) لتشتيت شمل ذلك المعسكر. قامت السفينتان بقصف المعسكر بالمدافع قبل نزول رجالهما للساحل حيث شنتوا شمل العرب وأسروا عدداً منهم وصادروا كميات من البضائع. وقتل منهم بحار واحد واثنان من العرب العاملين في السفينة مخير. ثم رجعت السفينتان رغم أن الثوار ظلوا بالمناطق المجاورة ولم يبارحوها.

(الأحباش والإيطاليين)

وحتى هذا الوقت لم يتعكر صفو العلاقات الحميمة التي نشأت بين الأحباش والإيطاليين. وكان الأحباش قد إدعوا دائماً السيادة على الحباب ودرجوا على طلب الجزية السنوية منهم. هذه القبيلة هي حقاً من أصول حبشية، لكنها منذ وقت طويل قد امتزجت مع القبائل العربية بالجوار، بل أنها دفعت الجزية لمصر منذ إحتلالها لمصوع، وذلك قبل حوالي ثمانين عاماً. لذلك السبب فقد قوبل طلب الأحباش بالرفض من جانب الحباب مما دعي بالأحباش، لتدعيم مطالبتهم، بإرسال قوة عسكرية إلى مناطقهم.

وفي العاشر من أكتوبر وصل كنتباي، شيخ الحباب، إلى مصوع وطلب من السلطات الإيطالية أن يمدوه بالسلاح والذخيرة بزعم أنهم يريدون إستخدامها ضد الثوار. قوبل الشيخ باستقبال حافل مما أثار حنف الراس ألو لا، والذي كان يستشعر وخذ الندم والغضب المرير على تقدم الإيطاليين إلى سهاتي، مما دفعه لطرد الطبيبين الإيطاليين الذين أرسلوا له لمعالجة جرحي معركة كوفيت. أكثر من ذلك فقد طالب الإيطاليين بإرسال كنتباي إليه. رد عليه الجنرال ساليبا بأنه اعتبر أستقباله الحافل لكنتباي مجاملة كبيرة للأحباش وإرضاء لهم. لكن راس ألو لا رفض التهذبة بل أوقف كل برامجه القادمة لإخراج الحاميات المصرية وإنقاذها.

وفي سبتمبر عاد القاضي السابق عبد القادر حسين من مهمته الفاشلة إلى الحباب ولم يوفق أبداً في إعادة ولائهم للمهدية.

ظل عثمان دقنة في كسلا. وكان قد قام بجهود لتجميع قوات كبيرة للهجوم على الأحباش إنتقاماً لهزيمته الأخيرة. لكن الخليفة أمره بوقف إستعداداته تلك، والإنتفات مرة أخرى لسواكن.

أما طوكر فقد كانت بها حامية صغيرة للعدو. وقامت وفود من شيوخها بالتوجه لسواكن بغرض أن تتحرك الحكومة نحوها قبل أن ينتهي الحصاد ويمنعوا عثمان دقنة من التمرکز فيها. لكن لم يكن في النية تغيير (الحالة الدفاعية) إلى حالة هجومية. وعندما تحقق (الثوار) من ذلك أشاعوا بأن الحكومة خائفة من مغبة التوجه إليهم. بل أعلن عثمان بأنه سيعود قريباً من كسلا لفرض الحصار على سواكن. وعادت الثقة إلى نفوس القبائل وأرسلت كميات كبيرة من الذرة لطماي وأخذت كل الإستعدادات توقعاً لوصول عثمان.

وفي ديسمبر إزدادت جموع الثوار في طماي وقاموا بشن غارات متكررة على ضواحي سواكن وغنموا عدداً من الجمال، بل أن أحد جنود الفرقة البريطانية الراكبة قد قتل.

وبنهاية الشهر أرسل عثمان تعليمات للأمرار للتحجج في خور شيناب وأرسل الشيخ محدد آدم سعدون إلي هشين للتهييز لبدء الحصار. وفي هذه الفترة إندانت قوة العرب كثيراً بانضمام قسم من البني عامر، بقيادة أحمد الجبر، والذي، وبعد أن ساعد الأحباش ضد عثمان من قبل، تشاجر مع الرأس ألولا وعاد للانضمام غلي الثوار مرة أخرى.

أما في الخرطوم، فقد كان عبد الله التعايشي يحكم جموع الأهالي المشاغبيين بيد من حديد. وصارت مدينة أم درمان تمتد الآن لحوالي خمسة أميال بطول نهر النيل، وقد بنيت أساساً بأكواخ القش والتكول، بينما أقيم مبني أنيق من الطوب الأحمر، مزين بأشكال هندسية بديعة، فوق قبر المهدي وهناك أخذ أبناؤه الثلاثة الصغار يستقبلون أعداداً لا تحصى من الحجاج ويقدمون لهم مسبة والدهم الراحل لتقبيلها. وقد أقيم غار بجوار القبر، لأن مصاعب (الأنبياء) تكمن دائماً في أنهم عرضة للموت ولذلك كانوا كثيراً ما يختفون ثم يرجعون أثناء حياتهم. وللأنبياء دائماً غارهم. لذلك فأنهم إن كانوا مختفين في الغار فلا أحد يعلم إن كانوا موتي أم لا. وإذا ماتوا فلا أحد يعلم إن كانوا مختفين في الغار أم ماتوا. ورغم الإعلان الرسمي عن موته، إلا أن الاعتقاد ظل سائداً، ويتم تشجيعه، بأن محمد أحمد قد يظهر مرة أخرى.

...

وظلت الباخرة الإسماعيلية تعمل بين الخرطوم (وأم درمان) جينة وذهاباً. وهناك في الخرطوم أخذ لبتن، بعد أن تزود بسيف وصار له مرتب نقدي، يعمل كمشرف علي المخبز والصيدلية ثم علي المصنع الذي يقوم فيه الإغريق بصنع البارود. وعادت الترساتة للعمل في إصلاح البواخر، والتي كانت أربعة منها راسية أمام المقرن لاستخدام الأمراء. وأصبح الصمغ وريش النعام يباع من بيت المال وأقيم نوع من الحكومة الآن (في السودان).

كردفان، ١٨٨٥

ظل سكان الجبال مصدرأ مستمراً للمشاكل (للمهدية). وعندما غادر محمد أحمد الأبيض، في طريقه لحصار الخرطوم، ترك ابن عمه الشريف محمود عبد القادر أميراً عليها. كان لدي الأخير قوة من ٤٠٠٠ رجل لكن من بينهم كان حوالي ١٠٠٠ من قدامي الجنود النظاميين بالجيش المصري. ولم يطرأ أي جديد علي الموقف حتى وفاة محمد أحمد حينما تم استدعاء الشريف محمود، ومعه عدد آخر من الأمراء، للحضور لأم درمان لتقديم البيعة للخليفة عبد الله. وبعد بضع أسابيع من سفره، حوالي منتصف أكتوبر، حصل اضطراب خطير بالأبيض. فقد تمرد قدامي الجنود النظاميين، وقادوا ثورة ضد العرب، وقتلوا الأمير الذي كان يقوم مقام الشريف محمود أثناء غيابه، وبد أن نهبوا المدينة اتخذوا مقراً لهم بجبل النيمان، أحد سلسلة جبال النوبة، بعد أن تمكنوا من الحصول علي كميات كبيرة من السلاح والذخيرة.

* أخذ ونجت مره أخرى: يهدف بما لا يعرف، ويخلط بين مفهوم الإمام الغائب عند الشيعة وحالات الدخول في الغار المنتشرة بين المتصوفة المنة، وبني حديته أعلاه عاي هذا الأساس (المغرب).

وعندما وصلت هذه الأنباء لأم درمان، أسرع محمود عائداً للأبيض وجمع قوة عسكرية وتوجه بها نحو جبل النيمان. لكن الجنود النظاميين كانوا مستعدين له. وعند هجومه عليهم يوم ٢٠ ديسمبر ١٨٨٥، تم صده بعد خسائر جسيمة. أما هو، وعندما شاهد رجاله وهم يهربون، فقد ترجل من حصاة ورفع رايته ونادي أنصار المهديّة المخلصين ليتبعوه ثم أندفع بهم وسط معمة القتال. كان قد إتبعه عدد قليل من الرجال وسرعان ما قتلوا جميعاً.

وعادت ما تبقت من قوات محمود إلى الأبيض. وقام الخليفة بأرسال ابن عمه عثمان وداؤم إليها من أم درمان ومعه قوة كبيرة أما بقايا جيش محمود المنهزم فقد أرسل للالتحاق بالنجومي في دنقلا.

وأثناء ذلك نشبت ثورة أخرى بين عرب الكواليب وتم إرسال أبو عنجة** إليهم من أم درمان. وعند اقترابه منهم فرت القبيلة المتمردة إلى جبل الدينكا وتشتت شملها.

ووجه أبو عنجة جهوده الآن لإخضاع الملك آدم ملك تغلي*** وكخطوة أولى توجه نحو جبل التمام، التابع لمجموعة جبال تغلي، ونهب وسلب المنطقة وغنم كمية كبيرة من الرقيق ومن الماشية وأجبر عدداً كبيراً من الثوار للإضمام لحبشه. ثم توجه لجبل الداير وحاصر مك كمبو. وعندما علم بالكارثة التي حلت بقوات محمود توجه نحو جبل النيمان وهاجم الجنود النظاميين المتمردين وششت شملهم ثم عاد مرة أخرى لحصار جبل الداير.

دارفور وبحر الغزال عام ١٨٨٥

بعد إخماذه للثورة ببجل مرة، بقي زقل بالفاشر بدون إزعاج لعض الوقت. أما في جنوب وجنوب شرق دارفور فقد نشبت الإضطرابات فيها وانتشرت.

* هذا الأمير، والذي لعب دوراً هاماً في مقبل أحداث دارفور، يعرف غالباً باسم عثمان جتو، وهو لقب يطلق علي الرجل محمر اللون.

** هذا الأمير المهيّب، والذي سيكرر ظهور اسمه في الصفحات التالية، كان في الأصل من عبيد الخليفة عبد الله. فإثناء حملة الزبير باشا ضد التعايشة تم أسر أبو عنجة ومكث بعض الوقت مع الزبير باشا. وعند استدعاء الأخير للقاهرة، سمح له بالعودة إلى سيده. وقد برز في باكورة أيام الثورة وتميز بشجاعته وسرعان ما صعد لرتبة الأمير. يوصف بأنه رجل قوي فارح الطول، من أصول زنجية، وكرجل له قدرات خارقة ومكرودهاء .

*** ربما نذكر بأن آدم، ملك تغلي، ظل لوقت طويل مصدر قلق الحكومة المصرية. وظل في معقله المنيع بالجبال مما استحال (علي المصريين) إخضاعه. لذلك قام المهدي في هجرته المبكرة لجبل دنير باستمالته كحليف قوي له. وقد زاره وأخطره سرا بأنه المهدي المنتظر، وأنه يسعى للحصول علي دعمه عندما يحين وقت إعلان الدعوة.

وعند بداية الثورة كتب المهدي له لمساعدته. فقام عند استلام الخطاب باستشارة قاضيه والذي لم يتردد في وصف النبي الجديد بالمدعي وبالتالي رفض آدم الإضمام إليه. وعقب احتلال الأبيض كتب له المهدي ثانية، وفي هذه المرة قبل الدعوة وتوجه مع القاضي له لأداء البيعة. لكنه عند وصوله ألقى عليه القبض ورمى بالسجون. لكن تمّل بأن قاضيه قد ضلله. وعندما سئل القاضي عما إذا كان بالفعل قد أئتب نكر بشجاعة أنه قد قام بذلك، وبأنه لا يزال غير مصدق بالمهدية، وبأنه يفضل الموت على الاعتراف بها. وقد تم إعدامه فوراً. وبعد وقت قصير توفي الملك آدم عندما كان في طريقه أسيراً للخرطوم. وبقيت أسرته تحت الحراسة بأم درمان حتى عام ١٨٨٥ عندما نجح ابنه علي الملك في الهرب. وبعد ملكاً وجمع عدداً من أتباعه وتحول بعدها ليكون أحدى أعداء المهديّة.

وعقب وفاة المهدي أبدي عدد من كبار الأمراء عدم رضاهم للخضوع لنداء الخليفة لهم بالحضور بأموالهم وعوائلهم لأمدردمان. وكان من بين هؤلاء الأمير مادبو، والذي كان قد لعب دوراً بارزاً عند بداية اندلاع الثورة (المهديّة). وقام هو وقبيلته - الرزيقات - بتحدي سلطة الخليفة علناً. فقام الأخير بإرسال كرم الله، الذي كان أميراً علي بحر الغزال، لإخضاع هذا الأمير المتمرد وللعمل مع الأمير كركساوي، الذي كان أميراً علي شكا، لإحضاره بالقوة لأمدردمان.

استخدم كرم الله في مبدأ الأمر الأسلوب الهادئ المسالم لكنه لم ينجح فقام بإرسال الأمير ككتبور إلي شكا ومعه ٦٠٠ من حملة البنادق وفي الطريق ضم إليه عدداً من العرب وفاجأ مادبو بهجوم عليه في الضعين، على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الغربي من شكا، والحق به خسائر جسيمة وأسر حوالي ٢٠٠٠ رجل وعدداً كبيراً من الأبقار. حاول مادبو في اليوم التالي استعادة ما فقد منه، لكنه هزم مرة أخرى. ثم أرسل ككتبور قسماً من قواته لمهاجمة معسكرات مادبو على بحر العرب، بينما قام بنفسه، مع ما تبقى من جيشه، ليعمل على أسر مادبو. لكن الأخير نجح في الفرار، عن طريق دارا، إلى عرب النبي هلبه.

وخشية من ككتبور أن يهاجم تلك القبيلة القوية، قام بطلب تعزيزات من بحر الغزال، ووافق كرم الله، بعد الحصول على إذن من الخليفة، على أن يمدّه بها.

وفي ديسمبر ١٨٨٥، كان ككتبور لا يزال في دارا، عاجزاً عن اتخاذ أي إجراء ضد مادبو. وفي تلك الفترة كان زقل قد تلقى أوامر متكررة للحضور لأمدردمان. لكنه، وربما خوفاً وتشككاً من نوايا سيده الجديد، تلكأ في التوجه لأمدردمان متعللاً بكل ما يمكن تخيله من أعذار، وعندما اقترب عام ١٨٨٥ من نهايته كان لا يزال مقيماً بالفاشر

الاستوائية في عام ١٨٨٥

أما في الاستوائية، فقد كان أمين بك لا يزال في اللادو بينما كانت نقطته المتقدمة في أمادي تحت الحصار. وفي السادس من يناير تسلم خطاباً من كاتبه عثمان أرباب، والذي، كما نذكر، كان أحد أعضاء وفد التسليم لكرم الله، أفاده فيه بأنه قد وصل لمشارف أمادي ومعه قوة قدرها ٤٠٠ رجل، وأنه لا زال في انتظار وصول تعزيزات له من برنجي زبير، وأن المقاومة لا جدوى منها وأن كل السودان قد انضم الآن للمهدي والذي وصل نفوذه حتى مشارف سواكن. وأكثر من ذلك، فإن كرم الله قد أخبره بسقوط الخرطوم. وأرفق مع خطابه عدة رسائل من كرم الله تشتمل على منشورات من المهدي وعلي طلب بالانضمام إليه. وأجاب أمين على تلك الرسائل بأنه في انتظار قدوم عثمان أرباب إلي عاصمته قبل الوصول إلى اتفاق. وفي نفس الوقت اتخذ كل الترتيبات للعمل على سحب مختلف الحاميات أكثر إلى الجنوب. وفي ٢٣ يناير توجه دكتور يونكر نحو أنفينا ليعمل ما في وسعه لإتصال مع المبعوثين اليوغنديين، والذين أمل من خلالهم إرسال رسائل، عن طريق زنجبار، إلى

* زعيم المقاومون والشهيدون وجزء من إقليم اللانغو

الحكومة المصرية وليوضح لهم أحوال المديرية التي يحكمها أمين. كما عاد الآن الكابتن كاساتي إلى اللادو قادماً من مكرাকা.

وفي الثلاثين من الشهر عادت الصنادل التي كانت قد أرسلت لبور بدون أي نتيجة. فقد رفض الضباط، الذين لهم عوائل كبيرة، التحرك برأ معهم لأن الصنادل المتاحة لهم كانت قليلة وأصغر من أن تكون ذات فائدة لهم.

وقام أمين مرة أخرى بإرسال نذرة لهم وكرر أوامره للقمندان بالانسحاب. وأثناء تلك الفترة وصلتهم أخبار عدة من أمادي، التي تقلصت حاميتها لدرجة خطيرة من جراء قلة الطعام. وفي ١٤ فبراير تمت غارة ناجحة تمكن فيها الجنود من إخراج المحاصرين لهم من خنادقهم وأحرقوا أكواخهم واستولوا على بعض الذخائر وقتلوا الأمير عبد الله عبد الصمد وأخيه. لكنهم بدلاً عن الاستفادة من هذا النجاح، أمر الضابط المسئول جنوده بالتراجع. ورغم أن الضباط والجنود ألحوا عليه بضرورة إكمال ما بدأوه إلى أن شيئاً لم يتم. وعاد الضباط إلى أمادي ليغرقوا أنفسهم في الخمر بينما جنودهم يعانون من الجوع الشديد. وكان أمين قد كرر أوامره للقائد مرجان أغا بالانسحاب إلى اللادو أو مكرাকা، إذا وجد أن الوضع لا يحتمل هناك. لكن أوامره لم تطع وقام أمين يائساً بتوجيه زعيم المكاراكا للقيام لأمادي مع نجدة من الرجال والمؤمن. لكن هذا الأمر أيضاً لم يستجب له وأصبح أمر إنقاذ الحامية يصبح يوماً بعد يوم ميئوساً منه.

وفي الحادي والعشرين من فبراير وصلت إلى اللادو معلومات بأن كرم الله، بعد أن تعزز بإمدادات كبيرة، قد بلغ ضواحي أمادي حيث طلب من مرجان الإستسلام. لكن الأخير رفض ذلك وبعدها شدد الحصار على المدينة أكثر من ذي قبل وقطعت كل الإتصالات بها. حاول زعيم المكاراكا نجدة الحامية المحاصرة، ووصل إلى مسافة قريبة من المدينة، لكنه لم يتمكن من إحراز أي نتيجة ومن ثم تراجع إلى مكاراكا. واقتربت النهاية بسرعة الآن. وقد حاول الجنود مراراً دفع ضباطهم للقيام بغارة (على الأعداء) لكن الضباط رفضوا وبدأ عليهم الرغبة في الإستسلام. وأخيراً غمر الجنود يأس شديد وقاموا، برئاسة ستة من الضباط الشجعان بغرة من أمادي وشقوا طريقهم من بين المحاصرين واتخذوا طريق مكاراكا. ولما رأى القمندان أنه صار وحيداً، بعد أن هجره الجنود، قام بمتابعتهم ومعه الملازم رابح أغا. لكن الثوار إعترضوا طريقهم وقتلوهما وقطعوا رأسيهما وأرسلهما لكرم الله. أما الذين بقوا في أمادي من البازنجر والمترجمين وبقية الجنود فقد أستسلموا وتسولي الثوار زمام الأمور بنهاية مارس.

هذا ومن بين الذين قاموا بتلك الغارة الناجحة فقد وصل ٢٦٠ رجلاً منهم سالمين غلي واندى بمكرাকা، وفي نفس الوقت تقريباً الذي وصلت فيه حامية مونبوتو، التي كانت قد أمرت من قبل بالتجمع هناك، ولكن استغرق ذلك منهم وقتاً طويلاً. وفيما بعد أتضح، وقبل سقوط أمادي، بأن القمندان مع إثنين من ضباطه قد خططوا لتسليم المدينة وأنهم كتبوا لكرم الله بهذا الخصوص، لكن بقية الضباط ظلوا مواليين لشرف المهنة وخاصة الجنود والذين تصرفوا بطريقة تجل عن كل إطرء وثناء. فقد ظلوا العشرين يوماً يعيشون على أكل جلود البقر وانتهى بهم الأمر لأكل صنادلهم الجلدية بينما كان رؤسائهم غارقين في الفحش والفساد.

وقد شخص أمين الوضع بقوله: كان العصيان هو الأمر السائد اليوم. وكان كل واحد لا يبحث إلا عن حماية مصالحه الشخصية فقط.

وللمزيد من المشاكل، فقد قام الضباط المدنيون والعسكريون في اللادو، وفي الأول من أبريل، بتقديم عريضة لأمين بك طلبوا منه فيها إخلاء المناطق الجنوبية وهجرها والعمل على تركيز القوات في خط لا دو/ كيري. ورغم أن أمين كان يعارض تماماً هذا الرأي إلا أنه اضطر للخضوع للرأي الذي أجمعوا عليه كلهم وقام بإصدار الأوامر اللازمة لتنفيذ ذلك.

وفي الثالث من أبريل وصلت خطابات أخرى من كرم الله وعثمان أرباب جاء فيها إخطارهم لأمين بأن أمادي قد سقطت وفيها أمرهما له للحضور إلى ذلك المكان في الخامس من أبريل وإلا فانه (كرم الله) سيزحف على اللادو. ولا داعي للقول بأن هذا الإستدعاء لم يلتفت له. وسرعان ما تم تحريك المحطات الخارجية للثوار ودفعها للأمام حتى صارت على مسافة ثلاثة أيام من العاصمة، كما ظهرت مجاميع أخرى بضواحي مكارا وما جاورها. وصدرت تعليمات لقمندان تلك المحطة بالصمود لأطول مدة ممكنة، أما إذا وجد أن الوضع قد يفلت من يده فأن عليه الإسحاب إلى اللادو.

وبعد ذلك بقليل قام فصيل من العدو بتشتيت شمل الحامية الصغيرة في كماري، بجوار واندي، وأجبروا القوات التي بها على التراجع إلى ريمو حيث إعتزموا التوجه منها صوب طريق الرجاف، لكنهم قبل أن يبلغوا الطريق هاجمهم الثوار بضراوة لكنهم تمكنوا من صدهم ووصلت القوات سالمة إلى بدين. وبحلول يوم التاسع عشر كانت كل حامية مكارا قد وصلت بسلام إما إلى بدين أو إلى الرجاف. وقبل ذلك بيوم وصلت خطابات أخرى من كرم الله تحمل الأنباء المفزعة بأن الخرطوم قد سقطت وأن غردون قد قتل. وقام أمين في الرابع والعشرين من الشهر بعقد إجتماع ضم كل الضباط لمناقشة الحالة العامة وإلتخاذ التدابير اللازمة لإنقاذ قواتهم من الجوع. وتعهد أمين الإسحاب من الاجتماع حتى لا يكون قرار المجلس متحيزاً لرأيه. وفي حضور الكابتن كاساتي اتخذ القرار التالي: نظراً لعدم وجود ما يكفي من الذرة، باللاو أو الرجاف أو بدين وغيرها، لإمداد الرجال الذين جاعوا من مكارا بها أو لإمداد رجالنا أنفسهم، ونظراً لأن الحصاد القادم لا يزال بعيداً، ولأننا حتى لو أرسلنا قواتنا في غارات بحثاً عن الطعام فأننا سنستغذ ما تبقى لدينا من ذخيرة قليلة ونضع أنفسنا بالتالي تحت رحمة الزوج:

وبينما نجد أنه، من الناحية الأخرى، من المستحيل الحصول على العيوش بأي وسيلة أخرى، وبالنظر لكل الاعتبارات التي جاءت أعلاه: فقد تقرر:

- إرسال النساء والأطفال للمناطق الجنوبية.
- كل المحطات لن يكون بها سوى الجنود فقط مع إبعاد كافة المدنيين عنها وتركيز كل قدراتنا على الجنوب.

- أن خط إسحابنا سيكون باتجاه الجنوب لأن الطريق الشمالي، وخاصة بعد بور، لا يمكن المرور منه. ولأننا لا نعلم حقيقة سقوط الخرطوم من عدمه، ولأن لنا نقاطاً قوية تدعمنا بالجنوب في دوفيلي ووادلاي حيث تتوفر لديهم الذرة والعيوش مثلما تتوفر الأراضي الخصبة هناك: فأننا نعمل على الحصول على فرصة مواتية نرسل فيها الخطابات والرجال لزنجبارو لمصر. أما إذا سارت الأمور بعكس ما نريد فقد نلقي بأنفسنا بين ذراعي كباريكا أو ابن موتيسا.

وشرع علي الفور في إصدار القرارات اللازمة. وتقرر الإبقاء على ثلاثة سرايا من الجنود في اللادو بقيادة الصاغ ريحان أغا أما معظم الوجهاء وكبار المدنيين فقد غادروا للجنوب من قبل. وفي اليوم التالي توجه أمين إلى غندوكرو للإشراف على ترحيل كل ما تقرر إرساله للجنوب. ثم شرع في إعادة توزيع القوات النظامية وقسمها إلى كتيبتين تتكون كل منهما من ثمانية سرايا. كانت الكتيبة الأولى، بقيادة الصاغ ريحان أغا، مسنولة عن اللادو والرجاف وبدين وكيرى، بينما الكتيبة الثانية، بقيادة الصاغ حواش منتصر، تحمي الخط من دوفيلي وحتى وادلاي. وبعد برهة قصيرة من تحركه جنوباً، بدأ أمين في التأكد بأن تنفيذ هذا المشروع، بالانسحاب للمحطات الجنوبية، لم يتم تنفيذه إلا بفتور شديد وبعد تردد، وجاءته إشاعات تقول بأن مخططاً قد وضع للتوجه شمالاً. لذلك أرسل رسالة مستعجلة لقمندان الجنود حثه فيها علي ضرورة تنفيذ أوامره.

وقد تلقى أمين ردوداً، من جانب كل الضباط، تحمل في ظاهرها الولاء والإخلاص ولكن أمين ظل في شكوكه بأن جواً من التمرد أصبح يسود أوساط الكتيبة الأولى، وهذا ما أكدته الأحداث اللاحقة.

وبعد إقامته لبضع أسابيع في غندوكرو، والتي كانت العيوش نادرة بها، تحرك أمين جنوباً بعد أن أعطى أوامر مشددة بضرورة حسن معاملة الباريا حتى لا يجدوا مبرراً للثورة. وفي نفس الوقت أصدر تعليمات بإرسال أكبر قوة ممكنة لبور لتقوم بإخراج حاميتها من هناك.

وأثناء غياب كرم الله من بحر الغزال حدثت بعض المشاكل المحلية مع الزنوج هناك، فأسرع عائداً بمعظم قواته تاركاً المديرية لبعض الوقت خالية من الدناقلة المرعبين. وعلم أمين بتلك الأخبار في أبريل وبعدها بقليل توجه نحو موجي والتي أرسل منها كميات كبيرة من الذرة إلى اللادو. لكنه لم يتأكد تماماً من مغادرة كرم الله للمديرية إلا بعد أن ذهب إلى لاهوري. وهنا انضم إليه الكابتن كاساتي وتحركا سوياً نحو دوفيلي، ومنها توجه كاساتي إلى وادلاي ولحقه أمين بعد ذلك ووصلها في العاشر من يولية.

كان قصد أمين من الابتعاد كل البعد عن عاصمته هو أن يعمل على فتح قنوات الصداقة مع كباريقا، لأن دكتور يونكر كان قد فشل في الوصول لأي إتفاق مرض مع أنفينا وكاميسوا* وكان يعلم بأن كباريقا كان ودوداً دائماً معهم، وكان يأمل أن يرسل عن طريقه رسائل إلى يوغندا. لذلك أوفد رسولاً إلى كباريقا يحمل عدة خطابات له ولمسعودي في ٢٢ أغسطس.

والمقتطفات التالية من يوميات أمين تعطي صورة عن الوضع كما هو الآن:

"من المؤكد أن منطقنا صارت الآن خالية من الدناقلة. ولكن: هل تحسن حالنا بذلك؟ ولا أحد يستطيع الجزم بأنهم، ربما، يتركزون الآن في ديم سليمان، ليعودوا في يناير ١٨٨٦م بعد انتهاء موسم الأمطار وبعد أن يزدادون قوة بانضمام كل المتوحشين البقارة لهم. وإذا افترضنا بأنهم لن يعودوا، فنحن لا نزيد علي حفنة من الرجال، ليس معنا إلا كمية ضئيلة من الفخائر، وبدون مؤن، وبدون إتصالات من أي جهة كانت، ووسط الآلاف من الزنوج المتحرشين للقتال والذين إذا ما ثاروا

* كاميسوا هو ابن ريونقا، زعيم تشيفالو، وخليفته.

ضدنا فلن نتمكن من الحصول على أي نجدة من الخرطوم، قلت أم كثرت، إلا إذا ما وصلت خطاباتنا لمصر. لذا علينا أن نبعث بالخطابات مهما كلفنا ذلك من ثمن*.

وفي العشرين من فبراير وصلت جوابات شقية من كباريكا، والذي أبلغ تحياته لأمين وشدد في دعوته له بالحضور لرؤيته. رد عليه أمين بخطاب آخر مصحوباً بالهدايا. وبعد شهر وصل مندوب آخر حاملاً معه تعليمات مشددة للتأكد من أن أمين هذا هو بعينه الذي زاره قبل عدة سنوات. بدا على المندوب التأكد من هذه النقطة، لأنهم سلموه في الحال رسائل وهدايا من كباريكا. احتوت الخطابات على شكاوى مرة من الأتراك، ومع رجاء لأمين ليقوم بقتل كاميسوا وأنفينا لأنهما يسدان الطريق بينه وبين أمين، ثم علي توبيخ لأمين لعدم إخباره منذ زمن طويل بالخطر المحدق به، مما يدل على ضعف شعوره بالصدقة تجاهه.

كانت الهدايا ذات وقع طيب عليهم. وقد أشتملت على ملابس أمريكية ومنايدل وتباكو وقهوة. كانت كلها من الأشياء المترفة، والتي افتقدوها منذ زمن بالإستوائية. وقام أمين بتوزيعها على كبار ضباطه معلقاً على ذلك بقوله: "في هذه الأيام يجب أن تكون جميعاً متساوين".

والآن عودة إلى الأحداث التي جرت في المناطق الشمالية: إذ لم يتم تنفيذ الأوامر بإرسال أعداد من القوات إلى بور. وبعد لأي، وعندما بدأت الحامية التحرك والتوجه إلى لا دو، أنقض عليهم الزنوج وذبحوهم تماماً. ولما سمع ريجان أغا بهذه الكارثة أرسل منتين من الرجال إلى بور وتمكنوا من إستعادة الذخيرة المفقودة ثم توجهوا شمالاً لكنهم هزموا وتشقت شملهم على يد زنوج بحر الزراف وبدون إطلاق أي رصاصة. ولم يصل منهم إلى اللاو سوى ٤٣ رجلاً.

كان الأثر المباشر الذي ترتب على ذلك هو الثورة العارمة لقبيلة الباريا*. وفي الرابع من أكتوبر قامت مجاميع مشتركة من محاربي الباريا والدينكا والشير والنيام نيام بالهجوم على لا دو من كافة الجهات لكن تم صددهم. لكن المدينة حوصرت وصار من الضروري إرسال تعزيزات لنجدها.

وانقطعت الإتصالات بين غندوكرو واللاو وفر معظم الأهالي من الرجاف. وقد يعزي سبب ثورة الباريا لغارات قواد المحطات باللاو والرجاف وغندوكرو، والتي يشنونها لنهب أبقارهم. وقد أضافت الهزيمة التامة للقوات في بور، والمثال الذي أوضحه تصرف الدينكا، الذين أثروا الآن من الذخيرة والبنادق التي غنموها، مزيداً من الوقود إلى اللهب. وصار على الحاميات الشمالية الآن، ورغم تحررهم من هجمات العرب وجموعهم، أن تتعامل مع الإضطرابات المحلية والتي كانت لا تقل خطورة بحال عن تحركات الدناقلة من قبل.

وشرع أمين، بعد أن رسخ وشائج الصداقة مع كباريكا، في وصف أحواله في رسائل عديدة موجهة لقناصل الدول في زنجبار وأوضح فيها خطورة أوضاعه وآماله في قيام القناصل بالإتصال بالحكومة المصرية ووضعها في الصورة. سلمت الرسائل لمندوبي كباريكا في الأول من نوفمبر مع رجاء إرسالها عن طريق المبشرين في يوغندا. وتوكل أمين للمبشرين ليرسلوا له كل المعلومات الخاصة بالأحداث التي جرت في مصر وفي شمال السودان والتي ظلت مقطوعة عنهم منذ عام ١٨٨٣.

* يقسم أمين بأنشا الباريا إلى ثمانية أقسام كبيرة هي : (١) الباريا (شرق وغرب بحر الجبل). (٢) اللجولو (٣) الكاكوا (٤) المارشيا (٥) نيام براس (٦) ليجي (٧) المنديراي (٨) الشير.

وفي أواخر السنة هوجمت الرجاف هجوماً ضارياً من قبل الباريا والدينكا لكنهم صدوا بعد خسارة ٥٠٠ رجل منهم قتلوا.

واستمر الحصار على اللادو. وأرسل أمين مرة أخرى بأوامر مشددة لحاميتها للإسحاب جنوباً. ولأنه كان مقتنعاً بأن أوامره لن تتفد، فقد أرسل إمداداتاً للرجاف، والتي كانت حاميتها قد صدت بنجاح هجمات الباريا. وشرع أيضاً في الإستعداد لنجدة اللادو.

وفي ٢٣ نوفمبر وصل مندوبون من كباريقا ومعهم سبعة من الصبية مهمتهم الإسراع في نقل الرسائل ظاهرياً ولكن كان الغرض الأصلي منهم هو إفادة كباريقا بكل الأحداث وتوصيل تلك الأخبار له بأسرع ما يمكن. كما أرسل كباريقا أيضاً رسالة مفادها بأن حملة رسائل أمين قد توجهوا بالفعل إلى زنجبار. كانت تلك أنباء طيبة بدون شك وقرر دكتور ينكر الآن أن يحاول الوصول إلى زنجبار عن طريق بلاد كباريقا، أما أمين فقد قرر أن يرسل الصيدلي، فيتا حسن، كمندوب منه إلى ملك أنيورو العظيم. وفي الثاني من يناير ١٨٨٦ غادر ينكر وحسن والداي، على ظهر باخرة، إلى كبيرو على البحيرة حيث سيتوجهان منها براً نحو وجهتهما.

وبنهاية عام ١٨٨٥، كانت مديرية أمين تمتد لحوالي ١٨٠ ميلاً بشكل شريط ضيق يمتد من البحيرة وحتى اللادو، وهي مساحة تقدر بسبع المساحة الأصلية لمديريته قبل نشوب الثورة.

الغزو

ونعود الآن لمشاريع الخليفة لغزو مصر. إذ لم تؤثر الأحداث المثيرة التي جرت في مختلف أنحاء السودان، ورغم خطورتها البالغة، على عزم الخليفة في المضي في مشروعه القديم للزحف شمالاً.

وفي عقول العرب، فهناك دالماً مشروعاً عظيماً يلزمهم. وكما فعل جنرالات الرسول محمد من قبل، لحد ما، فعلى جنرالات المهدي أن يقوموا به، ألا وهو اجتياح كل العالم. كانت النسوة ينشدن الأغاني وكان مضمونها هو: "إلى القاهرة". وبعضهن كن يصفن خيالة القواد الإنجليز: فغردون، كما يؤكد دائماً، هجر جنوده وفر إلى سنار. وكان المهدي قد ترك خطة كبرى للغزو، بخط يده، وما كان تنفيذها ينتظر إلا عودة النجومي من سنار.

ولم يبعد النجومي كثيراً بسنار. إذ أن الحامية التي بقيت بعد تقدمها الكارشي نحو ود مدني قد استسلمت قبل ذلك لعبد الكريم.

وعم الفرح والسرور الجميع عند عودة جيش النجومي المظفر، يوم ١٢ سبتمبر، ومعه أبو قرجة وجبارة، ولم يعد هناك الآن ما يعطل الزحف العظيم نحو الشمال والذي، إن نجح، كان سيثبت ويؤكد صحة مشاريع المهدي الطموحة، ويدعم موقف عبد الله، كخليفة له، ويمحق كل نقد يوجه إليه.

ولقد مضى سيده الآن إلى الجنة وصار يأتي لخليفته المخلص في الرؤى المنامية ويخبره فيها بالنعيم السرمدى الذي ينتظر أتباعه المخلصين بعد وفاتهم. وخطابه إلى محمد الخير، الذي سيرد فيما يلي، هو نموذج مثير للإهتمام:

"من خليفة المهدي، وقائد جيشه، إلى كافة" الأمراء والأتباع الذين تحت إمرة محمد الخير عبد الله خوجلي".

بسم الله الرحمن الرحيم. الخ.

تعلمون يا إخواني بأن المهدي ما جاءنا إلا لإحياء الدين وليبيد أعداء الله والكفرة ويهدي الناس إلى الإيمان بالله وينير قلوبهم بنور اليقين. فأنتم محظوظون لأنكم عشتم تلكم الأيام وانضمتم إلى جيشه.

لقد شاهدتم نبذه للعالم وتطلعه للنعيم الآخرة وكنتم العقلاء حينما بابهتموه وحاربتم معه أعداء الله نصرته للدين. والله يسر بهذا وبأولئك الذين يضحون بأرواحهم في هذا السبيل..... فالجنة هي نصيب الشهداء والذين سينعمون بصحبة الملائكة ولن يعانون مرة أخرى من الفقر والحاجة أو من البؤس والضعف والأحزان أو أرذل العمر وسيعيشون في النعيم السرمدى..... فإذا فهمتم هذا يا إخواني فأني أريد منكم أن تنهضوا وتضموا صفوفكم لمقاتلة أعداء الله. حاربوا في سبيل دينه على هذه الأرض. ولهذا الغرض فإن صاحبنا محمد الخير في طريقه

* النقط..... هي أوصاف نعيم الجنة. والخطاب تم إختصاره ما عدا الفقرات التي لها أهمية خاصة (المعرب).

لندقلا وعلكم الإضمم إليه والتوجه معه بدون تأخير أو أذار إذا ما كنتم مؤمنين بالله ورسوله ومهديه وخليفته.

إنني أعلم حماسكم لدين الله. أنشطوا وتقدموا باسم الله. وقد أمركم المهدي لمتابعة الخير والتوجه معه إلى المكان الذي يشير إليه ولا تترددوا وتجنبوا العصيان وقاتلوا معه أعداء الله بعزم وتصميم. كان الله معكم جميعاً. آمين."

والتالي منشور مثير للاهتمام:

"يا أحببي: أعبدوا الله وفكروا دائماً في الحرب المقدسة ولا تفكروا في الدنيا الفانية، بل فقط في الآخرة. وواظبوا على قراءة الراتب صباحاً ومساءً. فلقد رأيت الرسول وقام بتقبلي على وجهي وخدي وفي وأخبرني بسروره مني ومن أتباعي وأمرني بنصح أصحابي بالمواظبة على الصلاة وتلاوة الراتب وعدم الالتفات للكاذبين الذين يحسدوننا على صلواتنا وتلاوتنا ثم قال لي: أرسل إلى النجومي وأخبره بهذا وبأن يأمر أتباعه بالمواظبة على الصلاة والراتب حتى يكونوا مثلاً يحتذي للجميع".

في هذه الفترة لم تلق نداءات اللورد وولسلي للسماح له بتدمير المهدي بالخرطوم أنناً صاغية. فقد قررت الحكومة نهائياً إخلاء السودان وصدرت الأوامر بإتسحاب قوات حملة النيل واتي مكنت، بعد عودة طابوري الصحراء والنهر، بمروي وتاتي والدبة وكورتى ودنقلا لحوالي ثلاثة شهور.

صدرت الأوامر. ولكن ليس قبل أن يتبأ اللورد وولسلي في رسالة له بتاريخ ١٦ / ٤ / ١٨٨٥، بأنه لو تم إخلاء مديرية دنقلا: "فإن علينا أن نقوم بسلسلة من العمليات على الحدود، مرفقة للقوات ومزعجة لها، ومكلفة لنا في الرجال والمال..... وفي النهاية فإن علينا أن نواجه جيشاً لجباً على حدودنا".

وبينما أسرعت عمليات إخلاء دنقلا، فقد ترددت الحكومة الجديدة لبعض الوقت حول إذا كان من الحكمة التخلي عن هذه المديرية الغنية والتي كانت، منذ الإستيلاء عليها، مصدراً لجلب الإيرادات لمصر. ولكن السير ردفيرس بولر، الذي كان قائداً لطابور النهر، أبلغ بأن المؤن والمعدات والذخائر الحربية قد تم إرسالها بالفعل للشمال وإته من الضروري أن يتم تنظيم قوة جديدة للدفاع عن المديرية ضد العدو الذي بدأ زحفه الآن عليها. لذلك تقرر الاستمرار في التراجع وأن يتم الوقوف جنوبي حلفا، حسبما كان ذلك ضرورياً، بغرض حماية خط السكة الحديد الذي يمتد من حلفا إلى عكاشة على ضفة النيل الشرقية.

غارت آخر القوات البريطانية دنقلا، متجهة شمالاً، تحت قيادة الجنرال برا براكنبري وبذلك سحبت الحماية البريطانية من ذلك المكان في ١٥ يونيو ١٨٨٥.

إنحلت حملة النيل. وحل محلها قوة مشتركة من القوات الإنجليزية والمصرية، سميت (بقوات الحدود الميدانية) واتخذت من أسوان رناستها، بقيادة الميجر جنرال قرنفل. أما البريقادير جنرال بتلر فتسلم قيادة اللواء المتقدم في وادي حلفا، مع نقاط خارجية تمتد جنوباً حتى كوشة،

على بعد ٤٢ ميل جنوب نهاية خط السكة الحديد في عكاشة. وأثناء العمليات التالية التي جرت، وقع عبء المسؤولية على هذا الضابط والذي كان، نتيجة للتصرفات الحريصة الممتازة التي قام بها، أن توقف المد المنذفع للعدو، وتوفر له الوقت لتركيز القوات والتي ألحقت، بعد ذلك بقليل، ضربة قاصمة بجموع العرب.

وربما لا يفهم السبب في إختيار موقع بعيد كهذا في كوشة ليكون محطة خارجية. ولكن إذا نظرنا للطبيعة الخاصة بهذه المنطقة فسنجد أن هذا الإختيار كان ضرورياً.

فقد تقرر أن تتم حماية خط السكة الحديد. وكانت عكاشة، وهي نهاية الخط، موقعاً عسكرياً مستحيلاً. فالجبال تحيط بها من كافة جوانبها وبالتالي كان الدفاع عنها متعذراً. ومن عكاشة، ولحوالي أربعين ميلاً، نجد أن المنطقة عبارة عن كتل من الأحجار المتناثرة والجبال المتفرقة والتي استحقت اسمها (بطن الحجر). لذلك وقع الإختيار على كوشة كأول محطة تشرف على منطقة مفتوحة. فهي تسيطر على النيل شمالاً وجنوباً ولذلك أنشئت بها قلعة قوية من الطين تمركزت بها قوات الكامبيرون هايلاندرز مع قسم من الكتيبة السودانية التاسعة.

ونعود الآن إلى العرب. فقد استوعبت ودرست الخطة التي وضع ملامحها محمد أحمد لغزو مصر. وكان المهدي قد أعلن عن خطة التقدم نحوها في أوامره يوم ٢٦ / مايو ١٨٨٥. تتلخص الخطة بتقدم طابورين نهريين وثالث صحراوي (ويستحق اللورد وولسلي التحية لتفانيه خطته). وكان علي عبد الماجد ومحمد الخير حصار حامية حلفا وعزلها وبعد ذلك كان علي ود النجومي انزحف على مصر والإستيلاء عليها. أما طابور الصحراء، والذي لم يتم تحديد قائده أبداً، فكان عليه أن يتقدم من أبو حمد نحو كروسكو وأن يعاون النجومي في غزوه لمصر.

كانت تلك ملامح الخطة التي وضعها المهدي قبل موته والتي شرع خليفته بإصرار، محاولة بعد أخرى، على تنفيذها. ولكن مرت أربعة سنوات قبل أن يتمكن الأمير الشهير النجومي من اختراق الحدود المصرية والتقدم لمسافة ستين ميلاً داخلها وقد ملأه التصميم الأعصى لتنفيذ مشيئة سيده الراحل.

ويعزي لوفاء المهدي إنخفاض حدة التعصب لدي المهديين لدرجة ما. ولكن السبب الأساسي كان يرجع لوفرة المؤن، ومحاولات الخليفة للتصالح والتي رأى الآن أن من حسن السياسة إتباعها في الأراضي الجديدة التي أصبحت في حوزته. لكن بدأت الغيرة تتشب بين القادة. فمحمد الخير والنجومي لن يعملوا سوياً وربما كان لوجود أموال ضخمة، لا يحوزها أي من الأفراد ذوي النفوذ، أثر على مخططاتهم.

فقد ترك غردون في بربر، مثلاً، ٥٥٠٠٠ جنيه. وعند سقوط تلك المدينة تسلم محمد الخير ذلك المبلغ وكان كارهاً لإرساله للخرطوم، للمهدي. واحتج بأنه طبقاً للسوابق فإن الذين احتلوا المدينة يستحقون أربعة أخماس الغنائم وأن يرسل لبيت المال الخمس الباقي. لكن المهدي كان يرى غير ذلك واضطر محمد الخير لإرسال عشرين ألف جنيه إلى أم درمان. أما ما حدث لباقي المبلغ فلم يتم التأكيد عليه، على الرغم من الإعتقاد الشائع بأن محمد الخير احتفظ بجزء كبير منه.

ومن المؤكد أن قليلاً من ذلك المال، أو لاشئ منه على الإطلاق، هو الذي وصل للمقاتلين. وعندما مر عبد الماجد ببربر، وهو في طريقه لدنقلا، دخل في مناقشات واسعة مع محمد الخير خاصة بكيفية التصرف في مبلغ ٦٨٠٠٠ ريال كانت مودعة في بيت المال ببربر. ووصل عبد الماجد لدنقلا يوم ٢٦ أغسطس لكن محمد الخير بقي في بربر لبعض الوقت ولم يصل إلى الدبة إلا في السادس من أكتوبر.

وبارح ود النجومي أم درمان في ٢٦ نوفمبر وأخذ في جمع التعزيزات ووصل ببربر في العشرين من ديسمبر. هذا وقد أنضمت فرقة من كردفان، تحت قيادة مرغني سوار الذهب، إلى قوات عبد الماجد.

ومن دنقلا، أخذ التيار غير المنتظم من الأنصار طريقه شمالاً على طول ضفة النهر، بينما تجمع قسم آخر في أبو حمد، أما محمد الخير، مع قوة كبيرة، فتبعهم في المؤخرة. وواجهت القوة الصحراوية المتجهة من أبي حمد نحو كروسكو عقبة كلود، ألا وهي مدى ولاء شيوخ العبيادة لهم. فقبل حين من الزمن كانوا قد حملوا مسئولية سلامة الجناح الشرقي. ورغم أن علاقاتهم مع العرب كانت غالباً مصدر تساؤل، إلا أنه لا شك، وفي ضوء الأحداث التي تلت، بأن المحصلة النهائية لنشاطهم كان في منع التحركات المعادية، على نطاق واسع، التي جرت في الصحراء من عرب أبو حمد.

...

وكانت عدة اقتراحات قد قدمت من قبل لتأسيس نوع من الحكومات المحلية بعد مغادرة البريطانيين لدنقلا. لكنها فشلت كلها واحدة بعد الأخرى.

وكان أحد أهم الزعماء الوراثيين، وهو الملك طمبل بجزيرة أرقو، قد عين مديراً مع سعيد أغا في الدبة، وعين الشيخ محبوب إدريس علي إقليم السكوت والمحس ليقوم بدعوه ومساندته. ولكن كان من الواضح أن هؤلاء الرجال لن يتمكنوا من الصمود أمام تقدم العرب. وبالتالي انحصر دورهم في الحكم حتى وصول قوات المهدية لهم. ولم يتردد سعيد أغا في الانضمام للمهدويين. أما الباقين من الحكام فكان حالهم يدعو للثاء ويزداد سوءاً كلما قارب العرب الإطباق عليهم.

وعندما وصل الأمراء شرعوا في تجنيد الأهالي فكانوا يأخذون من كل ساقية رجلاً أو اثنين. لكنهم لم يسيئوا معاملتهم لأنهم كانوا مصدرراً للمؤن وللمعلومات.

وفر الملك طمبل مع خشم الموس باشا، الذي كان حاكماً على أقصى الجزء الجنوبي لإقليم دنقلا، إلى عكاشة تاركين محبوب محتفظاً بالمنطقة حتى حنك جنوباً. كان ولاء هذا الشيخ يمثل نقطة مضيئة وسط جموع الدناقلة المتذبذبين. فقد أتحد من سلالة العباسيين وكان والده شيخاً شديد النهاية والتوقير، وكان أيضاً من كبار الأعضاء في الطائفة الميرغنية.

وقد استطاع محبوب من المحافظة على ولاء إقليمه كله. ولم يستسلم إلى عندما حاصر العرب منزله بالفعل. أخذ أسيراً إلى أم درمان حيث أدت المعاملة القاسية التي تلقاها إلى وفاته بعد وقت قصير.

وكان وضع زعماء وشيوخ المناطق النهرية، بين المحطات الحكومية وقرى العرب المتقدمة، وضعاً صعباً للغاية وأخذت الاتهامات تتطاير من كل مكان وامتلأ الجو بالتجسس والتجسس المضاد وبلغت الإشاعات ذروتها. وقد وصل مندوبو العرب للشمال وأصاب الهلع سكان أسوان عندما وصلتهم إشاعة بأن الحدود سيتم تغييرها من حلفا إلى أسوان، وبأن الإنجليز في سبيلهم لمغادرة مصر نظراً لنشوب ثورة ضدهم في الهند*.

وإنشغلت قوات الحدود بالاستعداد لمقابلة الهجوم الوشيك عليها. وتم توزيع القوات المقاتلة كما يلي حتى السابع والعشرين من نوفمبر:

المنطقة	بريطانيون*	مصريون
كوشة	٦٠٠	٣٠٠
مقراكة		٢٦٦
سرجمتو ودال**		٢٠٠
عكاشة	٦٠٠	٣٥٠
حلفا	٥٠٠	٣٥٠

هذا بجانب فصائل صغيرة في طريق تنجور وأم بكول (الآبار) وآبار المرات وفي سرس. وفي ٢٩ نوفمبر تمت لأول مرة مشاهدة العدو المتقدم، بواسطة الكابتن هنتر، ضابط استخبارات القوات، والذي أبقى بأن في الوسع مشاهدة مشاة العرب بأعداد ضخمة علي قمم الجبال علي الشرق من العمارة***. وفي اليوم التالي تبادلت الباخرة المدرعة لوتس النيران معهم. وجرت أول محاولة (لقطع) خطوط الإمداد في آبار أم بكول، وهي محطة صحراوية علي طريق السكة الحديد وتبعد عن عكاشة بعشرين ميلاً شمالاً. فقد قامت فرقة من العرب، بقيادة الأمير الزين، محمولين علي الخيول والإبل، ومعهم بعض المشاة ومدفع واحد، بمغادرة العمارة يوم ٢٩ نوفمبر بعد أن دمروا ميلاً من خطوط السكة الحديدية.

وهاجموا في الثاني من ديسمبر نقطة أم بكول والتي كانت بها حامية من ثلاثين رجلاً تحت قيادة الكابتن فريير، من المهندسين الملكيين، والمكونة من جماعات من كتائب بيركشير ووست كنت تحت قيادة الملازمين فيتون وأنسلي. تم طردهم متكبدين بعض الخسائر. لكنهم عاودوا الهجوم في اليوم التالي وحطموا قسماً من الخط الشمالي. وتجدد الهجوم مرة أخرى في الرابع من الشهر، وكان البريطانيون قد أفلحوا في الفترات ما بين الهجمة والأخرى في إقامة سائر قوي ليحمي مدخل الخندق وشنوا عدة هجمات بدورهم، ووسط نيران متبادلة أفلحوا في إحضار معدات التلغراف والنخائر والأغطية وغيرها وإدخالها في الحصن. كما نجحت في الدخول إلى الحصن

* انظر الكتاب الأزرق لعام ١٨٨٦ - تقرير المخابرات.

** تفاصيل القوات البريطانية سنتاني في الكروي المرفق والذي يوضح نظام تحركها في جنس

سرجمتو في الضفة المقابلة لدال.

*** علي الشرق من ساقية العبد.

دورية من الهجانة المصرية بقيادة الملازم سعيد رضوان ومشاة راكبة بقيادة الملازم دلسلي. وكان لهذا المدد، إضافة لوصول قطار من حلفاء، في الوقت المناسب، يحمل جنوداً، مع طلّاع لقوة كبيرة تحت قيادة الجنرال بتلر، دوراً في دفع المحاصرين للانسحاب والتراجع وساد الارتياح العظيم رجال تلك الحامية الصغيرة والتي صمدت لثلاثة أيام بشجاعة أمام عدو جاءهم بأعداد ضخمة.

في نفس الوقت قامت الباخرة لوتس بعمل طيب، وبالتعاون مع القوات الراكبة أرقّوا العدو، والذي كان في تلك الفترة قد احتل بالقوة قري جنس وكوشة.

وفي فجر الثاني عشر من الشهر قامت مجموعة من العرب، بقيادة الأمير الكردفاني سوار الذهب، بالاستدارة حول قلعة كوشة وهاجمت قلعة مقراة من الشمال. وهنا قام الكابتن بيسانت، وكانت تحت إمرته قوة من الكتيبة الثالثة من الجيش المصري قدرها ٢٠٠ رجل، بمواجهة الموقف، وقام بعدة هجمات مضادة على العرب ووصل حتى مسافة أربعين ياردة من موقعهم وأصابهم ببعض الخسائر.

وأثناء هذا الهجوم قام الأمير الزين بغارة على قرية فرکه واستولى على بعض الماشية والمال منها تم انسحب منها أثناء الليل.

وبينما تم إرهاب خطوط الاتصال وشل فاعليتها فإن العدو، على الجانب الآخر، كان يزداد قوة في كوشة وتتوالى عليه الأمداد وأصبحت قلعة كوشة الآن محاصرة تماماً من ناحيتها الجنوبية.

وهنا لابد من إشارة لمعالم هذه المنطقة، حتى يتسنى لنا معرفة الوضع فيها. فمن قرية جنس وحتى مسافة قصيرة من قلعة كوشة يوجد شريط ضيق من المزروعات يمتد بطول الضفة الشرقية للنيل وتكثر فيه أشجار النخيل. وعلى هذا الشريط الضيق، وخاصة بالقرب من النيل، نجد صفوفاً طويلة من المنازل الطينية المتينة منفصلة عن بعضها البعض غالباً ولكن في بعض أحيائها نجدها ملتصقة ببعضها بكثافة، مع بعض المنافذ، مما يعطي مظهراً لقرية من قري التيه القديمة.

صارت قرية كوشة الآن في أيدي العدو تماماً. ورغم أن الأرض الواقعة جنوب القلعة مباشرة قد نظفت لمسافة ٥٠٠ ياردة، إلا أن هذا لم يمنع العدو من احتلال صخرة عظيمة سوداء اللون بارزة من طرف الشاطئ الأمامي. ومن هذه الصخرة أخذ العدو يصب نيراناً متصلة على القلعة. ولولا متانة بنائها، والحواجز والمصدات القوية، التي لا حصر لها، والتي أقيمت فيها لكائنات الخسائر، طوال شهر الحصار، جسيمة جداً. وبالقرب من الصخرة عملت مجموعة متشابهة من أشجار النخيل على إعطاء العدو وقناصيه تغطية ممتازة مما مكنه من إلحاق الخسائر يومياً على من بالقلعة. وفي اليوم الخامس عشر من ديسمبر كانت النيران المنصبة من الصخرة السوداء ومن أجمة النخيل رهيبة على غير العادة لدرجة أضطر فيها اللفتات كولوئيل إفريت، مع مجموعة من جنود وضباط الكامبيرون هايلاندز، للقيام بغارة مفاجئة على العدو تمكنوا فيها من طعن أربعة عشر رجلاً منهم بالسناكي، ولكن بعد أن خسروا خسارة فادحة بمجرع الملازم كامبيرون جراحاً قاتلة وكذلك الكابتن هنتر كما جرح الميجر كالمرز جرحاً خفيفاً وقتل جندي وجرح ثلاثة آخرين.

وبدا خلال ذلك تعزيز ودعم كل المحطات بسرعة ووصل الجنرال قرنفل إلى وادي حلفا في الرابع من ديسمبر ولحقه في التاسع عشر من الشهر الجنرال السير ف. ستيفنسون، القائد الأعلى للقوات بمصر، والذي كان الجنرال قرنفل رئيساً لهيئة الأركان لها.

ثم صارت نيران مدافع العدو أكثر دقة. ومن العشرين من ديسمبر اخترقت قذيفة من مدفعهم أحد مزاغل قلعة كوشة وانتزعت مدفع قاردنر من مكانه وأصاب الصاع حسن رضوان بجراح بالغة كما جرحت شاوليشاً بريطانياً وجندي آخر من الكمرون هايلاندرز.

وفي الثاني والعشرين من ديسمبر قام الجنرال بتلر ومعه ثلثة من المشاة الراكبة وفصيل من الهجاة المصريين وآخر من فرقة الهوسار العشرين بجولة استكشافية من مراقبة باتجاه جنس للتأكد من مواقع العدو ومدى قوته. وقبل أن يصلوا للأرض المرتفعة تقدم العدو من جنس بقوة وتحولت العملية الاستكشافية إلى قتال بينهم. كانت خسائر الجنرال بتلر خفيفة جداً لكن العدو تكبد خمسة قتلى كان من بينهم أمير مهم من كردفان يسمى بدوي الأرقى، والذي كان يحظى، كما تأكد لاحقاً، باحترام كبير وسط العرب لما أشتهر به من شجاعة خارقة. فقد قام بمفرده، متقدماً أمام فريقه من الفرسان، بالهجوم ونجح في الاقتراب من المشاة الراكبة قبل أن يصيبه الرصاص فسي مقتل. وقد غنم حصانه.

واتخذت كافة الترتيبات الآن للقيام بضربة موجعة للعرب، والذين ارتفعت معنوياتهم للسهولة التي واكبت تقدمهم حتى الآن. فقد قاموا بجسارة بدفع قواتهم المتقدمة شمالاً من قرية جنس والتي كانت رئاسة قواتهم الرئيسية. وفي نفس الوقت قام ١٠٠٠ رجل منهم، مع مدفع واحد، بتهديد الزريبة الواقعة على الضفة الغربية والتي كان يسيطر عليها قسم من الكتيبة السودانية التاسعة والمصرية الثالثة. ولم يكن العرب على علم بالهجوم الذي يوشك أن يقع عليهم، كما كان أمراؤهم قد أكدوا لهم بأن الأعداد الواردة يومياً، من جمال الحمل والنقل للمواقع الحكومية، ما هي إلا للاستعداد للتراجع والإسحاب.

وفي التاسع والعشرين من ديسمبر تقدم اللفتانت جنرال سير ف. ستيفنسون، والميجر جنرال قرنفل، وأركان حربهما من فرقة إلى كوشة واتخذوا معسكراً لهم على الضفة الشرقية. أسفل قلعة كوشة، حيث تجمعت كل قواتهم المقاتلة وكالاتي:

القوات الراكبة:

القائد: لفتانت كولونيل بليك، من الهوسار العشرين ضابط الأركان: الكابتن إي. أر. كورتني، من الهوسار العشرين. المشاة البريطانية الراكبة: القائد اللفتانت كولونيل س. بارو. الهجاة البريطانية: القائد الكابتن مونسل من وست كنت. الخيالة المصرية: القائد الصاع بكر كامل. الهجاة المصرية: القائد الملازم ماريوت

المدفعية:

القائد: اللفتانت كولونيل هيربرت، من المدفعية الملكية ملازمه: الملازم وار، من المدفعية الملكية. البطارية نمرة (٢)، اللواء الأول، قسم ساوث أبرش، المدفعية الملكية - والميجر

واتلي من المدفعية الملكية. البطارية المصرية التي تجرها الجمال: الميجر وود هاوس. مدافع القارندر: الملازم ميرسر من فوج يوركشير.

المهندسون:

الميجر هير، قائد المهندسين الملكيين، قسم قوات الحدود الميدانية، الفرقة الحادية عشر ومعه الكابتن بلاكيرن.

لواء المشاة الأول:

القائد: البريجادير جنرال بتلر

ضابط اللواء: لفتنانت كولونيل كروفتون، من فوج ساوث ستافوردشير. ضابط الأركان: الملازم دونبي، من فوج ساوث ستافوردشير كتيبة بيركشير: الميجر تمبل. كتيبة وست كنت لفتنانت كولونيل تويدي.

كتيبة درم: كولونيل كوكر

لواء المشاة الثاني:

القائد: الكولونيل هويش، من فوج بيركشير. ميجر اللواء: الميجر دكسون، من فوج بيركشير. الضابط المعاون: الملازم فيثام، من فوج بيركشير.

الكمرون هايلاندرز: لفتنانت كولونيل إفريت، في قلعة كوشة. كتيبة يوركشير: لفتنانت كولونيل بنيت. فصيل من الكتيبة الأولى، من الجيش المصري. فصيل من الكتيبة التاسعة، من الجيش المصري. السلاح الطبي الإنجليزي: الجراح الميجر بارو القوات المصرية:

القائد: الميجر وودهاوس

ضابط الأركان: الكابتن سمث دورين

السلاح الطبي المصري: الجراح كيتنج

من قلعة كوشة: الكولونيل سانت ليجر، من الكامبيرون هايلاندرز.

من قلعة مقراة: الكابتن تاب

من قلعة فركة: الملازم أور، من فوج يوركشير

زريبة بورو: الملازم جب

قائد الباخرة لوتس: الميجر لويد

وفي يومي ٢٨ و ٢٩ (ديسمبر) شرعت المدفعية في القصف المتواصل لموقع العدو. وفي الخامسة من صباح الثلاثين من الشهر بدأت كل القوات في التحرك مثلما يوضح الكروكي المرفق.

وتتلخص خطة الهجوم، باختصار، كما يلي:

يتسلك اللواء الثاني المرتفعات المطلّة على جنس. وباستخدام المدفعية ونيران البنادق يقوم اللواء بالتمهيد لهجوم الكامبيرون هايلاندرز والكتيبة السودانية التاسعة على الطرف الشمالي من قرية جنس.

ويقوم اللواء الأول بالانحدار من حول الطرف الجنوبي للقرية ويهاجم معسكر العدو. أما الفرسان والقوات الراكبة فعليها حراسة الجناح الأيسر للوامين وأن تندفع جنوباً عندما يستمر احتلال القرية والمعسكر.

وسيكون تحرك القوات على النحو التالي مفصلاً:

فالقوات الراكبة، المكونة من الهوسار العشرين، والمشاة الراكبة، والفرسان المصريين والهجاة المصريين، ستزحف خلف لواء المشاة الأول، ومن ثم تتحول شرقاً مستطلعة المنطقة خلال التقدم للقوات.

ويقوم الهجاة البريطانيون بدعم اللواء الثاني ويظل قريباً منه.

أما الهجوم على جنس فيقوم به اللواء الأول مع دعم بطاريات المدفعية المصرية والهجاة المصريين.

ويقوم لواء المشاة الثاني، مع المدفعية المصرية، بالهجوم في اللحظة الأولى على موقع العدو بين قلعتي كوشة وجنس.

أما كتيبة اليوركشير والكتيبة الأولى للجيش المصري فعليهما التكيف والتوافق مع تحركات بطارية المدفعية اللولبية، بينما تقوم ستة أفواج من الكمرون هايلاندرز وفوجين من الكتيبة التاسعة السودانية بالتقدم بحذاء النهر لتحتل قرية كوشة والتي يفترض أن يكون قد تم قصفها ببطاريات المدفعية اللولبية.

وتقوم الباخرة المدرعة لوتس بالإبحار ببطء أمام الكمرون (هايلاندرز) وتطلق نيرانها على الشاطئ والشاطئ الأمامي.

وخلال ضوء النهار اتخذ اللواء الثاني موقعاً قوياً يبعد بمسافة ١٢٠٠ ياردة من، ومقابل، قرية كوشة. وفي تمام الساعة السادسة وعشرة دقائق صباحاً بدأت المدفعية الإنجليزية في قصف القرية. وبعد ربع ساعة من ذلك اندفعت قوات الكمرون هايلاندرز وفصيلين من الكتيبة السودانية التاسعة نحو المنازل بشجاعة متناهية. وتم الإستيلاء على هذه القرية في الساعة إلا عشرة دقائق صباحاً كما تم الإستيلاء على مدفع نحاسي.

وتعاونت الباخرة لوتس في هذه العملية وأوقعت خسائر كبيرة بالعرب المتراجعين.

وفي هذه الأثناء قام اللواء الأول، بقيادة الجنرال بتلر، الذي يعرف المنطقة جيداً، بالتقدم في الصحراء المليئة بالحجارة والتلال، بعد أن وقع اختياره على قمة جبل بارز، بدافي الأفق، كخط لتقدمه. وعندما طلع النهار كان اللواء قد وصل إلى موقع بالجبال على بعد ميل جنوبي النهر وميل ونصف على الجنوب الشرقي للطرف الغربي لقرية جنس، والتي كانت بمثابة رئاسة للعدو.

وحتى ذلك الوقت لم يتم إكتشاف تقدم القوات على جناح العدو. ولكن عندما أصبح الأفق الشرقي يور بالضياء من وراء القوات المتقدمة قام العرب، بعد أن علموا بأنهم فوجئوا بالهجوم، بالاندفاع في صفوف طويلة كثيفة من القرى والأراضي المنخفضة على طول الشاطئ متوجهين للأمام. وسرعان ما إصطفت الألوية وقام حملة البنادق بفتح نيران غير منتظمة لحوالي أربعين دقيقة.

وخلال ذلك بدأت المدفعية المصرية بالاشتراك في العملية من الجانب الأيمن بينما انتشرت قوات البيركشير إلى اليسار متقدمة بحوالي ٢٠٠ ياردة أمام المدافع. أما مشاة درم الخفيفة فقد مدت خطوطها بعيداً إلى اليسار واحتلت قوات وست كنت موقعها على الجانب الأيمن من المدافع، والهجاة المصريون على يسار مشاة درم الخفيفة. وعندما تطور هجوم العرب تم تحويل قوات الوست كنت إلى الجناح الأيسر لمشاة درم، وواكبت الخيالة التحركات العامة على مسافة من الجناح الأيسر للمشاة.

ورغم قوة النيران، إلا أنها لم توقف العدو. فقد قام عدد كبير من حملة الرماح، بعد أن زحفوا بخفية خلال خور عميق أمام خطوط المشاة، بالإدفاع فجأة نحو جدول منخفض كانت تتركز فيه قوات الهجاة المصرية المترجلين. كان اندفاع الحرابية سريعاً لدرجة أن الصاكر لم يتمكنوا من أمتطاء جمالهم وأجبروا على التراجع ببطء أمام العرب، الذين ضغطوا عليهم بشدة وجرت بينهم عدة اشتباكات يداً بيد.

لكن عدداً من رجال العدو أصيبوا بالرصاص من القوات التي كانت على يمين الهجاة ومن فصيل وست كنت على اليسار وتفرق باقي العرب وانتشروا بين الجبال. استدار اللواء إلى اليسار واتجه نحو قرية جنس. وأمام تقدمهم هجر العرب قمة بعد قمة رغم عدة محاولات منهم للصمود إلا أنها فشلت كلها. وأثناء ذلك إندفع العرب خارجين من القرية باتجاه الجنوب نحو عطب. وفي تمام التاسعة والربع صباحاً تم إحتلال جنس بينما قامت القوات الراكبة بمتابعة العدو المتراجع بطول الضفة النهر. ووصل اللواء الثاني، الذي واصل تقدمه نحو جنس، إليها بعد ربع ساعة من وصول اللواء الأول. واستمرت المطاردة حتى العاشرة صباحاً ويعدّها تحول جيش العرب إلى مجاميع من الهاريين. تم احتلال معسكرهم والاستيلاء على خزائنتهم وعلى أربعة مدافع وعشرين راية، كلها سقطت في أيدي القوات البريطانية والمصرية.

وتظاهرت قوات العرب على الضفة الغربية بأنها تهاجم القلعة لكنهم عندما لاحظوا الإسحاب من جانب الضفة الشرقية تراجعوا بدورهم بينما طاردتهم حامية القلعة ودمرت بطارياتهم وخنادقهم.

ووصف الجنرال قرنفل، في تقديره للسير ف. ستيفنسون:

"أن سلوك كل الرتب، خلال المعارك، كان راسخاً. وكان أداء القوات المصرية كلها

جدير بالثناء".

ويجدر القول بأن حالة من الإخاء الرفاقي قد برزت بين الكمرون هايلاندرز والكتيبة السودانية التاسعة والتي تم التعبير عنها بأن قلم الأولون بإهداء الأخيرين علماً نقشت فيه كلمة (جنس) وكانوا يرفعونها دائماً عند قيامهم بالاستعراض جنباً إلى جنب مع علم الخديوي.

وفي نفس اليوم تقدم اللواء الأول نحو عطب* بينما واصل الخيالة مطاردة العدو حتى عبري**. وفي اليوم التالي أحتل لواء الجنرال بتلر عبري. ومن هنا قامت الباخرة اللوتس،

* على بعد خمسة أميال غرب جنس.

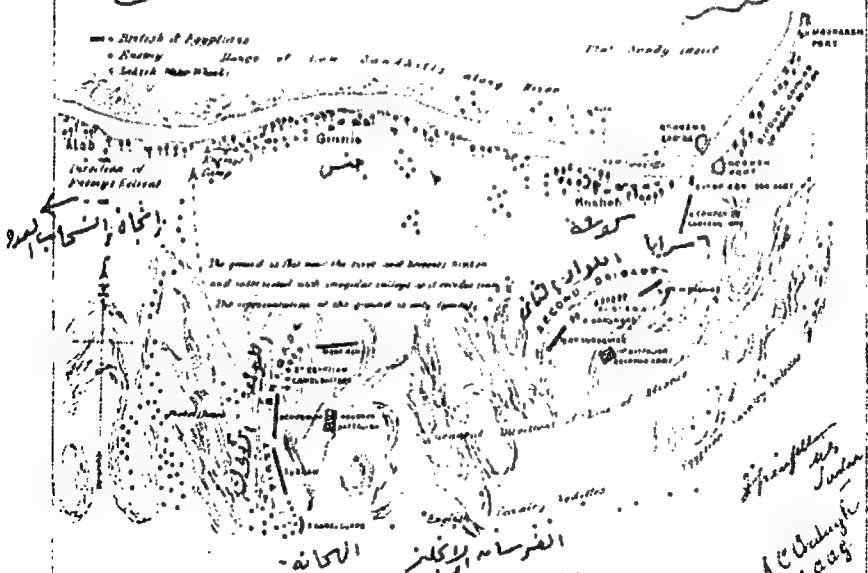
** في مقابلة صافية العيد.

بمساعدة من الخيالة المصرية والإنجليزية بقيادة الكابتن سمث دورين، بمواصلة المطاردة جنوباً حتى أسيرات*** واستولوا على تسعة مراكب كبيرة ورايتين ومجموعة متنوعة من الغنائم. بلغت جملة الخسائر المصرية والبريطانية سبعة من القتلى، من بينهم ضابط واعد شاب هو الملازم سولتاو، وأربعة وثلاثين من الجرحى. وعلم بعد وقت قصير أن جماعة صغيرة من العدو لا تزال تحتل منزلاً في قرية كوشة، والتي كلف إحتلالها قبل ذلك حياة ضابط مصري. ورغم تكرار النداءات لهم بالخروج إلا أن الجماعة رفضت الخضوع حتى تم إحضار المدافع وقصف المنزل وتم قتلهم جميعاً. يقدر عدد القوات العربية التي اشتبكت (مع قوات الحكومة) بحوالي ٦٠٠٠ رجل قتل منهم نحو ٥٠٠ وجرح ٣٠٠. وقد جرح الأمير عبد الماجد، قائلدهم، بينما قتل نائبه عبد المجيد (عبد) الخالق، إضافة لثمانية عشرة من الزعماء. أما بقية القوات التي تم تشتيتها فقد تجمعت في كرمة حيث كان الأمير محمد الخير في انتظار تعزيزات من بربر والتي لم يتمكن النجومي، أو لم يرد، من إرسالها له. وقد إبتاب الغضب الشديد عبد الله التعايشي، كما قيل، على عبد الماجد، لدخوله في معركة بدلاً من أن يقوم بحصار قوات الحكومة بكل أسر كما أمره. وكانت معركة جنس ضربة قاسية على الخليفة.

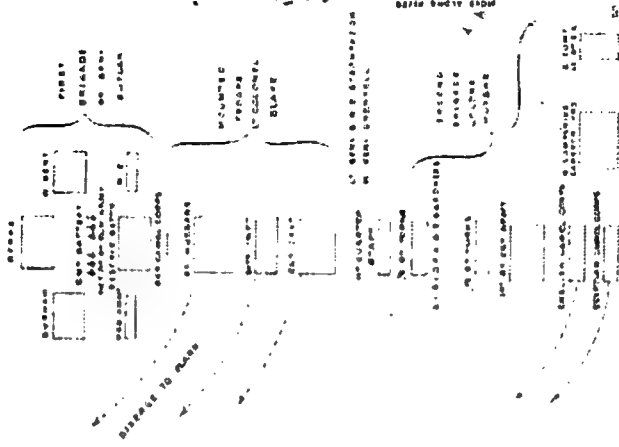
*** مقابل كوشة.

کرکری بومنج موضع الثوات عند البحرى من جنس فر ۱۸۸۵/۱۸۸۶

EYE SKETCH SHOWING POSITION OF TROOPS IN ATTACK ON GINNIS
30th December, 1885



SKETCH SHOWING ORDER OF MARCH
ATTACK UPON GINNIS. 30 12 1885



MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1905

INDIAN OCEAN

القسم التاسع - ٨٨٦ م

الملخص:

وصف محمد الخير لمعركة جنس - لم تتغير خطة العرب للحملة (علي مصر) - القرار باعتبار وادي حلفا حدوداً لمصر - تصبكر القوات المصرية في حلفا - البريطانيون في أسوان - تأثير الإسحاب على خطط الخليفة - النجومي يغادر أم درمان - منشور الخليفة لأهالي مصر - مجلس الأمراء بأم درمان - تعيين الأمراء الأربعة الرئيسيين - خطابات النجومي لعثمان دقنة - الأمير الزين يتقدم شمالاً - بعثة شويدي باشا - الوضع في السودان - عثمان أُرقي قائداً للمحطات الأمامية - توزيع قوات العدو - النور الكنزي يحتل جماي - الجنرال مونتمورنسي يتقدم نحو و إنسحاب العرب لصوردة - قبيلة الكبابيش - شيخ صالح - إتهامه لجناح النجومي - تجميع قبيلته في جبل عين - كردفان - ثورة القبائل العربية ومهاجمتهم أبي عنجة - وصول الأمير زقل للأبيض قادماً من الفاشر - دارفور - أسر مانبو - كرم الله في شكا - الإستوائية، وأمين في وادلاي يتسلم خطابات من مصر - مبررته لعدم إخلاء المديرية - الحرب بين أونبور و يوغندا - أسباب التناحر بين الكتيتيين الأولى والثانية - رأى أمين في الأحداث بمديرته - وصول الدكتور يونكر ليوغندا - سواكن - عثمان دقنة في طماي - إتشقاق الأمراء - تغييرات في قيادة سواكن - عثمان يعمل على إجبار القبائل للخضوع - القبائل المعارضة للمهدية تشرع في محاصرة طماي - عثمان يتسلم أوامر من الخليفة - الوضع في سواكن كما يراه التجار والأعيان - الأمراء يشددون الحصار على طماي - خطاب مندوبي الخليفة لطماي - الهجوم على طماي واحتلالها - العرب الموالين يعملون باتجاه طوكر - لكنهم ينسحبون ثم يتم حلهم - الغيرة بين القبائل وخلافاتهم - عثمان يتوجه لأم درمان - محاولاته لاستتفار الشكرية - الإيطاليون والأحباش - ميناء رارات.

الحدود النيلية عام ١٨٨٦:

وصف محمد الخير موقعة جنس، في خطابه المؤرخ ٤ يناير ١٨٨٦، والذي أرسله للخليفة عبد الله من كرمه. وقال:

"عندما كان جنودك يحاصرون الكفرة في مقراكة، وأرهقهم قواتنا وأتعبتهم، جاءتهم فجأة إمدادات ضخمة للغاية ولم يكن الأحباب الأنصار على علم بهذه الإمدادات. وصباح يوم ٢٣ ربيع الأول الباكر (٣٠ ديسمبر ١٨٨٥) فتح العدو النيران على أحبائنا المجاهدين من كل الاتجاهات. واستمر الضرب لفترة طويلة قتل أثناءها بعض رجالنا كما قتل أيضاً بعض الأعداء.

وقد جاء اليوم بعض رجالنا من مقراكة وذكروا أن هناك عدد كبير من الكفرة، وأن الكفرة قد أصلحوا خط السكة الحديد في وقت قصير مثير للدهشة وقبل وصول هذه الأخبار لي، كنت قد أرسلت عيوناً لكروسكر. وقد وصلوا إلى آبار المرات. وعندما علموا بما حل بقواتنا المحبوبة عادوا وأخبروني بأن الكفرة قد إنتهوا التقدم إلى هذا الجزء من المنطقة في أعداد كبيرة. كتبت اليوم إلى النجومي للحضور في الحال إلينا. أرجو منكم إرسال تعزيزات لنا فوراً قبل وصول

الكفرة، وإتني علي ثقة من أن المؤمنين سيحققون النصر. لكننا إذا تأخرنا فستضيع مننا هذه الفرصة. وقد أخبرت الأجياب الذين حضروا من مقراكة ليطلعوك علي كل ما شاهدوه. الدناقلة لا فائدة منهم ولا يعتمد عليهم، أما الأهالي المحس والسكوت فلا هم يكثرثون بالمهدي ولا بالدين، ولم يقدموا لنا أي مساعدة مهما كانت.

ورغم أن العرب قد تم كبحهم بعد هزيمة جنس، إلا أنهم لم يتخلوا للحظة عن خطتهم الأصلية للغزو. وأخذوا يدفعون بمجاميع صغيرة إلى الشمال. وفي فبراير قاموا بغارة على قرية كوية، وتم تعيين أمير جديد هو الأمير ود الرئيس علي دنقلا، كما تم تحويل قسم من قوات النجومي، تحت قيادة حاج أحمد إلى الضفة الغربية في بربر مع تعليمات لهم للمضي نحو مروي. كما تم تعيين الأمير الكردفاني المولع بالحرب، مرغني سوار الذهب ليحل محل (عبد) الخالق، الزعيم المهزوم في جنس. وبنهاية مارس كان محمد الخير لا يزال بكرمة مع قوة كبيرة موزعة ما بين كرمة ودنقلا أما بقايا جيش جنس فظل في دنقلا العجوز تحت قيادة عثمان أزرق بينما كان معظم قوات الغزو لا يزال ببربر، تحت قيادة النجومي.

وفي هذه الأثناء تقرر نهائياً تثبيت الحدود المصرية في وادي حلفا وتم سحب كل القوات من جنوب حلفا. وصلت القوات إليها في ١٢ أبريل وبحلول السابع من مايو كانت القوات البريطانية التي بقيت قد رحلت إلى كانتونات بأسوان تاركين وادي حلفا لعناية القوات المصرية. وقد علمت أم درمان بهذا الإسحاب في الخامس والعشرين من أبريل عندما كتب محمد الخير إلى مجلس الأمراء المتعقد هناك " بأن الحكومة قد أخلت كل المحطات جنوبي حلفا، وأن الإنجليز قد عادوا لأسوان".

وكانت هذه إشارة البدء لفرح عام وأعطاهم دافعاً جديداً للتحرك نحو الشمال. وكان ود جبارة قد توجه للشمال قبل ذلك بعد أن غادر بربر بقواته. وتم تعيين أمير جديد علي أبوحمدة، وهو الأمير أبو حجل، كما عاد النجومي بعد انقضاء مجلس الأمراء يوم ١٥ مايو مسرعاً إلى بربر. وقد وصف أحد الذين حضروا اجتماع المجلس وصفاً حياً مغادرة النجومي لام درمان فقال:

"حرق النجومي منزله بأم درمان بالنار بعد أن أقسم ألا يعود حتى يغزو مصر. وعند مغادرته استدعي الخليفة الخلفاء الأربعة" وكل الأمراء ومد الجميع أيديهم باتجاه (مصر). القاهرة وهتفوا "الله أكبر" ثلاثة مرات. ثم نادي الخليفة عبد الله بصوت عال: "أيها الأنصار، لا تخافوا من قتال جزيرة مصر. إنكم ستقاسون كثيراً في معركة أسوان، ولكن بعدها ستسقط كل الأراضي المصرية في أيديكم. أيها الأنصار، إنكم ستقاسون أيضاً كثيراً في معركة مكة، وبعدها ستكون كل البلاد لكم".

وأعطيت أوامر لمحمد الخير للبقاء حيث هو حتى يحل محله النجومي، والذي قام الآن بتعيين الأميرين ود جبارة ومكين النور مساعدين له.

* الخلفاء إثنين هما الخليفة - محمد شريف والخليفة علي الحلو (المعرب).

وعقب مغادرة النجومي قام الخليفة بإرسال محررات مكتوبة إلى مصر بأيدي مبعوثين مخصوصين. هذه المحررات كانت معنونة "إلى كل أهالي شمال مصر وجنوبها" وتدعوهم للنهوض كنفس واحدة ضد الترك وكل من نهج نهجهم في عدم الإيمان بالله، وتحثهم على تحطيمهم حتى آخر رجل منهم. فإذا ما قاموا بتنفيذ أوامره فأنهم سيثبتون أنهم حقاً من أتباع المهدي المخلصين، وهو الذي دعي كل الأمم لعباده الله.

ثم استمر في إيضاح أنه ليس بالضرورة أن يعيش المهدي حتى يتسلم زمام القسطنطينية ومكة، فقد مات لأنه كان متشوقاً للقاء الله، مثله مثل النبي الذي توفي قبله. فالرسول كان من المفترض أن يتسلم زمام سوريا وكل أنحاء العالم، لكنه توفي قبل أن يجد الوقت لإكمال هدفه. وبالتالي كان على خلفائه من بعده أن يقوموا بتلك المهمة، وكذلك كان الحال بالنسبة للمهدي، فإن خلفاءه سيكملون مهمته وسيأخذون القسطنطينية ومكة وكل العالم وبالتالي سيخضع كل العالم للمهدي.

واستعان بعدة آيات من القرآن ثم أنهى رسالته بحثهم على تدمير الترك والكفرة بدون أي تأخير.

وكان الخليفة، قبل أن ينفض مجلس الأمراء قد أعلن بحزم تعيين أربعة أمراء: الخير كان أولهم، ومنذ وقت طويل - أميراً للأمراء - وقد تم تفضيله على (رجل الناس) وهو النجومي المنتصر أبداً. لكن كل هذا انتهى الآن. فاستحالة دفع الخير للقيام من بربر وبنقلا، والتي كانت في نظره تابعة له، وفت ضده بشدة. لقد كانت رغبته دائماً أن يحكم قبضته على هاتين المديريتين وأن يقوم النجومي بالذهاب لغزو تلك المناطق بالشمال. تمسك الخير بالنصوص التي جاءت في فرمان المهدي الأصلي (الخاص بتعيينه). لكن تم الآن تعيين النجومي أميراً للأمراء، يليه في المرتبة عثمان دقنة، وكان الثالث حمدان أبو عنجة* ثم جاء الخير رابعاً. وفي هذا المجلس تم تسوية آخر الخلافات المتعلقة (بحقوق ووضع) أبناء محمد أحمد وتم تأكيد خلافة الخليفة عبد الله بكل حزم والذي كان عليه، مع الخليفتين الآخرين ودخلو ومحمد شريف - الصهر الشاب للنبي - العيش والبقاء بأمر برمان.

ولكن حدث مرة أخرى ما أوقف خطة الغزو الجديدة. فقد أصبحت ثورة دارفور أكثر خطورة وهزم محمد الشريف هزيمة قاسية. وقد كتب النجومي من بربر، في أواخر يناير، إلى عثمان دقنة قائلاً بأنه "وصل إلى رباط بربر، حيث أمره الخليفة بالبقاء هناك لمراقبة تحركات الكفرة في كروسكو، ولدعم الأنصار ببنقلا تحت قيادة محمد الخير. وأنه قام بإرسال عيون لتحديد مكان الكفرة بالضبط، وأن هؤلاء عادوا وذكروا أنهم كانوا قد غادروا كروسكو وتوجهوا لأسوان. وهناك علموا بأن الإنجليز وآخرين كانوا قد اشتبكوا مع أنصارنا وأن عدداً من الجانبين قد قتل. وأن الكفرة قد انسحبوا إلى كروسكو وأن الجزء الرئيسي من قواتهم قد رجع إلى أسوان، وأن لديهم بعض القوات في حلفا ودرائو وقتنا وسوماج (المقابلة لأخميم). وكان من بين الذين قتلوا أحد قائدنا (جنرالنا) وهو حسن عثمان الأزرق وبعض القادة الآخرين. وأفاد جواسيسنا أيضاً بأن

* سماه ونجت "حامد أبو عنقر" (المعرب).

السلطان قد أوفد لجنتين للتحقيق في أحداث السودان، وأن الميرغني قد كلف بالتوجه للخرطوم لمقابلة الخليفة، وأنه قد وصل بالفعل إلى أسوان، وأنه الآن في انتظار الأوامر من المجلس المكون من مختار وأحد المفوضين الإنجليز.

ويضيف بقوله بأن حاج علي، أمير بربر ودنقلا، مستعد تماماً لقتال الكفرة، وبأن الإمدادات تصل يومياً إلى بربر بأوامر من الخليفة، وتوقع أيضاً بأن قوات الخرطوم سنضم إليه في بربر. ثم رجال عثمان دفقة إعلانه بتحركات الكفرة في نواحي سواكن". وفي خطاب آخر أخطر النجومي عثمان دفقة بأن:

"الخليفة عبد الله قد أمره بالحضور للخرطوم للمزيد من التعليمات، وأنه بارح مصكره في ١٢ رجب وعندما وصل للخرطوم استقبل استقبالاً طيباً من الجميع. وأنه التقى هناك بخليفة الفاروق وبخليفة الكرار، وأنه سيعود قريباً لبربر ليعمل، حسب أوامر الخليفة، لإعداد جيش لدنقلا لقتال الكفرة. وبخصوص الكفرة أخبره بأنهم كانوا جيشاً من ١٨٠٠٠ رجل تحت قيادة مختار باشا للتقدم (نحونا) عن طريق دنقلا بينما يقوم ٥٠٠٠ رجل آخر، تحت قيادة عبد القادر باشا، للتقدم (نحونا) عن طريق دنقلا بينما يقوم ٥٠٠٠ رجل آخر، بقيادة عبد القادر باشا، بالتقدم نحونا عن طريق أبو حمد. وأن الانتصار جاهزون للقتال: دمر الله الكفرة. ثم يرسل تحياته للطاهر. وأرفق له خطابات من محمد الخير إلى الخليفة عبد الله ذكر فيها بأن الانتصار بمقراة قد فوجئوا (بهجوم) الكفرة الذين جاعوا بأعداد ضخمة من الشمال. وأن الكثيرين قد قتلوا وأنهم اضطروا للإسحاب نحو محمد الخير لأن الكفرة كانوا بعدد النجوم في كثرتهم، وأن الكفرة يقومون بإصلاح خط السكة الحديدية ويقال أن لديهم مالا يقل عن ٥٠٠٠٠ رجل. وقبل نشوب المعركة كان الخير قد أرسل جواسيساً للشمال وعندما كانوا بالقرب من كروسكو سمعوا بنشوب المعركة فعداوا وأبلغوا بأن الكفرة هم بأعداد تفوق ما ذكروه من قبل. طلب الخير منه (من النجومي) أن يوقف ترحيل العوائل وأن يحضر لمساعدته بكل الرجال المقاتلين الذين يستطيع جمعهم. والخير الآن بدنقلا وقد طلب مرة أخرى إرسال التعزيزات له قبل وصول الكفرة. والخير يلعن الكفرة ويقول بأن أسباب هزيمة الانتصار في مقراة تعود لتخذيّل فصائل المحس والسكوت لهم وإنسحابهم ومساعدتهم للكفرة في إصلاح خط السكة الحديد".

وفي أواخر مايو سمح لمحمد الخير بإرسال مقاتلين شمالاً حتى خور موسي باشا ولم يتأخر في تنفيذ هذا الأمر. وبدأ تحرك مقاتليه في يونيه وبحلول منتصف الشهر كان الأمير الزين قد احتل عكاشة ودمر الخط الحديدي بين عكاشة وأبار أم يكول ثم عاد إلى كريمة بينما تقدم ود جبارة في تلك الأثناء إلى حنك (بالقرب من أبو قسي) مع قوة كبيرة. وأصبحت دوريات العرب الآن تجوب الصحراء الشرقية بين أبو حمد والمرات أسبوعياً.

خلال ذلك، وباقتراح من مختار باشا، تم إرسال المندوب السامي التركي في القاهرة، وأحد كبار المصريين، وهو شهدي باشا، إلى حلفا يأمل إستشفاف أي إشارات قد تصدر من السودانيين لإقامة سلام بينهما. وجاءت تقاريرها بما مفاده أن أهالي السودان كانوا غير راضين بالمرة بحكم العرب بسبب عبء الضرائب العشوائية المفروضة عليهم مضافاً إليها الخدمة الإجبارية. وأن السودانيين سيريحون بعودة الحكم المصري، وهو الأمر الذي لاشك فيه.

فبعد قيام الثورة، وأثناء مراحلها الأولى، فإن الأهالي قد انضموا حقاً للحركة، بكل صدق وإيمان، ولكن سرعان ما تبين لهم بأن الوعود الخلابّة للبقارة كانت نادراً ما تتفدّ، هذا إن نفذت أصلاً. ورأوا أن زعماءهم، والرجال الذين اعتادوا علي طاعتهم، يلقي بهم الواحد بعد الآخر في السجون بلا رحمة، أو يقتلون في بعض الأحيان بينما يحل أحد البقارة القساة محلهم، وأن أملاكهم صارت من أملاك بيت المال، وأن نساءهم وخدمهم صاروا نساء وخدمًا لمخلصيهم المدعين. كانت حالتهم كحالة بني إسرائيل في العهود الغابرة والذين يقال أن حكمهم السابقين كانوا يسوقونهم بالسياط، لكنهم الآن صاروا يطاردون ويساقون بالعقارب.

كانت الثورة ضد ظالمهم تعتبر من المستحيلات، فقد حطمت التقاليد القبليّة بقسوة وفظاعة وتبادل العبيد وسادتهم الأماكن وأصبح التعاضد بين القبائل مستحيلًا. وصلت صرخات البؤس والقهر إلى مصر قبل ذلك لكن أي مساعدة كانت غير ممكنة. وكانت الإجابة دائماً هي: "عليهم أن يتحدوا ضد عدوهم المشترك"، واستمرّ البقارة سادة للموقف وساقوا بالقوة الأهالي، رغم أنفسهم، للقتال ودفعوهم للنهب والسلب.

سوء الحكم هذا لا يمكنه الاستمرار طويلاً بدون أن يلقي بآثارة السالبة المدمرة على البلاد. فبعد إزالة أي أثر للحكومة وبتناقص عدد السكان باستمرار بسبب نظام الخدمة الإلزامية، تدهورت الأراضي الزراعية شيئاً فشيئاً وهجرت وبدأ وخز الحوجة يظهر للعيان، ليس على البقارة ولكن على السكان بالريف والقرويين والذين، لارهاقهم من جراء تلك الحروب المتواصلة، صاروا يتطلعون لعودة الحكم الذي، على الرغم من كل مثالبه، أعطاهم على الأقل ما يكفي لسد جوعتهم. وبنهاية يونيو تضاعف سعر الذرة لثلاثة أضعاف سعره الأصلي في أم درمان وانعدمت الكماليات مثل السكر والأرز وغيرها تماماً.

أثناء ذلك صدرت أوامر للنجمي للعودة لأم درمان للتحايل مع الخليفة حول خطة الحملة. وفي أواخر الشهر عاد ثانية إلى بربر حيث تم تعزيزه براءة الأمير عبد الحليم ورجاله النشطين بعد نجاحاتهم في العظيرة. وتم تعيينه وكيلًا للنجمي. وإنقضت الشهور القليلة التالية في حشد القوات ودفعهم لمختلف النقاط. لكن التأخير، بالنسبة لجيش غير نظامي، كان أمراً حتمياً - فالمشاكل على الحدود الحبشية، وفي كردفان ودارفور، منعت الخليفة من إرسال التعزيزات للنجمي التي كان قد طلبها. وكان الجناح الأيسر، عند تقدمه، مهدداً باستمرار من قبل الشيخ صالح، شيخ الكبابيش الذي لا يهدأ. تسبب كل ذلك في تأخير وتعطيل النجمي ونفاذ صبره ولم يبدأ تحركه عبر الصحراء من بربر إلى مروي إلا في الرابع عشر من أكتوبر، حيث تأخر مرة أخرى في مروي ليعمل على تجنيد الأهالي منها. لكن نقاطه المتقدمة ظلت نشطة وربما يعود ذلك إلى استدعاء محمد الخير لأم درمان ومع تحول قيادة المنطقة من كرمة وشمالاً لعثمان أرقى والذي قام في أكتوبر بإرسال قوات محدودة لصواردة وفرقة تحت إمرة النور الكنزي^{*}

تم سحب المحطة المصرية الأمامية في جماء، التي تبعد مسافة إثنين وعشرين ميلاً من حلفا، إلى خور موسي، على بعد حوالي خمسة أميال من حلفا. وكانت قيادة كل قوات الحدود قد

* عم أحمد أبو كشوة، دليل هكس باشا.

أوكلت للبريجادير جنرال، الشريف مونتمو رنسي بينما تولي اللفنتانت كولونيل تشير مساید، الذي وصل لحلفا في العشرين من أكتوبر، قيادة كل القوات في تلك المحطة. وأخذ النجومي الآن اللقب الطنان "قائد السرية المصرية"، وعاد محمد الخير إلي بربر وأصبح توزيع قوات العرب تقريبا كما يلي:

في أم درمان	مع الخليفة	١٣٠٠٠ رجل
في بربر	مع محمد الخير	١٢٠٠٠ رجل
في أبو حراز	مع النجومي	٢٠٠٠ رجل و ٣ مدافع
في صنم (دار الشايقية)	—	٥٠٠ رجل و ٣ مدافع
في دنقلا	مع جبارة	٢٠٠٠ رجل و ٣ مدافع
في كرمة	مع مرغني (سوار) الذهب	٥٠٠ رجل و ٤ مدافع
في دلقو (دار محس)	مع محمد هاشمي	٥٠٠ رجل
في صواردة	مع عثمان أزدق	٧٠٠ رجل
في فركه	مع النور الكنزي	٤٠٠ رجل

ومن بين تلك الأعداد حوالي ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ من البازنقر، وهو الاسم الذي يطلق علي حملة البنادق من الجنود السود العاملين مع الثوار.

لكن مشاعرهم لم تكن أبداً مع العرب وتم بذل كل جهد ممكن لإغرائهم لهجر العرب والرجوع للحكومة. وقد أضطر العرب في حالات عديدة لنزع سلاح البازنقر أو إرسالهم للجنوب مرة أخرى. أما الشيخ صالح الكباشي فقد وعد بمنحة قدرها عشرة ريالات لكل بازنقر يتمكن من إرساله للحكومة. وقد فر كثيرون منهم بالفعل ووجدوا طريقهم إلي حلفا حيث كان، كقاعدة عامة، يعاد إلحاقهم بالكتائب السودانية. وقد أثبتوا لاحقاً كفاءتهم القتالية العالية تحت قيادة الإنجليز، مثلما أثبتوها من قبل مع غردون وبكر وآخرين.

وأصدر القائد العربي الآن منشورات لكل الزعماء والشيوخ في الأقاليم الشمالية، حتى حلفا، طالباً منهم جمع رجالهم والاستعداد للمعاونة على غزو مصر. وبنهاية أكتوبر وصل النور الكنزي مع محمد هاشمي إلي عكاشة ومعهم قوة من ١٥٠٠ رجل و ٤ مدافع.

لم يكن في نيتهم، بمثل هذه القوة، مهاجمة حلفا. ولكن هجوماً منهم على دبيرة أو أرقين، على بعد بضعة أميال من حلفا، كان مرجحاً، لأنهم في هذه الحالة سيقطعون خطوط المواصلات في حين تقوم القوة الرئيسية للعرب بمحاصرة الحامية هناك. استمر النور الكنزي في تقدمه. وفي التاسع من نوفمبر وجدت طليعة إستكشاف للجيش المصري أنه قد احتل سرس بكامل قواته ودمر ميلاً من الخط الحديدي. وفي نفس اليوم وصل النجومي لدنقلا مع تعزيزات كبيرة.

لم يضع النور الكنزي وقتاً، واحتل المحطة المتقدمة في جماي والتي كانت القوات المصرية قد أخلتها. ومن اليوم الثالث عشر من الشهر كان قد وضع فيها قسماً كبيراً من قواته

بينما تقدم القسم الآخر حتى خور موسى وحاول تدمير قنطرة للسكة الحديدية. وقام الكولونيل تشيرمسايدي على الفور بمواجهتهم مستخدماً فصائل الخيالة والهجاة، المدعومين بقطار مدرع، وتراجعت قوات العرب بعد أن أتلقت حوالي ١٢٠ ياردة من الخط الحديدي. ولعدة أيام لم يحدث تقدم آخر من جانبهم. وأثناء ذلك وصل الجنرال مونتمورنسي وشرع فوراً في اتخاذ الإجراءات لتأمين سلامة الأمالي في حلفا ودبروسة والذين يصل عددهم لحوالي ١٧٠٠٠ نسمة.

وقد تم جمع هؤلاء، مع بهائمهم وغلالهم، في ثلاثة جزر نيلية وقامت بحمايتهم البواخر المدرعة وفصائل من الجنود. ويوم ٢٤ من الشهر جرت محاول لتخريب الخط الحديدي شمال خور موسى بخمسائة ياردة، لكن العرب تراجعوا عندما تم اكتشافهم كما قاموا بتحركات على الضفة الغربية، عندما اقتربت جماعة منهم من معقل صغير للجنود. ولكن، وبعد تبادل بضع طلقات نارية مع الجنود، تم طردهم.

ويوم ٢٧ نوفمبر حرك النور الكنزي قواته الأمامية إلى عبكة، على بعد ٨ أميال جنوبي حلفا، وظل مترقباً بقلق وصول الإمدادات من مرغني (سوار) الذهب والتي كانت قد وصلت دال قبل أربعة أيام. ويوم ٢٩ تقدمت فرقة استطلاعية للفرسان نحو عبكة وعند ما شاهدتهم العدو انسحب للجبال المجاورة. وفي اليوم التالي تم إرسال القطار المدرع مع عمال الصيانة لإصلاح الخط، وتقدم الكولونيل تشيرمسايدي، مع قوات محمولة، نحو معسكر العدو ووجده مهجوراً ثم توجه لسرس.

وعند شروق شمس الأول من ديسمبر تقدم الجنرال دي مونتمورنسي مع القوات الرئيسية، المكونة من كتيبتين ونصف ومدفعين، نحو جماي ومنها لسرس حيث انضم للكولونيل تشيرمسايدي في مساء نفس اليوم. رفض العدو المواجهة في أي مكان وانسحب عبر الصحراء للمرات. ثم هبطوا على عكمة بالنهر، على بعد بضعة أميال شمالي عكاشة، ومالبثوا أن عادوا لصوارده.

تم إصلاح الخط الحديدي حي مسافة ميل ونصف من معسكر العدو في عبكة وبدأت فترة من الهدوء تسود جبهة الحدود مرة أخرى.

قبيلة الكبابيش

من المهم الآن أن نعود، باختصار، لتحركات صالح بك فضل الله ود السالم، زعيم الكبابيش، والذي، كما رأينا، قد أبدى نشاطاً ملحوظاً في مديرية دنقلا وعطل لحد ما تحركات قوات النجومى وتوجهها للشمال.

فالكبابيش، الذين يسكنون الصحراء غرب دنقلا، كانوا تواقين دائماً لحيازة المديرية التي اعتادوا على التجارة بها والتي كانت حقاً ميناءهم. وقد عرضوا أكثر من مرة استلام دنقلا (وإدارة شئونها) ولكن بشروط، مثل تسليمهم آلاف البنادق، وهو الأمر الذي لم توافق عليه الحكومة.

ومن معركة جنس عام ١٨٨٥، وحتى افتتاح التحصينات حول سواكن في ديسمبر ١٨٨٨، لم يدخل العرب في صدام جدي مع الجيش المصري والذي كان قد تولي، منذ بداية هذه الفترة ولمدة ثلاثة سنوات، المسؤولية وحده للدفاع عن مصر. وذلك على الرغم من أن العلم

البريطاني، المدعوم بفصيل واحد من فوج ويلز، لم يسحب نهائياً من أسوان إلا في يولية ١٨٨٨. نعم كانت هناك إشتباكات، وغارات، مما شكل تدريباً ممتازاً للجيش الذي لازال شاباً، وهذا ما سنذكره في حينه. ولكن تلك السنوات الثلاثة كانت عموماً مرحلة إختبار واضح لتحديد إذا ما كانت القبائل مستمكن من القيام بأي خطوة، ضد نفوذ المهدي وقوته، من عدمه، مع أن كل التقارير كانت تشير باستمرار بأن النظام يترنح تمهيداً لسقوطه.

وكان أول عمل تم القيام به في تلك الفترة هو إرسال صالح الكباشي في مغامرة خطيرة تتبادل فيها النصر والهزيمة، والاستنفار والردة، عبر مئات الأميال من صحاري تكاد تكون غير معروفة، لينتهي كل ذلك بموت هذا الزعيم الشجاع في تخوم كردفان، على بعد ٩٠٠ ميل من نقطة بداية تحركه، وتشتت شمل من تبقي من هذه القبيلة التي كانت يوماً في منتهى القوة والكرّة العديدة.

وقد نتذكر بأن صالح الكباشي قد إرتبط من قبل بحملة النيل عام ١٨٨٤ وذلك عندما قام بتوريد الجمال للورد وولسلي، والتي كان لها دور عظيم في تسهيل مهمة القوافل في صحراء بيوضة وغيرها. ومع هذا فلم يتبعه (أخيراً) إلا قسم ضئيل من قبيلته الضخمة لأن معظم رجالها قد انضموا للمهدي.

تمتد مناطق الكباشيش عبر المنطقة الغربية للنيل ثم تلتف في قوس غرباً عبر شمال كردفان ودارفور. من هنا كان بإمكان شيخ معاد واحد أن يخلق حالة من البلبلة تكفي لإرهاق أجنحة (قوات) النجومي أو محمد الخير عند أي تقدم منهم عبر النيل. وبعد معركة جنس، جدد صالح ولاعه وكتب للسردار قائلاً بأن كردفان ودارفور في حالة ثورة ضد الخليفة وأنه إذا تلقى الدعم منه فيمكنه السيطرة على دنقلا.

أجاب السردار بأن الخطوط السياسية حول السودان وما ينبغي عمله هو الآن موضع نقاش جاد بواسطة وزراء صاحب السمو (الخدوي)، وأنه طالما كانت هناك ثورات للقبائل حول القلابات وسنار وكردفان ضد المهديّة فإن بإمكانه الانضمام بقواته مع أي قوى معارضة للمهديّة للقيام سوياً بتدمير أعداء الله والناس.

كما كتب إليه لسير فراتس قرنفل خطاباً يوم ٢١ مارس. وفي الأول من مايو انقض على جماعة صغيرة من العرب في أبو قس ومزقهم.

وفي الثالث من يونيه هزم قوة أخرى في دنقلا. ويقال أنه قتل عبد الماجد، الذي كان قائد المهديّة في جنس. وبعد هذين النجاحين عاد إليه كثيرون من أقاربه وانضموا إليه وأصبح هناك تجمعاً عاماً للعشائر في رئاسته التي أقامها بجبل عين، على مسافة ستة أيام من السفر من غرب دنقلا.

لكنه تلقى نكسة في السابع والعشرين من يوليه ظل بعدها، ولفترة طويلة، عديم النشاط قابعاً في جبال أودون وبقي هناك حتى نهاية العام.

وقد يقال عن الأسباب الثلاثة التي شلت قوة الخليفة وعطلته من اتخاذ المبادرة والعدوان، أنها تمثلت في ثورة كردفان، وفي هجمات الأحباش، وغارات الكباشيش على طول الضفة

الغربية للنيل. وأنها كانت العامل الرئيسي لتعويق تنفيذ خطة الغزو الأصلية ضد مصر. كانت القبيلة الكبرى بشرق النيل هي قبيلة العباددة وكناتوا أكثر تمدناً ومعرفةً بسبل الحياة العصرية من الكبابيش. ومعهم كان من السهل الوصول إلى تفاهم. كان ثلاثة من كبار رجالهم موظفون لدى الحكومة ولاشك في أنهم كانوا يقدمون المعلومات أحياناً للسلطة المهدية مثلما يقدمون معلومات للحكومة. لكن المعلومات المقدمة للحكومة كانت تتفوق على أي أذى يسببه ما يقدمونه للعدو من تقارير وهذا ما أدى بدفاعات الحدود لأن تعزو سبب كفاءتها، لأقل القليل، للتموية الذي قامت به. لم يتم القيام بأي تحركات عدوانية. ومن الناحية الأخرى كانت الحدود تعلم جيداً بأي تحركات مهمة قبل حدوثها، حتى عن الغارات المزمع القيام بها والتي صارت، ومنذ أوائل ١٨٨٧، معلماً من المعالم لهجمات العرب على الحدود الجنوبية لمصر.

...

كردفان في ١٨٨٦

كان حمدان أبو عنجة، في سبتمبر ١٨٨٥، لا يزال محاصراً الملك كمبرو في جبل الدابير. ولما وجد أنه ليس بالإمكان أن يخلف إنطباعاً يذكر على من بهذا الحصن الجبلي القوي، أقام مخيمه في خور تلودي حيث قام بغارات واسعة على المناطق المجاورة وأسر عدداً كبيراً من الزنوج قام بإرسالهم في قوافل إلى أم درمان. قادت تحركاته هذه قبائل الحمر والمسيرية والحوازمة العرب الذين يسكنون في تلك المناطق للثورة وقام عدد منهم بمهاجمة وإبادة رجال أبو عنجة، الذين يقومون بالغارات تلك، وذلك بين جبل قدير وتلودي. ثم تجمعوا في أعداد أكبر وتقدموا لمهاجمة موقع أبو عنجة. لكنهم هزموا بعد مذبحة عظيمة ويقال أن عدداً لا يقل عن ١٠٠٠٠ رجل منهم قد قتل في تلك الموقعة.

أدى هذا الانتصار الأخير لتحطيم أي مقاومة لأبو عنجة والذي واصل الآن غاراته للسلب بنشاط وهمة وذلك حتى مارس ١٨٨٦ عندما أمره الخليفة بإخلاء المناطق الجبلية والعودة للأبيض. ولفهم أسباب هذا الأمر فلاحد من العودة للأحداث في دارفور.

فعند نهاية ١٨٨٥، كان الأمير زقل لازال مقيماً بالفاشر. وكان قد تلقى عدة نداءات من الخليفة للعودة لأم درمان. لكن اعتذاراته المتكررة للبقاء حيث هو أصابت الخليفة عبد الله، لحد ما، بالقلق عما يمكن القيام به في ذلك الإقليم النائي. وتواترت الإشاعات بأن زقل ينتوي إقامة مملكة مستقلة في دارفور، وأنه حشد جيشاً ضخماً هناك. تلك الإشاعات، إذا ما صحت، ربما تهدد سلامة كردفان، وبالقسط سلامة أم درمان نفسها. ولكن لم يكن لتلك الإشاعات أي أساس في الواقع. فقد كان زقل مشغولاً بصفة أساسية في جمع المال. وعندما وصله أخيراً نداء قاطع من الخليفة للحضور أمامه في أم درمان، شرع على الفور في القيام والتوجه إلى الأبيض، وذلك في مارس ١٨٨٦، مصطحباً القسم الأكبر من جيشه وترك ممثلاً له في الفاشر السلطان يوسف ابن أخ السلطان دود بنجة.

وعندما علم الخليفة بأن زقل قد تحرك بعد لأي مصطحباً جيشه أرسل في الحال بتعليماته إلى حمدان أبو عنجة لملاقاته بجيشه في الأبيض، تحوطاً من أن يكون لزقل أي نوايا غير

مرغوبة. كان زقل قد أرسل معظم جيشه أمامه. وعندما وصل ذلك الجيش للأبيض تم دمجهم في قوات أبو عنجة. ولما وصل زقل إلى بارا وجد نفسه أسيراً وأمواله مصادرة وحياته مهددة بالخطر. وتم التحفظ عليه سجيناً بالأبيض ليضع شهوياً بعدها أرسل لأمر درمان تحت الحراسة. وعندما أوضح موقفه للخليفة تم إطلاق سراحه مع عدم السماح له بمغادرة أم درمان. وبقي أبو عنجة في الأبيض طوال عام ١٨٨٦ وعاد لأمر درمان في أوائل عام ١٨٨٧. أما عثمان آدم فكان لا يزال أميراً وعاملاً على كردفان والتي أصبحت الآن، باستثناء جبل الداير ومحاوله، تنعم بالهدوء ولفترة طويلة.

دارفور في ١٨٨٦

بنهاية ١٨٨٥، وصل كرم الله بنفسه من المديرية الاستوائية إلى دارا ومعه تعزيزات كبيرة لكتيبور. وفي الحال قام بحملة ضد ماديو وعرب البني هلبه. وعندما علم الأخيرون بوصول كرم الله هجروا ماديو والذي بقي وحيداً مع خمسمائة من رجاله. وبعد بضعة أيام هاجمه كرم الله وأباد قواته لكنه تمكن، مع قلة من رجاله، من الفرار إلى جبل مرة. لكنه أسر وسلم إلى خليفة زقل، السلطان يوسف، في الفاشر والذي أرسله بدوره سجيناً إلى كرم الله والذي كان وقتها في الطويشة. رسله الأخير بدوره إلى الأبيض حيث قطع رأسه فيما بعد.

ثم عاد كرم الله إلى شكا حيث تلقى ولاء عرب المعالية وخضوعهم له وذلك بعد أن أغري شيخهم، محمد بك أبو سلامة، للحضور لزيارته. وعند وصول الشيخ إلى شكا قطع رأسه هو وأبناءه الثلاثة. وفي تلك الأثناء كانت القوة التي أرسلت لإخضاع الرزيقات في بحر العرب قد نجحت في مهمتها. وبهذا تمكن كرم الله من إعادة تثبيت سلطة المهدي في كل المناطق الثائرة وقام، مثل زملائه في السلاح بكردفان، بإطلاق يده في الإغارة على مختلف المناطق من أجل الرقيق والمواشي. وبنهاية السنة أرسل قوات إلى دارا للإغارة على المناطق الشمالية بها، وهي الخطوة التي أدت إلى أوحش العواقب التي سنتناولها في أبواب تالية.

الاستوائية في عام ١٨٨٦م

في فبراير ١٨٨٦م، تلقى أمين بودلاي أخباراً بنفوذ يونكر وفيتا حسن قد وصلا بسلام إلى كباريقا. وعلم بأن خطابات قد جاءت من يوغندا كان قد أحضرها مبعوث خاص تنكر في زي تاجر. ولم يوضع وقتاً لإيفاد رسول خاص يثق فيه والذي عاد في ٢٦ فبراير حاملاً رسائل من القاهرة وزنجبار تحتوي على كل ما جرى من أحداث طوال تلك السنوات التي انقطعت فيها الاستوائية عن العالم الخارجي. كانت رسائل القاهرة موقعة بواسطة نوبار باشا، رئيس مجلس الوزراء، ومؤرخة في الثاني من نوفمبر ١٨٨٥م، وكان مضمونها أن الحكومة المصرية غير

* تم إرساله عام ١٨٨٩ إلى طوكر للعمل على تسوية بعض الخلافات بين عثمان بقة وأبو فرجة. وتم تعيينه أخيراً أميراً على دنقلا بعد أن استعاد ثقة الخليفة فيه.

قادرة على مساعدة أمين بك، لأن السودان قد إخلأوه، لكنهم فوضوه لاتخاذ أي إجراءات يراها ضرورية إذا ما قرر ترك البلاد. وعلم أمين الآن، وللمرة الأولى، بتفاصيل سقوط الخرطوم وموت غردون. وكانت ملاحظاته عن هذا الوضع الجديد مثيرة للإهتمام لأنها تظهر الأسباب التي يراها هو لعدم التنازل عن المديرية التي دافع عنها طويلاً ويقول:

(معظم رجالي وبخاصة الضباط، لا يرغبون في ترك هذه المنطقة. ولقد قمت مراراً بلفت نظر الحكومة بالخرطوم بضرورة تغيير الضباط هنا واستبدالهم كل سنتين وكذلك بعض الرجال حتى لا تعطل تحركاتنا أثناء الإضطرابات تلك العقوبات التي لا تحصى. لكنني لم ألتق أي إجابة. فمعظم جنودنا قد جاعوا من مديريتنا نحن (مكركا ودينكا وغيرهم) ولم يروا مصر أبداً. لهذا فمن الطبيعي أن يفضلوا البقاء هنا وللعيش كما عاش آبائهم. أما الجندي الزنجي الذي أرسل لنا من مصر، سواء كان ضابطاً أم نقرأ، فقد نسي بمرور الزمن معنى الانضباط الصارم. بل أكثر من ذلك، ألقم نفسه على علي الحياة بالإقليم للدرجة التي جعلته يستبدله بوطنه الأصلي. فكل منهم له عائلته الخاصة وهي غالباً ما تكون عائلة كبيرة إذا أدرجنا فيها كل الذين يعتمدون عليه في حياتهم، ولكل منهم معيظه أو أبقاره. وكل واحد منهم يعلم بأن رحلة السفر ستكون طويلة والمعاناة عظيمة وأن أياماً طويلة من الجوع والمصاعب تنتظرهم. وأنهم عندما يصلون لمصر فإن الإحلال في انضباطهم سينتهي ويعود لمصراة النظم العسكرية ثانية، وأنهم سيودعون كنوس المريسة للأبد، وأن ما تعودوا عليه من تعالى ياولد وروح ياولد" ستتتهي).

ثم يضيف قائلاً:

(وحتى الآن لازالت أخبار هزيمة الجنرال هكس معتبرة كاتها من الخيال. ولم تفلح جهودي طوال الشهور الإثني عشرة الماضية لتركيز وجود رجالي وتجميعهم في أماكن محددة بالجانب أكثر من سحب بعضهم من الكتيبة الأولى، المعسكرة في لادو وما جاورها، أو من الضباط والذين يعلنون بصراحة ووضوح بأنهم لن يتخلوا أبداً عن لادو).

وبعد ذلك بوقت قصير نشبت الحرب بين أنيورو ويوغندا مما أجبر دكتور يونكر لمحاولة الوصول للمكان الأخير، بينما إضطر مندوب أمين لدى كباريكا، فيتا حسن، للإسحاب نحو البحيرة ريثما تنتهي المشاكل.

وأثناء ذلك كانت الأحوال في لادو تزداد سوءاً أكثر فأكثر ولكن، ولتتبع أصل ما يمكن تسميته بالتمرد، والذي وقع بالفعل فيما بعد، فمن الضروري الرجوع للوراء بعض الشيء. إذ يبدو أن قائد الكتيبة الثانية، الصاغ حواش أفندي، كان قد قام بمصادرة ممتلكات أحد ضباط الكتيبة الأولى، المدعو بخيت أغا، عند غياب الأخير من دوقلي. وعندما عاد هذا الضابط إلى الرجاف قائماً من أمادي علم لأول مرة بما قام به حواش أفندي وصمم على الانتقام لنفسه. بدأ بالإستيلاء على بعض أنواع الأطعمة والتي كان يعلم بأنها تخص حواش أفندي. وعندما وصل هذا الأمر لأمين أرسل أوامر للصاغ ريحان أغا للتحري في ذلك. لم يتردد الأخير في الشكوى بمرارة من سلوك الصاغ حواش وصار واضحاً الآن بأن الخلافات الشخصية بين الضباط قد انعكست على رجال الكتيبتين. وديرت مؤامرة للقبض على حواش أفندي وإحضاره إلى لادو لكن ريحان توفي قبل تنفيذها وحل محله الصاغ حمد أغا.

ولم تفلح الإنبياء التي جاءت في رسائل نوبار باشا، والتي كان أمين قد أرسلها لمختلف الحاميات، في تحسين الأمور وإتفق رجال الكتيبة الأولى بين بعضهم البعض ألا يتوجهوا جنوباً، بذريعة أن الخرطوم لازالت هي رئاسة الحكومة، ولأنهم يفضلون أن يتم تسريحهم وتوجههم لمناطقهم بدلاً عن توجههم إلى ودلاي. كما دبرت مؤامرة أخرى من بعض البرنو والادموا لقتل كل ضباطهم، من سودانيين وغيرهم، وإنشاء ولاية حرة مستقلة. لكن تم اكتشاف المؤامرة. ورغم أن قادتها قد كبلوا بالحديد إلا أنهم أطلقوا فيما بعد. وفي دوفيلي قام باشجاويش بإطلاق النار على ضابطه. كل تلك الأحداث للتمرد كانت تحمل معنى واضحاً لا شك فيه. وقد كتب أمين في نهاية مايو قائلاً:

"لازلنا نحن كما كنا. لن يتحرك الرجال وحتى القليلون منهم الذين يميلون للقيام بالرحلة لا يجرؤون على التحدث بهذا علناً. وإضافة لذلك أصبحت الخلافات بين السودانيين والمصريين تتضح يوماً بعد يوم والكرهية نحو الآخرين أصبح التصريح بها علناً ما عدا قلة منهم من ذوي السمعة الحسنة فلم يتعرضوا لشيء من ذلك. لكن ذلك لم يأت من فراغ لأن بعض السادة المصريين كانوا يعاملون السودانيين دائماً كرعاة رغم تحذيراتي لهم. ولكن الموائد إتقلبت الآن. أحاول التوسط بقدر الإمكان ولكن هل يستمر ذلك طويلاً؟ لقد حاولت بذل جهد جديد ليثوب الرجال إلي رشدهم. وإذا ما فشلت تلك المحاولة فلا بد أن أجاري الظرف والمحافظة على مظاهر السلطة والتي لازلت أتمتع بها بقدر المستطاع. ولكن إذا ساءت الأمور فالشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به هو تسليم الزمام لأيدي قدامي الضباط السودانيين ثم انسحب إذا أمكن إلي كباريكا وأبقى معه في انتظار أن يعود الرجال إلي صوابهم ثم يتبعوني، وهم سيتبعوني إن عاجلاً أم آجلاً. وعلى كل حال سأطلع الحكومة، في هذا البريد، بكل ما يجري هنا".

ثم يكرر عدم عزمه على إخلائه مديريته بالكلمات التالية:

"سأبقى هنا، وأمسك بقدر الإمكان، بما تبقى من السنوات العشرة الأخيرة بها. وإذا جاءتني نجدة من أي جهة فهذا شيء جيد. أما إذا لم تجئ فأنتني علي الأقل سأسقط في الميدان الذي أنجزت فيه مهمتي. إنني أسف للاضطراب لمناقضة الأفكار التي عبر عنها المستر ستاتلي وشفاينفورت (والتي قالاً فيها) بأن تجار الرقيق قد أجتاحوا هذه المناطق وأن الزوج يعانوا أكثر مما عانوه من قبل.

فمنذ مغادرة كرم الله وإنسحابه ثم تدمير نفسه ورجاله علي تخوم كردفان فقد ظل كل شيء في أمن وسلام تامين. ولا شك في أن الحرب قد أفادتنا خيراً لأن كل إقليم بحر الغزال قد تحرر تماماً من تجار الرقيق والذين يقال، كما جاء أعلاه، بأنهم يتابعون تجارتهم الكريهة بدون عوائق. وفي كل بحر الغزال لا يوجد اليوم أي خرطوم. لكن لا يزال بها بعض من قدامي جنود لبتن الزوج وهم يعيشون بسلام وسط الأهالي. أما في مديرتي فلم يبق بها سوى اثنين وستين نكلاً و أنا قادر تماماً من منعهم من ارتكاب أي تجاوزات. إن إعادة احتلال هذه الأقاليم، والتي أخليت مؤقتاً، يمكن أن تتم بمنتهى السهولة. وإذا ما أمكن الحصول على بضعة قوافل فقط، ترسل عن طريق ممباسا أو المساي أو واكوري، ومن هناك ترسل لنا أو إلي كباريكا، فإن هذا هو كل مرادنا".

أثناء ذلك نجح الدكتور بونكر، عن طريق المجهود القيم للمستمر ماكاي، المبشر في بوغندا، وتوسطه، للوصول إلى ذلك المكان بسلام. ومن هناك، وقبل أن يتوجه إلى زنجبار، أرسل قافلة إلى أمين، استلمها الأخير في أكتوبر. كانت الحرب بين بوغندا وأنيورو قد انتهت. وأرسل أمين كاستلا إلى كباريكا ليمكث معه، وليعمل على إبقاء الاتصالات مستمرة، وهي التي كانت قد بدأت بصورة طيبة مع بوغندا.

سواكن في ١٨٨٦

انتهى عام ١٨٨٥ وسواكن تتوقع عوده سريعة لعثمان دقّة إليها ، وموسما من تجديد العمليات العسكرية. وبنهاية يناير ١٨٨٦ وصل الأمير ذائع الصيت إلى طمائي ولكن بدون التعزيزات الكبيرة التي كان من المتوقع إحضارها معه. لم يكن لديه على كل حال، من المقاتلين، مالا يزيد عن ألف رجل. وبهؤلاء، وبمساعدة من الأمير سعدون في هشين، تعرضت المنطقة التي حول سواكن إلى دوريات نشطة وغارات متكررة وتقنين عدد من المواشي. أما إلى الجنوب منها فكانت المنطقة هادئة نسبيا وكان البني عامر لا زالوا منقسمين، فبعضهم كان مع الثوار رغم أن ذلك كان بالاسم أكثر من الفعل. وكان الحباب في حالة من التمزق وخاصة أثناء غياب كنباي في مصوع، واخذ شقيقه حداد، وعينه على إغتصاب السلطة والزعامة من أخيه، يتصل بعثمان دقّة ويراسله مما تمخض عنه أن عدداً من أفراد قبيلته، شأنهم شان البني عامر، وصلوا إلى طوكر. أما الأشراف، وهم قبيلة تمتد تقريباً بطول خور بركة وإلى الغرب من البني عامر، فقد أعلنوا تركهم للمهدية رغم أن تصرفات هؤلاء الأشراف، مثلهم مثل معظم القبائل بين طوكر وكسلا، كانت تنسم بشيء من التراخي وعدم اليقين.

استمر الانقسام وسط البني عامر. وفي مايو أرسل عثمان سعدون مع ٩٠٠ رجل لجمع الضرائب منهم ولإعادتهم إلى صوابهم. وفي هذا الوقت كان قد تم القبض على أونور، من فرع العبد الرحماناب من الأمرار، وأحد الشيوخ القليلين الذين يعادون المهدية وسط القبيلة، وإحضاره إلى سواكن. وقد تسبب ذلك الحدث في دفع الشيخ المخلص على حمد، من فرع الكرباب، للضغط على قادة الأمرار الآخرين للتمسك بقرارهم بنبذ قضية الثوار ومفارقتهم. أثمر هذا النداء. ووجد سعدون عند تقدمه أن قوة كبيرة من الأمرار المعادين له قد سدت الطريق إلى أربعاء من أمامه. فقام بمناشدة عثمان دقّة لتعزيزه بالمدد، لكن عثمان لم يتمكن من نجده. ولكن بعد وقت من ذلك انضم إليه مصطفى هدل، الذي أشتهر في كسلا، فتوجهوا نحو أربعاء مع قوة صغيرة. وقبل أن يصلها كان كثير من رجاله قد هجروه بسبب من ندرة الطعام. ثم هجم عليهم الأمرار، وهزموهم هزيمة ما حقه، وكان سعدون نفسه من بين القتلى.

وقد حدثت أثناء ذلك تغييرات في سواكن. كان الكولونيل تشيرمساي قد غادرها منذ بعض الوقت: والجنرال هدسون وآخر من تبقى من القوات الهندية قد أبحروا عالدين في السادس

* علي بعد ستين ميلاً شمالي سواكن.

والعشرين من يناير: والسير تشارلس وارن وصل في الثامن من فبراير ورجع ثانية في ١٥ مارس. وفي الثالث من مايو وصل إلى سواكن الميجر واطسون كحاكم عام لها. وفي تلك الفترة أيضاً عبرت بعض أقسام الأمراء، الذين كانوا مؤخراً مع عثمان دقنة، عن رغبتهم في العودة لولايتهم للحكومة لكنهم لم يجزوا على الحضور لسواكن علناً. كما أبحرت السفينة الملكية كوندور إلى دارا حيث عقد اجتماع للشيوخ هناك وقد أخبروا بأن الحكومة لا ترغب أساساً إلا في تأمين السلم بالمنطقة حول سواكن. كان لهذا الاجتماع نتائج طيبة، فبعد ذلك بقليل قامت القبائل الصديقة بالقرب من الشيخ بارود^{٢٢}، وعددهم حوالي ٦٠٠ رجل، بمهاجمة قوة أخرى للثوار، بقيادة الفكي مدني، وقتلوه مع أميرين آخرين وعدد من رجاله، إضافة للاستيلاء على كمية من الذخيرة والجمال. لم يرغب كل هذا الارتداد عن عين عثمان دقنة وعمل على إجبار القبائل المتمردة (للعودة إليه) عن طريق سجن شيوخهم والذين كان أهمهم شيوخ أقسام الهباب والقرياب وعمر هسياب. وجنوباً أيضاً قرر الحباب، الذين يعتمد عليهم عثمان، الوقوف ضده بينما تبرأ كنتيبي، عند عودته من مصوع، تماماً من أخيه.

أيضاً قام عثمان أثناء ذلك بإرسال بعثة للأشراف لإعادتهم للطاعة. لكن زعيم تلك القبيلة، محمد أبو فاطمة، جاهر بعدائه لعثمان وعادت البعثة بدون أي نتيجة. وفي يونيو حاول عثمان استنفار الهدندوة لقتال الأمراء، الذين كانوا يتجمعون في الشيخ بارود. لكن هذه المحاولة فشلت أيضاً وبعد ذلك بقليل تم تأسيس مأمورية في الشيخ بارود مما أضاف مزيداً من الثقة في نفوس الأمراء.

وظلت سواكن طوال تلك الفترة في حالة من الحصار الجزئي. وكان الثوار يطوفون في دوريات بضواحيها نهائياً ويطلقون النار على المدينة ليلاً. ثم حدث تغير هام. فقد أمسك الأمراء بزمام المبادرة وقاموا في السابع عشر من يونيو بالهجوم وطرد جماعة من العرب في هشين يقودهم الأمير علي شراي وبعد يومين من ذلك تجمع ١٥٠٠ رجل من الأمراء في هندوب حيث تم إرسال بروسر بك ومحمود بك على للاجتماع معهم يوم ٢١ يونيو. تم استقبال الموفدين بحرارة وإنعقد الاجتماع الذي أعلن الأمراء فيه عداوتهم الواضح لعثمان. وعندما سمع الأخير بذلك، وعلم أنه عاجز عن إخضاعهم، قدم لهم وعداً في محاولة لترضيتهم بأن أرسل جيلاي، وهو وكيل الشيخ حامد محمود، السجين بطماي، يخبرهم بأنهم إذا ما تفرقوا وعادوا لديارهم فإنه لن يسبب لهم أي متاعب أخرى. لكن جيلاي كان قد وجه من قبل سيده لحث الأمراء على القتال وهذا ما وافقوا عليه بالإجماع. وقاموا في الثاني والعشرين من الشهر بالتوجه نحو هشين وإستطلعوا طماي. لكنهم هوجموا في الرابع والعشرين من قبل الثوار فصدوهم بعد خسائر كبيرة. وهكذا انعكس الوضع بين المهديين والقبائل الموالية حيث ظل الأولون شبه مقفولين في طماي. ثم هجرت قبيلة الجميلاب عثمان الآن.

وفي الشهر التالي أرسل الخليفة من أم درمان رسولاً هو الفكي علي حاملاً تعليمات لعثمان دقنة لإستخدام أي وسيلة لمصالحة القبائل وكسب ولايتهم. ويبدو أن عثمان لم يهتم كثيراً

^{٢٢} عنى بعد ثلاثين ميلاً شمالي سواكن

لذلك الأوامر وقام بعد ذلك بقتل بقطع رأسي حامد محمود وود حساب (من فرع النوراب) مما زاد من كراهية الأمرار له ونفورهم منه. وبعد أيام من ذلك قام علي بن محمد سعدون، وهو الوحيد من الأمرار الذي استمر مع المهديّة، بالحضور إلى سواكن وأعلن خضوعه (للحكومة).

وفي العاشر من يولييه أنشئت مأمورية أخرى في محمد قول. وما لبث أن جاء لها شيوخ البشاريين في تلك المنطقة معلنين ولاءهم للحكومة.

وفي أوائل الشهر التالي وصل خمسة عشر من شيوخ البني عامر من عقيق وأعلنوا ولاءهم للحكومة المصرية وتمنوا أن يروا سلطنتها راسخة مرة أخرى في البلاد.

واستمر الحصار الجزئي حول طماي وبدأت الإمدادات تعجز عن الوصول لها وقام كثيرون بهجرها بينما توجه آخرون إلى طوكر للإشراف على محاصيلهم. وعندما وصلت تلك الأنباء لمسامع الخليفة، والخاصة بالأحوال غير المطمئنة في المنطقة، قام بإستدعاء عثمان دقنة لأم درمان مع وعد بأنه سيرسل قريباً مدداً لطماي. ويارح عثمان طماي في ١٣ أغسطس، وفي الثالث والعشرين من الشهر اجتمع وجهاء سواكن ورجال الدين والتجار والعرب ليعبروا للحاكم العام عن وجهة نظرهم للوضع الراهن وكاتت خلاصة ما وصلوا إليه الآتي:

- أوضحوا أن العرب قد فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم.
- أنهم تحققوا أخيراً أن المهدي مدعي وليس مهدياً حقيقياً.
- أن التمرد لم يثمر إلا عن تعظيم عدد من المهيجين الحمقى من معدومي الضمير.
- وأنه من العبث أن يأمروا في السلام وإعادة التجارة لما كانت عليه بدون وجود سلطة يمكنها فرض القانون والنظام في البلاد.
- وأنهم بالتالي يسألون الله أن يمكن المسؤولين من اتخاذ خطوات إيجابية للإسراع في تحقيق هدفهم. وأن الوقت الراهن مناسب تماماً لاتخاذ هذه الخطوات.

وقالوا أن الهندوة هم المسؤولون عن هذه الحالة. لكنهم أيضاً عاتوا أشد المعاناة من جراء عملهم الأحق مما يمكن معه سحقهم بأقل مجهود، وتكمير طماي، واحتلال طوكر.

ما جاء أعلاه مثير حقاً للإهتمام، لأنه لم يكن فقط مجرد عرض لآراء اجتماع لرجال مسئولين يمثلون الأهالي وتجار سواكن، لكنه، وإلى اليوم، يقدم لنا الإجابة الواضحة من العرب وهي أنهم قد تركوا المهديّة قولاً وفعللاً ويكررون ذلك كلما جاءت سيرة المهديّة وحتمية طردها من المنطقة. لكنهم كما يبدو لم يفهموا تماماً بأن السودان قد أخلت رسمياً، وأن تصرفات الحكومة أصبحت دفاعية بحتة. ومع ذلك ظلوا يأمرون دائماً بإعادة إحتلال السودان وفرض النظام والقانون عليه. وفي نفس الوقت، ورغم أن بإمكانهم وحدهم، إذا ما حاولوا، تعظيم نفوذ المهديّة في شرق السودان، إلا أنهم يقولون دائماً ويكررون عدم قدرتهم على ذلك إلا بدعم من القوات الحكومية. ويجادلون بأن النظم والتركيب القبلي، رغم أنه صعب دائماً، قد إنذاد صعوبة من جراء تدخل المهديّة في شئونهم مما أدى لتدهور نفوذ الشيوخ وسلطاتهم لدرجة كبيرة. ثم أنهم دائماً كانوا يخشون من انتقام المهديّة منهم إذا ما فشلوا في محاولاتهم للخروج من قبضتهم وتغيير ولائهم.

* أثبتت الأحداث صحة توصيلتهم، بعد أن تم هذا الكتاب. والفقرة التالية ستبين ذلك بوضوح.

وكانوا لا يعلمون إلا القليل عما يجري في المناطق البعيدة من البلاد، وكانوا يخشون أنهم حتى لو أفلحوا في طرد المهدويين من مناطقهم فإن من المحتمل أن يرسل الخليفة لهم جيشاً عرمرماً ليخضعهم مرة أخرى لسلطته. لذا فمن المفهوم تماماً مدى صعوبة تكوين تحالف كونفدرالي بين القبائل بدون منحهم أي شيء، عند قيامهم بالمحاولة، سوى الدعم المعنوي، وهو الأمر الذي لابد أن يهدد حتى حياتهم نفسها.

وبعودة لما يجري حول طماي فسنجد أن الأمرار يشددون الحصار عليها بقوة لدرجة أصبح الخروج منها مستحيلاً. وفي سبتمبر انضم إليهم بعض الهدندوة. وفي السابع من أكتوبر هاجموا طماي واكتسحوها وقتلوا ٢٠٠ من الأعداء واستولوا على سبعة عشر مدفعاً وكمية ضخمة من البنادق والذخائر وأسروا خمسين رجلاً. أما الذين فروا فتوجهوا إلى طوكر.

وقام اللفتانت كولونيل كتشنر، الذي خلف الميجر واطسون كحاكم لسواكن، بزيارة طماي في اليوم التالي للمعركة ووصف الموقع بأنه "موقع قوي للغاية مكون من أرض واطية متموجة تخفي المعسكرات التي بالوادي تماماً. أما الحصن نفسه فكان متين البنيان وقد بني من الحجارة بشكل مربع مع برجين كرويين نصبت بهما المدافع والتي تحمي مداخل الحصن. يحتوي الحصن أيضاً على عدة غرف مكدسة بالذخائر والمواد الأخرى. وعلى بعد مئة ياردة جنوباً، وباتجاه الوادي الرئيسي الذي يحصلون منه على المياه، وضعت كميات من جوانات السفن مليئة بالرمل في الأماكن المسيطرة على الموقع، وكان المعسكر نفسه واسعاً يكفي لإيواء ٣٠٠٠ رجل على الأقل".

ويبدو أن هجوم الأمرار، الذي قاده أحمد، ابن محمود بك علي، من الأمرار القاضلاب، بألف رجل كان مفاجئاً تماماً ولم يكن بالحامية وقتها في طماي سوى خمسمائة من الثوار.

وتم الاستيلاء أيضاً على كمية من الرسائل. والخطاب التالي سيقدم أوضح صورة لما كان عليه الوضع قبل المعركة. وكان الكاتب وزميله، الذان كانا مبعوثين إلى الأراضي الحجازية للدعوة للمهدية، قد قُتلا في الهجوم:

"من الحاج علي إسماعيل الخير وأحمد موسى، المبعوثين إلى مكة والمدينة، إلى الخليفة عبد الله:

بعد السلام. نرجو أن نفيذكم بأننا قد وصلنا لبربر، واستقبلنا حاكمها (عاملها) حاج أحمد خوجلي باحترام كبير، وبعد ذلك بوقت قصير أعطانا جملين مع دليل ليقودنا في الطريق إلى سواكن. ووصلنا كوكريب وهناك علمنا لأول مرة بأن عثمان دقّة هو في طريقه للخرطوم وعلمنا أن العرب غير الموالين يحاصرون قلعة طماي ويقطعون الطريق. لكننا لم نصدق ذلك رغم أن الدليل، ويسمي موسى ود عيسي، ويتحدث لغتهم، أخبرنا بأنه يعتقد بصحة ما سمعناه وأن المكان محاصر بالفعل.

وعلى الرغم من تلك الأنباء السيئة توكلنا على الله وواصلنا رحلتنا. وبعد ذلك بقتيل أخبرنا رعاة الإبل بأن الكفار لا يبعدون عنا بأكثر من نصف ساعة، وأن عددهم حوالي ٣٠٠ رجل لكن الله أعماهم عنا ووصلنا إلى حصن عثمان دقّة بدون أن يروننا. وهنا وجدنا محمد أحمد دقّة

وأعدته المخلصين للدين جميعهم، والذين يقاتلون أعداء الله ليلاً ونهاراً. بالإنهاء التحية وسلمناهم الخطاب الذي معنا. استلم (أحمد دقة) الخطاب ووضع على جبهته وأمر بإتزاننا في أفضل مسكن وقال: "يمكنكم الآن أن تروا بأعينكم ما يفعله هؤلاء الكفرة، وكيف أنهم يحاصروننا من كل جانب ويهاجمون المكان. لكن الله، وبركة المهدي والخليفة، حفظنا). وأخبرناهم بعد ذلك بما حدث لنا أثناء الطريق وحمدنا الله جميعاً على عطفه علينا. لم نر أبداً رجالاً مثلهم. فهم يقاتلون كالأبطال، جازاهم الله خير الجزاء. ورأينا كيف أن خبز يومهم يصلهم من حيث لا نعلم. فأرضهم جرداء لا زرع فيها ولا شجر ولا شيء بها سوى الأحجار.

كل العرب قد تركوا الدين. ولم يبق الآن في هذا المكان سوى أشجع الرجال والذين لا يزيد عددهم عن ٣٠٠ رجل. بجانب ذلك، فإن الكفرة عندما رأوا ضعف المؤمنين قالوا لإخوانهم: "فلنذهب لنهاجم الحصن ونستولي على كل ما به" ثم اتفقدوا جداً من الحصن وفسر الكثيرون للاتضمام للمحاصرين.

وفور انضمام أحد العرب غير الموالين للكفرة فأنهم يحولونهم لجنود ويسمونهم (البوليس) ويسلمونهم قطعة من قماش أحمر يرتدون حتى يعرفوا. قتل رجالنا بعضاً منهم ووجدوا القماش الأحمر حول أعناقهم. وكان رجلان هما سعيد جعفر وشنقة، واللذان كانا في الحصن، قد أخبرا الكفرة بكل ما يجري فيه.

ومنذ وصولنا شاركنا في صد ستة هجمات شنها الكفرة على الحصن. ولكن يعون الله كان المؤمنون منتصرين دائماً. ثم بدأوا الآن في مهاجمة من الخلف وقطعوا كل سبل الإتصال. قلنا لأخيها محمد أحمد دقة بأننا لا نستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك، ولابد لنا من إتمام مهمتنا، وأن الموت قد يجينا في البر أو في البحر، وأتينا لا بد أن نتوجه لطوكر حيث قد نجد سمبوكاً لعبورنا البحر.

أحضر الإخوة دليلاً لنا، لكننا لم نكن نعلم بأن الرجال الذين في الحصن قد ذهبوا مباشرة للكفرة وأخبروهم بأن رجلين قد حضرا من الخرطوم، وأنهم في طريقهم لطوكر، ونصحوهم بالقبض علينا.

كنا قد غادرنا الحصن وشرنا لأربعة ساعات عندما جاء من أخبرنا بأن الكفرة يسدون الطريق أمامنا بأعداد كبيرة. فقررنا بالتالي العودة للحصن وانتظار قدوم الليل. وأثناء عودتنا هوجمت القافلة التي كنا معها من قبل الكفرة واستولوا عليها لكننا تمكنا من الهرب والعودة للحصن. وعندما رأنا الأصحاب قلوا لنا: "لقد كان الله رحيماً بكم حقاً، لأن الهجوم كان موجهاً أساساً للقبض عليكم لأنكم تحملان رسائل الخليفة التي أوكل إليكم توصيلها".

الأصحاب يعانون كثيراً لكنهم يعصمون بالصبر. وأفضل رجالهم هو الطاهر المجنوب وولده عبد الرحمن. إننا منتظرون هنا الآن ونسأل الله أن يرسل لنا سمبوكاً نجر به إلى وجهتنا". تم الآن تدمير المعسكر وتفجير الحصن. وتسلم القادة المنتصرون الرتب والأوسمة من صاحب السمو الخديوي. انتهز الحاكم العام هذه الفرصة الساتحة ليرسل خطابات يطلب فيها استسلام طوكر، حيث كان معروفاً بأن مشاعر قوية، في مصلحة الحكومة، توجد بين سكانها. لكن

تأكد بعد ذلك بأن أولئك الموالين يخشون من إظهار ذلك. وكان للأخبار الخاصة بقرب عودة عثمان دقة مصحوباً بقوات كبيرة أثر في كبت أي نوايا من جانبهم. أما المنتصرون في طمأى فلم ينزعجوا، بل شرعوا في ترتيبات التقدم نحو طوكر. وإنضم لهم الآن. شيخ الإشراف، محمد أبوفاطمة، والذي كتب لمن في طوكر من أفراد قبيلته حاثاً لهم للإضمام للعرب الموالين. وانتهاز عدد من شيوخ البني عامر هذه الفرصة لتأكيد ولايتهم للحكومة، وقابل وفد منهم، يضم قاداتهم ما عدا واحد هو عكود موسى، الحاكم العام في عقيق.

وفي أوائل نوفمبر ثبت العرب الموالون أقدامهم في التيب وبدأ أن كل شيء بعد بالخير عندما تقدم الأمير موسى فكي، في التاسع من نوفمبر، من طوكر مصحوباً بقوة كبيرة. لم يبذل العرب الموالون أي جهد للصمود، بل انسحبوا لترنكات حيث بدا واضحاً عدم إهتمامهم للاستمرار في المواجهات ضد قوة متفوقة كثيراً عليهم. وبعد ذلك بوقت قصير تم إحضارهم لسواكن وتخلوا عن محاولاتهم.

وبدا موسم طويل من الهدوء لم يشاهد منذ سنوات. وما عدا طوكر فيبدو أن القبائل بالقنوب قد تركت المهديّة. وكانت المحاصيل في دلتا طوكر طيبة بشكل خاص مما اجتنب عدداً من العرب للحضور بالقرب منها. ونتج عن ذلك أن قائد طوكر، موسى الفكي، تمكن من مضاعفة عدد أتباعه قبل إنتهاء السنة. أما الأمير الخضر فلم تتوقف جهوده لإثارة العداء للحكومة قط.

وإلى الشمال، عم الهدوء كل المنطقة بينما شرع عدد كبير من الشيوخ، من المناطق الغربية المجاورة، في الحضور لسواكن. أما في الجنوب فقد انتقضت سنة ١٨٨٦ في نزاعات متصلة بين العرب المحليين وبين الأمراء الذين عينهم عثمان دقة. وتخلل ذلك غارات من وقت لآخر على القبائل المجاورة مثل الباريا والبنّي عامر الذين لم يخضعوا لحكم المهديّة. ولعلنا نذكر أن أحمد الجير، شيخ البني عامر، كان قد أنضم من قبل للمهديّة وربما كان هذا هو السبب في أن لنفوذ دور في عدم القيام بمحاولات جادة لإجبار البني عامر على الخضوع. لكن المهديون عموماً ألحقوا بعض الخسائر على الباريا والباري في الرجال والمواشي مع أن تلك القبائل الحدودية الشرسة قد ألحقت بالعدو من الخسائر مثلما لحق بها. أما في كسلا فلا يبدو أن الانشقاقات التي حدثت بها كانت بسبب العداء أو الشعور المعارض للمهديّة، ولكن بسبب من رغبة القبائل المتمردة، وبخاصة الهدندوة، لرؤية أحد أفراد قبيلتهم في منصب الأمير لتلك الجهات. ولقد تولى فاي وأحمد دقة وعبد الله أبو بكر وغيرهم من عائلة دقة أو أقاربهم الإمارة واحداً بعد الآخر أثناء السنة. لكن أحداً منهم لم يفلح في احتواء عدم الرضى بين القبائل. وفي أوائل العام كان عدداً من الشيخ من ذوي النفوذ قد انفصل عن دقة. وفي بوليه رفض شيخ محمد موسى الاعتراف بهم، وفي نوفمبر فقد محمد فاي دقة، الذي كان أميراً وقتها، كل نفوذه وسيطرته وكان من المحتمل أن يتم إبعاده بالقوة لو لم يقترح القسم المعتدل منهم إحالة الأمر للخليفة. فلقد تسلم الخليفة عدداً من الشكاوى من قبل، ضد عثمان دقة وضد أمراء كسلا. ولما أحس بخطر ثورة قد تنشب ضد الأخير قام باستدعاء كل شيوخ الهدندوة النافذين إلى أم درمان بعد أن وعدهم بتنفيذ مطالبهم. طبقاً لذلك أطاع الشيوخ محمد موسى وود الهداب وبلال الأمين وكثير من الرجال النافذين

أمر الإستدعاء. وعند وصولهم (لأم درمان) إقترح عليهم الخليفة فأرسل أبو قرجة أميراً عليهم بدلاً عن أمراء الدقّاب الذين يكرهونهم. لكنهم اعترضوا بشدة على هذا الاقتراح مما دعى بالخليفة للحكم بإعدامهم بتهمة عدم الولاء والطاعة. وظلوا في حيرة وقلق لعدة أيام حتى أطلق الخليفة أخيراً سراحهم وسمح لهم بالعودة لديارهم على وعد منهم بالالتزام بالطاعة المطلقة. أما الشيخ محمد موسي فقد حفظ كرهينة (في أم درمان)، وبهذا الأسلوب تمكن الخليفة بنجاح من تحطيم ما كان قد يتطور إلى ثورة عارمة على سلطته.

أما عثمان، عند وصوله لأم درمان، فقد طلب تعزيزات تمكنه من مواصلة أعماله العدائية ضد سواكن. لكن الخليفة، كما يبدو، لم يكن راضياً عن أدائه في شرق السودان الذي ترك كثير من قبائل المهديّة. إضافة لذلك فقد اتهمه الموسياح باغتيال زعيمهم حامد محمود مما أدى إلى سجن عثمان لبعض الوقت، لكنه سرعان ما أطلق سراحه. وفي نوفمبر أمده الخليفة بعدد قليل من الرجال وأخبره بضرورة ضم الشكرية إلى رايته. توجه بالتالي إلى ديارهم. وبعد شهر من المحاولات الفاشلة إضطر إلى الرجوع بدون أن ينضم إليه منهم أحد.

هذه القبيلة، رغم أنها من القبائل غير الميالة للحرب، لم تخضع أبداً للمهديّة بكاملها. وكانوا في مرحلة من المراحل قد تحالفوا مع الحرمان - وهي قبيلة محبة للقتال تقطن في المنطقة من جنوب كسلا وحتى الحدود الحبشية - الذين كان زعيمهم هو الشيخ عجيب المشهور. وقامت القبيلتان بمقاومة تمدد المهديّة باتجاههم، ولكن بعد سجن زعيمهم الشهير والمخلص (للحكومة) عوض الكريم باشا أبو سن في أم درمان، خضع عدد من القبائل للمهديّة. وبعد موته، في الخامس العشرين من ديسمبر، في الحبس مكبلاً بالقيود، توقفت كل مقاومة.

وحتى هذا الوقت لم يبد أن الملك يوحنا والراس ألولا قد أدركا المصاعب الوشيكة التي ستترتب على الاحتلال الإيطالي لمصوع وحولا كل إبتياهما إلى حدودهما الشمالية والغربية حيث تم إلحاق بعض الخسائر بالمهديين من قبلهم. وفي أكتوبر عمل الراس ألولا على الاستعداد لاقتحام كسلا كما يقال. وفي نوفمبر تقدم خلال أراضي الباريا والبارزي مسبياً رعباً وفزعاً عظيماً في كسلا. لكنه عندما كان على بعد مسيرة يومين أو ثلاثة من تلك المدينة جاعته الأنباء المفزعة، فجأة، بأن الإيطاليين زاحفون. تخلى بسرعة عن مشروعه الحالي وأسرع عائداً لمراقبة تحركاتهم. في هذا الشهر أفلح الإيطاليون في فتح ميناء رارات للتجارة تحت حمايتهم، وهي عملية سببت كما يبدو بعض البلبلة للشيوخ المحليين الذين توجهوا لعقيق راجين الحصول على تفسير لما حدث، لأن الحكومة الوحيدة التي عرفوها من قبل هي الحكومة المصرية.

ملحق القسم التاسع

العملة التي أصدرها (كل من)

محمد احمد، مهدي السودان (وخليفته*)

مقال كتبه:

يعقوب باشا أرئين

(وقد ترجم من اللغة الفرنسية)

منذ بداية العصر الإسلامي، كانت قراءة خطبة الجمعة، باسم العاهل، تعتبر من حقوق الملكية (السيادية). وفي القرن الأول (لإسلام) أضيف حق إصدار العملة لإمتهاداته. وكلا العادتين، والتي اختص بها الحكام أنفسهم كرمز لإمتهادات الولاية، وللوحدة الروحية للإمبراطورية الإسلامية، السياسية والدولية، يبدو أنهما نالا إعرافاً وقبولاً منذ بواكير العهد الإسلامي، كإمتهاد للعاهل، من قبل المفكرين المسلمين ومن المسلمين عموماً. وبمرور الوقت، وعندما يكون أحد الثوار، ضد سلطة الخليفة، محظوظاً للدرجة التي تمكنه من خلع تبعته للخليفة، ويرغب بالتالي في تثبيت وترسيخ سلطته الجديدة، حسيماً تتيج له الظروف، فإن أول ما يبدأ به هو ضرب عملته الخاصة به ثم تعميم الدعاء له في خطب الجمعة من منابر المساجد.

وعندما أدخل عبد الملك بن مروان عادة ضرب العملة بشكل معين، في العهد الأموي، حوالي عام ٧٥ للهجرة (٦٩٤) لم يضع اسمه اطلاقاً "منقوشاً" على العملة. وفيما بعد، وفي العصر العباسي، شرع الوزراء أو حكام الأقاليم في نقش عملاتهم بأسماء مدن الإقليم التي كانت أول ما صكت العملة فيها، وأحياناً كانوا ينقشون أسمائهم عليها.

ولم يفكر الخلفاء في نقش أسمائهم على عملاتهم إلا بنهاية القرن الثالث الهجري أو بداية الرابع، وذلك عندما تكررت الثورات وشاعت وبدأت الوحدة الإسلامية تتهدد من جراءتها.

وحتى ذلك الوقت كان من الواضح أن إمتياز ضرب النقود موكلاً بالخلافة فقط. ولكن عندما ذهب بعض حكام الأقاليم بعيداً لدرجة كانوا يعنون فيها استقلالهم، فقد أصر الخلفاء على الاحتفاظ، ولو اسمياً على الأقل، بمظاهر سلطتهم على الأقاليم المتمردة والتي كانت أبعد من أن تطالبها أيديهم. وبالتالي فقد ألزموا هؤلاء الحكام، الذين اغتصبوا أيأ من حقوق الخلافة، بالمزيد من الجباية، كما أصرروا عليهم بضرورة نقش أسماء الخلفاء مع أسمائهم بالنقود، وعلى أن تقرأ الخطبة بأسمائهم جنباً إلى جنب مع أسماء الأمراء الذين كانوا في واقع الأمر مستقلين بالفعل، والذين كانوا يحكمون أقاليمهم كملوك متوجين. وقبل معظم هؤلاء الأمراء السيادة الروحية، وحتى السيادة السياسية، للخلفاء العباسيين، وذلك طالما لم تأخذ ثورتهم (الإنفصالية) الطابع الديني.

* إضافة من المرب.

وفي مصر قامت أسر الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين والمماليك، والذين توالوا على حكم مصر، بضرب عملتهم بأسماء خلفاء بني العباسي في بغداد. وبعد تدمير هولاكو خان بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي وانتقال الخلافة للقاهرة قام المماليك بضرب العملة التي تحمل أسماء أولئك الخلفاء، وذلك بعد أن تمكن المماليك من السيطرة على مصر، وعاملوهم كخلفاء من النواحي السياسية والدينية، ولكن بدون السماح لهم بممارسة الحكم أو تحمل أي مسئوليات دنيوية سلطوية. وكان هؤلاء الخلفاء في حقيقة الأمر شبه سجناء بأيدي سلاطين المماليك، وكانوا رغم احتفاظهم بلقب الخلافة قد أرغموا على تفويض كل سلطاتهم الدينية والمدنية والسياسية والعسكرية لسلاطين المماليك، والذين اتخذوا لقب "السلطان الظاهر" أو ما يعني "السلطان حسب الأمر الواقع" أو "السلطان الزمني أو المفوض".

ولم يكن هناك إستثناء لتلك القاعدة إلا في حالة الأمراء العبيديين، والمعروفين باسم الفاطميين، والذين إتخذوا "الخلافة العالمية" كمبدأ لهم. وكان عبيد الله المهدي، الذي أسس نفوذ هذه الأسرة في إفريقيا، قد ثار على خلفاء العباسيين في بغداد في القرن العاشر الميلادي. وقام خلفاؤه بغزو مصر وسوريا والجزيرة العربية وفصلوها من الخلافة العباسية دينياً وسياسياً. وظلت سيادتهم على تل البلاد مطلقة لقرنين من الزمان، وضربوا النقود وقرنت الخطب بأسمهم بدون أي ذكر لأسماء الخلفاء العباسيين. وبهذا أكدوا سلطاتهم المطلقة المضادة تماماً لخلفاء بني العباس.

وفي واقع الأمر لم تستمر تلك الفترة لأكثر من قرنين إتفصلت فيهما مصر عن سلطة الخلافة، بعدها عاد أمراؤها الجدد لضرب النقود وقراءة الخطبة بأسمائهم في توافق مع خلفاء بغداد والذين كانوا من السنة عموماً. كانت لهم السيادة الفعلية لكنهم، بعكس الفاطميين، أيدوا سيادة الخليفة ووحدة قوة الإمبراطورية الإسلامية ولم يعارضوا حقوقه المقررة.

وعندما إفتتح السلطان سليم مصر في عام ٩٢٦ هجرية (١٥٢٠ ميلادية)، قام بإرغام آخر خلفاء بني العباس، محمد المتوكل علي الله، والذي كان آخر الخلفاء الروحيين المقيمين بمصر، على التنازل له عن كل حقوق الخلافة وأعلن نفسه الخليفة الوحيد لرسول الله وأيده في ذلك كل الناس الذين حكمهم مثلما أيدوا من قبل وريث البيت العباسي السني.

ومنذ ذلك الوقت، وفي مصر، كانت خطبة الجمعة تقرأ باسم سلاطين آل عثمان، وكذلك كانت النقود تضرب باسمهم. وحتى يومنا هذا، لم يجرؤ أي حاكم لمصر، سواء كان ثائراً على السلطان، أو حتى في حرب معه، على انتهاك هذا القانون الأساسي للإمبراطورية العثمانية. ولكن، وبنهاية القرن الماضي، نجد خرقاً نسبياً لهذا التقليد، وذلك أمر شبيه بما فعله الأمراء التابعين للخلافة العباسية من قبل. فبينما قام أولئك الأمراء بنقش أسماءهم كاملة بجانب اسم الخليفة، إلا أن على بك اكتفي منذ عام ١١٨٣هـ (١٧٦٩م) بكتابة الحرفين الأوليين من اسم (على) تحت اسم السلطان (التركي) مصطفى الثالث، ابن السلطان أحمد الثالث، وذلك على عملته الذهبية. وهناك نموذج لتلك العملة بالمتحف البريطاني، وضعت تحت الرقم ٦٤٥ من المجلد الثامن كتالوج العملات الشرقية بمتحف لندن عام ١٨٨٣. وفي عملتين ذهبيتين أخريين، من نفس المجموعة، ضربت عام ١١٨٦هـ نجد أنه، حتى تلك المحاولة لتأكيد السيادة، قد إختفت تماماً.

وعند ضرب عملته الفضية، ويبدو أن علي بك قد إزداد جرأة، نجد أن القطعتين الموجودتين بالمتحف البريطاني تحملان على ظهرهما اسم (علي) كاملاً، وقد ضربتا في العام ١١٨٣. ولكن نقش علي وجه القطعتين (طغرة) السلطان مصطفى الثالث.

وبالإضافة لتلك القطع، والتي كان قد وصفها أصلاً المستر ستانلي لين بول في كتابه المصور (كتالوج) عن العملات الشرقية، الموجود بالمتحف البريطاني، فإن فرنسياً آخر هو ج.ج. مارسيل قد وضع كتالوجاً سمي "المجموعة العالمية للعملات" جاء في مجلد بعنوان "مصر، بعد عودة العرب للحكم، بعد انتهاء السيادة الفرنسية" وفيه يبرز صوراً للعملة الفضية التي وصفناها أعلاه.

إن مقصدي مما أوضحت أعلاه هو بيان أن الأمير، ومهما كان قوياً ومسيطرأ على إقليمه، لم يكن ليجرؤ على نقش اسمه فقط على العملة التي يصكها. نفس الحال مع الخطبة والتي لا يذكر فيها اسمه إلا بعد اسم السلطان العثماني والذي هو، بحكم القاتون، السلطان الشرعي لمصر، والخليفة العالمي للإمبراطورية الإسلامية السنية التي لا تنقسم.

أما في وادي النيل، وبخلاف القاهرة والإسكندرية، فأنتني لا أعرف بأن عملة قد ضربت قط منذ الفتح الإسلامي. ومنذ الغزو العثماني لمصر كانت كل العملات التي تصك هنا تحمل كلمة مصر - أو القاهرة.

أما في السودان، وقبل فتحه بواسطة محمد علي باشا (١٨٢١) ودمجه في مصر، فقد كانت كل المعاملات تتم إما بالمقايضة أو بعملات معدنية ألمانية أو أسبانية أو مكسيكية (أو نمساوية) أو فروش أخرى. ولم تكن العملات الذهبية معروفة لحد ما. ولكن كانت هنالك تجارة مزدهرة في (برادة أو تراب الذهب)، والسياك، أو الذهب المشكل بصور الحيوانات وبوزن محدد. لكن هذا الذهب لم يكن محل النقود وإنما كان سلعة تدخل في التجارة. ولم ينتشر استخدام النقود الذهبية والفضية في السودان والنيل الأعلى إلا بعد ضم الحكومة المصرية له ولساحل البحر الأحمر. ورغم ذلك كان للعملات الذهبية قيمة ضعيفة حتى أنه، وقبل خمسة عشر عاماً فقط وأثناء الحرب الحبشية - (المصرية)، فإن جنودنا كانوا يبادلون الأحباش العملة الذهبية المصرية في مقابل الريالات الفضية الألمانية. وذلك بواقع خمسة أو ستة جنيهاً لكل ثيلر ألماني فضي.

وفي الوقت الراهن، وفي شمال السودان المصري على كل حال، وبالرغم من أن المعاملات التجارية تتم في معظمها بالمقايضة، إلا أن النقود الذهبية والفضية معروفة هناك ومحتفظ بقيمتها الفعلية.

ومنذ ثورة محمد أحمد المهدي، سمعت بأن هذا (الرجل) قد صاغ نقوداً ذهبية وفضية باسمه شخصياً. ولقد ذهلت لهذا النبأ، الذي يتجاوز كل العادات والتقاليد، وبدا الأمر بالنسبة لي عملاً جريئاً للغاية، وظللت أشك فيما سمعت لفترة طويلة حتى تفضلت علي مكارم الجنرال السير جرنفل، سردار الجيش المصري، بإعطائي قطعة (نقد) ذهبية وقطعتين فضيتين من (ضرب) السودان. وفيما بعد أعارني أباطة باشا قطعة فضية أخرى كانت تخصه. تلك القطع هي التي سأقوم بوصفها الآن:

القطعة الذهبية (السودانية):

تشبه القطعة الذهبية المصرية التي تعادل قيمتها ١٠٠ قرش مصري ما عدا أنها ليست كبيرة الحجم ولكنها أكثر سمكاً من مثيلتها التي ضربت في القاهرة.

وهي تزن ٨ جرام و٢١ حبة وقطرها يبلغ ٢,٣ سنتيمتر. وعلى وجهها طغرة السلطان عبد المجيد غير كاملة وسيلة النقش. وعلى ظهرها كتب تاريخ ١٢٥٥ هـ (خلافة ذلك السلطان) ثم الرقم (٢) الذي يشير إلى أن القطعة قد ضربت في السنة الثانية للخلافة. وأخيراً نقش على العملة كلمة (مصر) بمعنى أنها ضربت في القاهرة.

من هنا فأتينا لا نجد شيئاً ملفتاً حول تلك القطعة. وربما يمكن اعتبارها من عمل مزيف غير ماهر للنقود.

ويبدو أن تلك القطعة قد ألغيت ولم تضرب. وعندما تمت معايرتها بحجر النار سجلت ٢٣ قيراطاً بدلاً عن ٢١ قيراط مما يدل على جودة السبيكة وتفوقها على السبيكة المصرية*. وباختصار فليس في تلك القطعة ما يجعلها مميزة لادعاءات المهدي بأنه الزعيم العالمي والفريد للعالم الإسلامي وباقى العالم**.

القطع الفضية:

تشبه الأخريات من ناحية النقوش التي عليها. وقد قلادت بعناية فيما يختص بالطغرة وكذلك زخرفة القطعة ذات العشرين قرشاً المعروفة باسم (المجيدية) الإسطنبولية. ويبدو أن السبيكة هي نفس سبيكة المجيدية. وعلى وجهه نقش الطغراء تقليداً لطغرة السلاطين العثمانيين، ولكن بدلاً عن النقوش المعتادة لسلاطين العثمانيين فقد نقشوا علي (راحة اليد)*** التي تكون الشعار النقش التالي:

* لقد قام زملاؤنا العلماء فراتز باشا وجيجنود بك بفحص القطع الذهبية والفضية تلك وأعلنوا بأنها قد ضربا ولم يتم إلغاؤها. وقد قمت يوم ١١ ديسمبر ١٨٨٧ بلخذ تلك القطع للفحص في (مصنع) سك النقود بالقلعة. وقام المختصون هنا، من ذوي الخبرة والمهارة في مثل تلك الأمور، بالفائدة بأن القطع الذهبية والفضية قد ضربت ولم تلغى.

** تلك القطعة الذهبية والقطع الفضية كان قد حصل عليها الكولونيل تشير مسايد، والذي اشتراها خصيصاً لي بناء على رجاء من الجنرال السير فراتمس جرنفل، سردار الجيش المصري.....

تعليق من الكولونيل تشير مسايد

"لقد صدك المهدي نوعين من العملة: الريال المجيدى باسمه الخاص، والجنية المصري الذي يشبه الجنية المصري الذي تصدره الحكومة. لكنه يختلف في النقش والمكيط. وذهبه من النوع السنارى، وهو أنقى أنواع الذهب ولا يصدر عنه رنين عندما يختلط مع قطع العملات الأخرى..... وفيما بعد ضرب الجنية المصري باسمه، لكن هذا الجنية نادر جداً رغم إمكانية الحصول عليه.

*** الطغراء هي في حقيقة الأمر تمثل سمة أو بصمة باطن اليد عند وضعها على ورقة. فالأصبع الصغير يوضع منفرداً على الناحية اليسرى باتجاه الجزء العلوي، ويعدده الأصابع الثلاثة التالية والتي توجد مضمومة ومتجهة للأعلى أيضاً. أما الإبهام فيميل إلى اليمين باتجاه الأسفل. أما المكان الذي يمثل راحة اليد فهو في الجزء السفلي رابطاً بين الإصبع الصغير والإبهام، وفي ذلك المكان يكتب إسم السلاطين وإما أباءهم أو أجدادهم حسب مقتضى الحال. أما الأصابع فتكتب دور الحروف المتطاولة التي تكون النقش نفسه وبهذا تتكون مجموعة متشابهة من الحروف، منتظمة لدرجة مدهشة، وبخط جميل وشبه كتابة الخطاطين بالحروف اللاتينية أو الفوطية الأوروبية.

أما على الوجه الآخر (الظهر) فقد كتب النقش في أربعة أسطر:

٥
ضرب
في
الهجرة
١٣٠٢

والرقم "٥" فوق كلمة "ضرب" تشير إلى عدد السنوات التي إنقضت على بداية البعثة (الثورة) الدينية والملكية (السيادية) التي عزاها محمد أحمد لنفسه. وكانت القطعة الأولى منهما تزن ٢٣ جرام و ٥٥ حبة وبلغ قطرها ٣ سنتيمترات و٧٨.٠٠.

القطعة الثانية تزن ٢٣ جرام و ٤٠ حبة وبلغ قطرها ٣ سنتيمترات و ٠.٦ وتلك القطع الثلاثة، الذهبية والفضية، هي الآن من ضمن مقتنياتي للعملات العربية وقد حصل لي عليها مشكوراً الجنرال السير جرنفل، كما سبق أن أوضحت.

وهناك قطعة ثالثة يمتلكها الدكتور أباطة باشا، وقد أذن لي مشكوراً بفحصها. وهي قطعة فضية تشبه تماماً القطعتين اللتين بحوزتي. وهي تزن ٢٣ جرام و ٥ حبة وقطرها ٣ سنتيمترات و ٧٥. وكما أوضحنا قبل، فإن هذه هي المرة الأولى منذ الفتح العثماني التي تجرأ فيها أي أحد من وادي النيل، بالإشهار علناً لادعاءاته بأن له مطلق السيادة والسلطة العالمية، وذلك بضرب عملة باسمه. وهي المرة الثانية منذ دخول الإسلام لمصر التي يقوم فيها فاتح محظوظ بالتحدي المباشر للخلافة السنية المعترف بها عالمياً في هذا الوادي. فالأول كان عبد الله المهدي ابن عبيد الله والذي رفع عام ٩٠٩ راية الثورة على الخليفة العباسي والذي قام خليفته الرابع، المعز لدين الله (الفاطمي) بفتح مصر وبناء مدينة القاهرة في عام ٩٦٩ للميلاد.

أما الثاني فهو محمد أحمد المهدي، والذي رفع عام ١٨٨٠* راية الثورة في السودان وانتزع من الخليفة العثماني كل تلك البلاد التي تمتد (شمالاً) إلى وادي حلفا.

وكما هو الحال مع مهدي القرن العاشر، فإن هذا الزعيم الديني، المهدي، ول يؤكد ادعاءاته، قد قام بالمعارضة والتحدي العلني للسلطة المعترف بها عالمياً لرئيس الطائفة السنية الإسلامية وألزم (المساجد) بقراءة الخطبة باسمه. وقد أقتعتي كل تلك الأحداث بأن دراويش السودان وأتباع المهدي لا يفكرون مثلاً بفكر نحن هنا. ولا أظن أن تلك الحركة موجهة أو مدفوعة فقط ضد الغرباء النصاري، ولكن ضد أي غريب أو مواطن، مهما كان، يرفض الاعتراف بسلطة المهدي أو لا يعترف بحقيقة رسالته التي بترهن علني قد سيته. فالمهدي الذي توفي منذ عهد قريب كان مصلحاً دينياً مثل مهدي الفاطميين في القرن العاشر. ولكن بينما كان الأخير يحظى

* الصحيح أغسطس ١٨٨١م (المغرب).

بأن جدوده هما علي وفاطمة، ابن عم^{*} وإبنة الرسول، فإن الأول، مهدي السودان، يقدم نفسه كسلف للمسيح، وآخر رسل الله^{**} وبهذه الطريقة فهو يمثل السلطين الروحية والدينيوية على الأرض. وقد أصر على أنه يجسد في شخصه العقيدة الدينية، والقوة الكهنوتية ووحدة العالم الديوي. لقد كان، باختصار، أميراً للمؤمنين في عين أتباعه، والذي يمكنه عن طريق قواه الروحية أن يفز كل العالم، وأن يدخل كل الجنس البشري في الإسلام. وهذا ما وضع لي جلياً وبما لا يقبل الشك، لأن خليفة عبد الله لم يتردد بعد وفاته في إتخاذ لقب الخليفة لنفسه. ومن الممكن، بسبب من الحرب أو غيرها، عودة السودان مرة أخرى إلى حظيرة الخلافة السنية للإمبراطورية العثمانية مثلما فعل ذلك (صلاح الدين الأيوبي) في القرن الثاني عشر عندما أعاد مصر مرة أخرى لحظيرة الخلافة السنية في بغداد، وذلك عندما أستولي علي الحكم من آخر الخلفاء الفاطميين الذين كانوا، ولقرنين كاملين، المنافسين الروحيين في مصر للخلفاء (من بني العباس). فمن الممكن، وأكرر هذا، أن يعود السودان المصري ثانية لحكم المصريين، والذين عملوا علي مدي خمسين عاماً علي نشر السلم والحكم المنظم في أنحاء مديرياته وذلك بكبحهم التدريجي للقبائل المتوحشة وتعويدهم علي اختيار الاستقرار بدلاً عن حياة النزوح والتجوال. ولكم برغم ذلك فمن الحق أن نقول بأنه، وخلال فترة طويلة نسبياً استمرت منذ عام ١٨٨٠، فإن كياتاً سيادياً مستقلاً، مضاداً للسيادة العثمانية، قد حكم السودان ومكن سلطته ونفوذه عليه بدرجة مطلقة، ومنها ادعائهم الخلافة. وقد سکوا النقود وقرأوا خطبة الجمعة باسمهم عند إقامتهم للصلوات.

ملحوظة:

بغض النظر عن الملاحظة التي أبديتها أعلاه، والتي تتناول مسألة إن كان المهدي قد ضرب تلك العملة، أم قام بسكها، فأنتني أعتقد بأن المذكرة التالية التي كتبها زميلنا العالم دكتور بونولا، سكرتير الجمعية الجغرافية الخديوية، والخاصة بمعلومات تمكن من الحصول عليها، ذات أهمية تبرر إيرادها في هذا المجال:

نبذه عن العملات النقدية

لمهدي السودان

" بعد يومين من النقاش الذي دار بخصوص عملات المهدي، وصل للقاهرة، قادماً من سنار، أحد الجنود. أرسلت إليه وسألته إن كان بحوزته أي عملات للمهدي. فأجابني بقوله: "لا لأنه لم يعد في سنار أي قطع منها. وأن القطع القليلة التي كانت متداولة قد إنتهت، لأنه لم يكن بحوزتهم ماكينات لضرب النقود. بجانب ذلك، فقد رفضت تلك القطع في أي مكان لأنك يمكنك أن تكسرها بيدك". ثم رجعت إلي المستر سانتوني، مدير البريد بأسويوط، والذي له علم واسع بشلون السودان. فأجابني بقوله:

* ابن أخ الرسول كما جاء في الكتاب وصحناه (المعرب).
 ** لم يذكر الإمام المهدي قط بأنه سلف أو خليفة للمسيح أو أنه من رسل الله أو آخرهم (المعرب).

(فيما يختص بعمليات المهدي فأتني على علم بأثنتين منهما هما ألمجيدي والجنيه، الذي يشبه الجنيه المصري لكنه يصنع من ذهب سوداني خالص. ولدي بعض قطع منه، لكني لا أشك في أنها قد انتهت. وهذا هو أيضاً رأي المستر وايت، كبير مهندسي السادة كوك وأولادهم بأسبوط".

(وهذا المهندس قد أمضى فترة طويلة من عمره في الورش الهندسية، وله إدراك واسع بالمعادن وتركيبها. إضافة لهذا، فقد كان لي بالخرطوم تعامل واسع مع الصاغة السودانيين والذين يقومون بالعمل في إذابة المعادن وصكها ولهم مهارة عالية في ذلك. وإذا ما كان بالخرطوم آله لسك النقود فإن غردون باشا لم يكن ليلجأ للسباكين لسبك الميداليات الذهبية والفضية والبرونزية التي تحمل شعار (حصار الخرطوم) وغيرها من النقوش العربية، والتي كان قد صنعها ووزعها على المدافعين عن المدينة). "وقد رجعت أيضاً إلى الأب بونومي والذي أشار إلى الاستعانة برأي الأب ليون هنريوت بأسوان والذي عاش طويلاً في أم درمان، وكان أيضاً مع المهدي. فاتصلت بهذا السيد بغرض الحصول على معلومات أكثر دقة. وفيما يلي أقدم نبذاً من خطابي الأب هنريوت والأب بونومي عن موضوع السؤال: "أراد المهدي بعد فتح الخرطوم أن يضرب النقود - جنهيات وريالات وقروش - لكن قروشاً قليلة هي التي ضربت. وقد ذكر بعض الناس بأنه تسلم آليات سك النقود الحكومية، وقال البعض الآخر بأنه تسلم في الأبيض، أو في ضواحيها، المعدات التي تعود إلى أحد مزيغي النقود. لكن موصلني وإسكندر شيا ما قالاً بأنه قد جمع كل الصاغة بمدينة الخرطوم وحولهم إلى صناعات النقود وسباكيها. وقد أنهى كل ما وضع تحت تصرف الصياغ من ذهب وفضة. كان من بين أولئك الصناع من له مهارة كبيرة وقد تعود على عمل السباك من المعدنية وخطها من مختلف الأنواع. وكان الريال يزن أكثر من ريال الحكومة. ونفس الحال مع الجنيه (الذهب). وبجانب الصياغ الذين استخدمهم الدراويش، فإن هناك بعض الذين يضربون نقوداً ألين وأخف وزناً من نقود الحكومة لتصرف كمربيات شهرية للجنود والأنصار. ولما كان الآخرون يغشون الأسواق، فقد كان التجار لا يقبلون إلا بدفع أربعة ونصف ريال (قديم) للجنيه بدلاً عن خمسة ريالات، وسبعة قروش (قديمة) للريال (الجديد) بدلاً عن عشرين قرشاً، مما دعي كل من الدراويش والأنصار للشكوى من هذا الأمر. وقد أصدر المهدي والخليفة - أمراً بضرورة قبول تلك النقود بقيمتها العادية وهددا بالعقاب الصارم كل من لا ينفذ هذا الأمر. ورغم تلك التهديدات فلم تسفر تلك الأوامر على أي نتائج وماتت في مهدها. وتشكك الكثيرون في تلك النقود، وكان التجار الذين يبيعون الماشية أو المؤن لبيت المال يعطون الريال مقابل عشرين قرشاً، والجنيه الذهب مقابل مائه قرش. وبهذا يحصلون على سبعة أو تسعة قروش على الريال ومن ٧٢ - ٧٦ قرشاً للجنيه. وكان تجار آخرون يصبون جنهيات الدراويش الذهبية ونقودهم الفضية في أشكال وقوالب ويرسلونها لمساكن أو أسوان، ودرائو وكروسكو وحلفا وإلى أماكن أخرى وبهذه الطريقة كانوا يربحون نصف ريال في كل جنيه ذهب، وبضع قروش لكل ريال ألماني. وأنتهى ذلك بتوقف الخليفة عن صنع النقود المهدية وعادت المعاملات التجارية تجري بمقادير ذات وزن معلوم من الذهب والفضة بدلاً عن النقود.

"وكانت تلك هي المعلومات التي تمكنت من جمعها حول هذا الموضوع". وأضاف الدكتور بونولا في ختام مذكرته: "وأعتقد بأن ما جاء في تلك المعلومات فيه الكفاية".

ملحوظة من المؤلف:

الخطاب التالي (المأخوذ من "مفتر النجومي"، الذي غنم في توشكي يوم ٣ / ٨ / ١٨٨٩، له أهمية خاصة حيث أنه يتعلق بالموضوع الذي جاء في ورقة صاحب السعادة أرتين باشا. والخطاب كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

من خليفة المهدي

إلى أحبائه في الله، وخاصة التجار والمتعاملين، وآخرين:

يا إخواني:

لا يخفي على عقل الرجل الذكي بأن لهذا العالم رجاله، كما أن للعالم الآخر أيضاً رجاله. وقد قال الرسول إن رجال هذا العالم ليسوا كمثل رجال العالم الآخر.

فالمؤمنون حقاً هم الذين يختارون العالم الآخر ويفضلونه، ويستعدون له بفعل الخير والمشي على خطي صحابة الرسول ويتحملون الأذى صابرين محتسبين. لكن رجال الدنيا يجمعون الثروات معاً ولا يصبرون عند الضيق والكرب. بل هم يلتفتون تماماً لملذات هذه الدنيا ومتعها. ومن المعروف لكم أن هؤلاء الذين يمتلكون الكثير من متاع الدنيا سيقطعون عن العالم القادم وسيضرب حجاب بينهم وبين ذلك العالم القادم.

لذا فإن هؤلاء الرجال يخادعون أنفسهم، إذ أن كل النعيم والسعادة إنما تأتيان من الله وحده. أما الذين يبحثون عنها في كل مكان فلن يشبعوا أبداً منها. ولقد وعظكم المهدي بهذا الصدد وأنذركم من الركون لهذه الدنيا ولنعيمها ومتاعها. فتمسكوا إذن يا إخواني بحبل الله.

وإنكم على علم تام بأن الإمام المهدي كثيراً ما حرر لكم منشورات بضرورة قبولكم لأي نوع من النقود ولا ترفضوا أيّاً منها وضرب أمثلة كثيرة على ذلك، وكذلك فعلت أنا نفس الشيء.

ولا زلت أسمع منكم جدلاً حول هذا، ولاحظت بأن أوامراً لا يعمل بها، وبأنكم لا زلتم تتشاجرون مع بعضكم البعض وتعرضون على قبول العملة.

هذه فضيحة عظيمة تمس كل المسلمين الصالحين. لذلك فأنني مرة أخرى أصدر هذا المنشور وأحذركم لتتوقفوا مرة ولأبد عن ترددكم في قبول النقود من كافة أنواعها، والريالات بكافة أشكالها حتى لو لم تكن نقوشها واضحة أو ممسوحة.

وكذلك الجنيهاً والقروش سواء أكانت كباشية أو سكجندية أو مصرية، سواء كانت ممسوحة أم لا. ويجب تداول تلك النقود في معاملتكم مع عدم تغيير قيمتها الفعلية سواء كانت ممسوحة أم لا.

وإذا رفض أيّاً منكم قبول عملة ممسوحة، حتى لو كانت قرشاً واحداً، فسيعاقب بمصادرة كل ممتلكاته، لعدم طاعته للأوامر طبقاً لمنشوراتنا الصادرة بهذا الصدد.

والأمر التالي يجب أن يطبق فوراً: أن تباع كل أربعة ياردات من الدمور بربع ريال في كافة أنحاء السودان.

لذا أحذروا من عصيان الأوامر وما سيعقبها من عقاب شديد.

القسم العاشر أحداث عام (٨٨٧ هـ)

الملخص:

الحدود على النيل - تقدم النجومي شمالاً - وصول رسل الخليفة الأربعة لأسوان - خطاب لصاحبة الجلالة الملكة - ولصاحب الجلالة السلطان - ولصاحب السمو الخديوي - للطائفة والعائلة الميرغنية - خطابات غردون الخاصة بالسيتين فاطمة ونفيسة الميرغني - خطاب الخليفة لكبير المراعنة - وصول قافلة من دارفور لأسبوط - وصول الأمير النور الكنزي لمسرس مع قوة عسكرية - معركة سرس في ٢٨ أبريل - التحركات العسكرية من أبو حمد لمهاجمة الأجنحة والأطراف - الأمير بحر كرار - الغارة على العلاقي - الانقضاء على إرمنة - شيوخ العبادة وما قاموا به - العدو يعيد احتلال سرس - الاشتباك في عكة - تحويل سرس لمحطة أمامية دائمة للقوات العربية - وباء الجدري - دارفور - السلطان يوسف والموقف من غارات كرم الله - المقدوم جاروت يستأصل واحدا من فصائل كرم الله التي تقوم بالغارات - المقدوم لمبو يفاجئ الطويشة بالهجوم ويطرده كرم الله من دارا - السلطان زايد يلحق هزيمة قاسية بالأمير كتنبور - الخليفة يرسل عثمان آثم (جاتو) لاستعادة النظام في دارفور - ينضم لكرم الله ويهزم الدار فوريين - الاستوائية - الكتيبة الأولى تتخلي عن ولايتها - الثورة في الرجاف - أمين ينسحب إلى مهاقي - التمرد - دكتور بونكر يصل لأوروبا وتعاطف الجمهور مع أمين - حملة إنقاذ أمين باشا - المستر ستانلي يتطوع لقيادة الحملة - الأمر السامي لصاحب السمو الخديوي - حملة الإنقاذ تتوجه عن طريق الكنفو وأرو ويمي - أمين يسمع بقدم ستانلي - شرق السودان - ارتداد القبائل عن المهديّة - عثمان دقنة في كسلا - قبيلة الحمران - شيخ عجول - صالح بك شنقة - العرب والحباش - موقعة مدانا - هزيمة العرب ومقتل ود أرباب - خطاب الخليفة للملك يوحنا - إرسال يونس الديكيم للقلابات - تولي حمدان أبو عنجة قيادة الجيش العربي على الحدود الحبشية - معركة دهراسن وانتصار أبو عنجة - وصوله لفندار ونهبها - عودته للقلابات - النبي (عيسى) في القلابات يستقطب عدة أمراء للمهديّة - اعتقاله وقطع رأسه - رؤيا الخليفة حول تعذيب النبي عيسى بنيران جهنم - عودة أبو عنجة لأم درمان - الانقسامات في شرق السودان - ود عجول يكتب لصاحب السمو الخديوي - ثورة عرب الرفاعة بالنيل الأزرق - ثورة أبو كلام - انتقام الخليفة - حركة صالح بك الكباشي - صاحب السمو الخديوي يكتب رسالة له - الجنرال قرنفيل يرسل بنادقا له - القبض على تشارلس نوفيلا - صالح يقاتل الأمير جريجير في أم بادر والمحبس - هزيمته ومصرعه - والده صالح تصف المعركة - الانشقاق بين الهندوة والأمراء - موت الملازم ستوارت (من البحرية الملكية) - تحطيم مستعمرة حتيمة - وصول عثمان دقنة إلى مندوب - الحلف القبلي المعادي للمهديّة - معركة دارا والغارة على طرة.

الحدود عام ١٨٨٧:

ظلت الحدود هادئة طوال الشهور الأولى من عام ١٨٨٧. وكان النجومي مشغولاً في دنقلا في جمع التعزيزات وإثارة الأهالي للانضمام للعمليات التي طال الحديث عنها للتوجه للشمال. لكن عمليات صالح الكباشي جعلت من المستحيل عليه أن يتقدم كما كان يأمل. فقد كان في خوف دائم من هجوم على مؤخرته وكان كل ما أمكنه القيام به هو إستمراره في إرسال أقسام صغيرة من قواته شيئاً فشيئاً للشمال. وبنهاية مارس كانت فرقة قد أعيد احتلالها من قبل العرب بقوات كبيرة بقيادة الشيخ الطاهر والنور الكنزي. وفي الخامس عشر من أبريل غادراها صوب الشمال.

وفي حوالي هذا الوقت حدث شيء مثير للإهتمام. ففي الثاني عشر من أبريل وصل حلفاء أربعة رسل من العرب، أرسلهم الخليفة عبد الله من أم درمان. وسمح لهم بالتوجه نحو القاهرة لأنهم كانوا يحملون رسائل لجلالة الملكة و لجلالة سلطان تركيا ولصاحب السمو الخديوي. وفي القاهرة سلموا الرسائل للأخير. كان خطاب صاحب السمو خطاباً طويلاً حوى تفصيلاً للنجاحات التي أحرزتها قوات المهدي على قوات الحكومة، وتحضه على اعتناق المهديّة، وتنصحه بالآلا يضيع الوقت بل يتحرك فوراً لأم درمان لإعلان خضوعه بنفسه. وأنتهى الخطاب بالتهديدات المعتادة بغزو بلاده إذا لم يستجب لتلك الأوامر! أما خطاب السلطان فكتب بنفس العبارات، كما أرفق مع الخطابين عدداً من كتب الصلوات المهديّة والتي استمتع السلطانان بدراستها بغاية. أما الخطاب الموجه للملكة فسنورد ترجمته الكاملة هنا، وقد صحبه أيضاً نسخاً من خطابات المهدي لغردون، مؤرخة في التاسع من مارس ١٨٨٤* وإذاراته لهكس باشا**، والتي نصح الخليفة صاحبة الجلالة بقراءتها وأخذها في الاعتبار.

من الخليفة عبد الله إلي جلالة الملكة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم والصلاة علي سيدنا محمد وعلى آله

مع التسليم!

من العبد المعتصم بمولاه القاهر خليفة المهدي عليه السلام عبد الله بن محمد خليفة الصديق إلي عزيزة قومها فكتوريا ملكة إنجلترا***. السلام على من اتبع (المهدي)**** أما بعد فاعلمي أن الله عز وجل هو ملك الملوك القادر المقدر الذي ليس كمثلته شيء وجميع ما في الكون فهو في حيز قبضته لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. ولو أراد أن يهلك أعداءه في أقل من خطرة بال لكن جديراً بحصول مراده ولكنه لكرمه يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين. وقد أرسل الرسل الكرام لإيضاح السبل للأمام وجعل نبينا محمداً خاتمهم رسولاً عاماً إلي كافة الخلق بشيراً ونذيراً وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيراً فكان ناسخ الملل وفاسخ

* أدرجناه في القسم الخامس من الكتاب.

** أوردناها في القسم الرابع من الكتاب.

*** ملكة بريطانيا كما جاء في تاريخ نعيم شقير، طبعة ١٩١٧، صفحة ١٠١٥ (المغرب).

**** السلام على من اتبع الهدى (المغرب).

الدول***** وكل من أمن به وصدق ببعثته فاز برضاء الله وأدرك من الحظ الأوفر ما تمناه. ومن كفر به وأنكر بعثته باء بخزي من الله وصار إلى النار وبئس القرار.

ولما كان المهدي المنتظر هو خليفة نبينا محمد الذي أظهره الله لدعوة الناس كافة إلى إحياء دين الإسلام وجهاد أعدائه الكفرة النمام. وأنا خليفته القافي أثره في ذلك فأنني أدعوك إلى الإسلام. فإن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإتبعك المهدي عليه السلام وأذعنت لحكمي فأنني سأقبلك وإبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير وتكونين آمنة مطمئنة لك مالنا وعليك ما علينا وتتصل بيننا المحبة في الله ويغفر الله لك جميع ما فرط منك في زمن الكفر كما وعد بذلك في قوله تعالى قل للذين كفروا أن ينتهوا بقفر لهم ما قد سلف. وإن أبيت إلا الجحود - اعتماداً على ما عندك من الإستعدادات والجنود فاعلمي أنك في غرور كبير وبعد عن السداد والتدبير إذ أن ما نحن بصده فهو الدين الحق الذي تكفل الله الملك القادر بنصرته وتأييده ورفع منارته وتشبيده، فلا طاقة لأحد بمقاومته ولا سبيل إلى مغالبتة، ضرورة أن قدرة الله غالبية فلا تقاوم، وبطشه شديد فلا يصادم. وإن كنت تظنين توهماً أن جيوش المهدي القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر أحمد باشا عرابي الذين أدخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتوا بها عن دينهم وتخذلوا عن نصرته ومكنوك من الإستحصال علي البر المصري وصاروا أذلة أسرى لا يستطيعون المدافعة عن أنفسهم فهذا توهم فاسد وغرور كاسد. فإن رجال المهدي رجال الهيون* طبعهم الله على حب الموت وجعله أشهى لهم من الماء البارد للظمان فلذا صاروا أشداء على الكفار كأصحاب رسول الله الأبرار لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يثيبهم عما هم بصده صدمة صادم بل لا يرون لجميع ما سوي الله التأثير، ليقينهم بربهم القدير. ولا يريدون حياة الدنيا الذاهبة الساحرة وإنما يرون أن نعيمهم الدائم وعيشهم الناعم معد لهم في الدار الآخرة. بخلاف أولئك** فأنهم لو صدقوا مع ربهم وكتابوا علي حسن إسلامهم وطرخوا حب الدنيا وراء ظهورهم وحفظوا الله فيما أمرهم به لأمدهم الله بنصره ولما توصلت عساكرك علي هزمهم والإستيلاء علي بلادهم ولو نظرت بعين الإحصاف والبصيرة لعلمت الفرق. ثم مما يقضي عليك بتمني الغرور الفاسد منك*** أنك بعد أن بلغك ظهور المهدي المنتظر عليه السلام ومحاربة دول الأتراك له وظفروه بهم في عدة وقائع سولت لك نفسك أن منك الكفاية لحربه والإستيلاء عليه فبادرت إلى إرسال أحد رجالك المشاهير المدعو هكس باشا ومعه جيش عرمرم مكون من أجناس شتى وعدد منوعة وذلك من بادي أمرك بدون إمعان نظر في العواقب بلا مشورة باقي الدول في ذلك توهماً منك أنك ستظفرين بالنصر علي جند الله الغالب. فعندما حضر ذلك الجيش في ألوف مؤلفة وعدد معددة ما ثبت أمام حزب الله إلا نصف ساعة بل قضى الله عليه بالدمار والبقار عن آخره. وكان هلاك ذلك الرجل المدير الشجاع بجيشه بأسباب سوء تدبيرك وكثرة غرورك ولم تغن عنه كثرة العدد ولا قوة العدد بل صار إلى النار

***** (ناسخ الناس) في ونجت، والصحيح ما أورده نعيم شقير (المعرب).

* في ونجت (رجال من حديد)، واعتمدنا علي نعم شقير في التصحيح (المعرب).

** يقصد المصريين (المعرب).

*** حذف ونجت هذه العبارة التقريرية، وأوردها نعم شقير (المعرب)

و غضب الجبار. ثم ما اعتبرت بذلك ولا دبرت حالك بل صرت تجهزين عساكرك من بادي رايدك
جردة بعد جردة بكل فج لمحاربة الله ورسوله ومهديه تارة بسواكن وتارة بندقلا وتارة بوادي قمر
حتى أهلكك بسوء صنيعك من رجالك ما ينوف علي عدة ألوف. ومن ذلك هلك كثير من رؤساء
رجالك المعروفين لديك بالشجاعة وحسن التدبير والثبات وقوة العزم كالجنرال غردون باشا هلك
بالخرطوم والجنرال ستوارت هلك بأبي طليح وإستيورت الثاني ومن معه القتاصل بوادي قمر
وفلان وفلان وما يكثر عددهم من مشاهير رجالك كما هو يعلمك. ومع كثرة دعواك التقدم في
مجال الحروب وتفوقك بقوة اليأس والشهامة، فما بال عساكرك رجعت من السودان القهقري
بالخيبة والهزيمة قاتعة منها بالكلية ولاشك أن موجب ذلك الهرب محض الخوف من سطوة حزب
الله الغالب كما هو بديهي. وأنهم صاروا الآن إلى أسوأ حال وأضيق مجال تأنهين في أودية الحيرة
لا يهتدون إلى المخلص سبيلاً. وكل هذا من سوء تدبيرك وإستبدادك برأيك عن باقي الدول. ولو
رفعت الشورة إليهم كما هو الواجب عليك لأرشدوك إلى ما يسكن روعك في الجملة وكاتوا إما أن
يشيروا عليك بالكف عن مصادمة حزب الله الذي لا طاقة لك بمقاومته وتكوني مقتصرة على
محافظة بلدك لاغير وإما أن يمدوك بالرجال والأسلحة ويحزبوك على حرب حزب المهديّة، وحينئذ
لا يتوجه العار إليك وحدك عند حصول الهزيمة بل يكون ذلك بالإشتراك.

والحاصل إنك قد أخطأت الرأي وصرت إلى نقص كبير ولا مخلص لك من ذلك إلا بالإجابة
إلى الله المالك والدخول في ملة الإسلام وإتباع المهدي عليه السلام. فأنك إن فعلت ذلك وسلمت
الأمر لنا نظفرين بمقصودك من السعادة التامة والراحة الحقيقية التي هي الفوز عند الله بدار النعيم
المقيم الذي فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر. وإن كنت لا تزالين علي
غرورك وإستبدادك برأيك فأقضي علي حزب الله بنفسك بجميع جيوشك وإستعداداتك الحربية
لتري كيف عاقبة أمرك فتهاكي بحول الله وقوته أو تعذري من مات أو فر من رجالك الذين تطفلوا
علي محاربة حزب الله بمقتضي غرورك... وأعلمي يقيناً أنني مؤيد من عند الله وبه قوتي ونصري
لا بنفسني فأنتي عبد ضعيف لا قوة لي من نفسي وإنما عصمتي بالله وإعتمادي علي الله وهو كفيل
بنصرة من أعتمد عليه واعتصم به ومن ثم فكل من يادرننا بعداوة يقتل علي يدنا بحول الله وقوته
ولو كان الثقلين.

فأعي ذلك جيداً ولا تغتري بما يلوح علي نظرك من العدد والجنود فإن ناصية كل شيء
بيد الله ولن يغلب الله أحد بل هو القاهر فوق عباده. وإنك إن لم تسلمي لأمر الله وتدخلني في ملة
الإسلام وإتباع المهدي عليه السلام فأحضري بنفسك وجنودك لحرب حزب الله. وإن لم تحضري
فاستدعي في محلك، فإن حزب الله سيطأ دارك بأن الله في الوقت الذي يريد الله وينيقك السوء
بما صددت عن سبيل الله. وفي هذا كفاية لك والسلام.

الختم

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

محمد المهدي بن عبد الله

وعندما اتضحت مهمة الوفد، أعيدت الرسائل إلى من جاءوا بها^{*} وأعيدوا لأمر درمان، بدون الترحيب الذي قبلوا به عندما جاءوا لمصر، مع رسالة شفوية لسيدهم بأن أصحاب الجلالة أرفع مقاماً من أن يتنازلوا بالرد عليها.

وبعد ذلك بقليل تلقى الميرغني، وهو زعيم (لطانفة) للإخاء الديني، رسالة تطلب منه الانضمام للمهدية. وربما كان مناسباً في هذا المجال توضيح أسباب رغبة الخليفة في تعاون هذا القائد الديني الهام:

فقبل سبعة وثلاثين عاماً تقريباً (١٨٠٣) قام كبير المراغنة، وهو من أصل أفغاني وقد أقام طويلاً بمكة باتخاذ قرار بتحويل السودان للإسلام.

عبر البحر من جدة، مع عدد كبير من أتباعه، وأسس طريقته، وأقام عدة مراكز لها في مناطق مختلفة من السودان. ومنذ ذلك الوقت ظلت الطريقة في نمو متصل. ومثلها مثل بقية الطرق الدينية الإسلامية تشاربكت تأثيراتها الدينية والدنيوية حتى أصبح لها نفوذاً كبيراً معترفاً به. فإذا ما اعتنق زعيم هذه الطريقة المهدية فإن هذا يعني ضمناً إتباع كل من معه للمهدية وبالتالي تزداد قوة ونفوذاً. ويمكن أن نقارن هذه الطائفة، في بعض النواحي، بالطريقة السنوسية. أما من ناحية عدد أتباعها فقد يكونون مثلهم عدداً لكن أغليبيتهم هم في السودان، وقد أجبر عدد منهم للقبول بالمهدية، أما السنوسية، والتي تبعد كثيراً عن مناطق الحروب والنزاعات، فقد تمكنت من المحافظة على وحدتها تماماً. ولا توصف أياً من الطريقتين بالطريقة من قبل المسلمين المتشددين. فمثل المسيحية التي نجد بها الكنائس الرومانية واليونانية والإنجليزية، فكذا نجد في الديانة الإسلامية فرقاً ومذاهب عدة مثل المرغنية والسنوسية والشاذلية والبدوية والأحمدية وغيرها كثير. من هنا فيمكن أن نفهم مدي استعداد المهدي وجاهزيته للترحيب في صفوفه باتضمام مثل هذه الطائفة الميرغنية الهامة.

ويقال أن المهدي، قبل أن يعرض منصب خليفة عثمان للسنوسي، كان قد عرضه على الشيخ عثمان المرغني في اتكا. لكن الأخير رفض العرض بغضب، وكان سلوكه خلال الحصار الطويل على كسلا يفوق كل ثناء.

وكان تقدير غردون للخدمات التي قدمها سيدي محمد عثمان الميرغني (عالياً) تعبر عنه الخطابات التالية التي أرسلها له من الخرطوم:

"إلى ملجأى وملاذي المشير اللامع والأستاذ الموقر سيدي محمد عثمان. نفعنا الله وإياه. آمين.

بعد السلام والتحية. تسلمت خطابكم المؤرخ ٧ شوال ١٣٠١ (٣٠ يولييه ١٨٨٤) الذي أوصله لي الحاج النضيف. وأنتى أحمد الله على سلامتكم وعلى أحوال كسلا الطيبة وذلك يعود لكم لوجودكم بها. نسال الله ألا يحرمننا منكم ولا من بركاتكم في الدنيا والآخرة. الخرطوم بحمد الله في حالة طيبة ولا تشغلوا أنفسكم بالتفكير فينا، فأنا أبذل كل جهدي للعناية بالموظفين والأهالي ورجال الحامية.

^{*} يقول نوم شفير في تاريخه (ص ١٠١١) بأن الكتب قرنت وأرسل كتاب جلالة الملكة إليها (المغرب).

وأرجو منكم دائماً المحافظة على صلة الصداقة مع البني عامر وأن تحافظوا على مواصلتكم مع مصوع حتى تحصلوا على الأخبار الخاصة بتقديم قوات الدعم والتعزيز لكسلا وبدون إبطاء وأرجو منكم تبليغي بكل الأخبار التي تتلقونها حول هذا الموضوع. ويخصوص أحوالنا بالتفصيل فسيخبركم بها الحاج النضيف شفويًا.

وقد بلغني أن القوات القادمة لنجدة الخرطوم قد وصلت إلى دنقلا وبأذن الله سيصلونا هنا قريباً.

ولقد سمعت أيضاً بأن (السيدات الموقرات) قد غادرن شندي إلى كسلا تنفيذاً لأوامركم، لكنني أرى من الأفضل بقاءهن بشندي لأنني أعتقد بأن لبقائهن هناك دور كبير في نشر الأمن والسلام في المناطق المجاورة.

أرجو إبلاغ تحياتي واحترامي لكل القبائل الصديقة ولرجالكم*

(إمضاء) غردون

حاكم عام السودان

إلى الشريف المجل سدي عثمان الميرغني حفظه الله.

بعد السلام والتحية. أرجو أن أفيدكم بأنني تلقيت خطاباً من مدير التاكا يفيد بأن قبيلتي الهندودة والحنقة يقومون بالاستعداد للهجوم على كسلا، وأنه يحتاج لدعم عاجل.

وفي إجابتي على خطابه، أخبرته بأن جنوداً إنجليز سيتم إرسالهم من سواكن لكسلا. وأخبرته أيضاً بأنه، إذا ما رأى ذلك ضرورياً، فيمكنه أمر حامية أماديب لتعزيز كسلا.

وأخبرني حامل (الخطاب) بأنكم قد جمعت رجال الشكرية والبني عامر لمواجهة الهجوم المرتقب فلکم الشكر على ذلك، إذ ليست هذه بالمرة الأولى التي تقدمون فيها مثل هذه الخدمة الغالية. وإذا ما رأيتم من الضروري أن يتم استدعاء حامية أماديب، فأرجو منكم إعلام المدير بذلك. أما إذا كان العكس فأرجو العمل على بقاء الحامية حيث هي*.

(إمضاء) غردون

حاكم عام السودان

أول مارس ١٨٨٤

وكانت يوميات الجنرال غردون ويوميات باور، التي نشرت في نوفمبر ١٨٨٤، قد وصلت على يد عثمان الميرغني. وقد كان، بناء على رجاء غردون، الذي جاء في الخطاب الأول أعلاه، قد ترك زوجته وأبنته في شندي لتأثير نفوذهن على الأهالي (وتوفيرهم لهن). وحتى اليوم فإن القادمين من السودان يشهدون على مدى احترام الأهالي للسيدتين نفيسة وفاطمة وذلك رغم المعاملة القاسية التي تلقيتاهما على يد الخليفة. ولازلن حتى اليوم سجينتين بأم درمان وقد عاتين الأمرين من سوء معاملة سجاتيهن. أما سدي محمد عثمان الميرغني، وبعد أن لاقى أشد الصعوبات، فقد تمكن أخيراً من الفرار من كسلا ووصل إلى سواكن ليموت فيها من جراء المعاناة الرهيبة والمشاق التي مرت به*.

* تعليق من المعرب: توفي السيد محمد عثمان بمصر، بعد خروجه من سواكن، بعد عامين من وصوله لها، ودفن في باب الوزير بالقاهرة، انظر نعيم شفيق، ص ٩٠٩.

ومما جاء أعلاه يمكن إدراك مدي تلهف الخليفة ليستقطب لجانب المهديّة زعيمهم الحالي سيدي محمد سر الختم الميرغني* ومن ثم أرسل إليها المناشدة التالية، والتي لا داعي للقول بأن الميرغني لم يعرها بالآ. فقد كان الميرغني دائماً يقدم أجل الخدمات للحكومة المصرية، ويرسل الرسائل لاتباعه في السودان حاثاً لهم للتمسك بعقيدتهم والابتعاد عن المهديّة. ولهذا الغرض تم إرساله في مهمات إلى سواكن ووادي حلفا كانت نتيجتها طيبة دائماً:

بسم الله الرحمن الرحيم.....الخ.

من عبد الله المؤمن بالله، خليفة المهدي عليه السلام، الخليفة عبد الله بن محمد إلى سليل النبي المختار صديقنا الموقر السيد محمد سر الختم هداه الله إلى طريق الصواب ووقاه من الشرور.

السلام عليك يا حبيبي. فلتعلم بأنك معروف لدينا كرجل يتميز بصفاء القلب والفكر. فأولئك الذين هداهم الله يتبعون تعاليمه وتعاليم الرسول محمد وكل ما سوى ذلك من تعاليم هو باطل والويل لمن ينقاد لها. وإنك يا حبيبي لعلي علم تام بما جري من أحداث مؤخراً والأذى الذي لحق بديننا الحنيف وبالتدهور الذي أصاب المسلمين وهذا مالا يرضي المؤمنين الصادقين ذوي العقول السليمة. وبالنسبة لرجل مثلك فربما يسمح بتأخير الاستماع لنداءات المهدي، الذي ما جاء إلا لأحياء تعاليم رسولنا وتدمير الذين يسعون لنشر الفساد في الأرض، أو التردد في ذلك. فانت واحد من أكبر الأسر المتدينة وسليل رجال مقدسين ولذلك فلا يصح لك التفكير في نعيم هذه الدنيا. وانت واحد من أوائل الذين يرغبون في إحياء دين محمد وشريعته والتي هي أصل كل حقيقة. فهل ترضي بمساعدة الذين يتبعون طريق الظلام؟ وقد أمرنا الله بعدم إتباع سبيل الظالمين حتى لا ينقي بنا في نار جهنم.

فالترك، الذين أنت معهم الآن، قد غيروا وبدلوا في دين الله الحق، وألغوا شرائعه. فلا تسلك طريق أسلافك الذين تابعوا الكفرة أعداء الله ولا تقبل بهم كحكام عليك ولا تطعمهم بل عليك تركهم، وخاصة بعد ظهور المهدي الآن، فأنقذ نفسك وتب إلى الله.

ولتعلم بأنني ما أدعوك الآن إلا لرجوع إلى الله وللعمل بكتابه وبهدي المهدي وخليفته. وإذا ما أردت أن تنقذ نفسك وتنال الاحترام فلتستجب لندائي وتنضم إلى في الحال. فإما أن تأتي إلى مباشرة أو تنضم لصديقنا وأخينا عبد الرحمن ود النجومي، والذي بالقرب منك الآن. فإذا ما قمت بذلك فستكون آمناً تماماً وكذلك أهلك وكل من يأتي معك وسيتم حينها استقبالك بكامل التشريف. فلتتحرك الآن يا حبيب في طريقك للفوز والنجاح والسعادة. ولتعلم بأننا لا ننوي إلا إحياء تعاليم جدك المختار ولنرشد الناس لاتباعها. والحمد لله الذي جاء بكل الناس في هذا الجزء من السودان إلى أنوار الدين الحقيقي وهم الذين بذلوا أرواحهم محض إرادتهم عالمين بما سينالونه من حسن الجزاء.

* يعني اللقب (سر الختم) أن الطريقة الميرغنية هي خاتمة كل الطرق وإن أي إضافة للطرق الإسلامية ما هي إلا مبالغة وتطويل لا لزوم له. وفي الحقيقة فإن الطريقة الميرغنية تشمل كل شيء يتعلق باسمي ما يمكن أن تتطور إليه دينية المسلمين.

وكما هو مقرر باحتلال البلاد الشمالية بواسطة قوات المهدية فقد كتبت لك هذا الخطاب شفقة عليك يا صديقي ورغبة في الخير لك. فإذا استقبلته بسرور وأسعرت بالاستجابة لما جاء به فستكون عزيزاً لدينا وستنال جزاءك. إما إذا رفضت ما جاء به فلا تلومن إلا نفسك. فمن واجبنا تحذيرك وإلا فلتعلم بأنك بإذن الله ستقع في قبضتنا يوماً ما، لأن الله وعدنا بتحقيق النصر لنا. ففكر في نفسك بالتالي، يا صديقي، وأطع مشيئة الله. وإنا لا نشك في قبولك للحق فأرجع لله وأطع خليفته المختار. أرسل لي ردك، هداك الله إلي صراطه المستقيم والسلام عليكم.

الختم (المختار)

مؤرخ ١٦ شعبان ١٣٠٤ (١ مايو ١٨٨٧).

ووسط هذه التحركات الواسعة في الصحراء وفي النهر حدث مشهد غير معتاد بوصول قافلة ضخمة من ١٤٠٠ جمل إلى أسبوط قادمة من دارفور، مما ملأ الجميع بالدهشة. فالقافلة التي تحركت في الرابع والعشرين من يناير، من مكان يبعد بعشرين يوماً إلى الغرب من الفاشر، والتي بدأت بألف وخمسمائة وعشرين جملاً، وصلت لأسبوط في الأول من أبريل بعد أن فقدت في الطريق ١٢٠ جملاً. جاءت القافلة عن طريق النقرة فالعقبة فسلمية وبريس والخارجة. وكان هذا الطريق للقوافل قد انقطع منذ ١٨٨٣. وفي عام ١٨٨٤، تم مسحه جزئياً بواسطة الكولونيل كولفيل والملازم ستوارت ورتلي مع حرس من بدو الجوازي. والآن، وربما بسبب نجاح صالح الكباشي، فقد أكملت القافلة رحلتها بسلام تام.

والآن وبينما كان النور الكنزي زاحفاً ببطء صوب الشمال مع فصيل الحرس الأمامي لقوات النجومي، كان الأمير عز الدين قد قام بالاستطلاع لمنطقة آبار المرات في الصحراء الشرقية. وبدا تجميع القوات في أبو حمد، والتي يبدو أنها للتمويه وإظهار أن الهجوم سيكون على جناح كروسكو، بينما سيكون الهجوم الحقيقي موجهاً إلى وادي حلفا. كانت قوات أبو حمد تحت إمرة الأمراء على ود سعد وود الفيل وود مصطفى وود حمزة وحسن محمد خليفة*. وبينما كانوا في انتظار الأوامر للتحرك تلقت عملياتهم على النيل نكسة مفاجئة عطلت هجمتهم على الجناح لبعض الوقت.

فقد علم الكولونيل تشير مساید، قائد حلفا، في ظهر يوم ٢٧ أبريل، بأن النور الكنزي قد احتل بقواته سرس وأنشأ محطة متقدمة في جمای. ولما كانت ذكريات التقدم الأخير لقوات العرب لا زالت ساخنة في ذهنه، فقد قرر الكولونيل القيام فوراً بازاحة المعتدين من موقعهم. كان مدركاً بأن أي تحرك من جاتبه سيبلغ للعدو ويعلم بأن عليه أن يبدأ ضربته في الحال قبل أن يتم تدعيم موقف الثوار. لذلك اتخذ قراره سراً بالقيام بهجوم جري ومفاجئ عليهم.

* ابن حسين باشا خليفة، المدير السابق لبربر.

كان قد قام، بعد أربعة ساعات من تلقيه أنباء وصول العدو، بإرسال حرس أمامي يسبقه، بقيادة الميجر رندل (من المهندسين الملكيين) ومعه سرية الخيالة الثانية وعدد رجالها ١٠٠ رجل يقودهم الصاغ حلمي أفندي، وفصيلة الهجاة الثانية وعدد رجالها ٤٠ رجلاً يقودهم الملازم دننج، وقوة عددها ٦٠ رجلاً من غير النظاميين بقيادة الملازم راكروفت إضافة لمدفعين من بطاريات الجمال الثانية بقيادة الصاغ بكير أفندي.

أمرت هذه القوات بالقيام ليلاً بأسرع وسيلة ممكنة، وبسرية تامة إلى سرس مع تحوطهم إنشاء الطريق من قيام أي مواطن بتحذير العدو من اقتراب الجيش نحوهم. كما قام طوف صغير بالتحرك بموازاتهم على الضفة الغربية وبتعليمات مماثلة. تجمعت أهم كتائب الحرس الأمامية، وهي الكتيبة السودانية التاسعة، بقيادة الكابتن بورو، والتي تكون الجسم الرئيسي للحرس المتقدم، وعسكرت في عكة - ١٢ ميل من سرس - في حوالي الساعة مساءً ومن هناك واصلت طريقها نحو سرس - على بعد عشرين ميلاً بالطريق الالتفافي. كما قام طابور آخر بقيادة الميجر لويد ويتشكل من الكتيبة المصرية الأولى وفصائل للإمداد وللنقل بالتحرك بالقطار، وبالصير على الأقدام برأ، وتجمعوا جميعهم في عكة في الصباح الباكر انتظاراً للتعليمات الخاصة بمواصلتهم للتقدم.

تلقي الميجر رندل تعليمات بالتوقف على بعد ثلاثة أميال من سرس وإنتظار حلول الفجر. وكان عليه عندها أن يمضي قدماً والتماس مع العدو ثم الاشتباك معه وشغله إلى أن تصل المدافع وقوات المشاة. طبقاً لذلك، وفي الفجر، قامت مفرزة راجلة باحتلال حصن صغير على التلال المطلّة على سرس بينما اندفع جنود الملازم راكروفت غير النظاميين، المدعومين بالهجاة، مسرعين نحو سرس واستولوا على محطة السكة الحديد القديمة ومجموعة المنازل المجاورة لها.

نفذت هذه العملية وسط نيران معادية أطلقت من حصن صغير* بالتلال الشرقية، يبعد عنهم بحوالي ياردة، ويحتله حملة البنادق من العدو. ثم قام الجنود غير النظاميين** باحتلال تلة تبعد بثماتين ياردة من الحصن وتمسكوا بهذا الموقع الذي كان بأمين من نيران العدو نسبياً بينما فتحت فصائل الهجاة نيرانها على حصن العدو الصغير من أرض جبلية تواجه المحطة.

وفي الخامسة والربع صباحاً اندفع طوف من الخيالة عبر الخط الحديدي المدمر. وقبل أن يقطعوا مسافة ٤٠٠ ياردة ظهرت أمامهم قوات العدو الرئيسية، وعددها حوالي ٣٠٠ رجل، خلف أرض مرتفعة تبعد أمامهم بستمائة ياردة، بينما شوهد على التلال الخلفية جماعات من حملة الرماح.

قام طوف الخيالة، بعد إنجاز مهمته، بالتراجع خلف المحطة ومنها أطلقت نيران كثيفة على موقع العدو. تم أخطار الكولونيل تشير مسايد (بالموقف) وقد كان في ذلك الوقت متقدماً نحوهم بسرعة مع بقية الطابور ومعه الكابتن كمبستر، كبير ضباط الأركان للقوة، والملازم بالمر، من صفار ضباط الأركان.

* كانت هذه الحصون الصغيرة قد تركت قلعة عندما أخذت القوات المصرية والبريطانية سرس في العام الماضي..
** تم تكوين هذه القوات غير النظامية عام ١٨٨٥، وكانوا في معظمهم من قدامى جنود غردون - من الشايقة الذين كانوا على ظهر بلوخر نصمي باشا. وصل عددهم لأكثر من سبعين رجلاً يمتلكون الإبل وقد شكلوا قوة عظيمة للفائدة.

وفي السادسة والنصف (صباحاً) وصل مدفعان من بطاريات الجبال، بعد أن زحفت بطول المسافة من حلفا، التي تبعد بأربعة وثلاثين ميلاً ونصف، في أكثر قليلاً من اثنتي عشرة ساعة. اتخذت المدفعية موقعاً لها بالقرب من المحطة وفتحت نيرانها بالقذائف العادية على الحصن والذي، لو لم يتم إسكاته نيرانه، لألحق خسائر جسيمة بالمشاة الذين كانوا يهاجمون الموقع الرئيسي للعدو.

ولحسن الحظ، وبعد إطلاق واحد وعشرين قذيفة، نجحت المدافع في تحطيم الحصن ثم تلي ذلك اقتحامه والإستيلاء عليه بواسطة الجنود غير النظاميين (الشايقية). ثم حولت المدفعية صوب موقع العدو الرئيسي وتم ضربه ببعض النجاح. أثناء ذلك وصلت المشاة، وفي الساعة صباحاً وبعد سقوط الحصن، إندفعوا بالهجوم.

حالة الأرض التي عبرها المشاة تحتاج لبعض الإيضاح. ففي هذا الوقت من السنة يتراجع منسوب النهر كثيراً تاركاً ضفافاً مرتفعة ومنحدرة على غير العادة، وتتأثر على الشاطئ الرملي الأمامي الحجارة التي تملأ المنطقة بين الضفة ومياه النهر. يقع الجانب الأيسر لموقع العدو على الجانب الداخلي للمنحدر، لكنه عندما تعرض لنيران المدفعية قام بإخلاء الأرض المكشوفة التي كان معسكرهم بها وإنسحب إلى واد ضيق أو خور يبعد بملتى ياردة عن النهر. تم إرسال فصيلين من الكتائب، تحت غطاء من الضفة المنحدرة بطول الشاطئ، للعمل على الإلتفاف حول موقع العدو الأيسر. أما بقية الكتيبة فتركت لدعم القسم الجنوبي من المحطة من موقعهم على الأرض المرتفعة لينما وافقت تحركات الجنود غير النظاميين والهجأة تقدم زملائهم على أقصى الجانب الأيسر.

وقبل ذلك كان الخيالة قد أرسلوا للإلتفاف حول موقع العدو. وقد نجحوا في ذلك في الوقت الذي بدأ فيه الهجوم من الأمام وطردوا عن الموقع جماعة من خمسين رجلاً من العرب وكبدوهم خسائر كبيرة. ولما شاهد الخط الثاني من رجال العدو، والمكون أساساً من جماعة من الدناقلة ضعيفي التسليح، فصائل الخيالة في مؤخرتهم لم يقوموا بأي محاولة للإضممام للخط الأول لكنهم إندفعوا مباشرة نحو النهر ونجحوا في الفرار عبره سباحة.

أثناء ذلك وعندما اقترب فصيل الجناح الأيمن من فصيل الجناح الأيسر بالموقع، نهض حملة الحراب العرب من الخور، وهم يصرخون بتوحش، وإندفعوا تحت إمرة القادة الثلاثة الراكبين خيولهم، نحو الضفة النهر. وقعت صدمة هجومهم بكامل قوتها على الخط المصري الهش والذي تراجع ببطء، وهو يقاتل مهاجميه بدأً بيد. ولما شاهد الكابتن بورو ذلك، قام على الفور بدعم الفصيلين. ولما أحس الفصيل الخلفي المنهك بالدعم الذي وصله شرع تدريجياً في التقدم ببطء. أما العدو، والذي تمسك بأي قدم من الأرض، فقد قاتل بشجاعة يائسة وسقط حتى آخر رجل. قتل الكثيرون وسط المياه. أما الآخرون الذين حاولوا الإلتفاف حول الجناح الأيسر للمشاة، بعد أن تسلقوا الضفة المرتفعة، فقد سقطوا بنيران القوة غير النظامية، ونيران الهجأة، واحتياطي الخط المقاتل. وفي هذا المكان قتل النور الكنزي.

وفي الساعة وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً تم الإستيلاء على الموقع وعلى عشرة رايات وبقايا الأسلحة والذخائر.

وقد قتل كل المحاربين العرب تقريباً، وعددهم ٢٠٠ رجل، بينما بلغت أعداد القتلى بين المصريين ٢١ جندياً وجرح ٣٠ بمن فيهم ضابطين جرحاً جراحاً بليغة أثناء الاشتباك يدأ بيد. وتمكن الطوف على الضفة اليسرى من استعادة مركب كبيرة تعود لبعض تجار الإغريق، والتي كان العدو قد أستولى عليها من قبل. وقد قام واحد منهم بوصف ما جرى في مصرى العرب كما يلي:

"في حوالي منتصف ليلة السابع والعشرين من أبريل أيقظنا النور الكنزي من النوم قائلاً: إن الكفرة قادمون إلينا في الصباح وسيكون هناك قتال بيننا. إنني لا أريد أن يلحق بكم أي أذى، ويمكنكم الذهاب للمؤخرة، وبعد إنتهاء القتال عودوا ثانية". إنني لا أدري من أبلغهم بهذا النبأ. إستدعى النور الكنزي رجاله وأحضر أيضاً الشيخ طه (من سرس) وأمره بالذهاب إلى الجبال الخلفية على أن يعود بعد أن يهزم الترك. كما أرسل جماعة من رجاله للخلف لمنع أي أحد من الفرار. ثم شرع في صلاة طويلة وحمد الله الذي ألقى بالكفرة بين يديه. ثم أرسل أمواله بعيداً من ابن عمه على جواد. وقبل إنبلج الصباح جمع رجاله للصلاة. وأثناء الصلاة سمعت أصوات طلقات نارية صادرة من الخفراء الذين وضعهم في الحصن الصغير فقاموا على الفور بإعادة التشكيل للقوات ووضعها خلف أحد التلال."

وبعد هذه المعركة القصيرة، و لكن الحاسمة، عادت القوات إلى حلفا وبدأت فترة قصيرة من الهدوء بعد ذلك."

أما الذين فروا من سرس فقد عادوا إلى فرقة حاملين أنباء الهزيمة مما أثار غضب القادة العرب وحقنهم، لدرجة لا توصف، لسلوك حلفائهم الدناقلة وأيقنوا بأنهم لن يعتمدوا عليهم فيما بعد للحصول على أي دعم مادي منهم.

لكن إبادة قوات حرسهم الأمامية لم يؤثر على تدفق التيار المستمر من التعزيزات القادمة من أم درمان وبربر ودنقلا. وبنهاية مايو كان الأمراء مرغني (سوار) الذهب وود جبارة وعبد الحليم قد وصلوا إلى فرقة ومعهم المزيد من القوات.

أثناء ذلك كانت الحركة الإنتفاضة من أبي حمد قد بدأت. وغادر الأمراء حسن خليفة وعلى بشير وخوجلي أبو حمد في الثاني عشر من مايو وأحتلوا آبار المرات بمائة وخمسين رجلاً كما أرسلوا جماعة صغيرة بقيادة بحر كرار باتجاه النهر. وفي ليلة السابع عشر من الشهر داهم بعضهم قرية العلاقي، وهي قرية صغيرة تبعد بحوالي خمسين ميلاً إلى الشمال من كروسكو. ورغم إطلاق بعض الرصاصات، وقطع سلك التلغراف، لم يحدث أي ضرر آخر. وفي العاشر من يونيو داهموا قرية إرمنا، التي تقع جنوب كروسكو بخمسة وأربعين ميلاً حيث قتل أحد القرويين وجرح اثنان وقطع السلك مرة أخرى.

* ربما كان من غير الضروري أن يتم تناول هذه المعركة الصغيرة بتلك التفاصيل التي أورناها. ولكن يجب أن نعرف أنها كانت المعركة الأولى التي يخوضها الجيش المصري لوجده وبدون إعتاده على الدعم البريطاني أو غيره. وإذا علمنا أن قوات ההجاة والمدفعية المحمولة سارت ٣٥ ميلاً، يحمل كل رجل منهم ١٠٠ طلقة ذخيرة وعلفاً ومؤونة يومين، وأن المشاة ساروا ٢٢ ميلاً، وأنهم جميعاً وصلوا لموقع العدو في ١٤ ساعة، وهاجموا على الفور وهزموا، فإنه لا يمكن المبالغة في أهمية هذا الحدث. ولقد رفع ذلك النصر معنويات الضباط والجنود للدرجة التي انعكست آثارها على ما تلى ذلك من أحداث.

أثارت هذه الغارات أنزعاجاً بالغاً وسط أمالي النيل هناك. وكانت باخرة مسلحة قد شرعت في الطواف من قبل في دوريات متصلة (على تلك الجهة من النيل) بينما كانت فصائل الهجانة تنتقل من محطة إلى محطة هناك. كما أثرت هذه الأحداث على مدى ثقة الحكومة من ولاء شيوخ العبادة لها وأصابتها بالصدمة، فقد كان أولئك الشيوخ هم الذين افترضت قيامهم بمسئولية حماية هذا الجناح الشرقي الطويل والذي قامت، في مقابل ذلك، بتسليمهم كميات كبيرة من الدعم. كانت المناطق التي أوكل لهم حمايتها قد قسمت ما بين بشير بك جيران، زعيم شيوخ عرب العشياباب، وصالح بك، شيخ عرب العبادة، ومنشأ بك، شيخ عرب أبو جن. تمتد مسئولية بشير بك إلى بعض مناطق علي الشمال والجنوب من أسوان والصحراء الشرقية التي بينها، والتي تمتد إسمياً حتى البحر الأحمر. ولكن في الواقع لم تكن سلطته تمتد إلى ما وراء آبار حيمور، والتي تبعد ١٢٥ ميلاً من نيل أسوان. أما المناطق التي تقع شرق تلك الآبار، والتي تقطنها أقسام متعددة من قبيلة البشاريين والذين، رغم أنهم موالون إسمياً للحكومة المصرية، إلا أنهم توقفوا منذ فترة طويلة من دفع الضرائب لها. وكانت تصرفات هذه القبيلة الأخيرة، ومنذ انفجار الثورة في السودان لأول مرة، مصدراً لقلق الحكومة المصرية رغم أنهم، حتى الآن، محايدون كما يبدو. وقد أثبتت الأحداث التي تلت أنهم موالون لها ومخلصون، وأنهم قاموا بدور (العازل) ضد تسلسل المهدية ووصولها لمصر.

أما صالح بك فتمتد سلته من كروسكو وإلى الصحراء الشرقية بما في ذلك آبار المرات. بينما كان منشأ بك مسئولاً عن مناطق العلاقي والسيالة وغيرها بالإضافة إلى الصحاري المجاورة.

ظلت تلك القبائل تسيطر لقرون طويلة على كافة الطرق المؤدية من السودان لمصر عن طريق الصحراء الشرقية وتكثر أعدادهم في النواحي المجاورة لأبي حمد وبربر، ونفس الحال في مناطق الحدود المصرية. وكان أولئك الذين بالجانب الآخر للصحراء باتجاه أبي حمد قد انضموا منذ وقت طويل، بإرادتهم أم بدونها، إلى رايات المهدية وكان لكثير من أولئك الرجال، الذين يقومون الآن بشن الغارات على المناطق النهرية، من آبار المرات، أقارب وأصدقاء في نفس المناطق التي يقومون بنهبها.

فبشير كان ابن العم المباشر لبحر كرار، بينما صالح بك هو ابن عم حسين باشا خليفة. وكان من الطبيعي في مثل تلك الظروف أن تشكل الحكومة في مدى ولاء هؤلاء الشيوخ، والذين تدفع لهم مبالغ طائلة، والذين لاشك في أنهم يلعبون دوراً مزدوجاً. أما إذا وضعنا في الميزان فائدتهم للحكومة أولاً في كفة ثم الضرر الذي يمكنهم الحاقه بها ثانياً في كفة أخرى فلاشك في أن الكفة الأولى سترجح. لذلك كان من الضروري القيام ببعض الإجراءات القاسية حتى يتبينوا كم هو في غير طائل محاولاتهم العبث بالحكومة أو خداعها. وهذا ما أثبت جدواه. فقد أوضحت الأحداث التي جرت بعد ذلك بأن السياسات التي أتبعتها الحكومة بخصوص علاقاتها مع أولئك البدو أصبحت طيبة عموماً، بعد أن اتضح لهم أن ولاءهم لها لم يعد مصدر شك. وبالإضافة لكونهم يشكلون حاجزاً رائعاً، كانوا في نفس الوقت قناة اتصال فيما يختص بأحداث السودان وكانت إخبارياتهم دائماً محل ثقة بعد ذلك.

ومن الواضح أن الحالة الراهنة الآن بالصحراء الشرقية قد تسببت في إيقاف كل أنواع التجارة مع السودان بهذا الطريق. وقد أقيمت عدة محطات عسكرية في كثير من النقاط المهددة بين حلفا وأسوان. وقد قامت قوات الثوار بالمرات بتهديدها لبعض الوقت لكنها عادت فيما بعد لأبي حمد حيث اعتادت دورياتهم من وقت لآخر بالمرور على الآبار بها.

لكن إيقاف العرب الذين حاولوا التقدم على النيل لم يستمر طويلاً. ففي الثامن عشر من يونيو قام جماعة مكونة من ١٠٠ رجل منهم بالإغارة على سرس مرة أخرى. وكانت سرس، منذ معركة ٢٨ أبريل، قد عاد إليها القرويون. تم نهب البيوت وحملوا معهم النساء وكل ما استطاعت أيديهم الوصول إليه ثم انسحبوا جنوباً مرة أخرى. أما الأهالي المذعورون فقد هربوا في طريقهم إلى حلفا.

وأصبح إعادة احتلال سرس من قبل العدو أمراً حتمياً الآن. لكن خططهم لذلك تعرضت مرة أخرى للإحباط. إذ أصبح صالح الكباشي، على غير العادة، نشطاً متحمساً. وكانت القبائل في دارفور في ثورة ضد العرب. أما الأحداث على الحدود مع الحبشة فبدأت تتخذ منحى خطيراً، بينما ضج مختلف الأمراء في بربر وفي الشمال مطالبين بإبعاد محمد الخير عن (الأمارة). وكما كان الخليفة منزعاً من تلك الأمور لدرجة أنه طلب من كبار أمرائه للحضور لأمران لإجتماع عام. وفي نفس الوقت تم تقليص الحاميات الشمالية كثيراً وذلك كي يتمكن من تعزيز قواته في دارفور وعلى الحدود الحبشية.

وفي الثاني عشر من أغسطس حدث اشتباك بين محطة للعرب في واحة سليمة وبعض التجار المغاربة الذين جاءوا من كردفان لشراء العطور. وانتهى الاشتباك بهزيمة العرب. انتهى اجتماع الأمراء بأمران في أوائل أغسطس. وأوضحت الأوامر التي تلت ذلك بأنه تقرر مواصلة التقدم نحو مصر وسط حماس متجدد.

وبنهاية أغسطس وصلت إلى فرقة قوة كبيرة من الجعليين والبقارة وبعدها بقليل غادرت قوة مشتركة من ٢٠٠٠ مقاتل، بقيادة الأمير محمد أحمد هاشم*، فرقة إلى سمنة ووصلوها في الخامس عشر من سبتمبر ثم واصلوا تقدمهم بعدها وأعادوا احتلال سرس في السابع والعشرين من سبتمبر، بينما قام عثمان أزرق ومكين النور، في نفس اليوم، بالتوجه من دنقلا صوب الشمال ومعهما قوة كبيرة. وتوجه بحر كرار مرة أخرى من أبي حمد نحو الشمال الشرقي بعد أن أعلن نيته في استنفار العرب الذين بتلك الجهات.

وصلت الإمدادات من دنقلا إلى سرس في ١٩ أكتوبر وإندادت قوتهم بالتالي لتصل غلي ٢٥٠٠ رجل و ٢٠٠ جواك و ١٠٠ جمل ويقودهم ثلاثة عشر أميراً. وفي الثاني والعشرين من أكتوبر وجدت دورية مصرية راكبة أن ٢٠٠ ياردة من خط السكك الحديدية قد خرب شمالي عبكة بثلاثة أميال. تم هذا الاكتشاف في العاشرة والنصف مساءً وعلى الفور أقامت الدورية معسكراً لها بقيت فيه حتى الصباح حيث اكتشفت عند تقدمها أن عدداً من رجال العدو، يبلغ ١٥٠ رجلاً، قد عسكروا في سهل عبكة. فتح العرب النار عليهم وتم الرد عليها بزخات متصلة وهم

* مدير الشرطة بالأبيض سابقاً.

يترجعون ببطء حتى وصلوا إلى جماي حيث اتخذوا موقعا لهم في حصن صغير. وما لبثت الدورية أن عادت إلى حلفا.

وفي السادس من صباح يوم ٢٥ أكتوبر استلمت رسالة تلفونية من الحصن الأمامي بخور موسي - على بعد ٤,٥ ميل من حلفا - مفادها أن قوة من ١٠٠٠ من العرب قد شوهدت ويبدو أنها في طريقها لحلفا. وقام الكولونيل وودهاوس، الذي كان قائدا لقوات حلفا، مصحوبا بالملازم تيرنان بالتوجه نحوهم مع القوات الراكبة ورأي العدو وهو يستقي بالقرب من شعاب عبكة. وفي هذه الأثناء وصلت الكتيبة السودانية التاسعة بقطار مدرع واتخذت موقعا لها بالتلال على بعد ثلاثة أميال جنوبي خور موسي. كان الملازم دننج قد أرسل قبل ذلك أمامهم ليكتشف مكان العدو فوجدهم في أعداد كبيرة بسهل عبكة. وعندما شاهده قام بعض رجال العدو الراكبين بمتابعتة. وبعد أن أكملت الدورية مهمتها أخذت في الانسحاب، مدعومة من المشاة. لكن الجمال لم تتمكن من سرعة الحركة على الأرض المغطاة بالحجارة المتناثرة مما أضر عملية الانسحاب. وسرعان ما اقتربت منهم خيالة العدو المصحوبة بالمشاة وفتحو عليهم نيرانا غير مصوبة تصويبا دقيقا. وفي الوقت الذي صدر فيه الأمر بالتخلي عن الجمال المتعثرة اندفع رجال العرب الراكبين وسط الدورية وسرعان ما اشتبكوا معهم بالأيدي حتى تمكنوا من الانسحاب ببطء في الوقت الذي غطت الكتيبة السودانية التاسعة انسحابهم وتمكنت من إيقاف العدو وطرده ببعض الخسائر. قتل من المصريين رجل واحد وجرح اثنان كما قتل أربعة من الجمال. ثم عادت القوات جميعها إلى حلفا.

وقد أثنى الكولونيل وودهاوس، في تقريره عن هذا الاشتباك، على ما قام به رجال الهجانة المصريون والذين، رغم شدة الضغط عليهم، كرهوا التخلي عن جمالهم. كما لاحظ هو شخصيا عدة مظاهر للشجاعة الفردية من جانب الضباط والجنود أثناء الاشتباك الذي داريدا بيد. وبعد هذا الحدث تراجع العرب إلى جماي والتي أصبحت محطة أمامية دائمة لهم وتدعم من الضفة الغربية المقابلة لها. أما القوة الرئيسية فظلت في سرس. وبدا أن فكرة هجوم مباشر على حلفا قد تم التخلي عنها في الوقت الراهن. وبقي عبد الحليم في فكره مع قوة كبيرة. ودل الاحتفاظ ببيت للمال في ذلك المكان على أن تعزيزات إضافية متوقع وصولها لهم قبل القيام بأي تحرك، على نطاق واسع، ضد الحدود المصرية.

وأصبح سرس الآن في درجة من القوة لن تمكن الكولونيل تشير مسايد من تكرار تكتيكاته السابقة مرة أخرى. وقد تأكد بقاء العرب الدائم في هذا المكان عندما وصل إليها بنهاية نوفمبر عدد ضخم من النساء والأطفال جاءوا مع الأمير ود البصير. وأصبحت دوريات العدو تجوب المنطقة يوميا حتى عبكة، وأحيانا تصل لمشارف خور موسي. وعلى كلا الجانبين كان هناك قلقا لما يتوقع حدوثه فيما بعد. ولكن قبل مرور وقت طويل ظهرت صعوبة أمداد مثل تلك القوات الضخمة في سرس بالطعام أمام قادة العرب. وكان الأهالي من السكوت والمحس قد ذاقوا الأمرين من نقص الطعام ووصلوا لمشارف المجاعة. فقد أخذت منهم محاصيلهم الهزيلة وقام البقارة الذين لا يرحمون بنهب كل ما يملكون. كما ظهر الجدرى في المعسكر المزدهم بسرس وبدأ عدد من الناس يموتون يوميا.

كانت تلك صورة للأحداث حتى نهاية ١٨٨٧. وقد تملل الأمراء وأظهروا ضيقهم من بقائهم على هذا الحال دون التحرك نحو هدفهم. لكن ذهن الخليفة كان مشغولاً بما يجري في مناطق أخرى من السودان. ورغم أنه تمكن من حشد قوات هائلة، بعد صعوبات بالغة، على بعد ٣٥ ميلاً من الحدود المصرية، إلا أنه اضطر مرة أخرى لتأجيل تنفيذ مخططاته بشأنها.

دارفور في ١٨٨٧:

الأحداث الخطيرة التي أشرنا إليها في باب سابق، على أساس أنها على وشك الحدوث في دارفور، جاءت كما يلي:

لما علم السلطان يوسف، وهو كما تذكرون قد خلفه زقل أميراً على الفاشر، بما يقوم به كرم الله من غارات من دارا، وفرضه الضرائب على القبائل التي يعتبرها السلطان من رعاياه، كتب (إليه) شاكياً من تعدي رجال كرم الله على الأهالي ونهب أموالهم، لكن كرم رد عليه بأن أرفق له صورة من تعليمات الخليفة له، رغم أنها تركت مسألة الحدود بينهما بدون تحديد واضح. من ثم أرسل يوسف وفداً لترسيم الحدود بين المناطق المتنازع عليها. وعند وصولهم قام كرم الله بإعتقالهم وسجنهم واستمر في غاراته بأكثر مما كانت عليه من قبل. اتفعل السلطان يوسف وقرر القيام بخطوات إيجابية، فأمر المقدم* إمام جاروت، من قبيلة البرقد، بأنه إذا وضع أي من رجال كرم الله قدمه في أي من مناطق نفوذه فعليه ذبحهم لآخر رجل.

وبعد ذلك بقليل، في مايو ١٨٨٧، قامت مجموعة من ٥٠٠ رجل من المغيرين، بقيادة الأمير ود عالم، بعبور الحدود. فقام جاروت بتنفيذ ما أمر به وأنقض عليهم وأبادهم ولم ينج منهم سوى قلة هربت ولتروي ما حدث.

وشرع كرم الله الآن بحشد كل الرجال الذين تمكن منهم في دارا، لكن يوسف، منتشياً بانتصاره الأخير، قام بإرسال قوة من ٤٠٠٠ رجل بقيادة المقدم أبو دمبو إلى الطويشة، والتي كان يعسكر بها الأمير حسن أغا، والذي كان الحاكم السابق لإقليم ليفي، ومعه قوة من ٥٠٠ رجل. فاجأ أبو دمبو الطويشة بالهجوم في الثاني من يونيو وذبح الحامية بأكملها ثم توجه بعد ذلك إلى دارا. وكان كرم الله قد تمكن حتى ذلك الوقت من حشد قوة من ألفي رجل وقام بإرسالها من دارا تحت قيادة الأمير كتنبور.

التقت القوتان المتصارعتان بعد بضعة أيام في وادي المسرية وألحقت بنادق كتنبور الخراب وسط صفوف حملة السيوف والرماح وأجبر أبو دمبو على الانسحاب إلى جور تويك، على بعد عشرين ميلاً إلى الشرق من دارا، حيث تحصن بها وأرسل منها مبعوثاً برسالة عاجلة إلى السلطان يوسف لإرسال تعزيزات له. وقام الأخير عند تلقيه هذا الطلب برجاء للسلطان زايد* في جبل مرة للإسراع لنجده.

* (المقدم) هو لقب في دارفور يعادل الأمير أو الزعيم وهو مشتق من كلمة (مقدم).
يقال أن زايد كان زنجياً بالغ الشجاعة. وقد ظهرت قدراته في حروب السلطان دود بنجا المبكرة وقاد، في مرحلة ما، كل قواته.

وافق زايد على ذلك الحلف المقترح ومن ثم توجه بنفسه مع قوة ضخمة إلى جور توباك، ولما سمع كتنبور في هذه الأثناء بوصول زايد، توجه إلى الطويشة وإحتلتها ومكث بها ثلاثة أيام وبعدها توجه لاعتراض التعزيزات الإضافية التي علم بأنها في طريقها لدعم زايد. لكن الأخير نجح في توحيد قواته قبل وصول كتنبور. وفي التاسع والعشرين من يونيو نشبت معركة بين القوتين المتصارعتين انتهت بتدمير كل قوات كتنبور تقريباً. فر كتنبور إلى دارا حيث ألتقي بكرم الله وقاماً سوياً بإخلاء دارا وتوجهوا نحو الإنجليلة وتحصنوا بها وكتبوا للخليفة راجين منه الدعم العاجل لهم. قام زايد بمتابعة كرم الله، بعد ذلك النصر، لكنه وجد أن دارا قد أخليت فقام بإنشاء معسكر حصين بالقرب من المدينة وترك فيه ٥٠٠ من رجاله ثم توجه إلى الفاشر بمن تبقى من جنوده.

وعندما بلغت أنباء هزيمة كتنبور أم درمان، قام الخليفة على الفور باستدعاء أمير كردفان، عثمان ود آدم (جاثو)، وأرسله إلى شكا بقوة كبيرة ومعه أوامر بالانضمام لكرم الله، وتولى قيادة كل القوات وإعادة السلطة إلى دارفور.

وتحرك عثمان آدم على الفور. وعندما وصل للأبيض سمي علي ود الهاشمي أميراً على كردفان، وترك معه قوة صغيرة، ثم غادرها متوجهاً إلى شكا. وعند وصوله إليها كتب للسلطان يوسف طالباً منه القدوم إليه في شكا لوضع حل لمسألة الحدود، وهي التي كانت السبب الرئيسي للثورة. لكن السلطان يوسف، متخوفاً من الغدر، لم يابه بالخطاب، بل قام بإرسال قوة من ١٠٠٠٠ رجل إلى دارا، بقيادة المقدوم آدم بوش والمقدوم رحمة قومو.

وفي تلك الأثناء كان عثمان آدم قد لحق بكرم الله في إنجيلا وقامت جيوشهما معاً بالزحف نحو دارا. وعند اقترابهم من خمة، القريبة من دارا، قام جيش دارفور بالهجوم عليهم. نشبت معركة ضارية بين الطرفين في السادس والعشرين من ديسمبر أجبر فيها الدارفوريين على التراجع وما لبثت جيوشهم أن تفرقت.

وانتهى عام ١٨٨٧، بالنسبة لهذه المديرية والسلطان يوسف يقوم باستعدادات كبيرة للانتقام من الهزيمة التي لحقت به. أما الخليفة عبد الله، فقد سببت له تلك الأحوال المضطربة في دارفور حالة من القلق والبلبلة مما أدى، مرة أخرى، لتأجيل مشاريعه لغزو مصر أو تجهيزه لما يتطلبه ذلك الغزو من استعدادات كبيرة وعلى نطاق واسع.

الاستوائية في ١٨٨٧م:

لم يطرأ تغيير يذكر على مسار الأحداث بهذه المديرية. وقد تخلت الكتبية الأولى، عملياً، عن ولايتها وذلك على الرغم من إطاعة أمر أمين بشأن الانسحاب من اللادو إلى الرجاف وإعادة احتلال مراكا، وذلك لصعوبة إمداد تلك الحاميات الشمالية بالذرة. وقد تم الآن، إضافة لمراكا، التمسك بالمحطات التالية وهي الرجاف وبدين وكيري وموجي ولا بوري وخور أبو ودوفيللي وفاتيكو وودلاي وإمقا ومهاجي.

أما السلطان دود بنجة، كما نذكر، فقد استدعى أم درمان حيث علي عنه الخليفة لكنه ما لبث أن اشترك في معركة قلايات وقتل فيها.

وفي أبريل إشتعلت النيران صدفه في وادلاى وفقدت كميات كبيرة من المخزونات بها، ولكن تم إعادة بنائها ثانية وبسرعة. وفي نفس الشهر اختمرت مؤامرة أخرى بين أوساط الكتبية الأولى وقرروا في هذه المرة اعتقال أمين نفسه، والذي كان وقتها في كيري، وذلك حتى يتمكنوا من إيقاف أي احتمالات لانسحابهم جنوباً بأكثر مما انسحبوا. وقد أحتج المتآمرون بأن سلامتهم رهن بوجود مديرهم المدني بينهم، فقد قالوا بأنهم لا يعرفون سوى طريق واحد، وهو الطريق الذي ينحدر مع النيل إلى الخرطوم.

لم ينزعج أمين عندما علم بأن جماعة من ١٩٠ رجلاً من الكتبية الأولى، مصحوبة بتسعمائة من الزوج المسلحين، كانت في طريقها إلى كيري قادمة من الرجاف. ويقال بأنه قد صرح قائلاً: "لا بأس إن قتلوني، لأنني لا أخشى الموت. فليقتلوا نحوي وسأكون بانتظارهم". لكنه رضخ لضغوط ضباط الكتبية الثانية كي يغادر المحطة، وقد قام بذلك وتوجه إلى مهاجي. ثم ظهر المتمردون بعد ذلك بالقرب من المحطة، وعندما علموا بفرار أمين منها قاموا بدخولها وضربوا القمندان ضرباً مبرحاً بالسياط، ثم أخذوا معهم عدداً من الأسرى وعادوا للرجاف. وقد علم فيما بعد أن المتمردين كانوا ينتوون أخذ أمين معهم إلى غندوكرو، ثم تركيز القوات التي في وادلاي وتتجورو ومهاجي فيها ومن ثم يتوجهون بطول إنحدار النهر نحو الخرطوم. فإذا ما وجدوا أن المدينة قد سقطت بالفعل فسيتفرقون بعدها. هكذا كانت خططهم. ولا يبدو أن قادة المتمردين كانوا مدفوعين بأي رغبة للانضمام للمهيدة ولقواتها وإنما كان الأمر هو أن رغبة مسيطرة عليهم تتلخص في أن الطريق الوحيد الذي يعيدهم لمصر هو نفس الطريق الذي جاعوا عبره. في نفس الوقت لا يبدو أن قرارهم للرحيل كان سيتم تحت أي ظرف من الظروف، فقد كانت لهم عوائل كبيرة إضافة لطول أقامتهم بالمنطقة. لذا فيبدو أن غرضهم كان في تولي زمام الأمور بأنفسهم وأن يكونوا سادة أنفسهم. وكما سيظهر بعد ذلك، فقد كان ضمن أسباب هذا التمرد كثير من العناصر التي أدت لثورة عرابي في مصر. وحقيقة فإن بعد هذه الأحداث، وما سيليهها، أتضح أن كثيراً من قادتها كانوا من العربيين الذين عوقبوا بالنفي للسودان لدورهم في ثورة عام ١٨٨٢.

أثناء ذلك وصل الدكتور يونكر سالماً إلى مصر، وذلك في يناير ١٨٨٧. وكانت رسائل أمين، التي بعث بها عن طريق يوغندا، قد وصلت قبل وقت من الزمن إلى العالم المتمدن. وسرعان ما انتشر التعاطف معه وتمخض عن ضرورة بذل الجهود لإنقاذ أمين وحامياته المحاصرة من هذا المأزق. وليس من الضروري أن تسرد في هذا المجال كل التفاصيل المتعلقة بتنظيم عملية الإنقاذ تلك، والتي صارت الآن شيئاً معروفاً في السير والتاريخ. ولكن يكفي القول بأن حملة تعرف باسم "حملة إنقاذ أمين باشا" قد تم تنظيمها ووجد قائد لها في شخص المستر هـ.م. ستانلي، والذي تطوع بتقديم خدماته لإنجاز هذه المهمة المحفوفة بأبلىغ الخطر وأعظمه. وقد وجد منظمو الحملة في شخص ستانلي قائداً أهله تبحرته الماضية لأن يشعروا بالإطمئنان بأنهم إن أرادوا إرسال نجدة لأمين فإنه، من دون الآخرين، الوحيد المؤهل للوصول إلي نهاية ناجحة لمسعاهم ذلك. تقرر أن تقوم الحملة باخترق إفريقيا عن طريق الكونغو. ومن هناك يتابعون الطريق المالي حتى يامبوي، التي تبعد بحوالي ١٣٠٠ ميل من المحيط الأطلسي. ومن هناك يتم التوغل بداخل المناطق غير المستكشفة، والتي تقع بين نهر أرو ويمي وبحيرة ألبرت.

إنتهت الترتيبات الأولية للحملة وغادر المستر ستانلي لندن يوم ٢١ / ١ / ١٨٨٧، متوجهاً إلى مصر، حيث تلقى منها التعليمات الرسمية ودعمته الحكومة المصرية بالأمر التالي الذي وقع عليه صاحب السمو الخديوي ومعه الأمر السامي (بترقية) أمين باشا المؤرخ ٨ جمادى الأول ١٣٠٤ (١ / ٢ / ١٨٨٧) نمرة ٣:

لقد أثبتنا من قبل عليكم وعلى ضباطكم لشجاعتكم وحمائتكم الناجحة للمديرية الإستوائية المصرية ودفاعكم عنها، وهي المديرية التي أوكلت (إدارتها) لكم، وكذلك للحزم الذي أظهرتموه وضباطكم الذين يعملون تحت إمرتكم.

بالتالي فقد قررنا مكافأتك بترقية رتبك إلى لواء باشا (بريجادير جنرال). كما صدقنا على الترقيات التي رأيتم ضرورة منحها للضباط تحت قيادتكم والتي جاءت في مكاتباتي لكم بتاريخ ٢٩ / ١١ / ١٨٨٦، بالنمرة ٣١، والتي أعتقد بأنها وصلت إليكم، مع وثائق أخرى كان قد أرسلها لكم نوبار باشا، رئيس مجلس الوزراء.

ولما كانت لنا الرغبة الصادقة في إنقاذكم وضباطكم وجنودكم من الحالة الصعبة التي أنتم فيها، فقد اتخذت حكومتنا الوسائل اللازمة التي يمكن بها إنقاذكم وضباطكم وجنودكم من المصاعب التي تعانيون منها.

ولأنه قد تكونت بعثة (حملة) للإنقاذ بقيادة المستر ستانلي، وهو رجل مشهور بخبراته واكتشافاته الإفريقية، والذي عمت شهرته أنحاء العالم، والذي ينوي الشروع في مهمته ومعه كل الضروريات التي تحتاجون إليها، وحتى يتمكن من العودة بكم وبضباطكم وجنودكم إلى القاهرة، عبر الطريق الذي يراه المستر ستانلي مناسباً، فإننا بالتالي قد أصدرنا هذا الأمر السامي بشأنكم وسيرسل لكم على يد المستر ستانلي حتى تعرفوا ما تم القيام بعمله بشأنكم. وفور وصوله إليكم فأنني أكلفكم بنقل خالص تمنياتي للضباط والجنود. كما أن لكم مطلق الحرية في التوجه للقاهرة أو في البقاء حيث أنتم مع الضباط والجنود.

وقد قررت حكومتنا صرف مرتباتكم ومرتبتي الضباط والجنود.

أما الذين يودون البقاء هناك، من الضباط والجنود، فعليهم القيام بذلك على مسئوليتهم وبالتالي عليهم ألا يتوقعوا أي مساعدة من قبل الحكومة.

أرجو أن تستوعب ما جاء في هذا الأمر بوضوح، وأن يعلم به كل الضباط والجنود حتى يكونوا على بينة من الأمر ويعرفون تماماً ما سيقومون به.

(إمضاء) محمد توفيق

وغادر (ستانلي) القاهرة في الثالث من فبراير وسافر إلى زنجبار حيث عقد اتفاقاً مع الشخصية المشهورة تيبو تيب. ثم واصل رحلته إلى الكنفو بحراً (عن طريق كيب تاون) (رأس الرجاء الصالح) ووصل إلى الكنفو في ١٨ مارس. وفي السادس عشر من يونيو وصل إلى يامبيو مع مساعديه الميجر بارتلوت والكابتن نلسون والملازم ستيرس والمستر ما ونتني جفسون والطبيب الجراح بارك والسادة جيمسون وبوني ووارد. قام بترك الميجر بارتلوت والسادة جيمسون وبوني ووارد في يامبيو لانتظار بقية أعوانه، الذين لم يصلوا لها بعد، وتوجه ومعه باقي رجاله البالغ عددهم ٣٨٩ رجلاً، مسلحين ب ٣٥٧ بندقية، نحو البحيرة.

ومن المعلوم الآن ما حدث بعد ٢٨ يونيو، والتي وصفها المستر ستانلي بطريقة مثيرة للإعجاب في كتاباته، عن الأهوال والمغامرات العاصفة التي مرت بها هذه القوة الصغيرة خلال الغابات العظيمة، وأنواع الحرمان التي تعرضوا لها، والاكتشافات الغريبة التي أنجزوها، ونجاحهم في الخروج من الظلام إلى الضياء بعد شهور من التيه والتجوال وسط تلك الغابات المظلمة البشعة، وحروبهم مع أهالي المازامبوني، ثم وصولهم للبحيرة، ولا أخبار عن أمين، ثم رحلة العودة لإحضار المركب (أدفانس) من كيلونجا لونجا إلى البحيرة. أصبحت تلك الأحداث معروفة مما لا يدعو إلى التوسع في سردها هنا.

ولم تلتق الحملة بأمين باشا والكابتن كاساتي إلا يوم ٢٩ / ٤ / ١٨٨٨، عندما رجعت الحملة مرة أخرى للبحيرة، ووجدتهم في ناسابي على شواطئ بحيرة ألبرت، حيث قام ستانلي بتسليم أمين باشا (الأمر السامي) الصادر من سمو الخديوي. ومكثوا معه هناك بالبحيرة لخمسة وعشرين يوماً، ثم رجع ستانلي بنفس طريق الغابة اللامتناهي ليقابل رجاله المتخلفين وراءه، بينما ترك المستر ماونتني جفسون، مع حرس من ثلاثة عشر جندياً سودانياً لاصطحاب أمين باشا في جولة خلال مديريته حيث سيقوم بالتشاور مع ضباطه، ويخبرهم بوصول حملة الإنقاذ، وليقرروا ما سيقومون به بعد الآن.

ومن الضروري الآن إعطاء صوره بسيطة للأحداث التي جرت في المديرية قبل وصول ستانلي مباشرة. فبعد المحاولة غير الناجحة للكتيبة الأولى التي تمرد قسم منها لاعتقال أمين لم يحدث أمر ذو بال وجاءت فترة من الهدوء على المنطقة.

وكتب أمين في تقرير له عام ١٨٨٧ بأنه قد أرسل رسلاً منه إلى الجنوب الغربي بحثاً عن ستانلي. وكان أمين على علم بخططه وذلك بواسطة الرسائل التي كتبت له من زنجبار في يناير، والتي وصلته في مايو، وفي نوفمبر كتب مرة أخرى قائلاً: (كل شي على ما يرام ونحن على أحسن الصلات مع الزعماء ومع الأهالي وسأقوم قريباً إلي كيبورو شرق بحيرة ألبرت. هذا وقد أرسلت جماعة للبحث عن ستانلي لكنها عانت بدون أي خبر عنهم. لكنني أتوقع وصول ستانلي في منتصف ديسمبر).

ووصلت إلي كاساتي، المقيم مع كباريكا، أخبار أخرى عن الموضوع ومنها توصل إلى حسابات تفيد بأن ستانلي سيصل في مارس. ولكن من الغريب القول بأن ستانلي قد وصل بالفعل إلى شواطئ بحيرة ألبرت في نفس اليوم الذي تنبأ فيه أمين، لكنه لما لم يجد أي أخبار عنه كر راجعاً إلى مركبه، التي سيجر فيها إلى وادلاي ويعرف شيئاً عن مصير الحاكم الذي جاء لإنقاذه. ولكن بقيت شهوراً أربعة قادمة ليلتقي بعدها المنفذ مع الرجل الذي جاء لإنقاذه.

...

السودان الشرقي (١٨٨٧):

شهد العام ١٨٨٧، في بدايته إندياداً في درجة العلاقات الودية من جانب شيوخ الجنوب، في شرق السودان، تجاه الحكومة بسواكن.

وكان قد جاء في أثر شيوخ الهندوة، الذي حضروا في نهاية العام الماضي، رجالاً آخرين وعلى رأسهم الأمين فقيراي - من الشيراب - وهو رجل ذو نفوذ عظيم على قبائل سنكات وأركويت. وقد صرحوا جميعاً بكراميتهم للمهدية وأبدوا رغبتهم في مساعدة الحكومة. نفس الشعور كان عند شيوخ البني عامر، وفي يناير استقبل الحاكم العام (لسواكن) وفداً من اثنين وعشرين رجلاً، قدموا جميعهم آيات الولاء والطاعة له.

أما شيوخ طوكر، الذين كانوا يضمرون الولاء سرّاً في أنفسهم، فلم يتجرأوا على إعلان ولائهم للحكومة علناً وذلك خوفاً من العواقب التي تعقب حتماً مثل هذا الإعلان. ثم وصلتهم الآن أخبار بأن الخليفة قد أرسل أبو قرجة مصحوباً بقوة كبيرة ليحل محل عثمان دقنة. وفي أواخر يناير نشب نزاع غريب في طوكر بشأن حصان ملك للسيد بكري الميرغني كان قد صانده منه الأمير خضر. فقد طالب الأشراف بالحصان ووجدوا من يدعم حجتهم ضد الحساناب. ولاح شبح التمزق والخلاف، وقام أبو فاطمة، زعيم الأشراف، بمغادرة سواكن لتعزيز المطالبة بالحصان. لكن الفكي علي، الذي كان قائماً بالأمر، حسم الأمر لصالح الخضر مما أثار استنزاز الأشراف والذين إنداد، بذلك، عداؤهم للمهدية. ولما وصلت حالة القبائل لهذه الدرجة (من العداوة للمهدية) فقد تقرر القيام بمحاولة لدفعهم للقيام بسحق المهدية في مناطقهم، وفي مارس التقى الحاكم العام بعدد كبير من الشيوخ الموالين من قبائل البني عامر والأرتيقة والشباب، وغيرهم من القبائل، في عقيق. وقد جاء هؤلاء الشيوخ مصحوبين بثلاثة ألف وخمسمائة من رجالهم، وعبروا علناً عن رغبتهم في رؤية الحكومة وقد استعادت نفوذها في مناطقهم، وعن استعدادهم للمساعدة في ذلك. وقرب نهاية الشهر، بارح الأمين فقيراي سواكن للعمل على تجميع قبائل سنكات وأركويت، بينما أخذ محمود بك علي في الاستعداد لعمل نفس الشيء مع العمارة. وقد ساد الاعتقاد بأن أهالي طوكر الموالين سينضمون لهذه الحركة.

وفي يناير وصل عثمان دقنة إلى كملا قادماً من القضارف، حيث ترك فيها عوض مولادي، الذي كان كاتباً سابقاً لدي الحكومة بكسلا، أميراً عليها. أشتهر هذا الرجل بالجنس والقسوة، وسرعان ما كان مصدرراً لرعب القبائل المجاورة، وقام الشكرية مرة أخرى باللجوء إلى الحمران الذين كانوا قد قدموا مساعدات للأحباش أثناء حملات إنقاذ الحاميات المصرية. وقام صالح بك شنقة^{**} أيضاً، وهو الحاكم السابق للقضارف، بإلقاء ثقله مع الأحباش، وكان له، مثله مثل الشيخ عجول، ظهور واضح في كل المواجهات التي نشبت بين العرب والأحباش.

* اشتهرت قبيلة الشيخ عجول بأنها جنس ميل للصيد ومدربون على استخدام الأسلحة، وذلك في أوقات السلم، وقاموا، منذ بداية الثورة، بمقاومة المهدية.

** كما جاء في القسم التاسع من الكتاب، تحت عنوان قبيلة الكبابيش، فإن صالح بك، وهو أصلاً تكروري من دارفور، كان قد عين بواسطة غردون معاوناً للمديرية. لكن الأحداث التي تلت ذلك أثبتت أنه لم يوف بحق الثقة التي منحت له.

ولا يوجد إلا القليل من المعلومات المؤكدة فيما يختص بالأحداث على الجبهة الحبشية بعد إخراج الحامية المصرية من القضايف ولكن يبدو بأن الملك يوحنا قد عين رجلاً من الأمهرة هو راس عدل*** ليقوم بحراسة الحدود ومعه قوة عسكرية كبيرة. وكان الخليفة في ذلك الوقت قد أرسل الأمير محمود ود أرياب لاحتلال القلابات. وقد نجح في ذلك وطرد منها صالح شنقه والذي ظل مسئولاً عنها بعد سحب القوات المصرية منها. وفي يونيو دار اشتباك رهيب بين القوات المتصارعة في سهل مندة انتهى بمقتل ود أرياب وتحطيم جيشه وسقوط النساء ومن كان بالمعسكر في أيدي الأحباش. ولما بلغت تلك الأخبار مسامع الخليفة أوفد ابن عمه يونس الدكيم بديلاً لو دارباب وفي نفس الوقت أرسل قوات كبيرة كان الغرض منها احتلال القلابات. وقام (الخليفة) أيضاً في يولييه، بإرسال الخطاب التالي للملك يوحنا طلب فيه منه إعادة الأسرى فوراً، كما طالبه بتسليم صالح شنقه وعجول والفكي مضوي له. وجاء الخطاب كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم..... الخ.

من العبد لله... الخ، الخليفة عبد الله إلى عظيم الحبشة، يوحنا. فلتعلم بأن الله هو ملك الملوك، وإنه يعطي الملك لمن يشاء أو ينزعه منهم. ويعطي النصر لمن يشاء. وفي يديه الخير والشر. ولقد خلق الإنسان لعبادته وأرسل رسله لهدايتهم. وجعل السماء إرشاً للمطيعين له، والجحيم لمن يعصوه. ولقد ختمت النبوة بنبيه المختار محمد. وقد أرسله لهذا العالم ليبشر باسمه وليدعو الناس إلى الله. وقد أرسله كالضياء المنير ليصدق كل الناس بدين الإسلام. وبعد ذلك أرسل الله خليفته، المهدي المنتظر، ليعيد إحياء الإسلام وليحث الناس للحفاظ على أوامر الله.

إنني أنا خليفة المهدي الذي جاء ليفرض الدين الإسلامي وليدعوك إلى (طريق) لحق كما قال الله في كتابه الكريم مخاطباً أهل الكتاب ليؤمنوا بكلام الله والذي يماثل ما أنزل عليهم (من قبل). وهذا يعني بأن علينا عبادة الله الواحد، الذي لا شريك له في الملك وألا نصنع آلهة مع الله. فإذا ما أقررت بذلك وقلت أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإذا ما استجبت لطلبي من صميم قواذك، وأطعت أوامري، فستتم حمايتك والترحيب بك وتشريفك. وستكون لنا بمثابة الأخ وستكون لك كذلك. وستنشأ بيننا المودة الصادقة وستكون آمناً سالماً. ولكن إذا رفضت الاستجابة لهذا النداء ورفضت دين الحق فإن العاقبة ستقع على أم رأسك.

وحتى هذا الوقت لم أحد أبداً عن إتباع أوامر رسولنا (محمد) والذي قال (تجنبوا الحبش ما تجنيوكم) وهذا هو السبب في إنني رفضت شن الحرب عليكم. ولكن، وكما يبدو لي الآن، بأنكم السبب في تقويض السلم بعدواكم ومعاملتكم السبلة لضغفاء المسلمين الذين يعيشون بالقرب من حدود بلادكم، مثلما قتلتم وأسرتهم عدداً منهم، كما وفرتهم ملاذاً للذين تركوا الدين وهجروه مثل

(المؤلف). أما الإشارة لقبيلة الكبابيش فيبدو أن المؤلف، لعدم تعمقه أو لاستعماله، قد خلط بين صالح بك الكباشي وصالح بك التكروري (المعرب).

*** يوصف بأنه عربي متصلب وحاد المزاج (المؤلف).

وهذا خلط غريب (المعرب).

* نفس هذا الخطاب أرسله الخليفة لجلالة الملكة عام ١٨٨٩، بعد هزيمة الملك يوحنا ومقتله، وكان الغرض منه أنه بخطابه هذا كان قد أذعر الملك يوحنا بعدم جدوي محاولة الوقوف أمام أتباع المهدي.

صالح شنفه وعجول وإدريس أبو سن ومضوي وآخرين غيرهم، ولذلك أرسلت قسماً من جيوشي إلى حدودكم لتراقب تصرفاتكم. فإذا رغبتم في السلم فإن عليكم إرجاع كل الأسرى بحوزتكم، ذكوراً وإنثاء، كباراً وصغاراً، ولا تبقي على أحد منهم ببلادكم. كما أن عليكم إعادة كل الرجال الذين ذهبوا مع صالح شنفه والسماح لهم بالعودة لبلادهم. أما إذا كانوا غير راغبين في العودة واختاروا البقاء مع أعداء الله فإن عليك أخذ تعهد كتابي منهم ووضع أختامهم على ذلك التعهد وإرسال ذلك لى، حتى نعرف بأنهم ما عادوا من ناسنا. كما عليك أيضاً التوقف عن شن الغارات على حدودنا وأن تعمل على أبقاء رجالك داخل حدودكم.

فإذا فعلت ما طلبته منك فسأوقف شن الحرب ضدكم، وسأمر جيشي بعدم دخول بلادكم. كما أكرر لك مرة أخرى بأنك إذا قبلت الإسلام ديناً واتبعت تعاليم المهديّة، فأنت ستكون ممن يرحب بهم جداً مثلما ستال الشرف في الدار الآخرة. لكنك إذا أبيت ذلك فإن عليك ألا تتوقع سوي الحرب. وستقع في يدي بإذن الله، فإله ناظرنا وحامينا من أعدائنا حتى لو كانوا كرمل البحر في كثرتهم. فالذين يريد الله نصرهم لن يهزموا أبداً. لذا فعليك ألا تتدخ بكثرة جنودك، فإله معنا وسيذكر أعدائنا، وعليك القيام بالرد مع حامله".

مؤرخ يولييه ١٨٨٧ :

وعلى ما يبدو، فإن الملك يوحنا لم يعر هذا الخطاب أي اهتمام مما ترتب عليه قيام يونس بشن غارتين ناجحتين في عمق الأراضي الحبشية. فقام الراس عدل بحشد قوات ضخمة وشرع في الاستعدادات للغزو السودان. وعند ما بلغ الخليفة ذلك أرسل الأمير حمدان أبو عنجة، والمعروف بأنه أكثر قادة الخليفة براعة وحذقاً، إلى القلايات. غادر هذا الأمير أم درمان مع قوات كبيرة بقيادة الأمراء الزاكي طمل وعبد الله ود إبراهيم والنور عنقرة وفرج الأم درماتي وإسماعيل دندلوك، وقام بشق طريقه (تحو القلايات) ويضم إليه القبائل في الطريق حتى وصل إلى القلايات بقوة بلغت ٨٧٠٠٠ رجل. ولما لم يجد عند الأحباش عزماً على التقدم نحوه، كتب للخليفة طالباً الإذن له للهجوم عليهم وسرعان ما جاء الرد بالموافقة. ووصل إلى علم أبو عنجة أن الراس عدل يعسكر في سهل دبراسن، على بعد مسيرة ستة أيام من القلايات وثلاثين ميلاً من غندار، فتوغل داخل الحبشة ودمر في طريقة عدة كنائس وقرى وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى. وأخيراً وصل أمام موقع رأس عدل. ويقال أن عدد الجيش الحبشي بلغ ٢٠٠٠٠٠ رجل لكن عدداً كبيراً منهم لم يكن مسلحاً. دارت معركة شرسة وطويلة بين الطرفين تمت فيها هزيمة الحبش هزيمة تامة، رغم ما أبدوه من شجاعة عظيمة، ونجحت أعداد ضخمة منهم. وقد قتل منهم معظم كبار الزعماء، أما الرأس عدل فقد تمكن من الفرار لكن ابنه أسر وأرسل للقلايات. سقط كل معسكر الأحباش وما حوى في يد المنتصر أبو عنجة، والذي واصل زحفه، وبعد بضعة أيام وصل إلى غندار ونهبها ودمر معظم مبانيها الهامة وكنائسها وأسر الآلاف من النساء والأطفال بمن فيهم زوجة وابنة الرأس عدل. وبعد إقامة استمرت لأربعة عشر يوماً في غندار، عاد أبو عنجة للقلايات ومعه أعداد كبيرة من الأسرى والغنائم ليجد أنه، أثناء فترة غيابه عن القلايات، قد نشبت حركة مضادة للمهديّة

ذات قدر بالغ من الخطورة. ويبدو أن رجلاً تكررورياً من دارفور، يدعي بأنه النبي عيسى، كان متمكناً من كافة ضروب السحر والشعوذة، وقد وصل للقلابات وقام بمعجزات خارقة* ثم أعلن نفسه بأنه هو النبي عيسى. مكث هذا الرجل في قرية صغيرة خارج القلابات وسرعان ما أصبحت له رعوية كبيرة ضمت ما لا يقل عن سبعة عشر أميراً بمن فيهم يونس الدكيم. وفور وصول أبو عنجة أرسل الأمير ود إبراهيم للقبض عليه وعلى الأمراء المتمردين. تم القبض عليهم بدون صعوبة تذكر، وبعد بضع أسابيع جاءت تعليمات من الخليفة بشنقهم جميعاً باستثناء يونس، ابن عم الخليفة، والذي أمر بإعادته مهاتناً إلى أم درمان. تم تنفيذ الإعدامات وأرسل رأس المدعي للخليفة، والذي علقه لمدة طويلة فوق باب المسجد. وحتى يبت الرعب في قلوب أشياعه قام في السابع من ديسمبر بإصدار المنشور التالي البالغ الغرابة، والذي صيغ بصورة تحول دون مواصلة أتباعه المشبعين بالخرافات له:- "بسم الله الرحمن الرحيم.....الخ.

من عبد الله خليفة المهدي إلي كافة إخوانه. عند وصول الأخبار الخاصة بتدمير النبي الكاذب (الذي ادعى بأنه عيسى) وكل الذين صدقوا مزاعمه، امتلأ قلبي بالشفقة عليهم، لأنهم كانوا من قبل من الأصحاب لكنهم ضلوا الطريق. فسألت الله أن يعفو ويغفر لهم، وقمت بذلك سبعين مرة. وأثناء إنشغال فكري بذلك سمعت منادياً يناديني كي أستعد لتلقي رؤيا. تم ذلك في منزلي اليوم بعد صلاة الصبح. وعندما جاعني (الروح) ركعت مرتين وسألت الله مرة أخرى أن يعفو عن أولئك الرجال. وبينما أنا في صلاتي رأيتهم فجأة يعذبون بنار جهنم ولهيبها على النحو التالي:

رأيت المدعي الكاذب وهو في قعر حفرة لا يرى فيها ولكن تصدر منها أصوات وضجة عظيمة مصحوبة بالصراخ والعيول. أما ود بغداوى فكان في حفرة أعمق بقعر نار جهنم وكان عبد الله البركولي في مكان أعلى من النبي الكاذب وكذلك كان القرشي، وزيره، والطائف. وكان عذاب كل من هؤلاء الرجال بقدر مرتبتهم. لكن حنون وأبو فضالي وعبد الله الجاموس وغيرهم من الكفرة كانوا في عذابهم يظهرون ويختلفون من وقت لآخر من أعماق الجحيم. كلهم كانوا في حراسة رجال سود يعذبونهم كافة أصناف العذاب. وكان كل من أولئك التسعاء يعذب عذاباً شديداً ما عدا عبد الله الجاموس والذي كان عذابه أخف منهم. وفي هذه اللحظة رأيت النبي ماراً بالقرب منهم فرفعوا أصواتهم متوسلين الرحمة منه. لكنه لم يلتفت إليهم بل أشار للمهدي فسلموا عليه وقال لهم بأنهم عصوا الخليفة عبد الله وبالتالي فإن مصيرهم في يده. وعندما شاهدت حالتهم المخيفة سألت الله بحرارة لأن يعفو عنهم. فرفعوا أيديهم وشاركوني في الدعاء وظللنا لوقت طويل ندعو ونستغفر ثم سمعت صوتاً ينادي: "إن الباب الذي دخلوا منه ليس باب التوبة، لكنه باب الكفرة، لأنهم لم يموتوا في سبيل دين الإسلام" وأن من دخل من ذلك الباب لن يتم العفو عنه ولن يخفف عنه العذاب.

* يشتهر هذا النبي عيسى بالقيام بمعجزات خارقة للعادة ومستحيلة، منها أنه إذا رأى رجلاً يقف في العراء تحت الشمس فإنه يستدعي شجرة لتأتي وتظله بظلها، أو يخط بأصبعه خطاً على الأرض فتنبثق المياه من تحته، ولها طعم الثمرات. كما كان يظهر صوراً للجنة والنار والمعارك.....الخ.

ثم سألت لم يعاينى ود بغدادى من العذاب بأكثر من عبد الله جاموس فأجبت بأن الأول كان على علم بفساد النبي المزيف وأنه كان رجلاً مدعياً لكن الأخير كان يعتقد فيه حقاً. لكنهم عموماً أنكروا كلهم المهديّة ولهذا يعذبون وأستمر ذلك العذاب منذ موتهم، ولا زالوا. حتى الآن يسقطون في قعر جهنم ولم يصلوا آخرها بعد. وقد قيدت أعناقهم بالأغلال وعندما ينهض أي منهم للسطح فإن ملائكة العذاب تضربه وتقول له: "لو كنت سلمت نفسك للخليفة لثم إنقاذك من العذاب" ورأيت أنه كلما أدار الملائكة وجوههم ونظروا إلى، كانت وجوههم بيضاء ناصعة. لكنهم عندما يشرعون في تعذيب المذنبين الكفرة فتكون وجوههم سوداء كالليل.

ولما أيقنت أن هؤلاء الخطاة لن يتم العفو عنهم توقفت عن الدعاء لهم، فقد ضاقت نفسي لسوء حالهم. وسألت الله العون، وتمت الرؤيا. والله أعلم العلماء

٢١ ربيع الأول ١٣٠٥

٧ ديسمبر ١٨٨٧.

وتم بعد ذلك استدعاء أبي عنجة لأمر درمان. فتوجه إليها تاركاً معظم جيشه تحت إمرة الأمير أحمد ود علي بالقلابات. وإنتهت سنة ١٨٨٧ والملك يوحنا يزفر غيضاً، ويقسم على الانتقام من الخليفة وأعوانه، ويهدد بأنه سيزحف بكل جيوشه نحو الخرطوم ويدمرها.

والآن عودة لمتابعة سير الأحداث إلى الشمال والشرق من الحدود الحبشية. فحتى بواكير عام ١٨٨٧ كانت جيوش العرب تؤخذ من القبائل المحلية ولم يدخل شرق السودان أي رجل مقاتل من الأغراب، أي من البقارة والذناقلة والجعليين وغيرهم، وعندما جاء أبو قرجة في بداية العام لبلاد الشكرية فإتما أرسل، كما هو مؤكد، لمعاونة عثمان دقنة لاستئجار تلك القبيلة.

وعندما حل فبراير وصل إلى كسلا بصحبة ٣٠٠٠ رجل من البقارة وعدد من رجال الشكرية، الذين فر عدد كبير منهم بعد ذلك بقليل وعاد إلى دياره بسبب خلافهم مع الهندوة. وحتى البقارة لم يكونوا على وفاق مع (الأنصار) المحليين، بل أنهم كانوا سبباً للمنازعات والقلاقل. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم على أنهم هم الذين دعموا قضية المهديّة المقدسة من البداية ووضعوا أنفسهم في مقام أعلى شأناً من الآخرين. ولما كانوا في منتهى القوة فقد كانوا قادرين، من ناحية عامة، على فرض نفوذهم. لكن الهندوة لم يكونوا على استعداد لقبول هذا الوضع أو الإستكانة له، فتواصلت حالات الإحتكاك بينهما حتى أن ود الهداب رفض، في أبريل، أن تكون له أي علاقة بأبي قرجة وتذرع بحجة أنه لا يتلقى الأوامر إلا من الخليفة نفسه. أدى هذا للجوء البقارة إلى السلاح ولكنهم هزموا في المعركة التي نشبت وعاد الهدوء لبعض الوقت في المنطقة.

وفي هذا الشهر تسلم سمو الخديوي رسائل من ود عجول وعامرة أبو سن سرد فيها الأول الوقائع التي انتصر فيها وطلب من الخديوي، برجاء، الاعتراف به ومساعدته وتسليحه، ثم أكد في رسالته ولاءه حتى الموت للحكومة. وذكر في رسالته أيضاً بأنه ما أن ظهرت المهديّة حتى حاربها بكل قبيلته، وبأنه جرح عدة مرات، وفقد كثيراً من رجاله حتى أنه اضطر أخيراً للتسحاب

إلى غبته. وفي هذا الإسحاب فقد معظم أمواله. وذكر أنه قام، بما تبقى من أمواله، بتحصيل غبته وبعدها تمكن عدة مرات من مهاجمة العدو وتشتيته، وعمل على تقسيم الغنائم على رجاله ورجال القبائل المجاورة حتى يكسب ولائهم، وبأنه كتب أيضاً عدة رسائل للقبائل حاثاً لهم على عدم الإلتحاق بالمهدي وأن مساعيه تلك قد نجحت في العديد من الحالات. وذكر بأن محمد بك حمدي كان معه وأن بإمكان محمد بك تأكيد صحة إفاداته تلك. ثم أضاف بأن أسلحته لم تعد بذات جدوى وترجي سموه لإمداده بالسلاح والذخيرة وأن يرجو سموه من الملك يوحنا السماح له بحرية التنقل خلال أنحاء بلاده. كما استأن في تجديد ما بين ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ رجل من غير النظاميين وأن يعين عمارة ود أبو من الشكري قائداً لهم، وأنه سيقوم شيئاً فشيئاً بإخضاع المنطقة واستلام الخرطوم. وختم رسالته بأنه على استعداد، إذا ما رغب حكومة سموه في ذلك، بإرسال شقيقه ليكون رهينة معهم ضماناً للسلاح والذخيرة.

...

النيل الأزرق (١٨٨٧):

مناطق النيل الأزرق أيضاً شهدت، في أوائل العام، ثورة على المهديّة، تمثل نموذجاً لما آل إليه النظام القبلي من دمار، وكيف أن القبليّة قد أصبحت واهنة ضعيفة من جراء الإرهاب، الذي صار الآن سمة لحكم المهديّة.

فالقبيلة القوية المسماة برفاعة، والتي تقطن إلى الغرب من النيل الأزرق بجوار كركوج والتي، كما يذكر، كانت قد لعبت دوراً نشطاً في حصار سنار، قد إتهمت بأنها ذات ميول معارضة للمهديّة، مما دعي الخليفة لإصدار أمره لكبير شيوخها، المرضي، وكل كبار رجال القبيلة للحضور لأمر درمان. تردد المرضي في تلبية أمر الخليفة وجرّت محاولة لإلقاء القبض عليه في منزله، ولكن تم إنقاذه، ومن ثم ثارت كل القبيلة ضد هذه المعاملة وقاموا في كركوج بهزيمة جماعة من ٥٠٠ رجل كانوا قد أوفدوا لتنفيذ أمر الخليفة. أرسل الخليفة بتعليمات ليونس الديكم، الذي استعاد حظوته لديه، ليقود جيش النيل الأزرق ويعمل على إعادة القبيلة للطاعة. توجه يونس بجيشه إلى كركوج والتقى بالقبيلة، التي تجمعت في أعداد كبيرة، ودارت معركة بينهما هزمهم فيها وقتل المرضي وكل قائده وصادر إبلهم وممتلكاتهم. وهذا مثل واحد، ليس إلا، يوضح كيف أجبرت القبائل على الرضوخ التام. وفي معظم الأحداث كان أحد أمراء البقارة يحل محل زعيم الشيوخ، وباستخدام عدد محدود من قبيلته لدعم نفوذه كان يقهر ويسيء. معاملة رجال القبيلة (المعارضة) للدرجة التي يحولهم فيها إلى جماعة لا قوة لها، ومن ثم ، وبعد تدمير النظام القبلي، يتلاشى أي نوع من التحالف بين القبائل المعارضة للمهديّة.

كانت هناك، بخلاف رفاعة، قبائل أخرى أدركت بعد وفاة المهدي ما سيحل بها. فهناك قبيلة هامة بالقرب من تقلي تحت قيادة ود أبو كلام، رفضت أيضاً إطاعة أوامر الخليفة لهم بالحضور لأمر درمان ومبايعة الخليفة. أرسل يونس الديكم لإخضاعهم، وتمكن بعد سفك غزير الدماء في القيام بما أوكل إليه وساق نساءهم وأطفالهم لأمد درمان. وهناك حالات أخرى لهذه المذابح الجماعية ومنها إخماد (ثورة) عرب جهينة، والذي يمثل تماماً الحالات التي وردت من قبل.

...

ولم يكن صلح الكباشي أكثر حظاً في محاولاته للثورة ضد حكم الخليفة المنيع. وكما جاء في سيرته من قبل، وكان ذلك في يولييه ١٨٨٦، تركناه خاملاً في جبال أو دون بدون نشاط يذكر، لكن ذلك الزعيم النشط حمل السلاح مرة أخرى من فبراير ١٨٨٧، وقام بتدبير نكبي محكم بأسر قافلة من ٥٠٠ جمل كانت في طريقها للإلتحاق بالنجمي، وفي مارس ١٨٨٧ هزم تلك القافلة شخصياً. وقد كتب له سمو الخديوي خطابات مشجعة، وفي أبريل إستلمت رسائل من صالح تفيد بأن ثلاثين من أقاربه قد إتضموا إليه ومع كل منهم خمسين رجلاً. وعند تلقي هذه الأنباء، أرسل له الجنرال قرنفل قافلة محملة بالسلاح والذخيرة. لكن جاء دور النجمي هذه المرة، وتمكن من الإستيلاء، في واحة سليمة، على قسم كبير من البنادق، إن لم يكن عليها كلها. يعزي ذلك إلى صفاقة تاجر ألماني مقدم يدعي تشارلس نويفلد* والذي كان قد صاحب تلك القافلة. فقد أراد الحصول على إمدادات من المياه وتوجه بالتالي إلى الواحة، وهناك تم القبض عليه من قبل جماعة من العدو وأرسلوه لأمر درمان. أما بقية القافلة فقد أسرت وذهبوا بها إلى دنقلا حيث تم إعدام رجالها.

أثناء ذلك، علم الخليفة بنوايا صالح. وقام في مايو بإرسال قوة من أم درمان عددها ٥٠٠ سوداني، يقودهم الأمير البقاري حمد، ومعه بعض العرب، وجماعة من البني جرار بقيادة ود نوباوي، وبعض عرب المعاليه والمجائين بقيادة الأمير جريجير** بأوامر مشددة لتدمير صالح وأتباعه المتمردين الذين تحالفوا مع الكفار.

نشبت أولى الصراعات في آبار أم بادر عندما حاول صالح منع أعدائه من الشرب. وفي اليوم الأول خرج صالح منتصراً. لكن القتال استؤنف في اليوم التالي، حيث قتل فيه شقيق صالح المدعو جمع، لكنه رغم ذلك وفق في منع العدو من إحتلال الآبار. وفي تلك الليلة فر عدد من الكباشيين الذين ذعروا لمقتل جمع وفر صالح أيضاً إلى آبار محبس. كان معه عدد كبير من نسائه والأطفال، وقبل أن يصل إلى المياه وجد أن العدو قد سبقه عليها وإحتلها، فقام بهجوم يائس، هو ومن تبقى من أعوانه، على العدو ودارت معركة شرسة بينهما، عبرت عنها أحسن تعبير والده صالح بك، وهي امرأة شجاعة اشتركت مع أبنيتها في القتال وتم أسرها وإرسالها لأمر درمان. قالت:-***

"حارب صالح بشجاعة وغير جواده عدة مرات لأننا كنا كلنا، رجالاً ونساءً وبهائم في غاية العطش. ولما رأيت أبنني وسط هذا الخطر قمت مع ابنتي بالمشاركة في القتال لكن الدائرة كانت علينا وسقط كثيرون من أتباعنا. ولما شاهد صالح شقيقة الثالث وهو يصرع ترجل من جواده، وكما هي عادة الشجعان من زعماء العرب، نزع فروته من السرج وفرشها على الأرض وجلس عليها انتظارا للموت. أحاط به أمراء العدو وطلبوا منه الإستسلام والذهاب للخليفة عبد الله

* تشارلس نويفلد لا زال سجيناً في أم درمان.

** أظهر الخليفة بإرساله الأمير جريجير، كما فعل في حالات كثيرة أخرى، نكاه شديداً فقد كانت هنالك ناريت بين جريجير وصالح استمرت لوقت طويل إذ أن والد صالح كان قد قتل والد جريجير وعنه من قبل.

*** هذا القول جاء عن طريق الشيخ أحمد الفارسي، وذلك عندما تحدث إليه والده صالح بك. والشيخ أحمد هو تاجر سوداني معروف، وقد وصل حديثاً من أم درمان (إلى القاهرة).

في أم درمان، لكنه رد عليهم قائلاً: لا أريد قط مشاهدة الخليفة قافلتوني حيث أنا" فأشار الأمير جريجير إلى ابن عمه، والذي تقدم (نحو صالح) شاهراً سيفه وقطع رأسه إنتقاماً لأبيه وعمه. تبقى الآن شقيق واحد (لصالح) وأخذ معنا إلى الأبيض حيث تم قطع رأسه أيضاً. استولى العدو على مخيمنا وعلى النساء والأطفال والخدم وساقونا جميعاً لأم درمان".

وبعد هذه الهزيمة الماحقة لم يتبق سوى القليل من الكبابيش. وفي الوقت الراهن لم يتبق من هذه القبيلة، التي كانت يوماً قوية وكثيرة العدد، إلا الاسم في الواقع. وأرسل رأس صالح بك إلى أم درمان، حيث ظل معلقاً لمدة شهر، أما عائلته فظلت في، ولا زالت حتى اليوم، تحت الحراسة في مركز قيادة الخليفة.

سواكن (في عام ١٨٨٧):

تحسنت الأمور في سواكن بدرجة مرضية. واستمر الأمرار في تأكيد ولائهم كما أفاد محمد أبو فاطمة بأنه يعتبران قبيلته ستكون جاهزة عما قريب لمواجهة عثمان. وصلت رسائل أيضاً من الشيخ واق (أوهاج) حسن في طوكر تفيد أن المهدية في انحسار في ذلك المكان. وفي مايو طرأ حادث سيئ أدى لدرج ملموسة لخلخلة العلاقات بين قبيلتي الهندووة والأمرار وأثر على تحالفهما للدرجة التي توقفت فيها علاقاتهما لعدة شهور. كان الطريق إلى بربر، رغم كل شيء، مفتوحاً لعدة شهور لكن الحاكم العام رأى ألا يعلن عن ذلك لعدة أسباب كان أهمها هو أن (حقوق الطريق) كانت دائماً مصدراً للخلافات والتنازع بين الأمرار والهندووة. فقد أعلن الأمرار، على كل حال، وبعد أن تولوا زمام الأمر هناك، بأن الطريق مفتوح وسرعان ما تجددت الثارات القديمة. وأعلن الهندووة بصوت عال رفضهم لإدعاء الأمرار وتوجه بعض شيوخهم إلى طوكر للحصول على دعم العرب ضد الأمرار. وعمل الأمير الفكي علي، على تشجيع الصراع بالطبع وبدأ لبعض الوقت ألا مناص من التصادم. ولكن، ولحسن الحظ، أعلن شيخان مهمان هما الأمين فقيراي وعبد القادر حمد معارضتهما لأي صراع وكتباً للحاكم العام بأنهما سيبدلان أقصى جهدهما للحفاظ على السلم والهدوء تنفيذاً لرغباته. وبهذا تم تجنب شقاق خطير (كان على وشك الوقوع).

وبينما سارت الأحداث على هذا المنوال وصل إلى طوكر محمد موسي دقة، يصحبه ١٠٠٠ رجل ذوي تسليح جيد، ومعظمهم من البقارة. كانت قوات كسلا في ذلك الوقت تصل إلى ٢١٠٠٠ رجل.

وإلى الشمال من سواكن كان تجار الرقيق يقومون بتجارة مزدهرة في ذلك الوقت. فبعد أن تم إبعادهم من خور شيناب بواسطة السفينة الحربية البريطانية (جرايلر) عام ١٨٨٥ فباتهم استقروا في ميناء حلايب، على بعد ٢٥٠ ميلاً شمال سواكن ووجدوا فيه ملاذاً آمناً لفترة طويلة. شجعهم هذا، وخاصة مستوطنة الحتيمة، لدرجة أنهم أطلقوا النار على مركب (جاتيت) التابعة للبحرية البريطانية وقتلوا الملازم ستيوارت وجرحوا بعض لابسلي الجاككات الزرقاء. وفي مايو قامت السفينة الحربية البريطانية (دولفين) بإحراق قرية الحتيمة، وفي يونيو توجه الكولونيل

كتشنر إلى حلايب ومعه فصيل من جنود الباشبوزوق وجماعة من الكنيسة السودانية العاشرة، ورافقته السفينتان الحربيتان جاتيت وفالكون. تم تشتيت الحتومة وأسر شيوخهم، وبعد ذلك بقليل غادروا المنطقة واستقروا على الساحل المقابل. تم فتح حلايب الآن كميناء حكومي* وأنشئ فيها نقطة للشرطة وسرعان ما وجدت التجارة فيها سوقاً جاهزاً.

أحيا وصول البقارة لطوكر روح التعصب فيها، رغم أن ذلك لم يؤثر على قبائل الجوار والذين، عندما تم استدعاؤهم للحضور لها، رفضوا الذهاب. وفي يولييه تم استدعاء كبار شيوخ طوكر لأمران، وتم إختيار محمد الأمين، شيخ الولي عالياب، وهو رجل مهم ذو نفوذ في منطقة سنكات، كممثل لهم ليصحبهم (لأمران درمان).

وفي نفس الشهر تصالح الهندوة رسمياً مع الأمرار. ولكن سرعان ما تعكر صفو الصلح بعد أن أقام البقارة في أوباتا محطة لجمع الضرائب من القبائل والتي رفضت دفعها لبعض الوقت. فقط كان الوحيد الذي تضافر مع البقارة هو العدو اللدود عكود موسى. استمرت الأحوال بدون تغيير يذكر لبعض الشهور. ولم يتمكن البقارة من الإنسجام مع القبائل المحلية وأدى سلوكهم المتفطرس، مضافاً إليه الإبتزاز لكسب عدااء الكثيرين الذين كانوا، عند وصولهم، على استعداد لمعاملتهم كأصدقاء. وفي نفس الوقت أدخل البقارة الروح والرهبة في قلوب القبائل المحلية.

وفي يولييه توجه عثمان بقعة ثانية لأمران درمان لحضور مجلس الأمرار الذي يعقده الخليفة، والذي تناقش فيه شئون كل السودان. أراد الخليفة من جمع كل الشيوخ بعائلاتهم، الاحتفاظ بالعوائل كرهائن بأمران بينما يعود الشيوخ ويشترون في إدارة العمليات الحربية في كافة الاتجاهات. لكن معظم الشيوخ رفضوا إحضار عوائلهم معهم، بل أنهم رفضوا المشاركة في هذه الحملات الممتدة المتصلة، لكنهم أجمعوا على تقديم الدعم والمساعدة للخليفة إذا ما هوجم. ترتب على ذلك الرفض إعتقال عدد من الشيوخ وسجنهم. وعندما انفض اجتماع المجلس عاد عثمان إلى كسلا، التي كثرت فيها المنازعات بين الهندوة والبقارة، وفور وصوله هناك طلب المزيد من التعزيزات من البقارة.

وربما كانت المشاعر ضد البقارة أقوى هنا منها في أي مكان آخر. وكان المركز الرئيسي للقتال في منطقة أوديب والتي أظهرت فيها أقسام الشبوديناب والجميلاب العداا الواضح للبقارة ودارت بينهما عدة إشتباكات كانت نتائجها عادة لصالح الهندوة.

وفي أكتوبر أجمع في سواكن أربعون من أكثر شيوخ الهندوة والأمرار نفوذاً. وبموافقة الحاكم العام تقرر أن يتم تجميعهم في تروي* إستعداداً للزحف نحو طوكر. وفي نوفمبر تقدموا نحو ستراب. وهناك، وكما يحدث حتماً عندما تشترك قبائل قوية، لأداء مهمة، بدون قائد عام واحد، فقد نشب الشقاق والخلاف بينهم. وإتهم الأمرار الهندوة بعدم القدوم لدعمهم، أما الهندوة فقد وبخوا الأمرار وإتهموهم بالجبن والخور. وقد نجم عن ذلك الخلاف تراجع القوات مرة أخرى إلى تروي.

* وهو ميناء في مناطق البني عمر مقابل جزيرة بهدور.
شمال طماي بخمسة أميال.

وهنا، وفي التاسع من ديسمبر إنقض فصليل من البقارة المشاة والفرسان على الأمرار وشتتوا شملهم بالكامل.

وإثناء ذلك بلغت عثمان دقّة، في كسلا، أنباء تغيد بأن حامية سواكن قد تمّ تغليبها لدرجة كبيرة. فقد رجعت الكتيبة المصرية الخامسة في الخريف وأعقبها في نوفمبر عودة الكتيبة السودانية العاشرة. وبانسحاب الأخيرة أبلغ عثمان بأن المدينة قد أصبحت بدون مدافعين عنها سوى بعض الباشبوزوق. جمع (عثمان) كل من استطاع من الرجال وتوجه نحو طوكر بقوة من ٥٠٠ رجل حيث وصلها بعد عشرة أيام. ومن هناك توجه نحو هندوب وأنشأ مركزاً له فيها. وفي السادس عشر من ديسمبر كان قد أصبح مرة أخرى سيداً على كل المنطقة.

لم يخف العرب نواياهم في الهجوم على المدينة. لكن عثمان أصر على حشد كل القبائل تحت رايته قبل أن يضرب ضربته القاضية. وظلت دورياته تنشط أثناء النهار بينما تقوم بنهب الجنائن التي وراء جدران سواكن بالليل. وعادت سواكن مرة أخرى تحت الحصار. ولحسن الحظ وقف التحالف المعارض للمهدية وقفة حازمة بينما لم تقدم القبائل المحلية على الإلتحاق الفوري بعثمان دقّة. وحتى يستعجل الأمور، أرسل عثمان حملاتاً إلى الشمال والجنوب والغرب (من سواكن). كاد الأمرار أن يستأصلوا حملة الشمال. فقد تجمعوا بقواتهم في دارا، تحت قيادة أحمد محمود، وٱلتحموا بالحملة وقتلوا منها نحو ٣٥٠ رجلاً بما فيهم دليلهم، مما ترتب عليه أن معظم الذين فروا ضلوا الطريق وماتوا جوعاً وعطشاً. أما حملتي الجنوب والغرب فقد عادتاً دون تحقيق أي نتائج ذات أهمية.

وبعد يومين من معركة دارا قامت جماعة من الأمرار ومعهم عدد من المولدين بالخروج من سواكن وٱنقضوا على النقطة العربية في تروي وشتتوا شمل من بها وإستولوا على نحو ١٢٠٠ رأس من البقر و ١٦٠ جملًا.

وهكذا إٱتتم عام ١٨٨٧، وعثمان معسكر في هندوب مع قوات محطمة. ومرة أخرى أصيب بخيبة الأمل لعدم وصوله للضحية التي ناضل طويلاً من أجلها، والتي ظن أنه سيضع يده عليها أخيراً بدون مصاعب تذكر.

* يطلق لفظ المولدين على الأهالي من ذوي الأصول المختلطة. وعموماً يكون ذلك نتيجة تزواج بين أب مصري أو تركي مع أم سودانية.

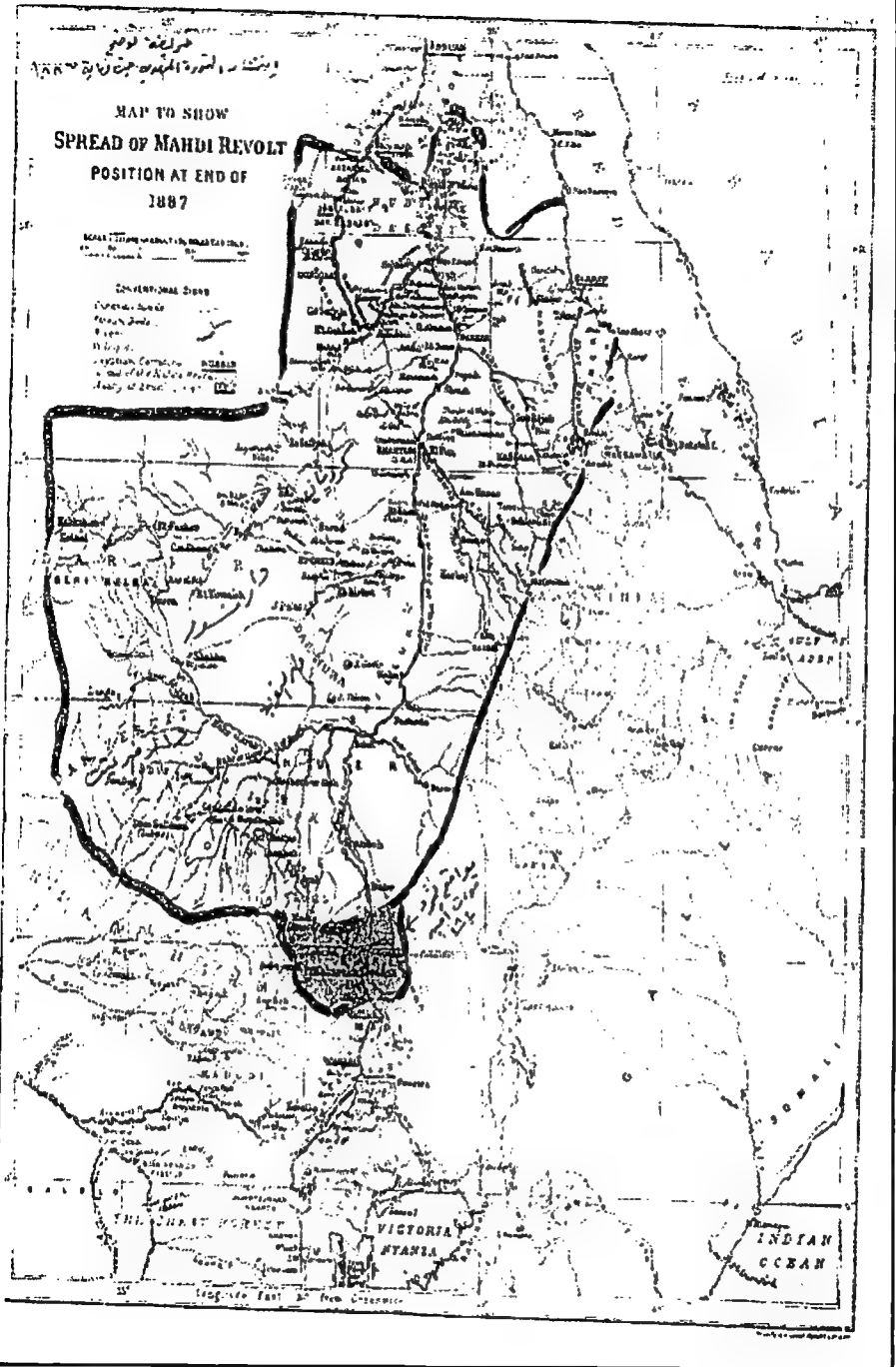
خريطة تظهر
انتشار الثورة المهدية في السودان
في نهاية سنة ١٨٨٧

MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1887

SCALE: 1 INCH = 100 MILES
1:100,000

CONVENTIONAL SIGNS

Capital, Sudan
British Possession
1898
1899
1900
1901
1902
1903
1904
1905
1906
1907
1908
1909
1910
1911
1912
1913
1914
1915
1916
1917
1918
1919
1920
1921
1922
1923
1924
1925
1926
1927
1928
1929
1930
1931
1932
1933
1934
1935
1936
1937
1938
1939
1940
1941
1942
1943
1944
1945
1946
1947
1948
1949
1950
1951
1952
1953
1954
1955
1956
1957
1958
1959
1960
1961
1962
1963
1964
1965
1966
1967
1968
1969
1970
1971
1972
1973
1974
1975
1976
1977
1978
1979
1980
1981
1982
1983
1984
1985
1986
1987
1988
1989
1990
1991
1992
1993
1994
1995
1996
1997
1998
1999
2000
2001
2002
2003
2004
2005
2006
2007
2008
2009
2010
2011
2012
2013
2014
2015
2016
2017
2018
2019
2020
2021
2022
2023
2024
2025



القسم الحادي عشر

أحداث عام (١٨٨٨ م)

الملخص:

"حماية الحدود توكل للجيش المصري - بحر كرار يقيم رئاسته في أو نجات - الغارة على كلابشة - الغارة على جرشة - إقامة نقاط حصينة بين كروسكو وحلفا - العدو يحتل آبار المرات - الغارة على فريق - حضور النجومي لمجلس الأمراء بأم درمان - إنشاء مديرية الحدود العسكرية - تعيين الكولونيل وود هاوس حاكماً عليها - محاكمة منشتابك أمام محكمة عسكرية بتهمة الخيانة - منشور إلى البشاريين - وصول الإمدادات لسرس - الهجوم على دبروسة - الهجوم على قلعة خور موسى - الخليفة يقرع النجومي لتراخيه - سواكن - حملة عثمان من هندوب - الكولونيل كنتشنر يحاول اختطاف عثمان - معركة هندوب - جرح الكولونيل كنتشنر - العرب يتحصنون بالقرب من سواكن - معركة الرابع من مارس - موت الكابتن تاب - عثمان والقبائل - شهرين من توقف العدائيات مع سواكن - وصول عثمان النايب بإمدادات من أم درمان - العدو يحفر خنادقاً على بعد ١٩٠٠ ياردة من سواكن - حصار سواكن - تعيين الكولونيل هولدميث حاكماً عاماً عليها - إمدادات لها من القاهرة - الجنرال قرنفل يكتب عن ضرورة زيادة الجيش المصري - إستطلاع الثامن من أكتوبر - الجنرال قرنفل يتوجه إلى سواكن - اعتباره بأن طرد العدو من خنادقه أصبح أمراً ضرورياً - توجه القوات البريطانية لسواكن - ميول القبائل - معركة جميزة - الهزيمة التامة للعرب - الأحداث على الحدود الحبشية - خطاب الخليفة للملك يوحنا - رؤيا الخليفة - حملة أبو عنجة - وصوله مرة أخرى لغندار - وفاة أبو عنجة - الأحداث في دارفور - عثمان آدم يهاجم ويهزم السلطان زايد في وادي المسرية - ومرة أخرى في بيرة - موت السلطان زايد (والسلطان) يوسف ثورة دار تاما - الشيخ أبو جميزة يقود الثورة - التماسه المساعدة من سلطان برقو - الأخير يلتزم ذلك من السنوسي - رد السنوسي عليه - تفسير لما يسمى بحركة السنوسي - رسالة الخليفة لأبي جميزة - انزعاج أم درمان - أبو جميزة يتقدم نحو الفاشر - هزيمته لقوات المهديّة في ككابية - رجوعه لدار تاما لجمع الإمدادات - الإستوائية - من هو الباشا الأبيض؟ تفسير ذلك - الخليفة يرسل حملة من أم درمان لأسر الباشا الأبيض - جولة أمين وجفسون في أنحاء المديرية - التمرد في كيري - الثورة في دوفيلي - أمين وجفسون يسجنان - وصول جيش المهديّة بقيادة عمر صالح إلى اللاو - إطلاق سراح أمين وجفسون - توجيههما إلى وادلاي - إخلاء وادلاي - إعادة إستلام دوفيلي من المهديين - رسالة عمر صالح إلى الخليفة - الأخير يحول الرسالة إلى عثمان دقّة لتوصيلها للجنرال قرنفل في سواكن - الوضع في الإستوائية في نهاية عام ١٨٨٨".

...

الحدود، عام ١٨٨٨:

لم يحدث شيء جديد في سرس. ففي الرابع من يناير تم سحب آخر فصيلة من القوات البريطانية (فصيل واحد من فوج ويلز) من أسوان وأوكلت حماية الحدود للجيش المصري. وفي السادس من يناير بعث الأمير ود البصير إلى دنقلا للضغط على النجومي للأمر إما بالهجوم أو بالانسحاب، إذ أن الاحتفاظ بقوة ضخمة كهذه في سرس كان يتحول يومياً من وضع صعب إلى وضع أصعب. فالطعام صار نادراً وانتشر المرض وسط المقاتلين. وقد عاد الأمير مساعد، الذي كان قد تقدم حتى فرقة، مع إمدادات لها، فجأة إلى دنقلا، كحاكم للمديرية، وذلك في أوائل فبراير، بينما كانت قيادة كل القوات تحت إمرة النجومي.

وقد وصلت إمدادات مساعد، المكونة من ٥٠٠ رجل، إلى سرس يوم ٢٠ فبراير. أثناء ذلك تمكن بحر كرار، رغم أنه فشل في مهمته لاستنفار البشاريين، من احتلال آبار حيمور وأونجات في الصحراء الشرقية، وكلاهما كان قد احتلها بقوة مقاتلة كان يهدف من بعدها إلى شن الغارات على النهر بين أسوان وكروسكو. وقد كان سلوكه بشير بك، الذي كان مسئولاً (لدى الحكومة) عن سلامة هذا القسم من الصحراء، مصدرأ للتساؤل بالطبع. لكنه دافع عن نفسه بأنه لم يتمكن من الدفاع عن الآبار أمام مثل تلك القوات المتفوقة. أما بحر فلم يضع الوقت لإثبات موقع نفوذه الجديد، بل سارع في الخامس والعشرين من فبراير بإرسال الأمير حسين أبو حمد لمهاجمة قرية كلابشة، التي تبعد بخمسين ميلاً إلى الجنوب من أسوان وبمائة ميل من أونجات. اتقضى العرب على القرية في الرابعة صباحاً واندفعوا نحو نقطة البوليس حيث تم، بعد مقاومة طفيفة، تثبيت القوة الصغيرة التي كانت بها، وبعد جرح أربعة من رجالها وأسر الضابط المسنول عنها. وقد حاولت زوجة الضابط الوقوف بشجاعة أمام الهجوم وقاومته لكنها جرحت وتوفيت بعد ساعات من ذلك. وفي صباح اليوم التالي وصلت من أسوان فصيلة من القوات بقيادة الكابتن بيسانت وطاردت العدو لبعض الطريق. لكن العدو، الذي كان ممتطياً للهجن، أفلح في الفرار.

ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أن تشير لحقيقة (أن العدو) لم يمس أحداً من القرويين بسوء. بل حتى أنهم لم يظهروا أي اهتمام بوجود القوات التي أرسلت خصيصاً لحمايتهم وكانوا لا مبالين تجاهها. وأوضح الآن أن الأهالي لم يتمكنوا، ولم يريدوا، القيام بأي شيء لمساعدة أنفسهم، وبالتالي أصبح ضرورياً إقامة نقاط حصينة، بكل منها ١٠٠ رجل، في المناطق المهددة المختلفة، بينما تقوم البواخر بمدفعتها وفصائل الهجاة بدوريات نشطة على النهر والصفاف. لكن تلك الخطوات لم تكن أيضاً بالكافية لمنع جماعات العرب المغيرين من التسلل خلال الليل وقيامهم بقطع خطوط التلغراف ثم ينسحبون للصحراء أثناء النهار. وقد تأكد بأن أولئك العرب قد احتلوا آبار القلب، على بعد بضعة ساعات من النهر، وعلى طريق حيمور. فقد جاءت جماعة منهم إلى العلاقي في الثامن والعشرين من الشهر وهاجموا بعض السفن الشراعية الراسية ونهبوا الذرة التي كانت محملة بها. وفي الثاني عشر من مارس جاءت مجموعة أخرى مكونة من ١٥٠ رجلاً على ظهر الهجن، وبنقضت على قرية جرشة، التي تبعد بستة أميال شمالي جبل حياتا، ودمرت ميلاً من خطوط التلغراف وأساعت معاملة السكان، لكنهم تراجعوا عندما ظهر أمام ناظرهم طوف الدوريات

الراكبة. سببت استمرارية هذه الغارات، والرعب الذي أحدثته، إزعاجاً (للسلطات). وقد تم حتى الآن إنشاء نقاط حصينة بكل منها ١٠٠ رجل من المشاة وذلك في صبوّة والسبالة والعلاقي وجبل حياتا وميرية وأبو حور وكلايشة، بينما صدرت الأوامر لبشير بك ليشرع علي الفور في تنظيم قوة من غير النظاميين للسيطرة علي آبار الصحراء. وعندما كتب السردار تقريره عن حالة الأوضاع العامة، ذكر بأن الوضع الراهن للقوات المصرية لم يكن كافياً للسيطرة على حلفا وكروسكو وأسوان، بالإضافة للمنطقة بين حلفا وأسوان، التي يبلغ طولها ٢٢٠ ميلاً، ولعدم قدرتها علي منع الغارات عليها وحماية خطوط التلغراف.

وحتى الآن إتحصرت تلك الغارات علي مناطق شمال كروسكو. لكن الوضع الحالي فإن قوات الأعداء العرب لم تسيطر فقط علي حيمور وأونجات وجلب، بل أن آبار المرات سقطت مرة أخرى في يدهم. وفي الثالث والعشرين من مارس هبطوا علي قرية فريق، شمالي حلفا بخمسة وثلاثين ميلاً، ونهبوها وقتلوا من سكانها إثني عشر شخصاً وجرحوا ثلاثين. ويبدو أن هذه الغارة الخطيرة قد حدثت علي النحو التالي:

فقبل شروق شمس ذلك اليوم، قامت جماعة من ١٠٠ من راكبي الهجن، والمسلحين بالسيوف والحراب والبنادق السودانية طويلة الماسورة، بالنزول على النهر، حوالي ميل جنوب فريق، وتزودوا بالمياه وتواروا في الحال في الجبال. وبدون أن يرتاحوا إتحدروا نحو فريق بعد أن أطلقوا دفعة واحدة من القذائف ثم هاجموا القرية من كافة الاتجاهات وقتلوا وجرحوا كل من استطاعوا القبض عليه بمن فيهم زعمي القرية. ثم توجهوا لنهب الماشية ولسلب النساء حليهن وتدمير التلغراف. ومكثوا بالقرية لحوالي خمسة ساعات ثم إتصرفوا نحو الجبال ومعهم حوالي أربعين رأساً من الماشية.

تم إنشاء محطات حصينة في فريق وتوشكي وإبريم. إنشاء ذلك قام شقيق بشير بك، علي مصطفى، بقوة من ٥٠٠ من العبادة بمقادرة دراو، في الثاني والعشرين من الشهر، لاحتلال آبار الأبرق، حيث منها يمكنه بدء العمليات ضد العرب في حيمور وأونجات، بينما عسكرت الكتيبة المصرية في دراو.

وفي الثامن والعشرين من مارس بارح النجومي لنقلا متوجهاً لأم درمان، للتحايط دون شك في الخطط القادمة لغزو مصر.

وإستمرت الغارات على كل حال. وفي الخامس من أبريل تم نهب قرية إرمنا، ٥٠ ميل شمال حلفا، وأسر ثلاثة من سكانها. وقد شغل ذلك الوضع الخطير، وتلك الحالة من عدم إستقرار المنطقة، بال الحكومة وخاصة في الأراضي التي بين أسوان وحلفا. وتقرر، لتمكين السلطات العسكرية المسؤولة عن حماية هذا الخط الطويل للحدود، وإعطائهم المزيد من الصلاحيات والدعم، أن يتم فصل المنطقة جنوبي أسوان من مديرية إسنا، حيث كانت تكون جزءاً دائماً منها، وإنشاء مديرية جديدة تسمى بمديرية الحدود، ولتتولى إدارة كل الشؤون المدينة والعسكرية بها وأوكلت إدارتها للضابط القائد للقوات بها. طبقاً لذلك فقد تم تعيين الكولونيل وود هاوس، قائد قوات الحدود آنذاك، رسمياً كحاكم للمديرية الجديدة وذلك في السادس عشر من أبريل وتم سحب قوات البوليس

المدنية من مختلف النقاط وحل محلها البوليس الحربي. وتم تحذير الأهالي هناك بأنهم أصبحوا الآن خاضعين للحكم العرفي وبالتالي فإن إكتشاف أي محاولة للاتصال بالعدو من جانب أي من الأهالي ستتم معاقبته بأقصى العقوبات.

وسرعان ما حدث ما يبهر ذلك. فقد قدم منشأ بك، وهو أحد العيادة المدعومين، لمحكمة عسكرية في أسوان بتهمة التخابر مع العدو. حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ولكن سمو الخديوي خفض الحكم إلى الأشغال الشاقة مع السجن. وسرعان ما اتضح أثر ذلك الحكم فقد بدا الأهالي شيئاً فشيئاً يغيرون ما بأنفسهم وتواترت صور التعبير عن ولائهم من قبلهم. تم توزيع السلاح عليهم لحماية قراهم، وساد كل مكان شعور بالأمن والطمأنينة. ونجحت حملة بشير بك في تطهير مناطق الآبار الصحراوية من المغيرين بالقرب من نهر النيل، وفي أوائل يونيه قام باحتلال حيمور بمائتين وخمسين رجلاً*.

أما في سرس فقد أخذت أعداد قوات العدو في التناقص بدرجة ملحوظة، ويعزى ذلك جزئياً لفرار أعداد منهم بسبب ندرة الطعام، ومن الجانب الآخر لذهاب النجومى لأم درمان وعدم ورود أي أمر للقوات بالتقدم.

وشرعت الحكومة في إصدار نشرات موجهة للبشاريين تم فيها العفو عن أي أعمال قاموا بها في السابق وحثتهم على الولاء التام وليقوموا بخطوات إيجابية ضد دخول المهديين لمناطقهم. سادت بعد ذلك فترة من الهدوء على الحدود. ولكن في الخامس عشر من يوليه وصلت أخبار عن النجومى تفيد باستئناف العمليات ضد مواقع الحدود. وفي الثامن عشر من الشهر وصلت إلى سرس قوة كبيرة من راكبي الجمال قادمة من الجنوب ومعها تعليمات بمهاجمة قرى شمال أسوان. وتلقت قوات سرس هذه الأنباء بالتهليل والتكبير، فقد طالما تطلّعوا للسماح لهم بالغزو للنهب، وكان لندرة الطعام أثر في مضاعفة حماسهم للتقدم.

وفي التاسع عشر من الشهر غادرت جماعة من ٥٠٠ فارس وهجان سرس سراً، تحت قيادة الأميرين مكين النور وبلال واتخذوا موقعاً بالجبال المشرفة على دبوسة* ومنها أرسلوا بعضاً من رجالهم للنهب. وبالرغم من ورود تحذير بهجوم محتمل، إلا أن الأهالي فوجئوا تماماً بوصول العرب، والذين أشعلوا النيران في المنازل وقتلوا حوالي خمسين رجلاً وإمرأة وطفل وجرحوا خمسة وثلاثين آخرين. فر الأهالي المذعورون إلى مراكزهم - وكان هناك حوالي عشرين منها - ولكن حدث أثناء الفوضى التي نجمت أن إنقلبت ثلاثة منها - وغرق ١٣٧ شخصاً ممن ركبوا فيها. أما الباقون فقد أفلحوا في اللجوء إلى الجزيرة المقابلة. وصلت الأنباء إلى حلفا وشرعت القوات الراكبة في التحرك باتجاههم، لكن العدو نجح في الوصول للجبال وتراجع تحت نيران حامية جرح أثناءها الأمير الهام بلال والذي توفي بعد ذلك بقليل من جرائها.

* بعد ذلك بوقت قصير قام الكابتن بوشامب بزيارة لتلك الآبار مصطحباً معه طوقاً من الهجانة المصريين.
* دبوسة هي مكان تسوق أهالي حلفا وهي تقع شمال الخطوط بحوالي ميل واحد. كان يقطنها أساساً التجار المصريون والأغاريق وكانت تمد حامية حلفا باحتياجاتها.

تكاد هذه الحادثة الخطيرة أن تكون قد جرت على أبواب حلفا. وبالرغم من الدوريات والأطواف المتصلة النشطة إلا أن العرب قد أفلحوا في تحقيق المفاجأة التامة ووصلوا على بعد ميل واحد من دبروسة قبل أن يكون هناك أي إحساس أو شعور بوجودهم في الجوار.

ويبدو أنهم قاموا بالتقافة واسعة في الصحراء، وتجنبوا بذلك إكتشاف الدوريات لهم، ثم توغلوا بداخل واد عميق ينتهي بالقرب من القرية وبالتالي وصلوا للموقع بدون أن يحس بهم أحد. وقد اتضح فيما بعد بأن الذي قادهم للموقع (عبر ذلك الطريق المجهول) هو المدعو حسن الجزار، وهو رجل كان قد فر من قبل من دبروسة وعمل مع العرب وأصبح أميراً. وفي كثير من الغارات التي تلت ذلك، والقادمة من سرس، كان ذلك الرجل ومعه فار آخر يسمى أبا يزيد، الذي كان موظفاً سابقاً في سكك حديد حلفا، هما اللذان يقودان العدو في كل غاراته تلك. وبعد معركة توشكي عام ١٨٨٩، تم إلقاء القبض على أبا يزيد ورميه بالرصاص بحضور أهالي دبروسة الذين خاتهم.

واتضح الآن أن فترة من المناشط الحربية على وشك أن تبدأ. وتواترت الإشاعات عن توقع حدوث محاولات لقطع خطوط الاتصالات بشمال حلفا على نطاق واسع. لكن المخطط الموثوق بصحته هو أن (الأمير) عبد الحليم كان قد أنتوي تقسيم قواته لثلاثة أقسام. القسم الأول منها كان عليه القيام باحتلال دبيرة (علي بعد عشرة أميال شمالي حلفا، بالضفة الشرقية)، والثاني عليه أن يقيم متحصناً بين دبروسة وحلفا، أما الثالث فكان عليه الهجوم على أرقين (التي تبعد تسعة أميال شمال حلفا، على الضفة الغربية). ولكن لم يتوصل الأمراء إلى خطة حاسمة للعمل مما اضطر عثمان أزرق للرجوع ثانية لدنقلا ليحث مساعد على إعطاء أوامر محددة واضحة.

وأثناء ذلك لم تترك قوات العرب بسرس للهدوء. وفي ليلة ٢٩ أغسطس نفذت هجوماً جريئاً للغاية على طابية خور موسى الخارجية، والتي كانت تحميها سريتان من الكتيبة المصرية السابعة وفصل من قوات الهجاة.

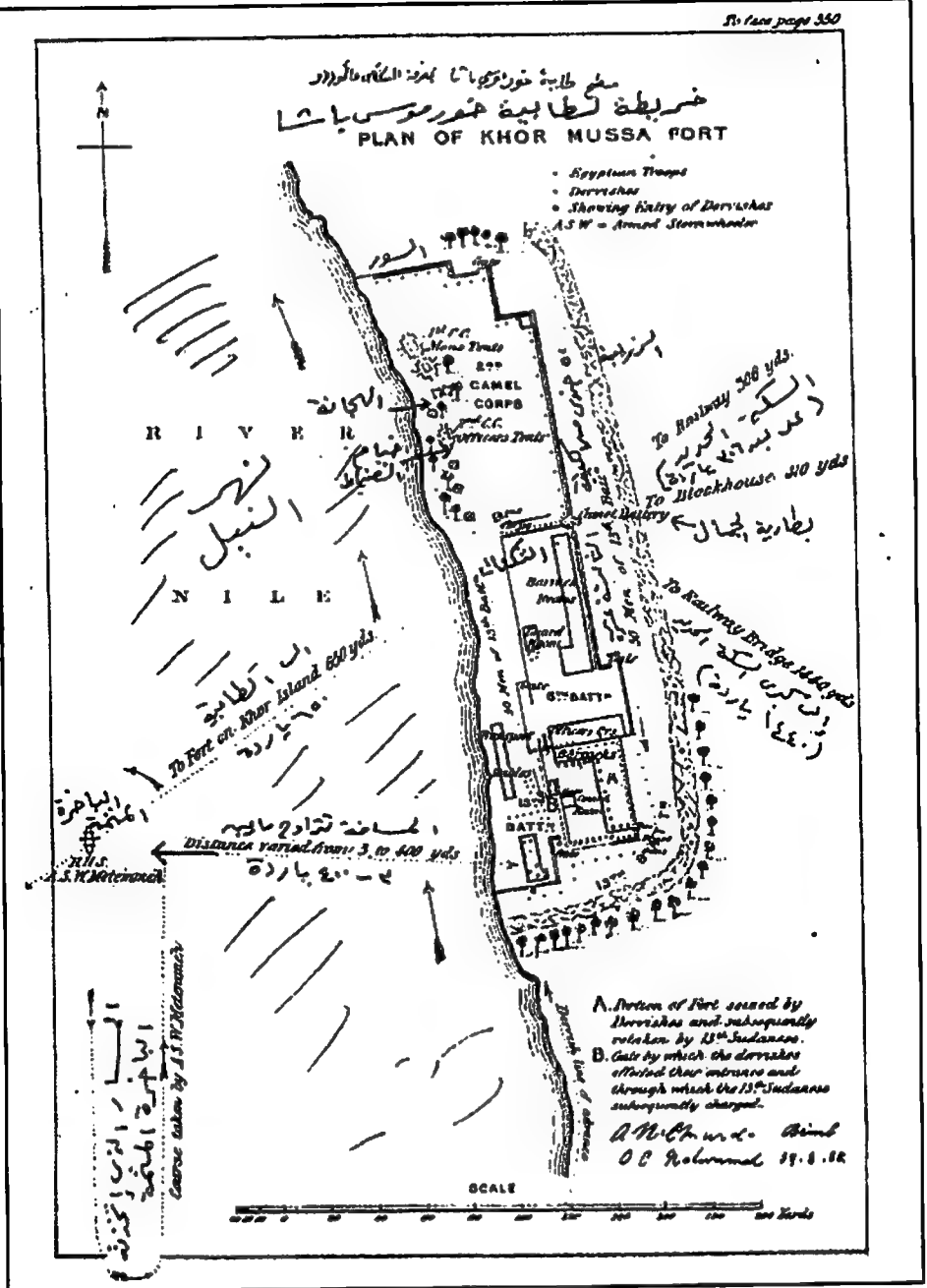
ولكي نفهم تفاصيل ذلك الحدث (الخطير) فمن المهم أن يتم تقديم وصف بسيط لتلك الطابية. فقد كانت مكونة من منزل بلدي على الشاطئ، على بعد ياردات قليلة من أعلى مستوى للمياه بالنهر، والذي تم تحويله إلى حصن، بينما كان السور الشمالي يفصله عن حظيرة مسيجة واسعة محاطة بحوائط طينية وحول الجانب الشرقي والجنوبي أقيمت زريبة من الشوك والسلك الشائك لحمايتها، وقد بنيت غرف الثكنات بطول الواجهة الشرقية للحصن ويطول الحظيرة المسيجة، وقد وضعت سلام على مسافات من بعضها البعض لتمكن الجنود من الصعود للأعلى حيث يمكنهم إطلاق نيرانهم.

وإلى الشمال توجد حظيرة مسيجة للقوات الراكبة. واجهات الطابية كانت متعامدة مع ضفة النهر ويستمر ذلك حتى حد المياه. وفي المخطط التالي نجد مواقع مختلف البوابات.

كان قد تم القبض على أربعة من راكبي الهجن بالقرب من حلفا وذلك في منتصف نهار يوم ٨/٢٩ وعند الغروب شوهد أحد فرسان العدو، بواسطة أطواف الدوريات، وهو على الجبال إلى الشرق من دبروسة. أثارت تلك الوقائع الاشتباه في قلب الكولونيل وود هاوس، قائد القوات، وأصدر تعليمات بأن على الباخرة المسلحة (المتمة) أن تظل محركاتها دائرة طوال الليل كما أمر بأن يكون القطار المدرع، وعليه فصيلة من قواته، جاهزاً للتحرك فور إبلاغه بذلك.

أثناء ذلك وصل بالقرب من الطابية مجموعة من ٥٠٠ من العرب، بقيادة الأمير عبد الحافظ، ودليلهم هو ابن أخ الشيخ كوكي* متلفحين بظلام الليل. انفصلت عنهم جماعة صغيرة وزحفت في صمت أسفل ضفة النهر بدون أن يسمعون أو يلاحظهم أحد حتى إقربوا من الأسوار. كان قد أقيم، على الركنين الجنوبيين للحصن، حارسان، واحد لكل ركن. ولما سمع حارس الركن الجنوبي الغربي أصواتاً بالقرب من مكانه نهض متحدياً لكنه صرع بالرصاص وفي نفس الوقت ألقيت عليه حربة. ولما سمع عريف الحراسة ضجة قريبة وصيحة عالية من الخارج، أسرع بفتح البوابة الغربية المطلّة على النهر لكنه صرع أيضاً بالرصاص.

* كان ذلك الرجل يعيش بالقرب من خور موسى باشا وكان يبيع اللبن للحامية. وقد فر قبل ثلاثة أسابيع (إلى العدو) بصحبة موظف السكة الحديد أبا يزيد.



تدفق العرب من خلال البوابة وقتلوا كل من كان بالحراسة". نهضت حامية الطابية الجنوبية فزعة، وابتدعت لتجد أن الجزء الجنوبي من الطابية يعج بالأعداء واضطروا لشق طريقهم بالسلاح إلى القسم الشمالي. ومن ذلك المكان، ولمدة ساعتين قاموا بمقاومة عنيدة وبطلقون النيران من كافة المناطق وقاموا بخرق سطوح الثكنات الجنوبية واتخذوا منها مواقع لإطلاق النيران، لكن نيرانهم كانت محدودة ولم تلحق خسائر تذكر بالعدو الذي كان محمياً بالجدران. وحتى تلك اللحظة كان يقوم بالدفاع، بشجاعة فائقة، الصاغ عبد الغني فؤاد والذي، وعند تلقيه لأول إنذار سارع بالاتصال بحلفاء تلفونيا. وصلت تلك الأنباء للكولونيل وود هاوس في الحادية عشرة والنصف مساءً، وبعدها مباشرة قطع السلك بينما سمع صوت إطلاق نار كثيف قادماً من ناحية خور موسي. تحرك القطار المدرع على الفور وعلى ظهره فصيل من خمسين جندياً، لكنه سار ببطء، خشية من أن يكون هناك عبث بالخطوط. وقد سار مع القطار، كحراسة له، فصيل من الخيالة. تلقت السفينة الحربية (المتممة)، بقيادة الملازم موردو الأمر بالإبحار نحو الطابية ووصلتها في الواحدة والنصف صباحاً وعندما علم قائدها بالوضع فتح النار على القسم الذي احتله العدو من الطابية. وفي الثانية وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً وصل إلى حلفاء قادماً من الطابية أربعة ساعة على متن الخيول، وعندما أطلع الكولونيل وود هاوس على التفاصيل أوفد ١٠٠ جندي، من الكتيبة السودانية الثالثة عشرة بقيادة الملازم ماشيل، بقطار ثان، ووصلوا إلى مسافة ٣٠٠ ياردة من الطابية في نفس الوقت تقريباً الذي وصل فيه القطار الأول، والذي كان قد تأخر لعطل في الخط، فتوقف وتم إصلاحه.

تقدم الملازم ماشيل بنفسه، مع ثلثة من الجنود، نحو النهاية الشمالية للطابية، بعد أن ترك قسماً من جنوده لحراسة القطار وبعد أن أرسل الخيالة باتجاه النهر. توقف على بعد خمسين ياردة من طرف الطابية الشمالي وأمر جنوده بالانبطاح أرضاً ثم تقدم بمفرده نحو الطابية ليتحرى الوضع هناك. وبعد عشرة دقائق أرسل لاستدعاء الجنود ووضع خمسين منهم بالقرب من البوابة الشرقية وخمسين آخرين بالقرب من بوابة القسم الغربي من الحظيرة، وكان قد لاحظ أنها تركت مفتوحة، وتوقع إمكانية هروب العدو من خلالها أثناء الليل، لذا قرر القيام بمفاجأته. فأرسل للسفينة الحربية لتوقف إطلاق النار وأمر رجاله الخمسين الذين بالجانب الشرقي لتنظيم أنفسهم والبقاء في صمت أسفل الجدران الجنوبية والشرقية وشدد عليهم لمنع أي رجل من العدو من الفرار. ثم قام هو، مع الخمسين جندياً الباقين، بالزحف متسللين حول السور الخارجي حتى وصلوا للبوابة. وهنا قام القسم الأمامي من الجنود، بعد أن شكل نفسه بسرعة، بإطلاق دفعة من الرصاص وسط تجمع العدو بداخل الطابية. فوجئ العرب بدورهم بالهجوم وحاولوا الفرار بتسليق الجدران ولكن واجهتهم أسنة السناكي من الجنود الآخرين، والذين كانوا في إنتظارهم أسفل الجدار الخارجي.

٢٢ ما جرى لهذا العريف التعص أمر غير قابل للتفسير. فقد استيقظ فجأة من سباته، وربما كان ذاهلاً، أو نعساً، عندما سمع الضجة. لم يكن متوقفاً لأي خطر، لذا قام بفتح البوابة ليري بنفسه سبب الضجيج. ولو كانت البوابة مغلقة فربما كان من غير الممكن للعرب الدخول بتلك السهولة.

تم إندفع الملازم ماشيل برجاله من خلال البوابة وشكلوا صفاً مرتجلاً وواجهوا العرب بثبات. كان العرب في حالة من الحيرة والإرباك أثناء محاولتهم الفرار. ولما كان إيسحابهم مستحيلاً عن طريق البوابة فقد قاتلوا بطاقات الياتسين الجبارة وكانوا يلقون بأنفسهم، حرفياً، على أسنة السناكي. ولم يمض سوى وقت قصير إلا وكان جميع الذين بداخل الحظيرة موتى أو جرحى وعادت الطابية مرة أخرى لأيدي المصريين ولكن بعد خسارتهم الجسيمة لتسعة عشرة من القتلى وأربعة وثلاثين من الجرحى، كان من بينهم ثلاثة ضباط. لكن خسائر العدو كانت بالغة حقاً. فقد تم إحصاء خمسة وثلاثين جثة للقتلى، معظمهم من الجعليين والبقارة، داخل وحول الطابية، بينما سقط كثيرون غيرهم أثناء الإسحاب. جرح أميرهم عبد الحافظ جراحاً بالغة بينما قتل نائبه حسن الطالب وتم الاستيلاء على ١٥٣ حربة و٣١ بندقية وعدد من الأسلحة الأخرى. ثبطت هذه النكسة القاسية من عزيمة العرب، بينما أعادت الثقة إلى أهالي المناطق النهرية.

لم يعد النجومي بعد من أم درمان. ويقال أنه قيل أن ينفذ مجلس الأمراء قام الخليفة بتوبيخه قائلاً: "إستطاع عثمان جاتو إحتلال شكا، وأبو قرجة يقوم بأعمال عظيمة في سواكن، وحمدان أبو عجة قد هزم الأحباش، أما أنت فلك في دنقلا سنتين لم تفعل فيهما شيئاً. قم وإستلم حلفا ولا ترجع إلينا قبل أن نقوم بذلك".

ويقال أن النجومي إحتج بقوله أن حلفا منيعة غير سهل إقتحامها. لكنه قال بأنه سيستلمها. وبعد ذلك بقتل بارح أم درمان ووصل إلى دنقلا في الخامس عشر من سبتمبر وشرع على الفور في جمع القوات والتجنيد. كان الخليفة قد وعده بمدة بإمدادات ضخمة، وكانت بالفعل في طريقها لدنقلا عندما تم إعادتها وأرسلت للقلبات لدعم الحملة ضد الأحباش. وعاد الهدوء مرة أخرى إلى الحدود وقلصت قوات سرس بسحب معظم البقارة منها وتحويلهم لمناطق القتال الأخرى بالسودان، وبدأ اللاجلون من الأقاليم الشمالية في العودة لمناطق الحدود.

سواكن والسودان الشرقي، في ١٨٨٨:

في أوائل يناير ١٨٨٨، شرع عثمان دقنة، بعد أن جمع من تشتت من قواته في هندوب، في تجهيز حملة ناية لإجبار الأمرار على الطاعة. كان أحمد محمود لا زال في ضواحي دارا بقواته. وكان كثير من أتباعه، المنتشرين بما أحرزوه مؤخراً من نصر، قد عادوا لديارهم. أما من تبقى منهم فقد بدأوا يفقدون الثقة في أنفسهم وهبطت شجاعتهم عندما دخلهم الخوف من أن عثمان يعمل على تجهيز حملة أخرى (ضدهم).

وفي الثالث عشر من يناير غادرت هندوب حملة قوية متجهة لقتال الأمرار. وبعد بضع مناوشات إلتقوا بالجيش الرئيسي للأمرار في دارا يوم ١٧ من الشهر. قام الأمرار بالمقاومة بقلوب واهية وعزيمة متضعضعة ثم إيسحبوا تاركين وراءهم سبعمائة من القتلى بمن فيهم محمد شيخ، شقيق أحمد محمود، وأحد أكثر قادتهم نشاطاً وحيوية.

وفي تلك الأثناء، وبعد أن بلغت الكولونيل كتشنر أنباء مغادرة الحملة لهندوب، إختمرت في ذهنه فكرة القيام بهجوم قوي مفاجئ على هندوب والذي، إن نجح، فربما يقوده إلى أسر عثمان دقنة وربما القضاء على المهدية في ذلك الجزء من البلاد. وبعد أن أبرق القاهرة تلغرافياً بذلك، حصل على الإذن بتنفيذ ما أراد بالاستعانة بالقبائل الصديقة وقوات الشرطة والقوات غير النظامية مع دعمهم بالقوات الراكبة، قليلة العدد، التي كانت تحت تصرفه.

غادر سواكن في الواحدة من صباح يوم ١٧ يناير بقوة من ٥٠٠ رجل ومضي على طول طريق السكة حديد القديم متجهاً لهندوب. وفي الرابعة صباحاً توقف انتظارا للفجر. ونتيجة لخطأ الأدلاء، ساء الاعتقاد بأنهم على بعد ميل واحد من معسكر المتمردين. ولكن، وبسبب من الظلام الشديد، فقد أخطأوا الحساب وبالتالي إكتشفوا بأنهم لازالوا على بعد ثلاثة أميال منه. وفي الرابعة وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً قام المشاة، المكونين من الأمرار، والباشبوزوق، والبوليس، والمولدين، وبعض القوات السودانية، بالتقدم مسرعين نحو هندوب. كان السودانيون في معظمهم من الذين هجروا العدو قريباً، وكانوا من قبل من ضمن حامية كسلا. وقد أخذوهم معهم في هذه الحملة لمعرفتهم بالمحال هنا وبمعسكر الثوار، وقد تم بالتالي الإتفاق مسبقاً بأن على هذه المجموعة أن تدفع مباشرة نحو عثمان دقنة وتحاول أسره.

أما القوات الراكبة فقد توقفت في أول نقطة انتظار، وذلك لدعم عمليات المجموعة الأمامية المتقدمة عند الضرورة.

كان معسكر الثوار يقع بين سلسلة من الجبال يساراً، وتل منزل صغير على يمين الطريق، ويشتمل على زريبة متينة البنيان تقع القرية من ورائها. وكانت أنحاء المنطقة المجاورة مغطاة بغابة من الشجيرات الكثيفة والمتفرقة.

وعند إنبلاج الفجر خرجت القوات التي يقودها محمد أحمد، قائد البوليس، من بين شجيرات الغابة وإنقضت على العرب المتجمعين للصلاة خارج الزريبة.

وقد فوجئ العرب تماماً بالهجوم وفروا تاركين أسلحتهم وذخيرتهم بينما شرعت القوات غير النظامية في مطاردتهم. أما القوات السودانية فهزعت نحو مكان بالقرية كانوا يعتقدون بوجود عثمان دقنة فيه. شوهد عثمان قبل عدة دقائق بعيداً عنهم مسرعاً نحو حصانه المقيّد، على بعد بضع ياردات منه. أخذ الحصان غنيمه لكن عثمان المراوغ كان بقدر التحدي وأسرع بامتطاء جمل كان ماراً وفر به إلى التلال، عندما أوشك أن يقع في قبضة من يريد أسره. بدأ أن النصر كان مكتملاً وقامت كل القوات، التي إعتقدت بخلو القرية من الأعداء، بالتفرق إلى جماعات صغيرة شرعت في مطاردة الفارين من العدو المتراجع. لكن كثيراً من الأكواخ كانت لازالت مشغولة بالثوار وقام من تبقى منهم، بعد ذلك التشتت، بالتجمع من جديد. وبقيادة رجالهم الراكبين إلتفوا حول التل المعزول ودخلوا معسكرهم من وراء مطاردتهم وتحصلوا على أسلحتهم وذخائرهم وتحولوا إلى مطاردة مهاجميهم. وقد فوجئ غير النظاميين بدورهم الآن، ووجدوا أنفسهم مقطوعين ومعزولين عن باقي القوات.

* صاحب الكولونيل كتشنر الملازم برنسب والكابتن هكمان، قائد الخيالة والثاني في القيادة، والملازم مودو، قائد فصيل الهجانة، والسيرجن والسيرجن ميجر جالبريث.

في تلك اللحظة، شاهدت القوات الراكبة أول وميض للنيران من هندوب، عندما كانوا يتقدمون ببطء، للدعم وقام الكولونيل كتشنر على الفور بتحريكهم مهرولين حتى وصلوا لمسافة نصف ميل من هندوب حيث قام القمندان بإبلاغه بالوضع الحرج للقوات الأمامية المتقدمة. كانت إحدى جماعاته من الخيالة قد اشتبكت بالفعل مع خيالة العدو. فقام كتشنر بالتالي بدفع من تبقي من الجنود إلى مسافة ٥٠٠ ياردة من الثوار. وبعد أن ترجلوا من خيولهم فتحوا نيراناً حامية أجبرت الثوار. على اتخاذ سائر لهم في القرية وفي ذلك الوقت قام السودانيون، بعد محاولتهم الفاشلة للقبض على عثمان، بالتجمع على هضبة صغيرة مدورة، كانت القوات غير النظامية مشتتة على الجبال من خلفها بينما كانت جماعات العرب الصديقة قد تراجعت للغابة. وعندما تبين له الوضع، أمر الكولونيل كتشنر نافع البوق لينادي (بالتجمع) فقد كان غرضه تجديد الهجوم على الموقع والذي أعاد العدو احتلاله الآن بقوة كبيرة. وأطاع الجنود السودانيون النداء في الحال وانضموا إليه ثم تقدمت كل القوات لمسافة ١٥٠ ياردة من الموقع ودار بين الطرفين تراشق عنيف بالنيران. لوحظ أن الجناح الأيمن لقوة الهجوم مهدد من العدو الكامن بالغابة وتم إرسال أكبر عدد من الرجال يميناً لمنع أي حركة إنتفاقية. ولكن سرعان ما لوحظ بأن مابدا لهم بأنه قوة كبيرة من العدو لم يكن في حقيقة الأمر سوى عدد من المساجين الذين هربوا، ومعهم بعض الفارين، والذين كانوا يحاولون شق طريقهم باتجاه سواكن. وبذل الكولونيل كتشنر كل ما أمكن من جهد لتغطية انسحاب الأخيرين وبقيامه بصب نيران حامية على العدو تمكن من تسهيل انسحاب ١٥٠ رجلاً منهم وإسراعهم بالفرار. وفي تلك اللحظة أصيب الكولونيل كتشنر برصاصة سببت له جرحاً بالغاً في وجهه تسبب في إعاقته (عن أداء عمله). وكان قد أيقن بأن ما قام به غير النظاميين والقبائل الصديقة في مبدأ القتال هو الذي أضاع عليهم أي فرصة لاحتلال المعسكر. ولما تأكد من فرار السجناء ونجاتهم اعتبر أن أي هجوم آخر سيكون عديم الفائدة. ومن ثم صدرت الأوامر بالانسحاب، والذي نفذه بجدارة الكابتن هكمان، والذي تولى الآن قيادة القوات. ولتغطية انسحاب الجرحى والسجناء لم يشرع في تنفيذ الانسحاب العام إلا بعد أن أبعدوا لأكثر من ثلاثة أميال باتجاه سواكن وبعد ذلك شرع في الانسحاب المنظم البطيء للقوات والتي كانت تتبادل أدوارها في الانسحاب ثم التغطية قسماً قسماً. أثناء ذلك كان العدو يتابعهم عن قرب بأعداد كبيرة. جرح أيضاً الملازم ميردو في ركبته، لكنه واصل الانسحاب برجاله حتى وصل آخر فوج للمؤخرة إلى سواكن في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر.

كانت خسائر العمليات عشرة من القتلى و ٢٢ جريحاً بينهم ثلاثة ضباط مع فقد ستة رجال (لم يعرف مصيرهم). وقدرت خسائر العدو، من إفادات المساجين وغيرهم، بأنهم فقدوا ما لا يقل عن ٣٠٠ رجل.

وبعد يومين غادر الكولونيل كتشنر إلى القاهرة وكان لازال معاقاً. أما الحملة التي أرسلها عثمان دفقة للشمال فقد عادت بعد بضعة أيام لهندوب، وبعدها أرسل عثمان حملة أخرى إلى الغرب ضد قبائل الهندوة. لكنها عادت في فبراير بدون أن تواجه أي أحد.

WILLIS SOUTH SIDE
MANDUVA VALLEY

SKETCH OF ACTION AGAINST HANDS

level

===== Osman Dignity Force

===== Osman Dignity Force

→ Broad grass Road from Sundara

.....

CAMEL CORP
PICQUET
- 12/1/50 -

Quaker, 17th Jan '88.

تشجع العرب من جراء نجاحهم الأخير وبدأوا في إظهار المزيد من نشاطاتهم وتحركاتهم حول سواكن. وفي ليلة الثالث من مارس تمكنوا من ترسيخ وجودهم في موقع طابية هـسون القديم، الذي يبعد ١٩٠٠ ياردة من أبواب سواكن. ومن هنا حافظوا على إطلاق نيران متصلة، خلال الليل، على المواقع المتقدمة لخندق طابية (هـ)، والتي تبعد بألف وثلاثمائة ياردة، وعلى المدينة. تم قصف مواقعهم بالمدافع من طوابى شطة و (هـ)، ولكن نظراً لطبيعة وأسلوب إنشاء خنادقهم لم يكن القصف فعالاً. وفي صباح اليوم التالي قام الميجر شكسبير، الذي تولى مسئولية القيادة بعد مغادرة الكولونيل كتشنر لسواكن، بمحاولة لطرد العدو. وقام بتشكيل حملة من فصيل من المتبيرة المصرية الثانية، وفصيل من الكتيبة الثالثة، والقوات الراكبة، وبلغ مجموعهم ٤٥٠ رجلاً. اشتبكوا مع فريق من خيالة العدو ومشاته وأفلحوا في تثبيتهم في مكاتهم أثناء تطور هجوم المشاة. وعند إقترابهم من الثوار بمسافة ١٥٠ ياردة قام المشاة بفتح نيران ثقيلة على الموقع والذي رد عليهم بالمثل أيضاً. كان الضرب المتبادل عنيفاً وفشلت محاولة لاقحام الموقع. وبعد ساعتين من ذلك تم استدعاء الاحتياطي المكون من فصيل صغير من الكتيبة السودانية العاشرة وبعض عرب الأمرار المواليين. قام الأمرار بالزحف نحو الجانب الأيمن بينما قامت الفصيلة السودانية باحتلال الهضبة المقابلة تماماً لموقع العدو وفتحو عليه نيراناً ثقيلة. ثم شوهد الآن فريق قوي من رجال العدو متقدماً ومقرباً من الجناح الأيمن، من اتجاه هندوب، لدعم زملائهم المتحصنين. وفي تلك اللحظة حدث حادث مؤسف. فقد جاءت قذيفة، من إحدى السفن الحربية بالميناء، موجهة نحو إمدادات العدو المقترية، وسقطت وسط الأمرار المواليين والذين أصابهم الهلع وتراجعوا مندفعين نحو القوات بذعر شديد.

وكان الكابتن تاب، قائد الجناح الأيمن، قد دفع بجماعة من الجنود لمواجهة الحركة القادمة من هندوب. لكن القوات، والتي تضععت معنوياتها عند قرار الأمرار المواليين، اعتبرت أن التحركات على الجناح كانت إشارة بأن أمراً بالانسحاب قد صدر، وبالتالي تراجع كل الخط للوراء حيث قام العدو، بدون إضاعة الوقت، بمطاردته وحاول الهجوم عليهم لكنه صد من نيران الطابية (هـ). وعندما شاهد فرسان العدو تراجع القوات هجموا عليهم وأفلحوا في الوصول إلى الكابتن تاب (قائد الكتيبة المصرية الثالثة)، والذي كان آخر من انسحب، وسقط من طعنة حربة قذفه بها أحد فرسان العدو، وبعد أن تمكن (الكابتن تاب) بدور من إفراغ مسدسه في صورة وسقطا سوياً. توجهت كل القوات بعد ذلك للمعتقل (هـ) بعد أن خسرت مرة أخرى سبعة قتلى وسبعة عشر جريحاً. أما الثوار فقد حافظوا على موقعهم بقوة ذلك اليوم، تحت تبادل عنيف للنيران المتقاطعة. وعند حلول الظلام انسحبوا منه ولم يحاولوا الاحتفاظ به مرة أخرى.

وبعد تلك الأحداث لم يعد العدو يشاهد على مقربة من سواكن طيلة ما تبقى من الشهر. وعندما سمع الكولونيل كتشنر، الذي لازال يعاني من جرحه، بما حدث في الرابع من مارس كر عائداً إلى سواكن على الفور.

حاول عثمان دقنة، بدون طائل، الحصول على تعاون القبائل الآن، وذلك على الرغم من هزيمته، القريبة العهد، للأمرار. ووجه اهتمامه الآن لمصالحة البقارة والجعليين والذين اشتكوا بأنهم أحضروا لهذه المنطقة العقيمة لغير هدف واضح، بينما كانوا قد أقنعوا من قبل أن الأهالي سيستقبلونهم بأنزع مفتوحة. كان أهالي طوكر أيضاً غير راضين عن عثمان، إذ أن طلباته من إمدادات الذرة لإطعام قواته الكبيرة قد استنزفت مواردهم، وكان من المتوقع أن تنفذ كلها قبل أن ينتهي فصل الصيف.

ولجا عثمان الآن للإقناع بدلاً عن القوة، وقام بإرسال الهندوى المعروف شيخ ود الهذاب في مأمورية للشيوخ المحليين. ولكن الأخيرين لم يستمعوا إليه، بل بالعكس، عملوا على إغراء شيخ الهذاب بعدم الرجوع لهندوب. وبالرغم من ولائهم غلا أن عاملاً جديداً دخل في الحساب: إذ أنهم حتى الآن لم يشعروا بدرجة ملموسة بلسعة المجاعة. لكنها كانت، بسبب اتصال العمليات الحربية، ظاهرة للعيان بدرجة أم بأخرى، وفي كل أنحاء البلاد.

ورغم أنهم كانوا لازالوا علي ولائهم المعلن، إلا أنهم قاموا في مارس بإخطار الحاكم العام بأن عثمان هو السيد الحقيقي لبلادهم، وبالتالي المسيطر على إمكانياتها وطعامها، وأن الحاجة الشديدة قد تدفعهم للاستسلام له أخيراً، ورجوه أن يعرف بأنهم موالون له من قلوبهم رغم أنهم قد يجبرون، في أي لحظة، على تقديم الدعم للثوار.

وفي نهاية مارس وصلت لهندوب، من كسلا، إمدادات بسيطة حضر بها مصطفى هدل، ثم أعقبه في أبريل أبو قرجة، والذي حضر بقوة كبيرة معه. أصبح العرب الآن أكثر عدداً وأقوي مركزاً في ضواحي سواكن عن أي وقت مضى.

بدأت إقامة التحصينات الجديدة بواسطة الكولونيل كتنشر عند قدومه لأول مرة وإكتمل إنشاؤها في شهر مايو ويبدو أن العدو قد تفهم بأن هجوماً مفاجئاً على المدينة ستكون له عواقب خطيرة عليه، واكتفوا بالدوريات المتواصلة حول أطراف سواكن. حتى وصول أبو قرجة أصبح مثاراً للشقاق والخلاف. فقد كان أبو قرجة من أبنكار المهديّة ومن أوائل الذين دعموا محمد أحمد وكان يحظى دائماً بمكانة عظيمة. لذلك رفض الاعتراف بعثمان دقنة كرئيس له بينما، على الجانب الآخر، أصر عثمان على أنه صاحب السلطة العليا في شرق السودان وأنه الممثل لسلطة الخليفة فيه.

كان من رأي أبي قرجة ومن معه من البقارة والجعليين أنه من الخطأ افتتاح سواكن بالقوة. أما حزب عثمان الميال للحرب والقتال فيري عكس ذلك. ترتب على ذلك الخلاف في الرأي سلسلة من الصراعات كادت أن تتحول في حالات كثيرة إلى قتال فعلي. ودارت في ذلك الوقت مراسلات تصالحية بين أبي قرجة والحاكم العام.

لم يمنع وصول قوات ضخمة غير عادية من الثوار في أراضيهم، العرب الموالين للحكومة من مواصلة عدائهم لهم. وفي أواخر مايو بدأ الأمرار في قطع الإتصال ما بين طوكر وهندوب وفي نفس الوقت أرسل الجميلاّب والحمداب رسائل للحكومة تؤكد ولائهم لها. وعند ما سمع عثمان بذلك أنشأ محطة في سراراب لمنع أي تعدي محتمل من تلك القبائل.

تلك كانت الأحوال عندما بارح الكولونيل كتشنر المنطقة مرة أخرى معافاً، إلى إنجلترا هذه المرة بينما تم إرسال الميجر رندل إلى سواكن ليقوم بمقام الحاكم العام أثناء غيابه. وفي هذه الأثناء بلغت مسامع الخليفة الشكاوى من عدم شعبية عثمان وسط القبائل. وقرر الخليفة بذل كل جهد لمصالحتهم. كان من الضروري أيضاً إمداد المخازن بالذرة، والتي قاربت النفاذ، بسبب الإضطرابات المتواصلة بالمنطقة. وكان معلوماً أن عدم الأمان في الطرق هو الذي تسبب وحده في دخول إمدادات ضخمة من الطعام عن طريق موانئ البحر الأحمر. بالتالي، وحوالي أواخر يونيه، جاءت تعليمات أم درمان لعثمان دقّة ليقوم بتعليق كل المناشط الحربية ولمدة شهرين.

لم يطرأ شيء يذكر في بقية أنحاء القطر، فقد كان الإهتمام كله منصب على سواكن. وقد هجر كثير من الجعليين صفوفهم وعادوا لمناطقهم بالنيل. وفي السابع من يوليه عاد أبو قرجة لأم درمان ولحقه بعد بضعة أيام الشيخ محمد ود موسى بك، ومرة أخرى وجد عثمان نفسه سيداً غير منازع في هندوب.

ظلت الأحوال هادئة حتى انتهاء مهلة الشهرين من وقف العدائيات. وبحلول سبتمبر كانت مخازن عثمان قد امتلأت ووصله المزيد من الإمدادات من أم درمان بقيادة الأمير عثمان نايب*. وقد أيقن الخليفة، منذ وقت طويل، بأن عملياته ضد مصر لن تتطور للمدى الأقصى الذي يريده طالما ظل جناحه بالشرق مهدداً من سواكن.

وكان قد عقد العزم من قبل على أن الهجوم على مصر سيبدأ بهجوم على جناح مصر الأيمن، عبر مناطق البشاريين، إلى القصير ومنها إلى قنا. ولكنه عرف أن القيام بذلك المخطط يجب أن يسبقه الاستيلاء على سواكن أولاً.

وفي الخامس عشر من الشهر عقد مجلس للتشاور في هندوب، تقرر فيه حصار سواكن. وفي ليلة السابع عشر من الشهر، وبدون أي إعلان بالعودة إلى حالة العدائيات، قامت قوة من ٥٠٠ من الجعليين والبقارة، بقيادة عثمان نايب، ومعهم جماعة صغيرة من الخيالة، بالتخندق على بعد ٩٠٠ ياردة من حصون المياه بغرض قطع إمدادات المياه من الآبار. وبعد تلك التعزيزات وصلت قوة عثمان دقّة الآن لما يقدر بأربعة إلى خمسة ألف مقاتل موزعين ما بين هندوب وهشين والخنادق الجديدة. وإستمر إطلاق النار بعد ذلك على الطوابي والمدينة ليل نهار وتكررت حالات الإصابة والخسائر البشرية والمادية. وصبيحة يوم ٢١ من الشهر قامت فصيلة من المشاة الراكبة باستكشاف لمواقع العدو ونجحت في إخراجه من مكانه. وعندما خرجوا تعرضوا لنيران شديدة من السفن والطوابي، ولكن، ولوجود أعداد كبيرة من الحراية والخيالة بالغابة، وظهورهم أمام القوات (المصرية)، أجبر المشاة الراكبون على التراجع بعد أن جرح منهم ثلاثة أفراد.

* أسر هذا العربي أثناء حملة النيل لعامي ١٨٨٤ / ٨٥، ولكن أطلق سراحه بعد ذلك.

وفى ليلة الثاني والعشرين وضع العرب مدفعاً صغيراً على التلال القائمة بين حصون المياه وأطلقوا بضع قذائف على المدينة. لكن نيران المدافع على خطوط سواكن أجبرتهم على الانسحاب.

وصار الآن واضحاً أن هجوماً عارماً قد تتم محاولته في أي وقت على سواكن. وأسرع الكولونيل هولند سمث بالإبراق تلغرافياً طالباً تعزيزه. وفي نفس الوقت قام صاحب السمو الملكي دوق أدنبرة، وهو قائد سرايا البحر الأبيض المتوسط، وبعد إدراكه لضرورة تعزيز القوة البحرية لأسطول البحر الأحمر، قام بإرسال السفينة الحربية (ريسر) بقيادة الكوماندنر ماي إلى سواكن لمساعدة السفينة الحربية (جانيت) بقيادة الكوماندنر برادفورد.

أثناء ذلك إزداد العدو جرأة. وفي ليلة الخامس والعشرين من الشهر تسلل قسم منهم وأحرق الزريبة المحيطة بطابية شطة، وبعد ليلتين من ذلك دفعوا خنادقهم للأمام لمسافة ٥٠٠ ياردة من الطابية وقذفوها بنيران كثيفة هي ومدخلها.

ثم بدأت عملية تقوية حامية سواكن وأرسلت القاهرة الكتيبة المصرية الرابعة. وقدم الجنرال قرنفل في تقريره عن الأوضاع أنه، وإلى أن يتوقف صعود المهدي الحالي، فإن من الضروري العمل على تجهيز قوات أكبر بسواكن. ولكي يتم تجهيزها، ولتتمكن (القوات المصرية) من تحمل مسئولياتها في حماية الحدود وحماية سواكن، فقد شدد في الضغط على ضرورة إضافة ثلاثة كتائب أخرى من المشاة وقوات من الفرسان والمشاة الراكبة. ونظراً لأهمية الإسراع في ذلك تم على الفور التصديق على زيادة كل كتيبة بخمسين رجل آخر، وفي نفس الوقت بدأ النظر في الزيادات الأخرى التي أقرتها الجنرال.

وإستمر العرب في نشاطهم من الاستحكامات، معتقدين بأنهم إذا ما سيطروا على طوابي المياه فأنهم سيكونون في وضع أفضل يمكنهم من قصف المدينة. وقد أفادت التقارير بأن تعزيزات كبيرة لهم قد وصلت لاستحكاماتهم. وقرر الكولونيل هولندسميث أن يعرف عددها وتكوينها وقام باستطلاع لمواقع العدو قامت به القوات التي تحت قيادة الكابتن لويس والمكونة من جماعات من الكتيبة الثالثة، والحادية عشرة السودانية، والمشاة الراكبة، ونجحوا في الوصول إلى مسافة ٦٠٠ ياردة من خنادق طابية جيمزة. وبعد أن تأكدوا من أن قوات العدو لم يطرأ عليها تغييراً يذكر تم الأمر بالانسحاب ولم يفقد المصريون سوى قتيلين وستة وعشرين من الجرحى. وكان العدو، فور مشاهدته للقوات، قد تجمع في الخنادق التي على اليمين، متوقعاً لهجوم عليه، فحين قامت مدفعية المدينة والأسطول بقصفهم قصفاً عنيفاً عاتوا منه بشدة. وفي ليلة الثالث عشر من الشهر حاولوا الانتقام وأفلحوا في دفن أحد الآبار القريبة من الطابية، لكنهم تراجعوا بعد إطلاق النار عليهم.

وإستمرت هذه الحالة بدون توقف لبعض الوقت. وفي السادس عشر من أكتوبر سحبت السفينة الحربية جانيت وحلت محلها السفينة الحربية ستارلنج (الكماندر باجيت).

وصارت نيرانهم التي تطلق من الخنادق أكثر دقة في تصويبها. ومن بين تسعة من قذائف أرمسترونج التي أطلقت على طابية شطة ليلة السادس والعشرين، أصابت وانفجرت منها

سنة قذائف وجرح الملازم غردون جرحاً طفيفاً. ولو كانت قذائفهم تلك قد ملئت بباروز جيد لكانت النتائج أكثر خطورة وأذى. ولكن بارودهم كان يكفي بالكاد لتفجير القذائف.

وفي الثاني من نوفمبر غادر الجنرال قرنفل القاهرة متوجهاً لسواكن، ومعه إمدادات مكونة من قسمين من مدفعية الخيول وستة مدافع مورتر، والتي كان من المعتقد أن استخدامها سيعمل على تعذر الدفاع عن خنادق العدو. وعندما وصل لسواكن أجرى استعراضاً عاماً للموقف، وقام في الثامن من الشهر بدورية استطلاعية لخنادق العدو مصطحباً معه مدفعية الخيول والمشاة المحمولة. فتحت مدفعية الخيول النار من مسافة ١٦٠٠ ياردة على الجناح الأيمن للعدو. وعندما تقدم الفرسان مسرعين للأمام تراجعوا بعد أن فقدوا أربعة قتلى من صفوفهم. وفي الليلة التالية قام فريق من ٢٠٠ رجل من الكتيبة السودانية الحادية عشرة بمحاولة تعطيل أو أسر مدافع العدو. لكن اليقظة غير العادية للعرب أحبطت تلك المحاولة، بل هاجموا الكتيبة السودانية والتي انسحبت بعد صدام عنيف وبعد أن فقدت خمسة قتلى من رجالها وأربعة جرحى. أما خسائر العدو فكانت كبيرة. عاد الجنرال قرنفل إلى القاهرة في الخامس عشر من الشهر وكتب تقريراً اعتبر فيه أن طرد العرب من خنادقهم أمر ضروري للغاية، ولهذا الغرض فإنه يحتاج لتعزيز الحامية بكتيبتين سودانيتين هما الكتيبة التاسعة والكتيبة العاشرة.

ونقرر الاستجابة لتوصيته ولكن بشرط ألا يتم القيام بأي هجوم آخر غير الذي تقرر، وأنه، وفي فترة غياب الكتيبتين السودانية من الحدود يجب إرسال نصف الفوج الأيرلندي لأسوان. وتحركت الكتيبتين السودانية إلى سواكن عن طريق قنا والقصير ووصلتا في أوائل ديسمبر.

وخلال تلك الفترة ساد التوجس في إنجلترا حول القوة التي خصصت لمهاجمة خنادق العدو، وأنها غير كافية، ومن ثم أمرت الكتيبة الثانية (لحرس حدود الملك الاسكتلندية الخاصة)، بقيادة الكولونيل تالبوت كوك، مع ١٠٠ رجل من المشاة المحمولة، بالتوجه إلى سواكن. وعند وصولها أصبح عدد القوات هناك، في أوائل ديسمبر، ٧٥٠ جندياً بريطانياً، و ٢٠٠٠ جندي سوداني، و ٢٠٠٠ جندي مصري. وبهذه القوات كتب الجنرال قرنفل في تقريره بأنه واثق من النصر.

كانت التعليمات التي تلقاها من الحكومة، عند مغادرته للقاهرة، هي ضرورة الاستيلاء على استحكامات العدو، وأن يتم طرده من مواقعه حول سواكن. ولكن كان ذلك يعني أن هذه العمليات ستكون غاية ما تهدف إليه القوات، وعند إنجازها فإن على القوات الإنجليزية المصرية أن تبقى في سواكن وألا تقوم تحت أي ظرف من الظروف بالتقدم نحو عثمان دقنة في هندوب.

وفي الثاني من ديسمبر غادر الجنرال مع أركان حربه القاهرة ليصل سواكن في السابع من الشهر. وفي التاسع من ديسمبر قامت أطواف الخيالة المصرية، بقيادة الكولونيل كتشنر، باستكشاف للمنطقة حيث واجهتهم قوة ضخمة من فرسان العدو أجبرتهم على التراجع من أمامهم. وقد أثبتت هذه الحادثة ضرورة زيادة عدد الخيالة وبالتالي تم إرسال سرية من الهوسار العشرين، بقيادة الميجر اروين، من القاهرة. وحتى تتم تهدئة القلق الذي ساد إنجلترا مرة أخرى فيما يخص بمدى قوة قوات الجنرال قرنفل، فقد صحبتهم نصف كتيبة ويلز الأولى بقيادة اللغتنانت كولونيل سميث. وبحلول الثامن عشر من ديسمبر كانت تلك القوات قد وصلت واكتملت الاستعدادات الخاصة بتأكيد نجاح الهجوم المرتقب، بعد أن تم الإسراع في ذلك.

وأثناء تلك الفترة زاد العدو من نشاطه بدرجة ملحوظة. ففي الثاني والعشرين من نوفمبر كان قد قدم أحد مدافعه للأمام حتى ٥٠٠ ياردة من طابية مميزة وفتح النيران على المدينة، والتي سقط معظمها داخل أسوارها، ولم يترتب عليها خسائر تذكر. أيضاً واصل العدو إطلاق رصاص البنادق من داخل استحكاماته، وقتل المستر ويك، وهو رسام شاب واعد، يمثل مجلة الجرافيك، بالقرب من بوابات سواكن.

وإستمرت هذه التكتيكات أثناء الليل خاصة. ولم يتم التأكد من عدد أفراد العدو بداخل الإستحكامات أبداً، فقد كان العدد يختلف من يوم ليوم. ففي بعض الأوقات كان يهبط لأقل من ٥٠٠ وفي اليوم التالي قد يزيد على ٢٠٠٠ رجل. وكان العدو يحتفظ بفرسانه علي بعد ١٠٠٠ ياردة إلى الخلف منه، باتجاه هندوب ويحتفظ باحتياطي قواته على بعد ميل من ذلك المكان. أما القوات الرئيسية فبقيت دائماً في هندوب. ومن هنا يمكن فهم سبب اختلاف أعداد العدو في الاستحكامات. كان من الصعب على الأمراء الحفاظ على سيطرتهم علي رجالهم ولم يتمكنوا من إبقائهم دائماً بداخل الخنادق حيث يتعرضون للنيران المتواصلة المنصبة عليهم من الطوابي، ولندرة الطعام والماء بها. وعندما يكتشف قادتهم بأن أعدادهم قلت بصورة غير عادية فأنهم يبلغون الأمر لعثمان دقة والذي يشرع في إرسال التعزيزات لهم. تكررت هذه الصورة كثيراً، وهي التي أدت بدون شك إلى التضارب والمفارقات الجسيمة في إفادات الأسرى وغيرهم.

...

وتحتاج توجهات القبائل المجاورة لسواكن لبعض الإيضاح. فعند بداية الحصار قام عثمان بتوجيه اهتمامه نحو الشمال. وفي اليوم التالي خرج أحمد محمود، الابن الثاني لمحمود بك علي، من سواكن ومعه أخيه الطاهر إلى هندوب. وبنهاية الشهر أرسله عثمان دقة لحصار مأمورية الروية. ثبت نفسه في آبار بيبلا، التي اعتاد الأهالي أخذ المياه منها، وقطع عنها الإمدادات ومنع القبائل المجاورة من أي اتصال بالمأمورية. لكنه بخلاف ذلك لم يقم بأي تحركات عدائية. وفي أوائل نوفمبر تم إرسال الملازم برنسيب (ضابط الاستخبارات بسواكن) بصحبة محمود بك علي لتقرير حالة الوضع هناك. وبعد تردد منه، وافق أحمد أخيراً على عقد إجتماع معهم في الصحراء، وافق فيه علي السماح بالإتصال بالمأمورية وألزم نفسه بالوعد بعدم التحرش بالقبائل. لكنه في نفس الوقت أفادهم بأنه لابد له من إظهار العداء لهم حتي يمنع عثمان من إرسال أمير في مكانه. وبعد قليل من ذلك عاد إلى هندوب، في الظاهر ليطلب مدافعاً من عثمان، لكن عثمان شك في نواياه وأرسله إلى أم درمان.

وخلال حصار سواكن كان معظم شيوخ الهندوة يقفون بمعزل من هندوب. ورغم أن بعضهم أضر للتوجه إليها طالباً للطعام، إلا أن هؤلاء كانوا قد أخطروا سواكن مسبقاً بالا حيلة لهم في ذلك. كانوا مضطرين للذهاب (لهندوب) وللتظاهر علناً بالعداء للحكومة. لكنهم أعلنوا كلهم بأنه ما أن تتقدم الحكومة نحو هندوب إلا سينضمون لها لآخر رجل.

بعض الشيوخ إستمروا في تسبیب المضایقات لعثمان دقةً وذلك باعتراض قوافله أو بالغارة على المواشي. لكن مثل تلك الأحداث كانت تتم عموماً في مناطق نائية بعيدة عنه. كانت أكثر القبائل عداء للعرب هم الجمیلاب. وقبل بضعة أيام من معركة الجميزة كان عثمان قد أفتع زعيم شیوخهم، علي عمر، بالقدوم إليه لبحث القضايا المتعلقة بينهما. وعند وصوله لهندوب قام بإرساله على الفور لأم درمان.

وفي ذلك الوقت كان الشيخ عيسى بریر قد عاد من أم درمان وهدد بحصار وتدمير مأمورية حلايب. لكنه فشل في إثارة أي حماس لمشروعه بین قبائل الجوار. مما سبق يمكن القول بأن توجهات تلك القبائل يمكن أن يعبر عنها بتعبير (الانتظار والترقب بقلق). فبينما يتجنبون ولا يحبون عثمان دقةً إلا أن الظروف أجبرتهم على الخوف منه بصفته ممثل القوة العظمى الوحيدة في السودان، ونعني بها الخليفة. فإذا ما إنكسرت قوة عثمان، فأنهم قد نذروا أنفسهم للعمل على استئصاله مع أتباعه من المنطقة. ولكن يجب الإستيلاء على هندوب، وربما طوكر، قبل الدخول في مثل ذلك النذر. لذلك تفتت الرغبة من جانب القبائل لحث الحكومة على المزيد من التقدم نحوه. أما الحكومة، من جانبها، فقد كانت لها حسابات أخرى تجعلها تتمسك بسياستها الدفاعية المقررة وذلك رغم ضرورة تحرير سواكن من ذلك الحصار الطويل المنهك، الأمر الذي تعلمه الحكومة تماماً.

أما الآن فقد اكتملت الاستعدادات للهجوم الذي طال انتظاره. وفي مساء التاسع عشر من ديسمبر أوضح الجنرال قرنفل لقادته الضباط خطة الهجوم والذي تقرر أن يبدأ صباح الغد الباكر. بنظرة إلى الخريطة ستضح بها مواقع خنادق العدو والتي كانت مقامة على بعد يتراوح ما بين ٨٠٠ - ١٠٠٠ ياردة جنوب غرب طوابي مياه جميزة وشطة. وكانت خنادقهم تشق خورين، فالجناح الشمالي يقع على بعد خمسين ياردة من وراء قمة أنف الجبل، والجناح الجنوبي يقع في هضبة صغيرة مستديرة جنوب غرب طابية جميزة. وكانت هناك ثلاثة معازل للمدافع، واحد في شمال الخور والأخريان في الجناح الجنوبي. كانت الأرض التي على الغرب من الإستحكامات سلسلة من البروزات التي تمتد من الشرق للغرب، ويفصل بينها خور غزير الأشجار أما من الجانب الجنوبي الغربي فأن الأشجار الغزيرة تمتد حتى تصل إلى الجناح الجنوبي.

أما الأرض إلى الغرب من الجناح الشمالي للعدو فكانت نظيفة ومناسبة للخيلة، أما إلى الشمال من جناحهم الشمالي فكان هناك منخفض من الأرض من السهل على القوات أن تشكل نفسها للهجوم قبل أن تلحقها النيران.

لذلك الاعتبارات قرر الجنرال قرنفل مهاجمة العدو من الجناح الشمالي، مع القيام بهجوم مخادع في نفس الوقت على جناحهم الجنوبي.

كان لهذه الخطة ميزة وهي أنها لن تستدعي إجراء أي تغيير للمظهر المعتاد للقوات، أثناء مناورتها، عندما يشاهدها العدو من خنادقه. وقبل بضعة أيام من الهجوم تم تدريب القوات عليه في نفس الاتجاه الذي تقرر التقدم منه.

اتخذت كافة الإحتياطات لجعل الهجوم عملاً مفاجئاً تماماً. وللمزيد من التمويه فقد جري عرض بحري في مرسى كواي، علي بعد ستة أميال شمالي سواكن، ويمكن العدو أن يشاهده بوضوح من معسكره بهندوب. وتقرر قبل بدء الهجوم أن يتم قصف الإستحكامات بشدة من كافة المدفعية المتاحة. ولهذا الغرض تم توزيع المدفعية التي على شمال وجنوب طوابي المياه إلى دفاعات على اليمين وعلى اليسار أما الأسطول فكان عليه القصف ببطاريات النورد نقلت من ستة مدافع، ومدفع سابع (٦٤ رطل) كان في موقع على السد الذي يربط بين طوابي المياه. وأقيمت دفاعات ثالثة من المدفعية بداخل السور ومدفعية طوابي هندوب وفولة وكواري، كما رست السفينة الحربية (ريسر) في موقع لها بين سواكن وجزيرة الكرنفينة، لتقوم بصب نيرانها على خنادق العدو وإستحكاماته.

وطبقاً للخطة الموضوعه، فقد صبت المدفعية بأنواعها نيراناً عنيفة، بطول خطوط العدو، في السادسة صباحاً، يوم عشرين ديسمبر، بينما خرجت القوات واتخذت مواقعها بين المدينة وخندق (هـ) في السادسة والنصف صباحاً.

جاءت القوات المحمولة، بقيادة الكولونيل بارو من الجانب الأيمن. وكان الفوج الأول، بقيادة الكولونيل كنتنر، مكوناً من الكتائب السودانية التاسعة والعاشره والثانية عشرة. والفوج الثاني، بقيادة الكولونيل هو لدسمث، مكوناً من الكتيبتين الرابعة المصرية والحادية عشرة السودانية. أما الكتيبة الثانية لحراس الحدود الاسكتلندية الملكية الخاصة والكتيبة المصرية الثالثة، واللذان تقدمتا كل علي حدة،

فقد وقفتا خلف طوابي المياه حيث وصلتا لمواقعهما في السادسة والنصف صباحاً. وقد وضع قناصون من أفواج من حراس الحدود وويلز بطوابي المياه واتخذ الجنرال قرنفل موقعه في طابية جميزة في السابعة والنصف صباحاً ليدبر العمليات.

أقامت المصلحة الطبية مناطق للجمع بطوابي المياه، بينما تم تجهيز السفينة الحربية (شبين) كمستشفى عسكري. أما طوابير النقل، وإمدادات المياه، والاحتياطي العام، المزود بكل ما يلزم من مواد لإنشاء الخنادق المؤقتة، فقد أقيمت جاهزة وعلى استعداد.

ثم أيضاً إقامة نظام كامل للإشارة بين القيادة والقوات والطوابي والسفن الحربية. تقدمت القوات الآن عبر الخور، وعلى رأسها القوات المحمولة، وعندما وصلوا لمكان موازي للجناح الأقصى الشمالي لإستحكامات العدو، واجهوه وتقدموا نحوه بثبات على النحو التالي:

* الخط الأول - السودانية الحادية عشر إلى اليمين مكونه ثلاثة أضلاع للمربع مع فصيل واحد احتياطي داخل المربع وفصيل واحد من الكتيبة السودانية التاسعة وفصيلين من السودانية لعاشره.

* الخط الثاني - فصيل واحد من السودانية التاسعة وفصيلين من السودانية العاشره يسندهما وفصيلين في طاوور من الكتيبة السودانية التاسعة وفصيلين في طاوور من السودانية الثانية عشرة.

* ووضع الاحتياطي في طابورين متوازيين على الجناح الخارجي ووراء الكتيبة المصرية الرابعة في هيئة مربع.

وعندما وصلوا لمسافة ٦٠٠ ياردة من الاستحكامات، فتح العدو عليها النار بعد أن تجمع باتجاه الجناح الشمالي. لكن تقدم القوات استمر بثبات، بدون إطلاقهم للنار، حتى وصلوا لمسافة ٢٠٠ ياردة وبعدها اندفعت الأفواج في قفزات سريعة متتالية وفتحت نارا عنيفة على العدو، والذي ظهر وكأنه علي وشك الهجوم، وسرعان ما وصلوا للاستحكامات وتم الإستيلاء عليها بأسنة السناكي وبطريقة بالغة الشجاعة والإقدام. وقتل هنا عدد من رجال العدو، أما الباقون الذين حاولوا التجمع على الجناح الأيمن فقد شتتهم الكتيبة السودانية الحادية عشرة والذين قاموا، في فورة حماسهم للقتال، بهجر مربعهم وانتشروا مندفعين.

وأثناء الهجوم كانت القوات المحمولة تحرس الجناح في أقصى اليمين. وقامت بطارية مدفعية الخيول في هذا الوقت بالركض وأخذت تقصف خنادق العدو بالجناح الجنوبي والذي كان يتعرض لنيران عنيفة من فصيلين من كتيبة ويلز وفصيلين من الكتيبة المصرية الثالثة والتي تقدمت الآن خارجة من موقعها المحصن. أخذت الأفواج في التدفق من الشمال مطهرة كل خطوط الاستحكامات وملحقة خسائر كبيرة بالعدو والذي أخذ الآن في التراجع العام باتجاه هندوب، في الوقت الذي كانت المشاة المحمولة، من الجناح الشمالي، تطلق عليهم رشقات متصلة من الرصاص، أضافت المزيد إلى خسائرهم.

وحاول فرسان العدو أن يلتفوا حول الجناح الأيمن. لكن رجال الهوسار العشرين صدوهم وقاموا بهجوم مضاد عليهم شتت شملهم ودفعهم نحو هشين باضطراب شديد. تم الإستيلاء الآن على مواقع العدو واستحكاماته ونفخ البوق إعلاناً بإيقاف إطلاق النار في الثامنة صباحاً. لكن الخيالة والمشاة المحمولة لم تتوقف عن مطاردة العدو المتراجع لمسافات بعيدة.

وتحصنت القوات الآن في مواقع العدو وأقامت حولها أربعة زرائب هي:

* نمرة (١): حراس الحدود وفوج ويلز

* نمرة (٢): الكتيبة السودانية الحادية عشرة.

* نمرة (٣): الكتيبتين السودانيتين التاسعة والثاني عشرة.

* (٤): الكتيبة السودانية العاشرة.

وأقيمت مساكن من البلوكات في الزربيتين (١) و (٢) وبعد وقت قصير كانت كل القوات تتمتع بغطاء وحماية تامة.

عند حصر قتلي العدو، وجدت ٥٠٠ جثة داخل وحول التحصينات وفي الطريق الذي طوردوا فيه. وقدرت قوات العدو قبل بدء الهجوم بحوالي ١١٠٠ رجل داخل الإستحكامات و ٥٠٠ من الحراية بالغابة والشجيرات الكثيفة إضافة إلى عدد من الفرسان. هذا وقد ساعدت كثافة الأشجار على تمكين عدد كبير من رجال العدو من الفرار.

كان للإستعراض البحري للأسطول في مرسى كواي دور حاسم في منع إمدادات العدو من الوصول للإستحكامات. هذا وكانت خسائر القوات المصرية والبريطانية خفيفة عموماً: ستة قتلى وضابطين وأربعة وأربعين جندياً جرحى.

كانت خنادق العدو وإستحكاماته مثيرة للإهتمام حقاً. فالخرائط توضح كيف أنهم استغلوا التضاريس على الأرض، وكيف أن إنشاءاتهم الغربية تلك قد حمتهم من نيران المدفعية والرصاص والتي كانت، مهما بلغت دقة تصويبها، تلحق بهم أقل الخسائر. لقد حفروا التربة المكونة من الحصى الصلب وأقاموا خنادقهم أسفل المتاريس بدون انحدار من الداخل مما عمل على الحماية التامة لمن فيه. أما الحفرة العميقة ذات المدخل الضيق خلف خطوط الإستحكامات، على أقصى اليسار، فواضح أنها مجهزة للمعيشة. وقد وجد بداخل وحول الخنادق عدداً كبيراً من البنادق والذخيرة وتم الإستيلاء عليها. قُتل أربعة من الأمراء البارزين بينما تم أسر ضرار موسى بدقة، ابن عم عثمان دقنة، بعد أن أصيب بجراح بالغة.

هزم العدو هزيمة تامة. وبقيت القوات مصكرة في العراء ليلة العشرين من ديسمبر وتم تقوية الخنادق والتحصينات، واختيار مواقع جديدة لإقامة طوابي عليها وبصورة تمنع العدو من أن يتمكن مرة أخرى من التخندق والتحصن على مشارف المدينة.

وتم بناء طابية باسم طابية هشين بالقرب من موقع طابية هدسون، وطابية منصور في مكان موقع العدو المواجه لطوابي المياه. أما طابية طماي فتقرر بناؤها في مكان طابية جريفز على يسار طوابي المياه. تم سحب القوات البريطانية من سواكن بأسرع وقت ممكن. وقبل مغادرتهم أقام الجنرال قرنفل أستعراضاً في الثامن والعشرين من الشهر باتجاه هندوب. وفي اليوم التالي قام بمسح الشاطئ بعدة أميال إلى الشمال من سواكن كان تأثير ذلك النصر على القبائل المحلية بالغاً. وتوقعوا أن تقوم قوات الحكومة بمواصلة تقدمها حالاً. وصدرت منشورات تحثهم على انتهاز الفرصة وطرد العرب تماماً من ديارهم.

ولكن جاءت إجاباتهم بتأكيد ولائهم للحكومة وسرورهم بهزيمة عثمان دقنة. لكنهم تعللوا بأنه لا قدرة لهم للقيام بأي عمل ضده.

أما في هندوب فقد ساد التوقع بهجوم قائم وحث كثير من الأمراء (عثمان) على التراجع نحو طوكمر. لكن عثمان، فيما يبدو، كان واثقاً بأن تقدماً نحوه لن يحدث. وعندما بلغتهم أنباء مغادرة القوات البريطانية لهندوب عادت الثقة إليهم ثانية.

وفي الرابع من يناير ١٨٨٩، غادر الجنرال السير قرنفل سواكن إلى القاهرة، تاركاً الكولونيل كتشنر قائداً للقوات. أما الكولونيل هولد سمث فقد عاود ممارسة عمله كحاكم عام، مع تعليمات ببذل كل ما في طاقته من وسع لعزل القبائل المحلية عن عثمان دقنة وإبعادها عنه.

* هذا الأمير، وبعد أن أخذ للعلاج بمستشفى سواكن وبقي فيه لمدة شهر حتى عوفي، تم إطلاق سراحه بعد ذلك، وسمح له بالعودة لقبيلته.

الحدود الحبشية (١٨٨٨):

سنناول الأحداث على الحدود الحبشية (السودانية) خلال عام ١٨٨٨، الآن. فعند نهاية عام ١٨٨٧ تركنا الملك يوحنا وهو يتميز من الغيظ من جراء حملة أبو عنجة الناجحة على غوندار. وفي باكورة العام الجديد، ووسط دهشة العرب، وصل وقد أرسله الرأس عدل إلى القلابات، أبدي فيه خضوعه وموافقه على دفع جزية صغيرة. ترأس الوفد أحد أعيان الحبش وفي الحال أرسل إلى أبي عنجة بأم درمان. وعند وصوله لها أظهر كل ما يدل على أنه على دين المهدي. عومل رئيس الوفد، ومن معه، معاملة حسنة وتلقى كل اعتبار وتقدير. وبناء على اقتراحه كتب الخليفة الرد التالي للملك يوحنا:

بسم الله الرحمن الرحيمالخ.

من الخليفة عبد الله إلى يوحنا التبعي، عظيم الحبش. عليك أن تعلم بأن الله هو القادر، وأنه قد أعد نارا ليخلد فيها أولئك الذين لا يؤمنون بدين الإسلام. أما أنت فعبد بانس ضعيف. إنك لا تستطيع أن تقوم بأي عمل صالح أو شرير مهما كان بسيطاً. إنك قد عشت في الزمن الذي ظهر فيه المهدي المنتظر، خليفة رسولنا محمد، ليعظ الناس ويوصلهم الله، والذي كانت كلماته كالنار الموقدة. ولقد كتب المهدي إليك وعمل على أن يغريك بالدخول في الإسلام، لكنك رفضت. وقد كتبت لك بنفس حول نفسي الموضوع وحذرتك من المستقبل (الذي سيواجهك) إن لم تستمع لكلماتي. وقد أخبرتك بأن جيش المؤمنين سيحتل بلادك إذا ترددت في إطاعة أمرنا. ورغم كل هذا فأنت لم تتب ولذلك غزت جيوشنا بلادكم وقتلت رجالكم ودمرت كنائسكم وأحرقت مدنكم وأسرت نساءكم ويتمت أطفالكم، وعادت لنا منتصرة. لذا عليك أن تعرف أن دم البائسين من رعاياك هو في عنقك لأنك أنت راعيهم.

والآن فما فات مات ولا زالت لك محبة عندي. تحول إلى الدين الحق وأتبع تعاليم المهدي. لقد كتبت لك مرة أخرى قبل أن أعاد الهجوم عليكم حتى تأخذك الشفقة على نفسك. عليك بتصديق ما جاء بديننا وأتبع نهجنا في الإعتراف بالآله إلا الله وأن محمداً رسول الله. كتبت لك لتقوم بأداء فرائض الدين من صلاة وصيام وكل ما يخص الدين. فكن الآن واحداً منا ولنترك الحرب ونوقفها لنكون أصدقاء بدلاً عن ذلك.

ثم سيعفو عنك الله ويغفر خطاياك التي ارتكبتها عندما كنت كافراً. وسينعم عليك بالسعادة يوم القيامة. أما إذا رفضت الانصياع لندائي فأنتي أقول لك الآن، للمرة الأخيرة، بأنني بعون الله سأهزمك وبأن جيوشي ستغزو بلادك وتدمرها تدميراً. وحتى ذلك الوقت فلتعلم بأن المهدي من دين الله وأنت لن تستطيع الوقوف أمام إرادة الله.

لا يملأك الغرور بنفسك ولا تطمئن لكثرة جنودك. وأقول لك بأنهم بأذن الله سيدمرون. وما كتبت لك كل هذا إلا من باب الشفقة عليك حتى لا تقدر على أن تقول شيئاً لله عندما تقف أمامه يوم القيامة. فإذا آمنت وأطعت فأنتك من المنقذين. أما إذا أبيت فأنتك ومن معك من المدمرين

مؤرخ جمادى الآخرة ١٣٠٠

(مارس ١٨٨٨)

وعند تلقيه لهذا الخطاب، أجاب الملك يوحنا بأنه سيحضر للقلابات بجيوشه خلال بضعة أشهر، وعندما ينخفض منسوب النهر فإنه سيفزّوهم ويدمرهم ويعدها يتوجه (بجيوشه) نحو الخرطوم. وأرسل مع خطابه هذا أربعة غرارات من الجلد مليئة بالرمل ومبلغاً الخليفة بأن جيوشه أكثر عدداً من حبات الرمل التي بداخلها.

تظاهر الوفد الحبشي بالدهشة لهذا التغيير في الجبهات. لكن الخليفة كان أعمى عن الحقيقة وهي أن رجال الوفد ما هم إلا جواسيس أرسلوا للتعرف على الوضع في البلاد. لم يبد على الخليفة أي إنزعاج من تهديدات الملك يوحنا وفكر في أن من حسن السياسة أن يتبأ سلفاً بنتائج الصدام المرتقب. وفي أبريل أعلن الرؤيا التالية، والتي ما هي إلا واحدة من الأساليب الغريبة التي يلعب بها بعواطف ومصادقية أتباعه فيه:

”بسم الله الرحمن الرحيم.... الخ.“

من عبد الله خليفة المهدي إلى كافة الأخوان

جاعتني رؤيا شأهت فيها سيد الخلق أجمعين، والمهدي، وكان الخضر حاضراً، وجلس النبي على يميني وابتسم في وجهي ابتسامة عذبة. وجلس المهدي على يساري ولكن كان عليه وقار عظيم، لأنه كان في حضرة رسول الله، وجلس الخضر من ورائي. ثم ألفت النبي إلى وقال: إذا جاء الحبش لمهاجمتك فإن أيديهم ستكون مغلولة على أعناقهم وستنصر عليهم. وعندما تحدث عن الترك قال لي: إنهم في رعب وخوف من المهدي. ثم صرح لي بإرسال الجيوش إلى الريف (مصر) ثم تحدث ثانية عن الحبش وقال: الله أكبر. فكررنا التكبير من ورائه. ثم كرر هذا عندما تحدث عن الترك وتوفيق والإنجليز، وكررنا كلنا من بعده الله أكبر ثلاثة مرات.

ثم بعد ذلك أبدي ارتياحه لكل خطواتنا وخاصة موت صالح الكباشي وود أبروف وعن أحداث دارفور. كما ذكر أنه مسرور لما قمت به تجاه الشكرية وعرب البطاحين وأيضاً عن أعمالي في البقعة (أم درمان) وغيرها من الأماكن.

ثم قال لي بعد ذلك: لقد وضعت كل العالم بين يديك، فقل لي ما تريد أن تفعله بكل السكان“. فأجبتني أريد منهم جميعاً أن يكونوا مؤمنين مثلي. فشكرني وتمني لي الخير كله وأخبرني بأنه عندما تنتهي أيامي في هذه الدنيا فسينزل النبي عيسى إلا الأرض. ثم أخبرني عن المدة التي سيمكثها وماذا سيحدث بعد رحيله، كما أخبرني بطول عمر الإسلام وإنه في النهاية لن يبقى على وجه الأرض مسلم. ثم أمرني بتوصيل تمنياته الطيبة لبعض من الإخوان الذين ذكرهم بالإسم.

وفي رؤيا أخرى أخبرني بأنني ضمن الذين ذكرتهم الآية القرآنية ”الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، والله عاقبة الأمور“.

ثم قال لي ”إنك أفضل من علي وجه الأرض من البشر، وإن أي كائن في الأرض سيكون سعيداً إذا ما رضيت عنه، وسيكون شقياً إذا لم ترض عنه.“

كما بشرني بأشياء أخرى طيبة لكن الأمر سيطول إن ذكرتها كلها لكم“.

مؤرخ شعبان ١٣٠٥

(أبريل ١٨٨٨)

أرسلت الآن إمدادات ضخمة للقلابات. وتوجه أبو عنجة للميدان مصطحباً معه زعيم الوفد الحبشي المرتد عن دينه. وعن هذه الحملة الثانية على الحبشة لا توجد معلومات معتمد عليها كثيراً، ولكن يبدو أن كل جانب أحرز نصراً ما. كان أبو عنجة منتصراً في المبدأ. لكنه في يولييه أو أغسطس هزم هزيمة تامة من الحبش والذين أسروا عدداً كبيراً من أتباعه. ولا يبدو أن الملك قد أشترك بنفسه في القتال لأنه كتب في سبتمبر خطاباً للخليفة أخبر فيه بأنه في غوندار وأنه سيكمل انتصاره باحتلال القلابات. أما أبو عنجة، والذي عاد إلى أم درمان الآن ومنها أرسل لإخماد تمرد في مناطق بارا، فقد أرسل مرة أخرى للحدود الحبشية وأفلح مرة أخرى في الوصول لغندار، بدون قتال هذه المرة، لأن الملك يوحنا كان قد سحب معظم جيوشه لإخماد اضطراب في مكان ما.

وفي نوفمبر، وبعد وقت قصير من رجوعه للقلابات، أصيب أبو عنجة بالمرض والذي حاول علاجه بشرية أعدها له بعض حجاج التكرور والتي أدت إلى موته في أوائل يناير ودار الآن بعض النقاش حول من خلف أبي عنجة في القيادة. لكنه كان قبل وفاته قد عين الأمير الزاكي طمل. وعندما أحيل الأمر للخليفة وافق علي تعيينه.

وهكذا كانت حالة الحدود مع الحبشة حتى أوائل ١٨٨٩

دارفور في عام ١٨٨٨:

تركنا السلطان يوسف في أواخر ١٨٨٧، يحشد الجيوش لمواجهة عثمان آدم المنتصر. وقام الآن بإرسال السلطان زايد مرة أخرى علي دارا مع قوات كبيرة. لكنه أثناء الطريق إليها في ١٦ ديسمبر ١٨٨٧، التقى في وادي المسرية، الذي يبعد باثني عشر ميلاً من المدينة، بقوات عثمان آدم التي كانت تتفوق عليه بمعدل ثلاثة إلى واحد وهزمت هزيمة قاسية. وفر زايد بمن تبقى من قواته إلى الفاشر، حيث أدرك السلطان يوسف، الذي لم يبق معه سوى عدد قليل من أتباعه، بأن قضيته أصبحت خاسرة. لكنه صمم علي محاولة أخيرة. وبعد أن جمع حوالي ١٠٠٠ من العرب تحضن في ود بيرة، علي بعد بضعة أميال جنوبي الفاشر وانتظر قدوم عثمان آدم نحوه. وصل الأخير في الثامن من يناير وتمكن بدون مجهود يذكر من تشتيت قوات زايد والذين هربوا إلى جبل مرة. تقدم عثمان المنتصر نحو الفاشر ودخلها بدون مقاومة وتم أسر العديد من الأفراد وغنم كمية من الموجودات بها.

كان من المعتقد أن السلطان يوسف وزايد قد قُتلا في ود بيرة، لكن اتضح أنهما فُرا ولجنا إلى ود جبر الله في جبل مرة.

وعندما علم عثمان آدم بأن السلطانيين لا زالوا أحياء طليقين قام بإرسال قوة، برئاسة عمه أحمد الخنيم، بتعليمات مؤداها ألا يعود إلا بعد أن يقتلها أو يأسرها.

* ساد الاعتقاد حتى وقت قريب بأن أبو عنجة مات مسموماً. لكن الذين قدموا مؤخراً (للغاية) من تلك المناطق أكدوا بأن سبب وفاته هو ما جاء أعلاه.

وأثناء ذلك إفتقر زاید عن یوسف. وبقي زاید مع جبراً الله، الذي خان ثقته فيه. ففسي مجلس للشراب قام يذبح زاید وأرسل رأسه للفائسر. أما يوسف فقد توغل في فراره إلى عمق الجبال لكن ود الختيم طارده ونجح في قتله هو ومن بقي معه من أتباعه المخلصين. وعاد الختيم إلى الفائسر في الرابع عشر من فبراير حاملاً رأس السلطان يوسف. وتم إرسال الراسين، زاید ويوسف، لأم درمان.

أما جبر الله، والذي ظن أنه بسلوكه الشائن وخيائنه قد دخل في حظوة عثمان آدم، فقد تجرأ على دخول الفائسر. لكن عثمان تشكك في سلوكه المستقبلي وقام بإرساله لأم درمان مع أبنائه الخمسة، والذين ما أن وصلوها حتى ألقي بهم في السجن حيث ماتوا فيما بعد. وأصبح عثمان آدم بعد الآن سيداً للموقف وبدأ عهد قصير من الهدوء بعد ذلك. لكنه كان كالهدوء، الذي يسبق العاصفة التي ستغرق مرة أخرى سهول دارفور بالدماء، وتدخل الرعب في الخليفة عبد الله حتى يخشى على حياته وعلى أقاليمه التي حاز عليها.

نشبت الثورة الثابتة، التي سنتناولها بعد قليل، آخذة طابعاً لحركة دينية، وهذا هو فيما يبدو سبب إنزعاج الخليفة البالغ منها. فقد بدأ الخليفة في إدراك أنه بالرغم من كل النجاحات التي تحققت، إلا أن هناك ميولاً متصاعدة من جانب أتباعه، باتخاذ المهدي وسيلة للنهب وللغنائم التي تتبع حروبها أكثر من اتخاذهم لها بسبب غريزتها الدينية التي قاتل من أجلها الراحل محمد أحمد. فعندما تراخت قبضته الدينية فلابد أنه أدرك أن بداية النهاية للمهدية قد أزلت. ومن هنا كان قلقه وإنزعاجه عندما بلغته أنباء انفجار الثورة المضادة للمهدية والتي يقودها زعيم كان شعاره "إسقاط مدعي المهدي وإقامة دين الإسلام الحق من جديد". لهذا فسنتابع هذه الحركة منذ بدايتها. فبعد مقتل السلطان يوسف، قام إخوته أبو الخيرات وعباس، ومعهما من تبقى من زعماء دارفور، مع قلة عددهم، أمثال المقاديم أبو دمبو، وحامد - من دار الريح - وسعيد بازوس وأبو بكر نجا - من البيقو - قاموا بالتجمع في دار تاما وعقدوا مجلساً قلقاً حول أفضل الطرق للاحتكام لقادتهم القتلى. وفي هذا المجلس قرروا التماس الدعم من سلطان برقو وحذروه في نفس الوقت بأنه ما لم تتخذ بعض الخطوات على الفور ضد عثمان آدم فلاشك في أن الأخير سيقوم بغزو دار برقو. وهنا ظهرت الصلة الغريبة مع السنوسي المهدي، الذي أشرنا إليه في الصفحات الأولى لهذا الكتاب.

ففي برقو، مثلها مثل وداي، دخلت تعاليم السنوسية في قلوب الأهالي وترسخت بقوة، وانتشر توقير وتعظيم سنوسي جغوب المهدي بينهم، وكان سلطان تلك المملكة الصغيرة يستشيرهم في كل شئونه ويعتقد بأنه معصوم من الخطأ في تصرفاته وأحكامه.

وعندما تسلم سلطان برقو خطاب الزعماء من دار تاما، أحال الأمر فوراً للسنوسي. وجاء رد الأخير بأن "يتعدوا من الشأن السوداني، ولا يقاتلوا المهديّة إلا إذا غزت مملكتهم" نموذجاً لرغبته في التمسك بقراره الأصلي بعدم التعامل مطلقاً مع هرطقة محمد أحمد، وأن يحتفظ بحريته في الحركة التامة، حتى يجيء الوقت لإعلان وصول المهديّة إليه وتوليها علناً.

* يقال أن جبر الله لازل في أم درمان لكنه يعاني من الفقر المدقع.

لهذا رد عليهم سلطان برقو بأنه لا يستطيع الانضمام لحركتهم لكنه جاهز لمساعدة جيرانه في تحالفهم ضد عدو مشترك.

ورغم إصابة الزعماء بدار تاما بخيبة الأمل لفشل أول إلتماس للدعم لهم، إلا أنهم توجهوا لقبائل التاما والمساليت ووجدوا في زعيم المساليت، الشيخ أحمد - الملقب بأبي جميزة، نصيراً مستعداً متعطشاً للانتقام، لأن عثمان آدم كان عند وصوله لأول مرة للفاشر قد أستدعي زعماء كل القبائل لمبايعته وتقديم الولاء له، وكان والد أبي جميزة، زعيم المساليت وقتها، قد قدم نفسه بالفاشر ولكنه أشتبته فيه، كرجل أخطر من أن يترك حراً طليقاً، وأرسل بالتالي لام درمان حيث سجن هناك.

أما ابنه، الذي صار شيخاً للقبيلة الآن، فقد تبني قضية أبيه ووجد من يستمع لحجته وسط القبيلة، وقاموا جميعاً بالتعهد تعهداً جازماً باستئصال المهديين الغزاة أو أن يموتوا في سبيل ذلك. لذلك أنضموا لقوات أبي الخيرات زرافاتا ووجداتا. وطبقاً لاتفاق تام بينهم قرروا أن يكون أبو جميزة القائد العام لأنه شيخ أكبر القبائل عدداً من التي انضمت للحركة.

ويعود إلى الطبيعة المتدنية للفكي أبو جميزة نجد أنه كان رجلاً ذا نفوذ كبير، له قدرة على اجتذاب العرب الذين تملؤهم الخرافات في غرب دارفور. وكان يعزي إليه القدرة على تسخير الجن والثقلين (العفاريت). لم يكن عضواً في الطريقة السنوسية لكنه كان على معرفة، لما سمعه، بما يختص بهذه الطريقة الدينية المشهورة وزعيمها المصلح، من (الأهالي) بالبلاد المجاورة كالبرنو والبرقو والوداي والتي كانت السنوسية قد ترسخت طويلاً فيها.

إضافة لذلك كان حوالي خمسة وعشرين تاجراً من تجار طرابلس، الذين حضروا لدارفور عند دخول عثمان آدم لها، والذين عاثوا مثل باقي سكان المدينة الآمرين علي يديه وفقدوا كل أملاكهم وبضائعهم، قد هربوا إلى أبي جميزة والذي قدم له فوراً الحماية التي كانوا ينشدونها. ومن هؤلاء التجار عرف محاولات المهدي لكسب سيدهم وشيخهم ود السنوسي إلى جاتيه، وكيف أنه قدم له كرسي الخليفة عثمان، والذي رفض نوليه بغضب وسخط. والآن خطرت فكرة باهرة لأبي جميزة، فسيعلن نفسه خليفة عثمان، وبالتالي يؤمن لنفسه رعية وأتباعاً بين معتقي السنوسية مما سيضيف الكثير إلى قوته ونفوذه.

لم يقصد أن يكون خليفة عثمان كنا أراد المهدي ذلك للسنوسي، ولكن ليكون خليفة مستقلاً مما سيضعه علي قدم المساواة مع الخليفة عبد الله ألتعايشي، خليفة المهدي. لكننا للأسف لا نعلم الكثير عن الحجج التي استخدمها لإعلان نفسه باللقب الجديد. لكن رد عبد الله ألتعايشي علي تلك الحجج تظهر درجة العداء التي نظر بها لهذا المدعي الجديد، والذي يحاول الآن تقويض السلطة التي ما نالها إلا بتضحيات جسيمة وإراقة للدماء. وقد جاء خطابه إلى أبي جميزة على النحو التالي:

* كان الشيخ فكياً مشهوراً وقد اعتاد علي أن يحط أتباعه تحت شجرة جميز ضخمة. ومن هنا جاء لقبه الذي اشتهر به وسط أتباعه.

بسم الله الرحمن الرحيم.....الخ.

نفيدكم بأننا تسلمنا وفهمنا ما جاء بخطابكم المؤرخ ١٣ ربيع الأول ١٣٠٦ والذي أوضحتم فيه أنكم تتبعون ما جاء بالقرآن والسنة وتتبعون طريق المهدي، وأنت خليفة عثمان، وأنت تعترف بي خليفة بدون أن تشاهدني، وأنت مطيع للتعاليم.

لذلك أخبركم، بأن ما كتبتم هو خاطئ تماماً ولا قيمة له، لأنك قمت بما يعارض ما ذكرته، بمحاربة المدافعين عن دين الإسلام، ورجال المهدي، وقد علمنا بأنكم تقومون بأشياء مضللة وأنكم تسعون لبث الشقاق بيننا وبهذا تعملون علي إطفاء نور سيد الوجود.

وفيما يختص بادعائكم الاعتراف بي خليفة: فإن كان هذا صحيحاً فيجب أن تكونوا تحت إمرتي وأن تنصرفوا طبقاً لأوامري. لذلك فأنني أرمم بأن تتبدوا أفكاركم تلك بطريقة لا رجعة فيها وأن تعودوا إلى الله وألا تقاتلوا أحداً وخاصة رجال المهدي الذين وكلنا إليهم التأليف بين الناس لإيقاف الفتنة ولدعوة العالم للإحناء للمهدي وتنفيذ أوامر عاملنا عثمان آدم في بلاد الغرب. فإذا ما أطعتم أمري فسيتم العفو عنكم.

وأخيراً فأنني أطلب منكم حل جيوشكم والحضور بمفردكم لنا لتقديم ولاءك لنا حتى نهديكم إلى طريق الحق وإلا، وبإذن الله، فسيتم القبض عليكم أينما نجدكم*.

وأخذت شهرة أبي جيمزة في الانتشار لأقصى مدى وأخذت الجموع تنضم لرايته. وتمكن من القيام بنظام مدّش لإطعام جيوشه المتضخمة مما أطلق الخرافة التي شاعت بأن له خيمة سحرية تصحبه في حله وترحاله، وما عليه إلا أن يأمر بالطعام حتى تقوم الجن والعفاريت بإحضاره بكميات مهولة له*.

وبالنسبة لمختلف مديريات السودان، التي أنهكتها تلك الحروب المتصلة وسفك الدماء، كانت الأنبياء الخاصة بظهور حركة معادية للمهدية في أقصى الغرب، بمثابة صوت البوق الذي يعلن بأن خلاصهم قد صار قريباً ليُحرر الناس من تلك العبودية الفظيعة وطفغان المهديّة وتسلطها عليهم. وقد عمت الفرحة أصقاع البلاد، شرقاً حتى سواكن وجنوباً حتى بحر الغزال وشمالاً حتى دنقلا، بالأنبياء التي راجت بأن السنوسي الكبير قد أنفذ سلطته أخيراً وأنه قد أنتوي إزالة المهدي المدعي من علي وجه الأرض.

وكانت تلك الأخبار كلما تنتشر لمسافات أبعد كلما تضخمت في حجمها. فالنجاحات الأخيرة ضخمت لتكون إنتصارات باهرة تصوروا فيها أولاً أن الفاشر قد سقطت، ثم فترة من الصمت، ثم سقوط الأبيض، ثم التقدم نحو النيل واكتساح ما في طريقهم ثم الاقتراب من الخرطوم. وقيل مرة أن الرعب والقنوط الذي أصاب الخليفة في وقت من الأوقات دفعه لتحسين نفسه في الخرطوم، وقيل في أخرى أنه فر إلى بربر، وفي ثالثة أنه هرب للجبال الجنوبية. ضج كل السودان بتلك الأنبياء المثيرة، وحتى في القاهرة ساد الاعتقاد بأن نهاية المهديّة قد أوشكت وأن حاكماً جديداً قد برز ليعمل أخيراً علي فتح الطريق لمكة وبأنه سيوقف شن الحروب على كل

* قدم شاهد عيان صورة للقوي السحرية، التي تمنع بها أبو جيمزة، بكل إخلاص. ولم يتردد، وهو يحكي قصته، بأنه لا يشك إطلاقاً في مواهبه الخارقة للطبيعة.

العالم. ظنوا أن الانقراض قد أوشك، وكان كل قادم من السودان يبلغ عن النجاحات المتصاعدة للثورة المضادة للمهدية.

وتولدت عن تلك الأمانى والرغبات أفكار وتصورات لما سيكون عليه الحال بعد زوال النظام وإمتلاك الأسواق بالإشاعات حول نوع العلاقة التي ستتم بين الحكومة والنظام الجديد. ووسط كل تلك الإشاعات الغريبة جاءت الأنباء من جغوب بأن شيخ السنوسية الأكبر قد أنكر أي علم له بالحركة التي عملت تحت أسمه، بل أنها حتى لم تحصل علي تصديق أو تفويض منه. وفي الحقيقة فإن سلطان البرقو كان قد سأله النصح، لكنه أوصي بعدم التدخل، "فقد كان قائداً مسالماً لحركة للتجديد الديني ترفض سفك الدماء والسلب والنهب الذي يقوم به مهدي السودان المدعى. ولم يكن لديه أية نية أو رغبة في التدخل، وأن على محمد أحمد وخليفته العمل من أجل خلاصهما أو دمارهما، فهو ليس مسئولاً عنهما".

تلك كانت فحوى سياسة الشيخ الكبير. فهو بالقطع كان سيسر عند رؤية طريق الحج وقد فتح ثانية من الممالك الغربية إلى البحر الأحمر، حتى يقوم الأتباع المخلصون بأداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة، بدون خوف من أي إزعاج أو تحرش، وربما كان قد وافق على ما أذاعه أبو حمزة بأنه ما أنكر سلطة المهدي وخليفته إلا لمنعهم من فريضة الحج التي أمر بها القرآن، كما أنه يرفض السماح له بتحويل الحاج لزيارة ضريح المهدي بأم درمان بدلاً عن زيارة قبر الرسول العظيم. إذن فمن وجهة النظر الدينية فإن السنوسي يعتبر من المناصرين المخلصين للحركة وبالتالي أمداهما بالدعم المعنوي والأخلاقي. أما أكثر من ذلك فإنه لم يفعل لها شيئاً، بل لم تكن لديه حتى أدنى رغبة بأن تتسبب الحركة لأسمه.

أصبحت هذه الحقائق معروفة، وعلم الجميع للمرة الأولى بأن كل تلك التقارير الممغنعة في تطرفها، والخاصة باقتراب سقوط دولة المهدي، يجب أن تعدل. ويخطئ متهلولة، أخذ ذلك الغليان الذي صحبته تلك التوقعات القلقة يبرد شيئاً فشيئاً. وسرعان ما تم اعتبار تلك الحركة ووصفها بأنها مجرد ثورة محلية أصابت النجاح. فربما تضيق دارفور من الخليفة، وربما تهدد الأبييض، لكن الأنباء التي تسربت تدريجياً بين القبائل المجاورة للحدود (المصرية) وسواكن، والذين كانوا يتمنون من صميم أفئدتهم كل النجاح لأبي حمزة، أظهرت أنه حتى دارفور لم تسقط وأن عثمان آدم القوي لا زال يحكم من الفاشر.

وإذا ما رجعنا للعمليات التي سببت تلك الفورة من الترقب القلق، والتي عندما ننظر إليها نظرة تاريخية مجردة، فإن المرء تصيبه العيرة بسبب الكيفية التي وصلت فيها أخبار تلك العمليات وضخمت، وكأنها حقائق، لدرجة لا تصدق، مما يدعو لملاحظة صحة المثل القائل بالأكرامة لنبي في قومه. فالسودان الذي أنهكته الحروب المتواصلة والتي غمرت أرجاءه بالدم، فإن مجيء نبي يعمل على تحرير الأهالي التصماء من حالهم البائس، ويدمر البقارة البالقي القوة، لهو أمر يحظى بالترحيب والقبول وكأنه مركب النجاة في سفينة غارقة. وما كان تلوين نجاحات أبي حمزة وإعطائها شياً من الحقيقة، والتي إنتهت بخيبة أمل مريرة، إلا بسبب الحنين والتوق للخلاص من جانب التصماء الذين عاتوا من حكم المهدي، والبعيد عن كل البعد عن مسارح العمليات.

إنضم أبو جميزة في أوائل أكتوبر إلى أبي الخيرات في دار تاما. وأصبحت قواتهم المشتركة تضم الآن عدة آلاف من الرجال وشرعوا في الزحف نحو الفاشر. أرسل عثمان آدم ربع قواته إلى كيكابية، التي تبعد ثلاثين ميلاً من الفاشر، بقيادة الأمير عبد القادر دليل. وهنا، وفي السادس عشر من أكتوبر قام أبو جميزة بهجوم بالغ الشراسة عليه وكاد أن يدمره تماماً. وبعد أسبوع من ذلك أرسل عثمان آدم قوة أخرى بقيادة الختيم إلى كيكابية. لكنها لاقت نفس مصير القوة الأولى، وأصبح الوضع الآن مزعجاً لحد ما. أستعد عثمان لمواجهة الحصار وجمع كل من استطاع أن يضع يده عليه من العرب وصمم على الوقوف بصلابة في الفاشر على الأقل، ضد هذه الثورة الدينية التي اتسع نطاقها.

أما أبو جميزة، فبدلاً من مواصلة انتصاراته، فقد عاد مرة أخرى إلى دار تاما حيث إنضم عدد كبير لاتباعه متأثرين بانتصاراته الأخيرة ولللهيبة التي يحظى بها. وأرسل له سلطان برنو مزيداً من الدعم، كما أضاف سلطان برقو دعماً له أيضاً على الرغم من نصيحة السنوسي له بالابتعاد عن التدخل. انضمت له أيضاً قبائل البني هلبة إضافة للفور والبديات والزغاوة وكثير غيرهم مما أدى في أواخر عام ١٨٨٨، إلى تضخم (جيوشه) لدرجة مرعبة. لكن العمليات العسكرية التي جرت بعد ذلك في أوائل العام التالي ستكون موضوعاً لبعض أحداث العام ١٨٨٩، التي سترد في حينه.

...

الإستوائية، في عام ١٨٨٨:

بينما كان ستانلي للمرة الثانية يكابد، على ظهر مركبه (أدفانس)، كي يصل للبحيرة، غير كباريقا، الصديق، سلوكه (تجاهه) فجأة. وكما جاء من قبل، فإن حملة الإنقاذ عندما قدمت لأول مرة للبحيرة في ديسمبر ١٨٨٧، كانت قد خاضت لمدة خمسة أيام متتالية معارك مع محاربي المازامبوني. كان أولئك المحاربون من رعايا كباريقا. وعندما بلغته أنباء هزيمة رعاياه أعتقد بأن بلاده يجري غزوها بجيش لجب يقوده زعيم أبيض اللون، والذي لابد أن يكون قد استدعاه صديقه (السابق) أمين. بالتالي تغير سلوكه تجاه الأخير تماماً وصب جام غضبه على كاساتي النعس والذي وجد نفسه فجأة، في الثالث عشر من فبراير، سجيناً، وتم نهب منزله وجردوه من ملابسه، مع الإهانة البالغة، حتى أصبح شبه عار. أما محمد بيرى، رسول أمين الموثوق به، فقد سقط ضحية غضب كباريقا وبنقامة وتم قتله.

ولحسن الحظ تمكن كاساتي من الفرار، وأفلح في إفقاد مبعوث لأمين أوضح له ما حدث له ولزميله. وبعد أيام من تجواله على غير هدى على شواطئ البحيرة، في حالة من البؤس والجوع، تمكن أمين من إنقاذه بعد بحث مضني عنه بباخرته. وهكذا التقى أمين وكاساتي، بعد طول إفتراق، وذلك قبل بضعة أسابيع من وصول ستانلي للمرة الثانية إلى بحيرة ألبرت.

أثناء ذلك داعت الأنباء التي أزعجت كباريقا ذلك الإزعاج، وانتشرت على طول ضفاف النيل متضخمة كلما بعدت المسافة. وصلت تلك الأنباء للخرطوم حوالي شهر مايو ومنها تسربت إلى سواكن ثم للعالم الخارجي، والذي لم تكن قد وصلتته حتى تلك اللحظة أي معلومات عما قام به

ستاتلي هناك. كان جوهر تلك الإشاعات هو "أن باشا أبيض اللون قد ظهر في بحر الغزال، وأنه يتقدم منتصراً، وأن الخليفة عبد الله انزعج كثيراً".

وكثرت الظنون عن ماهية هذا الباشا الأبيض. وقال البعض أنه لابد أن يكون ستاتلي، وقال البعض الآخر أنه أمين. أما (من تطرف) فقال أنه تلك الشخصية الغامضة أبو جميزة، رجل دارفور، والذي كان يوصف بلون جسمه الفاتح، وأنه من أصل شمال إفريقي. وهناك أيضاً من زعموا بأنه لابد أن يكون الكابتن فان جيلي، والذي كان معروفاً بأنه يستكشف مناطق الولي في ذلك الوقت. ولم يتضح السر إلا بعد مرور عامين بعد ذلك. وقد كانت رواية ستاتلي، بدون شك، هي الصحيحة، فقد كتب في التاسع والعشرين من مارس ١٨٩٠، إلى الجنرال جرنفل (الرسالة التالية):

" القاهرة في ٢٩ / ٣ / ١٨٩٠م

عزيزي الجنرال جرنفل

فيما يختص "بالباشا الأبيض" فأنتم تعلمون بأنني لم أسمع أي شيء خاص به إلا بعد وصولي للجزء الجنوبي من بحيرة فكتوريا. وجدت هناك (قصاصات) تتحدث عن الإشاعات المتعلقة بتلك الشخصية الغامضة، ومن الوصف الذي جاء بها فإن تلك الشخصية هي مزيج مني ومن أمين. ففي ١٤ ديسمبر، أو بالأحرى في أيام ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ ديسمبر ١٨٨٧، كنا في معارك مع حلفاء كباريقا وبلغت تلك الأنباء كباريقا في أنيورو فقام بطرد كابتن كاساتي. وسرعان ما وصلت أنباء وصولنا (للبحيرة) إلى يوغندا وأنيورو وضخمته الإشاعات. تم إطلاق سراح ماكاي من يوغندا، وطرد كاساتي من أنيورو، وكان كباريقا قد أكتسح أخيراً كل المناطق التي تقع شرق النيل الأبيض وأصبح على علاقة وثيقة مع المتعاطفين مع المهدية في اللادو وحتى دوفيللي والرجاف، والتي هي مركز قيادة أكثر المتطرفين كراهية لأمين. وكما ذكرت فقد وصلت أخبارنا، مصبوغة بمخاوف كباريقا، وقام الجهلة في اللادو بتضخيمها ثانية وأصبحت تنمو وتكبر كلما اتحدت مع النيل لتصبح الباشا الأبيض. وعندما بلغت الأخبار تلك الخرطوم، وعند محاولتهم تحديد تلك الشخصية، أصبح ذلك الباشا شخصاً واضحاً يحمل سمات أمين مضافاً إليه ما نسبته مخاوف كباريقا إليه. وهكذا أصبح الشخصان، المتميزان عن بعضهما، شخصاً واحداً في الخرطوم. وقد نقصينا الأمر بروية أنا وماكاي وأمين، في مسلا، ووصلنا جميعاً لنفس النتيجة. لم أسمع أبداً عن أي شخص آخر، من أي أحد، كان في نواحي الاستوائية وما جاورها.

المخلص

(امضاء) هنري م . ستاتلي

معنون للجنرال السير فرانسس جرنفل.....الخ.....الخ.

وفي سواكن حاول الميجر رندل، القائد بها، أن يتحرى عن العلاقة التي بين ذلك الباشا الأبيض وبين ستاتلي. فكتب إلى عثمان دقة يسأله إن كانت قد بلغت أي أنباء خاصة بوصول الرحالة أو أمين. وتسلم الرد بعد عدة شهور، والذي سنشير إليه فيما بعد، وهو عبارة عن نموذج

رائع للتلفيق الشرقي المبني على نتفة من الحقائق، والذي يوضح سرعة جاهزية الخليفة في استخدام مواهبه لإرباك عدوه عندما يجد فرصة لذلك. وحققاً فقد نالت الحقائق التي ذكرها عثمان دقة في رده الذي أرسل للجنرال قرنفل في سواكن قبل معركة جيمزة مباشرة في ديسمبر ١٨٨٨، نالت قبولاً وتصديقاً واسعاً وتلاشي لبعض الوقت كل أمل في نجاح حملة إنقاذ أمين باشا. وبالنسبة للخليفة، فعند ما وصلتته أنباء إكتساح باشا أبيض للأقاليم الجنوبية من ممتلكاته، قام في يولييه ١٨٨٨ بإرسال حملة، على ثلاثة بواخر وستة صنادل، مكونة من ٤٠٠ رجل، للتوجه للجنوب واستلام الاستوائية وتدمير الغزاة المتطقلين. وهكذا تهيأ المسرح للفصل الأخير من دراما الاستوائية.

تركنا أمين وستاتلي في نسابي في أوائل أبريل. وقام ستاتلي في ٢٤ مايو بالتوجه مرة أخرى للغابة المظلمة الكنيية بحثاً عن مؤخرة رجاله. أما أمين وجفسون فقد توجهوا على الباخرة (الخدوي) لإبلاغ مختلف الحاميات بالأمر السامي الذي أصدره الخديوي، ولتجميع أولئك الذين كانوا راغبين في العودة مع ستاتلي إلى زنجبار ومنها إلى مصر. لقد وصف المستر ستاتلي والمستر جفسون في كتبهم التي أصدروها فيما بعد تلك الأحداث المثيرة التي جرت في الإستوائية خلال الشهور التسعة التالية، وبالتالي سنشير هنا إلى أهم النقاط الخاصة بتلك الفترة العصيبة، بغرض متابعة التسلسل التاريخي لمختلف الأحداث، مع الاحتفاظ بالخطوط الأساسية التي جاءت في كتبهما، أي بمعنى آخر، أن نصف بأكبر قدر من الدقة، حسب المعلومات المتاحة الآن، مختلف الأحداث التي طرأت بالسودان منذ انطلاق شرارة المهدية. وبينما لن نخوض في أي نقد لما جرى، فسنعرض أمام القارئ وأمام أولئك المهتمين بتاريخ تلك البلاد الشاسعة وصفاً مجرداً غير متحيز يمكن من خلاله للقارئ أن يخرج باستنتاجاته الخاصة.

توجه أمين وجفسون أولاً لزيارة المحطات التي في أقصى الجنوب. وبعد قراءة خطابات وأوامر صاحب السمو الخديوي وسعادة نوبار باشا للضباط المتجمعين وللجنود والموظفين في كل محطة، سئل الأخيرون عما إنتووا القيام به، وإذا ما كانوا يقبلون العرض الخاص بتوصيلهم سالمين لمصر، أم يختاروا البقاء حيث هم.

جاءت الإجابة بالإجماع، من كل محطة، وقالوا: "سنبتع حاكمنا أينما ذهب". وعند وصولهما لكيري، المحطة الأخيرة والتي بها الكتيبة الثانية، تسلم أمين خطاباً من حمد أغا، قائد الكتيبة الأولى بالرجاف، يحذره من عدم الذهاب لأبعد من ذلك، لأن الضباط والجنود خططوا مرة أخرى لاعتقاله وقرروا أنهم يعد القيام باعتقاله سيتوجهوا إلى الخرطوم. لذلك قرر أمين وجفسون العودة للجنوب مرة أخرى. وعندما تمت قراءة الإعلانات في لابوريه خرج جندي من الصفوف صائحاً: "كل ما نقوله لنا عبارة عن أكاذيب، وتلك الخطابات والأوامر مزورة كلها، فالخرطوم لم تسقط، وهي الطريق الوحيد لمصر. لن نذهب إلا من ذلك الطريق فقط أو نبقى ونموت في هذه المنطقة".

كانت تلك حالة تمرد واضحة. ولقد ذهل المستر جفسون بعد أن فوجئ بما حدث، إذ لا يبدو أنه كان على علم بروح التمرد السائدة في المنطقة. استخدم أمين باشا سلطاته وأمر بسجن

الجندي المتمرد. وفور أمره بذلك خرج الرجال من الصفوف وأحاطوا بحاكمهم وجفسون، وبعد أن عابوا بنادقهم صوبوها نحوهما. ولوهلة ساد الضجيج والصخب وبدأ أن مذبحة علي وشك الحدوث. لكن ذلك الفوران سرعان ما خمد، بنفس السرعة التي بدأ بها. هدا الجنود وأعتذر الضباط. وقد إتضح فيما بعد بأن كل ما جرى كان شيئاً مديراً. وأن الرأس المدير لم يكن إلا سرور أغا قائد المحطة.

وأثناء ذلك قامت بعض الحاميات إلى الجنوب، التي كان أمين وجفسون قد نقلوا إليها فحوي الإعلاات قبل توجههما شمالاً، بالدخول في ثورة تامة. فقد قام بعض الضباط والموظفين المصريين في فابو، من الذين كانوا قد أرسلوا للسودان لاشتراكهم في عصيان عرابي المسلح عام ١٨٨٢، بتحريض جنود الحامية بزعم أن الخطابات والإعلاات التي جاء بها أمين مزورة، وأن ستانلي ومن معه ما هم إلا مجموعة من المغامرين، وأن كل العملية كانت مدبرة لإخراج الناس جميعهم من بلادهم، بنسألهم وأطفالهم، وتسليمهم عبيداً للإنجليز. وأضافوا أنهم مثلما تمردوا من قبل على الخديوي فأنهم لا يرون سبباً يمنعهم من التمرد على حاكمهم أمين، والذي ما هو إلا أداة في أيدي أولئك المغامرين. سيطرت كلمات التحريض على العصيان تلك على رجال الحامية، وقام حاكم فابو، المدعو فضل المولي أغا، بتزعم الثورة وزحف برجاله نحو دوفيللي وقبل أن يصل أمين وجفسون للمدينة كانت في ثورة وتمرد واضحين. وعند وصولهما في الثامن عشر من أغسطس ألقى القبض عليهما وأودعا السجن. خلع أمين من منصبه، وأرسلت خطابات إلى كل المحطات تفديدهم بأسره، وتقرر بأن ينقل أمين سجيناً إلى الرجاف في الوقت الذي جرى فيه التآمر لإغراء ستانلي ورفاقه للحضور للمديرية، حتى تتم سرقة ما لديهم من بنادق وذخائر، ثم بعدها يتركونهم هائمين على غير هدى. ثم عقدوا إجتماعاً تقرر فيه طرد كل الضباط الذين عرف عنهم الولاء والصداقة مع الباشا المخلوع.

سمي حمد أغا حاكماً بدلاً عن أمين، كما حل سليم بك محل حواش أفندي. أما نائب المدير، فلكي يتجنب تعيينه رئيساً للمجلس الذي سيدين المساجين، فقد ألقى بنفسه في النهر، لكنه أنقذ، وتولي صالح بك مكانه في الرئاسة.

سارت الأمور على هذا المنوال لبعض الوقت حتى جاءتهم في الخامس عشر من أكتوبر الأنباء المفزعة بأن قوات المهديين* قد وصلت لأدو في ثلاثة بواخر وتسعة صنادل ومقطورات كبيرة. وفي السابع عشر من الشهر جاء ثلاثة من رجال العدو إلى دوفيللي حاملين رسالة وعلماً للهدنة. كان الخطاب صادراً من عمر صالح**، قائد القوات المهدوية ومعنوناً إلى أمين، وطالباً منه الإستسلام، مع وعد بالعفو عن الجميع. قام المتمردون بفتح الخطاب، وبعده قرروا المواجهة والقتال، وبدأوا بقتل الرسل الثلاثة.

* أرسلت من أم درمان في فبراير.

** عمر صالح رجل جعني، تربى في شكا ونشأ فيها، وتزوج امرأة من الرزيقات. كان قد توجه لأم درمان قبل فترة من الزمن لمبايعة الخليفة، وتم إختياره للقيام بالمهمة الخاصة بأخضاع الاستوائية والقبض على "الباشا الأبيض".

وفي ٢١ / ١٠ وصلتهم أخبار، أفزعتهم بأكثر من ذي قبل، بأن المهدويين، وبعد أن انضم إليهم عدد كبير من البارياء، قد هاجموا واحتلوا الرجاف وقتلوا ثلاثة ضباط وكاتبين وعدداً آخر من الرجال، بينما تم أسر الباقين وكل النساء والأطفال. غرهم الفزع بعد تلقيهم لهذه الأنباء، وفرت حاميات بدين وكيري وموجي بدون نظام إلى لاهوريه. وحاول المتمردون تجميع قواتهم في موجي لوقف تقدم الأنصار، لكن هذه الخطوة قادت إلى اتشفاق صفوف الضباط، وأعلن الجنود الآن بأنهم لن يقاتلوا حتى يطلق سراح أمين باشا ويعاد لمنصبه كحاكم عليهم. وفي الخامس عشر من نوفمبر وصلهم ما يفيد بأن بعضاً من القوات قد غادرت موجي إلى الرجاف، وأنهم عندما اقتربوا منها هاجمهم عمر صالح وشنت شملهم. فهرب الرجال تاركين ضباطهم، ومن بينهم ستة من القتلى، كان أحدهم الحاكم الجديد الذي نصبوه، حامد آغا، وضابطين أسرى وأن كثيراً من الجنود الذين أنهكهم القتال قد طردوا وقتلوا.

كان تأثير هذه الأنباء على دوفيللي فوراً.. فقد سيطر الضباط الذين لازالوا موالدين لأمين على الباقين وأرغمهم على إطلاق سراح السجناء. وبعد ثلاثة أشهر من الحبس الشديد أفرج عن أمين وجفسون وأرسلهما لودلاي حيث قوبلوا بحماس شديد من قبل الأهالي والجنود، والذين تأكدوا الآن وللمرة الأولى بأن الخرطوم قد سقطت حقاً، وأن بعثة ستانلي هي فعلاً كما ذكرته، أي أنها (بعثة إنقاذ) تم تكوينها لإنقاذهم من أيدي المهدويين. وفي الرابع من ديسمبر وصل الضابط القائد لبارا، وهي محطة صغيرة بين دوفيللي وودلاي، في عجلة شديدة وأخاد بأن المهدويين قد مضوا قدماً في زحفهم وأنهم قد استولوا على دوفيللي وقابو، وأن كل المحطات الشمالية قد سقطت في أيديهم، وأن البواخر التي بها قد غنمت، وأن كل الأهالي الذين بتلك الجهات قد انضموا لرايات عمر صالح المظفرة. عقد اجتماع في ودلاي تقرر فيه إخلاء ودلاي على الفور والتراجع برأ إلى تتجورو حيث ظنوا أنهم ربما يلتقون هناك بطابور ستانلي في فورت بودو. بالتالي أرغم جفسون على تدمير قاربه (أدافانس) ليمنع سقوطه في يد العدو. وفي اليوم التالي بدأ إخلاء ودلاي ولكن، وفي اللحظة الأخيرة، قرر الجنود الذين هم في معظمهم من أهالي مقاطعة مكاراكا، العودة إلى وطنهم الأصلي. وما أن غادر أمين وجفسون، مع معظم السكان، المحطة حتى دخلها أولئك الجنود ونهبوا المنازل. وفي ٦ ديسمبر ١٨٨٨، وبينما كانت الجموع المنسحبة شاقة طريقها إلى تتجورو ببطء جاءت باخرة كانت متتبعة لهم وظنوا بأنها من بواخر المهدويين وأستعدوا لإطلاق النار عليها. لكنهم عرفوا بأنها كانت باخرة دوفيللي وقد جاءت حاملة رسائل لأمين باشا مفادها أنه، وبعد كل الذي جرى من المهدويين، إلا أن دوفيللي لم تسقط في أيديهم. وكان العدو بالفعل قد أستولى على قابو، التي تم إخلاؤها قبل ذلك ورجعت حاميتها إلى دوفيللي، ثم هاجم دوفيللي واستولوا عليها لبعض الوقت وعلى البواخر أيضاً، إلا أن بقية رجال الحامية، وعددهم حوالي ٥٠٠ رجل، والذين كانوا قد طردوا عنها، وجدوا أنفسهم بين نارين. وبطاقة وعزيمة اليائسين، وبقيادة قائدهم سليم بك، عانوا وهاجموا المحطة واستولوا عليها وألحقوا خسائر كبيرة بالعدو مما أجبره على الانسحاب إلى الرجاف وطلب النجدة العاجلة.

في تلك الأيام الأربعة دار قتال متواصل في دوفيللي. وقد قتل أربعة عشر ضابطاً وعدد كبير من الجنود. ولما تلقت حامية ودلاي الصغيرة، والتي كانت على وشك العودة لمكاراكا، تلك الأنباء، توسلت لأمين باشا للعودة. لكن سلوكهم الذي لا يثق فيه، دفعه لأن يقرر مواصلة السير لتنجورو. ولما علم بهذا القرار في ودلاي توصلت حاميتها لنتيجة مفادها أن الأخبار السابقة الخاصة بسقوط دوفيللي قد قام بطبخها أمين وفبركتها حتى يسلم الحامية لعمر صالح بينما يتراجع هو ومن معه ويتركونهم. لذلك قرروا إعدام أمين وكاساتي وجفسون بتهمة الخيانة ولم ينقذهم إلا حظهم الحسن الذي أسعفهم بوصولهم إلى تنجورو وبالتالي لن يتمكن المتآمرون من تنفيذ حكمهم عليهم.

وبعودة إلى ما قام به عمر صالح فور وصوله للرجاف نجد أنه، وبعد هجومه واستيلائه على تلك المحطة، وعلمه بأن أمين وجيفسون كانا سجينين لدى المتمردين، ولأنه لم يشك في أنه سيستولي على كامل المديرية في الوقت القريب، قام بإرسال إحدى بواخره للخرطوم وبها عدد من الضباط الأسرى وغنائم الرجاف، وأرسل معها الخطاب التالي إلى سيده وزعيمه الخليفة، المؤرخ في ١٥ أكتوبر ١٨٨٨: توجنا بالباخرة والجيش ووصلنا إلى الادو حيث يقيم أمين، مدير الاستونية، في ٥ صفر ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨/١٠/١٠)، علينا أن نشكر الضباط والجنود الذين سهلوا علينا عملية الفتح، لأنهم ألقوا القبض على أمين وعلى رحالة كان مقيماً معه، وكتبوهما بالأغلال، ورفضوا الذهاب إلى مصر مع الترك.

كان توفيق قد أرسل لأمين أحد الرحالة واسمه المستر ستاتلي. وقد أحضر هذا المستر ستاتلي رسالة من توفيق لأمين مؤرخة ٨ جمادى الأولى أخبره فيها للرجوع مع مستر ستاتلي وترك الخيار لبقية القوات للرجوع معه أو البقاء هنا حسبما يرغبون.

رفضت القوات أوامر الترك واستقبلونا فرحين. ولقد وجدنا كميات كبيرة من العاج والریش. وها أنا أرسل لكم، على ظهر البوردين، الضباط والباشكاتب بقيادة محمد خير. وأرسل لكم أيضاً الخطاب الذي أرسله توفيق لأمين مع البوارق والرايات التي أخذناها من الترك. وقد علمت بأن رحالة آخر قد جاء لأمين. وأنا أبحت الآن عن مكانه. وإذا ما عاد فأتني واثق من القبض عليه.

كل زعماء وأهالي المديرية مسرورون لرؤيتنا. ولقد استلمت كل السلاح والذخيرة. وعندما تري الضباط والباشكاتب وترشدهم (الهداية) فأرجو إعادتهم مرة أخرى لأنهم سيكونون في غاية المنفعة لي.

وقد أرسل مع تلك الرسالة نسخة من الخطاب الذي يحتوي على الأمر السامي الذي أصدره الخديوي، والذي حصل عليه من الرجاف إضافة إلى بعض ذخيرة سنايدر.

* حسب علمنا، فإن وصول عمر صالح للرجاف بدون قتال لإدع مجاًلًا للشك في قيام الحاميات الشمالية بالوصول إلى تفاهم معه. وفيما يختص بالحاميات بالمحطات الجنوبية فلا يوجد إلا شك قليل بأن عدداً من الضباط قد قرروا إعتاق المهديّة. بالتالي كان عمر صالح، في الوقت الذي كتب فيه خطابه التاريخي، على قناعة تامة بأن الضباط يميلون إلى التسليم له. وكان يمكن أن يتم ذلك لو لا قيام الجنود بتولي زمام الأمور بأيديهم وإجبارهم للضباط في حامية الرجاف ليقودونهم ضد القزاة.

وعند تلقي الخليفة لتلك الأخبار، ذكر نفسه بقلق سلطات سواكن لمعرفة مصير حاكم الإستوائية، وقام بإرسال الخطابات إلى عثمان دقنة مع أمر بتسليمها لسواكن. قام عثمان طبقاً لذلك بتحويلهم، مع خطاب منه، إلى الجنرال قرنفل، والذي كان في ذلك الوقت يقوم بالإستعدادات اللازمة للهجوم على العدو المحاصر لسواكن. "وجري خطاب عثمان دقنة كالتالي:

"بسم الله العظيم.... الخ.

هذا من عثمان دقنة إلى النصراني الذي يحكم سواكن: أسمح لي أن أفيدك بأنه قبل فترة من الزمن، كان رندل قد أرسل لي خطاباً يسألني فيه عن الرجل الذي كان حاكماً علي المديرية الإستوائية. وبوصول هذه الخطاب المذكور لأيدينا أرسلته في الحال إلي الخليفة عليه السلام..... الخ.

أرسل لي الخليفة الرد وأخبرني بأن، الحاكم المذكور لخط الإستواء قد سقط في أيدينا وأصبح الآن واحداً من أتباع المهدي. وأرسل الخليفة بواخر إلى خط الإستواء يقودها أحد زعمائنا يسمى عمر صالح. وقد وصلوا اللاو. وعند وصولهم وجدوا أن قوات الحاكم المذكور، والمكونة من عسكريين وضباط، قد أسروا الحاكم، مع رحالة كان معه. وقد كبلوهما بالقيود وسلموهما ليد زعيمنا (عمر صالح). والآن صارت كل المديرية في يدنا وخضع الأهالي للمهدي. وقد تسلمنا الأسلحة والذخائر التي كانت هناك، وأيضاً أحضرنا الضباط والباشكاك للخليفة والذي إستقبلهم بطريقه طيبة وهم الآن مقيمون معه وقد سلموا له كل راياتهم. لذلك، ولأن رندل يريد معرفة ما حل بالحاكم، فعليك أن تخبره بهذه الرسالة.

أرفق لكم نسخة من الرسالة التي بعثها زعيمنا بالإستوائية إلي الخليفة، وأيضاً نسخة من تلك التي أرسلها توفيق للحاكم المذكور.

وأرسل لك أيضاً نسخة من الذخائر التي أحضرت من الإستوائية. أسأل الله هزيمة الكفرة وأسأله هزيمة المشركين".

وقد إنتهت سنة ١٨٨٨، والإستوائية تمر بفترة من الإضطرابات. وبدأ أن كل مشاريع أمين للبقاء في مديريته، بدلاً من قبول العرض الخاص، الذي قدمه ستانلي، بإرجاعه سالماً إلي الشاطئ، قد خابت. فالآن وبنهاية ديسمبر نجد أن الحاكم المخلوع، مع بعض القوات المصرية وعوائلهم، في حالة مؤسفة من الورطة في تنجورو. ينتظرون بقلق وصول ستانلي، والذي وصل الآن للمرة الثالثة بالقرب من البحيرة. أصبح الجزء الشمالي من مديريته، من الرجاف، في يد المهديين، أما من الرجاف إلي ودلاي فقد كانت الحاميات في فورة من التمرد والإضطراب.

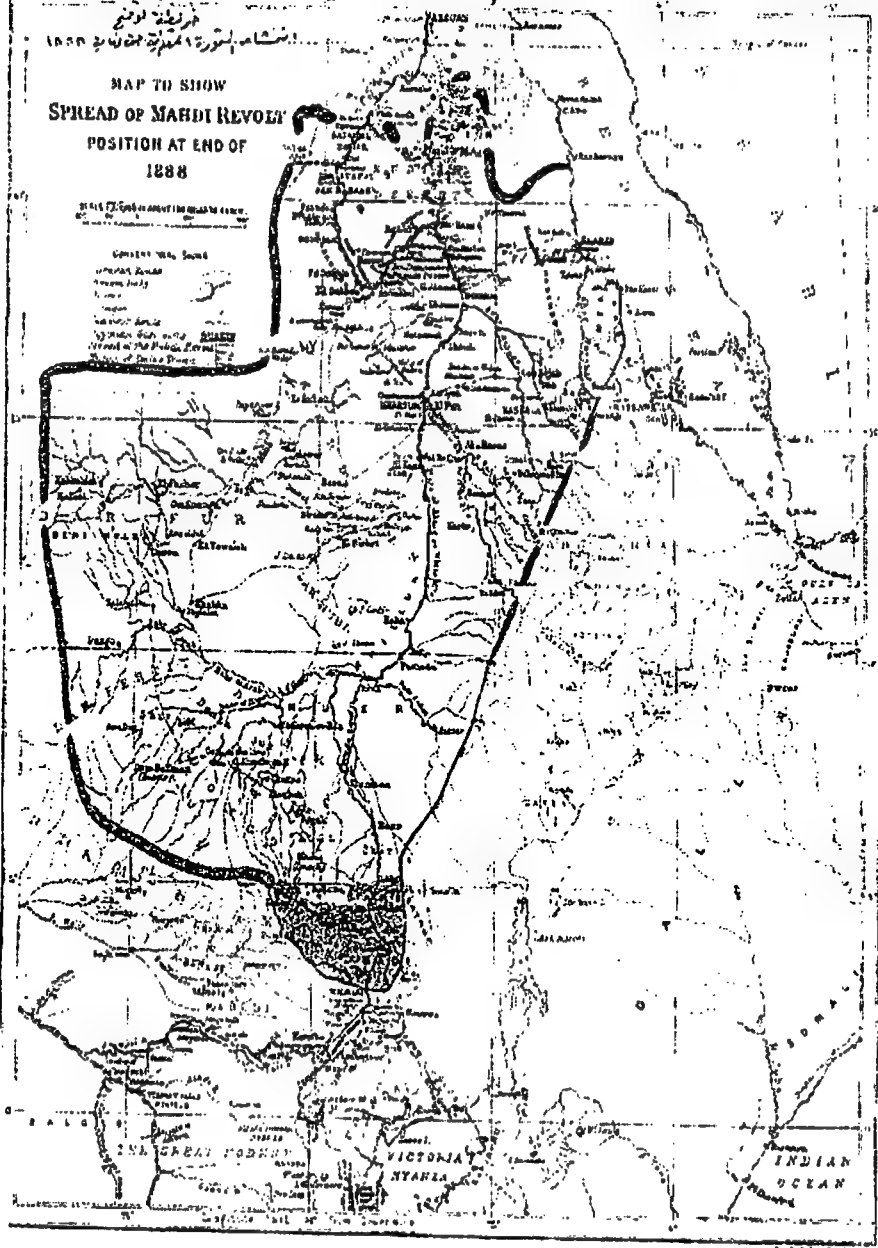
** تخضت عنها معركة جيزة، التي جرت في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨.

خريطة تظهر
انتشار الثورة المهدية في السودان
1888

MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1888

SCALE TO SHOW DISTANCE IN MILES

LEGEND
 - British Possessions
 - Egyptian Possessions
 - Sudanese Possessions
 - Mahdi Possessions
 - British Possessions
 - Egyptian Possessions
 - Sudanese Possessions
 - Mahdi Possessions



القسم الثاني عشر (أ) (أحداث عام ٨٨٩ م) وحملة ود النجومى

الملخص:

الإشاعات السارية بتقديم النجومى للشمال - عدم احتمال حدوث غزو من الضفة الغربية - الاستعدادات التي اتخذت بالحدود لمنع الغارات - خطابات من الخليفة للنجومى خاصة بالحملة - الصحراء الشرقية - هدية الخليفة لبشير بك - بحر كرار وبشير بك - النجومى يتلقى تعزيزات من نقلا - الأوضاع في دار فور والحيشة تؤخر تقدم النجومى - الخيانة في بمبان - النجومى ومساعد يتشاجران - وصول أعداد كبيرة من اللاجئيين لحلفا - وصول عبد الحليم لسرس مع قوة عسكرية - الغارات على دنيرة وسرا غرب - الخيانة المصرية تبيد المغيرين على دبيسة - الإشاعات بتقديم النجومى - الغارة الثانية على سرا - العدو في سرس ينتقل للضفة الغربية - اضطرابات في الصحراء الشرقية - مصطفى جبران يهزم العرب في جبل ميسا - تقريره الرسمي - محاولة الغارة على أرقين - الغارة على معتوقة - حسن خليفة يحتل آبار المرات - الكابتن سليم يمنع غارة على قسطل - النجومى يكتب لعبد الحليم في سرس - تنظيم قوات الغزو - القوات المصرية تعتزم الإستيلاء على سرس - أوامر النجومى ونواياه - وصوله لسرس - وصول جيشه لمعتوقة - إستكشافه لحلفا - قوات الغزو تفتح الحدود المصرية - تنظيمات وأوضاع الكولونيل وودهاوس - تركيب جيش النجومى - معركة أرقين - مخالفة أوامر النجومى - طرد العدو من أرقين - الخلافات بين النجومى وعبد الحليم - ديم العرب فون أرقين - النجومى يخاطب الانتصار - خطة الكولونيل وودهاوس للمعركة - تدفق الإمدادات من القاهرة - توجه الجنرال قرنفل للحدود - النجومى يتوجه شمالاً - المعسكر بشمال أرقين - التوقف في سرا - السديم في أنندان - النجومى يصل إلى بلاتة على رأس الطابور الطائر - خطاب النجومى لود سعد - صالح بك يتطوع لإخراج حسن خليفة من المرات - شيخ كوكى يستولى على مدفعين في معتوقة - وصول الجنرال قرنفل إلى بلاتة - استكشافه لمواقع النجومى - خطابه للنجومى - رد النجومى عليه - نادرة الطعام في معسكر العرب - عودة الجنرال قرنفل لأسوان - وصول القوات البريطانية - خطط الجنرال قرنفل وتوزيع القوات - كابتن لويس يستكشف سرس - إمدادات بقيادة مكين النور تصل للنجومى - يزحف شمالاً من بلاتة - تركيز القوات في توشكى - حملة بشير بك على أبرى - الملازم دافيلار يهاجم جماعة من العدو في غبية - وصول الجنرال قرنفل لتوشكى - قيامه باستطلاع مواقع العدو - النجومى أثناء تقدمه يطرد قوات الإستطلاع - استدعاء المشاة والمدفعية من توشكى - الاشتباك بالقرب من توشكى - هزيمة العدو التامة - وفاة النجومى وكبار أمرائه - أسر أربعة ألف من العدو - توزيع الأسرى - اعتقال أبو يزيد - إعادة احتلال سرس بواسطة القوات المصرية - نتائج طيبة لحملة صالح بك في المرات - انسحاب بحر كرار من أنقات - محنة البشاريين - تأثير هزيمة توشكى على المهوديين - تأثير الانتصار في مصر - خطابات من بعض الأمراء يطلبون العفو - وصول أعداد كبيرة من البشاريين واللاجئيين الآخرين إلى الحدود - البقارة وحكم الإرهاب.

...

الحدود في ١٨٨٩:

بدأ عام ١٨٨٩، والإشاعات تتواتر بتحريك النجمي من دنقلا (تحو الشمال). وكان محمد الخير، الذي فقد حظوته لبعض الوقت، قد أعيد تعيينه أميراً على بربر وبدأ في تنفيذ المخطط الأصلي لغزو مصر، لكنه هذه المرة فسيتم التقدم الرئيسي على الضفة الغربية للنيل، وبالتالي يتم تجنب حلفا ومختلف المحطات العسكرية الوسيطة والطواحي المحصنة.

كان التقدم عبر الضفة الغربية، ذات الطبيعة الصحراوية الرملية القاحلة، أمراً غير معقول ولا يحتمل حدوثه من وجهة نظر العقلية العسكرية في مصر. ومع ذلك اتخذت الخطوات اللازمة لتعزيز الدفاعات لمختلف القرى على الضفة الغربية المجاورة لحلفا. وتم بناء بلوكات عسكرية في مختلف النقاط المعرضة للهجوم. ومن تجارب السنوات الماضية كان من المعتقد أن زحفاً للقوات متجهاً للشمال غير محتمل الحدوث، وأن كل الإشاعات المعتادة، التي تحدث عن غزو علي نطاق واسع، ستنتهي بإرسال إمدادات قوية لسرس، وبعدها تتكرر نوعية الغارات السابقة في أغلب الاحتمالات. لذلك كان توزيع القوات على الحدود مبنياً على هذا الاعتقاد أكثر مما بني على صد هجوم وغزو واسع النطاق.

والخطابات التالية، من الخليفة إلى ود النجمي، تلقي بعض الضوء على الوضع العام خلال تلك الفترة:

بسم الله الرحمن الرحيم....الخ.

من عبد الله خليفة المهدي.... الخ، إلى المكرم عبد الرحمن النجمي، كان الله مرشده وعونه. عليك سلام من الله ورحمة وبركات. لقد وصلني خطابك الذي تخبرني فيه عن حاله الكرب التي تعاني منها القوات في دنقلا وسرس، وكذلك وصلني خطاب من عبد الحليم الذي يصف فيه بلواه العامة وألمه. وأخذت علماً بما ذكرته لي من عدم قدرتك على إرسال إمدادات لعبد الحليم، وعلمت كذلك بأن كل عشرين من رجالك يشتركون في ربع من الذرة.

هذا هو حال الانتصار. ولأنك سألتني الإذن بالتقدم نحو بلاد الأعداء، فقد كتبت لك هذا الآن: عند استلامك لرسالتي هذه عليك القيام باستدعاء كل الأمراء والقادة وكل الذين تثق فيهم وتناقش معهم أمر الحملة التي أقترحتها وأرسل لي رأيهم ورأيك كن مستعداً حتى تكون علي أهبة عند وصول الإذن مني. وأرجو أن تعطي هذا الأمر غاية الأهمية، شاور الزعماء والإدلاء وأحرص علي جعلي علي علم بكل تحركاتك. أسأل الله أن يبارك في عملك، على الرغم من الكفرة، وأن ينشر دينه. وأنا في انتظار الرد منك.

(إمضاء)، حسيننا الله ونعم الوكيل

* هذا الفصل من الكتاب (القسم الثاني عشر أ) مخصص بأكمله لحملة ود النجمي (المعرب).

** وجدت هذه الخطابات في ميدان المعركة بنوشكي، في الثالث من أغسطس ١٨٨٩.

* ترجمها ونجت الله وبركة ممثلة كلية لنا (المعرب).

بسم الله الرحمن الرحيم الخ

من خليفة المهدي.....الخ، إلى المكرم عبد الرحمن النجومي، بارك الله فيه ونصره وأن تشمله رحمة الله وبركاته.

تسلمت خطابك والذي أيدت فيه استلامك لأمرني بتعيين محمد الخير وعلي سعد وأمراء الجعليين والبرابرة** والجميلاب والعالياب. وقد ذكرت لي في خطابك أنك تشاورت مع أخينا مساعد قيديم والأمراء والآخرين الذين لديهم معرفة بالطرق.. الخ، وأنت قد اخترت طريق دنقلا وفضلته علي طريق أبو حمد، لأنه صعب وعز لأسباب عديدة، وأن دنقلا أصغر من أن تلاوي كل القوات، وطلبت مني الإذن لمغادرة دنقلا فوراً حتى تجد مكاناً يتسع للتعزيزات والإمدادات.

إنني أتفق تماماً مع خطتك. وسأكتب لمحمد الخير وعلي سعد للمضي وراءك فوراً بقواتهما.

وفيما يختص بقيامك، فأنتك ستستشير الأمراء الذين يعتمد عليهم، وكذلك مع مساعد قيديم، وأخبرني بقرارك.

كن مستعداً للتقدم فور وصول الإذن مني.

(الختم كما هو أعلاه)

١٧ ربيع الأول ١٣٠٦

(٢٢ نوفمبر ١٨٨٨)

ثم تواترت الإشاعات بحدوث اضطرابات في الصحراء الشرقية مرة أخرى. وبذل الخليفة عبد الله كل جهده لكسب شيوخ العباديه (المدعومين) إلى جاتيه. وتلقى بشير بك، على يد بحر كرار، دعوة ملحة للإحضمام للقضية وأرفق مع الدعوة راية وكسوة أمير. لكن بشير قام علي الفور بإرسال الخطاب والهدايا إلى السردار وتمسك بالولاء للحكومة المصرية. ولابد هنا من كلمة توضيح للتعرف على العلاقة الغريبة التي كانت موجودة بين بحر كرار وإبن عمه بشير. ونحن نذكر أن التحرك الأخير في الصحراء الشرقية قد إنتهى باحتلال بشير لحيمور. لكن بحر كرار مع فئة من رجاله كانوا لا يزالون بأنقعات، وهي بضعة أبار على بعد أميال قليلة من حيمور، توصل إلى نوع من التفاهم المشترك مع بشير. وصلت هذه الإشاعة إلى أذان الخليفة فاستدعى بحر كرار لأم درمان وهدده بالقتل، لكن الأخير ذكر له في دفاعه عن نفسه بأنه يعرف بأن لدي بشير ميول للمهدية، وأنه يوصي بكتابة خطاب إليه، والذي تسلمه بشير لاحقاً. ثم أرسل بحر مرة أخرى للشمال حاملاً للرسالة الخطية، مع أوامر له ببذل ما في وسعه لإنهاء المواصلات هناك. أما بشير، والذي سر من خطاب الخليفة، فقد كتب رداً عليه وذكر بأنه سيساعد بحر في محاولاته. وهكذا قامت بين الزعيمين مرة أخرى حالة من "الإتفاق رغم خلاف الآراء بينهما". هذه الحادثة الصغيرة هي نموذج واضح للمؤامرات التي كانت تحيط بالسلطات العسكرية وقتها، والتي من خلالها كان من الصعب إتخاذ مسار واضح للعلاقات بينهما. فمن ناحية نجد أن النتائج الطيبة لما قام به بشير

** يقصد بالبرابرة سكان النيل من شمالي تخوم دنقلا وحتى أسوان، والمعروفين لدى الأوروبيين في بحري مصر بأسم البربرين.

أمر معترف به، ومن ناحية أخرى فإن من المستحيل معرفة إلى أي مدى كان يعمل على إمداد العدو بمعلومات عن تحركات الحكومة ونواياها حسبما يفسرهما هو. فلو كانت لدى الحكومة أي قوات متوفرة فلاشك أنها كانت ستظهر بها الصحراء من كل مناديب المهدي. لكن الحكومة كانت محتاجة لأي رجل في الجيش المصري للدفاع عن الحدود وعن سواكن ولذا كانت مرغمة على قبول ذلك الوضع.

وفي خلال تلك الفترة تلقى النجومي تعزيزات كبيرة من عرب البطاحين* في دنقلا. لكن ميولهم المعارضة للمهدية أوضحت بأنه من الصعب الإعتماد عليهم كمقاتلين. خلال ذلك كان النجومي، قائد القوات، ومساعد، حاكم دنقلا، في خلافات مستمرة. فكان الأول يعمل على تجنيد أي رجل موجود بالمديرية للعمل تحت رايته. أما الأخير فكان ينصح بإبقائهم لفلاحة الأرض وإمداد القوات بالغذاء.

وتعطل النجومي، الذي كان الآن على وشك مغادرة دنقلا للشمال، من جراء الأنباء المقلقة القادمة من دارفور والخاصة بسرعة نمو وإنتشار حركة السنوسي، وأنها كانت تعمل على تقويض سلطة الخليفة.

ثم جاءت الأنباء التي تتحدث عن خيانة أهالي النيل بشمال أسوان وتركزت الشبهات على إقليم بمبان والذي كان عدد كبير من تجار دنقلا واللاجئين قد إستقروا به بعد إخلاء دنقلا. وكانت مصالح أولئك الناس متطفة بالطبع بالمحتلين الحاليين لأراضيهم بدنقلا، ولاشك في وجود إتصالات مستمرة بين بمبان ودنقلا. وكان من المحتمل جداً أن تجار بمبان كانوا يطلعون العرب على قوة القوات الحكومية وتحركاتها، وكانوا في المقابل يحصلون على تسهيلات لحركة بضائعهم. وقد تأكد فيما بعد بأنهم ساعدوا العدو من نواحي كثيرة ولكن لم يعرف قط طبيعة تلك المساعدات، رغم أنه ساد الاعتقاد بأنهم قد نصحوا النجومي بالتقدم وأنهم تطوعوا بمساعدته.

وصلت أخبار الخلافات بين النجومي ومساعد إلى أم درمان. وكان الخليفة، منذ وقت طويل، غائراً من شعبية النجومي مع العرب. لذلك رأى أن من السياسة إحلال أحد أبناء عمومته، يونس الديكيم والذي رجع لتوه من الانقلابات، محل مساعد. وقد وصل يونس لدنقلا في الثاني عشر من فبراير. لكن حملة الشمال تعطلت مرة أخرى. فقد سببت النكسات التي واجهها العرب في دارفور وبحر الغزال والحدود مع الحبشة، قلقاً بالغاً للخليفة. وبدأ مرة أخرى في سحب جزء من قواته بالشمال ليرسلها إلى القتال في مناطق أخرى. وفي الخامس والعشرين من فبراير غادر مكين النور سرس، مع قوة من البقارة، في طريقه للجنوب، وأصبح كل السودان يمور الآن بأخبار إنتصارات السنوسي (في الغرب). ووضعت الإشاعات، في سواكن، قائد (العصيان) علي رأس جيش لجب على بعد مسيرة بضعة أيام من الخرطوم. ولكن تبين فيما بعد بأن تلك الحركة لم تتعد حدود دارفور. ووسط كل هذا القلق وصلت أخبار هزيمة الأحباش ومقتل الملك يوحنا. وإلتفت

* هذه القبيلة، والتي تسكن على ضفاف النيل الأبيض جنوبي الخرطوم، كانت مصدر شبهة الخليفة في أن لها ميولاً معارضة للمهدية. وقد عوملوا مثل ما عوملت قبيلة رفاعة وغيرها من القبائل غير الموالية للمهدية ولذلك تم سحبهم من مناطقهم ودفع بهم للقتال في أماكن بعيدة.

الخليفة مرة أخرى، بعد أن ارتاح من قلقه من تلك الناحية، وبعد أن أرسل حملة أخرى إلى دارفور، إلى غزو مصر. وخلال تلك الفترة من الهدوء في سرس أخذت موجات من اللاجئين تتدفق على حلفا قادمة من الجنوب ووصلت أعدادها إلى ٣٠٠ كل أسبوع، وعادت الحركة التجارية بين السودان ومصر لحد ما إلى نشاطها. ولكن عبد الحليم وصل إلى سرس في الثامن من أبريل بقوة من ١٠٠٠ رجل وعاد الشعور القديم بالتوجس القلق وترقب المزيد من الغارات المفاجئة والهجمات على الحدود. وفي التاسع من أبريل وصل إلى سرس رأس (مقطوع) بشع الهيلة وأستعرض في سوق البلدة. وقد قيل بأنه رأس أحد كبار زعماء الأحباش الذي قتل في المعارك الأخيرة، وأن الهدف من إرساله لسرس هو إلهاب حماس المقاتلين لإحراز نصر مماثل.

تم تقديم محطات العرب الآن إلى عبكة، على الضفة الشرقية، وإلى معتوقة، على الضفة الغربية، وكلتا المحطتين تقعان على بعد خمسة أميال ونصف جنوبي طابية خور موسي باشا. وفي ليلة الخامس عشر من أبريل قامت أقسام من قوات تلك المحطات الخارجية بالانقضاض على قري صحابة (بالضفة الشرقية)، على بعد ستة أميال شمالي حلفا، وأرقين (بالضفة الغربية)، والمواجهة تقريباً لصحابة، ونجحوا في الاستيلاء على بعض المواشي وجرح بعض القرويين. وقد طاردتهم أطواف الهجاة لكنهم تمكنوا من الفرار.

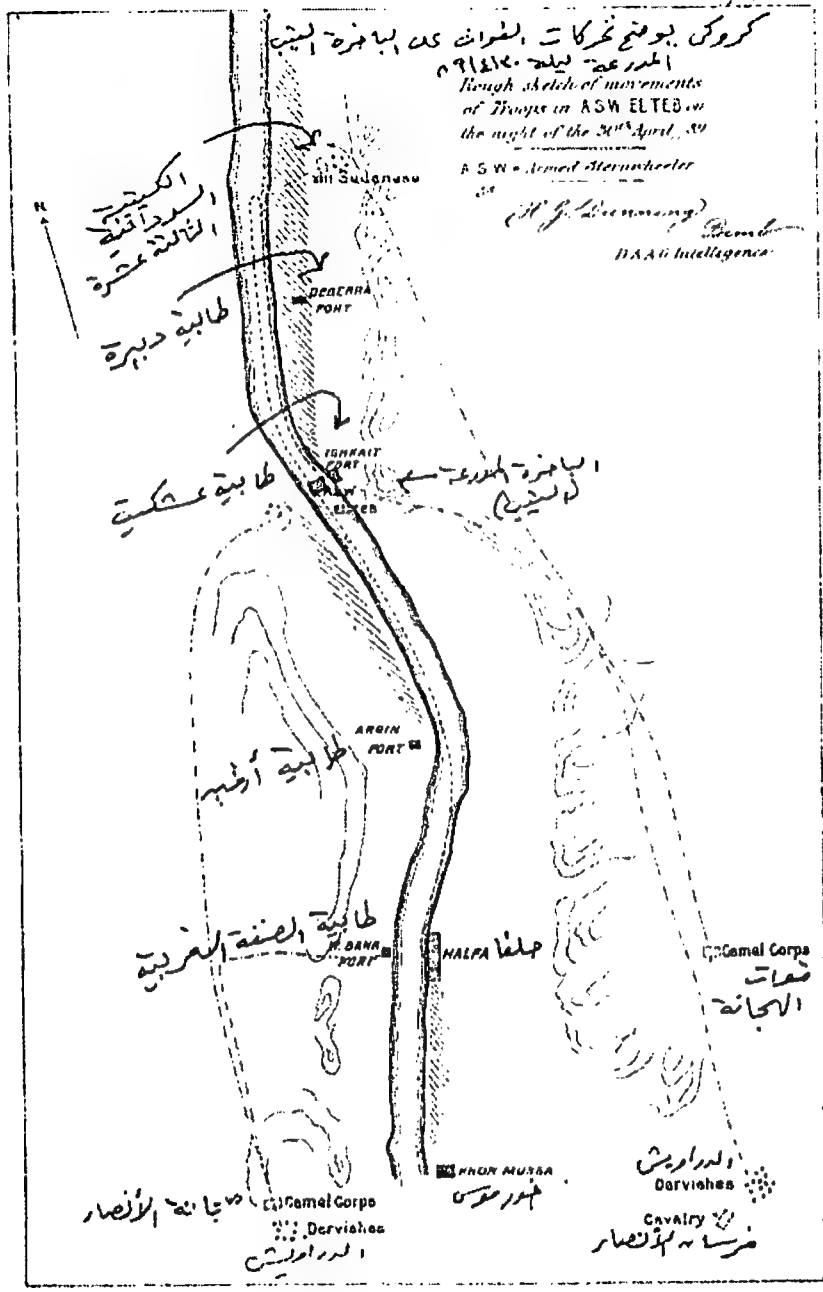
أصبحت قوات سرس تتكون الآن من أكثر من ١٠٠٠ مقاتل بقيادة عبد الحليم ومعه من الأمراء مكين النور وود جبارة ومرغني (سوار) الذهب وود رحمة.

وفي التاسع والعشرين من الشهر غادرت مجموعة بقيادة ود رحمة، المحطة الأمامية عبكة وقامت كالعادة بدورة إلتغافية طويلة في الصحراء ثم هبطت على دبيرة عند حلول الليل. في نفس الوقت تقريباً قامت مجموعة أخرى بمغادرة معتوقة، وشوهدت في الجبال، بالقرب من أرقين، متجهة شمالاً. أبلغ شيخ أرقين أخبار إقتراب المجموعة الأخيرة للملازم دننج، والذي كان في دورية، بالباخرة التيب، قرب أرقين. ساد الاعتقاد بأن هذه المجموعة تتوي الإغارة على قرية سرا غرب، حوالي تسعة أميال شمالاً. لذلك قام الملازم دننج على الفور بالتوجه، مع إتحدار النيل، لحماية تلك القرية. لكنه عند وصوله في الساعة التاسعة إلا ربعا مساءً سمع إطلاق نار صادر من دبيرة (المقابلة لسرا) على الضفة الشرقية. نزل من السفينة بصحبة فصيل من ثلاثين رجلاً من الكتيبة السودانية الثالثة عشر ووجد القرويين في حالة من الإنزعاج والتوتر ويطلقون النيران في كافة الإتجاهات بهيجان شديد. وقد منعتهم ظلمة الليل والإضطراب والفوضى، لبعض الوقت، من اكتشاف أماكن وجود العدو، وأخيراً وجدهم في جزء من القرية يبعد بميل عن النهر، لكنهم فروا إلى الجبال عند إقتراب الفصيل منهم وقد أخذوا معهم بعض المواشي والقتال.

كان من غير المجدي متابعتهم في الظلام. لذلك ركب الملازم دننج وفصيله السفينة، بعد أن أعاد الهدوء للقرية، وبعد أن وجد أن كل شئ على ما يرام في سرا غرب، توجه مرة ثانية لأعلي النهر حيث قام، من طابية إشكيت الحصينة، بتحذير الكولونيل وود هاوس في حلفا بما جرى، وفي نفس الوقت أرسل جماعة من الهجاة للطواف والمرور باتجاه خور موسي. أثناء ذلك أرسل الكولونيل وودهاوس تعليمات إلى فرق الهجاة بالضفة الغربية للمرور في دوريات من أرقين وحتى خور

موسى. وفي الرابعة صباحاً أرسل مائة من الفرسان بقيادة همت أفندي، ومعه الكابتن هكمان، نحو الجبال الشرقية للطابية، والتي من المحتمل أن يمر المغيرون على دبيرة بها في طريقهم لعبكة*. ثم توجه الكولونيل وودهاوس بنفسه إلى خور موسى ووصل إليها في نفس الوقت الذي شاهد فيه جماعة الهجاة مشتيكين مع المغيرين بالضفة الغربية. دار إشتباك قصير قتل فيه ثلاثة من العرب بينما تمكن الباقون من الفرار. أثناء ذلك قام الكابتن هكمان، بعد أن قسم قواته لقسمين ووضعهم على بعد ميل من بعضهم البعض، مختبئين خلف الجبال التي من المتوقع أن يمر بها العدو. وفي الساعة والنصف صباحاً شوهد العدو، المكون من حوالي أربعين رجلاً معظمهم يمتطون الخيل والأبل والباقيين على أقدامهم، ومعهم أعداد من المواشي، في طريقهم إلى عبكة. ركض هكمان في الحال مع جنوده حتى صاروا على بعد ٣٠٠ ياردة من العدو ثم ترجلوا وأطلقوا زخات من الرصاص باتجاهه ثم عاودوا الركوب وهجموا على وسط جموع العدو ودار إشتباك عنيف بالأيدي بينهم، في الوقت الذي كان القسم الثاني من جنوده قد عبر الجبهة وارتكزوا في مكان بين العدو وخور عبكة وأبادوا من كان هارباً. لم يفلح في الفرار سوى فارسين وتم أسر ثمانية من رجال العدو بينما قتل الباقون، ومن بينهم الأمير ود رحمة. قاتل ود رحمة بضراوة يائسة لكنه سقط عندما قفز عليه أحد الجنود من حصاة، وألقي بنفسه حرقاً عليه. وبعد صراع عنيف تمكن من قتله*.

* تقع عبكة على رأس الشلال الثاني بالضفة الشرقية.
* كانت هذه هي المناسبة التي، بعد أن استولت القوات المصرية على رماح أفراد العدو الذين سقطوا، ثم استخدمتها بفعالية طيبة ضد الباقين، جاءت فكرة إنشاء (قوات الرماحة) في فصائل الفرسان.



تأكد الآن، أن النجومى قد وصل الحفير بقوات كبيرة، وتبعد الحفير بثلاثين ميلاً شمالي دنقلا، ولكن لم يتم التحقق بالضبط من مدى قوة العدو وتسليحه. فالعربي العادي أو المصري من الصعب عليه، أو لا فكرة لديه، عن الأعداد. وكل من قدموا من الجنوب كانوا يقدمون أرقاماً وتقديراتاً متفاوتة. وقد قيل أن قواته كانت تتكون من البقارة، والجعليين، والبطاحين، والفلاته** وعرب النبي حسين*** وبلغ مجموعهم حوالي خمسة ألف رجل، لهم سبعين راية. لكن هذا العدد كان يشتمل على النساء والأطفال والذين كانوا دائماً يسبرون مع الجيوش العربية عند تقدمها. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الخيول والجمال وخمسة مدافع. وكانت القوة كلما تقدمت للأمام أخذت معها من تجد من الأهالي غير الراغبين وتضمهم إليها حيث يستخدمونهم كعبيد وحمالين.

أثناء ذلك تم تعزيز قوات سرس. وقدرت أعداد القوات بها بحوالي ٢٥٠٠ رجل ومعهم ٢٥٠ جواداً و ٣٠٠ جمل و ٤ مدافع، إضافة إلى عدد كبير من النساء والأطفال.

ولم يعد هنالك الآن أي شك بأن محاولة لحركة على نطاق كبير، أكبر مما في الأعوام السابقة، على وشك الحدوث وعملت كل الترتيبات اللازمة على الحدود للحماية من الغارات أو المفاجآت.

ويوم ٧ مايو جاءت أخبار لحلفا بأن قوة من العرب قد عبرت إلى الضفة الغربية لسرس قبل يومين، وأنها شرعت في الحال في التقدم نحو معتوقة. وكان المعتقد في سرس أن غارة عسكرية ستشن إما على أرقين أو سرا. ثم بالتالي إرسال مائة رجل من رجال الكتيبة الثالثة عشرة السودانية، بقيادة الملازم كنفقهم إلى أرقين، بينما توجهت قوة أخرى من خمسين رجلاً من نفس الكتيبة، بقيادة الملازم جرج، على ظهر سفينة المدفع (طماي)، إلى سرا. توجه أيضاً سبعون من الهجانة بقيادة الملازم دننج إلى طابية أرقين. وفي اليوم التالي قامت الطلائع بالقرب من خور موسي بالإبلاغ بأن قوة كبيرة من العدو قد غادرت معتوقة متوجهة شمالاً. ثم بالتالي زيادة تعزيز قوة أرقين بالكابتن كمبستر ومعه ١٥٠ رجلاً من الكتيبة السودانية الثالثة عشرة.

وفي صبيحة يوم ٥/٩ الباكر قامت دوريات الهجانة بالإفادة بأنهم شاهدوا دروباً لقوات كبيرة، وأوضح أنها متجهة شمالاً على بعد خمسة أميال من النهر.

وفي تلك الأثناء وصل الملازم جرج إلى سرا، وعند الصباح الباكر أثناء طوافه مع خمسة وعشرين رجلاً على ضواحي القرية، شاهد قوة من حوالي ٦٠٠ من الحراية وعدة رجال على صهوات الإبل والجياد، على بعد ميلين ونصف، متوجهين نحو الجانب الجنوبي للقرية. عاد الملازم فوراً إلى منزل العمدة، وهو منزل كبير مربع في نهاية الجزء الشمالي للقرية، وجمع حوالي ٣٠٠ من القرويين ومواشيهم وغيرها في مكان منها، وجهاز القرية للدفاع بينما أسرع بإرسال سفينته (طماي) إلى أرقين للإسراع بنجدته.

** الفلاته يوجدون في مناطق مختلفة من كردفان ودارفور.

*** النبي حسين يسكنون شمالي شرق الخرطوم.

دخل العرب القرية وشرعوا في نهب منازلها. وشوهد عدد قليل من الحرابية والفرسان بالقرب من منزل العمدة وإستقبلوا بزخات الرصاص. وبعد إشتباكات متقطعة لحوالي نصف ساعة إنسحب العدو، وتابعه الملازم جدد ورجاله الخمسين وتابعوهم حتى التلال الرملية بجنوب غربي القرية وقتلوا منهم ثمانية من الشاردين وحرروا حوالي ٣٠ من القرويين وعدداً من المواشي. أما القسم الأكبر من العرب، وعندما علم بمطاردته، فقد استدار عائداً ووجد الملازم جدد نفسه مجبراً على التراجع ثانية نحو محطته المحصنة حيث وجد أن الملازم كتنقهام قد وصلها للتو بصحبة ١٠٠ رجل من إلى الجزء الأخير أن يهاجم العدو، والذي عاد الآن بقوة أكبر إلى الجزء الجنوبي من القرية. تقدم نحوه بمائة وخمسين رجلاً وإلتقي معه في وسط القرية وفتح عليهم النار بعد أن وضع على جناحه الأيمن بعض الجنود لحمايته من هجمات خيالة العدو. لكن جماعة من الخيالة جاءت فجأة من خلف تل رملي وهاجمت جنود الجناح والذين تراجعوا نحو زملائهم. أما الملازم جرج، والذي كان، آخر من تراجع، فقد نجا بأعجوبة من حربة الأمير عبد الحفيظ والذي كان، ومعه بعض أشجع الفرسان العرب قد أئدفعوا نحو الجناح الأيمن واشتبكوا في قتال بالأيدي إستطاع فيه الملازم جدد أن يلقى بنفسه على الأمير عبد الحفيظ ويرمي من جواده ويجرحه جرحاً بالفاً ثم بعد ذلك طرد خيالة العدو ولكن، وفي مواجهة قوة كاسحة أمامه، إضطّر الملازم كتنقهام مجبراً على التراجع نحو نقطته المحصنة. ومن هناك أرسل لسفينة المدفع لتقوم بالطواف أمام القرية، وبعد فترة تقدم مرة أخرى خلال القرية ووجد أن العدو قد هجرها. وبعد أن ترك بعض رجاله في سرا عاد مع بقية الجنود إلى أرقين.

أثناء ذلك كان الكولونيل وود هاوس قد أرسل مجموعة من الخيالة والهجانة من أرقين باتجاه سرا، بقيادة الملازم دننج والذي، بعد أن وجد أن العدو قد إنسحب بقواته، تابعه لبعض المسافة، مقترباً من مؤخرته، حتى تم استدعاؤه للتوجه لخور موسي غرب، والتي كانت بها قوة من ٥٠٠ جندي بقيادة الميجر هنتر، بعد أن عقد النية لقطع طريق إنسحاب العرب نحو معتوقة. وتم استعراض هذه القوة، باتجاه الغرب، في صباح العاشر من مايو الباكر لكنهم اكتشفوا أن العرب قد مروا، أثناء الليل، على بعد خمسة أميال من النهر وأفلحوا في الوصول لمعتوقة، وعاد الميجر هنتر بالتالي إلى حلفا.

* هذا الأمير، والذي كان قد قاد الهجوم من قبل على خور موسي، تم إنقاذه بواسطة رجاله. لكنه توفي من جراء إصابته بالالتهاب بعد أسبوع من ذلك، في سرس.

وقد تم تقدير المسافة التي قطعها العدو، في صحراء قاحلة لا ماء فيها، بأكثر من ٧٢ ميلاً في ستين ساعة، مما يشهد لهم بقوة قدرتهم وحيويتهم عند الحركة. فقد العدو ثلاثين رجلاً لكنه نجح في تغنيص عدد من الماشية، وأسر بعض القرويين. أما الخسائر المصرية فكانت ستة جرحى وقتل أربعة قرويين وجرح ثلاثة منهم.

أثبتت الأعداد غير العادية التي استخدمت في هذه الغارة الأخيرة، والإشاعات التي تتحدث عن تزايد قوات النجومي باستمرار، أن من المتوقع حدوث اضطرابات عظيمة على الحدود عما قريب. وأرسلت بعض الإمدادات البسيطة من القاهرة بينما تم تجهيز طابور طائر في حلفا مزود بأعداد كافية من البواخر والزوارق التي تمكنه من الحركة السريعة عند وصول أول إنذار. وفي الحادي والعشرين من مايو جاء تاجر من الجنوب وأبلغ أنه كان حاضراً عند استعراض قوات ضخمة بدنقلا، والتي قدرها بحوالي ٨٠٠٠ مقاتل و ٢٠٠٠ من البازنجر. وقد عدد الرايات التي توجهت للحفير بحوالي ٨٣ راية. أما يونس الديك فذكر أنه بقي بدنقلا ومعه ٤٠٠٠ مقاتل بينما توجه النجومي إلى الحفير. كل العرب كانوا تواقين للجهاد وقد تقرر أن يصحبهم للشمال ٧٠٠ فارس وحوالي ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ جمل، وقد أقيم في كرمة* مستودع ضخم للحبوب.

ويوم ٢٤ مايو نقلت قوات سرس معسكرها للضفة الغربية وكأنها تستعد للاستحقاق فوراً بالنجومي، والذي قيل بأنه لا ينوي البقاء طويلاً في سرس بل سيتحرك قديماً في الحال. وفي السادس والعشرين من مايو قيل أن قوات النجومي وصلت لساقية العبد** أما النجومي نفسه فكان لا يزال بكرمة يدفع في الإمدادات للأمام. وكتب خطاباً لعبد الحليم في سرس بأنه متقدم بجيشه ومعه كميات من الزخائر والذرة.

وبدأت الأحداث بالصحراء الشرقية تأخذ منحى خطيراً. فالقائمون بالغارات في حلايب لم يبارحوا المناطق التي بجوارها، لكنهم أقاموا في منطقة آبار أجوا متيري، على بعد ٣٠ ميل من جبل علبة، وأجبروا البشاريين المجاورين لهم على الانضمام إليهم.

وعلم بشير بك بأنهم يعتزمون الهجوم على محطته بأبرق. فقام بإرسال أخيه مصطفى (لمعرفة الوضع) والذي كتب بعد وقت قصير بأن قوة العدو قد ازدادت إلى ١٠٠٠ رجل، وأنهم على بعد مسيرة خمسة أيام من أبرق، وأن الطريق تتوفر فيه المياه. وعندما قدم بشير بك هذه المعلومات علق قائلاً "بأن إتقاضاً علي أبرك هو أمر ممكن، وأنه لو تم ذلك فأن أتباعه من العباددة سيجبرون على الانضمام للعدو، والذي سيستخدمهم كمرشدين وأدلاء لجماعاته المغيرة التي ترغب في الاتقاض علي مناطق بالنهر بين دراو وقنا (في صعيد مصر)، وأنه لن يكون قادراً لمنعهم من إحلال أبرق إن أرادوا".

* تم استبعاد تلك الإفادة أولاً علي أساس أنها من المبالغات. لكن الأحداث التي تلت أثبتت صحة تلك الأعداد وحسن تقديرها.

** على بعد ١١٠ ميل جنوبي حلفا.

لكن مصطفى، علي كل حال، تمكن من عقد تحالف مع قسمي العاليايب والعمراب التابعين لقبيلة البشاريين وحرضهم علي شن الغارات على المهديين، الذين كانوا وقتذاك في آبار القلب. وهذا ما دعي إلى قيام الزعيم العربي حسن ود سعد البغدادي بكتابة الرسالة التالية لبشير بك، وهي مثال للعلاقات البين قلبية الغربية التي كانت سائدة آنذاك:

"أكتب إليك لأخبرك بأنه، وفي يوم الثلاثاء ٢٣ رمضان، قامت جماعة من البشاريين، يقال بأنهم عاليايب وعمراب، بالحضور هنا ونهب السوق والذي يعيش به أتباع المهدي. وذكروا بأنها كانت أوامرك بالهجوم علي أتباع المهدي وسلب كل ما يملكون منهم. وأنا علي علم تام بأن هؤلاء الأشخاص لا يريدون إلا بث الفتنة والشقاق بين العباددة والمهديين لكنني لن أسمح بذلك وبالتالي فأنتي أرجو أن أؤكد لك بأنه ولأنني من نفس القبيلة مثلك، ليس في نيّتي نشوب أي قتال بيننا. إنني لا أرغب إلا في الحضور وتولي شئون قبيلتنا. أما إن لم توافق علي ذلك وتصر علي القتال، فلتعلم باستعدادي لقتالك برجالي الخمسمائة.

لكنني لا زلت أري إلا داعي لحدوث ذلك لما بيننا من صلة القربى، لذلك أتوقع أن أسمع رأيك بهذا الخصوص مثلاً أتمني أن يواكبن الحظ في هذا العالم. (إمضاء) حسن سعد محمد ويبدو أن الكاتب لم يتلق أي إجابة. فقام بالتالي بإرسال رجاله غرباً. وفي الثالث من يونيوه التقى بهم مصطفى مع حلفائه الجدد، في ميسا ونشب القتال بينهم، والذي أوضحه مصطفى في تقريره الرسمي الذي قدمه لقمندان أسوان، والذي يوضح بصورة ناصعة الأسلوب الغريب للقيام بحروب الصحراء:

تمسخة من التقرير الذي كتبه الشيخ محمد مصطفى جبران للضابط القائد لإقليم أسوان: "سيدي - لي الشرف أن أرسل لك تفاصيل المعركة التي دارت بين رجالي وبين الثوار في ميسا.

فبينما كنت في أبرق مع رجالي، جاءنا ستة رجال من العاليايب والعمراب حاملين رسائل من شيوخهم ويقترحون فيها أن يتم لقاء بيننا في ميسا، وبأن علينا أن نتحد ونهاجم الثوار معاً في علبة.

وأفقت علي مقابلتهم. وفي أول شوال (٣١ مايو) غادرت أبرق ومعني ٢٠٠ من رجالي ووصلت إلى ميسا في يوم ٤ ولم أجد بها أي بشاريين، ولكن كان هناك أربعة من العاليايب يحرسون ستة من المساجين وأخبروني بأنهم أسروهم في العاليايب. تسلمتهم، وفي نفس المساء تلقيت خطاباً من الأمير حسن البغدادي معنون إلى بشير بك. كما تسلمت أيضاً خطاباً من دون بك. وفي فجر الخامس من شوال جاءني رجل بشاري وأخبرني بأن الثوار قد عزموا علي الحضور ومهاجمة رجالي، فأمرت رجالي بالتزول من الإبل وقتت بتقييدها. وبعد نصف ساعة من ذلك هاجمني العدو. أطلقت النار عليهم، و أتمنى أن تكون الرصاصات قد أصابتهم لأن العدو تراجع وأخفي. بعد ذلك أرسلت جماعة لاحتلال الجبال التي غادروها وأمرتهم بمطاردتهم وإرهاقهم.

وعند ما اختفى العدو، تقدمت بكل قواتي للتعرف علي عدد قتلاهم. أحصيت خمسين قتيلاً وسبعة جرحى إصاباتهم بالغة. وسألتهم عن قوة العدو فأخبروني بأنهم ٢٥٠ رجلاً تحست قيادة

الأمير (أبو) جديري، والذي كان أول القتلى. تم هجومهم أساساً بغرض تحرير أسراهم السبعة الذي أسره البشاريون في العدالياب، وعندما علموا بأنني حضرت إتفقوا على قتلي.
غنمت أربعين حربية وخمسة بنادق وثلاثة دروع وكمية من ملابس المهديين.
وفي اعتقادي أن الثوار لم يعودوا إلى ميسا أو إلى أي مكان مجاور لطيبة.
وأثناء الهجوم استوليت على ثمانية حمبر لكنني أعطيتهم لعرب العدالياب الذين كانوا يحرسون المساجين.

لم تحدث لي خسائر وسط رجالي ولكن جرح ستة من جمالي.

(ختم) محمد مصطفى جبران

لم يشارك بحر كرار، رغم وجوده في أنجات، في هذه الإضطرابات، لكنه بقي على تعهده لبشير بك بأن يبتعد عن العداليات. بل أنه مضى لأكثر من ذلك بتحذيره بشير من نوايا حسن خليفة حول استلامه لآبار المرات وطلب من بشير دعمه بالرجال ليحتمي أنفات من حسن خليفة!
وفي ليلة الثالث من يونيه أرسلت طابية أرقين الحصينة صاروخاً بإشارة تحذير مما ترتب عليه إرسال مائة رجل لهم من حلفا علي الفور. وقيل وصولهم كان المغبرون قد تراجعوا. وقد إتضح فيما بعد بأن خمسة وعشرين رجلاً، علي ظهور الإبل، كانوا قد وصلوا، وقدموا أنفسهم علي أنهم من اللاجئين وحصلوا علي إذن بدخولهم للقرية. وعلي الفور بدأوا الإغارة عليها ولكن عندما ظهرت حامية النقطة أمامهم تراجعوا مبعثرين بعد أن قتلوا قروياً.

قرر الكولونيل وود هاوس القيام بهجوم مضاد علي نقطة العرب الأمامية في معتوقة، بالضفة الغربية على مسافة ٥,٥ ميل جنوبي خور موسي. قام بالتالي بإيفاد الميجر هنتر مع قوة من ٣٠٠ رجل من الكتيبة السودانية الثالثة عشر، و ١٠٠ من الفرسان وسرية من الهجاة، لتنفيذ هذه المهمة. وبعد أن تجمعت تلك القوات بالضفة الغربية في مواجهة خور موسي، إندفع الميجر هنتر جنوباً إلى الأرض المرتفعة في أبوسير، والتي وصلها المشاة في السابعة والنصف صباحاً، بينما كانت القوات الراكبة قد تبادلت بالفعل النيران مع العدو، والذين كان بعضهم بداخل جزيرة بالشلال، أما الباقون فكانوا بالبر. وعند إقتراب القوات منهم فر من كان بالبر إلى الجزيرة حيث قام المشاة بمهاجمتها في الوقت الذي خاضت فيه نصف قوات الهجاة، بعد أن ترجلت من الإبل، النهر، وإندفعوا في أنحاء الجزيرة وقتلوا ثمانية عشر من العرب في قتال دار بدأ بيد، وأخذوا سبعة أسرى.

وصادروا بعد احتلالهم للجزيرة كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر والمواشي. أما بقية العرب فقد فروا للجزر الأخرى بالشلال وبعد ذلك تم إحراق القرية. قتل من المصريين جندي واحد وجرح آخر وقتل ثلاثة من الخيول.

وحتى ذلك الوقت لم تكن آبار المرات محتلة. ولكن في السادس من يونيه غادر حسن خليفة أبو حمد بخمسمائة رجل واستولى على الآبار في التاسع من الشهر. وكان صالح بك قد أصدر تحذيراً بهذا الصدد لحسن خليفة، والذي كتب له بأنه كان مجبراً علي الحضور للمرات بأوامر مباشرة من الخليفة، والتي عليه إطاعتها، وبأنه لم يكن لديه ما يكفي لإطعام رجاله ويجب

عليهم الحصول على الطعام بشن الغارات على قرى النهر. ومع هذه الرسالة تسلم صالح بك خطابات من الخليفة ومعها راية، وعدة متعلقات بزي الأنصار، وقام بتسليمها فوراً للسلطات العسكرية. كانت كل الرسائل تشتمل على تأكيد نجاح سلاح المهدية ضد الأقباش والثورات المحلية بالسودان.

وعند تسلم السلطات لتلك الأخبار تم إرسال قاربي مدفعية من حلفاء، بقيادة الكابتن سليم، أحدهما لمراقبة مختلف الطرق الصحراوية المؤدية للنهر، والثاني توجه إلى كروسكو تحوطاً من شن غارة عليها. وفي السادس عشر من يونيو توجه الكابتن سليم بقاربه إلى منطقة مستورة على مسافة قصيرة إلى الشمال من قسطل^{*} ووزع طلائعه لمراقبة الخور الذي توقع حضور العرب عبره. وفي الصباح الباكر أبلغ الحراس عن سماعهم لأصوات الإبل، وبعد ذلك بقليل أبلغ أحد القرويين بأن جماعة كبيرة من العرب، مع جمال كثيرة، قد هبطت جنوب النهر بحوالي نصف ميل. وعند تلقي الكابتن سليم لتلك الأنباء أرسل فريقاً من رجاله لمراقبة مدخل الخور، بينما توجه هو ومن بقي من جنوده جنوباً بالقرب المسلح حيث أمل في أن يتمكن من طرد العرب بعيداً عن النهر، وبأنهم عندما يعودون للصحراء فسيتم اعتراضهم بالمجموعة التي إختفت بالقرب من الخور. ولما كان منسوب النهر في أدنى مستوى، والملاحة فيه صعبة، ولأن قارب المدفع قد مر تحت صخرة مرتفعة، فقد صبت عليهم نيراناً حامية من الرماة العرب الذين بأعلى الصخرة وقتلوا أحد الجنود بالقرب. وحتى ذلك الوقت لم يكن الجسم الرئيسي للعرب قد لاحظ وجود قارب المدفع. فقد كانوا متجمعين بالقرب من صفة النهر، وجمالهم على مسافة بعيدة عنهم، بينما جماعة أخرى منهم كانت تطلق نيرانها على بعض المراكب الشراعية، التي كانت محملة بالتعيينات الحكومية، والتي إرتطمت بحاجز رملي وأصبحت في مرمى النيران. شرع قارب المدفع بإطلاق قذائف مدفعه ٩ رطل من مسافة ٣٠٠٠ ياردة على الجمال أما العرب فترجعوا مندفعين وركبوا جمالهم وفروا، بعضهم مباشرة إلى الصحراء وبعضهم الآخر نحو الخور ونجوا من الكمين المعد لهم بعمل إتفافاة واسعة خلال الجبال. طاردهم كابتن سليم، بعد أن أنزل رجاله، لبعض الطريق وقتل أربعة من العرب وإستولي على بضعة جمال.

لقد أنقذ وصول قارب المدفع، في الوقت المناسب، قرية قسطل مما كان يمكن أن يكون غارة رهيبية عليها. بل أنه، أكثر من ذلك، منع العرب من الإستيلاء على المراكب الشراعية المحملة بكميات كبيرة من المواد الحكومية. ترتب على ذلك أيضاً أن تمكن بشير بك من الاستيلاء على آبار جلب.

* خور شمال بلادة على الضفة الشرقية.

أثناء ذلك كان النجومي يتقدم ببطء نحو الشمال بقواته. وكان قد غادر ساقية العبد يوم ١٣ يونيه وعبر منطقة دال يوم ١٥ ووصل سمنة في التاسع عشر من الشهر. ومن سمنة أرسل الخطاب التالي "لعبد الحليم القائد لسرس":
بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

من عبد الرحمن ود النجومي إلى حبيبه عبد الحليم مساعد بعد السلام، أرجو أن أفيدك بأن خطابك، الذي ذكرت فيه قيام الأباله، الذين أرسلهم سيدنا خليفة المهدي، قد وصل. ووصل أيضاً الأباله وقابلونا في صحراء سمنة. واليوم (الخميس) التاسع والعشرين من شوال هو يوم وصولنا لسمنة مع الجيش في الواحدة والنصف صباحاً بالتوقيت العربي). وبمشيئة الله سنرتاح هنا حتى يكتمل تجمع الجيش في هذه المحطة ثم نتوجه للانضمام إليك. وكان سبب تعطلنا هو صعوبة تجميع القوات مع بعضها.

ولقد ذكرت في خطابك بأن جندياً من العدو بسرس قد حضر إليك. لذا عليك إرساله، بدون لحظة من التأخير، إلى الخليفة (إمضاء) عبد الرحمن ود النجومي كتب بخطي، لأن ختمي في الطريق ٢٠ شوال ١٣٠٦ (١٩ يونيه ١٨٨٩).

كان مع النجومي في ذلك الوقت حوالي ٤٠٠٠ من المقاتلين و ٣٠٠ بندقية و ٨ مدافع جبلية ومدفعي مكنة و ٣٠٠ حصان و ٥٥٠ جمل و ٣٠٠٠ حمار. وبالإضافة لهم كان معه عدد ضخم من التابعين من النساء والأطفال مما أوصل عدد من معه إلى ١١٠٠٠ نسمة.

كان الأمير يونس لا يزال بدنفلا، يرسل في التعزيزات. وكان مكين النور قد تحرك من دنفلا ومعه ٦٠٠ رجل، بينما كان على ود سعد في الحفير ومعه ٥٠٠ آخرين. وكان عثمان الدكيم، ابن أخ الخليفة، في بربر، يبدل كل ما في وسعه لجمع التعزيزات لجيش الشمال، لكنه أحتفظ لحمايته الشخصية بحوالي ٩٠٠ من البازنقر والذين رفض التخلي عنهم مهما كانت الظروف.

ظل عبد الحليم في انتظار النجومي بسرس على الضفة الغربية ومعه قوة من ١٢٠٠ رجل منهم ٣٠٠ من حملة البنادق وبعض الهجاة والخيالة وحوالي ١٠٠٠ من الأتباع (من خدم ونساء وأطفال).

وبات الآن واضحاً أن عملياً، على نطاق أوسع مما حدث من قبل، أصبحت متوقعة الحدوث. فكل الإشاعات السابقة تشير إلى غزو لمصر عن طريق الضفة الغربية للنيل. لكن

* وجد الخطاب في ميدان المعركة بتوشكي يوم ٣ / ٨ / ١٨٨٩.

** تحركات قوات النجومي وتواريخ وصوله ومقارنته لمختلف المحطات لم يتم تحديدها ومعرفتها إلا فيما بعد. وقد كان لصراسته في منع الهاربين من التوجه للشمال، وتشده في إخلاء المناطق من قاطنيها، أن معرفة مكانه وتحركاته وقوة جيوشه لم تكن معروفة لدى السلطات العسكرية بحلفا وخاصة في الأسابيع التي سبقت وصوله لسمنة، مما أدى بالسلطات، بسبب ما جاء أعلاه، للفشل في الحصول على معلومات موثوق بها. وفي اليوم الذي سبق وصول النجومي لسمنة كان الكولونيل وود هاوس يعمل على تجهيز قوة للتوجه لسرس، وكان من المحتمل أن تلحق هذه القوة بقوات النجومي الهائلة وفي أرض غير مناسبة. ولكن لحسن الحظ فإن النجومي عندما اقترب من الحدود كان من المستحيل عليه أن يخفي ذلك. وعندما تم التأكيد بأنه وصل بقواته إلى سمنة أوقفت كل الخطط الخاصة بهجوم مضاد انتظارا لتطور الأحداث.

السلطات الممنولة لم تصل حتى الآن إلى قناعة بأن النجومي، بسمعته الماضية كقائد متميز، يمكنه أن يقوم بمثل هذا الأمر الغريب، بالزحف خلال مئات الأميال من صحراء قاحلة لا ماء فيها، بينما يسيطر عدوه على مجرى النيل، وبالتالي فإن لم يكن ذلك العدو بالقوة التي تمكنه من مهاجمته إلا أن بمقدوره منعه من الحصول على الماء وإرهاقه وإتهاك قواته العطشى. ويعرف النجومي تماماً بأنه لو توجه لاي قرية فلن يجدها إلا خالية من أي شيء يؤكل، بل قد يجدها محتلة بالقوات (المتربصة به). لذلك ساد الاعتقاد بأن قائداً مثل النجومي، وعند ما يستعرض ذلك الوضع ويمحصه بدقة، فإنه سيتخلى عن مشروع الغزو ويكتفي بغارات على نطاق واسع. لكن الطبيعة المتعصبة للرجل لم يتم فهمها بالقدر الكافي. فالنجومي نفسه لا ينسى بأنه كان اليد اليمنى للمهدي، وأن غزو مصر كان دائماً قرار سيده الأخير، والذي لا رجعة فيه. ولقد نال تقريع الخليفة بسبب تراخيه في السنوات الأخيرة. ولأنه كان يدرك تماماً غيرة الخليفة منه، فهو يرى نفسه رجلاً لا تثبطه المصاعب والعقبات التي قد يراها أي رجل آخر، إلا إذا كان قائداً من غلاة المتعصبين، عقباتاً لا تقهر. كان لديه ثقة في رجاله وكتوا يبادلونه نفس الثقة. لقد دمر هكس واستولى على الخرطوم، فلماذا يخشى إقحام مصر ومواجهة القوات المصرية التي لم يكن ينظر إليها إلا بالاحتقار والاندراء؟ كان أمراؤه كلهم من صفوة الأمراء الذين حققوا النجاح تلو النجاح في مواجهة قوات الحكومة.

كان قد جرد المناطق التي مر بها من كافة المؤن، وكان يعلم بأن عليه ألا يتوقع أن تصله إمدادات أخرى من الجنوب. ثم أن المنطقة التي وجد نفسه فيها كانت أفقر من أن تمنح جيشاً كجيشه، ولم يعد هناك مقر من التضحية بكثير من الخيول والجمال والحمير ليصد المجاعة عن قواته. كان عليه أن يواصل تقدمه، وبدون إبطاء، وإلا فإن جيشه، الذي سيطر على ترابطه ككتلة واحدة، سيتفكك ويتشتت.

ووصل إلى سرس في الثاني والعشرين من الشهر حيث انضم إليه عبد الحليم بقواته، وبحلول يوم الثامن والعشرين كانت قواتهما المشتركة قد وصلت معتوقة.

ومن هذا المكان قام النجومي وعبد الحليم وعثمان أزرقي في اليوم التالي باستطلاع للوضع، وذلك من على تلة مرتفعة مجاورة لمرتفعات أبو سير. شاهدوا على البعد طوابي خور موسي الأمامية، وعلى مسافة أبعد كانت ملامح حلفا واضحة للعيان. وقد قيل أن عبد الحليم عندما أشار إليها لزعيمه فإن الأخير أجابه جازماً بأن جواده، قبل مرور وقت طويل سيكون مربوطاً في إسبيلات القمندان. ومن هذا المكان أيضاً نتحدث النجومي وعبد الحليم باهتمام قلق حول خططهما القادمة. فقد كانت تعليمات النجومي بأن يتم السير بموازاة ضفة النيل الغربية، ولكن على مسافة معقولة داخل الصحراء، وألا يهبطوا إلى القرى، رغم أنه يتوقع عدم الصعوبة في الحصول على مؤن منها.

كان يعتقد بأن القرويين موالون للمهدية وبأنهم سيهرعون للانضمام لراياته عندما تقع أبصارهم على جيشه. أما عبد الحليم فكان يرى، بما له من خبرات سابقة إكتسبها من غاراته، بأن عليهم إحلال القرى أثناء تقدمهم. فقد كان يخشى من خطورة نقص المياه أو اعتمادها (إذا ابتعدوا

عن النيل). لكن للنجمي أصر على تنفيذ خطته. لذلك تقرر أن تستريح القوات ليومين وأن تبدأ المسيرة في الأول من يوليه باتجاه مصر. لكن تأثير تلك الإستراحة القصيرة كان قاتلاً. ففي ذلك اليومين فر جنوباً أكثر من خمسمائة من رجاله.

وفي أواخر الشهر قاموا باستكشاف باتجاه خور موسى. لكن بضعة قذائف من الطابوقة دفعتهم بعيداً.

في تلك الفترة كانت قوات الخيالة والهجاة المصرية تمر في دوريات نشطة على الضفة الغربية للنيل. وفي مساء الثلاثين من يونيه وصلتهم أنباء مفادها أن العدو ربما يعاود زحفه تلك الليلة. على هذا غادر الكولونيل وود هاوس حلفا فجر اليوم التالي ومعه زورقي مدفعية يقطران صنادل تحمل على ظهرها ٥٠٠ رجل من الكتيبة السودانية العاشرة و ٢٥٠ رجلاً من الكتيبة السودانية التاسعة وبطارية من أربعة مدافع كروب عيار (٦) سنمترات. وفي نفس الوقت عبر الخيالة للضفة الغربية. توجه شمالاً حتى إشكيت، وهناك جاءت رسالة مفادها أن العدو لم يقم بأي تحركات، وعاد لحلفا مساء نفس اليوم. وبعد بضع ساعات جاءت إفادة أخرى بأن العدو علي وشك التحرك، وأن هدفهم هو قرية أرقين. هذا وكان أهالي القرية والمنطقة المجاورة لها قد تم ترحيلهم إلى الضفة الشرقية في وقت سابق ليكونوا بآمن (من العدو).

يقع أقصى الطرف الجنوبي لهذه القرية علي بعد ثلاثة أميال شمال الطوابي المواجهة لحلفا على الضفة الغربية. وكان هذا الطرف محمياً ببلوكات متينة البناء تسيطر عليه سرية الهجاة الثانية ومجموعة من المشاة. ومن ذلك المكان تمتد القرية شمالاً لمسافة أربعة أميال ونصف وتشتمل على حزام كثيف من أشجار النخيل مع مجاميع مبعثرة من بيوت الطين المتناثرة على طول القرية. وفي أقصى شمالها كان هناك مبنى ضخيم واسع - هو منزل العمدة - تم إعادة تقويته منذ عهد قريب ليتحول إلى نقطة دفاعية قوية يحرسها ٢٥٠ رجلاً من الكتيبة السودانية التاسعة، بقيادة الملازم متفورد، ومعهم مدفعي مكنة.

وعلي بعد ميل جنوب هذه النقطة، اتخذت الكتيبة السودانية الثالثة عشرة، بقيادة الكابتن كمبستر، موقعاً حصيناً وسط مجموعة من المنازل المتفرقة، التي عملوا على تقويتها لتكون جاهزة للدفاع، أما زورق مدفعه (طماي). فكان راسياً على الجانب الجنوبي الأيمن من الشاطئ الرملي الأمامي، والذي يبعد بحوالي ٢٠٠ ياردة من الضفة.

وبالضفة الشرقية، وعلى مسافة قصيرة خلف آخر منازل قرية إشكيت توجد النقطة الحصينة لها والتي يحرسها فصيل من الكتيبة السابعة ومعهم مدفع واحد.

هكذا كان توزيع القوات التي أعدت للدفاع عن قرية أرقين، والتي أشرف عليها الكولونيل وود هاوس بهدف تقوية وتعزيز أي نقطة مهددة بطول هذا الخط، المبعثرة فيه القرى والمنازل، بما تبقى معه من طابوره الطائر والذي، كما نذكر، كان قد نظمه قبل فترة سابقة في حلفاء أبقي لديه لهذا الغرض أربعة سفن مدرعة أو زوارق مدفع، مسلحة كلها بمدافع كروب ومدافع مكنة، وهي المتممة وأبو طليح والقيب و طماي، مع عدد من المقطورات والصنادل إضافة إلى مراكب بلدية ضخمة ذات شراع، والتي إذا ما ربطت علي أي جانب من جوانب زوارق المدفع فأنها تكفي تماماً لنقل ثلاثة كتائب.

كان الطابور الطائر مكوناً كما يلي:

رئاسة أركان قوات الحدود الميدانية

سريتي خيالة (٢٠٠ رجل)

المدفعية: ٦ مدفع كروب ٦ سنتمتر وبطاريتي ميدان

٢ مدفع كروب ٨ سنتمتر و ٣ مدافع للحامية

سريتين للهجانة (١٢٠ رجل)

كل كتيبة تتكون من أربعة سرايا:

الكتيبة السودانية التاسعة (٥٢٠ رجل)

الكتيبة السودانية العاشرة (٥٢٠ رجل)

الكتيبة السودانية الثالثة عشر (٥٥٠ رجل)

الفرق الطبية (٣٢ رجل).

والجملة للطابور الطائر (السريع) ١٩٤٠ رجلاً

وبعودة إلى العدو وتحركاته، نجد أنه في اليوم الأول من يولييه، وبعد الغروب، أنحدر

تيار قوات النجمي كلها، من رجال ونساء وأطفال وخيول وجمال وحمير، متدفقاً من معتوقة في

اتجاه شمالي غربي، بالتفافه واسعة حول الصحراء.

قسم جيشه إلى أربعة أقسام غير متساوية. وكانت القيادة العليا للنجمي، مع عبد الحليم كنانبه في

القيادة وكالاتي:

القسم الأول كان يعرف بقسم النجمي ويتكون من ٢٤٠٠ من البقارة والجعليين

والشايقية والبطاحين والبنى حسين وقبائل أخرى، يقودهم حوالي خمسين أميراً ثانوياً.

القسم الثاني كان تحت قيادة إسماعيل حركة ويتكون في معظمه من البقارة العرب

وعدهم حوالي ٨٠٠ منهم أربعين أميراً ثانوياً. القسم الثالث بقيادة عبد الحليم ويضم ١٢٠٠ من

الجعليين والذناقلة والشايقية ورجلاً من قبائل أخرى ومعهم أربعة وعشرين أميراً.

القسم الرابع يقوده عثمان أزرقي ويتألف من ٦٠٠ من الذناقلة تحت ثمانية عشر أميراً.

بلغ جملة عدد الأمراء ١٤٠ أميراً معهم ١٦٠ راية* وبلغت جملة من بالحملة ٥٠٠٠

مقاتل وحوالي ٨٠٠٠ من الأتباع والعوائل (بخلاف الذين هربوا من معتوقة)، ومعظم هؤلاء من

زوجات وأطفال المقاتلين وعدد كبير من الذناقلة المتحمسين وغيرهم من الذين ساقهم الجيش معه

حينما مر بمنطقة.

كان مظهر ذلك الجيش أثناء تحركه مهيباً وكانت تحمي أجنابه ومؤخرته أطواف من

الفرسان والذين كان لهم دور مزدوج هو حمايتهم أولاً، ثم منع الفرار، أو التكاسل في المضى

قدماً، من البعض. كانوا يسرون قدماً أثناء الليل، مع راحة قصيرة، وشوهد العدو فجراً علي بعد

ميلين، بالصحراء، من الطواحي المعارضة لحلفاء وإلى الغرب منهم. وبعد ساعة من ذلك جاء بلاغ من

* للمزيد من التفاصيل أنظر للملحق في نهاية القسم الثاني عشر.

خور موسى بأن معتوقة قد أخلت تماماً منهم. وعند بلوغ تلك الإفادة الكولونيل وود هاوس، قام بتكرار عملية تنظيم جنوده، مثل ما فعل بالأمس، وعبرت الخيالة للضفة الغربية ثم توجه لأرقيين مع أركانه وينصف الكتيبة السودانية التاسعة، على ظهر (المنمة)، وقد صحبه الميجر دون وكتيبته السودانية العاشرة على ظهر (التيب). وعندما علم عندما كان بجنوب أرقيين بأن القوات المحمولة قد التحمت مع العدو قام بالإبحار حتى وازي وسط القرية وأنزل قواته ومدافعه على الضفة الشرقية بينما أرسل زوارق المدفعية للطواف أمام القرية وبقي هو في إنتظار تطورات الهجوم.

أثناء ذلك قام قسم من الفرسان بقيادة الملازم ببش بعبور النهر للضفة الغربية والتقى بمؤخرة العدو في الثامنة صباحاً ونجح في قطع الطريق على بعض التائهين أو الذين كانوا في طريقهم للنهر. لكنه عند ما وجد نفسه أمام قوة تفوقه كثيراً بجمالهم وخيولهم اضطر للتراجع وبعد قليل من ذلك تم تعزيزه بقوة من الهجاة ومن تبقي من الفرسان يقودهم الكابتن دننج. وواصل العدو تقدمه. وفي التاسعة صباحاً احتل الجبال الغربية لأرقيين، على بعد ٥٠٠٠ ياردة منها، وطرد منها فصيل الهجاة الثانية التي كانت تقوم بالإستطلاع من طابية أرقيين الجنوبية.

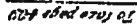
وقام الكابتن دننج وخيالته وهجاته، الذين كانوا يتابعون العدو، بتقوية هذه المحطة وتدعيمها. وبعد أن اتخذوا موقعا لهم في الوادي الذي يطل على جناح العدو أطلق زخات من الرصاص على عدة أقسام من العدو أثناء تحركه من وإلى الجزء الجنوبي من القرية.

إثناء ذلك، ومن موقع مسيطر بالضفة الشرقية، تأمل الكولونيل وود هاوس السلال والجبال المقابلة له في الجانب الآخر وشاهد العدو على بعد حوالي ثلاثة أميال يسيطر عليها تدريجياً ويغرز راياته في قمم السلال لتحديد مكاتهم، ثم شرع في الهبوط بأعداد كبيرة متوجهاً نحو الجزء الشمالي من القرية. فتحت المدفعية النار عليهم من الضفة الشرقية بينما تم إرسال الكتيبة السودانية العاشرة، بقيادة الميجر دون، ومعه الميجر هنتر، على زورق مدفع، لتعزيز النقاط التي كان يسيطر عليها الكابتن كمبستر والملازم منفورد.

كانت تلك النقاط محتلة من قبل بواسطة جماعات صغيرة من العدو، ولوقت قصير. وفي الساعة الثامنة والنصف صباحاً قامت ثلاثة جماعات منهم، برئاسة أمرائهم، ومعهم عدد كبير من البوارق، بالاقتراب لمسافة ١٠٠٠ ياردة من موقع الكابتن كمبستر والذي استقبلهم برشقات من الرصاص أدت إلى تفرقهم وتغطية أنفسهم خلف أخدود طويل يجري بميلان نحو الموقع، والذي قام رماتهم منه بصب نيران شديدة على الموقع. التقى الميجر دون، الذي وصل بتعزيزاته للجهة المقابلة لموقع الكابتن كمبستر، بعدد من رجال العدو المتجهين شمالاً في الطريق لمنزل العمدة. وقام فوراً بإتزال الكتيبة السودانية العاشرة على الشمال من تلك النقطة ورمى العدو بالنيران من على البعد، والذي بدأ في التراجع تحت ضغط نيران الكتيبة السودانية الثالثة عشرة. أما خيالتهم، والذين حاولوا الاستقاء أمام طابية إشكيت، فقد تم طردهم بنيران القذائف من ذلك الموقع.

July 2nd 1899
J. S. McKinnon
July 22nd 1899

Enemy's Position
High Hills overlooking River 2 1/2 miles from River



فشلت هذه المحاولة الأولى للعدو لإحتلال القرية بالقوة. ورغم ذلك فقد أفلح بعض العرب في بلوغ النهر بين موقعي كابتن كمبستر وطابية أرقين الجنوبية، وإحتلوا بعض المنازل علي ضفة النهر وفتحوا النيران علي سرايا الهجانة والفرسان والحقوا بهم أضراراً طفيفة.

كانت أوامر النجومي بعدم إحتلال القرية بالقوة قد نفذت، رغم أنه كان عاجزاً عن منع جماعات من رجاله من التوجه صوب النهر بعد مسيرتهم الليلية الطويلة. وبالتالي، وحتى هذه المرحلة، كان القتال يأخذ طابعاً متقطعاً ولم تجر أي محاولة للقيام بهجوم كبير. تمكن العدو من تحصين ذلك الجزء الذي إحتله من القرية وتقويته باستمرار. وعند الظهر تمكنوا من نصب أحد مدافعهم في موقع قرب النقطة الموضحة من الكروكي المرفق. وبعد أن أطلقوا إثنتي عشرة قذيفة علي مدفعية المصريين بالضفة الشرقية تم إسكات المدفع بواسطة الأخيرين. ثم قام الكولونيل وود هاوس بإرسال زورق مدفع بقيادة الكابتن نيسون ليطوف أمام موقع العدو ومحاولة طرده منه. ولكن وبعد ساعة من النيران العنيفة المتبادلة من كلا الطرفين إنسحبت السفينة حاملة الكابتن نيسون الذي أصيب إصابات بليغة واثنين آخرين من طواقم المدفعية الجرحى.

إثناء ذلك كان عبد الحليم يحث النجومي لإحتلال القرية بالقوة وأشار إلى أنهم بالفعل قد سيطروا على جزء منها، وأن من السهل تثبيت أقدامهم بقوة فيها. لكن النجومي كان كارهاً للعمل ضد تعليماته ورفض الموافقة علي رأيه. لكن عبد الحليم أصر علي رأيه، وكما قال البعض، فقد أمر بضرب النفارة إبدأناً بالهجوم.

قام بجمع رجال قسمه وأضاف إليهم جماعات من الأقسام الأخرى، ليوصل العدد إلى ٣٠٠٠ مقاتل معهم عشرين راية، وأنحدر مسرعاً داخل مجرى الخور حتى وصل لوسط القرية، بينما كان جناحه الأيسر محمياً برماة كانوا قد تمركزوا في مرتفع ناتئ، كان الكابتن كمبستر قد طردهم منه في المرحلة الأولى. أما جناحه الأيمن فقد غطي بنيران البنادق التي تنطلق من المنازل التي أحتلها رجاله بقوة وعزم. كانت النيران المطلقة من تلك المنازل شديدة التأثير للدرجة التي أرغمت فيها الهجانة والخيالة المصرية، والتي كانت حتى ذلك الوقت قد تمسكت بالموقع الذي إحتلته في باكورة اليوم، علي التراجع حيث إنسحبت الهجانة نحو الطابية الجنوبية بينما تراجع الخيالة للتلال الخلفية.

ولما لاحظ الكولونيل وودهاوس قوات العدو متدفقة باتجاه وسط القرية، أدار مدافعه باتجاههم ويطن بأنه ألحق بهم خسائر كبيرة. لكن العرب، بشجاعة وإقدام، واصلوا تدفقهم. وعندما إقتربوا من القرية انقسموا لثلاثة فرق: الفرقة الشمالية وجهت نحو موقع الكابتن كمبستر، والثانية إحتلت وسط القرية، أما الثالثة، والتي دخلت إلى البيوت التي إحتلت من قبل، فقد إندفعت جنوباً وهددت طابية أرقين الجنوبية.

ولم يخف تطور هذا الهجوم علي الكولونيل وود هاوس، فأرسل أوامره في الحال للميجر هنتر لإنزال الكتيبة السودانية العاشرة وتعزيز جنوب أرقين. وكان أول من وصل إلى طابية أرقين سريتان من تلك الكتيبة بقيادة الملازم فنويك، من علي الباخرة النيب. إذ ما أن هبطوا منها حتى

إتجهوا شمالاً لتطهير القرية وللإضمام للنصف الآخر من الكتبية، والذي كان تحت قيادة الميجر دون، مع أوامر بالتوجه للجزء الجنوبي للقرية من خلالها. وقبل أن يتقدم الملازم فنويك بعيداً، هوجم من جانب فرسان العدو الذين كانوا كامنين وراء منازل القرية وأجبروا سرايا الكتبية علي التقهقر نحو شاطئ النهر، بعد إنضمام عدد كبير من الحراية إليهم. إتخذت القوات مواقعها علي الشاطئ وقامت مدفعية الزورق بدعمهم بالنيران مما مكّنهم من الثبات في موقعهم أمام عدو وعوائق لا حصر لها. تمكّنوا من صد الهجوم الواحد تلو الآخر وتصرفوا بمنتهى الشجاعة حتى جاءتهم النجدة من سريتين من السودانية التاسعة بقيادة الكابتن لويس وهجّأت الكابتن دننج بعد أن ترجلت وأسّرت لنجدهم. تولى الميجر هنتر قيادة تلك المغارز وشرع في التقدم نحو العدو بعد أن وضع الكتبية العاشرة علي يمينه والهجّأت في الوسط والكتبية التاسعة علي يساره وشيئاً فشيئاً وبثبات تمكّن من طرد العرب رغم أن فرسانهم وحرايتهم قد هاجموه ثلاثة مرات بشجاعة نادرة. لكنهم قتلوا حتى آخر رجل. ولما رأي الميجر هنتر أن هناك عدة رايات مرفوعة في المقدمة، وأن الفرسان والخيالة المشتتين قد عادوا للتجمع إلى اليسار، اتخذ موقعاً في زاوية بعض المباني وبطريقة كانت فيها المنازل علي يمينه وخلفه. أما القوات والذين توجّهوا للأمام ولليسار فقد شكلوا مربعاً قوياً وضعوا في وسطه قواتهم الاحتياطية.

أثناء ذلك شاهد الكابتن كمبستر تدفق العدو نحو يساره، فاستمر في إطلاق النيران عليهم من المزاغل التي فتحها داخل البيوت الطينية ورد عليه العرب نفس النيران. وعلم من أحد الفارين من العدو بأنهم أحضروا مدفعاً نصبوه في موقع بضفة النهر علي مسافة قريبة منه، فأخذ مجموعة من أربعين جندياً، مع الملازمين كنفهام وجدج، وقرر أن يستولي عليه. لكنه إكتشف أن هناك منازل من أمامه، وزراعات غزيرة لشجيرات الخروج، وحفرة ساقية، كلها مكتظة بالأعداء المسيطرين عليها بقوة، وأن كافة الاحتمالات تشير إلى أنه أسترّج لكمين أعده ذلك الفار من العدو، فتقهقر إلى موقعه السابق بعد أن جرح سبعة من رجاله بمن الملازم كنفهام.

إثناء ذلك وصل الميجر دون لنقطة مقابلة لموقع كمبستر. وكانت إحدى سراياه قد توجّهت جنوباً مع شاطئ النهر. ولما رأي قسماً من الكتبية الثالثة عشر مشتبكة في مناوشات عنيفة أنزل سريته الأخرى (من السفينة) وجعل النهر علي يساره والسرية علي يمينه وأنحدر جنوباً وطهر كثيراً من البيوت التي تحصن بها العدو وواجه عدة هجمات من الحراية والذين أفلحوا مرة في طرده نحو الشاطئ لكنه لم شعث رجاله ولما شاهد مدفع العدو تقدم باتجاهه. وبعد إشتباك يدوي عنيف نجح في الإستيلاء عليه. لكنه وجد أن عدداً كبيراً من مقاتلي العدو علي يمينه فأسرع إلى السفينة وتوجه بها لقلعة أرقين الجنوبية حيث أنضم إلى قوات الميجر هنتر.

وكان الكولونيل وود هاوس قد وصل أثناء ذلك إلى الضفة الغربية وأمر بإرسال الميجر هنتر، مع سريتين من الكتبية التاسعة، لتطهير السهل علي جانبيه الأيسر. ونجح هنتر في ذلك رغم تعرضه لثلاثة مرات لهجمات الحراية والفرسان. وتمكّن من دفع العدو إلى الخور الذي كانوا قد جاءوا من خلاله. ظل خمسون أو ستون من العرب مسيطرين علي ثلاثة منازل متفرقة وتمت الإحاطة بهم لكنهم قاتلوا بعزم شديد حتى تم إحراقهم وقتلهم جميعاً.

وخلال تلك المعارك تم إستخدام الفرسان بفعالية وخاصة ضد جناح العدو الأيمن وكبدوا العدو بعض الخسائر أثناء تراجعهم.

في السادسة مساءً تم تطهير القرية تماماً من العدو بعد أن خلف وراءه حوالي ٩٠٠ من القتلى داخل وحول القرية بمن فيهم عدد كبير من فرسانه وتم أسر ٥٠٠ رجل وإمرأة وطفل والإستيلاء علي بضع ألوف من الرماح وإثنتي عشرة راية مع أسلحة من مختلف الأنواع والأوصاف.

ومن مشاهير الأمراء الذين قتلوا في تلك المناسبة الشيخ إدريس وعبد القادر جارو وألياس وود أبو بشارة. أما الأمراء عبد الحليم وعثمان أزرق وعدة أمراء آخرين فقد جرحوا. كانت خسائر المصريين أحد عشر قتيلاً وأربعة جرحى من الضباط وخمسة وخمسين جندياً جريحاً. ظل معسكر العدو أو الديم في مكانه بالجبال المطلّة علي أرقين. وقضت القوات المصرية الليلة في طابية أرقين الجنوبية أما الكابتن كمبستر والملازم متفورد فظلا في موقعيهما السابقين.

مرت الليلة بهدوء، وجاء مستسلماً عدد من الفارين من العدو. وعند الفجر، وبعد أن قام الفرسان باستطلاع مواقع العدو، لم يجدوا فيها تغييراً يذكر وقاموا بأسر عدد من التائهين. أما الكولونيل وود هاوس فقام باستعراض قواته من المشاة باتجاه الجبال. لكن العدو لم يظهر أمامه بأعداد كبيرة. وبعد ذلك بفترة تمكن الخيالة من إعتراض أربعين من العدو كانوا في طريقهم للنهر. وكانت تلك الجماعات المبعثرة تشتمل كثيراً علي الرجال والنساء والأطفال. تم الإبقاء علي حياة من استسلم وأرسلوا مع النساء والأطفال، في صنادل مقطورة وقوارب محلية شمالاً إلي كروسكو ومنها إلي أسوان (الشلال) حيث قدمت لهم العناية الطبية والمأوي وكل وسائل المعيشة.

وخلال النهار إتخذت الكتيبة السودانية العاشرة موقعاً لها وسط القرية في مواجهة الخور، والذي كان من المحتمل أن يحاول العدو الوصول للنهر ثانية من خلاله. وبالفعل شوهدت أعداد كبيرة من العدو ليلاً تحاول ذلك لكنهم تراجعوا بعد إطلاق النار عليهم.

خلال تلك الفترة دار نقاش عنيف في معسكر العرب بين عبد الرحمن أنجومي وعبد الحليم. فقد زار النجومي عبد الحليم الجريح ووبخه علي عصيانه لأوامره (ولكن عبد الحليم أصر علي أنه كان علي حق في كل ما قام به، وأن من غير المجدي الاحتفاظ بمثل تلك القوات في غياب الصحراء ومحلها، وأن السبيل الوحيد للنجاح هو تأمين طريق للنهر). واستمر الأمير عبد الحليم في إثبات حجة وقد برهنت تجربة أحداث الثاني من يونيه بأن القرى قد أخليت من سكانها وأنها تفتقد لأي نوع من المون، وأن القوات المصرية، بما لها من بواخر مسلحة ومواصلات نهريّة تستطيع إحتلال القرى قبل أن نتمكن نحن (العرب) من الوصول إليها*.

وبالنسبة لعبد الحليم، الجريح والحزين من عواقب فشل عملياته، فإن تنفيذ خطط النجومي بدت الآن مستحيلة. وحث زعيمه علي التفهق لمعتوقة ومنها إلى أقاليم المحس والسكوت الغنية، والتي فيها سيجدون ما يأكلونه من تمر علي أية حال، ومنها سيكتبون للخليفة ويخبرونه ألا طائل من محاولة غزو مصر بعدد غير كاف من الرجال، وإنعدام الطعام، والمصاعب التي لا حد لها للحصول علي الماء.

* من أقوال حسن أفندي حبشي، كبير كتاب الأمير عبد الحليم.

لكن النجومي لم يصغ لذلك الاقتراح، بل جمع كل قواته وخاطبهم بكلمات تثير المشاعر وأخبرهم بأنهم يخوضون حرباً مقدسة لتحقيق هدف مقدس، وأن الذين سيموتون في سبيل ذلك سيموتون كشهداء وبأنهم جميعاً يعظمون ما أعد للشهداء من نعيم في الجنة. ولم يحاول أن يخفي عليهم ما يحيط بهذا الأمر من مصاعب وخطرن وبأنه حتماً سينتهي بموت الذين سيصمدون على ولائهم حتى النهاية. ثم جرد سيفه من غمده وهزه ملوحاً به وأعلن بأنه حتى لو بقي وحيداً فإنه لن يتزعزع عن عزمه للمضي في هذا الأمر المقدس. وقال أنه قد يكون من بين أمرائنا من هو خائر العزم، واهن القلب، وأن إياهم العودة لمنزلهم يجللهم الخزي والعار أمام الله وسبيله. أما الذين يرون رأيه فعليهم البقاء حيث هم وسيقودهم، إن لم يكن للنصر، فحتماً إلى نعيم وسعادة دائمة في الآخرة.

كان حديثه ملهماً مليناً بالعزم والإصرار المتعصب، فهكذا كان الرجل. كان له قدرة عظيمة في السيطرة على رجاله لدرجة أن كثيراً من الذين نادوا قبل قليل بالرجوع، نهضوا قدماً أمامه ليقولوا له بأنهم مستعدون لمتابعة زعيمهم إلى النهاية وإلى الموت معه.

لكن حوالي ٥٠٠ من الذين وهنت قلوبهم عن الآخرين، عادوا إلى معنوقة ومنها جنوباً. وتقلصت قوة النجومي الآن، بعد أن فقدت (بالمعارك أو الفرار أو بالرجوع) أكثر من ألفي رجل. ومع ذلك أصبح من تبقى منهم على استعداد لمواصلة طريقه للشمال.

أثبتت تجربة أرقين بأن طابور الكولونيل وود هاوس الطائر لم يكن بالقوة الكافية لمواجهة كل قوات العدو. وبالتالي تحولت خطته إلى الإقتراب لدرجة التماس مع العدو، وإرهاقه باستمرار وهو يسير على خطاه حتى تصله التعزيزات الكافية من القاهرة وبعدها يمكنه إلحاق ضربة حاسمة به.

تم ترحيل أهالي القرى بالضفة الغربية، حتى توماس (٧٠ ميلاً شمالي حلفا)، بمؤنهم وممتلكاتهم إلى الضفة الشرقية وتمكن الكولونيل وود هاوس، بعد أن وزع قوارب مدفعيته أماماً وخلفاً ووسطاً من العدو المتحرك، أن يلم بكل تحركاتهم.

كان توزيع قوات الحدود في ذلك الوقت على النحو التالي تقريباً:

• في حلفا والمحطات المجاورة لها..... ٢٠٠٠ رجل

• النقاط الحدودية الأخرى، بما فيها كروسكو وأسوان ١٤٠٠ رجل

• الطابور الطائر ٢٠٠٠ رجل

• غير النظاميين بالمحطات الصحراوية ٦٠٠ رجل

الجملة لكافة القوات ٦٠٠٠ رجل

وعند مراجعة الوضع العام للقوات، لم يكن بالمستطاع تعزيز الطابور الطائر بسحب أي قوات من حاميات الحدود المختلفة. وعندما وصلت للقاهرة الأنباء المؤكدة لتقدم (النجومي) أرسلت الكتيبة المصرية الثانية لأسوان، وسرعان ما تبعها الكتيبة المصرية الأولى، وبطارية الخيول المصرية وبطارية البغال وسريتان للفرسان.

وفي الخامس من يولييه غادر السردار، الميجر جنرال سير جرنفل، بأركان حربه، القاهرة وتقرر أن يلحقه بأسرع ما يمكن لواء بريطاني، بقيادة البريقادير جنرال الشريف المبجل دي مونتور نسي، والمكون من سرية من الهوسار العشرين، ومفرزة من بطارية البغال وأخرى من المشاة الراكبة وكتيبتين من (حملة) البنادق الملكية الأيرلندية، والكتيبة الأولى من فوج ويلز.

ولما كانت كل الأشاعات تشير إلى بميان، علي بعد خمسة وعشرين ميلاً شمالي أسوان، علي أنها الهدف (الأول) للعدو، فقد تقرر للوهلة الأولى تركيز تلك التعزيزات في أسوان، ولكن، من الناحية الأخرى، فإن ثبت أن تقدم العدو كان أقل سرعة وأقل منعة مما كان يقدر من قبلن فيجب بالتالي تشكيل طابور طائر بأسرع ما يمكن في أسوان وانضمامه لطابور الكولونيل وود هاوس مما يمكن معه تحقيق مواجهة حاسمة في مكان وسيط بين حلفا وأسوان. ونظراً لتطور الأحداث فقد اعتمدت الخطة الأخيرة. وفي منتصف ليلة الرابع من يولييه شوهد معسكر العدو من أرقين والنيران تلتهمه وصباح اليوم التالي إكتشفت مجموعة للإستطلاع بان النجومي قد قدم معسكره ثلاثة أميال شمالا وعلي بعد ٣٠٠٠ ياردة من النهر. تبعاً لذلك تحرك الطابور الطائر شمالاً من أرقين بينما أرسلت الكتيبة السودانية العاشرة إلى سرا مواجهة العدو.

وفي السادس من يولييه شوهدت قوات العرب تسير في تشكيل كثيف، يمتد لحوالي ثلاثة أميال، وتندفع مسرعة شمالاً. باتجاه سرا، علي مسافة خمسة أميال عنها. وقام الكولونيل وود هاوس، بعد أن عزز الكتيبة العاشرة بالثلاثة عشرة السودانية، بمواصلة إبحاره في النهر، موازياً لخطي تقدم العدو.

خلافات كثيرة كانت تنشعب بين أقسام صغيرة من العدو، وإندانت خسائر العدو من جراء الهروب أو من نيران مدفعية الزوارق. توقفوا لقضاء الليلة في الجبال المجاورة لسرا وعادوا السير شمالاً صباح اليوم التالي. وبعد مسيرة خمسة أميال وصلوا إلى فرس وقام عدد من رماثهم، بعد أن إحتلوا الطابية القديمة المواجهة للطرف الشمالي لأندنان، بإطلاق نيران حامية علي زوارق المدفعية. وقام الكولونيل وود هاوس، بعد أن اتخذ موقعاً له بالضفة الشرقية، بإرسال جزء من قواته لقرية بلانة.

وصباح اليوم التالي (الثامن من يولييه) إكتشف وجود معسكر العدو خلف قرية فرس، وعلي بعد ١٥٠٠ ياردة من النهر. تم قصفه بفعالية لمدة ساعتين بالمدفعية المنصوبة بالضفة الشرقية وتواصل إطلاق النار المتقطع أثناء ذلك اليوم واليوم التالي. وفي صبيحة العاشر من الشهر شوهد العدو مرة أخرى متحركاً. وبعد أن قطع مسافة إثنى عشرة ميلاً، بدون توقف، إتخذوا موقعاً لهم بالجبال التي تبعد بميلين عن جنوب بلانة، وعلي بعد ٣٠٠٠ ياردة من النهر. كان طابور الكولونيل وود هاوس متجمعاً في ذلك الوقت في بلانة بينما توجهت الهجاة إلى توشكي لمراقبة أي أقسام متقدمة للعدو، الذي درج علي إرسال بعض قواته أمامه للبحث عن التمر، وفي نفس الوقت احتفظت القوات ببعض جماعاتها خلف العدو لقطع الطريق علي الشاردين.

وفي اليوم الذي تلى وصوله لبلادة، أرسل النجومي الخطاب التالي للحاج علي ود سعد، والذي كان يعمل مع مكين النور في إحضار التعزيزات له:-
بسم الله الرحمن الرحيم.....

من العبد لله، عبد الرحمن النجومي إلى صديقه وأخيه في الله ومعاونه العظيم الحاج علي سعد فرح.

بعد التحايا والتبريك، فيسرني أن أخبرك بأنني ورجالي في صحة طيبة وروح عالية. وصلنا بلادة بالأمس وإن شاء الله فسننوجه اليوم إلى توشكي ومنها إلى توماس*. معنويات كل رجالي مرتفعة وكلهم مستعدون لقتال العدو وتدميرهم، وهذا مما يسرك. فكلما شاهدنا العدو هاجمناه وهزمناه وطردناه. اللهم أنصر الأنصار ودمر أعداءهم. هناك بعض الذين هربوا، وربما ينشرون أخباراً كاذبة عنا. لذا أرجو منك عدم تصديقهم، فقد ساقهم إيمانهم الضعيف إلى هذا العمل الشائن. وعليك أن تثق في ثبات الأنصار وفي شجاعتهم. أقبض عليهم وقدهم بالسلاسل وأحضرهم لنا معك عند قدومك لنا. وهناك أربعة من الرجال يدعون علي أحمد والهادي حسن والمنصور الإمام وإبراهيم السيد كانوا قد فروا ليلة أمس وأخذوا معهم جمال العباس وأحمد عبد المكرم وآخرين. وأرجو منك بذل كل الجهد للقبض عليهم. مع خالص السلام

(إمضاء) وفق يا رحمن عبدك عبد الرحمن

وأثناء ذلك وصل السر دار إلى أسوان. وبعد أن أخذ فكرة عن الاتجاه العام للأحداث، فوض كامل الصلاحيات للكونونيل وود هاوس للتصرف حسب توجيهاته ولمواصله قيادته لطايريه الطائر وكل القوات بالجنوب، بينما أرسل الكونونيل كتشنر لتقرير وضع دفاعات بمبان وقدراتها ولمحاولة معرفة واكتشاف نوع العلاقات التي تربط الأهالي بقوات النجومي.

وصدرت إعلانات لسكان مديريات الحدود تحذرهم بأن أي خيانة منهم ستعاقب بالموت، وأن عليهم ألا يخشوا من قوات العدو والتي سترغم على الرجوع للسودان أو ستدمر. ووعدت الإعلانات بالتعويض عن أي خسائر تلحق بالمتلكات المدمرة، وحثتهم على تقديم كل مساعدة لقوات الحكومة لكن الأحداث التي تلت برهنت علي أنه، وباستثناء الشبهات القويّة التي تمس سكان بمبان، فإن ولاء الأهالي هناك كان مطلقاً وفي كل أنحاء المديرية. ومن الحقائق الجديرة بالذكر أنه، وخلال كل العمليات التي جرت، لم يقع أياً من القرويين في أيدي العدو، ولم يثبت أنهم تعاونوا أبداً مع الجيش الغازي. ولو كانت الأمور قد اختلفت في هذا الصدد لواجهت قوات الحكومة صعوبات لا مزيد عليها. وبذلك حرم النجومي، الذي أعتمد كثيراً علي الدعم المتوقع من القرويين، من واحد من أهم عناصر نجاح حملته.

* وجد في ميدان المعركة بتوشكي في الثالث من أغسطس ١٩٨٩.

* علي الضفة الغربية، شمال إيرييم بقليل

وفي الصحراء الشرقية سارت الأحداث سيراً مرضياً. ففي العاشر من يوليه عاد بشير بك من حيمور وأبلغ السردار بأن بحر كرار لا يزال على سلوكه غير العدواني، وأن القوات العربية التي هزمت في جبل ميسا، محاصرة الآن، في مكان ما بالقرب من مسرح المعركة، بواسطة البشاريين (العالياب والحرمان).

ثم جاء صالح بك من كروسكو وضغط للسماح له بتكوين قوة من رجاله غير النظاميين حتى يطرد حسن خليفة ومن معه من المرات، حيث كانوا لا يزالون محتفظين بمواقعهم إلا أن أعدادهم قد تقلصت كثيراً بسبب نقص الطعام، كما أن قد راتهم على شن الغارات قد نقصت كثيراً بسبب قلة عدد جمالهم التي تبقت بعد أن نحر منها عدد كبير لإنقاذ القوات من الجوع.

وفي الحدود، عادت الطمأنينة للأهالي الآن. وقد عزز وصول القوات البريطانية والمصرية يوماً لأسوان ثقتهم في أنفسهم، كما كان لوصول أعداد كبيرة من الأسرى، مرتدين جيب المهديّة، وقادمين من الجبهة، دليلاً قاطعاً أمام سكان المدينة المرتابين بأن أسلحة الحكومة هي المتفوقة.

وأثناء ذلك لم تترك حامية حلفا للهدوء. وكانت دورياتها تجوب المناطق المجاورة من كافة الاتجاهات وتعرض الهاربين أو ما يرسل من تعزيزات ومدد (للعنجوم). وفي الحادي عشر من يوليه نجح كوكي، شيخ الشلال الثاني المعروف، في إحضار مدفين جبليين من معتوقة، يبدو أن النجومي قد تخلى عنها في اللحظة الأخيرة لنقص وسائل نقلها معه. وفي ١٢ يوليه وصلت إلى سرس إمدادات جاء بها مكين النور وحاج علي ود سعد حيث أعلنوا بأن تعزيزات أخرى هي في الطريق. وبات الآن واضحاً أن النجومي لن يتقدم من بلادة حتى وصول مكين إليه، وعمل قمندان حلفا كل ما في وسعه بالتالي لمنع وصوله للنجومي.

وفي الثالث عشر من يوليه توجه السردار من أسوان لبلادة للتعرف على الوضع بنفسه وللتشاور مع الكولونيل وود هاوس. وعند وصوله يوم ١٥ يوليه قام باستطلاع لمواقع العدو، والتي لم تتغير عما عليه. لم تتم رؤية قوات العدو الكلية ولازال السؤال المحير، الذي لم يجد الإجابة، هو كم يبلغ عدد قوات النجومي؟ كانت اشتباكات متقطعة تدور يومياً وفيها تم أسر عدد من الملحقيين بالمعسكر من نساء وأطفال، وكانوا كلهم يعطون إفادات محزنة عن الأحوال في معسكر العرب.

كانت أعداد الجمال والخيول والحمير تتناقص بسرعة لأنها كانت تشكل الطعام الوحيد المتاح للغزاة، ويبدو أن مبدأ البقاء للأصلح هو الذي ساد، فقد كان نصيب الأسد يعطى للمقاتلين. أما الاتباع والملحقيين فكانوا يقتاتون بدقيق نوي البلج وبجمار النخل، والتي عندما تطحن فإن لها قيمة غذائية كما يقال. وتحول عدد كبير من أولئك النصحاء إلى حالة من المجاعة وصاروا يندفعون بأعداد كبيرة نحو شاطئ النهر حيث تتلقاهم الدوريات وزوارق المدفعية ويأخذوهم إلى معسكر المصريين حيث ينالون الرعاية والإعاشة، أما الجرحى فيؤخذون للمستشفيات. وقد بذل كل ما يمكن حقاً لإنقاذ حياتهم.

* (في الثلاثين من يوليه) كما جاء في الكتاب، وصحناده طبقاً لتسلسل الأحداث (العرب).

كان وضعهم، حقيقة، يائساً لدرجة أن السردار كتب رسالة للنجمي، أوصلها له في ثلاثة
إثنين من الرسل الموثوق بهم، في السادس عشر من يولييه. وفي نفس الوقت أرسلت نسخاً من
هذا الخطاب لكبار الأمراء. وجرى الخطاب كما يلي:

"أكتب هذا الخطاب يا ود النجمي لأفيدك بأنه عندما أخبرني قائد قواتي، وود هاوس
باشا، بما حدث، جنت بنفسي هنا لأري يعني ما يحدث. إن ورائي آلاف وآلاف من الجنود الإنجليز
والمصريين الذين هم في طريقهم الآن عبر النهر. وقد فكرت في إزالتك أنت ومن معك من على
وجه الأرض، لأنك سلبت ممتلكات الأهالي العاجزين وأخذت نساءهم وأطفالهم ودمرت بلادهم
وأراضيهم وسببت المجاعة والخراب في بلاد كانت من قبل سعيدة غنية راضية. فلتعلم إذن بأن
نيتنا كانت أن ندمرك تماماً. لكنني عندما حضرت هنا وجدت أنكم جماعة من البؤساء والضعفاء،
تموتون جوعاً وعطشاً.

إنني أعلم بأنك شخصياً ضحية للغيرة الدنيئة من جانب الخليفة المدعي الذي جاء بابن
أخيه يونس ليحتل وظيفتك السابقة ثم، ليتخلص منك ومن العرب الذين لا يثق فيهم أمرك للتوجه
لغزو مصر، وهي مهمة يستحيل قيامك بها إستحالة حجب ضياء الشمس من أن ينير الأرض. وهذا
ما يعلمه الخليفة المدعي، وتعلمه أنت. لكنك أعصي لإعتقادك بوجوب طاعتك لأوامره. وكنت تعلم
مسبقاً ألا طائل لمحاولتك هذه وكيف أنك بدلاً عن إحراز النصر عاتيت الجوع والعطش وتدهورت
قواتك وأصبحت الآن في أيدينا. إنك تبغي الوصول لبمبان لأنك تظن أن الأهالي هم أصدقاء لكم.
لكن بمبان تبعد بمئات الأميال عنك وبينك وبينها صحاري قاحلة لاماء فيها. وحتى لو تمكنت أبداً
من الوصول إليها فأنك ستواجه جيشاً من الإنجليز والمصريين جاهزاً لإستقبالك.

أما محاولة العودة من حيث أتيت في حكم المستحيل. لأن حاميات حلفا ستقطع طريق
عودتك. ولم يبق لك الآن إلا الموت جوعاً وعطشاً في الصحراء.

لكنني أكرر مرة أخرى بأنني شاهدت أحوالك المحزنة. ولتعلم بأن حكومتنا هي حكومة
إنسانية وأنها لا ترغب في موت النساء والأطفال العاجزين الذين معك. لذلك أدعوك للإستسلام
وتقديم أنفسكم (إلي) فإن فعلتم ذلك فإن حياتك وحياة أمراك وحياة كل من معكم ستوفر وهذا ما
أتعهد به لك وأعطيك كلمة شرف كجنرال إنجليزي. أما إذا رفضت الإستسلام فلتعلم بأنه سيتم
تدميركم تماماً. من هنا أرسل لك هذا الخطاب لتختار السبيل الذي تراه.

هداك الله لإتخاذ القرار.

ولترسل لي الرد مع حامله.

بلاحة في ١٦ يولييه ١٨٨٩*

إلى كل أمير:

أرسل لك نسخة من الخطاب الذي بعثت به لقائكم ود النجمي. عليك أن تحكم بنفسك
علي ما ستقوم به وليرشدك الله لإتخاذ القرار. فإذا أردت التسليم وإتقاذ حياتك وحياة من معك،

* جاء التاريخ في الكتاب (١٦ مايو)، وهذا خطأ واضح (المعرب).

فأرسل لي رداً مع حامله بأنك ستسلم. أما إذا لم تجب علي خطابي فسأفهم بأنك لا تريد التسليم وسيقع علي رأسك دم أولئك البائسين.

(إمضاء) ف. قرنفل، سردار

وفي اليوم التالي حضر بالرد أحد الرسل، أما الآخر فقد أرسل، مع خطاب السردار، إلى دنقلا وأم درمان. (وجاء رد النجومي كالآتي):

"بسم الله الرحيم القدير والصلاة علي سيدنا محمد وآله وأصحابه. من العبد لله، المتوكل علي الله، عبد الرحمن النجومي.

إلى السردار قرنفل باشا، هداه الله إلى الصواب، والسلام علي من إتبع الهدى، الذين يخافون الله، والخالية قلوبهم من الطمع للعالم والطموح.

نفيدكم بأن رسالتكم، التي تخبر فيها بوصولك، وبسبب حضورك إلى هنا، قد وصلت. وقد لاحظنا تكرارك اللانهاي لقناعاتك ومرادك، لذلك أفيدكم بأننا قد أرسلنا من قبل سيدنا لننشر الناس جميعاً ونعظمهم بمن فيهم المسلمين، ولندخلهم في رحمة الله وحمانيته في المهديّة، ولنحتل كل البلاد ونحول أماليها (إلى الدين).

ليس هدفنا الزحف إلي بمبان، كما ذكرت، لكننا نهدف إلى إستلام كامل البلاد، ويعون الله نحولهم للدين. لذلك فإن الذين يتركون الأمر لله، لنبيه صلي الله عليه وسلم ولخليفته عليه السلام، ويسلمون كافة أسلحتهم ونخاتهم فإن أموالهم وأبنائهم سيسلموا من كل أذى. وسيكون مالنا لهم وسيشاطرونا مصيرنا. أما الذين يرفضوننا ويتبعون أهواءهم وطموحاتهم ويصرون على المقاومة، فليعلموا بأن السيف هو الفيصل، وسيحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين. وليكن معلوماً لديك بأن خطاباتك المذكورة وتلك التي أرسلتها لأخواتي الثلاثة قد تم إرسالها بيد رسولك، عبد الهادي، إلى سيدنا يونس ومنها إلى سيدنا ووسيلتنا خليفة المهدي عليه السلام لمعلوميته وللإفادة. وإذا ما كان لدينا السلطة للرد على مثل تلك الخطابات لأرسلنا لك رداً شافياً.

وفيما يختص بما قلته حول جيوشك الكثيرة العدد واقتراب وصولها... الخ فإن هذا لا يخيفنا أبداً. إننا لا نخشى أحداً سوى الله ولا نخاف حتى من الثقلين (الجن والإنس).

وقبل هذا كنا نتشوق لفرصة قتالكم. ولأن الله قد أراحنا من طغيان حكامكم، فلستعلم بأننا مصرون علي حربكم وتدميركم ولن نترك منكم علي وجه الأرض أحداً لا يعتق ديننا

• احتفظ بهذا الرسول في السجن بأمر درمان لمدة شهر، وتمكن من الهرب قبل فترة قصيرة وعاد إلي القاهرة في يونيو ١٨٩٠. وقد قال بأنه عند وصوله لأمر درمان أسرعوا بإحضاره أمام الخليفة والذي أخذ رسائل بجد وإهتمام عن أحوال النجومي وقواته. رد عليه بأن جيوش الإنجليز والمصريين لا تعد ولا تحصى وأنه يعتقد بأن فرص النجومي في النجاح ضئيلة جداً ظهر الضيق والإنزعاج الشديد علي وجه الخليفة، وبعد عدة أيام أرسل إليه مرة أخرى وسأله معه إلى أستعراض لكل قواته بأمر درمان. وقد خاطب الخليفة المقاتلين المتجمعين بالعرضة وقال لهم: "هذا الرجل الواقف أمامكم الآن قد جاء من معسكر النجومي بمصر ويقول أن النجومي ورجاله بحالة طيبة ويتوفر لهم الطعام بكثرة، واللبن والزبد والسكر والصل وكل ما يحتاجون إليه". ثم إلتفت للرسول وسأله: - "أليس هذا صحيحاً؟" فرد عليه الرجل التمس مذهباً خوفاً من قطع رأسه وأجاب بالإيجاب لكن سرعان ما بلقتهم هزيمة النجومي في توشكي وصب الخليفة، الذي لم يعد قادراً علي حجب الحقيقة، جام غضبه علي الرجل وألقي به في السجن المزدحم وعذب عذاباً شديداً.

وينفذ أوامر الله. كن علي ثقة من هذا، ولا تخدعك كثرة جيوشك ومدافعك وقذائفك وبارودك، لأن الله ليس معكم.

يكفي أن رؤسائك غردون وهكس والآخرين قد تم تدميرهم، مع كثرة جيوشهم وأسلحتهم ومعداتهم. بالتالي فأنت إذا استسلمت لي وسلمت مدافعك وأسلحتك وتخائرتك فستتجو بحياتك وسيحل عليك سلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومهديه عليه السلام وخليفته بارك الله فيه. وسيكون مالنا لكم وستقا سمنا مصيرنا. وستعيش في سعادة ويسر، وإلا فسيكون هذا الخطاب شاهد عليك وعلي جريمته وسيكون دم من معك معلقاً في عنقك.

وما هو عائد إليك أحد رسلك، فضل المولي، مع هذا الخطاب. ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعليه توكلنا.

(ختم) وفق يا رحمن عبدك عبد الرحمن

١٨ ذو القعدة ١٣٠٦هـ

كان واضحاً طبيعة الرجل المتعصبة، وقد أفاد الرسول الذي عاد برسالة النجومي. بأن النجومي قد جمع أمراءه، وقرأ عليهم الخطاب ثم جرد سيفه وأعلن بأنه لن يسلم أبداً. سار أمراءه على نهجه وجرى مشهد صاخب وسادت أرجاء المعسكر صيحات احتجاج حادة ضد الاستسلام، وظهر عليهم جميعاً التشوق للقتال. ورغم كل هذه المظاهر، إلا أن النجومي لم يخفي سرّاً قناعته بأنهم سيموتون جميعاً كشهداء. كرر نفس ما قاله في أرقين، ويقال أن كثيراً من أمرائه كانوا سيقبلون عرض السردار بسرور لكن خوفهم من النجومي كان عظيماً لدرجة أن أحداً منهم لم يجرؤ على معارضة رغبته. والآن وبعد أن ضاعت آخر فرصة لهم للنجاة، انتظروا بغناد وصول التعزيزات التي طال إنتظارها، والتي ستكون إشارة التقدم لهم.

رجع الجنرال قرنفل لأسوان لإحضار الطوابير الشمالية والتي قرر الدفع بها لأعلى النهر بأسرع فرصة ممكنة.

أما الميجر جنرال، الشريف دورمر، القائد بمصر، فلم يضع وقتاً في إرسال القوات البريطانية من القاهرة. وشرعت المدفعية والفرسان والبنالق الملكية الأيرلندية في التحرك ووصلت أسوان في ٢٥ يولييه، بينما جاء الجنرال دي مونتورنسي، قائد الطابور البريطاني، بعدهما بيومين.

كان من المقرر أن يصل الطابور البريطاني إلى الجبهة قبل الضربة القاضية ولكن، وكما ستظهر الأحداث التالية، جاءت اللحظة المناسبة للضربة قبل وصول أي من القوات (البريطانية)، سوى الفرسان، لمسرح المعركة.

وكانت القوات المصرية قد وصلت كلها تقريباً، وتم تشكيل طابور مكون من مدفعية الخيول (قسم واحد) والخيالة الفرسان (سرية واحدة) ومدفعية الميدان (شعبة واحدة) ومدفعية الحامية (شعبة واحدة) والكتيبة المصرية الأولى المشاة والثانية المشاة والكتيبة السودانية الحادية عشرة مشاة* ومعهم كل فصائل الإدارة ووضعت كلها تحت قيادة الكولونيل كتشنر.

* هذه الكتيبة التي سحبت من سولكن وصلت للقصر يوم ١٦ وسارت على الأقدام من القصر حتى الأقصر (١٢٠ ميل) عبر الصحراء وذلك في زمن غير مسبوق قدره خمسة أيام ونصف يوم.

دفعت هذه القوات للأمام بأسرع وسيلة ممكنة. وفي ١٨ يوليه وصلت الكتيبة الثانية لتوشكي وبعد أن إحتلت القرية طردت منها مجموعة صغيرة متقدمة للعدو بعد اشتباك ضعيف. ثم شرعوا في تحصين تلك القرية الطويلة المنعزلة ووضعها في حالة دفاع. وفي اليوم التالي وصلت الكتيبة الأولى.

كانت الخيالة والمدفعية المصرية قد غادرت أسوان جنوباً في السادس عشر من الشهر، بعد أن سارت على طول الضفة الغربية. لكن طبيعة الأرض الوعرة أوجبت ترحيل المدافع بالسفن والبواخر.

في تلك الأثناء كان الكابتن لويس، في حلفاء، نشطاً في البحث عن مكين النور. وفي الثامن عشر من يوليه قام باستطلاع سريع حتى سرس، غطى فيها كل المسافة ذهاباً وإياباً، وقدرها حوالي ٦٨ ميل في يوم واحد. ووجد هنا مجموعة من الأكواخ، تسع لحوالي ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ رجل، لكنها كانت شبه خالية، ولكن تم إطلاق بضع رصاصات عليهم من الضفة الغربية. وعلى كل حال وصل مكين في نفس الوقت تقريباً الذي عادت فيه مجموعته لاستطلاع لويس. وبعد أن قام بتعدية النساء للضفة الشرقية، مع أمرهن بالبقاء هناك، توجه شمالاً بقواته المكونة من حوالي ٥٠٠ رجل و ١٠٠ جمل وبضع خيول. وفي الثاني والعشرين من الشهر شوهد بالقرب من جمى، على الضفة المقابلة، بواسطة الخيالة المصرية وشوهد عند المساء يستقي في معنوقة وبعدها أوغل في الصحراء، على بعد عشرة أميال من النهر، وتقدم بسرعة متجنباً كل الدوريات التي أرسلت لإعتراضه وإلتحق بالنجومي في بلاتة في الخامس والعشرين من الشهر، بعد أن قطع خمسة وأربعين ميلاً في ثلاثين ساعة.

وفي الثاني والعشرين من الشهر أفلح حسن أفندي حبشي، كبير كتبة عبد الحليم والموظف السابق لدي حكومة السودان، في الفرار وقدم للكلونيل وود هاوس أرقاماً دقيقة لقوات النجومي المقاتلة والتي كان قد حسبها بنفسه. كان عدد المقاتلين ٢٨٢١ رجلاً و ١٣٢ حصناً و ٢٠٠ جمل و ٣٠٩ بندقية بجانب حوالي ٤٠٠٠ من الأتباع. وجاءت إمدادات مكين لتضيف لعدد المقاتلين ليصل إلى ٣٣٠٠ مقاتل وبإضافة ٣٠٠ بندقية أخرى لهم. كانت هذه التعزيزات، التي طال الحديث عنها، ورغم قلتها، قد رفعت معنويات وطاقت قوات النجومي. وفي الثامن والعشرين من الشهر، بعد توقف دام ثمانية عشر يوماً، شرع الجيش في تقدمه للشمال من جديد. ووصلوا في نفس اليوم لمعسكرهم الجديد، الذي يبعد بميلين عن معبد أبو سمبل المشهور، بعد أن ساروا لعشرة أميال. واصلوا سيرهم في اليوم التالي، وفي أول أغسطس اتخذوا موقعاً لهم بالجبال التي تبعد بأربعة أميال جنوب توشكي. كانوا قد غطوا كل المسافة، ٣٥ ميلاً من بلاتة، في ثلاثة أيام توقفوا فيها لثلاثة مرات.

وفي ذلك الوقت تم وضع إعلانات في أماكن بارزة على ضفة النهر فحواها أن الأشخاص الذين يسلمون أنفسهم بدون مقاومة ستم معاملتهم معاملة حسنة وعليهم ألا يخشوا على أرواحهم.

وفور مباحرة النجومي لبلانة وإخلائها، قامت بعض القوات المصرية بزيارة مصكره المهجور وقد أعطوا وصفاً شنيعاً له. فلقد تخلف بالمصكر كل من عجز عن المضى قدماً مع النجومي سواء من جراء جروحهم أو مرضهم. تركوا تحت مظلات صغيرة بنيت بجريد النخل. ولو لا وصول النجدة المصرية لهم في الوقت المناسب لماتوا جميعاً. ثم ترحيلهم فوراً لمصكر (المصريين) وأدخلوا المستشفى. وجد بالمصكر أكثر من ٢٥٠ قبراً كما وجدوا عدداً من الجثث لم يتم دفنها. كان واضحاً أن القوات قد عانت من ضائقة خطيرة لدرجة أن عظام الحيوانات التي ذبحت تم طحنها واستخدامها كطعام. ووجدت بالمصكر أيضاً كميات من الأسلحة والسروج والطبول والخيام. وفي المكان التالي لتوقفهم (قوات النجومي) وجدت على الأرض أعداد كبيرة من دروع الزرد مبعثرة بها، وفيما بعد تم إكتشاف وجود مدفعين مدفونين تحت الرمال تخلوا عنها لعدم القدرة على نقلها معهم.

في تلك الأثناء كان طابور الكولونيل كنتشر يتجمع بسرعة في توشكي، بينما تجمع الطابور البريطاني في أسوان.

وفي ٢٦ يوليه غادر صالح بك كروسكو إلى المرات بعد صدور تعليمات له بطرد العرب منها، وترك حامية صغيرة هناك، ثم الرجوع فوراً بباقي قواته. وفي اليوم التالي (٢٧) جاءت أخبار مثيرة للقلق إلى بشير بك في أسوان، بأن قوات العرب في الصحراء الشرقية قد تم تدعيمها وأنهم بصدد التقدم نحو أبرق. وبعد مسيرة خمسة أيام من أسوان، تمكن بشير بك من وضع قوة صغيرة في محطة أبرق وترجي المسئولين للسماح له بتعزيزها بأربعمئة رجل من الجمالة. ولأن تهديداً بتحركات علي الجناح من جانب الصحراء، في هذا الوقت الحرج، قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، فقد تم الإذن بشير بك لتنفيذ مخططة. ومن ثم توجه للصحراء في اليوم التالي.

وفي التاسع والعشرين من يوليه توجه الجنرال قرنفل من أسوان إلى توشكي ووصلها في الحادي والثلاثين من الشهر، وجاءت معه سرية من الخيالة البريطانية. أثناء ذلك كانت القوات المصرية المحمولة، بقيادة الملازم داقويلار تتحرك على الضفة الغربية (نحو الجنوب). وفي الثلاثين من يوليه، وعندما كانوا على بعد خمسة عشر ميلاً من توشكي، وصلتهم معلومات بأن مجموعة متقدمة من قوات العدو موجودة على التلال المطلة على قرية غنيبة. دارت مراشقات متقطعة بالنيران خلال الليل. وصباح اليوم التالي قام الملازم داقويلار، بعد أن أخذ معه مجموعتين من القوات، ونصف سرية من السودانية الحادية عشرة وأربعين رجلاً من بطارية الخيول وبضع رجال من إدارة الرق، بالتقدم نحو التلال. ولما أكتشف مجموعة من ١٥٠ رجلاً من العدو عليها فتح عليهم النار. كان العرب قد اتخذوا مواقعهم بين جبلين لكن القوات المصرية تمكنت من الإحاطة بهم ومهاجمتهم ودار صدام عنيف قتل فيه سبعون من العرب وأحد أمراء البقارة المهمين، وهو الأمير ود حامد. أما الباقون، الذين قطع طريق تراجعهم كتل ضخمة من الصخور، سددت

* أرسلت لدعاه من توشكي.

** تم تكوين هذه الإدارة (مصلحة الرقيق) بعد عقد معاهدة تجارة الرقيق بين بريطانيا العظمى ومصر عام ١٨٧٧. وهي تحت إشراف وزارة الداخلية، ولها قواتها الخاصة من رجال البوليس.

المسافة بين التلال، فقد إستسلموا. لم تتجاوز خسائر المصريين في ذلك الاشتباك ثلاثة قتلى وستة جنود وضابطين جرحي.

أستؤنف السير بعد ذلك ودار اشتباك قصير آخر في قرية مسمس، ووصلت القوات إلى توشكي في الأول من أغسطس حيث كانت كل قوات الكولونيل وود هاوس قد تجمعت هناك وتم تحويل كل تلك القرية الطويلة إلى حالة دفاع.

احتل الطابور الأول الطرف الشمالي للقرية، والطابور الثاني الطرف الجنوبي. أما الخيالة المصرية وسرية الهجاة فقد استقرتا في حوش ضخم بالقرب من وسط القرية. أما منزل العمدة فكانت به الخيالة البريطانية.

وانصبت الجهود الآن للإسراع بإحضار القوات البريطانية، والتي أبلغ الجنرال دي مونتمورنسي بأنهم سيكونون قد غادروا أسوان جميعهم قبل الرابع من الشهر. تحرك نصف الفوج الملكي الأيرلندي في الأول (من الشهر) وبعد يومين تحرك ذلك الجنرال وأركان حربيه (نحو توشكي). وباستثناء اللواء البريطاني، فإن قوات النيل الميدانية تجمعت الآن في توشكي تحت إمرة القائد الأعلى الجنرال قرنفل يساعد رئيس أركانه اللفتانت كولونيل سيتل*.

ويوم الجمعة الثاني من أغسطس قام السر دار باستطلاع وصل فيه إلى مسافة قريبة من موقع العدو، والذي شاهده الضباط بوضوح من على تلة مرتفعة مطلة على معسكرهم. شوهد العرب وهم في إصطفافهم المعتاد للصلاة، بينما أدلى بعض القاريين بإفادة مؤداها أن النجومي قد أنتوي مواصلة زحفه شمالاً في اليوم التالي.

وطبقاً لتلك المعلومة، وبالنظر إلى حقيقة أن الأرض التي علي النجومي أن يعبرها عقب مغادرة معسكره الحالي كانت مناسبة تماماً لتحركات القوات الحكومية، أما ما بعدها إلى الشمال فإن طبيعة الأرض وعرة لحد كبير مما يلائم تكتيكات العدو المعروفة تماماً. من هنا قرر الجنرال قرنفل أن يحاول إيقاف تقدم العدو، وإذا أمكن إرغامه على البقاء في مكانه الحالي، حتى وصول الطابور البريطاني، ليقوم بتوجيه الضربة القاضية عليه. وبالتالي أمر بقيام كل القوات المحمولة الموجودة** بقيادة الكولونيل كتشنر، بدوريات كثيفة صباح يوم غد الثالث من أغسطس الباكر، وأن يتوجهوا نحو معسكر العدو، ويظهرون من أمامه جبهة متناهية في عرضها، حتى يدفعوه إلى تأخير تقدمه.

من الضروري هنا إعطاء وصف موجز للمنطقة وما يحيط بها. فعلي بعد أربعة أميال جنوب توشكي توجد سلسلة من الجبال الجرايتية تمتد من النهر باتجاه غربي لحوالي ثلاثة أميال. وفي قلب النهاية القصوى لهذه السلسلة، وإلى الجنوب منها، وضع النجومي معسكره.

* للتفاصيل أنظر الملحق بنهاية هذا القسم.

** مكونة من سرية الهوسار العشرين، بقيادة اللفتانت كولونيل إيرون، وثلاثة سرايا للخيالة المصرية، بقيادة المسارم بيتش، وفرقة هجاة بقيادة الكابتن دنتج.

وتختلف قرية توشكي قليلاً عن بقية القرى المعتادة على الضفة الغربية. فمثل أرقسين، فإنها تشتمل على مجموعات من البيوت المتلاصقة المبعثرة بطول ثلاثة أميال وسط حقول مزروعة تنتثر فيها هنا وهناك أشجار النخيل، بينما تمتد الزراعات لحوالي ١٢٠٠ ياردة من ورائها. ثم تبدأ الكثبان الرملية المعتادة والتي تنحدر تدريجياً حتى الصحراء الوعرة. ومن هنا يبدأ سهل واسع متموج يمتد بعيداً ومحاط من ناحيته الشماليه الغربية، على بعد ستة أميال من النهر، بسلسلة من الجبال الجرانيتية المرتفعة، بينما ترتفع سلسلة أخرى مماثلة بالطرف الجنوبي الغربي. والجنوب محاط بالتلال المشار إليها، والتي يقع وراءها معسكر النجومي. أما إلى الشمال فتوجد الأراضي المليئة بالحجارة والتلال المتكسرة والتي تمتد، وهي تزداد وعورة وتكسراً، حتى مرتفعات إبريم.

تعرض هذا السهل هنا وهناك التلال وصخور ذات أشكال عجيبة وجلاميد، بعضها يرتفع لعلو كبير مما يوفر غطاءً كافياً لإخفاء أعداد كبيرة من الرجال. وعبر ذلك السهل اندفعت صباح الثالث من أغسطس القوات البريطانية والمصرية المحمولة بسرعة. وعندما أصبحت على بعد ميل من معسكر العدو تم أسر عدد قليل من الجمالة والذين أبلغوا (عند استجوابهم) بأن النجومي على وشك التقدم بقواته للشمال. فقام الجنرال قرنفل، الذي كان قد رافق هذه الدورية الضخمة، بالذهاب بسرعة نحو سفح الجبال. ومن هناك، وخلال ممر ضيق، أمكنه التمعن بوضوح في معسكر العدو الذي يبعد عنه بحوالي ١٥٠٠ ياردة. كانت الساعة السابعة إلا ربعاً صباحاً وكان المعسكر يضحج بالحركة وتم رفع الأمتعة والمعدات على الجمال واتخذت كل الترتيبات للتقدم فوراً. شوهدت الدورية. وقام بعض العرب من حملة البنادق، بعد أن تقدموا نحوهم بتشكيل القتال، بفتح نيران قوية على الخيالة. تم الرد على النيران بواسطة جنود الهجاة، بعد ما ترجلوا واتخذوا موقفاً لهم على تلة مناسبة ورموا العدو برشقات متصلة من الرصاص أثناء تقدمه نحوهم.

قام الهجاة بالتخلي عن هذا الموقع، وقامت القوات المحمولة بالنتهقر شمالاً لموقع آخر واصلوا منه إطلاق النار على العدو، والذي لم يهن بل واصل تقدمه نحوهم بأعداد متزايدة باستمرار. أسرع الجنرال قرنفل بإرسال الميجر رندل لإحضار مدفعي بطارية الخيول.

وكانت قوات الهجاة والفرسان المترجلين قد احتلوا موقعاً ثالثاً، على بعد ٩٠٠ ياردة إلى الشمال. كان الموقع عبارة عن تلة منعزلة أمامها سهل فسيح يمتد حتى طريق تقدم العدو. وأخذت القوات به تطلق نيراناً متصلة على رماة العدو. تم إرسال الكولونيل وود هاوس إلى توشكي ومعه أوامر بإحضار لواء المشاة الأول المكون من الكتائب السودانية التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة - ومجموعهم ١٤٥٠ جندياً. وحوالي الثامنة والنصف صباحاً انحدر سيل من حملة حراب العدو، ومعهم عدد لا يحصى من الرايات، من خلال واديين ضيقين في سلسلة الجبال الواقعة شمال معسكرهم وتقدموا بعزم نحو الموقع، بعد أن سبقهم صف طويل من حملة البنادق البذين واصلوا إطلاق نيران حامية لكنها غير دقيقة التصويب.

ومن وراء حملة الحراب جاءت جماعات كثيفة من الأتباع، نساءً ورجالاً وأطفالاً وجمالاً وأمتعة وغيرها.

وإندفعت كل قوات العدو مسرعة في تقدمها وكان من الضروري قيام الجنود بالمزيد من الانسحابات أمامها، وقام العدو بعد عشرة دقائق باحتلال ثلثهم التي هجروها. اتخذ الجنود موقعاً جديداً لهم في سفح جبل مخروطي الشكل، يبعد بميلين من قرية توشكي في الوقت الذي وصلت فيه إليهم القوات المحمولة ومعها المدفعين.

وفي التاسعة صباحاً فتحت المدافع نيرانها، وتحول اتجاه العدو نحو الشمال غربي، مكوناً طابوراً ضخماً زاحفاً بينما حمت أجنحتهم المكشوفة جماعات من حملة البنادق.

تقدم هذا الطابور بانتظام للأمام، على بعد ٢٠٠٠ ياردة وجاء بعيداً وراءه الأعداد الضخمة للاتباع وجمال الحمل، متجهين كلهم نحو الشمال الغربي حيث أخنفوا عن الأنظار خلف التلال التي تتخلله.

بدا واضحاً أن النجومي لم ينو القتال، بل كان مندفعاً في طريقه للأرض الوعرة المتكسرة بالشمال، وبهذا أضاع على القوات ما هدفت إليه بعملية الإستطلاع التي قامت بها. ولو تم السماح لهم بتنفيذ هذا المخطط، وفي وجه القوات المتجمعة في توشكي، لفسر العرب ذلك بأنه نصر لهم، إضافة لتسببه في صعوبة القيام بالضربة القاضية في أرض غير مناسبة. من ثم قام الجنرال قرنفل، بعد أن ألقي نظرة سريعة على الوضع، باتخاذ قرار بإيقاف تقدم العدو، حتى لو أدى ذلك إلى مواجهة دموية تتم علي بعد خمسة أميال من النهر وبوسائل نقل غير مكتملة، وبدون إستعدادات طبية تذكر لمقابلة الحالات الحرجة، وبرزت الأحداث اللاحقة علي صحة القرار الذي أتخذه.

من موقعه هذا أمر بسرعة إحضار اللواء الثاني من توشكي، والمكون من الكتيبة المصرية الأولى بقيادة الكابتن كولس، والكتيبة الثانية بقيادة الميجر شكسبير والسودانية الحادية عشرة بقيادة الكابتن ماكدونالد، بينما قام الملازم غردون بإحضار بطاريتي الميدان الأولى والثانية (ستة مدافع).

وبينما واصلت المدافع إطلاق قذائفها على مقدمة العرب الزاحفين، صدرت الأوامر للكلونيل كتشنر للقيام بالتفافه وإسعة إلى الشمال بقواته المحمولة وأن يحاول إيقاف تقدم العدو. وبعد اتخاذ الكلونيل كتشنر لعدة مواقع على اليمين تمكن من تحقيق هدفه، وتوقفت مقدمة العرب عن مواصلة سيرها.

وبعودة إلى ما يدور في قوات النجومي، نجد أنه، وطبقاً لتعليماته الصادرة، لم ينزعج أبداً بوصول الطابور الشمالي إلى توشكي، والذي كان علي علم تام به، بل صمم علي مواصلة تقدمه. وعندما شاهد في الصباح الباكر القوات البريطانية والمصرية المحمولة، قال لمن حوله: "فلنقف جميعنا علي إستعداد للقاء خالقنا اليوم".

* كما ننذكر، فإن الطوابير المصرية المشتركة كانت قد وصلت للتو إلى توشكي. ورغم أن خطة العمليات كانت تستعمل على ضرورة توفير وسائل النقل والترحيل، لخوض قتال بعيد عن النهر، إلا أن تجميع الجمال لهذا الغرض، في توشكي، لم يكن قد تم حتى الثالث من أغسطس.

* من أقوال عدد من الأمراء الذين تم أسرهم وإستجوابهم.

كان التراجع المستمر للقوات من أمامه قد ألهمه الثقة في نفسه، وصار يعتقد بأنه، على الأقل في ذلك اليوم، قد تجنب المعركة المرتقبة، إلى أن فتحت المدافع نيرانها عليه. وجد أن طريق تقدمه نحو الشمال قد سد. وفي كلمات أمرائه: كانت كل قمة جبل، في اتجاه تقدمه، مجللة بهجاة وخيالة العدو". قرر أنه لا بد له من خوض المعركة، وبالتالي شرع لإتخاذ أفضل المواقع التي تتيحها له طبيعة الأرض. رأي علي بعد ٨٠٠ ياردة غرباً أربعة تلال منعزلة فوق الأرض المرتفعة ولاحظ أن القوات المحمولة قد إحتلتها، فانتهاز هذه الفرصة وقام، تحت غطاء من مقاتليه حملة البنادق، بتوزيع مقاتليه علي النحو التالي:

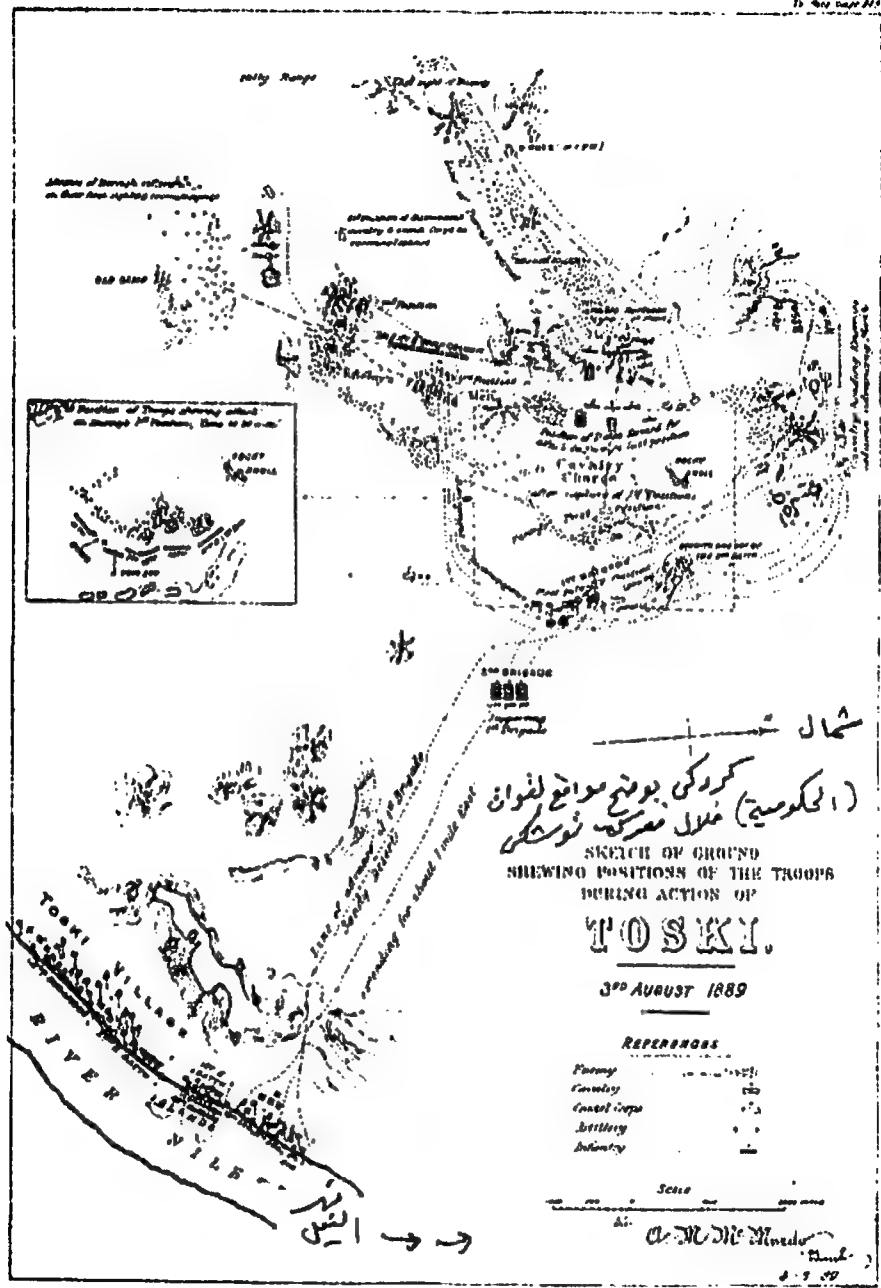
"أن يقوم عبد الحليم ورجاله بالسيطرة على التل الأيسر ويسيطر على ما حول الموقع، وأن يقسم التل الأيمن والأوسط كل من عثمان أزيق وإسماعيل حركة بقواتهما وقوات النجومي". إمتلأت قمم الجبال الآن بالرايات المغروزة وبحملة البنادق الذين اصطفوا فوقها. أما حملة الحراب فقد أمروا بالاختفاء عن الأنظار إلى أن يصلهم الأمر بالهجوم. ثم رجع النجومي إلى التلال التي تبعد بحوالي ١٨٠٠ ياردة إلى الخلف، وغرز رايته فوق هضبة صخرية وظل هو وحرسه الشخصي يستعد لإدارة العمليات. كان الأتباع وطابور الأمتعة قد وجدوا مكاناً مؤقتاً على التلال المرتفعة التي تطل على موقعه. وتجمع هناك أتباعه العديدين (والخدم والنساء والأطفال) علي إستعداد للاضمام لخطوط القتال إذا ما كتب له الظفر أو لتأمين خط الرجعة لهم إذا ما انسحب المقاتلون.

وفي تلك الأثناء، وبينما كان النجومي يعمل علي توزيع مقاتليه على مختلف المواقع التي حددها، قام لواء المشاة الأول، بقيادة الميجر هنتر، تحت غطاء من الأرض المرتفعة وبدون أن يراه العدو، بالمضي في مؤخرة القوات المحمولة، وفي الساعة العاشرة صباحاً إستولى علي موقع صخري يبلغ طوله ١٥٠٠ ياردة ويواجه مباشرة، علي بعد ٨٠٠ ياردة، للجبال التي تعج الآن برايات العرب وبحملة بنادقهم.

تلك القوات كانت موزعة كما يلي: التاسعة بقيادة الميجر للويد علي اليمين، والعاشرة تحت قيادة الميجر دون في الوسط، والثالثة عشر بقيادة الكابتن كمبستر إلى اليسار. أما المدفعية التي جمعت تحت إمرة الميجر رندل فقد إحتلت الممر الضيق بين التاسعة والعاشرة. وقامت القوات المحمولة بدعم الجناح الأيمن للمشاة، بينما قام لواء المشاة الثاني، الذي وصل بعد ذلك بقليل، بالإنتظار لدعم الجانب الجنوبي الأيسر للموقع.

ثم فتحت النار، بطول الخطوط، في وابل من الرصاص المنهمر والذي استمر لحوالي نصف ساعة. وفي نفس الوقت كان بعض العرب، المختبئين في مرتفعات أحد التلال المخروطة الشكل علي الناحية اليمنى، يصبون نيراناً منهكة من كافة أسلحتهم، ولم يتم طردهم وقتلهم بواسطة الخيالة إلا بعد أن ألحقوا خسائر بالقوات المصرية.

عندما وصلت التعليمات للواء المشاة بتوشكي للتقدم فوراً، كانوا قد صرفوا لنوهم من طابور الصباح وإستعدوا لتناول طعام الإفطار. وبعد عشرة دقائق من وصول الأمر لهم كانوا قد شرعوا في التحرك دون الطار، حاملين معهم زجاجات صغيرة للماء، وحمل كل جندي ١٠٠ طلقة ذخيرة معه.



وحتى ذلك الوقت لم تكن القوات قد تأكدت مما كان يخبئه العدو من مقاتليه خلف التلال. وتم توجيه الكولونيل وود هاوس، الذي كان يقود الآن أقسام المشاة، بإطالة ومد خطوطه ناحية اليمين لتطهير جناح العدو الأسير. وعندما تقدم يميناً بنحو خمسمائة ياردة، وكاد يتداخل مع موقع العدو الأسير، شاهد المجدد للويد عدداً كبيراً من قوات العدو على وشك الهجوم، خارجين من وراء أحد التلال، فأوقف كتيبته وعززها بقواته الاحتياطية وأطلق وأبلاً من الرصاص على العرب والذين اندفعوا، وهم يصيحون صيحات وحشية، خارجين من مخبئهم نحوهم.

واجههم الجنود بثبات عظيم وحصدوهم حصداً. وإضطر العرب، رغم هجومهم بغاية العزم والتصميم، إلى التراجع تاركين على جانب الجبل مائة وخمسين من قتلاهم ثم تقدمت الكتيبة التاسعة، وتعززت بسرية من الكتيبة المصرية الثانية بقيادة الكابتن مارتير، واستولت على الجبل الأول مكبدة مزيداً من الخسائر للعدو والذي حاول، مراراً وتكراراً، الهجوم في مجموعات تحت غطاء من دخان المعركة. تعرضت تلك القوات، إنشاءً إنتظارها لما يسفر عنه هجوم المشاة، لنيران حامية من التلال المجاورة.

ولما تبقن الجنرال قرنفل من صد هجوم العرب بواسطة الكتيبة التاسعة، أمر علي الفور كل الخطوط للتقدم نحو موقع العدو، والذي كانت المدفعية تقصفه الآن بفعالية كبيرة. وعندما وصلوا مقابل وسط المعسكر حاولت أعداد كبيرة من العدو، صائحة وملوحة بأعلامها وراياتها، الهجوم عليهم لكنهم ووجهوا برصاص الكتيبة العاشرة، والتي أفلحت، ومعها الكتيبة التاسعة، في احتلال الممر الرملي الذي يربط بين الجبلين ومنه واصلوا ضرب العدو الذي كان لا يزال متجمعاً خلف الموقع الأوسط.

إنشاءً ذلك شاهد الجنرال قرنفل، من علي قمة الجبل الأول الذي تم احتلاله، الكتيبة الثالثة عشرة، والتي كان واضحاً أنه قد تم صدها أمام التل المنعزل على أقصى اليسار، فأصدر أمره باجتياح الجبل في الحال. كانت هذه الكتيبة، والمعززة بالكتيبة الأولى من اليسار، قد تكبدت خسائر فادحة من نيران العدو المنصبة عليهم من عدد من حملة بنادقهم، المختبئين خلف أرض مرتفعة، وفقدت في بضع دقائق حوالي سبعين من القتلى والجرحى. لكن قائدهما الميجر هنتر وقائدي الكتيبتين الشجعان الكباتن كمبستر وكولز تمكنوا من التحكم في الوضع وما لبثت الكتيبتان أن تمكنتا من (رد) الهجوم والإستيلاء على الجبل بعد اشتباك عنيف بالأيدي، والذي جرح فيه الميجر هنتر بطعنة من حربة في ذراعه.

وعند استلام قمة التل، هجمت عليهم مرة أخرى مجموعة من العدو، الذي كان قد تجمع علي الجانب الآخر البعيد، هجمة بالغة الشجاعة والتصميم. وحاولوا لثلاثة مرات إستعادة موقعهم المفقود حتى أن أجز رجل تبقى منهم، حاملاً رأيته وحربته، إندفع نحوهم حتى قمة التل تقريباً ليسقط ممزقاً بالرصاص علي بعد خطوات من المصريين.

تم هنا الإستيلاء علي أكثر من ثلاثين راية ولم يتبق للعدو سوى جبل واحد لازال محتفظاً به. كانت الكتيبتان التاسعة والعاشرة قد أوشكتا على الإحاطة به، بينما إستدارت الكتيبة الثالثة

عشرة نحو اليمين وأكملت عملية الإحاطة التامة بهم. إستدارت الكتيبة الثالثة عشرة نحو اليمين وأكملت عملية الأحاطة التامة بهم. وبصیحات التهليل والفرح الوحشي إندفعت الكتائب نحو الجبل علي أسة السناكي وأخرجوا العرب منه بعد أن كبوده خسائر مریعة وأستولوا علی خمسة وسبعین رایة منه.

وخلال تلك العملية والعمليات السابقة كانت الكتیبتان الثانية والحادية عشرة، ومن أقصي اليسار، قد أسهمتاً بفعالية في إحتلال مواقع العدو عن طريق إطلاقهم لنيران شديدة علي أجنحة العدو، المختفي وراء الصخور، حماية لنفسه من الهجوم الأمامي. وفي هذا المكان أصيب الملازم كوتون، من الكتيبة السودانية الحادية عشرة، بجراح خطيرة بعد أن أصابته قذيفة في صدره. عملت المدفعية في نفس الوقت من الجناح الأيسر وكانت تقذف موقع العدو من مسافة ٦٠٠ ياردة. وفي اللحظات التي سبقت الإستيلاء علي الموقع بدأ المدفعان ببطارية الخيول، بعد أن توجهت راکضة نحو الجبهة، بقصف العدو المتراجع من مسافة قريبة. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف كان الموقع الأول قد أستلم، وتدفقت جموع العدو منسحبة نحو الجبال، والتي يقع وراءها معسكرهم المؤقت.

وفي هذا الوقت شوهد راكب وحيد يركض بجواده نحو العدو المشتت، في محاولة واضحة لإستنفارهم. وأوضح أحد الأسرى للسر دار بأن ذلك الفارس هو النجومي. صدرت الأوامر علي الفور للخیالة، والذين كانوا أثناء إقتحام الموقع الأول قد تجمعوا خلف المشاة، للهجوم عليهم. قادت السريتان المصريتان الهجوم وتبعها الهوسار العشرين، وإلتفوا حول العدو المتراجع وهزموه بينما كانت جماعات الهجاة تطلق علي جناح العدو النار من مسافة قريبة. وسرعان ما لم يتبق عربي بالميدان، فالذين فروا من الخیالة لجأوا إلى موقع ثان بالجبال. وحتى النجومي نفسه، ورغم أن جواده قد أصيب، وأنه كان قد جرح جراحاً شديدة مرة أخرى، فقد تمكن من بلوغ الجبال.

وأمر السردار الآن (الظهيرة) بتقديم شامل نحو موقع العدو الثاني والذي كان من المعتقد أنه سيتم الدفاع عنه بقوة. قامت الكتيبة السودانية الحادية عشرة، مع الكتیبتين الأولى والثانية، بقيادة الهجوم وسط ضربات الطبول ونفخ الأبواق، وبدعم من اللواء الأول. قامت المدفعية أثناء ذلك بقصف الموقع، بينما واكبت الفرق المحمولة، من اليمين، ذلك التقدم الشامل.

وخلال قصف المدفعية للموقع الثاني، نجحت إحدى القذائف المصوبة بدقة في إسقاط رایة كبيرة، عرف فيما بعد بأنها رایة النجومي. ومن المحتمل أن تكون تلك القذيفة التي حطمت عود الراية قد جرحت النجومي أيضاً.

لم تتم إلا مقاومة بسيطة عند إحتلال القمم. وكان العدو في حالة من التراجع العام بينما سقط معسكرهم، الذي كان علي الأرض المنخفضة التي إلى الخلف، في أيدي القوات المصرية.

* ذكر أحد لقارب النجومي ممن أسروا في توشكي بأن النجومي كان قد جرح جرحاً خفيفاً في المرحلة الأولى للقتال. وعند سقوط الموقع الأول جاء أحد أمرائه، الذي نجا من المنبحة، وأندفع نحوه بنفس متقطع وصاح في النجومي بأن كل شيء قد انتهى وأن عليه أن يهرب. وبدلاً من أن يصفي إليه فقد امتطى جواده وتدفق نحو السهل، كما تم ببانه من قبل، وحاول بدون طائل إستنفار رجاله.

وهنا تم الإستيلاء على كميات ضخمة من معدات الخيام والطبول والسيوف والرماح ودروع الزرد وغيرها. استمرت المطاردة لبعض المسافة وتم أسر أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال.

وبدا أن القتال قد انتهى عندما شوهد جمل، محمل بما كان يعتقد في البداية بأنه مدفع، في طريق الإسحاب ومن حوله حوالي أربعين رجلاً. فعندما شوهدت هذه المجموعة قامت جماعة من الخيالة بإطلاق النار عليها. سقط الجمل وقدر بأن معظم الرجال قد قتلوا، فتقدمت الخيالة نحوهم وطلبت ممن تبقىوا منهم الإستسلام. وعندما اقتربوا منهم قفز العرب، الذين كانوا يعتقدون بأنهم قتلوا، وهجموا عليهم ودار اشتباك بالأيدي قتل فيه عدد من العرب وعاد الباقون إلى الجمل مرة أخرى. نالوهم ثانية للإستسلام لكنهم ردوا بهجمة أخرى إنتهت بقتلهم جميعاً ماعدا واحداً منهم والذي قام بالقفز على ظهر حصان كان ماراً ونجح في الفرار.

لم يجد الخيالة أي مدفع على ظهر الجمل كما كانوا يظنون، وبالتالي عاودوا المطاردة. ثم أتضح بعد قليل بأن الجمل كان يحمل جثة لزعيم مهم. ويتوجيه من الكابتن ماك دونالد أرسلت الجثة إلى توشكي حيث عرفها الأسرى على الفور بأنها للنجومي. وقد تبين فيما بعد بأنه بعد أن جرح جراحاً بليغة قام حرسه الشخصي وحاشيته برعايته والاعتناء ووضعه على نقالة، جهزت على عجل، ورفعوه على الجمل وحاولوا إبعاده إلى المؤخرة.

وقد وجد أحد أبناءه، وهو طفل في الخامسة من عمره، ميتاً بجوار الجمل، بينما أحضرت إحدى المربيات طفلاً آخر له، لا يتجاوز عمره العام، إلى معسكر توشكي في اليوم التالي.

استمرت المطاردة بعد ذلك لحوالي ميلين وبعدها، نظراً لإرهاق الخيول الشديد، اضطرت الجنرال قرنفل إلى إيقافها. نفخت الأبواق معننة وقف إطلاق النار في الساعة الثانية بعد الظهر. وشوهدت آخر جماعات العدو المتراجعة وهي داخلة في ممر ضيق بين الجبال المحيطة بالجزء الجنوبي الغربي من سهل توشكي. ولم تصل القوات، المنهكة تماماً والمحملة بكافة أصناف الغنائم، إلى معسكرها إلا في الخامسة عصراً بعد أن ظلت طيلة اليوم بدون طعام وبقتيل من الماء.

كانت هزيمة العرب شاملة. وفي الثالث (من أغسطس) وما تلاه من أيام تم القبض على أكثر من ٤٠٠٠ أسير وهارب إضافة إلى ١٤٧ راية و ٤٠٠٠ رمح وعدد كبير من السيوف والبنادق وغيرها.

وقد تدرت خسائر العرب بأكثر من ١٢٠٠ قتيل أما خسائر المصريين فكانت خفيفة بالمقارنة، فقد قتل ٢٥ جندياً وجرح ١٤٠ منهم.

* يعتني بهذا الطفل الآن في مستشفى قصر العيني بالقاهرة (المؤلف، ١٨٩٠). ويقول المعرب بأن هذا الطفل هو عبدالله عبدالرحمن النجومي، الذي ترعرع بعد ذلك في مصر ودرس العلوم العسكرية وتدرج في الرتب حتى أصبح لريفاً في الجيش المصري ويأوراً للملك فاروق وصديقاً حميماً للواء محمد نجيب. وقد تزوج وأنجب عدداً من البنين والبنات، يعمل أحدهم الآن (عام ٢٠٠٥) طياراً بوقاية النباتات، ووزارة الزراعة والغابات الموصلية، وهو الكابتن إبراهيم عبدالله عبدالرحمن النجومي.

** لمعرفة تفاصيل قوات النجومي للمقاتلة، أسماء وعدد الأمراء وقوائم الخسائر التي تكبدوها من أول يولييه حتى الثالث من أغسطس، تنظر للملحق.

قتل معظم كبار الأمراء، ما عدا عثمان أزرق وعلي ود سعد وحسن النجومي ومرغني سوار الذهب وشيخ العبيد والذين تمكنوا من النجاة ومعهم حوالي ١٤٠٠ نسمة معظمهم من الأتباع.^{***}

فبقيامهم بالتفافه واسعة داخل الصحراء، تجنبوا كل النقاط المصرية وأفلحوا في الوصول إلى مديرية دنقلا في وقت قصير لدرجة الإعجاز. لكنهم خسروا الكثيرين من جراء الجوع والعطش أثناء ذلك الإنسحاب المريع والذي لن تتمحي ذكراه الحية أبداً في نفوس أولئك الذين شاركوا فيه. وفي اليوم التالي لمعركة توشكي قام الكولونيل كتشنر باستطلاع بعيد المدى حتى أبو سمبل، بينما واصلت الخيالة المصرية دورياتها حتى بلاتة واعترضوا في طريقهم عدداً من أفراد العدو كما أنفقوا عدداً كبيراً من اللاجئين كانوا سيموتون في تلك الصحراء لولاهم.

وخلال الأيام الثلاثة التي تلت المعركة وصل إلى مختلف المعسكرات أكثر من ٤٠٠٠ أسير ولاجئ ووصل العدد الكلي لما بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ نسمة وذلك منذ عبر العدو الحدود.

وجد أسرى العدو من الضباط ورجال قوات الحدود النيلية معاملة مميزة. وفي كثير من الحالات كان الجنود المصريون، عندما يأسرون البعض أثناء دورياتهم، يقتسمون معهم الطعام والماء. وتم بذلك إنقاذ عدد كبير من الأنفس من جراء المعاملة الإنسانية التي تلقوها.

لم يكن أمراً سهلاً (التصرف) في مثل هذا العدد الكبير من الرجال والنساء والأطفال، الذين جاء معظمهم من أماكن نائية بالسودان، والذين كانت أخلاقهم وعاداتهم تختلف بدرجة واضحة عن تلك التي لأهالي مصر. تم تقديم كل عون ممكن للذين إحتاجوا لذلك، سواء فيما يختص بعلاجهم في المستشفيات والعمل على راحتهم أو في مختلف المعسكرات التي أقيمت بطول خطوط المواصلات على النهر.

تم توزيع أكثر من ١٠٠٠ منهم على مختلف ملاك الأراضي في مديرية الحدود (أسوان) تحت إرشاد نائب الحاكم. أما الباقون فتم ترحيلهم لأسوان ومنها لأسبوط. وفي أسبوط استلمتهم السلطات المدنية ووزعتهم على مختلف مديريات القطر المصري. لم يستثن من هذا التوزيع إلا حوالي مائة من الرجال البارزين، ومعظمهم أمير أو مقدم، وسيقوا إلى السجن الحربي بالقاهرة.

ومن ضمن السجناء الأسرى السيئ السمعة أبو اليزيد، والذي، كما نذكر، كان قد فر (من خدمة الحكومة) وقاد العدو في الكثير من الغارات وخاصة الغارة على دبروسة والتي أدت إلى موت العديد من النساء والأطفال الذين لا حيلة لهم. تمت محاكمته وأعدم رمياً بالرصاص، كخائن، بحضور القرويين الذين خائفهم.

في السادس من أغسطس تم حل قوات الحدود النيلية وعادت مختلف القوات إلى حامياتها العديدة.

^{***} تأكد فيما بعد بأن مكين النور قد ألحق في الفرار والوصول إلى أبي سنبل لكنه انهيار هناك من جراء جراحه ومن الإرهاق الشديد وتوفي. وقد وضع حجر بارز على قبره في الجبال المطلة على المعبد. من ضمن الأسرى الذين وزعوا على الفلاحين الشيخ بابكر بدري وكان عمره وقتذاك في بواكير العشرينات. وقد أفلح في الهرب والإختفاء في الجبال المجاورة للنيل حتى وصل بعد مجهود خارق لدنقلا، وليؤسس لنا هذا الصرح التعليمي الفريد وهذه الأمرة المرموقة (المعرب).

ثم تم الإلتفات لمصر. صار أمر إعادة إحتلالها ضرورياً الآن. فقد ظلت طوال العاميين الماضيين موقعاً هاماً للعدو والذي أكدّه وجود أكثر من ٤٠٠٠ من الأكواخ الطينية الجيدة البنين والتي بأمكانها أبواء أكثر من ١٥٠٠ شخص. وقد كانت النقطة المتقدمة للعرب والتي تشن الغارات علي سكان القرى النيلية إلى الشمال بسهولة ويسر. لذلك، وبالرغم من عدم صلاحيتها كموقع عسكري للقوات، لمجاورتها للتلال التي تحيط بها مما يجعلها غير صالحة للدفاع، فقد تم إحتلالها بواسطة الكتيبة الحادية عشر للجيش المصري، بقيادة كابتن سليم، في الحادي عشر من أغسطس. لم يكن بها غير عدد قليل من العدو، وعندما اقتربت منهم القوات تراجعوا جنوباً. واتخذت الترتيبات الآن لإصلاح خط السكة الحديد حتى جنى.

أثناء ذلك نجحت حملة صالح بك إلى المرات ولم يقم الثوار إلا بمقاومة واهية وهربوا عند وصول العيابة بعد أن قتل منهم ثلاثة رجال. أحتل صالح معسكر المرات. وفي الثالث من أغسطس واصل تقدمه باتجاه أبو حمد واستطلع ما حولها ثم عاد إلى المرات في التاسع من الشهر. ثم توجه إلى أنقأت لكنه عند وصوله وجد أن بحر كرار قد فر إلى بربر.

أيضاً كانت تحركات بشير بك في صحراء شرق أسوان ذات فعالية. فعند وصوله للمرات علم بأن قوات الأمير بغدادي قد عادت إلى وادي الجمل في منطقة أرياب، وبعد معركة توشكي جاءه أمر بالعودة لأسوان. قام بذلك بعد أن ترك قوة بقيادة شقيقة مصطفى جبران لمواصلة المطاردة.

نشط البشاريون أيضاً وقاموا بطرد القوات المعادية من بلادهم والتحموا معهم في أبو دويم وهزمهم. ثم تراجع بغدادي جنوباً ووصل إلى أبي حمد أخيراً بعد أن هلك معظم رجاله من العطش.

أدى عدم هطول الأمطار في الصحراء الشرقية إلى بؤس عظيم بين القبائل. وبنهاية أكتوبر وصل عدد كبير من البشاريين إلى أسوان بحالة لا توصف من البؤس والمرض، وأقلّيم لهم مخيم هناك وقد مت لهم الإغاثة.

...

كان أثر هزيمة توشكي على الأماطي عظيماً. فأن تأتي قوة كبيرة من العدو، وتتوغل في بلادهم وتقدم داخلها لستين ميلاً، وتظل محتلة لها لأكثر من شهر، وأنه لم يقع خلال تلك المدة أي قروي أو بهيمة في أيديهم، كان شيئاً لا يفسره العقل، وتجاوز حماسهم لدى الدمار النهائي للعدو كل الحدود. وإلى الشمال أكثر، كان أثر ذلك على السكان واضحاً وكانت كل مصر، والتي راقبت النجاح الظاهري للعدو المتقدم بقلق واضح، قد عادت الآن لتعبر عن سرورها للهزيمة التامة للقوات الغازية.

أما بالنسبة لقضية المهديّة، فقد كانت الضربة قد تجاوزت في مرارتها أي نكسة واجهتها من قبل. فمن بين كل الحملات التي وجهت لكافة الجهات، فقد كان المهدي، ومن بعده الخليفة،

من الصحراء الجنوبية بجوار جبل ميسا..

ينظران لمصر علي أنها الهدف الذي يستحق المكابدة من أجله. والآن، وبعد سنوات طويلة من التخطيط والتجهيزات فإن ذلك الجهد العظيم المبذول قد حلت به كارثة شاملة غير مسبوقة. لقد قتل أشجع قوادهم وأشدهم تعصباً (للمهدية)، قائد لعب دوراً هاماً في هزيمة هكس وفي استلام الخرطوم.

ومن كل قواته لم ينج إلا القليل ليعود ويحكي المصاعب المرعبة التي تكبدوها عند السير في الصحراء، ووابل الرصاص الرهيب الذي واجهوه وتسبب في دمارهم أخيراً.

عاد الهدوء الآن لتلك المناطق، وعاد الجنرال قرنفل للقاهرة في السابع عشر من أغسطس. أما تلك التعزيزات وذلك المدد الذي شرع في التقدم للإضمم إلى قوات الغزو فما أن سمعوا بالهزيمة في توشكي حتى عجلوا بالرجوع من حيث أتوا. ولما قام اللفنتانت كولونيل هنتر بطواف استطلاعي، في أوائل سبتمبر، لم يجد سوى الأرض الخراب والخالية من السكان تقريباً، رغم أنه مضى حتى جنس.

وأصبحت صواردة هي نقطة العدو الأمامية، وهي تبعد عن حلفا جنوباً بحوالي ١٣٠ ميل، ووضعت فيها قوة من بضع مئات من المقاتلين تحت قيادة الأمير حمودة، وكان يرسل منها دوريات تصل حتى فركه. وحاول قلة من الأمراء الإتصال بقمندان حلفا مبدئين رغبتهم في الحصول علي عفو من سمو الخديوي. ولكن، ويرغم الوعود بالحماية التي بذلت لهم إلا أنهم، كما يبدو، كانوا خائفين من عواقب الفرار، ولم تتمخض المباحثات التي جرت عن شيء.

ومن بين الأمراء الذين نجوا من توشكي، وكانوا يتولون قيادات، ثم استبدلهم بآخرين من القيادات المختلفة. وحل الأمير يحي محل علي ود سعد في كوية، والأمير جريجير محل حسن خليفة في أبو حمد. وقد تم إلقاء الأخير في السجن للاشتباه في وصوله لتفاهم مع صالح بك بدلاً عن مواجهته في المرات.

أما الأمير المشهور محمد الخير فقد توفي في دنقلا قبل أيام من هزيمة توشكي، بينما ظل يونس أميراً عليها، وتولى عثمان الدكيم إدارة بربر.

وفي أكتوبر، تم إرسال أحد أسرى توشكي، وهو جعلي، إلى السودان حاملاً نداء إلى قبيلته وغلبي القبائل الأخرى يدعوهم إلى طاعة الحكومة (المصرية) والولاء لها. وعند وصوله للخرطوم تم إلقاؤه في السجن، ولكن ليس قيل أن يقوم بإيضاح المعاملة الطيبة التي تلقاها، إلى قبيلته، وإبلاغ الخليفة بأن من المستحيل عليه أن يفكر ثائية في الاستحواذ علي مصر.

ولا يوجد شك في أن قبائل وسط السودان وباقي أتحانه كانوا تواقين، مثل قبائل شرق السودان، لتحرير أنفسهم من نير البقارة. لكنهم كانوا مثلهم أيضاً، عاجزين عن القيام بذلك. فلقد حطم نظامهم القبلي وسجن زعمائهم وجردوا من سلاحهم. ولم يعد لهم الآن سوى الخضوع لقوة البقارة الطاغية، والذين يحكمونهم بنوع من القسوة ربما لم تكن مسبوقة في التاريخ. والملخص التالي للخطاب الذي جاء من زعماء إحدى القبائل المشهورة يوضح بجلاء الحالة المزرية التي وصلوا إليها الآن:

كنا دائماً من رعايا الحكومة المصرية، قاتعين بحكمها، ولم نتخيل أبداً أن تجري الأحداث بمثل ما جرت لدرجة تدمير أنفسنا وما نملك. لذلك فأنا لا زلنا نؤكد بأننا من أتباع الحكومة وخدمها، ومنتظرون بعون الله عونها لإنقاذنا من حالنا الراهن الذي ليس فيه سوى البؤس والخراب والجوع.

إن كل السودان يتطلع لذلك. فقد طهر الله نفوسهم من تلك الهرطقة والنبت الشيطاني التي سببت لهم الخراب والدمار*.

والآن تدفقت نحو حلفا جموع اللاجئين المعوزين وغيرهم، من مديريات السكوت والمحس، وبعد أن غادرت آخر بقايا جيوش النجومي مناطقهم، باحثين عن الحماية والأمن وإنقاذهم من الجوع. وتم تخصيص حوالي ٥٠٠ فدان من الأراضي الحكومية في دبيرة (شمال أرقين) لإقامة مستوطنة لهم، وإنشاء مشاريع إعاشية لهم. ويقدر بأنه خلال عام ١٨٨٧ تم إعاشة حوالي ٢٠٠٠ رجل وامرأة وطفل، بمن فيهم الذين أسروا في توشكي، والمعوزين من البشاريين الذين أشرنا إليهم من قبل.

وانتهت سنة ١٨٨٩، بهدوء تام ساد الحدود وبارتياح عظيم بعد سنوات من الإضطرابات المتواصلة التي أعقبت إنهاء حملة النيل في ١٨٨٤ / ٨٥. وبالرغم من الهزيمة الأخيرة إلا أن مجلس (الأمراء) بأم درمان عاد ليشغل نفسه بالتخطيط لغزو جديد. لكن صعوبة جمع الرجال لهذا الغرض، بعد الهزيمة الأخيرة، بدا أمراً غير ممكن. لكن روح المهدية، أو التبشير بالجهاد، يجب أن يظل مستمراً. وإذا ما توقف فإن انهيار المهدية لن يكون أمراً مستبعداً. وربما كان عام ١٨٨٩، عام أكبر امتحان مروابه. فقد هزموا في كافة الجبهات - الجبهة الحبشية وفي دارفور وعلى النيل - واعتقد بأن الانهيار لن يكون بعيد الحدوث. لكن الذين تنبأوا بذلك لم يكونوا مدركين لمدي القوة التي أكتسبها البقارة، الجنس الحاكم، على السودان.

كانت المجاعة، حقاً، أحد أعدائهم اللدودين. ولكن طالما أمكنهم التعامل مع هذا الواقع، ولم يعودوا يخشون من غزو يأتيهم من مصر أو أي جهة أخرى، فأنهم يشعرون بالأمن والسلامة. فقد علموا بأن القبائل المحلية قد صارت بحالة من الوهن لا تمكنها من معارضة سلطتهم. وأن السودان، حتى لو هددته المجاعة، فأنهم سيكونون آخر من تلمسه عضة الجوع.

* يبدو أن العام المقصود هو عام ١٨٨٩. أو ١٨٩٠. وهو عام معركة توشكي أو الذي تلاه (المعرب).

ملحق القسم الثاني عشر تكوين جيش النجومي، الذي إخترق الحدود المصرية في أول يولييه ١٨٨٩، مع أسماء الأمراء

قسم الجيش إلى أربعة أقسام كالتالي:

- القسم الأول - النجومي ٢٤٠٠ مقاتل و ٥٠٠٠ تابع
- القسم الثاني - إسماعيل حركة ٨٠٠ مقاتل و ١٢٠٠ تابع
- القسم الثالث - عبد الحليم مساعد ١٢٠٠ مقاتل و ١٠٠٠ تابع
- القسم الرابع - عثمان أزرق ٦٠٠ مقاتل و ٨٠٠ تابع
- ٥٠٠٠ مقاتل ٨٠٠٠ تابع

ملخص

- عدد الأمراء الذين قتلوا في أرقين ٦
- عدد الأمراء الذين قتلوا في توشكي ٦٢
- عدد الأمراء الذين تم أسرهم ١٨
- عدد الأمراء الذين تمكنوا من الفرار ٣٦
- ١٢٢ أميراً

إضافة إلى ٢ لم يتم التأكد منهم

الجملة ١٢٤ أميراً

...

تقدير لقوة جيش المهدي، الذي قاده عبد الرحمن النجومي، والذي عبر الحدود المصرية في أول يولييه ١٨٨٩،

مع توضيح الخسائر التقريبية حتى السادس من أغسطس ١٨٨٩.

١	قوة الجيش في سمنة قوة جيش عبد الحليم في سرس	الرجال المقاتلون	الأتباع (خدم ونساء وأطفال)
		٤٠٠٠	٧٠٠٠
		١٢٠٠	١٠٠٠

٢	(هذه الأرقام تتطابق مع ما أورده حسن أفندي حبشي، كبير كتاب جيش عبد الحليم) وبعد خصم عدد الذين هربوا من معتوقة يوم ٣٠ يونيه ١٨٨٩ وعددهم.....	٥٢٠٠	٨٠٠٠
	يصبح الباقي	٥٠٠٠	٧٧٠٠
٣	وبعد خصم الخسائر في أرقين والبالغة	١٠٠٠	١٠٠٠
	يصبح الباقي	٤٠٠٠	٦٧٠٠
٤	يضاف إليهم التعزيزات التي وصلت بلالة بقيادة الأميرين مكين النور والحاج علي ود سعد	٥٠٠	
	ليصبح العدد	٤٥٠٠	٦٧٠٠
٥	وبعد خصم الخسائر بين ٣ يوليه و ٣ أغسطس ١٨٨٩، بمن فيهم الذين هربوا ونزحوا جنوباً	١٣٠٠	٣١٠٠
	يصبح العدد	٣٢٠٠	٣٦٠٠
٦	وبعد خصم خسائر توشكي (١٢٠٠ قتلوا و ١٢٠٠ أسروا) وأسر ثلاثة ألف من التابعين	٢٤٠٠	٣٠٠٠
	يصبح العدد الذي فر جنوباً عقب توشكي	٨٠٠ رجل	٦٠٠ تابع

ومن بين الثمانية ألف من الأتباع، يقدر بأن من تمكن من الفرار جنوباً بحوالي ٢٠٠٠ تابع بينما أخذ ٦٠٠٠ أسرى بيد القوات المصرية. وقد تم توزيع الأتباع على مختلف مديريات مصر. هذا ولم يحفظ بالسجن من الأمراء المهمين إلا حوالي مائة أمير وزعيم. وفيما يلي تكوين قوات النيل الميدانية (التي واجهت عبر الرحمن النجومي)، والتي شكلت في ٢٣ يوليه ١٨٨٩:

هيئة أركان الرئاسة:

- الميجر جنرال السير ف. دبليو. جرنفل، سردار، القائد العام.
- الكابتن جي.جي. ماكسويل، رويال هايلاندرز، بمباشي، ضابط معاون.
- اليمباشي علي بك حيدر، ضابط معاون.
- ملحم بك شكور، السكرتير العربي.
- لفتانت كولونيل هـ. هـ. ستل، لواء، كبير ضباط الأركان.
- الميجر ف. آر. ونجت، قائمقام، مساعد الأذونات جنرال، وأيضاً لشئون المخابرات.
- الميجر هـ. م. رندل، قائمقام، قائد المدفعية المصرية.
- الملازم س. جودباي، ضابط مهندس.
- كبير الجراحين إي إي هايز، السلاح الطبي، قائمقام وموقتاً أمير الإي، كبير الضباط الأطباء.

- الكابتن ب. أبلبي، مدير المخازن العسكرية، قائمقام.
- الكابتن ج. دبليو. هاكيت بين، فوج سري الغربية الملكي، قائمقام، كبير ضباط الترحيلات.
- كبير أمناء المخازن وملازم شرف دبليو. إتش. دريج، قوات خدمات الجيش، بمباشي، كبير ضباط الميرة والتموين.

- الطبيب البيطريج. آر. جريفث، مصلحة البيطرة العسكرية، بمباشي، كبير البيطرة.

ضباط الخدمات الخاصة:

- الملازم هـ. و. د. د. هكمان، فوج يوركشير، بمباشي.
- البمباشي مصطفى أفندي رسمي.
- الصاغ قولا غاسي عبد السلام أفندي زكي.

اللواء البريطاني

هيئة أركان الرئاسة

- الميجر جنرال الشريف آر. إتش. دي مونتورنسي، القائد.
- الميجر سكلير، كبير ضباط الأركان.
- الكابتن ب. ف. هو لم (فوج كنت الشرقية)، ضابط أركان.
- الملازم ثاني كاروثرز (حرس الحدود الاسكتلندي الملكي الخاص)، ضابط معاون.
- اللفتانت كولونيل رودس (الدراجون الملكية)، الخدمات الخاصة.

القوات

الفرسان

- سرية الهوسار العشرين (للفتانت كولونيل إروين).

المدفعية

- البطارية العاشرة للواء الأول، القسم الشرقي، الميجر بري

المهندسون

- قسم من السرية الرابعة والعشرين (الميجر كلايتون والكابتن فولي).

المشاة الراكبة

- ٣ فصائل من سرية (أ) - الكولونيل بارو الرماة الأسكتلنديين.
- الكتيبة الثانية بحرس الحدود الإسكتلندي الملكي الخاص (الكولونيل تالبوت كوك).
- الكتيبة الأولى من فوج ويلز - اللفتانت كولونيل ماكوسلاند.
- الكتيبة الثانية للرماة الملكيين الأيرلنديين - اللفتانت كولونيل ويندهام.
- مفارز عسكرية من:

* السلاح الطبي - كبير الجراحين المناوب جيمسون.

- * مصلحة المدفوعات الحربية - الميجر منجر.
- * مصلحة الامدادات والمخازن - الميجر دي سالس.
- * المصلحة البيطرية - الجراح البيطري أندرسون.
- * الشئون الدنيوية الألب الميجل كولنس.
- الألب الميجل تورمي.
- الألب الميجل بيتي.

تشكيل الطابور الأول وحاميات الحدود:

- التفنتات كولونيل جي. إتش. ودهاوس، لواء، القائد.
- ملازم أول محمد أفندي شقيق، ضابط معاون (من المحليين).
- الكابتن ت. تيرنان، من فوج ماتشستر، بمباشي وقائمقام محلي ونائب مساعد الأنجوتانت جنرال.
- الكابتن هـ. دننج، من القوسيلير الملكي، بمباشي، نائب مساعد الأنجوتانت جنرال للمخابرات.
- الميجر أ. هنتر، من فوج لاكتشير الملكي، قائمقام وأميرالاي محلي، قائد لواء المشاة.
- الكابتن ب. ماشل، فوج إسكس، بمباشي، ميجر بالنواء، لواء المشاة.
- الدكتور جراح آر. مورس، السلاح الطبي، بمباشي وقائمقام محلي.
- الدكتور جراح و. لويس، السلاح الطبي، بمباشي والمسئول عن مستشفى الميدان.

لقوات:

- * الفرسان سريتان
- * مدفعية الميدان بطارتان
- * مدفعية الحامية بطارية واحدة
- * الهجاة ٣ سرايا
- * الكتيبة الثالثة المشاة المصرية
- * الكتيبة الخامسة المشاة المصرية
- * الكتيبة الحادية عشرة المشاة السودانيون
- * ومغارز من السلاح الطبي.

أسوان:

- اللواء السير زهرا ب. بلشا قائد المحطة
- الملازم و. أنسلي، فوج كنت الغربية، بمباشي، ضابط أركان. الصاغ أحمد أفندي نكي، ضابط أركان، من المحليين.

القوات:

- مدفعية الحامية بطارية واحدة

لكتيبة الثامنة المشاة المصرية
مفارز مختلفة.

كروسكو

- الميجر جي. كيرك، فوج ويلز، أمير الـاي، القائد المسئول.
- الملازم جي. بالمر، مشاة سمرست الخفيفة، بمباشي، ضابط أركان.
- الكتيبة التاسعة سودانيون
- الكتيبة العاشرة سودانيون
- الكتيبة الثالثة عشرة سودانيون
- وحدات من السلاح الطبي

...

الطابور الثاني للجيش المصري:

- الكولونيل هـ. كتنر، لواء، القائد المسئول
- الملازم أ. موريدو، مشاة هايلاند الخفيفة، بمباشي، ضابط معاون.
- الكابتن ت. هكمان، فوج ورشستر، بمباشي، رائد اللواء.
- الملازم و. غردون، بمباشي، قائد المدفعية.
- الجراح هـ. بنشنج، السلاح الطبي، بمباشي، كبير الأطباء.
- الملازم إي دنت حرس حدود الملك الأسكتلندي الخاص، ملحق. اليوزباشي محمد أفندي بدري، ضابط أركان، من المحليين.

القوات:

مدفعية الخيول	مفرزة واحدة (قسم)
الفرسان	سرية واحدة
مدفعية الميدان	مفرزة واحدة (قسم)
مدفعية الحامية	مفرزة واحدة (قسم)
الكتيبة الأولى	المشاة المصرية
الكتيبة الثانية	المشاة المصرية

...

مواصلة

القسم الثاني عشر (ب) (١٨٨٩)

الملخص:

الأحداث علي الحدود الحبشية - الموفد الحبشي يعود إلى غوندار - الملك يوحنا يتقدم، علي رأس جيشه، للهجوم علي القلايات - معركة القلايات - هزيمة العرب - الملك يوحنا يصاب بجراح قاتلة - موته أثناء الليل - أثر موته علي الجيش الحبشي - الأمير الزاكي طمل يقوم بهجوم مضاد علي الجيش المتراجع - استيلائه علي جثمان الملك يوحنا وكل مناعه - تقرير الزاكي طمل حول المعركة - ملحق للتقرير - خطاب الخليفة لعثمان دقنة - إنتقام ابنة الملك - وصول مبعوثين، بخطابات إلى جلالة الملكة وإلى سمو الخديوي وأبي وكيل بريطانيا في مصر، إلى أسوان - ترجمة الخطابات - الخليفة يرفق مع خطابه لجلالة الملكة رسالتها إلى الملك يوحنا التي كان قد حملها إليه المستر بورتال عام ١٨٨٧ - تأثير موت الملك علي بلاد الحبش - الشيخ عجول - السودان الشرقي - همة الملازم بيتش - عثمان دقنة يخلي هندوب - الخلافات بين عثمان دقنة وأبو قرجة - الهجوم علي حلايب - حملة الكولونيل هولد سمت - إعادته لسلطة الحكومة بحلايب - الحلف الهندي، أعماله: حله - سلوك أحمد محمود - استدعاء عثمان دقنة لمجلس الأمراء بأم درمان - رفضه الطول محل النجومي أميراً علي دنقلا - الأحداث في ضواحي كسلا - موت محمود بك علي - المجاعة في شرق السودان - دارفور - أبو جميزة يهاجم عثمان آدم في مجزون - الهزيمة الشاملة لأبي جميزة وانهيار ما تسمي بالحركة السنوسية - تقرير عثمان آدم للخليفة حول المعركة - الاستوائية - وصول ستانلي للبحيرة للمرة الثالثة - أمين باشا وسليم بك وأربعة عشر ضابطاً يصلون لمعسكر ستانلي - اجتماع تقرر فيه إخلاء المديرية تماماً بحلول العاشر من أبريل - عودة سليم بك لودلاي - يكتب طالباً المزيد من الوقت للإخلاء - ستانلي يخاطب الضابط - قراره بعدم تأجيل موعد الرحيل - روح التمرد تسود المعسكر - ستانلي مع طايبوره يتوجه لنزنجبار - التوقف في ما زامبوني - اعتراض الخطابات - سليم بك ورسله - الأحداث في وادلاي - الطايبور يستأنف سيره - إكتشاف منابع النيل - روينزوري - ما يشبه النهر والبرت إدوارد نيانزا - وصول ستانلي لنزنجبار - الحالة في الاستوائية.

...

مواصلة للأحداث علي الحدود الحبشية

(١٨٨٩)

في أوائل عام ١٨٨٩م أفلح المبعوث الحبشي، الذي كان قد عاد إلى القلايات، في الفرار. ويقال أنه استولى على جواد أبي عجة وأطلق به مسرعاً إلى غوندار، حيث كان الملك يوحنا بها آنذاك. أوضح للملك كل المعلومات الخاصة بقوة العدو وتحركاته وطرقه وغير ذلك.

* هذا القسم من أحداث عام ١٨٨٩ يتناول باقي السودان ما عدا حملة ود النجومي (المعرب).

قرر الملك تنفيذ اعتزامه، الذي كرره كثيراً، باحتلال القلايات ومن بعد ذلك التقدم نحو الخرطوم. جمع جيشاً لجباً، وفي نهاية فبراير غادر غوندار وبصحبته الرأس عدل (الذي ترقى الآن ليصبح لقبه تكلي هايمنوت أو ملك الكوجام)، والرأس آريا سلاسي والرأس ميخائيل والرأس مريم والرأس ألو لا وصالح شنقة وآخرين، وتوجهوا نحو القلايات. أثناء ذلك قام الأمير الزاكي طمل بكافة الاستعدادات لمواجهة الغزو المرتقب. ويبدو أنه عمل على تحصين دفاعات القلايات وتقويتها، وأحاطها بخندق عميق شكل زريبة ضخمة قام بتوصيلها مع زريبة أخرى أصغر حجماً، ومحصنة بقوة.

وهنا بقي الأميران النور عنقرة وعبد الله ود إبراهيم مع جزء بسيط من القوة والفخيرة الاحتياطية، أما بقية القوات، والتي تقدر بما بين ٦٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ رجل، تحت قيادة الزاكي طمل، فقد وقفت بداخل التحصينات وانتظرت الهجوم القادم.

كان الملك يوحنا واثقاً من النصر على ما يبدو. وعندما وصل إلى مسافة مسيرة يومين من القلايات، كتب إلى الزاكي طمل قائلاً "بأنه سيصل إليه يوم السبت التاسع (من مارس)، وأنه يكتب له بذلك حتى لا يقول بأنه أخذ على غرة".

وفي فجر التاسع من الشهر ظهر الجيش الحبشي للعيان، وتقدم عدد لا يحصى من الخيالة والراجلين بثبات نحوهم، وقاموا بتوزيع الأجنحة بالجيش وتدرجياً أحاطوا بكل تلك الزريبة الضخمة. وشنوا هجوماً ضارياً عليها. وبعد قتال شرس استمر لحوالي خمسة ساعات، كانت خسائر الجانبين فيه رهيبة، ثم إختراق الزريبة بعد إشعال النار في عدة مواقع بها وإندفع الحبش نحو المدينة. وهنا استمرت المنبحة وسرعان ما كان كل الموقع، باستثناء الزريبة الصغيرة، قد سقط في أيدي الحبش. أحرقت المدينة وتم أسر عدة آلاف من السودانيين أما باقي العرب، الذين تراجعوا من الزريبة الخارجية، فقد إندفعوا نحو الزريبة الداخلية، والتي كان من المحتمل سقوطها، عندما أصيب الملك يوحنا برصاصة طائشة، أثناء جلوسه وسط الزريبة المحتلة مراقباً انتصارات جيشه، وسقط مصاباً بجرح قاتل. لم يكن لمثل هذا الحادث المؤسف أن يؤثر على جيش منظم أو أن يغير من مجرى أحداث اليوم، ولكن بالنسبة لجيش متوحش غير منظم فإن الوضع يختلف تماماً.

كان الحبش قد تفرقوا يميناً وشمالاً بحثاً عن الغنائم. وظن كثيرون منهم أن المعركة قد إنتهت وغادروا مسرح العمليات. أما إصابة الملك فيبدو أنها شلت من تبقى منهم. لم يقوموا بأي محاولة لمتابعة نصرهم الذي أوشك أن يتم، بل قام الأحباش، للأسف، بالتدفق خارجين من القلايات حاملين معهم آلاف الأسرى، وحملوا معهم ملكهم الجريح لكان على مسافة قريبة من المدينة، وتوقفت كل عمليات القتال.

في تلك الليلة مات الملك. وخلال الفوضى التي نشبت تمكن بعض الأسرى من النساء من الهرب وأسرعن بتحذير العرب، الذين كانوا لا يزالون بداخل الزريبة الصغيرة، ينتظرون بقلق بالغ الهجوم، والذي توقعوا أن يكون قاضياً عليهم. غمرتهم راحة شديدة عندما علموا بما جرى للملك وإستوعبوا ما ذكرته النسوة من حالة الأسى والفوضى التي سادت معسكر عدوهم، فتجهزوا للقيام

بهجوم مضاد. وأثناء ذلك، وعندما ذاع خبر موت الملك، تفرق معظم جيشه واتجهوا نحو غوندار حاملين الأسرى معهم، أما حاشية الملك فقد حملوا جثته في صندوق، مع كل متعلقاته ومتاعه، وتوجهوا إلى ضفاف نهر عطبرة. مضى وراءهم جماعة من مقاتلي العرب بقيادة ود إبراهيم والذي أنقض عليهم فجأة يوم الثلاثاء ١٢ مارس وأباد وهم تماماً، واستولوا على جثة الملك ومتعلقاته.

وبعد هذا الانقلاب الناجح للأوضاع عادوا للقلبات حيث قام الزاكي طمل بتدبيج الخطابات التالية لسيد الخليفة وأرسل مع الخطابات رأس الملك يوحنا لأمدلمان. وإذا قرنت تلك الخطابات على ضوء ما تم سرده من أحداث، لرأينا كيف تم تصوير الهزيمة وتحويلها إلى نصر. لكن سرعان ما تسربت حقائق ما حدث. والآن فأن أي وطني يصل من السودان لن يتردد في الاعتراف بأن العرب قد هزموا تماماً وكانوا أن يدمروا تماماً.

يسم الله الرحمن الرحيم..... الخ.

من العبد الذليل الزاكي طمل إلى سيده وحاميه خليفة المهدي عليه السلام.

بعد مزيد التحية. لي الشرف أن أوضح لكم ما حدث للكفرة الأحباش مما يسر قلوب المؤمنين ويرضيهم. وأرجو أن أفيدكم بأن الأحباش قد حضروا للقلبات يوم السبت السادس من رجب (٩ مارس ١٨٨٩) يقودهم ملكهم الملعون يوحنا. كان عددهم ضخماً لدرجة لا يعلم إلا الله مداها ومعداتهم حسنة.

وقد كنا نشاهد نيرانهم قبل ثلاثة أيام من وصولهم. وعندما كانوا علي بعد ساعتين من معسكرنا، ثارت سحب من الغبار في الجو من حولهم، لكثرتهم، حتى أن رجالنا المؤمنين كانوا لا يرون بعضهم بعضاً عندما وصل غبارهم إلينا، ويتشوقون لقتال أولئك التمساء أعداء الله الذين ساقوا أمامهم الحيوانات الوحشية مثل الذئاب والثيران والغزلان. أحاطوا بنا من كل جانب وكنا مثل خاتم صغير وسطهم. كانوا يعتمدون على قوتهم وخرافاتهم وليس علي عون من الله، الذي هو مصدر قوة الأنصار. فجانب من يحمل الحراب منهم كان هناك ١٧٠٠٠ مسلحين بالبنادق. أما نحن فلم نكن بتلك الكثرة لأن العدو الذي جاء مسرعاً إلينا لم يقم بإذارتنا ولذلك لم يكن لدينا وقت للتجهيز المناسب. كان ملكهم يقودهم ويشجعهم بكلماته، ولأنه كان متقصباً لروح الشيطان فقد كان يحثهم بتأثيره الشيطاني ليطلق نور الله. فتحوا علينا أولاً النار من المدافع والبنادق ثم هجموا علينا بعنف رهيب. كانت قفقة السلاح تسمع من مكان بعيد ولكن لم تستطع قوتهم الكبيرة ولا أعدادهم أن تهز شجاعة المؤمنين والذين حاربوا بتصميم لا مثيل له اللهم إلا في عهد الصحابة. ردنا علي نيران بنائقم والحمد لله والشكر للعزم الذي أبداه الأنصار، الذين كانوا قلة بالمقارنة بكثرة العدو، فتمكنا من تدمير أعداء الله بعد قتال استمر لخمس ساعات.

ولم يستطع العدو مواجهة نيراننا، وعندما قتل ملكهم الملعون ولوا الدبر هاربين بعد أن وضعوا جثته في صندوق وزعموا بأنه جريح فقط. وقتل كثير من وزراء الملك وأتباعه معه وامتألت الأرض من أجساد الكفرة وخيولهم وبغالهم.

وعندما إنتهت المعركة قمنا بدفن أولئك الأنصار الذين ماتوا أعظم ميتة في ميدان القتال، والذين صعدت أرواحهم إلى الجنة. كان عددهم قليلاً. أما الجرحى فتم الاعتناء بهم تماماً.

وفي الثامن من رجب (صباح الاثنين) قمنا بمطاردة الأحباش والتقينا بهم على نهر عطبرة. وطردها بعضاً من كشافيهم الذين أرسلوا لمعرفة مواقعنا. وفي اليوم التالي قاتلناهم بشجاعة عظيمة وبسالة وقتلنا معظمهم. دامت هذه المعركة الثانية لستة ساعات وبعدها هرب من تبقي منهم. ووجدنا جثة الملك في صندوق بداخل خيمته وكان على نحره صليب من ذهب يعبده الكفرة من دون الله. كان يرتدي كامل ملابسه الملوكية مع باقة حول عنقه، وكان الصندوق مليئاً بمادة للتحنيط لتحفظ جثته من التحلل. قمنا بقطع رأسه في الحال ورفعناه على حربة. وعندما رأى المؤمنون ذلك أيقنوا بأن نصرنا كان كاملاً.

لذلك فأنني أرجو أن أرسل لكم رأس هذا الرجل الخبيث والملعون، مع بعض رؤوس قواده ووزرائه مثل الرأس الو لا وغيرهم حتى يتم إقتناعكم بالنصر وبتدمير العدو. وأرجو أن أرسل لكم أيضاً تاج الملك مع خيامه وأواني مطبخه النحاسية. وقمنا بدفن أولئك الشهداء الذين أرسلهم حظهم الطيب إلى الله، وقد كانت أعدادهم قليلة مقارنة بأعداد (القتلى) الضخمة من العدو.

إننا نعلم بأن النصر الذي أحرزناه هو فقط من عند الله. وأثناء القتال سمع كثير من المؤمنين صوت الأملية* وشاهدو المهدي بنفسه قادماً لعونهم. ورأى بعض رجالنا أشخاصاً نازلين من السماء، وفي أيديهم أعلام بيضاء، وقتلوا أعداداً من العدو وشاهد آخرون معجزات عجيبة مثل خروج النار من جروح الأحباش كانت تحرق أجسادهم** وهذه بالطبع كرامة من السماء لا نقدر على شكرها.

ويستحق الأنصار كل ثناء وتقدير وهم على استعداد دائم للقتال وطلبوا الإذن بشن الغارات على بلاد الأحباش. ولكن أوامركم يجب أن تطاع. لذلك أرفع لكم رجاءهم وأرجو أن توافقوا على ذلك.

ولما كان هذا النصر يعزي لبركتكم ولعون الله الذي مشيلته كانت تدمير المشركين وتقوية الدين الحنيف، لذلك أسأل الله أن يحفظكم وأن يقع أعداءكم في أيديكم.

رسالة أخرى عن العمليات التي

تلت أحداث السادس من رجب ١٣٠٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم....الخ

من العبد الذليل الزاكي طملى إلى سيده خليفة المهدي... الخ بعد خالص التحايا. أرجو أن أفيدكم بأنه، وبعد معركة السادس من رجب ١٣٠٦ (٩ مارس ١٨٨٩) في بطن المركز والتي هزم فيها الأحباش أعداء الله ليلاً شر هزيمة كما أبلغتكم بذلك، فقد قمنا بمطاردة أعداء الله ليلاً حتى صرنا بالقرب منهم ثم إنتظرنا الفجر لكنهم، لعلمهم بأننا قريبون منهم، أرسلوا جماعة من

* ترجم ونجت (صوت الأملية) بكلمة (يا سيدي) للمعرب.

** يمكن تفسير ذلك لارتداء الأحباش لملايس سريعة الاشتعال خاصة عند إطلاق النار عليهم من قرب وشوهت كثيراً.

الحرس والذين إشتبكنا معهم إشتباكاً بسيطاً. ثم نقلوا مصكرهم لمكان أبعد، وعند الصباح وجدنا أنهم قد بلغوا نهر عطبرة. كانوا من الكثرة بعدد حبات رمل البحر، فهاجمناهم بمنتهى البسالة وقاومونا بشجاعة فائقة. وفي الثانية من صباح الثلاثاء ٩ رجب (٢١ مارس) إنتهت المعركة بعد إنتصارنا عليهم. وقد خسر العدو خسائر ثقيلة ثم ولي فراراً تاركاً خلفه كميات كبيرة من الخيام والخيول والبغال والحمير وغيرها والتي غنمناها. وكذلك حررنا كل السجناء الذين أسروا عند مقتل أخينا المرحوم الشهيد ود أرياب. وعندما تفحصنا أجساد القتلى وجدنا من بينهم جثة يوحنا عدو الله. كان قد قتل في معركة السبت لكنهم وضعوه في صندوق ونشروا الخبر بأنه كان قد جرح فقط. فعلوا ذلك حتى لا يصدم جيشهم بمقتل ملكهم.

أما عمه، الذي خلفه، فقد قتل أيضاً جنباً إلى جنب مع كبير الأساقفة وكذلك قتل دجاج برهائي وكثير غيرهم وكلهم قطعاً رؤوسهم. هذه أكبر معركة خضناها أبداً، وصارت الحبشة مكشوفة أمامنا الآن. ولا يوجد لديهم من يقود مقاتليهم والذين تفرقوا الآن في كل مكان.

عسكر جيشنا على ضفة النهر وقد أستفسرنا وتقصينا إلى أي مكان هرب من تبقي من الجيش المنهزم. أما عن القتلى التي استولينا عليها فأنها تجل عن الوصف، وأرسل إليكم بعضاً منها علي يد عبد الكريم حامد، برهاناً للإخوة على إنتصارنا. وإستولينا أيضاً علي مدافع وبنادق العدو وعلى كثير من الأسرى رجالاً ونساءً.

وسنقدم لكم لاحقاً بياناً شاملاً بالقتال والمجنء والأسرى*.

ويمكن إنتقاط بعض التفاصيل القليلة عن تلك المعركة من الرسالة التالية، التي كتبها الخليفة لعثمان دقّة، والتي تسلمها في أوائل أبريل، مصحوبة برأس قيل أنه رأس الرأس، السولا. لكن الأخير عاد من القلابات دون أن يلحقه أي أذى.

*بسم الله الرحمن الرحيم..... الخ.

من عبد الله خليفة المهدي إلى المكرم عثمان ابن أبو بكر دقّة. بعد السلام. أكتب لأخبرك بأن الأحباش، وعلى رأسهم النفس يوحنا ووزرائه وقادته، وأحدهم كان الرأس ألو لا، قد جاعوا، بعد وفاة المكرم حمدان أبو عنجة، من كل الجهات، وفي أعداد ضخمة، إلي القلابات وهاجموا الإخوان الذين هم بذلك المكان. واجههم الإخوان ودارت معركة شرسة قاتل فيها الأكصار بثبات وبشجاعة بالغة. هزم العدو هزيمة تامة وولي الفرار. وطاردهم الإخوان إلى مسافة بعيدة وقتلهم حتى آخر رجل. وقد قتل نفسهم يوحنا ووزيره رأس ألو لا وكل قاداته الآخرين وقطعت رؤوسهم. وتم استلام كافة ذخائرهم ومدافعهم وبنادقهم وخيولهم وغيرها وكان النصر تاماً. أرفق لكم خطابات من الإخوان بوصف المعركة، ومعها رأس الرأس ألو لا حتى يراه الإخوان. أما رأس النفس يوحنا فقد أرسلناه لأخينا يونس الديكم، قائد القوات البحرية*.

*ترجم كنية ونجت كلمة البحرية، بمعنى الشمال أو دنقلا، بكلمة الأسطول وبالتالي أطلقوا علي الأمير يونس الديكم لقب قائد قوات الأسطول (المعرب).

خطاب آخر:

" من خليفة المهدي إلى المكرم محمد خالد و طاهر المجنوب والشفيع أحمد وإسماعيل أحمد.
أكتب لأخبركم بأن الانتصار قد أحرزوا نصراً عظيماً علي الأقباش في القلايات. وكنت قد
وصفت ذلك في رسائلي للمكرم عثمان دقنة. وأود أن أضيف بأنني قد تلقيت من الزاكي طمل عدداً
من السلاسل الذهبية وسرير من ذهب وألماظ وحجارة ثمينة وغانم من كافة الأوصاف وأيضاً
أحذية وملابس بأنواعها أرسل لكم عينات منها".

وهناك رواية غريبة تروي عن إنتقام إينة الملك، عندما سمعت بمقتل أبيها والإستيلاء على
جنته، ولكن لم يتم التأكد من صدقها. فيقال بأنه عندما وصل لغدار عدد كبير من الأسرى العرب
أمرت بإدخالهم في زريبة واسعة ثم أمرت بإضرام النار فيها. وقد هلك كل الأسرى وسط اللهيب.
وحتى لو كانت هذه الرواية صحيحة أم لا، فإن من المؤكد أن أحداً من الأسرى الذين سبقوا هناك
لم يعد ثانية إلى القلايات.

ومن بين أمتعة الملك التي غنمت في تلك المناسبة، وجدت رسائل كان قد أحضرها له
المستر بورتال والمستر بيش* في أكتوبر ١٨٨٧. وكانت هذه الرسائل المهمة التي غنمت، إضافة
إلى تقرير الزاكي عن المعركة تمثل السبب الأساسي لإرسال الخليفة لأربعة مبعوثين لمصر حاملين
معه ثمانية خطابات. سافر هؤلاء الأربعة إلى مصر عن طريق بربر وحيمور ووصلوا أسوان في
الخامس من مايو. أصرروا علي السماح لهم للتوجه للقاهرة لتسليم الخطابات بأنفسهم. ولكن، لما
كانت الذاكرة لا تزال تستوعب حدثاً مماثلاً تم من قبل، فإن الخطابات ترجمت وأرسلت إلى القاهرة
بالبريد. أما المبعوثون الأربعة فقد حجزوا بأسوان.

كان الخطاب الأول من الخليفة عبد الله ومعنونا إلى صاحب السمو الخديوي. وكان

كما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله خليفة المهدي، إلى محمد توفيق، وإلى مصر. هداك الله إلى الطريق القويم،
الذي جاء ذكره في الكتاب الكريم. فلتعلم بأن الله قد هدانا إلى طريقه القويم بأن أرسل إلى العالم
نبينا محمد والذي أرشدنا إلى الدين الصحيح وظل يقولنا بأن أرسل لنا المهدي المنتظر والذي أحيا
(ما اتذر) من دين المسلمين. إنك في شرف عظيم لحضورك زمن المهدي. وقد أعطاك الله الوعي
الذي يجعلك تفرق بين الحق والباطل. ولقد دعاك المهدي للمساعدة في إحياء الدين، وأنا، من
بعده، أدعوك بالمثل للقيام بذلك وقد بينت لك حقائق المهدية وصدقها. لقد فعلت ذلك من باب
الشفقة عليك ولرغبتي في إتقاد روحك في العالم الآخر. فنب إلى الله. ولا أعتقد أن رجلاً عاقلاً
مثلك ينضم للكفرة والمشركين ويفرض نداء الله. فأنت رجل مسلم وابن رجل مسلم ولا يليق بك أن
تختار هذه الدنيا وتفضلها علي الآخرة وأن توافق علي عيش المؤمنين مع الكفار. ألا تعلم ما قاله

* المستر بورتال، من مكتب جلالتها بالقاهرة، مصحوباً بالمارم بيش، من الجيش المصري، كان قد أرسل في أكتوبر
١٨٨٧، في مهمة إلى ملك الحبشة يوحنا، حاملاً رسالة من جلالة الملكة، ومن الحكومة البريطانية، للتوسط بين
الملك يوحنا وبين الإيطاليين.

الله في كتابه الكريم عن عدم اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، وقال أيضاً للمؤمنين ألا يعيشوا مع النصارى واليهود... الخ؟

ولأنك تعرف ما قاله الله، كما يعرفه كل المسلمين، ولأنك تؤمن بالله وبوعده ووعيده، فلماذا تعمل ضد إرادة الله بالاتضمام للأشقياء من غير المتقين، وباتخاذك للمؤمنين أعداء لك؟

بماذا ستجيب الله عندما تغف أمامه ويسألك عن أعمالك وأعمال رعاياك المسلمين؟
أنظر لنفسك قبل أن تموت، وأعمل فكرك في النظر إلى المستقبل إذ ما زال لديك الوقت. ولتفهم بالأ رغبة لي في الكتابة لك حول هذا الأمر إلا من باب الشفقة عليك ولتدخل في نعمة الله. فلنستمع لنصحي وإلى ما قاله رسول الله. فمن يقبل النصيح الخاص بدينه فسينال رحمة الله. وإذا رفض الإستماع لإرشادات الله فإن الله سينزل غضبه عليه. فلا تغرك مملكتك ولا الحياة الطيبة التي تعيش فيها. فهذه الدنيا إلى زوال ولا قيمة لها عند الله. وقد أوضح لنا الله في كتابه بأن هذه الدنيا مثلها كمثلي ماء أنزل من السماء، تسقي الزرع وتؤتي الطعام للإنسان والحيوان، وعندما تزدهر الأرض فبأنه يأمرها بالزوال ويحولها لصحراء (وهنا كتب عدة آيات من القرآن).

إن لديك العقل لتعي تفاهة هذه الدنيا. فلا تعتمد علي خوائها وأقبل ندائي لك قبل فوات الأوان وتجهز للأخرة. وأعلم بأن المهدي هي الوحيدة التي يقبلها الله (من المسلمين)، لذلك أدعوك لاعتناقها وسنقبل بك ونعفو عنك وستنال التشريف والإحترام. أما إذا لم تستجب لندائي وتستمر (في علاقاتك) مع الكفرة فإن خطاياك ستقع علي رأسك، وكذلك خطايا أتاسك وسيتم إحضارها أمامك يوم القيامة. ولتعلم بأن دين الله منصور دائماً، وبأن أعداءه دائماً مخذولون، وأن كل من لا يدخل في هذا الدين سيقع في قبضتنا بإذن الله.

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل

مؤرخ ٥ شعبان ١٣٠٦

(٦ إبريل ١٨٨٩)

وأحتوى الخطاب الثاني علي نسخ من خطابات الخليفة إلى الملك يوحنا ملك الحبشة، مؤرخة عام ١٣٠٤ (١٨٨٧) و ١٣٠٥ (١٨٨٨).

كذلك هناك خطاب آخر، ستأتي ترجمته، معنون من الخليفة إلى سمو الخديوي، يبين فيه الأحداث الأخيرة على الحدود الحبشية والتي هدف منها أن تكون إنذاراً له حتى لا يحل نفس المصير بوالى مصر:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله خليفة المهدي إلى محمد توفيق وإلى مصر هذا لأعلمك بأنني كتبت خطاباً عام ١٣٠٤ إلى ملك الحبشة دعوته فيه للدخول في دين الإسلام، وحزنته مما سيحل به إن عصى تلك الأوامر. وأخبرته بأنه إن لم ينصع لندائي فإنتي سأرسل جيشاً من الأنصار لغزو بلاده. وعندما تسلم خطابي إتيابه الغضب وأظهر الغرور، وعليه أمرت الجيش بالقلابات لغزو بلاده.

* أوردنا هذه الرسائل كاملة في أحداث عام ١٨٨٧، القسم العاشر، وأحداث عام ١٨٨٨، القسم الحادي عشر.

وطبقاً لأوامري، بارحت جيوش تلك المحطة وتوجهوا نحو الحبشة ووجدوا أن العدو قد تجمع بأعداد بالآلاف بجوار غندار، بقيادة الرأس عدل. نشبت الحرب بيننا وهزمتنا الحبش وقتل معظمهم تقريباً وسقطت أسلحتهم وذخائرهم وخيولهم وغيرها في أيدينا. ثم دخل جيشنا غندار وأحرق كنائسها وهاجم القرى. وهنا دمروا حوالي ٢٠٠ كنيسة واسروا عدداً كبيراً من النساء والأطفال، بمن فيهم عائلة رأس عدل، ثم عادوا، بعد أوامرنا، إلى القلايات محملين بالغنائم. وعند عودة جيشنا كتبت مرة أخرى لملك الحبشة وأمرته بالدخول في الدين الحنيف لكنه رفض مرة أخرى. وبالتالي طلبت من الأنصار أن يعاودوا الهجوم. وعندما وصل الجيش لبلاد الحبشة وجدناها خالية، لأن معظم أهاليها قبلوا بالدين الحنيف وأصبحوا من المسلمين. وتوجه الجيش لغندار لكن الجيش الحبشي كان قد اختفى. وبعد أن مكث بعض الوقت في بلادهم عاد رجالنا مرة أخرى للقلايات.

وعندما تم إخبار الملك يوحنا بما حدث غضب غضباً شديداً وإتباعه الغرور الكاذب وجمع مرة أخرى كل جيوشه وتقدم للهجوم علينا. حضر بالوف مؤلفة من جنوده إلى القلايات في شهر رجب ١٣٠٦ (مارس ١٨٨٩). وعندما بلغني نبأ قدومهم أمرت القوات - الأنصار الشجعان - للهجوم عليهم ودارت معركة شرسة بيننا استمرت لأربعة ساعات وربع وانتهت بهزيمة تامة للأحباش وقتل يوحنا النعس هو وعدد كبير من وزرائه مثل الرأس ألو لا وكثيرين غيرهم، إلى جانب ألوف مؤلفة من أتباعهم. أما من تبقى من جيشهم فقد وضعوا ملكهم في صندوق ومضوا به بعيداً. لكن الأنصار طاردوهم حتى وجدوهم في معسكر بالقرب من النهر. كانوا قد نصبوا عم الملك ملكاً جديداً عليهم. وفي اليوم التالي نشبت معركة بيننا دامت لساعتين وهزم فيها الأحباش مرة أخرى ولم يبق منهم أحداً حياً، وحتى ملكهم الجديد قتل أيضاً هو وكل وزرائه. وأحضر الأنصار رأس الملك يوحنا ورؤوس الوزراء وأسلحتهم وذخائرهم.... الخ.... الخ، إلى في أم درمان. ولما كان هذا هو مصير الأحباش، فأنني كتبت لك محدثاً بما جرى، وأمل أن تأخذ العبرة والإذار منه.

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل

مؤرخ ٥ شعبان ١٣٠٦

(٦ أبريل ١٨٨٩).

وكان الخطاب الثالث من الخليفة إلى سمو الخديوي مرفقاً معه أطقماً من ملابس الأنصار وأحذيتهم وسبحة وعمامة وغيرها للاستعمال عند الصلاة، وترجمته كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم.....

من خليفة المهدي، إلى محمد توفيق، وإلى مصر.

لما كنت قد كتبت لك من قبل ونصحتك باتباع الدين الحق، دين المهدي، والذي سيكون فيه سعادتك، فأنني أرسل لك هنا جبة ومسبحة وزوج من الأردية (السراويل) وحزام وطاقية سعف وزوج من الأحذية، وهي الملابس والزي الذي يرتديه أصحاب المهدي وأتباعه. فإذا ما أردت أن تثر الحياة الأبدية في دار البقاء، فارتيدي إذن هذه الملابس وأنصح رعاياك بالعمل على منوالك.

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل

مؤرخ ٦ شعبان ١٣٠٦

(٧ أبريل ١٨٨٩)

والخطاب الرابع موجه للوزير البريطاني في القاهرة، يحثه فيه على اعتناق المهدية بدون تأخير، ويرسل له معه طاقماً من ملابس الأنصار (ولا داعي للقول بأن تلك الملابس، للوزير وللخديوي، قد أعيدت إلى المبعوثين عند رحيلهم من أسوان عائدين إلى أم درمان).

"بسم الله الرحمن الرحيم.....

من خليفة المهدي إلى وكيل الإمبراطورية البريطانية في مصر. هذا الكتاب مرسل لتحذيرك بأن الله قد قال في كتابه العزيز بأن الذين يعرفهم فقط هم الذين هم مؤمنون حقاً بدين الإسلام، أما الذين يعتقدون في ديانة غيره فلن يكون لهم نصيب في الآخرة. ولأنك لم تدخل في ديننا الإسلامي فأننا ندعوك للدخول فيه فوراً. لأن الله قد قال في القرآن "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً".

فإذا آمنت بديننا، وشهدت بأن لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله فأننا سنستقبلك بترحاب عظيم.

من هنا فأننا نرسل إليك جبة وحزاماً وسجادة وسراويلًا وطاقية من السعف وسبحة وصنادل، وهي الزى الذي يرتديه المؤمنون بالمهدي. ونحن نلبس هذا الزي، لأننا أمرنا بذلك، فإن رفضته فعليك تحمل العواقب وستقع في يدنا (يوماً)"

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل.

٥ شعبان ١٣٠٦

(٦ أبريل ١٨٨٩)

والخطاب الخامس كان مقتضباً جافاً وحاسماً، وكما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم....

من خليفة المهدي إلى القنصل البريطاني بالقاهرة.

أخبرك بأن الخطاب المرفق هنا، والمعنون إلى فكتوريا. ملكة بريطانيا، يجب أن يرسل إليها فور إستلامك له".

(مختوم كما سبق)

والخطاب المرفق المشار إليه هو الخطاب السادس، والذي كان خطاباً من جلالة الملكة إلى الملك يوحنا، والذي سلمه له المستر بورنل في أكتوبر ١٨٨٧. وعلى هامش هذا الخطاب كتب باللغة العربية "هذا خطاب وجد في حوزة الملك يوحنا عندما قُتل". أما الخطاب السابع، فهو من الخليفة عبد الله إلى صاحبة الجلالة الملكة، يعبر فيه عن استعداده لقبول جلالته في سلك المهدية. والخطاب كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم....

من خليفة المهدي إلى فكتوريا ملكة بريطانيا

يجب علي أن أحذرك بأن الله قد قال في كتابه العزيز بأنه لا يعرف إلا الذين يؤمنون بدين الإسلام الحق، وأن أي من يعتقد في ديانة غيره لن يكون له نصيب في الآخرة. ولأنك لست

* أرسل هذا الخطاب فوراً لإنجلترا.

من أتباع دين الحق، فلتلك أدعوك لأتباع دين المهدي، لأن الله قد قال في كتابه المقدس "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله..." وهي نفس ما جاء بدينكم. لأننا لا نعبد إلا إلهاً واحداً لا شريك له، وإن علينا أن نساعد بعضنا بعضاً لإعلاء كلمة الله. فإذا آمنت بديننا، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فسنقبل بك بكل ترحاب، أما إن رفضت الإستجابة لندائنا فلاشك في أن خطاياك وخطايا رعاياك ستكون علي رأسك وستقعن في أيدينا.

(ختم، حسبنا الله ونعم الوكيل)

وأشتمل الخطاب الثامن علي (أوراق) الاعتماد الأصلية للمستمر بورتال (المقدمة) للملك يوحنا، والتي وقعها اللورد سالسبري، والمؤرخة في ١٢ أكتوبر ١٨٨٧، وصادرة من وزارة الخارجية (بلندن). وكانت تلك الرسائل هي الدليل الأول الموثوق به عن موت الملك يوحنا. فحتى هذا الوقت لم تكن هناك إلا إشاعات غامضة عن نشوب معركة هامة. ولأن السوابق كانت تتحدث عن أن قادة العرب يعكسون الحقائق، ويحولون الهزيمة إلى نصر، فإن تلك الإشاعات لم تلق إلا قليلاً من التصديق.

ألقي موت الملك البلاد في حالة من الفوضى. ويشاع بأنه قبل موته كان قد سمي ابن أخيه منجشا ليخلفه. لكن ملك شوا، منليك، نازعه في ذلك الأمر. كان منليك من أخلص أصدقاء الإيطاليين، وعدو مرير لمنجشا الذي كان في ذلك الوقت قد ضمن ولاء ودعم الرأس ألو لا. أدت هذه النزاعات الداخلية إلى شل كل المحاولات لتكوين قوة عسكرية للإنتقام لمقتل الملك يوحنا، حتى أن الأمير ود إبراهيم قام بغارة ناجحة وصل فيها حتى غبته بدون أن يلقي أي مقاومة جادة. لكنه حينما حاول الهجوم علي ولكيت هزم بواسطة حبشي يدعي جرازمات وأضطره للرجوع للقلابات. وضعفت قوة القلابات كثيراً بسبب النكسات الأخيرة وعندما طلبوا التعزيزات من أم درمان رد عليهم الخليفة للإسحاب لعصار. ويبدو أن ذلك لم يتم أبداً. وفي أواخر عام ١٨٨٩ جاءت تقارير تفيد بأن القبائل الحبشية التي تجاور القلابات قد عقدت الصداقة مع العرب وأن تجارة مزدهرة قد نشأت بينهم.

أما الشيخ عجول^{*} فيبدو أنه، بعد معركة التاسع من مارس، قد تشاجر مع علي نورين السبدراتي. ومن ثم فقد ألقي به في السجن بواسطة الأبحاش إلى أن تمكن من الكتابة إلى الحاكم العام بسواكن، في يونيو ١٨٨٩، بعد الإفراج عنه، وذكر أن دجاج تساما قد أزيح وحل محله، كحاكم لمقاطعة ولكيت، الحاكم وارقاتي وهو الذي أطلق سراحه. وطلب الشيخ عجول من الحكومة أن تدعمه حيث أنه لا يزال يحتفظ بكامل الولاء لمصر.

...

^{*} أرسل هذا الخطاب أيضاً للندن.

^{*} هذا الشيخ يلقي الآن دعم السلطات الإيطالية في مصوع، والتي قام بزيارتها مؤخراً.

السودان الشرقي (١٨٨٩):

كان سلوك القبائل مرضياً بعد معركة جميزة وساد الهدوء المناطق المجاورة لسواكن. كان يشاهد أحياناً جماعات صغيرة من العدو، لكن قوة عثمان في هندوب قد ضعفت كثيراً وتقلصت العمليات العدائية إلى مستوى الغارات على المواشي، التي كان العرب الموالون يصدونها بفعالية تامة.

وفي الثاني عشر من يناير ١٨٨٩، عاد أحمد محمود إلى هندوب من أم درمان، بعد أن نصبه الخليفة أميراً على الأمرار.

وفي الخامس والعشرين من الشهر غادر الكولونيل كنتشنر سواكن وبنهاية الشهر كان آخر من تبقى من القوات البريطانية قد ذهب، وعادت الحامية مرة أخرى إلى قوتها المعتادة. وفي السابع من فبراير قام الفرسان باستطلاع طريق هندوب، ولما شاهد الملازم بيش إثنين من جماله العدو قام بمطاردتهما وأشتبك معهما في قتال يداً بيد وأسقط أحدهم معزقاً على الأرض، وبينما كان هو على وشك أن يصرع من الجمال الآخر، أندفع أحد الجنود المصريين لمساعدته وتمكن من القضاء على الجمال وبذلك أنقذ حياته.

وفي الثامن من فبراير عقد إجتماع بين أحمد محمود والملازم برنسب، والذي كان يرافقه محمود بك علي. أحتج أحمد محمود بأنه ليس في نيته الإلتصام لعثمان بدقة، وإنه أقترح أن ينضم للهندوة ويحتل هندوب عند مغادرة عثمان لها. كان هذا مظهراً احتجاجياً لإبداء الولاء، لكنه لم يسفر عن أي نتائج.

وفي الحادي عشر من الشهر غادر عثمان هندوب متوجهاً لطوكر بعد أن أحرق معسكره. وبعد أيام تفقدت الخيالة المصرية ذلك المعسكر ووجدته مدمراً تماماً. وكانت لا تزال به بقايا ٢٠٠٠ قطية، وقدروا أن المعسكر كان يأوي في مرحلة من المراحل ما لا يقل عن ١٢٠٠٠ نسمة.

وبعد مغادرة عثمان (لهندوب) تغير الوضع تماماً. وصار العرب يدخلون ويخرجون من سواكن بحرية وساد هدوء عظيم في أنحاء الإقليم لم يعرفه الأهالي منذ وقت طويل.

وأصبحت طوكر الآن مركزاً لنفوذ الثوار في هذا الجزء من السودان. وبنهاية الشهر وصل قادماً من أم درمان الطاهر المجنوب وبصحبه أحد إخوة الخليفة، ومعهما مبلغاً كبيراً من المال، كانوا يريدون به شراء ولاء القبائل، ولتسوية الخلافات والشكاوى المتكررة بينهم وبين البقارة.

وفي أواخر شهر مارس عاد أبو قرجة لطوكر وثار الخلافات، التي كانت محتمة مع عثمان من جديد.

كانت حالة المنطقة شمالي سواكن مرضية عموماً، ما عدا، ولبعض الوقت، ما شوهه من قوات معادية بقيادة أحمد نصرأ في ضواحي حلايب. وفي الثاني عشر من مارس وصلت تعزيزات من بربر، عن طريق أبو حمد، تحت إمرة الأمير البغدادي، للإضمام إلى قوات أحمد نصرأ وساد الاعتقاد بأنهم لم يكونوا سوى تجار رقيق عرب، رغم أن مجئ البقارة والجعليين معهم قد كذب

ذلك الظن. وفي الحادي والعشرين من أبريل وصلت إلى سواكن السفينة الحربية الملكية (عجيمي) وأفادت بأنه عند إنبلاج صباح التاسع عشر من الشهر كان أحد العبيد قد فر من الثوار واندفع نحو المأمورية وقال أن حوالي ٣٠٠ من رجال العدو قادمين نحوها لمهاجمتها وبأنهم سيصلون خلال نصف ساعة. فقام المأمور علي الفور بوضع رجاله فوق الطابية، التي لم يكتمل بناءها بعد، وكانت حاميتها الصغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها ٢٧ من رجال البوليس، وفي نفس الوقت أرسل النساء والأطفال للحماية على ظهر سنوكين كانا بالميناء. أما العرب المحليون فقد فروا إلى شبه جزيرة حيث قامت السفينة عجيمي بإتقاذهم بعد ذلك.

وبعد نصف ساعة من الإنذار هاجم العدو الطابية حيث قابلوهم بالرصاص، لكن الحامية الصغيرة سرعان ما طردت نحو سلسلة صخور على الشاطئ حيث أنقذتهم السناييك، بعد أن قتل إثنان منهم وجرح خمسة. ثم إندفع العدو بعدها نحو القرية حلايب حيث قتلوا حوالي خمسين من النساء والأطفال معظمهم من قبيلة حمد أوراب، وهي قسم من البشاريين. لكنهم أرغموا على الإسحاب، من جراء نيران العجيمي القوية، إلى مأوي وراء الطابية. لكن الموقع ظل تحت سيطرة العرب التامة ولم يعد مجدياً الدخول في معركة معهم، وإتطلقت العجيمي بأقصى سرعتها إلى سواكن. وعلى ضوء تلك الأحداث قام الكولونيل هولد سمث بمبارحة سواكن ومعه ٥٠٠ جندي من الكتيبة السودانية الحادية عشرة بقيادة الكابتن مكدونالد، إضافة لبعض مفارز عسكرية، بالسفينة (مخبر)، وقد صحبتهم السفينة الملكية (ستارلنج)، وكان هدفهم إعادة سلطة الحكومة (للمأمورية) وإن أمكن أن تتم معاقبة الثوار. وصلوا لحلايب صباح السابع والعشرين من الشهر. وعندما شاهد العدو السفن انسحب لبضع أميال إلى الداخل. وعندما هبطت القوات وجدت أن المكان خالياً من أي إنسان. كان عدم وجود وسائل النقل سبباً في منع القوات من مطاردة العدو لأبعد من معسكرهم الأول، والذي وجدوه خالياً بدوره. ظلت القوات لبضعة أيام في حلايب أما العرب فقد انسحبوا لأجوا متيري، التي تبعد ٦ ساعات من حلايب، ولم يقوموا بنشاط بعد ذلك (ضدها). وعاد الكولونيل هولد سمث إلى سواكن في الثالث عشر من الشهر، بعد أن ترك قوة صغيرة بقيادة الكابتن جاكسون لإكمال بناء الطابية الجديدة وإعادة تأسيس سلطة الحكومة في المأمورية. ورجع الكابتن جاكسون بعد أيام قليلة إلى سواكن بعد أن ترك حامية من خمسين من رجال البوليس في موقع قوي التحصين.

خلال ذلك قام الهدندوة، باستثناء القليل منهم، بالإتحاد شيئاً فشيئاً، وباستمرار، ضد الثوار، والذين اعتبروهم من الدخلاء الأجانب. وفي أبريل قام الشبوديناب بغارة على مناطق بشمالي بربر. وظل الأمرار مستمرين في عدائهم السلبي، رغم أن جويل أيور، ابن الشيخ علي ركاب، شيخ قسم السندراي، قد أسس وضعاً مستقلاً وقام بالإغارة بحرية على القبائل الموالية للحكومة، بموافقة عثمان دقنة بدون شك.

* قوات العرب هذه هي التي عملت فيما بعد ضد البشاريين والعبادة في ميسا، وهددت بالهجوم على أبرق فب يولييه.

وبنهاية مايو كتب على عمر، شيخ الجميلاب، للحاكم العام بأنه قد عاد الآن إلى منطقته قادماً من أم درمان، التي أرغم علي الذهاب إليها، وأنه لا يزال يكن خالص مشاعر الولاء، رغم أنه لا يستطيع إظهار ذلك خشية من عثمان دقّة.

وفي يونيو حضر لسواكن عدد من شيوخ الهدندوة الكبار ورجوا الحكومة لمساعدتهم بدعم الخطوات الإيجابية التي يعزّمون القيام بها ضد العرب. وكانت التجارب السابقة قد أوضحت، حتى الآن، بأن مثل تلك الأحلاف المعارضة للمهدية لم تتجح، فقد أحدث كل العوامل، من التشاجر القبلي، والخوف من انتقام الثوار منهم إن فشلوا، والجهل بمدى قوة عدوهم المشترك، لتجعل من الصعب قيام تحالف قبلي بينهم. أما الآن فقد عم الإستياء من البقارة أكثر مما كان عليه من قبل. فقد كان الأخيرون يهكون المنطقة ويحوزون علي كل المؤن لأنفسهم، كما عمت الحوجة، التي قاربت أن تكون المجاعة، كل المنطقة.

فالوقت الحاضر إذن يبدو وكأنه يتيح الفرصة المناسبة لمنح تلك القبائل بعض الدعم من المال والطعام حتى يتمكنوا من اتخاذ موقف إيجابي تجاه الوافدين.

كان محمد موسي دقّة قد عين للتو أميراً على سنكات. وتم اقتراح بأن يشن هجوم عليه في أقرب فرصة فإن نجح ذلك، يتم الانتفاك بكامل الجهود نحو طوكر.

ثم تحالف الهدندوة الآن مع الأمراء. وبعد أن تلقوا الدعم الذي طلبوه، قامت قوة منهم مكونة من ٧٠٠ رجل بمغادرة سواكن في الثاني عشر من أغسطس متجهة لسنكات. وعند وصولهم إليها وجدوا أن موسي دقّة قد فر منها بعد أن ترك وراءه، لتعجله، عدداً من المواشي التي سقطت في يد التحالف.

وطلب موسي المدد من عثمان دقّة. وسرعان ما تجمعت لديه قوة من ٦٠٠ رجل من البقارة والجيليين وقبائل المنطقة في هراساب. لكن التحالف هاجمهم في الأول من سبتمبر وطردهم من مأواهم الجديد، لكن العرب كروا عليهم في اليوم التالي وأجبروه على التقهقر إلى تمايب. كان الحادثان كلاهما صغيراً وغير هام، لكن النتائج النهائية لم تكن مرضية بعد فشل التحالف في تحقيق وعدة الجازم بإجلاء الأغراب أو الدخلاء. ترتب علي ذلك رفض الحكومة لدعمهم بالمزيد وسرعان ما تفكك التحالف وتم حله بعد أن حرم من دعم السلاح والطعام. وأثناء تلك الفترة تم في سواكن تشكيل كيان صغير من الخيالة غير النظاميين، عرفوا باسم الخيالة العربان، ولعب دوراً هاماً في إيقاف الغارات علي المواشي وغيرها.

ولم تتغير الأحوال في المناطق المجاورة لسواكن كثيراً إلا بعد مغادرة عثمان دقّة لطوكر في السابع من أكتوبر كان قد تلقى دعوة لحضور مجلس للأمراء بأم درمان، ستم فيه مناقشة الأوضاع العامة بعد مقتل النجمي وتدمير القوات التي أرسلت لغزو مصر.

وتولي القيادة في طوكر الأمير أبو فرجة، وسرعان ما لوحظ تغييراً عظيماً. وأصبح عدد كبير من القبائل من دلتا طوكر يتوجه بحرية إلى سواكن. أما أحمد محمود فظل، حتى الوقت الراهن، في هندوب. ولم يكن لتأكيداته بالولاء أي أثر يذكر من ناحية عملية وتحول تدريجياً إلى شيخ لص، يفرض الاتوات ويبتر كل من تقع يده عليه. وكانت معظم إيراداته تذهب عادة إلى أيدي

عثمان، والذي كان يشجعه ويؤيد رغبته لتولي زعامة الأمراء. وعندما توجه عثمان إلى أم درمان انضم إليه أحمد محمود في الطريق وتوجها سوياً للخليفة.

وأصبح من المعتقد الآن أن بالإمكان التفاوض مع أبو قرجة. ومن ثم دارت مراسلات بينه وبين الحاكم العام (في سواكن). لكن أبو قرجة كان مراقباً دقيقة من مناديب الخليفة مجنوب أبو بكر والطاهر المجنوب، ومهما كانت حقيقة نواياه، فإنه لم يجرؤ على توريط نفسه. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد بأنه لم يكن يميل إلا قليلاً لترك المهدية، وذلك على الرغم من أنه، وفيما يختص بملازمه وطعامه، لم يكن من غلاة المتمسكين بتعاليم سيده الراحل محمد أحمد. وربما كان هذا هو ما أدى للإعتقاد بأنه كان ينوي الخضوع للحكومة المصرية.

على هذا فقد أختتم عام ١٨٨٩، في تلك المناطق بحدوث تغيير ملحوظ في العلاقات مع القبائل بها، فقد علقت حالات العدائيات النشطة مؤقتاً، وعادت التجارة للإنتعاش لحد ما، رغم أنها بحكم الواقع ظلت في أيدي القوى الحاكمة في طوكر، مما زاد من معاناة القبائل التي أضعفتها الحروب المتواصلة وجعلتها في حالة من اليأس والإفئاع. ورغم أن المعونات، بقدر الإمكان، كانت تقدم لهم إلا أنه لم ينتفع بها إلا القريبون من المدينة (سواكن).

وفي تلك الفترة تم عقد الاجتماع الهام في أم درمان. ويقال أن الخليفة قد حث عثمان على تولي مكان النجومي في مديرية دنقلا، وليعمل على تجهيز جيش آخر لغزو مصر. لكن عثمان أحتج بعدم قدرته على تجميع القبائل في إقليم لا يعرفه فيه أحد. كما أوضح مدى الصعوبات التي واجهها في المناطق المجاورة لسواكن، لكنه أكد بأن نفوذه هناك كان عظيماً وإن من المتوقع أن يلقي نجاحاً أكبر هناك عنه في دنقلا. لذلك تم الإنذار له بالعودة وغادر أم درمان في العشرين من ديسمبر، متخذاً طريق القلابات - القصارف - إلى كسلا والتي كان ينوي القيام بالمرور والتفتيش المطول لها وإن أمكن، أن يجمع المزيد من القوات للعمليات المستقبلية انطلاقاً من طوكر.

أما أحمد محمود فقد وصل إلى هندوب في الثالث من يناير ١٨٩٠، وأنشغل مرة أخرى بجمع الضرائب، وهو الأمر الذي ضايق الهندوة كثيراً وطالبوا بحقوقهم في الطريق وفي نصيب عادل من الأرباح على أقل تقدير.

...

كسلا في ١٨٨٩:

لم تتغير الأحوال في كسلا عام ١٨٨٩، بدرجة تذكر. وكان سعيد حامد لا يزال أميراً عليها. وفي أوائل العام قام بإرسال حملة لإخضاع قبيلة الباريا لكنه، بعد سلسلة من الإشتباكات، عاد بدون أن ينفذ غرضه.

وإستمر الجيلاّب في عدائهم المعلن وكثيراً ما قاموا بقطع الاتصالات بين طوكر وكسلا. أما النبي عامر فكانوا يشنون الغارات باستمرار على المناطق المجاورة لكسلا نفسها. وفي ذلك الوقت تقريباً تلقى الشيخ كئباي ١٠٠٠ بندقية من الإيطاليين، زعم أنه يريد بها الدفاع عن نفسه ضد غارات العرب. كما دخل في تحالف مع النبي عامر ضد الثوار. ولكن يبدو أنه لم يحرز أي

نتيجة منه، رغم أن حملة قد توجهت من طوكر، بقيادة مصطفى هذل، لتأديب البني عامر وعقابههم على غاراتهم الأخيرة.

ولم تتحسن العلاقات القديمة بين العرب والهندوة في ذلك الإقليم. وفي أواخر يونيو قامت قوة مشتركة من الهندوة والبني عامر، بقيادة الشيخ محمود عمرن بهزيمتهم في فيليك وكبدتهم خسائر كبيرة.

وقام الأشراف أيضاً بتجميع قواهم بنهاية أكتوبر، تحت زعامة الشيخ أبو فاطمة وسببوا بعض القلق لقائد العرب بطوكر. ولكن لم تكن لتلك الحركة أثر ملموس. وبنهاية العام رحل أبو فاطمة إلى مصوع.

وخضعت قبيلة الشباب أيضاً (للحكومة) ووصلوا مع شيخهم وعوائلهم لسواكن. وكانت تلك القبيلة الصغيرة من بين أخلص القبائل الموالية لعثمان من قبل وبالتالي كان خضوعهم أمر له بعض الأهمية.

وقام الشيخ أو نور أنوياب، من الجميلاب، بتكوين قوة صغيرة أيضاً، واستقر في ستراب وتحدي العرب علناً، وكون لنفسه كياناً مستقلاً لبعض الوقت.

وفي الثاني والعشرين من ديسمبر أصيبت الحكومة بخسارة هامة بموت محمود بك علي، والذي كان له نفوذ كبير في المناطق المجاورة والذي قدم خدمات طيبة للحكومة لعدة سنوات.

تلك كانت الأحوال العامة بالسودان الشرقي حتى نهاية ١٨٨٩ مما يمكن تلخيصه في بضع كلمات. فالمنطقة كانت لا تزال في قبضة الثوار والذين قاموا بسلوكهم القاسي غير المنضبط بتفجير القبائل المحلية وكسب بفضهم. وكانت تلك القبائل، رغم توقعها لتحرير نفسها من حكم القهر هذا، إلا أنها كانت غير قادرة علي التوحد لأسباب بين قبلية وغيرها. رغم ذلك فقد واصلت عداها لتسلط العرب. كانت قوة عثمان دقة قد ضعفت كثيراً ولم يعد هناك ذاك التحفز والتطلع للأعمال العدائية النشطة وأصبحت المنطقة بأكملها تبدو منهكة من دوامات القتال التي لاتهدأ. وجاء غزو للجراد الصحراوي ليضيف يوماً إلى بؤسهم وانتشرت المجاعة في البلاد.

...

دارفور في ١٨٨٩:

تركنا عثمان آدم، في أواخر ١٨٨٨، في الفاشر يعمل في جو من القلق الشديد على الاستعداد لمواجهة الهجوم المتوقع من أبي جيمزة، والذي كان لا يزال يدار تاماً لحشد القبائل (لنصرته).

وفي أوائل فبراير تقدم أبو جيمزة نحو الفاشر، لكنه أصيب أثناء الطريق بالجدري فنزل في كيكابية بينما واصلت جيوشه بقيادة نائبه الفكي آدم طريقها نحو الفاشر حيث توقفت علي بعد ١٢ ميل من المدينة في المجزون، غرب الفاشر ولمدة يومين. كان الفكي آدم يتوقع أن يقوم عثمان بمهاجمته هنا، لكن الأخير رأي من غير الصواب أن يتحرك بعيداً عن قاعدته، وبالتالي أنتظر قدوم العدو نحوه بالفاشر وهو ما تم في الثاني والعشرين من فبراير.

ولا يمكن معرفة أخبار المعركة الشرسة التي دارت بينهما علي بعد ميل من الفاشر، وفي غياب المصادر الموثوقة، إلا من قراءة الخطاب التالي الذي أرسله عثمان للخليفة بعد انتهاء القتال بإمعان شديد. فقد إنتهى القتال بهزيمة تامة لقوات أبي جيمزة وتشيتت شملها. وقد توفي ذلك القائد المشهور في اليوم التالي للهزيمة وذابت وتلاشت تلك الحركة العظيمة التي بدأت وسط أجواء من تبشير النجاح، ولم يعد لها وجود بعد ذلك.

وجاء خطاب الأمير عثمان كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم...

من عبد ربه وأسير جرمه، عثمان آدم

إلى المثل الأعلى للمؤمنين، حامل راية الرسول الأكبر، سيدنا وولينا ووسيلتنا إلى الله خليفة المهدي، الخليفة عبد الله بن محمد، خليفة أب بكر الصديق.

أحييك بكل تواضع. كنا قد أخبرناكم من قبل بالأغراض الخبيثة لأعداء الله والذين حرضهم قائلهم الشيطاني، ويأتهم يتجمعون من كافة الأنحاء بغرض الهجوم علينا. وفي هذا الخطاب الحالي أرجو أن أفيدكم بأنهم تجمعوا جميعاً في المجزون، على بعد أربعة ساعات من الفاشر، وبعد أن تلقوا إمدادات ضخمة من كل أنحاء دارفور، وأيضاً من الأماكن والبلاد البعيدة مثل دار سلا وفور وبرنو وغيرها من الأماكن.

مكثوا في المجزون ليومين في انتظار هجومنا عليهم. لكنني رأيت من الحكمة أن أقوم بملاقاتهم مدافعاً في مكاننا، وانتظرنا قدومهم.

وفي اليوم الثالث، الجمعة ٢١ جمادى الآخرة (٢٢ فبراير ١٨٨٩) في الساعة السادسة عربي (بالظهر) توجهوا نحونا قادمين من جهة بيرا. كانوا في أعداد ضخمة لدرجة غطت الأرض وأرتفع غبار أقدامهم لعنان السماء. ولا عجب من كثرة جموعهم، فقد كانوا يعملون لذلك الحشد الضخم منذ أربعة شهور. زحفوا نحونا، ومن خلفهم نساءهم وأطفالهم وهم يضربون الطبول والنقارة.

ولما رأيت ذلك وقفت وسط الأنصار وخاطبتهم بإيجاز وذكرتهم بالتوكل المطلق على الله وأن يقاتلوا بضراوة بدون خشية من عدد عدوهم أبداً.

ثم قسمت قواتي إلى أربعة طوابير وأمرتهم بمتابعة بعضهم البعض مع ترك مسافة قصيرة بين كل طابور والآخر. ثم وزعت الفرسان على الجناحين كما هي العادة، ثم تقدمنا بثبات نحو العدو حتى ضاقت المسافة بيننا ثم اندلع القتال.

التحمت القوتان مع بعضهما البعض ودار قتال شرس استخدمت فيه السيوف والرماح والسكاكين. وقام رجالنا الأنصار المؤمنون بالقتال بشجاعة وبسالة بالغين وفي خلال ساعة من الزمن، وبعد أن لحقت به أفدح الخسائر، ولي العدو الفرار.

لكن الأنصار لم يكتفوا بما أحرزوه من نصر بل شرعوا بطاردون الأعداء الفارين حتى مغرب الشمس. أما فرساننا فقد واصلوا مطاردتهم بعد المغيب حتى قتل جميع الأعداء تقريباً. طاردوهم حتى إلى كهوف الجبال والغابات، حيث حاولوا الاختباء فيها، لكنهم أبيدوا جميعاً بمن

فيهم الذين تحولوا (بسحريهم) إلى قروود ونئاب وكلاب وأرانب (لأن أهالي البلاد الغريبة يمكنهم التحول لتلك الاشكال) وقتلوا جميعاً حتى آخر واحد منهم.
كان عدد قتلهم لا يحصى ولا يعد. كما قتل معهم عدد من النساء والأطفال وأخذنا الباقين أسرى.

لقد كان الله معنا ورأينا العديد من المعجزات أثناء القتال. فقد أرسل الله ناراً أحرقت أجساد القتلى من العدو وكذلك جرحاهم مما يظهرهم كأن غضب الله وانتقامه منهم عظيماً.
كما رأى الإخوان ستة عشر راية بيضاء، لها حواشي خضراء، تخفق في الهواء. وسمعوا أيضاً صوت الطبول والنحاس في الهواء ورأوا أشياء مثل الجبال تسقط فوق رؤوس الأعداء. وكان عدة أصحاب قد رأوا الرسول قبل المعركة في رؤاهم.
كانت القبائل التي إتحدت للقتال ضدنا هم البرقو والبرنو والمساليت والتاما والتارجان والأسناكون ودار سلا والزغاوة والبنني هلبة والفزكان والبديات والفور والأرنالات..... الخ.
ومن ضمن زعمائهم القتلى: (١) خليفة الشيطان* وأخوه إساعة، والذي غير اسمه وتسمى باسمك، وإدعي أنه قد نزل من السماء، وأن لا أحد يستطيع الوقوف أمامه، وهو الذي أباح المحظور وحظر المباح. وأيضاً (٢) ابن السلطان صالح وإسمه محمد بخيت. (٣) أخوه (٤) وكيله أبو الخيرات. (٥) عبد الفكي حنفي. (٦) الوزير آدم بوش. (٧) قاضيهم إمام حارث (٨) إثنين من بلاط سلطان البرنو. وغير ذلك كثير من زعماء القبائل الأخرى.
كثير من زعماء القبائل الأخرى.

وكنيت أنوي أن أرسل لكم رؤوس أولئك الزعماء لكنهم تفسخوا وتحللت أجسادهم وسيكون ذلك حلاً ثقيلاً للبريد. لكنني أكتفي بإرسال راسين فقط لكم وهما رأس وكيل الشيطان، ورأس ابن السلطان صالح، مع بعض يوارق الأعداء وبعض أنواع الغنائم مما يؤكد نصرنا المؤزر. أما شيطانهم أبو جميزة فقد مات بالجنري في منزله قبل بضعة أيام ومن ثم أصبحت دارفور بدون رأس. أما الذين نجوا من المذبحة فقد تفرقوا في أنحاء البلاد وأبدي كثير منهم رغبته في الانضمام للإخوان. وسنفيدكم فيما بعد بما يستجد.

أطال الله أيامك ونصر جنودك دائماً وليعطك الله كل القوة. أمين.

مؤرخ جمادي الآخر ١٣٠٦

(فبراير ١٨٨٩)

وهذا انذار موجه لأحد الشيوخ بالسودان الشرقي، صدر بعد هزيمة أبي جميزة:

بسم الله الرحمن الرحيم.....

من عبد ربه عبد الحميد عواض وأحمد محمد محمود وفخر الدين عمر، إلى عبد القادر محمود إيلة، شيخ جزيرة بهدور، بالقرب من سواكن.

بعد السلام. نكتب إليك لنخبرك بأن الله قد أمد أيدي المهدي ومن تبعه بالقوة الكاملة. ففي يوم الثلاثاء التاسع من رجب ١٣٠٦ (١٢ مارس ١٨٨٩) إنتقلت (جيوش) وكيل المهدي

* نظراً لطموح أبو جميزة الديني ومعارضته للمهدية فقد أطلق الأنصار عليه اسم الشيطان.

الموقر الزاكي طمل بالأحباش وهزمتهم وقتلتهم جميعاً. كما أن قبائل الأقاليم الغربية قد هزموا بواسطة الإخوان وهلك شيطاتهم أبو جميزة بالجدي. والخطابات المرفقة توضح تفاصيل تلك الانتصارات ومنها ستعرف أنه لم تعد هناك أي قوة تستطيع الوقوف أمام أتباع دين الله. لذلك فأننا ننصحك بأن تكون عاقلاً وتتضم للمهدية وإلا فستعرض نفسك للدمار).

وضعت تلك الهزيمة عثمان آدم في موضع السيد على كل المناطق الغربية حتى تخوم وادي، وشلت لبعض الوقت كل محاولات القبائل المعادية للتجمع ضده من جديد. لكن أسماء الزعماء الذين ذكر بأنهم قتلوا في المعارك لم تكن (كلها) صحيحة. فقد نجا أبو الخيرات وأخوه عباس من المذبحة، وكذلك نجا المقدم جمعة وحامد وآدم بوش وبابكر نجا. وقام هؤلاء، مع بضعة مئات من أتباعهم بالإسحاب لأقصى الغرب وأصبحوا مصدرًا مستمرًا للإزعاج لعثمان آدم. ولايزالون يشكلون نواة لحركة قد تتطور في أي وقت إلى صراع دام آخر مع قوات الخليفة. وأصبحت الممالك القوية، وادي وبرنو وبرقو، وهي مرتع قوي للسوسية، على تخوم حدود الخليفة وأخذ يشعر، بأنه إن عاجلاً أم آجلاً، فإن من المحتم دخوله في صراع مع المصلح الديني الآخر، السنوسي الكبير.

وعين الكولونيل كتشنر الآن في وظيفة إدجوتات جنرال للجيش المصري، وحل محله حاكماً عاماً لسواكن اللفتانت كولونيل (قائمقام) هولد سميث والذي، بعد وصوله لسواكن في ١٣ سبتمبر، حل محل الميجر رنل.

...

الاستوائية في عام ١٨٨٩:

للمرة الثالثة وصل ستانلي إلى البحيرة يوم ١٨ يناير ١٨٨٩، وفي هذه المرة أقام معسكره في السهل الواسع المرتفع الذي يطل على الأرض المنبسطة بالقرب من قرية كفالي. وكان قد غاب هذه المرة حوالي تسعة أشهر. كان قد وصل إلى بناليا في السابع عشر من أغسطس ١٨٨٨ ليفاجأ بأن قائد جماعته الخلفية، الميجر بارتلوت قد قُتل غيلة وغدراً، وأن المستر جيمسون قد سقط مريضاً بالحمى، وبقية الضباط معاقين، وأن معظم رجاله من الحرس الخلفي قد مات أو هرب.

وقام ستانلي بجمع من تبقى منهم، حوالي ٣٥٠ رجلاً لا غير، بقيادة المستر بوني. وتحرك فوراً يوم ٢٣ أغسطس (في طريقه للبحيرة). لكنه ولخمسة شهور عاني الأمرين من جراء اختراقه للغابة العظيمة.

وبعد يومين من وصوله إلى كفالي بعث برسائل إلى أمين باشا والمستر جفسون في تنجورو، واستلمها الأخير في ٢٦ يناير. وتحرك جفسون في اليوم التالي حيث، من خلال ولاء شكري أغا، قائد نقطة مساوا، والذي تمكن من تجهيز قارب محلي (كنو) له، نجح في شق طريقه إلى كفالي ووصلها في ٦ فبراير.

سمع الضباط المتمردون في وادلاي بوصول ستانلي لكفالي. وقد تضخمت الأقوال حوله، لتصور أتباعه، الذين جاءوا معه، كجيش عظيم. وكان أمين قد أصدر أمراً قبل ذلك (من تنجورو)

إلى سليم بك للحضور له فوراً مع ضباطه لمقابلة ستانلي. فتوجه سليم بك وبصحبه أربعة عشر ضابطاً بالباخرتين نيتازا والخديوي نحو تجورو. وعند وصولهم كتبوا خطاباً، بناء على أوامر أمين، يعتذرون فيه عن سلوكهم السابق، ويلتمسون العفو، ويرجونه معاودة القيام بدوره كحكام للمنطقة. ويبدو أن أمين باشا قد قبل اعترافهم العلني وتوبتهم وخضوعهم وساقهم معه، سليم بك وضباطه، إلى نسابي، والتي وصلها في ١٣ فبراير. وفي السادس عشر من فبراير أرسل المستر جفسون لمرافقتهم حتى المعسكر. ووصلت كل المجموعة المكونة من أمين وكاماتني وفينا حسن وسليم بك، مع سبعة ضباط آخرين وعدد من التابعين، إلى معسكر ستانلي في كفاللي في اليوم التالي.

خلال تلك الأثناء كان ستانلي قد جلب كل مساعديه وأتباعهم الذين كانوا في منطقة مازامبوني. والآن وبعد أن وصل كل الضباط الأوروبيين فقد تقرر أن يتم إجتماع لهم في اليوم التالي للبحث في الأوضاع كافة.

وفي ذلك المجلس اتخذ قرار بالإجماع بضرورة تنفيذ أمر إخلاء المديرية (الاستوائية)، وأنه لا بد من إتاحة وقت كاف للضباط وللجنود والموظفين لإحضار عوائلهم للمعسكر. وكان قد تم كتابة إتفاق بهذا الشأن من قبل في وادلاي وقام سليم بك الآن بتقديمه إلى المستر ستانلي، والذي قام بدوره بكتابة الرد، محدداً شروط وطريقة الانسحاب، وسلمه للضباط. عاد الضباط في السادس والعشرين من الشهر إلى مناطقهم بالبواخر بهدف الشروع في إخلاء النقاط والمحطات الجنوبية، والذي كان من المتفق عليه أن يتم قبل العاشر من أبريل.

وقبل قيامهم بقليل، تلقى سليم بك خطاباً رسمياً من فضل المولي بك، الذي كان قد تركه قائداً للقوات في وادلاي أثناء غيابه، يفيد بأنه قد أقيل من منصبه في القيادة، وبأنه قد صدر حكم عليه وعلى الباشا وعلى كاماتني بالإعدام. ويبدو أن سليم بك لم يعر هذا الأمر اهتماماً جاداً، أو ربما كان ذلك جزءاً من المؤامرة المدبرة، لأنه شرع على الفور في الإبحار إلى وادلاي ولم يسمع عنه أي شيء إلا بعد شهر من ذلك، في ٢٦ مارس، حيث كتب من هناك قائلاً أنه وكل الضباط جاهزون للعودة لمصر مع المستر ستانلي وأنهم الآن يقومون بإخلاء دوقللي.

وعندما نقل أمين باشا هذه الأنباء للمستر ستانلي عبر عن وجهة نظره بأن عملية التجمع في كفاللي يجب أن تستمر لثلاثة شهور أخرى وطلب من المستر ستانلي النصح حول طبيعة الرد الذي عليه أن يرسله. قرر المستر ستانلي عند ذلك عقد اجتماع لضباطه وخاطبهم في الاجتماع، بحضور أمين باشا، بما يلي:

هذا التغيير المفاجئ في سلوك سليم بك وضباطه في وادلاي أدى إلى إثارة الإشتباه فيهم. فقد كان سلوكهم في الماضي أبعد ما يكون عن الولاء لدرجة أصبح من الصعب فيها التحقق من الدوافع التي أنت لهذا التغيير المفاجئ. فمن جانب ربما إنزعجوا للإشاعات الخاصة بتضخيم قوة جيش ستانلي وبالتالي قرروا الإنقاء بنفلكهم مع الجانب الأقوى، أو ربما كان، وهذا هو الرأي الأرجح، في نيتهم التآمر على ستانلي والإستيلاء على سلاحه وتخاذه. وفي كافة الأحوال فيبدو أن سليم وجماعته كانوا ميلين للتجسس ومعرفة الأحوال على الأرض قبل أن يقرروا إتخاذ الخطوة التالية وهذا ما أثبتته الأحداث بعد ذلك.

"أيها السادة - قبل أن تقدموا لي النصح في هذه المرحلة الهامة، أسمحوا لي أن أخص بعد الحقائق كما حدثت.

كان أمين باشا قد تلقى رسائل من وادلاي. فقد كتب سليم بك، الذي غادر هذه المحطة في ٢٦ فبراير الماضي، مع وعد منه بالإسراع في إرسال أولئك الذين يرغبون في العودة لمصر، كتب من وادلاي بأن البواخر مشغولة في ترحيل بعض الناس من دوفيللي إلى وادلاي، وبأن أعمال الترحيل من وادلاي وتنجورو سيتم إستئنافها عندما ينتهون من تلك المهمة.

فعندما غادرنا (٢٦ / ٢) علمنا بعدها بأنه قد أطيح به، وأنه وأمين باشا قد حكم المتمردون عليهما بالإعدام. لكننا في هذا اليوم نعلم (جميعاً) بأن المتمردين، وهم عشرة ضباط، وكل جماعتهم، يرغبون في التوجه لمصر. لذلك نفترض عموماً بأن جماعة سليم بك قد عادت إلى الصعود مرة أخرى.

"وقد قام شكري أغا، رئيس محطة مسوا الأقرب إلينا، بزيارتنا في منتصف مارس. وتم إخطاره يوم ١٦ مارس، أي في اليوم الذي رجع فيه، بأن قيامنا لزنجبار قد يبدأ فعلاً في العاشر من أبريل، وأخذ معه خطابات عاجلة لسليم بك توضح تلك الحقيقة بصورة لا تقبل الشك".

وبعد ذلك بثمانية أيام سمعنا بأن شكري أغا لا يزال في مسوا ولم يرسل إلا بعض الرجال والأطفال إلى معسكر نياتزا. ولو كانوا ينتوون، هو ورجاله ومن معه، الذهاب بصحبتنا، لكانوا معنا الآن.

وقبل ثلاثين يوماً كان سليم بك قد فارقنا بعد أن وعدنا (بالحضور) في وقت معقول. واعتقد الباشا مرة بأن عشرين يوماً هي وقت معقول، لكننا مددنا الفترة إلى أربعة وأربعين يوماً. وبتدقيق النظر في المدة التي استغرقها سليم بك، ليصل فقط إلى تجورا مع واحد علي ستة عشر

من القوة المتوقع وصولها، فأنتني شخصياً مستعد تماماً الآن لأوضح للباشا قراري الذي اتخذته. إنكم تعلمون، يا سادتي، بأن الباشا قد سمع إفادة إستخبارية مشجعة جداً من سليم بك، وهو الآن يرغب في معرفة قراري لكنني فضلت أن أجمعكم لتجيّبوا نيابة عني.

إنكم علي علم بأن تعليماتنا التي علينا تنفيذها هي أن نوصل النجدة لأمين باشا، ثم حراسته ومن يود القدوم معنا حتى نوصلهم لمصر.

وقد وصلنا إلى نياتزا والتقينا أمين باشا في أواخر أبريل ١٨٨٨، بالضبط قبل عام من الآن، وسلمناه رسائل الخديوي وحكومته وكذلك الدفعة الأولى من الممد، وسألناه إن كان سيمنحننا الشرف بأصطحابنا لزنجبار. فأجاب بأن رأيه يعتمد علي ما يقرره رجاله.

كانت تلك أول الأخبار السيئة التي تلقيتها. فبدلاً من لقاء عدد من الناس تواقين بشدة لمغادرة إفريقيا لم نجد إلا حفنة من الكتبة المصريين ممن يود ذلك. كان الميجر بارتلوت بعيداً عنا في المؤخرة ولم يكن بمقدورنا انتظار وصول قراره لنا في نياتزا، لأن ذلك قد يستغرق عدة أشهر، وكان من المجدي لنا أن نشرع في البحث عن طابورنا الخلفي ومساعدته. وفي الوقت الذي وصلنا هنا مرة ثانية وجدنا أن الذين يريدون الذهاب لمصر جاهزون تماماً.

لذلك قمنا، بعد أن تركنا المستر جفسون لحمل رسالتنا لقوات الباشا، بالعودة لإقليم الغابات، حيث طابورنا الخلفي. وبعد تسعة شهور عدنا إلى نياتزا ثانية. وبدلاً من أن نجد فيها

معسكراً مكتظاً بالذين هم تواقون لمغادرة إفريقيا، لم نجد أي معسكر علي الإطلاق، وسمعا بأن الباشا والمستر جفسون في السجن، وأن حياة الباشا تتعرض لخطر داهم من قبل المتمردين، وفي مرة أخرى سمعا أنه في خطر بتعريضه للتقييد والتكبييل وحمله علي سريره إلى أعماق مجاهل مكاراكا. وسرت الأقاويل في المديرية بأننا لسنا سوي جماعة من المتآمرين والمغامرين، وأن خطابات الخديوي ونوبار باشا ما هي إلا فيرقة وتزييف قام بها المسيحيون التافهون سستانلي وكاساتي، بمساعدة من محمد أمين باشا. وقد تاه المتمردون عجباً وزهواً، لانتصارهم السهل وبدون دماء، علي الباشا والمستر جفسون لدرجة أنهم تباهاوا علناً بعزمهم علي الإيقاع بي، بالتودد إلي بالكلمات المصولة المنمقة، ثم بعدها تجريدنا من أي شيء لدينا وإلقائنا وسط الأدغال حتى نموت. ولا أري داعياً للحديث عن جحود هؤلاء الرجال وعدم عرفاتهم، ولا عن جهلهم المدقع أو طبعهم الشرير، بل أقدم فقط الحقائق لكم لتساعدكم علي الوصول للقرار الواضح.

لقد اعتقدنا، عندما تطوعنا للقيام بهذه المهمة، بأننا سنستقبل بأذرع مفتوحة. لكننا قوبلنا باللامبالاة حتى شككنا في صحة رغبتهم للمغادرة. لقد سجن ممثلي وهدد بالبنادق وإستخدام الوعيد والتهديد بحرية معه. ولقد أقيل الباشا ولمدة ثلاثة شهور كان سجيناً منعزلاً. ولقد علمت بأن هذا هو التمرد الثالث في المديرية. حسناً. ففي وجه كل هذا ظللنا لمدة اثني عشر شهراً في الانتظار لنحصل في النهاية علي بضعة مئات من الرجال من غير حاملي السلاح ومن النساء والأطفال في هذا المعسكر. وكما وعدت سليم بك وضباطه بأنني سأعطيهم وقتاً معقولاً، فإبتهم كرروا مراراً لنا بأنه لن يكون هناك أي تأخير، وقد حدد الباشا العاشر من ابريل كموعدهم نهائي، مما زاد من المهلة المحددة لهم حتى وصلت إلى أربعة وأربعين يوماً، وهي مدة تكفي لأن تقوم البواخر بثلاثة رحلات ذهاباً وإياباً.

لكن الأتباء التي جاعتنا اليوم ليست بأن سليم بك قد وصل إلي مكان قريب، بل أنه حتى لم يغادر وادلاي إلي الآن. وبالإضافة إلي أصدقائه المقربين، والذي يقال بأنهم موالون له ومطيعون، فإنه سيحضر معه الضباط المتمردين العشرة وحوالي ٦٠٠ أو ٧٠٠ جندي من الموالين لهم.

وإذا تذكرنا الثورات الثلاثة التي كان وراءها أولئك الضباط، ونواباهم المعلقة ضد حملتنا هذه، ومؤامراتهم ومؤامراتهم المضادة، وحياة الإجرام والتآمر التي قادوها، وخيانتهم وهم يبتسمون، فلا بد لنا من التوقف لنرى ماذا يدور بخلدهم الآن - فمن كونهم كانوا متمردين فوضويين وقفوا ضد كل السلطات المؤسسية تحولوا فجأة إلى جنود مطيعين وموالين للخديوي وللحكومة "العظيمة". لذا فطوبكم أن تكونوا عارفين بأنه، وبخلاف الواحد وثلاثين صندوقاً من الذخيرة التي سلمناها للباشا في مايو ١٨٨٨، فإن المتمردين لديهم ذخائر الحكومات الإقليمية التي تعادل عشرين صندوقاً مما لدينا. وإن أعطيناهم قدرأ من الذكاء تجعلهم يفهمون تماماً بأن كمية كهذه قد تطلق في ساعة واحدة من القتال مع عدد كبير من حملة البنادق، فلا شك في أنهم (بذلك القدر من الذكاء) سيظهرون الخضوع والولاء لنا حتى يؤمنوا الحصول علي المزيد (من الذخائر) معنا.

ورغم إبتهاج الباشا في كل مرة يتلقى فيها رسائل معقولة من أولئك الناس، والغرباء أيضاً مثلنا، فلا بد لنا من أن نخبر له عدم ثقته بهؤلاء الرجال والذين لديهم كل ما يوحى بعدم الثقة فيهم. ولو كان لدينا أي ضمان لحسن نيتهم فربما كنا لن نعارض تسليمهم كل ما يطلبون، ولكن بعد إذن الباشا. وهل بإمكاننا التأكد بأننا لو سمحنا لهم بالدخول لمعسكرنا، كأصدقاء حميمين وكجنود مخلصين لمصر، فأنهم لن يقوموا ذات ليلة فجأة ويستولون على كل ذخيرتنا ويحرموننا من القدرة على الوصول لزنجنبار؟.

سيكون ذلك أمراً سهلاً بالنسبة لهم، بعد أن عرفوا تماماً ما يدور بمعسكرنا. فعندما ندرك ونتذكر غرائب الأخبار التي نكرها لنا المستر جفسون بالأحوال التي سادت في المديرية منذ أن قفل طريق النيل (بواسطة الأنصار)، ونري الباشا هنا أمام أعيننا، والذي كنا نفترض بأن له عدة آلاف من الرجال خاضعين له، لكنه الآن بدون أي اتباع ذوي أهمية تذكر، وعندما نضع في أذهاننا "التوعد الكاذب" و "الخداع" الذي كان من المفترض أن نفع في شراكه، فأنني أطلب منكم التعقل عند النظر في مد المهلة بانتظارهم لما بعد الموعد المحدد، ألا وهو العاشر من أبريل.

كان قصد المستر ستاتلي من مخاطبتهم، بهذه الصورة، واضحاً. فقد كان يخشى من قيام الضباط المتمردين مرة أخرى بالتحضير لمؤامرة للوقوع في حبالهم. وقد أنفق جميع ضباطه معه في وجهة نظرة.

وتقرر بصورة قاطعة أن تبدأ المسيرة نحو الساحل في العاشر من أبريل وأرسلت الرسائل بهذا المعنى للقادة في وادلاي ومسوا.

وفي الرابع من أبريل جاءتهم رسائل من وادلاي تصف أحوالهم هناك بكل الصفات ما عدا أن تكون مرضية. فقد كان تجميع القوات من المحطات الشمالية يسير ببطء شديد. وكانت الخلافات بين الضباط وبين كل رموز التمرد السابقين ظاهرة للعيان في وادلاي وأصبح واضحاً أنه لا سليم بك ولا رجال الحامية سيصلون في الموعد المحدد للرحيل. وفي تلك الليلة، الرابع من أبريل، جرت محاولة لسرقة بعض بنادق الزنجنباريين.

وهنا، في قلب المعسكر نفسه، بدا أن روح التمرد قد تسللت إليه. لكن ستاتلي كان يقظاً للقضاء على الفتنة بكل قوة. وفي اليوم التالي جمع قوائمه في مرج، وأمر كل من كان بالمعسكر ممن ينتمي للمديرية بالحضور، وأمر بطرد كل من أظهر تردداً في تنفيذ الأمر بالقوة. وعندما اكتمل التجمع خاطبهم ستاتلي وشرح لهم بوضوح ما حدث، وأظهر عزمه على إنزال أقصى عقوبة علي من يقوم بأي مظهر يدل علي التردد في تنفيذ أوامره. ثم نادى الذين يودون العودة مع أمين باشا إلي الساحل ليقفوا في جانب واحد. وقد أبدوا كلهم، ما عدا واحداً منهم، رغبتهم في الذهاب بصحبته. وتم إبقاء الرجل غير الراغب في السجن فوراً. هذا التصميم والحزم للتعامل مع أول إشارة للتحريض علي العصيان أدت إلى تجنيبهم أوحش العواقب، لكنها أثبتت قرار ستاتلي لعدم التأخير ولو ليوم واحد عما هو مقرر. وبالتالي، وفي العاشر من أبريل، تحركت كل الجموع والقوات، المكونة من حوالي ٦٠٠ مصري وغيرهم من المديرية الاستوائية، بمن فيهم نساءهم وأطفالهم، وطابور الإنقاذ المشترك، وعدد من الحمالين، وبلغت جملة المغابرين ١٥٠٠ نسمة، خرجوا جميعاً من كفالي ووجهوا وجوههم نحو الشرق في زحفهم الطويل باتجاه زنجبار.

وقبل مضي بضعة أيام علي تحركهم تعددت حالات الفرار وتغيير الرأي في التوجه للساحل. فقد رجع ربحان ومعه ٢٢ من أتباعه إلى البحيرة، لكن تم اعتقاله وأعيد للمعسكر حيث تم شنقه.

لكن مرض ستانلي الخطير أدى إلى تعطيل المسيرة لعدة أيام في مازا مبونى، وعندما كانوا هناك، في الثالث من مايو، تم اعتراض رسائل من وإلى وادلاي، والتي أظهرت أن شرارة العصيان لا زالت متوهجة في المعسكر. فقد كتب ضابط، هو إبراهيم أفندي إلهام، والذي كان وقتذاك بالمعسكر، خطاباً يرجو فيه عدم تأخير إرسال الرجال لهم، "لأننا لو تمكنا من الحصول علي مساعدتهم فيمكننا بعدها تعطيل المسيرة بعدة طرق. لكنك إذا جئت بنفسك مع ٢٠٠ عسكري فسنتمكن من الحصول علي كل ما تريده وأريده".

لذلك إتخذ ستانلي قراراً بأنه إذا ما وصل سليم بك بعد كل ما جري، فإنه لن يسمح له ولا لرجاله بالدخول للمعسكر بسلاحهم. لكن سليم بك لم يصل أبداً. أما شكري أغا، القائد المخلص لمسوا، فقد عاد، ولكن رجاله الذين جاؤوا معه هجروه قبل أن يصل لمعسكر ستانلي.

وفي الثامن من مايو تحركت الحملة أخيراً من مازامبونى. ومنذ تاريخ صدور الأمر الأول بالانسحاب من الاستوائية، أي ٢٥ فبراير، وحتى الثامن من مايو، وجملة المدة ٩٢ يوماً، كان وقت كاف قد أتيح للحاميات للإسحاب والإلتحاق بالحملة المتوجهة لزنجبار. لكنهم لم ينتهزوا فرصة ذلك العرض، أو بالأحرى كان الخلاف مترعراً بينهم لدرجة استحالة وصول الضباط لقرار محدد. بالتالي بارحت الحملة مازامبونى في الثامن من مايو وفي نفس عصر ذلك اليوم وصل رسل من سليم بك مع خطابات مفادها بأن عصياتاً آخرأ قد انفجر في وادلاي مما أدى لشل كل جهوده لتنفيذ أوامر ستانلي. كان فضل المولي بك هو العدو اللدود له، فقد قام بتحريض معظم القوات علي العصيان، وقام معهم، في ظلمة الليل الداهم، بالتسلل إلى المخازن واستولوا علي كل ما بها من ذخيرة تم غادروا وادلاي إلى مكاراكا تاركين سليم بك مع ٢٠٠ من الضباط والكتبة والجنود، ومخازن خاوية فارغة. وقام (سليم بك) بالتوجه مع ذلك العدد القليل من أتباعه إلى مسوا في ٢٢ أبريل. لكنه تعطل هنا مرة أخرى، وهو الآن يسأل (ستانلي) لإيقاف الحملة ريثما يصل إليه.

ومن تجاربه السابقة معه، قرر ستانلي عدم التوقف، لكنه سيتحرك ببطء وربما يتوقف لبضعة أيام علي الجانب الآخر لنهر سمليكى. فإذا رغب سليم بك في الحضور حقاً، فإن بمقدوره اللحاق بهم بسهولة. وهذا كان الرد الذي حمله الرسل معهم عائدين له، وفي نفس الوقت كان هذه آخر اتصال بين من تبقى من المصريين في الإستوائية وبين حملة الإنقاذ، والتي واصلت الآن مسيرتها ببطء شاق طريقها للساحل حيث وصلوا إليه في السادس من ديسمبر بعد سلسلة من المغامرات الغريبة والاكتشافات التي كان من أهمها قاطبة إكتشاف منابع النيل، وإكتشاف جبل رونزورى العظيم المكمل رأسه بالجديد، وبحيرة ألبرت إدوارد نياتزا ونهر سمليكى - الذي يصب في بحيرة ألبرت وهي اكتشافات لا يمكن تقدير مدى أهميتها. لكننا لا ننوي الدخول في تفاصيل رحلة العودة هذه لزنجبار. يكفي أن نقول بأن ذلك الطابور الضخم قد وصل لمبتغاه بنهاية العام بعد أن تقلص عدده كثيراً.

تم ترحيل المصريين فوراً للقاهرة. وقد استغرق المشروع الذي قامت به حملة الإبقاء (إخراجهم من الإستوائية) قرابة الثلاثة سنوات قطعوا فيها عبر القارة أكثر من ٦٠٠٠ ميل. لقد كان عملاً رائعاً بالفعل، وسيدخل لحوليات التاريخ كأعظم إنجاز مسجل. أما عند سير الحوادث في الإستوائية بعد ذلك فلا يعلم أي شيء ولكن يمكن افتراض أن المديرية قد رجعت إلى ما كانت عليه من البربرية والبدائية. وربما كان المهدي قد ضم، أو لم يضم، هذه الأقاليم لمملكته الواسعة. لكن الأمر الأكثر احتمالاً هو أن تعمل القبائل الزنجية، التي توجد في ذلك الإقليم الشاسع، والتي جربت من قبل تجار الرقيق العرب، ما في وسعها للحفاظ على حريتها حتى يأتي اليوم الذي تصل فيه إليهم القوى الأوروبية وتسبغ عليهم الحماية وتفتح أبواب تلك الأراضي الشاسعة للتجارة والأعمال الأخرى.

*** .

الخاتمة

لأسباب واضحة، فإن الوضع الحالي لمجري الأحداث في السودان، ومختلف الوسائل المتخذة لمنع حدوث غزو (آخر) لمصر، إنما تدخل في باب الخطط غير المكتملة أو المسائل السياسية الجارية، والتي لا نود الدخول فيها. إنما يتبقى لنا فقط أن نعطي صورة وصفية للظروف التي يحكم فيها السودان، ولنورد فكرة عن سير الأحداث حالياً فيه، حتى يتمكن القارئ، من المعلومات التي أوردناها في أقسام الكتاب، من متابعة مجري الأحداث الراهنة وأن يستقري ما سيجري فيه في المستقبل.

فلترالت سلطة الخليفة هي العليا في السودان. ولكن كم تغيرت عما كانت عليه في الأيام الأولى لمحمد أحمد!

فعندما شرع الأخير في (تنفيذ) رسالته المقدسة، كانت ظروف السودان ناضجة للثورة ومهيأة لها. كان الحكم فاسداً في كل مكان منه، إزدهرت الثورة في أرض خصبة. كانت القبائل والأهالي يعانون معاناة قاسية من طغيان حكامهم الأجانب، وبالتالي رحبوا بالمهدي المنتظر والذي كان سيحررهم ويمكنهم من أن يكونوا مرة أخرى المالكين لأراضيهم. ولحوالي سنة، على الأكثر، إزدهر المدعي وصدقت الغالبية العظمى من الناس بأن المهدي الحقيقي قد ظهر أخيراً. وبمرور الزمن رأوا قائدهم الروحي يتحدر إلى الإفراط في الغواية ويقاد مغمض العينين بواسطة كبير خلفائه، عبد الله التعايشي، والذي حكم البلاد بيد من حديد مدعوماً من البقارة البالغي القوة. وبدلاً عن مملكة دينية يعيش الناس فيها بسلام، حيث تكون الثروة مشاعة والفقر غير معروف، وجدوا أن بلادهم تنحدر نحو دولة للظلم والطغيان. وملاً السلب والنهب وسفك الدماء والرعب أرجاء البلاد.

حاولت قبيلة بعد أخرى التخلص من قميص نيسوس المعلق برقبتها، ولكن القوة التي بنوها عن جهل منهم تحولت الآن إلى شبح ضخم أرهبهم ودمرهم. وكلما حاولوا طرد ذلك الكابوس البشع كلما ازداد الضغط عليهم حتى تحولوا إلى عبيد أذلاء للنظام. وسقط زعماءهم ضحايا لقسوة ووحشية حاكم شرقي يتميز بطباع غاية في الخسة والتسلط. وتدهورت أحوال أسر بأكملها لتصبح عبيداً لأمراء البقارة القساة. ولا يجرؤ أي شخص علي اعتبار أن روحه ملك له، وإذا تجرأ وتحدث حديثاً خاصاً مع أصدقائه فدائماً ما يوجد من يراقبه وينقل ما دار إلى سيده، وتكون العقوبة هي الموت أو قطع أحد الأطراف. فما العجب في أن تحن القبائل لعودة حكومة، مع كل أخطائها، لم تعاملهم أبداً بهذه الصورة؟ لكن صرخة الكرب والأسى لم تأت منهم إلا متأخرة كثيراً، وكان الرد الثابت والصحيح للحاكم المنبوذ (مصر) كان: "عليكم تحرير أنفسكم من الحاكم الذين صعدتموه قبل أن تأملوا بأنني سأضعكم مرة أخرى تحت حمايتي".

لقد كنتم مصدرراً للمشاكل لي وللنفقات الباهظة، فلماذا تتوقعون مني عونكم في الوقت الذي قمت فيه، وبكامل إرادتكم، برفضتي؟". ولا يوجد رد على مثل ذلك السؤال. وبالتالي سيستمر الحال علي ما هو عليه حتى يجئ الوقت الذي يبسط (السيد القديم) حمايته مرة أخرى علي عياله الجامحين.

ولا زال حكم البقارة المرعب قائماً. لكن كل هذا القهر وسفك الدماء قد تسبب في إضعاف قوة الخليفة. وحتى البقارة المرعبين تبعوا من الحروب المتواصلة. وقبل بضعة شهور نشب تمرد وسطهم أدى إلى فرار ٣٠٠٠ رجل منهم وعودته لدياره. وتكررت الإشاعات بأن الخليفة أصبح يكرر حديثه عن الرؤى التي تخبره للقيام (لهجرة) إلى جزيرة أبا أو إلى جبال جنوب كردفان وذلك في وقت لم يعد فيه مستبعداً نشوب ثورة ضده. ومن الناحية الأخرى فأنه من المبكر أن نفترض بأن قوته قد ضعفت للدرجة التي تجعل من "هجرته" أمراً ضرورياً. وما عدا بعض الإشارات الواردة عن الأحوال، وحنين القبائل وتوقهم ليروا أنفسهم أحراراً مرة أخرى، فلا توجد أرضية قوية للإعتقاد بأن إنهيار المهديّة قد أصبح وشيكاً. وترد (إلينا) من وقت لآخر تفاصيل تتعلق بحكم الخليفة في أم درمان مما يعطي صورة لطبيعة الطغيان والعشوائية التي تجسدها الخلافة الحالية.

ولكن وقبل الدخول في هذا الموضوع فربما يكون أمر إعطاء وصف موجز للخليفة عبد الله التعايشي، من ناحية مظهره الشخصي، مثيراً للإهتمام. فيقال بأنه رجل فارغ القامة، متين الجسم وعمره حوالي خمسين سنة. بدأ لون شعره يتحول للرمادي، ويلاحظ علي وجهه أثر الجدري. له لحية كبيرة وشارب خفيف. وكان قد أصيب برصاصة في فخذه عند حصار الأبيض جعلته يعرج عرجاً خفيفاً. وهو فخور بالجرح الذي أصابه ويحكي كثيراً كيف حدث له ذلك، مثلما يتحدث عن شجاعته الشخصية. وهو بجهل القراءة والكتابة ويقال إنه شديد الجهل لكنه ذو عزيمة ومضاء ومتمكن جداً من أساليب الخداع والتحايل. وكما عبر عنه أحد الذين يعرفونه جيداً: "إنه ماهر كثعلب". وهو شديد الخلاء والزهو بنفسه، ويشتمل غضباً عند أقل ذكر لسيرة أي شخص أقوى منه. هذا الخلاء أدى إلى استغفاله كثيراً. ومثال لذلك: يقال أنه كثيراً ما يلقي بالناس في السجن إذا ما أذاعوا أقاويل عن تفوق أعدائه وقوتهم. أما إذا أعترف السجين بأن قبوده وأغلاله ما هي إلا رمز للشرف الذي أسبغه الخليفة العادل عليه، فإنه يطلق سراحه فوراً. وأي معارضة لإرادته تعني الموت. لكن التماشي مع غروره، يؤمن الكثير.

وقد أشرنا كثيراً إلى النظام (الجديد) الذي بدأه المهدي، والذي واصله بدون رحمة خليفته، بتدمير أي معارضة، وتركيز كل الثروات بعملية الغنيمة*. ومثال آخر لذلك الأمر ما حدث لقبيلة الشكرية مؤخراً، كما ذكره أثنان من قادتها المهمين الذين هربوا قريباً من السودان. فهذه القبيلة العظيمة، التي تنتشر في مناطق واسعة بين النيل ونهر عطبرة، والتي تمتد لمسافات بعيدة للشمال والجنوب من الخرطوم، تكاد أن تكون قد أندثرت الآن. ففي عام ١٨٨٠ كان عدد أفرادها يقدر بحوالي ٤٠٠٠٠ رجل يمتلكون حوالي ١٠٠٠٠٠٠ جمل. وكانوا الوسائط في نقل تجارة السودان. ولم ينضم للمهديّة من رجالها المهمين سوى عدد قليل عند أول نشأتها لكن معظم رجالها أظهر فتوراً تجاهها مما ترتب عليه استدعاء قادتها وشيوخها للخرطوم حيث تم سجنهم أو إعدامهم. أما رجالها فقد نزع سلاحهم وسيقوا بالقوة للانضمام لرايات المهدي، ودمر نظامهم القبلي وصودرت جمالهم وضمت ممتلكاتهم لبيت المال. ويقال أنه لم يتبق من رجالها الآن سوى

* رغم أن المؤلف كتبها بالحروف الإنجليزية (ghenima) إلا أن المترجم التابع له ترجمها (الغنيمة) هي سوق القبائل كقطع من الغنم) "المعرب".

١٠٠٠ رجل ويضع منات من الجمال. وهذه ليست إلا حالة واحدة من كثير، وتشير بوضوح إلى استحالة قيام القبائل المعادية للمهدية بعمل مشترك، غير مدعوم، ضد حكم الخليفة. ولا شك في أن أهل السودان قد تعبوا من سوء الحكم والظلم والذين يسمون الآن، وقد يقومون بسرور بالترحيب بأي صورة للحكم المستقر. ولكنهم بعد تدمير نظامهم القبلي، وتهجير قبائل بأكملا وإخلاء مناطق شاسعة من سكانها، فإن من المستحيل عليهم، في الوقت الحالي، التخلص من ذلك النير الذي يقههم بعنف. لكنهم سيلقون بثقلهم دون شك مع أي قوات غازية (للسودان) في وقت واحد مع نجاح تقدمها. لذلك يمكن أن نصف الخليفة عبد الله بالحاكم الطاغية المستبد، الشديد الجهل واللامبالي بكل النظم والقوانين المعروفة في الحكومات المنظمة.

أما حياته الشخصية فلا تقوم على ما يظهره لأتباعه من ورع وروح عالية للتدين ملاً بها منشوراته وإعلاناته وعظاته. فله حوالي ٣٤ زوجة أحدهن كلتوم ابنة محمد أحمد. وقد خصص أحد أتباعه الموثوقين لمهمة البحث عن النساء الجميلات من أي مكان. وبعد أن يقدم له تقرير بذلك يتم نصح زوج المرأة المرغوبة سراً بطلاقها، ثم يتم إحضارها للخليفة. وأي محاولة للتملص من هذا الأمر ستترتب عليها إعدام الزوج التمس فوراً. ويتم حراسة النساء في الحريم بعناية ودقة ولا يسمح لهن بزيارة والديهن أو للتحرك بحرية أو أن يخرجن من المنزل إطلاقاً. ولا يسمح لأحد بالنظر إلى وجه الخليفة. وإذا ما جاء إليه أي أحد، فإن عليه عند الدخول إليه أن يتقدم بيديه ورجليه وعيونه مثبتة على الأرض، لا يجرؤ على رفع رأسه. وعندما يصل بالقرب منه فعليه الاحتفاظ بنفس الوضع، بعد وضع سيفه على الأرض بجانبه. وطريقة المخاطبة تبدأ دائماً بـ "يا سيدي". وعندما تنتهي المقابلة يسمح له بالنهوض وتناول سيفه، ولكن رأسه يكون مطاطاً وعيونه مثبتة على الأرض عند تراجعه للخلف. وعندما يعتلي الخليفة المنبر في الجامع الكبير لمخاطبة الناس فإن الجميع يجبرون على إحناء رؤوسهم وإرخاء عيونهم أثناء حديثه.

ولعلنا نذكر كيف كاد الخليفة محمد شريف، عقب وفاة المهدي في عام ١٨٨٥، أن ينجح في ثورته التي قام بها من أجل تولي أبناء المهدي سدة الخلافة، وكيف تمكن الخليفة عبد الله سراً، وبدهاء شديد، من جمع كل الأسلحة في الخرطوم مما أدى إلى الإطهار الكامل لتجمع المعارضة الوليد. ومنذ وقت قريب جرت محاولة أخرى لتصعيد مطالب أبناء المهدي ولكن في هذه المرة كان الخليفة علي ود حلو هو الذي استجمع شجاعته وقام بالمحاولة. وكان فشله أعظم من فشل محمد شريف. فقد عقد اجتماعاً سرياً للتباحث في أمر الأسلوب الذي سيتخذ لتنفيذ مآربه لكن أحد الذين إبتعنهم علي السر، وهو أحمد شرفي، الذي كان مسئولاً عن رعاية أسرة المهدي، أبلغ الخليفة عبد الله فوراً بمخططات علي ود حلو وعلي الفور قام الخليفة عبد الله بإصدار أمر لنزع سلاح كل رجال علي ود حلو، والذين يتكونون من أعداد كبيرة من رجال دغيم وكنانة واللحويين والبطاحين. وبذلك تمكن عبد الله من تقليص وضع الخليفين المنافسين له إلى مجرد وضع رمزي. وحتى يضمن الاحتفاظ بالخلافة في أسرته، فقد قيل بأنه تلقى، في رؤيا مقدسة، تعليمات بالمناداة بأخيه يعقوب كخليفة له.

يعقوب محمد هو رجل قصير مربوع القامة، داكن اللون، ووجهه مبقع بآثار الجدري. وعظام وجنتيه بارزة وعيونه عميقة، وعمره الآن حوالي خمسة وأربعين سنة. وليست له سمعة عالية كمقاتل لكنه يتميز بالدهاء وقوة الحيلة. وهو القائد العام لكل قوات الأنصار رغم أنه لا يبارح أم درمان إطلاقاً. ويحظى يعقوب بثقة أخيه المطلقة وهو مسئول عن بيت المال وبيت الأمانة وفيهما يتم تخزين كل الأسلحة والذخائر.

ويقال بأن من غير الممكن الوصول إلى الخليفة عبد الله إلا عن طريق يعقوب، وهو مستشار الخليفة فسي كل الحملات المقررة، وكل الجواسيس الذين يرسلون لمصر وإلى مناطق البلاد المختلفة إنما يرسلون بأمره. وهو يجيد القراءة والكتابة ولا يفارق أخيه، ويصحبه في كافة المناسبات.

من هنا فإننا نرى أن عائلة المهدي، في الوقت الحالي، قد أبعدت تماماً من أي احتمال لتولي الخلافة، بالرغم من أنهم، بدون شك، مصدرراً لقلق الخليفة عبد الله. لقد ترك المهدي بعد وفاته ثلاثة أبناء وثلاثة بنات وزوجتين، بجانب عدد ممن يسمين بالزوجات والسريات. وكان عدد السريات يصل إلى ١١٠ امرأة لكن العدد تقلص الآن إلى حوالي سبعين. يطلق علي نسائه (أمهات المؤمنين) رغم أن معظمهن لم ينجبن أطفالاً. وبعد موت المهدي فإنه لا يسمح لهن بالزواج مرة أخرى.

ولقد تم تناول نظام العسكرية في السودان المهدية من قبل. لكن بعض الملاحظات الإضافية قد تكون مثيرة للاهتمام. فتواة جيش الخليفة مكونة من البازنقر، أو كما يطلق عليهم في السودان "الجهادية" أو "النظاميين". وجميعهم مسلحون بالبنادق وهم في معظمهم من الزوج. أما مقاتليه من حملة السيوف والحراب فيتكونون أساساً من العرب من مختلف القبائل. ولكن أكثرهم حظوة بالثقة هم عرب التعايشة والهبانية. وأساساً كانت جهادية المهدي تضم قدامى جنود الحكومة ولكن تم تدريجياً إحلالهم بجنود من الأقاليم الجنوبية والذين تفوقوا عدداً عليهم الآن بمعدل ثلاثة إلى واحد. ولم يسمح لأي من الجنود المصريين القدامى (الفلاحين) بالإضمام للجيش، بل كانوا يعينون للعمل كطباخين وخدم أو حمالي مياه. ويبدو أن الخليفة كان يدرك شيئاً فشيئاً القيمة القتالية للجنود السود، وأصدر مؤخراً أمراً بالآ بيع كعبد أي أسود قوى البنية، وكان يدفع حوالي

* تعليق للمعرب: بالطبع فإن ما ذكره ونجت بلهجة التقرير، وليس الظن أو الشك، إنما يدل على نوع من الغرور وربما الجهل أكثر منه ضعفاً في معلوماته الإستخبارية. لقد ترك المهدي عشرة من البنين بعد وفاته هم المسادة (١) محمد شهيد كرري (٢) الصديق شهيد أم ديبكرات (٣) الفاضل شهيد الشكابة (٤) البشري شهيد الشكابة (٥) عبد الله شهيد السمل بالسجن (٦) الطاهر شهيد السمل بالسجن (٧) نصرالدين شهيد السمل بالسجن (٨) الطيب شهيد السمل بالسجن (٩) علي وعاش بأمر درمان وتوفي عام ١٩٤٣ (١٠) عبد الرحمن وقد ولد بعد وفاة الإمام المهدي بأسابيع قليلة وهو الذي جدد المهدية وكان قد جرح في الشكابة، وهو صبي بالغ، عند مقتل أخويه. كما ترك المهدي عشرة من البنات من السيدات زينب، أم كلثوم، نور الشام، أم سلمه، عائشة، مريم، نفيسة، زهراء، قمر، وأمنه محمد أحمد المهدي. أنظر جراهام وإيماي توماس، دار لاما للنشر بلندن، كتابه عن "صور من حياة السيد عبدالرحمن المهدي" أغسطس ١٩٨٦ باللغتين العربية والإنجليزية.

ثلاثين ريالاً عن كل واحد منهم صالح للجندية. ويتم وشم كل السود الذين جندوا حديثاً بكلمة "عبد الله" على اليد اليسرى.

وليس هناك زى خاص بالجنود. وكاتوا كلهم يرتدون زياً مثل ما يرتديه الرجال الآخرين.

ويتكون الزى من:

- الجبة، وهي قميص طويل يصنع من الدمور ومرقع برقع ذات ألوان مختلفة.
- السروال
- الصندل
- الكراية (حزام من السعف)
- الطاقية
- العمة
- السبحة

ويتسلح العربي بالسيف، وحرية طويلة (الكبس)، وأربعة حراب صغيرة (طبيق)، وسكين

أو خنجر صغير.

ولا يوجد تنظيم موحد للخيالة (الفرسان). فعدد معين من العرب هم ممن يمتلكون

الخيول. وإذا دعت الحاجة إلي عدد من الخيالة، فإن أمراً يصدر لأصحاب الرايات بأن يوفرُوا عدداً معيناً منهم. وسلاحهم مثل سلاح المشاة تماماً.

وبدلاً من بناء ثكنات دائمة للجنود في المحطات العسكرية الهامة، تقام ثكنات تكفي فقط

لإحتياجاتهم الأساسية بينما يسمح لأعداد كبيرة من العرب للعودة لمناطقهم، تحت الإستدعاء في أي وقت. وعندما كان يتم الحشد العام للقبائل وجمعها كانت معظم الأراضي الزراعية تترك مهجورة بدون زراعتها. وفي سنوات الكرب التي تلت، فإن عدداً كبيراً من سكان البلاد، جنوبي الخرطوم (جزيرة مروي* وجنوباً حتى فضودة) ماتوا جوعاً وتدرجياً أصبحت مناطق شاسعة من البلاد خالية من السكان. وشرع الخليفة بتهجير عدد كبير من الرجال المقاتلين قريبيين من عين الخليفة. ورغم أنهم في الوقت الحالي يشغلون بالزراعة، إلا أنه يمكن إستدعاؤهم لأمدٍ من إذا ما دعت الضرورة لذلك، وفي أي وقت.

ويتم تعيين مقدم، أو صف ضابط، على كل عشرين من الجهادية. وأمير على كل ١٠٠

رجل. ولكل أمير علم (راية). وبالتالي فإن كل ١٠٠ راية تعادل ١٠٠٠٠ رجل وهناك أمير أمراء واحد لكل الجهادية وكان يتولى هذا المنصب أبو عنجة حتى وفاته ثم حل محله فضل المولي، وهو مولد من قبيلة التعايشة.

وينبغي تنظيم قوات العرب المقاتلة على نفس منوال الجهادية لكن عدد الرجال الذين

تحت كل راية يختلف كثيراً. ويكون الأمير دائماً من أكثر الرجال الموثوق بهم في القبيلة أو الفرع. وهو مسئول عن جمع المقاتلين من أفراد قبيلته (عند اللزوم). ولكل أمير عدد من المقدمين. ويختلف عددهم أيضاً بدرجة ملحوظة.

* جزيرة مروي هو الاسم القديم للجزيرة الحالية بالإقليم الأوسط (العرب).

والراية الرئيسية هي بالطبع راية الخليفة، وفي الواقع راية يعقوب، وتعرف باسم الراية الزرقاء، وهو لون راية الرسول. وفي الواقع فإن أرضيتها زرقاء* وتطرز عليها بعض الجمل باللون الأبيض بينما تتكون الحواشي والأطراف من شرائط بالألوان الحمراء والخضراء والبيضاء. وراية الخليفة علي ود حلو تعرف باسم الراية الخضراء. وكل راية تشتمل علي الجملة الآتية "محمد المهدي خليفة رسول الله"، وبالإضافة لذلك يقوم الأمراء بتطرز آيات من القرآن والتي تختلف في كل راية عن الأخرى. لكن أكثر الجمل وروداً في الرايات هي: لا إله إلا الله الملك الحق - محمد رسول الله، عبد القادر الجيلاني (ولي الله)، الله وكيلي، أومن به ولا أشرك به شيئاً... الخ.

ويأتي أمير الأمراء في المرتبة التالية للخلفاء. ويبلغ عددهم حوالي العشرين والذين كان من أشهرهم في زمان المهدي عثمان دقنة، وأبو عنجة، وود النجومي، وأبو قرجة.... الخ. لكن بعضهم قد توفي وأصبح أميروا الأمراء الآن هم عثمان دقنة في شرق السودان، وأحمد علي التعايشي في الحدود الحبشية، وعثمان ود آدم (جائنو) في غرب السودان بدارفور*..... الخ. وعثمان خالد زقل في شمال السودان بدنقلا.

أميروا الأمراء كانوا هم المسيطرين علي كافة الشئون العسكرية في أقاليمهم وهم مسئولون مباشرة أمام الخليفة عبد الله وأمام يعقوب. وكان عليهم الاحتفاظ بالقوات الضرورية في أقاليمهم، ويمكن، بعد موافقة الخليفة، أن يستدعوا الرجال للانضمام لرايات مختلف أمرائهم. وعندما يأمر الخليفة بإرسال حملة من أم درمان، فإن رايات كل الأمراء الذين اختيروا للجهاد تستخرج من المخازن باحتفال عظيم، ثم تغرز في الأرض في أماكن محددة داخل المدينة أو بالقرب منها. فإذا ما تقرر توجه الحملة شمالاً فإن الرايات تغرز في "الهجرة". أما حملات الجنوب تغرز الرايات في "شجرة الحضرة"، وللشرق تغرز في الضفة الشرقية للنيل بالقرب من (حلة) خوجلي. ثم يبدأ الرجال تدريجياً في التجمع تحت راياتهم المحددة. وعند إكمال قوة الراية المعينة يتم إرسالها قداماً ثم تليها الرايات الأخرى علي فترات كل بضعة أيام حتى تكتمل كل القوة ثم تبدأ تحركها نحو هدفها. وإذا كانت القوة متجهة شمالاً فإن الخليفة يصطحبها حتى كرري ويشجعهم بكلمات طيبة عند مفارقتهم لهم. أما الحملات المتجهة لمصر فعادة ما تكون عائلتها بصحبتها - وعموماً فإن غير المقاتلين من النساء والأطفال يفوق عددهم أعداد المقاتلين بنسبة ثلاثة إلي واحد. أما إذا كانت الحملة متوجهة لمهمة قصيرة فإن نسبة قليلة من النساء هي التي يسمح لها بمرافقتها.

* الصحيح أن الأرضية سوداء اللون (المعرب).

* يشاع أن هذا الأمير قد قتل منذ عهد قريب في صراع بدارفور. (المؤلف).

* الصحيح هو أنه توفي عقب هزيمته لجيوش أبي جيمزة من جراء مرض عضال وخلفه محمود ود أحمد علي الإمارة (المعرب).

والطريق المعتاد الذي تملكه أي حملة موجهة لمصر هو طريق الخرطوم الدبة. ولظروف إمدادات المياه لهذا الطريق، فإن الحملات تمضي فيه على دفعات، وليس دفعة واحدة. أما حملة النجومي فقد جاءت عن طريق بربر لأنه جند عدداً كبيراً من رجاله من الجعليين، قبيلته، الذين تقع أراضيهم بين أم درمان وبربر.

والخليفة حرس شخصي مكون عموماً من حوالي خمسين رجلاً، ويعرفون "بحرس الخليفة" - وهم من السود المنتقن والذين يتميزون بأخلاصهم له - وهم دائماً ما يصاحبون الخليفة مشياً على الأقدام.

وبالإضافة لهؤلاء، فإن للخليفة حوالي عشرين ملازماً. ومن بين الملازمين من هو نصيق بالخليفة، ولكن بعضهم، مثل سلاطين بك، فقد إحتلوا هذا المنصب حتي يكونوا تحت نظر الخليفة ولئلا يحاولون الهرب. ومهمة الملازمين هي مصاحبة الخليفة في كل المناسبات. وعشرة منهم من التعاشية، وهم يصطحبونه راكبين دائماً، أما الباقون فبعضهم يركب معه وبعضهم يمشي. وهم دائماً يرافقون الخليفة عند دخوله للمسجد وعند خروجه منه. أما عند دخوله لمنزله فأنهم ينتظرون في القناء الخارجي دائماً.

ووارد الخيول لأم درمان ليس كبيراً. وبعض الخيل يستجلب من الحبشة عن طريق سوق القلابات. لكن هذا النوع من الخيل لا يتحمل ظروف السودان ومناخه ولا يندهر فيه. ومن ضمن ما لدى الخليفة، حوالي عشرين فرساً ضخماً يقال بأنها من بقايا ما غنم من جيش هكس باشا. وهناك حوالي ٢٠٠٠ جمل ترعى بالقرب من أم درمان وتحفظ هناك والهدف منها هو استخدامها في النقل والترحيل عند الضرورة. وعندما تخرج حملة من أم درمان ترسل أمامها كميات من الذرة، لأن الخليفة يهدف بهذا أن تبعد الحملة عن أم درمان وهي مطمئنة على تموينها، وحتى يمنع الفرار (بسبب الجوع).

والطعام، الذرة أساساً، يقدم للجنود النظاميين ولعرب التعاشية والهبانية فقط. أما بقية العرب فعليهم توفير طعامهم بأنفسهم. هذا وتبلغ الحصة اليومية للجندي ما يعادل مدين (ملى) اليدين مرتين).

ولا تصرف أجور منتظمة للجنود ولا يوجد سلم وظيفي للتدرج اللهم إلا عند الجهادية. وكل رجل يتلقى إسمياً ثمن ريال في الشهر وغالباً ما لا يتسلم أي شيء. أما الأمير فيتلقى ما بين ٢٠ إلى ١٠٠ ريال في الشهر، على حسب وضعهم ومكائنتهم مما يمكنهم من مساعدة الحاجات الضرورية لمن معهم من فقراء الأتباع. لكن هذا المال عموماً يبقى في يد من صرف له في المقام الأول.

ويتحمل أي أمير مسئولية التأكد من توفير ما يحتاجه رجال الحملة من حمير وجمال - من أملاكهم الشخصية - لنقل متعلقاتهم، هذا إضافة لأن الأتباع الملحقين بالحملات المختلفة يعملون أيضاً كحمالين. وعلى كل رجل توفير قربه مائه. وإذا ما كان فقيراً لا يستطيع توفيرها فإن علي الأمير إمداده بقرية.

ومن المستحيل أن يتم تقدير عدد ما يمتلكه الثوار من البنادق والمدافع بدقة. ولكن يقال بأن في أم درمان وحدها حوالي ١٢٠٠٠ بندقية رمنجتون، و ٩٠٠٠ بندقية من مختلف الطرز و ٣٢ مدفع جبلي و ٤ مدافع كروب و ٤ - ٥ مدافع مكنة، وبعض الصواريخ. وليس وارداً أن تكون كل هذه المدافع بحالة جيدة، بالرغم من أن تلك التي بأم درمان محفوظة في حالة من النظافة والممان.

وقد قلصت الحروب المتواصلة كميات الذخيرة المتوفرة للخليفة ويلقي صعوبات جمة للحصول على احتياجاتها. وأي جندي نظامي، مسلح ببندقية، عليه أن يحمل في شريط رصاصه حوالي ٤٠ طلقة. لكن حرص المسؤولين أدى إلى قيامهم بالإحتفاظ بكل البنادق والذخيرة في ترسانة أم درمان ولا يتم صرفها إلى في حالات خاصة مثل أيام الأعياد، حيث تقام عرضة عسكرية ضخمة خلالها. أما في المناسبات العادية فإن العصا تحل محل البندقية.

وصعوبة صناعة الذخيرة ترجع إلى ندرة البارود والرصاص والمفجر. والبارود القديم الوحيد المتاح هو ذلك الذي تحتويه قذائف المدافع. وهم الآن يقومون بابتزاعه من القنابل وتنعيمه وتشحن به طلقات الرصاص. أما معدن الرصاص فقد تم تهريب كميات كبيرة منه، بنجاح، عبر ساحل البحر الأحمر، بينما يقوم الناس بالبحث في الأراضي المحيطة بالخرطوم عن الظروف الفارغة وعندما يجدونها يقومون ببيعها لبيت المال بواقع ريال للرطل. ومثل توفير المفجر صعوبة أخرى رغم أن كميات قليلة منه كانت تصل لأم درمان من وقت لآخر. وقد حاول أحد الأوروبيين الأسرى، منذ عهد قريب، صناعة بارود جديد. وتحصل على كميات من ملح البارود من جبل أرضة بالقرب من أم درمان وقام بخلطه ببعض الكبريت ورماد الصفصاف. وقد أعطي هذا البارود نتائج طيبة في البداية لكنه تدهور بسرعة بعد ذلك بشهر. وتم تهديد الصناعي بالموت لكنه حصل على إرجاء لتنفيذ الحكم عند تعهده بالحصول على المواد الضرورية لصنع البارود من جهات أخرى ولهذا الغرض أرسل عدداً من الرجال لساحل البحر الأحمر.

وفي أوقات الحرب يجب على كل أمير أن يحمل بندقية وأن يحمل كل جندي نظامي إحتياطي من ١٠٠ طلقة في حقيبته. وحمل المقدمون مسؤولية التأكد من أن كل جندي يحمل ما يكفي من الذخيرة معه، كما أن عليهم صرف كميات من الإحتياطي للجنود أثناء المعارك. ويقال أن التجار قاموا في عامي ١٨٨٦، ١٨٨٧، بتجارة مدهرة في النخائر، كانوا يحصلون عليها من الأمراء ويبيعونها للقبائل الزنجية المتمردة في جبل الدابر وتلقي وغيرها. لكن الخليفة أوقف هذه التجارة قبل فترة من الزمن.

والمسئول عن ترسانة أم درمان هو أحد عرب التعايشة. ولا زال يحتفظ هناك بكميات كبيرة من ذخيرة المدافع الجبلية ومدافع كروب.

أما ترسانة السفن بالخرطوم فهي المنشأة الوحيدة العاملة خارج أم درمان. ولا يزال يعمل بها عدد من العمال المصريين، ويوجد بها ما لا يقل عن خمسة بواخر تعمل بصورة جيدة،

* الترسانة هي في الأصل مشتقة من (دار الصناعة). وقد تم إدخال الاسم للغات الأوروبية فأصبحت "دارسنا، دارسي، وأرسنال ثم بالعربية الترسانة).

وهي الإسماعيلية والصافية والمنصورة والخرطوم (باخرة غردون التي كانت تسمى بمحمد علي) والطاهرة. والأخيرة تعمل ما بين دنقلا والجنوب وتستخدم أساساً لنقل للمؤمن. أما بقية البواخر فتستخدم في جلب الذرة من الجنوب لأمر درمان.

وبالإضافة للقائد العسكري للإقليم فهناك العامل أو المدير المسئول عن الإدارة المدنية. ويساعده في عمله فريق من إثنين من القضاة وأمين (أو خازن) لبيت المال. والعامل مسئول مباشرة أمام القائد العسكري ويتولى أيضاً مهمة تحصيل العشر من الذرة وعلى الزكاة على الإبل والبقرة والأموال والمال. ومن للقضاة واحد يتولى كل الشؤون القانونية والدينية أما مهمة القاضي الآخر فهي حل النزاعات بين الأهالي وبين بيت المال.

وكل من العامل والقضاة وأمين بيت المال مسئولون لدى أمين بيت المال الرئيسي بأمر درمان إضافة لمسئولياتهم تجاه رؤسائهم العسكريين. ولهذا السبب فأنهم يستدعون سنوياً للحضور لأمر درمان لتقديم حساباتهم. وكان من المفترض أن يتم استبدالهم كل سنة حتى لا يسلكون مسيل قبول الرشوة من الآخرين ويتسببون في إفقار بيت المال. لكن الخليفة إذا ما رضي بإداء هؤلاء الموظفين فإنه لا يقوم بتغييرهم اللهم إلا قاضي بيت المال والذي يتم استبداله دائماً. ويتلقى أمين بيت المال بأمر درمان راتباً مقداره ٥٠ ريالاً في الشهر. أما العمال بالإقاليم فيستلمون ما بين ١٥ - ٣٠ ريالاً في الشهر.

وللخليفة عبد الله أربعة من الكتاب المخصوصين، بجانب كاتبين آخرين يعرفان بأسم "كتاب الحضرة" ومهمتهما تسجيل ووصف الرؤى التي اتفمس سيدهم فيها كثيراً. والزكاة التي أشرنا إليها من قبل تعني ما يقدم للفقراء من عون ، وفي إدارة دينية مثل إدارة الخليفة، فهي الضريبة المقدسة التي تبرر النهب الشامل. فهي تحسب على الذرة والأموال والمال وتجمع إما نقداً أو عيناً.

وهناك مصدر آخر للإيرادات هو "أرض الغنمة"، وهي تلك الأراضي التي تقع على بعد مرمي رصاصة من بيت المال بأي إقليم وتصبح بالتالي ملكاً لبيت المال. ولأنها قريبة من مصادر المياه، فلذا تعتبر، من ناحية عامة، من أقيم الأراضي بالمنطقة ويتم إيجارها بمبالغ طائلة. وكل المراكب النيلية تعتبر ملكاً لبيت المال، ويتم إيجارها (لن يعمل بالترحيل بها) بواقع ريالين عن كل أردب في السنة.

والمشارع أيضاً ملكية لبيت المال وتؤجر أيضاً بأسعار عالية، وكذلك جنابن الخرطوم وما حولها. نفس الحال ينطبق على كل الغابات والأشجار.

من هنا يمكن أن نعرف أن موارد الخليفة ليست بالقليلة. أما نفقاته، فهي بالمقارنة بموارده، تعتبر قليلة لدرجة تثير السخرية. وإضافة لذلك، فقد كان من عادة الأهالي، أثناء الحكم التركي المصري، أن يقوموا مثلهم مثل الموظفين بإخفاء الأموال والمجوهرات في منازلهم ويدفنونها في باطن الأرض. وبالتالي فإن السودان عندما تحول إلى حكم المهدية، جري فيه بحث شامل عن تلك الأموال وتم توريد كل ما يوجد إلى بيت المال. وقد ذكر أرتين باشا في كراسة

* نظر الملحق بنهاية هذا الفصل.

كتبها بأن المهدي إستخدم الصياغ، الذين حصل عليهم من الخرطوم، لصهر كل الحلي الفضية وصبها في قوالب الريال ثم ختمها. وأجبر الناس علي استخدام هذه العملة الجديدة، بينما إدخرت العملات المصرية. وقام عبد الله منذ توليه الخلافة باتباع نفس النهج مع فارق بسيط هو إستبداله لكلمة (مقبول) إلي (بأمر المهدي). ويعرف ريالها الآن (بالمقبول). وكل المدفوعات تتم بهذا الريال. وإذا ما جاء التجار بعملات مصرية لأمر درمان فإنه يرغبون علي إستبدالها. وبهذا تمكن الخليفة من الإستمرار في تكديس العملات المصرية. وكما لوحظ من قبل فإن البعض يقولون بأن تلك الفضة قد أرسلت سرأً لكرديفان، ويقول البعض الآخر بثقة بأنها محفوظة في صناديق النخيرة الفارغة ومحفوظة في خنادق عميقة ضخمة تحت منزل يعقوب. وفي أعين الرعايا فإن الخليفة بالطبع رجل غاية في الفقر، لكن الأسلوب المستخدم في إخفاء تلك الأموال لم يعد إلا سرأً مكشوفاً. وأمين بيت المال عليه تقديم بيان يومي ليعقوب عن كل الأموال المستلمة والبضائع المباعة. وعندما تصل المبالغ لعشرة ألف ريال فإن يعقوب يحرر إيصالاً رسمياً بهذا المبلغ يسلمه لأمين بيت المال ثم يتسلم المال ليستخدم في مدفوعات الأنصار.

وقد سمح الآن بالتجارة مع السودان في نطاق معين. ويستورد التجار عادة السكر والبن وبضائع ما نشتر والعسل والزبد والزيوت واللبان والحبوب وغيرها، كما يستوردون سرأً التبغ والحشيش والأفيون. ويتم أخذ الضرائب مرتين من التجار وقبل وصولهم لأمر درمان. أما عند وصولهم فإن بيت المال يقوم من ناحية عامة، بشراء البضائع بالطريقة التي سبق وصفها. ويقال أن تجارة الرقيق مزدهرة في السودان. ومراكز التجميع الرئيسية للعبيد، إضافة لأمر درمان، هي القلابات، وبنى شنقول والفاشر، والتي بها جميعاً أسواقاً رائجة للعبيد. فالذين يجمعون بالقلابات هم أساساً من الحبش. أما بالفاشر فهم عموماً العبيد الذين أمسك بهم في الغارات علي القبائل المجاورة. وبنى شنقول هي محطة تجميع العبيد من دار برتي والرصيرص ودار فازوغي. ومن تلك المراكز الثلاثة يتم إرسال العبيد في جماعات إلى كل أنحاء السودان. وسوق الرقيق الرئيسي هو بالطبع في أمر درمان ومكانه بالقرب من بيت المال. وأسعار العبيد هي كما يلي:

- للفتاة الصغيرة والجميلة من ٥٠ - ١٠٠ ريال
- للمرأة العادية من ٢٠ - ٤٥ ريال
- للرجل الشاب من ٢٠ - ٣٠ ريال
- للرجل متوسط العمر من ٥ - ١٠ ريال
- للغلام الصغير من ٥ - ٢٥ ريال

أما في المحطات الخارجية فتتزل الأسعار للنصف تقريباً.

ورقيق الحبش هو زهرة الأسواق. لكنهن لا يتحملن، من ناحية عامة، (ضراوة) طقس السودان ويذبلن سريعاً.

وهناك أعداد كبيرة من العبيد يخرجون من السودان عبر موانئ البحر الأحمر ويقوم التجار العرب بمبادلتهم ببضائع محظورة مثل الرصاص والمفجرات.

ويام درمان محكمة تعرف بإسم "محكمة الإسلام" ويرأسها "قاضي الإسلام" وهو الآن شخص يسمى أحمد علي، كان من قبل قاضياً في دارا أثناء الحكم المصري، ويساعده عشرة من القضاة. وجلسات المحكمة تستمر طوال اليوم حيث تحضر إليها كل القضايا. ويقوم قاضي الإسلام للخليفة كل يوم قائمة بكل المحكومين وبالعقوبات التي صدرت بحقهم لإعتمادها نهائياً. وعادة ما يقوم القاضي، قبل جلوسه بالمحكمة، بالتحقق سراً عما يرغب فيه الخليفة من حكم ومن ثم يقوم "بترتيب" العدالة طبقاً لذلك. أما عند الحالات الخطيرة مثل التمرد أو عدم إطاعة الأوامر أو السرقة فإن الخليفة ينظر فيها بنفسه حيث يتم يومياً الحكم بإعدام عدد من الرجال أو بقطع طرف، وأحياناً، طرفين من المحكوم عليه. وينفذ حكم الإعدام بعدة طرق، إما شنقاً أو بقطع الرأس عادة. أما السرقات العادية فتعاقب بقطع اليد اليمنى وفي الحالات الخطيرة يتم قطع اليد اليمنى والقدم اليسرى. ويعقب تنفيذ الأحكام مصادرة كل أملاك المحكوم عليه.

وهناك عدد كبير من موظفي الحكومة السابقة وغيرهم من المحتجزين في السودان والذين تم تصنيفهم إلى قسمين هما المسلمانية أو الأوروبيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، وأولاد الريف أو المصريين. ومن الصعب تحديد عدد الأوروبيين بالضبط لأن أسماءهم قد غيرت بأسماء إسلامية وبالتالي أصبح مستحيلاً معرفتهم من أسمائهم الحالية. ومعظم هؤلاء من الأغاريق، ولعلنا نذكر بأن الكولونيل ستوارت عندما غادر الخرطوم عام ١٨٨٤، كانت باخرته تقطر صنادلاً محلية وأنه اضطر إلى فصلها عن الباخرة وتركها عائمة علي غير هدي في النهر. كانت بتلك الصنادل أعداد من الأغاريق والذين تم أسرهم فيما بعد. أما عن الإرسالية النمساوية (ومعظم أفرادها من الإيطاليين) فإن منهم الآن يام درمان:

- الأب دون جيوسيبي أو رفالدر، واسمه العربي يوسف.
- الأب بول روزينولي، واسمه العربي صباح الخير.
- الإخوة دومينيكو بوليناري وجوزيف روجنوتو وإسماهما العربيان غير معروفة.
- الأخوات تيريزا جريجوليني وكونستا كورسي وإليزا بتافتتوريني وكاترينا شينكاريني. ويقال أن هاتين الأخوات قد احتفظن بأسمائهن المسيحية.

والأبوين بول ودون يعيشان الآن في حي السوق الكبير. ويكسب الأول بضعة قروش يومياً من عمله كنساج أما أثننتين من الأخوات فيكسبن رزقهن من صناعة الخبز. ويقال أن الأخت تيريزا تعيش مع ابنة الطبيب الراحل جورج بك، في منزل تاجر إغريقي. أما لبتن بك فكان يعمل مراقباً في مصنع البارود وأصيب في عينيه إصابة بالغة من جراء انفجار حدث (في المصنع)، ثم ما لبث أن أصيب بالحمى وظل يعاني منها لبضع أسابيع ثم مات في ١٧ يولييه ١٨٨٨.

وبجانب سلاطين بك فإن بقية النمساويين في أم درمان هم مارتن هانزل، ابن القنصل الراحل هانزل، وأطفال المستر كلاين، الذي قُتل عند سقوط الخرطوم، وأيضاً ابن ما

* الريف يعني الأرض المزروعة ويطلق علي ريف شمال وادي النيل بصفة خاصة.

رنو بك. ويعرف مارتن هاتزل باسم عبد الله. ولا يحتل هو ولا ابن ما رنو بك أي منصب في حاشية الخليفة.

أما تشارلز نويفلد، التاجر الألماني المغامر، والذي كما نذكر كان قد أسر في (واحة) سليمة عام ١٨٨٦، فيقال بأنه لا يزال بالسجن لكنه وعد بالعفو إذا ما حفظ الراتب عن ظهر قلب. أما أدولف كلوتز، خادم البارون فون سكندورف، والذي أسر قبل وقت قصير من تدمير قوات هكس باشا، فيقال أنه قد غادر أم درمان عام ١٨٨٩، متجها نحو القلايات، حيث شوهد بها عقب المعركة التي قتل فيها الملك يوحنا. أما الأرمني الذي يسمى أرتين، وإسمه العربي الآن عبد الله، فيعمل ساعاتي للخليفة ويكسب حوالي أربعين ريالاً في الشهر.

أما جيوسبي كوزي، الذي اشتهر بظهوره في يوميات غردون، فيعمل الآن ملازماً للخليفة. ويعرف باسم محمد يوسف حيث يكسب حوالي ثلاثة ريالات في الأسبوع، وله عائلة كبيرة.

وبجانب الذين ذكرناهم فهناك آخرون كثر ويبلغ عددهم جميعاً من رجال ونساء وأطفال حوالي ٨٥ أوروبياً، ويعيشون في حي المسلمين وقد عين رجل إغريقي، إسمه العربي جابر مقدماً علي ذلك الحي، وهو مسئول أمام الخليفة عن كل الأوروبيين. وخطر أي محاولة للهروب أكبر من أن يشجع أحداً علي المغامرة بذلك. إذ أن العقوبة، في حالة إعادة القبض علي الهارب، هي الموت المؤكد.

وإضافة علي موظفي الحكومة السابقة، والذين ذكرنا أسماءهم كعاملين في خدمة الخليفة عبد الله فهناك عدد كبير آخر لا يشغل أي منصب خاص. ومن هؤلاء فإن أشهرهم هو إسكندر بك، أخو زوجة عبد القادر باشا، وكان قد أسر عند سقوط الأبيض. وله دكان في سوق التجار ويكسب حوالي سبعة ريالات في الشهر. وهو يصاحب الخليفة إلي الجامع وله مكان مخصوص للصلاة في الصف الأول.

أما إبراهيم باشا فوزي، سكرتير الجنرال غردون، والذي أسر عند سقوط الخرطوم، فقد حظي لفترة بعطف الخليفة عليه، لكنه الآن مهان ذليل. وله مكان بالصف الثالث في المسجد، ويدير مقهى في دكان بسوق العيوش.

ولا زال يوسف منصور، الموظف الحكومي السابق بالأبيض، أميراً للمدفعية. في حين يتولى سعيد بك جمعة، مدير الفاشر السابق، منصب نائبه في قيادة المدفعية.

كما تولي عدد كبير من موظفي الحكومة السابقة، من كتبة وقضاة، مناصب مماثلة تحت إمرة الخليفة. أما محمد فقير، ضابط البوليس الذي كان قد أسر في الغارة علي كلابشة عام ١٨٨٨، فقد أرغم عند وصوله لأم درمان علي أن يتحدث في الجامع علناً بأن الجيش المصري صغير وضعيف، وأن أهالي الحدود تواقين للانضمام للمهدية. كوفئ علي ذلك بتخصيص راتب شهري له قدرة خمسين ريالاً كما أعطي خادمين وحمار. ولكن بعد ذلك بقليل

* منذ ذلك الوقت لم يشاهد أو يسمع أي شيء عنه. وقد ذكر البعض بأنه فر إلي الحبشة ويقول البعض الآخر بأنه قد يكون قتل. كان يعمل في السابق جاویشاً في الجيش البروسي وقد سمي بمصطفى عندما (أسلم بعد فراره من جيش هكس باشا).

شوهده وهو يدخن سجارة فصول منه كل ما كان يمتلكه من مال ومتاع. وهو يعمل الآن طباً في سوق العيوش.

أما سيدات العائلة الميرغنية، فاطمة ونفيسة، فقد رفضتا بإصرار ضمنهن لحريم الخليفة وأجبرتا على الزواج من اثنين من الأمراء. تزوج فاطمة رجل يدعى محمد الخير، المسئول عن الباخرة بوردين التي لا تزال جاتحة في السدود بالقرب من لاتوكا. أما نفيسة فقد تزوجها المدعو محمد عبد الله.

وقبل وقت قصير تم إغاد مبعوثين لأم درمان، يحملان خطاباً فيه إلتماس بإعادة ملابس الجنرال غردون وخطاباته وغيرها. وبعد مضي ثمانية أشهر رجع أحدهما حاملاً معه الخطاب الذي لا يبدو أنه قد تم فضه، مع رسالة شفوية مفادها أن الخليفة غير راغب في أي إتصالات مع مصر. كاتا عند وصولها لأم درمان قد تم التحفظ عليهما تحت حراسة مشددة وهددا بالقتل. وأثناء ذلك، وحتى يخلف في نفسيهما إتباعاً قوياً عن جيروت جيوش الخليفة فقد أمر الأخير بعرضة عامة للأصاغر واستغرق الجمع والوصول لأم درمان حوالي خمسة أشهر. وأخيراً تم حشد حوالي ٤٥٠٠ رجل وأقيمت عروض عسكرية مهيبه إستمرت لثلاثة أيام شاهد فيها المصريان كل شيء. لكن أحدهما علق بقوله أن الجيوش المصرية، هي بالمقارنة، أكثر عدداً وأقوي تسليحاً، فأحيل للسجن لتجرنه على الشك في قوة جيوش المهديّة. أما زميله فأرسل عائداً لمصر بعد أن ألزموه بوصف كل ما شاهده بالتفصيل (للمسؤولين هناك). فالمبدأ الرئيسي للمهديّة هو إدخال البشرية في الإسلام وهو الغزو لكل العالم. أما الإتصالات (مع العدو) في الشؤون العادية فإن الخليفة يعتبره من المستحيلات.

وكثيراً ما تجد الصحف العربية التي تطبع في القاهرة طريقها لأم درمان ويدرسها الخليفة باهتمام. وعند إطلاعها على المباحثات الإنجليزية الإيطالية الخاصة بكسلا، يقال بأنه علق قائلاً بأنه طالما كانت كسلا تابعة له فإنه محتار لا يفهم على أي أرضية تستند إيطاليا أو إنجلترا للمطالبة بها.

ولا يسمح الخليفة بالحج إلى مكة على أساس أن الأتراك الذين يتولون أمرها هم من الكفار. وهذه هي أقوى ما يحتج به الخليفة للحث على الجهاد، الذي من خلاله يأمل في فتح مكة، وبهذا يعيد للحج مكانته بعد تطهير الأماكن المقدسة من الترك البغيضين. وكان يشجع كل الناس على زيارة قبر المهدي، ليس كبديل للحج، ولكن كزيارة لضريح ولي عالي المقام ورجل صاحب قداسة غير عادية.

وتستحق أم درمان بعض الوصف المختصر. فقد قفزت من قرية صغيرة إلى مدينة شاسعة تمتد لمسافات كبيرة على ضفة النيل الغربية وتصل حتى خور شمبات. أما طرفها الجنوبي فيحتسي بطابية غردون القديمة والتي تم توسيعها وزيادتها. هذا ويشكل خور شمبات حاجزاً طبيعياً

عند طرفها الشمالي. وقد تم بناء طابية أمامية جنوب كرري بينما يظل جانبها الغربي، المحاط بالصحرَاء، بدون حماية. وتستخدم الطابية الجنوبية الآن ككنائس للجهادية. أما قلب المدينة فيوجد به مسجد واسع يرتبط بالطابية بشارع جيد للمرور وللمركبات، ويستخدمه الخليفة من وقت لآخر راكباً على واحدة من العربتين المغنمتين عند سقوط الخرطوم.

وبيت المال وبيت الأمانة وسوق الرقيق.... الخ، كلها قريبة من النهر وليست بعيدة عن المسجد الكبير.

كل كبار الأمراء ملزمون ببناء بيوتهم في أم درمان، مع بقاء جزء على الأقل من عائلاتهم به وبهذا يتحقق للخليفة ضمان ولائهم له، لكون وجود العائلات هنا بمثابة الرهائن له. وكل الأسواق الرئيسية والمخازن وحى المسلمانية توجد بالجزء الشمالي الغربي للمدينة. وللخليفة عبد الله عدة منازل، لكن إقامته أساساً هي في منزله المجاور للمسجد. وجزء من منزل الخليفة يتكون من طابقين ويطل على المدينة بكاملها والتي لا يزيد ارتفاع مبانيها على طابق واحد أرضي. وبني منزله بالطوب الذي جلب من منازل الخرطوم. وهو مؤنث جيداً مع وجود نوافذ زجاجية وستائر ومصاريع مطرزة وملونة. وفي المخطط المرفق لمنزل الخليفة، والذي رسمه رجل أقام طويلاً بأم درمان، يبدو التركيب الغريب له. فالبرج ذو الطابقين يستخدمه الخليفة في مناسبات خاصة عندما يكون منشغلاً بالصلاة أو بالحضرات، وهنا قد يعتكف أحياناً لعدة أيام. أما الغرف الوسطى فهي التي يعيش عادة فيها. ويقال أن المنزل عندما اكتمل بناؤه أخذ معه عدداً من رجاله النافذين ومر بهم على مختلف الساحات والغرف، والتي كانت كلها عارية من أي زينة، وحتى غرفته كانت تحتوي على عنقريب عادي وفرو صلاته بينما فرشت أرضيتها بالرم. ولكن، ومنذ ذلك اليوم، لم يسمح لأي أحد بالدخول. ويشاع أن الغرف الآن مؤنثة جيداً: السديوان والأسرة والسجاجيد والستائر وغيرها والتي أخذت من الخرطوم، بينما نساؤه يلبسن فاخر الحرير ويتزين بكثير من الحلي والمجوهرات.

ولللخليفة حوالي ثمانية من الأغوات (الخصيان) ولهم رئيس يدعي عبد القيوم. وقد استبدلت كلمة (أغا)، لأنها ذات أصل تركي بغرض، بكلمة (أمين) التي تعني الرجل المخلص النزيه. أما المسجد فهو عبارة عن ساحة واسعة على شكل مستطيل طوله حوالي ١٠٠٠ ياردة وعرضه حوالي ٨٠٠ ياردة وغير مسقف بالمرّة. وبطول جانبها الغربي توجد أشجار من اللبغ* (Acacia albizzia) وهي تحدد الأماكن المخصصة للنساء ومسقوفة جزئياً بالبروش. أما المحراب، الذي يحدد اتجاه القبلة بمكة فأقيم بالجانب الجنوبي الشرقي، على مسافة من وسط المسجد. والمنبر يوجد في أقصى الركن الجنوبي الشرقي. وهناك مسجد صغير يعرف باسم مسجد أو جامع الحديد يقع بالجانب الشرقي للمسجد وله سقف صنع من ألواح حديد البواخر، والتي وجدت منها أعداد كبيرة في ترسانة السفن بالخرطوم. وبدلاً من أن يكون السقف مسطحاً فإنه بني بطريقة تشبه أسقف الكنائس الحديثة، بينما أقيمت حوائطه من الخشب الغليظ وكل المبنى يسندده إثني عشر عموداً حديدياً. هذا المسجد الصغير يسع حوالي ٢٠٠ مصلياً بينما يتسع المسجد الكبير

* الاسم العلمي يرمز لنوع في أشجار السنطيات الشوكية وليس للبغ المعروف (المعرب).

[ROUGH PLAN OF KHALIFA ABDULLAH'S HOUSE]
 [مخطط تقريبي لمنزل الخليفة عبد الله]

M O S Q U E

المسجد

ENCLOSURE حوش أول

LARGE TWO STORIED TOWER برج كبير من طابقين

المدخل إلى المسجد
 MAIN ENTRANCE TO KHALIFA'S HOUSE
 المدخل لبيت الخليفة

ENCLOSURE حوش ثاني

SECOND

THIRD

HAREM

KHALIFA'S ROOMS

غرفة الخليفة

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخدم

OPEN SPACE IN WHICH THE KHALIFA'S MULES ARE ALREADY IN WAITING

فضاء مكشوف
 ينتظر به الملائكة
 باستعداد

File page 403

22/1/40

لما لا يقل عن ١٠٠٠٠ مصلي. والخليفة عادة ما يدخل إلى المسجد الصغير يوم الجمعة فقط. أما في بقية الأيام فإنه يتخذ مجلسه علي المحراب المنصوب في المسجد الكبير ويؤم الجميع في الصلاة. ويقال أن خطبه عادية جداً وكثير من الناس لا يفهمون لغته العربية التي تمتلئ باللهجة التي يتميز بها أهل غرب السودان. ولكل أمير أو رجل مهم مكان مخصوص في المسجد وأي منهم يتغيب عن الحضور فإن الخليفة يخطر بذلك فوراً، وإذا لم يشهد رجلان بأنه كان مريضاً فإنه يرسل للسجن في الحال.

ويعطي الجهادية من حضور الصلوات في المسجد الكبير. وقليل منهم من يصلي أساساً رغم أن من المفترض أن يؤديوا الصلاة في المسجد الملحق بكنائهم. وهناك خط للتلغراف يربط ما بين بيت الخليفة، وبيت المال، والترساة وحلّة خوجلي بالضفة الشرقية. ويمتد كيبيل عبر النهر لذلك الغرض.

ويقدر عدد سكان أم درمان، أو البقعة، في الأوقات العادية بحوالي ١٥٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ نسمة. وقد نقلت مطبعة الحجر من أم درمان إلى منزل بالقرب من بيت المال. ويعمل بها خمسة مصريين وينتجون عدداً كبيراً من المنشورات. وقد طبعت بها عدة آلاف من كتاب صلاة المهدي (الراتب) وتم تجليدها بها، كما طبع بها عدد من الكتب منها (نصيحة الإخوان) والذي يحتوي علي تاريخ الثورة العربية عام ١٨٨٢، وقد كتبه رجل اسمه أحمد العوام، كان في السابق أحد كتبة عرابي باشا في مكتب الحربية بالقاهرة ثم نفي إلى السودان لاشتراكه في الثورة. ويبدو أن هذا الشخص قد كتب كتابه أثناء حصار الخرطوم وأرسله للمهدي. وقد إكتشف الجنرال غردون هذا الأمر وأمر بشنق الخائن في الحال.

وضريح المهدي يشبه كثيراً أضرحة الأولياء والصالحين العاديين، أي أنه عبارة عن قبة فوق القبر المحاط من الداخل والخارج بسياح من الحديد المنقوش. وارتفاع القبة حوالي خمسين قدماً ويعلوها هلال يخرج من وسطه رأس حربة ضخمة تتجه للسماء. وطلبت القبة باللون الأبيض وهي من أبرز معالم أم درمان وأوضحها، وتري من أماكن بعيدة. هذا وقد دفن المهدي في المكان الذي توفي فيه.

وفيما يلي شيء عن الحياة اليومية للخليفة والتي قد تثير الاهتمام. فيقال بأنه يستيقظ في الفجر ويتوجه نحو المسجد الكبير مصحوباً بملازميه المسلحين بالسيوف التي يحملونها علي الكتف الأيمن. وعند دخوله المحراب ينتظم الملازمون علي جانبيه بينما يقوم المقدم بفرض فروة الصلاة أمامه علي الأرض. يفتتح الخليفة الصلاة والتي تستمر لحوالي ربع ساعة ثم يعود لمنزله لينام لحوالي الساعتين. بعد ذلك يتوجه نحو الحوش الخارجي لمنزله حيث يجتمع كل الأمراء وكبار العاملين ويتحدث معهم عن المواضيع الجارية ويؤدي أي عمل قد يكون. يخاطبه الجميع في كافة المناسبات (بيا سيدي). وقد قام جندي مصري قديم بمخاطبته ذات يوم قريب بكلمة (أفندم)، وهي كلمة تركية للمخاطبة تدل علي الإحترام، ومستخدمة في الجيش المصري فما كان من الملازمين إلا مهاجمته وضربوه بدون رحمة بقوائم رماحهم حتى أنه توفي بعد بضعة أيام. وهذا مثال على الإصرار لإزالة أي أثر للكلمات إلي تذكرهم بالماضي البغيض لسلطة الترك.

وبعد التحدث مع الأمراء تضرب النقارات الثلاثة، وهي إشارة لإحضار الخيول لأنه ينوي تفقد ثكنات الجنود. ولا يعتلي الخليفة صهوة الجواد أو الحمار أو الجمل بنفسه أبداً، بل يقوم رجل كردفاني اسمه أبوتكة (أبجكة)، المشهور بأنه أطول وأقوي رجل في السودان، برفعه. ثم تتحرك المسيرة كالآتي:

حوالي ٢٠٠ فارس في المقدمة، ثم اثنين من نافخي البوق ووراءهم الخليفة. وعلي يمين الخليفة ويساره وخلفه، وفي شكل هلال، حوالي عشرين من الغلمان السود وغلمان الحبش يحملون السيوف ثم يأتي بعدهم الحرس الشخصي المسلح بالبنادق وأخيراً يأتي الملازمون في مؤخرة المسيرة. وعند وصوله للثكنات يستدعي المقدمين ويتحدث إليهم لبضعة دقائق ثم يرجع لمنزله لتناول طعام الإفطار. وعند الظهر يتوجه للجامع للصلاة وبعدها يقوم رجل يسمى حمد عمر الباما^{*} بقراءة بضع صفحات، بصوت مرتفع، من كتاب (السيرة الحلبية) والذي يحكي عن مختلف حروب الرسول وطرق القتال كما يقرأ بضع صفحات من كتاب (نصيحة الإخوان) الذي سبقت الإشارة إليه. ثم يتحدث الخليفة بعد ذلك مع مختلف الناس في المسجد وبعدها يعود لمنزله في حوالي الثانية ظهراً. وأحياناً يستغني عن القراءة ويتوجه إلى بيت المال أو للهجرة للتفتيش. وعادة ما يخلد للراحة حتى العصر المتأخر حيث يذهب للمسجد للإستماع لقراءة الراتب وبعدها يقابل خلفائه وكبار أمرائه ويناقش معهم احتياجات ذلك اليوم، كما يقرأ كتيبته عليه الرسائل. أما إن كانت تلك الرسائل ذات خصوصية فإنه يرجع إلى غرفته مع أخيه يعقوب. وعند الغروب يتجه مرة أخرى صوب الجامع ويعتلي المنبر ويخطب ويعظ المصلين، ثم يعلن لهم أي أنباء أو أي حضرة يري أنها مناسبة للغرض. ثم يرجع لتناول طعام العشاء وبعدها، وللمرة الخامسة، يذهب للصلاة في الجامع وبعدها يأوي إلى فراشه.

وفي العاشرة من صباح كل جمعة يقيم الخليفة عرضاً لكافة قواته. يبدأ ذلك بإشارة تنطلق معها ضربات النفارة ونفخ بوق ضخم من العاج يسمى (أم باية). ثم يقود الخليفة المسيرة، كما جاء من قبل، ووراءه الجهادية ثم حملة السيوف والحراب. ويتجهون كلهم نحو سفوح تلال تعرف باسم جبل العرصة في مواجهة الجامع الكبير. ثم يبدأ الاصطفاف بأساليب مختلفة فمرة في صفين، مع وقوف الفرسان على اليمين وبعدهم المشاة ثم النظاميين^{**} فالمدفعية إلى يسارهم وفي مرة أخرى يصطف المشاة في خط واحد طويل وتحيط بهم الخيالة. وفي تشكيل ثالث يقام صفين للمشاة ومن خلفهم صف من النظاميين ثم صف من الجمالة، بينما تقف أرتال المدفعية والفرسان على الأجنحة. وهناك أيضاً تشكيل رابع للعرض يتكون من ثلاثة مربعات مجوفة من وسطها، من حملة الحراب (الرماحة) والجهادية، وعلي أجنحتها اليمنى واليسرى ومن خلفها يقف الفرسان. يقوم الخليفة، علي مهل، بتفقد الصفوف وبعدها تعود القوات لأمر درمان. وجرى العادة علي ألا تقام مناورات عسكرية.

* المقصود به الشيخ / محمد عمر البنا (المعرب).

** الجهادية (المعرب).

وكثيراً ما يحدث، عندما يرغب الخليفة في القيام بمشروع معين، أن يقوم باستعراض قواته في المكان المعتاد، ثم يتوجه بمفرده لمسافة قصيرة نحو بقعة معينة من الوادي، يلاحظ بها تردد غريب للصدى، ثم يصيح منادياً "يا خدرون!" ويردد الصدى صوته وتسمعه كل القوات. ثم يتظاهر باستجابة الخضر لندائه، ويجري نوع من تمثيل نقاش بينهما مما يشكل "حاضرة". وفي اليوم التالي يقوم من علي المنبر بأخطار أتباعه من السذج بمضمون تلك الحاضرة.

...

نعود الآن لمجريات الأحداث في أنحاء السودان المختلفة منذ توقفنا في الباب الأخير (أحداث ١٨٨٩) وحتى الوقت الراهن. فقد ظلت حدود النيل (مع مصر) هادئة. ولا زالت القيادة العسكرية في مديرية دنقلا موكلة إلى محمد خالد زقل، والذي له قوات بدنقلا وبعض المغارز العسكرية في صنم بدار الشايقية، وفي صوادة. ومن صوادة ترسل دوريات مسلحة وقوية حتى مقراة وأحياناً يواصلون تقدمهم حتى تنجور شمال عكاشة.

وقد كان محصول التمر وفيراً في بلاد السكوت والمحس إضافة إلى حدوث ارتفاع في منسوب النيل، مع هطول أمطار غزيرة، مما أدى إلى إنتاج محصول كبير من الحبوب. وإنتهت بذلك حالة المجاعة. في حين قام الخليفة، بعد أن عرف أخيراً الأهمية الفائقة للزراعة، باتخاذ خطوات لتشجيعها وتطويرها وأصدر تعليمات لأمرائه لحث السكان في مناطقهم للإقبال بجد على الزراعة.

وقبل بضعة شهور قام صالح بك، رجل كروسكو، بالاستطلاع حتى أبو حمد مع بعض غير النظاميين من أتباعه، وأفلح في احتلال إحدى الطوابي المتقدمة لبضع ساعات. وعند انسحابه منها دخل في اشتباك (مع الأنصار) قتل فيه سليمان ودقمر، قاتل الكولونيل الراحل ستوارت. وبعد تلك الغارة تم تحصين أبو حمد وتقويتها ولكن، عندما لم يأت أي هجوم آخر عليها، تم سحب تلك التعزيزات وحل إدريس هارون محل الأمير جريجير كأمر عليها.

ولازالت في بربر قوة صغيرة. وقد عين أبو قرجة، بعد سحبه من طوكر، قائداً لها. لكن تم استدعاؤه لأم درمان منذ عهد قريب.

أما في سواكن فقد طرأت بعض التغييرات* فقد كان عثمان دقنة، كما نذكر، يجمع القوات لإرسالها لطوكر ولكن المجاعة التي ضربت تلك المنطقة أخرت تحركه. وبعد لأي نجح في جمع عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال، قدرهم أحد الفارين المرموقين بأنهم أكثر من ١٠٠٠٠ نسمة، وأحضرهم لطوكر بنية التوجه بهم، عبر بلاد البشاريين، إلى طريق كرمة - القصير مما يهدد الجناح الشرقي لمصر. وكان معتمداً على حرية استيراد الذرة من سواكن لتموين احتياجاتهم. لكن خططه تلك تسربت وأقفلت بوابات سواكن فجأة. كانت نتائج ذلك الذي حدث سريعة إذ ما لبثت قوات عثمان دقنة أن تفرقت في كافة الاتجاهات. فالبعض توجه نحو كسلا والبعض إلى بربر أما

* من المغرب.

* لقد جرت أحداث، بعد شهرين من كتابة هذا الباب، أدت لتغيير الوضع بصورة تامة، وأدرجناها في الملحق التالي لهذا الفصل.

الغالبية منهم فقد اختارت المأوي والطعام تحت أسوار سواكن وهذا ما توفر لهم بعد قيام الحكومة وبعض الأفراد بالتبرع لهم بمبالغ كبيرة.

ولازال عثمان دقّة بطوكر مع عدد من أمرائه ولكن قواته لم تكن إلا اسمية فقط. وكانت قد هطلت أمطار غزيرة في دلتا طوكر ترتب عليها إنتاج محاصيل ضخمة وزال شبح المجاعة عنهم أيضاً. أما الأمير أحمد محمود، الذي كان قد أنشأ سوقاً كبيراً له في هندوب كما نذكر، فقد استدعي لأم درمان قبل فترة، وعين منذ وقت قريب أميراً علي كل الإقليم الواقع شمال هندوب، مستقلاً عن عثمان دقّة. وعندما كان عائداً لأمارته من بربر، أصيب بمرض مفاجئ في آبار أوباك وتوفي بها. ولذلك فإن عثمان دقّة لا يزال الأبرز في السودان الشرقي.

ولم يتغير الوضع في القلايات كثيراً. واستمرت العلاقات الودية بين العرب وبين قبائل الأحباش الحدودية مما ترتب عليه تقليص أعداد الحامية بها بدرجة كبيرة. وقبل فترة وعندما اندأبت الحاجة إلى الطعام في المناطق المجاورة، وجه الخليفة الزاكي طمل بإرسال قوة إلى جبل تابی للإغارة علي الأهالي وإرسال المؤن له. تكونت القوة من حوالي ٢٥٠٠ من الجهادية و ١٥٠٠ من العرب بقيادة الأمير عبد الرسول وتمكنوا من إخضاع قبائل المنطقة وأرسلوا للقلايات أكثر من ١٠٠٠ رأس من الماشية. وفي نوفمبر ١٨٨٩ توجهوا لبني شنقول في دار البرة بجنوب فازوغلي. كان حاكم ذلك الإقليم رجل يدعي ود تور القوري من الذين عينهم الجنرال غردون في هذا المنصب لكنه انضم للمهدية وتحصل علي كميات كبيرة من الأسلحة النارية في معاركه المختلفة. وعند اقتراب عبد الرسول من بني شنقول طلب من تور القوري تسليمه تلك الأسلحة لكن الأخير رفض وتحصن في منطقة وعرة بالجبال وتحدي عبد الرسول لبعض الوقت حتى أرغم أخيراً علي الفرار لبلاد الجالا. ومن هناك تمكن من الحصول علي إمدادات كبيرة من الفرسان عاد بهم إلى بني شنقول ليجد أن عبد الرسول قد تلقى تعليمات من الخليفة للتوجه إلى خور الدندر والتوقف عن قتاله.

وأثناء ذلك حدثت أشياء في غابة الخطورة بالقلايات. كان بها أمير يدعي جوهر ارتفع مقامه لدرجة عالية تحت قيادة أبي عنجة، لكنه وجد نفسه وقد تدهور وضعه وهبطت مكاتته بعد تولي الزاكي طمل، (الذي خلف أبي عنجة) للقيادة. كان جوهر محبوباً لدي جنود الحامية وتمكن من استقطاب حوالي ٤٠٠٠ رجل من النظاميين وخرج بهم من القلايات. وعندما سمع الخليفة بذلك أرسل بتعليمات إلي عبد الرسول بخور الدندر لأعتراض طريق جوهر. تحرك عبد الرسول والتقي به في دار الرصيرص لكن ١٠٠٠ رجل من جنوده، تركوه وانضموا إلى جوهر والذي أصبح في درجة من القوة يصعب فيها مهاجمته، ونجح في الالتحاق بود مك كمبو في جبل الدابر. وسيجد الخليفة نفسه في وضع أكثر استحالة من ذي قبل من ناحية تمكنه من إخضاع هؤلاء الجبليين الصليبين، الذين تعززت قوتهم كثيراً.

...

كان الأمير النصري، في كسلا، علي رأس قوة محدودة. وقد حتم وضع القوات الإيطالية، في تلك المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية البالغة، عقد مؤتمر بين الحكومتين الإنجليزية والإيطالية

في نابولي في سبتمبر الماضي. وكان الأمر المطروح هو (رغبة) إيطاليا في احتلال كسلا. لكن الوفد الإنجليزي تحجج بأن مصر تطالب بأن يكون لها الحق الأول في استعادة إقليمها الضائع عندما يحين الوقت، وهذا ما أدى لفشل المفاوضات*. كان الإيطاليون قد حققوا نفوذاً كبيراً على قبائل البني عامر والقبائل الأخرى إلى الشمال وجندوا منهم أعداداً كبيرة وسلحهم بأفضل الأسلحة. وأصبح هؤلاء الأهالي المجندين مصدراً للخطر الذي يهدد قوات الأنصار بكسلا، وساد فيها قلق عظيم، ونفذ حكم الإعدام مؤخراً على أربعة من الزعماء لإتصالهم مع العدو وتبادل الرسائل معه.

وأصبحت سبتمبر الآن في أيدي الإيطاليين في حين احتل مجندوهم المحليين في أوقات متفاوتة كل من ببشة وكوفيت وخور الباشا. وتشير كل الدلائل على أن الخليفة مصمم على مقاومة أي اعتداء على كسلا، لكن قدراته على الصمود والمقاومة لمدة طويلة تبدو كمشكلة صعبة الحل.

أما الإستوائية، فمن غير المعروف ما آل إليه الحال فيها منذ مغادرة حملة إنقاذ (الأمين باشا) لها. لكن كل الذين قدموا حديثاً من السودان أفادوا بأن قوات المهدي قد سحبت من تلك الأقاليم قبل فترة من الزمن، وأن الدينكا والمثلث، بجانب القبائل التي بأقصى الجنوب منها، كانوا في حالة ثورة واضحة ضد العرب، وينظرون إليهم بكراهية بالغة بافتراض أنهم من تجار الرقيق الذين أفقروا مناطقهم من السكان ودمروا أوطانهم.

وعن القوات التي تخلفت بالمديرية بعد رحيل أمين، فإن أغلب الإحتمالات تشير إلى أنهم لا يزالون يعيشون بمحطاتهم. وإلى وقتنا هذا فلا بد أن تكون ذخائرهم قد نفدت. ولكن لا يوجد سبب يدعو للإفتراض بأنهم على علاقات غير ودودة بالأهالي. فقد ولد معظمهم أو تربى معهم في بلادهم، وغالباً ما يكونوا قد إنحدروا ثانية للبريرية والبدائية السائدة هناك.

وقريباً ستقوم البعثات الاستكشافية المختلفة، البريطانية والألمانية خاصة، والتي تتوغل الآن في أواسط إفريقيا، بالكشف عن حالة تلك المناطق النائية. وليس من المستحيل أن تتحول تلك المناطق النائية من السودان وكل السودان إلى العودة للمدينة والتي كانت في تقدم ملموس قبل أن تبدأ ثورة المهدي.

وعندما توضح (البلاد) تحت إدارة أوروبية فإن التجارة الكريهة للرقيق ستلقى الضربة القاضية المميتة لها.

ويقال أن بحر الغزال قد أخلت تماماً من المهدويين. ولم يتم أي اتصال بينها وبين أم درمان لأكثر من سنة، وذلك رغم أن البعض يقول بأن خليفة الأمير كرم الله لا يزال محتفظاً بالسلطة هناك، تدعمه قوة صغيرة من الجنود.

* لكنها إستؤنفت بعد ذلك وتم التوصل إلى وضع خط للحدود التي تفصل مناطق النفوذ بين القوتين، كما هو موضح بالخريطة.

أما كردفان، فيقال أنها تكون جزءاً من القيادة العسكرية للأمير دارفور عثمان آدم جاتو. ومنذ ثورة ابي جمييزة نشبت حروب مستمرة ولكن علي نطاق محدود علي حدود دارفور مع دار برقو، وذلك علي رغم تعليمات الخليفة للابتعاد عن أي أعمال عدائية ضد سلطان برقو. وفي إحدى تلك الإشتباكات يشاع بأن الأمير عثمان آدم قد قتل وقال البعض أن الخليفة قام بالفعل بإعلان نبأ موته في المسجد.

وقد توفرت المحاصيل هذا العام في السودان. ولهذا السبب، ولغياب واتعدام أي معارك شرسة قاتلة، ولأن حياة المهديّة هي في الجهاد فإن من الممكن إفتراض أن جيوش عبد الله التعايشي لن تظل ساكنة لمدة طويلة بعد الآن. هذا بالإضافة علي صراع النفوذ بأمر درمان والذي قد يؤدي إلي نوع من الشعور بعدم الأمن تزيده حدة تلك الفترة التي سادت من الهدوء مؤخراً.

مما سبق إيراده، فيمكن أن نختم هذا الفصل بالقول بأن المهديّة، ورغم أنها كحركة دينية قد فقدت ذلك الحماس المعصب الذي جعلها حركة مرعبة هائلة إلا أنها قد تحولت عموماً إلي قوة بربرية ليس لأنها في غاية من الترابط والتضامن بل أنها لازالت ذات أهمية تجعل من اتخاذ الإحتياطات الضرورية يمنع تقدمها إلي الشمال أمراً حتمياً.

ولقد ذكرنا الكثير من قبل عن الإدارة السابقة للسودان تحت الحكم المصري. فإذا ما قدر لهذا البلد أن يعود مرة أخرى ليصير جزءاً من ممتلكات الخديوي، فلا شك في أن دروس السنوات العشرة الأخيرة لن يتم نسيانها أبداً. ولا بد أن ينهض سودان جديد أفضل من بين رماد غردون ومن أشلاء كل أولئك الشجعان من الضباط والجنود الذين هلكوا وهم يؤدون بولاء واجبهم المناطق بهم. وهذا هو الأمل العظيم الذي يحدو كل من يتمني الخير والرفاهية لمصر.

القاهرة في الأول من يناير ١٨٩١.

ملحق إضافي

إستعادة طوكر (١٩ فبراير ١٨٩١)

بعد أن تمت كتابة ما سبق، أعادت قوات الحكومة إحتلال طوكر، وتم طرد عثمان دقنة، مع عدد قليل ممن تبقى من قواته، جنوباً نحو كسلا.

وفيما يلي عرض مختصر للأحداث التي قادت لإحتلال هذا الإقليم الهام الخصيب، والذي كان يسيطر عليه في السودان السبعة الماضية الطاغية عثمان دقنة، وبسبب قسوته وسوء إدارته للحكم تعزي لحد كبير الهزيمة القاسية الأخيرة لقوات المهديّة.

وكان الوضع في شرق السودان، حتى عهد قريب للغاية كما يلي:

كانت هندوب محتلة بعصابة من النهابين كانوا منغمسين باستمرار في السرقات والإنتهاكات لمناطق سواكن المجاورة وسببوا قلقاً كبيراً للمواطنين الموالين للحكومة الذين كانوا يمدون سواكن ببضائعهم. وكان عثمان دقنة لا يزال ممسكاً بزمام الأمور في طوكر. ورغم أن قوته قد تقلصت كثيراً إلا أن عدداً كبيراً من الأمراء كان معه، مما يشير إلى أنه كان ينتوي جمع قوة كبيرة يعزز بها جيشه. كان العرب المحليين، الذين تركوا المهديّة، يشكون مر الشكوى مما يعانون من قهر عثمان لهم وعدم رحمته لكنهم كانوا أضعف من أن يقوموا بمواجهته بدون دعم من الحكومة. لذلك كان الوضع أبعد من أن يكون مرضياً. وفي الحقيقة كانت هناك تجارة مشروطة مع سواكن لكن كان من المستحيل ضمان ألا تقع المؤن في يد عثمان وبالتالي تساعده وتقويه في إتجاهاته العدوانية المزمعة. وكان من المعروف أن أنواع التجارة المحظورة وتجارة الرقيق خاصة قد ازدهرت في ظل سيطرة عثمان علي هذا الإقليم، ولم يكن هناك إلا قليل من الشك بأن الذخائر ومعدات الحرب كانت تجد طريقها للسودان عبر هذا الإقليم ومن خلاله.

وقد أتفق رأي الجميع على أن الطريقة الوحيدة لوضع نهاية لتلك الحالة غير المرضية هي في طرد العدو من هندوب وطماي ومن مختلف المحطات التي تجاور سواكن، وأن تقوم الحكومة باستعادة إقليم طوكر وإعادة إحتلاله. ولكن تجارب الحملات السابقة في ذلك الجوار أدت إلى نشوء حالة من التردد، من جانب السلطات، للدخول في عمليات يمكن أن تقود لحروب واسعة وباهظة التكلفة. وكان من المحتمل أن تظل الأوضاع علي ما هي عليه بدون تغيير لولا أن طرأ حدث غير حسابات المعارضين وتصورهم لما يمكن أن تواجهه قوات الحكومة عند تقدمها ضد العدو. هذا الحدث تمثل في مغادرة عثمان دقنة، مع كل قواته المقاتلة تقريباً، لمنطقة الحباب. لم تكن نواياه من تلك الحركة قد اتضحت. لكن كان من المعتقد أنه كان متوجهاً في حملة لجمع الضرائب وأنه قد يتغيب فيها لبضع أسابيع.

* كُتب ونجت هذا الملحق الإضافي بعد أن أكمل كتابه (في أول يناير ١٨٩١) وبضطرته الأحداث لإضافته (المعرب).

لذلك تبلورت لدي الحاكم العام لسواكن، الكولونيل هولد سمث، فكرة إحتلال طوكر بهجوم مفاجئ كاسح أثناء غياب عثمان - فقد كان الإضطباع السائد هو أن قوات الحكومة إذا ما سيطرت على دلتا طوكر، فإن من المضمون الحصول على ولاء كل القبائل المحيطة بها، وحتى البعيدة نسبياً عنها، وأنها ستقاوم بشدة أي محاولة من الدراويش لإستعادة المنطقة. ومما يزيد من صعوبة الأمر (بالنسبة لعثمان) هو أن الحكومة قد تسيطر على المكان الوحيد في تلك المنطقة الذي تتوفر فيه المواد الغذائية والطعام.

تلك كانت مبررات الكولونيل هولد سمث التي أبرقها تلغرافياً في الخامس عشر من يناير ١٨٩١. راجياً بشدة الإذن له بالمضي قدماً في خطته.

وكان لابد من تمحيص الأمر بدقة قبل التصديق بقيام حملة كهذه. وتبدلت العديد من التلغرافات بين سواكن والقاهرة، هذا يشرح ويوضح ذلك يستفسر ويتساءل. ولعدة أيام لم يتم اتخاذ أي قرار.

خلال ذلك لم تتوقف محطة هندوب عن كونها مصدراً للمتابع. وتعددت الغارات حول سواكن وارتكبت فظائع كثيرة ضد القبائل الموالية. وبالتالي، وفي ٢٦ يناير، تم توجيه فصائل الخيالة المصرية، بقيادة الكابتن بيش، للتقدم نحو هندوب. وقد نجحوا في أسر جماعة من اثنتين وأربعين لصاً. لكنهم ما أن عادوا لسواكن حتى وصلتهم معلومات بأن جماعة من الفرسان والراجلين كانوا يهاجمون قطعياً من الماشية التي كانت ترعى خارج الطوابي. وقام الفرسان مع الخيالة المحليين فوراً بمطاردتهم وإستعادوا المواشي ثم واصلوا مطاردتهم للعدو حتى هندوب وأحدثوا بهم بعض الخسائر بينما قُتل من فرسان الحكومة رجل واحد وجرح آخر. ثم عادوا إلى سواكن. ثم ما لبث بعد ذلك بقليل أن قامت جماعة من الفرسان والراجلين، حاملين للرايات، بالظهور على بعد ٥٠٠٠ ياردة من الطوابي في مظهر واضح للتحدي. لذلك قرر الكولونيل هولد سمث مواجهة هذا التحدي من اللصوص بالتقدم بقواته نحو هندوب و تشتيتهم. طبقاً لذلك تقدم في صباح اليوم التالي بالتشكيل التالي:

• الخيالة في المقدمة.

• وراءهم الكتيبة السودانية الحادية عشرة.

• على مسافة منها، كاحتياطي، الكتيبة السودانية الثانية عشرة.

شوهدت جماعة من العدو متراجعة شللاً فشيئاً. وعند اقتراب القوات اتضح لها أن هندوب، مثلها مثل الجبال التي على يسار القوات المقدمة، كانت محتلة بقوات العدو بأعلامها وراياتها الخفاقة كما كانت النقارة تضرب والجميع متهينون. تقدمت الكتيبة الحادية عشرة، بقيادة الكابتن مكدونالد، باتجاه وسط هندوب بينما توجهت فرق الخيالة نحو الجبل الشمالي وحوله لقطع

* في ذلك الوقت كان الجنرال سير فرنغل بصحبة صاحب السمو الخديوي في مهمة لتفقد مديرية الحدود لكنه عاد إلى القاهرة بأسرع ما يمكن للنظر في أمر طوكر. وربما لا نخرج عن الموضوع إذا نظرنا لما أحدثته زيارة صاحب السمو من أثر على سكان الحدود. فقد كان حماس الأهالي لا حدود له عند استقباله مما قدم دليلاً لا شك فيه على التغيير الذي حدث في ذلك الإقليم بعد أن تم تدمير قوات النجومي وطردها منه في عام ١٨٨٩.

خط الرجعة علي العدو. تم توقيت هذه الحركة الاتفاقية بدقة تامة. وعندما تراجع العدو أمام المشاة إنقض عليهم الفرسان بفعالية مدمرة وقتلوا أكثر من أربعين منهم بمن فيهم أميرهم راجاً. أما الباقون فقد فروا إلى الجبال وتم إحتلال هندوب بدون مقاومة أخرى. تم تحويل مبنى بيت المال (المبنى من الحجارة)، والواقع في مكان مناسب، إلى ثكنة قوية تتبع لحوالي خمسين رجلاً وأقيمت من حوله زريبة متينة، وبقيت بها الكتيبة الحادية عشرة مؤقتاً بينما عادت بقية القوات لسواكن. أدى إحتلال هذا المركز الحصين للدراويش، والذي ظل طويلاً مصدراً للإزعاج الشديد لسواكن، إلى ارتياح كبير وعادت القبائل المجاورة الآن لتمارس تجارتها بحرية، إلى سواكن ومنها.

كان سكان هندوب قد إستفادوا من الخط الحديدي القديم الذي بين سواكن وبربر لبناء مساكنهم. فالمسجد مثلاً كان من الحديد المأخوذ من القضبان ومن الألواح التي تم طرقها وضمها بدرجة متقنة ووفرت حماية طيبة له.

وفي الحادي والثلاثين من يناير توجه الملازم كوتون، بصحبة عشرة من الخيالة المحليين وثلاثين من العرب الموالين وخمسة وعشرين من رجال قوة بوليس سواكن من العرب، بحراً إلى الشيخ بارود ومنها تقدموا مشياً إلى دارور حيث كان بها أحد المهدويين المعروفين، وتاجر للرفيق في نفس الوقت، أسمه عمر لحاي ومعه عدد قليل من الرجال يجمعون الضرائب. تم الإحاطة بالمنزل الذي كان لحاي به وبعد ذلك تم أسره ومن معه من الرجال بدون مقاومة تذكر.

بعد ذلك تقدم الملازم كوتون إلى فجير ومنها إلى روية والتي وصلها عصر الأول من فبراير. نزلوا من السفينة وتوجه مع رجاله بعد ذلك بحثاً عن جماعة من المهدويين، بقيادة الأمير محمد طاهر الأمين، كانوا في مهمة لجمع الضرائب. إصطدم بهم علي مسافة ستة أميال من روية، عندما كانوا علي وشك الدخول إلى الجبال، وبعد إشتباك قصير تمكن من القبض على الأمير وعلي ستة عشر من رجاله. وفي الثاني من فبراير تقدمت جماعة من العرب الموالين نحو طماي، حيث كان معلوماً لديهم أن بها حوالي خمسين من أفراد العدو ومعهم الشريف جابر. هاجم العرب الموالون المركز ونجحوا في القبض على الشريف وعلي معظمهم رجاله.

أدت تلك الضربات المفاجئة والناجحة إلى تدهور وضع المهدية في المناطق المجاورة لسواكن وكانت نتائجها واضحة على علاقات الحكومة بالقبائل المجاورة لسواكن. وتدفقت الإمدادات على سواكن بحرية وعبر الشيوخ عن سرورهم لطرد الدراويش. ولكن لم يتوقع أي أحد، رغم ذلك، أن تستمر حالة الهدوء في المنطقة طالما ظل إقليم طوكر الخصيب في أيدي المهدويين. وظلت مسألة الحملة ضد طوكر معلقة دون قرار. أستمز ذلك حتى يوم الثامن من فبراير حينما تم إبلاغ الحاكم العام التصديق علي مقترحاته وخططه. وتم الاتفاق علي أن تتكون القوات المهاجمة من ١٥٠٠ علي الأقل من المشاة و ١٠٠ فارس ومدفعي ميدان ومدفعين جبليين، هذا إضافة إلى إرسال قوات من كتائب القاهرة وأسوان للمساعدة على حماية سواكن وتأمينها وتقديم التعزيزات للقوات المهاجمة إن دعت الضرورة لذلك. ولم يتأخر إرسال القوات بالبحر. وفي الحادي عشر من فبراير تم إحتلال (ميناء) ترنكتات بواسطة الكتيبتين الرابعة المصرية والحادية عشرة السودانية.

وتبع ذلك تقدم الكولونيل هولد سمت وأركان حربيه نحوهم في الثالث عشر من فبراير. وفي اليوم التالي قام الفرسان والكتيبة السودانية الثانية عشرة وسرية من الكتيبة المصرية الأولى بالوصول إلى ترنكتات وتم إحضار كميات كبيرة من المؤن لها من سواكن واتخذت كل الإجراءات للقيام بتقديم سريع نحو طوكر*.

وتم أيضاً تشكيل قوة من ٥٠٠ من العرب الموالين في سواكن، ووضعوا تحت إدارة المستر وايلد (القتصل) بعد أن وجه بالتقدم برأ نحو تمرين. وبعد متابعته لتحركات القوات المصرية كان عليه أن يستعد لقطع طريق أي تراجع للعدو.

أثناء ذلك وصلت معلومات من الفارين من معسكر عثمان دقنة، من قرية عفافيت، والذين وصلوا إلى ترنكتات في الرابع عشر من الشهر بأن عثمان قد عاد بقواته من منطقة الحباب قبل بضعة أيام. وعندما علم بسقوط هندوب وطماي غادر عفافيت متوجهاً للشمال مع قوة من ١٠٠ خيال ١٨٠٠ من حملة السيوف والرماح و ١٠٠ سوداني مسلحين بالبنادق. كان ينتوي استنفار القبائل في الطريق ومن ثم إعادة احتلال هندوب. وقد وصل إلى طروي في الثالث عشر من فبراير وغالباً ما يهاجم هندوب في الخامس عشر من الشهر. وقد ترك وراءه ود الشيخ طاهر المجذوب أميراً علي عفافيت ومعه ٥٠٠ مقاتل منهم ٣٥٠ من الأغراب ومعهم بعض الخيالة والجهادية. تشكك المسئولون في صحة هذه المعلومات ولكن وفي منتصف ليلة الرابع عشر من فبراير شنت فرقة من فرسان العدو غارة على معسكر للعرب الموالين بالقرب من سواكن وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا سبعة من النساء وبهذا تأكد بأن هناك قوة (معادية) في مكان غير بعيد وبالتالي تقدم رجال المستر وايلد من العرب الموالين لتعزيز قوات هندوب* وقد تعززت التأكيدات الخاصة بنوايا عثمان دقنة أكثر من ذي قبل عندما فر اثنان من رجاله من طماي وأفادوا بأن قائد تلك الغارة هو عثمان نايب والذي كان قد أرسل للحصول علي المواشي لإطعام القوات التي تقرر أن يهاجم هندوب.

وفي وقت متأخر من يوم ١٥ / ٢ وصل إلى سواكن إثنان آخران من الفارين من العدو، وأفادوا بأن عثمان قد تلقى للتو رسالة من مجذوب بعفافيت أخبره فيها بوصول قوات بالبوخر إلى ترنكتات تشتمل علي آلاف من الجنود الإنجليز والمصريين. وذكر أن الجنود المصريين كانوا مكبلين بالأغلال الحديدية مع بعضهم البعض حتى لا يلوذوا بالفرار من الجندية. ورجي مجذوب من عثمان العودة فوراً بقواته لمحاربة الكفرة والمشركين. ولذلك ترك عثمان أمر الهجوم علي هندوب وأسرع بالتوجه بمشقة بالغة إلى عفافيت عن طريق تروي وستراب**.

* وقد وصلت الأخيرة ومنى تبقي من الكتيبة الأولى، مع اللفتات كولونيل سيئل وبعض الضباط الآخرين بأركان الحرب المصري، إلى سواكن يوم ١٤ / ٢ قادمين من القاهرة. نزلت من السفن ثلاثة سرايا لتخدم في حامية سواكن تحت قيادة الكابتن كوزل (من فوج كنت الشرقية) بينما نزل الباقون في ترنكتات صباح يوم الخامس عشر.

** تلاحظ أن تلك المعلومات قد وصلت إلى سواكن يوم الخامس عشر من الشهر لكنها لم تصل لعلم قوات الحملة إلا بعد يومين من ذلك.

أثناء ذلك اكتملت كل الاستعدادات للتقدم نحو آبار التيب، في مساء الخامس عشر من الشهر. ولما لم تصل أي أخبار جديدة عن تحركات العدو، حتى ذلك اليوم، إليهم في ترنكتات فقد تقرر أن تتقدم القوات صباح اليوم التالي الباكر، بعد أن تترك سرية واحدة من الكتيبة الأولى لحماية ترنكتات. وطبقاً لذلك، وفي الثامنة من صباح يوم السادس عشر من فبراير، غادرت القوات ترنكتات، وتقدمت على النحو التالي: الفرسان، ثم الكتيبة الحادية عشرة، ثم الكتيبة الرابعة، ثم الكتيبة الثانية عشرة، ثم السلاح الطبي وسلاح النقل والترحيل^{***}. كانت المسيرة خلال الأيام الخمسة الأولى على أرض رملية وعرة، ولما كان ذلك الصباح قاتماً ثقيلًا على غير العادة فقد كان من الضروري التوقف كثيراً للحصول على بعض الراحة. يقع الطريق عبر انحناء طويلة (بشكل قوس) لميناء ترنكتات. وكان من المزمع إقامة مستودع للمياه في أقصى طرفه الجنوبي، وبذلك يمكن توفير وإختصار دورة طويلة من الطريق مع تخفيف العبء على وسائل النقل أيضاً. توقف طابور المعدات والأمتعة في هذه النقطة عند الظهر وتم تحصين الموقع بجماعة من المدفعية،

*** فيما يلي تركيب وتشكيل وعدد قوات الحملة الميدانية لشرق السودان:

- القائد العام: الكولونيل هولده ست من فرقة الرماة الملكية.
- رئيس الأركان: اللفنتانت كولونيل سبيل، من المهندسين الملكيين.
- مساعد الأنجوتانت جنرال للإستخبارات: الميجر ونجت، دي إس أو/ آر إي.
- ضباط الأركان: كابتن بارو (كتيبة لاكتشاف الجنوبية). الملازم كيرتس/ من المهندسين الملكيين.
- كبير الضباط الأطباء: الجراح مايلز (من السلاح الطبي).
- مسئول الإمدادات والإتصال: الكابتن ماشل (كتيبة إسكس).
- مدير قاعدة الإتصال: الصاغ مختار أفندي.
- كبير ضباط البحرية: الكوماندنر دننج (من البحرية الملكية/ على السفينة دولفين).
- ضابط البحرية الملازم كرلوك (على السفينة دولفين).
- السكرتير العربي: ملحم شكور بك.

القوات:

- الفرسان: فصيلين بقيادة كابتن بوش (الهوسار العشرين).
 - المدفعية: ٥٩ رجل، مدفعي مدان ومدفعين جبليين بقيادة الملازم بولان (آر إي).
 - المشاة: - الكتيبة الرابعة المصرية/ بقيادة الكابتن هالكيت بين (من كتيبة سري ويساعده القائد الثاني الكابتن سدنبي (من مشاة دوق كورنوال الخليفة).
 - الكتيبة السودانية الحادية عشرة بقيادة الكابتن مكنونالد (من مشاة غرون هایلاندرز)، ويساعده القائد الثاني الملازم جاكسون (غرون هایلاندرز) والملازم كوتون (مشاة شرو بشير الخليفة) والملازم دبلات تايلور (حرس الحدود).
 - الكتيبة السودانية الثانية عشرة بقيادة الكابتن بيسانت (من كتيبة نورفولك) ويساعده في القيادة الكابتن مسارتير (مشاة دوق كورنوال الخليفة).
 - السلاح الطبي: الجراح جراهام (من السلاح الطبي).
- هذا إضافة إلى مغارز من المهندسين والمفوضين والمدفعية والباطرة. وبلغ المجموع ١٨ ضابطاً إنجليزياً، و ٥٧ ضابطاً وطنياً، ٦ ضباط صف إنجليز، و ١٨٥٥ ضابط صف وجندي من الوطنيين، و ٥٥ مدنياً (بمن فيهم المترجمين) و ١٢ رجل من قوات بوليس سولكن الركابيين، و ٤٠ رجلاً، و ١٥٠ قائد جمل، و ١٥٠ حصاناً و ٤٥ بغلاً و ٥٠ حماراً و ٢٠٠ جمل و ٥ مدافع (أحدها مدفع مكسيم).
- وقد انضم الضباط الآتية أسماؤهم إلى الحملة في التيب يوم ١٧ / ٢ وهم اللفنتانت كولونيل رنغل ومساعد مدير الاتصالات الكابتن بالمر من مشاة سميرت الخليفة والطبيب البيطري جرفث.

معها مدفعان وبقيادة الملازم بولن. بعدها جرى التقدم بتشكيل مختلف عن السابق لحد ما. فالخيالة الفرسان، الذين كانوا على بعد ميل من الأمام، عادوا لتغطية وسط المسيرة ويسارها. وقاد تقدم المشاة أفراد الكتيبة الحادية عشرة وتلتها الكتيبة الرابعة في خط مواز لها وعلى بعد ١٠٠ ياردة على يسارها. أما الكتيبة الثانية عشرة فمضت مباشرة خلف الكتيبة الحادية عشرة وعلى بعد ١٠٠ ياردة إلى اليمين من مؤخرة الكتيبة الرابعة. بعد هم جاءت الفرق الطبية ووراء الجميع طابور صغير من الجمال والبغال التي تحمل الذخائر والمياه. أما فرسان العرب الموالين فقد عملوا كأداء للحملة.

ومروا أثناء تقدمهم خلال الموقع الذي حدثت فيه معركة المرحوم الجنرال بيكر في فبراير ١٨٨٤ وكانت آثار المعركة لازالت واضحة من مشاهد أقوام العظام البيضاء المبعثرة عبر السهل.

وكان من المعتقد أن العدو يحتل آبار التيب ولكن عند إقترابهم منها لم يشاهدوا إلا بعض الفرسان على البعد وهم يتراجعون نحو الألق وأبلغت طلائع الخيالة بأن التيب خالية من العدو، ومن ثم تحركت نحوها القوات في الثالثة ظهراً، وعسكروا، على شكل مربع، في الهواء الطلق جنوب الآبار. وجدوا أن الآبار قد ردمت لكن المواطنين الموالين الذين معهم قاموا بإعادة حفرها. ووصلت جمال النقل عصر ذلك اليوم قادمة من مستودعات المياه (والتي أطلق عليها الآن اسم طابية دولفين) ثم عادت لترتكتات لإحضار بعض المؤن. تم إتخاذ كافة التحوطات من أي هجوم قد يشن عليهم أثناء الليل. ولما لم تكن لديهم أي أخبار عن تحركات العدو فقد قاموا بإرسال جواسيس من العرب باتجاه طوكر. وفي أثناء ذلك تم التثبت في سواكن من الأخبار السابقة الخاصة بتحركات عثمان وأرسلت خطابات للمستمر وأبلد تأمره بالمضي قدماً مع العرب الموالين بأسرع ما يمكنه ذلك وأن يقيم اتصالات ما بين سواكن وقوات الحملة. وأثناء الليل سلمت جماعة من حوالي ثلاثين رجلاً وإمرأة من الشايقية أنفسهم لطابية دولفين وأفادوا أنهم قد هربوا للتلو من عفافيت، والتي وصفوها بأنها قرية كبيرة تقع على بعد أربعة أميال تقريباً من جنوب شرق مأمورية طوكر المخربة. وكان من المعروف أن ذلك المكان لم يمكث به العدو منذ عام ١٨٨٤. وأفاد هاؤلاء الهاريون أيضاً بأنهم سمعوا بأن عثمان كان في طريقه عائداً من هندوب، لكنهم لا يعلمون إذا كان قد وصل إلى عفافيت أم لا. وأضافوا بأن مفرزة من خيالة العدو تقيم في واديت، جنوب التيب ببضعة أميال، كما عاد الجواسيس العرب صباح يوم ١٧ فبراير وذكروا بأن الطريق في ذلك الاتجاه كان مقفلاً بواسطة أحد عشر فارساً من العدو.

وتم بناء حصن قوي يطل على آبار التيب. وسرعان ما تدفقت عليه الإمدادات والمؤن من ترنتكتات ومن طابية دولفين. وكانت الحامية المكونة من رجال المدفعية قد وضعت لحماية المكان الأخير تحت قيادة الملازم بولن، والذي كان قد أرسل لحماية حصن التيب، ثم حلت محله فيها مفرزة من الكتيبة الأولى.

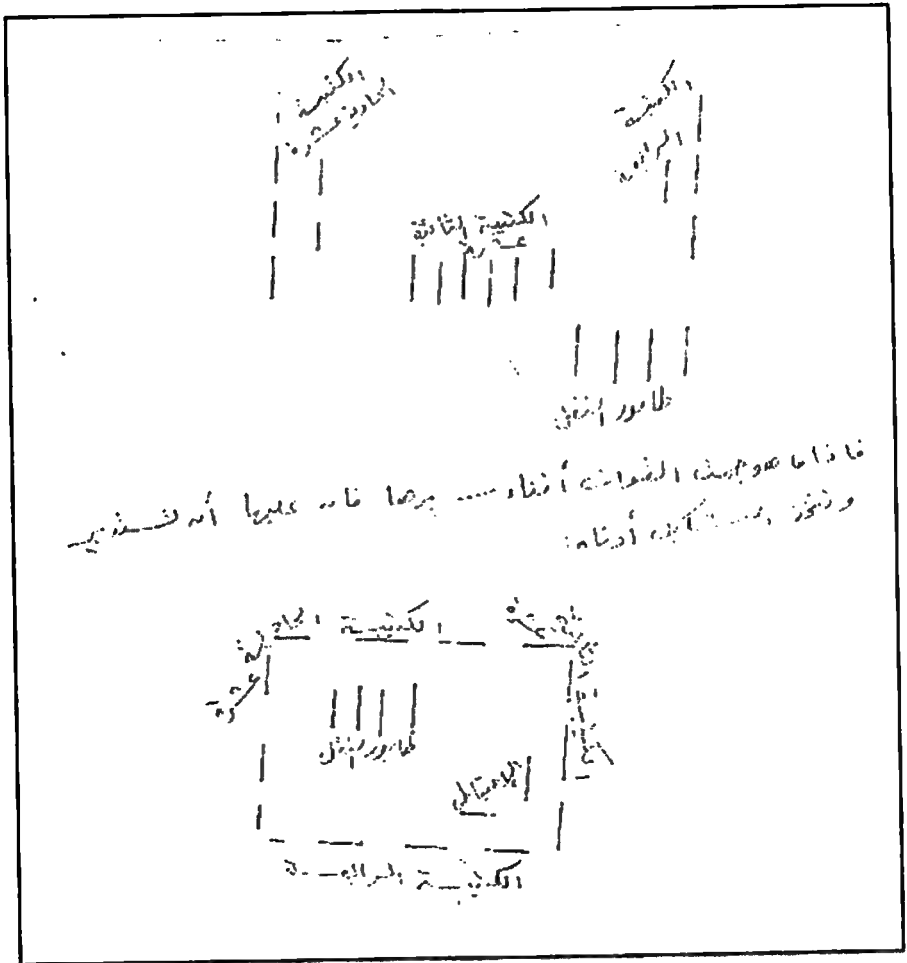
كان قد تقرر مواصلة التقدم من التيب صباح الثامن عشر من الشهر ولكن نظراً لهبوب عاصفة شديدة، تعمي العيون، استمرت لعدة ساعات، فقد تأجل التقدم.

وفي صباح نفس اليوم تم إلقاء القبض على أحد جواسيس العدو، بواسطة قوات بوليس العرب الراكبة، وإتضح أنه كان قد غادر عفافيت في صباح نفس اليوم الباكر بتعليمات من عثمان دقنة ليعرف ويحدد له بالضبط مكان وتحركات القوة المتقدمة نحوه. وقد أدلى بأقوال مفادها أن عثمان قد عاد إلى عفافيت صباح يوم الاثنين (١٦ / ٢) وقام في الحال بإعدام أوهاج حصن وإثنين من كبار الشيوخ الذين إشتبه في نيتهم للفرار إلى أعدائه. وكان قد جاء ومعه تعزيزات أحضرها معه من الشمال وأمر بضرب النقارة باستمرار منذ وصوله، وهدد كل من لا يستجيب لنداء (الجمع للقتال) بالموت. وتحول يوم الثلاثاء إلى معسكر خارج عفافيت بكل قواته، والمكونة من بضع آلاف من الرجال، كان معظمهم من العرب المحليين الذين لا يرغبون في القتال والذين أرغمهم عثمان علي الانضمام لراياته. وكان بعض أمراء عثمان، بمن فيهم عثمان نايب وموسى فكي، في مهمة خارج المنطقة لجمع الرجال، كما استدعيت كل جماعات جمع الضرائب للحضور له لزيادة عدد قواته المقاتلة. وكان كل يوم يمر يشهد انضمام المزيد من الرجال إليه سواء برغبتهم أم غصباً عنهم، واتخذوا لهم معسكراً بين تلتين رمليين مرتفعين يعرفان بأسم شبابيت ولا يبعدان كثيراً عن قرية كرباجيت، جنوب شرق خرائب طوكر القديمة بحوالي ميلين. كان قصد عثمان انتظار دخول القوات إلى الغابة الكثيفة الأشجار، والتي لا بد لهم من إختراقها، ثم ينقض عليهم من الأجناب عندما تكون القوات منهكة من جراء سيرها الطويل الصعب.

من تلك المعلومات، مصحوبة بمعرفته بأن آبار طوكر قد ردمت منذ مدة طويلة امتدت لسنوات، وأنها تحتاج لوقت طويل وجهد بالغ لإعادة حفرها، قرر الكولونيل هولد سمث التقدم مباشرة نحو عفافيت عند فجر اليوم التالي (١٩ / ٢)، ويتوقف عند طوكر ويتترك بها الذخائر والمياه، وبهذا يكون جاهزاً لمواجهة العدو بدون أن تعيقه الجمال والبغال.

بالتالي، وعند فجر التاسع عشر من فبراير تحركت القوات المكونة من ٨١ ضابطاً و ١٧٦٢ صف ضابط وجندي و ١٤٩ جواداً و ٣٦ بغلاً و ٨٣ جملأ، من التيب حيث ترك فيها حامية من ٦٠ من المدفعية ونصف سرية من الكتيبة الثانية عشرة ومدفعين، تحت قيادة الملازم بولن.

تحركت القوات بالتشكيل التالي: الفرسان على بعد ميل أمام القوات مغطيين كل المواجهة والجناحين والمؤخرة. أما المشاة فتوزعوا كما بالشكل الأول والثاني.



تحركت القوات بالتشكيل التالي: الفرسان على بعد ميل أمام القوات مغطيين كل المواجهة والجناحين والمؤخرة. أما المشاة فتوزعوا كما بالشكل الأول والثاني.

وكان من المعروف أن الغابة اليسرى كانت أغزر أشجاراً من اليمنى. لذلك توجهت كل القوات متخذة طريقاً جنوبي غربي حتى لاحت لهم طوكر والتلال الرملية، ثم تقرر بعد ذلك تغيير إتجاههم وتوجه الطابور مباشرة إلى طوكر.

قام الفرسان المتقدمون بطرد بعض كشافة العدو الراكبين من أمامهم. وفي التاسعة وعشرين دقيقة صباحاً شاهدوا ضرائب مأمورية طوكر، كما علموا بأن بعض طلائع العدو قد تراجعوا إلى المؤخرة اليسرى. اندفعت مفاوز الخيالة التي كانت بالأجنحة نحو الخرائب واحتلتها وتبعها بقية القوات والتي وصلت إلى الناحية الشمالية الشرقية من القرية في العاشرة صباحاً. وأثناء ذلك قامت جماعة الخيالة التي كانت على الجناح الأيمن بالإحراف في دورة نحو الجنوب ولاحت أمامها قوات العدو التي بداخل الغابة الكثيفة بين طوكر والتلال الرملية.

كانت قرية طوكر ومأموريتها فيما مضى مزدهرة عامرة وبيوتها ومبانيها مشيدة بالطوب اللبن، وتحيط بها الحدائق من كل جانب. لكنها وجدت الآن خراباً بلقاً ولم يعد قائماً فيها سوى بعض الحوائط، أما للسقوف فقد إنهارت منذ وقت طويل وكان كل ما شوهد فيها يمثل سلسلة من النفايات وأكوام الرمال التي ترتفع قليلاً عن مستوى الغابة الكثيفة على غير المعتاد والتي نمت أشجارها حتى مستوى الحوائط الخربة المتهدمة. وقد ضاعت كل معالم المديرية ولم يعد يشير إليها إلا بعض الأسوار الخربة الواقعة على بعد من القرية.

وركب الكولونيل هولد سمث ومعه الكولونيل ستل وهينة الأركان وداروا بسرعة حول الموقع والذي كان، لتساعده وعدم انتظامه، يمثل صعوبة في الدفاع عنه. وكان واضحاً لهم بأن العدو مدفع نحوهم بسرعة، ومن وقت لآخر كانوا يشاهدون، في لمحة عابرة، رجاله المتقدمين، بينما كانت كميات كبيرة من الرايات تتماوج في شبه دائرة من فوق أشجار الغابة الكثيفة، مما يشير إلى أن قوات العدو الأمامية لم تكن تبعد عنهم إلا ببضع مئات من الياردات، كما شوهدت التلال الرملية الخلفية مغطاة بالرجال والرايات.

لم يكن هناك أي وقت أمامهم. وأسرت القوات بخطي مضاعفة لتتخذ مواقعها كما يلي: غطت الكتيبة الرابعة المباني الخربة على اليمين، بينما احتلت الكتيبة الحادية عشرة الناحية اليسرى من الموقع. وتحركت الكتيبة الثانية عشرة قبل ذلك لتغطي يسار الكتيبة الرابعة. وبهذا التشكيل تم إقامة خط دفاعي شبه دائري ومترابط. لكن طبيعة ذلك الموقع جعلت من المستحيل الدفاع أو حماية المؤخرة التي تحتشد فيها جمال الحملة وبغالها بينما وضعت الخيالة قريباً منهم. وقبل أن تتخذ القوات مواقعها تقريباً كان العدو قد وصل لمسافة خمسين ياردة منهم. أندفع الكابتن مارتيير، ومعه سرية من الكتيبة الثانية عشرة، للأمام واحتل أحد المباني الخربة الواقعة وراء خط الدفاع الرئيسي، وبهذا تمكن مؤقتاً من إيقاف اندفاع العدو. ونظراً لوجود عدد كبير من رجال العدو على مسافة بضعة أقدام من الأسوار، فقد تراجع هذا الفصيل شيئاً فشيئاً وإتضم لخط الدفاع العام. أثناء ذلك بدأ إطلاق النار بطول الخط عندما رأوا العدو يتقدم نحوهم بسرعة ويحيط بالموقع تدريجياً بينما كان فرساته، الذين إندفعوا حول الجناح الأيمن، يهددون المؤخرة. وفي هذه اللحظة إنطلقت الجمال على غير هدي بعد أن هجرها الجمالة الوطنيين. وقام بعض ضباط هينة الأركان بإعادة بعضها في الوقت الذي شاهد فيه فرسان العدو نقطة الضعف هذه فحاولوا الإندفاع نحوها. وقد نجح قليل منهم في الوصول وإختراق تلك النقطة لكنهم قتلوا فوراً وقتل أحد كبار أمرانهم برصاصة من مسدس الكابتن ما شل بداخل الموقع.

كان الوضع حرجاً في هذه اللحظة فقد كان واضحاً أن العدو يحاول الانتصاف حول الجناحين. لكن الكتيبة الحادية عشرة، بعد إحضار الفصيل الاحتياطي، تمكنت من إيقاف حركة الانتصاف على الجانب الأيسر. ثم استدارت كل الكتيبة لتعاود مواقعها الأصلي وسط الخراب والخرابية وتمكنت من طرد العدو منها بأسنة السونكي وظهرت الجبهة اليسرى منهم ثم احتلت أرضاً مرتفعة تبعد بخمسائة ياردة أمام موقعها الأصلي. وإثناء ذلك أصيب الكابتن بارو، بينما كان يؤدي واجبه ببسالة، برصاصة قاتلة اخترقت صدره. ففقت الكتيبة ٨ قتلى و ٢٩ جريحاً بينما قتل

جوادا الكابتين مكدونالد والملازم جاكسون بالرصاص من تحتها. وأثناء ذلك واصلت الكتيبة الثانية عشرة دفعها للعدو والذي كان، بجسارة عظيمة، هاجماً علي قلب الموقع، حتى جاءت الكتيبة الرابعة وتمكنت بدفعات متواصلة من الرصاص من إيقاف إتفاف العدو علي الناحية اليمنى.

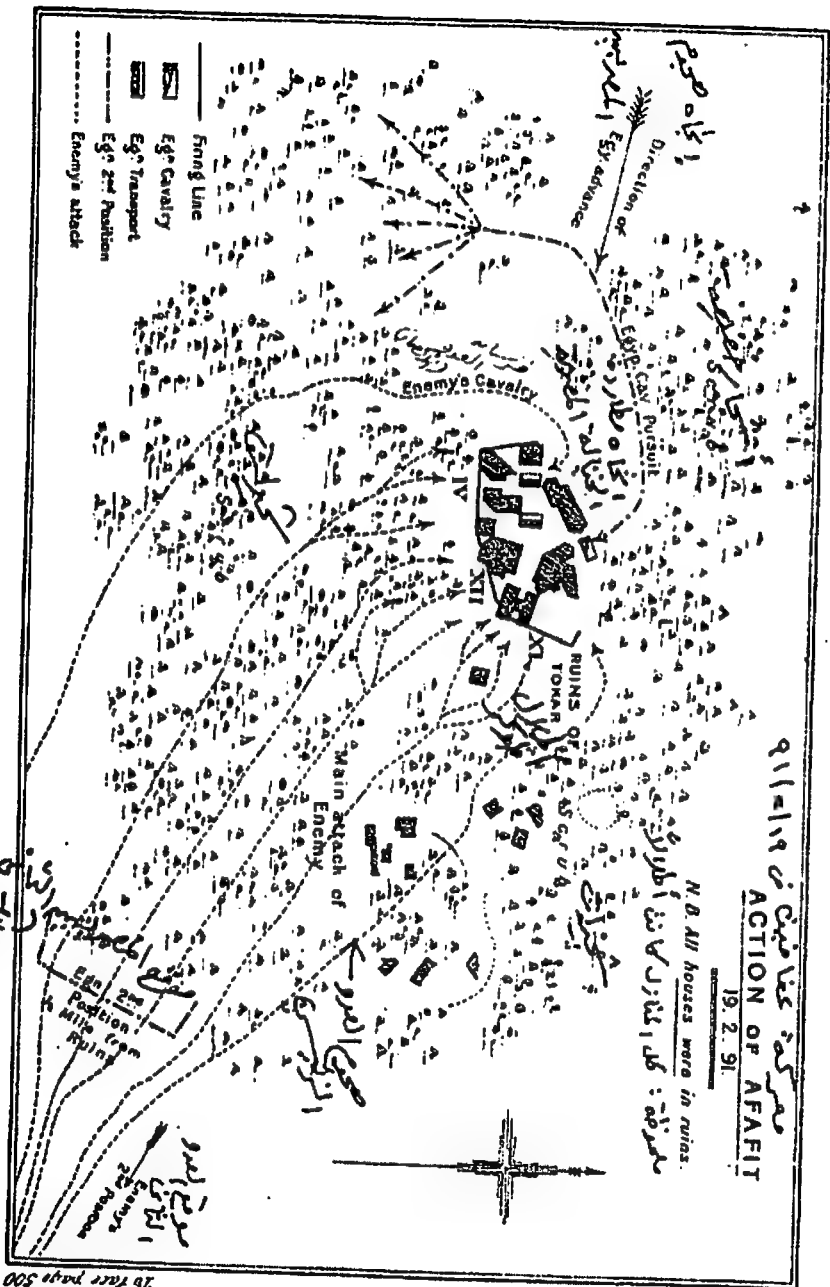
ولوحظ أن العدو قد بدأ يتراجع بسرعة نحو الجنوب كسيراً محطماً، ورأى الكولونيل هولد سمث بأن اللحظة المناسبة قد حلت، فأمر الفرسان بالهجوم وتنظيف الجانب الأيمن، والذي أفلحوا في القيام به بعد قتال يدوي استمر لبعض الوقت، جرح خلاله الكابتين بيث أثناء محاولته إتقاذ حياة ضابط مصري كان قد هاجمه ثلاثة من رجال العدو وأثخنوه بالجراح. إذ إندفع الكابت بيث بجواده نحوهم وقتل أحد المهاجمين بضربة من سيفه في الوقت الذي هاجمه الآخرون بعنف وكادا أن يلقيانه أرضاً من علي جواده لكنه تمكن من طعن أحدهما بسيفه في قلبه عندما كاد الرجل أن يطبق عليه. ولما رأى الثالث ما حل بزميله حاول الهرب لكن الفرسان أجهزوا عليه.

تقدمت الآن الكتيبتان الرابعة والثانية عشرة من مواقعها وبعد أن قامتا بتطهير الغابة (من العدو) أنضمتا للكتيبة الحادية عشرة فوق الأرض المرتفعة. وتوقفت كل القوات هنا للاستراحة قبل التقدم إلى عفايت. كان العدو لا يزال محتلاً للتلال الرملية العالية علي بعد ميل ويعمل علي أن يقف وقفة ثانية في مواجهة القوات. تم تشكيل مربع من القوات وواصلت تقدمها، تسبقها مفارز الفرسان، نحو الجنوب، تاركة التلال علي يسارها. أما الجرحى السبعة والأربعين وجمال النقل فقد تركا في طوكر والتي كان بها ثلاثة فصائل لحمايتها بقيادة اللفتانت كولونيل رندل.

وعندما تحركت القوات تفرق العدو من التلال وتمكن الفرسان، بعد اعتلاها، من الحصول علي منظر واضح لقرية عفايت الضخمة التي تقع وراءهم بميلين، وأمامها مباشرة يقع معسكر عثمان دقنة.

وقد أفاد بعض الأسرى بأن الأنصار سيصمدون في القرية وبالتالي تقدم المربع بحذر شديد نحو الشمال الشرقي بينما أتجه الفرسان نحو الجانب الأيمن والتفوا حوله. وتقرر في حالة وجود القرية محتلة أن يتم إحراقها بنيران أسلحتهم علي أن يقوم الفرسان بقطع طريق الإسحاب علي العدو. وعندما أقترب المربع من القرية خرج منها عدد من الأهالي وطلبوا الأمان وذكروا أن من تبقى من القوات المهزومة قد فروا مع عثمان باتجاه تمرين وذلك قبل ساعتين، وأن من تبقى في القرية الآن جميعهم من "الأصدقاء".

لذلك أوقفت القوات خارج القرية. وفي الرابعة عصراً ركب الكولونيل هولد سمث وهينة ضباطه إليها وقابله عدد من الأهالي بالترحاب وعبروا عن ولائهم للحكومة وسرورهم بالتخلص من طغيان عثمان.



2b face page 500

تقدمت القوات واحتلت القسم الشمالي الشرقي من القرية والتي وصلت إليها جمال النقل والجرحي، قادمين من طوكر، في مساء نفس اليوم. وقد استقلت خيام عثمان دقّة، بعد تحويلها لمستشفى، لعلاج الجرحى والمصابين*.

بلغت جملة خسائر المصريين عشرة قتلى و ٤٨ من الجرحى** وتم الاستيلاء على خمسين من رايات العدو وعلى كميات كبيرة من مختلف أنواع الأسلحة.

ومن غرائب الصدف التي تستحق الذكر هي أن احتلال طوكر ورفع العلم المصري فوق أنقاض خرائب وأطلال مباني الحكومة صادف الذكرى السابعة لسقوطها (في يد المهديين) بالضبط عام ١٨٨٤. والوصف التالي لما حدث، والذي قدمه اثنان من أتباع عثمان دقّة، جدير بالذكر. وقد كتبه باللغة العربية اثنان من ضباط الباشبوزوق الذان أرغما على الانضمام لقوات عثمان دقّة المقاتلة:

"كان عثمان دقّة قد عاد إلى عفايت يوم الاثنين قادماً من هندوب، ووافق ذلك السادس عشر من فبراير، ولما علم بقدوم الحملة باتجاه طوكر قام بإجراء كل الاستعدادات اللازمة لمواجهةهم وهزيمتهم في نفس اليوم. وقام بإعدام أوهاج حسن وشيخين آخرين عندما أشتبّه في نيتهم على الفرار. وقام بإرسال جواسيس لمختلف الاتجاهات للتحري عن أخبار تحركات القوات، كما أرسل دوريات ليلية وصلت حتى إلى آبار عبد الله عربي* وأمرها بالبقاء هناك حتى الصباح. وأمر بضرب النفارة بدون توقف لتجميع كل الرجال للقتال. وعصر يوم الثلاثاء حدد موقعاً لمعسكر قواته جميعها خارج قرية عفايت وأمر كل رجال القرية بالذهاب إليه مع ترك النساء والأطفال والمرضى فقط بالقرية. تم نقل السوق إلى المعسكر وكان على النسوة إحضار المياه أما الخيالة فكانت مهمتهم هي منع أي رجل من العودة للقرية. ثم نصب خيامه وخيام أمرائه الكبار.

"وعندما علم من جواسيسه أن القوات قد وصلت لآبار التيب، أمر فصيلاً من ٢٠٠ من رجاله، مسلحين ببنادق رمنجتون، ومع كل منهم خمسة طلقات بمرافقة أربعين من الخيالة برئاسة الأمير حاج يعقوب محمد، للتوجه إلى التيب والإختباء في الغابة القريبة منها. حددت خطته أن يقوم عدد قليل منهم بالتوجه نحو القوات وإطلاق النار عليها، وتوقع أن تقوم القوات بمطاردتهم، لذا عليهم في هذه الحالة أن يتراجعوا ويستدرجون القوات للدخول في الكمين المعد لهم حيث يقوم باقي المقاتلين بمفاجأتهم بالهجوم عليهم. لكن رجاله عادوا صباح الثلاثاء الباكر وأفادوا بأنهم إقتربوا من التيب لكنهم وجدوا القوات في حالة طيبة من الاستعداد وأن خيول القوات كانت مسرجة وجاهزة للتحرك في أي لحظة. ولذلك لم يتجرأوا على تنفيذ الخطة ورجعوا بالتالي.

* هي نفس الخيام التي غنمها عثمان دقّة من جيش الجنرال بيكر عام ١٨٨٤.

** مات منهم اثنان في اليوم التالي.

* الآبار تقع على بعد ميلين جنوب شرق طوكر.

وقد أفادوا أيضاً: بأن عثمان دقة كان قد أرسل إثنين من رجاله بالإبل، في اليوم السابق، ليأتوه بالأخبار. لكن واحداً منهما هو الذي رجع إليه^{٢٢}.

وفي صباح الثلاثاء الباكر تم إرسال رجل آخر على بعير سريع ليحدد بالضبط مكان القوات وعاد في الثامنة صباحاً ونكر أن القوات متحركة في طريقها لمأمورية طوكر القديمة. وشرع عثمان منذ الفجر في تشجيع رجاله وإستفارهم للقتال وبشرهم بأن الله قد رمى بكل القوات المصرية بين أيديهم، وأن الذين يجاهدون سيجازون خير الجزاء.

وكان عثمان أثناء قدومه من هندوب قد جمع كل رجاله الذين وجدهم بالمحطات المختلفة في الطريق وأحضرهم معه. وبالتالي تكونت قوات الدراويش الآن من حوالي ٧٠٠ رجل. لكن من بين هؤلاء لم يكن هناك سوى ٧٠٠ - ٨٠٠ من الأغراب أما الباقون فكانوا من العرب المحليين من الأرنيقة و الجميلاب والشايب والنوراب والحسناوب والأشراف والشقلاي والدقاي والخاسة وغيرهم. وكان كثير من الأخيرين يعارضون عثمان والمهدية سراً في نفوسهم لأن قسوة عثمان كانت عظيمة وشديدة الوطأة وكان معظمهم قد عاني من ذلك وأفنقر. لكنه طالما كان بينهم فليس بمقدورهم عمل أي شيء. لقد سلب الشجاعة منهم، وفرض الضرائب غير العادلة عليهم، وصائر مواشيهم، وأعدم كثيراً من رجالهم، وقطع أيدي وأرجل البعض منهم، وقاسوا الأمرين من الطغيان والقهر علي يده. أشنأق هؤلاء الناس لرؤية الحكومة وقد إستعادت نفوذها في المنطقة وكان عثمان مدركاً تماماً أنه لن يستطيع الاعتماد عليهم. وهذا هو السبب في إرغامه لكثيرين منهم للوقوف في مقدمة المقاتلين حتى إذا حاول أحدهم الفرار فأن خيالاته وعربه المخلصين سيقومون بقتلهم.

ومن بين العرب المحليين كان عدد كبير منهم بجانب عثمان دائماً وكذلك عدد كبير من أقاربه وذوي الصلة به. كان هؤلاء من المعتنقين الخالص للمهدية من سويداء قلوبهم وكناتوا مستعدين للقتال معه حتى النهاية.

وإضافة لما جاء أعلاه كان هناك عدد من موظفي الحكومة الأسرى مثلنا، وأيضاً تجار وموظفين من كل شائكة وتم تقسيم كل القوات إلى أربعة أقسام متساوية بكل قسم عدد من الأغراب والعرب المحليين. قاد القسم الأول الأمير شايب أحمد - علي اليسار -، وقاد القسم الثاني الأمير حمد النيل - علي يمينه -، والقسم الثالث يقوده الأمير محمد أحمد - إلي اليمين -، والقسم الرابع يقوده الأمير أحمد بدوي أبو صفية - علي اليمين أيضاً. وكل قسم من تلك الأقسام الأربعة عدد من كبار الأمراء. من بين المقاتلين كان ٦٠٠ فقط مسلحين بالبنادق. أما باقي المقاتلين فكانوا مسلحين بالسيوف وبالحراب. وهناك أيضاً ١٢٠ فارساً بقيادة الأمير عثمان نايب.

وعندما علم عثمان بتقدم القوات نحوه أمر كل جيوشه للتحرك قدماً بالطريقة التي حددها سلفاً، بينما بقي هو ومعه حوالي ٢٠٠ من حراسه بالقرب من خيامه. ويقال أنه كان راغباً بالاشتراك في القتال لكن أمراءه صرفوه عن ذلك. كانت أوامره هي الإسراع في التقدم حتى

^{٢٢} تم أسر الآخر في التيب. وعند إستجوابه أنلي بمعلومات هامة حول نوايا عثمان دقة.

المأمورية القديمة (خرائب طوكر) وبعدها ينقض على القوات أثناء تقدمها من خلال الغابة الكثيفة، وخاصة بعد أن يكون الإرهاق والتعب قد نال منهم من جراء مسيرتهم الطويلة.

تقدم المقاتلون (الأصبار) بسرعة بالتشكيل المقرر، وقام بعض الفرسان بحراسة الأجنحة وأكثرهم كان بالمؤخرة. وعندما شاهدوا قوات الحكومة فوق أطلال طوكر قام رماة الدراويش من كل الأقسام بتشكيل واجهة هجومية في الخط الأمامي واندفعوا مسرعين حتى يحتلوا المباني الخارجية. نجح البعض منهم في الإختباء خلف الأسوار وشرع في إطلاق النار. كان قسم الأمير شايب أحمد هو أول من بدأ الهجوم من الجهة اليسرى وتقدم رجاله أمام الآخرين وحاولوا الوصول إلى الجهة اليمنى لجناح القوات (المصرية)، بينما قام أحمد بدوي ورجاله بمهاجمة الموقع الأيسر. أما القسمان الآخران فقد ضغطوا على وسط القوات وقلبها. وحاول بعض فرسان العدو الاستدارة لليسار بهدف الوصول لمؤخرة القوات، التي كانت في تلك اللحظة قد اتخذت مواقعها وسط الخرائب. دارت معركة في غابة الشراسة وتطاير وابل من الرصاص وسطنا كالإعصار.

وظل أولئك المخلصون للمهدية في إندفاعهم العنيد، بينما عمل كل العرب المحليين، وكذلك أمثالنا من الرجال، قدر استطاعتهم للاختباء وسط الأشجار الكثيفة وبقي كثيرون منهم على التلال الرملية. وحاول بعض الفرسان الذين جاؤوا من ورائنا دفعا للأمام لكننا حاولنا الهرب منهم. ثم مر بنا الأمير شايب وهو مصاب بجراح خطيرة في طريقة إلى عفافيت ثم جاء بعض آخر وسرعان ما تحققنا بأن القوات الحكومية قد انتصرت عليهم وبدأنا جميعنا في الإسحاب.

وقد ظل كثير من الرجال بالتلال الرملية، لا يدرون ماذا يفعلون؛ راغبون في الاستسلام لكنهم يخشون من أن يتم هجوم عليهم وأبادتهم. وأخيراً شاهدنا توقف قوات الحكومة فوق تلال علي مسافة من المأمورية وبعدها توقف كل إطلاق للنار.

وبعد وقت من ذلك أطلقت نحونا رصاصة واحدة، ولما كنا لا نزال نخشى من الهجوم علينا فقد إتسحبنا جميعنا نحو القرية وغیرنا ملابسنا وإشغلنا بشئوننا العادية. وعندما وصل أول المنسحبين لعفافيت وعلم عثمان بأنه فقد المعركة، إمتطي حصانه وتوجه مع ملازميه إلى تيمرين. لم يتوقف حتى في القرية، بل إهترقها ومر من خلالها مسرعاً. وقد تبعه عدد كبير من الناس ثم توقفوا لأخذ بعض نسائهم وأطفالهم من القرية قبل أن يواصلوا الهروب. وعندما وصل ود طاهر مجذوب إلى خيام عثمان دقته ووجده قد ذهب، قام بضرب النقارة مرة أخرى لجمع الرجال ولكن لم يلق أحد بالآ إليه، واضطر هو أيضاً للفرار، لكنه كان آخر من غادر القرية، ولم يفعل ذلك إلا عندما بدأت قوات الحكومة في دخولها. عاد راجعاً كل التجار والموظفين الحكوميين المسابقين، والذين كانوا يراقبون المعركة من التلال، قبل وصول القوات الحكومية، ثم توجهوا للترحيب بهم وليشكروهم علي تخليصهم من عثمان. كما عاد أيضاً عدد من العرب المحليين إلى القرية لكن البعض الآخر كان خائفاً وتبعشروا على التلال المجاورة ولم يرجعوا إلا في اليوم التالي.

وقد كان الجميع في غاية السرور لتحريرهم من قسوة وطغيان عثمان. وقد قُتل من الدراويش أكثر من ٧٠٠ رجل ومن ضمنهم سبعة عشر من كبار الأمراء هم:

• عثمان النايب - دنقلاوي - قائد خيالة الدراويش.

• حمد محمد الخير - دنقلاوي - وكيل الأمير أبو قرجة.

• موسي فكي - أرتيقة.

• محمد ود فاتة - دنقلاوي.

• الخضر علي - حسناي.

• دفع الله ود خندقاوي - دنقلاوي.

• فض ود عبد الله - محسي.

• حسن ود الكندي - جعلي.

• الشريف أبو سقرة - دنقلاوي.

• الشريف عثمان - بقاري.

• الحاج فضل الله - جعلي.

• إدريس ود فاتة - دنقلاوي.

• الشريف علي - بقاري.

• عثمان الشايب - دنقلاوي.

• عثمان محمد علي - دنقلاوي.

• إبراهيم عقاض - دنقلاوي.

• كرم الله - دنقلاوي.

• " وقد فر مع عثمان حوالي ٤٠٠ رجل، وضعف ذلك العدد من النساء والأطفال، ولكن كثيرون

مهم فارقوه عند تيسرين وعادوا إلى عفافيت.

ويظهر الكروكي، قبل الأخير، الاتساع الكبير لقرية عفافيت والتي يصل محيطها لحوالي أربعة أميال، والتي بها ما لا يقل عن ٦٠٠٠ تكل وقطيه. والتكل عبارة عن قطيه مستديرة الشكل قطرها حوالي عشرة أقدام وتبني حوائطه من فروع الحطب ثم تملأ الفراغات بقصب الذرة. أما من الداخل فيطلي بالطين عموماً ويصنع السقف بشكل مخروط من الأغصان والفروع والقصب مما يعطي للتكل مئانة وقوة تحميه من مياه الأمطار وغوائل الرياح.

وللأمراء تكل أكبر وأوسع من الباقين. وعادة ما يحاط تكل الأمير وتكول أتباعه المقربين بزرية قوية مرتفعة. وبالإضافة لتلك القطاطي والأكواخ والتكول فهناك حوالي ثلاثين منزلاً متيناً مبنياً بالطين مبعثرة في مختلف أرجاء القرية. هذه هي بيوت التجار والذين بقي معظمهم في عفافيت ضد رغبتهم، وبناء على إرغام عثمان لهم بذلك. وهناك أيضاً بيت المال، وهو مبني قوى وشيد بالطوب والطين. وهنا يتم الاحتفاظ بالأموال وبالمخزون من الذرة وغيرها التي يجمعها عثمان وأمرؤه. لكنها وجدت فارغة تماماً عند احتلال القرية، فقد تحوط عثمان مسبقاً وقام بإبعاد كل الأشياء الثمينة (قبل المعركة).

ومن المرغوب فيه أن نتحدث بإيجاز عن أسلوب عثمان لإدارة إقليمه. فقد سمح لملاك الأراضي الأصليين بمواصلة الزراعة. لكنهم كانوا مجبرين على دفع عشر محصـولهم كضريبة وربيع العشر كذكاة للمساكين. ثم يسلم نصف ما يتبقى لبيت المال ويعود الباقي للمزارع. وقد وجد

أن هذا الذي يعود للمزارع هو في حقيقة الأمر لا شيء بينما تذهب الأموال المجموعة من بيت المال بصفة دورية إلى خزائن الخليفة في أم درمان.

ونظام العدالة لدي عثمان كان إيجازياً بطبعه. فالسراقات الصغيرة تعاقب بقطع اليد اليسرى، ويقوم بالعملية شيخ الجزارين بالسوق. أما السراقات الخطيرة فتعاقب بقطع اليد اليمنى والقدم اليسرى بينما تعاقب أي جريمة أخطر من ذلك بالإعدام شنقاً. أقيمت مشنقة كبيرة في ميدان السوق حيث تم، قبل يومين من المعركة، إعدام ثلاثة من كبار الشيوخ بتهمة الميل للحكومة. وأسلوب الإعدام يتسم بالبداية. فهو عملية خنق لا أكثر، حيث يتم رفع الضحية من الأرض ويترك معلقاً في الهواء حتى تفيض روحه. وزيارة للسوق الذي تنتشر في أنحائه العظام الآدمية توضح قسوة حكم عثمان. أما أعداد الرجال المقطوعي الأيدي والأقدام في القرية فهي صورة حية تشهد بالطغيان والقسوة البالغة لعثمان.

المسجد عبارة عن ميدان فسيح مستطيل الشكل محاط من ثلاثة جوانب بعمدان من الحطب التي تسند السقف المبنى من القصب والقش. أما من الشرق فهناك مكان صغير يمثل المحراب ويواجه القبلة في مكة، حيث يقود عثمان الصلاة. وبالقرب منه تعلق عدد من النقارات والتي تعني ضرباتها أما الدعوة للتجمع للقتال أو الدعوة لنداء الصلاة. وبالقرب من المسجد أقام ضريح للشيخ الطاهر المجنوب والذي مات منذ سنة تقريباً. وقد كان الشيخ من قبل أستاذاً لمحمد أحمد، المهدي الراحل. وقد عومل الشيخ منذ وفاته كولي (من أولياء الله) ويزور قبره كثير من الحجاج. أما منصبه (كعامل) فقد تولاه ابنه، الذي أفلح في الفرار مع عثمان بعد المعركة رغم جراحه الخطيرة التي أصيب بها.

ويختلف منزل عثمان بدقة بعض الشيء عن باقي المنازل. فهو عبارة عن مجموعة من التكون، أكثر مما لدى بقية الأمراء، لأن حريمه كان أكبر. وفي منزله، مثل منازل بقية الأمراء أنواع من الأثاث والمفروشات الغريبة مصنوعة في السودان.

وفي ضواحي القرية يوجد عدد من الجنائن التي تزرع بها كافة أنواع الخضروات. كما تزدهر زراعة القطن في تلك الأراضي الخصبة والتي تغمرها سنوياً مياه فيضان خور بركة. وقد يقارن إقليمي طوكر بدلتا النيل (في مصر) رغم أن الأخيرة أوسع منه كثيراً. فلمدة تسعة شهور يجف خور بركة والذي تتحدر مياهه من المناطق الجبلية علي الحدود الحبشية. وفي منتصف يولييه تقريباً يتحول إلى نهر كبير قد يصل عرضه في بعض المناطق إلى مئات اليااردات ويعمق يبلغ كثيراً من اليااردات. وفي تيمرين، علي بعد ١٥ ميلاً من عفافيت جنوباً، يتفرق الخور إلى عدة أفرع ومجاري صغيرة ويغمر كل المنطقة حتى البحر الأحمر تقريباً، مغطياً الأرض بطبقة من الغرين والطمي مثل التي ينقلها النيل الأزرق إلى مصر. ولا تستمر المياه طيلة هذه الشهور الثلاثة علي الأرض، بل تتجه المياه، المتدفقة علي دفعات، وبسرعة لتصب في البحر ثم تجف الأرض لثلاثة أو أربعة أيام قبل أن تصلها الدفقة التالية من المياه وتستمر الأرض بهذه الطريقة

* لم يرد في كل مرجع تاريخ المهدي والمهدية أن المهدي قد تتلمذ علي يد الشيخ الطاهر المجنوب وربما خلط ونجت بين هذا وبين تتلمذ المهدي علي أيدي الغش في بربر، ومعهم بعض المجانب (المغرب).

حتى نهاية موسم الفيضان حوالي أواخر سبتمبر. وبعد ذلك مباشرة تبدأ زراعة الذرة ويعدّها بقليل زراعة الدخن (وهو نوع من الذرة). وتقدر مساحة دلتا طوكر بما لا يقل عن ٣٠٠٠٠٠ فدان ذات خصوبة عالية بدرجة غير عادية.

...

صبيحة يوم العشرين من فبراير قامت الخيالة باستكشاف باتجاه تيمرين وأسرت بعض الرجال والذين أبلغوا بأن عثمان، مصحوباً بحوالي ٣٠٠ رجل وضعف هذا العدد من النساء والأطفال، قد جاء ماراً خلال تيمرين، وكان مسرعاً في طريقه باتجاه كسلا، وأن معظم العرب المحليين قد هجروه وبدأوا في العودة لتسليم أنفسهم. وفي وقت متأخر من اليوم وصلت القوات المشكلة من العرب المواليين بقيادة المستر وايلد، بعد أن تتبعت أثر عثمان بدقة من هندوب - فقد سمعوا بالنصر الذي تحقق، لكنهم كانوا بعيدين جداً كي ينسحبوا ويرجعوا-.

وفتح الطريق البري إلى سواكن الآن وعاد الهدوء إلى المنطقة سريعاً وجاء عدد كبير من الزعماء والشيوخ إلى عفافيت ليعبروا عن ولائهم للحكومة وسرورهم لطرد عثمان وأتباعه من المنطقة. وتمت الترتيبات لإعادة الحكم المدني وأرسلت تعليمات إلى عبود بك، مأمور عقيق، لاحتلال مركز الأنصار في أدوباتا، والذي كان لوقت طويل أحد مراكز عثمان الرئيسية لتجارة الرقيق ولل بضائع الممنوعة.

وفي الثالث والعشرين من الشهر وصل السردار الجنرال سير قرنفل إلى عفافيت وقام باستعراض القوات في اليوم التالي وهنأهم على ما أحرزوه من نصر كما ثمن الخدمات الجليلة التي أداها ضباط وجنود البحرية الملكية وخاصة ترحيلهم للقوات ودعمهم لعملياتها الحربية. وتم إرسال منشورات لمختلف القبائل الهامة تفيدهم بإعادة إحتلال المنطقة ويعزم الحكومة على إعادة سلطتها ونفوذها في الإقليم. وفي نفس الوقت إستدعت كبار الشيوخ لإجتماع يعقد في سواكن في تاريخ قريب.

ثم توجه السردار مع الحاكم العام وضباطه يوم ٢٥ / ٢ إلى عقيق عن طريق البر، على مسافة حوالي ٤٠ ميلاً من عفافيت. وعند وصولهم إليها وجدوا أن عبود بك قد تمكن من إستلام بيت المال في أدوباتا كما قبض على أحد عشر من تجار مصوغ العاملين في تهريب السلع، واستولى على ٣٧ جماً كان عثمان قد أرسلها لترحيل بضائعهم إلى عفافيت. وبعد بضعة أيام تم ألقاء القبض على تاجر مشهور للرقيق كان بحوزته عدد من أسرى العبيد، من الجوار، في طريقهم إلى تكلاي. بعد ذلك عاد السردار ومن معه إلى عفافيت، في اليوم التالي، وبعد أن قام باستجواب شيخ الجميلاب وعدد من الأهالي البارزين، الذين أبدوا له الطاعة، توجه مع الفرسان إلى تيمرين في السادس والعشرين من الشهر ثم رجع إلى عفافيت في التاسع والعشرين.

وتم حل قوات شرق السودان الميدانية في الثاني من مارس وتم دمج حاميات عفافيت والتيب وترتكبات لتشكل ما سمي تحت إدارة طوكر* وعاصمتها عفافيت.

* جاء مع السردار الكولونيل لين والكابتن كستاس (من البحرية) والكماتر دنج (من البحرية) والميجر ماكسويل والملازم فلمور.

وفي هذا اليوم وصل إلى عفايت الأدميرال السير أنطوني هوسكنز وعاد إلى ترنكتات في اليوم التالي.

وفي ٣ مارس توجه الجنرال قرنفل والكولونيل هولدمس^{**}، مع حرس من الفرسان والعرب الموالين، إلى سواكن قادمين من عفايت. استخدموا طريق ستراب - طماي - تمانيب - سنكات ثم خور أبنت. وبعد رحلة شاقة خلال أراضي جبلية ووعرة وصلت القافلة إلى سواكن يوم ٧/٣ بعد أن تأكدت من أن المنطقة قد أصبحت خالية من الأعداء تماماً. لم يسبق لأحد من المسؤولين زيارة تلك المناطق منذ عام ١٨٨٤. كانت طابية سنكات لازالت قائمة لكن المأمورية كانت مدمرة تماماً. وخلال كل الرحلة أظهرت القبائل خضوعاً وولاءً ملموساً وأبدوا سرورهم لعودة الحكم المستقر بعد سنوات من معاناتهم من الطغيان والقهر على يد عثمان.

وفي الثامن من الشهر عقد إجتماع في سواكن ضم كل كبار الشيوخ في المناطق المجاورة. وفي هذا الإجتماع أعلن الجنرال قرنفل، باسم صاحب السمو الخديوي، عفواً عاماً. وقد قابل الشيوخ المجتمعون هذا العفو بالتعبير عن خالص ولائهم وعن تأكيدهم بأنهم لن يسمحوا لعثمان مرة أخرى بدخول مناطقهم وفي اليوم التالي عاد الجنرال قرنفل للقاهرة.

كان إحتلال طوكر، ذلك الإقليم الهام، بواسطة الحكومة المصرية يمثل ضربة قاضية لم يسبق لها مثيل لقضية المهديّة فقد كانت تلك البلاد الخصبة تمثل أثمن ما أمتلكه عثمان. وقد أظهرت الدفاتر التي أخذت من بيت المال (في عفايت) كم كانت ضخامة الأموال والبضائع المهربة التي أرسلت لخزائن الخليفة في أم درمان من جراء التجارة الواسعة وعمليات التهريب وتجارة الرقيق التي استمرت بنشاط طيلة السنوات السابقة.

والخريطة المرفقة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة انتشار وتمدد المهديّة. وهي توضح كيف صارت قوة المهديّة مطوقة الآن. فيزوال هيبة الحركة من هذا الإقليم فقد أصبح من غير المحتمل أن يتمكن الدراويش من اكتساحها مرة أخرى، أو حتى أن يتمكن أحدهم من الدخول إليها مرة أخرى.

^{*} كان الأدميرال هوسكنز مصحوباً بالكابتن بروس والكابتن تيلارد (من البحرية الملكية) والملازمين مارك كير وأوسمان ستون.

^{**} أما الضباط الآتية أسماؤهم فقد صحبوا السردارز وهم اللفتانت كولونيل ستل والطبيب الميجر روجرز والكولونيل لين والكولونيل كولفيل والميجر ماكسويل والملازم فريدك والملازم ثاني وود والسادة بروك وويلد وشكور بك.

[illegible]

(ملحق الملحق)
مقتطفات مأخوذة من
دفتر وقائع ومراسلات عثمان دقنة
والتي غنمت في عفافيت في ١٩ فبراير ١٨٩١ م.

ضمن الكمية الضخمة من الرسائل المتبادلة التي غنمت عقب المعركة الأخيرة، فإن الآتي الذي سنورده من بعض المراسلات له أهمية تاريخية خاصة، لأنه يوضح صعود وتقدم المهديّة من وجهة نظر عثمان الخاصة.

وقد وجد معظم تلك الرسائل في منزل الحاكم المدني لعفافيت، ود طاهر مجذوب، والذي يقال أنه كان يصعد تجهيزها بشكل كتاب، يضم لأرشيف الخليفة بأم درمان. ولكن لسوء الحظ ضاع جزء كبير من هذا الكتاب وخاصة الجزء المتعلق بالحملة البريطانية عام ١٨٨٥ والعمليات التي تلت ذلك في المناطق المجاورة لسواكن.

وبدأ الكتاب بخطاب معنون لمحمد أحمد المهدي في أم درمان يقول فيه عثمان دقنة:
"بعد قيامي بoudاعكم توجهت لعرب البشاريين وسلمتهم خطاباتكم ولما كان قصدي هو الوصول لسواكن علي وجه السرعة، فقد إكتفيت بإرسال المنشورات للقبائل البعيدة، مع إعطاء البيعة فقط للعرب الذين مرتت خلال ديارهم بالفعل.

"وبعد مغادرتي لديار البشاريين وصلت لعرب الموساب في أرياب وسلمتهم خطاباتكم وكان زعيمهم الأكبر، الشيخ الفكي أحمد آدم الكلحايبي هو أول من إنضم للمهديّة. وهو رجل طيب وقد أصبح مهدياً من صميم قوّاده وروحه. وهو لا زال معي وأثبت بأنه من أفضل أمرائي.
ومن أرياب وصلت إلى كوكريب وبايعت مختلف فروع قبيلة الهندوة، ومنهم توجهت نحو مأمورية سنكات، والتي تبعد مسافة يوم وليلة إلى الغرب من سواكن.

وعندما أصبحت قريباً من المأمورية قمت بإرسال خطاباتكم إلى خلفاء المرغنية وإلى شيوخ الهندوة والأمراة الذين كانوا هناك، وذلك علي يد أونور دشادة وأخيه طه، الذين أرسلتموهما لي لمساعدتي. ولقد قتل هذان الأخوان بعد ذلك في معركة قباب، والتي ساصفها لكم فيما بعد.

"وعند وصولهما للمأمورية سلما الخطابات للخليفة الصافي والخليفة عبد الله ومحمد عثمان بهر الختم وسألا الأخير النصح والرأي فأشار لهما بأن سلما الخطابات للترك وقد فعلا ذلك.
"أما أنا فتوجهت لأركويت، حيث مضارب أهلي، وهي تبعد مسيرة ستة ساعات من المأمورية. قمت بإعطائهم البيعة كما بايعت كل العرب. وقد فرح الشيخ الحاج حسن بشارة كثيراً

* نشرها الدكتور أبو سليم بعنوان (مذكرات عثمان دقنة) للعرب.

بخطابكم عند قراءته له وقام هو وكل رجاله بالاتضمام لسلك المهديّة. وهذا الشيخ معي الآن ويقدم لي كل مساعدة ممكنة.

ثم توجهت لرؤية الشيخ الطاهر المجنوب في قباب والذي رحب بي ترحيباً حاراً. وعندما تناول خطابكم قبله ووضعه فوق رأسه وعينه وشعر بالشرف العظيم الذي أسبغ عليه. وكما تعلمون فإن هذا الشيخ مؤمن بالمهديّة منذ ظهورها، ومن أجل ذلك فأنني أحمد الله، لأنه أكثر الناس نفوذاً بين العرب وأهالي سواكن وقد كان معروفاً بينهم منذ عهد بعيد بأنه مهدي مخلص. ولهذا السبب فإن علاء الدين الملعون عندما كان في طريقه للخرطوم، أمر بإلقاء القبض عليه، وقد ظن أنه بهذا يوقف مد العصيان. لكن الله حفظه. وهو معي الآن يقدم لي كل مساعدة ممكنة. ولا أستطيع أن أصف بكلماتي مدي حماسه وخدماته الجليلة والتي تتمر يوماً في تقوية قضيتنا وتزيد من عدد الأنصار المنضمين لنا، وهذا ما عرفه الملعون علاء الدين وأبلغه (لرؤسائه) تلغرافياً. ومن بين أتباعه الشيخ عبد الرحمن المجنوب، وإبنه محمد مجنوب وإبن عمه حاج عمر قمر الدين، وأيضاً الأمير مدني مجنوب وهو أمير من أقدر رجالي وأكفاهم. وكذلك محمد الأمين وأبناء الشيخ ياسين وعبد القادر، قاضي سواكن. وأخوه محمد النور خطيب والمفتي الصادق. وكل هؤلاء الرجال يستحقون الثناء لأنهم تركوا وظائفهم ونذروا أنفسهم لخدمة الله ورسائله.

"ووصلت لأركويت يوم ٢٧ رمضان (أول أغسطس ١٨٨٣)، ومساء نفس اليوم سمعت بأن الترك قادمون للبحث عني مع أوامر بالقبض علي، وإن لم يجدوني فإن عليهم إلقاء القبض علي أخي أحمد بدقة وأخذه معهم للمأمورية. فقد تلقى الترك تلغرافاً من بربر يفيدهم بوصولي إلى الدامر وبإعطائي البيعة للعرب أثناء الطريق. كما أثارت خطابكم للميرغني إستباههم وأرادوا إفساد مهمتي.

ولما سمعت بكل هذا قضيت الليلة في الجبال بينما قام أخي أحمد بدقة، بعد أن علم بنواياهم، بجمع رجالنا واستعد لمحاربتهم. وعندما علم الترك بذلك أصابهم الانزعاج الشديد ورجعوا للمأمورية. وفي صباح اليوم التالي الباكر اتضمت لرجالي وسلمتهم كافة خطاباتكم والتي قابلوها لفرح عظيم مثلما فعل كل المنتمين لسواكن وغيرهم من العرب. وقد فرحوا جميعاً بانضمامهم للمهديّة وخاصة إخواني أحمد بدقة والفكي محمد بدقة ومحمد الأمين وأخوه.....الخ.....الخ. وكان الإثنين الأولان، أحمد والفكي، قد قتلوا في معركة سنكات والتي سأصفها لكم بعد قليل. أما الباقيون فلا زالوا معي يقدمون لي كل مساعدة ويؤثرون واجباتهم ببسالة لنصرة دين الله. جزاهم الله خير الجزاء لما قاموا به. آمين.

"وقضيت كل ذلك اليوم لمبايعة العرب.

"وسأصف لكم الآن معركة سنكات والتي أسميها بالمعركة الأولى:

"ففي صباح التاسع والعشرين من رمضان (٣ / ٨ / ١٨٨٣) تسلم الشيوخ الطاهر المجنوب وأحمد بدقة رسائل من الحاكم، الذي كان بسواكن، وهو شخص يدعي توفيق، وواحد من أكفأ رجال الملعون علاء الدين، ومشهور بالشجاعة وحسن إدارته. إستدعتهما الرسالة للحضور

"يشير إلي علاء الدين باشا، زميل هكس باشا.

فوراً للمأمورية، لترتيب أمر القبض على. وكان توفيق قد وصل للمأمورية في اليوم السابق قادماً من سواكن.

تاما بتمزيق الرسالتين مرقاً وألقيا القبض على حاملي الرسائل. ثم أرسل لي الشيخ الطاهر يسألني عما يفعل فأجبته للقيام بمقابلي في طوای، وهي مكان قريب من المأمورية، مع الإستعداد للقتال. وبالتالي، وفي صباح اليوم التالي، الأول من شوال (٥ أغسطس) إلتقينا في ذلك المكان وتقدمنا نحو المأمورية حتى صرنا على مسافة الرمي من المأمورية. وعند اقترابنا جاء كل القرويين والسواكنية والعرب لأخذ البيعة مني، ما عدا خلفاء الميرغنية والذين إكتفوا بحمل رسالتكم للمأمور والحاكم وعادوا بعد ساعة طالبين هدنة مدتها ثلاثة أيام. وقد رفضت ذلك في البداية لكنني بعد لأي وافقت على تأخير القتال حتى الظهر حتى يتوفر لهم الوقت للإستسلام. لكنني لم أسمح للخلفاء بالرجوع إلا بعد أخذهم البيعة. وقد قاموا بذلك بعد كثير من التردد والهمس المتبادل بينهم. ثم عادوا بعد أن قالوا بأنهم سيتوسطون بيني وبين الأتراك. وسرعان ما رجعوا إلينا ثاتية طالبين مد الهدنة حتى الرابعة بعد الظهر. لكنني قلت لهم بأنني لن أمهلهم سوى بضع دقائق فقط. كان الوقت ظهراً وشاهدت الترك وهم يستعدون للقتال، وكان بعضهم يخرق الأسوار لعمل مزاغيل للبنادق بها، والبعض يقوم بتجميع النساء والأطفال وإدخالهم في الطابية، والبعض الآخر يمكن رؤيته وهو يستعد لإطلاق النار (علينا) من أسطح المنازل أما بقية الأتراك فقد خرجوا من الطابية. عند ذلك أدركت بأن الخلفاء يخذعوننا، فاستعدنا للقتال على الفور. وعندما شاهد الخلفاء استعدادنا وقفوا جانباً بينما قمنا نحن بهجوم مباغت ودخلنا الطابية وقتلنا كل الترك الذين وجدناهم بها. ولما كان رجالنا بالداخل لم يتمكن الترك الذين كانوا بالخارج من الدخول إليهم. لكن بعض الآخرين كان قد لجأ إلى المنازل الصغيرة بدخل الطابية وقاموا، مثلهم مثل من كانوا على الأسطح، بإطلاق النار على رجالنا وألقوا بنا بعض الخسائر. وقد جرحت في يدي ورأسي وجنبي وحملني رجالي لخارج الطابية ثم قمنا بالإسحاب جميعنا. لقد واجهتنا صعوبات جمة عند دخول الطابية، فقد كان هناك عدد كبير من الترك، وأيضاً كانوا بالبوابات، وقد قتل عدد كبير من رجالنا.

وقد تقدم أخي الفكي محمد دقة الصفوف وقاد الهجوم، بناء على أوامري، بقلب من حديد وأفتح مدخل الحصن وقتل عدداً كبيراً من الترك بسيفه. وحاول أحد الترك أن يصصره ببندقته لكن أخي ضربها بسيفه وقطعها لنصفين وقتل التركي أيضاً. ثم سقط هو نفسه قتلاً.

"أما أنا فوضعتني على عنقريب ورفعوني على جمل حتى أوصلوني لأركويت. وكانت خسائرنا ٦٠ رجلاً أما الترك ففقدوا ٥٧ من رجالهم.

"والآن أحدثكم عن المعركة الثانية أو معركة قباب.

"بعد معركة سنكات، شرع حاكمها توفيق في الإستعداد لمعركة أخرى وطلب التعزيزات من سواكن ومن مصر. قمت بدوري بحشد رجالي والتجهيز لحصار سنكات. وكنت أنوي التوجه إليهم يوم ١٢ ذو القعدة (١٤ سبتمبر)، ولكن عندما تلقى أعداء الله التعزيزات التي طلبوها توجهوا نحونا في التاسع من ذي القعدة (١١ سبتمبر) فوجهت أخي محمد موسي دقة، مع قوة من رجالنا، لملاقاتهم. وعندما وصل الترك لخور قباب وسمعوا بتقدمنا توقفوا وشيدوا زريبة لقضاء الليل فيها.

وقبل أن ينبج صباح اليوم التالي كان رجالنا قد طوقوهم من كل جانب. ولقد تضععت نفوس الترك عندما رأوا أنفسهم محاصرين بقوات كبيرة، وفي مكان لا شئ فيه يقيهم من شر الشمس الحارقة، ولأن ما لديهم من طعام لا يكفيهم إلا ليوم ونصف اليوم. وأخذوا يلقون اللوم على قائدهم الذي أحضرهم لمثل هذا المكان وعرضهم للخطر الجسيم. وقالوا له: "لقد أخبرتنا بأن عثمان دقنة والظاهر المجذوب بلا أتباع وأنهما وحيدان. فلماذا أحضرتنا لتقتلنا هنا؟". كان قائدهم من المراغنة العرب، واسمه محمود علي، وهو شيخ الأمرار ويسكن بالقرب من سواكن. أراد الترك الرجوع للمأمورية لكن ذلك كان مستحيلاً بدون قتال. لذلك قاموا بتشكيل طابورين وضعوها على جانبي الزريبة بينما وضعوا على الجانبين الآخرين مدفعين لحمايتهما، ثم شرعوا في إطلاق النار على كل الاتجاهات. قام الأنصار بالهجوم على الزريبة لكنها كانت منيعة ولم يتمكنوا من اختراقها ودخلوها رغم أن ثلاثة من رجالنا قد دخلوها بالفعل لكنهم قتلوا جميعاً، وكان أحدهم طه والذي جاعني من قبلكم.

"وفي ذلك القتال فقدنا ٢٧ رجلاً، كما جرح منا عدد كبير كان من بينهم الرجل المقدم محمد موسى.

"أما الترك فقد قتل قائدهم محمود علي وستة جنود وواحد صاغقول أغاسي. وبعد المعركة تمكنوا من العودة للمأمورية وبدأوا في حفر خندق مع تقوية أنفسهم بدائل الطابية. كانوا في غاية الانزعاج والرعب وأخذوا في وضع أكياس مليئة بالرمل بطول الخندق لحماية أنفسهم - وكأننا نمتلك المدافع! - مما يظهر مدى خوفهم منا. كما قاموا أيضاً بقطع الشوك وشيدوا سياجاً منه حول الزريبة ووضعوا مدفعاً في كل ركن منها وعملوا على تقويتها بكل وسيلة ممكنة.

"وفي هذه الفترة أرسلت خطابكم إلى الجميلاب، والذين كانوا وقتها في مديرية كسلا. وقد فرحوا كثيراً عند قراءة الخطاب وإمتدوا بما جاء فيه. وقد ذبحوا أحد السناجك وبعض الجنود المعسكرين في مناطقهم عندما رفضوا الإلتزام للمهدية وحاولوا حرب دعاة الدين الحق. وأمير الجميلاب الذي قام بهذه العملية، وكذلك عملية طوكر، هو حاج ابن حسن أبو زينب، والذي هو حقاً وصدقاً أحد أكفأ أمرائي وأنشطهم، وهو ثابت صارم في معتقده وتستحق خدماته كل الثناء.

كما وجهت العرب أيضاً بقطع سلك التلغراف بين كسلا وسواكن، وهذا ما تم سريعاً، كما تم إقتلاع كل الأعمدة. كما أمكن أيضاً قتل كل الجنود الذين كانوا بالمحطات المختلفة أو أسرهم. وأثناء ذلك عينت الخضر ابن علي أميراً على طوكر، وهو مكان في غاية الأهمية للترك عن سنكات، لأن طوكر منطقة كثيفة المزروعات. وقد قام هذا الأمير، وبسيفه، بقطع الحبال التي كان الترك يخنقونها بها وأبادهم وأستأصل شافتهم، كما سيرد فيما بعد.

وسأصف لكم الآن المعركة الثالثة أو معركة أبينت.

"ففي الثالث والعشرين من ذي الحجة (٢٥ / ١٠ / ١٨٨٣) أرسلت قوة من الأنصار بقيادة الأمير الطالب ابن محمد - وهو رجل طيب نشيط - لحصار سنكات. وقد قتل هذا الأمير فيما بعد في المعركة ضد الإنجليز، والتي سأصفها لكم في حينه.

توقف الأمير الطالب في مكان يدعي أبينت، بين سواكن وسنكات. وفي نفس اليوم: إشتبك مع مفرزة من ٢٠٠ جندي تركي كانوا في طريقهم من سواكن إلى سنكات لتعزيز حاميتها. انقض عليهم الأمير وأنصاره وقتلهم جميعاً وإستولى على أسلحتهم وأمتعتهم. ولم يقتل منا في تلك المعركة سوى ثلاثة من رجالنا.

وفيما يلي سرد لأحداث حصار وسقوط سنكات:

بعد معركة أبينت عملت علي دعم وتقوية رجالنا المحاصرين لسنكات حتى بلغ عددهم ٧٥٠ مقاتلاً بقيادة الأمير الفكي علي ابن حامد، المعروف بأمير سنكات، لأنه هو الذي إحتلها. وهو رجل ورع نافر نفسه لله ويخشاه أترك تلك الجهات بشدة. وهو لا يزال معي ويقدم لي عوناً عظيماً. وجهت ذلك الأمير للتقدم مع رجاله حتى يصل إلى مسافة الرمي من سنكات ثم يحاصرها حصاراً شديداً.

وكانت المأمورية في ذلك الوقت مليئة بأتباع الميرغنية والسواكنية.

تسدد الأنصار الحصار علي المأمورية، وبنهاية ذي الحجة أصبحت الحامية في حالة رهيبة من الضيق وسلم خلفاء الميرغني أنفسهم للفكي علي مع جميع أتباعهم وتوسلوا للسماح لهم بمقابلتي. وكنت في ذلك الوقت محاصراً لسواكن حتى أقطع كل إتصال بينها وبين سنكات. سمح الفكي علي لهم بالحضور لمقابلتي. لكنهم قبل أن يصلوا لي سمعوا بأن الملعون علاء الدين قد إنتصر ولذلك، بدلاً عن الحضور لي، توجهوا مباشرة لسواكن حيث هم مقيمون بها الآن، وحيث عينهم الإنجليز في وظائف الحكومة مثل القضاء والإفتاء والكتبة في المكان الذي كان يشغله أتباع شيخنا المبارك الطاهر المجذوب قبل هجرهم لوظائفهم والإتضام إليه.

وكان كبير شيوخ الميرغنية، محمد عثمان (الميرغني) قد ذهب لسواكن قبل تشديدنا للحصار. وهو الآن بمصوغ يعمل ما في وسعه لصد العرب عن المهديّة.

وأصبح الترك الآن وحيدين بالمأمورية. وظلوا يطلقون قذائف مدافعهم علي الأنصار المحاصرين لهم ولكن لم يلحقوا بهم أي أذي. وبعد فترة تم تشديد الحصار بدرجة أكبر وقطع كل إتصال بهم ولم تعد تصلهم أي رسائل من الترك بسواكن وقد نضبت كل مؤنهم وغذاءاتهم. لذلك قام الحاكم، ومعه سنجق يدعي أحمد ابن المزين، بغارة لكن الأنصار واجهوهم بقلوب من صوان وطردوهم عائدين إلى حصنهم وقتلوا منهم حوالي عشرين جندياً بمن فيهم السنجق.

وأصبحت الحامية في بؤس شديد من جراء انعدام الطعام وإضطروا لأكل حميرهم وبغالهم، كما أكلوا أيضاً أوراق الهجليج والأراك والنباتات التي تنمو بالجوار لكن الأنصار منعوهم حتى من أكلها.

وأخيراً قرر الترك القيام بهجوم أخير لفك الحصار عنهم. وتقدموا يوم الجمعة ١٠ ربيع الآخر (٨ / ٢ / ١٨٨٤) خارجين من الطابية بهيئة مربع وضعوا النساء في وسطه. لكن مقاتلينا الشجعان أحاطوا بهم من كل الجهات وشنوا عليهم هجوماً مباغتاً وجللهم بالسيف ولم يتركوا منهم أحداً. وقتل منهم حوالي ٦٠٠ رجل بمن فيهم حاكمهم. أما خسائرنا فكانت ٥٧ رجلاً فقط.

وبعد ذلك إتضم الأمير الفكي علي لي في حصار سواكن.

”وسأصف لكم الآن حصار طوكر بواسطة الأمير الخضر.
وكما أوضحت لكم من قبل، فقد أرسلت الأمير خضر لحصار طوكر وذلك في نهاية
ذي القعدة.

”وعندما إقترب من المأمورية استقبله كل الأهالي والأرتبة وغيرهم بالترحاب، لأن
شيخنا الطاهر كان قد سلمه رسائل لاتباعه تأمرهم بالإتضمام لهذا الأمير. ولهذا كانوا مسرورين
برؤيته وبخاصة أميرهم موسى ابن الفكي، والذي قدم له كل المساعدة. وهو أمير ممتاز يستحق
كل ثناء. كما قام قاضي المأمورية أيضاً، القاضي صالح، بترك وظيفته الحكومية وإتضم للأتصار
من تلقاء نفسه، مفضلاً الجهاد في سبيل الله عن الخدمة تحت إمرة الترك.

”وكان الترك قد حفروا الخنادق وتحصنوا في فقرتهم (الطابية) قبل وصول الأمير
الخضر. وعندما وصل طلب منهم التسليم والإتضمام للمهدية لكنهم رفضوا وقالوا بأنهم سيقاثلون،
ويأتهم بصدد تلقي تعزيزات من سواكن، لأن طوكر أقرب إلى البحر من سنكات. فقام الخضر
بإرسال جزء من قواته بإمرة الأمير عبد الله ابن حامد - الذي قتل فيما بعد في المعركة ضد
الإنجليز - وهو أمير ممتاز، لقطع طرق إتصالاتهم ومنع أي إمدادات من الوصول إليهم. أما الأمير
خضر فقد بقي مع قواته الرئيسية التي تحاصر طوكر.”

وفيما يلي بيان ب:

المعركة الأولى بالقرب من البحر:

”قفي الرابع من محرم (٥ نوفمبر ١٨٨٣)، أي في نفس اليوم الذي حطم الله فيه الملعون
علاء الدين، خرجت من سواكن مفرزة من الجنود، بصحبة أحد الباشوات وقصص نصراني
عازمة التوجه إلى طوكر. ولما شاهدتهم الأتصار هجموا عليهم بغتة وقتلوه جميعاً، وعددهم
حوالي ٤٠٠ رجل، ولم يفقد الأتصار سوى ٢٧ قتيلاً.

”وفي نفس اليوم ألتقي مأمور، كان في طريقه من كسلا إلى طوكر بصحبة عدد من
الجنود، بأمر الجميلاب، الحاج ابن حسن، والذي دعاه للإستسلام والدخول في سلك المهدية. ولما
رفض الأول ذلك تم قتله هو ومن معه ولم يفقد الأتصار سوى رجل واحد في هذا القتال.

”وأثناء ذلك خرج الترك من طوكر ليشتنوا غارة علينا. لكن الأتصار صدوهم عائدين إلى
حصنهم بعد أن قتلوا عدداً منهم بمن فيهم بك باشي.”

والتالي بيان عن:

المعركة الثانية بالقرب من البحر***

”وسرعان ما تلي ذلك وصول قوة من ٥٠٨ جندياً، مع عدد من الخيالة والمدافع، قادمة
بالبحر من سواكن. ونزلت تلك القوة في (ميناء) ترنكات بهدف نجدة طوكر. ألتقي بهم الأمير عبد
الله ومن معه من الأتصار. وعندما رآهم الجنود أطلقوا عليهم قذائف مدافعهم. لكن الأتصار قاموا

* هذا يشير إلى تدمير جيش هكس باشا في شيكان.

** يقصد الكوماندو ليندوخ مونكريف، من البحرية الملكية.

*** إشارة إلى معركة الجنرال فلاتين بيكر في التيب.

بهجوم قاتل عليهم وحاربوهم ببسالة لساعة أو ساعتين حتى قتلوا منهم ٤٥٠ رجلاً وفر الباقون إلى بواخرهم، التي كانت رأسية بالقرب منهم، وعادوا إلى سواكن.
وفي تلك المعركة فقد الأنصار ٣٠٠ رجل كان من بينهم الأمير الفكي محمود، شقيق الأمير الخضر، والذي كان متين العقيدة، صلباً في المعارك ويخشاه الأعداء.
وقد نشبت هذه المعركة في الخامس من ربيع الآخر؛ فبراير ١٨٨٤ وبعد هذه الهزيمة اعترفت الحكومة المصرية بعدم قدرتها على الحرب ضد السودان وسلمت حكومة سواكن للإنجليز أي أن سواكن الآن هي تحت الحكم الإنجليزي".

سقوط طوكر:

"في المعركة الأخيرة غم الأنصار مدافع الترك. كانت تلك مدافع ضخمة للغاية وتستطيع فنيقتها إختراق ثلاثة أو أربعة أسوار. أخذ الأنصار تلك المدافع إلى طوكر وقام الأمير خضر بتشديد الحصار عليها بقوة. كان لدى الترك من المونة ما يكفيهم لستين أو ثلاثة. لكنهم عندما سمعوا بتدمير القوات التي كانت قائمة لتجديتهم. وأنه لم يعد لهم أي أمل في وصول قوات أخرى لمساعدتهم، وأنهم أصبحوا معزولين تماماً من العالم الخارجي، قاموا بالإستسلام. واحتل رجالنا طوكر.

"تم هذا في شهر ربيع الآخر قبل أربعة أيام من نهايته.

معركة البحر الثالثة، أو معركة الإنجليز"

بعد ثلاثة أيام من سقوط طوكر، إمتلأ كل ساحل البحر بالبواخر وأصبح بأن الحكومة المصرية، بعد أن أيقنت بعجزها عن الدفاع عن البلد، أوكلت شئونها للحكومة الإنجليزية. كانت البواخر مكتظة بالجنود الإنجليز والذين جاءوا لإعادة إحتلال طوكر. وعندما علمت بذلك أرسلت ابن أخي مدني، وهو رجل قوي وشجاع، لمساعدة الأنصار بطوكر للوقوف ضدهم.

"وقد بلغ عدد الجنود الإنجليز، كما علمت، حوالي ٢٤٠٠ رجل وأنتظرهم الأنصار حتى نزلوا للبر، إذ أنهم لم يهاجموهم أثناء نزولهم خشية فرار البعض منهم وعودته للبواخر وأخيراً، وعندما هبطوا جميعاً، إنقض الأنصار عليهم ودارت معركة حامية إستمرت حتى حلول الظلام ثم تراجعت القوات. تم توجه الجنود نحو المأمورية.

كانت خسائر الأنصار ثقيلة في هذه المعركة. وعندما علمت بهذا قامت بإرسال كل قواتي، ما عدا قلة منهم، لقتال الجنود في المأمورية وأرسلت أفضل قائدين من رجالي لهم، وهم حامد، ابن أخي أحمد نقة، وإدريس. وأمرت هذان الأميران بمهاجمة الإنجليز في أي وقت سواء بالليل أم بالنهار وفي أي ساعة كانت. لكن الإنجليز لم يكتثوا هناك طويلاً فقد ضرب الله على قلوبهم الرعب، ورجعوا في اليوم التالي بعد أن مكثوا بالمأمورية ليلة واحدة، وبعدها ركبوا بواخرهم عائدين.

* يشير هذا إلى معركة الجنرال جراهم في التيب، ٢٩ فبراير ١٨٨٤.

"وعند مشاهدة الأنصار للمأمورية التي أخلاها الإنجليز عادوا لي. لكن الأمير خضر لا زال مع رجاله هناك يراقب الشاطئ.

"وفي هذه المعركة فقد الأنصار حوالي ١٥٠٠ رجل بمن فيهم أمير الشاطئ عبد الله والأمير مدني والأمير الطاهر ابن الحاج عمر قمر الدين المجذوب، وهو ابن أخ الشيخ الطاهر المجذوب. وكان هذا الرجل صادقاً وشجاعاً لا يخشى الموت عندما يقاتل أعداء الله. ويقال أنه أخبر أحد أصدقائه قبل المعركة بقوله: "إذا ما أصبت بجراح قبل أن أصل للكفرة فجروني من رجلي حتى توصلونني لهم فلعنني أشفي غليلي بغمس حربي في أعداء الله حتى لو كنت في النزاع الأخير قبل موتي لألقي الله شهيداً وأدخل الجنة". ومن ضمن موتاتنا أيضاً الأمير موسى قلاي، والذي يعدل ١٠٠٠ رجل والذي هو مثل سيف الله المسلول لحرب الكفرة.

"وقد جرح منا مثل عدد قتلاتنا. أما أعداء الله ففقدوا أكثر من ٣٠٠٠ رجل".

معركة الأمير مصطفى هذل في كسلا:

"وبالقرب من نهاية شهر محرم (نوفمبر ١٨٨٣) قمت بإرسال الأمير مصطفى هذل، أميراً علي كسلا، لحصار تلك المدينة. وهو رجل جيد وتقى ودائماً علي إستعداد للقتال في سبيل الله. وكنت قد أرسلت من قبل خطاباتكم إلى أهالي تلك المديرية. وبالتالي، وعندما وصلها مصطفى هذل، أستقبل استقبالاً طيباً وسرعان ما انضم إليه عدد كبير من الرجال المستعدين للقتال. ثم تقدم ناحية مدينة كسلا وقد إعترم فرض الحصار عليها، لكن الجنود ما أن سمعوا بذلك حتى توجهوا نحوه بقوة من ١٥٠٠ جندي وذلك في ٣ ربيع الآخرة (١ / ٢ / ١٨٨٤).

"ودارت معركة بينهما إنتهت بهزيمة تامة للترك والذين فقدوا ١١٠٠ رجل وأنسحب بقية جنودهم إلى الطابية والتي ألقى مصطفى هذل حولها حصاراً شديداً. ويقال بأن الترك قد اعزموا الإستسلام، لكن السيد محمد عثمان الميرغني منعهم من ذلك وهذا الرجل شديد المعارضة للمهدية وقد ساق معه عدداً كبيراً من الرجال قبل وبعد وصول مصطفى هذل".

معركة عطبرة:

"وفي محرم (نوفمبر ١٨٨٣) طلبت من الأميرين قولياي وطاهر قلاي، من البشاريين، التوجه برجالهم نحو عطبرة ومهاجمة سنجك كان مصكراً هناك مع عدد كبير من الجنود، وبعد أبادتهم فإن عليهما التوجه إلى بربر وضرب الحصار عليها. نشب القتال بالقرب من النهر وانتهى بقتل ١١٤ جندياً و ٨٠ من رجالنا. وفر الناجون من العساكر إلى بربر بينما عاد إلينا الأميران. أبقيت معي الأمير قولياي لكنني أعدت طاهر إلى حصار بربر. وهو هناك الآن مع الفكي محمد الخير، أمير ذلك المكان".

* في الكتاب نوفمبر ١٧٨٣ وصحناه (المعرب).

المعركة مع الترك في تمانيب:

" عندما بدأ رجالي أول حصار لهم حول سواكن، قامت حاميتها بشن غارة عليهم وذلك في أول صفر (١ / ١٢ / ١٨٨٣) بقيادة شخص يدعي قاسم، وهو أحد رجال علاء الدين الموثوقين وتمكن من فنون الحرب مثل توفيق. وكان معه ١١٠٠ رجل، وقد قام بوعد الحاكم بإحضاري والشيخ الطاهر المجذوب له أحياء في سواكن أو أن يقتلنا. ولاشك في أنه يجهل قوة العمل في سبيل الله ويضع ثقته في رجاله فقط، والذين إختارهم من الجهادية المدربين.

" تحرك من سواكن في منتصف الليل بدون أن يحس به أحد من الأهالي حتى يباغتنا بدون إنذار. التقوا بنا في أول صفر وشرعوا في إطلاق النار علينا بينما رئيسهم يسخر منا ويستهزئ بنا. لكن الأنصار سرعان ما طوقوه من كل جانب وألقوا عليهم فجأة وقتلوا كل الترك بمن فيهم رئيسهم وسنجد يدعي المزين، وهو أخو المزين الذي قتل مع توفيق. أما الأنصار ففقدوا ٨٠ رجلاً.

"ومرة أخرى في العشرين من يناير ١٨٨٤ خرج ١٠٠ فارس من سواكن لشن الغارة علينا. ولكنهم عندما اقتربوا منا أدخل الله الرعب في قلوبهم وفروا عالدين إلى سواكن. وقد طاردهم الأنصار. لكنهم لم يتمكنوا منهم، لأنهم كانوا على صهوات الخيل، ولم يتمكنوا إلا من قتل سبعة من رجالهم. هذا وعند وصولهم لسواكن هلك كثير من خيولهم من شدة الإجهاد.

"وفي ربيع الآخر (فبراير ١٨٨٤) ألتقي مائة من الأنصار بجماعة من العرب بقيادة محمود علي. ولما رأى محمود قلة عدد الأنصار أنقض عليهم وقتل منهم ٢٢ رجلاً بينما لم يخسر هو سوى رجل واحد. وهو نفس محمود علي الذي كان قائد (الإعداء) في معركة قباب. وهو كثيراً ما يحشد الرجال لقتالنا ويتحمس لذلك أكثر من حماسة الترك والإنجليز كان الأمير الذي قاد الأنصار في تلك المعركة محمود آدم سادوب، من الأمرار، وهو أحد أفضل أمرائي وقد جرح جراحاً بليغة (في المعركة).

معارك الإنجليز في تمانيب:

"وفي ١٤ جمادى الأولى (١٢ مارس ١٨٨٤) وصل بالقرب مناجيش من الإنجليز، يقال أنه بلغ ٢٠٠٠ جندياً من بينهم ٦٠٠ فارس، وشيدوا زريبة متينة قضا فيها ليلتهم. فأحاط بهم الأنصار وأصلوهم ناراً متصلة طوال تلك الليلة ومنعوا الإنجليز من النوم وكبدوهم بعض الخسائر. وعند الصباح بدأ الإنجليز إطلاق نيران بنادقهم ومدافعهم. فهاجمهم الأنصار واستمرت المعارك طيلة اليوم ثم تراجعت القوات. عاد الإنجليز لسواكن بعد أن فقدوا ٨٠٠٠ رجل. أما الأنصار فقد فقدوا ٢٠٠٠ رجل كما جرح منهم عدد مماثل.

"وعند نهاية جمادى الأولى عاد الإنجليز بقوة من ١٣٠٠٠ رجل ولكنهم قبل أن يصلوا إلينا ضرب الله الرعب في قلوبهم ورجعوا لسواكن بدون قتال. لكن من وصل منهم لسواكن لم يتعد ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ رجل منهم ودمر الباقي منهم أثناء الطريق. ولا يعرف نوع الطامة التي لمرتهم اللهم إلا إذا كانت الأرض قد فتحت فمها وابتلعتهم.

* إشارة إلى المعركة التي إنتصر فيها الجنرال جراهم في طماي يوم ١٣ / ٢ / ١٨٨٤م

وباختصار، فإن الجيش الإنجليزي قد دمر تماماً ما عدا ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ رجل منهم. وكان لديهم حوالي ٢٨ باخرة في إنتظارهم بالميناء. لكنهم عند عودتهم لم يملأوا سوى خمسة منهم وعادت بقية البواخر لبلادها خاوية. وقد تحطمت إحدى بوأخرهم تلك في الطريق. وقبل ذلك كانت الحكومة المصرية قد خسرت عدة بوأخر كانت تحمل الجنود والخيول والبغال والمال".

معركة هشين:

"وفي شهر رجب (مايو ١٨٨٤) جمع محمود علي عدداً من العرب، من الذين لم يعتنقوا المهدية، علي بلر يدعي هشين وحاولوا طردنا من الجوار ورفع الحصار عن سواكن. قام بكل هذا دعماً للإنجليز. وأرسل عدداً قليلاً من الفرسان مسلحين بالبنادق نحونا وشرعوا يذهبون ويجيلون طوال الليل مرتين أو ثلاثة مرات وأسروا سبعة من أنصارنا وأرسلوهم للإنجليز بسواكن فذودوه بالخيول والسلاح والمال والزخيرة.

"علي ذلك قمت بإرسال قوة من الأنصار بقيادة أمير سنكات، الفكي علي، والذي، عندما إقترب منهم، طلب منهم الدخول في سلك المهدية. وفي ذلك الوقت كان محمود علي بسواكن. فأرسل له أتباعه خبراً بوصول الأنصار. فجمع عدداً من الرجال من سواكن وتوجه نحونا. وأثناء ذلك كان الفكي علي يحاول استمالتهم لجانبه، وعندما وصل محمود علي حرضهم علي القتال لكنهم عندما إقتربوا من الأنصار ملأهم الرعب ولانوا بالفرار.

طاردهم الأنصار وقتلوا ستة عشر رجلاً منهم وجرحوا عدداً آخر. ولم يفقد الأنصار أي رجل منهم وقام عدد كبير من العرب الآخرين بإعلان توبته وإنضموا للمهدية. كما إستولينا علي عدد من الإبل والحمير و ٤٩ امرأة.

"وكان محمود علي يمتطي جملاً أثناء القتال ويقف بعيداً جداً في المؤخرة. وعندما رأي رجاله وهم يفرون أسرع ناجياً بنفسه إلى سواكن بقدر ما حمله بعيره، ولال زال هنالك حتى الآن مع الإنجليز.

"وفي الأول من ربيع الأول (٣٠ ديسمبر ١٨٨٣) وصل إلى سواكن، قائماً من القاهرة، أحد شيوخ الختمية ويدعي محمد سر الختم الميرغني - شقيق محمد عثمان الذي أشرنا إليه من قبل - وكان غرضه إطفاء نور الله. وقبل وصوله، كان أهل سواكن قد إعتنقوا دعوة الحق بأعداد كبيرة. لكنه عند وصوله قام هو وخلفاؤه بالكتابة للعرب قائلين لهم أنه مهدي كاذب (الذي إعتنقوا دعوته) ويأثمهم رجال أشرار ضعاف العقول. ثم دعاهم لنبد المهدية والعودة لطاعة الحكومة. وهذا الرجل يعتبر من الكفرة ويضلل كثيراً من الناس.

"ولا أعتقد أن هناك أناساً في هذا الكون لا يصدقون بالمهدية بمثله أو مثل أخيه عثمان أو خلفاتهم أو إبن عمهم الذي بكسلا.

"وأنه يصر علي كل من يحضر إليه أن يغتسل لثلاثة أيام، وأن يتبخروا بالبخور لتطهير أنفسهم، ثم يجعلهم يحلقون كل يوم بالقرءان بآتك لست بالمهدي وأن أي مهدي لم يظهر بعد أو حتى ولد. ويقول للناس بأن الرسول قد أوكل إليه إخماد تلك الإضطرابات، وأن ما عليهم إلا إتباعه وبأنه سيكون (بعد ذلك) مسئولاً أمام الله عن أعمالهم. وإذا أعترم أيأ من الترك أو الإنجليز أو

العرب محاربتنا، فإنه يعطيهم راية يسميها راية النصر. ويقوم كل شهر بالتنبؤ بأنني (عثمان دقة) ساموت خلال ذلك الشهر. وفي بعض الحملات التي يقوم بها الإنجليز اعتاد أن يخرج معهم. وإذا ما جاءه أحد من (ضعاف العقول) من العرب الذين يتبعوننا فإنه يطلب منهم البقاء في منازلهم لأربعين يوماً لأنهم تلقوا البيعة من عثمان. وهو يكتب دائماً خطابات التهديد ويقول فيها بأن كل أوروبا مستجمع وتحاربنا. وهو لا يزال في سواكن ماضياً في طريقه وضلل كثيراً من الناس وأبعدهم عن طريق الله ونوره ويقول أشياء غريبة لا تعليل أو تفسير لها.

" وهناك رجل آخر في سواكن يسمى الشنقيطي أحمد ضلل كثيراً من الناس. وعندما تم إرسال خطابكم إليه أعاده بإجابة كتبها علي ظهر الخطاب وفيها، كما سترون، يقول كلاماً يدل على أنه لا إيمان له. وقد كتب لي أيضاً ليقول بأنه عندما يري أي رجال من الذين يحاربوننا فإنه يقبل أيديهم قائلاً: "ناولني يدك التي قاتلت بها عثمان وشيعته حتى أقيلاً".

ولازال خلفاء الميرغني يحذرون الأهالي من المهدية وكذلك يفعل العمد بسواكن. ويقوم أحدهم - يدعي الشناوي - بدفع مال من جيبه الخاص حتى يضل الناس ويبعدهم عن طريق الله. وتقوم الحكومة بتقوية حصونها وتضع المدافع في المواقع (المختلفة) منذ أن جننا لحصارهم. وقد قاموا ببناء خمسة طوابي بالجنوب والغرب والشمال منهم طابيتان بالقرب من آبار المياه. وقد أوصلوا المنازل ببعضها بجدران من الطين والحجارة وأقاموا بوابة واحدة لكل المدينة. ويشرب الجنود الماء، وهو ماء البحر، بعد تحليلته ببوابورات بخارية. ونحن حالياً نحاصر المدينة حصاراً شديداً ونقوم باستمرار بمضايقة السكان بالليل وبالنهار. وهم يطلقون مدافعهم علينا، سواء من الطوابي أو من سفنهم بالبحر.

"هذه هي حقيقة الأحوال الآن. وساقوم بإخطاركم بأي تغيير قد يطرأ".

العمليات بعد معركة هشين:

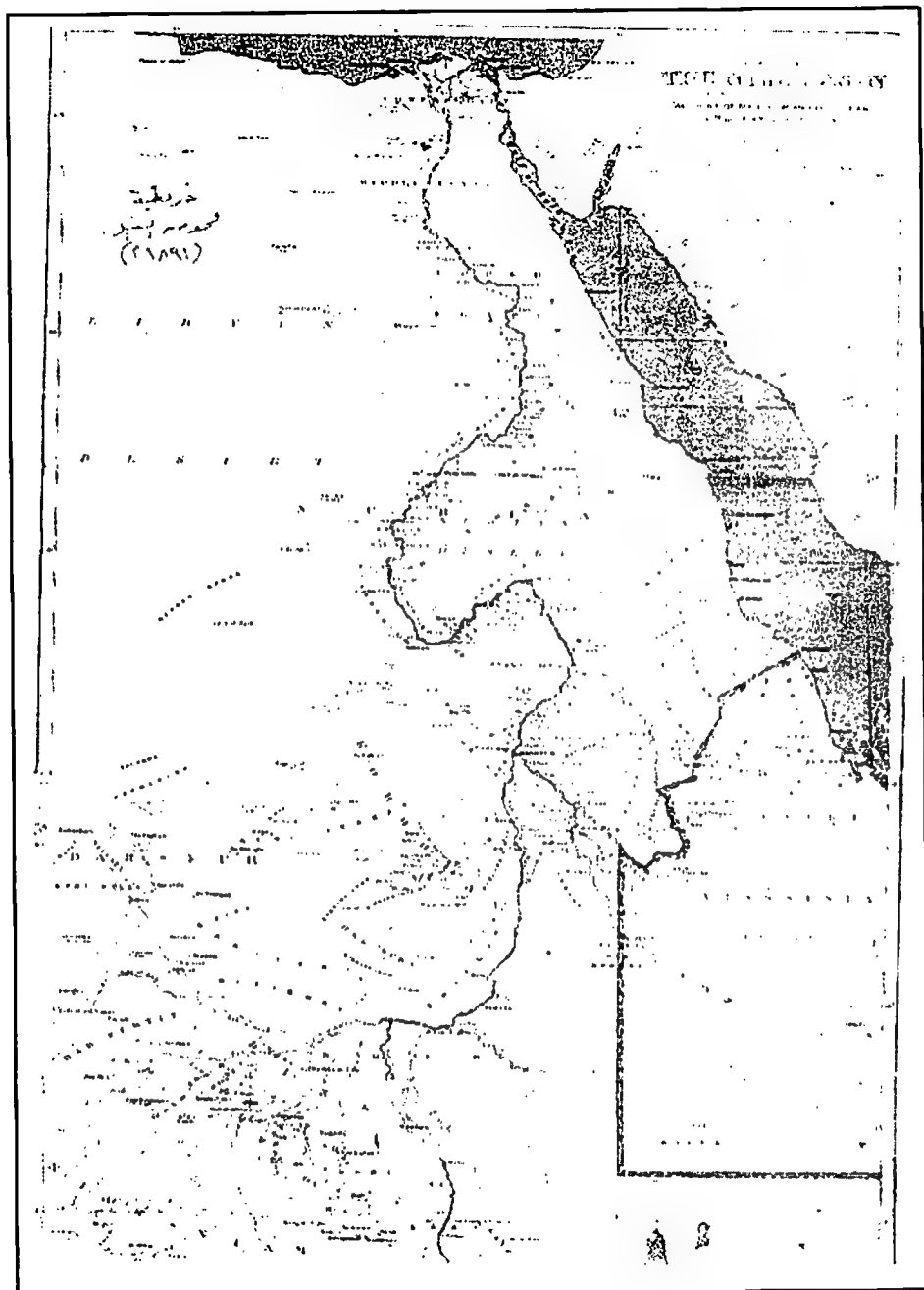
"بعد معركة هشين التي وصفتها من قبل، أمرت الأنصار بالعودة إلى البئر التي بالقرب من سواكن والمسماة هندوب. وهو أقرب مكان لسواكن تتوفر فيه المياه وأفضل مكان لضرب الحصار على سواكن منه. وقد استقر الأنصار في ذلك المكان في منتصف شعبان (يونيه ١٨٨٤) وسرعان ما أخذ رجال علي ركاب وفاضلاب محمود علي بالاستعداد لطردهم الأنصار بعيداً عن البئر وفتح الطريق إلى سواكن حتى يتمكن الأهالي من إحضار مواشيهم وألبانهم لبيعها في سواكن. وقد أرسلوا كشافهم وكذلك فعل الأنصار مثلهم. ألتقي الفريقان. وكان لدينا ثلاثة رجال فقط بينما كان كشافوا العدو يتجاوزون الثلاثين.

وقتل من كشافينا إثنان وعاد الثالث. كما قتل أحد كشافى العدو. فقام الأنصار بالتقدم نحو المعسكر الذي تجمع فيه العرب وهاجموه وقتلوا منهم ٢٢ رجلاً بينما فر الباقون. وكان من بين القتلى خمسة سواكنية أحدهم من خلفاء الميرغني. وقد أحرقت جثثهم بالنار وهو جزاء الكافرين. أما الأنصار فلم يخسروا أي رجل بل استولوا أيضاً على عدد من المواشي و ٤٠ امرأة. ومن ضمن ما استولوا عليه علماً للسلام تابع للترك. دارت هذه المعركة في الأول من رمضان. ثم عاد الأنصار بعدها إلى هندوب وقطعوا الطريق إلى سواكن مرة أخرى وإضطر العرب لدخول سواكن عن طريق مرسى برغوث (بارود).

وشاهد الأنصار جماعة من العرب يقودون مواشي لهذا المرمى، وليوصلوها لسواكن
عن طريق السنابيك، فهاجموهم وقتلوا خمسة منهم وأسروا سبعين وحازوا على كل المواشي
والجمال والبقر والضأن والحمير. حدث ذلك في منتصف رمضان.

وقد سقط من هنا عدد من صفحات الكتاب. ثم تلي ذلك بيانات عن مختلف الإشتباكات
التي جرت بين قوات عثمان دقنة ومحمود علي، والتي لا داعي لتكرارها هنا نظراً لإيرادنا لها من
قبل في هذا الكتاب.

أنتهى،،،



تم بحمد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

دار عسرة للنشر - الخرطوم

ت: ٨٣/ ٧٨٧٢٠٠ فاكس: ٠٠٢٤٩/٨٣٧٩٧٠٨٤ - ٠٠٢٤٩/٨٣٧٨٧٢٠٠

الرقم	الكتاب	المؤلف	نوع الكتاب	السعر بجنيه	السنة
١	ليل المغنين	عمر الدوش	شعر	٧	٢٠٠١
٢	المنبلية	محجوب شريف	شعر	٧	٢٠٠٢
٣	لوحة وطن في عيون طفلة	قاسم أبو زيد	شعر	٦	٢٠٠٢
٤	نار الزغاري	أمير تاج السر	رواية	٦	٢٠٠١
٥	ملاحم من علم الجمال	محمد عثمان مكي	فلسفة	٨	٢٠٠٢
٦	The Domed Tombs of Eastern Sudan	صلاح عمر الصادق	دراسة	٢٠	٢٠٠٤
٧	دفاع أمام المحاكم العسكرية	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٧
٨	الجرح والغرنوق	د. عبد الله علي إبراهيم	مسرحية	٥	٢٠٠٤
٩	الرحيل في الليل	عبد الرحيم أبو نكري	شعر	٧	٢٠٠٣
١٠	الماركسية ومساءلة اللغة في السودان	د. عبد الله علي إبراهيم	دراسة	٧	٢٠٠٣
١١	أقاصي شائسة الإصغاء	الصادق الرضي	شعر	١٠	٢٠٠٣
١٢	حوار حول النزاعات المادية	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٨	٢٠٠٣
١٣	تاريخ التور الاجتماعي	تاج السر عثمان الحاج	تاريخ	٨	٢٠٠٢
١٤	الماركسية والثقافة	فرستى ت: فجنيد علي عمر	دراسة	٥	٢٠٠٣
١٥	تداعيات - الجزء الثاني	يحيى فضل الله	مقالات	١٠	٢٠٠٢
١٦	علاقات الأرض في السودان	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٨	٢٠٠٤
١٧	آراء وأفكار حول فلسفة الأخوان المسلمين	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٢
١٨	الإرهاق الخلاق	د. عبد الله علي إبراهيم	مقالات	٥	٢٠٠١
١٩	أوراق للذاكرة	عبد الله مبرغني المبري	دراسة عن المسرح	٨	٢٠٠٢
٢٠	أوراق شوق الخرطوم	عالم عباس	شعر	٦	٢٠٠١
٢١	عشائر الأقات الحشرية	د. تاج السر بشير	علم النبات	٢٥	٢٠٠٢
٢٢	بصلاح فخطأ في العمل بين الجماهير	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٤
٢٣	مبادئ وموجهات	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٨	٢٠٠٤
٢٤	قصص سودانية	عبد الماجد عليش	مجموعة قصص	٥	٢٠٠٣

٢٥	غواً سانتى لا تغلقوا الزجاجاة	عثمان عبد الله	مجموعة قصص	٨	٢٠٠٢
٢٦	منطقة مروي المظهر والجوهر	فاطمة أحمد علي	دراسة	٣٥	٢٠٠٥
٢٧	أزرق اليمامة	بشرى الفاضل	قصص قصيرة	٨	٢٠٠١
٢٨	حكاية البنت التي طارت عصافيرها	بشرى الفاضل	رواية	٨	٢٠٠١
٢٩	رسالة من جكا	محمد يعقوب	قص قصص	٧	٢٠٠٢
٣٠	الأطفال والعساكر	محجوب شريف	شعر	٧	٢٠٠١
٣١	مقالات و خواطر	حسن كفاح	مقالات	١٠	٢٠٠٢
٣٢	مبادئ فيزياء الجوامد	د. أحمد خوجلي	علوم	٢٠	٢٠٠٢
٣٣	قضايا الديمقراطية	محمد إبراهيم نقد	دراسة	١٠	٢٠٠٢
٣٤	روائع حقيبة أمدرمان	محمد حسن علي (الحقر)	دراسة	٢٠	٢٠٠٦
٣٥	مازق السلطة الرابعة	د. فتح الرحمن محبوب	إعلام	١٥	٢٠٠٣
٣٦	للخندق	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٥	٢٠٠٣
٣٧	أصل الفونج	ترجمة: عثمان أحمد عبد الرحيم	دراسة	١٠	٢٠٠٣
٣٨	حوار حول الدولة المدنية	محمد إبراهيم نقد	سياسة	٨	٢٠٠٣
٣٩	تقنيات مكافحة الأقات بالمبيدات	محمد المصطفى حسن	علوم	٥	
٤٠	قوارض السودان والشرق الأوسط	محمد المصطفى حسن	علوم	٨	٢٠٠٣
٤١	حورية مريس	عبد الباسط آدم مريود	مجموعة قصصية	٧	٢٠٠٣
٤٢	أساسيات علم المحاصيل	أ.د. يس إبراهيم نقاش	علوم	٢٠	٢٠٠٣
٤٣	فيض الذاكرة	الطيب محمد الطيب - عبد الله علي إبراهيم - صلاح عمر الصديق	أحدث في الأنثى والثقافة	١٥	٢٠٠٥
٤٤	الأمثال السودانية	صلاح عمر الصانق	دراسة	٢٠	٢٠٠٣
٤٥	أنشطة الشيطان	خليل عبد الله الحاج	مجموعة قصصية	١٠	٢٠٠٣
٤٦	متقدمة في الاتصال الجماهيري	د. محمود محمد قلندر	إعلام	١٠	٢٠٠٣
٤٧	الدعاية والترح في الشعر السوداني	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٠	٢٠٠٣
٤٨	من رواد أدب الفكاهة في السودان	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٠	٢٠٠٣
٤٩	مأ لكشف مخاطر المخدرات والمؤثرات العقلية	فريق شرطة كمال عمر بلكر	دراسة	٣٥	٢٠٠٣
٥٠	داه السكر وأثاره الجلدية والجنسية	د. عادل حامد حسن	دراسة	٧	٢٠٠٣
٥١	للكاهة في الشعر السوداني	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٠	٢٠٠٣

٥٢	هوامش من سيرة حماد نوبي	محمد خلف الله سليمان	مجموعة قصصية	٧٠٠	٢٠٠٣
٥٣	مساهمة في حل أزمة العقل العربي للمسلم	طه إبراهيم	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
٥٤	الضفة الأخرى	أبكر آدم إسماعيل	رواية	١٥	٢٠٠٢
٥٥	خنماوات السودان	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	٨	٢٠٠٤
٥٦	درب المحبة	محمد علي أبو قطاطي	شعر	٦	٢٠٠٢
٥٧	بربرية والمجنوب	فاطمة محمد عمر عتباتي	مجموعة قصصية	٦	٢٠٠٣
٥٨	المسئولية التفسيرية عن فعل الغير في الفقه الإسلامي للمقارن	أ. د سيد أمين	دين	٢٠	٢٠٠٤
٥٩	الأدب في عصر العلم	ج. نقي ترجمة عبد الفتاح محبوب	أدب	١٥	٢٠٠٢
٦٠	الشيوعيون السودانيون والديمقراطية	كمال الجزولي	دراسة	٨	٢٠٠٣
٦١	رجال مجنون	د. ثرثرف مبارك محمد صقح	قصص	٦	٢٠٠٣
٦٢	مارتجلو	أحمد محمد ضحية	روية	١٠	
٦٣	العلمانية والإسلام	د. كامل إبراهيم حسن	سياسة	١٠	٢٠٠٢
٦٤	حول البرنامج	عبد الخالق محبوب	سياسة	٧	٢٠٠٢
٦٥	حسن روكسي	عبد الماجد عليش	قصص	٥	٢٠٠٢
٦٦	الاقتصاد القياسي	د. بسام بونس إبراهيم - د. لمار أمين حامي - أ. عادل موسى بونس	اقتصاد	٢٥	٢٠٠٣
٦٧	قانون التأمين المقارن	أ. د سيد أمين	قانون	٦	٢٠٠٢
٦٨	قضايا ما بعد المؤتمر	عبد الخالق محبوب	سياسة	٧	٢٠٠٥
٦٩	حكاوي بربندي مأمور شندي	كامل إبراهيم حسن	مقالات	١٠	٢٠٠٥
٧٠	مناقشات حول الديمقراطية والوحدة الوطنية في السودان	محمد علي جادين	سياسة	١٠	٢٠٠٢
٧١	دعوة للفلسف	محمد عثمان مكي	فلسفة	٨	٢٠٠٢
٧٢	خلاصة الميراث	أ.د سيد أمين	قانون	٨	٢٠٠٢
٧٣	المبادئ الأساسية للقانون المقارن	أ.د سيد أمين	قانون	١٠	٢٠٠٢
٧٤	النوبة عن الغير في عقد الزواج	أ.د سيد أمين	قانون	١٠	٢٠٠٢
٧٥	نبض خاطر	صلاح يوسف	مقالات	١٥	٢٠٠١
٧٦	أيام في مملكة بلقيس	محمد محي الدين عبده	مقالات	٧	٢٠٠٤
٧٨	أمثال الشايقية	محبوب كرار	دراسة	١٠	٢٠٠٥
٧٧	صحو للكلمات المنسية	النور عثمان أبكر	شعر	٧٠٠	٢٠٠٣
٧٨	كادقلي ومسيرة السلام	سيد ركن (د) محمد طيب نضل	دراسة	١٥	٢٠٠٤

٧٩	المعاملات الشرعية	أ.د. سيد أمين	قانون	١٠	٢٠٠٢
٨٠	إسماعيل حسن القيثارة الخالدة	عبد الحميد محمد أحمد	قانون	١٠	٢٠٠٣
٨١	تاريخ السودان من منظور فرنسي	بروفسير محمد علي مختار	تاريخ	٦	٢٠٠٥
٨٢	حكواتي نبتة	عبد العظيم حمدنا الله	مصرح	٦	٢٠٠٣
٨٣	النبات الاقتصادي	أ. د. يسن محمد إبراهيم	علوم	١٥	٢٠٠٣
٨٤	أمرأة من حليب اللبلاب	مبارك الصادق	رواية	٦	٢٠٠٤
٨٥	الجامع المصبوك بين الساسة والديوك	د. كامل إبراهيم حسن	مقالات	١٠	٢٠٠٣
٨٦	الفكر وتطوره عند المسلمين	بروفسير محمد علي مختار	تاريخ	٥	٢٠٠٣
٨٧	علاقات ترقى في المجتمع السوداني	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٢٠	٢٠٠٣
٨٨	أختبئ لأبحث عنك	عيسى الحلو	مجموعة قصصية	١٠	٢٠٠٣
٨٩	التي بعد البرجل	أمير شمعون	شعر	٦	٢٠٠٤
٩٠	مجموعة نورا	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٣
٩١	تفاصيل ما حدث	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٣
٩٢	اقتصاديات النقل في السودان	د. عبد الرحيم أحمد إبراهيم	اقتصاد	١٥	٢٠٠٤
٩٣	الإبداع في الشعر الشعبي السوداني	د. فرح عيسى محمد	دراسة	١٥	٢٠٠٣
٩٤	حكاية الإنسان والبلدة	مبارك عبد الرحيم صباحي	رواية	٧	٢٠٠٥
٩٥	أستاذ الأجيال - عبد فرحمن علي طه	د. فدوى عبد الرحمن	سيرة	٢٥	٢٠٠٤
٩٦	التأويل الصوفي للحدائق في الإسلام	د. بكري خليل	دراسة	١٥	٢٠٠٤
٩٧	أصول الأدب السوداني الحديث	د. مختار عجوبة	دراسة	٨	٢٠٠٤
٩٨	رجل شفاف	أحمد فضل	مجموعة قصصية	٧	٢٠٠٣
٩٩	جنوب السودان	ليبيل الير	سياسة	٢٥	٢٠٠٥
١٠٠	الاندائية	الطيب محمد الطيب	دراسة	١٥	٢٠٠٤
١٠١	أيام صفانا	محمد بشير عتيق	شعر	١٥	٢٠٠٤
١٠٢	نحو مشروع مستقبلي للإسلام	محمود محمد طه	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
١٠٣	ممارسة السياسة وغياب الوعي الأمني	حسن بيومي	دراسة	٢٥	٢٠٠٣
١٠٤	وضاحة	أزهري محمد علي	شعر	٧	٢٠٠٣
١٠٥	تاريخ الثورة الاقتصادي الاجتماعي	تاج السر عثمان	دراسة	١٠	٢٠٠٣
١٠٦	كلكم	عصام الدين بشير	دراسة	١٥	٢٠٠٤
١٠٧	علم الاجتماع السياسي	د. عمر يوسف الطيب	اجتماع	٢٠	٢٠٠٤
١٠٨	الديمقراطية والهوية	عبد العزيز حسين الصاوي	سياسة	٨	٢٠٠٥

١٠٩	وطن تاجوج وعزة	عبدالله النجيب	شعر	٦	٢٠٠٤
١١٠	مملكة الجعلين الكبرى	جعفر حامد البشير	دراسة	١٥	٢٠٠٥
١١١	انتظري	هائم صديق	شعر	١٠	٢٠٠٤
١١٢	أوراق سودانية	شوقي ملاسى	سياسة	١٠	٢٠٠٤
١١٣	أدب الزنوجة	محمود موسى تاور	أدب	٨	٢٠٠٤
١١٤	تطورات العقد الاجتماعي في السودان	عبد الرحمن قسم السيد	دراسة	٢٠	٢٠٠٤
١١٥	هذه هي الحقيقة	د. يوسف عبدالله	دراسة	٢٠	٢٠٠٤
١١٦	قانون الاجراءات المدنية	بروفير محمد الشيخ عمر	قانون	١٥	٢٠٠٦
١١٧	شرح القانون الجنائي السوداني	بروفير يس عمر يوسف	قانون	٢٠	٢٠٠٦
١١٨	ذهب مروي	صلاح عمر الصادق	أثار	١٥	٢٠٠٥
١١٩	المجموعة الشعرية الكاملة	جعفر حامد البشير	شعر	٢٠	٢٠٠٦
١٢٠	أزمة الشاعر الثلاث	عبدالله شايو	شعر	١٠	٢٠٠٥
١٢١	البحر القديم	مصطفى سند	شعر	٧	٢٠٠٥
١٢٢	أفريقيا لنا	محي الدين فارس	شعر	٧	٢٠٠٥
١٢٣	كادان والجدول الرابع	المكاشفي محمد بخيت	دراسة	٧	٢٠٠٥
١٢٤	أفاق جديدة	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٥
١٢٥	اضاءات على جسد الموت	جون اورليواوكج	مجموعة قصصية	٧	٢٠٠٥
١٢٧	زهور ذابلة	استيلا قابانانو	مجموعة قصصية	٧	٢٠٠٥
١٢٨	أدب الصيد القلص في السودان	محمد حسن الجقر	أدب	١٥	٢٠٠٥
١٢٩	رجع الصدى	أبو بكر وزيري	إعلام	٨	٢٠٠٦
١٣٠	القضية الاجتماعية وشمع المنى في السودان	د. عبد الرحيم أحمد بلال	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
١٣١	الشايقية	اخلاص محمد عثمان	دراسة	١٥	٢٠٠٥
١٣٢	قبائل دارفور	سبيل آدم يعقوب	دراسة	١٥	٢٠٠٦
١٣٣	الضريبة على القيمة المضافة	د. حسن بشير محمد نور	اقتصاد	١٢	٢٠٠٥
١٣٤	أم درمان حقيبة الفن لماذا	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	١٥	٢٠٠٥
١٣٥	التصوير البيئي للميعاد	د. بحر الدين عوض	دراسة	١٥	٢٠٠٥
١٣٦	الإنسان واللسان السوداني	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	١٥	٢٠٠٥
١٣٧	فقه الإثبات	د. صديق عبد الباقي	قانون	٢٥	٢٠٠٥
١٣٨	تحليل الوعي	متوكل علي محمدين	علم نفس	١٠	٢٠٠٥
١٣٩	تاريخ الفلسفة	محمد عثمان مكي	فلسفة	١٠٠	٢٠٠٦

١٤٠	يوميات الحركة الإسلامية	عبد الماجد عليش	سياسة	٢٥	٢٠٠٥
١٤١	المسيد	الطيب محمد الطيب	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
١٤٢	ملاحم من المجتمع السوداني	حسن نجيلة	تاريخ	٣٠	٢٠٠٧
١٤٣	ذكرياتي في البادية	حسن نجيلة	مذكرات	١٥	٢٠٠٥
١٤٥	الإدارة الهندسية	د. الأمين عبد الجليل	هندسة	١٠	٢٠٠٥
١٤٦	الأمير عثمان جانو	إخلاص محمد علي حمد	تاريخ	٢٠	٢٠٠٥
١٤٧	سلطنة دارفور	للنور عثمان ليكر	تاريخ	١٥	٢٠٠٦
١٤٨	المخدوعة	أحمد محمد الحسن عثمان	شعر	٧	٢٠٠٤
١٤٩	أروى زنة الفرح المهاجر	بابكر عوض الكريم	شعر	١٠	٢٠٠٤
١٥٠	مصابيح السماء الثامن وطشيش	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٤
١٥١	المجموعة الشعرية الأولى	محمد حسن سالم حميد	شعر	٢٥	٢٠٠٤
١٥٢	لم يبق إلا الاعتراف	عمر عبد الماجد	شعر	٦	٢٠٠٥
١٥٣	المجموعة الشعرية الكاملة ج ٢	المنز عمر بخيت	شعر	١٥	٢٠٠٣
١٥٤	رجعنا مع الباربات إلى خط الامتواء	مصطفى سند	شعر	٧	٢٠٠٥
١٥٦	الفيلسوف وقصص أخرى	محمد عبد الهادي	قصص	٧	٢٠٠٥
١٥٧	رحيل النوار خلسة	د. محمد عثمان الجعلي	مقالات	١٥	٢٠٠٣
١٥٨	ديوان الشيخ حياتي	الطيب حياتي	مديح	٢٥	٢٠٠٤
١٥٩	امرأة من كمبو كيبس	عبد العزيز بركة ساكن	قصص	٧	٢٠٠٥
١٦٠	اللغويات لتصحيح اللغة	جعفر حامد البشير	أدب	١٠	٢٠٠٥
١٦١	القهوة في السودان	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	٨	٢٠٠٥
١٦٢	أدبيات الشاي في السودان	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	٧	٢٠٠٥
١٦٣	ذكريات الصراحة	جعفر حامد البشير	مذكرات	٥	٢٠٠٥
١٦٤	دوباي ود كاهل	الطيب عبد الله	أدب	٧	٢٠٠٥
١٦٥	السودان في القرية والمدينة	جعفر حامد البشير	أدب	١٠	٢٠٠٥
١٦٦	الحج	علاء الدين محمد بابكر	دين	٨	٢٠٠٥
١٦٧	قضايا الفلسفة الاجتماعية	عبد المتعال زين العابدين	فلسفة	٢٠	٢٠٠٥
١٦٨	الاقتصاد الجزئي	عبد الله الشريف الغول	اقتصاد	١٥	٢٠٠٥
١٦٩	أساليب التقييم الاقتصادي	حسن بشير محمد نور	اقتصاد	١٠	٢٠٠٥
١٧٠	قضايا التنمية المستدامة	د. شريف الدشوني	اقتصاد	١٥	٢٠٠٥
١٧١	Transportation in Sudan	D. A. A. rhaim. A	اقتصاد	١٥	٢٠٠٥
١٧٢	جنسية المرأة المتزوجة	الطيب عبد الجليل	قانون	٢٠	٢٠٠٥

١٧٣	الحضارات السودانية	صلاح عمر الصادق	أثار	١٠	٢٠٠٥
١٧٤	الديمقراطية والتربية في السودان	محمد علي حمد	تربية	٢٥	٢٠٠٥
١٧٥	متغيرات العصر	محمد إبراهيم نقد	سياسة	٧	٢٠٠٥
١٧٦	الصراع السياسي فتقلى في قعرن الأفريقي	د. موسى محمد عمر	سياسة	٢٠	٢٠٠٦
١٧٧	المراعى والملف	محمد إبراهيم نقش	زراعة	٢٠	٢٠٠٥
١٧٨	إنتاج للمحاصيل	محمد إبراهيم نقش	زراعة	٢٠	٢٠٠٥
١٧٩	حجر الدفش	محمد حسن سالم حميد	شعر	٦	٢٠٠٥
١٨٠	الرجعة للبيت القديم	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٣
١٨١	يوميات سودانية	نصر الدين شلقامي	مذكرات	٨	٢٠٠٥
١٨٢	للمدارس الاشتراكية في أفريقيا	عبد الخالق محجوب	سياسة	٨	٢٠٠٦
١٨٣	مؤتمر البجا	محمد اوهاج اندوب	سياسة	١٥	٢٠٠٦
١٨٤	جغرافيا الموعد	د. بحر الدين عوض	دراسة	١٠	٢٠٠٥
١٨٥	الحرب الأهلية وفرص السلام	إبراهيم علي إبراهيم	دراسة	٢٠	٢٠٠٢
١٨٦	نظريات اجتماعية معاصرة	عمر عبد الجبار محمد أحمد	اجتماع	١٠	٢٠٠٢
١٨٧	للرأة الأفريقية	د. فاطمة بابكر	دراسة	٢٥	٢٠٠٦
١٨٨	حرب الموارد	د. محمد سليمان	دراسة	٢٥	٢٠٠٧
١٨٩	برشت قصائد من الألمانية	د. محمد سليمان	شعر مترجم	١٠	٢٠٠٤
١٩٠	علاقات السودان الخارجية	عبد الحميد محمد أحمد	سياسة	٥	٢٠٠٦
١٩١	دراسات سودانية في الآثار والفلكلور والتاريخ	صلاح عمر الصادق	آثار	١٥	٢٠٠٦
١٩٢	دراسات في الفلكلور السوداني	د. نصر الدين سليمان	فلكلور	١٥	٢٠٠٦
١٩٣	اقتصاد الإنقاذ	محمد عبده كيم	اقتصاد	١٠	٢٠٠٦
١٩٤	الموية عطشانة	محجوب الحاج	شعر	٨	٢٠٠٦
١٩٥	أنا عطبرة	الحاج عبدالرحمن أحمد	شعر	٧	٢٠٠٦
١٩٦	الجناية فيما دون النفس	د. صالح أحمد التوم	قانون	٢٠	٢٠٠٦
١٩٧	الجرائم المعاقب عليها بالقتل	د. صالح أحمد التوم	قانون	٢٥	٢٠٠٦
١٩٨	قباب شرق السودان	صلاح عمر الصادق	آثار	٢٠	٢٠٠٦
١٩٩	أضواء على الملكية الفكرية	محمد عزت بابكر	دراسة	٥	٢٠٠٦
٢٠٠	Excesses in human Right	إيبل الير	قانون	١٥	٢٠٠٧
٢٠١	الأديب السوداني أحمد المبرك عيسى	د. عبد الحميد محمد حسن	أدب	١٥	٢٠٠٧
٢٠٢	للقاموس الاقتصادي	د. علي محمد سليمان	اقتصاد	٢٠	٢٠٠٧

٢٠٣	تاريخ عمل السكة حديد والمركبة القابلية في السودان	علي محمد بشير	تاريخ	١٥	٢٠٠٧
٢٠٤	أفات المخازن الحشرية	د. تاج السر بشير	زراعة	١٠	٢٠٠٧
٢٠٥	يوميات من الواحة	محمد سيد أحمد عتيق	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢٠٦	عطر نسائي	عماد بركة	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٠٧	الخريف يأتي مع صفاء	أحمد الملك	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٠٨	نورا ذات الضفائر	أحمد الملك	قصص	١٥	٢٠٠٧
٢٠٩	الفكاهة ليست عبثاً	الصادق المهدي	أدب	٢٠	٢٠٠٧
٢١٠	متى يأتي الخريف للجزيرة	د. كامل إبراهيم حسن	رواية	١٠	٢٠٠٧
٢١١	حول منهج عقلاني لفهم التراث	د. كامل إبراهيم حسن	دراسة	١٠	٢٠٠٧
٢١٢	ملاحم من الوجه القديم	مصطفى سند	شعر	٨	٢٠٠٧
٢١٣	أنها بردة الجمال	مصطفى سند	شعر	٨	٢٠٠٧
٢١٤	أمة كلها يداع	محجوب حسن	أدب	١٠	٢٠٠٧
٢١٥	ساري الليل (جراد الشجر)	محمد مصطفى حسن	زراعة	٨	٢٠٠٧
٢١٦	أولاد الترابي (الانكار والتكر)	عبدالمجيد عتيق	سياسة	٢٠	٢٠٠٧
٢١٧	إدارة الوقت في السودان	شاكر شريف	زراعة	١٥	٢٠٠٧
٢١٨	الطنبور وأغاني الشايقية	إخلاص محمد الحسن	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢١٩	تطور المرأة السودانية وخصوصيتها	تاج السر عثمان	إدارة	١٠	٢٠٠٧
٢٢٠	تشريح العقل العرقي	د. منتصر الطيب	أدب	١٠	٢٠٠٧
٢٢١	ترانيم الحصار	عمر عبدالله محمد	دراسة	٨	٢٠٠٧
٢٢٢	التراث السياسي الممتد	د. عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	٨	٢٠٠٧
٢٢٣	قصة كفاح ونجاح (مذكرات شرطي)	أبو حميد حسن إبراهيم	مذكرات	١٥	٢٠٠٧
٢٢٤	تاريخ وجغرافية السودان	نعوم شقير	تاريخ	١٠٠	٢٠٠٧
٢٢٥	اقتصاديات النقل النهري	د. محمد عثمان خضر	اقتصاد	١٥	٢٠٠٧
٢٢٦	المرشد إلى المنظمات الدولية	أحمد الصافي	إدارة	٥٠	٢٠٠٧
٢٢٧	صراع السلطة والثروة في السودان	فرعم النافع عثمان - محمد علي جادين	اقتصاد	١٥	٢٠٠٧
٢٢٨	Traditional in Sudanese Medicine	أحمد الصافي	طب	٦٠	٢٠٠٧
٢٢٩	مشاركات إيجار السفن	محمد حميد الرسول	قانون	٢٠	٢٠٠٧
٢٣٠	تصبحين على وطن	د. طارق مطيع	رواية	٧	٢٠٠٧
٢٣١	صولجان من خشب	سارة شرف الدين محمد	رواية	٧	٢٠٠٧
٢٣٢	القرين وقصص أخرى	أسامة عبدالحفيظ محمد	مجموعة قصصية	٨	٢٠٠٧

٢٣٣	استنباط آيات القرآن الكريم (يحيى الموتى	م. علاء الدين محمد بابكر	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٤	فرنرب في بلاد موديبا قطباعات عن جنوب لفرقيا	د. كامل ابراهيم حسن	مقالات	١٥	٢٠٠٧
٢٣٥	في سبيل تحسين العمل القيادي	عبد الخالق محجوب	سياسة	٨	٢٠٠٧
٢٣٦	المترجمة	ليلى أبو العلا	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٣٧	الفكر الإسلامي وقضية المرأة	د. عمر القراري	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٨	غلام الله بن عابد وأثاره في السودان	د. سمير محمد عبيد نقد	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٩	أذان الأنعام	د. عماد محمد بابكر م. علاء الدين محمد بابكر	دراسة	٢٠	٢٠٠٧
٢٤٠	الحركة النقابية	من الله عبد الوهاب	دراسة	٢٠	٢٠٠٧
٢٤١	الصانق المهدي والانكفائية ودعاوى التجديد	د. عمر القراري	سياسة	١٥	٢٠٠٧
٢٤٢	العمارة في السودان	الجمعية الهندسية	هندسة	٢٥	٢٠٠٧
٢٤٣	صباحات زاهي مساء الجنرالات	محمد الفكي سليمان	رواية	١	٢٠٠٧
٢٤٤	السيف وللنار	سلاطين باشا	تاريخ	٥٠	٢٠٠٨
٢٤٥	الأم	مكسيم جوركي	رواية	١٥	٢٠٠٨
٢٤٦	تحفة العروس			١٥	٢٠٠٨
٢٤٧	السرة بت عوض الكريم	محمد حسن سالم حميد	شعر	٧	٢٠٠٧
٢٤٨	انجيلا تمثل للصمت	عبدالله الزين	نص	٨	٢٠٠٧
٢٤٩	سقراط	د. موسى عبدالله حامد	دراسة	١٠	
٢٥٠	استقلال السودان	د. موسى عبدالله حامد	سياسة	٤٠	٢٠٠٧
٢٥١	مغيب للشمس	د. موسى عبدالله حامد	رواية	١٠	٢٠٠٧
٢٥٢	بعض هذا القرنفل	نور الدين الصادق	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٥٣	الإسلام والسلام	خالد الحاج عبدالمحمود	سياسة	٣٠	٢٠٠٧
٢٥٤	صدى السنين - أيام الجامعة	د. موسى عبدالله حامد	مذكرات	٣٠	٢٠٠٧
٢٥٥	الثروة الحيوانية في السودان	محمد سليمان محمد	اقتصاد	٢٠	٢٠٠٧
٢٥٦	لتسعم للذئبي	محمد المصطفى حسن	علوم	١٠	٢٠٠٧
٢٥٧	ليس منكم رجل رشيد	محمد المصطفى حسن	مقالات	١٠	٢٠٠٧
٢٥٨	المقاييس المنطقية للأخلاق	متوكل محمددين	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٥٩	وجهة الضبط ومفهوم للذات علاقتها بالإكتئاب لدى المسن المعاشي	د. مي عز الدين عثمان	علم نفس	١٥	٢٠٠٧
٢٦٠	عصافير بلا أجنحة	هينم مامان	شعر	١٠	٢٠٠٧
٢٦١	بعض أحاديث ما دلو	مجاهد بابكر	شعر	٨	٢٠٠٧

٢٠٠٧	١٠	شعر	عبد الرحيم عبدالحليم	من ذاكرة الريح	٢٦٢
٢٠٠٧	٢٠	أحياء	د. محبوب حسن عبدالله	أساسيات علم الفطريات	٢٦٣
٢٠٠٧	١٥	كيمياء	آدم إسماعيل	الديوكسين أكريل للبلستيك	٢٦٤
٢٠٠٧	١٠	تربية	د. عبد الرحيم محمد بابكر	قم للمعلم	٢٦٥
٢٠٠٧	١٥	كيمياء	آدم إسماعيل	أساسيات ومبادئ حفظ الأغذية	٢٦٦
٢٠٠٧	١٠	شعر	عبد الإله زمرلوي	صهوة العمر الشقي	٢٦٧
٢٠٠٧	٦	دراسة	د. جعفر محمد صالح	من أجل مشروع قومي لمناهضة التتخيب	٢٦٨
٢٠٠٧	٢٥	دراسة	د. عبدالقادر الرفاعي	علي فضل شهيداً	٢٦٩
٢٠٠٧	٢٥	دراسة	سيد مقيم بورنت - سيد عبدالمعز محمد	أسرار جهاز الأسرار	٢٧٠
٢٠٠٧	١٢	رواية	عبد الرحمن فضل	أعاصير استوائية	٢٧١
٢٠٠٧	١٠	دراسة	د. عبد الرحيم محمد بابكر	بناء أمة	٢٧٢
٢٠٠٧	١٠	سياسة	تاج السر عثمان	تقويم نقدي لتجربة الحزب الشيوعي	٢٧٣
٢٠٠٧	٨	سياسة	صنفي كبلو	موسم الهجرة إلى اليمن	٢٧٤
٢٠٠٧	١٠	سياسة	صنفي كبلو	حول النخبة والطبقة الجهورية	٢٧٥
٢٠٠٧	١٠	سياسة	صنفي كبلو	حول نظرية الثورة السودانية	٢٧٦
٢٠٠٧	١٠	سياسة	صنفي كبلو	السياسة الاقتصادية للنولة والثورة المهدية	٢٧٧
٢٠٠٧	١٥	سياسة	الحزب الشيوعي السوداني	للماركسية وقضايا الثورة السودانية	٢٧٨
٢٠٠٧	١٥	دراسة	مفتار عجوبة	المرأة السودانية نظمات الماضي وشرافاته	٢٧٩
٢٠٠٧	٦	اقتصاد	د. محمود محمد يسر	الرسمالية	٢٨٠
٢٠٠٧	١٠	مجموعة قصصية	د. بابكر علي ديومة	ضربة للبدلية	٢٨١
٢٠٠٧	١٥	دراسة	عثمان حمد الله	دليل الأنساب	٢٨٢
٢٠٠٧	٢٠	أثار	صلاح عمر الصادق	قباب للشرق	٢٨٣
٢٠٠٧	١٠	مذكرات	د. كامل إبراهيم حسن	خواطر وتكريات عن أهل الفن بشمبات	٢٨٤
٢٠٠٧	١٠	مذكرات	د. كامل إبراهيم حسن	للشخصيات	٢٨٥
٢٠٠٧	٨	سياسة	د. صنفي كبلو	كيلا تخطط الأوراق من يقود للرسمالية	٢٨٦
٢٠٠٨	١٠	رواية	امير عوض إبراهيم عثمان	ورود للشقاء	٢٨٧
٢٠٠٨	١٠	رواية	صلاح الفكي	أحزان لها تاريخ	٢٨٨
٢٠٠٨	١٥	دراسة	GABRIEL GAI RIAM	CHRISTIAN - MUSLIM RELATIONS IN SUDAN: A STUDY OF THE RELATIONSHIP BETWEEN CHURCH AND STATE	٢٨٩
٢٠٠٨	١٠	تاريخ	سميرة الموض حامد جبر الدار	تاريخ سلطنة المسبعات	٢٩٠
٢٠٠٨	٦	سياسة	يوسف عبدالحاميد	أجزاء الريف	٢٩١

٢٩٢	دارفور حقيقة الثورة والإبادة	ذو النون التيجاني أحمد	سياسة	٢٠	٢٠٠٨
٢٩٣	الاتجاهات الفكرية للمرأة السودانية	فاطمة بابكر	سياسة	٢٠	٢٠٠٨
٢٩٤	أمم لثبات فترة الإقليم الأوسط ووسائل مكافئتها	محمد المصطفى حسن	زراعة	١٠	٢٠٠٨
٢٩٥	انجمننا مدينة لكل الناس	آدم يوسف	رواية	١٠	٢٠٠٨
٢٩٦	للقصص الحببية في أغاني الحقيبة	محمد الحسن علي (الجفر)	أدب	٣٠	٢٠٠٨
٢٩٧	اللغة المادية والاشتراكية	محمد يسر	سياسة	١٥	٢٠٠٨
٢٩٨	حسن أفندي	د. كامل إبراهيم	مقالات	١٠	٢٠٠٨
٢٩٩	دراسات في التصوف	د. نصر الدين سليمان	دين	١٥	٢٠٠٨
٣٠٠	رد الجميل	محبوب شريف	أدب		٢٠٠٨
٣٠١	للمهنية والسودان المصري	محمد المصطفى حسن	تاريخ	٤٠	٢٠٠٨
٣٠٢	للماضي المعاش في جبال النوبة	د. يوسف اسحق أحمد	اجتماع	٢٠	٢٠٠٨
٣٠٣	ضد ذكرتي	عبد المنعم الكتيابي	شعر	١٠	٢٠٠٨
٣٠٤	نظريات علم الاجتماع والنوع	د. الهام عبدالرحمن عثمان	اجتماع	١٥	٢٠٠٨
٣٠٥	العولمة واقتصاد السودان	د. عمران عباس يوسف	اقتصاد	٣٠	٢٠٠٨
٣٠٦	من كل نبع قطرة	آدم محمد أحمد عمر	أدب	١٥	٢٠٠٨
٣٠٧	الانصاف لمدح كامل الأوصاف	السوال خلف الله القرشي	شعر	١٠	٢٠٠٨
٣٠٨	للطبقة الجديدة - تحليل للنظام الشيوعي	ترجمة: د. موسى عبدالله حلمد	دراسة	٢٠	٢٠٠٩
٣٠٩	من مائتة إلى عبدالله الطبيب	هاشم مساوي	دراسة	١٠	٢٠٠٩
٣١٠	جبال النوبة الإثنية السياسية والحركة الفلاحية	عطا البطحاني	دراسة	٢٠	٢٠٠٩
٣١١	نظرات في المجتمع الإسلامي	عبدالله الطبيب	دراسة	١٠	٢٠٠٩
٣١٢	العزلة - الوحدة والانفصال	د. جون فاي نوت يوه	سياسة	٢٠	٢٠٠٩
٣١٣	ثورة في جبال الاستوائية	د. جون فاي نوت يوه	سياسة	٢٠	٢٠٠٩
٣١٤	أفاق وتحديات	د. جون فاي نوت يوه	سياسة	٢٠	٢٠٠٩
٣١٥	أشكالية للتنمية الاقتصادية	د. موسى صالح حريكة	اقتصاد	١٥	٢٠٠٩
٣١٦	الإدارة التعليمية مبادئ وتطبيقات عملية	د. موسى صالح حريكة	تربية	١٠	٢٠٠٩
٣١٧	لك الحب	مصطفى سند	شعر	١٠	٢٠٠٩
٣١٨	للفارس الأعزل	محمد الوائلي	شعر	١٠	٢٠٠٩
٣١٩	المدينة مجهولة الهوية	مها عبدالمنعم	م. قصصية	١٠	٢٠٠٩
٣٢٠	أوزان اللوبيت السوداني	محمد الوائلي	دراسة	١٠	٢٠٠٩
٣٢١	مع اللوبيت	سعد عبدالقادر العاقب	دراسة	٢٠	٢٠٠٩
٣٢٢	أم درمان تحتضر	د. محمد الوائلي	شعر	٨	٢٠٠٩

٢٠٠٩	١٠	شعر	هيثم مامان	موسم الحب	٣٢٣
٢٠٠٩	١٠	شعر	هيثم مامان	مذكرات عاشق	٣٢٤
٢٠٠٩	١٠	م. قصصية	هدى الجزائر	الجوافة	٣٢٥
٢٠٠٩	٢٠	لغة عربية	د. سلوى طيفور أحمد طيفور	الزمخشري وابن يعين	٣٢٦
٢٠٠٩	١٠	م. قصصية	عثمان شقر	ثلاثتهم ذماعة - جرباوات لندة خضرَاء برائحة نعيم	٣٢٧
٢٠٠٩	١٥	دراسة	بدر الدين يوسف السميث	ونكرم بأيام الله	٣٢٨
٢٠٠٩	١٥	٠	بدر الدين يوسف السميث	ما وراء الكلمات	٣٢٩
٢٠٠٩	١٥	٠	بدر الدين يوسف السميث	شذا زهرة الحياة	٣٣٠
٢٠٠٩	١٥	٠	بدر الدين يوسف السميث	علامات على طريق مطروق	٣٣١
٢٠٠٩	١٠	لبن	مزمّل سلمان غندور	وجوه في الزحام	٣٣٢
٢٠٠٩	١٠	لبن	مزمّل سلمان غندور	حكايات أم درمان الكريمة	٣٣٣
٢٠٠٩	١٠	رواية	مزمّل سلمان غندور	الحلم والقدر	٣٣٤
٢٠٠٩	١٠	لبن	مزمّل سلمان غندور	حكايات أم درمان القديمة	٣٣٥
٢٠٠٩	١٠	رواية	مزمّل سلمان غندور	أيام زمان	٣٣٦

